مذكرات

جيمس بيكر

سياسة الدبلوماسية

- الحرب الباردة
- أوربا كاملة وحرة
- الصين : خطوة كبيرة إلى الوراء
- الشرق الأوسط والخوض في المستنقع
- التحالفات وتداعي الامبراطورية
- الاتحاد السوفيتي، جورباتشوف والتفكير الجديد
- الكابوس الإنساني في البوسنة
- أفريقيا نهاية العزل العنصري
- من برلين إلى البلقان
- رؤية للشرق الأوسط ما بعد الحرب
- صدام يبقى في السلطة
- من الحرب الباردة إلى السلام الديمقراطي

ترجمة
مجدى شرشر

مكتبة مدبولى

مذكرات

جيمس بيكر

سياسة الدبلوماسية

الناشر

مكتبة مدبولى

العنوان: ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون: ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس: ٥٨٧٢٨٥٤

الكتاب: سياسة الدبلوماسية - مذكرات جيمس بيكر

الكاتب: جيمس بيكر

المترجم: مجدى شرشر

رقم الإيداع: ٤٧٥٢ / ٢٠٠١

الترقيم الدولى: 977 - 208 - 324 - 8

الطبعة الأولى: ١٩٩٩

الطبعة الثانية: ٢٠٠٢

عربية للطباعة والنشر

العنوان: ٧ و ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون: ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس: ٣٢٩١٤٩٧

مذكرات

جيمس بيكر

سياسة الدبلوماسية

ترجمة

مجدى شرشر

2002

مكتبة مدبولى

الفصـــل الأول

يوم وضعت الحرب الباردة أوزارها

عندمـا نلتقي معا فلا بد وأن يتمخض اللقاء عن نتائج. فلا يمكننا أن نلزم الصمت حيال مثل تلك الأحداث.

إدوارد شيفرنادزة
٣ آب أغسطس ١٩٩٠

sharif mahmoud

في التاسع والعشرين من كانون الثاني يناير ١٩٨١م، كنت أسير برفقة رونالد ريجان من البيت الأبيض عبر شارع ويست إكزكيوتيف إلي مبني أولد إكزكيوتيف عند إلتقاء شارعي بنسلفانيا وسيفينتينث.

لم يكن قد مضي علي تقلد الرئيس ريجان مهام منصبه سوي عشرة أيام، لكنه أغتنم الفرصة ليرسي معلماً واضحاً يلخص رأيه الراسخ في الاتحاد السوفيتي الذي كان ينظر إليه ريجان ومعظم الأمريكين بعين الارتياب علي نحو محق معظم حياتهم .

وقال ريجان: «لقد أعلن السوفيت صراحة وعلناً أن القاعدة الأخلاقية الوحيدة التي يعترفون بها هي تلك التي تساهم في دعم قضيتهم، مما يعني أنهم يمنحون أنفسهم الحق في عدم التورع عن ارتكاب أي جريمة والكذب والخداع في سبيل تحقيق غايتهم ... وعلي المرء أن يضع ذلك في اعتباره لدي التعامل معهم، حتي وإن اتخذ هذا التعامل صورة الانفراج».

كانت الكلمات جارحة وقاسية كحمام بارد، ولكنها صحيحة في دلالتها. فبعد نحو عقد من الزمان أي في ٣ آب أغسطس ١٩٩٠م وأنا الآن وزير للخارجية لا يسعني أن أتذكرمثل تلك الكلمات بأي إحساس بالسخرية. لقد كنت أقف في هذا اليوم جنباً إلي جنب مع وزير الخارجية السوفيتي إدوارد شيفرنادزة في صالة مطار فنوكوفو/٢ خارج موسكو وأنا أصغي إليه وهو يسهب في شرحه للصحفيين أسباب موافقة بلاده علي إجراء غير مسبوق بالانضمام إلي الولايات المتحدة في إدانة غزو العراق للكويت .

وقال شيفرنادزة: «دعني أبلغك بأنه كان قراراً صعباً بالنسبة لنا.. بسبب العلاقات طويلة الأمد التي كانت تربطنا بالعراق. ولكن بالرغم من كل هذا ... فقد اضطررنا إلي اتخاذ مثل تلك الإجراءات... لأن... هذا العدوان يتعارض مع التفكير السياسي الجديد. بل إنه يتعارض في الحقيقة مع المبادئ المتحضرة بين الدول».

وكانت تداعيات مفاجأة شيفرنادزة مذهلة. فقد مضي السوفيت في تفكيك إمبراطوريتهم في أوروبا الشرقية، وأذعن الكريملين لانهيار حكومة إريك هونيكر في ألمانيا

الشرقية، مما جعل من سقوط سور برلين أمراً حتمياً. ومع ذلك فقد شكلت ردود أفعال تتسم بالسلبيةعلي مد الأحداث الجارف.

والآن وللمرة الأولي فقد انضم الاتحاد السوفيتي إلي الولايات المتحدة الأمريكية بفعالية ضد واحد من أوثق حلفائه .

وقبل تسعة أيام – أي في ٢٥ تموز يوليو غادرت قاعدة أندروز الجوية بولاية ميريلاند في مستهل جولة تشمل آسيا والاتحاد السوفيتي تراودني ثقة ضعيفة بأنه لدى عودتي إلي بلدي فلن يكون هناك وجود للعالم الذي وعته مداركي طيلة سنوات الشباب. ومثلما اكتشف البريطانيون في مدينة يورك قبل قرنين فقد انقلب العالم رأساً علي عقب وبات العالم الجديد مفعماً بالأمل والفرص، وبالمخاطر والغموض أيضاً بالنسبة للدبلوماسية الامريكية .



ويشوب صدام حسين الكثير من نواحي القصور، ولحسن حظ أمريكا وبقية العالم المتحضر كان تبلد إحساسه بالزمن أحدها. إن طاغية أخر أكثر حصافة كان سيختار بالتأكيد موعداً أخر غير الثاني من آب أغسطس ١٩٩٠م للقيام بغزو جار لا حول له ولا قوة. فقد كان رئيس الولايات المتحدة يتأهب في هذا اليوم تحديداً للاجتماع مع رئيسة وزراء بريطانيا العظمي، ولم يكن يُعْرَف عن المرأة الحديدية أنها تقبل بأنصاف الحلول في لحظات التحدي. كما كان وزير الخارجية الامريكي في سيبيريا لإجراء محادثات مع نظيره السوفيتي. وفي غضون ذلك كان دبلوماسيون من البلدين يعكفون علي وضع اللمسات النهائية لمباحثات حول التخطيط السياسي كان مقرراً إجراؤها منذ فترة طويلة في موسكو .

إن مواجهة الطغاة ليس بالمهمة اليسيرة. لكن الخطأ التكتيكي القاتل في الحساب الذي ارتكبه صدام حسين جر مضاعفات هائلة. ووفر لنا هذا الخطأ نقطة انطلاق حاسمة في صياغة شكل مواجهتنا للأزمة.

وبدون هذه الميزة الثمينة ربما لم نظفر مطلقاً بالقدرة علي تعبئة الإرادة الدولية والمحلية لمواجهة هذا العدوان الصارخ. فلو كان صدام علي قدر من البراعة لانتظر ثلاثة أسابيع حتي يكون زعماء معظم الحكومات ومسئولوها قد تناثروا في أنحاء شتي في العالم لقضاء العطلات، فلو حدث ذلك لتغيرت مسيرة الأحداث .

وكما يعرف العالم فقد كانت كارثة لصدام ونصراً للدبلوماسية الأمريكية والعسكرية الأمريكية، وعلامة مضيئة في تاريخ جورج بوش. وتسببت أوهام جنون العظمة لدي صدام حسين في إزهاق أرواح عشرات الألاف من الجنود العراقيين مقابل نحو أربعمائة جندي أمريكي شجاع. كما أنها جرت معاناة مروعة لا لزوم لها علي مواطنيه وبؤساً لا يزالون يكابدونه حتي يومنا هذا .

ولكن في أحد الجوانب الحاسمة فإن العالم بأسره مدين لهذا المجنون. فغزوه الوحشي الكويت هيأ فرصة غير متوقعة لوضع نهاية مدوية لخمسين عاماً من صراع الحرب الباردة.

ومع ذلك كان هذا آخر ما يدور بخلدي وأنا أتوجه جواً من سنغافورة عبر هونج كونج يوم ٣١ تموز – يوليو للقاء إدوارد شيفرنادزة في مدينة أركوتسك السيبيرية التي يقطنها نحو خمسمائة ألف نسمة. واشتمل جدول أعمال اللقاء قضايا مثل الحد من التسلح النووي، وخفض القوات التقليدية في أوربا والصراعات الدائرة في أفغانستان وكمبوديا، والاستعدادات الخاصة بالقمة القادمة بين الرئيسين بوش وجورباتشوف .

ورتب شيفرنادزة لعقد هذا الاجتماع مجاملة لمباحثاته في أحضان جبال تيتونز الكبري في شهر أيلول – سبتمبر في ويومينج. وكنت أعتقد أن نقل المباحثات من البيئة البيروقراطية في واشنطن إلي الغرب الأمريكي بعظمته القوية قد يساهم في خلق روح جديدة من التعاون والصراحة والثقة المتبادلة بيننا وبين مساعدينا. وثبتت صحة ذلك، وتمثلت النتيجة في عدة انفراجات في قضايا الحد من التسلح النووي والأسلحة الكيماوية. وكان شيفرنادزة تواقاً للبناء علي روح جاكسون هول باستضافة مباحثات مماثلة في منطقة بحيرة بايكال الخلابة في سيبيريا. وكان من المقرر أن أتوجه لاحقاً إلي منغوليا لإجراء مباحثات لتشجيع الإصلاحات الحكومية الوليدة التي تبتعد عن سبعين عاماً من الحكم الشيوعي. وكنت لاأزال أعاني من

أثار أسوأ نزلة أنفلونزا معوية أصابتني في حياتي حين كنت أشارك في الاجتماع السنوي لمنتدى التعاون الاقتصادي لآسيا والباسفيك في سنغافورة .



في ذلك الحين كانت نزعة صدام القتالية البلاغية الجديدة تشكل مصدراً للقلق لا الانزعاج. واعتبر معظم مسئولي الحكومة الأمريكية أنها محاولة متعمدة من بلطجي لتخويف الكويت ودفعها للإذعان لتجنب العدوان بدفع الأموال والمساعدة في تسديد الديون الخارجية العراقية الباهظة. ويعتقد البعض أن صدام كان يسعي للحصول علي تنازلات في نزاعه الطويل علي الحدود مع الكويت، وهو النزاع الذي شمل أيضاً حقل الرميلة البترولي المربح. وأبلغنا أصدقاؤنا في المنطقة، وهم الرئيس المصري حسني مبارك والملك حسين ملك الأردن والملك فهد ملك السعودية. بل والإسرائيليون أيضاً أن صدام يناور في سبيل الحصول علي مميزات دبلوماسية، وأنه لا يعد العدة لشن الحرب. وقالوا جميعاً: خذوا الأمور ببساطة، ولا تقلقوا، إننا نعرفه فلن يقدم علي عمل جنوني .

وكان أسوأ السيناريوهات يفترض أنه قد يستولي علي حقل البترول المتنازع عليه في شمال الكويت، وما هو أكثر إثارة من ذلك فقد كان أمراً غير منطقي حتي بالنسبة لصدام .

ولدي وصولي إلي أركوتسك في الساعة ٧:٢٥ فجراً في الأول من آب أغسطس تجمعت لدي المخابرات الأمريكية نذر تبعث علي القلق تمثلت في تحرك ستة فرق من قواعدها لتتخذ مواقع لها بالقرب من الحدود مع الكويت. ودفعت التشكيلات الهجومية التي اتخذتها هذه القوات محللينا العسكريين إلي نتيجة حتمية وهي أن صدام مُقْدِمٌ علي شن هجوم .

وفي وقت لاحق من ذلك الصباح بدأت أنا وشيفرنادزة يوما كاملاً حافلاً بالأنشطة شملت عقد اجتماع لمدة ساعتين. وتلا الاجتماع مأدبة غداء ثم نزهة علي سفينة هيدروفيل في بحيرة بايكال أكبر مسطح للمياه العذبة في العالم، ويخترقها أكثر من مائة نهر، وتبدو أكبر من حجمها الطبيعي. وعقدنا اجتماعاً آخر في كوخ قديم جميل للصيد. قبل

لذا إنه بني خصيصاً بمناسبة زيارة الرئيس إيزنهاور التي ألغيت عقب انهيار مؤتمر قمة باريس عام ١٩٦٠م مع رئيس الوزراء السوفيتي حينذاك نيكيتا خروتشوف. ثم خرجنا في رحلة صيد لتسعين دقيقة في نهر أنجارا حيث لم يظفر شيفرنادزة وأنا إلا بصيد سمكة واحدة لكل منا، وعندما عدنا إلي الرصيف اعتلاه شيفرنادزة ثم انتزع سمكتي الأصغر بلطف قبيل التقاط الصور التذكارية. وعدنا إلي الكوخ لعقد اجتماع ثنائي آخر تجاوز مدته المقررة بساعتين ونصف، مما استدعي إعداد مأدبة عشاء حافلة من ثمانية أصناف في ظرف ساعة واحدة. وعلي مدار اجتماعات رسمية لأكثر من ثماني ساعات بحثنا موضوع العراق دون استفاضة، وفيما بدا الوضع محملاً بالكثير من التذرتوحدت موسكو وواشنطن وعواصم الشرق الأوسط في الإجتماع علي أن صدام لايزال يلعب لعبة التخويف .

ولم أعد إلي غرفتي بفندق أركوتسك إلا في منتصف الليل. وقبيل أن آوي إلي فراشي تلقيت مكالمة هاتفية من بوب كيميت وكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية المكلف بمتابعة الوضع في العراق في واشنطن. كان الوقت وقت الظهيرة بتوقيت واشنطن متأخراً ثلاث عشرة ساعة عن توقيت أركوتسك، وقال كيميت: إن الوضع يتدهور علي ما يبدو، وفي اجتماع لجنة النواب وهي فريق إدارة أزمة من مختلف الوكالات خلصت وكالة المخابرات الأمريكية إلي أن الخلاف يتحول ليتخذ صورة الغزو. وقال كيميت أيضاً: إن اللجنة أوصت بأن يتصل الرئيس بوش هاتفياً مباشرة بصدام حسين علي أمل تفادي وقوع هجوم عراقي. وكان الرئيس يدرس هذا الخيار مع معاونيه باستفاضة عندما تلقي نبأ الغزو العراقي.

وفي تمام الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباح اليوم التالي عاود كيميت الاتصال ليبلغني بتطور آخر. وتحدث كيميت باقتضاب عبر وصلة إتصال آمنة بالقمر الصناعي. ورغم الكشف الدوري لأجهزتنا الأمنية بحثاً عن أجهزة التنصت كنا نفترض دائماً أن هناك من يتنصت علي حديثنا أثناء جولاتنا الخارجية. وسأل كيميت: «هل تتذكر الموضوع الذي تحدثنا فيه من قبل»أجبت «نعم» حسناً إن رجال ديك كير يعتقدون الآن أن البلد الذي كنا نتحدث عنه بات علي وشك التحرك علي الأرجح (ديك كير هو نائب المخابرات المركزية الأمريكية» وقلت له: «المهم إنني عرفت ذلك وسوف أتوجه للقاء صديقي هناء .

وراودني الأمل في أن يكون تقييم الوكالة مفرط في توقعاته. ففي العمل المخابراتي يكون توقع الأسوأ ولو خطأ هو الأكثر أمناً من الناحية البيروقراطية من إساءة التصرف وإخطاء الهدف.

وكنت أريد أن أعرف ماذا لدي السوفيت، فهم يرتبطون بعلاقات وثيقة مع صدام، ولهم تقييم مخابراتي أفضل كثيراً في أرض الواقع. وبعد أكثر من ساعة لاحقاً، وفي مستهل اجتماعنا أبلغت شيفرنادزة بأن لدينا أدلة علي أن العراقيين يحشدون قواتهم علي الحدود وطلبت منه مراجعة الأمر مع مصادر المخابرات. وقلت له: «يبدو الأمر سيئاً. نأمل أن تستطيعوا وقفهم» كما أبلغته أيضاً بالقلق الذي تسببه لي التقارير القائلة بأن السوفيت يدرسون بيع العراق أسلحة جديدة. وأشرت «إلي أن هذا آخر شيء تحتاجه العراق أو المنطقة في الوقت الراهن».

ورفض تماماً فكرة أن يكون صدام يعد العدة للهجوم. وكرر عدة مرات أن الإقدام علي شيء من هذا القبيل سيكون عملاً أحمقاً من جانب صدام. «إنني لا استطيع أن أصدق ذلك. فماذا يحتمل أن يجني من ورائه «إنه هراء بالنسبة له». ولامني قائلاً: إلي جانب ذلك لو أن مثل هذا الحدث الخطير يحدث، لكان قد عرف به. لكنه كلف سيرجي تاراسينكو كبير مساعديه للشئون السياسية مراجعة المخابرات السوفيتية. وفي نهاية الاجتماع قدم تاراسينكو الرد «ليس لدينا تقارير تفيد بحدوث أي شيء» وبدا الارتياح علي شيفرنادزة وقال: «لا تقلق، لن يحدث شيء». ومع ذلك فقد علمت فيما بعد أنه زود وزارة الخارجية بتعليمات بالضغط علي العراقيين للتراجع لو ثبتت صحة الشائعات الأمريكية.

وفي التاسعة والنصف خرجنا للإدلاء بتصريحات مقتضبة عن مباحثاتنا وتلقي أسئلة الصحفيين. ولم يتم التطرق إلي الأزمة البادية في الأفق. وكان علينا أن نمضي ساعة أخرى سوياً بينما الصحافة تبث تقاريرها. ومع استئناف الاجتماع سلمتني مارجريت تاتويلر كبيرة المتحدثين باسم الخارجية الأمريكية مذكرة من صفحة واحدة جاء فيها: إن السفير الأمريكي لدي الكويت هاويل أبلغ مركز العمليات بأن القوات العراقية عبرت الحدود إلي الكويت واستولت علي بعض نقاط العبور الحدودية، ويبدو أنها تتحرك باتجاه مدينة أم قصر. وأشار إلي حدوث إطلاق نار.

، وأبلغ سفير الكويت لدي الولايات المتحدة كيلي مساعد وزير الخارجية الأمريكي بمعلومات مماثلة، وكانت نفس المعلومات لدي السفير ووصف العملية بأنها اختراق محدود، وقال لقد توغلوا لمسافة كيلومترين أو ثلاثة. ولم يطلب المساعدة الأمريكية في تلك اللحظة، وبادرت بالقول: «أيها السادة، لقد تلقي مركز الاتصالات بالخارجية الأمريكية تقريراً يشير إلي أن العراق عبر حدود الكويت». «ولا أدرى ما إذا كانت العملية احتلالاً جزئياً أم أنها تشمل الكويت كلها، ولا أدرى أيضاً ما إذا كانوا يعتزمون تجاوز الكويت، ولكن هذا تقرير مؤكد بأنهم قاموا بعملية غزو» .

وصعق شيفرنادزة وأربكه تعرضه لتضليل أجهزة مخابرات دولته، وانتابه الغضب من هول الفعلة ذاتها وكرر شيفرنادزة عدة مرات «إن هذا حماقة كبرى» وقال: «أعرف أنه سفاح، لكن لم يدر بخلدي مطلقاً أنه أحمق. فالأرجح أنه سيدخل الكويت ثم ما يلبث أن ينسحب» .

ومكنتني مكالمة كيميت من استثارة حمية شيفرنادزة الجورجية إلي أقصي درجة. فلو لم يُقَدَّر لي أن أبلغه بأنه من المحتمل حدوث غزو عراقي فربما لم يكلف نفسه عناء مراجعة الأمر مع نظامه. وعندما أكدوا له أنني لا أعي ما أتحدث عنه، سهلت علي ثورة الغضب التي انتابته نتيجة إحساسه بالارتباك من إقناعه باتخاذ ما كان يعتبر خطوة بالغة الصعوبة .

فلو أردت إثارة خصومة أحد مع عميل فلا بأس من أن تجعله يقع فريسة للكذب من جانب العميل أو من الدوائر المتعاطفة مع العرب المؤيدة للعميل في وزارة الخارجية السوفيتية. وصب غضب شيفرنادزة من تضليل صدام في مصلحة الدبلوماسية الأمريكية في كل مراحل الأزمة .

ومارست ضغوطاً علي شيفرنادزة لوقف شحنات الأسلحة إلي العراق ومشاركة الولايات المتحدة في إدانة الغزو والمطالبة بالانسحاب الفورى للقوات العراقية .

وراجع تارلسينكو موسكو، وأكد صحة معلوماتي. واتفق شيفرنادزة علي أن هناك حاجة لشكل ما من أشكال الرد القوى. لكنه قال إنه لا يستطيع تقديم أى ضمانات بهذا الشأن قبل التباحث مع جورباتشوف .

وأشرت قائلاً: «أعتقد أنه يتعين عليكم توجيه رسالة إلي صدام الآن، وبات من الواضح أنه لابد من اختصار زيارتي إلي أولان باتور. لكن المهم ألا تلغي كلية. ومنغوليا بلد صغير يقطنها مليونا نسمة متجانسون عرقياً، وتتمتع باقتصاد غير معقد، ولعقود خضع هذا البلد لهيمنة الجارين الشيوعيين العملاقين الصين والاتحاد السوفيتي، وأصبحت الآن دولة حديثة العهد بالاستقلال والديمقراطية. بل إنها أول دولة شيوعية في آسيا تلتزم بإجراء إصلاحات، فقبل عدة أيام فرغت منغوليا من إجراء أول انتخابات متعددة الأحزاب منذ سبعين عاماً سجلت نسبة إقبال الناخبين فيها ٩٠ في المائة. وتباطأ امتداد الثورة في أوربا الشرقية إلي الأورال لكن ديمقراطية منغوليا أمامها فرصة ذهبية للازدهار، وكنت أريد تقديم المؤازرة الأدبية من الولايات المتحدة لمساعيها في تقرير المصير.

ومن حماس الصدف أن رتب دينيس روس وبوب زوليك كبير مستشاري للشئون السياسية لعدم الانضمام إلي منغوليا والتوجه جواً مباشرة إلي موسكو لعقد اجتماعات التخطيط السياسي المشترك مع تارايسنكو. لقد كانت دفعة قوية، لكن روس وزوليك كانا قد أضمرا هدفاً خفياً، وهو أنه بتغيبهما عن زيارة منغوليا فسوف يعودان إلي أسرتيهما في الولايات المتحدة الأمريكية قبل عودتنا بيومين، وأعتقد أن التاريخ حافل بأمثلة عن القرارات المألوفة التي اتخذت فيما بعد أنها كانت حاسمة في مسيرة الأحداث الجسام. وسهل تغيبهما ما كنت أعتقد أنه شرط لازم للإدارة الناجحة لأزمة الخليج. حيث ساهم في إقامة تعاون فعال مع السوفيت ضد حليفهم صدام.

وصمم كل منهما مقعداً علي طائرة شيفرنادزة المتجهة إلي موسكو، وعلمت فيما بعد أنهما استمتعا بوليمة من الكافيار والجبن والخبز الأسمر. ولم يكن هذا سوي مؤشر صغير ذي دلالة بليغة علي سوء ترتيب الأولويات السوفيتية، فالمواطن السوفيتي العادي يضطر للانتظار لساعات في طوابير الخبز للحصول علي احتياجاته. بينما دبلوماسيوه يلتهمون الكافيار في مآدبهم. وأثناء الرحلة لم يدر سوي القليل من الحديث حول الكويت. واتفق مساعداي مع تاراسينكو علي أن الكثير لم يعرف بعد عن نوايا صدام. وكان البعض لا يزال يعتقد أنه سيحتل الأراضي المتنازع عليها لإكسابه قوة في إبتزاز السعوديين والكويتيين للحصول علي تنازلات مالية.

وبدلاً من التوجه إلي داشا خارج موسكو لمباحثات مضنية علي مدار ثلاثة أيام مع تاراسينكو قصد روس وزوليك مقر السفارة الأمريكية في موسكو مباشرة لينضم إليهما بيتر هاوسلونر أحد مساعدي روس الذي أيد فكرة الضغط علي السوفيت لإصدار بيان مشترك بإدانة العراقيين. وأصر زوليك قائلاً: «لكن لابد وأن يأتي بيكر إلي هنا، عليهما أن يقفا جنباً إلي جنب ويصدرا بياناً مشتركاً وإلا فلن يكون فاعلاً» .

كانت الحسابات غاية في الوضوح فإعراب القوتين العظميين عن تضامنهما كفيل بعزل العراق، والتأثير علي الآخرين في الانضمام لنا لصد عدوان صدام. فمثل هذه الأرضية المشتركة ضرورة لمنع حدوث شرخ في العالم العربي، فلو التزم العامي الرئيسي لصدام بموقف هامشي فسوف يستطيع التواري خلف الصمت السوفيتي، وسيحذوا حذوه الكثير من العرب. لكن إذا أمكن إقناع السوفيت بمخاطبة عميلهم فسوف يستعصي علي الكثيرين في المنطقة أن يظلوا في نفس المعسكر. إن صدور بيان مشترك سيشكل خطوة مهمة نحو إقامة تحالف لصد عدوان صدام .

وعندما أثار روس الفكرة معي لأول مرة لم أصدق حقيقة أنه يمكننا إصدار بيان مشترك، فسوف يتوخي السوفيت الحذر. فهم يريدون التحدث مع بغداد، ثم ينتظرون ليروا. وسوف تعارض الدوائر المتعاطفة مع العرب في الخارجية السوفيتية إصدار بيان مشترك بدعوي عدم المخاطرة بحياة ثمانية آلاف مواطن سوفيتي يقيمون في العراق، ولكنني اعتقدت أن النتائج مجدية عن المغامرة باحتمال الفشل، وفوضت روس في مفاتحة تاراسينكو بالفكرة . ·



وقبيل مغادرة سيبيريا إلي منغوليا تحدثت مع برينت سكوكروفت مستشار الرئيس للأمن القومي الذي كان موجوداً في كلورادو للمشاركة في اجتماع الرئيس بوش مع رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر، وقال برينت لا جديد فلا يكاد يوجد عملياً تقييم ميداني

للمخابرات الأمريكية، وسوف يستغرق الأمر اثنتي عشرة ساعة ليقوم قمر التجسس الذى يمسح المنطقة بجولة أخري ،ولا يمكننا الاعتقاد بأنه سيتوقف عند الكويت، ولن نتيقن من الأمر لعدة ساعات، لقد كان احتمالاً مضنياً، وحتي ولو سمح لنا السعوديون بنقل قوات وطائرات أمريكية إلي المملكة فلا يمكن أن يصل الأفراد أو العتاد فى الوقت المناسب أو بأعداد تكفى لصد الهجوم العراقى علي شبه الجزيرة العربية، فلو قرر صدام دخول العربية السعودية ستكون عاجزين عن وقفه.

وبعيد الإقلاع من أركنصوك اتصلت بكيميت الذى أبلغنى بأنه اتضح الآن أن العراقيين يتحركون ناحية مدينة الكويت، وأن لديهم خططاً لاحتلال مدينة الكويت كلها، ثم انقطعت خطوط الهاتف مع الطائرة بدون تفسير، ولم يستطع طاقم الطائرة تفسير كيفية انقطاع خطوط اتصالاتهم المؤمنة عبر القمر الصناعي، وعرفت فى وقت لاحق أن خطوط الاتصال عبر القمر الصناعى مع الطائرة من واشنطن قد تم تحويلها لتقديم مزيد من التغطية المخابراتية لتحركات القوات فى العراق والكويت .

ولدى وصولنا إلي أولان باتور كان فى استقبالى السفير جوى ليك وأقلتنا السيارة مباشرة إلي مجمع إخ – تينجهير وهو بيت ضيافة حكومى بسيط متسع يقع فى واد تحيط به الجبال، وتحول مقر الإقامة السابق لرئيس الوزراء إلي محمية طبيعية تمرح فى أرضها الأيائل والغزلان بحرية تامة. وأتذكر كيف أننى أمضيت يوماً كاملاً أخوض فى الثلوج التى تصل إلي الخصر فى مزرعتى فى ويومينج لصيد الأيائل، وها أنا الآن تحيط بى العشرات منها وتعذبنى القيود المفروضة علي صيدها .



وبأوامر سريعة عقدت اجتماعات مع عدد من الزعماء المنغوليين، وفيما بعد انتقل الجمع بأسره إلي خارج البلدة بعدة أميال لمشاهدة صورة مختصرة للنادلم وهو استعراض تقليدى للمهارات المنغولية، وأقيمت مباريات مصارعة ومنافسات للرماية بالسهم وسباق

للخيول التي يقودها أطفال لثلاثة أميال فازت به طفلة في الخامسة من عمرها من بين أكثر من مائة متنافس، وبناءً علي طلب من مضيفي جربت الرمي بالسهم وقدمت جوائز للفائزين الذين كانوا شأنهم شأن كافة المشاركين والمتفرجين يرتدون ملابس وطنية زاهية الألوان، كم كان مهرجاناً مثيراً.

وقبل انتهاء هذا المزيج المنغولي لمباريات الروديو والمصارعة أبلغني الجنرال هوارد جريفز مندوب هيئة الأركان المشتركة في الرحلة بأن لديه معلومات مستجدة لي. فبعد هبوطنا في أولان باتور انفصل جريفز عن الموكب وتوجه إلي السفارة الأمريكية المؤلفة من ثلاث حجرات بمبني للشقق السكنية، واستخدم الخط المؤمن الوحيد في السفارة للاتصال بمركز العمليات في وزارة الخارجية حيث أطلعه ديك كلارك مساعد وزير الخارجية للشئون العسكرية السياسية علي أحدث المستجدات، ولدي عودته معي في السيارة أبلغني جريفز بأن حاملة الطائرات الأمريكية اندبندنت راسية مع مجموعتها القتالية في قاعدة دييجوجارسيا، وستتحرك علي الأرجح صوب شمال بحر العرب، ويمكن دفع طراد وفرقاطة من القوة الأمريكية في الشرق الأوسط إلي الخليج، ويقف «تشكيل» هجومي من طائرات إف/ ١٥ وإف/ ١٦ علي أهبة الاستعداد للإقلاع من أوروبا، وقد بدأنا اتصالاتنا مع السعوديين لمعرفة ما إذا كانوا سيسمحون بدفع هذه الطائرات للتمركز في قواعدهم بالصحراء. وسوف تستمر اجتماعات لجنة النواب بالخارجية أثناء الليل لصياغة الخيارات. وسوف يجتمع الرئيس مع مجلس الأمن في غضون أربع ساعات لدراسة هذه الخيارات قبيل توجهه للقاء السيدة تاتشر.

وقبل العشاء قررت العدول عن البرنامج المتوازن الموضوع لزيارة منغوليا، بما في ذلك الجولة المقررة لصحراء جوبي. وبادرت بالاتصال بالرئيس وفاتحته في فكرة البيان المشترك مع السوفيت، وأبلغته بأنني لا أعرف ما إذا كنا سنصل إلي هذا البيان. لكنه وافقني قائلاً إن الأمر يستحق عناء المحاولة، وفي هذه اللحظة تركنا الباب مفتوحاً لتقرير ما إذا كنت سأعود إلي واشنطن أم أتوجه إلي موسكو حتي نلمس مصالح موسكو علي أكمل وجه، وأبلغته أيضاً بأنني سأوفد ديك سولومون مساعد وزير الخارجية لشئون شرق آسيا والباسفيك الذي يرافقني في أولان باتور إلي بكين. وباعتبار الصين أحد الأعضاء الخمسة دائمي العضوية في مجلس

الأمن الدولي فإن تأييد الصين لإصدار قرار بإدانة الغزو واحتمال فرض عقوبات يعد أمراً حاسماً لكنه غير مضمون. فالصين في هذه اللحظة لم تكن سعيدة إلي حد كبير بسبب مروري في أجوائها أثناء رحلتي من سيبيريا إلي منغوليا دون التوقف ولو لفترة قصيرة في الصيف أثناء جولتي، وكما تبين فقد كان الطريق الأسهل بالنسبة لسولومون هو السفر إلي بكين، «ففي هذا الجزء من العالم فإن الطريق المستقيم ليس دائماً هو الأسرع» .

وكان العشاء أكثر إثارة من النادلم وقدمت علي العشاء تسعة أطباق رائعة شملت الخروف البري والضأن واللسان ولبن الفرس والأطباق المنغولية الساخنة، وتلا العشاء موجة ثم موجة من العارفين الموسيقيين من مختلف الأقاليم، ومنهم «عازف الحنجرة» الذي كان يصدر أصواتاً غريبة من حنجرته أثناء عزفه علي آلة صنعت أوتارها من شعر الخيل. وخلال العشاء أفضيت لوزير الخارجية بأنه سيتعين إنهاء زيارتي في اليوم التالي، وأعلنت ما لدي من أنباء غير سارة .

وامتدت مأدبة العشاء لأكثر من ثلاث ساعات ولم تنته إلا بعد منتصف الليل، وتلقيت رسالة عاجلة من شيفرنادزة تطلب مني لقاء السفير السوفيتي لدي منغوليا فور انتهاء العشاء. وتعين إيقاظ بيتر أفاناسينكو مترجمنا الروسي من نومه العميق بعد أن خلد إلي النوم. وسلمني السفير نسخة من البيان العام الذي أصدره السوفيت لإدانة غزو صدام للكويت. لكن البيان كان أقل حماسة عن الرد الرسمي. وأراد شيفرنادزة أن أعرف أنه قد يكون من العسير التوصل إلي إتفاق حول البيان المشترك .

وكان المنغوليون أسخياء في كرم ضيافتهم لكن الاتصالات في هذا البلد تشكل كابوساً مرعجاً. فلا يوجد في البلد كله سوي تسعة خطوط هاتف دولية وضعوا واحداً منها في خدمتي والوفد المرافق لي فقط، ونتيجة لذلك وحتي خلودي إلي فراشي بعد الساعة الواحدة فجراً بقليل لم نكن نعرف أكثر مما كنا نعرفه لدي وصولنا قبل اثنتي عشرة ساعة .

وبالمصادفة اتصل روس بتاتويلر في أولان باتور في نفس اللحظة وأبلغها أن شيفرنادزة يرغب في لقائي بالمطار في موسكو لبحث موضوع البيان المشترك. وأيقظتني من النوم وقدمت لي ملخصاً سريعاً، وأضافت قائلة بحزم: «إذا أردت اتمام ذلك فعليك الاتصال بالرئيس» .

وعندما اتصلت به في الساعة ١:٤٥ فجراً كان الرئيس قد أجري محادثات هاتفية بالفعل مع الرئيس مبارك والملك حسين والرئيس اليمنى على صالح ويوشك علي الاتصال بعدد آخر من زعماء العالم، ومع رغبة شيفرنادزة فى لقائى اتفق معى علي أنه من المهم استغلال ميزة تواجدى فى منغوليا بالتوجه جواً إلي موسكو والعمل علي التفاوض لإصدار البيان المشترك غير المسبوق مع السوفيت. وباعتباره مندوباً سابقاً للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة قرر بوش قيمة تحقيق الاجماع الدبلوماسى فى وقت الأزمات .

وكنت أدرك أن التوجه إلي موسكو اقتراح ينطوى علي مخاطرة، فشيفرنادزة قد حذرنى لتوه من أن إصدار بيان مشترك مهم سيكون أشد مشقة عما كان يظنه، وتمثلت الخطورة فى أننى لو ظهرت فى موسكو ولم استطع التوصل إلي اتفاق فستحيق الكارثة بآمال تشكيل تحالف قوى ضد صدام. فبمجرد الذهاب إلي هناك يمكن أن أضع مكانة أمريكا فى الوحل، وقد تنهار العلاقة التى تربطنى بشيفرنادزة وجورباتشوف. بل من المحتمل أن يذهب الاحترام الذى يكناه للرئيس بوش أدراج الرياح. وكنت أعى تماماً أيضاً أنه لو لم أذهب إلي موسكو فلن تكون هناك فرصة لصدور بيان مشترك.

واتفقت مع الرئيس علي ضرورة الشروع فوراً فى صياغة مشروع قرار للأمم المتحدة يمكن أن يوفر فى نهاية الأمر أساساً للعقوبات الاقتصادية ضد العراق. وأشار أيضاً إلي ضرورة التفكير فى احتمال فرض حصار بحرى لتطبيق هذه العقوبات.

وفى الوقت ذاته التقي تاراسينكو بنظيريه الأمريكيين واصطحبهما بالسيارة إلي مقر الخارجية السوفيتية لإجراء مشاورات، واقترح قائلاً: «دعونا نعرف أحدث المستجدات» وافترض روس أنه سيستدعي أحد مرؤسيه فى المخابرات ليقدم تقريراً مخابراتياً موجزاً وبدلاً من ذلك فتح جهاز التلفزيون علي قناة .C.N.N وبرغم تواجدهم المكثف فى العراق كان السوفيت أكثر جهلاً منا بما يجرى. ومارس روس ضغوطاً مكثفة علي تاراسينكو لإصدار بيان مشترك وقال: «لقد حان الوقت للإعراب عن أن بوسعنا أن نصبح شركاء. إننا تحدثنا عن التحول من التنافس إلي التعاون، وعلينا الآن أن نتحدث عن الشراكة. فإذا كنا قد بدأنا حقبة جديدة حقاً، فلا يجسد ذلك سوي أن نكون معاً، ولعل أبلغ تجسيد علي أننا لم نبدأ حقبة جديدة هو ألا نستطيع أن نكون معاً» .

ومضي روس يقول: «سوف يستفيد صدام من أي تباعد. كما سيستفيد أيضاً من صمتكم، فلن يفيدكم أن تلزموا الصمت علانية وتنتقدوا سراً» .

ورد تاراسينكو بدون تردد «إنني أتفق معك» واتصل هاتفياً بشيفرنادزة الذي أقره علي رأيه، وقال إنه سيتصل بجورباتشوف، وشرع اندروكاريندالي مساعد روس في البحث عن طابع آلة كاتبة، وعثر علي أحدهم يكتب اللغة الانجليزية في مكان ما في الفندق .

كان أول مشروع للبيان يضم (١٣٥) كلمة، ووصف الغزو بأنه «وحشي وغير مشروع ... وهراء ومرذول.» وطالب بالانسحاب الفوري من الكويت وحث كافة الدول علي المشاركة في فرض حظر علي شحنات الأسلحة للعراق وخلص إلى أنه يجب أن تعي الحكومات التي تشارك في عدوان صارخ أن المجتمع الدولي لم ولن يقبل أو يسهل هذا العدوان.»

وبعد عودته إلي سباسوهاوس مقر إقامة السفير الأمريكي اتصل بي روس في الساعة الرابعة فجراً في منزلنا لقراءة مشروع البيان، كان مشروع البيان قوياً وواضحاً، وهو ما كنا نريده بالضبط، وأصدرت تعليماتي لروس بأن يسارع بعرضه علي سكوكروفت الذي كان يحلق في الأجواء عائداً مع الرئيس من كلورادو.

وعندما استيقظت في الصباح في أولان باتور أبلغني جريفر أن عدد القوات العراقية في الكويت بلغ مائة ألف جندي، وأنها أخذت تكرس لاحتلالها، ومع ذلك بدأت الدبلوماسية الشخصية للرئيس تؤتي ثمارها. حيث انضمت إلينا بريطانيا وفرنسا في تجميد الأصول الكويتية لإبعادها عن يد الحكومة الدمية التي شرع الغزاة في تشكيلها. كما قررنا أيضاً تجميد الأصول العراقية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وشعرت بأن إقامة ائتلاف دولي ضد العراق والحفاظ عليه يعد أمراً حاسماً، وسيكون مهمة عسيرة. لذا فقد بدأت العملية علي الفور بسؤال وزير الخارجية المنغولي للانضمام إلينا في إدانة الغزو، وقال: «إن موقفنا يتمثل في أنه باعتبارنا نحن أنفسنا بلداً صغيراً، لا يجب علي أحد أن يلجأ إلي القوة، إننا ندين هذا حقيقة» كان مَثَلُ افتراس السمكة الكبيرة للسمكة الصغيرة حكمة استعنت بها علي مدار ثلاثة أشهر في محاولتنا الحصول علي مساعدة الدول الصغيرة لتحالفنا .

وفي غضون ذلك عاد تاراسينكو مرتبكا إلي سياسو هاوس في العاشرة صباحاً حاملاً نسخة مختلفة كل الاختلاف لمشروع البيان المشترك المقترح. وقال «لقد أمضيت وقتاً صعباً مع الوزارة، كان بياناً متهافتاً. لقد أضعف البيروقراطيون لغتنا».

لقد أغفلت تلك النسخة تفهم إشارتنا لاتخاذ إجراء مشترك وخطوات إضافية للتعامل مع الأزمة. بل والأسوأ من هذا اختفت الدعوة لفرض حظر علي الأسلحة لتحل محلها إشارة سيئة بكلمة «احتياجات العراق» وبدا المشروع كما لو أن صدام هو الذي صاغه بنفسه .

وشكا روس قائلاً: «سيرجي هذا ليس مشروعا مضاداً إنه ثورة مضادة ! إنه غير معقول بالمرة، إن هذا يدعو لعدم إصدار بيان علي الإطلاق، فإذا كان هذا هو كل ما بوسعكم عمله فسوف اتصل ببيكر وأوصيه بعدم المجيء» .

لقد وانت روس قوة لا يتحلي بها، وفي منغوليا كانت تاتويلر قد ايقظت بالفعل وفد الصحفيين المرافقين لنا عند منتصف الليل لابلاغهم بأنني سأختصر زيارة منغوليا وسأتوجه إلي موسكو. وكنت أدرك أن ذهابي إلي موسكو سيعزز التوقعات، ويضع مزيداً من الضغط علي شيفرنادزة وجورباتشوف لعمل الصواب، لكن تاراسينكو لم يكن يعرف أن مساعدي أنزمني علانية بالذهاب إلي موسكو، وفي الواقع لم يكن روس يعرف بالأمر، ويبدو أن سياسة حافة الهاوية بدأت تؤتي مفعولها .

وقال تاراسينكو: «استرخ واكتب ما تشاء، وسوف تواصل العمل» وعدل روس عن اللغة المتشددة في المشروع الأصلي للبيان، ووافق تاراسينكو علي كل ما جاء بالمشروع باستثناء عبارة تقول إن الدولتين «علي استعداد لبحث اتخاذ مزيد من الإجراءات» في حالة رفض العراق للانسحاب، وخفف روس اللهجة، ووعدنا تاراسينكو بحمل الوزارة علي الموافقة، وقال سأتصل بك عما قليل .

ومرت أربع ساعات دون أن يتلقي روس إجابة وحاول روس بعد أن افترسه القلق من عدم إمكانية صمود تاراسينكو في المساومة ، إثنائي عن السفر إلي موسكو . لكن الطائرة كانت قد أقلعت بالفعل، وأخيراً تمكن من الاتصال بي بعد محاولات استغرقت عدة ساعات لكن الطائرة كانت علي وشك الهبوط لإعادة التزود بالوقود في أركوتسك، ولم يتسع الوقت

للحديث ونظراً لوقوع مطار أركوتسك في واد فلن يتسنى الاتصال عبر القمر الصناعي ونحن على الأرض، وقلت له سوف اتصل بك بمجرد أن تحلق الطائرة في الجو مرة أخرى .

وأثناء هبوط الطائرة انفجر إطار إحدى عجلاتها، واتضح أن تغيير الإطار عملية بالغة التعقيد، ففي البداية تعين إفراغ مخزن الطائرة بالكامل لاستخراج الإطار الاحتياطي، ثم تبين أن الرافعة العتيقة التي بحوزة السوفيت غير قوية لدرجة تستطيع التعامل مع طائرة القوات الجوية الأمريكية التي تقلنا، وتعين القيام بعملية من عمليات الحشو المؤقتة لتحسين قدرة الرافعة على رفع طائرتنا، ووجدها الحاكم المحلي فرصة ملائمة ورتب جولة مرتجلة لأركوتسك حتى يمر الوقت .

وعودة إلي موسكو حيث انتهي تارازسينكو من وضع مشروع بيان شهد تحسناً كبيراً عن النسخة الأصلية. لكنه لا يزال غير مقبول، وأصر البيروقراطيون على أن صدور بيان متشدد يعرض للخطر أرواح ثمانية آلاف من السوفيت يقيمون في العراق.

واحتج قائلاً: «انظر لقد أُبلغتُ بأننا نتحمل مسئولية الدم الروسي، ولا يمكننا أن نفعل ذلك. إنه يذهب مدى بعيداً للغاية. إن لنا الكثير من المواطنين هناك، إننا نعزف نغمة أمريكية ولا يمكننا فعل ذلك، إن الأمر استلزم جهداً مضنياً لحمل «البيروقراطيين» على الوصول إلي هذا الحد .

ورد روس مهدداً: «سيرجي إذا اتصلت ببيكر فسوف أطلب منه أن يعود أدراجه. فهذا أسوأ من عدم صدور بيان على الإطلاق ». وأذعن تارازسينكو على مضض قائلاً: «حسناً، قل لي ماذا يدور في ذهنك ولنقم بمراجعة مشروع البيان سطراً سطراً» .

وتعاون روس وتارازسينكو للتوصل إلي مشروع نهائي وسط، وتوجه تارازسينكو إلي وزارة الخارجية السوفيتية على وعد بالعودة في غضون عشر دقائق. لكن مرت ثلاث ساعات دون تلقي أي رد. ولم يكن بوسع روس المحبط وزملائه عمل أي شيء نظراً لعدم قدرته على الاتصال بي بالهاتف، وعدم الاتصال بتارازسينكو أيضاً. وانتهزوا هذا اليوم الصيفي غير المألوف في موسكو، ولقتل الوقت جلسوا في فناء سباسوهاوس تحسباً لوقوع الأسوأ، وفي لحظة ما اعترف روس «أعتقد أننا نتعرض لضغوطه .

وأخيراً عاد تاراسينكو بالرد. فالدوائر المؤيدة للعرب تَدفَعَ نحو الإذعان مع استثناء واحد حاسم وقال تارلسينكو: «إن البيان مقبول مع استثناء الحظر على الأسلحة» وكتقليد مقدس في المفاوضات فإن النص مثار الخلاف يوضع بين أقواس، واحتج روس قائلاً: «علينا أن نلتزم بذلك، وإلا فلن يكون للبيان أي معنى أو يقود لأي عمل» .

وعندما هبطت في مطار فنوكوفو/ ٢ في تمام الساعة ٣٠:٧ مساء صعد روس وزوليك إلى الطائرة لإطلاعي على الموقف. بينما شيفرنادزة ينتظر في إحدى القاعات وراود روس قلق عارم من أن السوفيت قد يختلقون سبباً آخر للتراجع عن إصدار بيان رغم التطمينات الأخيرة التي قدمها تاراسينكو، فالشكوك تحوم الآن حول مصداقيته : فطالما تحكم فيه المتشددون عدة مرات، وقال في تبرم: «لست على يقين من إنه بوسعنا إصدار البيان فلا أعرف ما إذا كان سيرجى يستطيع إنجازه» .

وقلت: «حسناً، إننا هنا لا ينبغي أن يستحوذ علينا القلق، علينا المضي في الأمر» .

وقال: «اعتقد أن هناك فرصة لكن عليك الضغط بقوة لأن الضغط يستهدف فريقه وسوف يستغل رد فعلك لتفسير سبب حذف الأقواس» .

واستقبلني شيفرنادزة على درجات قاعة الوصول، ثم توجهنا مباشرة وسط تصايح الصحفيين بأسئلتهم نحو قاعة مؤتمرات في الطابق الثاني. واستغرق الاجتماع ساعة ونصف الساعة، وكنا نجلس جنباً إلى جنب على أريكة في زاوية القاعة .

وبادرني شيفرنادزة بخطأ اعتقاده عن العراقيين، وقال: «بالطبع لقد صدمنا مما حدث وإنني أتذكر سؤالك في أركوتسك وأجبت عليه بأننا ما كنا نتوقع وقوع حدث من هذا القبيل، ومن البديهي أن هذا عمل يستحق الإدانة بطبيعته، فلست أرى منطقاً وراء هذا التصرف، وقال شيفرنادزة: إنهم خارجون لتوهم من حرب استغرقت عشر سنوات، ومضى قائلاً: إن جورباتشوف بعث رسالة شديدة اللهجة إلى صدام حثه فيها على الانسحاب الفوري، لكن لم يصلنا رد رسمي. لكن الدبلوماسيين العراقيين يقولون: لا تتوقعوا أن نستمر طويلاً في الكويت، وكنت أعتقد أن شيفرنادزة يشك في مثل هذه التقارير مثلي

وقال شيفرنادزة: أعتقد أن إصدار بيان مشترك أمر «صائب وسليم» وجوربانشوف يتفق معي في الرأي، لكن يقلقه بعدان هما: أن البيان قد يعرض للخطر الثمانية آلاف سوفيتي الموجودين في العراق، وكذلك الخمسمائة الموجودين في الكويت .

كما أن البيان قد يثير أيضاً غضب حلفاء آخرين للسوفيت في العالم العربي، وقال مستغرقاً في التفكير: ليس من اليسير أن يدير المرء ظهره لعلاقة صداقة وتعاون توطدت علي مدار العقد الأخير، ومع ذلك فقد خلص واضعاً في الاعتبار كل شيء - إلى أنه من الضروري إصدار البيان، فالغزو سلوك غير متحضر بالمرة، ولا يمكننا أن نقف بمعزل عن هذا حتي ولو كانوا أصدقاءنا.

وبدأت في الرد قائلاً: إن لدينا أيضاً مواطنين معرضين للخطر في العراق. لكن الحاجة إلي صدور بيان ذي مضمون حقيقي، وليس بياناً منمقاً تجعل من الصياغة غير ذات الدلالة بشأن حظر الأسلحة أمراً بالغ الخطورة .

وقلت: «تعين عليَّ أن آتي إلي هنا. لأنني أعتقد أنه من الضروري الإعراب عن أنه بوسعنا أن نتصرف كشركاء. بل وسوف نتصرف كشركاء في مواجهة التحديات المفروضة علي الأمن الدولي، وبينما من السهل التحدث عن الشراكة فإن اتخاذ خطوة غير عادية بإصدار بيان مشترك بفرض حظر دولي على الأسلحة سيرسل إشارة للعالم وللعراقيين علي أن الشراكة الأمريكية السوفيتية شراكة حقيقية. وسوف يوجه أيضاً إشارة علي أننا دخلنا معا حقبة جديدة ستُظْهِرُ أنه عند نشوب أزمة فسوف نكون علي أتم الاستعداد للتحرك بسرعة وحزم وبطريقة حاسمة .

فإذا لم يكن بوسعنا عمل ذلك فماذا سنقول للصحافة والمجتمع الدولي، حسناً سيقال إن الولايات المتحدة والسوفيت اجتمعا وأصدرا بياناً يؤكد ما صنعه كل جانب بالفعل. ما الأمر؟

كانت شواغله بشأن المواطنين السوفيت الموجودين في العراق مفهومة، وهناك أكثر من أربعة آلاف أمريكي أيضاً يتواجدون في الكويت والعراق. ومع ذلك فمن المهم ألا يروعنا شيء، ولا أريد أن أغمط حق أي من الإجراءات الشجاعة التي اتخذتموها من جانب واحد، ولكن مع ديكتاتور مثل صدام فإن شهيته تنفتح مع الأكل، ولا يجب أن نشجعه بالامتناع عن إصدار بيان مناسب. وقلت: إن الدعوة علانية لفرض حظر علي الأسلحة سوف تعزز جدية

عرضنا وبدونها فلن يكون لدينا سوي بيان فارغ، وهكذا ستدور التساؤلات عما إذا كان بوسع بلدينا التحول في شراكة حقيقية. فمحك الاختبار – هو هل بوسعنا أن نتصرف سوياً في شراكة حقيقية ونطلب من الآخرين فعل ما فعلناه، أم نكتفي بتكرار مشترك لما قاله كل منا بشكل منفرد،، لقد كنت أضرب عامداً علي أوتار قلق سوفيتي متأصل بعرض فرصة علي شيفرنادزة للانضمام لنا في مناشدة العالم .

وتساءل شيفرنادزة: «حسناً فماذا عن الفرنسيين، ففرنسا أكبر شريك تجاري للعراق، ولن يكون الحظر مجدياً لو رفضت باريس الانضمام إليه، وطمأنت شيفرنادزة بأنني سأتباحث قريباً مع رولان ديما وزير الخارجية الفرنسي، وقلت إنني أتوقع لو أننا دعونا إلي فرض حظر «سوف تتعرض فرنسا لضغوط قوية لو لم تنضم لنا «فسوف يضعهم ذلك في موقف صعب». وكنت متأهباً لو أصر شيفرنادزة على المقاومة أن أقول إن إخفاقنا في إصدار بيان ذي معني سيكون تذكاراً مؤلماً علي أن العلاقة بين بلدينا لم تكن هي ما تصورته ولن يكون أمامي بد من إبلاغ الرئيس بهذه النتيجة المؤلمة. وقال شيفرنادزة لا داعي، وأضاف: «عظيم، إنني موافق. إنني أري أن الأمر مهم بالنسبة لك، سوف ترفع الأقواس من العبارة، واعتقد أن هذا بيان مؤثر».

وغمرني الارتياح. فكم كنت أعرف أن الأمر شاق علي شيفرنادزة، فقد كان رجلاً شجاعاً. لكنه واقع تحت ضغوط هائلة من الدوائر الموالية للعرب في الخارجية السوفيتية، وبوسعي القول أنه كان لايزال غير مرتاح من احتمال التعرض للخطر لو رفضت دول أخري دعوتنا لفرض حظر علي السلاح .وفي محادثة لطمأنته علمت منه فيما بعد مسيرة طويلة بعد أن أصبح رئيساً لجورجيا أنه لم يكن قد حصل علي موافقة جورباتشوف علي الفقرة الخاصة بحظر الأسلحة في البيان، وأخذ الأمر علي عاتقه اعتقاداً منه بصحته

أبلغته بأنني أوفدت مبعوثاً إلي بكين لحث الصين علي الانضمام إلينا باعتبارها موردا رئيسياً لتكنولوجيا الصواريخ للعراقيين .وكان شيفرنادزة غير متأكد من كيفية رد فعل العرب. فموقف سوريا حاسم، وكذلك موقف مصر التي وصفها بأنها مفتاح بناء التضامن العربي. وكنت أعلم أن حسني مبارك سيكون معنا، وأننا سنكون في حاجة لتعاون تام من جانب إسرائيل. فلو ظهر الإسرائيليون بشكل سافر فربما استطاع صدام حينذاك إحداث انقسام بين العرب الآخرين بتصوير القضية علي أنها صراع عربي إسرائيلي، وقلت إن الولايات

المتحدة ستحاول إقناع إسرائيل بالتزام الصمت ،حتي لا يصبحوا قضية بديلة للقضية التى ينبغى أن يتركز عليها هذا القلق .

وقال شيفرنادزة «كلماقلت الضجة التى تصدرها إسرائيل كلما كان ذلك أفضل. فذلك قد يسهم فقط فى إثارة حفيظة العرب ويزيد غموض القضية» . وطمأنت شيفرنادزة بأننا أثرنا القضية مع الإسرائيليين بالفعل .

وفى غضون دقائق قلائل من الحوار وضعت مع شيفرنادزة الخطوط العامة الضرورية لمعايير التحالف الدبلوماسى الذى سيتم تشكيله ضد صدام فى الأسابيع السابقة علي إقناعه بالتراجع عن غزوه المنكود .

وقبيل انتهاء المحادثات أعرب شيفرنادزة عن قلق آخر ما لبث أن ألح فى تكراره عليّ بتأثر شديد علي مدار الأشهر الستة التالية. فقدقال: «هناك شائعات بأن الولايات المتحدة الأمريكية تعتزم شن غارات جوية علي بغداد» وطمأنته بأن الشائعات غير حقيقية. ورد قائلاً: «أعرف ذلك وإلا لما عُقِد هذا الاجتماع. لكنه أراد الحصول علي التزام بأن الولايات المتحدة لن تشرع فوراً فى القيام بإجراء عسكرى، وأننا لن نفاجئ «بشيء غير متوقع» كان شيفرنادزة يعزف بدهاءعلي أوتار شكوك البيروقراطيين فى وزارته.

وقلت «يمكنى القول إننا لن نقدم علي هذا العمل، بل ويمكنى أيضاً القول بصدق وبحسن نية، إذا مس مواطنونا شيئاً سوف تنقلب الدنيا رأساً علي عقب، واعتقد أن الأمر يسرى أيضاً عليكم، فلن نغل أيدينا» .

ووافق شيفرنادزة «هذا مفهوم» .. ونحن نهم بإنهاء المناقشات أردت أن أُذكرَ شيفرنادزة بالشوط الذى قطعناه، وقلت «إدوارد، أنت تعلم لو أن هذا حدث قبل خمسة أعوام بل وربما ثلاثة أعوام لوُضِعتَ هذا الأزمة برمتها فى سياق التنافس والمواجهة بين الشرق والغرب. ولو حدث ذلك لكان فى غاية الخطورة. إن هذا معيار لما أنجزناه» .

وأبدي شيفرنادزة موافقته. لكنه أشار إلي أنه وكما أظهرت هذه الأزمة فإن المستقبل قد يحمل الكثير من التحديات الرهيبة لتلك التى اجتزناها من قبل. «دعنا نركز علي النتائج فالمهم أن يؤتى هذا العمل مفعوله» .

ثم بدأ في نزول السلم للرد علي أسئلة الحشد الضخم من الصحفيين في القاعة الرئيسية للمبني. وقبل أن يقرأ كل منا نص البيان المشترك بدأ شيفرنادزة بمقدمة مهمة كان يستحيل تصور صدورها عن وزير خارجية سوفيتي قبل عام واحد. ولا غضاضة في إعلان حقيقة أننا قد عبرنا للتو وبسرعة خاطفة سنوات منذ أحد الأيام الشتوية لكانون الثاني يناير عام ١٩٨١، وهو اليوم الذي عقد فيه الرئيس ريجان أول مؤتمر صحفي له. فبعد عشر سنوات اتسم ما وصفه بإمبراطورية الشر إلي عدوه اللدود في تحالف ضد ما ندد به أنا وشيفرنادزة بوصفه «هذا العدوان السافر ضد الأعراف الأساسية للسلوك المتحضر» من دولة حليفة للسوفيت. وبعد عشرات السنين من الأذى السوفيتي في أماكن مثل أمريكا الوسطي وأفغانستان وأنجولا جاءت مظاهرة التضامن التاريخي بين القوتين العظميين.

وحييت شيفرنادزة مودعاً وغادرت مطار فنوكوفو/٢ متجهاً إلي قاعدة أندروز الجوية ووصلت أرض الوطن في الساعة ٢١: ٧ فجراً، وبعد خمس ساعات كنت علي متن طائرة هليوكبتر في طريقي لكامب ديفيد للمشاركة في اجتماع مجلس الأمن القومي، وكنت أعرف أن في انتظارنا عدة أشهر من الغموض. لكن في طريق عودتي إلي الولايات المتحدة نال منا الإجهاد مبلغه بما يعكس ضخامة التحديات التي تواجهها الدبلوماسية الأمريكية. لكن ومع ذلك كنت أنا والفريق المعاون لي علي يقين من أن تطوراً بالغ الأهمية قد حدث لدوه في مطار فنوكوفو /٢.

وفرق الأطلنطي أوصلني روس مع بيكر هارسلوتر صاحب الاختراع بإصدار البيان المشترك، وهنأته علي فكرته العبقرية العظيمة.

ورد قائلاً: «السيد الوزير إن هذا يوم مثير. إنه يشكل نهاية الحرب الباردة، لقد أغلقت بالفعل اليوم فصلاً، وبدأت في كتابة فصل جديد». وكان مصيباً في رأيه. ففي هذه الليلة من شهر آب أغسطس، وبعد نصف قرن من بدء الحرب الباردة بالشكوك المتبادلة والتنافس الأيدولوجي لفظت هذه الحرب أنفاسها الأخيرة في قاعة الوصول بأحد المطارات علي مشارف موسكو.

الفصـــل الثانى

عقود ثلاثة من الصداقة

هل يطيب لنا العيش من دون أصدقاء؟

جورج بوش

قبل يومين من انتخابات عام ١٩٨٨م كنت أتناول شراباً مع جورج بوش في مقر إقامة نائب الرئيس في نافيل أوبزيرفاتوري. كنا قد اختتمنا للتو حملة انتخابية أخرى شاقة لم تخل من أحداث عارضة غير سارة، ورغم أننا لم نأخذ أي شيء علي أنه من المسلمات كانت استطلاعات الرأي تجزم أنه سيصبح رئيساً للولايات المتحدة، وباغتني بالقول: «أريدك أن تتولي وزارة الخارجية لو فزت في الانتخابات». وقبلت علي الفور فلا مجال للإستطراد في الحديث بعد صداقة تجاوزت ثلاثين عاما، وانتقلنا بسرعة لبحث المسائل الأخري بما في ذلك الحملة الانتخابية وأفكاره الأولية عن الترشيحات المحتملة في الحكومة وهيئة موظفي البيت الأبيض في إدارة بوش. وفي عالم السياسة في واشنطن المعرق في الشك حيث لا يؤخذ أي أمر مهما هان علي علاته. فإن مثل هذا التفسير غير المعقد للتعيين لن يستساغ بسهولة. لكن هذا هو ما حدث ببساطة.

ولن أكون أميناً لو قلت إنه لم يشاغلني. وليس سراً أنني كنت مهتماً بالمنصب ومنذ فترة طويلة فقد توليت منصب رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض لأكثر من أربعة أعوام، كما شغلت أيضاً منصب وزير الخزانة لنحو أربعة أعوام ولم أكن أرغب في العودة للاشتغال بالمحاماة في هيوستون بولاية تكساس. لكن الحقيقة أنني لم أبحث أمر تعييني في المنصب حتي اللحظة التي عرض فيها عليّ. وعلي نقيض بعض التقارير المنشورة لم يتطور مستقبلي عندما طلب مني نائب الرئيس ترك وزارة الخزانة لإدارة حملته الانتخابية. فلم يكن من المستساغ أن يعرض عليّ هذه المهمة، ومن المؤكد أنه من قبيل عدم اللياقة لو أنني طلبت منه ذلك. فليس هناك ما يدعو لمناقشة مثل هذه الأمور بيننا. فنحن علي نفس الموجة كالعهد دائماً في علاقتنا.

والأمر لا يحتاج إلي ذكاء معقد لمعرفة أن الخارجية بوصفها أرفع الوزارات في الحكومة هي بطبيعتها أهم المواقع الحكومية عن غيرها. لكن الوطن أهم من أي منصب حكومي.

وكان لدي من الأسباب ما يدفعني إلي الاعتقاد بأن الظروف ربما تكون مهيأة أمامي للنجاح في المنصب، وخامرني الشعور بأنني أتمتع بالمهارات السياسية والتفاوضية الضرورية للاضطلاع بالمنصب علي أكمل وجه. ومن حسن حظي أن انضم لي في مجموعة السياسة الخارجية ثلاثة رجال هم وزير الدفاع ومستشار الأمن القومي ورئيس هيئة الأركان العامة المشتركة، وثلاثتهم أصدقاء وزملاء منذ فترة طويلة، وعلي مدار نحو ثماني سنوات اكتسبت

خبرة في قضايا السياسة الخارجية من خلال عملي كوزير للخزانة ورئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض، وثمة ميزة تفردت بها دون أسلافي المحدثين وهي العلاقة الشخصية غير المسبوقة مع رئيس الولايات المتحدة .

فعلي مدار أكثر من ثلاثين عاماً إرتبطت مع جورج بوش بصداقة وطيدة تعود إلي أيام زوجتي الأولي ماري ستيوارت حين دعيت إلي منزل بوش علي وجبة هامبورجر، واقترح أحدهم أن نصبح شركاء في مباراة للتنس في نادي هيوستون الريفي، وفزنا بالتنين من بطولات النادي. فقد كانت مهارته في الكرات الطائرة القوية ولعبه من علي للشبكة يكمل موهبتي في اللعب القوي من الخط الخلفي وإرسال الكرات اللوب (العالية الساقطة) ومع ذلك فلم يكمل كل منا الآخر في ضربات الإرسال، فكانت ضربات إرسالنا ضعيفة لدرجة دربنا معها علي التندر بأننا اللاعبين الوحيدين اللذين نعرف أن بإمكانهما لعب ضربة إرسال ثم نجري للنصف الآخر من الملعب لصدها .

ووقف بوش وباربارا بجانبي أثناء مرض ماري ستيوارت بالسرطان، وبخلاف أفراد أسرتها كانا آخر من زارها من الأصدقاء أوائل عام ١٩٧٠م قبل أن تدخل في الغيبوبة التي لم تفق منها مطلقاً. إنه الرجل الذي أكن له كل الاحترام والتقدير، وهو الشخص الذي ألجأ إليه عند الاقتضاء وطالما أعجبت بنجاحه في كل ما اضطلع به في حياته، وكان هذا مع بالغ احترامي ومشاعري نحوه سبب طلبي منه أن يكون أب العماد لإبنتي ماري بونر عند تعميدها .

وفي السياسة والخدمة في الحكومة كان ارتباطنا لا فكاك منه، ويعزز كل منا الآخر بدرجة ما منذ عام ١٩٧٠م فعندما خاض جورج بوش انتخابات مجلس الشيوخ في ذلك العام ضد لويد بلينتسين أوعز لي بضرورة الترشيح لشغل المقعد الذي سيتركه في مجلس النواب، وكنت أشعر وقتها بأن مسئولياتي تجاه أبنائي الأربعة الشباب تحتل الأسبقية علي احترافي السياسة.

وبعد ثلاثة أيام من خسارتي السابقة في الانتخابات لمصالح المدعي العام في تكساس عام ١٩٧٨م اتصل بي هاتفياً في فلوريدا حيث كنت أستجم وأنشد السلوان. وقال بوش: «حيرها في غيرها» وطلب مني أن نعد سوياً حملته الانتخابية للرئاسة عام ١٩٨٠م ولذا فقد

فصمت حصتي بشركتي القانونية أندروز أند كورث مما يعني ترك ما كان سيمثل الجزء الأكبر في الحصة المالية للشركة في ممتلكات هوارد هوجيز. وليس من طبيعتي أن أنظر إلي الوراء أبداً. فمن منا فعل ذلك ؟وبكل أمانة كنت مستعداً في هذه المرحلة من حياتي لترك مهنة المحاماة بما تنطوي عليه من إرهاق وقدرة أقل علي التحدي.

ومنذ ذلك الحين واتتني الفرصة لخدمة بلدي علي أرفع المستويات لنحو اثنتي عشرة سنة، ويرجع الفضل في هذا لجورج بوش إلي حد كبير. ولا يرجع الفضل إليه فقط في دفعي للاهتمام بالسياسة. بل أيضاً لحصولي علي أول منصب حكومي. وحتى هذا اليوم لم ينبس ببنت شفة علي الإطلاق بأنه كان وراء تعييني وكيلاً لوزارة التجارة في إدارة فورد. لكن والحقيقة فإنني أعرف أنه هو الذي مارس ضغوطاً - بالإنابة عني - علي روجرز مورتون وزير التجارة حينذاك حتي رغم توجهه إلي بكين ليصبح المسئول الثاني للحكومة الأمريكية في الاتصال بجمهورية الصين الشعبية .

ولم ننعم مطلقاً برفاهية التمدد علي الأريكة والخوض في علاقاتنا الشخصية. لكنه كان يصفها بأنها علاقة الأخ الكبير بالأخ الصغير. وأعتقد أن هذا وصف موفق ودقيق ينطوي علي مجاملة رقيقة. وشأن معظم الإخوة والأقارب عُرِفَ عنا أننا نتجادل ونتصايح في السر. بل كانت هناك درجة صحية من التنافس الودي بيننا، ولم يهدر أحدنا فرصة لإظهار الإشادة بصفات الآخر. فعلي سبيل المثال فبعد أن نشرت مجلة نيويورك تايمز موضوع غلاف عن علاقتنا في آيار مايو ١٩٩٠م بعث المصرفي تيد شتراوس رسالة لاذعة لي جاء فيها: إنه يتعين أن أدخل في موسوعة جينز للأرقام القياسية العالمية لارتدائي رابطة العنق أثناء ممارستي لعبة الحدوات مع الرئيس في البيت الأبيض. وكما هو متوقع أرسل بوب شقيق تيد شتراوس وهو رئيس سابق للحزب الديمقراطي وصديق قديم لي وللرئيس نسخة من الرسالة إلي الرئيس: «لأنني أشك حقاً في أن لدي وزير الخارجية مايكفي من الفطنة لتقدير هذه الرسالة» ولم يكن بوسع الرئيس أن يقف مكتوف اليدين فقد كتب فيها رده علي الرسالة «إن شقيقك المتهور بعث بالرسالة التي ضمنها هجومه الذي يفتقر إلي اللباقة والدماثة علي وزير خارجيتي اللامع. فالولد شديد التألق وعلي أية حال فإنني لا أعبأ بما يقوله آل شتراوس وسوف أدافع عن جيمس بيكر علي طول الخط».

ومع ذلك فقد كان جورج بوش دائم الدفاع عني حتي في الوقت الذي ربما كان يريد فيه شنقي. وكوزير للخارجية منحني درجة غير عادية من حرية العمل. كان لدى تصريح بالعمل، وربما أكون قد تجاوزت المدي في بعض الأحيان. لكنه لم يُقدِم مطلقاً علي مساءلتي وغضب مني في مناسبتين لعل أهمهما بعد بياني المشترك الشائن مع وزير الخارجية السوفيتي الكسندر بسمرتنيخ والتغطية الصحفية التي أقحمت نفسي فيها في خطاب حالة الاتحاد في كانون الثاني يناير ١٩٩١م لكنه لم يعلن ذلك علي الملأ أبداً .

وبين الحين والأخر كان الأخ الصغير يستطيع رد المعروف. وكرئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض في إدارة رونالد ريجان أوضحت للزملاء بكل وضوح أن ولائي للرئيس. وسعيت أيضاً للتأكيد علي أن نائب الرئيس بوش في الصورة دائماً، وكان مكتبه بجواري في الجناح الغربي للبيت الأبيض، وغالباً ما كنا نتبادل الزيارات لتبادل وجهات النظر والمعلومات.

وطيلة صداقتنا لم أبخل عليه بالنصيحة الصادقة، وأعتقد في الحقيقة أنه قال عني إنني الشخص الوحيد الذي كنت أبلغه بما أفكر فيه بدون رتوش حتي ولو كنت أعلم أنه لا يريد سماعه. وأكثر من مرة علي مر السنين طالما سمعت واحداً من ردوده الأثيرة «اما أنت فالح. ليه أنا نائب رئيس أو رئيس وأنت لأ؟» كانت هذه الكلمات تشعره بالارتياح رغم أنها وللغرابة تعد مؤشراً علي مدي قوة العلاقة التي تجمعنا. وبالطبع كانت هذه هي طريقته المثلي لإبلاغي بأن الحوار قد انتهي .

وفي عام ١٩٧٥م أراد الرئيس فورد تعيينه مديراً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبعث الأعضاء الديمقراطيون في مجلس الشيوخ رسالة مفادها أنهم لن يوافقوا علي تعيينه إلا إذا تعهد فورد علانية علي منعه من خوض انتخابات ١٩٧٦. كان طلبا مهيناً. لكن فورد ترك الأمر لجورج. وأبلغت صديقي بأنه لخطأ فادح أن تدع حزب المعارضة في مجلس الشيوخ يملي شروط طريقك المهني. وقلت: يجب عليك ألا تفعل هذا. ويجب عليك ألا تلغي مستقبلك السياسي لمجرد تعيينك في المنصب. لكن بوش اختلف معي قائلاً: «إن هذا هو ما طلبه الرئيس، إنه شيء يفيدني وسوف أقبل به» .

وحتي تعييني وزيراً للخارجية أعتقد أن أعظم خدمة أسديتها لجورج بوش هي تولي إدارة حملته الانتخابية عام ١٩٨٠م ويرجع الفضل إليه بالطبع حيث كان في حاجة لشجاعة

فائقة باعتباره شخصية غير معروفة بالفعل ليقدم علي ما أقدم عليه. فقد سبق وأسر لى ونحن نجوب أنحاء البلاد بهدف استشراف الموقف أوائل عام ١٩٧٩: يعوزنا التأييد والمال والمعرفة بالقول «هل تعتقد أنني مجنون لأفعلها «وفي الوقت الذي كنت أؤيد ترشيحه بقوة، مرت علينا أيام كنت أعتقد فيها أننا مخبولان. لكن عناده وشجاعته في مواجهة الحلاقات الطويلة شحذا ملكاتي الإدارية. وفي ذلك الوقت كنت الجمهوري الوحيد الذي أدار حملة انتخابات رئاسة عامة. باستثناء جون ميتشيل، ونتيجة لتلك الخبرة اعتقدت أنني قادر علي المساهمة بطريقة مهمة في الحملة التي بدأت من الصفر في استطلاعات الرأي وانتهت بصديقي وهو مرشح نائباً لرونالد ريجان.

وكان أشق الأمور علي نفسي هو اقناعه بأن الوقت قد حان للاستسلام، وكمسئول في حملة الرئيس فورد عام ١٩٧٦م اكتسبت براعة لا بأس بها في إحصاء الأصوات، وبالرغم من الفوز الكبير في بنسلفانيا وميتشيجان كنت أعرف أننا خسرنا المعركة. لكن جورج بوش لم يكن انهزامياً علي الإطلاق، وصارعت معه ليفعل الصواب سياسياً بالنسبة له. وقلت له: «جورج انتهي الأمر لقد نفدت أموالنا ومن المستحيل حسابياً أن نفوز بالترشيح. كما أن الاستمرار في تصفيات الانتخابات التمهيدية سيدمر كل فرصة أياً كانت لإحتمال اختيارك نائباً للرئيس، ولم يستمع ما كان يسمعه اعتقاداً منه أن إنسحابه سيخذل أنصاره في الانتخابات التمهيدية القادمة. خاصة في أوهايو ونيوجيرسي. ولمضي عطلة نهاية الأسبوع يصارع لاتخاذ قرار مع أفراد أسرته وأقرب أصدقائه قبل أن يخلص علي مضض إلي ضرورة طي خيمته.

كم هو أمر بالغ المشقة أن يكون المرء مديراً لحملة انتخابية لصديق، وعليّ أن أتذكر أنني كنت مديراً لحملة بوش عامي ١٩٨٠م و١٩٨٨م ورئيساً لهيئة موظفيه في البيت الأبيض في انتخابات عام ١٩٩٢م. والثابت هو أن المرء هو ناقل الأخبار السيئة وهو السند أيضاً. وعندما يشعر المرشح بالإجهاد فإنه يلجأ لمدير حملته يلتمس تشجيعه للسير في الطريق يوماً آخر أو ليلقي خطاباً آخر أو ليمضي ساعة في نهاية يوم قاس من الحملة يلح علي المساهمات بالهاتف، ومن السهل أن تخسر صداقات في مواقف كهذه ولم يحدث ذلك معنا .

وتعني الصداقة الكثير لجورج بوش، وكان وفاؤه لأصدقائه واحداً من مصادر قوته الشخصية وألمح البعض إلي أن الأمر انتهي بالصداقة لتصبح أفدح نقاط ضعفه السياسي فطالما ظل وفاؤه لفترات طويلة لصداقة أناس ألحقوا الضرر بالرئاسة من منطلق حرصه علي صداقتهم.

لكن يحلو له القول: «هل تطيب لنا الحياة من دون أصدقاء». ورغم سروري يقيناً بمساهمتي في مسيرة بوش السياسية إلا أنها كانت ستمضي حتي بدون مساعدتي، أما فيما يخصني فلولا تأييده وصداقته لما ظفرت مطلقاً بمجالات الخدمة العامة التي أديتها.

والحاصل أن الشراكة بيننا لم يمسها السوء في ضوء شراسة أجواء السياسة. ففي آيار مايو ١٩٩٠م استدعاني ليشكرني علي جهودي في ترويج صيغة «إثنين زائد أربعة» الخاصة بالوحدة الألمانية مع السوفيت والآخرين في بون. ولاحقاً في الرحلة كتبت إليه رسالة جاء فيها «إننا نبلي بلاءً حسناً بالنسبة لرجلين جامدين يفتقدان لأي رؤية لاتحركهما سوي الفطرة ولازلت أقول عظيم من يتصور ذلك «وأنا لازلت أتصور ذلك ؟



وقال لي جورج شولتز ذات مرة: «إن منصب وزير الخارجية هو أهم منصب في الحكومة. لكن أريدك أن تعي شيئاً واحداً هو أنه لاتوجد معايير محددة تبين أين تنتهي السياسة الخارجية لتبدأ سياسة أخري. وهذا يعني أن الجميع يأتون بعدك».. ولكني كنت محظوظاً لأن هذا لم يسبب لي أي قلق مطلقاً. فقد سهل قربي من الرئيس أداء العمل آلاف المرات :فلم يساورني أي قلق مطلقاً من احتمال الطعن أو التشكيك. كان يوسعي العمل دون الالتفات لأي شيء. وكنت محظوظاً لأن أكون واحداًمن أفراد فريق الأمن القومي لبوش الذي يضم نخبة من الزملاء المتمرسين الذين عملوا سوياًبصفة أو بأخري وجمعتهم المودة والاحترام. فلم تربطنا الزمالة والرفقة فحسب بل جمعتنا الثقة المتبادلة. ولا يعني هذا أننا لم نختلف، وكم تجادلنا وتعالت أصواتنا كالمجانين، وليس سراً أيضاً أن كلا من ديك تشيني وبرينت سكوكروفت كانا أكثرحذراً مني بشكل عام في إجراء بعض التغييرات علي النهج

السياسي. الأمر الذى أثار عدداً من الاختلافات الكبيرة بيننا حول الحد من التسلح والعلاقات السوفيتية الأمريكية والشرق الأوسط. لكن خلافاتنا لم تأخذ مطلقاً طابع الطعن فى الظهر الذى إتسم به عهدا « كيسينجر /روجرز » فانس/بريجنسكي، أو تغلب عليها صفة الخشونة التى ميزت فريق الأمن القومى الأمريكى طيلة سنوات حكم ريجان. فلم يكن هناك لغو أو هراء بين الزملاء فى المستويات العليا ونادراً ما يتسرب إلي الصحافة أقل القليل. وبالطبع كنا جميعاً نزاول الصحفيين دون أن نكشف عن هويتنا لإرسال إشارات دبلوماسية سواء للحكومات الأجنبية أو الكونجرس. لكننا لم نوظفها ليطعن كل منا فى الآخر، ونتيجة لذلك فإننى أعتقد أن أحد الإنجازات الكبري للرئيس بوش هو حمل أجهزتنا الأمنية علي العمل بالطريقة المفترض أن تعمل بها، وكان هذا أمر جوهرى فى تمكيننا من إدارة التغييرات التاريخية فى مختلف أنحاء العالم علي الوجه الأكمل من ١٩٨٩ حتي١٩٩٢م .

كنت قد التقيت بديك تشيني لأول مرة عام ١٩٧٥م بعد أيام قلائل من أدائى اليمين الدستورية وكيلاً لوزارة التجارة أثناء تولى روجرز مورتون لها وأرادنى روج أن ألتقى مع الرئيس فورد، ولذا فقد ذهبنا إلي البيت الأبيض بعد ظهر أحد الأيام وتوجه روج إلي المكتب البيضاوى وطلب منى الانتظار فى مكتب نيل باتيس السكرتير الخاص للرئيس فورد. وبعد ربع الساعة قادنى أحدهم إلي المكتب البيضاوى كان الرئيس مجتمعاً مع عدد من كبار مساعديه ومن بينهم ديك تشيني الذى خلف لتوه دون رامسفيلد فى رئاسة هيئة موظفى البيت الأبيض، وتم تقديمى إلي ديك تشيني الذى طلب منى الجلوس بأدب جم، وقلت لنفسى: ما أبعد هذا يقيناً عن بعض الروايات المرعبة التى سمعتها عن عدد من رؤساء هيئة موظفى البيت الأبيض، وعن النظرة القاسية فى الإدارات السابقة، ولا تزال سمة الأدب والتواضع تلازم تشيني حتي الآن، ومن العسير أن يحتفظ المرء بإحساسه بالتوازن فى واشنطن لكن لعبة السلطة لم تستحوذ علي تفكيره مطلقاً .

وأثناء الحملة التمهيدية للجمهوريين عام ١٩٧٦م كلفنى ديك بعد أول لحظة محرجة فى الوظيفة الحكومية إثر خوضى فى الحديث دون وعى عن استقالة هنرى كيسينجر من الحكومة. فبصفتى وكيلاً لوزارة التجارة كان من اختصاصى مهام سياسة روتينية بالغة التواضع فى أهميتها. وكان أحدها لقاء الممولين الماليين لفورد فى مدينة أوكلاهوما حيث يحظي ريجان بقوة خاصة. وفى لحظة ما سئلت عن الدور الذى سيناط بهنرى كيسينجر فى

الفترة الثانية لرئاسة فورد، وكنت علي يقين من أن كيسينجر شخصية بغيضة بالنسبة لكثير من الجمهوريين في الجنوب والغرب، وكان اللقاء مغلقاً أمام الصحفيين. ولذا قلت بفرح، لا يسعني تصور وجوده في الإدارة لو أعيد انتخاب فورد. ولم أكن أعلم بوجود صحفي ضمن الحضور يعمل بالجريدة الطلابية لجامعة أوكلاهوما .

وبعد يومين شاركت في احتفال أقيم بالحديقة الوردية بالبيت الأبيض وطلب مني نيل باتيس «المرور علي مكتب تشيني قبل المغادرة»، وتوجهت إلي المكتب الأبيض لتشيني بزاوية الجناح الغربي دون أن يجول بخاطري علي الإطلاق أنه سيكون مكتبي بعد خمس سنوات ثم بعد ست عشرة سنة وفي فترتي رئاسة اثنين مختلفين من الرؤساء الجمهوريين. وقال في عبوس: «أريد أن أريك شيئاً» وناولني قصاصات صحف متضمنة تعليقاتي التي نشرتها جريدة جامعة أوكلاهوما. وتلقفت وسائل الإعلام النصل الذي صوبته نحو كيسينجر من الجريدة وأثار ضجة، ولاسيما في وزارة الخارجية حيث استشاط هنري كيسينجر غضباً، ولم يكن لدي أدني فكرة عن أنني قد تسببت في كل تلك المشاكل وتمتمت بأسفي، ورد تشيني قائلاً وهو يضحك: «لا عليك فلنسو الأمر مع هنري» وسيراً علي التقليد المتبع في واشنطن اتصلت به هاتفياً وقدمت اعتذاري، فلو كان مكان تشيني رئيس آخر لهيئة موظفي البيت الأبيض لسحلني علي الفور – وله الحق في ذلك – ولكنني أتذكر أنه علمني بلباقة درساً في توخي الحذر.

وهناك واقعة أخري طرفاها كيسينجر وتشيني وتخص المنسوجات هذه المرة. فرغبة مني في تعزيز الانفتاح التاريخي الذي قاده الرئيس نيكسون نحو جمهورية الصين الشعبية شرعت وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٧٦م في تشجيع استيراد الولايات المتحدة غير المحدود للمنسوجات الصينية، وليس من قبيل المفاجأة أن الفكرة قوبلت بمعارضة شديدة من أصحاب مصانع النسيج الأمريكيين، ولدي كثير منهم مصانع في الولايات الجنوبية التي تمثل أهمية قصوي للرئيس فورد في معركته التمهيدية العامية ضد رونالد ريجان للفوز بترشيح الجمهوريين للرئاسة، ومع تنحية السياسة جانباً كانت وزارة التجارة تعتقد أن المصالح الاقتصادية للولايات المتحدة تملي إتباع نهج أكثر توازناً عن الذي تسير عليه وزارة الخارجية. ووردت في مسودة خطاب من المقرر أن يلقيه الرئيس أمام جمعية أصحاب مصانع النسيج الأمريكيين في سان فرانسيسكو في شهر آذار مارس، عبارة تلزم الرئيس

«ضمان ألا يتعرض السوق الداخلي لتهديد خطير» وكانت صياغة العبارة غامضة لكنها تنطوي على تعاطف قصد به تبديد قلق الجمهور من احتمال إغراق المنسوجات الصينية لأسواقهم، وكنا نعرف أن كيسنجر كان يريد حذف العبارة. لكن ومع اقتراب موعد إلقاء الخطاب لم يصدر أي تعليق من جانب وزارة الخارجية علي مسودة الخطاب. وكان هنري مقاتلاً بيروقراطياً فذاً، وأسلوبه المألوف في مثل هذه المواقف هو الكمون حتي اللحظة الأخيرة ثم إقناع الرئيس بعمل ما يريده، ولا يدع الفرصة مواتية أمام أي هجوم مضاد. وباعتباري قائماً بأعمال وزير التجارة إستفسرت من البيت الأبيض عما إذا كان كيسنجر قد حاول التدخل في الأمر. وبعد تأكدي بما فيه الكفاية فوجئت عقب اجتماع مجلس السياسة الاقتصادية ببوب هورماتس الخبير الشاب حينذاك في الاقتصاد الدولي الذي يعمل بمجلس الأمن القومي يبلغني بأن كيسنجر سينتظر حتي تقلع طائرة الرئيس فورد في طريقها إلي كاليفورنيا ثم يتصل هاتفياً بالرئيس ويسعي لإقناعه بحذف العبارة بدعوي أهمية العلاقات الوليدة مع جمهورية الصين الشعبية، وفي تلك اللحظة اتصلت بتشيني علي طائرة الرئيس -كان كيسنجر قد سبق في الاتصال بالفعل واتُخِذ قرار مؤقت بحذف العبارة، وقلت إن اللغة التي صيغت بها العبارة تجمع ما بين السياسة القوية ولباقة السياسة. وأقرني تشيني علي رأيي وبحث مع الرئيس الإبقاء علي النص الأصلي، ولم يمض وقت طويل حتي التقيت مع وزير الخارجية لأول مرة في حفل إستقبال أقامته وزارة الخارجية وبادرني متمتماً «آه ... أنت إذن بيكر/المنسوجات» .

وبعد أن أفلتنا بالكاد من التحدي الذي واجهه ريجان في التمهيديات للجمهورية عملت أنا وتشيني بشكل أوثق في الحملة الإنتخابية ضد جيمي كارتر وسار علي نهجه المعتاد للتأكد من أنني أحصل علي كل ما أحتاجه كمدير للحملة الانتخابية، ونتيجة لذلك كان التنسيق بين الحملة الإنتخابية والبيت الأبيض تنسيقاً رفيع المستوى ونموذجاً احتذيته في انتخابات الرئاسة عامي ١٩٨٤ و ١٩٩٢م .

ولم تنقطع اتصالاتنا بعد انتخابات عام ١٩٧٦م وأطلع كل منا الآخر علي خططه السياسية في المستقبل. وفي عام ١٩٧٨م انتخب تشيني نائباً في الكونجرس عن ويومنج

وأثبت أنه حليف أكيد عندما أصبحت رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض بعدها بثلاث سنوات. فطالما اتصل بي ليبلغني بأخبار بالغة الأهمية حول بعض التطورات المهمة في الكونجرس محققاً السبق حتي على قنواتي التشريعية. ومع ذلك فلم تكن العلاقة سمناً علي عسل علي الدوام. وكم اشتبكنا بين الفينة والأخري في بعض المعارك السياسية وخاصة في مشروع قانون الإصلاح الضريبي لعام ١٩٨٦م الذي سعيت لإقراره بصفتي وزيراً للخزانة في إدارة ريجان. لكنه استماتت في معارضته، وأتذكر يوم أن أتي ديك بصحبة عضو الكونجرس عن الميسيسيبي ترينت لوث وتوعدني قائلاً: «سوف نعارضك في هذا القانون، سوف نهزمك» وتغلبنا علي ديك رغم جهوده المضنية. لكن النزاع لم يتحول بأي حال إلي نزاع شخصي أو يؤثر علي صداقتنا وخلال العقد الماضي أمضينا أوقاتاً جميلة في رحلات صيد ببراري ويومينج وديك أحد أبنائها الأصليين وأنا وافد عليها، وفي اثنتين من هذه الرحلات أقمنا في نفس الخيمة، وكان ديك يغسل الصحون وأنا أجففها .

كان ديك من أشد أنصار الحرب الباردة بشكل فاقني كثيراً، وقد اختلفنا في بعض الأحيان حول السياسة السوفيتية والحد من التسلح. لكن هذا الاختلاف لم يمس صداقتنا القوية أو الاحترام المتبادل بيننا أو علاقتنا الوثيقة في العمل .

وعقب فشل تعيين جون تاور وزيراً للدفاع أوائل عام ١٩٨٩م أيدت بحماس إقتراح برينت سكوكروفت بتعيين تشيني بدلاً من تاور. وكنت في مقر إقامة الرئيس عندما رفعت سماعة الهاتف لأعرض علي ديك تولي المنصب وطلبته في وقت لاحق ومارست عليه ضغوطاً قوية، وغمرتني الفرحة عندما قرر التخلي عن مسيرته المتميزة في الأداء النيابي لقبول المنصب .



وربطتني صداقة طويلة الأمد بجون تاور ولازلت أتذكر هذا اليوم القائظ من أيام تموز يوليو في مدينة سان فرانسيسكو عام ١٩٧٨م فبعد الهزيمة السياسية المدوية عدت إلى تكساس بعد حملة فورد عام ١٩٧٦م وقررت السعي للحصول علي منصب المدعي العام، والتقينا مصادفة بينما كنا نستعرض المنشورات في جزء أسباني من المدينة. ودعاني «لتناول

شراب». وهكذا توجهنا إلي فندق ميتجر التاريخي حيث حشد تيودور روزفلت الفرسان الأشداء لعوص الحرب. وبينما نحن نحتسي كوكتيل الفودكا والمارتيني تطلع تاور إليّ قائلاً: «بيكر هل تعرف شيئاً؟ إن القذارة والبشاعة هي ما نحن فيه». ورددت: «سيناتور تاور لتتحدث عن نفسك. فأنا جديد علي الأمر برمته». وكم فكرت كثيراً فيما قاله تاور عندما أخذ زملاؤه السابقون في التشهير به خلال جلسات استماع تعيينه في المنصب الذى طار منه.

ولم أتوان لحظة عن تأييد تعيين تاور، وشعرت بالأسف له عندما رفض تعيينه، لكن ساورني قلق داخلي من أنه قد يدس أنفه في السياسة الخارجية بمجرد الموافقة علي تعيينه .

ولم أعرف مطلقاً الكثير من أبرز رجالات مجلس الشيوخ ممن لا يتسمون بالشراسة ففي حين كان تاور صديقاً قديماً وحليفاً سياسياً فلم يكن بليداً في لعبة السلطة. فخلال الفترة السابقة علي إقرار التعيين جاءني تاور ملتمساً العون في إقرار تعيينه. وقال: «انظر إنني أعرف ماذا يعني أن تكون وزيراً للدفاع، وماذا يعني أن تكون وزيراً للخارجية، إنك لا تراني في صفك وبصراحة فلست متأكداً من ذلك لكنني واثق من أن ديك تشيني لن يحاول مطلقاً أن يظفر بوزارة الخارجية فإنه يعرف أنني لن أتدخل في ملعبه .



ويسري الشيء نفسه علي برينت سكوكروفت الذي أعتقد أنه النموذج المثالي لمستشار الأمن القومي. وسبق لسكوكروفت أن شغل هذا المنصب في عهد فورد ولم يكن جورج بوش يلق فيه ثقة مطلقة فحسب، بل كان يكن له مشاعر خاصة. وعلي نقيض بعض أسلافه لم يقع برينت أسير تضخم الذات، ولم يروج لنفسه مطلقاً. وبدلاً من ذلك كان يفضل دائماً الانزواء إلي الوراء ليصبح وسيطاً أميناً للرئيس.

ولطالما كلف نفسه مجهوداً زائداً في خدمة الغير ففي مراحل مبكرة أبلغني أنه لن يظهر في أي برنامج تلفزيوني ما لم أعتقد أنه يجب عليه أن يفعل ذلك. وبالطبع يسهل مع هذا القول أنه كان عرضة للحرج في أي وقت طالما خصني الأمر. وكان يستضيفنا علي الإفطار الساعة السابعة كل يوم أربعاء في مكتبه. حيث كنا نتبادل أنا وهو وتشيني المعلومات

للتأكد من أننا نعزف نفس الإيقاع. وفي مرات كثيرة عندما كان ينشب خلاف بين العاملين لدي كل فن منا حول قضية معينة كنا نقرأ علي بعضنا النقاط المعدة للحديث، ونكتشف في سياق ذلك قدر انعدام الثقة بين العاملين بوزارة الخارجية ووزارةالدفاع ومجلس الأمن القومي .

وخلال الاجتماعات الرسمية لمجلس الأمن القومي لجأ برينت سكوكروفت إلي التزام الصمت أحياناً أثناء حديثي بدلا من طرح رأي بديل حول إحدي قضايا السياسة الخارجية، ولا يكمن السبب في صداقتي الوثيقة بالرئيس أو جبن منه، بل هي لاحترامه للطريقة التي يفترض أن يعمل النظام بها. فطالما كانت له آراؤه القوية التي لم يتحرج في الاختلاف بشأنها مع زملائه وكان برينت يعتبر نفسه منسقاً، وهذا رأي يعضده أسلوبه المتواضع والخبرة التي استمدها من توليه رئاسة لجنة التحقيق الرئاسية في فضيحة إيران كونترا، وتوصلت لجنة سكوكروفت إلي أن جوهر المشكلة يتمثل في أن مجلس الأمن القومي تحول إلي جهة عمليات، وعبث في أمور تدخل في اختصاص الوزارات، وخاصة وزارة الخارجية. وكمستشار للأمن القومي طبق برينت ما كان يبشر به، ومع استثناءات قليلة ترك مجلس الأمن القومي مهام الدبلوماسية إلي وزارة الخارجية. وكان يتم إخطاري والحصول علي موافقتي مسبقاً علي تلك الاستثناءات، كالزيارة التي قام بها برينت إلي الصين عام ١٩٨٩م برفقة نائب وزير الخارجية لاري إيجلبيرجر. بل إن برينت التزم إلي أبعد مدى بالاتفاق الرسمي بيننا بضرورة إقناع موظفيه بشكل عام بالامتناع عن لقاء السفراء الأجانب .

كان أول تعاون لي مع برينت كارثة تامة عارضة. وبعد المناظرة المنحوسة في سان فرانسيسكو عام ١٩٧٦م عندما قال الرئيس فورد إن الاتحاد السوفيتي لا يهيمن علي بولندا أرسلنا أنا وبرينت إلي المركز الصحفي لشرح أن الرئيس لا يريد أبداً مرمطة المرشح جيمي كارتر. وسأل أول صحفي عن عدد الفرق السوفيتية المتمركزة في بولندا. ورد برينت بعبوس نحو ست فرق. وحاولنا قصاري جهدنا علي مدار نحو نصف ساعة إبراز الجانب الإيجابي. لكننا فشلنا فشلاً ذريعاً. لكني أعجبت أيما إعجاب بولاء برينت وصموده في وجه الشدة، وهي سمات طالما سألمسها المرة تلو الأخري في سنوات بوش .



كان الثنائي الوحيد الباقي من كبار المسئولين من إدارة ريجان هو كولين باول وأنا، بالإضافة إلي جورج بوش بالطبع*. ومنذ البداية ربطتنا علاقة رقيقة. وفي أحيان كثيرة عند لقائنا بمكتب سكوكروفت انتظاراً لبدء بعض الاجتماعات كنا نسترجع خبراتنا المشتركة عندما كان هو مستشار الأمن القومي للرئيس ريجان وأنا وزير الخزانة كان كولين باول الموهبة العسكرية الفذة في جيله صاحب عقلية راجحة ذو حاشية رقيقة وشخصية آسرة ويتمتع بإحساس نافذ في السياسة، وكثيراً ما وجدنا أنفسنا في خندق واحد .

ومنذ البداية طلبت من تشيني أن يستدعي رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة دون إبلاغي، والتزم بذلك فيما عدا مرة أو مرتين. ولكن في مناسبات عارضة وعندما تثور خلافات بينهما حول قضية سياسية كبرى كان كولين يتصل بي التماساً لاستشارة خاصة، وحدث ذلك بصفة خاصة أثناء حرب الخليج حين كان تشيني أكثر تشدداً من باول في بعض الأحيان ومع هذا ظلت العلاقة بيننا قوية لا تهدد أيامنا .



ولم أعتقد أن أجهزة صنع السياسة الخارجية إبان حكم الرئيس ريجان قد خدمته بالطريقة الواجبة. فالمسيطر عليها غالباً هو الخداع والمشاكسة والنميمة والثرثرة وجداول الأعمال المتصلة، ومنذ اليوم الأول كانت الشكوك وانعدام الثقة خارج نطاق السيطرة بين الكثير من اللاعبين. ولا يسعني تذكر أنه مرت فترة طويلة لم يكن فيها الكل بمجلس الأمن القومي يشكل غصة للكل. وعلي مدار ثمانية أعوام عين الرئيس ريجان سبعة مستشارين للأمن القومي. وكثيراً ما إتسم أداء مجلس الأمن القومي بالتهور. كما أوضحت وثائق فضيحة إيران كونترا بالتفصيل الممل. بل وصل الأمر أحياناً إلي أنه عندما يتخذ الرئيس قراراً بشأن قضية سياسية كبري فإن مرؤوسيه يتجاهلون رغبة الرئيس ويطبقون سياساتهم الخاصة .

---

* خلف باول الأدميرال ويليام كرو الذي انتهت رئاسته لهيئة الأركان العامة المشتركة في ٣٠ أيلول سبتمبر عام ١٩٨٩م

واعتقد أن رئاسة ريجان هي الأشد إثارة الجدل خلال ربع قرن. لكن سياسته للأمن القومي لم تنجح إلا بسبب قوته – رغم افتقار تلك السياسة إلي عنصري التنظيم والتعاون. ولم تسد الفوضي والتخبط أي خدمة له أو للبلاد، ولم تكن الخطة الفاشلة التي طرحها معي مايك ديفر سوي محاولة لضخ بعض الألفة والانسجام في عملية الأمن القومي، وكالمتوقع فقد نسفتها نفس الصغائر التي كانت سبباً في طرحها في المقام الأول. واستشعرها بوش جلية واضحة وهو نائب للرئيس علي مدي ثمانية أعوام، ولذا وعندما أصبح رئيساً صمم علي أن يعمل النظام بالطريقة المفترض أن يعمل بها. واعتقد أنه فعل ذلك .

«المبنى»

علي مدي أربعة عشر عاماً من الخدمة العامة لم أفقد رباطة جأشي سوي مرة واحدة حدث هذا يوم الثالث عشر من آب أغسطس ١٩٩٢م اليوم الذي أعلنت فيه تركي وزارة الخارجية الأمريكية لأصبح رئيساً لهيئة لموظفي البيت الأبيض. كانت كلمة الوداع التي ألقيتها في قاعة الاجتماعات بالخارجية تجربة مريرة غير متوقعة بالنسبة لي. فلم يسبق لي أن خضت غمار تجربة مماثلة. فقد أغرورقت عيناي بالدموع وأنا أستقل المصعد عائداً إلي مكتبي بالدور السابع، وأنا الآن وزير سابق للخارجية. كانت دموع الفخر ممزوجة بعزوف كبير عن ترك أكثر المناصب الحكومية التي شعرت فيها بارتياح شخصي .

وقلت في خطاب الوداع: «إن أي نجاح حققناه يرجع في الجانب الأعظم إلي العمل الشاق والحيوية والاحتراف والالتزام من جانبكم جميعاً .. إنكم نخبة ممتازة من المحترفين. إنه لشرف عظيم أن تسبق لي الخدمة معكم». إنني أعني كل كلمة أقولها فأنا أشعر بالفخر تجاه ما أنجزناه معاً علي مدار أربعة وثلاثين شهراً انقضت بسرعة. إن إحساسي عميق بالفراق لأنني بدأت العمل يحيط بي الغموض عما ينتظرني في الخارجية .

وبينما كنت أشعر بارتياح كبير لعلاقتي مع الرئيس وكبار مستشاريه فقد غمرني بعض الخوف لدي البدء في إدارة دفة الخارجية. ولم يكن شاغلي هو إدارة جيش ضخم من العاملين : فكما تعرفون سبق لي إدارة أربع حملات انتخابية وتنظيم البيت الأبيض بنجاح

وإرساء نظام راسخ بوزارة الخزانة. لذا فلم تكن البيروقراطية هي مبحث الخوف بل إدارة «المبني» .

وبينما لا تعني وزارة الخارجية لمعظم الناس سوي مجرد مبني حجري ضخم قائم يتألف من ثمانية طوابق، يعود إلي ما بعد الحرب العالمية الثانية، ويطل علي طريق فسيح. لكن «المبني» يعني لسكانه كائناً حياً يتنفس يعج بالآراء والسياسات، وقبل إقرار تعييني انتقلت في شهر كانون الأول ديسمبر عام ١٩٨٨م من المقر المؤقت لبوش في شارع كونيتيكت إلي الطابق الأول بوزارة الخارجية. حيث خصص جورج شولتز جناحاً لي ولطاقم العاملين معي. وسرعان ما أدركت هناك معني «المبني» وآرائه حول القضايا المطروحة، واكتشفت علي الفور أن لمختلف طوابق «المبني» آراؤها الفريدة حول الأحداث. «فالطابق السابع لا يريد أن تمضي الأمور بهذه الطريقة» «والطابق السادس يريد تنقيح ذلك» وفي الحقيقة كان للحروف الأبجدية هي الأخرى آراؤها علي ما يبدو فحرف «S» لا يريد وحرف «P» ينقض فجأة و «EUR» خارج نطاق السيطرة. ولكل مكتب في الخارجية حرف يرمز له ولذا فقد كانت أولي مهامي هي تعلمها. ويرمز الحرف «S» إلي وزير الخارجية بينما حرف «P» يشير إلي وكيل وزارة الخارجية للشئون السياسية أما «EUR» فهو مكتب شئون أوروبا وكندا. وبالاختصار تحول مبني الخارجية. ذلك المبني المشيد من الحجر الأصم إلى كائن حي تدب فيه الروح وسرعان ما أدركت السبب .

ومما يدعو للسخرية أن هذا جزءً من الطابع الوظيفي للمبني نفسه. فالوزير وكبار مساعديه ووكلاء الوزارة موجودون في الطابق السابع، ويضم الطابق السادس معظم مساعدي الوزير ونواب مساعدي الوزير. أما مديرو المكاتب الإقليمية والمكاتب فإنهم يقطنون الطوابق الأولي. وتبدأ رحلة أي مذكرة مرفوعة لي بالطابق الرابع ليتم قبولها أو «تنقيحها» كما أنزل ثم تنتقل إلي الطابق الخامس ثم السادس لتراجع مراجعة نهائية في الطابق السابع قبل العرض عليّ. ولكن الأصل المنظمي أو المؤسسي لوزارة الخارجية يستمد جذوره بما يتجاوز الشكل المعماري للمبني. فبدون شك تنفرد وزارة الخارجية بكثافة بيروقراطية منقطعة النظير لم أصادفها من قبل. وفي معظم وزارات الحكومة يتولي توجيه دفة العمل مجموعة صغيرة من السياسيين مع موظفي الخدمة المدنية – أي البيروقراطية المحترفة. التي يتمثل الهدف منها في الارتفاع فوق قضايا السياسة وحفظ الذاكرة المؤسسية وتقديم الخبرة

الضرورية. ويوجد أيضاً في وزارة الخارجية ما يعرف بالسلك الدبلوماسي والقنصلي، وهو مجموعة منتقاة من موظفي الشئون الخارجية تتولي مسؤولية المكاتب الوظيفية والأمريكية في واشنطن وسفاراتنا في الخارج. ويلتحق الأفراد به بعد اجتياز امتحان وزارة الخارجية وهو امتحان تحريري قاس تعقبه سلسلة من المقابلات الشفوية، وغالباً ما يأتي الناجحون من كليات القمة في الولايات المتحدة لاسيما ايفي ليج حيث المعرفة والفهم بالقضايا الخارجية مثل اللغات والجغرافيا والتاريخ والثقافة والأغذية والمشروبات. ويلتحقون بالسلك الدبلوماسي والقنصلي بمجرد إتمام فترة التدريب ويتناوبون الخدمة والمواقع في الخارج وفي واشنطن، وتنص القواعد علي ألا يخدم موظف السلك الدبلوماسي والقنصلي أكثر من خمسة أعوام في واشنطن. الأمر الذي يجعله يقضي في الخارج فترات أكبر مما يقضيها في الولايات المتحدة، وبالإضافة إلي العمل المعتاد للسفارة الذي ينصب أساساً علي تفهم آراء الحكومات المضيفة حيال الأحداث والإبلاغ عنها. فإن هذا الجانب للسلك الدبلوماسي والقنصلي يؤدي إلي تفاقم داء «الموالاة» أي ميل الدبلوماسي للتوافق بشكل أكبر مع مصالح «العميل» عن مصالح واشنطن. فثم فاصل دقيق بين تفهم موقف البلد الذي يخدم الدبلوماسي فيه وبين موالاته وتبنيه تماماً لدرجة تحوله إلي مدافع أساسي عن هذه المواقف في المناقشات السياسية. ولا يقتصر هذا الداء علي موظفي السلك الدبلوماسي والقنصلي فحسب. فبعض حالات «الموالاة» التي واجهتها جاءت من سفراء من خارج السلك الدبلوماسي سقطوا في هوي الدول التي يعملون بها وحكوماتها لدرجة فقدوا معها تمييز ما هو في المصلحة الوطنية الأمريكية.

وثمة خطر آخر يحدق بموظفي السلك الدبلوماسي والقنصلي يتمثل في النزوع إلي الاعتقاد بأن الآخرين لا يفهمون في الشئون الخارجية كموظفي هذا السلك، وربما كان هذا صحيحا تماما قبل الحرب العالمية الثانية إلا أن الأربعين عاماً الماضية شهدت تطويراً في البرامج الأكاديمية ومراكز المعلومات والمنظمات والمؤسسات البحثية أفرزت بدورها عدداً لا بأس به من أمهر المتخصصين خارج نطاق السلك الدبلوماسي والقنصلي. ونتيجة لذلك وفي حالات كثيرة كان المعين من الخارج يملك فهماً أكبر بالبلد عن الموظف المكلف بشئون بلد معين لعامين أو ثلاثة أعوام أمضاها في المكتب .

وأخيراً فإن الضرورة الوظيفية تقتضي أن يصبح موظف السلك الدبلوماسي والقنصلي سفيراً، ويمثل هذا التعيين بلوغ القمة المهنية. لذا فإن الكثيرين منهم يرون أن أي تعيين من

الخارج فى مناصب السفراء ينازعهم حقهم الأصيل الثابت. إضافة إلي هذا ومن منظور شخصي بحت فإن السفير الأمريكي المعين من الخارج يمكن أن يكون شخصاً بالغ القوة.

وفى إطار الإعداد لتنظيم «المبنى» خاطبت كل الرؤساء السابقين ومعظم وزراء الخارجية السابقين وللإنصاف أبلغونى أن وزير الخارجية شخصية قادرة علي تطبيق السياسة ومرجعية فى القضايا الدولية ومورد يتعين استغلاله. ووجه كل منهم علي طريقته تحذيراً لى.



وذكرنى إيدموند ماسك قائلاً: «إنهم دائماً ما يبالغون فى إضفاء طابع الإثارة علي ردود أفعال عملائهم» أما تحذير هنرى كيسينجر فقد كان بالغ الوضوح «إنهم أذكياء جداً. فهم يعرضون عليك ثلاثة اختيارات: إما الحرب النووية أو الاستسلام غير المشروط أو طريقتهم المفضلة فى العمل» .

وكان ريتشارد نيكسون أكثر حسماً، وقال لى: «إن حقبة الحرب الباردة لم تشهد سوي ثلاثة وزراء خارجية عظام هم أتشيسون وفوستر دالاس وكيسينجر. وعاني ثلاثتهم من انعدام ثقة البيروقراطية. عليك أن تقودهم. لا تدعهم يسيطرون عليك» وكنت مصمماً علي ألا يحدث ذلك أبداً .

وتوليت وزارة الخارجية مفترضاً أن الرئيس يصنع السياسة الخارجية لا السلك الدبلوماسى والقنصلى، وهذا هو السبب الذى حدانى أن أقول بشكل قاطع فى حديث نشرته مجلة تايم بعيد تعيينى فى المنصب: «إننى أعتزم أن أكون الرئيس فى وزارة الخارجية ولست رجل الخارجية فى البيت الأبيض». وكانت هذه إشارة متعمدة من جانبى وأردت بها توجيه رسالة إلي البيروقراطية بأن أسلوبى فى الإدارة سيكون مختلفاً عن أسلوب سلفى .

وفى فترة رئاسة ريجان كان جورج شولتز أقرب الزملاء إلىّ فى الحكومة. وسار سبيلنا فى الحياة علي خط متواز: برينستون فيالق مشاة البحرية، الخزانة ثم الخارجية. وكنت

أعتبره نموذجاً للوظيفة إلى حد ما في تلك الأيام. وكان صديقاً وكنا نري معظم قضايا السياسية من نفس الزاوية في كثير من الأحيان. وخدم نحو ستة أعوام بتميز فريد في مناخ عدائي مرعب .

وكنت أتابع مسار الأحداث، ولا أدري كيف استطاع الصمود، وكنت متعاطفاً أشدالتعاطف مع موقفه، وكم من مرة وفرت له الحماية حينما كان خصومه يحاولون النيل منه مراراً. ففي إحدي هذه المرات علي سبيل المثال أعد بيل كلارك مستشار الأمن القومي حينذاك خطة لإيفاد جين كيركباتريك في مهمة لأمريكا اللاتينية دون علم شولتز. وأشرت علي الرئيس قائلاً: «ألا تعتقد أنه ينبغي إبلاغ وزيرخارجيتك بالموضوع؟ «فسارع إلي موافقتي وألغي الخطة .

وانتهج شولتز أسلوباً «مؤسسياً» في إدارة الخارجية. فاعتمد أولاً وفي المقام الأول علي السلك الدبلوماسي والقنصلي في إدارة «المبني» وتوجيه السياسة وأيدته، ويتمثل السبب إلي حد بعيد في أن سنواته كانت ضرورية لإجراء أي تغيير إضافي وتقدمي في الوزارة. فقد بدأت ثورة ريجان في الشئون الخارجية مع فترة الولاية الثانية لأليكسندرهيج في الخارجية ثم ما لبث أن وفد شولتز، وتكيف السلك الدبلوماسي والقنصلي مع السياسة الجديدة، وهكذا استطاع شولتز بفهم كبير الاعتماد بشدة علي خدمة المحترفين .

ولأسباب ثلاثة حاسمة واجهت وضعاً مختلفاً تمام الاختلاف يتطلب نهجاً مؤسسياً مختلفاً كالآتي:

السبب الأول: يتمثل في أننا كنا نتجه نحومرحلة تغيير ثوري وبينما لم يكن أحد يتصور الكيفية التي سيحدث بها هذا التغيير الثوري، كنت أعرف منذ البداية شأن السوفيت، إننا سنكون في حاجة إلي «تفكير جديد» في سياستنا الخارجية. وبالطبع فإن التفكير الجديد يقتضي أناساً جدداً أصحاب عقول فذة ولديهم تصورات مختلفة، ويلزمني لديهم أساساً تضخم الذات الحاصل في السياسة الحالية. ومن العسير تبيان مدي الصعوبة التي يواجهها البيروقراطيون في التكيف مع التغيير الجذري. ولكن وبشكل عام ينزع معظم العاملين في العمل الحكومي شأن أي عمل آخر إلي معالجة مشكلات الغد بحلول اليوم، وفقط عندما تفشل تلك الحلول سيسعون إلي البحث عن طريق آخر. وفي القطاع الخاص هناك هدف واحد يدفع

الناس دائماً إلى تغيير أساليبها – وهو الربح – ولكن في السياسة والعمل السياسي نادراً ما يوجد هدف واحد محدد، ويوسع أي فصيل يقف وراء سياسة معينة أن يفسر دائماً كيف تؤتي خطة عمله ثمارها، أو كيف ستؤتي ثمارها علي أفضل وجه. فقط لو تم استنهاض هذا أو ذاك أو الآخر.

والسبب الثاني: كانت إدارة بوش إدارة جديدة، وهذا يعني أن الكثيرين ممن عينهم بوش إما سيغادرون الوزارة إذا كانوا تعييناً سياسياً من الخارج، أو سينتقلون للعمل بالخارج إذا كانوا من السلك الدبلوماسي والقنصلي، والأهم هو أن ننهي ميراث ريجان المتمثل في السلام عن طريق القوة بهدف البدء في صد الشيوعية الأممية وتعزيز انتصار الديموقراطية في وسط وشرق أوروبا وفي الاتحاد السوفيتي نفسه. وهذا في حد ذاته يتطلب استراتيجية مختلفة تمام الاختلاف تقتضي أيضاً أشخاصاً جددا.

السبب الأخير: كانت هناك حاجة لإيلاء اهتمام أكبر لبناء إجماع داخلي في الداخل، وبرغم فوز الرئيس السابق علي مايكل دوكاكيس أكد الديمقراطيون سيطرتهم مجدداً علي مجلسي الشيوخ والنواب، وكان من المحتمل أن تؤدي مرارة الحملة الانتخابية إلي تسميم الأجواء اللازمة لبناء سياسة حقيقية غير حزبية. ولهذا السبب فقد أردت أن يكون موظفو الوزارة وهيكلها التنظيمي أكثر إرضاءً للجمهور الداخلي. ليس في الكونجرس فقط بل في البلاد بأسرها.

وفي هذا المناخ، كنت أعتقد أن الجمود المؤسسي للسلك الدبلوماسي والقنصلي بقواعده وأعرافه وتسلسله القيادي البيروقراطي المنفصل يحول دون الاعتماد عليه بمفرده من أجل مواجهة التحديات الماثلة. ومعظم موظفي هذا السلك موظفون أكفاء مطيعون ومن الحمق ألا يستغل أي وزير خارجية قوتهم، وهذا هو ما فعلته وصادف هوى لدي الكثيرين منهم، ولكن كما يتعلق الأمر برأي مجموعة كبيرة تنزع بعضهم نحو تجنب الإقدام علي المغامرة أو تبني تفكير خلاق.

وللإنصاف فلم يكن الخطأ خطأهم بالكامل فأحد الأسباب الكامنة وراء عزوف بعض موظفي السلك الدبلوماسي عن التحلي بروح المبادرة يتمثل في أنهم حين يتقدمون على المبادرة فغالباً ما يواجهون معاملة خسيسة في عملية إقرار مجلس الشيوخ لتعيينهم، وهناك

الكثيرمن الأمثلة لعرقلة أعضاء مجلس الشيوخ من العربيين للتعيينات بل ورفضها كلية لمجرد أنهم لا يحبون النهج السياسي للشخصية المراد تعيينها. وفي أغلب الحالات كانت الشخصية المعينة تطبق سياسة الرئيس أو وزير الخارجية. وطالما تكرر ذلك فيما يتعلق بالسياسة تجاه أمريكا الوسطي فعند الكثير من هذا الأمثلة لايسعك أن تلوم الدبلوماسيين المحترفين إذا التزموا طريق الأمان، وعلي سبيل المثال كان جوك كوفي وجون بوش نيل إثنين من ألمع موظفي السلك الدبلوماسي وقد أسديا خدمات جليلة لبلدهما أثناء تولي للوزارة. لكنهما حرما من الترقية إلي منصب السفير الذي يستحقانه عن جدارة.

ولهذه الأسباب في المقام الأول فضلت تركيز سلطة السياسة مركزيا في يد فريق صغير من المعاونين الموهوبين والموالين، وجعلت منهم الإطار الخارجي.

كان هذا الأسلوب علامة مميزة لعملي في الحكومة فقد علمتني التجربة أن المديرين الذين يحيطون أنفسهم بمرؤوسين ضعاف مآلهم الفشل. فلا مجال علي الاطلاق لاختيار سوي أفضل الأكفاء لشغل مثل هذه المواقع بالغة الحساسية. وغني عن القول أنه خلال العقدين الأخيرين كان أكثر رؤساء هيئة موظفي البيت الأبيض نجاحاً هم أولئك الذين أحاطوا أنفسهم بكبار المساعدين الذين يمكنهم النهوض بوظائفهم .

وبخلاف الموهبة والولاء الشخصي للرئيس ولي كنت أعرف أن هناك حاجة لتحلي فريقي بعدد من المؤهلات.. كنت أريد أناساً يمكنهم طرح الأفكار والمبادرات. أناس أولي رغباتهم قول «نعم» ليس بالضرورة لي ولكن للعمل. فالنزوع الطبيعي لأي بيروقراطية هو عدم الإقدام علي فعل أي شيء. وهذا حقيقي في أروقة ودهاليز الخارجية. حيث يمكن أن يؤدي عمل أي شيء – إلي نشوب حرب. بل قد يؤدي إلي ما هو أسوأ في بعض الأحيان من منظور البيروقراطية – أي حدوث صراع مع العملاء الإقليميين. وأعتقد أن هذا هو سبب اللغو الكثير عن «المبنى» أو «الطابق السادس» أو «EUR»، إنها طريقة لإخفاء شخصية صانع القرار، ومن ثم تجنب المسئولية في نهاية الأمر. فسوف يتعين علي فريقي أن يتفوق في تحويل الأفكار إلي عمل، وهذا يعني أيضاً أنني كنت أريد منفذين ومطبقين للسياسات، وكنت أريد أيضاً أشخاصاً يفهمون في السياسة. لأن السياسة ببساطة توجه الدبلوماسية وليس العكس.

وقد كانت قوة هذا التصور التنظيمي هي التي سمحت لي بطرح مبادرات خاصة ومتماسكة وتوظيفها لتحقيق انفراج في عدد من الأزمات الدبلوماسية .

وهكذا فقد كان النظام شديد الفعالية في شن الهجوم. لكن أعوزته هذه القوة في الجانب الدفاعي اللازم لتجنب وقوع الأزمات، وألقي هذا النهج عبئاً ضخماً عليَّ وعلي أقرب معاوني الذين لم يتمكنوا من التركيز علي كل أزمة محتملة. ومع ذلك وبوضع كل شيء في الاعتبار، اعتقد أنه خدمني والأهم أنه خدم إدارة بوش بشكل غير عادي .



وضمت أول مجموعة مصغرة في فريقي ثلاثة هم : بوب زوليك ودينيس روس ومارجريت تاتويلر. وجمع زوليك وهو من مواطني ألينوي ما بين الإحساس العام للغرب الأوسط مع التطور السياسي لمن تلقي تعليمه في أرقي المدارس الأمريكية، علاوة علي تلقيه التعليم في مدرسة القانون بهارفارد ومدرسة كيندي لنظم الحكم. وسبق له العمل معي في وزارة الخزانة وكان مديرا ناجحا ومحللا سياسيا وكاتبا. وتعلمت في البيت الأبيض أنه لكي تسيطر على السياسة فلابد أن تسيطر على الصحف ولذا فقد جعلته مستشارا للإدارة (C) وأمرت بضرورة عرض كل ورقة عليه أولا وجعله هذا كما وصفه أحد الصحفيين «عقلي الثاني» الذي يمكنه تنظيم وتوليف وتنقيح الأفكار وبالتالي ضمان ألا يعرض على مكتبي سوى نوعية واحدة من الأفكار والمبادرات تامة التنقيح. وبإستثناء ريتشارد درامان من العسير أن تجد شخصا مناسبا للمنصب.

وتمتع زوليك بمقدرة خارقة علي استخلاص المعلومات وعرضها في صفحة واحدة من «الرصاصات» و «النقاط الموجزة» في شكل مثالي للإيجاز. وكذلك كانت قوائم ما تقتضي الحاجة عمله، وإذا كانت فيه نقطة ضعف فهي أدبه الجم وسوقه عشرة أسباب تدعو لعمل شيء ما عندما تكون ثلاثة أسباب كافية، وشأن معظم مساعديَّ فإنه لا يطيق الحماقات وجعله هذا إلي جانب وضعه الوظيفي في مكتب الوزير واحداً من الشخصيات مرهوبة الجانب في الوزارة .

ويكاد دينيس روس الذى إختزته مديراً لفريق التخطيط السياسي (S.P) أى «فـريق التخطيط التابع للوزير» أن يكون النقيض لزوليك. ويحتمل أن يكون روس ابن كاليفورنيا أكثر من يتمتع بهدوء الأعصاب في وزارة الخارجية، ومن الإهانة أن تصف شخصاً من كاليفورنيا بأنه «طري» لكن هذه هي الكلمة الوحيدة المناسبة لوصفه، وعمل روس فى البنتاجون بعد حصوله علي الدكتوراه. ثم انتقل للعمل فى فريق التخطيط السياسي مع هيج، ثم انضم بعدها إلي العاملين في مجلس الأمن القومى أيام ريجان وخلال دراسته الجامعية عمل روس في الحملات الانتخابية لروبرت كيندى وجورج ماكجفرن ولايزال نسبياً من الليبراليين السياسيين رغم أنه عمل مستشاراً للسياسة الخارجية لجورج بوش في حملة عام ١٩٨٨م وبينما يتحدث زوليك «بالرصاصات» و «النقاط الموجزة» فإن روس يتحدث بالخطط والتصورات، وتخصصه الدقيق هو الشرق الأوسط والاتحاد السوفيتي. لكن معرفته العامة مفيدة بشكل شامل رغم أن مساعدته هيلين إيلز هي الوحيدة التى يمكن أن تعيده إلي نصابه .

وشكل ثلاثتهم فريقاً شديد البأس لا تنفصم عراه، وفى الحقيقة فقد نقلت مكتب مدير التخطيط السياسي إلى «صف الماهوجنى» وهو الممر الداخلى بالطابق السابع الذى سمي نسبة إلي ألواح الماهوجنى التي تكسو الجدران. حيث يوجد وزير الخارجية ومساعدوه .

وفى صف الماهوجنى كانت توجد أيضاً مارجريت تاتويلر مساعد وزير الخارجية للعلاقات العامة، والمتحدثة باسم الشؤون العامة (PA) وكانت تاتويلر أول شخص يلتحق للعمل بفريق إدارة حملة فورد عام ١٩٧٦م وأصبحت لاحقاً رئيس الحملة في بلدها ألاباما، وبعد عامين أصبحت الموظف الثاني في لجنة العمل السياسي لجورج بوش في هيوستون. وقد بدأت فى واشنطن كمساعد تنفيذى لى فى عهد ريجان ثم مسئول اتصال بحملة إعادة الانتخاب عام ١٩٨٤م. وصحبتنى فى العمل في وزارة الخزانة كمتحدثة باسمى، واقنعتها رغم تحفظاتها بتولي نفس العمل فى الخارجية .

وابلغنى نيكسون ذات مرة «بأنها تتحدث بلهجة الجنوب ــ الجملة الرقيقة». وكانت فى الوقت نفسه «صارمة وممتازة ومراوغة ودقيقة» ولامتلكت تاتويلر مقدرة فائقة علي تصديف الحجة والحديث السياسى المزدوج لتحديد الهدف .

وتميزت بإحساس دقيق بما ديفيده داخلياً، وكانت شديدة الحرفية مما جعلها مرهوبة الجانب أكثر من روليك. لكن ما من أحد مثلها كان يمتلك طاقة استشعار سياسي أو ولاء شخصي .

والمهم أنني أردت التيقن من السيطرة علي السياسة، وفي وزارة الخارجية يعني ذلك السيطرة علي الكلام. وفي البنتاجون علي العكس. فإن برامج الأسلحة هي المسألة الحقيقية وهنا يعني الدولارات لا الكلمات، وفي الخارجية فإن المرء في حاجة ليسيطر علي ما يقال عن مواقف الولايات المتحدة تجاه مختلف القضايا وكان روس بمشاركة مكثفة مع زوليك يشرف علي عملية إعداد الأحاديث والكلمات، وتولت تاتويلر مهمة العلاقات العامة والصحافة بمساعدة كيم هوجارد ثم جريس بوي وبينهما جودي أونيل وماري آن يودين، وفي هذا الصدد كانت تاتويلر أبرع متحدث باسم الخارجية لأنها درجت مع استثناءات قليلة علي تطبيق تعليماتها بالنسبة للإيجاز الصحفي في الظهر، وكانت تلتزم بما أريد أن أبلغه للصحافة لا أكثر ولا أقل. وكانت تمضي معظم فترة بعد الظهر والساعات الأولي للمساء في التحدث مع الصحفيين عبر الهاتف حول «الخلفيات» مثبتة قواعدها مرة أخري في انضباط صارم. وبالتأكيد فقد خدم هذا غرضاً سياسياً صغيراً – كما تعلمت في البيض الأبيض – ولكن في الخارجية فقد خدم أيضاً هدف دبلوماسياً حساساً. وكانت الحكومات الأجنبية تتابع الإيجازات الصحفية للخارجية عن كثب، وأتاح لنا التوظيف الدقيق للإيجازات الصحفية إرسال مختلف الإشارات إلي الحكومات الأجنبية وتحديد خطواتنا الدبلوماسية، وخاصة فيما يتعلق بعملية السلام في الشرق الأوسط. وأشرفت تاتويلر أيضاً علي تنظيم جدول المواعيد – اختصاص كارين جروميز – وهي وظيفة أخري حساسة ولكن لا تلفت الأنظار. وكان تحديد الشخصية التي التقيها ومدة اللقاء تنطوي غالباً علي مضاعفات دبلوماسية مهمة. وهكذا فإن البروتوكول وتنظيم المواعيد عملية جوهرية. وبالطبع لم تضطلع بها جروميز وحدها، فكان يعاونها أرديس جونسون وكلاريو جيلبرت وليندا ديوان في تحديد المواعيد المتغيرة بل والمتعارضة أحياناً. وبالمثل فإن البروتوكول هو السياسة وقد أضفي عليه جوزيف ريد صديق جورج بوش الكثير من أسلوبه ومهارته.

وبات زوليك وروس وتاتويلر يعرفون بـ « المجموعة الصغيرة» ليس لأنهم لعبوا أدواراً حاسمة في أهم مبادراتي فحسب. بل أيضاً بسبب صغرهم سني. لكن كانت هناك مجموعة

مصغرة أخري علي نفس القدر من الأهمية ضمت لورنس إيجلبيرجر نائب وزير الخارجية وروبرت كميت وكيل وزارة الخارجية وجانيت موليتز مساعد الوزير لشئون الكونجرس، ولم تألُ هذه المجموعة جهداً فى طرح المبادرات والقيام بالعمل الشاق فى إدارة الأزمات .

ويضطلع نواب الوزير بكل العمل ولا فخر، ولم يكن أحد مؤهلاً لمعالجة المشاكل المستعصية فى إنكار للذات مثل إيجلبيرجر وباعتباره (D) كان إيجلبيرجر يعرف أن مهمته هي أداء العمل البغيض الذى لا يريد أو لا يستطيع أحد غيره أداءه وكان يقدم علي العمل بلذة يصعب علي أحد فهمها ما لم يتحدث إلي ريتشارد نيكسون الذى كان يعرف إيجلبيرجر وهو مساعد لهنري كيسنجر. وقال لى نيكسون: «إنه موال تماماً وليست له أهدافه الخاصة وهو شخصية أليفة لطيفة» .

وكانت كل هذه الصفات حقيقية ولاسيما الصفة الأخيرة وكانت لديه مقدرة خاصة علي تفهم «المبني» والتكهن بالمشكلات ونزع فتيلها، وجعل هذا منه أسطورة فى السلك الدبلوماسى والقنصلى. حيث أمضي قرابة ربع قرن من قبل أن ينضم لكيسنجر ومساعديه وكان يعاوننى دائماً نواب من الطراز الأول. غير أنه كان بارعاً فى تسيير الشئون اليومية للوزارة بمساعدة إيفان سيلين ثم جون إتى دبليو روجرز الذى خدمنى علي أكمل درجة فى المواقع الإدارية البارزة فى البيت الأبيض والخزانة .

وجعلت كيميت (P) لأننى أردت أن يتولي رئيس قوى الإشراف علي المكاتب الإقليمية الخمسة التى تقوم بتنفيذ الشق الأكبر من السياسة. كان كيميت قناصاً بارعاً من الغرب أسرنى عندما كان يعمل فى مجلس الأمن القومى أيام ريجان وبذل جهداً مضنياً معي وهو مستشار عام للخزانة. وعندما طلب منى جورج بوش ترشيح شخص ما للقيام بالمهمة الحساسة بمناقشة والتحدث إلي المرشحين المحتملين كنواب للرئيس أوصيته باختيار كيميت، وعلي نقيض الشائع فقد قام بعمل خارق وطرح كافة الأسئلة الصحيحة ولم يبدد الثقة مطلقاً. وباعتباره (P) أصبح كيميت مديراً للأزمات، وهو العمل الذى أداره باقتدار أثناء أزمة الخليج. وكان (الكولونيل بوب) كما هو معروف لسابق انضمامه إلي قوات المظلات يدرك كيف يدير اجتماعاً، وأن تسير الأمور بشكل فعال وهي مهمة هامة فى «المبني» حيث معايير وقواعد العمليات أقرب إلي الكاريكاتير، وأشبه بقسم النفاق من قبيل «أولا لا تفعل شيئاً ...

وأولا لا تسبب ضرراً، وكان كيميت رجلي في لجنة النواب، وهي أرفع لجنة بين الوكالات الحكومية تتولي معالجة قضايا الأمن القومي دون مستوي الوزراء. وتمثلت العقبة الأخري المحتملة أيام العمل في الكونجرس .وكانت جانيت مولينز بوصفها مديرة للعاملين لدي اثنين من أعضاء الشيوخ سابقاً تعرف الكونجرس خير المعرفة، وأثناء حملة بوش أظهرت مقدرة حقيقية علي تفعيل الأمور بالتنسيق مع رجال الإعلام. وكانت هي الاختيار الطبيعي لرئاسة مكتب الاتصال بالكونجرس (H) وهي وظيفة كنت أعرف أنها حساسة بعد الحملة الانتخابية المريرة وأظهرت مهارة فائقة في موقعها .

وحظيت المجموعتان المصغرتان بكل دعم وتأييد طاقم مكتبي كارون جاكسون ولين لابيبري ومارلين نيومان التي كان حماسها متقداً لدرجة انتهت بزواجها من ابني دوج .

وأحكمت القبضة علي المبني بشغل المواقع الباقية لوكلاء الوزارة ومساعدي الوزير بخليط من موظفي السلك الدبلوماسي والقنصلي والتعيينات الخارجية السياسية والموظفين المدنيين .

ورغم التقليد السائد في حينه أقدمت إدارة بوش علي تعيين المزيد من الدبلوماسيين المحترفين في وظيفة سفير بما فاق إدارة ريجان. علاوة علي ذلك اخترت دبلوماسياً محترفاً ليكون واحداً من أربعة وكلاء للوزارة. كما اخترت ثلاثة من الدبلوماسيين المحترفين مساعدين للوزير من بين خمسة مساعدين للوزير في المكاتب الإقليمية، وكلي فخر لاختياري إيجلبيرجر نائباً للوزير، وهو أول دبلوماسي من السلك الدبلوماسي والقنصلي يتولى هذا المنصب، وأنا فخور أيضاً لاختياره خلفا لي في الوزارة عندما تركتها استجابة لطلب الرئيس بالعودة إلي البيت الأبيض .

ومع وجود نحو ستة وثلاثين مساعداً للوزير ورؤساء وكالات يرفعون تقاريرهم للوزير كنت أعتقد أن التنظيم القائم غير عملي، ولهذا فقد قررت أن يخاطبني مباشرة وكلاء الوزارة الأربعة الذين كانوا مجرد واجهة في النظم السابقة أو يكلفون بمشروعات خاصة علي أن يخاطبني مساعد الوزير من خلالهم. وكان لهذا الإجراء أثره في تقليص نفوذ مساعدي الوزير، ولتجنب إحساسهم بالغبن أو حدوث مشكلات سياسية حاولت تعويضهم بشتي

الوسائل. وعلي خلاف أسلافي كنت أعقد اجتماعاً يومياً لكبار العاملين دون أن يكون بينهم مساعدو الوزير وأصدرت أمراً دائماً بضرورة إدراج أي مساعد يطلب مقابلتي علي جدول المواعيد تلقائياً. علاوة علي ذلك كان لدي أغلبيتهم رقم هاتف مباشر للاتصال بي .

وجراء ذلك لم تكن علاقتي حسنة «بالمبنى» الذى لم يستسغ فريقي الجديد. وساعدهم وحرصهم علي ذلك قدامي مندوبي الصحف في وزارة الخارجية الذين جفت مصادرهم بعد أن مُرَكَزَتْ صنع القرار، ولم يسعهم سوي التلهف علي نشر الآراء المشهية لبعض الدبلوماسيين المحترفين الساخطين. لكن ما أَثَّرَ فيَّ حقاً هو الإتهام الشائع بأنني مبتدئ في السياسة الخارجية، وكان قد سبق لي المشاركة علي مدي ثماني سنوات بدرجات متفاوتة في قضايا السياسة الخارجية خلال فترتي حكم ريجان، وبالنظر إلي الماضي فربما كنت الأكثر استيعاباً لأعراف وأدبيات الثقافة الدبلوماسية. وكان بوسعي عمل الكثير لأنتقي عدداً من الشباب وألمع موظفي السلك الدبلوماسي شباب مثل بول بيرنز و دوان كرونز وديفيد ويلش وكين بريل ونيك بيرنز ومولتي ويلياسون وريتشارد بوتشر، وكلهم عملوا بالقرب مني وأصبحوا نجوماً. وربما كنت غير متآلف مع الجوانب البروتوكولية لوظيفة وزير الخارجية كما يجب. لكن النتائج الجوهرية كانت هي ما توقعه الرئيس بوش مني، وليست المهارة فيما يتعلق بالبراعة في اللطف الدبلوماسي. ففي عالم يتغير بسرعة خارقة يجب أن تحتل النتائج قمة الأولويات. فلو كنت ناجحاً فإن مماحكة البعض في السلك الدبلوماسي وبعض الموظفين الساخطين من الإدارة السابقة لا تعني شيئاً. ولو كنت فاشلاً لما أنقذتني أو أنقذت الرئيس مشاعرهم فلم يكن الاتحاد السوفيتي هو المكان الوحيد الذي يحتاج إلي تفكير جديد فلم يكن جورج بوش ينقصه كل هذه الميراث الثقيل من وزارة الخارجية .

الفصل الثالث

العالم عشية الثورة

لو أني أعنت برأيك المتشائم لشرعت على الفور في الاستفسار عن أفضل أشكال الانتحار بدون ألم. لكن أعتقد أنك تفرط في الإصغاء للجند ويبدو أن أعظم عظة يمكن الخروج بها من تجارب الحياة هي ألا تثق في الخبراء. فلو صدقت الأطباء فلا شيء صحي، ولو صدقت رجال الكهنوت فلا أحد طاهر. ولو صدقت الجنود فلا شيء آمن. فالكل يطلب منك تجرع خمره المعتق مخففاً بمزيج ضخم من الإدراك العام الماسخ.

اللورد سالزبوري

في رسالة إلى اللورد ليتون نائب الملك في الهند

١٥ حزيران يونيو ١٨٧٧

لم يخطر ببالي مطلقاً أن أخوض في معترك السياسة. ناهيك عن السياسة الخارجية. فحرفة القانون هي السائدة بين أفراد عائلتنا. فمن جدي الأكبر إلي جدي مروراً بأبي نزولاً لأكبر اثنين من أبنائي الأربعة كان أبناء بيكر محامون كرسوا أنفسهم للصالح العام وخدمة المجتمع وساهموا في إرساء أسس عالم التجارة والأعمال والتعليم. فيما أصبحت أراضي تكساس ثاني أكبر ولاية بالدولة في القرن التاسع عشر، وانخرط أفراد عائلتي في الخدمة العامة والمدنية فقد كان جدي الأكبر قاضي الولاية في ستينيات القرن التاسع عشر. أما جدي الكابتن بيكر فقد لعب دوراً حاسماً في تأسيس جامعة رايس في هيوستون، وفي تأسيس وتنمية العديد من المنظمات المدنية الرائدة فيها.

لكن السياسة شيء مختلف تمام الاختلاف، وكانت نصيحة الكابتن بيكر لمن يريد أن يصبح محامياً ناجحاً: «عليك بالعمل الشاق والدراسة والابتعاد عن السياسة».

وهذا بالضبط ما فعلته خلال الأربعين عاماً الأولي من حياتي* لكن عندما مرضت ماري ستيوارت ثم توفيت اتصل بي جورج بوش والتمس معاونتي في حملته الانتخابية لمجلس الشيوخ. ومنذ ذلك الحين جرفني التيار. وعلي مدار العشرين عاماً التالية باتت السياسة والسياسة العامة هي شغلي الشاغل، وحتي ومع تولي وزارة الخارجية أصبحت أري السياسة الأمريكية من كل الزوايا تقريباً، وتعلمت فن الاستراتيجية السياسية من الصفر.

الإدراك العام والسياسة الخارجية

رأفادني كل ذلك أيما إفادة عندما أصبحت وزيراً للخارجية، ومع ذلك بدأت تلمس الجوانب الدولية لوظيفتي علي استحياء. فرغم الخبرة العملية في السياسة الخارجية التي

* بعد التخرج مع مرتبة الشرف في مدرسة الحقوق بجامعة تكساس كان من المفترض أن ألتحق في العمل بالشركة القانونية لعائلة بيكر اند بوتس، لكن الشركة في ذلك الحين كانت تخضع لقاعدة مكافحة محاباة الأقارب، لذا فقد انضممت إلي شركة أخري كبري في هيوستون هي أندروز آند كورث حيث تفانيت في العمل وابتعدت عن السياسة، ولطالما أعربت مراراً عن مدي عدم ارتياحي لعدم التحاقي بالعمل في شركة بيكر آند بوتس لأنه مع مرور الوقت كنت مقتنعاً بأنها أفضل شركة قانونية في البلاد. كما أن الشركة سرعان بالفعل عام ١٩٥٧م بإقرار أول استثناء لقاعدة مكافحة محاباة الأقارب نظراً لزملائي الأكاديمية التي تبرر هذا الاستثناء. وقلت أيضاً لو حدث ذلك لكان أكبر خطأ في حياتي. فلو سمحت القول إن في سبب نجاحي، ولو فلنك تقول ماذا تقولون؟ إنه موجود هنا بسبب والده فقط.

اكتسبتها من عملي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض فوزيراً للخزانة في عهد ريجان. فقد أمضيت الفترة من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٨م حتي كانون الثاني يناير ١٩٨٩م أعكف علي إجراء دراسة متأنية لتلك القضايا ويتذكر بوب كيميت أنه بوغت بي أتصل به الساعة السادسة والنصف صباح يوم أحد لأطلب منه شرحاً لمعني «حمل – شديد» وهو مفهوم غامض في الحد من التسلح. ووجدها فرصة ليطرح عبارتين للتفسير قبل أن أقول: «وهو كذلك .. شكراً» وأنهيت المكالمة. وحضرت كل العروض التي قدمها كل وكلاء الوزارة ومساعدي الوزير الحاليين ومعهم المعنيين. فيما كان فريقي الانتقالي المباشر هو أساساً مجموعتي المصغرة بالإضافة إلي جوم سيكوني الذي انتقل إلي البيت الأبيض وعكف علي إعداد أوراق استراتيجية حول قضايا بعينها. كما استظهرت ملفات الحد من التسلح وقوائم أسماء رؤساء الدول والحكومات ووزراءالخارجية. (فلن أدع بأي حال أي عضو بمجلس الشيوخ يحرجني كما تعرض بول كلارك للحرج عند تعيينه نائباً لوزير الخارجية عام ١٩٨١م لعدم معرفته اسم رئيسي زيمبابوي وجنوب أفريقيا).

ولكل هذا يسعني القول أن المعرفة النظرية لا تعد ضرورة مطلقة لنجاح وزير الخارجية. لأن جوهر وظيفة وزير الخارجية سياسي في المقام الأول بمجرد أن يظهر علي الساحة الدولية، وتبدو السياسة الخارجية للعين غير الخبيرة خالية من الاعتبارات السياسية. إنها تتجاوز الأبعاد الحزبية إلي حد كبير عن السياسة الاقتصادية والداخلية. كما أن الأساليب الدبلوماسية وضعت خصيصاً لتشويش النزاع، ولكن كوزير للخارجية كان عليّ دائماً أن أفكر في ثلاثة أبعاد سياسية علي الأقل ينطوي عليها أي اقتراح : هل سنكون قادرين علي بناء إجماع داخلي لتأييده؟ ما هونوع رد الفعل السياسي الذي سيولده في عواصم الخصوم والحلفاء «وأخيراً كيف سيغيرطبيعة علاقاتنا السياسية دولياً؟.

وليس مطلوباً من الوزير بالحكومة أن يركز علي الجانب الفني. بل المطلوب هو التركيز علي الجانب السياسي للحكم. فالوزير لايحل القضايا علي أساس آثارها السياسية فحسب، ولا يتخذ القرارات تبعاً لتشعبيتها السياسية فقط. لكنه يتخذ القرارات ويطرح المبادرات ويتجنب الكوارث ويضع الاستراتيجيات واضعاً كل تلك العواقب في تفكيره بقوة. إنني أفكر وأخطط بهذه الطريقة منذ أن كنت مديراً لحملة الرئيس فورد عام ١٩٧٦م وأعتقد بشدة أن

الاستراتيجية السياسية سواء أكانت محلية أو قومية أو دولية لا تعدو أن تكون وفقاً للإدراك العام سوي تحويل الأفكار إلي أعمال فى ضوء وقائع معينة ولتحقيق أهداف محددة .

وفى هذا الصدد فإننى أشعر بالإرتياح دائماً للفعل لا للتأمل . وبقدر ما تسعفنى الذاكرة فإن دأبى الشخصى والمهنى هو الانطلاق وتحريك الأمور بدلاً من الجلوس والإستغراق فى التفكير فيها. ولا يعنى هذا أننى أترفع عن حياة التأمل أو عالم الأفكار. فقد علمنى أساتذتى فى مدرسة القانون قوة المنطق من خلال الحوارات السقراطية التى لا حصر لها التى أجريناها فى قاعة الدارسة. وتعلمت أن الحجة يمكن أن تصبح مشرطاً حاداً يمكنه قطع الحجر أو النفاذ فى الأفكار الصلبة التى تحجب الموضوع الأساسى. وعلي الحجة أن يعزز وجودها موضوع أو هدف أو سبب .

وإذا لم يحدث هذا فلن تتعدي مجرد كونها مجموعة من الأفكار المثالية المنطوية علي نفسها. فما الفائدة منها ؟

ولو شئت تصنيفى فإنى اقترح أن أصنف كرجل واقعى، وقبل تخرجى كتبت بحثي الأساسى عن الخلاف داخل حزب العمال البريطانى بين أنورين بيفان وإيرنست بيفين الذى أصبح وزيراً للخارجية، وكان الخلاف بينهما يجسد الانقسام بين الاشتراكيين الحقيقيين ومن يمكن وصفهم فى السياق الأوروبى بالاشتراكيين الديمقراطيين. لكن بالنسبة لى فقد كان الخلاف أكثر أصولية : إنه خلاف بين المثاليين والواقعيين. وكنت معجباً ببيفين وكتبت فى بحثى: «لم يكن بيفين مشغولاً بالنظريات بل بالتصرفات العملية. إنه يعرف أن الشخص العاطل يريد الخبز والعمل لا التبشير النظرى بالثورة القادمة. كان بيفين يؤمن بحل مشكلات الحاضر قبل التطرق إلي مشكلات المستقبل. فحل المشكلات الحالية يفوق اعتبارات تحقيق «الهدف بعيد المدي» وبالنسبة لبيفان كان رأييّ أن أكبر نقاط ضعفه هو وأنصاره يتمثل فى: «الافتقار إلي التنازل أمام الواقع» وخلصت بقدر ما يمكن أن يخلص إليه طالب إلي أن «المرء يتولد لديه انطباع بأن أولئك اليساريين يحلون مشكلات الكون بإجراء مناقشة عن مميزات سنة لا وجود لها» .

وربما تكون دراستى للقانون قد عززت تركيزى علي الفعل لا للتأمل، و مى الحال علي هذا المنوال منذ ذلك الحين، وتركت خبرتى فى القانون أثراً طيباً علي موقفى عندما دخلت عالم السياسة والسياسة العامة. فعندما تدخل الحكومة فأنت تقدم علي هذه الخطوة

بمعتقدات وقيم معينة، ومهمتك هي تحويلها إلي وقائع ملائمة لمصلحتك. وهذا بالطبع يؤدى إلي حدوث صراعات مع الآخرين ممن يعتنقون معتقدات وقيما مختلفة ولهم بالتالى مصالح مختلفة، وتتشكل ساحة المعارك فى واشنطن من الصدام بين الأفكار «الذى يوصف عادة بأنه سياسة» مقروناً بالمعارك حول المصالح والقيم. واكتشفت أن هذا الإدارك العام هو مرشد قيم للعمل .

وبتعبير أدق، كنت محظوظاً أن أتولى وزارة الخارجية فى وقت كانت المعتقدات طويلة الأمد عن استراتيجية كبري تنقلب رأساً علي عقب. فالحقيقة الواضحة أنه ما بين عام ١٩٨٩م حتي عام ١٩٩٢م شهد العالم ثورة. فالعالم كما عرفناه قد تغير بشكل بارز، وفى غمار هذه الثورة تعين إحداث تغير جذرى في الافتراضات والاستراتيجيات طويلة الأمد إن لم يكن قد تم التخلى عنها كلية. وتوليت المنصب بعقل منفتح وأكثر مرونة نسبياً، وكلى اعتقاد بأننى مهيأ للسير علي إيقاع التغيير ربما بشكل أفضل من الآخرين .



كان دينيس روس محقاً عندما كتب لى فى ١٦ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨م يقول: إن الرئيس المنتخب يقول ومعه الحق: «إن علينا أن نحلم أحلاماً كبيرة. إننا ندلف إلي فترة تختلف تمام الاختلاف عما شهدناه فى حقبة ما بعد الحرب بأسرها. وليس هذا أوان تقييد تفكيرنا. وربما لا نحقق أحلامنا، ولكنا لن نملك إمكانية استشرافها إذا لم تتسع عقولنا ونقر بأهمية التفكير غير التقليدى» .

كان روس يرد علي اقتراح من هنرى كيسينجر بأن نبحث قضية أوروبا الشرقية مع موسكو من خلاله – بالطبع – كقناة خلفية .

وكذأيها سفرت روز ريدجواى، وهي حينذاك مساعد لوزير الخارجية للشئون الأوروبية ومساعدها الأول توم سيمونس من الفكرة. بينما دفع روس بأنه قريباً لا بعيداً سيتعين علينا أن نناقش أمر المنطقة مع السوفيت – ليس بهدف تقسيمها إلي «مناطق نفوذ» بل بهدف الحيلولة دون وقوع أزمات وإدارة عملية التحول إلي الديمقراطية، وانتهي بى الحال إلي تأييد هذا النهج، وأثرت قضية شرق أوروبا فى اجتماعى الثانى مع شيفرنادزة فى آيار مايو – رغم

أنني جمدت اقتراح هنري كيسينجر في صحيفة نيويورك تايمز في ٢٨ آذار مارس. وفعلت ذلك لأنني لم أرغب في أن يعتقد أحد أننا سننتهج نهج «مناطق النفوذ» وهو التفسير الذي فسر به كثير من الأوروبيين اقتراح كيسينجر. علاوة علي ذلك فقد أردنا إجراءالمناقشات عبر قناة أمامية مباشرة مع جورباتشوف وشيفرنادزة، وأن نوضح تماماً أن خيارنا ليس هو يالطا ٢. وألمح لي النقيض الذي تضمنته النصيحة التي تلقيتها من عاملين في الخارجية الأمريكية أن بعضهم لن يجاري سرعة الأحداث التي توشك أن تغير العالم .

ما أمَّلتُ أن أفعله

اكتشفت فرقاً دقيقاً بين خبرتي السياسية السابقة والمهمة التي تنتظرني في الخارجية. ففي الوظائف الأخري كانت طبيعة الموقف تملي الهدف، أو أنه يتضح نسبياً علي أية حال. ففي الحملات الانتخابية تمثل الهدف في الفوز بالانتخابات أما في البيت الأبيض فإنه الإدارة وتنفيذ جدول أعمال الرئيس والعمل بنجاح مع الكونجرس لإقرار تشريع، وفي النهاية ضمان إعادة انتخابه، وفي الخزانة كان تعزيز المصالح المالية والاقتصادية لأمريكا داخليا وخارجياً .

لكن هدف عملنا في الخارجية أبعد ما يكون عن التجسد في شكل محدد. فأهداف السياسة الخارجية تشمل كل شيء بدءاً من محاولة خنق التفوق العسكري التقليدي الشامل للسوفيت في أوروبا مروراً بمحاولة وضع نقطة انطلاق لعملية السلام في الشرق الأوسط وانتهاء بمساعي وقف عمليات الصيد الجائر الذي يقضي علي مخزون المصايد في محيطات العالم، وكان الخطر الماثل في أن بريدي أو برقية ستحدد يوما ما ستكون القوة المحركة لسياستنا، إنه خطرحقيقي تماما ولطالما حذرني منه كل من التقيتهم من أسلافي .

وكلما أطلت التفكير أثناء المرحلة الانتقالية كلما أدركت أن محور التركيز في وظيفتي ينبغي أن يبدأ بالعلاقات السوفيتية الأمريكية. فقد أشارت أول ورقة تخطيط بعيد المدي قرأتها بخصوص السوفيت إلي «أن الاتحاد السوفيتي قوة عظمي علي طريق الانحسار. فكافة الدلائل تشير بالفعل إلي أن قوة السوفيت آخذة في التلاشي، وكوزير للخارجية فإن المهمة الأساسية في العلاقات بين الشرق والغرب تتمثل في إدارة الآثار الدولية لهذا الانحسار بشكل ماهر وسلمي»

ولو قدر لي مساعدة الإمبراطورية السوفيتية على «الإنحسار السلمي» فإن فرص توسيع الديمقراطية وتحرير السوق وتسوية الصراعات الإقليمية لا حصر لها. لكن إذا توقف الإصلاح أو تغير اتجاهه فستجد أمريكا نفسها – كحد أدني – تتصارع مع بيئة دولية غيرمستقرة. وعلي أسوأ الأحوال سوف نري الحرب الباردة وقد استحالت إلي حرب ساخنة .

وفي ضوء كل هذا الواقع تمثل منطقي الإستراتيجي في الصراحة، ومنذ البداية استندت سياسة الاحتواء علي مبدأ أنه بقدر القوة التي يمكن ممارستها علي السوفيت بقدر ما يمكن حملهم علي إجراء تغيير داخلي، وهو ما وصفه السفيرجورج كينان أول من كتب عن سياسة الإحتواء «بالنضج التدريجي للقوة». ولم يبدأ طريق الوصول إلي الحد الأقصي للقوة في المفاوضات مع السوفيت. بل بدأ بتحقيق إجماع في واشنطن. وكلما توحدت السياسة الأمريكية وخرجت من عباءة الحزبية كلما ازدادت قوة وتماسك التحالف الغربي، وكلما قويت العلاقات الغربية الغربية كلما تعززت القوة التي ستظهر أمام موسكو لحملها علي التوافق سلمياً مع واقع إنحسارها، وكلما استطعنا دفع الاتحاد السوفيتي نحو مصالحنا وقيمنا كلما كان ذلك أفضل .

وترتيباً علي ذلك ومن وجهة نظري اقتربت من عالم عام ١٩٨٩م من القرار بنفس الطريقة التي اقتربت بها من السياسة والحكم. وبدأت بفكرة شاملة عن الهدف الطبيعي، وانطلقت من هذا الهدف بالمؤسسات التي يجب أن نسيطر عليها أو نؤثر عليها أيما تأثير بغية تحقيق الهدف : أي البيروقراطية، أولا ثم الكونجرس ثانياً فالصحافة ثالثاً. وبمجرد أن نبذل قصاري جهدنا في هذا الصدد فسوف نشرع في العمل علي توطيد «قاعدتنا القارية» أي العلاقات مع كندا والمكسيك، وأمريكا الوسطي، ثم العمل بعد ذلك في تعزيز وتوسيع تحالفاتنا عبر الاطلنطي والهادي عند الاقتضاء. وأقنعني بوب زوليك بأن «التفكير بطريقة دوائر التركيز هو أفضل سبيل يمكن اتباعه» .

مهــام ملحــة :

وكما قلت في أول إجتمــاع للحكومــة في ٢٣ كانون الثاني يناير ١٩٨٩م كـانت أولي المهام هي إعادة بناء سياسة غير حزبية، وتتطلب تلك المهمة إقامة علاقات قوية مع الكونجرس، وكانت علاقتي بالكونجرس جيدة. فعلي مدار الأعوام الثمانية الماضية عملت

عن قرب مع أعضاء كلا المجلسين من كلا الحزبين لدرجة دفعت السيناتور لويد بينتسين إلي الإشارة فى كلمة تقديمى لجلسات الاستماع لإقرار تعيينى إلي مشروع قانون الإصلاح الضريبى الذى قدمه الرئيس رونالد ريجان عام ١٩٨٦م وقال: «لطالما تشاور معنا جيم بيكر مرات ومرات، فنحن نعرف جيم بيكر خير المعرفة» .

وكنت أعى أن أساس إقامة سياسية غير حربية هو تسوية الخلاف حول أمريكا الوسطي. ففى نيكاراجوا وصلت حرب السنوات السبع التى تشنها الكونترا ضد حركة الساندنيستا إلي طريق مسدود. بينما الكونجرس يرفض أى اعتمادات عسكرية جديدة للكونترا، وكنت علي اقتناع بأنه ليس هناك حل عسكرى مقبول للصراع، وفى السلفادور استطاع المتمردون بعد قتال لتسع سنوات السيطرة علي ثلث أراضي البلاد. لكن يبدو أنهم عاجزون عن تحقيق الفوز. لقد كان عقد الإحباط فى المنطقة وفى واشنطن. وكنت علي يقين من أنه يتعين علينا أن نجتذب أمريكا الوسطي ورائنا لو أردنا التحلى بالقدرة علي التعامل بفعالية مع إنحسار القوة السوفيتية. علاوة علي ذلك كانت أمريكا الوسطي تشكل عقبة أمام استمرار تقدم الديمقراطية فى كل أمريكا اللاتينية، وبدون شك إعتبرت هذه أولي أولوياتي .

وكان هدفى التالى بالمصطلح السياسى «تأمين قاعدتنا» بمعني ضمان علاقة جيدة مع كندا والمكسيك، وخلال إدارة ريجان كان بريان مولرونى رئيس وزراء كندا صديقاً مخلصاً للولايات المتحدة، وأقام علاقة وثيقة مع جورج بوش .

وأثناء عملى بالخزانة توصلنا إلي إتفاق التجارة الحرة الكندى عام ١٩٨٧م. بل وتطرقنا إلي التفكير فى مميزات توسيعها لإقامة منطقة تجارة حرة بإتساع القارة بأسرها حتي أثناء مفاوضاتنا حول إتفاق التجارة الحرة الكندى. ونبع جزء من إهتمامنا هنا إلي هواجس التكامل الأوربى الذى كان مقررا له عام ١٩٩٢م لكن السبب الأكثر حسماً هو إهتمامنا بالرئيس المكسيكي كارلوس ساليناس دى جورتارى. كان ساليناس الذى انتخب لتوه اقتصادياً متمرساً، وملتزماً بإدخال إصلاحات لإقامة السوق الحرة، ووافق بوش علي لقائه فى أسرع وقت حتي قبل أداء اليمين الدستورية. وفى ٢٢ تشرين الثانى نوفمبر ١٩٨٩م وفى قاعدة إيلينجتون الجوية فى هيوستون وضعنا ما وصفناه «روح هيوستون».

كان ساليناس شخصية ودودة وصديقة تتوق بوضوح إلي إقامة علاقات أفضل مع الولايات المتحدة، وأبلغنا أنه يعتزم تعيين وزير المالية «جوستافو بيتروشيلى» سفيرا جديداً

لبلاده لدي الولايات المتحدة. وكوزير للخزانة سبق لي التفاوض مع بيتروشيلي، وكان من الواضح أن ساليناس يشق طريقه نحو بدء العلاقة علي أساس إيجابي .

وأراد الرئيس وأنا توطيد العلاقة مع المكسيك. لأنها قضية للسياسة الخارجية ذات صلة مباشرة بالسياسة الداخلية .

وأدرجت القضيتان الأخريان وهما جنوب أفريقيا والشرق الأوسط علي جدول الأعمال في فترة مبكرة بسبب تداعياتهما الداخلية والدولية. وخلال مشاوراتي أفضي إليّ السيناتور بول سيمون بمشاعره بأن جنوب أفريقيا يمكن أن تنفجر، ولو حدث ذلك قد تندلع أعمال الشغب في نيويورك وشيكاغو ومدن أمريكية أخري. ولم يكن يعتريني قلق كبير حيال مثل هذا الاحتمال. حيث كانت تسيطر عليّ فكرة التحرك بما يتجاوز العقوبات. فلم يكن للعقوبات التي أقرها الكونجرس لعامين سوي تأثير ضئيل علي إحداث تغيير نحو ديمقراطية غير عنصرية، وكنت أشعر أن الفرصة قد تتهيأ لإقامة علاقة عمل بناءة بقدر أكبر مع الكونجرس يمكن أن تستغل بدورها لتشجيع إحداث تغيير في نظام بريتوريا. وكنت مدركاً أيضاً لضرورة مواصلة التفكير والنظر بعين الإعتبار للشرق الأوسط، وفي الوقت الذي كنت عازفاً فيه عن الإنخراط في الدبلوماسية المكوكية علي الفور كان الشرق الأوسط أكثر مناطق العالم التي تموج بالصراعات منذ الحرب العالمية الثانية. كما أن الرئيس بوش كان يعتزم مواصلة سياسة ريجان بمساندة إسرائيل بقوة. وكالجميع كنت أفترض أنه مع خروج العراق وإيران منهكتين خاليتي الوفاض من حربهما التي شارفت العقد فسوف يتمتع الخليج بالهدوء .

تفعيل التحالف الغربي

وافق عام ١٩٨٩م الذكري الأربعين لتأسيس حلف شمال الأطلنطي. ورغم أن حلف الأطلنطي يعد أنجح تحالف في التاريخ. فقد ساورنا القلق من أنه كلما تقدمت وتيرة الإصلاح أو لوحظ تقدمها في الاتحاد السوفيتي كلما إزدادت صعوبة الحفاظ علي التماسك الغربي. وهذا هو السبب الذي دعا نائب الرئيس حينذاك جورج بوش إلي إقتراح عقد قمة مبكرة للتحالف أثناء حملة عام ١٩٨٨م كان العالم يتحول من عالم ساهمت فيه المخاوف من التهديد السوفيتي في الحفاظ علي وحدة التحالف الغربي، إلي عالم تتساوي فيه علي الأرجح قوي الشد مع قوي الطرد نحو الغرب .

وكنت علي يقين من أن إحدي مهـامى الأساسيـة كوزير للخـارجيـة هي إدارة هذا التحـول.

وكان من الواضح ونحن نتجه نحو إصلاح حلف شمال الأطلنطى أنه يجب علينا العمل مع القوة المتنامية للمجموعة الأوروبية المقرر أن تتحول إلي سوق موحدة عام ١٩٩٢م. وقد ساور القلق الكثيـر من الأمـريكيين «والأمـريكيين الشمـاليين والآسيـويين» فى حينه بأن «الاتحاد الأوروبى ٩٢» سيؤدى إلي قيام كتلة سياسية واقتصادية أوربية إنكفائية منفصلة عن بقيـة الغـرب. ولتفـادى هذا الأمر تطلعنا لإقـامـة عـلاقـات مـبكرة مـع الاتحـاد الأوروبى، وأصبحت علي اقتناع بأنه بينما لا يمكن أن يغنى أى شيء عن «العلاقة الخاصة» مع لندن فإن ميزان القوة داخل أوروبا يتجه نحو بون – ليس اقتصادياً فقط، ولكن أيضاً بسبب الإنفتاح الذى يطرح مع الأوروبيين الشرقيين، وهكذا فإن تقوية العلاقات الأمريكية الألمانية سيصبح حاسماً فى إدارة العلاقات عبر الأطلنطى .

وعندما كنت وزيراً للخزانة إستحوذت اليابان علي جانب كبير من إهتمامى، وخاصة فى قضايا فتح الأسواق وأسعار الصرف. وكنت قد دعوت وأنا وزير للخزانة إلي إقامة «شراكة كونية» مـع اليابان. لكن بعد أن أصبـحت وزيراً للخـارجية فإنه باستطاعتى تنفيذها بالفعل. وبالطبع تعين عليّ أن أضـع الاعـتبـارات الداخليـة فى الحسبـان حيث باتت إنتقـاد اليـابان موضوعاً بارزاً فى الحملة الإنتخابية للديمقراطيين، ولاسيما فى الحملة التمهيدية للنائب ديك جيفارت. وتعين أن نجعل هدفنا هو محـاولـة تحويل اليابان من عمـلاق اقتصادى تجارى إنكفائى إلي قوة اقتصادية وسياسية ترتبط بعلاقات وثيقة مع الولايات المتحدة .

وفى مكان آخر فى المنطقـة كـانت الصين بلا ريـب تنتقل لتمـثل أحد الأولويات الشـخصيـة للرئـيس. حيث سبق أن تولي رئاسـة مكـتب الاتصـال الأمـريكى فى الصين فى السبعيـات. وكـانت توقعاتنا ضئيلـة بأن تتحـول الصين إلي هم داخلى. لكن لا أعتقد أنه خطر ببال أحد حينذاك ما حدث فى ميـدان تيانانمين «السلام السماوى» فى حزيران يونيـو ١٩٨٩م.

وكنا مهتمين أيضاً بإقامة منطقة أشمل للدول المطلة علي الهادى بتضوى تحت لوائها القوي الاقتصادية الآسيوية «النمور» رغم صغرها، وهي تايوان وسنغافورة وأندونيسيا وهونج كونج وماليزيا، وفى الخزانة أجرينا محـادثات تجارية ونقدية مع ثلاث من هذه الحكومات

تايوان وسنغافورة وهونج كونج. كما أنني بحثت أنا وزوليك في وزارة الخزانة عام ١٩٨٨م مع بوب فاوفر أحد كبار مساعدي الدوليين تطوير فكرة منظمة دول الهادي، وفي وزارة الخارجية قررت نقل فاوفر إلي مكتب شرق آسيا والهادي (EAP) لتطوير التعاون بين دول الهادي. ونتيجة لذلك، وعندما طرح بوب هوك رئيس وزراء استراليا إقتراح تشكيل منتدي التعاون الاقتصادي لدول آسيا والهادي «أبيك» رحبنا بمبادرته، وسعينا لتدعيم منظمته الوليـدة.

وغالباً ما ألقت الندرة النسبية للمؤسسات العاملة بظلالها لدي مناقشة العلاقات الدولية. ففي المجتمع الداخلي تنتشر المؤسسات لدرجة أنها أصبحت من المسلمات. لكن علي الساحة الكونية لا وجود لمثل هذا الإنتشار. فأبرزها هو الأمم المتحدة وحلف الأطلنطي، وبدون مؤسسات يتعذر إنجاز العمل. لأنه سيتعين إجراء كل المشاورات علي المستوي الثنائي : أما مع وجود مؤسسة : فأنت تخلق منبراً للتشاور ويمكنك توسيع التعاون لمداه. وهكذا فقد قضينا معظم فترتنا بالخارجية في تأسيس مؤسسات جديدة مثل «أبيك» وتطوير القديم منها «حلف الأطلنطي» أو إتخاذ ترتيبات شبه مؤسسية. (علي سبيل المثال صيغة إثنين زائد أربعة للوحدة الألمانية).

إدارة إنهيـــار الشيوعيـــة

استند افتراضي علي أنه بمجرد إنتهاجنا نهجاً غير حزبي لسياستنا الخارجية وصياغة إجماع غربي فسوف نشرع في سلوك نهج ثلاثي تجاه الإمبراطورية السوفيتية. وسيكون المسار الأول إجراء مناقشات مباشرة مع موسكو، وإنطلاقاً من استمرار الإنحسار السوفيتي تمثلت إستراتيجيتنا في التبادلية الحذرة والمحكومة والمدروسة. ولما لم نكن نملك ترف إنتظار المبادرات السوفيتية: وعوضا عن هذا كنا في حاجة إلي طرح المقترحات ذات المغزي الإستراتيجي التي يمكن أن يتقبلها الرأي العام الغربي. وتبني جورباتشوف إستراتيجية إضعاف التماسك الغربي عن طريق عرض مقترحات مدوية تجذب إنتباه الرأي العام، ومن ثم إنتزاع مكاسب اقتصادية من الغرب. وأردنا الانقصاص علي هذه الإستراتيجية بطرح مقترحاتنا نحن، مبادرات ترمي إلي فتح النظام السوفيتي أمام نفوذ الغرب. مبادرات تهدف

وضع إطار مؤسسي للإستقرار والتوقعات ومنع العدول عن الإصلاح، وأخيراً تعزيز ما وصفناه بـ «الترتيبات السياسية المشروعة» في إتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفيتية، وكنا نضمن بذلك «التحول إلى الديمقراطية»، ولم نقصد إشعال حريق سياسي في موسكو يكشف نوايانا .

أما ضغوطنا من أجل الديمقراطية – وهي المسار الثاني – فقد كانت أكثر وضوحاً وعلانية. ففي هذا السياق كنا نريد أن نكون أكثر إمتلاكاً لزمام الهجوم في مساعدة الإصلاحيين. ليس فقط عن طريق المساعدة الاقتصادية (التي قد تسفر عن نتائج عكسية في بعض الأحيان) بل أيضاً بتأييد الإصلاحات السياسية والمشاركة مع موسكو – وبقدر ما كان جورباتشوف يحاول تحقيق مميزات علي حساب واشنطن بورقة أوروبا الغربية أردنا «الهجوم» ومنذ البداية لسدنا إستعداد أوروبا الشرقية للديمقراطية والسوق الحرة. لقد كانت علاقة عضوية بين الإصلاح في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي، وتوصلنا وعلي وجه السرعة إلي تقسيم ضمني للعمل علي الأقل مع حلفائنا الغربيين تركز بمقتضاه ألمانيا والأخرون على تقديم المساعدة الاقتصادية لدول أوروبا الشرقية والسوفيت. بينما نركز نحن علي ضمان إحداث تغييرات فيما يسميه السوفيت «تلازم القوى» بالعمل علي نزع الطابع العسكري للسياسة الخارجية السوفيتية، ودفع جورباتشوف نحو الإصلاح السياسي .

واختص المسار الثالث في الاستراتيجية بالصراعات الإقليمية. وإستهدفت سياسة ريجان استئصال المنافذ السوفيتية في مختلف أنحاء العالم، وصادفت هذه السياسة نجاحاً كبيراً. وكان إدراكي أنه إلي جانب استمرار الضغط علي حلفاء السوفيت فإن بوسعنا إستغلال الانتخابات كأداة لإزاحة السوفيت، وكان التوجه نحو الديمقراطية قوياً في الثمانينات. كما أن إلحاح جورباتشوف علي الجلاسنوست «الإنفتاح» والانتخابات يحمل الكريملين علي إستساغة الحجة القائلة إنه إذا كانت الانتخابات شيئاً حسناً لموسكو فسوف تكون أحسن لحلفائها في نيكاراجو وأنجولا وأفغانستان وكمبوديا. وفي جوهر الأمر كنا نجني ثمار نجاح سياسة ريجان الداعية لإستئصال الأنظمة الشيوعية في العالم الثالث ولو بالقوة عند الإقتضاء، وبالنسبة لمعظم هذه الأنظمة التي كانت واقعة تحت الحصار بالفعل أصبح بوسعنا الآن التحول نحو الانتخابات كوسيلة لإتمام تحول سلمي نحو الديمقراطية .

الإعداد لعالم ما بعد الحرب الباردة

ومع تيقن الرئيس وأنا أن مهمتنا المحورية هي إنهاء الحرب الباردة. فقد شرعنا أيضاً في الإعداد لعالم ما بعد الحرب الباردة. واشتمل هذا بدرجة كبيرة إما علي تطوير المؤسسات القائمة، أو إنشاء مؤسسات جديدة إضافة إلي ضرورة البدء في وضع إستراتيجيات بعيدة المدي للتعامل مع النوعية الجديدة الناشئة من المشكلات العابرة للقوميات التي لا تندرج ضمن التصنيفات التقليدية المعروفة، ومنها الإرهاب والمخدرات والبيئة ومنع إنتشار أسلحة الدمار الشامل. وكنت أعي تماماً أنه إذا كان علينا أن نتصدي لهذه المشكلات فالواجب حشد الكونجرس والشعب الأمريكي خلفنا، وهذا يعني في المقام الأول الفراغ من قضية أمريكا الوسطي بإعتبارها عقبة مستمرة أمام إقامة سياسة غير حزبية .

الفصل الرابع

وضع سياسة غير حزبية جديدة
فتح خراج أمريكا الوسطى

كانت تلك أعقد القضايا خلال السنوات الثماني الأخيرة، بل كانت أكثر المسائل إثارة للاستقطاب السياسي والانقسام الشخصي عن سائر القضايا الأخرى قاطبة.

جيم رايت
رئيس مجلس النواب
إلى الرئيس المنتخب بوش
١٨ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٨

أظن أن كل رئيس جديد وكل وزير خارجية جديد يصل إلي منصبه يراوده أمل أكيد في تطبيق الدبلوماسية بروح مقولة السيناتور فانديبرج «في السياسة الخارجية : تقف كافة السياسات علي حافة الماء» ولم يكن جورج بوش وأنا استثناءً. وأوضح الرئيس عند مناقشة خطط السياسة الخارجية خلال الفترة الانتقالية أنه يريد الخروج من دائرة سياسة المواجهة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية التي اتسم بها الجدل الدبلوماسي علي مدار الأعوام الثمانية الماضية. وأمضيت في التأكيد علي هذا الالتزام من جانب بوش خلال جلسات الاستماع لإقرار تعييني وقلت «حتي نحقق النجاح علينا بمساطة العمل يداً واحدة» .

وتكشف مراجعة السياسة الخارجية الأمريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية عن حقيقة واحدة ساطعة سطوع الشمس : هي أنه منذ تأييد الرئيس ترومان لمنظمة حلف شمال الأطلنطي حتي اتفاق الرئيس ريجان حول الأسلحة النووية متوسطة المدي في أوروبا حظي كل إنجاز مهم بتأييد غير حزبي مستديم. وفي الوقت الذي كانت العلاقات بين الشرق والغرب تتهيأ فيه لحلول جديدة كان الإجماع غير الحزبي يبدو أكثر من ضرورة ملحة .

ومع ذلك كان من الواضح لكلينا أن هناك عقبة كؤوداً واحدة تعوق أي أمل في استعادة الإجماع غير الحزبي وهي النزيف المؤلم لأمريكا الوسطي. وبأي معيار كانت مشكلة أمريكا في الثمانينيات بنفس درجة مشكلة فيتنام في كفاحنا من أجل إقامة الديمقراطية في هذه المنطقة المضطربة، وهو ما تجسدت آثاره المثيرة أكثر من أي شيء آخر في الصراع بين حكومة الساندنيستا في نيكاراجوا وحركة المقاومة المعروفة «بالكونترا» التي تمولها الولايات المتحدة .

ولم تكن هناك قضية أخري من قضايا السياسة الخارجية تنطوي علي مثل هذا القدر من العمق أو الاستقطاب. وخلال معظم سنوات العقد كانت هذه القضية بمثابة الكأس المقدس لكل من اليمين واليسار السياسي. فالمحافظون يعتبرون الساندنيستا نافذة السوفيت في أمريكا الوسطي، ويتعين إغلاقها وفقاً لمبدأ مونرو. غير أن معارضة الديمقراطيين لتفضيل ريجان للحل العسكري أسفرت عن قرار الكونجرس عام ١٩٨٣ بحظر تقديم أي معونة مباشرة أو غير مباشرة إلي الكونترا. وبدورها أدت محاولة الالتفاف علي هذا الحظر إلي كارثة «إيران – كونترا» التي أطاحت عندما تكشفت عام ١٩٨٦م برئاسة ريجان، وأورثت جورج بوش تركة مثقلة من الشك وانعدام الثقة .

ومع ذلك كان الصراع بين السلطتين التنفيذية والتشريعية يكاد أن يكون مقصوراً علي المعارضة الديمقراطية، وأتذكر أنه بعد ظهر أحد أيام عام ١٩٨٣م عندما دعا الرئيس رونالد ريجان القيادة الجمهورية للكونجرس إلي مقر إقامته في البيت الأبيض لمناقشة برنامج السلطة التشريعية، وفي إحدي المراحل تطرقت المناقشات إلي أمريكا الوسطي. واشتكي بوب ميشيل زعيم الأقلية في مجلس النواب بأسلوبه الهادئ المتوازن الذي يميز الغرب الأوسط من سوء علاقة ويليام كيسي مدير المخابرات المركزية الأمريكية بالكونجرس، ولم يشأ ميشيل القول صراحة أن الكثيرين في الكونجرس لا يثقون في بيل كيسي ولذا فقد لجأ للإعراب عن تحفظاته بشكوي عامة عن ولع كيسي الأسطوري بالغمغمة. ونوه ميشيل إلي أنه من العسير معرفة ما يدور في السياسة حيث يكاد يستحيل فهم كيسي معظم الوقت .

ورد الرئيس ريجان قائلاً: «أقول لك الحق – يابوب – أنه يصعب عليَّ أنا فهم كيسي كثيراً. وقاطعه هوارد بيكر زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ : «سيدي الرئيس، هذا ما لم أسمع به من قبل» .



وبينما الرئيس المنتخب جورج بوش يتأهب لتولي مهام منصبه كان الاعتقاد السائد في مؤسسة الخارجية أن قضية الديمقراطية في نيكاراجوا قضية خاسرة وحتي بالمساعدة العسكرية (التي لم يكن الكونجرس ليوافق عليها بأي حال) فلن تستطيع الكونترا مجاراة قوة جيش الساندنيستا. ومن وجهة النظرهذه فإن أفضل طريقة علي الأرجح لإدارة الأزمة هي سياسة الاحتواءالتي تحول دون تصدير الماركسية إلي الديمقراطيات المجاورة .

ولم أتفق مع هذا التقييم. فلن تجدي سياسة الاحتواء مطلقاً مالم تقترن برادع تشكله قوة مسلحة للكونترا تتمركز علي الحدود مع هندوراس، وكنت أعتقد أيضاً أن الساندنيستا ستكون أقل إقداماً علي المغامرة في سياستها الخارجية لو أبقيناها تحت ضغط داخلي مستمر يدعو للإصلاحات الديمقراطية بما في ذلك الانتخابات الحرة والنزيهة. بخلاف ذلك كنت أعتقد أنه مع وجود جورباتشوف وقوة تيار سياسته في التفكير الجديد في الكرملين فإنه قد يتيسر

التوصل إلى تسوية سلمية لمعضلة أمريكا الوسطي، لكن ليس بدون مساعدة موسكو - وحذرني نيكسون من أنه قد يستعصي حل قضية أمريكا الوسطي ما لم يتم إغراء جورباتشوف بوقف المساعدة العسكرية لنيكاراجوا. وأراد بوش اختبار السوفيت. لكن الشرط المسبق لهذا الإختبار هو الوصول إلي موقف موحد في الداخل. فلن يكون بمقدورنا إقناع السوفيت بأن سلوكهم في أمريكا الوسطي يشكل أكبر عقبة أمام تحسين العلاقات ما لم يكن الرئيس والكونجرس يتحدثان بلغة واحدة عن السياسة الخارجية .

البحث عن سياسة جديدة

كنت علي يقين من أن هذه المسألة لن تكون بالمسألة الهينة، وأثناء أحاديث المجاملة مع أعضاء الكونجرس شتاء عام ١٩٨٨م أنفقت علي النصيحة التي تلقيتها بالإجماع لدي إثارة موضوع أمريكا الوسطي. وأبلغوني جميعاً أنه بالنسبة للعضو فإنه لو مضي بوش قدماً في تنفيذ الوعد الذي قطعه علي نفسه أثناء الحملة الانتخابية بطلب تقديم مساعدة عسكرية للكونترا فسوف يواجه معارضة تامة، وكان هذا هو نفس رأي لي هاميلتون رئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الذي قال: «أعلم أن علينا إلتزاماً تجاه الكونترا لكنهم أضعف من أن يعتمد عليهم. إن طلب تقديم معونة عسكرية سيثير معركة حامية الوطيس.» وكان بوب ميشيل أكثر تأكيداً في نصحه لي بقوله إنه : لا أمل .

وفي الوقت نفسه شد من أزري ما بدا أنه إحساس قوي بحسن النية تجاه الرئيس المنتخب. فقد أبلغني السيناتور جوي بيدين «إن أمامك فرصة لإعادة تفعيل سياسة خارجية غير حزبية. فالجميع هنا يقدرونك ويقدرون جورج بوش رغم حملتكما القاسية. إننا نكن لكما الاحترام. وأريد أن تعرف أنني مستعد لتأييد تبني سياسة خارجية غير حزبية.» وأضاف قائلاً إنه يريد العمل معي من أجل وضع آلية ما لتعاون أوثق مع مجلس النواب حول قضايا السياسة الخارجية .

وحثني السيناتور جون كيري العضو الليبرالي البارز والعدو اللدود للكونترا علي انتهاج سياسة وسط تكفل تحقيق إجماع صلب حول القضية. وقال: «إن نهجاً موحداً هو وحده

الكفيل بإسقاط أورتيجا » . وحتي ألد خصوم سياسة ريجان السيناتور كريستوفر دود من كونيكتيكت ترك لدى الانطباع بأنه علي استعداد للتصالح .

وبعد الانتخابات بفترة ليست طويلة دعيت أنا وسوزان علي حفل عشاء في منزل صديقينا القديمين بوب وهيلين شتراوس . وضمت قائمة المدعوين جيم رايت رئيس مجلس النواب وزوجته بيتي . وكان رايت ديمقراطياً متعصباً كسلفه تيب أونيل . وقد عملت معه لسنوات عندما كان زعيماً للأغلبية ، وأعرف أنه صاحب عقلية متفتحة . وبعد انتهاء العشاء تطرقت المناقشة حتماً إلي قضية أمريكا الوسطي ، وانتقد رايت بعنف سياسة إدارة ريجان تجاه نيكاراجوا . لكنه أبدي تأييده للمساعدة التي تقدمها الولايات المتحدة للسلفادور . وأبلغته بأن الرئيس المنتخب يريد أن تنطلق سياسة الولايات المتحدة تجاه أمريكا الوسطي من برنامج السياسة الداخلية ، وأنه لن يطلب من الكونجرس اعتماد معونة عسكرية للكونترا . وقال رايت : في هذه الحالة فإن أمامنا فرصة حقيقية للتوصل إلي حل غيرحزبي .

كنت أؤيد سياسة ريجان في دعم الكونترا ولم أزل . ولكنني عدت إلي مكاتبي المؤقتة في الخارجية بعد كل تلك اللقاءات وكلي اقتناع بأن أمريكا الوسطي هي أولي وأهم قضايا السياسة الداخلية . فأي آمال للتوصل إلي تسوية دبلوماسية ، دون وضع سياسة خارجية غير حزبية ، مآلها الفشل مالم يتم نزع قضية أمريكا الوسطي من بعدها السياسي الداخلي . وكنت علي يقين أيضاً بأن أمام الرئيس فرصة لعمل ذلك علي الوجه الأكمل .

ولكن لم يكن هناك وقت كاف للمناورة . ففي ٣١ آذار مارس – أي بعد عشرة أسابيع فقط من تنصيب الرئيس سوف تتوقف المعونة الإنسانية المقدمة للكونترا . وكنت علي ثقة تامة بأن الكونجرس لن يوافق مطلقاً علي أي اعتمادات لإعادة تسليحهم . وبدون المعونة الإنسانية والتوصل لحل فوري للمسألة . فمن غير المرجح استمرار وجودهم كقوة توازن تتمتع بالمصداقية أمام جبهة الساندنيستا ، وسيستمر مأزق الأعوام العشرة الماضية ليسمم آمالنا في وضع سياسة خارجية قائمة علي التعاون .

سيرة شخصية ودبلوماسية موجزة

- لم يكن رأيي في كيفية معالجة قضية أمريكا الوسطي نابعاً فحسب من حرصي علي وضع سياسة خارجية غير حزبية يمكن أن تساهم في إجراء انتخابات حرة في نيكاراجوا . بل

أيضاً من خبراتي التي اكتسبتها من عملي رئيساً لهيئة موظفي الرئيس رونالد ريجان. فمن هذا الموقع تابعت عن كثب المعارك الضارية الدائرة بين جورج شولتز وكاسبار واينبرجر وويليام كيسي وجين كيركباتريك للهيمنة علي السياسة. كما شاركت بفعالية في جهودنا التشريعية لتأييد حكومة السلفادور ضد رجال حرب العصابات الذين تدعمهم كوبا وجبهة الساندنيستا وتمويل الكونترا وسط معارضة قوية في الكونجرس. وكنت بالطبع علي علم بالعمليات السرية في نيكاراجوا التي أمر بها الرئيس، وأشرفت عليها وكالة المخابرات المركزية خلال تلك الفترة. وبمقتضي القانون كان يتم إطلاع أعضاء الكونجرس المعنيين بشكل واف لكن أغلبهم لم يوافقوا عليها. وجلبت هذه المعارضة مزيداً من القيود المشددة علي التمويل في الكونجرس عام ١٩٨٤م .

ولم يكن لدى أنا أو الرئيس رغبة في إضعاف الحرب الأيديولوجية في تلك الفترة، وكان تأييدى وتأييد جورج بوش للكونترا مسألة مبدأ، ولكننا نعترف أنه بينما تمثل قضية أمريكا الوسطي في كثير من الأوجه قضية الجمهوريين، فلم نكن نملك الأصوات الكافية لاستعادة المعونة العسكرية، وكنا نعرف من الوهلة الأولي الكلفة الباهظة لتبني سياسة متماسكة مستديمة تلك الكلفة التي تشبه قتل الأمريكي لأخيه وأقر بأنه من الضروري لمجمل أهداف سياستنا الخارجية ولقدرتنا علي إدارة سياسة خارجية ناجحة أن نزيل هذه القضية من ساحة السياسة الداخلية .

واستهدف أحد أول قراراتي الشخصية تعزيز التزامنا بإقامة شراكة غير حزبية بطريقة مثيرة تماماً. وبعيد تعييني طلب مني، هنري هيد عضو الكونجرس عن الحزب الجمهوري من ألينوي، وهو من أقوي الشخصيات المحافظة ومؤيد متحمس للكونترا، تعيين بيرنارد أرونسون مساعداً لوزير الخارجية لشئون الأمريكتين (ARA) وكنت أعرف أن بيرنارد أرونسون ديمقراطي صادق من فصيلة نادرة يؤيد مساعدة الكونترا، وبوصفه مساعداً سابقاً في البيت الأبيض أثناء رئاسة كارتر سافر أرونسون إلي أمريكا الوسطي، وتكونت لديه معرفة قوية بالمنطقة، وفي عام ١٩٨٦م وبتكليف من باتريك بوكانان مدير الاتصالات بالبيت الأبيض أعد خطاب الرئيس رونالد ريجان عن أمريكا الوسطي الذي دعا إلي تبني نهج غير حربي أكثر تصالحاً. وأضاف اجتماع مع بوب زوليك ومذكرة من أرونسون الكثير لانطباعاتنا الحسنة .

وقال أرونسون «إن الرأى السائد بأن قضية أمريكا الوسطي ستكون علي الأرجح قضية تثير الانقسام والخلاف بالنسبة للإدارة الجديدة غير صحيح بالضرورة. فقد شعر أعضاء الكونجرس من الجانبين بالضجر من المعارك المثيرة للانقسام حول تقديم المعونة للكونترا ولم يعودوا متلهفين علي تكرارها. وأمام الإدارة الأمريكية فرصة نادرة لبناء قاعدة غير حزبية جديدة لسياستها تجاه أمريكا الوسطي فى الكونجرس وقادة الرأى العام. لكنها تحتاج لانتهاز الفرصة في وقت مبكر». واستفاض أرونسون في شرح رأيه بالتفصيل في حديث هاتفى خاص بعد أدائى اليمين الدستورية وزيراً للخارجية، وأبلغنى بأن كلا الجانبين أكثر حرصاً عن ذى قبل علي التوصل إلي حل وسط بأنفسهم. وأشار إلي أن مفتاح نزع فتيل القضية هو نهج غير حزبي يستند إلى التزام بإجراء انتخابات ديمقراطية فى نيكاراجوا وليس مجرد الإطاحة بالساندينستا. ولو أصرت الحكومة علي المضى قدماً فى مسألة المعونة العسكرية للكونترا فسوف يتعرض الرئيس للحرج في أول اختبار أساسي لسياسته الخارجية ويفقد مصداقيته في الداخل وفى المنطقة. لكن لو منحنا الدبلوماسية فرصة بتأييد الاتفاقيات الإقليمية القائمة فإن الحل الوسط متاح تماماً مع الديمقراطيين، وسوف تتعزز سياستنا فى المنطقة عن طريق تحقيق الوحدة فى الداخل. وأشار أيضاً إلي أننا نجعل من قضية أمريكا الوسطي اختباراً لسياسة جورباتشوف «فى التفكير الجديد» .

وعلي مدي نصف الساعة ترك أرونسون لَدَىَّ انطباعاً بأنه ذكى ووسطى ملوه أكثر اهتماماً بالنتائج عن الأيدلوجية .

وكان بأسلوبه ومزاجه علي نقيض تام مع سلفه إيليوت إبرامز قرينه فى الذكاء والمشاكس الذى تحول إلي بعبع لرجال الكونجرس الديمقراطيين. وفى منتصف الاجتماع تيقنت أن أرونسون سيكون اختياراً مثالياً لمنصب مساعد وزير الخارجية لشئون الأمريكتين (ARA) وعرضت المنصب عليه وقبله بعد عدة أيام قلائل .

وكنت مدركاً أن قلة من الجمهوريين سوف تعارض تعيين بيرنى، ولذا فقد طرحت الفكرة علي الرئيس الذى تحمس لها لوجاهتها ومغزاها. وشجعنى ما نما إلي علمى من أن قيادات الديمقراطيين فى الكونجرس طلبوا منه فى لقاءاتهم قبول المنصب. ورغم المحاولات العارضة لتسميم الأجواء ضده من جانب بعض العاملين مع نائب الرئيس ومجلس الأمن القومى الذين أشاعوا فى مجالسهم الخاصة أنه عميل مزدوج فقد أبلي بيرنى بلاءً حسناً .

اسكويبولاس تقدم الآلية

لحسن الحظ كانت توجد آلية قائمة بالفعل تسمح بنضج انفتاح دبلوماسي. وفي منتصف فترة الولاية الثانية للرئيس ريجان دفع تصميمه علي الإطاحة بجبهة الساندنيستا بالقوة زعماء المنطقة إلي محاولة التوسط لطرح حل دبلوماسي من جانبهم. وتوجت هذه الجهود التي قادها رئيس كوستاريكا أوسكار أرياس سانشيز باتفاق عام ١٩٨٧ الذي وقعه في اسكويبولاس رؤساء كوستاريكا والسلفادور وجواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس، وكان أهم بنود الاتفاق تلك الداعية إلي وقف لطلاق النار بين جبهة الساندنيستا والكونترا وإجراء انتخابات «حرة وتعددية ونزيهة» في كل الدول الموقعة علي الاتفاق .

وعشية هذا الإعلان صدقت إدارة ريجان علي تصور وقف إطلاق النار، وأعلنت تعليق مساعدة الكونترا إذا أوقف السوفيت تقديم المساعدة العسكرية للساندنيستا في غضون ستين يوماً. وفجأة تراجع رئيس مجلس النواب رايت عن تأييده فجأة لاتفاقية اسكويبولاس بعد موافقته قبل ثمان وأربعين ساعة علي مبادرة البيت الأبيض .

كانت إدارة ريجان قد رفضت نسخة سابقة تختلف اختلافاً طفيفا عن اتفاق اسكويبلاس سيفرض في نهاية المطاف حلاً دبلوماسياً ستقف إدارة ريجان عاجزة عن عرقلته. ووفرت هذه التحركات للديمقراطيين غطاءً سياسياً كافياً لمواصلة معارضة تقديم المعونة للكونترا. وفي شباط فبراير ١٩٨٨م صوت الكونجرس برفض اعتماد معونة قدرها «٣٦» مليون دولار حتي رغم تخصيص «٣,٦» مليون دولار فقط للمعونة العسكرية .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام الكونترا من خيار سوي الموافقة علي اتفاق لوقف اطلاق النار مع الساندنيستا في شهر آذار مارس. وسارع الكونجرس باعتماد (٤٨) مليون دولار معونة إنسانية غير عسكرية للكونترا حتي أيلول سبتمبر، ثم وافق علي معونة إضافية قدرها مائة مليون دولار لتوفير الإمدادات لإثنى عشر ألفا من أفراد الكونترا في ملاذهم بهندوراس حتي ٣١ آذار مارس ١٩٨٩م .

وفي غضون أقل من شهر بعد تنصيب جورج بوش عادت مجموعة أرياس للاجتماع في كوستا ديل سول في السلفادور، وأعلنوا موافقة جبهة الساندنيستا علي إجراء انتخابات رئاسية في موعد أقصاه ٢٥ شباط فبراير ١٩٩٠م. وفي المقابل اتفق الرؤساء الخمسة علي وضع خطة في غضون تسعين يوماً لتسريح مقاتلي الكونترا .

وساورت الرئيس شكوك وأنا أيضاً حول ما إذا كانت حكومة دانيال أورتيجا ستسمح حتى ولو بإجراء انتخابات حرة بالشكل الذى تصورة آرياس، ومع ذلك فقد وفر اتفاق اسكويبلاس أداة مناسبة يمكن بواسطتها صياغة سياسة جديدة. وكان يتعذر سياسياً مهاجمة دعوتها بإدخال إصلاحات ديمقراطية وإجراء انتخابات، وانطوت حقيقة موافقة جبهة الساندينستا عليها على أهمية رمزية على الأقل وربما كان الأهم أنها ترتيب تفاوضت الأطراف نفسها عليه، ولم يمله الأمريكيون الشماليون. فلو أن الرئيس اقترح مثل هذا الاتفاق لكان خصومنا فى الكونجرس قد رفضوه. لكن نشأته فى المنطقة نفسها منحته أصلاً يمكننا توظيفه لمصلحتنا.

نحو اضطراب فى الكونجرس

صاغ أرونسون ببراعة ضخامة مشكلة ترويج سياسة جديدة فى مذكرة بتاريخ ٧ شباط فبراير. وجاء فى المذكرة «إن الثقة معدومة بين خصوم تقديم المعونة للكونترا، والسلطة التنفيذية والعكس صحيح. فالشكوك عميقة »وسرعان ما سأدرك أن هذا فى الحقيقة كان تقييماً متواضعاً. فهذا الجدل يشبه معركة على الفداء تدور منذ أعوام. وقد تحولت هذه المعركة إلى مواجهة صريحة دون شفقة وبلا هوادة، وباتت العلاقات السياسية أسيرة رغبة أساسية لدى كل جانب فى «نفى» الآخر. كانت حدة ودرجة العداء المتبادل بين الأطراف المتحاربة غير عادية. وكان محتواه الفلسفى بالغ الصرامة حتى ليسع المرء القول بأنه المعادل الداخلى لإجلاس إسرائيل والعرب فى نفس الغرفة، ومحاولة حملهم على تسوية خلافاتهم فى غضون تسعة أسابيع .

وكان كلا الجانبين يضمان أعضاءً كثيرين لديهم مصلحة شخصية فى القضية، وليست لديهم أى رغبة على الإطلاق فى نجاح أى شىء، وأراد المتشددون المحافظون على اليمين التصويت بقوة على المعونة العسكرية ظناً بأن الفشل المحتوم للتصويت سيمنحهم مبرراً لتحميل الليبراليين مسئولية وأد الديمقراطية فى نيكاراجوا. واعتبر هؤلاء كل فكرة عن السياسة غير الحزبية مؤامرة خفية دبرتها أنا والرئيس لاسترضاء جبهة الساندنيستا. وعلى النقيض أعتقد الليبراليون إن الأمر لا يعدوا أن يكون مجرد مؤامرة لإنقاذ الكونترا عبر التلاعب بالألفاظ. وفى كثير من الأمثلة كانت الحدة الأيديولوجية للاعبين الأساسيين تبدو

بامفتة بالقياس إلي تشدد وتصلب العاملين معهم الذين دأب الكثير منهم علي السفر إلي المنطقة لسنوات وإبرام صفقات سياسية في الخفاء مع مختلف فصائل الصراع .

وكنت علي يقين من أن سد هذه الفجوة يتطلب شخصاً وسطياً مبدعاً يجمع بين المثالية والواقعية. وبالنسبة لي كان التخلي أدبياً وسياسياً عن الكونترا يشكل عبئاً علي الضمير لكوننا سنطلب المعونة الإنسانية فقط للحفاظ علي أفراد الكونترا أحياء كقوة ردع موثوق بها في حالة الوصول إلي جمود سياسي. وفي الوقت نفسه سنواصل احتضان اتفاق اسكويبولاس ونسعي لترسيخه عبرسلسلة من سياسات الترهيب والترغيب التي تستهدف جبهة الساندنيستا. وستصبح سياستنا صارمة بدرجة أو بأخري اعتماداً علي درجة وفاء حكومة أورتيجا بتعهداتها.

كان لهذه الحوافز والعقبات الموازية هدف آخر : هو توفير إطار لتحقيق إجماع في الكونجرس. وأعدت هذه القائمة بعناية لتشمل علي الأقل بعض التدابير التي نعتقد أن كل عضو في الكونجرس قد ينادي بها. كانت مجموعة قليلة من الإجراءات الجذابة لأكبر عدد محتمل من الجمهور هي فقط التي تملك الفرصة لتجاوز العداء الذي تثيره القضية في الكونجرس.

واتساقاً مع هذه الإجراءات اعتزمنا ممارسة ضغوط علي السوفيت لسحب كافة المستشارين العسكريين لدول الكتلة الشرقية من نيكاراجوا، ووقف كافة أشكال المعونة العسكرية لحكومة ماناجوا وطلب مساعدتهم في الضغط علي كوبا لعدم إعادة تسليح الساندينستا .

كانت هذه هي السياسة التي أعتقد أنها ستعيد الروح المعنوية إلي سابق ارتفاعها. فالسياسة الحالية بتركيزها علي البعد العسكري سحبت البساط بالفعل من تحت «السلام» والمفاوضات لصالح المعارضة. فالرئيس ريجان وصف عن حق مقاتلي الكونترا بأنهم مقاتلون من أجل الحرية، لكن من الصعب الحفاظ علي تأييد الرأي العام لمحاولة جيش متمرد للإطاحة بحكومة، حتي وإن كانت لعينة كحكومة الساندينستا. وكنت أعتقد أن الشعب الأمريكي سيؤيد سياسة تعيد التركيز على الحوار حول المبادئ الديمقراطية. وببساطة لم يكن الديمقراطيون ليجرأون علي معارضة سياسة أقرت تلك الانتخابات ولن يجرؤ أيضاً أشد مؤيدي الكونترا .

وفي جوهرها التكتيكي حملت هذه السياسة نزعة التخلي عن استراتيجية المواجهة الصرف والمتصلبة التي ميزت في السابق العلاقة بين إدارة ريجان ومنتقديه في الكونجرس. وعلاوة علي ذلك كما اتضح فإنها تناسب مهاراتي.

كان هذا أول وأهم نزاع سياسي يقتضي تفاوضاً دقيقاً ومنضبطاً، وهي ميول صقلتها خبرة عشرين عاماً من العمل القانوني وسنوات البيت الأبيض. وكنت أعتقد أيضاً أنني وطدت علاقة ثقة مع الكثير من أعضاء الكونجرس في تعاملاتي السابقة ربما تتجاوز جدار الشكوك والارتياب الذي أحاط بالقضية علي مدار الأعوام الثمانية الماضية. كانت مغامرة كبري. لكني كنت أعتقد أن الفرصة مثالية للتوصل إلى مصالحة.

دبلوماسية مكوكية في الكونجرس

ومن دواعي السخرية أن تكون أول مهمة تفاوض لي كوزير للخارجية هي التفاوض مع السلطة التشريعية لا مع قوة أجنبية. لكن التجربة ستؤكد أنها عملية شاقة ودقيقة كأي مواجهة أخري في تعاملاتي مع البلدان الأخري. فمفاوضاتي علي مدار اثنين وعشرين يوماً مع زعماء الكونجرس كانت مكثفة غلبت عليها النزعة الحربية، وتخللها الكثير من القسوة. وبدأ ما استطال ليتجاوز أربعين ساعة من المباحثات بعد ظهر الثاني من آذار مارس حين عرضت الاقتراح علي مجموعة تضم عشرة من الزعماء الجمهوريين بمجلس النواب والعاملين بمكتب بوب ميشيل، وسلمت كل واحد منهم مذكرة «بالغة السرية» من ثماني صفحات تلخص السياسة التي أفكر فيها. وفي ختام الاجتماع جمعت كل النسخ التي تم توزيعها ماعدا النسخة الخاصة بميشيل، وهو إجراء كررته في كل اجتماع مع زعماء الكونجرس.

وتضمن ملحق المذكرة قائمة تحتوي علي عشرين «جائزة للأداء الإيجابي» للساندنيستا توازيها «حوافز سلبية لعدم الامتثال» لاتفاق اسكويبولاس. واقترنت القائمة بحرص شديد بأداء الساندنيستا، وعلي سبيل المثال إذا عدلت ماناجوا قوانين الانتخابات مع نهاية نيسان إبريل كما وعدت فسوف نسمح للدبلوماسيين النيكاراجويين بالتجول في أنحاء الولايات المتحدة دون إخطار مسبق، وإذا سمح لأحزاب المعارضة بالتسجيل مع نهاية آب أغسطس فقد نلغي المناورات العسكرية الأمريكية في هندوراس.

وإذا أجريت انتخابات حرة ونزيهة بالفعل في شباط فبراير ١٩٩٠م فسوف تنقل الولايات المتحدة من جهودها الرامية إلي إقناع اليابان وحلفائها الأوربيين لقطع المعونة عن نيكاراجوا. وعلي الجانب الأخر لو حدث تزوير في الانتخابات سندرس التوجه بطلب الكونجرس لتجديد المعونة العسكرية للكونترا.

وكان الهدف هو إلقاء مسئولية معارضة الحل الديمقراطي حيث يجب أن تكون – أي علي الساندينستا. وخرجت من هذا الاجتماع متوجهاً إلي الجانب الآخر للكونجرس للإجتماع مع الشيوخ الجمهوريين. وبدأ بوب دول الاجتماع بقوله «والآن لندع جيم يبلغكم بما يريد هؤلاء الرجال عمله».

وبالنسبة للشق الأكبر كانوا موافقين ولكن بلطف وكان جيمس هيلمز من نورث كارولينا هو الوحيد الذي أراد تقديم المعونة العسكرية للكونترا رافضاً للجهد الدبلوماسي .

وقلت لهيلمز: «أنني أويد المعونة العسكرية للكونترا أيضاً. لكن هناك مشكلة واحدة فليس بوسعك الحصول علي الأصوات اللازمة لإعتمادها ولا أستطيع أنا أو حتي رونالد ريجان نفسه الحصول علي الأصوات اللازمة. لكن يمكننا الحصول علي الأصوات الضرورية للموافقة علي هذا».

وفي الصباح التالي اجتمعت مع الأعضاء الديمقراطيين في مجلس الشيوخ والنواب. كان البروتوكول والحكمة يحتمان ضرورة التشاور مع أعضاء حزبي أولاً. لكن من الناحية العملية كنت أعي أن تأييد الديمقراطيين الذين يشكلون الأغلبية هو الأكثر حسماً. وإذا أمكنني إقناع المعارضة المتشككة بالموافقة علي هذه السياسة فلن يكون هناك خيار أمام الجمهوريين سوي أن يحذو حذوهم رغم أي تحفظات.

وقلت أمام الديمقراطيين «إن هذه القضية أثارت الانقسام في بلدنا وسممت أجواء سياساتنا لسنوات، إننا نرغب بل ويتعين أن ننبذ كل ذلك وراء ظهورنا» واستدركت قائلاً: ولكي تنجح سياستنا «علينا أن نتحدث بصوت واحد» فلا يمكن أن تكون لدينا سياسة واثنتان أو ثلاثة تجاه أمريكا الوسطي. فهذا يضعف معنويات أصدقائنا ويريح خصومنا».

وعرضت ملخصاً لهذه السياسة مؤكداً علي العناصر الأساسية مثل تأييد الانتخابات الديمقراطية، وهو ما كنت أعرف أنه أكثر إغراءً وجاذبية من مساعدة الكونترا. وقلت

«أعرف أن هناك ميراثاً خفياً من انعدام الثقة من مخلفات الماضي. لكن دعونا نلقي بأوراقنا علي الطاولة. ليس لدينا جدول أعمال خفي. إننا نريد أن تؤتي هذه الدبلوماسية مفعولها وسوف نسعي جاهدين وبحسن نية لتحقيق ذلك».

وأوضحت ردود الفعل الجماعية لدي الديمقراطيين نزوعهم نحو المصالحة. لكن الشكوك كانت لا تزال تساورهم حول الدوافع التي تحركني. وكما قال كريس رود: «ليست القضية مجرد نهج دبلوماسي. بل ما إذا كان ستيم تطبيقه بحسن نية».

وكنت أعرف أن مصارحتهم هي الطريقة الوحيدة لإقناعهم بأنني ولا الرئيس تحركنا دوافع خفية. وقلت: رود. «انظر، إنني أفضل فعلياً المعونة العسكرية للكونترا، لكننا نعرف أنها ليست من بين الأوراق، لذا فلن أطلبها مطلقاً. فليس في الأمر خدعة أو مكيدة. إننا نريد تجربة الدبلوماسية. لكنها لن تؤتي مفعولها دون اتباع نهج موحد».

وخرجت من هذه الجولة الأولي من الاجتماعات بتعهدات بتقديم دعم عام لخطة الرئيس. وحتي أشد الديمقراطيين تشدداً استلزمهم كثير من الجهد ليغيروا آراءهم. لكن كان هناك الكثير من الفجوات التي يتعين سدها وتضييقها، وأمضيت الأسابيع الثلاثة التالية في جولات مكوكية بين الجمهوريين والديمقراطيين، وكم مرت عليّ أوقات أحسست فيها بأن العملية علي وشك الانهيار نتيجة للتصلب الأيديولوجي الذي أشعل نار الجدل السياسي معظم سنوات العقد.

وأتذكر خروجي ذات مرة من جلسة مفاوضات مع أحد العاملين معي. وعلي حين غرة دنا منا اثنان من العاملين مع رود كانا يستشيطان غضباً لدرجة انتفخت معها أوداجهما. وشكلهما الغضب لأن النسخة الحالية لمشروع اتفاق تضمنت إشارتين إلي الحاجة لإدخال إصلاحات ديمقراطية في نيكاراجوا، وخرجت الكلمات من فم أحدهما كالقذائف «إن هذا استفزاز مباشر، إنكم تحاولون تهشيم أنفوهم» وبدا الآخر كما لو كنت في ممر في بيركلي في عقد الستينيات.

وكما توقعت لم يعترض أحد علي الضغط علي السوفيت والساندينستا لكن القضية الأكثر صعوبة – كالمتوقع – هي قضية مساعدة الكونترا، فالديمقراطيون يريدون أساساً اعتماد المعونة فقط «لإعادة» تمركز الكونترا، وهو تعبير مخفف – لكلمة التسريح - وهو ما لم

يقر به الجمهوريون ولا يتحتم عليهم القبول به. وقال جيمس هيلمز: إن معونة إعادة التمركز لا تعني سوي الخيانة. وأطلقت علي هذا الخيار اصطلاح «إعادة الدمج» وقلت: إننا نريد الأموال لمساعدة أفراد الكونترا على العودة إلي ديارهم فى نيكاراجوا إذا تحسنت الظروف بالفعل كما وعدت الساندنيستا. وعلي أية حال أعتقد أنه من الضروري الإبقاء علي الكونترا فى هندوراس في حالة استعداد عسكرى لعام علي الأقل لمواصلة الضغوط علي ماناجوا.

وتطلب كسر هذا الجمود مصارعة شاقة، ولم يكن السيناتور جون مكايا من أريزونا، وهو صوت متردد بين الجمهوريين علي استعداد لتأييد «إعادة التمركز» إلا إذا وافق الديمقراطيون علي دراسة تقديم المعونة العسكرية للكونترا إذا فشلت الجهود الدبلوماسية. ورفض كريس رود علي الجانب الآخر أى اتفاق لا يتضمن مبدأ إعادة التوزيع.

وفى النهاية وبعد عدة مناقشات حامية ولقاءين صاخبين جرت المفاوضات علي حل وسط، ونص الاتفاق النهائى علي اعتماد معونة الكونترا لدعم «إعادة الدمج الطوعى أو إعادة التمركز الطوعى» للكونترا، وتعهدنا أيضاً بوقف المعونة عن أى قوات في الكونترا تنتهك وقف إطلاق النار بشن أى عمليات هجومية.

وتمحورت العقبة التفاوضية النهائية حول مطالب الديمقراطيين بضرورة مراجعة الكونجرس للمعونة الإنسانية برمتها. ورغم تأكيداتى علي صدق نية الإدارة فى التحرك بقوة لتحقيق تسوية من خلال التفاوض، إلا أن بعض الديمقراطيين كانوا لا يزالون يرغبون فى التيقن من أنهم لا يُستدرجون إلي فخ لإجبارهم علي تجديد المعونة العسكرية. وكنت قد حصلت علي التزام خاص من جيم رايت بتجديد المعونة الإنسانية لمدة عام. وأثناء وضع اللمسات النهائية علي مشروع اتفاق علمت من جانيت مولينز ومصدرها الموثوق النائب بيتر ماديجان أن رايت فقد سيطرته علي رئيس اللجنة الفرعية فى المجلس. وأصر علي أن تجديد معونة الكونترا لمدة عام بدون إشراف الكونجرس أمر غير وارد.

وأخيراً تجسد الحل فى صورة اقتراح وسط طرحه عضو الكونجرس الديمقراطى ديفيد أوبى من ويسكونسن ورئيس لجنة الاعتمادات الفرعية للعمليات الخارجية. واقترح أوبى قيام لجان الاعتمادات والشئون الخارجية فى مجلس الكونجرس بمراجعة الموقف غضون ثمانية أشهر. وسيكون استمرار المعونات للكونترا بعد ٣٠ تشرين الثانى نوفمبر بموافقة اللجان الأربع.

وربما يفسر البعض مثل هذا الترتيب بأنه فيتو بحكم الأمر الواقع من الكونجرس. ومع ذلك ومن الوجهة العملية فإن مثل هذا «الفيتو» قائم بالفعل علي أن سلطة المال مكفولة بشكل خاص للكونجرس بمقتضي الدستور. وبالفعل فقد فرض الكونجرس حظراً علي كافة أشكال المعونة العسكرية للكونترا. وخلصت إلي أن الموافقة علي اقتراح أوبيى لا يهب الرئيس أياً من حقوقه علي الإطلاق. وفي الوقت نفسه سينظر إليه باعتباره بادرة رمزية لحسن النوايا، وبرهاناً علي رغبة الرئيس في وضع سياسة خارجية غير حزبية. ووافق الرئيس علي توصيتي بقبول اقتراح أوبيى، وفي الحقيقة فقد بدأت المفاوضات معتقداً أنه إنجاز باهر لو حصلنا علي موافقة بمد المعونة لستة أشهر – أي نصف الفترة التي وعدني بها رايت. وهكذا فإن إعادة النظر في المعونة بعد ثمانية أشهر كان أكثر من مقبول .

وفي المراحل النهائية العملية كنت أقوم ببعض الجولات في الكونجرس. بينما كان عضو الكونجرس الجمهوري دوكانان هنتر من كاليفورنيا – أشرس منتقدي السياسة غير الحزبية – يجتمع مع محافظين آخرين يعدون العدة لتخريب الحل الوسط. وقررت زيارتهم دون سابق إخطار. وقلت: «سمعت أن لديكم بعض الأسئلة» واشتكي هنتر من أن الإدارة لينة للغاية في قضية الساندنيستا. وقلت مجدداً: «إنني أتفق معكم بأنه يتعين علينا أن ننتهج سياسة متشددة. لكن أين ستحصلون علي الأصوات اللازمة لإقرارها «إننا نعرف جميعاً إنه لا وجود لهذا المكان .». ومع نهاية الجلسة تراجعوا عن تحفظاتهم ووافقوا علي المضي قدماً علي مضض .

وفي ٢٤ آذار مارس شارك زعماء الكونجرس من كلا الحزبين في احتفال شاركت فيه أنا والرئيس في البيت الأبيض لإعلان الاتفاق. وقلت «الآن» سوف نعمل معاً، السلطة التنفيذية والكونجرس لضمان تحول الوعود بإقامة ديمقراطية في نيكاراجوا إلي ديمقراطية حقيقية»

ونص الإتفاق علي تخصيص ٥٠ مليون دولار معونة إنسانية للكونترا خلال الانتخابات في نيكاراجوا علي أن يراجعها الكونجرس في غضون ثمانية أشهر. وفي الوقت ذاته فإن موافقة الحكومة ضمنت التخلي عن السياسة السابقة بمحاولة الإطاحة بالساندينستا بالقوة، وتقوم عوضاً عن ذلك بتأييد إجراء انتخابات ديمقراطية وأن تقبل بنتيجتها، وفي المقابل قدم لنا الأعضاء الديمقراطيون في الكونجرس مؤشراً هاماً للمرونة للسعي للتوصل إلي

تسوية دبلوماسية كانت صياغة الاتفاق يكتنفها بعض الغموض البناء. لكنني كنت أعتقد أنه حل وسط ينطوي علي حصافة سياسية لمصالح متنافسة، ويمكن أن يفضي في نهاية المطاف إلي إقامة حياة ديمقراطية في نيكاراجوا. ومن وجهة نظر تكتيكية، انحرت كافة الأطراف عاماً من المشاحنات والاضطراب حول قضية تقديم المعونة للكونترا.

وجاءت واحدة من أكثر اللحظات التي غمرني فيها ارتياح شخصي لدي سماعي جورج ميتشيل زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ يتفوه بكلمات تستعصي علي الفهم للوهلة الأولي: «إنني أثق في الرئيس ووزير الخارجية، لقد ولت حقبة الكراهية المتبادلة التي تورث الوهن».

وفي ذروة لحظة النقد للرئيس خرج بويدين جراي مستشار البيت الأبيض برأي معاكس تجاه القضية. فقد صرح لصحيفة نيويورك تايمز بأن الاتفاق مطعون فيه دستوريا. لأنه يرقي – في الواقع – إلي حد منح الكونجرس فيتو تشريعي. وكان هذا التقييم خاطئاً ولا مبرر له، فالاتفاق في المقام الأول وثيقة سياسية تم التوصل إليها من خلال التفاوض أكثر منه تشريعا عاديا. وعلي أية حال استشاط الرئيس غضباً من مستشاره لانتقاصه من قيمة أول نصر لسياسته وللسياسة الخارجية. واستدعي الرئيس جراي إلي المكتب البيضاوي ليعرب له عن عدم ارتياحه، ويأمره بالكف عن الإدلاء بأي أحاديث للصحفيين بهذه الطريقة مستقبلاً.

الدبلوماسية تؤتي ثمارها أخيراً بعد أن سَنَحَتْ الفرصة:

منح اتفاق السياسة غير الحزبية للرئيس ولي قوة عظيمة مكنتنا من تحدي السوفيت لتطبيق التفكير الجديد لجورباتشوف بشأن استمرار المعونة لنيكاراجوا. وكان بوسعي بعد إعلان الاتفاق بشهرين وأنا في زيارة لموسكو أن أبلغ شيفرنادزة بأن الرئيس وأنا متفقان في الرأي بأن تحسين العلاقات مستحيل ما لم يكف الاتحاد السوفيتي عن إزعاج منطقتنا. لكن إذا أيد الاتحاد السوفيتي إجراء انتخابات حرة ونزيهة في نيكاراجوا فسوف نحترم النتائج .

إننا نعرض الآن شيئاً علي الاتحاد السوفيتي طالما سعي إليه. لكنه لم يحققه في تاريخه، وهو قبول الولايات المتحدة بدور مشروع له في الدبلوماسية في منطقتنا. لكننا نفعل ذلك بشروطنا نحن : أي تحدي الاتحاد السوفيتي للموافقة علي اتفاق اسكويبولاس كما فعلت الولايات المتحدة والضغط علي حلفائه في المنطقة نيكاراجوا وكوبا لعمل الشيء نفسه .

ربما لم يكن هناك أفضل من هذا التوقيت، وبالصدفة فقد أبرزت الصحافة مراجعتنا للعلاقات السوفيتية الأمريكية مشيرة إلي أن الرئيس الجديد ينظر نظرة متشددة لمجمل العلاقة. وهكذا فقد بدأ تحدينا للاتحاد السوفيتي للتعاون في أمريكا الوسطي في عيونهم اختباراً مهماً لعلاقتهم مع الرئيس الجديد. علاوة علي ذلك فقد منحهم فرصة لإنقاذ ماء الوجه عند تخفيض دعمهم للساندنيستا الذي يبلغ مليار دولار في العام، وفي الوقت نفسه اكتساب مكانة الشراكة مع الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية .

وشددت علي هذه النقاط في اجتماعي مع شيفرنادزة. وبمجرد إقرار تعيينه توجه بيرني أرونسون إلي موسكو للقاء نظيره السوفيتي، وكان أرونسون أول، وبالقطع آخر مساعد لوزير الخارجية الأمريكية لشئون الأمريكتين يتوجه إلي موسكو في أول زيارة رسمية له. فيما يجسد رمزاً لفترة انتقال فريدة أدارت فيها إدارة بوش دبلوماسيتها.

ووافق السوفيت علي وقف تسليم الإمدادات العسكرية الرئيسية إلي نيكاراجوا، ومحاولة حمل الكوبيين علي عمل الشيء نفسه، والضغط علي الساندنيستا لقبول نتائج الانتخابات، ورغم بعض المشاكل إلا أنهم أوفوا بالشق الأكبر من التزاماتهم .

وتعين علينا أيضاً نزال الساندنيستا علي الأرض. فقد أقنعنا المعارضة المتشرذمة بالتوحد خلف مرشح واحد للمعارضة، ومارسنا ضغوطاً علي منظمة الدول الأمريكية والأمم المتحدة ومركز كارتر والاتحاد الأوربي وآخرين لإغراق نيكاراجوا بمراقبي الانتخابات. وأقنعنا الكونجرس بتوفير آلية لتسجيل الأصوات وأشكال الدعم الأخري بواسطة التبرعات الوطنية من أجل الديمقراطية في محاولة للحد من الامتيازات الهائلة التي تتمتع بها الساندنيستا بسيطرتها علي الموارد الحكومية والأفراد .

واتصلنا بالرئيس السابق جيمي كارتر الذي لعب بشكل خاص دوراً حاسماً باعتباره رئيساً لمركز كارتر في تعزيز إلتزامنا بأقوى ما يمكن بالسياسة غير الحزبية. وساهم كارتر في إقناع دانييل أورتيجا بقبول الهزيمة في الانتخابات، واتصل بي لإبلاغي بهذه الأخبار الطيبة في الساعة الرابعة والربع فجر السادس والعشرين من شباط فبراير ١٩٩٠م .

وكانت هزيمة دانييل أورتيجا أمام ائتلاف UNO برئاسة فيوليتا تشامورا إثباتاً رائعاً لـ [illegible] السياسة غير الحزبية حول أمريكا الوسطي. وعلاوة علي ذلك شكلت هذه الهزيمة

هزيمة أيديولوجية نكراء للشيوعية واليسار. فبمجرد أن أتيحت الفرصة للمواطن العادى فى نيكاراجوا أن يفصح عما بعقله فى أجواء الأمن المتوفرة فى مقر الانتخابات لم تحصل الساندنيستا إلا على أقل نسبة من الأصوات لا تضاهى حتى ما حصل عليه الجنرال بينوشيه فى شيلى قبل عام واحد .

وحملت الهزيمة النهائية الكثير لمؤيدى الساندنيستا الذين طالما دفعوا لسنوات وسنوات بأن النظام كان يحظى بتأييد «الشعب» وأرسى انتصار الديمقراطية فى نيكاراجوا وتسريح جيش الكونترا سلمياً وتعاوننا الناجح مع دول أمريكا اللاتينية والاتحاد السوفيتى، الأساس لعملنا الدبلوماسى اللاحق لانهاء الحرب فى السلفادور وضمان وضع نهاية للمعونة السوفيتية لكوبا .

وبالعمل يداً واحدة مع الكونجرس أظهرنا أنه قياساً على كل مرارة وكراهية العقد الماضى حول قضية أمريكا الوسطى فإن مقولة آرثر فاندنبرج عن السياسة غير الحزبية ليست نصيحة قوية مستمرة فقط بل إنها لا تزال تؤتى مفعولها أيضاً .

الفصل الخامس

الاتحاد السوفيتي

جورباتشوف، شيفرنادزة و«التفكير الجديد»

يجب على الغرب ألا يقف مكتوف اليد ليسمح "بانهيار القرن".

بيتر فاركوني

وزير خارجية المجر

لوزير الخارجية بيكر

٥ آذار مارس ١٩٨٩م

لو كُتِبَتْ هذه الكلمات اليوم في عالم شهد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي فإنه يستعصي وصف حجم مساهمة التهديد وخطر الشيوعية في تشكيل السياسة الخارجية الأمريكية خلال سنوات الحرب الباردة. وفي الحقيقة فإنني أعتقد أنه من الإنصاف القول إن مجرد وجود الاتحاد السوفيتي في حد ذاته قد غير حياتنا تقريباً. إن مركزياً أو هامشياً.

وفي سنوات نشأتي في هيوستون في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات وجدت في نادي ريفر أواكس الريفي منزلاً ثانيا لي. وفي عطلة الصيف كنت أمضي ساعات اليوم في لعب أو مشاهدة أو الحديث عن التنس مع اللاعب المحترف أندروجيتكوف. وجيتكوف من مواليد روسيا في بداية القرن، وقد أبعدته الثورة البلشفية وعائلته خارج روسيا. ووجد طريقه بشكل ما إلي هذا النادي في تكساس. حيث تولي إدارة لعبة التنس، وأشرف علي تنظيم بطولة سنوية مشهورة للهواة. كما تولي أيضاً تعليم الصبية أمثالي كيفية لعب الكرات الأمامية اللولبية أثناء شهور الصيف الحار الرطب. وفيما بعد كنا نجلس بالملعب نرتشف البيرة أو مشروب الفراولة بالصودا.

وأحياناً كان يجتر ذكريات روسيا والثورة، وأتذكر مدي المعاناة التي لابد وأنه كان يقاسيها نتيجة اغترابه عن أهله ووطنه. وتوالت على ذاكرتي معظم وقائع هذا التاريخ. كان من اليسير استيعاب دروسه عن الصداقة واللطف وسماحة النفس، وكم شرفني أن يطلب مني بعد سنوات أن أكون أباً لابنه عند التعميد. وكان من عادته بعد أن آخذ حمامي وأغير ملابس التنس في نهاية اليوم أن يضع زيت الشعر الوردي علي شعري الأسود حينذاك. وكنت أعود إلي المنزل يخالجني إحساس بالانتعاش لتبادرني أمي بسؤال من وضع كل هذا الشحم علي رأسك؟ وإذا كان ملعب التنس هو بيتي الثاني فإن جيتكوف كان بمثابة الأب الثاني لي، وما كان يخطر ببالي حينذاك مدي تأثير انهيار الاتحاد السوفيتي علي حياتي المهنية مثلما تغيرت حياتي الخاصة بتأسيسه ورحيل جيتكوف إلي الولايات المتحدة*.

وما إن أعلن جورج بوش رغبته في تعييني وزيراً للخارجية، وقبل أن يقر مجلس الشيوخ تعييني جاء السوفيت لجس نبض الإدارة الجديدة. فبعد يوم الانتخابات عام ١٩٨٨م جاءني طلب بعقد اجتماع خاص من أناتولي دوبرونين الذي عين سفيراً سوفيتياً لدي واشنطن عام ١٩٦٢ م. أثناء تولي نيكيتا خروتشوف السلطة، واستمر في موقعه لأربعة

* أنا مدراسي بجامعة برينستون درست التاريخ الروسي، وكتبت بحثاً في أولي سنوات الدراسة عن حكومة الكسندر كيرنيسكي التي لم تعمر طويلاً، والتي شكلت عقب الإطاحة بالقيصر نيكولاس الثاني وأطاح بها البلاشفة.

وعشرين عاماً، وسبقت لي معرفة دوبرونين عن ظهر قلب منذ سنواتي الأولي في الحكومة. فقد شهد مراسم أدائي اليمين كوكيل لوزارة التجارة في آب أغسطس عام ١٩٧٥م وأتذكر كيف استغربت حضور عميد السلك الدبلوماسي الأجنبي لحفل أداء وكيل وزارة لليمين. كان بودي أن أحسن أنه رأي فيّ نجماً بازغاً. لكن الواقع أنه اعتقد علي الأرجح أن حضوره سيساعد السوفيت في قضايا التجارة بين الشرق والغرب التي تتمحور حول التجارة. وكنت أراه في مناسبات متفرقة بشكل عرضي أثناء عملي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض ووزيراً للتجارة، وأدركت أن نقله عام ١٩٨٦م مديراً للإدارة الدولية باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي جعله من أوثق مستشاري جورباتشوف للشئون الأمريكية. ورتبت للقائه في مقر إقامتي بشارع فوكسهول بواشنطن. ولدي وصوله هبطت الدرج برفقته قاصداً غرفتي الخاصة. ودرجت غالباً علي عقد لقاءاتي الخاصة في هذه الغرفة، وسبق أن استقبلت فيها بوب ميشيل، وبات موينيهان وبوب دول وبيل برادلي وآخرين لمعالجة قضايا مثل الضمان الاجتماعي والإصلاح الضريبي.

وأبلغني دوبرونين أنه في غضون أيام سيقوم السفير السوفيتي يوري دوبنين بتسليم رسالة إلي البيت الأبيض يطلب فيها الترتيب لاجتماع مع الرئيس ريجان والرئيس المنتخب جورج بوش. فسوف يصل جورباتشوف إلي نيويورك في كانون الأول ديسمبر للمشاركة في دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتأمل موسكو الترتيب لعقد اجتماع يتواكب مع الزيارة وبإنجليزية ركيكة غير رصينة أبلغني بلهجة تآمرية «إن ما نريده حقيقة هو اجتماع مع جورج بوش، إننا سعداء للتعامل معكم. فكفاءتكم مشهود بها». وتكاد هذه أن تكون شهادة منه بأنه جمهوري مخلص. لكن علاقات إدارة بوش مع إدارة ريجان أعطت للسوفيت انطباعاً بأنه ستكون هناك درجة من الاستمرارية فيما يتعلق بالعلاقات السوفيتية الأمريكية.

وردتت عليه بأنني أُثَمِنُ اطلاعي بأمر الطلب المنتظر لعقد الاجتماع، وانتهزت الفرصة لأسأله عن كيفية سير الأمور في موسكو.

وقال بنبرة تشاؤم: «إن الناس تشعر بالقلق ومبعث قلقهم هو الاقتصاد. وهناك الآن توقعات مفرطة، والكثير من التذمر والضغوط تتزايد. ولا يمكننا إلغاء الدعم علي الغذاء والسلع الأساسية للتحول إلي اقتصاد السوق بهدف زيادة الأجور». وسألته: «ماذا تعتقد بشأن

الوضع السياسى؟. وأجاب بصراحة ووضوح: «إن مكمن الخطر هو ما إذا كان جورباتشوف سيستطيع الصمود.» وكان هذا السؤال هو الذى سيشغل بالى على مدار الأعوام الثلاثة القادمة.

اللقاء الأول مع شيفرنادزة: فى فيينــا شهر آذار – مارس

بعد أربعة أشهر، توجهت يوم الأحد الموافق ٥ آذار – مارس١٩٨٩م إلي فيينا بالنمسا لإفتتاح مباحثات خفض القوات التقليدية فى أوروبا (CFE) فلأربعة عشر عاماً راوح القادة علي المباحثات السابقة – مباحثات الخفض المتبادل والمتوازن للقوة – ولم تحقق سوي تقدم ضئيل. فما بالك بالتوصل إلي اتفــاق. وكنـــا مـصـمـمـين علي ألا يحدث الشىء نفسه لمباحثات (CFE).

وكانت المباحثات تمثل بالنسبة لى فرصة للقاء عدد من نظرائى فى أوروبا الشرقية والإصغاء إلي آرائهم فى الإصلاح. وأبلغنى وزير خارجية المجر بيكر فاركونى بأن المجر بدأت الإصلاح بالفعل عام ١٩٦٨م غير أن «الوضع الدولى غير المواتى». كما وصفه فاركونى – قد أجل الإصلاحات حتي مجئ جورباتشوف، وباختصار – فقد استوعب المجريون الواقع المؤلم لسحق موسكو لانتفاضة الكسندر دوبتشيك «ربيع براغ» ١٩٦٨م فى تشيكوسلوفاكيا: «فالشرط الضرورى للإصلاح فى أوروبا الشرقية هو إجراء الإصلاح فى الاتحاد السوفيتى. ومضي قائلاً: «عندما بدأت البيريسترويكا كنا علي استعداد للمضى قدماً، وشرعنا فى طرح أفكار أكثر راديكالية عن تلك التى يطرحها السوفيت «لكن لم يتخذ المجريون أى استعدادات لإزالة الأسلاك الشائكة أو التدابير الأمنية التى تفصل حدودهم عن النمسا».

وعندما استفسرت منه عن رأى السوفيت فى تلك الخطوات قال: «إن السوفيت يؤيدونها تماما. إنهم يرون فى جهودنا نموذجاً مثالياً للجهود التى يمكن أن يقوموا بها.» وقال: «ليس هناك مخرج أمام الاتحاد السوفيتى سوي البيريسترويكا وقد أقر جورباتشوف هذا بنفسه».

وسمعت المزيد من نفس هذه الآراء فى وقت لاحق من اليوم تاديوش أوليشكوفسكى وزير الخارجية البولندى. وأطلعنى بالتفصيل علي الخطط البولندية لإصلاح النظام السياسى

في بولندا. وفي مرحلة ما، وبعد أن استفسرت منه عن كيفية توافق مجلس الشيوخ مع البنية الحكومية، انفجر الجدل بين أعضاء الوفد البولندى حول المزايا النسبية للنظام الرئاسى الأمريكي عن النظام الرئاسى الفرنسى. وكان من الواضح أن البولنديين تجاوزوا النظرية الديمقراطية بكثير إلي حد محاولة تحديد المشاكل العملية، وهو ما جعلها بوضوح إصلاحات «ثورية» كما وصفها أوليخكوفسكى. وبات من الواضح أن البولنديين شأنهم شأن المجريين يريدون الحصول على المساندة الأمريكية لجهودهم. وقال: «لايكفى أن تقفوا موقف المراقب. لقد حان الوقت للبدء باتخاذ خطوات صغيرة وتزيدوا قواننا. السيد الوزير يجب ألا تغيبوا عن الساحة. وكان من الواضح أيضاً أنه بينما اعتمد البولنديون والمجريون على جورباتشوف لتغيير مناخ العلاقات بين الشرق والغرب حتى يتسنى إجراء إصلاحاتهم فإنهم يلتمسون الآن مساعدة الولايات المتحدة حتى يمكنهم مواصلة وتعزيز جهودهم. وكانت المناورة من أجل تأييد الإصلاحات دون حدوث إنفجار ما يؤدى إلي تكوصها عملية بالغة الدقة.

وهيأ لقاء فيينا لى فى المقام الأول فرصة التحادث بإيجاز مع شيفرنادزة، وخلال الفترة الانتقالية أسر جورج شولتز لى بأنه يشعر بأن علاقة حميمة تربطه بشيفرنادزة. وأعرب عن اعتقاده بأن شيفرنادزة هو الرجل الذى يمكننى التعامل معه. وسبق لى لقاؤه مرة وأنا وزير للخزانة على غداء عمل استضافه ريجان بعد تعيين شيفرنادزة خلفاً لأندريه جروميكو. وكما حدث من قبل لفت نظرى شعره الأبيض المتهدل ونظراته الحادة وأسلوبه الرقيق. وكان يذكرنى إلي حد ما بألبرت أينشتاين. فقبل تخرجى من برينستون دعى لإلقاء محاضرة، وأثناء تقديمه ضجت قاعة المحاضرات بترحيب حماسى شاركنا فيه أينشتاين بالتصفيق مع الحضور، وشرع فى إلقاء محاضرته التى لاقت نجاحاً منقطع النظير. وبدون شك كان يتحدث عن فتح ثورى جديد فى عالم الفيزياء. وعلمت أن شيفرنادزة كان هو الآخر معنياً بثورتين إحداهما سياسية والأخرى اجتماعية. لكنه تحدث عنهما بأسلوب بسيط شيق يتسنى للجميع فهمه.

والتقانى شيفرنادزة فى ذلك اليوم بمقر إقامة السفير الأمريكى فى فيينا، وهو نفس المكان الذى استضاف لقاء كيندى وخروتشوف عام ١٩٦١م. وأردت انتهاز الفرصة لوضع قواعد لقاءاتنا فى المستقبل. لذا فقد عقدنا اجتماعاً منفرداً بوجود مترجمين فقط. ورغبت فى

إفهام شيفرنادزة حقيقتين منذ البداية. إحداهما موضوعية والأخرى إجرائية بعد أن حال استعراضنا لسياستنا الخارجية من التطرق إلى التفاصيل الجوهرية.

وموضوعياً أردت أن يعي أن الإدارة الأمريكية الجديدة تؤيد البيريسترويكا حقيقة، وأننا نعتقد أن نجاحها سيساهم جيداً في دعم الاستقرار الدولي، ويعزز العلاقات السوفيتية الأمريكية بشكل إيجابي. كانت البيريسترويكا تخفف بالفعل من خناق السوفيت لأوروبا الشرقية، وهذا يخدم المصالح الغربية بغض النظر عن كيفية تطور الأحداث السياسة في موسكو. وإجرائياً أردت المضي في التأكيد علي علاقتي الوطيدة طويلة الأمد مع الرئيس وطمأنت شيفرنادزة بأنه في ضوء العلاقات الطيبة بين سكوكروفت وتشيني وكرو وبيكر فلن يحدث تكرار للحروب الضروس التي أحالت إدارة السياسة الخارجية إلى جحيم في كثير من الإدارات السابقة .

وقدر شيفرنادزة ما قلته ونوه إلي أن بوش أفضي بنفس الرسالة إلي جورباتشوف في اجتماع جزر إيلاند في كانون الأول ديسمبر١٩٨٨م. وقال مؤكداً علي أنه لا يخالجه أدني شك في صدق كلماتي: «إن هذا ينطوي علي أهمية غير عادية. لأنه يحدد سياسة جوهرية. وإذا كان الحال كذلك. حينئذ فبوسع الجانبين أن يوليا اعتباراً جاداً لكيفية تطوير علاقاتنا في المستقبل».

وقال: «علينا أن نتعامل مستقبلاً. وليست هناك حاجة للتأكيد علي أهمية الاتصالات الشخصية. إن هذه الاتصالات مسألة بالغة الأهمية لتهيئة مناخ بناء وجدي من الثقة، إن لم يكن صداقة فعلية، مما ييسر مناقشة أكثر القضايا صعوبة واستمرارية بروح الوفاق المتبادل من منطلق السعي لإيجاد حلول مناسبة».

ومضي شيفرنادزة في مناقشة البيريسترويكا مردداً صدي نظرائه في أوروبا الشرقية بوصفها بأنها «ثورة» وأكد علي أنها يمكن أن تحول الاتحاد السوفيتي إلي شريك موثوق فيه للغرب، وأفضي إليّ برغبته في بحث البيريسترويكا بعمق معي في أحد اجتماعاتنا في المستقبل. لأنه «من الأهمية بمكان أن يفهم الجميع بعمق طبيعة ما يجري في الاتحاد السوفيتي. وبإيجاز شديد كانت الدولة والمجتمع في طور إعادة التشكيل. وأكد أنه يستحيل وقف هذه العملية. لأنها حازت الآن علي تأييد للرأي العام ولن تستطيع الحكومة وقفها حتي ولو رغبت في ذلك». كانت هذه هي المرة الأولي وربما الأخيرة التي يكشف فيها شيفرنادزة لي عن حقيقة فهمه للديناميات السوفيتية الداخلية .

وانتهزت فرصة مناقشته للأوضاع في الاتحاد السوفيتي لأطرح تصوراً رحباً فيما يتعلق بعلاقتنا رابطاً إياها بزيارته القادمة إلي طهران. وقلت: «يحلو لك الإشارة إلي التفكير السياسي الجديد». وأعتقد أن هدفنا يجب أن يتمثل في اختبار ما إذا كان بوسعنا ترجمة ذلك إلي إجراءات ملموسة تخدم مصالحنا المشتركة. وقلت علي سبيل المثال: «من الصعب علينا أن نفهم أنه في الوقت الذي يسعي فيه المجتمع الدولي لعزل إيران لما تمثله من تهديدات قاتلة، يظهر الاتحاد السوفيتي بمظهر من يحاول حمايتها من مثل هذه الضغوط». وقلت: «إن نفس الحقيقة تسري علي أمريكا الوسطي. حيث لا تنسجم شحنات الأسلحة السوفيتية إلي نيكاراجوا مع «التفكير السياسي الجديد».

ورد شيفرنادزة قائلاً: «إنني سعيد بأن نتطرق بالذكر إلي إيران». وكانت زيارته قد تقررت قبل فترة من ظهور فضيحة. حين أهدر آية الله الخميني دم المؤلف سلمان رشدي». علاوة علي ذلك بحث الخميني «رسالة خاصة» إلي جورباتشوف تناولت فلسفته وآراءه، وخاصة ما تعلق منها «بالآخرة» إضافة إلي رغبات الخميني في تطوير العلاقات السوفيتية الإيرانية .

وقال شيفرنادزة: «لا أعتقد أنه من الممكن عزل إيران. فهذا أسوأ الخيارات حتي لو كان ممكنا، رغم أنه من الصحيح أن إيران تضم متطرفين ومتعصبين حقيقيين.» لكنه مضي قائلاً بلهجة ساخرة مُذكراً بقضية إيران/كونترا: «استطيع أيضاً أن أؤكد أنه يوجد سياسيون راشدون في إيران.» وأنه تحدث معهم صراحة في المسألة برمتها وعن الحاجة إلي تحسين العلاقات بين الدولتين الجارتين اللتين تربطهما حدود بطول ٢٥٠٠ كيلومتر.

وألححت عليه حول ما إذا كان بوسعي إبلاغ الصحافة بأنه بحث قضية سلمان رشدي مع الزعماء الإيرانيين. وأبدي حساسية مفرطة حيال ذلك قائلاً لي: إنه لو حدث هذا فإن قدرته علي ممارسة تأثير علي إيران في المستقبل ستصاب بالشلل.

وما لبثنا أن انتقلنا لعقد جلسة موسعة لينضم إلينا أحد عشر مسئولاً أمريكيا وثمانية مسئولين سوفييت، وتناولت المباحثات عدداً من القضايا. لكن لم يكن هناك جديد يثير الاهتمام سوي القليل. وكانت أكثر الأفكار التي سمعتها إثارة هي اقتراح شيفرنادزة بتوسيع مجموعة العمل الخاصة بالعلاقات الثنائية إلي مجموعة تغطي التطورات الإيجابية بشكل

أكثر عمومية. (في ظل رئاسة ريجان كانت هناك أربع مجموعات عمل حكومية فرعية تتولي اتخاذ الترتيبات بين الوزراء، وهي الحد من التسلح وحقوق الإنسان والصراعات الإقليمية والقضايا الثنائية. ومع تغيير طفيف في محور تركيز كل لجنة من هذه اللجان الأربعة، قررنا إضافة لجنة خامسة هي القضايا العابرة للقوميات) . وكانت مجموعة العمل الخاصة الثنائية تختص أساساً في الماضي بالشئون الدبلوماسية مثل القنصليات والسفارات والتأشيرات، وبتأمل ما بدا في حينه أنه اقتراح حميد بات يوسعي أن أستكشف جذور ما سيصبح مستقبلاً تأكيدات مفصلة ومطولة عن السياسة الداخلية والاقتصاد والمجتمع في الاتحاد السوفيتي في اجتماعات شيفرنادزة مستقبلاً. وفيما كان يعد مؤشراً علي مستجدات المستقبل في ضوء المصالح الخاصة للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة في الشرق الأوسط قال شيفرنادزة: «يمكننا في مرحلة ما دراسة إمكانية اجتماع وزيري الخارجية الأمريكي والسوفيتي في المنطقة لبحث قضاياها» واستدرك قائلاً: «إنه لا يطرح هذا الاقتراح كمسألة ملحة لأن الظروف غير مهيأة حتي الآن لعقد مثل هذا الاجتماع».

وسرعان ما تيقنت في وزارة الخارجية – كما كان الحال في الخزانة – أنه سيصبح من المستحيل إنجاز عمل حقيقي في الجلسات الموسعة. فمثل هذه الاجتماعات بطبيعتها تتسم بالطرح الشعائري الذي يستهدف في المقام الأول طمأنة البيروقراطية لدي كل جانب، وتجنب تسرب الأنباء للصحافة. وكذلك إقناع ودفع الجانب الآخر. وكما تعلمت في وزارة الخزانة فمن الأفضل أن تقتصر مناقشة الموضوعات الحساسة مثل مفاوضات سعر الصرف علي الوزيرين وواحد أو اثنين من كبار المساعدين. وشجعت مثل هذه اللقاءات المصغرة علي إجراء حوار متعمق وإقامة علاقات شخصية أفضل مع نظرائي. وهكذا وعند انعقاد اجتماع ويومينج بعد ستة أشهر اتخذت معظم جلسات الاجتماع في شكل جلسات «منفردة». (وفعليا لم تكن الجلسة تقتصر علي شخصينا. فقد كنا بالطبع في حاجة إلي مترجمين. بالإضافة إلي مدوني محضر الجلسة. فكان من الجانب الأمريكي دينيس روس ومن الجانب السوفيتي سيرجي تارازينكو الذي لم يكن مجرد واحد من ألمع الدبلوماسيين الأجانب الذين التقيتهم بل أيضاً أنبل وأرق شخص قابلته في حياتي.



وفي يوم الأربعاء الثامن من آذار مارس أي في اليوم التالي لعودتي من فيينا جلست مع الرئيس في واحد من اجتماعاتنا الدورية التي تعقد كل أسبوعين. وبينما كان بوسعي الاتصال هاتفياً بالرئيس أو لقائه شخصياً في أي وقت لإطلاعه علي آرائي في أي قضية محددة كنت أشعر أن هذه الاجتماعات غير الرسمية التي تعقد كل أسبوعين أكثر الوسائل المفيدة التي اتيحت لي. ففي المناقشات الحرة المفتوحة كنا غالباً ما نتناول بالبحث – والتساؤل، الافتراضات والتصورات التي تؤكد أي سياسة بعينها. وكنا نفكر في هذه اللقاءات بصوت عال، وكنت علي اقتناع بأن هذا ساعدني في كثير من الحالات علي معرفة الرأي شبه القاطع الذي سيتخذه الرئيس حول قضية معينة.

وفي هذا اليوم بدأت بالتطرق إلي أوروبا الشرقية. وقلت: «إن البولنديين والمجريين ينطلقون وبأقصي سرعة وبأقصي مدي علي طريق الإصلاح السياسي والاقتصادي، وربما يفاجئنا هذا ويخلق واقعاً جديداً في أوروبا الشرقية». واتفقنا علي أن هذا يعني استكشاف كيف يمكن أن نساعد هذه الدول اقتصادياً. إضافة إلي بحثنا عن سبل للتعجيل بالتحرير السياسي. واقترح الرئيس دراسة إمكانية قيامه بزيارة في وقت مبكر لأوروبا الشرقية.

وأخبرته بلهفة شيفرنادزة لإقامة علاقة شخصية وضمان لاستمرارية العلاقات الأمريكية السوفيتية. وبما قاله من «أنه لابديل عن النجاح» رغم الصعوبات والعراقيل التي تواجه البيريسترويكا. وكان الانطباع المؤكد الذي خرجت به هو أن جورباتشوف وشيفرنادزة يشعران بحاجة ملحة لنجاح البيريسترويكا علي وجه السرعة. وقلت للرئيس: «أنهما زعيمان في عجلة بالغة من أمرهما، ولديهما إحساس شديد بالعجلة لكنهما يفتقدان إلي الخطة. ونتيجة لذلك يقومان بالبحث عن الأفكار، ومناقشة ما هو متاح، ويجاهدان لصياغة مبادرات». وأحسست أن التأكيد علي المبادرات ينطوي علي أثر فعال في أوروبا. وأشرت إلي كيف أمكنني تشذيب اقتراح سوفيتي طرح في فيينا حول خفض القوات التقليدية في أوروبا لينسجم مع أقل مبادراتنا تواضعاً حول الأسلحة الكيماوية، وأكدت علي أننا في حاجة إلي أن نشعر بالحساسية حيال هذا. لأن جورباتشوف سيطرح علي الأرجح مبادرة حول خفض جوهري للأسلحة قبيل أو بعيد قمة حلف الأطلنطي. «وعليك أن تكون مستعداً لطرح اقتراح جرئ وشامل».

وقلت: «إنه بينما يمكننا مواصلة دفع السوفييت نحو طرح مضمون «التفكير الجديد» لإقران الأقوال بالأفعال فإنني أقل اقتناعاً بأننا نملك من الأفكار في المجال العسكري ما يعضد التحليل. وكنت أخشي من أن مراجعتنا ستكون عملية بيروقراطية متزمتة وضيقة الأفق، ويرجح إلي حد كبير أن تفتقر إلي الأفكار الخلاقة لمواجهة المشكلة». وفي غضون شهر تحول ظني إلي حقيقة.

«المراجعة الاستراتيجية»

لم يكن ما يسمي بالمراجعة الاستراتيجية مراجعة استراتيجية حقيقية بل ولا مراجعة علي الإطلاق. وكانت هذه المراجعة التي بدأها الرئيس في ١٥ شباط فبراير ١٩٨٩م تستهدف إجراء عملية إعادة تقييم جوهرية للسياسة الخارجية الأمريكية. فبعد ثماني سنوات أمضاها نائبا للرئيس بات الرئيس شخصياً علي اقتناع بوضع بصمته الخاصة علي السياسة. واستهدفت المراجعة إعطاء مؤشر للبيروقراطية والكونجرس ووسائل الإعلام والرأي العام علي اقتناعه بأن الوقت قد حان لإعادة تقييم الافتراضات القديمة. وبدا هذا بالأحري اقتراحاً مستقيماً في وقت يشهد مثل هذه التغيرات الخطيرة.

ولسوء الحظ فقد ارتكبنا خطأين في طريقة إعداد خطة هذه المراجعة. أولهما: لأننا كنا نبدي فوق ميراث إدارة ريجان ولا نميزه كما كانت ستفعل أي إدارة ديمقراطية – فمنا باستبعاد الأشخاص بطريقة مهذبة. ولهذا السبب أشرف المسئولون الباقون من إدارة ريجان علي الجانب الأعظم من عملية المراجعة. ولأن مسئوليتهم هي تطوير وصياغة السياسة السابقة كان لهم بالطبع مصلحة شخصية ونفسية في استمرار حالة الأمر الواقع. كان الأمر أشبه بمن يطلب من معماري مراجعة عمارته: فربما يغير بابا هنا أو شباكاً هناك لكن من غير المرجح أن يشكك في أساس عمارته. ولا حاجة بنا للقول أن هؤلاء المسئولين وجدوا أنفسهم غير قادرين علي التفكير بطريقة جديدة. وثاني هذه الأخطاء أنه بدلاً من التماس الأفكار والاقتراحات من مصادر ليس لها مصلحة مؤكدة في السياسة القائمة طلبنا من البيروقراطية نفسها إعداد الأوراق. وكانت النتيجة أقل قاسم مشترك من التفكير – بما ينطوي

عليه من أقصى درجات إثارة الجدل - يتمثل في تنحية كل فكرة مهمة جانباً تحت إسم الاجماع البيروقراطي.

وفي النهاية لم نحصل سوى على الفتات. وفيما يتعلق بمسألة الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية عقد الرئيس اجتماعات لمجلس الأمن القومي أيام الثلاثين من آذار مارس والرابع والخامس من نيسان إبريل إضافة إلي ذلك اجتمع الرئيس مع خبراء الشئون السوفيتيه غير الرسميين في ١٢ شباط فبراير وعقدت ندوة في وزارة الخارجية في الرابع والعشرين من شباط فبراير مع ثلاثة من الخبراء هم: ستيف سيستانوفيتش من مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية وستيف ماير من معهد ماساشوسيتس التكنولوجيا وجورج بريسلاور من جامعة كاليفورنيا في بيركيلي.

وتركزت المناقشة في معظم تلك الاجتماعات على القضايا السوفيتية، وكان أبرز التساؤلات: هل البيريسترويكا تعني «إعادة البناء» أي انها فرصة «لالتقاط الأنفاس» أم أنها «انتقال» أو «تحول» بمعني «تغير جوهري» في السياسة السوفيتية؟ وفي رأي صقور المحللين لم تكن البيريسترويكا سوى «فرصة لالتقاط الأنفاس» وضعها السوفيت لكسر الجمود والتخلف التكنولوجي لحقبة بريجنيف وإنعاش الاقتصاد السوفيتي للصمود أمام المزيد من المنافسة مع الديمقراطية والرأسمالية في القرن القادم. وبالنسبة لحمائم المحللين كانت البريسترويكا تمثل تغيرا جوهريا في السياسة السوفيتية. واعتبروا أن جورباتشوف هو دوبتشيك الاتحاد السوفيتي، رجل يبدأ حقبة «اشتراكية ذات وجه إنساني».

وبالنسبة لي بدت هذه مجرد آراء أكاديمية. ففي هذا الوقت (ربيع عام١٩٨٩) كانت هذه الآراء تحمل بين طياتها عناصر ضعف وقوة. وما شغلني هو الإجراءات التي يمكن أن نتخذها في مواجهة هذين الاحتمالين المختلفين بهدف تحقيق أقصي المكاسب الدبلوماسية بأقل مخاطر ممكنة.

وربما كان هذا هو السبب الذي لم يدفعني لتذكر شيء من نتائج تلك الاجتماعات سوي الإحساس بأن بوسع المرء أن يقسم الإدارة إلي مدرستين للتفكير. فمدرسة «الأمر الواقع» تؤكد أن كل شيء يمضي في مصلحتنا نظراً لضعف السوفيت البالغ. ومن منطق تفكير هذه المدرسة ما علينا سوي تحين الفرصة. لأن جورباتشوف سيقدم التنازلات شرط أن نتحلي بالحزم. وكانت وزارة الدفاع وبعض العاملين في مجلس الأمن القومي أكثر جنوحاً نحو هذا الرأي.

وكنت أشعر ومعي كبار مستشاري بميل أكبر نحو ما يمكن وصفه بالرأى «النشط». وسبق أن أبلغني الخبراء بأنه يمكن ترجمة البيريسترويكا أما ب «إعادة الهيكلة» أو «الثورة». وكان إحساسي أن جورباتشوف ربما يتأهب حقيقة لإحداث تغيير جوهري بعيد المدي، لكن لن يكون بوسعنا تحديد الشوط الذي يرغب في قطعه إلا بتحركنا نحن قدما. واعتقد دينيس روس وبوب زوليك أن «الجلاسنوست» «التفكير الجديد» ربما يحملان بين طياتهما عقائد فلسفية يمكننا نحن توظيفهما بمهارة مع جورباتشوف لدفعه في اتجاه خدمة مصالحنا وافقتهما علي رأيهما. ومثل مرشح للرئاسة الأمريكية أسرف جورباتشوف في تقديم الوعود، وكانت مهمتنا هي إلزامه بالتمسك بكلامه. وجعلته الطبيعة الجريئة والجذرية لإعلاناته عرضة للقصف بنيران من صنعه. فلن يكون من اليسير عليه رفض مبادراتنا. لأنه في معمعة الثورة سوف يبحث عن أفكار.

واعتقدت في المقام الأول أننا لو وقفنا جامدين فسوف يستحوذ جورباتشوف علي قوة الدفع، وهذا ما أقنعني في النهاية بأننا في حاجة إلي التحرك. ففي السياسة الدولية كما في السياسة الداخلية فإن الهدف الجامد هو عادة الهدف الأسهل. وكلما تحركنا كلما استحال علي جورباتشوف أن يسجل نقاطاً علي حسابنا. وكنت أعتقد أن استراتيجية جورباتشوف سوف تقوم علي شق التحالف وتقويض مركزنا في أوربا الغربية بمغازلة الحكومات والشعوب الغربية، ودولياً كانت هذه فرصة لاكتساب هيبة ومكانة دولية. وكنا في حاجة إلي مهاجمة استراتيجيته في مقتل، وإمطاره بالمبادرات التي سيشعر بأنه ملتزم بتبنيها. وسيؤدي النكوص أو الجمود إلي الحد من خياراتنا بمرور الوقت، ويسمح بتغيير الساحة السياسية ضدنا. وأياً كانت الميول فقد تشجعت للغاية في أول زيارة لجورباتشوف .

الإعداد لجورباتشوف

وقبل زيارتي الأولي لموسكو في أيار مايو ١٩٨٩ م وبينما كنت أتأهب لها في بيت ضيافة حكومي في هلسنكي مصنوع من خشب الأرز قدمته الحكومة الهولندية كرماً منها تبينت أن جورباتشوف وشيفرنادزة مضطران للنظر إلي إدارة بوش ببعض القلق. فقد كانت إدارة ريجان متلهفة في شهورها الأخيرة علي الانتهاء من مفاوضات الحد من التسلح. ولم تكتف إدارة بوش بتجميد المفاوضات الجارية فحسب أثناء عملية «المراجعة» المطولة لكن في

التاسع والعشرين من نيسان إبريل قال ديك تشيني تحت الإلحاح في حديث مع شبكة CNN إنه يهجس في نفسه أن جورباتشوف «سيفشل في نهاية المطاف».

واتصلت بالرئيس وأثرت المشكلة الرئيسية الناجمة عن تصرفات تشيني. ولم أكن أختلف كلية مع تحليله الأساسي فلو طُلِبَ من الخبراء رأيهم في ذلك الوقت لتوقعوا فشل البيريسترويكا علي الأرجح. لكن لم يكن هناك مسوغ في حينه أن تتكهن الإدارة بفشل سياسة جورباتشوف سواء في الدوائر الخاصة أو العامة، وأن يصدر هذا التكهن عن وزير الدفاع. وبحث الرئيس المشكلة معي وطلب من سكوكروفت أن يأتي بالبيت الأبيض عن تصريحات تشيني. وكان هذا هو خلافي الرئيسي الوحيد مع تشيني حول الاختصاصات طيلة خدمتنا مع الرئيس بوش كوزيرين للخارجية والدفاع، ولكنني لم أشأ أن أرسي سابقة بإطلاق يد وزير الدفاع في الإدلاء بتصريحات عامة غير واضحة حول قضايا أساسية في السياسة الخارجية. وشعرت حينذاك وأشعر الآن بأن الإدارة التي تبيح لنفسها الحديث بأصوات متفرقة في السياسة الخارجية لا تخدم المصالح القومية. ويتعين أن يكون وزير الخارجية هو المستشار الرئيسي والمتحدث باسم السياسة الخارجية الأمريكية.

واتصل بي تشيني بعد هذه الواقعة ليبلغني بأنه تفهم موقفي ومارست عليه ضغوطاً ليقول شيئاً من الأفضل الإمساك عن ذكره.

وفيما يتعلق بجورباتشوف كلفني الرئيس أن أؤكد في الدوائر الخاصة ما يقوله في العلن: إننا نريد أن تنجح البيريسترويكا. وأعطاني رسالة صغيرة مكتوبة باليد لتسليمها كان الرئيس متلهفاً لدرجة أنه أراد أن يعرف في الحقيقة كيفية سير الاجتماع حتي وإن انقطعت خطوط اتصالنا المؤمّنة. فقد أمرني الرئيس قائلاً: «اتصل بي فور أن تري جورباتشوف» ولو كان الاجتماع مبشراً حقيقة، قل إنه يذكرني بزيارة أوتو، وإذا كان طيباً، قل، إنه يذكرني بزيارة موليندا. ويقدم في أوتا أفضل شواء في هيوستون. بينما يقدم موليندا تيكس ميكس ممتاز. وتساءلت: «ماذا لو مضي الاجتماع علي غير ما يرام؟». ردالرئيس: «قل إنه يذكرني بشوط تنس مع بوب موراي». وموراي أحد المعارف في هيوستون كان تشجيعه لنفسه يدفع الرئيس نحو الجنون.

وفي محاولة لاستشراف الأبعاد الأرحب للعلاقات السوفيتية الأمريكية من منظور جورباتشوف تأكدت أن العصبية ربما تكون مست جورباتشوف وشيفرنادزة لأن تأكيدنا علي «اختبار» السوفيت في الصراعات الإقليمية لعب علي أحد أوتار ضعفهما، فربما يقتضيهما هذا تحويل «التفكير إلي واقع» في مناطق يفضلون تفادي الخيارات القاسية فيها. وكنت حريصاً علي عدم إذلال السوفيت وهم يلملمون أطراف إمبراطوريتهم الكونية. لأنني لا أريد منح المتشددين في موسكو الأساس النفسي لعرقلة الانهيار.

وعلي الصعيد الداخلي كنت أعرف أن الاقتصاد يعاني من الركود. وبينما فازت الأغلبية الساحقة من مرشحي الحزب الشيوعي في انتخابات ٢٦ آذار – مارس فقد خسرت نسبة عشرين في المائة، وهي نسبة تصيب بالصدمة في السياسة السوفيتية، وكان من بين الخاسرين عدد من أبرز أعضاء اللجنة المركزية أو رؤساء أفرع الحزب في مناطق مثل موسكو وكييف ومينسك، وكا ن أقوي الفائزين بوريس يلتسين الذي طرد من المكتب السياسي في خريف عام ١٩٨٧م بعد اتهامه جورباتشوف بأنه «يمجد ذاته». وفاز بمقعد موسكو في مؤتمر نواب الشعب بأكثر من خمسة ملايين صوت أي بنسبة تقترب من التسعين في المائة من أصوات الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم في الانتخابات في الدائرة. وفي الآونة الأخيرة سحقت بعنف انتفاضة وقعت في تفليس عاصمة جورجيا في التاسع من شهر نيسان– إبريل، وقتل عشرون متظاهرا، ويبدو أن القوات السوفيتية استخدمت الغاز السام. كانت الانتفاضة استهلالاً لما سيصبح صيفا ساخناً من العمل الجماهيري حركته النزعة القومية أو الصعوبات الاقتصادية.

وكان هدفي الأساسي في موسكو هو طمأنة جورباتشوف وشيفرنادزة بأننا نؤيد إصلاحاتهما. وكنت أريد أيضاً استغلال اجتماعاتي للابتعاد عما شعرت أنه تأكيد مبالغ فيه علي الحد من التسلح بغية تعزيز علاقاتنا بالتركيز بقدر أكبر علي القضايا الإقليمية والعابرة للقوميات، وإعادة تعريف حوارنا حول حقوق الإنسان بالتباحث حول «إقامة مؤسسات الديمقراطية». وكان داعي للتركيز علي الصراعات الإقليمية قد أملته الضرورة من جانب والإختبار علي الجانب الآخر. فالجانب الذي أملته الضرورة يتمثل في مواصلتي الضغط علي السوفيت في قضية أمريكا الوسطي. فقد كان هو الصراع الإقليمي الوحيد الملح علي جدول

أعمالنا - دبلوماسياً وسياسياً - أما عن جانب الاختيار فقد أردت توسيع جدول أعمالنا لإحساسى بأن التغيرات السياسية الجارية فى موسكو قد تسمح بحدوث تقدم أكبر فى مجالات هي بطبيعتها مجالات سياسية أرحب من الحد من التسلح. وانصب إحساسى ذلك الوقت علي أن المفاوضات تميل لأن تهيمن عليها عناصر فنية خفية ومواقف تستميت البيروقراطية علي كلا الجانبين فى التمسك بها كما لو كانت آيات منزلات. وبدا لى أن هذه المفاوضات لا تناسب ما يجرى في علاقاتنا السياسية الأرحب. فلو شئنا تحقيق انفراج حاسم مع السوفيت فيجب أن ينبع من اعتبارات سياسية أشمل. وأردت أن تؤدى علاقتنا السياسية والدبلوماسية الشاملة إلي تحقيق التقدم فى مباحثات الحد من التسلح وليس العكس بالعكس.

وأردت أيضاً توسيع مباحثاتنا لتشمل قضايا عابرة للقوميات مثل منع الانتشار النووى ومكافحة الإرهاب والبيئة. وكان هذا طريقاً آخر لإعطاء مؤشر علي أننا مستعدون لفتح التعاون بين الشرق والغرب، وأننا راغبون أيضاً فى منح السوفيت كل فرصة لإظهار أنه يمكن ترجمة «التفكير الجديد» إلي واقع ملموس.

وعلي صعيد حقوق الإنسان كانت العلاقات مع الاتحاد السوفيتي شديدة الضعف لدرجة أنه نادراً ما أتيح لوزير خارجية الاقتراب من إجراء مناقشة جدية، فعادة ما كان الوقت المخصص لبحث مسألة حقوق الإنسان يكرس لتقديم قائمة بالمعارضين والأشخاص الآخرين الذين يحرمهم النظام بشكل فاضح من حقوقهم علي أمل السماح لهم بالخروج من الاتحاد السوفيتي. وتمثل هدفى فى استغلال الانفتاح الذى هيأته سياسة الجلاسنوست لتحويل تلك الجلسات إلي مناقشات حقيقية حول السبل التى يستطيع السوفيت بها إقامة «المؤسسات الديمقراطية» فى بلد تأسس على حكم القانون. ومن الواضح أن فكرة «حكم القانون» فكرة أجنبية تماماً. بل إنها تهدد أساس الحزب الشيوعى. لكننى شعرت أنه كلما أمكننا تغيير نمط تفكير القيادة حول هذه الفرضية، كلما باتت الفرصة أكبر أمام تماسك قواعد الحركة الديمقراطية وألححنا علي فكرة «إقامة مؤسسات» لمثل هذا التغيير إنطلاقاً من الاعتقاد بأنه إذا أريد تعضيد ثورة فيتعين أن تنعكس أفكارها فى المؤسسات التى تحكم المجتمع.

آلــة الزمــن – زيارتى الأولي لموسكو

ومحملاً بكل الأفكار يرافقنى جمع حاشد من الخبراء أقلتهم طائرتان غادرتا هلسنكى

يوم العاشر من آيار مايو فى صباح ملبد بالغيوم متوجهاً إلي موسكو فى رحلة استغرقت ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة. ووصلت إلي مطار شيرميتيفو لتطأ قدمى الأرض السوفيتية لأول مرة فى حياتى. وفيما نحن نتجه إلي المدينة شعرت وكأن آلة الزمن عادت بنا أدراجها إلي الوراء. وبدت المبانى الشاحبة الشائهة ملفوفة بعباءة من الضباب والسديم. لكن مع خيوط الصباح كان بوسع المرء أن يبصر مدي تدهور وتخلف البنية الأساسية. وبدت المبانى الستالينية التى شيدت فى الثلاثينيات والأربعينات كما لو لم تكن قد أجريت فيها أى عملية إصلاح أو طلاء منذ ذلك الحين. وبدا العدد القليل من السيارات والشاحنات التى تسير فى الشوارع وكأنه من حقبة الستينيات والخمسينيات. وبينما بدا حسن الهندام والبشاشة علي المارة إلا أن ملابسهم بدت ضيقة بعض الشيء خاصة بالمقارنة بأناقة هلسنكي. وفى الليل تكتسى المدينة بالشحوب. فالشوارع لا تضاء إلا بأنوار شاحبة متقطعة. ولا يضيء قادة السيارات مصابيح سياراتهم إلا عند اجتياز تقاطع مزدحم أو مظلم، وعند سقوط الأمطار تتكدس السيارات علي جانبى الطريق حتي يتمكن قائدوها من تثبيت مساحات الزجاج وهي سلعة نادرة وستتعرض للسرقة لو تركت فى سيارة خالية من الركاب. وكان الضوء البراق الوحيد وسط هذه العتمة هي لوحات الإعلانات الضخمة التى تعلو أسطح عدد من المبانى. وبلون أحمر باهر لم يعلن السوفيت عن أحدث نوع من السجائر بل عن «المجد السوفيتى». وبعد خمس وثلاثين دقيقة وصلت إلي بيت ضيافة أوسوبنياك التابع لوزارة الخارجية حيث كان شيفرنادزة فى استقبالى. وانتظر شيفرنادزة فى دماثة أمام المبني للترحيب بنا. ولم يكن هذا مؤشراً عن دماثته بل عن دهائه أيضاً. وسوف يستغل هذا الوقت القصير «لتدبير رؤوس» الصحفيين المنتظرين بشأن النتائج التى يتوقع أن تسفر عنها اجتماعاتنا.

وأوسوبنياك بيت ضيافة ضخم قديم يقع وسط موسكو أسماه عدد من العاملين معى ممن لا يتحدثون الروسية «المزرق» لأن هذه الصفة أقرب إلي معني نطقه بالروسية، واعترافاً بالساعات التى أمضيناها فى العمل فى موسكو. كان المنزل يخص عائلة عريقة وعقد فيه لينين اجتماعاً مبكراً ونمطه المعمارى روسى أكثر منه سوفيتى. وطالما وجدت أنه مما يدعو للسخرية أن يجرى بحث أحدث المسائل الفنية لقضايا الحد من التسلح النووى ونحن نجلس علي مقاعد واسعة مطلية بالذهب ذات رؤوس دقيقة بين جدران تكسوها النقوش والزخارف الخشبية والفنية التى ترتفع لخمسة عشر قدماً وتعود إلي القرن الثامن عشر.

وبعد تبادل عبارات الترحيب والمجاملة توجهت إلي «الغرفة الحمراء» لعقد اجتماعنا التمهيدى المنفرد. وبدأت الاجتماع بإبلاغ شيفرنادزة أنه بعد مضى شهرين على لقائنا: شهدنا بالفعل تغيرات جذرية، ولاحظنا أن الانتخابات تمثل خطوة إيجابية علي طريق تعزيز الديمقراطية. وقلت «ليس لنا مصلحة فى فشل البيريسترويكا. إننا نود حقيقة أن تنجح البيريسترويكا لأنها تمثل عملية إعادة هيكلة ثورية لنظريتكم السياسية ونهجكم تجاه العالم».

وبهذه المقدمة الموسعة حاولت طمأنته بشأن عملية المراجعة الاستراتيجية. وأبلغته «بأنه لن يكون هناك تغيير فى نهجنا فى الاستمرارية. لكننا سنكون فى حاجة إلي الاعتراف بحاجتنا إلي تبنى نهج جديد في بعض المجالات. إننا نعتقد أن هناك آفاقاً عظيمة لتعزيز التعاون وإننا نريد إقامة علاقات فعالة وبناءة وإيجابية وموسعة». وأوضحت رأيى قائلاً: إننا نعتقد أن التغيرات الجارية هيأت فرصة ثورية، وإننا نريد استغلالها لإقامة علاقة أكثر استقراراً يمكن التكهن بمساراتها. وانتقالاً نحو مزيد من المناقشات الفلسفية حول القضايا الأمنية أكدت مجدداً علي أننا نريد الاقتراب من هذه القضايا من زاوية سياسية أكثر منها فنية. وأردت منه أن يفهم أننا لا نعتزم التوصل إلي حد ثانوي للتسلح، ولكننا نريد تجاوز المفاوضات الرسمية التى جرت فى قوالب فى الماضى. إننا نريد نهجاً خلاقاً لمعالجة مثل تلك القضايا: باتخاذ خطوات من جانب واحد (مثل نشر ميزانية الدفاع الحقيقية، بمعالجة مصادر الحرب مثل الصراعات الإقليمية، وعدم الإكتفاء بمعالجة وسائل الحرب كالأسلحة، والتركيز علي «الاستقرار الاستراتيجى» بدلاً من الأعداد المجردة. وفي ضوء التفوق السوفيتى فى كل نظم التسلح تقريباً كنا نعتقد أن لعبة الأرقام لعبة خاسرة، ولذا فضلنا اصطلاح «الحد» بدلاً من «خفض». ورد بجدل فلسفى من جانبه».



وما لبثت أن بدأت فى تطبيق تقليد تخصيص جانب من اجتماعنا المنفرد لبحث القضايا الحساسة – وكانت فى هذا الاجتماع – قضيتا تجسس وأفغانستان، وليس سراً أنه أثناء الحرب الباردة انغمست وكالة المخابرات المركزية الأمريكية والكى جى بى السوفيتية مع

بعضهما في لعبة القط والفأر. وبين الحين والآخر كانت تطالبني الوكالة لبحث قضية محددة، وغالباً ما تحدد الإطار العام لكيفية احتمال تسوية مشكلة لو كان السوفيت على استعداد لمعالجتها. وأكثر من مرة شمل هذا تبادلاً للجواسيس في هدوء تام. وبالنسبة لأفغانستان أبلغت شيفرنادزة بأنه ليست لنا مصلحة في إقامة نظام معاد للاتحاد السوفيتي. وأن ما نريده هو أفغانستان مستقلة محايدة تنعم بالسلام. ولم يبن هذا الكثير بالنسبة له، وكان من الواضح في ذلك الحين أن الأفغان سيناهضون السوفيت لفترة طويلة قادمة. وقلت له: «لن يحل السلام في أفغانستان طالما بقى نجيب الله في السلطة. فلن يقبل به المجاهدون أبداً. وإذا حل السلام فلن يحل ونجيب الله في السلطة». وبعد خمسين دقيقة وجلسة قصيرة عقدت لإرضاء الصحافة لا لسبب آخر عقد أول اجتماع المجموعة المصغرة.

كانت المجموعة المصغرة حلاً وسطاً بين الجلسة الموسعة والجلسة المنفردة: وفي كل اجتماع للمجموعة المصغرة كان يتم تناوب الخبراء المعنيين في قضايا الحد من التسلح والصراعات الإقليمية والديمقراطية وحقوق الإنسان والقضايا الثنائية والمشكلات العابرة للقوميات. وعلى سبيل المثال كان ديك شيفتر مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان يشارك في اجتماعات الديمقراطية. بينما كورت كامبن نائب مساعد وزير الخارجية للشئون الأوروبية الذي يدخل في اختصاصه شئون الاتحاد السوفتي، يشارك في اجتماعات القضايا الثنائية».

وبدأ شيفرنادزة بالتأكيد على «التداخل المحتوى» في جدول أعمالنا. وقال: إن الصراعات الإقليمية بالغة الأهمية لكنى أود طرح رأى مختلف. فالمشاكل الإقليمية لا يمكن معالجتها بمعزل عن القضايا الأخرى، فهناك علاقة مباشرة بين تسوية الصراعات الإقليمية والحد من التسلح وحل المشكلات العابرة للقوميات مثل التنمية الاقتصادية والأزمات البيئية. وإذا لم نقر بالارتباط المحتوى فسوف يكون من العسير بالنسبة لنا أن نتوصل إلى تسوية كونية تحل تلك المشكلات.

ومضى قائلاً: «إننى مدرك أن هناك في الولايات المتحدة وبقية أنحاء العالم من لا ينظر إلى البيريسترويكا بالطريقة الصحيحة. إننا نعرف رأيكم الأساسى ورأى الرئيس، فنحن نتابع بحرص ما تقولونه وتقبلون به. لكن هناك آراء أخرى: فعلى سبيل المثال إننى اختلف مع الاراء التى أعرب عنها وزير دفاعكم «مشيراً بصورة غير مباشرة إلى تعليق تشينى حول

فشل جورباتشوف». وأضاف قائلاً: إنه يأمل فى بحث التطورات الداخلية مجدداً مثلما حدث فى فيينا. وبات من الواضح لى أن شيفرنادزة يعتقد أن مفتاح تحقيق تقدم فى علاقتنا فى المستقبل يكمن فى تقدم البيريسترويكا داخلياً وأنه يريد منى أن أفهم هذه الديناميات الداخلية.

ورداً علي ذلك أثرت ثلاث نقاط غاية فى الوضوح قبل الانتقال إلي قضية أمريكا الوسطي. أولها: أننا نأمل علي المدي البعيد أن يكون بوسعنا إزالة ديناميكية التنافس بين الشرق والغرب فى الصراعات الإقليمية فى العالم الثالث.

ثانيها أن الولايات المتحدة لا تخفى فى جعبتها أى مفاجآت فى أوروبا الشرقية، وأن الرئيس سيزور بولندا والمجر فى تموز يوليو. وقلت: «إننا مهتمون بشكل خاص بسماع رأيكم فى كيفية مقارنة تطورات البيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى بالإصلاح فى أوروبا الشرقية».

ثالثها: أنه بينما يوجد تيار من الآراء فى الولايات المتحدة يعتقد أن فشل البيريسترويكا يخدم مصلحة الولايات المتحدة لأنه يضعف الاتحاد السوفيتى، فلا أحد فى الإدارة الأمريكية يتبني هذا الاعتقاد. فالجميع فى الإدارة يتوق إلي نجاح البيريسترويكا. لقد كان وزير دفاعنا يعبر عن رأيه الشخصى فيما يتعلق بتقدير نجاح البيريسترويكا – وعليكم أن تلاحظوا أن الرئيس أوضح أنه لا يقر رأيه».

ورد شيفرنادزة قائلاً: «إننى لم أفاجأ بتصريح وزير الدفاع. إننى أعرف مدي حاجته إلي المال فيكف يستطيع تمويل برامجه الدفاعية إذا اختفي التهديد السوفيتى؟ إنه يجازف بفقد حجته الرئيسية. ومن هذا المنظور يجب ألا نعتبر رد فعله أمراً مريراً» .



ومنذ البداية أبدي شيفرنادزة تفهمه لبيروقراطية السياسة فى الخارج وفى الداخل. فسوف تزداد معاركه السياسية مع وزارة الدفاع السوفيتية، ولاسيما فى قضايا الحد من التسلح، وأعتقد أنها ولدت لديه مرارة تفوق مرارته من وزارة الدفاع الأمريكية.

والتقط شيفرنادزة الخيط الذى ألقيته وبدأ فى الحديث عن أوروبا الشرقية. وقال: «أعتقد أن زيارة الرئيس لبولندا والمجر إيجابية بدون شك. فالزيارات أمر عادى. فغير العادى ألا تتم

مثل تلك الزيارات». وأضاف قائلاً: «إنه يعتقد أننا لن نفاجأ إذا ما زار جورباتشوف أوروبا الغربية، وكلما ازدادت الاتصالات الدورية بين الزعماء في شرق وغرب أوروبا كلما كان ذلك أفضل». وقال: «إن مثل تلك الاتصالات تساهم في بناء البيت الأوروبي المشترك. وينبغي ألا يكون هذا التصور مروعاً. إنه يجسد ببساطة الحاجة إلي اتخاذ جهود مشتركة لبناء أوروبا موحدة أكد علي أنها تضم الولايات المتحدة وكندا. فلا يمكن أن تظل أوروبا مقسمة. إن هذا أحد الأخطاء الفاحشة التي ارتكبها الزعماء السياسيون في الشرق».

وسألت: ما هو رأيكم في مختلف احتمالات الإصلاح في مختلف البلدان؟ فلماذا تتجه المجر وبولندا نحو الإصلاحات بينما لا تقدم ألمانيا الديمقراطية ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا علي إجراء مثل هذه الإصلاحات؟

وبادر بالرد بسرعة بعد أن أمضي وقتاً لا بأس به متمعناً فيه فيما يشتد وطيس الإصلاحات في أوروبا الشرقية قائلاً: «هذا سؤال مشروع؛ إنه يبدو بسيطا للوهلة الأولي لكنه في الحقيقة بالغ التعقيد. فالعملية غير متماثلة في كل دولة. فالتفكير الجديد له مبدأ واحد ينطوي علي أهمية جوهرية: حرية الاختيار، فلكل أمة الحق في تقرير مصيرها واختيار نظامها السياسي والاجتماعي الذي تعتقد أنه الأفضل».

وقبل أن يستطرد في إجرامقارنة بين مختلف دول أوروبا الشرقية قال من وجهة نظر فلسفية: «إن الشعوب المختلفة تتبني طرقاً مختلفة في الحياة». ومضي قائلاً: «جاء زمن شجعت فيه موسكو تطبيق النموذج السوفيتي في أوروبا الشرقية، لكن العواقب لم تكن إيجابية مطلقاً». وحتي بهذا التصريح المتقوس كانت هذه هي المرة الأولي التي يتبرأ فيها مسئول سوفيتي كبير من النظام الستاليني للدول التابعة، وكذلك لعقيدة بريجنيف الأساسية باستخدام القوة لضمان الخضوع والامتثال. وخلص شيفرنادزة إلي أن الطريق الصحيح الوحيد الذي يتعين سلوكه هو احترام اختيارات تلك الدول.

وعقب اجتماعنا استقطعت جزءاً من الوقت لقاء ثلاثة أعضاء انتخبوا مؤخراً لعضوية مؤتمر نواب الشعب. كانت حقيقة أنهم أعضاء منتخبون تنطوي علي مغزي هام. وكانت صلاحيات مؤتمر نواب الشعب متدنية في تلك الحين. لكن هاهو الآن منبر حقيقي للتعبير عن الآراء المعارضة، وسرعان ما سيصبح الجهاز التشريعي ليس مجرد مجلس صوري.

وكانت بقية اجتماعاتي في ذلك اليوم مع شيفرنادزة هادئة. وأثرت قضية أمريكا الوسطى من جديد مؤكداً على أن استمرار التساؤلات حول شحنات الأسلحة السوفيتية إلى ماناجوا قد تعرقل إحراز تقدم في مجالات أخرى. وأبدى شيفرنادزة اهتماماً بالغاً بنهجنا المرتكز على الانتخابات. ونوه إلى أنه أجرى مؤخراً عدة اتصالات مع النيكاراجويين وقال: «بوسعي طمأنتكم إلى أنهم مستعدون لإجراء الانتخابات على أساس ديمقراطى حقيقى حتى لو خسروها». وبدا أنه يشير في ذلك الوقت إلى تعديل قانون الانتخابات في نيكاراجوا الذى كان لا يزال يمنح مميزات كبرى للساندينستا.

وباسترجاع الماضى ربما كانت بصيرة شيفرنادزة أكثر نفاذاً في تصور الهزيمة السلمية للساندينستا عن معظم المراقبين الغربيين. وبالنسبة للشرق الأوسط أثار شيفرنادزة مجدداً فكرة الاجتماع في الشرق الأوسط، قائلاً: «إننى أريد أن أحلم بمثل تلك الأمور». وأجرينا أول مناقشة موسعة فيما بعد لمراجعة الاستراتيجية لقضايا الحد من التسلح، واتفقنا على ضرورة استئناف محادثات ستارت في جنيف في القريب العاجل.

وفي ذلك المساء توجهت مع زوجتي سوزان لزيارة شيفرنادزة وقرينته مانولى في شقتهما لبدء ما أصبح صداقة وثيقة وحميمة. وبينما كانت العمارة الخارجية للمبنى الذى يقطنه شيفرنادزة تشبه عمارة كافة المبانى الأخرى في موسكو رغم اضطرارنا لاستخدام مصعد صغير وحقير لا يسع سوى ثلاثة أشخاص، فقد كانت الشقة ذاتها بالغة الأناقة والترتيب. وكانت خطوط ديكور الشقة خطوطاً جورجية، وكانت معظم الأطباق التى قدمت لنا أطباقاً جورجية أعدتها مانولى بنفسها. ومن جانبه قام شيفرنادزة بواجب الضيافة وأهدانى بندقية.

ومن وجهة نظر دبلوماسية أعطانى العشاء صورة بالغة العمق لفهم شيفرنادزة للتغيرات الجارية في الاتحاد السوفيتى. فقد كان يدرك بوضوح التحديات الوشيكة التى تنتظر البيريسترويكا لكنه يعوزه الوضوح فيما يتعلق بمدى قدرة النظام على إدارة التغيير. وروى لنا «أنه عندما تولى جورباتشوف مهام منصبه لم يكن لدى أى منا أدنى فكرة عما يواجهنا». ولمسنا مدى تخلف الاتحاد السوفيتى في مجالى العلوم والتكنولوجيا. وتوصلنا إلى يقين بأنه لن يحدث إصلاح اقتصادى حقيقى إذا لم يجرِ إصلاح النظام السياسى فلن يمكن إحداث أى

تغيير. فلا يمكن أن تكون هناك بيريسترويكا ولن تكون هناك بيريسترويكا إذا لم يتحول المواطنون إلي سادة للبلاد سياسياً. ولكن عندما ألححت في الاستفسار عما إذا كان هذا سوف يثمر عن إقامة ديمقراطية متعددة الأحزاب رد بقوله: إن النظام يأمل في إحداث تلك التغييرات في داخل نظام دولة الحزب الواحد. كان التناقض واضحاً لكن يبدو أن شيفرنادزة كان علي إيمان تام بمقدرة الحزب الشيوعي علي تجديد وتطوير نفسه وضم قوي سياسية جديدة وكانت هذه واحدة من القضايا السياسية الداخلية القليلة التي تغشى شيفرنادزة غمامة بالنسبة لها رغم تغير هذا الموقف بمرور الوقت.

ولم تكن هناك أدني صعوبة في تفسير الصعوبات القومية التي تواجهها القيادة السوفيتية. وبدأ مناقشته بحرص مشيراً إلي أن الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة تقطنهما «شعوب متعددة القوميات والعرقيات» وانتهز هذه النقطة البريئة ليبلغنا أنه بينما يوجد في الاتحاد السوفيتي نظرياً خمس عشرة حكومة منفصلة، فإن الكثير مما يقال عن هذا الموضوع رسمياً هو محض لغو، فلم توضع النظرية موضع التطبيق، ثم تساءل في بلاغة: «ماهو حال اتحاد الجمهوريات والقوميات السوفيتية الآن؟»، وجدد القول بأن قضية القوميات هي «أدق وأكثر القضايا المثيرة للمشاكل» التي تواجه الاتحاد السوفيتي. وروي لي أنه عندما قام بزيارة موطنه جمهورية جورجيا عقب أعمال العنف التي شهدتها فإنه وجد الشعب الجورجي وقد تغير تماماً.



كانت هذه هي المرة الأولي التي نبحث فيها القضية بعمق، وسرعان ما علمت في لقاءاتي اللاحقة مع شيفرنادزة في فصل الصيف والخريف مدي فهمه الدقيق لمشكلة القوميات. كان يدرك بداهة أن البيريسترويكا والجلاسنوست والتفكير الجديد لا تنطوي علي تحرير الاقتصاد من عقاله فقط بل ستطلق العنان للتوترات والمشاعر القومية والتاريخية التي تستقر غير بعيد من سطح المجتمع السوفيتي. فشاغله الأهم هو القوميات لا الاقتصاد. ولم يكن جورباتشوف يشاطره هذا الفهم بنفس القدر، فقد كان يؤكد دوماً أن الاقتصاد هو الأهم أولاً ودائماً بطريق نظري وتجريدي محض.

ويبدو أن جورباتشوف لم يقدر بقدر كاف عنفوان المد القومى الذى تطلقه السياسات التى ابتدعها.

وأعطتنى ردود أفعال مانولى شيفرنادزة على مناقشاتنا دليلاً واضحاً على كيفية النظر للأحداث من منظور قومى. وبعد أن استثارها حديث مقتضب عن إيران، قالت: إن الفارسيين كانوا أعداءً للشعب الجورجى لقرون. وأخبرتنا أن القشعريرة سرت بجسدها عندما شاهدت صورة لزوجها مع آية الله. وبرغم احتجاج شيفرنادزة طفقت تسرد بعض أحداث التاريخ الفارسى وقالت بطريقتها الحازمة الصريحة المتدفقة على الدوام: «إننى أتبنى نهجاً حاسماً تجاه إيران». وحاول جاهداً منعها من الاسترسال فى الحديث مذكراً إياها بأنه يحتمل ألا تتفق آراؤها مع آراء معظم السوفيت فردت قائلة: «إنك على صواب. إن لى نهجى، نهج جورجى صرف». ومضت تروى قصة تعود إلى القرن السابع عشر عن كيفية استيلاء الفرس على جورجيا.

فقد وقع ملك وملكة جورجيا أسرى فى أيديهم. وبعد أن حاولوا حمل الملكة على الارتداد عن المسيحية ما لبثوا أن أعدموها حرقاً على الخازوق. وأشارت مانولى إلى أن الفرس قتلوا نصف مليون جورجى، وساقت مثالاً صارخاً لما حدث فى القرن السابع عشر بقولها: إن الشاه أعاد الرؤوس المقطوعة لعائلة جورجية.

وما أثَّرَ فىَّ حقيقة هو النبرة التى روت بها مانولى هذه القصص. وهأنذا فى شقة وزير خارجية الاتحاد السوفيتى التقى مع زوجته الذكية المفوهة التى لم تكن فى حاجة لأى استفزاز حتى تبوح بما فى قلبها بأنها جورجية قومية. وتذكرت ما دار فى ذهنى بأنه إذا كان بوسع زوجة عضو بالمكتب السياسى أن تغلبها مشاعر القومية فكيف يفكر ويعقل رجل الشارع؟.

جورباتشوف

وفى صباح اليوم التالى الحادى عشر من آيار – مايو قطعت مسافة قصيرة من مقر إقامتى سباسو هاوس، وهو مقر إقامة السفير الأمريكى فى موسكو إلى مقر الكريملين. وفى

حين كنت أفضل البقاء مع مرافقي من العاملين معي لإنهاء الأعمال التي كان يتعين دائماً إنجازها في المساء قبل اجتماعات اليوم التالي. فقد كان القلق يعتري خبرائنا في مكافحة التجسس من أجهزة التنصت السوفيتية في الفنادق، وطلبوا منا البقاء في مقر إقامة السفير الأمريكي. وتم إطلاعي بقضية التنصت السوفيتي علي (وفي) سفارتنا لكن لازلت مأخوذاً بمظهر الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الواقعة إلي اليمين مباشرة عبر الشارع. ويبدو أن الأجهزة الإلكترونية التي تطل من سطحها تفوق ما هو موجود في البنتاجون.

وبدأنا نشير إليها بشيء من الاستظراف إما بـ «سيدة الإرسال» أو «كنيسة الاستقبال النظيف».

وكان الانتقال إلي الكريملين أشبه بمغادرة موسكو. فالكريملين بالغ البهاء والجمال في الداخل والخارج. كانت قباب كنائس الكريملين تتلألأ. بينما تلمع الطرق والأرصفة الحجرية. فكل شيء يبدو نظيفاً ولامعاً.

وفي الساعة العاشرة صباحاً تم اصطحابي إلي قاعة سانت كاترين لعقد اجتماع مع ميخائيل جورباتشوف. وبينما كنت أتقدم إليه بشكل روتيني في المناسبات السابقة، ولعل آخرها في حفل عشاء بوزارة الخارجية بمناسبة توقيع معاهدة القوات النووية متوسطة المدي في كانون الأول ديسمبر١٩٨٧م، كان هذا أول لقاء أكون فيه محاوره الرئيسي. ولم ينضم إليه في الاجتماع سوي شيفرنادزة ومترجمه منذ أمد طويل بافيل بالاشينكو، وهو صورة طبق الأصل من الرئيس ساليناس رئيس المكسيك. (وفيما بعد ومع تكرار اجتماعاتنا كنا نمزح لتوظيف جورباتشوف لرئيس المكسيك ليعمل مترجماً له). وكان بالاشينكو يستقبل المزاح بروح طيبة. ولم يرافقني في الاجتماع سوى مترجمي ديمتري زاريشناك الذي يعمل منذ فترة طويلة بالخارجية وهو موظف كفء.

وتلف جورباتشوف إلي القاعة يفيض ثقة وحيوية كعادته. ورغم أنه لم يكن بالرجل الطويل أو العريض كان يصلح كممثل موهوب يطغي بحضوره علي المسرح. ويتمتع جورباتشوف بالفعل بحضور طاغ بنهجه شديد التفاؤل أكثر من أي شيء آخر. وكلما التقينا كان مفعماً بالتفاؤل ليذكرني في هذا الصدد المرة تلو الأخرى برونالد ريجان. وكان حضور

ريجان طاغياً بنظرته المتفائلة. وشأن ريجان كان جورباتشوف إيجابياً علي الدوام، وربما يكمن في هذا سبب قدرتهما علي العمل سوياً بنجاح، وفي الوقت الذي كانت مهمة الإصلاحيين تمثل مهمة رهيبة. فمن العسير عدم الإحساس بأن ثقة جورباتشوف وحدها ربما تحمل البيريسترويكا علي النجاح.

كان التناقض صارخاً مع شيفرنادزة. فشيفرنادزة مشبع بهالة من الحكمة والبصيرة تكشف مدي الصعوبة التي تكتنف مهمته. وأحياناً ما بدا أن لهذه الحكمة كُلْفَتْهَا النفسية. فحينما ظهرت صعوبة الإصلاح كان يبدو وكأنه يحمل هموم العالم علي كاهله. فقد كان شعره الأبيض يظهره أكبر سناً من سنه الحقيقي. بل إن البقع الظاهرة تحت عينيه تبدو وقد ازدادت قتامتها ومساحتها لتعكس حقيقة مأساة التاريخ السوفيتي.

(وكلما توثق تعاملي مع الرجلين كلما اتضح الاختلاف بينهما، وتعمق اعتقادي بأن شيفرنادزة ربما يكون أكثرهما واقعية).

وفيما تأكدت لاحقاً أنه مؤشر واضح لأولويات جورباتشوف فقد بدأ محادثاته المنفردة بالحديث عن الصحافة الأمريكية. وقال: «لقد بدأت أعرف صحفييكم الآن بحق لأنني أواجههم في كل مكان. ومع مرور الوقت تغيرت أجواء علاقتي بهم، وفي الماضي دأبو علي توجيه الأسئلة المثيرة لكن أسئلتهم باتت الآن أكثر عقلانية رغم أنها بالطبع تآمرية إلي حد ما. فلازال همهم الحصول علي الأخبار الساخنة».

وقلت: «إن المرء في حاجة لاطعامهم لإشباع نهمهم» ومضيت في شرح إحساسي بأن صحفيي وزارة الخارجية أكثر اهتماماً بالجوهر، وأقل اهتماماً بالإثارة عن نظرائهم في البيت الأبيض.

وعندما شكرته لهذا الاجتماع القصير قال لي: «إن هذا ليس سوي قمة جبل الجليد. سوف يبدأ بعدها الجليد في الذوبان ليتدفق في النهر كما يحدث مع بداية كل ربيع». وعرفت أن جورباتشوف يحب المناقشات المليئة بالاستعارة والكناية عن شيفرنادزة. وأحياناً كان هذا الأسلوب يضللني، وتعين عليّ أن أجد طريقاً مضنياً للعودة إلي تفاصيل القضايا ذاتها.

وفي هذه المرة قطعت شوطاً للأمام، وأثرت ثلاث قضايا بشكل سريع وهي: اهتمام الرئيس بإقامة علاقة نشطة وبناءة وإيجابية بين بلدينا، وانشغال الرئيس فيما يتعلق بأمريكا الوسطي، والموعد المحتمل لعقد القمة.

وبادر بالرد مشيراً إلي أنه أراد فعلاً بحث نفس هذه القضايا الثلاث: «إنك علي صواب فهناك بالفعل ثلاث قضايا». وقلت «إن هذا يرجع إلي ثقافتنا القانونية».

ورد عليّ: «هذا حقيقي. لكننا درسنا الاقتصاد أيضاً رغم أنك لم تعمل في هذا المجال كما عملت أنا». وانتهز فرصة التطرق إلي الاقتصاد ليتحول إلي أهم قضية في عقله: وهي أن سياسة الولايات المتحدة ينبغي أن تنزع إلي تأييد البيريسترويكا. ومضي شارحاً ما يعتقد أنه مدرستان للتفكير تعكسان تماماً الجدل الدائر في واشنطن. ففي رأيه سوف تعمل البيريسترويكا علي تحسين العلاقات الأمريكية السوفيتية. وحذر قائلاً: «فقط عندما يتلاشي الشعور بالثقة تظهر الصعوبات، وهذا ينطبق علي أي دولة، وربما تظهر الأخطاء المحتملة» إنني اتعجب من كيف أنه كان ولابد أن تؤدي سياسة ريجان «السلام من خلال القوة» إلي تلاشي الثقة السوفيتية في أواخر سنوات بريجنيف وحقبتي اندروبوف وتشيرنينكو القصيرتين. فقد تلاشت ثقة موسكو وتصاعدت مخاوف السوفيت من الغرب كما أشار المحللون.

وأفضي إليّ: «أعرف أنك تتلقي الكثير من النصائح. وتشير إحدي النصائح بأنه يتعين ألا تكون الولايات المتحدة علي عجلة من أمرها، وأن تتريث حتي يغرق الاتحاد السوفيتي في جحيم انعدام الاستقرار والتفكك. وسيصبح الاتحاد السوفيتي حينذاك كالتفاحة الناضجة التي ستسقط علي الأرض من تلقاء نفسها. لكن الأمور ليست بهذه البساطة». وأكد علي «خصوصية» علاقتنا «وأنه لا يتحمس ألا تشهد أي تقدم حتي وإن كان تدريجياً وليست هناك حاجة بالضرورة إلي تحقيق قفزات في هذه العلاقة. لكنها يجب أن تكون إيجابية وبناءة وفعالة ومتطورة».



وعن قضية أمريكا الوسطي كتب إلي الرئيس يخبره بأن شحنات الأسلحة السوفيتية قد تراجعت اعتباراً من بداية العام. وعندما سألته عما إذا كان بوسعنا إبلاغ الصحافة بهذا التطور باغتني بالسؤال عن إمكانية الإعلان عن «وقف شحنات الأسلحة إلي المنطقة من كافة المصادر». لقد كانت جرعة مضاعفة للحصول علي شيء بدون مقابل. فهو علي علم تام بأن الكونجرس أوقف فعلياً كافة أشكال المساعدات العسكرية للكونترا، وأن نهج الكونجرس تجاه أمريكا الوسطي أخرج المساعدة العسكرية الأمريكية من نقطة التوازن علي أية حال. علاوة علي ذلك فقد ثبت أنه في حين تدفقت شحنات الأسلحة إلي نيكاراجوا فإن الشحنات لازالت مستمرة في التدفق علي كوبا، ولازالت كوبا تواصل شحن الأسلحة إلي نيكاراجوا.

وعن لقاءات القمة أراد جورباتشوف عقد قمم «دورية». و «ينبغي ألا ينظر إليها علي الدوام علي أنها شيء مثير، ويجب عدم توقع تحقيق إنجازات استثنائية في كل لقاء. ويجب اعتبارها جزءً مهماً من العملية وزخماً لاتخاذ خطوات جديدة». وتفهم جورباتشوف الحاجة إلي الحد من توقعات الصحافة والرأي العام، وكان يعتقد شأن الكثيرين في الإدارة الأمريكية بأن الاجتماعات الدورية أحد سبل تحقيق هذا الهدف.

وكنت أفضل عقد اجتماعات رفيعة المستوي تحدد توقيتاتها بشكل صارم، وإن لم تكن دورية. ومع نهاية عام ١٩٨٩م لم تصبح هذه القضية محل خلاف. فمع قضايا الحد من التسلح والوحدة الألمانية ثم أزمة الخليج لاحقاً تكررت اجتماعاتنا مع جورباتشوف وشيفرنادزة لدرجة بات معها من الواضح أن هذه الاجتماعات رفيعة المستوي تمثل القاعدة لا الإستثناء.

واختتمنا اجتماعنا المنفرد، وانضم إلينا بقية أعضاء المجموعة الموسعة من كبار المسؤولين. واستهل جورباتشوف الاجتماع بمفاجأة عن طبيعة البيريسترويكا وقال: «في المقام الأول فإن البيريسترويكا واقع قائم. فقد جرت العادة علي اعتبارها سياسة أو انعكاساً لما نود إنجازه في كل فلسفتنا الخاصة. لكننا نعتبرها الآن حقيقة ماثلة: ففي دولة معقدة مثل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لا يسع المرء أن يراوده الأمل في الحياة اليسيرة، وخاصة في مرحلة التغيير الثوري». وتحدث المراقبون في الخارج عن «مجموعة من الإصلاحيين بقيادة جورباتشوف وعن تمتعها بتأييد الكوادر». كان هذا تشخيصاً دقيقاً لطبيعة

ما يجرى داخل الاتحاد السوفيتي. لكن جورباتشوف أكد على أن البيريسترويكا في جوهرها ترمي إلي تغيير دور الفرد وخاصة في الاقتصاد. لكن يتعين أيضاً إحداث تغيير سياسي «لكسر التوجهات الإدارية القديمة وإزالة النظام الإدارى العتيق، وأصبح من الضرورى التحرك بشكل ما نحو الإصلاح السياسي. فالناس تشب عن الطوق ويجاهرون بآرائهم من دون تردد. ويصعد نحو الصدارة أناس جدد».

واستطرد قائلاً: «يريد بعض الناس تحولاً بين عشية وضحاها. وأقول لهم عليكم تذكر أن الانفراجات السوفيتية العظيمة في الثلاثينيات والوثبة الصينية الكبيرة قبل الخمسينيات قد استتبعها حتي وثبات للخلف. وأكد علي أن الأهم والضرورى هو تجنب المغالاة والاستمرار حتي النهاية».

واستوقفتني السهولة التي يتحدث بها العامية الغربية وذكرته أن تعبير «الاستمرار حتي النهاية» كان شعار حملة ريجان عام ١٩٨٤م التي أعيد فيها انتخابه بفوزه في ٤٩ من ٥٠ ولاية أمريكية. وقلت له: «لقد خبرت في سنوات عملي كوزير للخزانة بأن القيادة السياسية في أي بلد هي الأقدر علي الحكم علي ما سوف تحمله الرياح بشأن الإصلاح الاقتصادى، لكن من واقع خبرتي فمن الأفضل التحرك نحو إصلاح دون إبطاء». ورد قائلاً: «لقد تأخرنا عشرين عاماً في إصلاح الأسعار، ولن يضر التأخر عامين أو ثلاثة».

وعن مباحثات ستارت طرح جورباتشوف أسئلة حول صواريخ كروز التي تطلق من الجـو (ALCMS) وصواريخ كروز التي تطلق من البحر (SLCMS) والعلاقة بين ستارت ومعاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية ووصفها بأنها «جوهرية». وتطرق جورباتشوف سريعاً إلي استعراض الموقف الذي سيتخذه حلف وارسو في مباحثات خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا.

واقترح إجراء خفض ضخم في القوات والدبابات وناقلات الجند المدرعة وقطع المدفعية. كان من الواضح أنه يريد إجراء خفض في الطائرات المقاتلة والهليوكبتر الهجومية التي يتمتع بها حلف شمال الأطلنطي بمميزات كبيرة، والهدف تعويض القصور السوفيتي

علي الأرض. وبينما تجاهلت الصحافة الاقتراح تماماً فإنها تنبأت مجدداً في استعادة للماضي برغبة السوفيت في تجنب حدوث مواجهة عسكرية مع أوروبا.

وما لبث جورباتشوف أن ألقي بواحدة من مفاجآته المألوفة وبطريقة شبه مرتجلة أبلغني بأن الاتحاد السوفيتي قرر سحب نحو خمسمائة رأس حربية نووية تكتيكية من أوروبا الشرقية خلال العام الحالي. وإذا كانت الولايات المتحدة علي استعداد لاتخاذ المزيد من الخطوات الجذرية فسوف يدرس السوفيت سحب كافة الرؤوس النووية التكتيكية من شرق أوروبا بحلول عام ١٩٩١م. ومضي في إغرائي قائلاً: «إن الولايات المتحدة لا تعتقد أن هذه مشكلة ملحة لكننا في أوروبا نشعر بالعكس».

كان عرضاً من جانب واحد. وحتي بعد تطبيق معاهدة خفض القوات النووية متوسطة المدي كان السوفيت سيحتفظون بعدد ضخم من الأسلحة النووية التكتيكية في أوروبا. والأهم من ذلك هو أن جورباتشوف كان يعلم أننا نجري مباحثات حساسة مع الألمان والبريطانيين والحلفاء الآخرين حول القوات النووية قصيرة المدي. لقد كانت محاولة واضحة لصياغة اقتراح هام من الناحية الاستراتيجية في سياق محتوى سياسي أرحب وتسجيل نقاط لدي «الرأي العام الأوروبي».

وبعد استيضاح عدة استفسارات من جورباتشوف أوضحت شفافية طبيعة اقتراحه وفررت إغراءه بالمقابل، وقلت: «لكم إننا لا يجب أن ندع مجالاً لإثارة الشك في أن جانباً واحداً يسعي للحصول علي ميزة» وفي الحقيقة بحثت هذا الأمر أنا ووزير الخارجية إدوارد شيفرنادزة الليلة الماضية. ولمسنا مدي الجاذبية السياسية للمفاوضات الخاصة بالأسلحة النووية التكتيكية. ولكننا لمسنا أيضاً أنكم طورتم قواتكم مؤخراً. «ونحن نعلم أيضاً أنكم تتمتعون بتفوق يبلغ ١٤٠٠ مقابل ٨٨ في قاذفات الأسلحة النووية التكتيكية. كما أن الاتحاد السوفيتي يتمتع أيضاً بميزة كبري في الأسلحة التقليدية رغم نواياكم الطيبة».

وهكذا تظل الحقيقة ماثلة في أنه حتي نتوصل إلي اتفاق بالفعل فسيظل هناك خلل في القوات النووية التكتيكية والقوات التقليدية لصالح حلف وارسو. واستطردت أقرأ له تقييماً أعدته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للجهود السوفيتية في تحديث القوات النووية التكتيكية، وأكدت مجدداً مرتين أننا نتفهم «الجاذبية السياسية» وراء مقترحاته.

الاختبار الحقيقي: التماسك الغربي

فى ذلك المساء، وأنا عائد بالطائرة إلى بروكسل لاطلاع حلفائنا فى حلف شمال الأطلنطي طفقت أتأمل فى أول لقاء لى مع الزعيم السوفيتي. وها هو ذا جورباتشوف قد سجل نقطة أخرى من نقاط العلاقات العامة بعد أن بالغت الصحافة التى تجتذبها القضايا القومية دائماً فى إبراز مبادرة الأسلحة النووية التكتيكية وتقلل من أهمية اقتراح القوات التقليدية فى أوروبا. ففى اليوم التالى خرجت صحيفة نيويورك تايمز وعنوانها الرئيسى يقول: «جورباتشوف يسلم بيكر المذهول اقتراحاً حول الأسلحة» بينما جاء فى عامود رولاند ايفانز وروبرت نوفاك «جورباتشوف يطوى بيكر». وتعززت فطرة جورباتشوف فى النجومية ومخاطبة الشارع نتيجة فرط ثقته التى تقترب من حد الغرور ومن الاستقبال الذى حظى به فى واشنطن عام ١٩٨٧م وفى نيويورك عام ١٩٨٨م إضافة إلى جولاته وزيارته لأوروبا. لكن فيما كان يدغدغ عواطف الجماهير فى الخارج كانت الجماهير فى الداخل أقل حماساً إلى حد بعيد. كان جورباتشوف يستغل الانتصارات التى يحققها فى الخارج ليحافظ على سلطته فى الداخل - وما لم نستطع وضع اقتراح جرئ وخلاق سياسياً لعرضه على قمة حلف شمال الأطلنطى التى لم يتبق عليها سوى شهر، فإن جورج بوش يقامر بأن يتفوق عليه جورباتشوف دبلوماسياً.

وأبلغت الرئيس لاحقاً أن لقائى بجورباتشوف يذكرنى بمولينز، وقلت إن قمة الرئيس فى بروكسل فى غضون ثلاثة أسابيع تذكرنا بأوتو وإلا فسوف نواجه مشكلة دبلوماسية حقيقية.

الفصل السادس

أوروبا كاملة وحرة

الاتحاد قوة والتفرق ضعف

لونجيلو «هياوالا»

يزخر عالم الحكم والاستراتيجية بالمفارقات. فكل إنجاز تقريباً يحمل بين طيات نجاحه بذور مشكلة في المستقبل. كان هذا هو الحال تماماً في الورقة الرابحة التي لعبها جورباتشوف في موسكو: وهي القوات النووية متوسطة المدي ومبادرة «الخيار صفر» الواردة في معاهدة القوات النووية متوسطة المدي الموقعة في واشنطن في كانون الأول ديسمبر عام ١٩٧٧م، سبق للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أن اتفقا علي إزالة فئة كاملة من الأسلحة من مسرح العمليات. لكن هذا ترك قضية الأسلحة قصيرة المدي قائمة واتضح علي الفور أنها ستصبح أكثر قضية أوربية مثيرة للخلاف نواجهها مع تولي للسلطة*.

وكانت خطة حلف شمال الأطلنطي تقضي تحديث الصاروخ النووي قصير المدي الذي يتسلح به الحلف «لانس» لسبب واحد وجيه: أنه مع استمرار احتفاظ حلف وارسو بتفوق شامل في الأسلحة التقليدية في أوروبا بات الغرب في حاجة للاعتماد علي أسلحة نووية لردع أي هجوم. ولأن الصواريخ النووية قصيرة المدي تضم فئة يقل مداها عن خمسمائة كيلومتر تتمركز في ألمانيا الغربية فإن هذا يعني أنها لو استخدمت فلن تصيب علي الأرجح سوي ألمانيا الشرقية أو بولندا. أو كما بدأ الألمان يرددون «كلما ازداد قصر مدي الصاروخ كلما ازداد عدد القتلي الألمان».

كان الكل يفترض أن إدارة بوش القادمة ستواصل نفس الخطة وتتجنب إجراء أي مفاوضات حول هذا الموضوع. لكن كان هذا هو الحال قبل أن يلقي جورباتشوف خطابه أمام الأمم المتحدة في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩م وطرح فيه الخطوط العامة لخفض ضخم من جانب واحد للأسلحة التقليدية. ومرة أخري أمسك جورباتشوف بزمام المبادرة السياسية، وها نحن نخسر معركة الرأي العام ويتعين علينا عمل شيء لإعادة الأمور إلي نصابها.

---

* كنت راضياً لرؤية موظفي البيت الأبيض عندما اقترح الرئيس رونالد ريجان «الخيار صفر» في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨١ وبينما لم استطع بأي دور في المفاوضات الخاصة بمعاهدة القوات النووية متوسطة المدي. فإنني أعتقد أن جورج شولتز قام بجهد خارق لتحويل رؤية الرئيس إلي اتفاقية تاريخية. وكانت معاهدة القوات النووية متوسطة المدي تمثل انفراجاً مهماً لأنها لم تكتف بإزالة فئة كاملة من الأسلحة النووية لكنها أقرت مبدأين سيصبحان حاسمين في تحديد سياسة إدارة بوش حول الحد من التسلح - والتطبيق الخيار صفر تمن الخيار علي الكرملين الذي يملك أهدافاً أكبر من القوات لم استطعنس أكبر من الترب. وأصبح هذا «الخفض اللامتماثل» عنصراً حاسماً عندما شرعنا في بحث الأسلحة التقليدية التي كان السوفيت يتمتعون فيها بتفوق واضح. إضافة إلي ذلك كانت المعاهدة تقتضي إقامة نظم تحقق متطورة مكثفة. وفي السابق كان الحد من التسلح يعتمد علي «الوسائل الفنية القومية»، وتحديداً أقمار التجسس. أما معاهدة القوات النووية متوسطة المدي فقد جعلت من التفتيش علي أرض الواقع حقيقة قائمة.

علاوة علي ذلك لم تكن القوات النووية قصيرة المدي سوي البعد المرئي البارز مما بدا لي أنه تحد خماسي الأبعاد لعلاقات ضفتي الأطلنطي. ولعل أهم هذه الإجراءات هو ردنا علي جورباتشوف والبيريسترويكا، ولكنني كنت أشعر أنه لن يستقيم حال للعلاقات بين الشرق والغرب مالم تكن هناك وحدة بين الغرب والغرب ليس فيما يتعلق بالرد فقط، ولكن فيما يتعلق بالأبعاد الأربعة الأخرى.

فإلي جانب القوات النووية قصيرة المدي يتعين تطوير موقف موحد للتحالف حول الحد من الأسلحة التقليدية والتحرر الاقتصادي والسياسي في أوروبا الشرقية ومساعي أوروبا الغربية نحو التكامل.

الأربعاء، علينا أن نكون في أسبانيا

وللأسباب سالفة الذكر، ولأن الرئيس تعهد في حملته الإنتخابية بإيفاد وزير خارجيته في زيارة لعواصم الحلف للإعراب عن الأهمية التي نوليها لأوروبا ولحلف شمال الأطلنطي فقد توجهت مباشرة إلي أوروبا فور أن توليت مهام منصبي في أوائل شهر شباط فبراير. وبالإضافة إلي الرغبة في وضع استراتيجية متماسكة بالاستماع مباشرة من الأوروبيين كنت أشعر أيضاً أنني سأكون موضع ثقة في التعاملات المستقبلية كلما أسرعت باللقاءات الشخصية مع زعماء الحلف. «وكنت علي يقين من أنه في الوقت الذي يوجه فيه الرئيس المخابرات المركزية الأمريكية ويقرأ تقاريرها بنهم فإنه في الأغلب يقيم تقديراته استناداً علي اتصالاته الشخصية».

ويتم هذا البعد لجمع المعلومات في الزيارة زاوية أكثرعملية. فإذا كانت مفاوضات تحديث القوات النووية قصيرة المدي تنتظرني فإنني أشعر أنني سأكون في حاجة إلي رصيد شخصي قوي مع زملائي وزراء خارجية حلف الأطلنطي، وأردت أن أتلمس طريقي بالمبادرة بزيارتهم أولاً. وأردت أيضاً إظهار أن الولايات المتحدة أكبر عضو في الحلف تهتم بالأعضاء الأصغر. وكنت علي يقين أيضاً أن لندن وبون وباريس تشكل بالطبع عماد الحلف. لكننا كنا نشعر أيضاً أن العديد من العواصم الأصغر ستكون علي إستعداد لتأييد

مواقف الولايات المتحدة لو أحست أننا نأخذ مشاوراتنا معها على محمل الجد. ويتطلب إنجاز تلك المهمة زيارة عواصم الحلف الخمس عشرة وفي ثمانية أيام فقط.

وشكلت هذه المهمة كابوسا لوجستيا لكارين جروميز وبات كيندي. وعملت كارين معي في البيت الأبيض والخزانة، وكانت أفضل من يصنع جداول المواعيد.

وفي الحقيقة كان دينيس روس يقول على الدوام إن كارين جروميز وكارون جاكسون مساعدتيّ التنفيذيتين أقدر من عمل معهم في أي مكان، وكان بات موظفاً بالسلك الدبلوماسي تحول إلى أسطورة خلال تولي شولتز للخارجية بنقل كل مرافقي شولتز إلى موسكو بالقطار من هلسنكي، وطلب مني شولتز الإبقاء عليه، ومع إنتهاء الزيارة الأولي تأكدت من السبب. كان بات هو دينامو الرحلة، وعلي سبيل المثال أتذكر أنه في هذه الرحلة كيف أقمت في قلعة شولس جيمينش الدوتونية المهيبة في بون وأنا احتفظ في غرفتي بوسائل اتصالاتي الآمنة. ولم أعرف إلا فيما بعد كيف اضطر العاملون مع بات إلي ربط خطوط الهاتف في قالب طوب وألقوا بها عبر خندق المياه المحيط بالقلعة لتوصيلها إلي القلعة. وبدأت الزيارة بضجة عالية في أوتاوا في العاشر من شباط فبراير عندما بدأ بريان مولروني رئيس وزراء كندا ووزير خارجيته جوي كلارك ورئيس موظفي مولروني ديريك بورني في الإشارة بطريقتهم المباشرة المألوفة إلي طبيعة المشكلة. وقال مولروني: «إنهم يجلسون في موسكو ويتطرقون مباشرة إلي جوهر ضعفنا تماما كما فعلتم مع دوكاكيس في حطاب بوسطن هاربور. ومن ناحية أخري فإننا حاذقون في الدهاء السياسي خاملون في السياسة. سيدي الرئيس عليكم إتخاذ زمام المبادرة، ربما بالقيام بزيارة لأوروبا الشرقية». وفي وزارة الخزانة أمضيت ربما طويلاً من الزمن في التفاوض حول اتفاقية للتجارة الحرة الأمريكية الكندية، ولذا فإنني أعرف محاورينا الكنديين تمام المعرفة.

«من حسن حظ الولايات المتحدة أن يكون لها مثل هؤلاء الأصدقاء والمخلصين المساندين. ورد الرئيس موافقاً، قائلاً: «إنك على صواب، علينا أن نبادر بالهجوم. فلا يمكننا أن نكتفي برد الفعل على تحرك آخر من جورباتشوف. علينا أن نبادر للحفاظ على تأييد الرأي العام للحلف. وربما كانت أوروبا الشرقية هي الهدف علينا بالدخول في تخوم منطقته. ولن نثير ثورة. لكن لنا الحق في معالجة حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية،

كان هذا أول اجتماع من سلسلة اجتماعات يقوم فيها مولروني بدور انتقادي في صياغة تفكرنا. وفي إيسلندا أكد وزير الخارجية جون بالدوين هانيبالسون مجدداً الفكرة التي ستهيمن علي كل اجماعاتنا مع الأوروبيين «علينا أن نأخذ زمام المبادرة».

كان الدور التالي علي مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها السير جيفري هاو. وتاتشر هي التوءم الفلسفي لرونالد ريجان، وباعتبارها زعيماً فعالاً في بلدها كانت أوثق نظير دولي للرئيس ريجان، وكنت أعرفها معرفة جيدة. وتشتهر السيدة تاتشر بالحديث الصريح والحاسم، لكن طرقها وحماسها شيء مختلف تمام الاختلاف عن صورتها العامة. وكالمعتاد دخلت في الموضوع مباشرة قائلة: «لابد من تحديث القوات النووية قصيرة المدي» وأضافت: من المهم الحفاظ علي الردع حتي وإن اعترضت ألمانيا.

واستطردت: «إن تصرفات كول تصرفات مختلة حتي بمعاييره الداخلية الخاصة. فلا يجب أن يخاف الزعماء من مسئوليات القيادة. فعليهم ألا ينقادوا للناخبين وأن يغتنموا ما تهيئه اللحظة. فتلك وصفة للهزيمة».

كان كول يقول إن حكومته الائتلافية ستتعرض للانهيار إذا تمت عملية التحديث، وبينما كنت متعاطفاً مع جوهر حجتها فإن ميلي شبه الدائم هو ألا أنزلق في تكهن عرائز الآخرين فيما يتعلق بسياساتهم الداخلية. وكنت أعتقد دوما أنهم أدري بشئون بلدانهم أكثر من أي أجنبي. لكنها مضت في حديثها قائلة «لو كنا حازمين مع كول لاستطعنا إعادته إلي طبيعته وتشجيعه علي المضي قدما، ولعالجنا القضية قبل قمة حلف الأطلنطي».

وعن جورباتشوف أبدت تشاؤماً مفرطاً. إذ أعربت عن اعتقادها بأن القوي المتكتلة ضده نفسياً وسياسياً ستمنعه من تحقيق النجاح. كان جيفري هاو وزيراً للخزانة عندما كنت رئيساً لهيئة لموظفي البيت الأبيض، ثم أصبح وزيراً للخارجية وأنا وزير للخزانة، وعرفته مفكراً من الطراز الأول وأحببته. وقلت لهاو: «إننا في حاجة لدفع جورباتشوف لاتخاذ اختيارات صعبة لصالح الإصلاح والتفكير الجديد».

وقلت مردداً أصداء اجتماعاتي السابقة: «علينا أن نعمل سوياً لإيجاد مبادرات لتصحيح الاعتقاد السائد لدى الرأي العام بأننا نتخذ جانب رد الفعل علي جورباتشوف». ووافق هاو

علي ما قلته لكنه كان مقتنعاً بأن لدي جورباتشوف الكثير من المبادرات ليطرحها «فجعبته تفيض بالكثير والكثير».

وغني عن القول أن زيارتي إلي بون أسفرت عن موقف مختلف تمام الاختلاف حول القوات النووية قصيرة المدي. وربما كانت الرحلة عبر القنال إلي بون أشبه بالانتقال إلي عالم آخر. والمستشار هيلموت كول السياسي الممتاز سريع البديهة ذو الطريقة الجذابة كان حليفاً قوياً لرونالد ريجان مثلما كانت مارجريت تاتشر خلال أزمة الصواريخ الأوربية ١٩٨٢ – ١٩٨٣. لكنه يتعرض الآن لضغوط قوية ويريد منا أن نوافق علي إجراء مفاوضات مع السوفيت حول مستويات القوات النووية قصيرة المدي بغض النظر عن موضوع التحديث. وكان الخلاف الطفي العام خلافا شخصيا أيضاً. فلم يكن كول علي استعداد لتلقي النصيحة من لندن. وقال: «إن السيدة تاتشر تخلصت من صواريخها». ووضعنا هذا الانقسام بين لندن وبون حول هذه القضية في موقف صعب غير عادي، وكانت هناك حاجة ملحة للتوصل إلي حل مرض لا يقوض «علاقاتنا الخاصة» مع أوثق حلفائنا أو يؤثر علي علاقتنا الجيدة مع أصدقائنا الألمان.

وانتهج وزير الخارجية هانز ديتريش جينشر طريقاً غير مباشر عن طريق كول. فقد وضع القضية في إطار أرحب مؤكداً أن القوات النووية قصيرة المدي يجب ألا تشكل اعتباراً لولاء ألمانيا. وقال إن المضي قدماً في التحديث عام ١٩٨٩م أو ١٩٩٠م سيتسبب في سقوط الحكومة في انتخابات كانون الأول – ديسمبر ١٩٩٠م ويمكن إرجاء إتخاذ قرار حتي عام ١٩٩١ أو ١٩٩٢م. وكان مكتب الشئون الأوروبية بالخارجية قد دأب خلال الأشهر القليلة الماضية علي تحذيري مما يعتقد أنه أخطار «الجينشرية» – أي الميل الظاهري لجينشر لاتخاذ موقف لين مع السوفيت، وهو الموقف الذي ظهر من تصريحاته في دافوس بسويسرا عام ١٩٨٧م وقال فيها: إنه يمكن الاعتقاد بصدق أقوال الزعيم السوفيتي. لم يكن جينشر موضع ثقة إدارة ريجان. لكن تملكتني الرغبة في تبرئته مدفوعاً جزئياً بريك بورت سفيرنا حينذاك لدي ألمانيا.

وأتذكر أنه لاحقا في فصل الربيع وأنا واقف بإحدي شرفات الدور الثامن بمقر الخارجية أسأل جينشر: «كيف حدث أن الجميع هنا ينظرون إليك علي أنك رجل سيء؟ واعتقد أنك

لست بهذا الرجل السيء» وتقبل المزحة قبولاً حسناً.وكم تولد لدي عظيم الاحترام له ولذكائه ومقدرته السياسية وبراعته في تسيير الأمور. وسرعان ما أصبحنا أصدقاء، وبعد أن عملنا بنجاح عن قرب في قضايا الوحدة الألمانية التي (اشتملت علي مسائل تتعلق بالحدود الشرقية لألمانيا) . سيناله عذابي أمام الآخرين في قضيتنا التالية: وهي تسوية مشكلة «الحدود الألمانية التي تشبه معضلة الحدود الصينية».

ومن ألمانيا توجهت إلي الدول الاسكاندنافية التي كان قادتها أكثر وضوحاً تجاه سلبيات تحديث القوات النووية قصيرة المدي عن مارجريت تاتشر. وعندما قلت إن مسألة التحديث ما هي إلا إظهار للتصميم، تساءلت جروهارلم برونتدلاند رئيسة وزراء النرويج «ماذا يعني إظهار التصميم بالنسبة لجدول أعمالنا المحدودة؟». ودفعت هي ووزير الخارجية الدانمراكي أوفه إيلمان نيلسون بأن الجدل الدائر حول نظم التسلح ليس له أدني علاقة في الواقع بالمتطلبات العسكرية. وتنحصر علاقته بالسياسة، وأن سياستهما لا تتطابق مع سياسة بريطانيا. وكان الوضع في اليونان وتركيا علي نفس القدر من الأهمية – كنت أتعرض لانتقاد لاذع في ذلك الحين – لكن من منظور إقليمي، وأثار الحديث الدائر حول الوحدة الأوربية قلق البلدين من أن أوربا الموحدة سوف تستبعدهما، ومن ثم انتابتهما العصبية. ولم يكن للجوانب المهمة لأثينا سوي علاقة بسيطة بالسياسة. وأبلغت رئيس الوزراء اليوناني اندرياس باباندريو أنه عندما كنت في مشاة البحرية خدمت مع قوات حلف شمال الأطلنطي لفترة قصيرة عام ١٩٥٣م في دراما بشمال اليونان. وهناك ربطتني صداقة بكوماندوز يوناني لم أعد أتذكر اسمه الأخير. فلا أتذكر سوي أنه كان برتبة كابتن وأن اسمه الأول هو بيتر. كان نحاتاً صنع تمثالاً بعد نسخة رائعة لفينوس وأهداه لي ولازلت احتفظ بهذا التمثال في غرفة المعيشة. وأبلغني باباندريو بضرورة البحث عن كابتن الكوماندوز المدعو بيتر والذي كان يهوي النحت وخدم في دراما عام ١٩٥٣م. ووجدناه يعيش في أثينا لكنه فقد بصره الآن ولم يعد قادراً علي النحت. واتضح أن اسمه الأخير مورياتيس، ولازلنا نتبادل الرسائل.

وأصبحت كيم هوجارد نائبة مارجريت تاتويلر محوراً لساحة مهمة أخري، وسبق لها العمل في المكتب الصحفي بالبيت الأبيض أثناء إدارة ريجان ثم في الخارجية، وكانت إحدي مسئولياتها تولي مهام إدارة الفريق الصحفي المرافق لي.

وتولت كيم في الزيارات رعاية فريقها الصحفي لالتقاط الصور والمشاركة في المؤتمرات الصحفية واقتضي هذا التعامل مع الحكومات المضيفة ووكالاتها الأمنية. ويتمتع الصحفيون بالكثير من المهارات ليس من بينها تلقي التعليمات والانتظار بفارغ الصبر. وفي هذه الزيارة أدت هذه الصفات إلي حدوث عدد من المآزق.

وبينما كنت أتأهب لأن أستقل المصعد في قصر منيف في مكان مرتفع علي تل -للقاء رئيس الوزراء، كانت كيم تلعب دورها «كلُم» وتوجه عدداً مختاراً من مجموعة الصحفيين لالتقاط الصور. ولسوء الحظ اندفعت مباشرة نحو حارس أثيني مسلح برشاش عوزي وخزنة رصاص وتحرك الحارس لوقفها. وبدأت في تصرفها الحرفي المعتاد. وقالت للحارس: «سيدي إنني في أمس الحاجة لوصول هؤلاء المصورين لتغطية اجتماع الوزير» ولم تتلق أي إجابة. «إنني في حاجة للوصول إلي هناك. لقد سبق لك مشاهدتهم يرافقون الوزير». وما كان من الحارس إلا أن شهر رشاشه بهدف التخويف لا التهديد. كان موقفاً غريباً. فالحارس مدجج بالسلاح والسلطة، وكيم تقف صامدة ثابتة علي موقفها وصحفيوها يحيطون بها. وأخيراً ما كان من جيم إلا أن التفت حول الحارس الذي ظل جامداً في مكانه وقد أصابته صدمة بدون شك من تهورها. وعندما وصلت كيم إلي موقع التصوير لم أكن أعلم شيئاً عن المشادة التي خاضتها لتوها.

وطرحت روما ومدريد ولشبونة مواقف قوية خاصة بها مع تنويه الزعماء بشكل خاص بالانقسام الذي يدعو للسخرية الذي وجد الحلف نفسه فيه. فمن ناحية هاهو جورباتشوف يترأس نظاماً يتداعي يواجه مقاومة حقيقية في الداخل ويفتقر لأي صيغة للتعامل مع ما يحتمل من ثورة في أوروبا الشرقية. وعلي الناحية الأخري يوجد عالم غربي ناجح وديناميكي ينبض بالحياة والحيوية لكنه يجد نفسه مع ذلك في موقف دفاع أمام مقترحات جورباتشوف. وأكد كل الزعماء علي مقدرة جورباتشوف علي التلاعب بالرأي العام الغربي، وبات من الواضح لي أنه يتعين علينا التصدي لمهاراته. أي أننا في حاجة إلي «شن هجوم» -علي حد وصف بوب زوليك - يدفع أوروبا الشرقية نحو الليبرالية. ولو حاول جورباتشوف شق تحالفنا فسيتعين علينا العمل علي تأليب الأوروبيين الشرقيين ضد موسكو. وعزز كافوكوسيلفا رئيس وزراء البرتغال هذا الرأي بالتأكيد علي أنه لن يكون بوسع الدول الشيوعية الشروع في الإصلاحات الاقتصادية من دون سلوك طريق الديمقراطية وقال: إن الناس

تمنح الحرية الاقتصادية ولسوف يرغبون في نيل الحرية السياسية . إمنحهم الحرية السياسية وسوف يسعون لنيل الحرية الاقتصادية.

ومن بين كل زياراتي التي شملت فرنسا أيضاً ودول البينولوكس ومقر حلف شمال الأطلنطي ربما كان اجتماعي مع وزير الخارجية هانز فان دين بروك بهولندا أكثرها أهمية علي الإطلاق. وقال: «لقد تحدثنا بإسهاب عن «التحديث» الذي يحلق المشاكل لألمانيا. لكننا لم نتطرق إلي ما نحن بحاجة إليه بالفعل». وأضاف إنه يتفهم معارضتنا لمفاوضات القوات النووية قصيرة المدي. لكنه ينبغي إدراج عنصر الحد من التسلح في الخطة التي سيصدرها الحلف في القمة. وتساءل: «لماذا لا نذهب لتبني نهج متكامل يلبي احتياجاتنا في التحديث والحد من التسلح؟». وسلمني ورقة تحمل بعض الأفكار. وكان محقاً من الناحية النظرية، وكانت هذه هي المرة الأولي وإن لم تكن الأخيرة التي يقترح فيها رجل دولة قدير حلاً للجمود الدبلوماسي. وأخيراً ها هنا الآن إنني أمتلك زاوية صحيحة لشن هجوم.

وفي مقر حلف الأطلنطي أوضح مانفريد فَيرنر السكرتير العام للحلف – المدافع القوي عن حلف الأطلنطي والمؤيد البارز لقيادة الولايات المتحدة داخل الحلف – عن استعداده لمساعدتنا في التوصل إلي حل وسط مع بون. ورغم أنه كان ألمانياً فقد تفهم مدي الحاجة القائمة لاتخاذ اختيارات صعبة.

كانت هذه هي المرة الأولي من مناسبات عدة التي أعجب فيها بنهجه المبدئي، وكم كانت خسارة الحلف فادحة بموته متأثراً بمرض السرطان عام ١٩٩٤م.

وفي آخر أيام زيارتي المطولة بدأت اليوم في بروكسل «ثانية» للاجتماع مع جاك ديلور رئيس المفوضية الأوروبية ونائب الرئيس هانز أندرسين قبل التوجه إلي باريس للقاء رولان ديما. وبينما ابتعد الجمود إلي حد كبير عن اجتماعاتنا فقد كان نهج جاك ديلور الفرنسي، الذي يشدد علي التوجه الأوروبي خير تذكار علي مدي الحاجة لتأكيد قيادة الولايات المتحدة لحلف الأطلنطي ومدي قيمتها. فلن تصبح أمراً مسلماً به. وكنت أنا وديما من خريجي الحقوق. وبالطبع كان هناك خلاف بين بلدينا في عدد من المجالات خاصة فيما يتعلق بملف الأطلنطي وهكذا فإننا نختلف حول عدد من القضايا. لكن ديما كان شخصية بالغة الدماثة بحق، وكانت علاقاتنا تحدث دائماً في ود، وذلك علي نقيض التقارير الصحفية التي توحي بالعكس.

اتفاق أم اختلاف؟

عدت إلى واشنطن محملا بإدراك أفضل كثيرا عن كيفية تأثير جورباتشوف على سياستنا الأوروبية. وكان الجدل حول القوات النووية قصيرة المدى يدور في قلب معضلة نفسية. فالتحديث سوف يظهر حقا تصميم الحلف وسوف يخلق في الوقت نفسه في المقام الأول علانية رمزا نوويا يمكن أن يستخدمه الكرملين ضد الشعوب الغربية لتأليبها على حكوماتها. وسوف تشق موسكو التحالف ليس بإثارة كول ضد تاتشر ولكن بخلق توترات سياسية في ألمانيا ستمنع حكومة كول الإئتلافية الهشة من المحافظ على الوحدة داخل التحالف.

وكان مفتاح حل هذه المعضلة يتمثل في الحد من الأسلحة التقليدية. فنحن نريد التحديث النووي لتعويض استمرار إختلال التوازن في القوات التقليدية. وبرغم العرض الشامل الذي طرحه جورباتشوف في الأمم المتحدة فسوف يستمر السوفيت في الإحتفاظ بالمميزات الكبرى في الأفراد والدبابات والمدفعية وحاملات الجند المدرعة حتى مع إجراء التخفيضات التي أعلنها من جانب واحد. وإذا استطعنا إنهاء إختلال التوازن في الأسلحة التقليدية فسوف يمكننا تجنب الحاجة إلى تحديث صواريخ لانس. وثمة رسالة بسيطة عززت كل ما سمعته: إن حلف الأطلنطي لا يسعه خوض أزمة أخرى حول نشر الأسلحة النووية.

فلربما إستطاع الحلف تحمل مثل هذه الأزمة عام ١٩٨٣ عندما تولى يوري أندروبوف رئيس المخابرات السوفيتية (كي جي بي) إدارة الكريملين لكن الحلف لن يستطيع الخروج من هذه الأزمة مع وجود جورباتشوف المراوغ في السلطة. وهكذا كنت أعتقد أن إحراز تقدم حول القوات التقليدية في أوروبا يمثل شرطا مسبقا لحل مشكلة القوات النووية قصيرة المدى.

ورغم أن هذا هو الموقف الذي نتجه نحوه فقد واصلنا علانية ضغوطنا على الألمان وعلى الحلف بشأن التحديث.

وسيكون لخفض القوات التقليدية فائدتان أخريان. أولاً في شرق أوربا: فإن مشهد إنسحاب القوات السوفيتية سيكون له أثر إيجابي على التحرر السياسي. فإنسحاب كل جندي من جنود الجيش الأحمر السوفيتي وعودته إلى إتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية

سيساهم فى رفع الأثقال التى تكبت الديمقراطية والحرية. ثانياً فى الغرب: ففى العديد من الدول ولا سيما ألمانيا تنامى إستياء متزايد وعمدى ضد ما يعتقد أنه تواجد عسكرى متطفل. وسيساهم خفض عدد القوات الأمريكية بالتأكيد فى تخفيف هذه المشاعر.

ولعل أن يسفر كل هذا عن أهم الآثار – أى إلغاء البعد العسكرى فى السياسة الخارجية السوفيتية فى أوروبا. وعسي أن يطرح أثاراً إيجابية علي التطورات الداخلية فى الاتحاد السوفيتى. فإن نظام التحقق المفاجئ الذى نخطط لتطبيقه بالنسبة للأسلحة التقليدية فى أوروبا سيؤدى إلي انفتاح المجتمع السوفيتى. وسيكون من العسير العدول عن خفض القوات التقليدية، ومن ثم يتسني إجراء التغير فى إطار مؤسسى. وسوف يتقلص دور العسكريين فى تحديد سياسات الكريملين مع استقرار التوازن فى أوروبا.

وعززت جولتى فى أوروبا عملياً ما توصلت إليه من قناعة فكرية: بأن طريق النجاح مع الكريملين لم يبدأ فى موسكو. بل فى عواصم أوروبا الغربية وكندا. حقاً لقد قلت بشكل أكثر علانية فى كلمة أمام جمعية محررى الصحف فى نيويورك فى ١٤ نيسان إبريل «فى نهاية المطاف فإن نجاح سياستنا الخاصة بعلاقة الشرق والغرب تعتمد علي سياستنا بشأن الغرب والعرب» – أى علي مقدرة الولايات المتحدة وحلفائها علي العمل معاً.

إن ضرورة إقامة تحالف وإدارة التحالفات تشكل حقيقة ماثلة فى كل نشاط سياسى، وأعتقد أن مدخلى الأول لهذه الحقيقة يعود إلي البحث الذى أعددته فى برنستون. فقد أظهرت دراستى للصراع بين أنورين بيفان وإرنست بيفين فى حزب العمال البريطانى بعد الحرب العالمية الثانية بجلاء الصعوبة الماثلة فى ضرورة الحفاظ علي الوحدة فى أى تحالف سياسى.

ومع هذا فإن المعرفة النظرية بالتحالفات والأحلاف التى ربما أكون قد اكتسبتها كدارس أياً كانت قد صقلها عملى فى الحملات الانتخابية وعملى فى وزارة الخزانة. فالنجاح فى الخدمة العامة فى مجتمع التعددية يتطلب فى المقام الأول بناء تحالف. وخلال إدارتى ريجان تعاملت مع زعماء مختلفين فى الكونجرس مثل هوارد بيكر وبوب دول وآلان سيمبسون وبوب باكوود وبوب ميشيل وترينت لوت ونيوت جينجريتش وبيل برادلى وديفيد

أوبيي وبات موبيهان ودان روستينكوفسكي ولويد بينتسين وجورج ميتشيل وكريس دور وسام نان وروبرت بيرد وتوم فولي وجيم رايت، وكثير آخرون. وذلك بهدف ضمان انضباط الحزب الجمهوري في عمليات التصويت الرئيسية وإقامة تحالفات مع الآخرين والتغيير المستمر لتكتلات الديمقراطيين.

❑ ❑ ❑

وفي السياسة الخارجية أدار الرئيس ريجان بتصميم أزمة الصواريخ الأوروبية في السنوات الأولي لرئاسته. وأظهر أن مفتاح وحدة الحلف يكمن في قيادة أمريكية قوية. وخلال الحرب الباردة تمثلت المفارقة المستمرة في العلاقات بين ضفتي الأطلنطي في: أنه بينما كان الأوربيون يشكون علانية من الطبيعة المفروضة للقيادة الأمريكية أبدت النخبة السياسية في دوائرها الخاصة قلقاً أكبر تجاه الفراغ القيادي نتيجة التنصل أو التردد الأمريكي.

وأخذ الخطر يتزايد من أن حلف شمال الأطلنطي سيتهشم أمام الهجوم الساحر وتهديد سوفيتي عسكري متراجع. كانت القوي المركزية التي تعمل نحو إقرار تفاهم ووفاق أمريكي أوروبي آخذة في التزايد بينما تتقلص قوي الطرد المركزي، وبدون الوحدة الغربية الغربية سوف يسيطر السوفيت أساساً علي العلاقات بين الشرق والغرب لأن جورباتشوف يؤلب كل ضفة من ضفتيه علي الأخري.

ومع ذلك ولدي العودة إلي واشنطن تعرضت للحرج في الجهود التي بذلت بقية شهر شباط فبراير وخلال شهري آذار مارس ونيسان إبريل للتحرك نحو طرح إقتراح جاد بشأن الأسلحة التقليدية. كانت العوائق البيروقراطية كبيرة أمام التحرك. وكنت أعرف أن سكوكروفت كان يتباحث مع تشيني وكرووي رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة الأمريكية لحملهما علي التحلي بصراحة أكبر في كيفية رؤيتهما لمفاوضات خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا. لم يكن المجال رحباً علي أية حال للتحرك بقوة خلال المائة يوم الأولي من عمر الإدارة الجديدة. فهذه أكثر الأوقات المحمومة بالنسبة لأي إدارة أمريكية. وكنت أعي أن الرئيس لابد وأن يتعامل معها. لكنه لن يركز علي قضايا الحد من التسلح حتي تقترب من القمة. ودفعني إحساسي بالزمن إلي الاعتقاد أنه مع قرب موعد انعقاد القمة يومي ٢٩ و ٣٠ آيار مايو فإن غرائز الرئيس للمنافسة ستشحذ وسوف تستطيع كسر الجمود.

وقت «التفكير جديد» من جانبنا

بات الوقت سانحاً في أوائل آيار – مايو فيما تلاقت ثلاثة أحداث. الأول: تحادث المستشار كول مع الرئيس هاتفياً في ٥آيار مايو. طلب كول من الرئيس إيفاد بعثة خاصة إلي بون لمحاولة حل قضية الأسلحة النووية قصيرة المدي. كان المستشار واضحاً في أهدافه. فأولاً: «أريد أن تكلل القمة بالنجاح، ثانياً: أريد لكم النجاح. فسوف تكون أول زيارة لكم باعتباركم رئيساً للولايات المتحدة وأنتم صديق مخلص للأوروبيين وللألمان خاصة. فلم أنس هذه الحقيقة مطلقاً ولن أنساها. ومضي متحدثاً كصديق في تحديد الإطار الخاص بجورج بوش. وقال: «إننا في موقف تاريخي، فلا أتصور أن أري جورباتشوف بطل كبطل جديد. إنني لم أجاف الواقع. ومع ذلك هاأننا وأنت نشهد الأحداث تتجاوز أكثر أحلامنا تواضعاً، أي الانهيار الأيديولوجي لنظام سياسي واقتصادي. فهذه لحظة انتصارنا. انتصار لا يعود فقط إلي جهود الولايات المتحدة. وهذا هو السبب الذي يحدوني إلي الاعتقاد بضرورة تفعيل دوركم. وهذا مرتبط بتماسك حلف الأطلنطي. وبنجاح قمة الحلف».

الثاني: في ١٢ آيار مايو ألقي الرئيس خطاباً حول الشؤون السوفيتية. وقال ينبغي أن نتحرك «لتجاوز الاحتواء»، لكنه لم يقدم أي مقترحات جديدة سوي بث الحياة في اقتراح أيزنهاور «السماوات المفتوحة» في أوروبا. ولم تكن التغطية الصحفية متحمسة وبات من الواضح أنه يتعين علينا بذل المزيد إذا أردنا أن تكلل القمة بالنجاح.

أما الحدث الثالث فهو مناورة جورباتشوف الخاصة بالقوات النووية قصيرة المدي في موسكو. وربما ضايقني ذلك لكنه حفز الرئيس. وكان بوش يعي أنه مع التفوق الساحق للسوفيت في القوات النووية قصيرة المدي (١٤٠٠ لحلف وارسو مقابل ٨٨ لحلف الأطلنطي) وربما يطرح جورباتشوف اقتراحاً آخر قبل انعقاد القمة ليحاول إفساد أول ظهور له في أوروبا كرئيس للولايات المتحدة.

ومع جلوسي أنا والرئيس علي مائدة الغداء في ١٧آيار مايو كان الرئيس بالغ الجدية فقد كلف برينت التحادث مع تشيني والأدميرال كروي لوضع اقتراح جرئ حول الأسلحة النووية قصيرة المدي. وقلت للرئيس «إنك في حاجة إلي تجاوز منحني القوة»، وهو ما يعني أن ينطلق من وجهة النظر القائلة بأن أي اقتراح لابد أن يكون له أثر سياسي أولاً وأخيراً.

واقترحت أن إجراء خفض بنسبة ٢٥ في المائة في المعدات والأفراد يعني الكثير. وكنت أعتقد أن إجراء الخفض بهذه النسبة سيولد الأثر السياسي الذي نتطلع إليه ولن يهددنا عسكريا.

وخلال الأسبوع الثاني وفي سلسلة اجتماعات في البيت الأبيض ومنزل بوش العائلي في كينيبونكبورت بماين أصغي الرئيس لكبار مستشاريه وهم يعرضون مختلف المقترحات المتاحة. وتصرف كروي كما لو كان بريجنيف لا يزال يرأس الكريملين واستمات بالفعل في مقاومة كل اقتراح. وكان تشيني أقل اتصافاً بالعقائدية إلي حد كبير لكنه شعر بأن جورباتشوف سيلحق بنا، فلماذا نتحرك إذن؟. وقلت: إننا نريد مبادرة جذرية لثلاثة أسباب: أولها أن الرئيس في حاجة لممارسة القيادة علي الحلف. ثانيا: إن أي اقتراح جرئ حول الأسلحة التقليدية في أوروبا سيجعل قضية القوات النووية قصيرة المدي غيرذات موضوع مما سيتيح لنا حل القضية والحفاظ علي وحدة الحلف. وأخيراً فإن اقتراح جورباتشوف بشأن خفض القوات التقليدية في أوروبا الذي عرضه عليَّ في موسكو «والذي لم يلق سوي اهتمام ضئيل من الصحافة» أظهر لي أنه في أمس الحاجة إلي خفض القوات التقليدية في أوروبا، ويمكننا من زحزحته عن موقفه بقدر أكبر لو اتخذنا استعداداتنا، وكنت علي اتفاق تام مع سكوكروفت، وكان يدفع نحو إخراج القوات السوفيتية من أوروبا الشرقية بحركه يقين تام بأن خطاب «تجاوز الاحتواء» يفسر بأنه «حالة الأمر الواقع» زائد السياسة.

وفيما لم يتبق علي القمة سوي أقل من أسبوعين أبلغ الرئيس كلا من كروي وتشيني «أريد فعل هذا، لا تقولا لي لماذا لا يمكن عمله؟ بل قولا لي كيف يمكن عمله؟».

وكان الاقتراح كما أعددناه في صياغته النهائية يسجل عدة انتصارات رئيسية لحلف الأطلنطي. والأهم أنه تضمن خفضاً للقوات السوفيتية والأمريكية في أوروبا بواقع عشرين في المائة أقل من المعدلات الحالية. ويقتضي هذا منا خفض القوات بواقع ثلاثين ألف جندي، لكنه يقتضي خفض القوات السوفيتية بواقع «٣٢٥» ألف جندي من أوروبا الشرقية: بالإضافة إلي ذلك اقترح الرئيس ضرورة إجراء مفاوضات حول المعاهدة في غضون ستة أشهر علي أن تطبق في موعد أقصاه عام ١٩٩٣م. ويعني هذا أن القوات النووية قصيرة المدي ستصبح غير ذات بال بالضرورة في غضون عام أو عامين كحد أقصي. لقد كان تحركاً جسوراً،

وأوفد الرئيس لاري إيجلبيرجر، وبوب جيتس (نائب سكوكروفت في مجلس الأمن القومي) وجيم كيمبي وهو خبير في الحد من التسلح غير مشهور، ويتسم بالتواضع لاستعراض الاقتراح مع حلفائنا الرئيسيين (وأعتقد أن كيمبي نموذج لما تحتاجه أمريكا لكبار موظفيها المدنيين: فهو شخص موسوعة موال إلي أقصي حد، شديد التنظيم، ومبدع خلاق).

وفي الوقت نفسه ران الجمود أساساً علي قضية الأسلحة النووية قصيرة المدي، واستجاب الرئيس لعرض كول بإيفاد فريق خاص فتوجه جيتس وزوليك إلي بون علي هامش زيارتي لموسكو. ولم يستطيعا إحراز تقدم كبير بسبب إفراط الألمان في التمسك بموقفهم. ومن الواضح أن الحكومة الألمانية كانت تجتاز مشكلة سياسية داخلية مصدرها التحديث غير المرتبط بالحد من التسلح بأي حال، وهكذا يتعين التوصل إلي حل وسط بين الموقفين الألماني والبريطاني. وأشار الألمان إلي استعدادهم لقبول حل وسط بقبول التحديث مقترناً بعنصر ما للحد من التسلح. ولم تكن هناك محاذير سياسية داخلية تواجه تاتشر، ويمكن أن تبدي مرونة لو أنها أرادت، ولذا فإنها الطرف الذي يمكن أن نعمل معه.

واجتمعت مع الرئيس في ١٩ آيار مايو وقلت «إنك بسبيلك لقيادة الحلف، وهذا يعني حمل مارجريت علي التوصل إلي حل وسط حول الأسلحة النووية قصيرة المدي. فإذا لم نفعل فلن تدفع تاتشر الثمن وستدفعه أنت». وبعد التيقن من تصميمه علي تسوية قضية الأسلحة النووية قصيرة المدي رغم اعتراضات تشيني وكرووي لمست لديه الرغبة في الجلوس وإجراء مباحثات شاقة وأن يؤكد القيادة الأمريكية.

وسوف تتركز مهمتي لدي عبورنا الأطلنطي المشاركة في أعمال القمة في إزالة العديد من العراقيل التي تعرقل المناقشات قدر الإمكان. وفي اليوم الأول في بروكسل ٢٩ آيار مايو وبينما أنا جالس مع الرئيس وزعماء ووزراء خارجية آخرين إذ ببوب زوليك يبذل محاولات لإزالة التحفظات حول «التصور الشامل» أي الفقرات الأربع والستين التي ستصدر كبيان ختامي للقمة. وبالطبع ومع وصولنا كانت اللمسات النهائية قد وضعت علي البيان ولم يتبق سوي أكثر القضايا مثار الخلاف لتعالجها القمة نفسها. وبعد ست أو سبع ساعات أنجز زوليك عملاً عظيماً منهياً معظم التحفظات.

وفي الساعة الخامسة مساء جلست ويجواري زوليك نشغل مقعد الولايات المتحدة فيما شرع جيفري هاو وهانز ديتريش جينشر وفان دين بروك ووزراء خارجية آخرون في إجراء مفاوضات. وفيما تواصلت المباحثات على العشاء حتي الليل تزايد إحباط زوليك مني لاكتفائي بالإصغاء أو المقاومة الرمزية للتحولات التي ربما تكون مقبولة للندن.

وأسر دينيس روس إلي زوليك متسائلاً: «لماذا هو سلبي إلي هذه الدرجة؟ إنه أمر غريب». وأخيراً تساءل زوليك لماذا تتراجعون؟.

وفي مرحلة ما إما في ساعة متأخرة من الليل أو في ساعة مبكرة من الصباح بدأت بالقول: «إن جورج بوش باعتباره زعيماً للحلف في سبيله لعمل مارجريت تاتشر علي التوصل إلي تسوية. وكنت أريد أن يستطيع أن يقول لها إن جيم وجيفري سويا الأمر. فلم يكن هناك وضوح بين الولايات المتحدة وبريطانيا. وهذا أفضل ما كان بوسعنا أن نفعله». وكنت أريد تيسير مهمة الرئيس قدر الإمكان. وكنت أفكر أيضاً في اليوم التالي عندما تحاول تاتشر إحالة القرار إلي الرؤساء في حالة عدم تمكن الرئيس من حملها علي قبول حل وسط. وكلما اقتربت من هاو كلما أصبح من الصعب الإدعاء بأن هناك الكثير الذي يمكن تحقيقه من مكاسب.

وعليّ الاعتراف بأن الساحة كانت سريالية. وكان من المقرر أن ينضم وزراء الخارجية إلي رؤساء الحكومات علي عشاء رسمي. وهكذا فقد ارتدينا جميعاً ملابس السهرة وحينها اضطررنا إلي تبادل سندوتشات الجبن الرديئة من كافيتريا مقر حلف الأطلنطي. فضلاًعن ذلك فلم يكن هناك سوي أربعة لاعبين فقط يشاركون في اللعبة هم هاو وجينشر وفان دين بروك وأنا. ولذا عندما هم شخص آخر في الحديث والتطرق إلي تصريحاتهم الرسمية توجهت إلي جينشر لإجراء مباحثات منفردة. ثم ما لبثت أن تباحثت مع هاو لإطلاعه عما بحثته مع جينشر. وكان دين بروك ينضم إلينا بين الحين والآخر ليدعم حل المشكلة. وخلال المفاوضات اتصلت بالرئيس مرتين في الساعة الحادية عشرة ليلاً والثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل لضمان اتفاقنا التام علي تكتيكات المفاوضات.

وفي مرحلة ما حاولت الطموح لجينشر بأننا ذهبنا لأقصي مدي يمكن الذهاب إليه، «وانتابتني شكوك بأن جيفري غير مرن علي الإطلاق. وكان ذلك نتيجة تدبير من (تشارلز) باول، وكان باول هو المستشار الشخصي لتاتشر لشؤون الأمن القومي، ومن الواضح أن مثله مايكل ألكسندر مندوب المملكة المتحدة الدائم لدي حلف شمال الأطلنطي يجلس في الغرفة لضمان عدم تقديم هاو أية تنازلات. /

وفي النهاية توصلنا لاتفاق حول كل شيء باستثناء قضية حاسمة واحدة: وهي قضية الصفر الثالث. فالولايات المتحدة ترغب في تأجيل التحديث لكن مع عدم التخلي عنه كلية. وأعد زوليك أربع أو خمس صيغ مختلفة. وتوصل جوي كلارك إلي فكرة وضع المال «جزئياً» قبل الفعل «يخَفِّض» لإيضاح أنه أثناء المفاوضات فلن نسمح بالإزالة التامة للقوات النووية قصيرة المدي. وانتهينا إلي كلمتي «تخفضيات جزئية» واقترحت وضع خط تحتها للتأكيد علي أنه لن يكون هناك صفر. ويمثل هذه الفروق الدقيقة أن لم تكن بالغة الدقة تختتم المفاوضات الدبلوماسية.

مفاجأة «العصور» الثاقب

وفي وقت لاحق كشف الرئيس عن اقتراحه الخاص بالأسلحة النووية قصيرة المدي للحلف ككل. وأثار ضجة مدوية في القاعة. وأبلغت تاتشر المجتمعين أن الاقتراح «حوّل» مسار مناقشاتهم، وسارعت بقبول الحل الوسط الخاص بالأسلحة النووية قصيرة المدي الذي توصلنا إليه الليلة السابقة. وأخذ الرئيس الفرنسي فرانسو ميتران الكلمة قائلاً «إننا نريد ابتكاراً. لقد طرح رئيس الولايات المتحدة الأمريكية تصوراً هو في الواقع جرأة فكرية بالغة الندرة» وها هي الصحافة التي كانت تتهم الرئيس قبل أسبوع واحد بأنه سيء الطالع عاجز عن الحديث عن «تصور ثاقب» تتبارى في الإشادة به. ولم يكن أمام الرئيس سوي أن يستغرق في الضحك. وكما قال لان ديفروي ودون أوبردورفر من واشنطن بوست فقد كان هو نفس الرجل قبل بضعة أيام خلت. ولكنه يفهم الآن بشكل صحيح بأنه قائد حلف الأطلنطي.

وأثناء مغادرتنا أوروبا فكرت في المفارقة التي أفضت إلي نجاحنا، فقد سمحت الدعاية العلنية التي مارسها جورباتشوف في آيار مايو لي بأن أعود إلي البيت الأبيض وأستميت في المطالبة بالتحرك في قضية الأسلحة النووية قصيرة المدي مما أتاح بدوره أن يطرح جورباتشوف مبادرته الجوهرية الخاصة بالأسلحة التقليدية في نفس اليوم. كان الرئيس يتحرك بالفعل في هذا الاتجاه وكان أكثر تقبلاً لقطع شوط أكبر. ولم تسمح تعليماته لتشيني وكرووي بدورهما بإحراز تقدم في مجال القوات التقليدية في أوروبا فحسب بل سمحت لنا بالتفاوض حول نتيجة مرضية للمعضلات التي خلقتها قصة الأسلحة النووية قصيرة المدي.

وأظهرت هذه الإنجازات أننا نتحرك حقاً نحو «أوروبا كاملة وحرة» كما أعلنها الرئيس في خطابه في ماينز – ألمانيا عقب القمة مباشرة. ومع ذلك فلم تتح فسحة من الوقت للاستمتاع بمذاق نجاحنا في أوروبا. فعلي الطرف الآخر من الكرة الأرضية كانت الأحداث في سبيلها لتأخذ منحني خطرا نحو الأسوأ.

الفصل السابع

الصين: خطوة كبيرة إلى الوراء

هذا شأن داخلي صيني.

تشيان تشيتشين

هذا ما أفضى به تشيان تشيتشين
وزير الخارجية الصيني
للوزير بيكر بشأن مذبحة ميدان تيانانمين

أشرق صباح السبت الثالث من حزيران يونيو ١٩٨٩ في واشنطن صافياً مشمساً. كان الجو مثالياً يغرى علي ممارسة الجولف، فهذا يوم من أيام الصيف الأولي التي تمر بسرعة بالغة قبل أن تهجم رطوبة تموز يوليو وآب أغسطس الخانقة التي توهن الروح وتزعج الجميع ماعدا أبناء البلد الأشداء، ومن وحي اللحظة اتصلت بنادى تشيفي تشيس الريفي ثم اتصلت بأكبر أبنائي جيمي هاتفياً في منزله بضاحية الأسكندرية بفرجينيا. كانت الساعة نحو التاسعة والنصف صباحاً.

وقلت له: «لدى صفقة عظيمة لك. فأمامنا فرصة لممارسة الجولف في تشيفي تشيس، فاحمل عصيك وتعال في الحال فسوف نلعب بعض الجولف».

ورد جيمي: «أعتقد أنك لن تستطيع لعب أي جولف اليوم».

وتساءلت: «ماذا تعني؟». حسناً.

فرد قائلاً: «إنني أجلس هنا أشاهد السي ان إن والدبابات تقتحم ميدان تيانانمين».

«إنك تمزح معي».

«لا».

وبعد بضع ثوان من الصمت الرهيب، أدركت أنه لم يكن يمزح.

وقلت: «حسناً. عليّ أن أذهب».

وأثناء قيامي بوضع سماعة الهاتف إذا بجرس الهاتف يرن. كان المسئول المناوب بمركز العمليات بوزارة الخارجية يبلغني بأن وحدات مدججة بالسلاح من جيش تحرير الشعب بدأت بالفعل في إطلاق النار علي المتظاهرين في قلب بكين، وأبلغني بأنه من المتوقع أن تكون الخسائر البشرية مرتفعة. كانت مذبحة تيانا نمين بدون شك أقوي لطمة للتطبيع منذ انفتاح ريتشارد نيكسون التاريخي علي الصين عام ١٩٧٢م وبدء العملية. وأطاح قمع حركة الديمقراطية، الذى أصدر أوامره نظام عواجيز ينطوى على مفارقة تاريخية،

بإجماع غير حزبي في الولايات المتحدة شيدته بحرص علي مدي عقدين خمس إدارات متتالية للتعامل مع الصين. وبين عشية وضحاها تقريباً أصيب أحد أهم التجاهات الاستراتيجية المدوية في حقبة الحرب الباردة بهزة في الصميم.

وفيما نقلت عدسات التليفزيون الإخبارية المقتحمة إلي المنازل وحشية للنظام القائم في بكين سرعان ما تبخر مناخ حسن النية تجاه الصين لدي المواطن الأمريكي . وفرض الضغط الداخلي تصرفاً احتياليا علي إدارتنا الجديدة. وفجأة فرض علينا تحد للدفاع عن سياسة تتضمن مصالح جيواستراتيجية وتجارية وأخري تتعلق بحقوق الإنسان علي قدر كبير من التعارض. وفي النهاية أعتقد أننا انتهجنا نهجاً وسطاً مكّن العلاقة من اجتياز الأزمة بنجاح لكن دون مضاعفات تعين علي الدولتين الإبراء منها تماماً.

اللقاءات الأولي في مملكة من العصور الوسطي

تعود معرفتي الجوهرية الأولي بجمهورية الصين الشعبية إلي ربيع عام١٩٧٧ بعيد عودتي إلي هيوستون لاستئناف عملي في المحاماة بعد هزيمة الرئيس فورد أيام جيمي كارتر. واتصل بي جورج بوش في أحد الأيام ليبلغني بأن الحكومة الصينية دعته لزيارة الصين في شهر تشرين الأول أكتوبر، وأنه يريدني أن أرافقه أنا وسوزان في زيارته. كانت سوزان حاملاً في ابنتنا ماري بونر التي كان يتوقع أن تري النور في شهر أيلول سبتمبر، وهكذا لم يكن بوسعها السفر إلي الصين مما أصابها بإحباط كبير. لكنني كنت متلهفاً علي زيارة هذا الكيان الشيوعي المترامي الأطراف الذي لا أعرف عنه سوي القليل، باستثناء تشانج كاي تشيك والنمور الطائرة في الحرب العالمية الثانية، والمعرفة المؤكدة بمقتل كثير من شباب مشاة البحرية من قاعدتي تشوزنتكو علي يد «المتطوعين» في كوريا.

وعامل مضيفونا فريقنا الزائر الذي ضم أيضاً المعلق الإذاعي لويل توماس كوفد ملكي. والتقينا مع عدد من قادة الحكومة ومن بينهم دينج شياو بينج، وأتيح لنا زيارة أجزاء الصين

المحرمة علي الغربيين. كنا من بين قلة من الأمريكيين سمح لهم بزيارة التبت منذ انتفاضة عام١٩٥٩م لتأييد الدالاى لاما، ونجم عنها حركة القمع الصينية التى شهدتها التبت ثم فرار الدالاى لاما إلي الهند. ووصلنا إلي العاصمة لاسا بعد رحلة بالطائرة أحرقت أعصابنا، واخترقت الطائرة خلالها أجواء ملبدة بالغيوم علي ارتفاع ٢٥٠٠ ألف قدم. ونظرت من النافذة لأري قمم جبال الهيمالايا تتجاوز ارتفاع طائرتنا. وحين هبطنا فى المطار كان مضيفونا الصينيون فى استقبالنا باسطوانات أوكسجين صغيرة لمساعدتنا علي التكيف مع الارتفاع عن سطح البحر باثني عشر ألف قدم. وبدت التبت بلداً محتلاً، فعدد جنود جيش الشعب الصيني يفوق عدد مواطنى التبت. ومن الذكريات التى لا تنسى الاستمتاع بمزلقة البحر البارد علي الإفطار. ومشاهدة صورة للشاب لويل توماس في معرض متحفي بصور الإمبرياليين الأمريكيين المحظور عليهم دخول التبت بسبب إفسادهم البلاد.

كانت حفاوة الاستقبال وضخامة برنامج الرحلة خير دليل علي المشاعر التى يضمرها الصينيون لباربرا وجورج بوش مبعوث الولايات المتحدة إلي الصين من عام ١٩٧٤ حتي عام١٩٧٦ قبل إقامة علاقات دبلوماسية رسمية بين الدولتين. ووجد الصينيون فى جورج بوش صديقاً حقيقياً، رجلاً طالما تفهم وأعجب بثقافتهم، وسعي إلي تعزيز وتوسيع نطاق العلاقات الصينية الأمريكية خلال مهمته فى بكين. ولم يدر بخلدى بأى حال بالطبع أنه بعد اثنتى عشرة سنة فإن مصداقيته لدي المسئولين الصينيين والعلاقات الشخصية التى أقامها فى هذا البلد ستساهم بشكل جوهرى فى تدعيم العلاقات الثنائية حتي فى أحلك اللحظات التى ستمر بها منذ الزيارة التاريخية التى قام بها نيكسون للصين قبل سبعة عشر عاماً.

وسافرت إلي الصين برفقة الرئيس ريجان عام ١٩٨٤ ثم قمت بزيارة قصيرة لها عام ١٩٨٦م عندما كنت وزيراً للخزانة للتفاوض مع الحكومة الصينية حول اتفاقية ضريبية. وفى شباط فبراير١٩٨٩ زرتها للمرة الرابعة لمرافقة الرئيس بوش هذه المرة فى أول جولة خارجية له للمشاركة فى جنازة إمبراطور اليابان هيروهيتو.

كان الرئيس هو صاحب فكرة توسيع نطاق الجولة لتشمل التوقف فى كوريا والصين. وإلي جانب تعزيز الالتزام الأمنى الأمريكي تجاه الكوريين الجنوبيين كان الرئيس يعتزم

انتهاز فرصة الزيارة المبكرة ليؤكد للصينيين الاهمية التى يوليها للعلاقات الصينية الأمريكية، وتصميمه على الإعراب عن أن الولايات المتحدة قوة فى المحيط الهادى بقدر ما هى قوة أطلسية.

وخلال تلك الزيارات التقيت مع وزير الخارجية الصينى تشيان تشيتشين فى مقر الضيافة دياويوتاى. وأبلغت أن تشيان المدخن الشره واحد من القلة المحبة للغرب دون موارية بين القيادة الصينية. فولعه بالثقافة الأمريكية أمر معروف بين البعثات الدبلوماسية، ولاسيما ولعه بموسيقى الريف والغرب الأمريكى وجبال تينيسى الدخانية العظمى. كان الاجتماع حميماً وودياً أكدنا مجدداً فيه التزامنا بتعزيز وتوسيع العلاقات الثنائية. وتركز معظم الاجتماع على القضايا الاقتصادية. وأبلغت تشيان أنه منذ تركى لوزارة الخزانة ،أذهلنى المدى الذى قطعته العلاقات بين بلدينا خلال الأعوام الماضية. ولم يساورنى أدنى شك فى أنه بعد أقل من مائة يوم ستتعرض علاقتنا برمتها لمخاطرة جسيمة.

مساعدنا فى الصين هو رئيس الولايات المتحدة

بالطبع فإن وزارة الخارجية هى المؤسسة التى يحتفظ فيها التفاعل الفكرى بفيض من الأوراق السياسية التى تتدفق روتينياً عبر البيروقراطية لتجرى مراجعتها فى المستويات السياسية العليا فى الحكومة. ومع ذلك فإنه فى حالة السياسة الأمريكية تجاه الصين فمن الإنصاف القول إنه لم يخرج سوى القليل من المبادرات من الخارجية أو مجلس الأمن القومى خلال توليّ للوزارة. فلم تكن هناك حاجة لمثل تلك المبادرات. فقد كان جورج بوش على معرفة تامة بالصين، وأشرف على توجيه معظم جوانب سياستنا تجاه الصين مما حدا ببعض كبار خبرائنا فى الشئون الصينية إلى الإشارة إليه بمسئول الحكومة بشأن الصين.

كان بوش فى المقام الأول نِعمَ المساعد فى شئون الصين. فبعد أن أمضى عامين رئيساً لمكتب الاتصال الأمريكى فى بكين فى منتصف السبعينات فَهِمَ جيداً نفسية الشعب الصينى ووظف مواهبه فى الدبلوماسية الشخصية لإقامة علاقات متينة فعلاً مع كافة المسئولين فى القيادة الصينية.

ومنذ لحظة تنصيبه رئيساً للولايات المتحدة أبدي اهتماماً شخصياً بالسياسة الأمريكية تجاه الصين، ودفعها نحو التطور لدرجة غير مسبوقة. ولعل اختياره لجميس ليلي ليصبح سفيراً للولايات المتحدة في بكين خير شاهد على ذلك. كان ليلي يتحدث اللغة الصينية بطلاقة. كما رافقنا في زيارتنا للصين عام ١٩٧٧م. وعمل ليلي مديراً لمحطة المخابرات المركزية الأمريكية في بكين فترة شغل بوش لمنصب سفير الولايات المتحدة في بكين، وكان مثل الرئيس علي علم بأدق تفاصيل السياسة والثقافة الصينية.

وكنت علي اتفاق تام وصادق مع فلسفة الرئيس الأساسية تجاه الصين بالبناء فوق سياسة ريجان بالارتباط الوثيق. فليس هناك شك في أن الصين كانت قوة ناشئة عملاقة في المحيط الهادي لا يمكن تجاهلها. ومثلما هو الحال في أوروبا بدأ نظام جديد في التشكل في آسيا يستند أساساً إلي النمو الاقتصادي والتجاري المذهل. أما وقد خاضت ثلاثة حروب في آسيا في جيل واحد كانت الولايات المتحدة مؤهلة للاضطلاع بدور حاسم في وضع هيكل هذا النظام الوليد الجديد، وكانت الصين محور تلك التطورات.

واعترفنا بالطبع بأن لهفة الصين لتحقيق التنمية الاقتصادية أكثر جلاءً من التزامها بالإصلاح السياسي. وساهم سجل الصين بشأن حقوق الإنسان بتصويب والمر في عزوف الكونجرس عن تحسين العلاقات. وفي الحقيقة كان أداء الصين في مجال حقوق الإنسان مفزعاً بالمعايير الغربية. ولمست ذلك مباشرة وأنا وزير للخزانة. فالإدارة منهمكة في تطبيق قيود علي استيراد السلع المصنعة في معسكرات السخرة في الصين. ومع ذلك كان تقييمنا أنه يتم إحراز تقدم ما، وأننا نعتقد أن توسيع علاقاتنا سوف يشجع الصينيين تجاه تحقيق مزيد من التقدم.

ويوضح التاريخ أن الإصلاح الاقتصادي والسياسي ما هما إلا وجهان لعملة واحدة والعكس صحيح. وبالضغط علي الصين في مجال حقوق الإنسان أردنا بذل كل ما يمكننا عمله لإقناع قيادة أسايتها الشيخوخة أنه عليها وهي تبتعد عن اقتصاد علي النمط السوفيتي الاعتراف بأن سرعة التغير السياسي ينبغي أن تلبي طموحات الشعب الصيني.

وأدركنا أيضاً أنهم في حاجة إلي مساعدتنا لمواصلة نموهم الاقتصادي. وكنا علي استعداد لاستغلال هذا النفوذ لتشجيع إحراز تقدم أكيد صوب الإصلاح السياسي. ولكل هذه

الاسباب صمم الرئيس علي المشاركة الفعالة في الشأن الصيني واعتزم أيضاً الوصول إلي مستوي جديد من الاستقرار في تعاملاتنا الثنائية.

وعلي مدار أكثر من ١٥٠ عاماً من الاتصالات الصينية الأمريكية يمكن القول بإنصاف أن طبيعة العلاقة تتدرج تحت عناوين فقط. فأثناء المكارثية في الخمسينيات كان الصينيون هم الملاحدة الشيوعيون الذين قتلوا أبناءنا في كوريا وهؤلاء خير مثال للشعب الصيني. أما في السبعينيات فكانوا الشعب الدؤوب علي العمل الذي كابد الكثير والذي ألهبت ثقافته الغامضة والغريبة رومانسية الرأي العام الأمريكي، واستحقت مشاركة قيمة مكافئة من جانب الرؤساء الجمهوريين والديمقراطيين علي حد سواء، وأراد الرئيس إنهاء التأرجح بين المفرطين في الدعوة للمواجهة أو الإفتتان بالصين.

بداية مبشرة تنقلب إلي علاقات مريرة

في أوائل عام ١٩٨٩ بلغت العلاقات الأمريكية الصينية ذروة مابعد التطبيع. فقد ازدهرت العلاقات في مجموعة متنوعة من المجالات الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية. وكان ونيستون لورد سفيراً للولايات المتحدة في بكين متزوجاً من المواطنة الصينية بيتي باو لورد. كانت الإصلاحات الاقتصادية التي بدأها دينج شياو بينج يشتد عودها، ونتيجة لذلك اتسعت التجارة الأمريكية مع الصين. وبدأت سنوات من العمل السري الدؤوب من جانبنا لتغيير السياسات التجارية في الصين حتي تتمكن من الانضمام إلي نظام الجات للتجارة العالمية تبشر بنتائج طيبة. ومن الناحية الجيوبولوتيكية بدا الصينيون صرحاء ومنفتحين بشكل متزايد. وعلي سبيل المثال فلم تكن الصين تخطئ صراحتهم تجاه ما يجري في عميلتهم دولة كوريا الشمالية، واستعدادهم للتدخل بهدوء مع بيونج يانج لخدمة المصالح الأمريكية. وبوجود صديق ملتزم للصين داخل البيت الأبيض كانت التوقعات ضخمة في أن العلاقة ستصل إلي مستوي جديد من النضج والاستقرار.

وفي الوقت ذاته كانت تحتمل موجة جديدة من الاضطرابات الداخلية في الصين، وعلي مدار الثمانينيات أجريت الإصلاحات الاقتصادية بوتيرة جيدة. لكن وتيرة الإصلاح السياسي كانت أقل. مما ولد استياءً عاماً علي الفور. ومع تولي الرئيس بوش السلطة رصد خبراء الشؤون الصينية أدلة متزايدة علي وجود صراع علي السلطة داخل الحكومة بين رئيس الحزب تشاوتسي يانج الذي يزيده دينج (كانت قد التقيت وأنا وزير الخزانة مع تشاو في الصين) وهو أحد أنصار التوسع في الإصلاح، وبين جناح أكثر تحفظاً يقوده لي بينج رئيس الوزراء. واتسم المؤتمر العام السنوي للحزب الذي عقد في آذار مارس عام١٩٨٩ بما توقع الخبراء الغربيون أنه تراجع الاهتمام بالإصلاح السياسي.

وفي الأسابيع التالية اندلعت المظاهرات الطلابية في عدد من المدن بما في ذلك سلسلة من الاحتجاجات في ميدان تياناتمين الشاسع في بكين. وتصاعدت المظاهرات تدريجياً إلي الدرجة التي انضم معها مئات الآلاف من المتظاهرين الذين يمثلون قطاعاً عريضاً من المجتمع الصيني إلي الاحتجاجات الطلابية شبه اليومية. ومع تصاعد هذه الاحتجاجات قويت حجة المتشددين بأن المظاهرات اتخذت طابع حركة ثورة مضادة وينبغي التعامل معها بالقوة.

وفي آيار مايو أعلنت الحكومة فرض الأحكام العرفية، وأمرت بإنزال وحدات الجيش إلي بكين لاستعادة النظام. واجتمعت بعد ثلاثة أيام بالمصادفة في واشنطن مع وان لي ثالث أرفع عضو في الحكومة الصينية. بالإضافة إلي صفته كعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني وكرئيس (لمؤتمر الشعب الوطني). كان الرجل العجوز الذي يكسو الشعر الأبيض رأسه محملاً بذكريات لعب التنس مراراً مع جورج بوش عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥م. ومع احتدام المظاهرات طالما حثت الإدارة مراراً حكومة الصين في الاتصالات العامة والخاصة علي ضبط النفس. وأكدت قلق الرئيس لوان الذي كان في مركز جيد يتيح له التأثير علي سياسة الحكومة.

وقلت: «بينما عدم الاستقرار في الصين أمر غير مرغوب. فإننا نأمل في استمرار التوجه نحو الإصلاح والتسامح السياسي». وألمحت إلي أن أي نكوص عنه ستكون له «آثار

سلبية، علي علاقتنا. ورد بأن الحكومة بفرضها للأحكام العرفية قد تصرفت بشكل سلمي لاستعادة النظام، وأن حفنة قليلة من المتظاهرين هي التي تحاول تأجيج الموقف. وألمح في تشاؤم إلي أنه لا مناص من بعض الأشياء. ويجب علي المرء ألا يستبعد إمكانية حدوث بعض الأحداث المأساوية. فلا يمكن تجنب احتمال إراقة الدماء. وكررت القول: «إنه في الوقت الذي تشيد فيه حكومة الولايات المتحدة وتحلي حكومة الصين بضبط النفس، فإن العلاقات الصينية الأمريكية ستتعرض للخطر إذا تم التخلي عن ضبط النفس لصالح إجراءات عنيفة». وأحسست أنه فهم مقصدي أيضا. وما سوف أتذكره بقنوط قريباً جداً هو النذير بمأساة قادمة.

مذبحــة الأبريــاء

وأخيراً وفي ليل الثالث من حزيران يونيو بلغت المواجهة حداً حرجاً. فقد بدأت قوات الجيش النظامي التي صدرت إليها الأوامر باستعادة النظام بوسط بكين بإطلاق النار علي المتظاهرين. وفي عدة ساعات استغرقتها المذبحة قُتِلَ عدة مئات علي الأقل من المتظاهرين وأصيب آلاف آخرون. وأصبح ميدان تيانانمين – محور الحياة الصينية – الميدان الذي يمارس فيه جنود الجيش القتل. وفي ظرف ساعات أُخلِيَ الميدان من المتظاهرين، وبدأت موجة من القمع الوحشي في مختلف أنحاء البلاد.

ويجدر التنويه إلي أن أثر المذبحة علي العلاقات الصينية الأمريكية كان سيصبح في غاية السوء لولا التصرف السريع والشجاع من جانب العاملين بالسفارة الأمريكية. فبمجرد أن تناهي إلي علم مسئولي السفارة أن الحشود المسلحة الضخمة والدبابات في طريقها إلي الميدان أوفد السفير جيم ليلي مسئولي السفارة إلي الميدان لتحذير الأمريكيين والمواطنين الأجانب الآخرين بضرورة مغادرة الميدان علي الفور. واستجابة لهذا التحذير غادر عدد من الأمريكيين الساحة علي الفور قبيل دقائق معدودات (بالمعني الحرفي) من بدء إطلاق النار.

كانت المأساة المروعة في ميدان تيانانمين إثباتاً كلاسيكياً لظاهرة جديدة قوية: هي قدرة ثورة الاتصالات الكونية علي توجيه السياسة. فلم يشهد الأمريكيون منذ حرب فيتنام مثل هذه الصور المأساوية في حجرات المعيشة.

وعلي نقيض فيتنام حيث كانت الأنباء تتأخر في العادة لساعات أو لأيام في بعض الأحيان كانت مذبحة بكين تلتقط حية وتبث علي الفور عبر القمر الصناعي. ولعل أقوي المشاهد علي الإطلاق بالتأكيد تلك التي أقدم فيها متظاهر وحيد بكل جسارة علي التصدي لدبابة.

ومنذ ذلك الحين باتت تغطية الأخبار «شاهد عيان» أمراً شائعاً. ففي العراق والبوسنة والصومال ورواندا والشيشان وأماكن أخري ساهمت التغطية الحية لبؤر الصراع من جانب وسائل الإعلام الإلكترونية في خلق ضرورة قوية جديدة تدفع للقيام بعمل فوري، وهي تغطية لم تكن متوفرة في أوقات أقل حدة.



وفي المستقبل أظن أن هذا التوجه سوف يتصاعد إلي جانب نداءات عامة تطالب بضرورة تدخل الولايات المتحدة في مواقع المآسي العظمي التي ربما تكون أو لا تكون علي اتساق مع مصلحتنا الوطنية.

ومن الضروري أن تبقي الولايات المتحدة علي مشاركتها علي الساحة الدولية، ولكن حتي ونحن آخر قوة عظمي لا يمكننا منع أو حل كافة الصدمات الدولية. وهكذا فينبغي أن تنتهج قياداتنا مبدأ الانتقاء المستند إلي متطلبات مصلحتنا القومية وقيمنا ومبادئنا. لكن التواجد الحتمي للتلفزيون والأقمار الصناعية سيجعل من العسير للغاية المشاركة بشكل إنتقائي في العقود القادمة.

وأثناء الثورة الثقافية كان الدبلوماسيون يعانون من التعتيم إلي حد كبير بشأن نطاق القمع الذي تمارسه الحكومة. وفي هذا القمع السلطوي المفرط لم يكن بالوسع إنكار وحشية النظام ولم يكن هناك شك في ضرورة إصدار رد قوي.

وروعت المذبحة الرئيس كما روعتنا جميعا، لكن الذي فاقم قلقه الشخصي هو سابق علاقته مع القيادة الصينية التي أمرت بارتكاب المذبحة. وأدرك الرئيس أن العلاقات الاستراتيجية تلقت لطمة قوية. وقال لي يوم أن اندلعت أعمال العنف «إنه من الصعب إدارة هذه المشكلة». وعلي أمل احتواء الأضرار التي قد تحيق بالعلاقات الثنائية ووقف إراقة الدماء

حاول الرئيس الاتصال بيبنج مباشرة لكن محاولته قوبلت بالرفض بجفاء. ولم يغضبه ذلك فحسب. بل عزز قلقه حول ما إذا كان بالوسع معالجة القضية بنجاح.

وبالمصادفة كان قد سبق لي الموافقة علي إجراء حديث صحفي بعد ظهر الثالث من حزيران يونيو مع تشارلز بيربارو -ورالف بيجلايتر في برنامج «صانع الأخبار السبت» الذى تذيعه شبكة CNN الإخبارية. واعترفت في الحديث «بأن الوضع في الصين يتطور بشكل مروع وفوضوي». ونصحت الحكومة الصينية بوقف أعمال العنف.

وأكثر ما يعلق بذاكرتي عن هذا الحديث أنه تم قطعه أثناء إذاعته لبث رسالة حية بالهاتف من مايك شينوي مراسل شبكة CNN الذى كان يقوم بتغطية تطورات أعمال العنف من ميدان تيانانمين. وفيما شينوي يتحدث عن إطلاق آلاف الجنود النار علي الحشود بل وطعن المتظاهرين بالسونكي عادت بي الذاكرة إلي المجر عام ١٩٥٦م حين شاهدت وأنا طالب بكلية الحقوق بجامعة تكساس اللقطات الكئيبة في الجريدة السينمائية للدبابات السوفيتية وهي تسحق مقاتلي الحرية في بودابست. وبعد ثلث قرن لاحقاً غمرني شعور قوي بما سبق وأن شاهدته وأنا استمع إلي أنباء قتل شباب وشابات علي يد نظام شيوعي محلي آخر.

وأثناء تدارسنا لردنا علي المذبحة لم يكن هناك أي خلاف علي ضرورة التوصل إلي توازن دقيق بين الحاجة إلي اتخاذ خطوات حاسمة وضمان التأكيد علي العلاقة الاستراتيجية إلي أقصي مدي ممكن. '

وكما نوه الرئيس بوش لاحقاً: «إن هذا ليس وقت الرد العاطفي. لكنه وقت اتخاذ إجراء متعقل وحريص يضع في الاعتبار المصالح بعيدة المدي والاعتراف بتعقيدات الوضع الداخلي في الصين». وبالتأكيد، كان من الواضح لنا جميعاً أنه لم يعد بالإمكان التعامل كالمعتاد مع الصينيين. فالرئيس يغمره شعور بالاشمئزاز بسبب المذبحة، وأحس أنه ليس أمامه من خيار سوي الرد بقوة علي ما حدث من رعب في تيانانمين. سواء من منظور سياسي أو كمسألة مبدأ.

وفيما يتجاوز الواقع السياسي في الداخل كانت الحكومة الصينية في حاجة لتفهم أننا لسنا نموراً من ورق في كل ما يتعلق بمسألة حقوق الإنسان. فالقوة حتماً تثير حفيظة

الصينيين لكنهم يفهمونها جيداً. إن غياب الحزم فى التعامل معهم كان لابد وأن يؤدى إلي حسابات خاطئة فادحة من جانبهم.

ومن الناحية الجيوستراتيجية كان من الضرورى أيضاً وضع معيار للقوي المحافظة فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية حيث المعارضة الصحوة الديمقراطية لاتزال تمثل إمكانية مستمرة - حتى يدركوا أنه ستحدث مضاعفات خطيرة فى علاقاتنا حال التصرف بشكل مماثل.

ومن ناحية أخرى كنا فى حاجة إلي التقدم بطريقة مثلي. فالقيادة الصينية تعانى بوضوح من اضطراب فى التفكير. وتاريخياً وأثناء الاضطرابات الداخلية تعودت تلك القيادة علي إلقاء تبعة المسئولية علي عاتق «الأجانب» وتحت منحنى أكثر رجعية. وكان من المهم الرد بشكل لا يعطى ميزة للمتشددين الذين يضغطون من أجل إجراءات أكثر قمعية ستؤدى بلا ريب إلي إراقة مزيد من الدماء.

وأخيرا: من المهم لنا الإعراب عن غضبنا وإدانتنا للقمع الدموى الذى مارسته حكومة الصين وأن نفعل ذلك قدر الإمكان بطريقة تسحب البساط من تحت أى تشريع عقابى يصدره الكونجرس قد يصعب العدول عنه، ويمكن أن يلحق أضرار بعيدة المدي فى علاقتنا ولا طاقة لنا بها.



وفى الخامس من حزيران يونيو أعلن الرئيس بوش فرض عقوبات ضد الحكومة الصينية. واشتملت تلك العقوبات تعليق المبيعات العسكرية الأمريكية ووقف كافة الزيارات بين القادة العسكريين الأمريكيين والصينيين. إضافة إلي ذلك فقد وجه الدعوة تقريباً للطلبة والدراسين الصينيين فى الولايات المتحدة أن يطلبوا تأجيل عودتهم إلي الصين معلناً أن مثل هذه الطلبات ستحظي «بمراجعة متعاطفة». واستقبل مجموعة من الطلبة الصينيين ليعرب عن قلقه بطريقة أكثر دلالة. وصرح للصحفيين «بأن الولايات المتحدة لا يسعها أن تصفح عن هذا القمع، أو يمكنها تجاهل عواقب هذا القمع علي علاقتنا مع الصين».

وفي وقت لاحق من اليوم وافق الرئيس علي توصيتي بأن نعلق الزيارة المقرر أن يقوم بها وزير الخارجية الصيني لواشنطن في الثاني عشر من حزيران يونيو. وكانت مجموعة عمل حكومية قد أوصت بإتمام زيارة تشيان. لكنني لم أكن أعتقد أن الإعراب عن غضبنا لتشيان ثم استقباله بعد أسبوع من المذبحة يوجه الرسالة القوية الكافية بأن الأمر قد انتهي كالمعتاد. وسارع الصينيون علي الفور بإعلان أن تأجيل الزيارة فكرة صينية.

وفي غضون أربع وعشرين ساعة بدأنا في ترحيل أفراد عائلات الدبلوماسيين الأمريكيين العاملين في الصين، وطلبنا من ٨٨٠٠ مواطن أمريكي يقيمون في الصين مغادرتها علي الفور. وأدركنا في حينه أنه من شبه المؤكد أن الحاجة ستدعو إلي فرض مزيد من العقوبات.

كان القمع في الصين أسوأ بكثير من الاعتقاد السائد في البداية. ومع تراجع وطأة القمع في بكين كان من الضروري بالنسبة لنا أن نقود رد الفعل العالمي بدلاً من ترك الانطباع بأن الكونجرس يقودنا. ومن ناحية أخري ساهم التبادل الثقافي والدراسي والعلمي في إبقاء الصين مفتوحة أمام قوي التغيير التي كانت حاسمة بالنسبة للإصلاح، وكنت أعتقد بضرورة إبعادها عن الإجراءات الأمريكية المضادة قدر الإمكان.

ومثل الرئيس عارضت بشدة فكرة إلغاء وضع الصين كدولة أولي بالرعاية. ولحسن الحظ كان الرئيس قد أرسل شهادة التجديد المطلوبة لوضع الدولة الأولي بالرعاية الخاصة بالصين إلي الكونجرس قبل ثلاثة أيام فقط. وكان وضع الدولة الأولي بالرعاية محفزاً حاسماً في تعزيز علاقاتنا الثنائية وتدعيم الإصلاحات التي يقوم بها دينج لإقامة اقتصاد السوق. ومن بين كل الإجراءات الانتقامية التي اقترحها المنتقدون لدينا كان هذا بوضوح أشد هذه الإجراءات سلبية. وكان من شأنه الإضرار اقتصادياً بالولايات المتحدة، وإلحاق الضرر بقوي الإصلاح في الصين وعزلها لدرجة بالغة الخطورة.

المحاولات الأولي لإثارة الوعي

في السابع من حزيران يونيو استدعيت هان تشو سفير الصين في الولايات المتحدة إلي مكتبي بالدور السابع بمقر الخارجية. وكنت أعرفه جيداً منذ أن التقيته في أول زيارة لي

للصين عام ١٩٧٧م حيث كان فى ذلك الحين يشارك ويقدم العون بشكل غير عادى أثناء عملة كمسئول اتصال وزارة الخارجية الصينية مع فريق بوش. وساعد مسئولى إدارة نيكسون فى الإعداد لزيارته التاريخية عام ١٩٧٢م وكان مدافعاً قوياً عن تدعيم العلاقات. واعتبره الرئيس واعتبرته صديقاً وفياً، وسررت عندما عين سفيراً للصين فى واشنطن. وبرغم هدوئه التام كنت أشعر أنه يعانى من صراع داخلى رهيب حول سياسة أورقن أنه ينظر إليها فى قرارة نفسه برعب وحسرة، وفرضت حدة اللحظة نفسها بشكل حاسم.

وأبلغته «بأن الرئيس يعتقد أنه من الأوفق لك أن تسمع منى مدى ما يعتريه ويعتريني من قلق حيال ما يجرى فى بلدكم. إن الولايات المتحدة ملتزمة بالديمقراطية وحرية التعبير والتجمع، ولا يمكننا أن نتسامح تجاه ما نراه، وأبلغته أيضاً أن الرئيس يتوقع حماية أرواح وممتلكات الأمريكيين. كما أننا نريد منح حق الهبوط لطائرات حربية أمريكية تتمركز فى اليابان بهدف إجلاء المواطنين الأمريكيين بمجرد الإخطار عند الاقتضاء. وعليكم أن تتذكروا أنه بينما الرئيس الحالى صديق لبلدكم فإن تصرفات حكومتكم تلقى بظلال خطورة على العلاقة بين بلدينا.

ولم يكن لدى السفير الكثير ليقوله، وكرر الحجة الواهية المتمثلة فى أن هذا شأن صينى داخلى، ووعد بنقل اعتراضاتى إلى حكومته. وكان يدرك مثلى تماماً أن العلاقات بين بلدينا على شفا الانزلاق إلى هاوية قد يقتضى الخروج منها سنوات وسنوات. ودار بخلدى أنه لابد وأن يكون من الصعب على المرء الحفاظ على كرامته فى مثل هذه الظروف وهو مضطر للدفاع عن سياسة لا يمكن الدفاع عنها مثل هذه السياسة. ولم يسعنى تقديم العون سوى الشعور بالرثاء لحاله.

والتقيت بهان تشو مرة أخرى فى العاشر من حزيران يونيو فى محاولة لتسوية مصير فانج ليتشى عالم الفيزياء الفلكية الذى جعل منه ارتباطه بالمعارضة هدفاً للحكومة. وخشية على حياتهما لجأ فانج وزوجته إلى السفارة الأمريكية التماساً للأمان بمجرد بدء عمليات القتل. واستاء الصينيون من قرار الرئيس بمنحهما اللجوء المؤقت. وأفضى مصدر صديق فى الحكومة الصينية إلى مسئول أمريكى بأن دينج نفسه مستاء للغاية من هذه القضية، وأن

الحكومة ستلجأ لاستخدام القوة لضبطه إذا حاولت الولايات المتحدة إخراجه خارج البلاد، وهو حل اقترح ليلي دراسته في لحظة ما.

ورغم أن فانج بات مصدر خلاف في علاقتنا مع الصين فقد استشاط غضب الصين عندما وجهت إليه الدعوة لحضور مأدبة عشاء أقيمت تكريماً للرئيس أثناء زيارته عام ١٩٨٩م للعاصمة الصينية ولم يتَّرأي تساؤل عن منحه اللجوء. ومع ذلك وبعد أن تفاوضنا لخروجه بأمان من الصين لَتظهر فانج الامتنان لجهودنا بسفره مراراً إلي الولايات المتحدة. كما أنه انتقد مراراً رفضنا إلغاء وضع الدولة الأولي بالرعاية الممنوح للصين.

وأبلغت هان تشو: «إنني أعرف مدي أهمية هذه القضية لقيادتكم، لكنني أود التأكيد علي أهميتها أيضاً بالنسبة للرئيس بوش». وأردفت قائلاً: إن الرئيس منفتح لأي إقتراح تعرضه بكين حول كيفية حل المشكلة «بطريقة تضمن مصلحة بلدينا». وألمحت إلي أن لجوءه إلي بلد ثالث يمثل حلاً وسطاً. لكننا لن نسمح بإخراج فانج عنوة من السفارة. وأشرت إلي «أن السماح بتحول هذه القضية لخلاف كبير بين بلدينا سيساهم إلي حد كبير في تعقيد المهمة الأسمي بإعادة علاقتنا إلي سابق عهدها». ولسوء الحظ بدا أن الصينيين غير مبالين بقلقنا. وكان ردهم أكثر قسوة. فقد ظهر دينج في التاسع من حزيران يونيو علي شاشة التلفزيون يصدق علي تصرف قادته العسكريين.

وفي إجراء تال أعتقل أكثر من أربعمائة منشق صيني في بكين، وصدرت الأوامر بحل كافة الاتحادات الطلابية والعمالية المستقلة. وفي مزيد من نذر الشؤم بدأنا في تلقي أنباء صدور أحكام بالإعدام علي المنشقين في محاكمات صورية. وناشد الرئيس حكومة الصين رسمياً العفو لكن دون جدوي. ومع بدء الإعدام قررنا اتخاذ مزيد من الإجراءات المتشددة.

وفي العشرين من حزيران يونيو أعلن الرئيس موجة ثانية من العقوبات، وأصدر الرئيس أوامره بوقف كافة الاتصالات رفيعة المستوي مع بكين، وطلب من مؤسسات التمويل الدولية مثل صندوق النقد الدولي وقف كافة القروض الجديدة إلي الصين لأجل غير مسمي. وألغيت زيارة كان من المقرر أن يقوم بها للصين وزير التجارة بوب موسباشر في شهر تموز

يوليو. وفى نفس الوقت تقريباً تلقت واشنطن أنباء إعدام أربعة وعشرين من المتظاهرين. وفى ٢٤حزيران يونيو إتُهِمَ تشاو تسى يانج بتشجيع «تمرد الثورة المضادة» وأعفى من رئاسة الحزب، ووضع رهن الإقامة الجبرية بالمنزل.

الكونجرس يُســخّــنْ الموقف

تعقدت محاولاتنا لإنقاذ علاقتنا الاستراتيجية بتبنى نهج وسط نتيجة لضغوط مكثفة من الكونجرس حيث توحدت صفوف تحالف لم يكن محتملاً بين الليبراليين الذين خابت آمالهم بسبب انتهاكات الصين لحقوق الإنسان والمحافظين المتشددين المناهضين للشيوعية، فى المطالبة بتبنى نهج أكثر تشددا تجاه بكين. وكانت أعمدة هذا التحالف تتمثل فى السيناتور جيسى هيلمز من نورث كارولينا والنائبين سولا ريتس من نيويورك ونانسى بيلوسى من دائرة كاليفورنيا التى تضم الحى الصينى فى سان فرانسيسكو.

وطيلة مراحل الأزمة أمطر الكونجرس الرئيس بوابل من المطالب ببذل المزيد أعقبها تهديدات بإصدار تشريعات بفرض عقوبات أشد صرامة من تلك التى فرضها بالفعل. وكنت أعتقد أن مثل هذا النهج سيثير غضب الصين، وسيلحق الضرر بقضية الإصلاح، ويحدث ردة ربما تهدد أساس العلاقة من جذوره. وفى شهادتى أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب فى الثانى والعشرين من حزيران يونيو أوضحت أن تحول الرئيس عن أصدقائه القدامى أمر حقيقى «قد يستطيعون تطهير الميدان. لكنهم لن يستطيعوا التخلص من ضمائرهم» لكننى طلبت من الكونجرس توحيد الصفوف مع الرئيس فى سياسة موحدة بدلاً من التمسك بنهجه قصير النظر.

وفى كلمة أمام جمعية آسيا فى نيويورك بعد أربعة أيام سعيت إلى تعزيز هذا الخط. وقلت «إن الفصل المتسرع لعلاقة بناءة بين الصين والولايات المتحدة أُسِسَتْ بحرص بالغ على مدى أكثر من عامين لن يخدم مصالحنا ولا مصالح الشعب الصينى. فضلاً عن ذلك

فلن يساهم في مساعدة طموحات الديمقراطية التي تبدت بوضوح في الملايين التي سارت إلي ميدان تيانانمين».

وبالرغم من نتائج استطلاعات الرأي العام التي أظهرت تأييداً للنهج الوسط للرئيس بفارق كبير، أصر الكونجرس علي المطالبة باتخاذ إجراءات أشد. وفي الثلاثين من حزيران يونيو وافق مجلس النواب علي تعديل لمشروع قانون بسلطة التفويض في المعونات الخارجية وفرض عقوبات إضافية علي الصين بأغلبية ٤١٨ صوتاً دون اعتراض. وفي تموز يوليو حذا مجلس الشيوخ حذو مجلس النواب بإصدار تشريع مماثل بأغلبية ٨١ ضد عشرة أصوات. وكان فارق الأصوات كاسحاً لدرجة بات معها من المستحيل أن يستخدم الرئيس الفيتو وصدق علي القانون علي مضض.

اقتراح سري

حتي مع توسيع نطاق العقوبات ضد الصينيين بحثنا أيضاً عن سبل خلاقة لإبقاء العلاقات حية، اعترافاً بأنه ليس هناك علي الصعيد الذاتي ما يمكن عمله في المستقبل المنظور. ودارت الأفكار حول ضرورة الإيضاح للصينيين في الدوائر الخاصة أنه بينما لا يمكن قبول سلوكهم ولا يمكن غفرانه، فإن الإدارة لا تسعي لفرض العقوبات، وتسعي للتوصل إلي سبل لإصلاح تدهور العلاقات.

ومع ذلك فعلي الصينيين أن يتأكدوا أن تحقيق تقدم أمر مستحيل حتي يتوقف القمع.

ولتعزيز هذه الحقيقة بما لا يدير أي لبس إقترح الرئيس إيفاد برينت سكوكروفت في مهمة سرية إلي الصين. ووافقت علي الاقتراح لكنني عارضت فكرة إيفاد سكوكروفت إلي الصين بدون مرافقة ممثل من الخارجية. ولم استسغ مطلقاً المهام السرية التي يقوم بها مسئولو مجلس الأمن القومي. ففي حقبة ريجان شاهدت أكثر من مرة ما حدث لمسار السياسة الخارجية نتيجة السماح لمجلس الأمن القومي «القيام بعملياته». ولن يعمل النظام ببساطة إذا استبعدت الخارجية من مثل هذه المساعي. وكنت أفضل لو ذهبت بنفسي لكن

مهمة من هذا النوع ينبغي أن تحاط بأقصي قدر من السرية ولا يليق بأي حال بوزير خارجية في العصر الحديث أن يسافر باسم مستعار. واقترحت علي الرئيس أن يرافق نائبي لاري ايجلبيرجر مستشار الأمن القومي في زيارته للصين ووافق الرئيس. وكانا زميلان وصديقان قديمان وكل منهما يكمل الآخر. وبعث الرئيس برسالة شخصية إلي دينج شياو بينج يطلب منه مقابلة مبعوثيه.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من حزيران يونيو، وبعد مباراة جولف بقاعدة أندروز الجوية مع بوب هوك رئيس وزراء استراليا عاد بوش وأنا أرافقه إلي مقر إقامته في البيت الأبيض حيث انضم إلينا لاري وبرينت. وقال الرئيس إنه تلقي رداً علي رسالته. فقد وافق دينج علي استقبالكما وتعهد بإحاطة الاجتماع بأقصي درجات السرية.

كانت توجيهات الرئيس واضحة. فينبغي إفهام الصينيين أنه بينما الرئيس ملتزم بالحفاظ علي العلاقة بين الولايات المتحدة والصين فإنه شخصياً يشعر بالفزع من العنف ويأبي ضميره عودة العلاقات إلى طبيعتها إلى أن يتم وقف العنف.

وفي ضوء المناخ السياسي السائد فمن الضروري ألا يتسرب أي شيء للصحافة. فسوف يسارع المتشددون في الكونجرس إلي اتهامنا بتملق «سفاحي بكين» وسوف تتعرض جهود الرئيس للحفاظ علي علاقتنا مع الصين لضغوط رهيبة. فضلاً عن ذلك فسوف يتصلب موقف الصينيين تجاه أي انتقاد علني جديد، وسيزداد الحال سوءً عنه قبل الزيارة.

وكانت الحاجة لإحاطة الزيارة بالسرية المطلقة بالغة القوة لدرجة استدعونا معها جيم ليلي من بكين ليتلقي نبأ الزيارة بنفسه تجنباً لإرسال برقيات دبلوماسية مما يعزز فرص كشفها قبل الأوان.

وتحت جنح الليل غادر إيجلبيرجر وسكوكروفت واشنطن في الساعة الخامسة فجراً في الثلاثين من حزيران يونيو. ومضت الزيارة دون أدني مفاجأة. ولتجنب اكتشاف أمرهما لدي هبوط طائرتهما للتزود بالوقود أعيد تزويدها بالوقود بواسطة طائرة تزويد بالوقود في الجو تابعة للقوات الجوية الأمريكية. وأمضيا أربعا وعشرين ساعة في الصين وعادا دون أن

يلحظهما أحد، ورفعا تقريراً للرئيس بأن الصينيين غامضون كعادتهم. فالقادة اشتكوا من الصعوبات وكرروا أصرارهم المعتاد بأن الولايات المتحدة تتدخل فى شئونهم الداخلية. لكن كما قال لى ايجلبيرجر: «إنهم لم يقولوها مباشرة، لكن اعتقد أن الأذكياء منهم قد استوعبوا الرسالة بأنه يمكننا عمل المزيد لهم عندما يكفون عن قتل أبناء شعبهم».

التانجو الأول فى باريس

بعد مرور سبعة أسابيع على وقوع المذبحة، وعلى هامش مؤتمر السلام فى كمبوديا الذى رعته الأمم المتحدة، عقدت اجتماعاً خاصاً مع تشيان تشيتشين فى باريس فى ٣١كانون الثانى يناير وبكرم من رولان ديما وزير خارجية فرنسا وضع مكتبه بمركز كليبر للمؤتمرات تحت تصرفنا لعقد الاجتماع. وفى هذا الاجتماع الذى يمثل أول اتصال وزارى بين بلدينا منذ وقوع المذبحة كنت على يقين من أن الصينيين سيلتزمون بالجانب الدفاعى تجاه أى مسعى أمريكى، لذا فقد بدأت الاجتماع عن عمد بنقاش مطول عن القضية الكمبودية. وكنا نحتاج مساعدة الصين للتوصل إلى تسوية لمشكلة كمبوديا من خلال التفاوض، ولم أرد أن يسمم التوتر فى علاقتنا الثنائية الأجواء، وأن يدفع الصين إلى الإمساك عن ممارسة نفوذها المهم على مقاتلى الخمير الحمر. وبعد الحصول على تعهد من تشيان بتقديم المساعدة وجهت دفة الحديث بحذر إلى مسار أكثر صعوبة.

وقلت: «أعلم أنكم تدركون أن الرئيس يفهم الصين. فهو يكن لها مشاعر خاصة. وأنه لا يريد أن تنكفئ الصين على نفسها. إن مصالحنا الاستراتيجية تدعو إلى بذل ما يمكننا عمله للحفاظ على علاقتنا».

ومضيت قائلاً: «لكن علىّ أن أكون صريحاً معك: لن تكون المهمة سهلة. فالأمريكيون قد شاهدوا ما حدث فى تيانانمين، وأن ما شاهدوه يشكل انتهاكاً للمبادئ التى قامت عليها بلدنا. فمصلحتنا الوطنية تقتضى توسيع نطاق الحريات التى يستميت الأمريكيون فى التمسك بها. فالأمريكيون يجدون صعوبة بالغة فى تفهم ما فعلتموه وهو ما خلق واقعاً جديداً وعاطفياً

في بلدنا» وتعززت مصداقيتي نتيجة إقرار مجلس النواب في اليوم السابق فقط لمشروع قانون العقوبات بالأغلبية المذهلة ٤١٨ صوتاً ضد لاشيء».

وقلت: «إننا نريد استعادة علاقتنا. لكن لا يمكننا إنجاز ذلك بمفردنا ولو كانت الصين ترغب في الشيء نفسه فعليكم مساعدتنا. إنني أود أنا والرئيس أن تكف الصين عن القمع. وإذا لم يحدث المزيد من المحاكمات الصورية والاعتقالات الجماعية فيمكننا بأمانة أن نضع الصين في صورة أكثر إيجابية. لكن إذا واصلتم القمع فسيكون من الصعب تبرير علاقتنا».

وكان تشيان مستميتاً في الدفاع بصورة أكبر مما توقعت. وأكد قائلاً: «إن أحداث بكين لم تقرر بمشيئتنا» وألقى مسئولية المذبحة بدوره على المشاغبين من الطلبة والفوضويين ووسائل الإعلام العالمية والعملاء التايوانيين وصحافة هونج كونج. وقال إن حكومة بكين ثابرت بصبر غير معهود لمدة شهرين، وأكد أن «الحكومة الصينية أظهرت أقصى قدر من ضبط النفس» حتى لم يعد هناك في النهاية خيار آخر. وأصر على أنه حتى الأنباء الخاصة بالوفيات مبالغ فيها إلى حد كبير.

وأبلغني: «أنتم تعرفون أن الصين لا تخشى من الضغط. فالإجراءات الأمريكية بهدف الضغط على الصين قد أضرت بالصين، لكن الصين لن ترضخ للضغوط». واعترف بأن الرأي العام الأمريكي تشكل نتيجة «التقارير المبالغ فيها من جانب وسائل الإعلام الأمريكية. وبعد هدوء الموقف على الجانبين أن يفهما هذا بهدوء جيد».

وحاولت أن أشرح لتشيان أن العلاقات كسابق عهدها ليست محل تساؤل. وعاد إلى ترديد المقولة القديمة «إن هذا شأن داخلي» وإنه يجب على الرئيس وعليّ إبلاغ الكونجرس بضرورة الكف عن نهجه التدميري. وقلت: «إن الدخول في جدل عما إذا كان ذلك شأناً داخلياً أم لا لن يحقق أي مصلحة لنا. فالحاصل أن حادث تيانانمين خلق واقعاً جديداً في الولايات المتحدة، وعليّ التأكيد أننا لا يمكن أن نفعل ذلك بمفردنا. وأشرت إلى أنه سيكون من المفيد إذا عرف العالم أنكم لن تنزلوا العقاب بهؤلاء الذين يعبرون عن حقوق الإنسان الأساسية».

ومرة أخري أظهر تشيان مجدداً الغموض المحسوب. وقال: «إن العقاب لن يطال أولئك الذين اكتفوا بالتظاهر وترديد الشعارات حتي لو كانوا متشددين ما لم ينتهكوا القانون» وبرغم انتهاء الاجتماع بدون نتائج حاسمة إلا أنني أعتقد أنه نجح في زيادة معرفة تشيان بجدية موقفنا

محاولة أخري في أيلول سبتمبر

في ٢٨ أيلول سبتمبر وعلي هامش دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة اجتمعت مع تشيان وزير خارجية الصين للمرة الثانية منذ مذبحة تيانانمين. ويبدو أن حالة الحصار في الصين قد بلغت درجة معتدلة، ونتيجة لذلك فقد كان الغضب الداخلي أقل تأججاً في الولايات المتحدة. لكن الصينيين كانوا لا يزالون غير مدركين للأخطار المحدقة بالعلاقات الثنائية. وفي مستهل حديثنا قلت لتشيان: «إن هناك اعتقاداً يتطور في الولايات المتحدة بأن الصين توصد الباب». فإن أي شيء يمكنكم عمله للحفاظ علي الباب مفتوحاً سيقدم يد العون.

ورد تشيان: «لسنا نحن الذين نريد إيصاد الأبواب. إن أبوابنا مفتوحة. لكن الباب المفتوح يتطلب جانبين». ويمثل فن الإقناع تحدياً خاصاً في التعامل مع الصينيين. وأكد أنه شيء بالغ الأهمية بشكل غير معتاد. لذا فعلي المحاور أن يتفاوض معهم في توازن دقيق يدفعهم نحو المسار المفضل بدون إغضابهم أثناء التفاوض. وبناءً علي هذا فقد نزلت عند حساسيتهم قائلاً «إننا نعرف أن جانباً من هذا الأمر له علاقة بالسياسة الداخلية في الصين»، لكنني ألمحت أيضاً إلي أنه «ربما أمكن تقديم النصيحة بدراسة رفع الأحكام العرفية والانتباه إلي الدعاية المناهضة لأمريكا التي تظهر بين الحين والآخر. وإلا فسوف يكون من العسير علي الرئيس وعليّ أنا ومن يفكر مثلنا أن يواصل السعي لتعزيز العلاقة إذا كان اعتقاد الرأي العام ومزاجه علي النقيض». وقلت لتشيان: «لا تنس أن الرئيس قرر أو إن لم يكن قد أعلن بعد السماح للمتعاقدين الأمريكيين باستئناف العمل في تطوير الأجهزة الإلكترونية الخاصة بالمقاتلة الصينية إف – ٨». وقلت: «إن تقديم مثل تلك اللفتة الكريمة المتبادلة من جانبنا في مثل هذه الظروف يبدو في سياقه تماماً». ورد تشيان: «بأن حكومته تشعر بضيق بالغ بسبب

استمرار ضغوط مجموعة السبع المطالبة بإنهاء القمع. وشكا أنه منذ «انتفاضة البوكسر» عام ١٩٠٠ عندما أرسلت قوات عسكرية من القوي الثماني الكبري بما فى ذلك الولايات المتحدة إلي بكين لحماية المواطنين الأجانب لم تعامل السيادة الصينية بمثل هذا الازدراء. وقال إن مثل «هذا النهج الظالم»لن يتم التسامح معه. وحذر من أنه «إذا استمر هذا النهج يوماً بعد يوم. فلن يمكننا تجنب إيذاء مشاعر الشعب الصيني والإضرار بالعلاقات الصينية الأمريكية»

ولم يكن لدي تشيان أي غضاضة في أن يطلب الحصول علي تنازلات أمريكية ويتجاهل في الوقت نفسه طلبي «باتخاذ خطوات إيجابية وظاهرة» من جانب الصين لتسهيل تبديد غضب الكونجرس والرأي العام من بكين. وأكد أن علاقات الرئاسة تقتضي تجديد اتفاقات التعاون العلمي والتكنولوجي الثنائية واستئناف قروض البنك الدولي. فضلاً عن ذلك فهناك «أيضاً مشكلة إطلاق الأقمار الصناعية» في إشارة إلي اتفاق سري حينذاك يسمح للصين بإطلاق ثلاثة أقمار تجارية أمريكية الصنع علي صواريخ صينية اعتباراً من عام ١٩٩١ . وقلت إننا نعتزم التمسك بالتزامنا. لكن هذه قضية بالغة الحساسية في الولايات المتحدة» وأخشي لو ظهرت علي الملأ أن يطلب الكونجرس منا أن نلغيه أو نرفض تنفيذه. وهكذا فإننا في حاجة إلي توخي حرص بالغ من ناحية التوقيت».

الجمـــــود

طيلة بقية عام ١٩٨٩م بل وبقية فترة رئاسة جورج بوش كافحت العلاقات الصينية الغرق. وكان مآل أي فرصة لتحسين تلك العلاقات هو الموت الذي لاقاه المتظاهرون في الميدان ذلك المساء من شهر حزيران يونيو. وفي لهفة لتحويل السياسة تجاه الصين إلي قضية انتخابية دأب الديمقراطيون وأعوانهم علي انتخابات عام ١٩٩٢م علي مهاجمة الرئيس بالادعاء بأنه كان بالغ اللين تجاه الأعمال الوحشية ضد حقوق الإنسان في الصين. ومن دواعي السخرية أن محاولاتهم بتحويل هذا الجدل إلي مكسب سياسي ضيق قد أجهضت

نتيجة انتهاء الحرب الباردة. وأدي انهيار الاتحاد السوفيتي إلي ضعف الإجماع الداخلى بالتعامل مع الصينيين كثقل مضاد للسوفيت، وخاصة بسبب سوء سجلهم فى مجال حقوق الإنسان.

وفى هذا السياق بلغ تدخل الكونجرس ذروته عندما أقر الكونجرس قانوناً يتيح للمواطنين الصينيين الموجودين فى الولايات المتحدة البقاء لفترة ممتدة من الزمن. وفى الثلاثين من تشرين الثاني نوفمبر إستخدم الرئيس الفيتو ضد القانون. ورغم أن الرئيس ما لبث أن بادر بتصمين نفس البنود فى أمر تنفيذى فلم يحظ الفيتو بالقبول فى الكونجرس أو لدي الرأى العام. ومع ذلك فقد ساعد هذا الإجراء العلاقات الصينية الأمريكية إلي حد ما.

ورغم هذا فلم يهدأ الديمقراطيين بال مطلقاً. ولإدراكهم التام بتصميم الرئيس علي تبنى النهج الهيدئى الذى يقر أنه يحقق المصلحة القومية ومعارضته للنهج السياسى الأكثر شعبية أصدروا مراراً تشريعات بإلغاء وضع الصين كدولة أولي بالرعاية مما اضطرنا إلي لملمة أقلية تكفى من الأصوات لدعم الفيتو الرئاسى.

ولسوف تتأكد حكمة معارضة الرئيس الصلبة والناجحة لهذه المحاولات الحزبية قصيرة النظر من عام ١٩٩٠م حتي عام١٩٩٢ من تصرفات خلفه لاحقاً. وأثناء الحملة الانتخابية الرئاسية عام ١٩٩٢ انتقد بيل كلينتون حاكم أركانسو سياسة الرئيس تجاه الصين، وزعم أنه فرط لصالح أصدقائه فى الصين. وبعد عام تبني الرئيس كلينتون سياسة الرئيس بوش بربط التقدم فى حقوق الإنسان فى الصين بتجديد وضع الدولة الأولي بالرعاية. وبعمله هذا فإنه يكون قد اعترف ضمنياً بأن سياسة بوش ببذل كل ما يمكن لتحسين وضع حقوق الإنسان فى الصين دون تدمير العلاقات الاستراتيجية كانت هي الطريق الصحيح بالنسبة للولايات المتحدة.

وفى كانون الأول ديسمبر أعاد الرئيس إيفاد كل من إيجلبيرجر وسكوكروفت إلي بكين مرة ثانية. ولسوء الحظ أثارت الزيارة جدلاً جديداً بعد أن سمح الصينيون بالتغطية الإخبارية لتبادل الأنخاب فى قاعة الشعب الكبري. وهاهم منتقدونا يعاودون اتهامنا مجدداً بالاتفاق مع

القتلة. ولو كانت الزيارة قد أحيطت بالسرية كالزيارة الأولي لتفادينا تحولها إلي قضية جانبية أعطت منتقدينا ذخيرة جديدة*.

ومع هذا نجحت الزيارة في إقناع الصينيين – وكما قال الرئيس في خطاب تنصيبه – بأن حسن النية يولد حسن النية. وفي ١٩ كانون الأول ديسمبر ألغي الرئيس حظراً فرضه الكونجرس علي قروض بنك الاستيراد والتصدير للشركات التي تتعامل مع الصين، وأعلن علانية بيع ثلاثة أقمار صناعية للاتصالات لبكين. وليس من قبيل المصادفة بأي حال أن ترفع الأحكام العرفية بعد ثلاثة أسابيع، وأن يعاد فتح ميدان تياناتمين للجمهور للمرة الأولي منذ المذبحة. لقد نجح نهجنا تجاه هذه الأزمة – رغم انتقاد عديدين – بالعودة بالعلاقات إلي عقود خلت. وتجلت حكمة هذا النهج – برغم عدم وجود طريقة بالطبع لإثباتها في حينه – مع نهاية العام بشكل مفاجئ عندما كان صوت الصين في مجلس الأمن الدولي حاسماً لحل أزمة الخليج.

* في العاشر من كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩م لدي ظهوري في برنامج «هذا الأسبوع» مع ديفيد برينكلي أثناء لقطة إيجلبيرجر وسكوكروفت زيارتهما الثانية لكنها علنية هذه المرة لبكين، قلت بتلقائية لبرينكلي: إن هذه هي المرة الأولي التي يقوم فيها مسئولون علي مستوي رفيع بزيارة الصين منذ المذبحة. وبعد أسبوع كشفت شبكة سي إن إن، الزيارة الأولي التي قام بها إيجلبيرجر وسكوكروفت. لقد كانت السرية المضروبة حول الزيارة الأولي مطلقة لدرجة منعتها بكل معني الكلمة أثناء اللقاء التلفزيوني مما أضاف إلي ارتباكي الكثير لاحقاً.

الفصل الثامن

الشرق الأوسط
الخوض في المستنقع

خذني لأي مكان شرق السويس حيث يستوي الخبيث مع الطيب.

روديارد كيبلينغ

علينا أن نفرق بين أخذ زمام المبادرة وبين طرح مبادرة

تقرير مجلس الأمن القومي / ٧ / عن الشرق الأوسط
٢٩ آذار مارس ١٩٨٩

منذ اليوم الأول كانت عملية السلام فى الشرق الأوسط آخر شيء أردت أن أعالجه. ومع مابدا أنه فرص تاريخية وجذرية متاحة فى العلاقات بين الشرق والغرب كنت أري صراحة أن الصراع العربى الإسرائيلى فخ يحسن تجنبه لا فرصة يجب انتهازها.

يرجع أساس هذا التقييم الواضح والذاتى إلى النتيجة التى خلصت إليها بأنه لا يوجد دليل حقيقي يدعو إلي الاعتقاد بأن الأجواء مهيأة لإحلال أى زخم لصراع طالما تحدى الحلول قرابة نصف قرن. وعزز قناعتى أيضاً خبرتى الخاصة كرئيس لهيئة موظفى البيت الأبيض أثناء فترة رئاسة ريجان الأولي حيث لم تثمر الدبلوماسية المهمومة جودة الإعداد سوي عن الجمود. كما أن التدخل المأساوى فى لبنان انتهي بالهجوم الإرهابى علي ثكنات مشاة البحرية فى بيروت الذى أودي بحياة ٢٤١ أمريكياً.

وأتذكر تعليقاتى عدة مرات للموظفين الموثقين بأن كافة وزراء الخارجية انزلقوا لامحالة فى الشرق الأوسط حيث أنفقوا الكثير من الوقت والجهد الذى لم يغل سوى حفنة احتمالات للنجاح وآفاق صخمة لخيبة الأمل. وكنت عاقداً العزم علي مقاومة ترديد نغمة إسرائيل وجيرانها العرب وخاصة عندما يبدو أن أى جانب غير معنى بدراسة الاختيارات السياسية الصعبة الضرورية لخلق عملية سلام حقيقية.

وشجعنى فى هذا الصدد المشاورات التى أجريتها قبل إقرار تعيينى مع الرؤساء ووزراء الخارجية السابقين تحدث كلهم عن مسألة الشرق الأوسط بلهجة حذرة، لهجة من اكتوت أيديهم بنيران التورط فى معالجة القضية. وكالمتوقع كان ريتشارد نيكسون أكثر الجميع صراحة ووضوحاً حين قال: «إن ريجان هو أكثر الرؤساء الأمريكيين تأييداً لإسرائيل فى التاريخ. إن الوقت قد حان لقدر من الإنصاف هناك. لكن الشرق الأوسط قضية تستعصى علي الحل فابق بعيداً عنها».

كنت متيقناً من أنها نصيحة حكيمة. لكنى أعرف أيضاً أن منطقة الشرق الأوسط منطقة حيوية للمصالح الأمريكية وبؤرة اشتعال أبدية فرضت أزماتها دائماً علي أسلافى وزراء الخارجية الالتفات إليها.

فعملية السلام هي أيضاً أحد عناصر السياسة الداخلية بسبب علاقتنا الاستراتيجية الخاصة مع إسرائيل، والقوة السياسية التى تحظي بها الجالية اليهودية الأمريكية. ولم يكن أمامى من خيار سوي أن أقود هذه القضية أو أن أدعها تقودنى. وسواء أكرهتها أو أحببتها فلم أملك ترف تجاهلها كلية.

وهكذا وبينما ركزت الدبلوماسية الأمريكية علي علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتى خلال عام١٩٨٩م سعينا إلي إدارة هذه القضية بانتهاج ما يمكن وصفه بسياسة نشطة باعتدال فى الشرق الأوسط. ولانتفاء أى سبب خاص يدعونى إلي الاعتقاد بأن جهودنا ستقود إلي وجهة محددة، قررت عدم انتهاج سياسة الدبلوماسية المكوكية، وأجلت القيام بأى زيارة للمنطقة حتي تكون الظروف أكثر مواءمة. ومع ذلك وخلال الفترة ما بين شباط وآذارمارس١٩٩٠ حاولنا الترويج لإجراء حوار بين إسرائيل والفلسطينيين والحصول علي اقتراح إسرائيلى ولو متواضع بإجراءانتخابات فى الأراضى المحتلة. وبينما أحرزنا بعض النجاح مع الفلسطينيين تبددت جهودنا نتيجة لعزوف رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق شامير عن دعم مبادرته الخاصة، وما لبثت أن انهارت هذه الجهود برمتها إثر رفض شامير قبول خطة وسط كنا متوصل إليها مع وفد فلسطينى من الأراضى المحتلة بإجراء مباحثات سلام. وأصابتنى هذه التجربة بالتشاؤم من مستنقع الشرق الأوسط وتكدرت فى حينه لعدم الانقياد لغرائزى الأصلية بالابتعاد عنه. وفى ذلك الحين أيضاً تعلمت عدداً من الدروس القيمة سوف تساعدنى فى وضع استراتيجيتى بشأن الجهود المستقبلية تجاه عملية السلام فى الشرق الأوسط.

علي طريق البحث عن بداية

فى البداية كان الرأى التقليدى الذى يعتنقه خبراء الشرق الأوسط بالإجماع أن احتمالات تحقيق انفراجة جوهرية هى احتمالات قاتمة فى أحسن الأحوال. فالسلطة فى

إسرائيل تمسك بها حكومة وحدة وطنية برئاسة رئيس وزراء متشدد يفضل وفقاً لتوجهاته الاحتفاظ بمعظم الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب عام ١٩٦٧ . كانت إسرائيل ومصر قد توصلتا إلي السلام لكن أياً من دول المواجهة العربية الأخري لم تكن معنية علي مايبدو بالبحث عن أسس مشتركة . وظلت منظمة التحرير الفلسطينية متمسكة بهدف تدمير إسرائيل، أما الرئيس السوري حافظ الأسد فقد تعهد بالتوصل إلي التوازن الاستراتيجي مع «العدو الصهيوني» وواصل العرب مطالبتهم بعقد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط تحت رعاية الأمم المتحدة وهي فكرة مرفوضة تماماً من جانب حكومة الوحدة الوطنية التي يرأسها شامير ومن الجانب الأكثر براجماتية في حزب العمل. وأوضحت كافة الدلائل أن أي استخدام مكثف للدبلوماسية سيضيع هباءً.

ووصفت مذكرة أُعِدت لعرضها علي اجتماع لمجلس الأمن القومي في أوائل عام١٩٨٩ الواقع كالآتي «إن الولايات المتحدة في موقف يمكنها من ممارسة القيادة في المنطقة . وهذا لا يعني مع ذلك إن الوقت ملائم لطرح مبادرة دبلوماسية رئيسية جديدة . فأي خطة جديدة ستؤدي إلي تصلب كافة الأطراف وتستقطب المعارضة حولها. وسوف يركز زعماء المنطقة علي تفاصيل الخطة بدلاً من التركيز علي تهيئة الظروف الحقيقية اللازمة لإحراز تقدم تجاه إجراء مفاوضات»

ومع ذلك فإن دينيس روس كان يعتقد أن الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي – والتي كانت في عامها الثاني حينئذ– قد خلقت ديناميكية جديدة محتملة يتعين دراستها بحذر شديد . وشاركه في رأيه كل من بيل بيرنز ودان كروتزر وآرون ميلر من إدارة التخطيط السياسي وجون كيلي مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدني. وكانت حجتهم أن الانتفاضة تمثل مصدر القلق المتزايد داخل صفوف حكومة الوحدة الوطنية التي يرأسها شامير . ومع احتدام الانتفاضة الذي استتبع تصاعد حدة القمع في شكل الاعتقال الإداري والإبعاد بدأ الاستقطاب في الجدل الداخلي في إسرائيل. وطالب حزب العمل الإسرائيلي بالتوصل إلي حل وسط مع الفلسطينيين وهدد بفض الائتلاف الحاكم مالم يخفف شامير من أحلامه بإقامة «إسرائيل الكبري» المأهولة بعشرات من المستوطنات الجديدة في الأراضي. علاوة علي ذلك أبلغت القوات المسلحة الإسرائيلية، وإسحاق رابين وزير الدفاع البراجماتي،

شامير بعدم توفر حل عسكري: فوقف الانتفاضة لا يحققه إلا حل سياسي. وكانت كل تلك العناصر تشكل ضغطاً علي شامير لانتهاج توجه أكثر مرونة تجاه الأراضي.

وعلي أرض الواقع أظهرت الانتفاضة وجود اختلاف بين منظمة التحرير في تونس وبين الفلسطينين المقيمين في الأراضي. فالانتفاضة حركة شعبية نابعة من الداخل لم يُخطَّطْ لها في الخارج بل من المدن وقري الضفة الغربية وقطاع غزة. وأثار هذا الواقع المجرد احتمال أن يكون فلسطينيو الأراضي علي استعداد في المدي البعيد للتفاوض لتقرير مصيرهم دون إنتظار لتحرك منظمة التحرير الفلسطينية. فإذا قرر فلسطينيو الداخل فعل شيء ما لأنفسهم فسوف تتقلص سلطة منظمة التحرير الفلسطينية. وفي الوقت الذي لن يتفاوض فيه الإسرائيليون مطلقاً مع منظمة التحرير الفلسطينية فربما يتم إغرائهم للجلوس مع الفلسطينيين بدون مسئولي منظمة التحرير الفلسطينية. وينبغي أن تركز الاستراتيجية الأمريكية علي التوسط لإجراء حوار فلسطيني إسرائيلي، ولحسن الحظ وبفضل جهود سلفي جورج شولتز ووسطاء سويدين تهيأت لنا وسيلة متواضعة في هذا الصدد.

ومنذ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨م بدأ روبرت بيليترو سفير الولايات المتحدة لدي تونس في إجراء حوار مع مسئولين أدني مستوي في منظمة التحرير الفلسطينية. واستبعد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية تماماً من هذا الحوار. فقد كانت سمعته كإرهابي متأصلة لدي الرأي العام لدرجة لم تستطع أي إدارة أمريكية معها علي الإقدام علي التعامل معه صراحة. ومع ذلك فلن يكون هناك حل متاح دون موافقته الخاصة علي إجراء حوار منفصل بين إسرائيل وفلسطينيين من الداخل. وفوضتني السياسة التي وافق عليها الرئيس في أوائل عام ١٩٨٩ بالبحث عن أساس مشترك يمكن أن يقبل به الفلسطينيون والإسرائيليون. وسنواصل الحوار الأمريكي مع منظمة التحرير الفلسطينية علي المستوي الأدني، وسوف يتكفل المصريون بالمباحثات المباشرة مع عرفات. وكان هدفنا الأساسي التكتيكي هو إقناعه بقبول إجراء مفاوضات بين إسرائيل وفلسطيني الداخل. وفي الواقع كنا نطلب من عرفات تجريد نفسه من صلاحياته إستناداً إلي المواءمة السياسية: فلن تقبل أي حكومة يرأسها شامير مطلقاً التفاوض مع منظمة التحرير. ولجعل هذا الدواء مستساغاً لعرفات كنا في حاجة لمجموعة أفكار إسرائيلية جديرة بالثقة.

وخلال الفترة الانتقالية بين إدارتي ريجان وبوش قدم مسئولون إسرائيليون بعض الإشارات الغامضة عن خطة جديدة للسلام، وتم إبلاغي بأن الإسرائيليين يدرسون المبادرة بهجوم بخطة سلام وقائية لأنهم غير واثقين كما أنهم متشككون بعض الشيء من نوايا الرئيس ونواياي أيضاً. فهم يعرفون أننا ألححنا علي الرئيس ريجان ليطلب من مناحم بيجن إنهاء غزوه الدامي للبنان صيف عام ١٩٨٢. وهم يعرفون أيضاً أنني قدت وأنا رئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض الجهود التشريعية الاستراتيجية لتأييد قرار الرئيس ريجان للسماح ببيع طائرات أواكس للعربية السعودية عام١٩٨١. ومع ذلك كنت أشعر بأن مخاوف إسرائيل مني ومن الرئيس تستمد جذورها أساساً من أسطورة علاقاتنا المستنتجة بالعرب نتيجة نشأتنا في تكساس. وفي الحقيقة كان كلانا يعتبر إسرائيل حليفاً قوياً وشريكاً استراتيجياً نلتزم بالحفاظ علي أمنه ووجوده. لكن من الحقيقي أيضاً أن كلينا يعتقد أن السلام لا يمكن أن يحل مطلقاً في الشرق الأوسط مالم تبد إسرائيل استعدادها لقبول مبدأ الأرض مقابل السلام المنصوص عليه في قرار مجلس الأمن الدولي رقم٢٤٢ وهو الأساس الذي استندت إليه السياسة الأمريكية خلال كافة الإدارات السابقة. سواء أكانت ديمقراطية أم جمهورية.

❑ ❑ ❑

وفي ١٣ آذار مارس التقيت في مكتبي مع موشيه آرينز وزير الخارجية الإسرائيلي الذي جاء من إسرائيل للإعداد لزيارة شامير لواشنطن بعد ثلاثة أسابيع. وكان آرينز قد درس الهندسة في الولايات المتحدة، وقد سبق أن التقيته عندما كان سفيراً لإسرائيل لدي الولايات المتحدة. وتوقع التقرير الموجز المعروض أمامي أن آرينز يريد «تحديد الحد الأدني الذي يتعين علي إسرائيل عمله لمشاركتنا في صنع عملية السلام». وإلي جانب طمأنة آرينز بالتزام أمريكا الصلب بأمن أسرائيل كان هدفي الأساسي هو نقل رسالة له بأننا نتوقع أن يصل شامير إلي واشنطن حاملاً معه علي الأقل إعلاناً عاماً للنوايا تجاه الأراضي.

وأردت أن يعرف آرينز «أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تكون شريكاً لإسرائيل في صنع السلام، وقلت له: «لكن لا يمكنكم أن تتركونا مكشوفين. لا يمكنكم أن تتركونا عراة.

عليكم أن تعطونا شيئاً يمكن العمل معه، كان آرينز عضواً متشدداً بالليكود رغم أنه لم يكن متصلباً مثل شامير. ولم يكن كرئيسه معنياً بشكل خاص ببذل محاولات جادة على طريق السلام. لكنني أحببته واعتقدت بأنه سيتعامل معي بصراحة.

ولتعزيز الرسالة التي نقلتها لآرينز كتبت إلى شامير في ٢٤آذار مارس بتكليف من الرئيس أبلغته بأنه يتعين عليه وعلى الفلسطينيين التوصل إلى طريقة لتبادل الحديث بها. وأضفت قائلاً: «لقد أبلغكم شعب إسرائيل بتوخي الحذر والصرامة وتلك نصائح مخلصة. لكن أعتقد أيضاً أنهم وجهوا رسالة إلى جيرانكم بأن السلام ممكن شرط أن يوضح الفلسطينيون أنهم شركاء يتحملون المسئولية. فهذا هو معيار الالتزام الذي يمكنكم أن تقرروه كرجل دولة من خلال الدبلوماسية. وهذا شيء يمكن للولايات المتحدة وإسرائيل تحقيقه باعتبارهما شريكان استراتيجيان».

نقاط شامير الأربع الغامضة

سبق أن التقيت بإسحاق شامير ذات مرة لقاءً عابراً في السنوات الأولى لحكم ريجان، كان شامير وزيراً للخارجية في حكومة إسرائيل المتشددة برئاسة مناحم بيجن والتي ضمت آريل شارون وزيراً للدفاع. وكنت مقتنعاً بأنه من الصعب الحديث معه. بل ومن الشاق التأثير فيه. وبرغم هذا أردت بذل محاولة لإقامة جسر من الثقة الشخصية، وهكذا فقد بدأ أول اجتماع بيننا في ٥ نيسان إبريل ١٩٨٩ باقتراح نوع من الأساس المشترك.

وقلت: «السيد رئيس الوزراء: يعرف كلانا أن من عادة وسائل الإعلام تلقف الأخبار لتبادر بإذاعتها، وأنك توصف لي بأنك رجل متمسك بالمبادئ لا يستطيع أن يكون رجلاً عملياً. والمرجح أنني أوصف لك بأنني رجل غير معني بالمبادئ كلية لا يشغلني سوى أن أكون رجلاً عملياً. دعني أقل لك، إنني مثلك رجل أكثر ما يعنيه المبادئ لكن أعتقد أيضاً أنه يجب عليك أن تكون عملياً لو أردت تحقيق مبادئك. بل إنني أعتقد أنكم شخصية أكثر عملية عما هو شائع عنكم. وأرى أنني قد أستطيع أنا وأنت أن نفاجئ الناس بالعمل سوياً. وضحك

شامير. وقال: «السيد وزير الخارجية: حسناً ربما كان الأمر كذلك. إنني أكثر واقعية عما يعتقد الناس» وقلت لشامير: «إنني أعرف أنك جئت تحمل بعض الأفكار. ونحن نريد معرفة ما تحملون لنروج له لدي العرب. لكن عليكم أن تقدموا لنا شيئاً ما». ورد شامير: «إنني أريد أن أقدم لكم شيئاً، لكنني لا أريد أن أعطيكم شيئاً ينتقص منا، ولا أريد تقديم أي شيء لمنظمة التحرير الفلسطينية». ورددت بأن الطريق الوحيد لإحراز تقدم هو طرح خطة يمكن للفلسطيني الداخل الثقة بها. وقلت «إذا أفرطت في تكبيل القضية. فسوف تضع منظمة التحرير الفلسطينية في موقف يتيح لها عرقلتها في وقت يوجد فيه زخم مؤكد (داخل الأراضي) للتحرك قدماً».

ويسعني القول أن منطقي أغري شامير. وفي الوقت نفسه كان من الصعب عليه قبوله. ولمست تناقضاً صارخاً لدي الرجل. فقد بدا موزعاً بين الرغبة في عمل شيء ما والفزع حتي الموت من مغبة الإقدام علي عمله. وعقب لقائه مع الرئيس كشف شامير عن خطة النقاط الأربع، وأهمها إجراء انتخابات في الأراضي لاختيار ممثلين لإجراء مباحثات سلام مع إسرائيل. كانت الإدارة قد أصبحت إلي موافقتها علي الخطة قبل وصول شامير في الأحاديث الخاصة علي مستوي العاملين. لكننا نعرف أنها خطة ضعيفة سيكون من الصعب إقناع العرب بها. فالخطة تخلو من أي التزام حقيقي بإجراء مباحثات لتقرير الوضع النهائي، ولا تتضمن سوي تعميمات حول كيفية إجراء الانتخابات. فلن تترك الخطة أي انطباع لدي العرب. فخلال زيارته لواشنطن في اليوم السابق قال حسني مبارك إنه يتعين علي إسرائيل أن تتباحث مع منظمة التحرير الفلسطينية وليس مع الفلسطينيين. وفي الحقيقة فإن هناك علي الأقل خطة إسرائيلية. وبشيء من التهذيب البارع والحنكة الدبلوماسية بات لدينا الآن شئ يمكننا به مجابهة الفلسطينيين وأصدقائهم المصريين والأردنيين لكي يستجيبوا له بقدر مماثل من المرونة. لم نكن غارقين في أية أوهام. لكننا كنا علي استعداد وفي لهفة للمحاولة.

❑ ❑ ❑

وعلي مدي الأعوام الثلاثة التالية خضت صراعات مريرة مع شامير، ولاسيما حول القضية المتواصلة المتعلقة بالمستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. لكنني أعتقد أن هذا

اللقاء الأول أحرز نجاحاً رمزياً. وكما ذكرت في مذكرة للرئيس «أعتقد أننا أقمنا علاقة ثقة وهو أمر ضروري إذا أردنا أن نهيئ أية فرصة لخلخلة شامير بمرور الوقت»

إنها مجرد بداية، فشامير قد منحنا شيئاً لنُسَوِّقَهُ وقال إنه متيقن من أن حالة الأمر الواقع غير مقبولة. لكن هناك طريقاً طويلاً يتعين قطعه. وعقب اجتماعه مع شامير أكد الرئيس بوش مجدداً معارضته أي ضم إسرائيلي من جانب واحد، أو احتلال لكامل الضفة الغربية وقطاع غزة، وبادر شامير بالرد بأنه يتعين على إسرائيل ألا تتخلى عن تلك الأراضي مطلقاً.

وفي رسالة «إلى الوزير ميشاه في ٢٤نيسان إبريل أبلغت آرينز بأن اقتراح شامير بإجراء الانتخابات يشكل «خطوة إيجابية». كما أبلغته أيضاً بأنه يتعين البحث عن «طريقة خلاقة» لمعالجة القضية بالسماح لفلسطينيين لا يقيمون في الأراضي بالمشاركة في العملية. وكنت شديد الوضوح حول نقطة أخرى مثار خلاف بين حكومتينا وكتبت له «أعتقد أنه يتعين إيجاد طريقة للسماح لسكان القدس الشرقية بالمشاركة في (الانتخابات)». وكان من الواضح لي أن قضية التمثيل ستكون أصعب القضايا التي سيتعين معالجتها، وحتي في هذه المرحلة المبكرة أردت التأكيد علي ضرورة أن إبداء إسرائيل قدراً من الإبداع في هذه النقطة يعد شرطاً جوهرياً لأي تحرك».

داخل عرين الأسد مع إيباك

في الرابع عشر من آيار مايو أقر مجلس الوزراء الإسرائيلي رسمياً خطة النقاط الأربع لشامير. وعلي الفور تقريباً بدأت الحكومة تتراجع عما طرحته بنفسها. ففي خطاب ألقاه أمام الكنيست بعد يومين فقط أعلن شامير انتهاج خط متشدد مع فلسطينيي الداخل. وبعد أن حذر رابين من أن الفلسطينيين قد يُحرمون من «ميزة» العمل في إسرائيل إذا رفضوا خطة السلام، أعيد آلاف العمال العرب إلى منازلهم في غزة لفترة مؤقتة تذكرة لهم بوضعهم كخاضعين للاحتلال. وأثارت هذه التصرفات حنق المصريين والفلسطينيين وقوضت جهود الولايات المتحدة لإقناعهم بأن مبادرة شامير جديرة بالقبول.

وبالمصادفة كان من المقرر أن ألقي كلمة أمام المؤتمر السياسي السنوي للجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية «إيباك» في ٢٢ آيار مايو. وحثني العاملون معي علي أن أنتهز هذا التوقيت الثمين لإصلاح الضرر الذي أحدثته التطورات في العالم العربي وإعادة الزخم للعملية والتأكيد في الوقت نفسه مجدداً علي التزام الرئيس القوي بأمن إسرائيل.

وكنا نريد توجيه رسالة إلي العرب بأنه في الوقت الذي نؤيد الخطة الإسرائيلية بقوة فإننا نعتزم مواصلة عملية السلام كوسيط أمين. وقررنا التركيز علي إعداد قائمة بالتحديات السياسية الصعبة التي يتعين أن يجابهها الجانبان ويتغلبا عليها للتوصل إلي تسوية شاملة للصراع. وكنت أعرف تماماً أن المحضورسيكونون أكثر تحمساً لتوصياتي للعرب – مثل رفع المقاطعة المفروضة علي إسرائيل ونبذ الانتفاضة– عن أي اقتراحات أوجهها لحكومة شامير. لكنني كنت عازماً علي أن يكون الخطاب متوازناً. مدركاً تمام الإدارك أن التوازن في هذا السياق قد يفسر بأنه أبعد ما يكون عن الفضيلة. ولا يزال الخطاب يُذْكَرُ حتي اليوم أساساً بسبب احتوائه علي عبارة وحيدة حددت السياسة الأمريكية طويلة الأمد بصياغة مجردة من العاطفة: «لقد حان الوقت الآن أمام إسرائيل لتتخلي وللأبد عن فكرة – إسرائيل الكبري – غير الواقعية. أن تَـعْـدِلَ عن الضم «وتُوقِفَ النشاط الاستيطاني» وتسمح بإعادة فتح المدارس في الأراضي» والنظر إلي الفلسطينيين كجيران يستحقون التمتع بحقوق سياسية».

ورغم الصمت المطبق الذي ران علي الحضور «١٢٠٠» شخص خلال قراءتي لتلك الفقرة فقد اسْتُقْبِلَ الخطاب استقبالاً جيداً. وعقب انتهائي من إلقاء خطابي أمطرني كل أعضاء مجلس إدارة اللجنة تقريباً بالإشادة. وكان توم دويني المدير التنفيذي لأيباك أكثرهم حـمــاسـة في الإطراء. وقـال: «إن هذا خطاب عظيم. بل وربما كـان أعظم خطاب علي الإطلاق» ومع ذلك وسيراً علي أحد تقاليد واشنطن المتبدة سرعان ما بدأت (الوليمة) غذاها تنقل حفنة من القيادات الوسطي في أيباك بين الموائد تشكو من أن خطابي كان عنيفاً بدون مبرر. ووجد المنشقون المهيجون حليفاً جاهزاً في جون جرشكو من صحيفة واشنطن بوست الذي أبلغ عدة أصدقاء من بين الحضور أنه أعنف خطاب حول إسرائيل يسمعه خلال عقدين من تغطيته للقضية. وخلصت صحف الصباح إلي أن رسالتي كانت موجهة إلي إسرائيل في المقام الأول.

وفى غضون ثمان وأربعين ساعة كان رد فعل ديني أكثر حذراً فقد ثارت ثائرة الطائفة اليهودية الأمريكية، وندد شامير بتصريحاتي باعتبارها «عقيمة». وبعد أربعة أيام تلقيت رسالة من آرينز. قال فيها: «إنني واثق من أنكم لن تفاجأوا بأنني وجدت أن مضمون ولهجة خطابكم مخيبة للآمال إلي حد بعيد، ووجدت نفسي وقد اعترتني خيبة أمل مماثلة من رد آرينز. وخلال اجتماعنا برأته في عدد من المسائل إلي حد إغفال الإشارة شخصياً إلي القرار رقم ٢٤٢ بناءً علي طلبه في البيان المشترك الذي صدر عقب الاجتماع. وعلي النقيض فلم يعاملني بالمثل واختار خطأ الاعتقاد بأن الخطاب كان محاولة لكي أنأي بنفسي عن مبادرة السلام الإسرائيلية.

محاولة لتخفيض حمي المستوطنات

وخلال تلك الفترة عرقل شبح المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة باستمرار جهودنا لتوليد زخم جديد. فالحكومات الإسرائيلية المتعاقبة زادت النشاط الاستيطاني بإطراد في الضفة الغربية وقطاع غزة رغم القلق الإمريكي المتكرر. فقد أعلنت إدارة كارتر عدم شرعية تلك المستوطنات. وحتي إدارة ريجان كانت متفقة علي أنها تشكل «عقبة علي طريق السلام».

وفي أوائل عام ١٩٨٩م أجريت مناقشات غير رسمية بيني وبين الرئيس وسكوكروفت حول تشديد السياسة. واتفقنا جميعاً علي ضرورة طرح حجة قوية بعدم شرعية المستوطنات، لكننا كنا علي يقين أيضاً بإننا لن نجني شيئاً من دخول مواجهة مع حكومة شامير حول هذه القضية. وعلي النقيض فإنها ستخلق تعقيدات داخلية لنا مما سيزيد من صعوبة طرح أي مبادرة سلام. وهكذا فقد قررنا الاحتفاظ بصيغة ريجان. ولم يساورني أدنى شك بأن المستوطنات تشكل علي الأقل عقبة خطيرة علي طريق السلام. وفيما كنا نعرب عن عدم سعادتنا بشأن المستوطنات عند سؤالنا كنت أعتقد أنه من المهم أيضاً تهميش هذا الخلاف لخدمة الهدف الأكبر ببث الحياة في عملية السلام المحتضرة.

كان هذا اقتراحاً أكثر سهولة في مثاليته، وخاصة في ضوء اعتقاد الرئيس القوي بخطأ إقامة المستوطنات. ولسوء الحظ تعزز رأيه المبدئي تجاه المستوطنات من اعتقاده بأن شامير لم يكن صريحاً معه في هذا الصدد، وهو إحساس يحتمل أن يكون مرجعه أول لقاء بين الرئيس وشامير في ٦ نيسان إبريل ١٩٨٩ ففي هذا الاجتماع أبلغ الرئيس شامير بأن المستوطنات بالغة الأهمية بالنسبة له.

وفي البداية ألمح شامير إلي أن هذه قضية داخلية بحتة وليس للولايات المتحدة دخل بها. فقد قال شامير: «لديكم ما يشغلكم، ولدينا ما يشغلنا، فلا تدعو هذا يشغلكم». وفي ضوء حقيقة أن حجم مساهمة دافع الضرائب الأمريكي في المساعدة المالية لإسرائيل بلغ في ذلك الوقت أكثر من ألف دولار لكل مواطن إسرائيلي في العام فلم يكن بوش مستعداً لقبول هذا الرفض القاطع من جانب شامير. وعندما واصل الرئيس إظهار قلقه قال شامير في النهاية: «لاتقلق، لن تكون هناك مشكلة». وأبلغني الرئيس فيما بعد أن شامير ترك لديه انطباعاً قوياً بأنه سيتم وقف انتشار بناء المستوطنات.

وبعد أسبوعين أنشئت مستوطنات جديدة في الضفة الغربية. وبات من الواضح بسرعة أن شامير عازم علي توسيع المستوطنات بسرعة قياسية. سواء بضغط أو بإيعاز من شارون وزير الإسكان في حكومته. وخلال تلك الفترة، وبينما أنا منهمك في البحث عن مبادرات دبلوماسية بين الفلسطينيين والإسرائيليين مضي النشاط الاستيطاني علي قدم وساق. وبين الحين والآخر بدأت تُعْرَضُ علي الرئيس خرائط المستوطنات الإسرائيلية وعليها علامات باللون البنفسجي. ومع التزايد المطرد للمساحة المعلمة باللون البنفسجي في كل خريطة تعمق إحساس الرئيس بخيانة شامير له. وتكرر بشكل حاص عندما علم في الثاني من آذار مارس أن شامير أبلغ بيل بروان سفير أمريكا لدي إسرائيل بأن المستوطنات «لاتعتبر زلزالاً» بالنسبة للرئيس وفي مناسبات عدة أبدي كلانا اعتراضاته لشامير. وفي بعض الأحيان كان يسارع إلي تغيير الموضوع. وفي مناسبات أخري كان يعرب عن عدم موافقته سراً، أو يلقي المسئولية علي شارون. غير أنه لم يفعل شيئاً حيال القضية باستثناء سماحه بإقامة المزيد من المستوطنات. وأحياناً كان الإسرائيليون يبنون المستوطنات دون أن ينتقل إليها شخص واحد.

وفى ذلك الحين كان من الصعب عدم الاعتقاد بأن حكومة شامير تعرب ببساطة عن استخفافها بالمصالح الأمريكية. وشعر الرئيس بأن شامير لا يدانيه فى مستواه، ويبدو أن كل رفض جديد قد عمق التنافر الشخصى بينهما.

رد بضاعة شامير إليه

خلال صيف ١٩٨٩م واصلت الدبلوماسية الأمريكية مساعيها بوتيرة أكثر هدوءً. وكتبت بعض الرسائل وأجريت بعض المكالمات الهاتفية لتعزيز ماكنا نقوله على مختلف المستويات.

وحان وقت المصريين والفلسطينيين لإعداد خططهم للإعراب عن حسن نواياهم. وفى أوائل تموز يوليو اقترح مبارك خطة النقاط العشر محدداً شروطه لإجراء الانتخابات، وتضمنت الخطة أيضاً وقف بناء مستوطنات جديدة ومشاركة فلسطينيين من القدس الشرقية ومن الخارج فى العملية. وكان اقتراح مبارك يهدف إلى إعادة صياغة خطة شامير فى صورة يقبل بها المعتدلون العرب والإسرائيليون. لقد استُنْبِطتْ – فى الحقيقة – بمُدْخَلاتٍ خاصة مهمة من إسرائيليين وأعضاء فى منظمة التحرير الفلسطينية. وبينما لم يقبلها شامير إلى حد كبير كان للخطة فضيلة دبلوماسية تمثلت فى الإبقاء على العملية قيد الحياة.

ومع أوائل الخريف أصبحت مقتنعاً بأن الأساس بات مهيأ الآن لمزيد من التقدم، وأنه يتعين تكثيف المساعى الدبلوماسية الأمريكية. وكنت مقتنعاً بأن هناك طريقة لسد الفجوة بين خطة النقاط الأربع لشامير وخطة النقاط العشر لمبارك. وكان الجانبان على استعداد الآن لإجراء مزيد من المباحثات. وقررنا أن نقترح أن يجتمع وزيرا خارجية مصر وإسرائيل معى لاستطلاع سبل حل قضية التمثيل الفلسطينى. وفى ٢٨ أيلول سبتمبر اجتمعت فى نيويورك مع آرينز ووزير الخارجية المصرى عصمت عبد المجيد لوضع ما بات يعرف بعد ذلك بخطة النقاط الخمس لبيكر، وكان أهم بنودها عقد اجتماع فى القاهرة بين إسرائيليين وفلسطينيين

لبدء حوار مباشر في النهاية. واتفقنا علي أن مصر لن تكون بديلاً للفلسطينيين، لكن يمكنها أن تكون وسيطاً معهم. كما أن إسرائيل لن تحضر إلا بعد الموافقة علي قائمة تضم شخصيات فلسطينية مرضية غير أعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية. فضلاً عن ذلك فإن كل الأطراف ستقبل بخطة شامير كأساس للمفاوضات. لكن سيكون للفلسطينيين الحرية في إثارة أفكارهم الخاصة بالانتخابات وعملية التفاوض. وأخيراً يعاود وزيرا خارجية مصر وإسرائيل الاجتماع معي في واشنطن في غضون أسبوعين لتسهيل العملية.

وكانت خطة معقولة إلي أقصي حد أتاحت لإسرائيل بالفعل استخدام الفيتو علي تشكيل الوفد الفلسطيني. كما سمحت للفلسطينيين إثارة قضية الوضع النهائي للأراضي وهو ما كانت إسرائيل تعارضه تقليدياً. لأن أحد النتائج المحتملة قد يكون إعادة الاراضي. ومع ذلك كان آرينز وعبد المجيد يعتقدان أن هذا الحل الوسط سيحظي بالقبول في بلديهما.

وسرعان ما تسرب الاقتراح للصحافة، وفي ١٦ تشرين الأول أكتوبر رفضه شامير قائلاً في حديث صحفي: أنه لن يقبل بأي حل وسط مع الفلسطينيين حتي لو أدي ذلك إلي إنهيار حكومته واحتدام الخلاف مع الولايات المتحدة. ولم أكن سعيداً علي الإطلاق لتناقض تصريحاته تماماً مع التطمينات التي قدمها لي آرينز سراً. لكن أشد ما ضايقني هو أن شامير سيعلن تحفظاته علانية قبل أن يتصل بنا سراً. وتملكني اعتقاد بأن شامير يحاول وأد المبادرة الأمريكية في مهدها. وانتابت الرئيس نفس الدرجة من الضيق. وفي الصباح التالي اتصل بشامير الذي سعي علي الفور إلي الإفلات من ضيقنا بتوجيه الشكر للرئيس لمساعيه الحسنة ولإصراره وقال: «إننا ملتزمون بمبادرتنا السلمية نصاً وروحاً» ولم يكن مقنعاً علي أية حال.

وتحداه الرئيس قائلاً: «إن هناك إحساساً بأن إسرائيل تبتعد حتي عن موقفكم الخاص. إن خطة جيم بيكر الخماسية تبدد قلقكم وتحمي إسرائيل. أنتم تعرفون مع من ستتباحثون وعما ستتباحثون. لقد استثمرنا الكثير في هذه المبادرة. إننا لا نحاول إجباركم علي التباحث مع منظمة التحرير. لكننا نريد ألا يحدث تأخير في الرد الحقيقي علينا حول تلك النقاط. فلو أعطيتمونا رداً إيجابياً فبوسع الولايات المتحدة وإسرائيل حينئذ التحرك معاً. وإذا لم تردوا سوف نفسر عدم الرد بأنكم لا تريدون التحرك قدماً.

والتزمت نبرة شامير جانب الدفاع بقدر كبير. وأكد: «إننا لا نتراجع عن مبادرتنا... لكننا لن نجتمع مع منظمة التحرير الفلسطينية. وسيسعدني أن يتصل آرينز بوزير الخارجية بيكر لتوضيح هذه المسألة».

ورد الرئيس: «حسناً. لأنني انتهيت لتوي من قراءة برقية تنقل عنكم الحديث عن مواجهة مع الولايات المتحدة. فإذا كنت تريد المواجهة فأهلاً بها». ولم يرد شامير على جورج بوش الذي أعرف أنه كان مسيطراً على أعصابه رغم ضيقه البالغ. وما لبث الرئيس أن حاول حمل شامير على إبداء ما هو مستعد لعمله لاستمرار تحريك العملية. وتساءل: «ماهي خطتكم لتطبيق مبادرتكم؟» ومرة ثانية لم يتلق إجابة. وبعد أن وضع سماعة الهاتف هززنا رأسينا من تصلب شامير. وبدا مدى صواب وصف مبارك لشامير «بالدكتور لا» الذي لا يلتزم بأي شيء مطلقاً.

العملية تتحطم وتحترق

وتواصل هذا المرض الكابوكي حتي عام ١٩٩٠م دون التوصل إلي نتائج ملموسة. وفي ١٤كانون الثاني يناير ١٩٩٠م كنا لانزال ننتظر كلمة من الإسرائيليين حول خطة النقاط الخمس الأمريكية حين أبلغ شامير الكنيست بأن التدفق المتوقع للمهاجرين من اليهود السوفيت سيجعل من المحتم إقامة «إسرائيل الكبرى». كان المعني الضمني لهذا البيان في غاية الوضوح: إن حكومة شامير ليست مصممة فحسب علي بناء المزيد من المستوطنات بل إن هدفها الاستراتيجي هو سياسة التوسع الرامية إلي تحويل مبدأ الأرض مقابل السلام لمجرد خيار أكاديمي. وكان ردنا العلني محسوباً، فقد وصفت مارجريت تاتويلر البيان بأنه «غير مفيد» وأكدت مجدداً معارضة الولايات المتحدة للاستيطان. ومع ذلك نشطنا في الدوائر الخاصة. وعندما اقترح زعيم الأقلية في مجلس الشيوخ بوب دول علي الفور استقطاع نسبة خمسة في المائة من المعونة الخارجية الأمريكية المخصصة لإسرائيل ومصر وتحويلها إلي الديمقراطيات الناشئة التزمنا بمعارضة الفكرة. وفي الواقع كنا سعداء بتوجيه دول رسالة إلي الإسرائيليين بأن التعاون مع الولايات المتحدة ينبغي أن يكون طريقاً ذا إتجاهين.

وبعد أربعة أيام عاد رابين إلي واشنطن حاملاً بعض الأفكار لكسر الجمود في مسألة تمثيل الفلسطينيين. وعملنا مع رابين على الكتمان لعدة أشهر، كتماناً بلغ إلي الحد الذي كنت أشير فيه والعاملون معي إليه في كافة محادثاتنا باسم «الرجل المدخن» للتمويه علي محادثاتنا «عبر القناة الخلفية» مع تشيني وزير الدفاع المدخن الشره.

وفيما يتعلق بقضية التمثيل الفلسطيني كان يعتقد أن شامير ربما يكون مستعداً لقبول «صاحب عنوانين» واحد علي الأقل – أي فلسطيني يقيم في الأراضي لكنه يحتفظ بسكن ثان في القدس الشرقية. وكان يعتقد أيضاً أن مشكلة فلسطينيي الشتات يمكن حلها أيضاً بالسماح بعودة أحد المرحلين ثم إشراكه في الوفد. واعتقدت أن هذه تسوية بارعة يمكن أن يدعي كل من الطرفين أنها تتفق مع مواقفه المبدئية.

وتطرق رابين مع شامير حول هذه الأفكار. وكالمعتاد كان لدي رئيس الوزراء تحفظاته. لكن رابين كان يعتقد أنه توصل إلي اتفاق من حيث المبدأ مع شامير. ومع ذلك وقبل محاولة الحصول علي موافقة شامير رسمياً أردت التأكد من أن هذه الأفكار ستكون مقبولة لدي العرب. وكلفت روس بمناقشة هذه الأفكار بصفة غير رسمية مع أسامة الباز مستشار مبارك* والذي تصادف وجوده في واشنطن وبعد دراسة استغرقت يومين رد أسامة بالقول ليست هناك مشكلة. ثم أجريت اتصالاً هاتفياً بشامير في ٢٣ كانون الثاني يناير. وقلت «لقد تباحثنا مع رابين. وعرض فكرتين حول كيفية التعامل مع المشكلتين اللتين تواجهاننا. هل لديك فكرة عنهما؟».

وأكد شامير «إنني معتاد علي تلك الأفكار». وحينذاك أثرنا هذه الأفكار رسمياً مع المصريين وسرعان ما حصلنا علي قبولهم رسمياً مع ضمانات بموافقة منظمة التحرير الفلسطينية.

وعندما اتصلت بشامير بهذه الأنباء في الثلاثين من كانون الثاني يناير كان أقل تحمساً. وقال بنبرة توحي بأن هذا موضوع يتوق بشدة إلي تجنبه: «اعتقد أن عليك التحادث مع ميشا حول هذا الأمر». واتصلت بآرينز وصدمت لدي سماعي بأن وزير الخارجية ليس

* أشار المؤلف إلي الدكتور أسامة الباز علي أنه مستشار الرئيس مبارك للأمن القومي. والمنصب الرسمي للدكتور الباز هو مدير مكتب الرئيس للشؤون السياسية.

لديه أدني فكرة. وقال: «إن هذه أخبار جديدة تماماً لا علم لي بها علي الإطلاق». وشعر آرينز بالضيق لاستبعاده من هذه المشاورات، خاصة عندما أبلغته بأن منافسه اللدود رابين علي علم تام بالحل الوسط، بل إنه في الحقيقة أحد مهندسيه. وقال: «لابد وأن اتحادث مع رئيس الوزراء». واقترحت عليه الحضور إلي واشنطن في أقرب فرصة ممكنة.

وخلال الأسابيع الثلاثة القادمة حاولنا ضبط إيقاع الاقتراح لإرضاء شامير والليكود. واتفقنا علي سبيل المثال علي استبعاد أي فلسطيني يحمل بطاقة هوية مقدسية حتي وإن كان يقيم حالياً في الأرض المحتلة. وأثناء اجتماع عقد في مكتبي في ٢٣ شباط فبراير وافق آرينز مؤقتاً علي الاقتراح المعدل، لكنه أجهض آمالي في الاتفاق علي تحديد موعد لعقد لقاء ثلاثي في واشنطن مع المصريين لاختيار الوفد الفلسطيني قائلاً إنه سيتشاور مع شامير وبيريز ورابين، وتعهد «بمعاودة الاتصال بي فور انتهاء تلك المشاورات».

وأبلغت آرينز بأنني أحتاج كحد أدني علي إجابة من شامير علي سؤال بسيط: فيما يتعلق بالمشاركين في الحوار الإسرائيلي الفلسطيني، هل ستكون حكومة إسرائيل علي استعداد لدراسة اختيار أي فلسطيني يقيم في الأراضي علي أساس مراجعة كل اسم علي حده اسماً، اسماً؟

وساورني القلق لعدم مبادرة آرينز الاتصال بي علي الفور، لكن مساعديّ قالوا إنه ليس هناك أسباب كبيرة تدعو للقلق، وأفادت أشد الروايات خصوصية والمتواترة من إسرائيل أنه تم مؤخراً إقناع شامير بالموافقة، وتلقي روس مكالمة هاتفية من مارتين انديك العضو البارز في الطائفة اليهودية الأمريكية «الذي عين لاحقاً في مجلس الأمن القومي ثم عينه الرئيس كلينتون سفيراً لدي إسرائيل» لتهنئة الإدارة علي مثابرتها. وقال: «لقد حصلتم عليها. لقد حدث. ووافق شامير» وشعرت بالبهجة، فجمود شامير لعدة أشهر كان محبطاً.

ومع انتظارنا اتصالاً رسمياً من القدس حدثت واقعتان تبين في النهاية أنهما وقعتا في غير الأوان، ففي الأول من آذار مارس أثناء إدلائي بشهادتي أمام لجنة الاعتمادات الفرعية بمجلس النواب قلت: إن الولايات المتحدة سوف تؤيد طلب تقديم ضمانات قروض بأربعمائة مليون دولار لبناء مساكن لإيواء المهاجرين اليهود السوفيت شرط أن توافق إسرائيل علي

وقف بناء مستوطنات جديدة في الأراضي. وترددت في الدوائر الخاصة أن شامير استشاط غضباً من بياني الذي أرتأي فيه مساعدة اقتصادية أمريكية مشروطة لإسرائيل.

وبعد يومين من إدلائي ببياني أمام الكونجرس وأثناء مؤتمر صحفي عقده الرئيس يوم سبت في بالم سبرينجز مع رئيس الوزراء الياباني توشيكو كايفو سئل الرئيس عن الأنباء القائلة بأن الأسرائيليين يعتزمون بناء مستوطنات جديدة في القدس الشرقية. رد الرئيس: «إن السياسة الخارجية للولايات المتحدة تشير إلي أننا نعتقد أنه ينبغي عدم إقامة مستوطنات جديدة في الضفة الغربية أو القدس الشرقية» كان الرد إعادة تأكيد مباشر ومحسوب للسياسة الأمريكية طويلة الأمد. لكن في فورة اللحظة أثيت ذكر القدس للمرة الأولي علناً أنه شيء مدمر. فقد هبت علي الفور عاصفة نارية داخل الطائفة اليهودية الأمريكية وبين المتشددين في إسرائيل.

وعلمت لاحقاً أن تصريحات الرئيس كان وراءها إلي حد بعيد جون سنونو رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض الذي دفع أصله اللبناني بالكثيرين للاعتقاد بأنه مناصر للعرب دون مواراة. فخلال الأسبوع الماضي عرض سنونو علي الرئيس خرائط توضح طبيعة التوسع النشط للمستوطنات الإسرائيلية لاسيما في القدس الشرقية.

وبعد يومين اتصلت بالرئيس هاتفيا لأبحث معه كيفية لملمة الأمور. وقلت في سرية: «إننا انتهينا بالكاد من التوصل لاتفاق في الشرق الأوسط.. لكنك افسدت الأمور للغاية بهذا التصريح حول المستوطنات لدرجة لا أستطيع معها إصلاحها». كانت مصطلحاتي هي نفسها التي استخدمها معي عشرات المرات من قبل ، شكل من أشكال المزاح الثقيل الذي تبادلناه في صداقتنا عبر عقود.

وفي الحقيقة لم أكن أعتقد أن الوضع غير قابل للإصلاح. فآرينز علي الأقل ملتزم بقوة بالحل الوسط. وإذا كان هناك من هو قادر علي إقناع شامير فإنني أعتقد أنه ميشا. وحتي إذا رفض شامير قبول الخطة فمن شبه المؤكد أن ينسحب حزب العمل من الحكومة اعتقادا منه بأنه يستطيع حشد التأييد لتشكيل حكومة جديدة. وهكذا كنا نعتقد أنه من شبه المؤكد أن تحظي الخطة بالموافقة. وفي الحقيقة كنا مخطئين فقد عززت تصريحاتي وتصريحات الرئيس من قبضة المحافظين بتحويل الاهتمام عن قضية السلام الأهم. أكثر من ذلك أنها

اعطت له عذرا مقبولا يتخفي وراءه يتمثل في غضبه لتعرضه للضغوط من جانب الولايات المتحدة. وعندما أجري شامير اتصالات في حكومته حول قبول صيغة «صاحب عنوانين» انضمت أغلبية كبيرة من وزراء الليكود الي نظرائهم من حزب العمل لتأييد الخطة الأمريكية. غير أن شامير صوت ضدها وأعفي بيريز من منصبه كوزير للمالية. واضطر حزب العمل إلي طرح اقتراع بحجب الثقة عن الحكومة في الكنيست، وفي ١٥ آذار مارس خسرت الحكومة الاقتراع بأغلبية ٦٠صوتاً مقابل ٥٥صوتاً.

وأحسست بالهزيمة والغدر. فمنذ البداية حاولت تبرئة ساحة شامير. وكنت أعرف أنه شخصية متناقضة. لكنني أعتقد أنه يرغب علي الأقل في تحريك العملية. واتضح لي الآن أن معتقداتي تجاهه كانت خاطئة فترك الحكومة تنهار حول قضية هامشية للسماح بإدراج فلسطيني واحد في الوفد يكون له سكن ثانٍ في القدس، أوحي لي أن شامير لابد وأنه غير جاد تجاه السلام. وتمثلت نقطة الضوء الوحيدة البادية في احتمال تولي حكومة جديدة أكثر اعتدالاً للسلطة الآن يمكنها الالتزام بجهود تحريك عملية السلام. (وكما تبين لم يكن الحال كذلك).

وأمضيت قرابة العام في إنعاش خطة شامير الفاترة وتنقيحها لتكون مقبولة لدي الفلسطينيين. وبالتشاور مع إسرائيل حول كل خطوة علي الطريق مارسنا ضغوطاً علي العرب بقبول صيغة تجرد منظمة التحرير من ولايتها بالفعل وتمنح إسرائيل فيتو بحكم الأمر الواقع علي تشكيل الوفد الفلسطيني. وتوصلنا إلي صيغة كان بودنا القول أنها تلبي الاحتياجات السياسية للفلسطينيين دون انتهاك للمبادئ الإسرائيلية. وفي النهاية لم يكن شامير راغباً في تبني خطته الخاصة. واسترجعت بمرارة تحذير هنري كيسنجر لي أثناء الفترة الانتقالية: «إن الإسرائيليين بارعون في استدراج المرء إلي مفاوضات شكلية وما يلبثون عند كل منحني اتهامك بخيانتهم». كان كيسنجر علي صواب. كان عليّ أن أصغي إلي نصيحته واتبع بصيرتي.

وبعد أسبوع نقل عن بنيامين نتانياهو نائب وزير الخارجية الإسرائيلي قوله: «من الغريب أن تبني قوة عظمي مثل الولايات المتحدة المفترض أنها تجسد العدل السياسي والأمانة الدولية سياستها علي أساس من التشويه والكذب» (أؤكد التشوية والكذب) ولم تكن

لعده مقبولة من دبلوماسي كبير من دولة صديقة. وقررت علي الفور منعه من دخول وزارة الخارجية الأمريكية. وكتب لي بعد ذلك يدعي أنه أسيء فهمه، ولم أره بقية فترة ولايتي في الخارجية الأمريكية، علي الرغم من إلغائي قرار منعه من دخول مبني الخارجية*.

وبعد أسبوعين من انهيار الحكومة الإسرائيلية هدد صدام حسين «بإحراق نصف إسرائيل» لو تعرضت العراق للهجوم. وفجأة ظهر إحساس بأن الرأي العام الذي يحلو للعرب تسميته «بالشارع» ينصرف عن المصالحة باتجاه وحشية صدام. وفي الوقت نفسه تواترت تقارير عن أن المصريين يفقدون السيطرة علي منظمة التحرير الفلسطينية. وبدا أن مركز الثقل في العالم العربي بدأ ينتقل من القاهرة إلي بغداد. وربما سهل ذلك ملاحظة تهرب الحكومة الإسرائيلية ضمناً من خطتها للسلام. وفي الثلاثين من آيار مايو اعترضت البحرية الإسرائيلية زورقين يحملان فلسطينيين مدججين بالسلاح يتجهان نحو تل أبيب. وحالت المعركة دون وقوع هجوم إرهابي ضخم ضد المدنيين الإسرائيليين، وأعلنت جبهة تحرير فلسطين برئاسة أبو العباس سيء السمعة مسئوليتها عن الهجوم الفاشل. وبغداد مقر هذه الجبهة، وهي إحدي فصائل منظمة التحرير الفلسطينية وطلبت الحكومة الانتقالية التي يرأسها شامير من الولايات المتحدة وقف مباحثاتها مع منظمة التحرير الفلسطينية. ونفي عرفات مسئولية منظمة التحرير عن الهجوم غير أنه رفض إدانته.

ورغم التدهور المطرد في علاقتنا الثنائية مع إسرائيل شعرنا جميعاً في الحكومة بالغضب من الحادث، ونقمنا علي رد فعل عرفات المتساهل. وإدراكاً منا علي مضض أن الحوار بين الولايات المتحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية قد أصبح الآن يمثل كل ما تبقي من عملية السلام المتهاوية فلم أكن أنا أو الرئيس راغبين في فصمه ولكن عندما طال صمت عرفات لم يكن أمامنا من خيار آخر.

وبدد عرفات أي فرصة لتحرير مصداقيته حتي ولو ذرة واحدة من سلطاته المطوية برفضه إدانة الهجوم الإرهابي. ومن وجهة النظر السياسية لم تعد منظمة التحرير الفلسطينية شريكاً يعتمد عليه. وبعد ظهر التاسع عشر من حزيران يونيو – أي اليوم السابق علي إعلان

* تحسنت علاقتنا فيما بعد فأثناء زيارتي لإسرائيل عام ١٩٩٤ كمواطن عادي عقدت اجتماعاً ودياً للغاية مع نتانياهو .

الرئيس علانية تعليق الحوار كنت أعكف علي مراجعة البرقية المقرر إرسالها إلي السفير بيلليترو في تونس. وشعرت بالهزيمة من الإحباط الذي غمرني لأكثر من عام. وراقبني آرون ميلر في ذهول وأنا أطوح بالبرقية في الهواء. وقلت: «آرون أريدك أن تعرف شيئاً لو قدر لي أن تكون لي حياة أخرى لاخترت أن أصبح خبيراً في شؤون الشرق الأوسط مثلك لأن هذا يضمن وظيفة دائمة». وهاهي محاولتنا الوليدة للتوصل إلي السلام في الشرق الأوسط تؤول لما آلت إليه معظم المحاولات السابقة، وخربتها يد الأعداء الألداء القدامي العاجزين عن الإقدام علي مخاطر السلام.

عفواً النمرة غلط

في الحادي عشر من حزيران يونيو صوت الكنيست لصالح حكومة إسرائيلية جديدة بزعامة الليكود مع احتفاظ شامير برئاسة الوزارة. ومع خروج بيريز ورابين من التشكيل الوزاري الجديد كنت موقناً أنه ليست هناك أدنى فرصة لإحياء عملية السلام. (وفيما اعتبرناه لطمة محسوبة في الولايات المتحدة، واصلت حكومة شامير الانتقالية بناء المستوطنات خلال الفترة الانتقالية) . ونص اتفاق الحكومة الائتلافية الجديدة علي رفض إسرائيل التفاوض حتي بصورة غير مباشرة مع كل من يرتبط بمنظمة التحرير الفلسطينية. وحظرت مشاركة أي مقدسي شرقي في المفاوضات.

وتأكدت مخاوفي بعد يومين. ففي حديث متشدد مع صحيفة جيروزاليم بوست حدد شامير شروطاً مسبقة أشد تقييداً لإجراء مباحثات السلام. وقال: إن إسرائيل لن تتفاوض مع أي فلسطيني لا يقبل بآرائها عن الحكم الذاتي. وصرح ديفيد ليفي وزير الخارجية الإسرائيلي للصحفيين بأن خطة النقاط الخمس الأمريكية قد «شوهت» خطة شامير الرباعية وينبغي إلغاؤها. وزاد الطين بلة قيام موشا آرينز وزير الدفاع في الحكومة الانتقالية بزيارة اثنتين من المستوطنات في الضفة الغربية في رفض رمزي للدبلوماسية الأمريكية.

كانت كل تلك التطورات حاضرة في ذهني بإلحاح فيما بعد في اليوم الذي أدليت فيه بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب. فقد كظمت غيظي بالكاد من شامير ورفاقه، ولم أكن في الحقيقة راغباً في ذلك. وسمعت الكثير عندما أشاد عضو الكونجرس ميل ليفين عن كاليفورنيا بجهودي. لكنه ما لبث أن ألمح إليَّ أن العملية خُرِبَتْ بسبب تصريح الرئيس في بالم سبرينجز حول المستوطنات. وقلت: ما لم تتخل كل الأطراف عن تصلبها فلن يجري أي حوار ولن يتحقق أي سلام، ولن تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية تحقيقه... فالأمر يحتاج حقيقة إلي قدر من الجهد الإيجابي بحسن نية من جانب أصدقائنا في إسرائيل.

وأبلغت ليفين: «إننا لم نحصل عليه ولا يمكننا أن نحصل عليه بسرعة... ويتعين عليَّ إبلاغك أنه لابد وأن يعرف الجميع هناك أن رقم الهاتف هو (1-202-456-1414) فاتصلوا بنا عندما تكونوا جادين تجاه السلام». (وقع اختياري علي رقم بدالة البيت الأبيض الذي وعته ذاكرتي بعد أربع سنوات. فلم أعرف مطلقاً رقم هاتف الخارجية).

كانت لغة «اتصل بنا عندما لا نريد الاتصال بكم» مصدر إلهام لتوم فريدمان المراسل الدبلوماسي لصحيفة نيويورك تايمز الذي نال بتغطيته وتحليله المتعمق للشرق الأوسط جائزة بوليتزر. وبين الحين والآخر طلبت من فريدمان أن يعرض عليَّ أفكاره علي ألا يدير جهاز التسجيل أثناء حوارنا. وفي واحدة من تلك الجلسات أشرت إلي عدم جدوي مساعي السلام إذا لم يكن لدي الأطراف المعنية اهتمام حقيقي به. وفي اعتقاده أن أفضل طريق لإثارة هذا الاهتمام هو ترك الأطراف تعرف أننا لن نقدم المساعدة ما لم يطلبوها منا، وكانت فكرة فعل ذلك علناً من بنات أفكاري. فقبل بضعة أسابيع طرحت الفكرة علي دينيس روس لكنه رفضها. وقد خلصت حينذاك إلي أنه علي صواب: فمثل هذا النهج الإحراقي لن يفيد في تخفيف التوتر مع شامير. ومع استمرار إسرائيل في إبداء عدم جديتها حيال السلام توصلت مع هذا إلي أن الوقت قد حان لتذكرة الجميع بمكمن المشكلة علي وجه الدقة.

وفي الصباح التالي ترك لي صديقي الديمقراطي القديم بوب شتراوس وهو من أشد أنصار إسرائيل رسالة لي مع كارون جاكسون مساعدتي التنفيذية. وقال إن هدف تصريحاتي صحيح. وقال في رسالته: «ها أنت أخيراً قد بررت حملي لك علي ظهري كل

تلك السنوات ومساهمتي في ترقيتك لشغل هذا الموقع في السلطة. ويظهر أن الجبان سوف يقاتل لو أنك ضيقت عليه الخناق». كانت إشادة بالغة ومصدر ارتياح كبير لي أن أسمع أن واحداً من أفضل أصدقاء إسرائيل في هذا البلد قد فعل الشيء الصحيح وسرعان ما أظهرت استطلاعات الرأي في وقت لاحق أن أغلبية الشعب الأمريكي تؤيد آرائي أيضاً.

وانهالت المكالمات الهاتفية علي البيت الأبيض لدرجة اضطررت معها إلي إرسال باقة ورد إلي موظفي سنترال البيت الأبيض الذين حاصرتهم تلك المكالمات. وفي نفس ذلك اليوم الرابع عشر من حزيران يونيو بعث الرئيس رسالة إلي شامير كانت مباشرة برغم لهجتها غير الحادة ومضمونها الخالي من المواجهة. وقال الرئيس في رسالته: إنه ما لم تبد إسرائيل مرونة حول قضية التمثيل الفلسطيني فسيكون من المستحيل البدء في جهود دبلوماسية جديرة بالثقة.

وجاء في رسالة الرئيس: «ما أود معرفته منكم هو ما إذا كنتم علي استعداد للمضي قدماً دون طرح شروط مسبقة جديدة علي أساس الإقرار - سراً إذا اقتضت الضرورة - بأنكم سوف تجتمعون مع وفد فلسطيني من الأراضي يضم بضعة أفراد يتوفر فيهم شرطا الإبعاد والعدوانية». إن غياب مثل هذا التعهد «سيضطرني أنا وجيمس بيكر إلي استنتاج أنه لم تعد أمامنا فرصة لتطبيق مبادرتكم». (وبعد مرور عدة أيام علم دينيس روس من إلياكيم «إيلي» روبنشتاين سكرتير مجلس الوزراء الإسرائيلي وأحد كبار مستشاري شامير «أن الحكومة الحالية لن تقبل هذين الأمرين». وماتت عملية السلام ضحية لعملية انتحار.

وفي ١٢ تموز يوليو التقيت في مكتبي بروبرت ماكسويل رجل المال والناشر البريطاني الشهير الذي يرتبط بعلاقات وثيقة مع إسرائيل، كان لقاءً قصيراً وافقت عليه في المقام الأول مجاملة لعضو مجلس الشيوخ السابق هوارد بيكر من تنيسي، وهو صديق قديم وزميل سياسي يرعى مصالح ماكسويل في الولايات المتحدة. ومع ذلك فقد أبلغني ماكسويل بشكل مفاجيء خلال حديثنا أن شامير طلب منه إبلاغي شخصياً برسالة خاصة. ونقل ماكسويل عن شامير قوله «رجاء أن تبلغ الوزير بيكر أنني جاد وأنني مستعد للعمل من أجل السلام».

وقلت لماكسويل إنني سعيد بهذه الأخبار وأن الأمل يراودني بأنه ستلوح في المستقبل فرصاً لسبر نوايا رئيس الوزراء. وبرغم هذا ساورتني الشكوك. أما وقد احترقت يداي من شامير مراراً فلم أكن في حالة تسمح لي بإختبار تأكيدات ماكسويل. فقبل جلسات الاستماع لإقرار تعييني قلت لأحد محاوريَّ: «إن السلام لا يمكن أن يفرضه أو يحققه أحد من الخارج بما في ذلك الولايات المتحدة». ومن الآن فصاعداً وطدت نفسي علي عدم ارتكاب خطأ تجاهل بصيرتي . وعلي أية حال سرعان ما توقفت مساعي. فبعد ثلاثة أسابيع من لقائي بماكسويل غزا العراق الكويت. وكان علي أي جهود جديدة للتفاوض علي الطريق الشاق نحو السلام في الشرق الأوسط الانتظار حتي اللحظة المناسبة. ولاحاجة القول إنني عاهدت نفسي في تلك اللحظة أنني لن أتعامل إلا مع رئيس جديد للوزراء ووزير آخر للخارجية في إسرائيل.

الفصل التاسع

روح جاكسون هول

غمرني إحساسٌ بعدم التصديق بأنني مع مثل هؤلاء الناس

إنه غير حقيقي

نورمان شابيرو

مقطع من جاكسون هول

ويوضح أعلى قيمة لإدوارد شيفرنادزة

حين التحقت كمحام شاب للعمل في مؤسسة أندروز أند كورث في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كنت متفجراً بالطاقة أكثر من التوجه. وهي حالة غير معهودة لمعظم الزملاء الذين يضعون أقدامهم علي طريق المحاماة حينذاك، ولأن العمل مع شركة استشارات قانونية كبري يقتضي التعرف بتوازن حذر، وتقلبت في التمرن علي مختلف أوجه العمل في الشركة ساعياً للوصول إلي مرتبة مناسبة بين ما يحظى أداؤه علي ما يرام (حتي أصبح شريكا) وما استمتع بأدائه ،حتي أعود إلي المنزل مرتاح البال في الليل. وبالنسبة لعدد كبير من الزملاء فإن المهارة والمصلحة لاتتشابك علي الإطلاق، ولذا فإنهم يتركون مزاولة المهنة إما محترقين أو مصابين بحالة من التضجر. ولحسن الحظ لم أكن منهم.

وفي البداية لم يحالفني الكثير من حسن الحظ. فقد بدأت مزاولة المهنة تتملكني رغبة في أن أكون محامي موضوعي أمام المحاكم ولا تسعفني الذاكرة لتحديد السبب الذي حدا بي إلي التمرن علي المحاماة، كل ما أعرفه هو أنني فعلت ذلك ،وربما لأن الثقافة السائدة في كلية الحقوق أثناء الدراسة كانت تروج لأن مؤهلات المحامي لا تكتمل سوي بالترافع أمام المحاكم. لكنها كانت خيبة أمل. فقد ذهبت إلي المحكمة كمحام مبتدئ للترافع في عدد من قضايا الأضرار الشخصية. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإدراك أن العلاقة بين الحقيقة وقضايا الأضرار الشخصية أوهى من خيوط العنكبوت في أفضل الأحوال. فليست هناك علي ما يبدو عقوبة حقيقية لطمس الحقيقة، ولا أتذكر أنني سمعت عن توجيه اتهامات بالكذب في اليمين ضد الشهود في قضايا مدنية. وبدا لي أن الناس غالباً ما تصعد إلي منصة الشهود وتدلي بالأكاذيب. أما وقد علمتني عائلتي أن أسمي وما يقترن به من استقامة وأمانة هو أثمن رصيد لي لذا فقد قررت بسرعة بالغة أن هذا ليس مجال التخصص الذي سوف استمتع به. وهكذا فقد تركت الترافع في القضايا المدنية وتخصصت في القانون التجاري العام، وأمضيت وقتي في إعداد مشروعات الوثائق والاتفاقات والعقود وبيانات تسجيل الأوراق المالية والعقارات والغاز والبترول. واتفاقيات اندماج الشركات. وربما يبدو هذا عملاً جافاً لكنني وجدت فيه عملاً شيقاً باهراً. ففي المقام الأول يقتضي هذا العمل إيلاء اهتمام مطلق بالتفاصيل، ولطالما نشأني والدي علي أن ،الإعداد المسبق يمنع ضعف الأداء. وحفرت هذه الكلمات الخمس أو أحرف (P) الخمسة بالإنجليزية كما باتت تعرف في رأسي في سن

صغيرة. وتيقنت تماماً أن الإعداد السليم والجيد والعمل الشاق قد يستغرقان شوطاً طويلاً. ولم تس مطلقاً «أحرف (P) الخمسة». ونادراً ما ساورني إحساس بعدم الثقة رغم أنني أعرف أن هناك من يفوقني. ودائماً ما شعرت بأنه يمكنني المنافسة بنجاح استناداً إلي العمل الشاق أو بأن أشق علي نفسي عن الآخرين. ومثل معظم الزملاء تخرجت من مدرسة إعداد مسودات الاتفاقيات إلي التفاوض عليها. وفي عالم المال والأعمال في تكساس في حقبة الستينيات كانت الشركات تتطلع إلي المحامين الذين يمكنهم مساعدتها في التنظيم والهيكلة، وغالباً دمج أعمالها بكفاءة وفعالية، وقد تشربت المهارات التفاوضية بالتعلم من الأكثر خبرة ثم من التجربة ذاتها.

ولو كان هناك مفتاح لنجاحي في التفاوض بخلاف الإعداد الجيد والعمل الشاق فإنه يتمثل في أنني أعترف منذ البواكير بأهمية فهم موقف الخصم. وأدركت أنه لو أمكن أن أضع نفسي مكان المحامي الآخر ومكان موكله أو موكلته وفهمت ووضعت يدي علي الزاوية التي ينظرون بها إلي القضايا، وأن أقدر العراقيل التي تواجههم فإن أمامي أفضل فرصة لمعالجة القضايا والتوصل إلي اتفاق.

وينطبق الشيء ذاته علي الدبلوماسية والسياسة. فالسياسة هي فن الممكن كما يقول الكثيرون. إنني أقول لأولئك الذين يقولون إن هذه الرؤية مفرطة في البراجماتية لدرجة الحكم عليها بأنها غير مجدية: إن البراجماتية التي تحكمها المبادئ هي التي تصادف النجاح. وطالما قال ريجان: «إنه من الأفضل أن تحقق ثمانين في المائة من هدفك علي أن تقف جامداً أو أن تصمد إلي الحرف ولا تحصل علي شيء مطلقاً».

ويمعني ما يمكن اعتبار السياسة الدولية عملية تفاوض مستمرة. وتعلمت أن أي مفاوضات معقدة ما هي في الواقع إلا سلسلة مشاكل منفصلة تحتاج إلي حلول. فطريقة العمل مع الطرف الآخر في التوصل إلي حل المشكلة الأولي ينطوي علي آثار تتجاوز كثيراً تلك القضية الواحدة. وفي الواقع فإن حلها يمكن أن يرسي ليس فقط السوابق المتعلقة بالقضايا التالية بل يضبط أيضاً نغمة العلاقة بين المتفاوضين – وعلي المدي البعيد – يمكن أن تؤثر تلك العلاقة علي سير الأحداث تماماً مثل أي تحليل موضوعي لعناصر الصراع.

وإذا ما نشأت ثقة واستقامة فإن أشق المفاوضات يمكن أن تتوصل إلي نتائج ناجحة. فالمفاوضون يشعرون بحرية فى تنحية مواقفهم التفاوضية الرسمية جانباً ويكشفون أفكارهم غير الرسمية – اقتراحاتهم واستراتيجياتهم. بل وحتي مخاوفهم – تلك التى تحدد نهجهم وأسلوبهم. وغالباً ما وجدت أنه عندما أدع جانباً أفكارى الرسمية وأتحدث بشكل غير رسمى مع نظيرى فسرعان ما يلحق النجاح بنا. لكن إذا توترت العلاقة واتسمت بانعدام الثقة والخلاف. فهذا يشير إلي مدي الهوة التى تفصل بين الطرفين بالفعل. فإدراك انعدام الثقة يكتسح أى واقع موضوعى.

❑ ❑ ❑

وفى عام١٩٨٩م عندما كان الاتحاد السوفيتى قوة عظمي فى مرحلة انحسار فلا توجد مفاوضات حاسمة سوي تلك التى تعالج كيفية حدوث هذا الانحسار. فالإمبراطوريات لا تتلاشى ويطويها الظلام فى هدوء. ونادراً ما يتم التخلى عن السلطة بسهولة ونادرة هى حالات الانتقال السلمى. وفيما اتضح مع منتصف العام أن السوفيت يقلصون مواقعهم حول العالم تمثل السؤال الحقيقى فى: إلي أى حد سوف يذهب السوفيت؟ وبالتالى فلم تكن هناك علاقة أهم من العلاقة مع جورباتشوف وشيفرنادزة. وعقب قمة الأطلنطى وزيارة الرئيس الناجحة لبولندا والمجر فى تموز يوليو استعرضت علاقتى الشخصية مع موسكو بمزيج مختلط من العواطف.

وكنت قد خرجت من أول لقاء لى مع جورباتشوف فى آيار مايو بشيء من التوتر إن لم تكن المرارة حول الاحتمالات. ولم أكن واثقاً من حجم العمل والإنجاز الذى يمكن أن نحققه لو أنه معني أكثر من أى شيء آخر بالتودد عبرنا للرأى العام الغربي، وأملت فى أن يكون اقتراح الرئيس حول خفض القوات التقليدية فى أوروبا وقرارنا الناجح حول الأسلحة النووية قصيرة المدي قد أوصلا الرسالة إلي جورباتشوف بأن بوسعنا أن نلعب نفس لعبته – بل وأن نلعبها بشكل أفضل.

وكنت أكثر تفاؤلاً مع شيفرنادزة. وبعمله في عباءة جورباتشوف فقد ترك تسجيل الأهداف الدبلوماسية لجورباتشوف، وبدا أنه أكثر اهتماماً ببحث جوهر علاقاتنا. وفي اجتماعين شديدي الاختلاف - في تموز يوليو بمقر السفير السوفيتي بشارع لانيه في باريس، وفي أيلول سبتمبر في كابينة طائرة تابعة لسلاح الجو الأمريكي ونحن نحلق فوق سهول الغرب الأوسط في طريقنا إلي ويومينج - دشنت أنا وشيفرنادزة انفراجة قوية لإرساء أواصر صداقة فريدة. وفي البداية كان شريكي ونظيري في التفاوض، وفي النهاية كان أكثر من زميل محترم - فقد كان صديقاً ربطتني وتربطني به عاطفة حميمة وعظيمة. لقد كانت علاقة سوف أعول عليها المرة تلو الأخري في أداء دوري في المساعدة علي توجيه الحرب الباردة نحو نهاية سلمية.

انفراجة في باريس

في أواخر تموز يوليو كان من المقرر أن أتوجه إلي باريس للمشاركة في مباحثات السلام حول كمبوديا، وأردت انتهاز الفرصة لأري شيفرنادزة. وعُقِدَ اجتماعنا علي خلفية سلسلة من الأحداث المثيرة التي يشهدها حوض دونيتس الغني بالفحم في أوكرانيا وحوض كوزنيتسك في غرب سيبيريا. ففي هاتين المنطقتين وهما أول وثاني منطقتين غنيتين بالفحم في الاتحاد السوفيتي أضرب أكثر من ١٥٠ ألف عامل عن العمل مطالبين بزيادة رواتبهم وتحسين ظروف العمل، واكتسبت الإضرابات زخماً سياسياً، واضطر جورباتشوف إلي اقتراح تقديم اعتراف رسمي بحق الإضراب، وهو شيء غريب علي الأسماع لم يعرف علي مدي السنوات القليلة الماضية. ولأن تاريخ الاتحاد السوفيتي يخلو من أي حركة عمالية مستقلة كتلك التي كانت موجودة في بولندا فالاحتمال ضئيل في أن يصبح نجاح نقابة تضامن في إجبار الجنرال فويتش ياروزلسكي رئيس بولندا في الجلوس إلي مائدة التفاوض نموذجاً يحتذي به للعمال السوفيت. وكان شاغلي الأكبر في حينه هو أن جورباتشوف أو مسؤولين أدنى مستوى قد يشعرون بالحاجة إلي التصدي لعمال المناجم ومن ثم تنشأ مواجهة

تلجأ الحكومة فيها إلي استخدام القوة. فأخطار حدوث مذبحة تبليسي ٢ لم تكن بعيدة عن السطح، وقررت أن أبحث القضية مباشرة مع شيفرنادزة.

وداخل مجتمع الاستخبارات في واشنطن والشائعات الدائرة في موسكو ثارت تكهنات كبيرة بقرب حدوث تطهير محتمل في صفوف الحزب الشيوعي. ففي أواسط تموز يوليو أبلغ جورباتشوف اجتماعاً مغلقاً للحزب الشيوعي «بان الكوادر في حاجة إلي تجديد وضخ دماء جديدة» وفيما كان جورباتشوف يتوق إلي استبدال الإصلاحيين بالمحافظين راح رئيس وزرائه نيقولاي ريجكوف يتحسر علي ضياع مكانة الحزب قائلاً: « إذا لم يعد الحزب محرجاً لهذا الموقف فربما يفقد نفوذه وتأثيره علي حكومة الدولة».

وبالنسبة لي كانت أكثر الشائعات التي شدت انتباهي تلك المتعلقة بشيفرنادزة .فكثيرون يعتقدون أنه في ضوء مشاكله الداخلية فربما يقدم جورباتشوف علي الأرجح علي استبدال شيفرنادزة بريجكوف، واعتقد البعض أن جورباشوف سيعين شيفرنادزة سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي. وعلي أي الأحوال كان المهم هو أن يظهر جورباتشوف التزامه بالإصلاح بتعيين واحد من أثنين من أهم الإصلاحيين في المكتب السياسي للحزب في واحد من المرقعين الداخليين الرئيسيين (كان الإصلاحي الآخر هو الإصلاحي المعروف ألكسندر ياكوفليف) . وفي حينه شعرت بتضارب لأنني أحسست أنني دشنت بداية جيدة مع شيفرنادزة . وباسترجاع الأحداث يسرني بقاء شيفرنادزة حيث هو رغم أنه يحتمل أنه كان بالوسع أن يخدم مصالح جورباتشوف السياسية بفعالية أكبر لو أنه تولي منصباً سياسياً داخلياً (ولاحقاً عرض جورباتشوف تعيين شيفرنادزة نائباً له وهو ما رفضه شيفرنادزة وأبلغني سراً بالأمر قائلاً: إنه يعتقد أن عمله في مجال السياسة الخارجية أكثر أهمية) .

وكنت أعرف أن شيفرنادزة جاء إلي الاجتماع مهموماً بقضايا داخلية. وما لم أتوقعه هو مدي الصراحة والحميمية التي أبداها معي عند طرح شواغله.

والتقينا في ساعة متأخرة بعد ظهر السبت ٢٩ تموز يوليو. وبعد عبارات الترحيب الأولية ونددت بدء الاجتماع بالحديث عن اجتماعنا القادم، وكنت أعتقد أنه سيكون أكثر مرونة لو عرف من البداية أنني أتطلع إلي عقد اجتماع ثان علي المستوي الوزاري.

ومع ذلك اقترحت مارجريت تاتويلر أن نتخلي عن الرسميات والخبراء للالتقاء فى أجواء أكثر استرخاء ومرونة . بما يعنى بالطبع الخروج من واشنطن. وفى ذلك العام فقط كنت قد اشتريت لتوى مزرعتى فى ويوميخ واعتزم إمضاء فترة استجمام فيها فى آب أغسطس وكنت أعتقد أن مشاهد ويومنج الخلابة سوف ترمز للصراحة الجديدة فى علاقاتنا وأكثر من ذلك، وفى حينه وبسبب القيود التى فرضتها موسكو علي تنقلات دبلوماسيينا فقد فرضنا قيوداً مماثلة علي الدبلوماسيين السوفيت. وسوف يتيح الاجتماع الوزارى لشيفرنادزة ووفده المرافق أول فرصة لهم لمشاهدة العمق الأمريكى (وقد أثرت القضية مع الرئيس أولاً حيث إنه كان يفكر فى دعوة جورباتشوف إلي كينيبونكبورت لكن البروتوكول كان يقتضى عقد القمة التالية إما فى الاتحاد السوفيتى أو علي أرض محايدة) . وأشرق وجه شيفرنادزة بمجرد أن طرحت الفكرة عليه*.

وبدأ رده بتسليمى رسالة تقدير من جورباتشوف إلي الرئيس بوش تتعلق بالغواصة السوفيتية الغارقة فى بحر النرويج. وكان الرئيس قد بعث برسالة إلي جورباتشوف يعرب فيها عن تعاطفه، وعرض علي السوفيت تقديم مساعدة أمريكية لانتشال الغواصة. واستهل حديثه بتوجيه الشكر لنا حول تلك القضية، وكان شيفرنادزة يشعر علي ما يبدو مثلى أنه يريد التخلى عن المفاوضات الرسمية وأردف بسرعة بقبول دعوتى للاجتماع فى يوومنج فى أيلول سبتمبر.



ثم انتقلت إلي شاغلى الرئيسى: وهو الأخطار المقترنة بلجوء موسكو إلي استخدام القوة ضد عمال المناجم. وقلت: «إن الرئيس وأنا نرغب فى أن نكون فى وضع يتيح لنا التقدم بالعلاقات الأمريكية السوفيتية إلي الأمام. وفى ضوء هذا فإننى آمل أن يصاغ ردكم علي صعوباتكم الداخلية بطريقة تكفل إلي أقصى درجة ممكنة تفادى استخدام القوة. إن تفادى

* عرضت عليه بعض صور لمزرعتى التى اشتريتها مؤخراً بما تحتويه من مشاهد خلابة . وفى ختام اجتماعنا وضعها فى جيبه وبسطرورت لطلب إعادتها لأنها الصور الوحيدة التى كانت لدى.

اللجوء إلي القوة أمر مهم لو أريد عدم حدوث موجات عاطفية في الولايات المتحدة يفجرها أولئك الذين لا يريدون نجاح البيريسترويكا».

وحاولت رسم خط فاصل. وقلت: «إننا نعترف بوضوح بأهمية الحفاظ علي النظام والاستقرار. لكن هناك اختلافاً بينا بين (تصرفات) أناس متورطين في أعمال عنف طائفي يشمل قتل الأبرياء من ناحية، وبين الإضرابات السلمية التي يقوم بها العمال علي الجانب الآخر. إنني أتحدث عن ذلك بسبب رغبتنا الملحة في تحريك علاقاتنا بطريقة إيجابية. إنني أثير هذا معكم. لأنه من المهم أن تتفهموا شكل الضغوط التي يمكن أن توصي بها إدارتنا لو تطورت الأمور بشكل غير مواتٍ». واتضح لي بمراجعة الأحداث أن جورباتشوف وشيفرنادزة فكرا كثيراً في تداعيات مأساة تيانانمين علي إصلاحاتهما. وفي المقام الأول فقد حدث ارتباك في أول أيام زيارة جورباتشوف لبكين. حيث غيرت الحكومة الصينية برنامج زيارته لتفادي الاحتجاجات الطلابية، وغادر بكين بتوجيه إشادة حذرة بالطلاب واستمر تصاعد الاحتجاجات فقط ليتم إخمادها بعد أسبوعين ونصف الأسبوع.

ورد شيفرنادزة بالقول: أنه سعيد لقيامي بإثارة هذه القضية لأنه كان يعتزم إثارتها لو لم أثرها أنا. وبعد الإشادة باهتمام الرئيس وأنا تجاه البيريسترويكا وبيانات التأييد قال بصراحة: « إن التوجهات التي تتبلور في الاتحاد السوفيتي بالغة الصعوبة. فالديمقراطية والبيريسترويكا والتجديد تؤثر علي كل مناحي مجتمعنا. بل تؤثر علي كل فرد وأسرة أيضاً. إننا الآن نمر بأهم مراحل ما نصفه بأنه ثورة. حقاً: إننا نقوم بثورة. فقد تركنا الآلية والآلة القديمة. لكن لسوء الحظ لا تستطيع الآلة والآلية الجديدة العمل بكامل طاقتها. إننا نمر بأكثر المراحل الحرجة. لأن تجديدنا النظام السياسي يتقدم بكثير تجديدنا النظام الاقتصادي. فالتغيرات في عقول المواطنين أسرع بكثير عن التغيرات في عقول كثير من كبار المسؤولين»

وفي بضع دقائق مختصرات غير علاقاتنا بطريقة مثيرة. فلم تكن تلك كلمات وزير في الحكومة يقرأ بياناً مكتوباً. لقد كانت كلمات رجل يشارك في معركة تاريخية. فلم يكن ينقل أو يتحدث عن الموضوع السياسي الذي وجدت حكومة جورباتشوف نفسها فيه بل أيضاً عن النضال المثير الذي تعيشه.

ففي آذار مارس وصف البيريسترويكا بأنها «ثورية» لكنه يشير الآن إلي أنها حركة جماهيرية حقيقية – بما يثير بالتالى سؤالاً عما إذا كان جورباتشوف يقودها أو أنها هي التى تقوده؟ إن «ما بدأ علي أنه ثورة سوفيتية تقليدية من أعلي» أطلقتها ووجهتها القيادة السوفيتية قد تحول إلي تمرد من أسفل» وهي حقيقة يعترف بها شيفرنادزة.

وقال: «بالطبع فإن إضراب العمال ظاهرة غير مألوفة بالمرة فى الإتحاد السوفيتى. لكن المثير للاهتمام هو أنهم لم يصدروا ولو بياناً واحداً ضد البيريسترويكا وعملية التجديد. وإن احتجاجاتهم تنصب علي البيروقراطية. فالمسؤولون عن الإضراب منظمون جيداً ولديهم وعى رفيع. إن مطالبهم بتحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية مطالب معقولة، ومن المهم فهم أنها أظهرت فى النهاية تقديراً لما يمكن للنظام أن يؤديه فى الوقت الراهن.

«إن بلادنا تواجه مشاكل اجتماعية واقتصادية رهيبة. فالوضع المالى فى غاية الحرج. إن هناك اختلالاً كبيراً فى أسواقنا وفى كمية وسائل الدفع» وهناك شح كبير فى السلع. وأحياناً ما نقول إننا نواجه أزمة حقيقية. لكن هذا لا يعنى عدم وجود مخرج». وأشار إلي عدة مناطق – فى شمال القوقاز وقازاقستان – يشعر أن هناك تقدماً يحرز فيها لكنه ما لبث أن أشار إلي مناطق أخري يتعثر فيها الإصلاح الاقتصادى.

وقال: «نعرف أننا وحدنا الذين يمكننا حل مشاكلنا. إننا نتفق مع ما قلتموه أنتم والرئيس بوش عن مسؤولية الشعب السوفيتى عن نفسه وعن نجاح البيريسترويكا» وأضاف «وبالطبع فإن التعاون مفيد» وأننا نسعي للحصول عليه من الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا. وإننا ندرك أيضاً محدودية قدرات شركائنا خاصة فى ضوء احتياجاتنا – إننا لن نطالب منكم أن تضموا نحو ثلاثمائة مليون سوفيتى تحت جناحكم. وقال ضاحكاً: «إننا لا نريد خلق تلك المشكلة لكم».

وقال متطرقاً إلي الصراع العرقي: «إن مشكلة القوميات هي مشكلة حقيقية وقد تراكمت واستفحلت علي مدار عقود. وقال بحزم لقد حان أوان معالجتها. ولاشك أنه قد حدثت فجوة بين الواقع والمبادئ» وقال: «من الصعب التعرف علي شعبنا فى هذه الآونة أن تفكيرهم الآن متحرر وأصيل وجرئ وأمين». وأفاض فى أحاديث غير رسمية لمدة ساعة تقريبا.

وبدأت بطمأنته. وقلت: «أود إعادة التأكيد على أننا ملتزمون بقوة بنجاح البيريسترويكا ونقر بأن هذا يعتمد على ما تفعلونه، وعلى كيفية استجابتكم للتحديات التى تواجهونها. إن معظم الأمريكين يؤيدون جهودكم. لكن فعالية محاولاتنا لمساعدتكم تعتمد على استمرار هذا التوجه المواتى لدى الرأى العام الأمريكى. وهذا هو السبب الذى دفعنا إلى الإشارة فى السابق إلى الاستجابات التى قد تصدر عنكم فيما يتعلق بصعوباتكم.»

وأومأ بالموافقة قائلاً: «أننى أقدر التزامكم، وأعرف أنه ليس من السهل على الدوام أن تدافعوا عن سياستنا. إننى أعرف أن هناك البعض فى مجتمعكم مثل بريجنيسكى* – يريد استغلال المشكلات السوفيتية. وكان آخرون يشاركونه رأيه فى توقعه بانتهاء الاشتراكية والحاجة إلى الاستفادة من هذا. انظر على سبيل المثال إلى إقرار الكونجرس لقرار الدول الأسيرة. إننا نعى مسئوليتنا تجاه شعبنا وتجاه العالم. إننا لا نريد السماح بحدوث عدم الاستقرار فى الاتحاد السوفيتى – فعدم الاستقرار فى بلد ضخم كالاتحاد السوفيتى بمقدراته العسكرية والاقتصادية المهولة سيكون شيئاً بالغ الخطورة على الاتحاد السوفيتى وعلى العالم. ويسرى الشىء ذاته على أوروبا الشرقية. فالشىء الوحيد الذى نتحدث عنه هو التجديد. لكن عدم الاستقرار مضر ويمكن أن يتسبب فى كارثة».

وتدخلت قائلاً: «وعندما تحدثنا عن الصعوبات فى الاتحاد السوفيتى فإننا أوضحنا بجلاء أننا لا نريد عدم استقرار لكنكم على صواب فى أن هناك فصيلاً فى الولايات المتحدة يعتقد أنكم غير جادين فى التزامكم». إننى اشعر بقلق من أن «منع عدم الاستقرار» قد يصبح ستارا لقمع الاحتجاج والرفض المشروع . وفى الواقع وفى المناسبات العامة أتحدث عن الحاجة الى التحرك نحو الشرعية، وحاولت أن أحصر الاستقرار فى نطاقه الضيق للحد من التسلح . وفى أثناء حدوث هذا التغير الكبير فإن إثارة الاستقرار يشبه ترسيخ الأمر الواقع، وحاولت سحب البساط من تحت شيفرنادزة، وأن أشرح التداعيات التى سيولدها استخدام القوة فى الولايات المتحدة. «إن هذا هو السبب الذى دعانى إلى الإشارة إلى أن طبيعة استجابتكم على الصعوبات بأنها وحشية وقمعية فى الولايات المتحدة. فسوف يقول معارضوكم إن البيريسترويكا وهم منذ بدايتها. وفى مثل هذه الأجواء سيكون من الصعب علينا مواصلة

* زبجنيو بريجنيسكى كان مستشاراً للأمن القومى فى عهد الرئيس كارتر.

الاستجابة بإيجابية على البيريسترويكا. إن نظامنا وثقافتنا مبنية على حق الفرد في التعبير عن غضبه سلمياً. وهذا هو سر الغضب والسخط العام في الولايات المتحدة بسبب ما حدث في ميدان تيانانمين. إنه يتعارض مع القيم الأساسية للشعب الأمريكي.

وأبلغته بأنني أتفق مع قلقه من عدم الاستقرار في أوروبا الشرقية. «فهذا هو السبب الذي كان الرئيس حذراً في التأكيد خلال زيارته بأننا نؤيد عملية الإصلاح. لكننا لا نريد بأي حال خلق المشاكل للاتحاد السوفيتي. إننا نعتقد مثلكم إن التحرك باتجاه مزيد من المصارحة سوف يستمر في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. إننا نشيد بذلك. إننا نعتقد وبشدة أنه لن يكون بوسع أحد تغيير مسار العملية بمجرد تذوق ثمار الحرية».

ورد قائلاً: «عن استخدام القوة دعني أطمئنكم بأن سياستنا تستهدف بناء أساس ديمقراطي وإنساني لمجتمعنا. ولن نتخلى عن هذا باعتباره مبدأ يوجه خطواتنا. وفيما يتعلق بالوضع المحلي، فقد اضطررنا إلي استخدام القوة حينما لم يكن هناك سبيل آخر للتعامل مع الاشتباكات العلنية بين مختلف الجماعات العرقية في أماكن مثل جورجيا. وكما تعرف فإن جورجيا هي مسقط رأسي. فقد حاول بعض المتطرفين هناك إشعال الإضطرابات. لكن عليَّ إبلاغك أنه عندما أُرْسِلْتُ إلي هناك أوقفت استخدام القوة بشكل قاطع ورفعت حظر التجول «أرجو تفهم أن أهم أهدافنا المقدسة الآن هي إشاعة حكم القانون في مجتمعنا» وببساطة لسنا في سبيلنا لاعتماد القوة في التعامل مع مواطنينا».

ورددت: «إنني مسرور لأن أسمع ذلك» وقبل أن أنطق بكلمة أخرى قال شيفرنادزة إن لديه نقطة إضافية حول أوروبا الشرقية. «إن قضية الاستقرار قضية بالغة الخطورة. دعنا نتصور انهيار آلية التعاون بين أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي. إن ذلك قد يعني الفوضى. فالنظام الثنائي للعلاقات الاقتصادية لا يمكن أن يختفي بين عشية وضحاها، ربما تعين استبدالها في غضون عشر أو خمس عشرة سنة بآليات أخرى، لكن في اللحظة الراهنة ليس هناك بديل سوى تنمية هذه البلدان. فالإصلاح سوف يستمر في بلدنا ولا يجب أن يتوقف لكن يجب أن يسير في أجواء استقرار».

وكان انطباعي أن سرعة الإصلاح في أوروبا الشرقية أصبحت تثير قلقاً متزايداً في موسكو. وأردت أن أؤكد لشيفرنادزة علي أن التغيرات قد تتسارع علي الأرجح بما يفوق كل التوقعات. «لقد أوضح الرئيس أنه لم يزر بولندا والمجر لتأجيج الاضطرابات والقلاقل أو تكثيف الضغوط علي الاتحاد السوفيتي. إنني أريد التأكد من أنني أفهم ما تقولونه: إن وجهة نظرنا هي أن هناك عدة بلدان تحاول التحرك نحو اقتصاد السوق ويعني هذا بالضرورة بدء فصم العلاقة المحكمة مع الاتحاد السوفيتي ولا اعتقد أن ذلك يجب أن يثير مشكلة من وجهة النظر السوفيتية، وتساءلت ألست علي صواب في ذلك الاعتقاد؟».

ورد: نعم أنت علي صواب. إن الأمر مرهون بتلك البلدان وشعوبها لتقرر لنفسها الكيفية التي يتعين أن تسير بها عملية الإصلاح ومع من يريدون إقامة علاقات. فإذا ما خلصت إلي أن من مصلحتها تعزيز تعاونها مع الغرب وخاصة في المجالات الاقتصادية فهذا من شأنهم. لكن لا يجب أن يساور أحد الشك في أن هذا سوف يستغرق وقتا.

وفي تلك الليلة أبلغت الرئيس بأنني لا أشك في التزام شيفرنادزة بتجنب استخدام القوة داخلياً والسماح لدول أوروبا الشرقية بانتهاج طريق خاص بها، ولكن وكما كتبت «لقد خرجت بانطباع بأنني أتعامل مع رجل مثقل بالهموم وأكثر إنهاكاً عن ذي قبل. إنه يفتقر إلي الثقة ويغمرني إحساس بأنه لابد وأن يكون سعيداً ليبحث معي البيريسترويكا ويطمئنني عليها طيلة اجتماعنا. إن شواغله خير تذكار بما يركز عليه جورباتشوف الآن، وتذكار أيضاً بأن دور واهتمام شيفرنادزة يتحول بشكل متزايد إلي القضايا الداخلية».

وتأكدت وأنا أغادر باريس أن علاقتي مع شيفرنادزة تتطور في بعدين مختلفين. فهناك المستوي الرسمي الذي نبحث في إطاره الحد من التسلح والصراعات الإقليمية وقضايا دبلوماسية أخري غالباً في جلسات تضم مجموعات مصغرة يشهدها الخبراء، وكان هدفنا علي هذا المستوي هو تصفية تلك القضايا باعتبارها نقاط خلاف وأن نبحث عن أرضية للتعاون.

لكن علي المستوي الأكثر حسماً الذي تركز علي المستوي غير الرسمي حول مناقشاتنا علي التحول الداخلي في الاتحاد السوفيتي وضمنا علاقته بأوروبا الشرقية لم تكن وزيري

خارجية. بل محللين اجتماعيين تتشاطر القلق والأفكار. وعكس شيفرنادزة الثورة التي تجتاح الكتلة الشيوعية. وجاء الدور عليَّ للتعليق علي ملاحظاته مؤملاً أن تؤثر حججي علي آرائه –رغم أنه تأثير هامشي– حتي تساعد في تجنب كارثة محتملة تثير قلقه وقلقي أيضا.

مناقشتان

بعد أن أمضيت عطلة لمدة أسبوعين مع أسرتي في ويومينج عدت إلي واشنطن في نهاية آب أغسطس للإعداد لاجتماع جاكسون هول الوزراي. وكنت أريد أن يشكل الاجتماع علامة فارقة في علاقتنا مع السوفيت. لكن كان عليَّ في البداية أن أتحمل مناقشتين: إحداهما دبلوماسية والأخري سياسية.

ودارت أولاهما حول زيارة يلتسين إلي واشنطن في ١٢ أيلول سبتمبر. وعندما التقيته في وزارة الخارجية في الساعة الثانية بعد الظهر ترك لديَّ صورة رجل قوي البنيان ضخم الجثة بشكل مروع أشبه بمهاجم كرة القدم الأمريكية لا عضو بالبرلمان وأكد مظهره البدني الأشبه بالثور كثرة إشاراته وحركاته. وكانت يداه الأشبه بالفأس تحجزان الهواء لكنه كان يتدفق حماسة. وغمرني إحساس قوي بأن هذا رجل عمل رجل مارق سوف يدمر الأمر الواقع بدلاً من تبادل الرقة الدبلوماسية المعهودة.

كان القلق يساوره من أن البيريسترويكا والإصلاح في الاتحاد السوفيتي يتحاران بشكل عام. وفيما أبدي تأييده لجورباتشوف أبلغني أن القيادة السوفيتية ليس أمامها سوي أكثر من عام لتفعيل جهودها. وعن القضايا الاقتصادية استعرض نفس الفهم السوفيتي الخاطئ لكيفية عمل السوق الحر. واعترف بأن الاستثمارات الأجنبية تمثل مفتاحاً للإصلاحات الاقتصادية وأشار من تلقاء نفسه إلي أن السوفيت أنفسهم بحاجة إلي تغيير قوانينهم والسماح بالملكية الخاصة.

وفي مذكرة بعثتها إلي الرئيس تلك الليلة بعنوان «بوريس يلتسين: ليس مجرد سوفيتي غير مألوف. كتبت «إن يلتسين يتحدث برزانة، وبرغم اللعبة الصحفية الحالية فإنني أعتبر الكثير من ملاحظاته الانتقادية مواتية».

ولسوء الحظ لم تتم زيارة يلتسين للبيت الأبيض. فقد أراد عقد اجتماع في المكتب البيضاوي مع الرئيس بعد الصد الذي لاقاه مع برينت سكوكروفت وبعد أن ذهب إلى حد دفعه إلي النوم أثناء حديث مطول من طرف واحد لنحو الساعة. وحدا هذا بعدد من المساعدين في البيت الأبيض الذين لا أعرفهم علي وجه التحديد إلي انتقاد يلتسين في أحاديث صحفية غير مسجلة. ولم يكن تشويه يلتسين أو الحط من قدره في الصحافة ليخدم أي هدف علي الإطلاق. وفي الوقت الذي لم يتسبب فيه في أي أضرار علي المدي البعيد فقد استخدم لاحقاً ضدنا كمؤشر لتأييدنا المفرط لتوجهات جورباتشوف.

وفي الواقع كنا في ذلك الوقت نجري تقويماً جاداً لعلاقاتنا مع جورباتشوف. وفي مذكرة بعنوان «قلاقل متنامية في الاتحاد السوفيتي: أزمة وشيكة؟ بتاريخ ٢٥ تموز يوليو أبلغني دينيس روس أنه يتأهب لإعداد سيناريوهات بديلة لمستقبل الاتحاد السوفيتي. وعكف موظفوه علي إعداد عدة أوراق. وصلتني أولها في الحادي عشر من أيلول سبتمبر. وحددت الورقة أربع سيناريوهات محتملة:

(١) تحديث السلطوية. (٢)انقلاب عسكري.

(٣) شلل ما بعد جورباتشوف. (٤) انهيار ما بعد جورباتشوف.

وأوضح تعدد السيناريوهات أننا في حاجة إلي استراتيجية تمكننا من إدارة الغموض المتنامي حول المستقبل السوفيتي. وكنت أشعر بحساسية تجاه قبضة جورباتشوف المشكوك فيها علي السلطة بعد التحليل الذي قدمه شيفرنادزة للأوضاع الداخلية في الاتحاد السوفيتي. ومافعلته تلك الأوراق هو أنها عززت ميلي الذي يعود إلي أوائل الصيف بأنه يتعين علينا أن نبذل أقصي ما نستطيع لإحراز تقدم مع جورباتشوف «لحبسه في التغيير» علي حد تعبير بوب زوليك – وهو لايزال في السلطة. وكنا علي يقين من أن جورباتشوف مستعد لتقديم تنازلات. ولسنا متأكدين ممن سيخلفه، ولذا فمن المهم بناء علاقات قوية لتحقيق مصالحنا دون إغضاب الخلفاء المحتملين لجورباتشوف مثل يلتسين. وكانت وجهة نظري دائماً هي أن يلتسين يفهم أنه يتعين علينا التعامل مع جورباتشوف. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم يشر مطلقاً إلي استيائه من النهج الذي اتبعناه.

❑ ❑ ❑

وكانت المناقشة الثانية من صنعي أنا. ففي التاسع عشر من أيلول سبتمبر قررت عقد مؤتمر صحفي لاستعراض نتائج زيارة شيفرنادزة ولمحاولة تشكيل أجواء «توقعات» الزيارة. ومضى كل شيء علي مايرام حتي سئلت للمرة الثالثة عن التعليقات التي أدلي بها جورج ميتشيل زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ واتهمنا فيها بانتهاج سياسة «الترقب والانتظار» حيال التغيرات الجارية في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. وفي جانب فإن دافع ميتشيل للإدلاء بالتصريحات هو كلمة ألقاها إيجلبيرجر في جامعة جورج تاون في ١٣ أيلول سبتمبر فقد قال إيجلبيرجر عن صواب أن هناك استقرار معيناً مرتبطاً بثنائية القطبية في الحرب الباردة. ومع ذلك فإن مجرد ذكر تلك الحقيقة هيأ لمنتقدينا الفرصة لاتهامنا بأننا مفتونون بالحرب الباردة.

وفي المرة الأولي التي سئلت فيها عن تصريحات ميتشيل أعطيت رداً دبلوماسياً رقيقاً وفي المرة الثانية اكتفيت بإعلان عدم موافقتي علي هذا الاعتقاد، ولكن في المرة الثالثة عندما ضُغِطَ عليّ للتعامل مع «انتقاد حاد غير مألوف لمجمل سياسة الإدارة» قررت أن أقول للأعور أنت أعور في عينه، وأوضح أن ميتشيل يلعب لعبة السياسة. وقلت: «حسناً دعني أتعامل مع الأمر بهذا الشكل بالقول إنه عندما يحظي رئيس الولايات المتحدة بتأييد سبعين في المائة لسياسته الخارجية، وكنت أنا زعيم حزب المعارضة فربما أقول شيئاً مماثلاً. إنه خطأ. واستشعرت الصحافة الحقيقة فيما قلته – لكنها تدرك أيضاً أنني «استدرجت» ومنحتها مادة لذيذة تجعل رواياتها روايات ساخنة. ويرجع هذا لأن المنتظر أن يظل وزير الخارجية إلي حد ما فوق السياسة الحزبية بغض النظر عن الطبيعة السياسية للمنصب من الناحية العملية أو حجم الخبرة التي اكتسبها في الساحة السياسية.

وكم يبعث هذا علي السخرية في ضوء حقيقة أنه في الديمقراطية يصعب نجاح أي سياسة خارجية لا تستطيع اجتذاب إجماع سياسي داخلي.

جاكسون هول

وصل شيفرنادزة إلي واشنطن يوم الخميس ٢١ أيلول سبتمبر. وشهد الشهران اللذان مرا علي آخر مرة التقيته فيها وضعاً داخلياً أشد تفجراً. فإذا كان شهر تموز يوليو شهر

الاضطرابات العمالية في الاتحاد السوفيتي فقد كان شهر آب شهر مشكلة القوميات. ففي البلطيق نظمت مظاهرات حاشدة لإحياء الذكري الخمسين لاتفاقية مولوتوف-ريبنتروب وردت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بإدانة «فيروس القومية في المنطقة» وهبت الحركات السياسية في جمهوريات آسيا الوسطي والقوقاز، وخاصة الجبهة الشعبية في أذربيجان.

ثم وعشية اجتماعنا مضي جورباتشوف في تنفيذ تهديده خلال الصيف وقام بتطهير المكتب السياسي. واستبعد ثلاثة من المحافظين. هم فلاديمير شيشرنيتسكي وفيكتور شيبريكوف وفيكتور نيكونوف من المكتب السياسي المؤلف من اثني عشر عضواً ليعاني أشد منتقدي جورباتشوف - إيجور ليجاتشيف - من العزلة.

وانضممت إلي الرئيس في الساعة الثانية ظهراً في أول اجتماع مع شيفرنادزة. وبدأ الرئيس بالقول «إنني أشعر بالغبطة للطريقة التي انتقلنا بها من المواجهة إلي الحوار. إنني أتمني لكم النجاح وأتمني أن تمضي إصلاحاتكم قدماً لإقامة علاقة أفضل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي».

وقال شيفرنادزة: «أشكركم إننا نريد الانتقال إلي مرحلة الشراكة معكم. فخلال الأعوام القليلة الماضية وقعنا أكثر من أربعين إتفاقاً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وحدثت تبادلات كثيرة إننا نتفهم اهتمامكم بما يجري في الاتحاد السوفيتي. إننا نقوم بإعادة تقييم الأمور. لكننا لا نريد إلغاء كل ما أنجزناه في تاريخ الاتحاد السوفيتي. فبدونه لن يمكن إجراء إصلاح. فعلي أساس الإنجازات المادية والجوهرية فقط يمكننا التخطيط للمستقبل «لقد حاربنا سوياً في الحرب العالمية الثانية - وانقذنا الحضارة. فالإصلاحات تشمل الآن كل شيء في الاتحاد السوفيتي. إننا اتحاد يضم خمس عشرة دولة وقوميات متعددة. إننا نتبع الآن سياسة قوميات سوف تمكننا من إعادة الأمور إلي نصابها. فكل دولة ذات سيادة وتتمتع بحكم ذاتي أو ستكون كذلك. لقد اختتمنا مؤتمراً حول هذا الموضوع. فالاتحاد السوفيتي يشهد عملية تسييس هائلة، ونحن نعتقد أن هذا الوعي السياسي يكفي رغم أنه يثير مشاكل لنا».

ومضي قائلاً بنبرة تأكيد: «لقد اجتزنا مرحلة بالغة الأهمية. إننا نعمل للتغلب علي التنافر في نظامنا الاقتصادي مع تلك النظم السائدة في الدول الغربية. إننا لا نسعي لمساعدة

منفردة. إننا نريد تعاوناً اقتصادياً. فسوف تنجح البيريسترويكا. إن لدينا بعضاً ممن يسمون أصدقاء يقولون إن أيامنا معدودات، وهذه ليست وجهة نظر جادة. إنني أعرف بلدي وأعرف شعبي. وسوف تكون لنا اليد الطولي».

وما لبث أن سلم رسالة طال انتظارها إلي الرئيس من جورباتشوف حول الحد من التسلح. وكان الرئيس فقد بعث رسالة إلي جورباتشوف في ٢٠حزيران يونيو لخص فيها خلاصة مراجعتنا لمختلف المواقف المتعلقة بالحد من التسلح. ومن وجهة نظري شكلت رسالة جورباتشوف المؤلفة من ست صفحات كاملة بدون سطر خال تغيراً في نهجه تجاه الحد من التسلح. فقد كانت موجهة بوضوح وبقدر أكبر نحو تحريك المفاوضات نفسها، وليس تسجيل نقاط علاقات عامة.

والأهم أن لغتها كانت غامضة بقدر يكفي للإشارة إلي احتمال استعداد السوفييت لإسقاط الربط بين ستارت ومباحثات حرب النجوم. وشكره الرئيس واتفقنا علي بحث قضايا الحد من التسلح تفصيلاً في وايومينج.

وانضم لي شيفرنادزة في الساعة السادسة والنصف مساءً في قاعدة أندروز الجوية لنستقل الطائرة إلي وايومينج. وبدلاً من أن نستقل طائرة البوينج النفاثة طراز ٧٠٧ كالمعتاد ركبنا طائرة من طراز دي سي ٩ لقصر الممر في مطار جاكسون هول الذي يقع في حديقة جراند تيتون الوطنية. وفي الكابينة المصاحبة للطائرة انضم لي ولشيفرنادزة كالمعتاد كل من سيرجي تاراسينكو ودينيس روس ومترجمينا والسفير دوبنين* وسفيرنا لدي موسكو جاك ماتلوك.

وبعد تناول العشاء المكون من دجاج بالجبن الحار والأرز والبازلاء بالمشروم وفطائر الجبن الذي أعده طهاة القوات الجوية، بدأت المحادثة بسؤال شيفرنادزة عن تقييمه لمؤتمر القوميات. وكان ما تلقيته تحليلاً دقيقاً معقداً، وبدأ قائلاً: «إن مشكلات القوميات هي أصعب المشاكل التي تواجهنا وأكثرها حساسية». ومضي إلي شرح جذورها التاريخية منوهاً إلي «أنه من حيث المبدأ في ظل لينين كان يتعين أن تتولي الحكومة الاتحادية قضايا الدفاع

* سفير الاتحاد السوفيتي لدي الولايات المتحدة حينئذ (المترجم).

والدبلوماسية، علي أن تظل بقية السلطات والحقوق في يد الجمهوريات. لكن الأمور سارت بشكل مختلف في الممارسة العملية». وأضاف: «لقد تدشنت مركزية هائلة للسلطة، ولم تحدث هذه المركزية بسبب آراء زعمائنا الوهمية حينذاك فقط بل أيضاً بسبب الظروف الحرجة التي وجدت بلادنا نفسها فيها. وهناك حاجة للمركزية إذا كان يتعين تحويل بلد ضعيف إلي بلد قوي. وكان لذلك فضل عظيم – خلال فترة حرجة لأنني لا أتصور أن ندخل حرباً بدون مركزية. وربما كان هناك مبرر ما بعد الحرب للحفاظ علي اقتصاد مركزي قوي. وكان علينا في المقام الأول أن نعيد البناء. ولكن في الستينيات والسبعينيات كان من الواضح أن الفجوة بين حقوقنا الدستورية والممارسة العملية في الجمهوريات باتت كبيرة وضارة أيضاً.

وأضاف: «وفي ذلك الوقت ظللنا أنفسنا بالاعتقاد أن مشكلة القوميات سويت تماماً. وكان هذا غير صحيح، وكان من الخطأ أن نفكر بهذه الطريقة. فكل دولة كائن حي ينمو ويتطور ومن الخطأ الإعتقاد بأن مشكلة القومية يمكن أن تسوي مرة واحدة إلي الأبد». وسمعت في كلماته صدي لتعليقات زوجته مانولي المؤثرة في آيار مايو.

ومضي إلي القول إنهم يضعون سياسة جديدة خاصة بالقوميات لكن كان يصعب وضعها قبل خمسة وعشرين عاماً. وستكون اللامركزية هي المبدأ الحاكم الجديد. وسيظهر بمقتضاها ترتيب سياسي جديد بين المركز والجمهوريات. إننا نقوم بعملية بحث عن حل سياسي للعلاقات بين الجمهوريات والمركز. ولو جاز لنا التحدث من زاوية رسمية بحتة ربما يسعني القول إن كل شيء يبدو علي ما يرام. وفي المقام الأول فإن لكل جمهورية برلماناً ويمكنها مناقشة قضايا تتعلق بموازنة الجمهورية وقضايا أخري. ولكل جمهورية أيضاً رموز سلطة الدولة. ولسوء الحظ فإن تلك الرموز لم تترجم إلي واقع. والحقيقة أنه تعين إحالة كافة القضايا المهمة إلي المركز، ونحن الآن في سبيلنا إلي عكس هذه العملية. فسوف تعاد كل تلك القرارات إلي الجمهوريات.

كانت لحظة مكاشفة. لأنها أبرزت أننا نتحدث بصفة غير رسمية أكثر من إبرازها للصدق. فقد كان شيفرنادزة صريحاً من قبل. لقد كانت نقطة تحول في علاقاتنا لأننا صرنا

بعدها نتبادل الأحاديث والشجون بشكل غير رسمي في جلساتنا المنفردة، ما لم يشعر أي منا بواجب طرح المنطق البيروقراطي القائل وراء الموقف الحكومي في قضية مثار خلاف مثل الحد من التسلح.

وكلما أفاض في الحديث كلما تأكدت أن السوفيت لم يُوصَّفوا بعد الكثير من الأبعاد الرئيسية للعلاقة بين المركز والجمهوريات. وبدا لي أن معرفتهم ضئيلة بالكيفية التي سينتقلون بها من نظام مركزي مفرط في مركزيته وجموده إلي نظام لامركزي مفعم بالحيوية. واتضح لي أن توجههم هو ترك الأمور تسير بالقصور الذاتي بمجرد أن يخفف النظام قيوده. وانتهزت الفرصة لأطرح موقفنا حيال البلطيق بوضوح لا لبس فيه. وبدأت بالقول: «أعرف أن هذه منطقة حساسة لكم. لكن عليّ أن أبلغكم أن لنا مشكلة إزاء البلطيق. بالقطع سمعتني وأنا أقول إننا نريد حقيقة نجاح جهود الإصلاح وأننا لن نعمل شيئاً لتعقيد العملية. لقد قلت علناً إننا لا نريد أن نري زعزعة في الاستقرار في الإتحاد السوفيتي لكن دعني أقل لكم إن سياسة الولايات المتحدة علي مدار الأربعين عاماً الماضية لم تعترف بضم دول البلطيق إلى الإتحاد السوفيتي فدول البلطيق دول مستقلة فلا يزال هناك سخط عام قوي في الولايات المتحدة بشأن دول البلطيق، وأردت إفهامه أن سياستنا تجاه دول البلطيق تعود بجذورها إلي حقائق سياسية داخلية وتاريخية، وأن الرئيس لا يمكنه العدول عن تلك السياسة حتي لو أراد (وبالقطع لم يكن يريد).

واستطردت في القول: «إننا نعي تماماً قلقكم تجاه السيادة والحدود، وأنكم لن تفعلوا شيئاً لمفاقمة تلك المشكلة. ومع ذلك وبقدر الجهود الضخمة التي قد نبذلها لتحريك علاقاتنا معكم فسيكون من الصعب للغاية الاحتفاظ بعلاقات إيجابية إذا توصلتم إلي أن الضرورة تقتضي منكم استخدام القوة في البلطيق. دعني أكتفي بالقول إنه سيصدر عنا رد فعل قوي للغاية، ولذا فإنني آمل في إيجاد حل سلمي لمشكلة القوميات بشكل عام وفي البلطيق بشكل خاص. أنني أثير القضية فحسب كي تستشعروا حجم الضغوط التي نتعرض لها. إنني لا أثير هذا بهدف الضغط عليكم أو ترهيبكم». وسمح لي هذا الحديث بتخفيف المضمون الشخصي للرسالة مع الاحتفاظ بصرامة الخط السياسي بوضوح. إنها فكرة جيدة للغاية أن يتم دائماً تنمية أي أبعاد شخصية مع المحاور في القضايا مثار الخلاف.

ورد باستعراض موجز حول كيف سيؤدى استخدام القوة إلي تعريض البيريسترويكا للخطر. «أما بالنسبة لقلقكم حيال استخدام العنف دعني اكتفي بالقول إن هذا مستبعد تماماً من جانبنا فسوف يعني هذا انتهاء البيريسترويكا. إنه سيؤدي إلي استعادة ما اعتدنا أن نسميه «ديكتاتورية البروليتاريا» (كان هذا تحريفاً للماركسية من جانب شيفرنادزة حيث استولي البلاشفة علي الحكم تحت شعار ديكتاتورية البروليتاريا) . لا يمكننا أن نعكس نهجنا. لا يمكننا العودة إلي الماضي. وقد اضطررنا للجوء إلي القوة في بعض المناطق. لكن ذلك كان مقتصراً علي ملابسات وحوادث قامت خلالها جماعات عرقية مختلفة مثل الأذربيجان والأرمن بارتكاب عمليات إبادة. فالقوة كانت مطلوبة هنا لاستعادة النظام. أما في البلطيق فلا أحد يعتزم اللجوء إلي القوة وكما تعرف فقد استخدمت القوة في جورجيا وقد حدثت عواقب مأساوية. وكنت أنا وجورباتشوف خارج البلاد عندما اتخذ هذا القرار. فقد اتخذ هذا القرار من جانب سلطات الجمهورية وعندما عدنا ورأينا ما حدث اقصينا المسؤولين عنه. وقد نددنا بالقرار، وأوضحنا أن استخدام القوة لا يتفق مع مبادئنا».

ونطرق إلي بحث ما قال إنه الصعوبات العملية والأخطار الحقيقية التي ستتعرض لها استونيا لو أراد الانفصاليون الخروج من الاتحاد، وفي وضع ينتمي فيه ثلث سكان استونيا إلي القومية الروسية. ومضي إلي القول إن معظم المواطنين لا يريدون الانفصال وأن الانفصال غير عملي علي أية حال. وألححت عليه محاولاً حمله علي التفكير في الكيفية التي قد تفكر بها موسكو في خلق عملية سياسية للخروج من المأزق الذي أوجدته في البلطيق.

وتساءلت منحازاً إلي جانبه من أجل الجدل: «أولاً لو أن الانفصال غير عملي بالمرة واختارت الأغلبية في أي جمهورية البقاء في الاتحاد فلماذا لا تحلون المشكلة بإجراء استفتاء؟ فلو منحتم المواطنين حق تقرير المصير فسوف يصوتون علي ما يريدون، وإذا ما قررت الأغلبية التصويت لصالح البقاء في الاتحاد فلن يجد الانفصاليون قاعدة ينطلقون منها نحو الانفصال». ولم يساورني أي شك في أن معظم المواطنين سيصوتون للاستقلال بالفعل لكني أحسست أنه بالتأكيد علي الانتخابات والاستفتاء فإنه يمكن تحقيق الاستقلال في إطار عملية سلمية وتدريجية. وقلت: «ثانيا: أليس هناك فرق بين جمهوريات البلطيق التي كانت مستقلة من قبل وبين الجمهوريات الأخري التي لم تنعم بالاستقلال مطلقا؟».

وأدركت أنني قصرت في الضغط عليه عندما رد في تشوش قانوني: «إن مسألة الاستفتاء قضية دستورية. إنها قضية مرهونة بالدستور الوطني أو الدستور الاتحادي ودستور كل جمهورية. والدستور الحالي يخلو من أي نصوص حول الاستفتاء» وحول هذا الموضوع توقف حديثنا غير الرسمي والتزم بدفاع رسمي عن موقفه، وكان يعي مثلي أن نصوص دستور برجينف لم تعد مناسبة.

وعن القضية الموسعة التي أثرتها رد في الجانب الأكبر بما ينم عن أنه زعيم سابق لجورجيا، وبقدر أقل باعتباره وزيراً لخارجية الاتحاد السوفيتي. «قد تلاحظ أن جمهوريات القوقاز كانت مستقلة الثلاثة أعوام بعد ثورة أكتوبر. كما كانت هناك حكومات منفصلة في باكو ويريفان. وقد تشكلت تلك الحكومات في الواقع في ظل كيرنيسكي. وهكذا فربما لا يكون هناك اختلاف كما نعتقد، وفي الحقيقة لو تركت جمهوريات البلطيق الاتحاد فقد تقول شعوب القوقاز فلماذا لا نتركه نحن أيضاً؟».

وبصراحة إنني أوافق علي أن يكون هذا جزء من مناقشتنا. فنحن لا نخشي المناقشة. وبعد عامين وفي أعقاب الانقلاب الفاشل، وفيما أعلنت كل جمهورية سوفيتية استقلالها تذكرت كلمات شيفرنادرة كنبوءة فريدة.

أما وقد وجدت نفسي في طريق مسدود بشأن البلطيق تحولت إلي بحث مسألة أوروبا الشرقية. وقلت لشيفرنادزة: إننا لا نريد أن نثير المشاكل للسوفيت في المنطقة. إننا لا نرغب في إثارة القلاقل أو تأجيج الاضطرابات. لكننا سنساعد أوروبا الشرقية علي إقامة الديمقراطية والسوق الحرة.

وأشار شيفرنادرة إلي أن انعدام الاستقرار في بولندا لن يفيدنا أو يفيدكم. وحذرني من الأخطار المقترنة بقطع العلاقات الاقتصادية فجأة بين الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية. ولذا فلو قطعتم كافة العلاقات فسيكون انتحاراً تماماً مثلما سيكون انتحاراً لدول البلطيق. ولا يستطيع أحد أن يطوي بولندا تحت جناحيه فهي باليقين ليست ألمانيا. نعم بوسعهم العمل مع بولندا. لكن ما من أحد يستطيع إلقاء الأموال التي تريدها بولندا. نحن فقط الذين فعلنا. نحن فقط الذين أهدرنا أموالنا.

ورداً علي سؤال حول المنظمات الأمنية والاقتصادية قدم اقتراحاً: «دعنا نحل كلاً من حلف شمال الأطلنطي وحلف وارسو. دعنا نتخلص من حلفائنا وحلفائكم. فحيثما توجد حلف الأطلنطي، سيتواجد حلف وارسو. أما عن (CEMA) وهو اختصار منظمة الكوميكون بالأحرف الروسية – وهي المنظمة الاقتصادية لدول حلف وارسو – فإنها في حاجة إلي إعادة هيكلة. فإذا أعادت المنظمة هيكلة نفسها، وتحولت إلي منظمة فعالة فسوف نستطيع مواصلة البقاء. فإذا واصلت العمل بطريقتها الحالية فلن تخدمنا أو تخدم حلفاءنا. إننا نعمل علي إصلاحها. لكن سوف نتابع كيفية عملها. هل يستحق الاستشهاد بتقديم ما قاله كول في مؤتمر حزبه*. إذا لم تكن قد قرأته فعليك قراءته فقد يفيد.

«إنه أشبه بالتصريحات التي أدلي بها الزعماء الألمان في الثلاثينيات وقد وادت قلقاً بالغاً لنا.... لقد تحدث بلهجة إنذار. بل إنه قال أيضاً إن الاتحاد السوفيتي علي شفا الانهيار والكوميكون علي شفا الانهيار، ومهمة الغرب – علي حد تعبير كول – هو تحديد ما يتعين عمله في ظل تلك الملابسات». ولم يكن لدي علم بالتصريح الذي يتحدث عنه شيفرنادزة. لكن اتضح حينئذ أن المسألة الألمانية ماثلة في عقول السوفيت. بل إنها تلمس أوتاراً حساسة لا تلمسها قضايا أوروبية أخري. ورددت بالقول بأننا لا نريد زعزعة الاستقرار في أي مكان في المنطقة. إن «ما نود أن نراه في أوروبا الشرقية هو أوروبا كلها وحرة حيث تزول التقسيمات وأن يتم هذا بطريقة سلمية».

وأبدي شيفرنادزة موافقته قائلاً: «من المهم أن نحترم الحقائق القائمة» وكان يشير بوضوح إلي ألمانيا الشرقية. ورددت بالقول: «مع تقدم البيريسترويكا وتطبيقها في جمهورية ألمانيا الديمقراطية فربما لا يسع المرء أن يري الكثيرين الذين يرغبون في الخروج من جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وكما تعرف فإن البيريسترويكا تتعثر في جمهورية ألمانيا الديمقراطية». وعاد إلي عظاته «هذا حقيقي» لكن لكل دولة أن تقرر الطريقة التي تريد أن تعيش بمقتضاها».

ولجأت إلي المنطق قائلاً: «عندما يكون هناك الآلاف الذين يسعون لمغادرة البلاد فإنهم يقولون شيئاً واضحاً عن النظام وكيفية أدائه». ورد قائلاً «حسناً. هذا ليس حقيقيا علي الدوام.

---

* الاتحاد المسيحي الديمقراطي (المترجم)

إننا فى الاتحاد السوفيتى نمر بمرحلة تمنح فيها حريات أكبر، ويغادر البلاد الآن نحو مائة ألف شخص سنوياً. إنك تدرك أنه من زاوية حرية التعبير لم يكن سجلنا جيداً، والآن يريد الناس أن يغادروه لقد كانت حالة نادرة أُلزمت فيها جذور شيفرنادزة فى النظام السوفيتى التمسك بالدفاع عنه.

ومضي إلي القول: «بالنسبة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية علي المرء أن يعترف بأنها تتمتع بمستوي معيشي أعلي، ولديهم بنية أساسية اجتماعية متطورة. وقد حلت مشكلة الإسكان لديهم إلي حد كبير، ولديهم مراكز رعاية. وهم يفرزون الكثير من أبطال الرياضة».

وقلت مواصلاً الضغط عليه: «إذن ما هو تفسيرك لكل هؤلاء الراغبين في ترك البلاد؟». وقال: «حسناً. ربما كان تشتت الأسر والأقارب هو الذي يلعب دوراً إلي حد ما». وأخيراً ما هو إدراكه «غير الرسمي» يتغلب علي منطقه «الرسمي». «لكن دعني أقل إن الأمر متروك لهم لتسوية مشكلاتهم. إن الأمر بيدهم. فلو كانت مكانهم لتركت من يريد مغادرة البلاد أن يغادرها، وبالطبع لو غادر مليون شخص فسوف يخلق هذا مشكلة خطيرة لأوروبا الشرقية، ولكني أدعهم يخرجون». وفيما استغرقت مناقشتنا حول ألمانيا بضع دقائق فقد كانت التناقضات والتوترات الداخلية في عبارات شيفرنادزة بالغة الوضوح، وبدون شك كان العمل مع السوفيت في إدارة التغيير فى ألمانيا يبدو شديد الصعوبة والاختلاف عنه في أي بلد فى أوروبا الشرقية.

مبني جاكسون هول

هبطنا فى أجواء جاكسون هول الجبلية الصافية المدهشة ثم اجتزنا البساط الأحمر، وقدم لنا الحاكم مايك سوليفان هدايا عبارة عن قبعات كاوبوى ومعاطف طويلة. وبدت الإثارة فعلاً على شيفرنادزة والوفد المرافق له لوجودهم فى الغرب الأمريكي.

وعلي مدار الأيام الثلاثة التالية عقدنا ما جملته تسعة اجتماعات حول مختلف جوانب العلاقات بيننا. وأحرزنا تقدماً في كل مجال من المجالات، وأعتقد أن سلسلة جبال تيتونز

الشاهقة القريبة ونهر سنيك الذي يجري أمامنا ورحابة البيت الريفي على بحيرة جاكسون هول قد ساهمت في التوصل إلي معظمه. «وبالطبع كان عقد الاجتماعات كابوساً لوجستياً لكن لم يذلله سوي الجهد الشاق والخارق من جانب كارين جرومبز وماتيو سميث مسؤول الاتصال السياسي مع البيت الأبيض ورجال المهام الصعبة في المشاكل اللوجستية فقد تمكنا من جلب زوج من البوظ لترعي في النهر عند سفح الجبال لتكون خلفية لصورنا التذكارية» .

وكان من الواضح من أسلوب عمله أن شيفرنادزة مشغول بالقضايا الداخلية. وكان متزناً هادئ النفس كالعهد به دائماً. لكنه أكثر من القراءة من مذكرات عما كان يفعل من قبل. كما استدعي أعضاء في وفده أكثر من ذي قبل، ومن دون شك فإن انشغاله بمؤتمر القوميات الذي انتهي لتوه يفسر هذا الانشغال إلي حد كبير.

وعززت مناقشاتنا للإصلاح الاقتصادي هذا الانطباع. ومن أجل هذه المباحثات اصطحب شيفرنادزة نيقولاي شميليف، وهو اقتصادي شاب «راديكالي» ضليع يؤمن بالسوق الحرة. وتركز بحثنا حول ما يمكن عمله لزيادة قيمة الروبل وزيادة القدرة التنافسية الداخلية، وإقامة شبكة ضمان اجتماعي ونظام للتسعير. كانت كل تلك الخطوات خطوات ضرورية بالنسبة لهم للمضي قدماً في الإصلاح الاقتصادي الحقيقي، ومن ثم جعل الروبل عملة قابلة للتحويل في نهاية الأمر. وأحياناً مابدا أن شيفرنادزة قد اصطحب شميليف ليلقنه درساً اقتصادياً وهو يتباحث معنا. ومن دون شك كان شيفرنادزة يأمل أيضاً في أن يرتفع رصيد شميليف في موسكو بسبب مشاركته في هذا الاجتماع.

وعن قصة الحد من التسلح سألت شيفرنادزة بصراحة مطلقة عما إذا كان الاتحاد السوفيتي لم يعد يربط معاهدة ستارت بالتوصل إلي اتفاق في مباحثات حرب النجوم، وقال: إن هذا أمر حقيقي وهو ما ورد ضمناً في رسالة جورباتشوف. بل ويمكن التوصل إلي اتفاق لخفض الأسلحة الهجومية الاستراتيجية حتي إذا لم يتم التوصل إلي تفاهم حول معاهدة حرب النجوم أو ما هو مسموح بموجب معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية. وكان أي تقدم نحرزه حول قضايا محددة في ستارت سيظل من قبيل التمني حتى ننهي هذا الربط. ووافق شيفرنادزة أيضاً في جاكسون هول على موقفنا بضرورة استبعاد صواريخ كروز

التى تطلق من البحر من معاهدة ستارت - رغم أنه اقترح ضرورة معالجتها فى إطار جهد أشمل حول الحد من التسلح البحرى.

❑ ❑ ❑

وتوصلنا أيضاً إلي اتفاق حول القضايا الرئيسية الأخرى الباقية فى مباحثات التجارب النووية واتفاق الأسلحة الكيماوية الثنائى. ولم يكن للتقدم الذى أحرزناه فى هذه المجالات مجرد مؤشر علي أن تعاوننا يمكن فحسب أن يصفى قضايا قديمة مثل التجارب النووية التى تعثرت لخمسة عشر عاماً. بل يمكن أن يدشن تقدماً مهماً فى مجالات أخرى، وكان الرئيس شخصياً قد أعد معاهدة الأسلحة الكيماوية وهو نائب للرئيس. كما خصص خطاباً كاملاً لها خلال حملة التوعية من أخطار انتشار الأسلحة النووية. وكان مصمماً بنفسه علي رؤية إزالة الأسلحة الكيماوية. وفى كل مرة طلبت فيها مساعدته فى تذليل عقبات البيروقراطية الحكومة الأمريكية لم يبخل علىّ بجهد. وأصبح عملى مع شيفرنادزة فى ويوميتج حجر زاوية لمبادرة أشمل بشأن الأسلحة الكيماوية أثناء اجتماعات الجمعية العمومية العامة للأمم المتحدة بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للصراعات الإقليمية أبلغ شيفرنادزة الرئيس فى واشنطن «إننا عند وعودنا. فنحن لا نرسل أسلحة إلي نيكاراجوا». وفى جاكسون هول استمر فى القول بأن السوفيت لم يعودوا يزودون نيكاراجوا بمعونات عسكرية. وقال: إنه لا يسعه الحديث نيابة عن كوبا. لكنه يعتقد أن إمداداتهم تتقلص. والأهم أنه أبلغنى بأنه لو كانت لدى معلومات واقعية حول شحنات تقدمها هافانا أو ماناجوا إلي جبهة فارابوند و مارتى للتحرير الوطنى فى السلفادور، فيجب أن أقدمها له، وسوف يبحثها مع الأطراف المعنية. وقال: «إن الاتحاد السوفيتى لن يعتبر هذا التصرف تصرفاً ودياً من صديق إذا كانت تلك الدول تنتهك الالتزامات السوفيتية».

وفى المقام الأول فقد أُحْرِزَتْ تلك الإنجازات فى أجواء صريحة غير رسمية. فلم أحطم أنا وشيفرنادزة الحواجز الرسمية فى مباحثاتنا فحسب. بل سرى الشىء نفسه علي أعضاء الوفدين. وكان إحساسى أن ويوميتج دشنت حقبة جديدة فى علاقتنا الشخصية، وأن تلك

العلاقات أصبحت مفتاح التقدم الذى أُحْرِزَ خلال الأحداث المثيرة التى شهدها الخريف مثل تفاقم المشاكل الداخلية السوفيتية، وتحرير أوروبا الشرقية لنفسها من الاتحاد السوفيتى.

وفى مأدبة غير رسمية فى آخر لياليها فى ويومينج فاجأ شيفرنادزة الجميع ومس شغاف قلبى عندما أهدانى لوحة ملونة للمسيح وهو يعلم الشعب رسمت فى روسيا قائلاً: «كما ترى حتى نحن الشيوعين تغير ارائنا الدولية» وبدورى أهديته حذاء كاوبوى مداعباً إياه: «إن هذا الحذاء يساعد الناس هنا فى اجتياز الأراضى الصعبة أحياناً. وأنت تعرف أننى أفكر فى طريقة عملنا، فالإنسان ربما يتحسس طريقه ويحافظ على أقدامه مثبتة بالأرض، ولذا فقط خطر ببالى أن حذاء كاوبوى قد يساعدك فى موسكو. فلا أعرف كم هى زلقة الأرض التى تنتظرنا جميعاً».

الفصل العاشر

سقوط السور

فليبارك الرب أمريكا شكراً على كل ما بذلتموه سيدي.

سكرتير هانز ديتريش جينشر

وزير خارجية ألمانيا لوزير الخارجية بيكر

تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٩

في عالم السياسة، الكلمة هي العملة السائدة. فلو استخدمت بحصافة يمكنها بناء عاصمة سياسية وإقامة إجماع عام أو إثراء أمة. لكن عندما تتبدد أو توظف بدون فعالية فيمكنها أن تقتل مرشحاً وتقضى على سياسة. بل وحتى تقضى على حكومة. والسياسة فوق هذا وذلك هي الإقناع أساساً حتى في عصر المودم والميكروبروسيسور والتليفونات الخليوية والفاكس بغض النظر عما إذا كانت الكلمة مسموعة أم مقروءة.

وهذا حقيقى تماماً في السياسة الدولية. ويجرى الحوار بين الدول على مستويات مختلفة وأتى فى مضمونها المناقشات الخاصة التى تجرى سراً بين الحكومات. لكن الحوار العلنى أيضاً يعد أمراً حاسماً. وكوزير للخارجية يبدأ صباحى المعتاد بأن يصطحبنى الفريق الأمنى فيما بين الساعة ٦:٤٥ والسابعة والربع صباحاً فى رحلة قصيرة بالسيارة لا تستغرق سوى عشر إلى اثنتى عشرة دقيقة إلى المبنى، وفى الطريق أتفحص جدول المواعيد اليومى المعد سلفاً في الليلة الماضية، ويغطى كافة المواعيد المقررة لليوم من الناحية الإجرائية والموضوعية. وبمجرد الوصول أحظي بتحية جون كرولى أخلص مساعدى وزير الخارجية منذ هنرى كيسنجر. ويبادرنى كرولى بابتسامة رقيقة تساعدنى على أن أبدأ يومى بيسر.

وعلى الإفطار أقوم بمراجعة تقارير المخابرات لليلة الماضية سواء أكانت واردة من المخابرات المركزية أو مكتب المخابرات بالخارجية (INR) ثم استعراض أقوال الصحف حول قضايا السياسة الخارجية الواردة في مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات. وبالإضافة إلى ذلك أقوم بقراءة موجز النشرة الصحفية اليومية للبيت الأبيض. ولم يكن هذا مجرد طريقة لمتابعة الأحداث العالمية لأن الكثير من عملى كوزير للخارجية يتم عبر الحوار العلنى. ولطالما قيل إننى أولى اهتماماً كبيراً بالصحافة. وهذا حقيقى فالصحفيون أداة وصل أساسية لا غنى عنها بين صانعى سياسة الأمن القومى وجمهورهم الذى يشمل الحكومات الأجنبية والرأى العام والكونجرس الأمريكى والشعب الأمريكى.

ومن زاوية ضبط إيقاع عملنا تبقى متابعة التعليقات الصحفية أمراً بالغ الأهمية. فلو أننى ألقيت خطاباً أو أدليت بشهادة أمام الكونجرس – على سبيل المثال – فمن المهم أن أرى كيف تناولها دون أوبير دورفر أو ديفيد هوفمان فى الواشنطن بوست أو دويلى مكمانوس أو

نورمان كمبستر من لوس انجلوس تايمز وتوم فريدمان من نيويورك تايمز ووالت موسبيرج أو بوب جريلبيرجر من وول ستريت جورنال وزملاؤهم. لأن عناوينهم ورواياتهم واقتباساتهم تلقي رواجاً هائلاً لدي الدوائر الدبلوماسية عن الخطاب نفسه. إننى أعرف الرسالة التى اعتزمت توجيهها. فبوسعي قراءة أقوال الصحف لأقرر ما إذا كنت قد نجحت في توصيل رسالتى -- ثم استغل رد الفعل لتصحيح ما تقوله علناً (أو سراً) لحجب أو تعديل السياسة فى اتجاه أو فى آخر.

وبالطبع فإن الحكومات الأخري تفعل الشيء ذاته، ولاسيما في دول مثل ألمانيا وإسرائيل حيث تحظي قضايا السياسةالخارجية بتدقيق مكثف من الصحافة. وفي أغلب الأحوال وقبل عرض اقتراح فإنها تطرح الفكرة «بتسريبها» للصحافة. وبالطبع فإننا نفعل الشيء نفسه، وهكذا تدار الدبلوماسية.

ويكمل هذا «المصدر المفتوح» كما درجت دوائر المخابرات علي تسميته بالطبع بتقارير الإستخبارات مثل النشرة اليومية للرئيس "(PBB) ونشرة الإستخبارات القومية (NID) التي تصدرها المخابرات المركزية، والموجز الصباحي لوزير الخارجية الذى يعده مكتب الإستخبارات بالخارجية الذى يرأسه القدير دوج موليهولاند الذى عمل معي فى وزارة الخزانة. وحتي في تلك النشرات السرية للغاية يدور كثير من التحليل والمعلومات حول التصريحات العامة للمسؤولين الأجانب، وتقييم المدي الذى تذهب هذه التصريحات فى تقديم انعكاس دقيق للخطط السرية للحكومات المعنية.

وإلي جانب ماتقوله الحكومات سراً أو علناً هناك بالطبع ما تفعله تلك الحكومات. ولعل أكثرها وضوحاً هو استخدام القوة. وهنا تتقاطع السياسة الخارجية والسياسة الدفاعية. فالحرب هي الأداة النهائية والأخيرة لتسوية أى صراع دولي. وبالطبع فهى أقلها استخداماً. وهذا هو السبب الذى يقال فى واشنطن أنه بينما تتولي وزارة الخارجية إدارة السياسة (ألا وهي الكلام) فإن وزارة الدفاع تعكف علي تطوير برامج (ألا وهي الأسلحة والقوات العسكرية).

وقبل فترة طويلة من إقدام الدول علي خوض الحرب -- أو حتي التفكير فى خوضها -- فإن حكوماتها عادة ما تكون قد تبادلت (بالمعني الحرفى) آلاف الكلمات سراً وعلناً بطريقة

مباشرة أو غير مباشرة. وأثناء الحرب الباردة كان خطر نشوب حرب مأساوية بين القوى العظمى كبيراً لدرجة كان الدبلوماسيون يستخدمون الكلمات كبديل للقوة، ويوجهون رسائل شديدة اللهجة بدلاً من مشاة البحرية المدججين بالسلاح لتحقيق أهدافهم.

نقاط المصلحة المتبادلة

اتضح لى بعد اجتماع ويوميج الوزارى أن العلاقات الأمريكية السوفيتية انتقلت إلي مرحلة نوعية جديدة. فقد أحرزنا فى جاكسون هول تقدماً فى كل مجال من مجالات علاقاتنا. فقد انتقلنا – علي حد تعبيرى أثناء الاجتماع – من المواجهة إلي الحوار، إلي التعاون. وكنت عازماً علي بذل قصاري جهدى لترسيخ هذا التغيير – ليس فقط من زاوية السياسة الحكومية الأمريكية – بل أيضاً مع الكونجرس والرأى العام فى مجمله. وكان اعتقادى هو أن الجدل العام لن ينتهى. فإذا كان ثم شيء آخر فهو أن مؤيدى جورباتشوف أصبحوا أكثر استماتة في الدعوة لتقديم مساعدات غربية له، وأن الذين يعتقدون أن جورباتشوف ليس سوي ذئب فى ثياب حمل قد أصبحوا أكثر عناداً. وفى هذا الظرف أحسست أنه من الضرورى صياغة موقف إدارتنا بطريقة فذة رفيعة المستوي في محاولة لاجتذاب أغلبية حول سياسة ذات مغزي يمكن أن تنال تأييداً عاماً من الحزبين، وتحرز قصب السبق فى الجدل العلنى. ولذا وفى سلسلة من ثلاث إفادات وخطابات فى شهر تشرين الأول أكتوبر حددت إطار «التفكير الجديد» لإدراتنا حول البيريسترويكا وطبيعة العلاقات السوفيتية الأمريكية. وتناول كل خطاب أو إفادة ناحية مختلفة إلي حد ما للمشكلة . ففى الرابع من تشرين الأول أكتوبر وفى شهادتى أمام اللجنة المالية بمجلس الشيوخ برئاسة لويد بنتسين ركزت علي الإصلاح الاقتصادى. وبعد اثنى عشر يوماً في السادس عشر من تشرين الأول أكتوبر، وفى خطاب ألقيته أمام جمعية السياسة الخارجية فى نيويورك ركزت علي مجمل العلاقة بين الدولتين. وفى خطاب تأجل بسبب زلزال لوما بريتا تحدثت في ٢٣ تشرين الأول أكتوبر أمام نادي الكومنولث في سان فرانسيسكو حول الاستراتيجية والحد من التسلح.

كانت السلسلة المنطقية في الخطابات والإفادات غاية في الاستقامة والوضوح. فقد شكلت إعلاناً عاماً لما كنا نفكر فيه داخلياً منذ الاجتماع الوزاري في باريس وقلت إن البيريسترويكا «ثورة حقيقية، غيرت الاقتصاد لتحتوي كل المجتمع السوفيتي وعلاقاته كونياً. وقلت أمام مجلس الشيوخ: «إنها عملية مستمرة تعتمد علي حجم كبير لمنطق متميز، وقلت: إن مصير نجاح البيريسترويكا مرهون بما يفعله السوفيت أنفسهم. لكن هناك مجالاً لعلاقة جديدة. وقلت أيضاً: إنني والرئيس نريد نجاح البيريسترويكا «ليس لأن إصلاح المجتمع السوفيتي شأن من شؤوننا أو لإبقاء زعيم سوفيتي بعينه علي مقعد السلطة – حقيقة لا يسعنا عمل أي منهما – ولكن لأن البيريسترويكا تبشر بتصرفات سوفيتية تفيد مصالحنا. إن مهمتنا هي البحث بفعالية عن نقاط المصلحة المتبادلة المتاحة – وربما هناك الكثير المتاح بسبب البيريسترويكا.

وحددت خمس مجالات سوف نسعي فيها للبحث عن المصالح المتبادلة: وهي التصميم علي أوروبا كلها وحرة، وتسوية الصراعات الإقليمية، والتوسع في الحد من التسلح، ووضع مؤسسات للجلاسنوست والديمقراطية، وتقديم المعونة الفنية لدعم الإصلاح الاقتصادي.

وبهذا أعدت تحديد وترتيب جدول أعمالنا السابق مع الاتحاد السوفيتي بشكل جوهري، ووضعت أوروبا والصراعات الإقليمية في مركز متقدم علي الحد من التسلح، وحولت قضية حقوق الإنسان إلي قضية إضفاء للديمقراطية علي المجتمع السوفيتي، وحولت قضية العلاقات الثنائية إلي جهد أمريكي لرؤية نجاح الإصلاح الاقتصادي.

فضلاً عن هذا جعلت القضية تكتسب بعداً استراتيجياً حتي لو تدهور وضع جورباتشوف، وكما قلت في سان فرانسيسكو: «إن أي غموض حول مصير الإصلاح في الاتحاد السوفيتي هو مع ذلك أقوي سبب يدفعنا لاغتنام الفرصة الراهنة. وحتي يمكن إنجاز مهمتنا وهي إزالة التهديد السوفيتي والتوصل لاتفاقيات يمكن التحقق منها بفعالية إذا لم تصمد البيريسترويكا وباختصار كان موقفي: «دعونا نحصل علي ما نستطيع الآن ونتشبث بالتغيير قدر المستطاع». فلم أكن أريد لأحد في المستقبل أن ينظر خلفه ويقول «لو فقط».

وكانت الاستجابة علي تلك المطلبات تبعث علي الارتياح. فداخلياً كانت التغطية الصحفية مناسبة في مجملها. حيث حثت الافتتاحيات الإدارة علي تحركها. وعالمياً شعر

حلفاؤنا بالاطمئنان مجددا، وأحس السوفيت أن الخلاف الداخلي الناشب منذ الربيع قد انتهى بشكل حاسم. أو هكذا بدا الحال. ولم أكن قد ألقيت خطابي في سان فرانسيسكو عندما وجدت على مكتبي مسودة خطاب كان من المقرر أن يلقيه بوب جيتس. وطلبت من دينيس روس مراجعته على أن أقرأه بنفسي. وانزعج روس وقال: «لا يمكن أن يلقي هذا الخطاب وسوف يقوض تماماً نتائج ويوميونج والخطابات والإفادات التي قدمتها للتو. هذا سخف» . ووافقت روس على رأيه. وأحسست أن بوب ارتكب خطأ جسيماً لعدم تمييزه بين ما تعتقده الإدارة سراً وما تقوله علناً حول تلك الآراء. وكانت مسودته مغرقة في التشاؤم حيال فرص جورباتشوف في البقاء في السلطة. وبينما يتشاطر الكثير منا في هذا الرأي فإن إيراده في تصريحات علنية سوف يسحب البساط من تصريحات الرئيس بأننا نؤيد البيريسترويكا. وتحليلياً لم أكن أختلف اختلافاً جوهرياً مع تقويم بوب. وفي الحقيقة كانت تصلح كشهادة سرية حتامية بليغة في الكونجرس من نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وهو المنصب الذي شغله بوب أثناء إدارة ريجان.

لكن من زاوية نهج سياسة إدارتنا الجديدة فسوف تكون كارثة. فسوف تثير جدلاً حول من يتحدث باسم الإدارة وتحيي قلق الكونجرس وأوروبا وموسكو بأن هناك مدرستين للتفكير، ومن وجهة نظري سوف تقوض الكثير مما كتبته أو قلته أنا والرئيس لجورباتشوف وشيفرنادزة.

واتصلت بسكوكروفت وأبلغته بأنه لا معنى لإلقاء هذا الخطاب، واعتبرت الموضوع منتهياً. لكن في اليوم التالي لإلقاء خطابي في سان فرانسيسكو تلقيت مذكرة من سكوكروفت مقترحاً خطاباً منقحاً مرفقاً بالمذكرة. فقد أغار جيتس بمهارة على مقتطفات خطابي في نيويورك. لكن في واشنطن كان الجميع في الدوائر الدبلوماسية الصحفية يعرف أن الاقتباسات تهدف فقط إلى التعتيم على اختلافنا في الآراء. وكتب سكوكروفت: «أعتقد أن نص خطابه المعدل يعد تكملة جوهرية لخطاباتكم، ويقدم تصوراً مفيداً في البيئة الحالية بطريقة تفيد الرئيس» ودونت في ملاحظة على الهامش «لا مجال». وقبل أن أتصل بسكوكروفت لأبلغه بأن النص الثاني ليس بأفضل من الأول، ودونت أسبابي في مذكرات مرفقة لنفسي (O) (أسوأ توقيت ممكن نفس الأسبوع الذي ألقيت فيه خطابي).

(١) لن تجد الصحافة شيئاً مختلفاً –حتي لو قرأ خطابي.

(٢) إن هذا الخطاب بالغ القتامة في لهجته وتأكيده تأكيدٌ مختلفٌ. كما يعترف بل ويتناقض تناقضاً مباشراً في بعض المواقع مثل أن التفكير الجديد نشأ من الحاجة إلي التقاط الانفاس – علي سبيل المثال.

(٣) لا يمكن تعديله، فقد حاول روس، فاتجاه لاكتشاف اختلاف يعززه وجود اختلافات طفيفة.

(٤) سوف يخلق رأياً – أي وجود مدرستين للتفكير في الإدارة (وهو مالا يجوز).

(٥) في هذا الوقت بالذات نسجل درجات كبيرة في إرساء إطار عام متماسك.

(٦) سوف يقوض ذلك، ويظهر أن البيت الأبيض يلتف حول وزير الخارجية.

(٧) وأخيراً لماذا يشعر نائب رئيس مجلس الأمن القومي بالحاجة إلي الظهور بهذا الشكل السافر في قضية تتعلق بالاتحاد السوفيتي؟.

(٨) جيتس درس الاتحاد السوفيتي ويلقي خطاباً مفصلاً وأن عليه التعامل مع وزير الخارجية الساذج (توقيت مروع).

(٩) كان خطابي واضحاً.

(١٠) إننا في حاجة إلي إعطاء الانطباع بأننا جبهة متماسكة.

(١١) خطأ فادح حتي إننا استطاع تصحيحه فلا يمكن تصحيحه.

ومع الوقت صقلت مواهبي وازدادت خبرتي. وعندما كان جيتس في المخابرات المركزية الأمريكية ألقي خطاباً دمر تماماً سياسة جورج شولتز السوفيتية. وأضر ذلك بالرئيس ريجان حينئذ. وسوف يضر هذا الآن بالرئيس بوش، واتصلت بسكوكروفت ووأدت الخطاب، وأبلغت الرئيس في اليوم التالي لضمان عدم إثارة الجدل مجدداً. وأقر الرئيس ما فعلته رغم أنه قال «ستسبب ضيقاً شديداً هناك».

وباسترجاع الحدث فإنني على يقين بأنني فعلت الصواب، وفي الأسابيع القادمة سوف يتسارع انهيار الشيوعية في أوروبا بشكل ملحوظ. وسوف تتصاعد التوترات فيما سيتساقط حلفاء الاتحاد السوفيتي كقطع الدومينو. وسوف تصبح الوحدة الألمانية المشكلة الدبلوماسية المحورية في أوروبا الشرقية. وفي تلك البيئة فإننا في حاجة إلى أفضل علاقات ممكنة مع جورباتشوف وشيفرنادزة لتوجيه إخراج السوفيت من أوروبا الشرقية نحو نهاية سلمية. وكان خطاب جيتس سيسمم الأجواء في وقت غير مناسب تماماً، وفي السياسة الدولية ليس من الحكمة دائماً الإفصاح عما تعتقده*.

سقـوط الســور

في التاسع من تشرين الثاني نوفمبر كنت أقيم مأدبة غداء للرئيسة الفلبينية كورازون أكينو في قاعة بين فرانكلين بالدور الثامن بوزارة الخارجية عندما مرر أريك هوجراج أحد الموظفين المساعدين إليّ مذكرة مكتوبة من ستابليتون روى سكرتيري التنفيذي. وفي ختام مؤتمر صحفي متعدد الموضوعات أدلي جونتر شابوفسكي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي في ألمانيا الشرقية بتصريح غامض حول إجراءات جديدة لاستصدار التأشيرة، وهو ما فُسِرَ بأنه يعني رفع كل القيود واللوائح تماماً من السفر إلى الغرب. وعلى حد تعبير روي: «لقد أعلنت حكومة ألمانيا الشرقية لتوها فتح حدودها كاملة مع الغرب. وسيتيح الإعلان حرية التنقل الكامل بين نقاط العبور الحدودية الحالية بين شطري ألمانيا» وعليّ أن أعترف بأنني قرأت المذكرة بصوت عال بشئ من التحمس أمام الجالسين على طاولتي عندما رفعت كأسي طالباً أن نشرب نخب هذه اللحظة التي ظل الغرب ينتظرها لأكثر من ثمانية وعشرين عاماً - تحول مذهل للأحداث.

---

* أرسل لي بوب مذكرة مكتوبة بعد بضعة أيام جاء فيها: «إنني أتفق معكم في أنه سواء نجحت الإصلاحات أم لا في الاتحاد السوفيتي، فلا يسعنا الوقوف على الهامش لسنوات تنتظر النتيجة النهائية. إن عملية الإصلاح بحد ذاتها تهيئ العديد من الفرص لنا، وسوف يحكم علينا التاريخ بقسوة إن لم نفعل شيئاً».

ومنذ انهيار مباحثات القوى الأربع عام ١٩٥٣ أيدت الولايات المتحدة والقوى الغربية هدف توحيد ألمانيا. وفي ذلك الحين انضمت الولايات المتحدة إلي بريطانيا وفرنسا في إصدار بيان يحث علي «ضرورة أن يتم توحيد ألمانيا من خلال انتخابات حرة تؤدى إلي تشكيل حكومة ألمانية يمكن أن تبرم معها معاهدة سلام». ومع إقامة سور برلين في تشرين الأول أكتوبر ١٩٦١م ترسخ تقسيم برلين وألمانيا، وعلي مدي العقدين التاليين بدأ معظم الأوروبيين والأمريكيين يعتقدون أن تقسيم ألمانيا بات واقعاً تاريخياً لا يمكن تغييره، وقد ساهم في دعم استقرار أوروبا بالفعل. وعندما وقف رونالد ريجان أمام بوابة براندنبورج عام ١٩٨٧ وقال: «مستر جورباتشوف عليك بهدم هذا السور» قوبل بعاصفة من التصفيق. لكن قلة فقط من الأوروبيين هي التي كانت متحمسة لتوحيد ألمانيا.

وفي ربيع عام ١٩٨٩ بدأت إدارة بوش في دراسة النهج المحتمل لقضية الوحدة الألمانية البادية في الأفق. وأثناء تولىّ لوزارة الخزانة عملت عن قرب مع وزارة المالية والبوندسبنك في ألمانيا. وكانت صداقتي مع شخصيات مثل جيرهارد شتولتنبرج وزير المالية حينذاك ثم وزير الدفاع فيما بعد وكارل أوتو بول محافظ البنك المركزي حاسمة في المفاوضات التي أسفرت عن التوصل لإتفاقيتي بلازا واللوفر. وبرغم أن والدي اشترك في قتال الألمان في الحرب الأولي. فلازلت أتذكر جيداً مشاهد هتلر في الجريدة السينمائية التي تثير القشعريرة. فلم أكن أبي عداوة للشعب الألماني أو خوفا من أن التاريخ بسبيله لأن يعيد نفسه في وسط أوروبا. ومع توليّ منصبي غمرني إحساس بأن ألمانيا الغربية أظهرت نفسها كبلد حيوي ديمقراطي يسير وفقاً لاقتصاد السوق الحرة – وبرغم أن مساحتها تساوي مساحة أوريجون* فإن عدد سكانها يعادل ربع سكان الولايات المتحدة.

كما أنها ثالث أكبر قوة اقتصادية في العالم، وفي وقت الاضطرابات الدبلوماسية في أوروبا فلم تكن تريد أن تدور ألمانيا بثقلها فقط.

وفي يوم الأربعاء ٧ آيار مايو توجهت إلي البيت الأبيض لبحث القمة القادمة لحلف الأطلنطي مع الرئيس علي الغداء. وعلي قائمة المبادرات والخطط التي أعدها لي بوب زوليك كانت هناك واحدة تسمي «ألمانيا».

---

* أوريجون: ولاية تقع شمال غرب الولايات المتحدة على ساحل المحيط الهادى مساحتها ٩٦٩٨١ ميل مربع (المترجم).

وقلت للرئيس: «هذه هي الفرصة الحقيقية لتقدم الركب وتجاوز التوقعات فوثائق حلف الأطلنطي في الخمسينيات والستينيات تؤكد على الدوام التزام الحلف بالوحدة الألمانية. لكن سياسة الأوستبوليتيك* وأزمة الصواريخ الأوروبية في الثمانينيات ساهمتا في التغطية على الفكرة. وقلت للرئيس لكن الآن: «ليس هناك شك في أن الموضوع عاد ليطرح نفسه. والسؤال الحقيقي هو ما إذا كان جورباتشوف سيلتقفها أو لا؟». وكنت أعرف حمية روح التنافسية منذ أيامنا في هيوستون وكمدير لحملته أدركت أنه من المفيد استثارة غرائزه التنافسية عندما نريد إقناعه بتبني قضية معينة. وواصلت القول: «إننا في حاجة إلي التحرك وتولي زمام القيادة على طريق يدشن القيادة الغربية لهذه العملية». وقلت: «علينا أن نسميها تطبيع، لا إعادة توحيد».

وكانت رغبته هي التأكيد على القضية بناء على دعوة رونالد ريجان الفصيحة. ووافق على أن توحيد ألمانيا يجب أن يكون قضية محورية في جولته الأوروبية. وفي ماينز في ٣١ أيار مايو، وفي واحد من أرقي خطبه بشأن السياسة الخارجية ذهب لشوط أبعد من مناقشاتنا، ووصف الولايات المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية بأنهما «شريكان في القيادة» ومضي إلي القول: «وكما انهارت الحواجز في المجر فيجب أن تنهار في أوروبا الشرقية بأسرها. فلتكن برلين هي القادمة، لتكن برلين هي القادمة. فالتقسيم بين الشرق والغرب أشد ما يكون وضوحاً في برلين عنه في أي مكان آخر».

«وها هو ذا السور الوحشي الذي يفصل الجار عن جاره والشقيق عن شقيقه، وهاهو ذا السور يقف شاهداً على فشل الشيوعية ويجب أن يسقط»

ومع نهاية الصيف بدأ آلاف الألمان الشرقيين الذين سافروا إلى المجر في المطالبة بالسماح لهم بالعبور إلي الغرب، وفي ٢٤ آب أغسطس اجتمع المستشار هيلموت كول مع رئيس الوزراء المجري نيميث ووزير الخارجية هورن واتخذوا قراراً مثيراً: فقد اتفقوا على فتح حدود المجر مع النمسا مما يفتح بالفعل باباً خلفياً للالتفاف على سور برلين. كانت تلك بداية النهاية للنظام القديم في ألمانيا الشرقية.

---

* الإنفتاح على الشرق.

وعندما زار بوش بودابست في تموز يوليو قدم نميث لي وللرئيس قطعة من السلك الشائك أجزاء من الأجزاء الأولى التي أزيلت من الستار الحديدي مفرودة علي لوحة نقش عليها «هذا جزء من الأسلاك الشائكة التي كانت تشكل الستار الحديدي الذي امتد علي طول الحدود النمساوية المجرية والذي كرس تقسيم القارة الأوروبية إلي نصفين. ولم تتم إزالته إلا بإرادة الشعب المجري والاعتراف بالتعايش السلمي والاعتماد المتبادل. إننا نعتقد أن الأسوار المصطنعة مادياً سوف تنهار في كل مكان». ومع نهاية أيلول سبتمبر تحققت النبوءة وبأسرع مما هو متصور. وخلال الشهر وفي محاولة للعبور إلي الغرب تدفق الألمان الشرقيون علي سفارات ألمانيا الغربية في بودابست وبراغ لتنشأ أزمة لاجئين كبرى أثناء انعقاد دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة.

وفي الأسبوع الأخير من أيلول سبتمبر في نيويورك سألت هانز ديتريش جينشر: ماذا يسعنا عمله لكم؟ واقترح أن اجتمع مع التشيك والمجريين. وكان الاجتماع مع المجريين مباشراً ومستقيماً. فبودابست قطعت شوطاً طويلاً علي طريق الإصلاح وتقدم الكثير للمساعدة. لكن الاجتماع مع وزير الخارجية التشيكوسلوفاكي يوهانسين خلق معضلة. فبراغ لاتزال رجعية لا إصلاحية، وسوف يضفي الاجتماع مع أرفع مسؤول دبلوماسي تشيكوسلوفاكي قدراً من الشرعية علي نظام منبوذ. ولكني اعتقدت أن هذا الأثر العكسي ستعوضه فرصة الضغط علي التشيكوسلوفاكيين للتعاون في تسهيل هجرة الألمان الشرقيين.

وفي يوم السبت من ذلك الأسبوع زار جينشر براغ حيث يعسكر ستة آلاف لاجيء ألماني شرقي بمقر السفارة الألمانية الغربية، وأعلن جينشر وهو يتحدث من شرفة السفارة أنه سيتم السماح للاجئين بالتوجه إلي ألمانيا الغربية عن طريق القطارات التي ستعبر ألمانيا الشرقية. وكان أريك هونيكر يريد إجلاء اللاجئين قبل الاحتفال بالذكري الأربعين لإقامة الحكم الشيوعي الذي يوافق السابع من تشرين الأول أكتوبر في برلين الشرقية، ولذا فقد وافق علي إمكانية سفرهم إلي ألمانيا الغربية طالما أنهم «سيغادرون» ألمانيا الديمقراطية حيث طريق السكة الحديد، وبدأت أولي القطارات المحملة بلاجئين ألمان شرقيين من براغ ووارسو في الوصول إلي ألمانيا الغربية في الأول من تشرين أكتوبر.

ومع هذا كان رد الفعل علي قرار هونيكر أضخم من المتوقع. وبعدثلاث ليال أبلغت الرئيس: «أن نزيف السكان في ألمانيا سبب إزعاجاً لنظام ألمانيا الشرقية بالفعل». ففي ضوء

١٢٠ ألف حالة مغادرة قانونية وغير قانونية حتي الآن يحاولون فرض قيود جديدة علي السفر مرة أخري. لكن تلك المحاولات لم تساهم إلا في تفاقم الضغط الداخلي، وبدأت الأحداث تتوالي بسرعة رهيبة الآن، وتحمل بين طياتها أخطاراً جديدة.

وخلال فصل الصيف فيما تبارت بولندا والمجر في محاولة أن تكون الأولي في إسقاط الشيوعية أصبحنا أكثر انشغالاً عما إذا كان جورباتشوف سيقف ضد التغيير في أوروبا الشرقية. فإلي جانب وجود أربعمائة ألف جندي من القوات الخاصة في ألمانيا الشرقية دفع الاتحاد السوفيتي أثناء «الحرب الوطنية العظمي» (كما يطلقون علي الحرب العالمية الثانية) ثمناً تاريخياً وعاطفياً باهظاً لهزيمة النازي، وطالما أظهرت موسكو باستمرار خلال الحرب الباردة أنها لن تصفح عن تجدد التهديد الألماني. وجعل هذا البعد النفسي التاريخي من أي تغيير في ألمانيا الشرقية أمراً ينطوي علي خطورة بالغة من زاوية رد الفعل السوفيتي عنه في أي بلد آخر في أوروبا الشرقية. وأنا في سن المراهقة طالما أذهلني الدفاع السوفيتي عن ستالينجراد شتاء ١٩٤٢، فقد قاتلوا لسبعة أشهر وشاهدوا مئات الآلاف يموتون أو يصابون ولم يستسلموا. أما وقد استمعت إلي شواغل شيفرنادزة المؤثرة ونحن في الطريق إلي جاكسون هول بدأت الآن أتساءل إلي أي مدي سوف يصمد جورباتشوف في ألمانيا الشرقية.

ولم انتظر طويلاً حتي أعرف الإجابة. ففي السابع من تشرين الأول أكتوبر زار جورباتشوف برلين الشرقية للاحتفال بالذكري الأربعين لإقامة الحكم الشيوعي. وفي كلمته أمام الاحتفال فجر جورباتشوف قنبلة، وقال: إن سياسة ألمانيا الشرقية لا تصاغ «في موسكو لكن في برلين». وكانت هذه أوضح إشارة علنية علي أن بوسعنا أن نأمل في عدم تدخل السوفيت.

وفي اليوم التالي وفي حديث مع برنامج واجه الصحافة في شبكة إن بي سي قررت توجيه إشارة من جانبنا. ورداً علي سؤال إليزابيث درو الكاتبة في صحيفة نيويوركر حول مستقبل ألمانيا الشرقية واحتمالات إعادة التوحيد رددت: «إن سياسة الولايات المتحدة تتمثل في تأييد فكرة إعادة توحيد ألمانيا شرط أن تتم بحرية وسلام. ويبدو لنا أنه لا يجب أن يثور قلق من ألمانيا الموحدة مندمجة في مجتمع الدول الديمقراطية».



ومع استبعاد جورباتشوف في خطابه تدخل الاتحاد السوفيتي كان الخطر الأعظم التالي يتمثل في أن هونيكر سيحاول التشبث باستخدام قوانه لقمع الانشقاق. وخلال تلك الفترة حفلت الدوائر الصحافية والاستخباراتية بتقارير عن استعدادات للقمع بواسطة جيش الشعب الوطني (NVA) والشرطة السرية شتاسي. ومن المفارقات الغريبة أن مخاوف حدوث مذبحة تيانانمين أخرى لاحت في نفس اليوم الاثنين التاسع من تشرين الأول أكتوبر – الذي توجه فيه ياو إيلين نائب رئيس الوزراء الصيني إلي برلين للاجتماع مع هونيكر.

وفي تلك الليلة تواصلت المظاهرات الضخمة – وهي الأولي من نوعها منذ عام ١٩٥٣ – في ألمانيا الشرقية. وجاب نحو خمسين ألف متظاهر شوارع ليبزيج، ونظمت مظاهرات أصغر في عدد آخر من المدن فمنت الشرطة معظمها – وتعهد المتظاهرون بالبقاء والعمل من أجل الإصلاح.

كان حجم وتلقائية المظاهرات غير عادي بالمرة. لكن قوات الأمن احتفظت بسيطرتها من دون اللجوء إلي استخدام القوة علي نطاق واسع. ورغم هذا ومع تكثيف الضغوط علي قيادة ألمانيا الشرقية وعلي حد تعبيري في مذكرة بعثت بها للرئيس ليلة ١٤ تشرين الأول أكتوبر: «إن قيادة ألمانيا الشرقية لا تظهر أي مؤشر علي الاستسلام. فقد واصل النظام إلقاء مسؤولية مشاكله علي قوي الرجعية والتدخل الغربي مشيراً إلي ألمانيا الغربية. وبذل جورباتشوف خلال زيارة قام بها في عطلة الأسبوع قصاري جهده لعدم حدوث مزيد من عدم الاستقرار لحليف أساسي. لكنه وجه تلميحات عن الحاجة إلي التغيير. ووصف هونيكر في خطاب له الأمل في أي إصلاح بأنه «بيت من رمال». وما لم يعالج هونيكر الاستياء المتجذر الذي يثير المظاهرات فسوف تتضاعف مشكلاته يقيناً».

وبعد ظهر اليوم التالي وفد جيرهارد شتولتنبرج إلي وزارة الخارجية في زيارته المقررة منذ أمد بعيد. وقال لي: إن نظام أريك هونيكر يجتاز منعطفاً خطيراً. فإذا لم يتحركوا نحو الإصلاح فإنه لا يمكن استبعاد اللجوء إلي القوة».

ويوم الإثنين التالي كان من المقرر أن ألقي خطاب «نقاط المصالح المتبادلة» في نيويورك. وفي الوقت الذي كان الخطاب يتركز علي الانطلاقات الأمريكية السوفيتية كنت

علي ثقة من أن معظم الصحف ستولي اهتماماً خاصاً بأي شيء أقوله عن ألمانيا. ولذا قررت توجيه إشارة علنية أخري: «في ألمانيا الشرقية يتخذ المواطنون أنفسهم خطوات جريئة. وكما قلت الأسبوع الماضي لقد آن الآوان لأن تنتقل البيريسترويكا والجلاسنوست إلي ألمانيا الشرقية. إن الأمر في الواقع لم يعد مقبولاً لدي تلك الأمة كما سبق وفعل شعبا بولندا والمجر. فلا يمكن للأبد حرمان شعب ألمانيا الشرقية في وطنه من حياة أفضل يسعون للحصول عليها الآن في الغرب، وبالطبع فإن الولايات المتحدة وحلفاءها في حلف شمال الأطلنطي يؤيدون منذ أمد طويل إقرار المصالحة بين الشعب الألماني. فلابد وأن تلبي حقوقهم المشروعة يوما ما. لكن دعوني أكون واضحاً: أن المصالحة من خلال تقرير المصير يمكن فقط أن تتحقق بحرية وفي سلام. ويجب أن يجري التطبيع علي أساس القيم الغربية علي أن تكون نهايته شعب مندمج في مجموعة الدول الديمقراطية»

وبناءً علي اقتراح من برينت سكوكروفت فقد تحاشينا تماماً استخدام كلمتي الوحدة وإعادة التوحيد. فقد كان قلقاً من أن استخدام الكلمتين بدلالاتهما العاطفية في ألمانيا الشرقية والاتحاد السوفيتي كحجة علي أن الغرب يحاول إثارة الإضطرابات ولذا فقد استخدمت كلمة المصالحة. وتأملت في أن العواصم الأوروبية وموسكو ستفهم ضمناً أن المصالحة تعني ضمناً عملية من خطوتين. أولهما مصالحة داخلية بين نظام ألمانيا الشرقية وشعبه، والثانية مصالحة خارجية بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. وكان هدفي هو أن يسمح نظام ألمانيا الشرقية بمواصلة التغيير السلمي*.

وبعد يومين ذهبت كل محاولات هونيكر المستميتة للتشبث بالسلطة سدي بعد أن أطاح به عنف الاضطرابات من السلطة وحل محله إيجون كرينتس الرئيس السابق لجهاز أمن الدولة شتاسي الذي تحول إلي شيوعي إصلاحي. وبعد أسبوع وفي ٢٥ تشرين الأول أكتوبر أعطي جورباتشوف أقوي وأوضح ضوء أخضر ممكن بإعلانه في هلسنكي أن الاتحاد السوفيتي سوف يسمح للدول التابعة له بإجراء إصلاحاتها بطريقتها الخاصة وهي سياسة أطلق عليها جينادي جيراسيموف المتحدث باسم الخارجية السوفيتية اسم «مبدأ سيناترا»**

---

* في حينه أقر الرئيس بالفعل كلمة «ألمانيا الموحدة» في مؤتمر صحفي عقد في مونتانا لكن برينت شعر أن استخدام كلمة إعادة التوحيد في خطاب رسمي ستكون له دلالة عميقة. وهكذا وبناءً علي مذكرة من روبرت جورج خبير الشئون الأوروبية في إدارة التخطيط السياسي استخدمت كلمتي المصالحة والتطبيع.

** كان جيراسيموف يشير بالطبع إلي أغنية فرانك سيناترا «طريقتي».

وهو يشير إلي أوروبا الشرقية قائلاً: «ليس لنا أي حق أدبي أو سياسي للتدخل في الأحداث الجارية هناك ونحن نفترض أن الآخرين لن يتدخلوا» .



كان نظام الحرب الباردة يتداعي أمام أعيننا ثم في ٩ تشرين الثاني نوفمبر جاء إعلان جونتر شابوفسكي المرتجل. وعقب انتهاء مأدبة الغداء مع أكينو توجهت مباشرة إلي البيت الأبيض لبحث استجابتنا مع الرئيس، ونحن نتحادث كنا نتابع بثاً حياً لـ سي إن إن للشباب الألماني وهم يتسلقون سور برلين. وها هي قلاع الشيوعية تتهاوى، وهاهو الستار الحديدي يتمزق. وفي وقت لاحق وعندما لاحت لي الفرصة أخيراً لاسترجاع أحداث اليوم وجدت أنه من الصعب أن أمنع سقوط دموع الفرح وسيل البشر الساعي للحرية في الغرب قد تحول إلي طوفان.

وعليّ أن أعترف أنه حتي بعد ظهر ذلك اليوم كنت موزعاً بين مشاعري كأمريكي وبين ما يشغلني كرجل دولة. وكأمريكي شعرت بحيوية دافقة لأن ما عملنا من أجله دائماً قد أصبح حقيقة فهذا انتصار حقيقي للحرية. لكن كرجل دولة كان عليّ كبح مشاعري وأن أبتعد بنفسي عن أن تجرفها المشاعر. وفي معظم الأحيان انتابني إحساس بأن هذه التطورات لا يمكن أن تكون حقيقية فاليوم يصادف الذكري الحادية والخمسين لليلة الكريستال – كريستالناخت – أي بداية الهجوم الوحشي النازي ضد اليهود والذكري الحادية والسبعين لانهيار الإمبراطورية الألمانية في الحرب الأولي.

وفيما بدأت حشود الجماهير في برلين الشرقية ذات طبيعة حسنة إلا أنهاكانت شديدة الصخب، وخشينا من أن يفجر بعض المخمورين أو المهووسين من الألمان الشرقيين حادثاً قد يتصاعد ويخرج عن نطاق السيطرة. وخلال شهر تشرين الأول أكتوبر كانت اتصالاتنا مع موسكو مجرد تبادل دبلوماسي روتيني للآراء. وكان اعتقادي هو أننا كنا علناً ما يغني عن توجيه رسائل سراً إلي الكريملين. وتقرر أن يلتقي الرئيس بالصحفيين في البيت الأبيض في المكتب البيضاوي، وسأدعو كل الشبكات في ذلك المساء وكل البرامج التي تذاع في الصباح

التالي. وكنا نريد الترحيب بالتغيير دبلوماسياً برصانة، ولن نحاول بذل قصاري جهودنا حتي لا تتغلب العاطفة حتي لا يشعر جورباتشوف وشيفرنادزة والسوفيت الآخرون الذين يشاهدون رد فعلنا بما قاله الرئيس «إننا نضع أصبعنا في أعينهم».

ومع هذا كان من الصعب أن يستمر الهدوء في اليوم التالي. ففي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً أبلغني سنذاب روى بأنه تم تغيير تيودور جيفكوف رئيس الحزب الشيوعي البلغاري. وجاءت أكثر اللحظات المفعمة بالعاطفة لي في الساعة ٤:٤٥ مساء عندما تحدثت مع جينشر الذي اتصل بالهاتف وقبل أن أحادث جينشر قال سكرتيره بحرارة: «فليبارك الرب أمريكا. نشكركم علي كل ما بذلتموه سيدي». وقال جينشر: «إنها لحظة باهرة في تاريخ أمتنا – شكراً لكم علي كل ما بذلتموه وقدمتموه. إنني أود أن أشكر الشعب الأمريكي لما بذله من أجل ألمانيا منذ الحرب العالمية الثانية وخاصة لبرلين». وأضاف: إن ألمانيا ستستمر في حلف شمال الأطلنطي والمجموعة الأوروبية.

وقلت له: «إن كل ما قلتموه عن حلف شمال الأطلنطي وتصميمكم علي مواصلة سياستكم الحالية بالاشتراك مع الحلفاء الغربيين لأمر بالغ الأهمية». وأكد مجدداً: «لقد قلت أمام حشد ضخم ضم عشرة آلاف شخص إننا سنواصل تحالفاتنا وتعهداتنا ولن تسلك ألمانيا طريقاً خاصاً بها. سوف نطور سياستنا بمشاركة حلفائنا».

وقلت منتظراً سماع رد فعله: «إن الولايات المتحدة ترحب بالأحداث المثيرة. لكن الطريق كان طويلاً بين حرية السفر حتي إعادة التوحيد. ربما كان من السابق لأوانه معالجة إعادة التوحيد الآن».

وقال مشيراً ضمناً إلى إن فكرة المصالحة «الداخلية» في ألمانيا الشرقية شرط مسبق للمصالحة «الخارجية» بين شطري ألمانيا: «إن شعب ألمانيا الديمقراطية يمارس حقه في حرية التنقل الآن، والخطوة التالية هي إجراء انتخابات حرة. ولا أعرف علي وجه التحديد متي سيتم ذلك. واستطرد ليطمئنني: «إن ألمانيا لن تشكل مطلقاً أي تهديد لجيرانها عندما تصبح

حرة وديمقراطية. إنها تشكل خطراً عندما تخضع للحكم الشمولي، وأنهينا المكالمة بالاتفاق على أنه ليس هناك حاجة حالياً لعقد مؤتمر القوي الأربع*.

واستمر المد العاطفي في اليوم التالي عندما تحدثت إلي فيرنون والترز سفيرنا في ألمانيا الغربية الذي كان سعيداً لقيامه بزيارة برلين الشرقية. وانتعشت آمالي عندما أبلغني أن والتر مومبر عمدة برلين الغربية قد تحادث مع شابوفسكي الذي أبلغه «بأنه لن تحدث مذبحة تيانانمين هنا» لكن ما لبث والترز أن أبلغني «أن الاتحاد السوفيتي يظهر إهتماماً كبيراً بضرورة ألا يحدث شيء عند بوابة براندنبورج، فللسوفيت لهم نصب تذكاري في الشارع يسمي «نصب ١٧ يوليو» وأن احتفالاً ألمانياً بالقرب من النصب التذكاري السوفيتي لضحايا الحرب قد يثير رد فعل عاطفيا في موسكو**.

وفي الواقع كان المزاج السائد في الكريملين غاية في الوضوح في رسالة بعث بها جورباتشوف إلي الرئيس بوش، وحذر الزعيم السوفيتي من أن «الوضع الفوضوي قد يفضي إلي عواقب غير منظورة» وهناك خطر حدوث «تطرف سياسي» في ألمانيا الغربية. وأراد جورباتشوف عقد اجتماع للقوي الأربع وهو طلب قوبل برفض فوري. لكن كان من الواضح أنه لايزال غارقاً بشدة فيما وصفه «بحقائق ما بعد الحرب الثانية – أي دولتين ألمانيتين».

وفي وقت لاحق من اليوم اتصلت بدوجلاس هيرد الذي خلف جون ميجور وزيراً للخارجية في بريطانيا. وبعد تهنئته بمنصبه الجديد بحثنا الحاجة الداعية إلي تنسيق المواقف بيننا وبين فرنسا. وأكد الحاجة إلي الاستقرار. مشيراً بقوة إلي: «أن الصحافة البريطانية قد تقدم علي الأرجح رؤية غير واقعية للتطورات في المستقبل». ومن الواضح أن قيادة الكريملين ليست الوحيدة التي تتابع الرأي العام.

---

* كان لبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة حقوق قانونية كقوى احتلال لألمانيا في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

** رغم أن والترز دبلوماسي متمرس إلا أن نهجه تجاه عملية الوحدة لم يكن إيجابيا تماماً. ففي عدة مناسبات في خريف عام ١٩٨٩ اصطدم بدور عام لم يفرض عليه إما بالتنبؤ بإعادة التوحيد أو الإلحاح عليه. وفيما كنا نتشاطره شعوره كان علينا أن نذكره بأن مثل تلك التصريحات العلنية غير المصرح بها تشوش علي رسالتنا وتقوض جهودنا لإدارة قضية الوحدة بفعالية مع الدول الأخرى. لاسيما موسكو، وغالباً ما يشكو السفراء من سيطرة أو توجيهات واشنطن. لكن الحقيقة هي أنهم يبالغون في التركيز فقط علي الأثر الذي قد تتركه الاستراتيجية علي مواقفهم.

وفي ١٣ تشرين الثاني نوفمبر انضممت أنا وبرينت إلي الرئيس في مقر إقامته علي عشاء مع هنري كيسينجر الذي أعرب عما يشعر به: «إن الوحدة الألمانية – حتمية - وإن الولايات المتحدة ستدفع الثمن لو شعر الألمان أن الولايات المتحدة تقف في طريق آمالهم وطموحاتهم». وقال الرئيس إنه يريد «تطوراً حكيماً» فمهمتنا هي تحويل الحتمي إلي تطور.

المناظرة الدبلوماسية

البعد العام

أذِنَ انتهاء تشرين الثاني نوفمبر بحدوث جدل عام محتدم حول الوحدة الألمانية بين بون وبرلين وموسكو ولندن وباريس. وفي الوقت نفسه لم تجر إلا مناقشات سرية قليلة عبر القنوات الدبلوماسية. ولم تكن هذه مفاجأة بالمرة. فقد دفعت صدمة انهيار السور الحكومات إلي مراجعة خطط الطوارئ. كما أن البعد العاطفي البهيج غيَّر افتراضات الكثيرين حول الوحدة الألمانية. وهكذا أصبح مفهوماً أنهم يريدون تطوير فكرهم الخاص وتشكيل حكومة تحظي بقبول موسع علي الأقل قبل إثارة أفكارهم علنياً.

وباغت المستشار كول الكثير من رجال الدولة بطرح اقتراح في ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر. ففي إجراء مفاجئ حدد كول الإطار العام لخطة من عشر نقاط لإتمام الوحدة الألمانية في خطاب ألقاه أما البوندستاج كانت خطة كول اقتراحاً متواضعاً نسبياً يدعو إلي تشكيل عدة لجان بيئية واقتصادية ولجان أخري مشتركة، وتضمنت إقامة اتحاد فيدرالي بعد فترة كونفيدرالية. وحددت الخطة إطاراً عاماً حذراً لإعادة توحيد الألمانيتين، وشجعت الألمان في الشطرين على أخذ الوحدة علي محمل الجد. وفيما كنا نفضل لو أننا أُطْلِعْنَا علي الخطة قبل إعلانها، فقد اتصل كول بالرئيس ليطمأنه بعد الخطاب.

وفي اليوم ذاته تلقينا رسالة من كرينتس، وكان يريد أن يشكرنا علي اهتمامنا بالتطورات في ألمانيا الشرقية، ويطمئننا علي أن حكومته ستواصل تطبيق تغييرات بعيدة المدي لكن في «إطار اشتراكي» وبعبارة أخري فإن حكومة ما بعد هونيكر في سبيلها لتطبيق البيريسترويكا في ألمانيا الشرقية لا الديمقراطية. وتضمنت الرسالة الإعلان مجدداً عن رأي ألمانيا الشرقية بأن وجود دولتين ألمانيتين يعد عنصراً مهماً لضمان الاستقرار في أوربا. وهذا هو مضمون خطها السياسي المستقبلي. وكتبت في مذكرة للرئيس في تلك الليلة: «إن تحليلنا هو أن رسالة كرينتس تشكل سياسة ألمانيا الشرقية قبل أن نبحث مستقبل ألمانيا في مالطة» (كان من المقرر أن يجتمع مع الرئيس جورباتشوف في مالطة الأسبوع القادم).

وفي الوقت الذي ربما تكون رسالة كرينتس قد طمأنت موسكو فقد وجد الكريملين نفسه مضطراً للرد علي أهم خطاب عام يلقيه كول. وفي ضوء الفوضي الحادثة في ألمانيا الشرقية لم يكن واضحاً أن النظام سيعمر طويلاً لتطبيق سياسته، وتعززت حكومة كول داخلياً نتيجة احتمال إعادة التوحيد، وسيكون علي السوفيت أن يتعاملوا معه في الأشهر القادمة. واشتكي شيفرنادزة من أن خطة كول سوف تعجل قبل الأوان بعملية يمكن أن تثير اضطراب وتقود إلي عواقب غير منظورة. وقال جينادي جيراسيموف المتحدث باسم الخارجية السوفيتية في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر: ليس هناك بلد واحد في أوربا اليوم يستطيع السعي لإتمام الوحدة الألمانية لأنها تثير تساؤلات حول الاستقرار. إنها قضية غير مطروحة علي جدول الأعمال وفي مؤتمر صحفي عقده في ميلانو قبل وصوله إلي مالطا قال جورباتشوف: إنه فيما لا يعني استبعاد إعادة توحيد ألمانيا علي المدي البعيد. فإنها لا تعتبر اهتماماً دولياً ملحاً فدعونا ألا نضغط أو نلح علي القضية. فالتاريخ سوف يسوي المسألة.

وكانت الشكوك تساور كلا من لندن وباريس. وبسبب قدر من الهلع نتيجة قرار كول عدم التشاور معهم قبيل إعلانه خطته قال هيرد: «أعتقد أننا ممرورين بالنقاط العشر. «إنني أعتقد أن هناك حاجة لإحدي عشرة نقطة تقول إنه لن يتم عمل أي شيء من شأنه تدمير التوازن والاستقرار في أوروبا أو يثير القلق في عقول من يحق لهم أن يشعروا بالقلق».

وأوضحت مارجريت تاتشر بأنه حتي تتحقق حدود الديمقراطية في ألمانيا الشرقية فلابد وأن تظل الحدود الشماليةقائمة بدون تغير.

وأبدت باريس ضيقا من إعلان كول حيث لم يلمح كول بأي شيء خلال مأدبة عشاء خاصة مع ميتران قبل ثلاثة أيام فقط. وفور إعلان كول خطته في البوندستاج أعلن كول أنه سيزور رئيس الوزراء الألماني الشرقي الجديد هانز مودروف في كانون الأول ديسمبر. ورد ميتران بلطمة واضحة علي كول بإبلاغ الصحافة بنبأ الزيارة قبل إبلاغ كول به.

وكان رد فعلنا أكثر مرونة. فقد زارنا جينشر قبل أسبوع، وكنت واثقاً من أن بون وواشنطن سوف تستطيعان إدارة قضية الوحدة الألمانية بدون اختلاف. وكان السؤال الحقيقي هو: كيف يمكن حمل موسكو علي الموافقة، ثم باريس ولندن بدرجة أقل. وكان مطلوباً كبح حماسنا تجاه سقوط السور وهو الهدف الذي عملت أمريكا لتحقيقه علي مدار عقود، وبدأ منتقدونا في الداخل في الترويج لمقولة أن استجابة الرئيس الخافتة أظهرت غياب أي «رؤية» لديه. لا عليك فلا ضير وتنحي من الشماتة لأننا نعيش مرحلة بالغة الحرج في الشؤون الأوروبية تقتضي رباطة الجأش واللجوء لوسائل هادئة إذا كان لنا أن نحافظ علي استمرارية التغيير.

وحاولت تبديد كل ذلك القلق في اليوم التالي عندما تحدثت إلي المندوبين الصحفيين في البيت الأبيض حول قمة مالطا القادمة. وبدأت بتوضيح أن القمة القادمة لن تكون يالطا الثانية، وقلت: «لن تجري أي مفاوضات، لن تبرم أي صفقات ليست هناك أي حدود. إن التغيير لا يقود بالضرورة إلي عدم الاستقرار. وعلي العكس فإنه الطريق الوحيد لإمكان استعادة الشرعية وضمان الاستقرار علي الصعيد الإقليمي والعلاقات بين الشرق والغرب. ومع هذا فإننا في حاجة إلي إدارة هذا التغيير بطريقة تشجع علي دفع ونجاح عملية التغيير. وقلت: إن هذا يعني عدم انتزاع مميزات منفردة ضد السوفيت. لكن «أي محاولات للتدخل بالقوة أو الحيلولة دون استمرار التغيرات ستنطوي علي قدر بالغ من الخطر وعدم الاستقرار. ورداً علي سؤال حول الوحدة الألمانية «أشرته إلي نقاط أربع خاصة بنا.

الأولي: إن تقرير المصير يجب أن يتم بدون حكم مسبق علي نتائجه. ولا يجب علينا في هذه المرحلة أن نصدق علي أو نستبعد أي تصور للوحدة.

الثانية: إن الوحدة يجب أن تتم في إطار استمرار التزام وتكامل أكبر في المجموعة الأوروبية مع الأخذ في الاعتبار الدور القانوني ومسؤوليات الحلفاء.

الثالثة: يجب أن تتم الوحدة تدريجياً وسلمياً وفي إطار عملية تدريجية.

الرابعة: ضرورة احترام قدسية الحدود كما هو منصوص عليه في ميثاق هلسنكي.

وكنا قد بحثنا النقاط الأربع بشكل عام في اجتماعنا بالمكتب البيضاوي في الساعة الخامسة والربع بعد ظهر اليوم السابق فلم نتفق تماماً علي أنها ستمثل عناصر سياسة الولايات المتحدة. ولذا فقد استدركت قائلاً: «إن هذه وجهة نظري». ولم تمر تلك النقاط مر الكرام، وكان فرانك فوكوياما نائب مدير إدارة التخطيط السياسي الذي أصدر فيما بعد دراسة أثارت جدلاً واسعاً باسم «نهاية التاريخ» كان قد أعد مذكرة قبل يومين قال فيها: إن الولايات المتحدة يمكن أن تمارس قيادتها وتؤثر علي الجدل الدائر بطرح مثل تلك «المبادئ» علانية. وفي اليوم التالي لانعقاد قمة مالطا أعلن الرئيس المبادئ الأربعة باعتبارها سياسة الولايات المتحدة. وأبرقنا بها إلي كافة مكاتبنا الأوروبية لتشكل توجيهات لسفرائنا، وبعد أيام قلائل تبنتها المجموعة الأوروبية أيضاً. وكان هذا حالة نموذجية أخري لمدي ثقل الكلمات، وتحولت النقاط الأربع إلي إطار عام مؤقت حيوي تمكنا من خلالها من متابعة التغيير الجذري في أوروبا بطريقة تكفل الاستقرار. واقتنعت بأن مبادئنا الأربعة هدأت موسكو ولندن وباريس، وطمأنت في الوقت نفسه مجدداً بون بأننا لن ننضم إلي أي محاولات من جانب القوي الأربع لإخراج عملية الوحدة عن مسارها.

برزت فكرة قمة مالطا من مناقشات دارت بين الرئيس معي أنا وسكوكروفت علي هامش قمة مجموعة السبع في تموز يوليو. أما وقد وحّد حلف الأطلنطي نفسه خلف مبادراته التي طرحها في القمة في آيار مايو والآن فقد عاين علي الطبيعة سرعة سير الإصلاح في بولندا والمجر. فقد شعر الرئيس أن الأرض باتت مهيأة لعقد اجتماع مباشر مع جورباتشوف. وقال: «أعتقد أنه يجب أن نجتمع قريباً لا لاحقاً. وتساءل: ما هي الفائدة التي ستعود من الإمتناع الآن؟ وكان يشعر أن البعد عن الرسميات سيكون مفتاحاً مهماً. ووافقت علي الفور. لكن برينت كان قلقاً في البداية حول إثارة التوقعات حول ما يمكن أو قد يتمخض هذا الاجتماع وحول الخلط بين تأييدنا لمبادئ البيريسترويكا وبين تأييد شخصية جورباتشوف. واختتم الرئيس مناقشة المسألة بالقول: «انظر إن هذا الرجل هو البيريسترويكا» موضحاً بجلاء أنه ليس لديه وقت ليضيعه في التفرقة الأكاديمية بين الأشخاص والمبادئ».

وفي ٢ كانون الثاني ديسمبر، وبعد سلسلة من الاتصالات السرية المتعلقة بالترتيبات والمواعيد جلس جورج بوش في القاعة الخاصة بالسفينة الروسية مكسيم جوركي الراسية في خليج مارساكسلوك قبالة مالطا. لعقد أول اجتماع منفرد مع جورباتشوف*. والسبب الأصلي لعقد الاجتماع لدي الزعيمين هو كما حدده جورباتشوف «لندع ورامنا إزعاج المعاونين المرافقين لنتحدث وبدون عجلة أو مراسم بروتوكول في كل ما يجب أن نبحثه من منطلق

* سلم الرئيس خطاب الدعوة لجورباتشوف في اجتماع عقده في تموز يوليو في المكتب البيضاوي مع المارشال سيرجي أخروميف مستشار جورباتشوف الحد من التسلح. وتوسّلْتُ ووافقت علي هذه الخطوة فلم يحظ بها شيفرنادزة علماً، وعندما علم بها استشاط غضباً لتخطيه وتعين عليّ الاعتذار. كان أخروميف من معارف سكوكروفت ولم تكن تعلم أنه سيحاول الالتفاف علي شيفرنادزة. وفي آب أغسطس رد جورباتشوف بإيفاد الكسندر بسمرتنيخ نائب وزير الخارجية حينذاك إلي واشنطن بهدف علني هو إجراء مباحثات تتعلق بالقضايا التي تم بحثها في برمنجهام وما يدعو للسخرية أن الصحافة انتقدت الرئيس لعدم لقاء جورباتشوف في الوقت المحدد رغم أننا كنا نعكف علي إعداد الترتيبات للاجتماع.

وبداية دعا الرئيس جورباتشوف لزيارته في منزل العطلة في ووكر بوينت في كينيبانكبورت أو إلي المجمع الرئاسي في كامب ديفيد في أواخر أيلول سبتمبر بعد حضوره دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ورد جورباتشوف باختيار أسبانيا التي قال إن بها موزراً هي الأخرى، فاقترح الرئيس مالطا بإيعاز من شقيقه ويكي بوش الذي كان قد أمضي عطلة مؤخراً فيها.

مواقفنا، وقد تجاوزه الآن الزلازل السياسي الذي اجتاح أوروبا الشرقية. كما أن السؤال الذي يدور بخلد الجميع هو: هل ستصبح قمة مالطا يالطا الثانية؟ هل ستشكل القوتان العظميان حلفاً ثنائياً وتحسمان القضية الألمانية بنفسيهما؟ ومن المفارقات الغريبة أن اقتراح الرئيس بعقد قمة السفينة قد نبع من إصرار جورباتشوف علي الاجتماع علي أرض محايدة، وعشق الرئيس بوش للبحر وإعجابه بمواقف جمهورية ألمانيا الغربية بلقاء الزعماء الأجانب علي السفن - علي سبيل المثال اجتماع مالطا الخاص بألمانيا الغربية مع تشرشل في شباط فبراير ١٩٤٥.

ولسوء الحظ كانت الأحوال الجوية في مالطا بالغة السوء، واضطررنا عدة مرات إلي إلغاء عدة جلسات. فقد حبستنا الأمواج التي بلغ ارتفاعها عشرون قدما والرياح العاتية التي تشبه الاعصار في السفينة الأمركية بيلكناب حاملة الصواريخ الموجهة. (وقال قبطان السفينة جون اف سيجلر للرئيس إنه خلال عمله لخمس وعشرين عاماً في البحرية لم يشهد اضطراب البحر بمثل هذا الشكل وهو راس في الميناء).

وفي أعقاب الأحداث التالية وتوحيد ألمانيا، والتعاون الأمريكي السوفيتي خلال أزمة الخليج، وانهيار الاتحاد السوفيتي نفسه فمن السهل التقليل من أهمية لقاء مالطا، وعلي خلاف معظم القمم الأخري لم يكن بها حفل توقيع إلزامي لكنني أعتقد أنها كانت حاسمة في تحقيق التحسن الهام في التوازن الامريكي السوفيتي الذي اصبح ضرورة حاسمة عام١٩٩٠.

وعلي الصعيد الشخصي دشنت قمة مالطا بين جورج بوش وجورباتشوف نفس العلاقة التي دشنتها جاكسون هول بيني وبين شيفرنادزة ومكنتهما من إقامة علاقه شخصية متينة. وقبل الاجتماع كانت معرفه الرئيس بجورباتشوف نظريه بالطبع. وكما قال ريتشارد نيكسون في رساله نصيحة أرسلها الي الرئيس قبل يومين من قمه مالطا: «لاشك في أنه زعيم للاتحاد السوفيتي من نوعية جديدة مهمة، ولطالما رحبنا بالمبادرات التي اتخذها بالفعل داخليا وخارجيا. لكن يتضح من فحص الأدلة أنه يفضل الفضيلة تحت وطأة الضرورة. وهذا لايجعله بالضروره زعيماً فاضلاً.

لكن مع قمة مالطة أصبحت العلاقة شخصية وإنسانية وخلال ربيع عام ١٩٩٠ ونحن نعمل لإدخال ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلنطي كانت علاقة الرئيس الشخصية مع جورباتشوف حاسمة للغاية .

ومن الواضح أيضا أن نهج جورباتشوف تجاه الولايات المتحده قد تطور أيضاً. وبينما نحن نعد للقمة في أواخر تشرين الثاني نوفمبر توقعنا أن يتحفنا جورباتشوف بإحدي مفاجآته للرئيس. ولمواجهة هذا قررنا إعداد قائمة بعشرين مبادرة يستخدمها الرئيس في الطرح الأولى ليظهر لجورباتشوف أساساً أننا جئنا مسلحين للعب لعبته.

لكن بالنسبة لجورباتشوف كشفت هذه المبادرات شيئاً مختلفاً – هو أن «التوقف» الطويل قد انتهي، وأن الرئيس وليس وزير الخارجية وحده أصبح مشاركاً بالكامل في دعم البيريسترويكا. ولم أعرف ما إذا كان جورباتشوف لديه مجموعة مبادرات قرر عدم طرحها لكن اتضح من كلامه عقب طرح الرئيس أنه انتقل من السياسة التصادمية التنافسية إلي علاقة أكثر تعاوناً، وفي رده علي قائمة الأفكار التي عرضها الرئيس قال جورباتشوف: إنه توقع أن يسمع تأييد الرئيس للبيريسترويكا لكنه استدرك قائلاً: «يسعني القول إننا علي استعداد لسماع خطوات محددة وقد سمعتم هذا اليوم. وحتي من قبل أن يسعني قول ذلك». وقال: إن الاقتراحات تعكس إرادة سياسة علي قمة حكومتكم للتحرك قدماً بإيجابية». (وسرعان ما تم تجاوز المبادرات بإحراز مزيد من التقدم في العلاقة) . واستطرد قائلاً: «أما بالنسبة للمستقبل فإننا جميعاً نشعر اليوم بأننا علي أعتاب مرحلة تاريخية. وعلينا أن نعالج مشكلات لم تكن نتوقع أن تصبح بهذا القدر من الحدة. وهل يتعين علينا أن نعالج تلك المشكلات بنفس الطريقة التي كنا نعالجها في الماضي؟». وما لبث أن أجاب عن سؤاله: «لا. وإلا فسوف نفشل. فطريق الحرب الباردة قد هزم استراتيجياً وفلسفياً. والجميع يدرك هذا. إننا نعرف التأثير الذي يملكه الناس علي السياسة. الناس في الشارع وفي الكونجرس ومجلس السوفيت الأعلي».

وعلي مستوي المبادئ طمأن الرئيس جورباتشوف مجدداً بشأن أوروبا الشرقية قائلاً: «كلي أمل في أن تكونوا قد لاحظتم أنه مع تسارع سرعة التغيير في أوروبا الشرقية مؤخراً فلم نرد بتحمس مفرط أو تصلب حتي لا يضعف موقفكم». وقال الرئيس إنهم يقولون: «إن بوش شديد الجبن شديد الحذر، إنني حذر لكني لست خائفاً. لقد حاولت أن أسير بطريقة لا تعقد صعوباتكم». ورد جورباتشوف بأنه لاحظ ذلك، وأنه يقدره. لكنه طرح نقطة أكثر شمولاً: «إننا نقبل دوركم في أوروبا. فمن المهم أن تكونوا هناك». وأعرب عن اعتقاده بأن أوروبا تسير علي طريق التكامل، «ومع تقدم هذا التغير قدماً يجب علينا ألا نفعل شيئاً لتقويضها – وعلينا أن نعمل سوياً وألا نهدر الفرصة».

وكان أشد ما يضايقه علي ما يبدو هو استخدامنا لاصطلاح «القيم الغربية» في خطبنا وتصريحاتنا العامة. وشرح الرئيس: «إن استخدام مصطلح القيم الغربية لا ينطوي علي أي عداء». لكن جورباتشوف كان يعتقد أن كلمة غربية تشير ضمناً إلي أن الإصلاحيين لم يتبنوا أو يعتنقوا بعض هذه القيم. في حين يشعر أنهم يفعلون ذلك بالفعل، وفي ثنايا قلقه لمست العزلة الروسية المعهودة بين السلاف والغربيين. وسألت: لماذا لا تسميها «القيم الديمقراطية» ورد جورباتشوف: «هذا جميل» وبهذا التفاهم دشنا درجة جديدة من التعاون علي المستوي الشخصي والمبادئ.

الدبلوماسية كفن معماري

وأنا ذاهب للعمل يوم الجمعة الثامن من كانون الأول ديسمبر كانت واشنطن تتأهب لأول عاصفة ثلجية في فصل الشتاء. ومع الظهر كان سمك الثلج كبيراً (رغم أن معايير واشنطن منخفضة عن معايير أخري) لدرجة أن الإدارات العامة أعطت أجازة للعمالة غير الضرورية. وكانت وزارة الخارجية مكاناً معزولاً نسبياً بعد ظهر ذلك اليوم عندما استقبلت سيرجي شيتفريكوف القائم بالأعمال الروسي الذي جاء في مهمة عاجلة. فموسكو تطلب من

لندن وباريس وواشنطن دعوة سفرائهم لدي ألمانيا الغربية للاجتماع في أسرع وقت ممكن مع نظيرهم السوفيتي «لتبادل الآراء حول الشأن الألماني». وقبل أربعة أيام فقط كان نحو مائتي ألف شخص قد احتشدوا في ميدان فينسيسلاس في براغ للمطالبة بتخلي الحزب الشيوعي عن السلطة. وقبل يومين أُجْبِر ايجون كرينتس الذي لم يمض علي توليه السلطة سوي أقل من شهرين علي أن يحذو حذو هونيكر. فقد فشلت محاولاته للتمسك بالاشتراكية وشن الإصلاحيون هجمات علي المنشآت العسكرية في ألمانيا الديمقراطية. كانت عجلة التغيير تدور بسرعة وباتت موسكو عرضة للتأثر بنجاح الديمقراطية.

وفي هذا المناخ المتوتر كان من المقرر أن أزور برلين لإلقاء خطاب حول أوروبا. وقبيل وصولي مباشرة وافقنا علي الطلب السوفيتي، وعقدنا أول اجتماع للقوي الأربع خلال ثماني سنوات.

وفي هذا الاجتماع أكملنا العمل في الاتفاق الرباعي البارز الذي نظم وضع برلين وحدد حقوق القوي الأربع في المدينة. ويوم الأربعاء الثاني عشر من كانون الأول ديسمبر اجتمع السفير السوفيتي في ألمانيا الشرقية فياتشيسلاف مع السفيرالفرنسي بوديناكس والسفير البريطاني مالاباي والسفير والترز بمقر هيئة مراقبة الحلفاء في برلين الغربية، وبدأوا مباحثات تمهيدية حول برلين ووضعها في المستقبل.

وبدأت اليوم في برلين علي إفطار مع كول الذي كان يشعر بشيء من الضيق. وأبلغني أنه يعتزم لقاء جورباتشوف قريباً، وأنه واثق من أن موسكو ستكون أشد الأطراف تصلباً مع بون. وأنه يعي علي حد قوله أن «التغيير في ألمانيا يعني التغيير في أوروبا كلها، ويعني أيضاً تغيير هيكل أوروبا والعالم».

لكن ما يقلقه هو الإشارات الخافتة التي تصدر من باريس ومن لندن بشكل خاص. وكان يعتقد أن الجهود الغربية لفرملة إعادة التوحيد أو تهذيب رغبات الألمان الشرقيين لما هو أقل من الوحدة – مثل اتحاد فيدرالي – سيكون أمراً بالغ الخطورة. وقال إنه في ضوء

«النهج المتدرج» الذي يواجهه الزعماء فإن الرأي العام في ألمانيا الشرقية هو البوابة الأشد خطراً. فإذا شعرت الجماهير أن تطلعاتها لن تتحقق فقد تلجأ إلي العنف. فالأفراد الشعبيين الألمانيين يريدون الوحدة وهم في حاجة إلي «تصور» لتحقيق تلك الوحدة. ولم يكن لديه أي مشكلة بعد أن شعر بالاطمئنان من المبادئ الأربعة التي أعلنها الرئيس. لكن تاتشر فاجأته بشدة. وقال إنها تعتقد أنه بعدم استخدام لفظ إعادة التوحيد فإنها سوف تتلاشي. لكنني أشرت إلي أن الألمان أيضاً يبدو أنهم يتجنبون استخدام الكلمة أيضاً و «هذا يغذي شكوك الجماهير» وهذا هو الذي جعلنا نحدد الوحدة كهدفنا التالي».

وبعد الإفطار توجهت لعقد اجتماع قصير مع العمدة مومبر عمدة برلين الغربية ثم توجهت لتفقد سور برلين بالقرب من بوابة البراندنبرج. كان يوماً ضبابياً سيء الطقس وكنت في معطفي الواقي من المطر أشعر وكأنني أبدو كشخصية من شخصيات رواية جون لوبير. ولكن وأنا أنظر من فتحة السور وأري اللون السنجابي القاتم الكئيب الذي يميز برلين الشرقية تأكدت من أن الرجال والنساء العاديين في ألمانيا الشرقية تولوا أمورهم بأنفسهم سلمياً وبإصرار. فهذه هي ثورتهم ومهمة رجال مثلي هي مساعدتهم في الحصول علي الحرية التي يعملون جاهدين لنيلها.

وفي هذه الأجواء الصاخبة اكتسي خطابي أمام اتحاد للصحفيين في برلين أهمية جديدة. وبوضوح شديد كان الزلازل السياسي قد سوي بالأرض «عمارة» دبلوماسية أوروبية يعود تاريخها إلي أربعين عاماً كما يحلو لعلماء الاجتماع أن يسموا المؤسسات السياسية. ويبدو أن معظم أوروبا تربوا إلي الولايات المتحدة بحثاً عن التوجه.

وفي خطاب كتبه بوب زوليك استناداً إلي مسودتين أعدتهما إدارة التخطيط السياسي ومكتب الشؤون الأوربية بذلت محاولة لطمأنة الأوروبيين بأننا لسنا في حاجة إلي البدء من جديد تماماً، وتعرضت للمؤسسات الثلاث التي تهيمن علي أوربا – حلف شمال الأطلنطي، والمجموعة الأوروبية، ومؤتمر الأمن والتعاون في أوربا – وأظهرت مدي حاجة كل منها إلي

التطوير للترويج لما أسميه «أطلنطية جديدة لحقبة جديدة»، وهو اصطلاح اقترحه مفاوضنا في معاهدة ستارت وسفيرنا السابق لدي ألمانيا ريك بورت.

وبدأت وأنا أدعو إلي الحاجة لأن يصبح حلف الناتو تحالفاً «سياسياً» بقدر أكبر عملية دفع السوفيت إلي قبول استمرار وجود حلف الأطلنطي حتي مع زوال حلف وارسو وقبول ألمانيا الموحدة في عضوية حلف الأطلنطي، وعن المجموعة الأوروبية لم يكن لدى سوي الإشادة وهو ما أخذه الأوروبيون بعين الرضا. لأنهم كانوا يخشون من أن الولايات المتحدة قد تعارض محاولتهم من أجل التكامل. وبالنسبة لمؤتمر الأمن والتعاون في أوربا (الذى أعتبره منظمة غير عملية تدعو للإحباط) طرحت مجموعة مبادرات ستجعل منه أداة لتشجيع التغيير الداخلي المستمر في أوروبا الشرقية، واختتمت الخطاب بتأكيد مبادئنا الأربعة حول الوحدة الألمانية.

وفاق رد الفعل علي خطابي كل توقعاتي، وكنت أعرف أن استقامة ووضوح لغتي ستشيع الاطمئنان. كما أن مجموعة المبادرات ستظهر أن لدينا أفكاراً جادة، ولكن كمعظم الأشياء في السياسة فإن التوقيت هو الذى هيأ لها النجاح الكبير. ففي أجواء القلق الدبلوماسي التي ألقيت فيها الخطاب وفر خطابي مادة ثرية للصحفيين والدبلوماسيين لاستغلالها في محاولاتهم الرامية إلي تفسير التغيرات التي تجتاح القارة . ومرة أخري فقد أظهر الخطاب أنه في الوقت الذى نسحب فيه قواتنا من أوروبا . فبوسعنا زيادة نفوذنا من خلال عدة أفكار منتقاة جيداً. وفي المقام الأول فقد أكد الخطاب علي أن الولايات المتحدة ستبقي قوة أوروبية تضع المبادئ التي تستمر في توجيه العلاقات عبر الأطلنطي. وعقيب الانتهاء من إلقاء خطابي غادرت فندق شتايجنبرجر للقيام بزيارة غير مقررة إلي بوتسدام بألمانيا الشرقية.

وكنت قد اتخذت قرار زيارة المدينة الليلة الماضية فقط. وعارض السفير والترز ووزيرنا في برلين هاري جيلمورى فكرة الزيارة. لكنني عرفت أن الرئيس ميتران يعتزم زيارة ألمانيا الشرقية الأسبوع القادم، وأردت إظهار قوة القيادة الأمريكية بالذهاب إلي هناك أولاً. والأهم فقد اعتقدت أن الزيارة يمكن أن تساعد في تأييد عملية التغيير السلمي، وبعد

الاستماع إلي نداء مؤثر من ريتشارد باركلي سفيرنا لدي ألمانيا الديمقراطية بأن زيارتي سيكون لها مثل هذا الوقع، وبعد مراجعة كول وجينشر طلبت من بات كيندي وكارين جروميز اتخاذ الترتيبات لإتمام ما سيكون أول وآخر زيارة يقوم بها وزير خارجية أمريكي إلي ألمانيا الشرقية.

وكانت رحلتي إلي بوتسدام بالسيارة أكثر رحلاتي – كوزير للخارجية – خيالية، وعندما بدأناها عند الغروب بالعبور إلي الناحية الجنوبية الشرقية في برلين الغربية واقتربنا من جسر جلينيكه. كان الجسر هيكلاً معدنياً صدئاً مقفراً يجتاز نهر هافيل وهو أشهر موقع لتبادل عدد من الجواسيس، وبعد إسقاط طائرته فوق سيبيريا عام ١٩٦٠ أطلق سراح الطيار فرانسيس جاري قائد طائرة من طراز (U2) عند الجسر، وحديثاً عبر أناتولي شارانسكي أشجع المنشقين السوفيت إلي الغرب من هناك. لكنني كنت متجهاً نحو الاتجاه العكسي، ولدي اقترابنا من الجسر توقف فريق حراستنا الألماني الغربي في حدة واضحة، وعبر موكبنا الجسر لتلتقطه حراسة من شرطة ألمانيا الشرقية.

ولبرهة خاطفة تُذَكَّرْتُ بأن بوتسدام استضافت آخر مؤتمر للقوي المنتصرة ما بعد الحرب – بريطانيا والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. (وقد زار جون فوستر دالاس برلين الشرقية في الخمسينيات وزارها ويليام روجرز في السبعينيات) وتذكرت أيضاً من أيام برينستون كيف قام إيرنست بيفين – بأول زيارة كوزير لخارجية بريطانيا – لبوتسدام بالطائرة للمشاركة في مؤتمر بوتسدام، وها أنا استقل السيارة إليها بعد نحو خمسة وأربعين عاماً تقريباً. (كان بيفين اختيار اللحظة الأخيرة لرئيس الوزراء كلمين أتلي فيما هزم وينستون تشرشل في انتخابات ذلك العام رغم أنه كسب الحرب. وأنا أسترجع الماضي الآن لا أجد غرابة في أن يكون هذا مصير بوش. فقد إنتصر في الحرب وهزم أيضاً في أول انتخابات تالية لنصره).

لكن أطياف الذكريات سرعان ما أفسحت مكانها للمشاهد الموحشة والمقفرة علي الجانب الألماني الشرقي. وعلي حد تعبير كارون جاكسون مساعدتي التنفيذية لاحقاً كان

الأمر أشبه بالانتقال من عصر السينما الملونة إلي عصر السينما الأبيض والأسود. وبالنسبة لى فإن برلين ليست أبهج المدن. ربما لأننى زرتها فى الستار الألمانى القاتم. لكن برلين الغربية تبدو أشبه بميدان التايمز أو سيرك البيكاديلى مقارنة بما انتظرنا ونحن متوجهون إلي فندق الإنتر بپوتسدام. كان كل شيء قاتماً، المدارس والمباني والشعب، والمزاج. فالشوارع خاوية. اللهم باستثناء بصع سيارات ترابانت الصغيرة خافتة الإضاءة كتلك التي تنبعث من سقف قاتم متسخ في مطبخ. ولم تمض أكثر من ساعة علي إلقاء خطابي وكنت جالساً في فندق الإنتر في اجتماع مع هانز مودروف رئيس وزراء ألمانيا الشرقية وذكرياتي عن الإجتماع مع مودروف عابرة وخاطفة كنظام مودروف نفسه باستثناء التأكيد الذي أوليته لإجراء انتخابات حرة. ولاحت لحظة مثيرة لدي دخول شخص يبدو للوهلة الأولي إنه إيجون كرينتس زعيم الحزب الشيوعي الألماني ، واعتقدت لوهلة أننا اعتقلناه ولكن عندما قدم الرجل زجاجة مياه معدنية تأكدت أنه مجرد نادل.

ومالبثنا أن قطعنا عدة بلوكات في طريقنا الي كنيسة القديس نيقولاي للاجتماع مع ستة من زعماء الكنيسة اللوثرية، وانطوي الاجتماع علي مفارقة. لأن الكنيسة دمرت بواسطة قذائف الحلفاء والمدفعية السوفيتية في عام ١٩٤٥ ولم يعد بناؤها سوي عام ١٩٨٠ .

وفوجئت بالمسؤولية التي أبداها الزعماء ومدى اهتمامهم بمواصلة التغيير السلمي. وفي صدى لما قاله كول لي في الصباح قال أحد هؤلاء الزعماء: هذا وقت الجيشان العاطفي في بلادنا. فقد أثيرت التوقعات، وظهرت علي الملأ للمرة الأولي. والسؤال هو كيف يمكننا السيطرة على تلك التطورات؟.

أما وقد شاركوا في المظاهرات الحاشدة التي أسقطت هونيكر وكرينتس فإنهم يعرفون سطوة وقابلية التحرك الجماهيرى للانفجار. كان الخوف يساورهم من حدوث فراغ في السلطة واعترفوا بأنهم يمثلون السلطة المعنوية الوحيدة في البلاد.

وعن قضية إعادة التوحيد أكدوا أن الإقتصاد لا القومية هو القوة المحركة للأغلبية فى الانضمام إلي ألمانيا الاتحادية. وقال أحدهم: «لنا الحق في أن نتمتع بنفس نمط الحياة في

ألمانيا الغربية. إن هذا الإحساس لا ينبع من منطلق القومية. بل من أننا نريد حياة أفضل». وكما قال آخر: «إن شعبنا لا يري أي سبب يدعوه للانتظار عندما تعني الوحدة تحسيناً فورياً لمستوى معيشته».

وفي تلك الليلة أبرقت للرئيس قائلاً: «ربما أكون مندهشاً بالالتزام بالتغيير السلمي والإصلاح أكثر من أي شيء آخر. فقد استمطر مودروف عبارات جورباتشوف وشيفرنادزة: بأنه «لا عدول عن عملية التجديد. فلا يمكن عكس مسار العملية». وأشار مودروف ضمناً إلي أنه «لاشيء يمكنه رد تلك القوي علي أعقابها، وأن مهمته هي إدارة العملية حتى إجراء انتخابات آذار مارس» وأضفت: «إن رأيي هو أنه ستنشأ وحدة اقتصادية بحكم الأمر الواقع علي أية حال بين شطري ألمانيا... لكنني لا أعتقد أن المواطن الألماني الشرقي العادي يمضي وقتاً طويلاً في دراسة هذا الخيار فكل ما يراه هو الطريق الأكثر اختصاراً صوب ألمانيا الغربية.

هناك معضلة. فلابد من إيجاد طريق ما لإشاعة روح الأمل حول تحسين الأحوال الاقتصادية إذا ما تعين إدارة ومعالجة الضغوط من أجل إتمام الوحدة... والواضح هو أن عملية التغيير السلمي في ألمانيا الشرقية والقدرة علي مواصلة نهج قوي لإعادة التوحيد مرهونة بسياسة إصلاح سياسي وهيكلي جذري في الداخل ومعونة اقتصادية من الخارج. ويتعين أن تقود ألمانيا الغربية طريق المساعدة من الخارج. أما الباقي فهناك حاجة إلي تأييد من التحالف».

«إن مشاركتنا قد تعطي كول ستاراً ما لاتخاذ الخطوات الاقتصادية الضرورية لتأييد ألمانيا شرقية إصلاحية، ولكن مهزوزة من دون إثارة قلق كبير لدي الجيران (حينئذ سيكون حراً في الحصول علي مصداقية سياسية في الداخل وهو أمر جيد معنا.) وبصراحة فإن نشاطنا الاقتصادي والسياسي في ألمانيا الشرقية يخدم مصالحنا وإبقائنا في اللعبة والألمانيتان تتحركان نحو الوحدة، وأشك في أن السوفيت سيكونون أكثر استعداداً لرؤية تعزيز العلاقات بين الألمانيتين لو اعتقدوا أننا نراقب الساحة».

واتخذ طريق عودتي إلي الولايات المتحدة طريقاً ملتفا: حيث زرت بروكسل ثم توجهت إلي سان مارتين في الكاريبي عبر جزر الآزور للانضمام إلي الرئيس في اجتماعه مع الرئيس ميتران.

اجتمعا في ثياب فضفاضة تحت خيمة مقامة علي الشاطئ بفندق لوهابيتاسيون دي لونوفيلار، وهو فندق فخم علي الجانب الفرنسي من الجزيرة الهولندية الفرنسية المنتجع لبحث مستقبل أوروبا. وعقب اجتماع دام ساعة قال ميتران في مؤتمر صحفي: أنه يجب علينا أن نعالج «المشكلة الألمانية بطريقة شديدة الانسجام» وعلي حد تعبيره الدقيق: «إذا لم نتحرك جياد الطريق بسرعة واحدة فسوف يقع حادث» وسوف يكون تفادي وقوع مثل هذا الحادث رؤية ألمانيا وقد توحدت وأصبحت عضواً في حلف الأطلنطي مشروعيٌ الدبلوماسي الثوري في العام الجديد.

الفصل الحادي عشر

بنما

ولت أيام الديكتاتور

إن عدم الاستقرار الناجم عن عدم تحرك ديكتاتورية عسكرية تسلطية فاسدة نحو ديمقراطية انتخابية مفتوحة يجعل مصالح الولايات المتحدة الراسخة محفوفة بالمخاطر

من مذكرة سياسية لوزارة الخارجية حول بنما
آيار مايو ١٩٨٩

منذ بداية تولى مهام منصبى كنت أشعر بقلق داخلى من أن أحد نقاط الإضطراب التى تواجه إدارتنا الجديدة ربما يقتضى فى نهاية الأمر حلاً عسكرياً. كان الجنرال مانويل أنطونيو نورييجا مثالاً لما نسميه فى تكساس «الشخص الكريه». وبات نورييجا الحليف السابق للولايات المتحدة يشكل خطراً متزايداً بعد تَشَعُّبْ وتعمق تواطئه مع مهربى المخدرات الدوليين، وبعد تصاعد هجمات قواته المسلحة علي الجنود الأمريكيين وعائلاتهم المتمركزين فى بنما. وخلال إدارة ريجان رفض بازدراء كل الجهود الرامية للتوصل إلي تسوية من خلال التفاوض مع الولايات المتحدة، وحتي عرض إسقاط التهم الفيدرالية الموجهة له بالاتجار فى المخدرات قد فشل فى ضمان رحيله عن السلطة، وخشيت من أن يكون قد شجعه فى التمادى عجز حكومتنا عن إسقاطه بالعقوبات الاقتصادية، ومن ثم فقد يصبح «العمل العسكرى ضرورة ملحة».

ولم يكن هذا الرأى يلقي قبولاً داخل الحكومة. فالبنتاجون بشكل خاص دأب علي معارضة استخدام القوة أثناء إدارة ريجان، ومن المؤكد أنه سيعارض الفكرة مجدداً. وبالطبع كنت أويد وأفضل التوصل إلي حل سلمي. لكن مع ملاحظتي لعناده شَكَّكْتُ فى أن الدبلوماسية وحدها ستكفى.

ولم يكن الإبقاء علي الأمر الواقع أو التعايش مع استمرار وجود نورييجا فى بنما بديلاً مقبولاً بالنسبة لى. فديكتاتوريته تهدد انتقال قنال بنما إلي السيادة البنمية بموجب المعاهدة، وتهدد أيضاً قدرتنا علي الدفاع عن أمنها. وقوض نظامه العسكرى الفاسد والقمعى جهودنا لإشاعة الديمقراطية فى الأمريكتين ومكافحة تهريب المخدرات. وفوق هذا وذاك كان نورييجا يمثل خطراً علي أرواح «وجود أربعين ألف جندى ومدنى أمريكى فى بنما. وأمَلْتُ فى أن يكون بوسعنا التعامل مع نورييجا من خلال سياسة التصعيد السياسى والاقتصادى والضغط السرى. لكن الهدف واضح. «يجب انهاء حكم نورييجا بطريقة أو بأخرى».

وفى أوائل شباط فبراير ١٩٨٩ انفردت جانباً بمايكل كوزاك عقب اجتماع حول سياسة أمريكا اللاتينية. وتعود معرفتى بكوزاك إلي عدة اجتماعات لمجلس الأمن القومى حول بنما حضرتها بصفتى وزيراً للخزانة. وكموظف مدنى ومدع عام تفاوض وجهاً لوجه مع نورييجا

عدة مرات. كان كوزاك دبلوماسياً قديراً وقتذاً يشغل منصب القائم بأعمال مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمريكتين انتظاراً للتصديق علي تعيين بيرني أرونسون. وخلال فترة الانتقال طلبت منه إعداد ورقة سياسية لي تتضمن ما هو الجديد الذي يمكن عمله لإقناع نورييجا بالتقاعد. وأوصت الورقة بتكاليف الضغوط السياسية والاقتصادية والدبلوماسية، وهو ما يعارضه البنتاجون. وأتذكر كيف دُهشْتُ من الهدف الواضح «الذي حددته الورقة. فقد جاء بها «لايمكن استمرار الوضع القائم، ولا يمكن تأجيل اتخاذ خيار سياسي جذري بعد الآن. ووافقت بتردد علي هذا التقييم الجذري».

وقلت لكوزاك: «إنني أعتقد منذ فترة طويلة أن الأمر قد يستدعي اللجوء إلي القوة لإقصاء هذا الرجل. والمشكلة التي تواجهنا هي عدم استعداد وزارة الدفاع لتبني هذا الحل. وإذا وصلت الأمور إلي هذا فعلينا أن نحقق أقصي ما يمكن تحقيقه وبما يتجاوز الوسائل الأخري».

وأكدت الأحداث صحة رؤيتي. وبعد إنهيار مفاوضات دامت عدة أشهر اهتزت حالة الأمر الواقع الهشة بقتل قوات نورييجا ضابطاً بمشاة البحرية الأمريكية عن عمد في كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩ . ورداً علي ذلك شنت القوات الأمريكية عمليات قتالية قبل خمسة أيام من عيد الميلاد للإطاحة بحكومته غير الشرعية واستعادة الديمقراطية وإحضار نورييجا للمثول أمام العدالة في الولايات المتحدة. وفي غضون أربع وعشرين ساعة انتهي سجله الإرهابي وبعد أسبوعين كان الجنرال في الحجز بالولايات المتحدة علي ذمة المحاكمة بتهمة تهريب المخدرات. وأرسل قرار الرئيس توجيه ضربة من أجل الديمقراطية إشارة قوية بأن جورج بوش شأن سلفه مستعد لاستخدام القوة العسكرية الأمريكية لحماية المصالح «الحيوية الأمريكية، ودعم مبادئ الديمقراطية في الأمريكتين.

ميراث مثار شك

لنحو قرن كانت مصلحة أمريكا العليا في بنما هي الحفاظ علي بيئة سياسية مستقرة تكفل تشغيل قناة بنما والمنشآت العسكرية. وأثارت قضية الاستقرار هذه تصرفات متباينة

كانت مثار جدل من جانب الرؤساء الأمريكيين تتراوح مما بين قرار الرئيس تيودور روزفلت بالتدخل العسكرى فى عام ١٩٠٣ إلى قرار إدارة كارتر بالتوقيع عام ١٩٧٧ على معاهدة تسليم القناة إلى بنما مع نهاية القرن الحالى.

ومع بدء تطبيق أحكام المعاهدة ثارت توقعات بتحسين العلاقات الثنائية. لكن الأمور تحولت نحو الأسوأ فى حزيران يونيو ١٩٨٧ لعدم احترام نورييجا اتفاق عام ١٩٨١ بتسليم قيادة الجيش لخليفة مختار، وأدى هذا التصرف إلى اندلاع مظاهرات وإضطرابات عامة وأزمات دستورية لعدة أشهر سعت خلالها الولايات المتحدة للتوسط كوسيط نزيه بين الجيش والحكومة المدنية برئاسة أرتورو ديلفالى. وفى شباط فبراير ١٩٨٨ وبعيد توجيه هيئتى محلفين كبريين فيدراليتين إلى نورييجا التهمة بتهريب المخدرات استولى فعليا على الحكومة من ديلفالى.

وحتى وقوع الانقلاب الفعلى كانت السياسة الأمريكية تهدف إلى استمرار الضغط على القيادة السياسية والعسكرية فى بنما لاحترام التزاماتها بإقامة الديمقراطية التى قطعها الجنرال الراحل عمر توريخوس هيريرا. وباستلامه السلطة والإتهامات الموجهة إليه أصبح نورييجا شخصية غير مرغوب فيها بالنسبة لصناع السياسة الأمريكية.

وفى آذار مارس ١٩٨٨ فشلت محاولة انقلابية ضد نورييجا مما دفعه إلى إعفاء نحو ربع ضباط قوات الدفاع البنمية فى حملة تطهير لتعزيز قبضته على السلطة. وبعد شهر قرر الرئيس ريجان فرض أشد عقوبات اقتصادية على بنما بهدف تكثيف الضغوط على نظام نورييجا غير الشرعى. وفى نفس الوقت أمر بإجراء مفاوضات للتفاوض مع نورييجا على الخروج من بنما، وكانت بنود الصفقة المعروضة على نورييجا لإغرائه بالرحيل أكثر صفقة تشهد جدلاً حامى الوطيس فى حكومة منقسمة بشدة بالفعل حول السياسة المناسبة للتعامل به. وكان ذلك حقاً أشرس جدل داخلى أتذكر أننى عايشته خلال عملى الحكومى على مدى اثنتى عشر سنة.

وأثناء اجتماع لمجلس الأمن القومى فى آيار مايو ١٩٨٨ فى الغرفة الصفراء بالدور الثانى بمقر إقامة الرئيس بالبيت الأبيض عارض جورج بوش نائب الرئيس حينذاك بشدة

إسقاط الاتهامات الموجهة إلى نورييجا إذا وافق على التوجه إلى المنفى. وقال: كيف يمكننا التصدي بحزم لتجار المخدرات لو صفحنا عن هذا الرجل؟.

وأيدته لأسباب سياسية وأخرى تتعلق بالسياسة إننا كدولة لسنا في موقف يسمح لنا بإبرام صفقة مع واحد من أسوأ تجار المخدرات في العالم وكمرشح للرئاسة سوف يعاني نائب الرئيس بشدة من جراء هذا الموقف. فيالها من سياسة سيئة بل وحياة سياسية أسوأ.

وبعد مناقشات مستفيضة وحامية رفض الرئيس ريجان هذه النصيحة، وتوصل إلي أن خروج نورييجا من بنما قد يخدم المصالح القومية الأمريكية بشكل أفضل. وفي رأيه فإن إسقاط الاتهامات الموجهة إلي نورييجا يعد ثمناً بسيطاً مقابل خروجه. وقد كان قراراً فشل في تحقيق النتائج المرجوة. وبعد تظاهره بقبول الصفقة في البداية عاد ورفضها بدعوي أنه أكثر أماناً في بنما عنه في الخارج.



وإثر تولي إدارة بوش للسلطة كان السؤال المتعلق بماذا يجب عمله حياله واحداً من القضايا الأكثر إلحاحاً. ولسوء الحظ وبرغم المؤشرات الأولية الإيجابية فلم تكلل بالنجاح ،جهودنا الدبلوماسية لإقناع نورييجا بالرحيل . وفي أوائل عام ١٩٨٩ تلقت عدة مقترحات من نورييجا عبر الوسطاء وأدعي أنه حريص على تحسين العلاقات، وكانت رسائل الرد من الرئيس بوش التي سلمت خلال عدة اجتماعات بين كوزاك ومحامي نورييجا هي نفس الردود دائماً، وهي أن الولايات المتحدة مستعدة للتفاوض. لكن فقط إذا أبدي استعداده لبحث مغادرته بنما علي وجه التحديد. وعلاوة علي ذلك فقد أُبـلِّغ بأن الاتهامات الموجهة ضده غير قابلة للتفاوض.

وفيما كنت أتفق مع موقف الرئيس فإن رفضه المبدئي لإسقاط التهم الموجهة إلي نورييجا قد بدد جوهرياً أي فرصة للتوصل إلي حل سلمي للقضية، وخلال مفاوضاته العام الماضي مع كوزاك أوضح نورييجا أنه لن يفكر مطلقاً في مغادرة بنما مالم تسقط الاتهامات

عنه. ففي إحدي اللحظات قال لكوزاك: «سوف تجدون رجلاً مثلي وأتي وتضعونني علي الطائرة إلي ميامي». ولم يكن يسعي مقارعة منطقه. لأنه من المفارقات الفريدة أنه رغم متلوعه في تهريب المخدرات فقد تعاون لعدة سنوات مع سلطات مكافحة المخدرات. وفي عدة مناسبات قام بتسليم عدة تجار مخدرات بتسيين إلي الولايات المتحدة. وطالما أنه تحت تهديد الاتهامات كنت أعتقد أنه سيفضل اغتنام فرصة في بنما عن الذهاب إلي مكان آخر والمجازفة باختطافه علي يد عناصر أمريكية. ولأننا واثقون تماماً من أن الرئيس لن يسقط عنه التهم مطلقاً فقد وصل مسار المفاوضات إلي طريق مسدود. وبات من الواضح لي أن نورييجا قد خلص إلي أن الولايات المتحدة لن تتدخل عسكرياً مطلقاً في بنما، وأن خصومه الداخليين علي درجة بالغة الضعف ولا يمكنهم الإطاحة به. وبلاشك كان مصيباً في النصف الأخير من اعتقاده، ويحتمل أن يكون مصيباً حول احتمالات التدخل الأمريكي مع غياب عمل قوي من جانب الولايات المتحدة.

وفي نيسان ابريل ١٩٨٩ بعث السفير الأمريكي آرثر ديفز الصين سياسياً والذي سبق له الخدمة في باراجواي والشخصية المفضلة لدي السيناتور جيسي هيلمز - بعث ببرقية قوية إلي الخارجية يحث فيها علي انتهاج سياسة أكثر تشدداً لكسر الجمود. فقد أتاحت مفاوضات عام ١٩٨٨ لنورييجا فرصة «لالتقاط الأنفاس» أعاد خلالها ترتيب موقفه وخلق سياسة حزم. وأكد السفير «أن سياستنا تراجعت. فقد درجنا رسمياً علي تجاهل التظلم واعتمدنا علي العقوبات الاقتصادية لإضعافه، وهناك حاجة الآن لاتخاذ إجراءات أقوي. إن استبعاد لاستخدام القوة للدفاع عن مصالحنا يمثل دعوة مفتوحة لنورييجا وهو أضمن طريق لحادث مهلك وأثبتت التطورات اللاحقة صدق رؤية آراء ديفز.

وكان من نتائج البرقية إعداد أقوي مذكرة داخلية أعدها كوزاك في ١٤ نيسان إبريل وبحثها كبار معاونيّ. وقال كوزاك في مذكرته: «إذا كنا نريد إخراج نورييجا فعلينا أن نتصرف بأنفسنا. وعلينا أن نفهم بوضوح أنه لن يغادرينما إلا بمجهود أمريكي أقوي مما استخدم حتي الآن، وفيما نعتقد أن القوة العسكرية الأمريكية ستصبح ضرورة فإنه يجب علي الرئيس أن يكون مستعداً لاستخدام القوة كملاذ أخير. إن التهديد الواثق الذي يمثله استعدادنا

لاستخدام القوة يفتح خيارات أخرى، وهو الأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يفرق بين نورييجا وقواته المسلحة».

وأكد كوزلاك أن البديل الاستراتيجي المفضل هو تحريض قوات دفاع بنما على القيام بانقلاب من خلال مجموعة تصرفات تضفي مصداقية على التهديد بعمل عسكري أمريكي. وأضاف: إنه إذا لم تتحرك قوة دفاع بنما بحلول الأول من أيلول سبتمبر يجب أن يصدر الرئيس أوامره بإقصاء نورييجا. إما عن طريق الخطف أو بعمل عسكري أمريكي*.

كانت فكرة خطف نورييجا محل بحث خلال عام ١٩٨٩ . وفي سياق البحث عن سابقة قانونية توصلت الإدارة إلى أنه بوسع الحكومة الأمريكية محاكمة مشتبه فيه مختطف من بلد ترتبط معه الولايات المتحدة بمعاهدة لتسليم مجرمين. ونتيجة لهذا فقد ألغى الرئيس بوش الحظر الذي فرضه كارتر على مثل تلك التصرفات. ولم يساورني أي شك في أنه إذا ما أمر الرئيس «بخطف» نورييجا فسوف يكون قراره قانونياً. وفي الواقع فقد أصدرت المحكمة العليا الأمريكية حكماً بهذا المعنى في قضية منفصلة عام ١٩٩٢ م.

ومع هذا فلم يكن الرئيس معنياً باختطاف نورييجا. إما من بنما أو من أي بلد آخر ومع ذلك فقد أصر على أن نتخذ استعداداتنا للسعي لتسليم نورييجا بقوة لو كان على درجة من الحماقة تدفعه إلى مغادرة بنما. ولاحت هذه الفرصة من دون توقع في صيف ١٩٨٩ عندما تلقت المخابرات الأمريكية ما اعتبرته إخبارية على درجة عالية من الثقة بأن نورييجا على وشك القيام بزيارة غير معلن عنها إلى جمهورية الدومينيكان لحضور حفل زواج ابنة أحد أصدقائه وتأهب الدبلوماسيون الأمريكيون على وجه السرعة – مسلحين بتفويض من الرئيس – بإعداد وثائق التسليم، وإعداد خطة يقوم مسؤولو الدومينيكان بموجبها بانتزاع نورييجا لحظة وصوله إلى الدومينيكان ثم يضعوه على متن طائرة تقله إلى ميامي. ولسوء الحظ اتضح أن الأخبارية كانت وهمية.

وفي الرابع من آب أغسطس، وبعد إخبارية كاذبة أخرى بأن نورييجا دخل أرضاً أمريكية لفترة قصيرة بحثت مع الرئيس وسكوكروفت في المكتب البيضاوي إمكانية اعتقال

* كان أيلول سبتمبر هو الموعد المقرر لتنصيب عملاء نورييجا في السلطة.

نورييجا لو تصادف وحدث ذلك مرة أخري. وكان هناك إجماع عام بأنه إذا لاحت تلك الفرصة ثانية فيجب أن تعتقل القوات الأمريكية نورييجا وتودعه الحجز وترحله إلي الولايات المتحدة ليمثل أمام المحكمة. وفي ١٧ آب أغسطس حددت الخارجية الأمريكية الإطار العام لسلسلة خطوات تكفل تنفيذ أمر الرئيس باعتقال نورييجا بأقصي سرعة. وتم إعداد الآليات لكن الفرصة لم تتح.

انتخابات مســروقة

كان من المقرر إجراء انتخابات رئاسية في بنما في ٧ آيار مايو. ومع اقتراب الموعد اتضح «مع ذلك أن حملة التزوير المنظمة قد تحولت إلى عملية نهب العار. فقد تلاعب حلفاء نورييجا بقوائم الناخبين وحرموا المعارضين من التصويت ورتبوا لإدلاء الموالين له بأصواتهم بالجملة، وأخافوا مرشحي المعارضة وأنصارهم. وأتاح ازدراء نورييجا بالعملية الديمقراطية سحقاً رهيباً لنا فرصة لتكثيف ضغوطنا عليه ووضع نهاية لهذا التشرذم بداخل حكومتنا.

وقبل يومين من إجراء الانتخابات لخصت الموقف في مذكرة بعثت بها إلي الرئيس ، وقلت: «إن كافة التقارير تشير إلي أن نورييجا قد زور الإنتخابات وسوف يسرقها. وفي تلك الحالة سيكون من المهم اتخاذ خطوات فورية لتوجيه «إشارة واضحة وحاسمة إلي نورييجا أن الأمور لن تسير علي ما يرام كالمعتاد مع الولايات المتحدة لو سرق الانتخابات». وأضفت: إنه لتعزيز الضغوط يجب أن يوافق علي سلسلة من القرارات السياسية التي توصلنا إليها بشبه إجماع من خلال مشاورات بين الوكالات الحكومية تولاها أرونسون وكوزاك.

وحذرت «من أننا نضع أنفسنا علي طريق سوف يعزز احتمالات المواجهة. وعليك أن تدرك أنه بمجرد أن تتخذ تلك الخطوات سوف تولد زخماً. ونأمل أن يستشعر نورييجا بالسقوط ويقتنع بالتنحي عن السلطة. لكن إذا لم يحدث ذلك، وهذا محتمل – فسوف نواجه ضغوطاً لاتخاذ خطوات أقوي».

وتبهته إلي أن مثل تلك الخطوات سوف تزيد من مخاطر حدوث مواجهة عسكرية. ومع هذا فقد تأكدنا خلال العام الماضي أن الإجراءات غير الحاسمة كانت أسوأ خيار سياسي. فقد أضررنا بالاقتصاد البنمي وبالمشروعات الأمريكية هناك، لكننا لم ننظر بجدية كافية لإقناع نورييجا بالتقاعد.

وبأوامر سريعة ضغطت الخارجية من أجل إرسال مراقبين دوليين إلي بنما فيما ركزت أنا والرئيس الاهتمام الدولي علي الانتخابات في سلسلة من التصريحات العلنية. فلو مضي نورييجا نحو سرقة الانتخابات فإننا نريد أن يكون العالم شاهداً علي تلك السرقة، ومن أجل تهيئة الرأي العام لتقبل رد أمريكي ودولية أعنف.

وكالمتوقع سرق نورييجا الإنتخابات من مرشح المعارضة جوليرمو أندارا. ورصدت مجموعة المراقبين الدوليين برئاسة الرئيس السابق جيمي كارتر الذي ألححنا عليه للذهاب إلي بنما أمثلة صارخة وموثقة للتزوير الصارخ في الانتخابات. وأيد إدانتهم القوية لسرقة نورييجا المفضوحة للديمقراطية بصورة لجوليرمو (بيلي) فورد أحد المرشحين علي قائمة إندارا لمنصب نائب الرئيس والدماء تنزف بغزارة من رأسه من إصابة سببها بلطجية نورييجا بينما حارسه الشخصي القتيل يرقد وسط بركة من الدماء.



وفي اليوم التالي الحادي عشر من آيار مايو صرح الرئيس للصحفيين بأن: «أيام الديكتاتور قد ولت» ثم أعلن سحب من يعولهم الأمريكيون غير المقيمين في قواعد عسكرية أمريكية، واستدعاء السفير ديفز وخفض عدد العاملين بالسفارة الأمريكية بواقع الثلثين وإرسال لواء مشاة من القوات البرية لتعزيز القوات التابعة لقيادة المنطقة الجنوبية المتمركزة بشكل دائم في بنما وقوامها ١٢ ألف جندي.

والأهم هو أن الرئيس قرر إنفاذ بند في معاهدة القناة يسمح «للقوات الأمريكية بإجراء مناورات تدريبية غير محددة بهدف زيادة نطاق ومدي تحركات قواتنا داخل بنما. وسيجري جانب من تلك المناورات في مناطق يعتبرها البنميون خاضعة لسيطرتهم التامة. كانت حرباً

نفسية، وكنا نريد أن يدرك أننا قادمون لو لم يبادر بالرحيل. إضافة إلي ذلك كنا نريد أن نوجه رسالة إلي قوات دفاع بنما. بأن نورييجا هو المشكلة. فإما أن تخلعوه وإلا فسوف يأتي الجيش الأمريكي.

وعرضنا القضية علي منظمة الدول الأمريكية، وبدعم قوي من الولايات المتحدة تولت فنزويلا زمام القيادة في الدعوة لعقد اجتماع طارئ لوزراء خارجية منظمة الدول الأمريكية في واشنطن في السابع عشر من آيار – مايو. ومارست أنا وأرونسون ضغوطاً لاستصدار قرار متشدد. لكن الأمر استغرق جهداً شاقاً لإقناع اللاتينيين بإدانة نورييجا بالاسم لسرقته للانتخابات. لكن العقيدة القديمة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول والخوف من القوة الأمريكية لايزالان يشلان حركة المنظمة. وبرغم أن الوزراء أوفدوا وفوداً للاجتماع دورياً خلال الأشهر التالية إلا أن منظمة الدول الأمريكية أثبتت عجزها عن تسوية الأزمة. ولازلت أشعر أنه من المهم منح «فرصة للمنظمة» – حتي لو لم يكن هناك من سبب سوي إيضاح أن الولايات المتحدة قد استنفدت كل البدائل السلمية والدبلوماسية ذلك إذا ما نوين استخدام القوة.

ودار الاختلاف الداخلي الوحيد حول موقفنا المتشدد حول الجدول الزمني لسحب ستة آلاف ممن يعولهم الجنود الأمريكيون ممن لا يقيمون في قواعد عسكرية أمريكية في بنما واتفقت الخارجية والمخابرات المركزية ومجلس الأمن القومي علي ضرورة اكتمال الانسحاب السريع لهم في غضون ثلاثين يوماً. وكانت وزارة الدفاع ترغب في إتمام العملية خلال أربعة أشهر. وحتي بعد استبعاد الرئيس لهذا الجدول الزمني المتردي فقد تلكأت قيادة المنطقة الجنوبية. وعندما التقي وفد المراقبين الأمريكيين للانتخابات مع الجنرال فريدريك هيرنر قائد المنطقة الجنوبية قال لهم: إن هناك عجزاً في صناديق الكرتون اللازمة لتعبئة متعلقات العوائل سوف يؤخر علي الأرجح ترحيلهم من بنما. وروّع السيناتور جون مكاين من أريزونا وعضو الوفد من هذا التفسير. ثم اشتكي إلي الرئيس فيما بعد بأن القيادة الجنوبية جزءٌ من المشكلة وليست جزءً من الحل. ولعدة أشهر بات كثيرون منا يعتقدون أنه رغم أن سجله العسكري باهر فإن الجنرال فيرنر قد أقام علاقة «عمالة» فريدة مع نورييجا وأنه يعارض سياسة الرئيس المتشددة. وفي كل مرة كانت تجري فيها دراسة توصية جديدة باتخاذ إجراء

أشد، كانت القيادة الجنوبية تبدى اعتراضها. وكانت هذه هي القشة التى قصمت ظهر البعير التى دفعت الرئيس بتوصية قوية من تشيني وسكوكروفت ومني باستبدال الجنرال ماكسويل ثورمان بالجنرال فيرنر فى تموز يوليو عام ١٩٨٩.

واستهدفت كل تلك الإجراءات زعزعة ثقة نورييجا لإقناعه وإقناع جيشه بأن صبر الولايات المتحدة آخذ فى النفاد، وأن أفضل الحلول له هو خروجه المشرف فى سلام من بنما. وفى ذلك الوقت لم يعد يراودنى أى شك فى عدم إمكانية بقاء نورييجا فى السلطة، وبحلول الأول من كانون الثانى يناير ١٩٩٠ كان من المقرر تعيين بنمى لرئاسة هيئة قناة بنما بموجب معاهدة عام ١٩٧٧. ولم يكن هناك بأى حال إمكانية لتسليم القناة لحكومة نورييجا غير الشرعية، ومن ناحية أخرى فسوف تثور عاصفة إقليمية لو ألغينا المعاهدة.

وعلي الجانب الآخر أصبح نورييجا أكثر تشدداً وراديكالية. فهو يحصل علي معونة مالية من ليبيا ويزود المقاتلين الماركسيين فى السلفادور بالأسلحة ويزيد كاسترو، ويقوم بتدريب وتسليح «كتائب الكرامة» شبه العسكرية التابعة لنورييجا. وكان فى الواقع فى طريقه ليصبح معمر القذافى فى أمريكا اللاتينية – شخصية عدوانية راديكالية متشددة يهرب المخدرات ويتحالف مع أعدائنا، وبحكم سيطرته التامة علي بلد يتمركز فيها جنود أمريكيون لحماية القناة والدفاع عنها.

وبعد ثلاثة أسابيع من انتخابات آيار مايو أصدرت تعليماتي لسفارتنا فى بنما سيتي لتسليم الرسالة القوية التالية شخصياً إلي نورييجا:

«إن الاعتداءات التى ارتكبتموها ضد قيادة المعارضة والبنميين الآخرين بمن فى ذلك موظفين أمريكيين هي اعتداءات خسيسة وجبانة. ولم يشعر الرئيس شخصياً بالضيق سوى من جراء مشهد بلطجيتكم وهم يعتدون علي مرشحى المعارضة العزل تحت سمع وبصر قواتكم. إن الرئيس يتلقي تقارير مفصلة عن كل عمل عنيف أو تحرش يقوم به رجالكم والرسالة الموجهة لكم هي: أرحلوا، فالرئيس يقول إن الأزمة لن تنتهى إلا بتخليكم عن السلطة والرئيس يعنى ما يقوله».

وفي الوقت ذاته صدرت توجيهات إلي كافة المسؤولين الأمريكيين في بنما بتوجيه رسالة مماثلة في اتصالاتهم مع قوة الدفاع ببنما. وأكدت الرسالة مجدداً أنه في الوقت الذي لا تعادي الولايات المتحدة الجيش فإن نورييجا قد لطخ كرامة وسمعة قوات الدفاع باستخدامها في التنكيل بالمدنيين البنميين. وقد جاء دور قوات دفاع بنما لتحسين سمعتها بالإنضمام إلي المعارضة الديمقراطية. واختتمت الرّسالة بالقول: «إننا نحترم أي اتفاق سيتوصل إليه الفائز في الانتخابات مع قوات دفاع بنما. ولن يكون هناك مكان في بنما لأولئك الذين سيبقون إلي جواره حتي النهاية. فالأزمة لن تحل إلا بتخليه عن السلطة. فالموقف قد يزداد سوءً بل غاية في السوء».

وفي الحقيقة كنا نبذل قصاري جهدنا للتحريض علي القيام بانقلاب، وكانت السياسة التي نتبعها هي تصعيد مطرد وشامل الضغوط. وكانت الرسالة التي توجه علي كافة المستويات هي: إما أن تخلعه قوات دفاع بنما أو نخلعه نحن.

مفاجأة أكتوبر الفاشلة

مساء الأول من تشرين الأول أكتوبر اتصلت زوجة ضابط بنمي برتبة ميجور اسمه موسيس جيرولدي بعميل للمخابرات المركزية الأمريكية مرتبط بالقيادة الجنوبية في مرتفعات كواري، وقالت إن زوجها يدبر انقلاباً ضد نورييجا، ويحتاج إلي مساعدة الجيش الأمريكي. وتحديداً فهو يريد من القوات الأمريكية إغلاق طريقين حتي لا يستطيع نورييجا استدعاء تعزيزات بمجرد بدء الانقلاب. ورفضت تقديم أي تفاصيل لخطة العمليات لمحاورها الأمريكي. لم نكن نعرف الكثير عن جيرولدي لكن ما سمعناه أثار شكوكنا. فقد كان الميجور عضواً في طاقم نورييجا الأمني، وساهم في قمع المحاولة الانقلابية في آذار مارس ١٩٨٨ ولذا فقد افترضنا أنه موال لنورييجا وكانت الواقعة صحيحة كما علمنا بعد فوات الأوان.

ووصفت القيادة الجنوبية تقرير محاولة الانقلاب بأنه استفزاز يهدف اختبار أو مضايقة ماكس ثورمان الذي تولي القيادة في اليوم السابق. واعتقدت أنه يجب تجاهل تلك التقارير. وكان كولين باول الذي تولي رئاسة هيئة الأركان العامة المشتركة الأمريكية في ذلك اليوم

فحسب يشعر هو ورؤساء الأفرع بالقلق من المشاركة فيما يبدو أنه عملية غير معد لها جيداً.

ومع ذلك كان الرئيس أكثر انفتاحاً لدور أمريكي. وقال خلال اجتماع قصير في المكتب البيضاوي في الصباح التالي: «أنظر لطالما أُصِحتَ عليَّ خلال الشهرين الماضيين متوسلاً من أولئك الناس أن يدبروا انقلاباً فإذا كان أحدهم على استعداد القيام بالانقلاب فعلينا أن نساعده».

ثم سمعنا أن الانقلاب قد تأجل ليومين. وزادت تلك المعلومات من شكوكنا. وقد راجت شائعات كثيرة من قبل عن حدوث انقلابات ضد نورييجا لكنها لم تحدث أبداً وافترضنا أن هذا من قبيل التمني من جانب الرتب الوسطي في قوات دفاع بنما.

وعندما بدأ الانقلاب بالفعل في ٣ تشرين الأول أكتوبر أكد الرئيس مشاعره السابقة بتأكيد أكبر. وقال: «إذا كان هناك من هو مستعد للقيام بانقلاب فسوف نساعده. ونُفِذَتْ رغبات الرئيس ونتيجة لهذا قامت القوات الأمريكية بإغلاق طريق الخروج من فورت أمادور وكوبري الأمريكتين فوق القنال وهو ما طُلِبَ منا.

وكانت معلومات المخابرات الأمريكية مشوشة، وصلت مجزأة ومبتورة. ففي لحظة ما أبلغتنا السفارة الأمريكية في بنما سيتي أن جيرولدي يريد تسليم نورييجا إلي القوات. وبعد بضع ساعات أبلغتنا السفارة أن الانقلابيين ليس لديهم أي نية في التخلي عن طريدهم (نورييجا).

وقد حدث كل هذا والرئيس يستقبل في المكتب البيضاوي كارلوس ساليناس رئيس المكسيك. وفي الوقت الذي تجمعت لدينا معلومات كافية لإصدار الأمر للقوات الأمريكية بإغلاق طرق التحريرات كان الإنقلاب قد فشل بالفعل.

كان انقلاباً هزيلاً هزيل الإعداد أخرق التنفيذ. فقد اعتقد جيرولدي علي ما يبدو أنه بمجرد الاستيلاء علي - الكومانداتكيا - مقر نورييجا واحتجازه فسوف يكون نورييجا أكثر سعادة بأن يستقيل وأن يغادر البلاد بعد تقاعده بشرف. وسمح جيرولدي لنورييجا باستخدام الهاتف ليستدعي التعزيزات وكان بوسعه أن يعدم نورييجاعلي الفور بكل سهولة. وبدلاً من

ذلك وفي ظرف ساعات كان جيرولدى هو الضحية. فبعد عجزه عن تحريك القوات عن طريق البر بسبب إغلاق القوات الأمريكية للطريق ورغبة فى عدم استثارة القوات الأمريكية وتبادل إطلاق النار معها استولي أنصار نورييجا علي الطائرات المدنية ووجهوا التعزيزات من مهبط عسكرى قريب إلي المطار الدولى حيث اندفعت إلي مقر نورييجا، وسرعان ما تغلبت علي جيرولدى والمتعاطفين معه. ودفع فشل الانقلاب الإدارة إلي إجراء تحليل للذات وأثار انتقادات من الرأى العام. وكان من الواضح أن فرصة نادرة للإطاحة بنورييجا قد أُهدِرَتْ لرد فعلنا كان دفاعيا بحتا وبدلاً من التشكك كان علينا أن نذهب إلي جيرولدى ونطلب الاطلاع علي خطته مقابل تقديم المساعدة ونقوم بتقييمها ومساعدته فى التنفيذ.

ولا يكفى القول أن صنع القرار فى الإدارة كان قاصراً. ونتيجة لهذا قمنا بمراجعة عملية إدارة الأزمات برمتها. وتعزز دور لجنة النواب لضمان حسن تنسيق عملية صنع القرار فى أوقات الأزمات وفحصها علي الفور بين كافة الوكالات الحكومية المعنية. وكان لتلك التغييرات أمر محمود فى أزمة الخليج.

وأثار أداؤنا الجماعى هجوماً حاداً من الكونجرس لفشلنا فى الرد بشكل جماعى أكثر قوة. وحتي من درجوا علي تأييدنا من الجمهوريين هاجموا الإدارة. ووصفنا السيناتور جيسى هيلمز: «بأننا مجموعة من الهجارة تسطك ببعضها البعض» وشكا هنرى هايد عضو الكونجرس من ألينوى والعضو البارز بلجنة المخابرات بمجلس النواب من «أننا نبدو غير حاسمين مذبذبين ضعفاء». ولم يكن الرئيس سعيداً بشكل خاص من إهدار مجموعة الفرص الجادة.

وجسدت محاولة الانقلاب الفاشلة الكثير من الإحباطات المحسوسة داخل دوائر الإدارة بين المعنيين بتسيير الشئون السياسية اليومية. وحتي عندما تكون السياسة واضحة عادة ما توجد عراقيل بيروقراطية. فقد تلقت القيادة الجنوبية أوامر بإجراء مناورات عسكرية قوية فى آيار مايو علي سبيل المثال – لكن الكثير منها أُلْغِيَ أو خُفِّضَ، وتجاهل أرونسون بشكل خاص – هذه الإحباطات وأراد التحرك بقوة. وقلت لأرونسون ذات يوم: «إن هذه الأمور تستغرق وقتاً علينا أن ننتظر حتي يتشكل رأى عام». وإلا فإننى أتذكر مراودتى لنفسى – بأنه

سيحدث استفزاز ضد المدنيين الأمريكيين بما يثير حنق الرأى العام ويجعل التدخل عملية أكثر صعوبة.

❑ ❑ ❑

كانت المحاولة الانقلابية فى تشرين الأول أكتوبر خطاً فاصلاً للسياسة الأمريكية تجاه بنما ونورييجا. وتعهدنا جميعاً بألا ندع فرصة أخري من هذا القبيل تمر دون أن ننتهزها. فإذا لاحت فرصة مرة ثانية فلن تؤخذ الولايات المتحدة علي حين غرة. وأمر الرئيس بوضع خطط طوارئ مكثفة للتأكد من عدم إهدار أى فرصة للإطاحة بنورييجا. وكان أهمها تصور الإطاحة بنورييجا عن طريق محاولة انقلابية أخري تقوم بها قوات دفاع بنما. ولم تتضمن أى منها احتمال القيام بغزو عسكرى أمريكي وقائي منفرد – رغم أن الجنرال ثورمان أعد خطة طوارئ للقيادة لتدخل عسكرى محتمل حال وقوع انقلاب.

وكما اتضح فلم تضعف قبضة نورييجا علي السلطة بعد الانقلاب علي النقيض من تصريحاتي وتصريحات زملائي العامة. وبدلاً من ذلك فقد أطلق عملاؤه في المخابرات ليميلوا تنكيلاً بين صفوف قوات دفاع بنما. وفي غضون أيام قدمت تلك العناصر أدلة علي تدبير محاولتين لانقلابيين آخريين. وتعرض الانقلابيون الذين كانوا أقل رتبة وأكثر قدرة من الميجور سيء الحظ للتعذيب والسجن، وكانت النتيجة هي أنه علي النقيض من الانطباع العام فإن محاولة تشرين الأول أكتوبر الانقلابية قد عززت موقف نورييجا ولم تقوضه. فقد أصبح مشكلة أكبر عن ذي قبل.

ومن المفارقات اللافتة للنظر أنه حتي رغم أن نورييجا عزز قبضته علي بنما فقد ظهر المسار الدبلوماسي علي السطح بشكل مفاجئ. فقد أبلغ محام فى ميامى يدعي فرانك روبينو، كوزاك بأن موكله يريد التقاعد. وعندما أكد كوزاك مجدداً أن استعداد نورييجا لبحث شروط تخليه عن السلطة يمثل شرطاً مسبقاً للمباحثات. اعترف روبينو بأن موكله مستعد لهذا. والمهم أن روبينو أراد التأكد من معرفة أن «الخيار الأسباني» لا يزال مطروحاً.

وفى أوائل ١٩٨٨ تطوعت الحكومة الأسبانية بعرض استعدادها لمنح نورييجا اللجوء السياسى . وباعتبارها البلد الأم لمعظم دول أمريكا الوسطى واللاتينية درجت أسبانيا على منح اللجوء السياسى لزعماء مستعمراتها السابقة .

وعندما علمت بهذا العرض الجديد أثرته مباشرة مع الرئيس وبرينت سكوكروفت. واتفقنا على أنه مقبول . وفى ضوء قوانين تسليم المجرمين الصارمة فى أسبانيا فسوف نتخلى عن أى فرصة لمحاكمة نورييجا . لكنه سيكون على الأقل خارج بنما . فضلاً عن ذلك سوف تظل الاتهامات الموجهة إليه قائمة . فلن يجرؤ على مغادرة أسبانيا دون مجازفة . وكان كما اعتقدت حلاً عملياً يلبى إصرار الرئيس على إبقاء الاتهامات المثارة ضده قائمة، ويحل فى الوقت نفسه القضية المحرجة المتمثلة فى حماية المصالح الأمريكية، ويعيد الديمقراطية إلى بنما . وقلت لكوزاك: إننا نفوضه فى اقتراح الصفقة . وخلال اجتماعات تالية مع محامى نورييجا أبلغ كوزاك أنهم سيوصون موكلهم بقبول العرض . لكننا لم نتلق رداً على الإطلاق . وفى تلك الحين أحاطت بنورييجا زمرة من المنتفعين المتملقين الذين أقنعوه بأنه حمل «الجرينجو»* على الإذعان . حقاً لقد أصبح سلوك نورييجا غير رشيد وأكثر إثارة للضيق .

عملية الملعقة الزرقاء

على مدى أكثر من أربعة أعوام درجت القوات البنمية على التحرش بالجنود الأمريكيين وعائلاتهم . وقللت القيادة الجنوبية من أهمية الإلتفات لتلك الحوادث . وفى كانون الأول يناير ١٩٨٩ وحده على سبيل المثال سجل سبعة وثمانون حادثاً . وشعرنا بالقلق من أن نورييجا سوف يصعد أعمال العنف ضد الأمريكيين فى أعقاب المحاولة الانقلابية فى تشرين الأول أكتوبر . وبعد المحاولة قام مدير محطة المخابرات المركزية الأمريكية فى بنما سيتى بزيارة نورييجا لتوجيه رسالة شخصية قوية أخرى من الرئيس . وكان بوش يريد أن يوقن نورييجا أنه لو لحق ضرر بأى أمريكى أو تعرض للتحرش بأى حال فسوف يحمله رئيس الولايات

* لفظ شائع الإستخدام بين الأمريكيين من ذوى الأصل الأسبانى ويعنى الأجنبى (وخاصة من الولايات المتحدة) .

المتحدة المسؤولية شخصياً. ونتيجة لهذا المسعي توقفت الحوادث ضد المواطنين الأمريكيين حتي السبت السادس عشر من كانون الأول ديسمبر.

وفي اليوم السابق (١٥ كانون الأول ديسمبر) وفي خطاب أمام الجمعية الوطنية اليمنية قال نورييجا: «سوف نجلس علي ضفتي القناة نري جثث أعدائنا طافية بها». وبتحريض منه ما لبثت الجمعية أن أعلنت حالة الحرب ضد الولايات المتحدة وخلعت علي نورييجا لقب «الزعيم الأعظم» وكان رد فعلنا الأولي هو التقليل من أهمية تلك التصرفات باعتبارها استعراضاً بلاغياً. لكن في اليوم التالي قُتِل ملازم أعزل بمشاة البحرية الأمريكية علي يد الجنود اليمنيين. وفي حادث ثان في تلك الليلة اعتقلت قوات دفاع بنما ضابطاً بالبحرية الأمريكية وزوجته واستُجوِب الضابط، وتعرض للضرب وهُدِّدت زوجته بالاعتداء عليها جنسياً.

كان القتل الوحشي للضابط الأمريكي مأساة أصابتني بالصدمة لكني كنت متيقناً أيضاً أن المواجهة مع نورييجا قد وصلت إلي منعطف خطير. فقد تهيأ لنا الآن سبب لعمل ما كان ينبغي عمله في تشرين الأول أكتوبر. والآن لن يدور جدل داخلي حول نهجنا هذه المرة. وأخيراً أثار مقتل أحد أبنائه ثائرة الجيش. وصدر خير مؤشر علي هذا التحول في موقف البنتاجون عن جنرال شارك في اجتماع استمر حتي ساعة متأخرة بمركز عمليات وزارة الخارجية. وتساءل الجنرال بقوة في لحظة ما ماذا لو قررنا استخدام القوة في هذا الصدد. هل لكم أن تقولوا لنا كيف سيتم ذلك؟ وبعد أعوام من التردد والعزوف هاهي وزارة الدفاع مستعدة للقتال. وبعد ظهر اليوم التالي ١٧ كانون الأول ديسمبر دعا الرئيس إلي عقد اجتماع طارئ لكبار مساعديه في مقر إقامته فور انتهاء حفل بمناسبة عيد الميلاد بالبيت الأبيض. وتحت الحاجة كان الاجتماع قاصراً علي أبرز المعاونين وليس العاملين. وقبل توجهي إلي البيت الأبيض اتصلت بأرونسون علي خط مؤمن لتلقي نصيحته. وألح عليّ بضرورة توجيه رد قوي. وقال أرونسون: «لو كان بالمستطاع إرسال فريق من قوات دلتا لاعتقال نورييجا وإحضاره إلي الولايات المتحدة فافعلوا، وإذا لم يكن متيسراً علينا بالغزو». ورددت: «إنني أوافق. علينا بالغزو فلو انتظرنا فسوف يقتل عشرين جندياً آخرين أو يحتجزهم كرهائن»*.

• ثبتت صحة رأيي. فبعد أن أمر الرئيس بعملية الغزو وقبل أن يصدق علي الأمر تلقينا تقريراً من المخابرات بأن نورييجا أمر «كتائب الكرامة» باختطاف جنود أمريكيين وحواليهم مقاتل قوية.

كان الاجتماع نفسه مثبطا: إنني أتذكر أنه ثار قليل من الجدل أو لم يثر علي الإطلاق حول جدوي غزو بنما. وقال الرئيس: «إن هذا الأمر سيستمر وسيستمر» ووافقنا جميعاً وتركز الحديث حول ضخامة التفاصيل الدبلوماسية واللوجستية التي يستدعيها القيام بعمل عسكري، وبالإضافة إلي التشاور مع زعماء الكونجرس فسوف يتعين إخطار السوفيت والكوبيين ومعظم الدول الأمريكية أيضاً. وعلينا أيضاً أن نتأكد من أن إندارا وفورد مستعدان لتولي رئاسة الحكومة - وصدرت أوامر بإجراء استطلاع الكتروني إضافي للمساعدة في اقتفاء أثر نورييجا. وأُعِدَّتْ أوراق العمل الضرورية لرفع العقوبات الاقتصادية عن بنما وتعيين مرشح إندارا لتولي رئاسة هيئة القناة. وبغرض استمالة الرأي العام سوف يكتفي مارلين فيتزووتر المتحدث الصحفي باسم البيت الأبيض بالقول: إن الرئيس يشعر بقلق بالغ تجاه أجواء العدوان التي تطورت في بنما بما أصبح يعرض أرواح مزيد من الأمريكيين للخطر، وكان الرئيس كعهده دائماً يشعر بالقلق إزاء تقديرات أعداد القتلي في العمليات القتالية. وأشارت تقديرات كولين باول «إلي أننا سنفقد بضع عشرات من الأفراد إذا قمنا بالغزو خلال الأسابيع القليلة القادمة وسوف نضع أيدينا علي نورييجا».

وعرفت أن الرئيس أعد قراره بالفعل. لكنه استطلع رأي مستشاريه واحداً تلو الآخر. وقلت: «علينا أن نتذرع بإعلانه للحرب. علينا ألا ننتظر وسوف يقتل عشرين أمريكياً أو يحتجزهم كرهائن». وسرعان ما وافق تشيني وباول وسكوكروفت علي أن زمن الدبلوماسية قد ولي. وفي الساعة الثالثة وخمسين دقيقة صباحاً قال الرئيس: «لنفعلها» وأصدر أوامره بتنفيذ عملية الملعقة الزرقاء، وهي خطة الطوارئ لغزو بنما بقوات الجيش ومشاة البحرية، ولأن باول قال: إن البنتاجون في حاجة إلي ثمان وأربعين ساعة للإعداد للغزو. لذا فقد تقررت ساعة الغزو في الساعة الواحدة بعد منتصف ليل العشرين من كانون الأول ديسمبر، وهذه هي المرة الأولي بعد غزو جرينادا التي تخوض القوات الأمريكية حرباً. وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة اتصلت هاتفياً علي خط مؤمن بجون بوشفيل القائم بأعمال سفارتنا في بنما سيتي وأبلغته بقرار الرئيس. وأبلغته بأنه وأنا المسؤولان الوحيدان بوزارة الخارجية اللذان يعرفان بأمر الغزو، وطلبت منه الاتصال بإندارا والبدء في حشد أعضاء حكومة بنمية يمكن أن تؤدي اليمين الدستورية وتمارس أعمالها أثناء الغزو وأبلغته بأننا قررنا عدم استدعاء العاملين في السفارة للاحتفاظ بعنصر المفاجأة حتي لا يبلغ زملاءه بالغزو.

وأصدر الرئيس توجيهاته بتكليف لجنة سياسية بين الوكالات الحكومية بدراسة الخيارات الدبلوماسية والاقتصادية علي أن ترفع تقريرها فى الساعات الأولي من صباح الإثنين. لم تكن هذه سوي سحابة دخان. فقد سبق السيف العذل. ولم أفاجأ حين سمعت اليوم التالى بأن اللجنة قد توصلت إلي النتيجة الواضحة: أى ليست هناك أى حلول سياسية أو دبلوماسية لتدارسها.

. وفيما بعد طلبت التوجه إلي المنزل لا إلي وزارة الخارجية. كان الرئيس مصمماً علي ألا تتسرب أى كلمة عن الغزو، ولذا فقد اتخذت القرار الأصعب بعدم الثقة فى أى من العاملين معى، وشككت في أنهم يستشفون السبب الخفى لاختفائى المفاجئ. لكن الرئيس كان صارماً في عدم تعريض أمن العملية للخطر.

وصباح الإثنين طلب أرونسون لقائى. وقال: «لن أسألك عن أى شىء قد لا تكون فى موقف يسمح لك بالإجابة عليه لكن إذا كنا سنقوم بالغزو فهناك بعض الأمور التى يجب أن نكون مستعدين لها. فهل تشاء أن أقدم لكم نصيحة حول الخطوات التى يتعين اتخاذها؟ وقلت لأرونسون: ربما كان ذلك من الحكمة. ولم أنبس بشىء لأوثق معاونى بقية ساعات اليوم. لكن فى اليوم التالى التاسع عشر من كانون الأول ديسمبر أبلغت إيجلبيرجر وكيميت وطلبت من كيميت تنسيق التخطيط لتصريح رئاسى وتوجيه رسائل دبلوماسية وإجراء مشاورات مع الكونجرس. وفى وقت لاحق أبلغت مارجريت تاتويلر وجانيت موليتز.

وقبل أقل من ست ساعات من ساعة الصفر تحدثت مرة أخرى مع بوشفيل الذى استضاف إندارا – الذى لم يشك فى شىء – مع نوابه الإثنين علي العشاء فى قاعدة هوارد الجوية وأبلغه بما يجرى. وأبلغنى أنهم شعروا بالصدمة. فلم يتوقعوا مطلقاً أن نفعل هذا بأى حال وسوف يبذلون قصارى جهودهم لإنجاح المهمة.

وحوالى الساعة العاشرة انضممت إلي موليتز وتاتويلر لتناول البيتزا ومأكولات صينية فى مكتب تاتويلر. وفى وقت سابق من المساء توقفتا عن الرد عن المكالمات الهاتفية خشية أن يشى تواجدهم فى المبنى بعد ساعات العمل لبعض الصحفيين المطلعين بأمر الغزو.

وصدرت الأوامر القتالية، ولم يعد هناك مجال للانتظار. ولم أشعر أن هناك مجالاً للإحساس بأى ألم. فقد كنت أعرف أن قرار الرئيس هو الصواب الذى توصل إليه بعد انتهاج وسائل أخرى.

وقلت: «إن هذه أصعب قضايا. لأنه مهما كان ما تبذلونه فهناك أناس آخرون فى طريقهم للموت عليكم أن تتمنوا من الله أن تكونوا على صواب».

وأجريت آخر مكالمة من أربع مكالمات مع بوشفول ذلك اليوم فى الساعة الحادية عشرة وخمس وخمسين دقيقة قبل منتصف الليل من قاعدة فورت كلايتون العسكرية الأمريكية. وقال: «سوف تكون هناك مفاجأة لكن ليس بالقدر الذى كنا نريده، فقد بدأت الأخبار تتسرب أخيراً، وبدأت شبكة الـ سى إن إن فى بث لقطات لإقلاع الطائرات الأمريكية من قاعدة البابا الجوية بنورث كارولينا المجاورة لقاعدة فورت براج التى تتمركز فيها الفرقة ٨٢ المحمولة جواً.

وبعد ست دقائق من المكالمة الهاتفية وبعد دقيقة واحدة من منتصف ليل العشرين من كانون الأول ديسمبر أدى إندارا ونائبه اليمين الدستورية، وفى غضون ساعة بدأت أضخم عملية عسكرية أمريكية منذ حرب فيتنام.

البحث عن «الزعيم الأعظم»

وتماماً كما توقع باول سارت العملية بسلاسة. فلم تكن قوات دفاع بنما على نفس القدر من التدريب أو تمتلك القوة النيرانية للقوات الأمريكية، وباستثناء المعركة الشرسة التى دارت حول مقر نورييجا لم تكن المقاومة كالمتوقع.

وفى اليوم التالى توجهت أنا وكيميت وأرونسون إلى وزارة الدفاع للقاء تشينى وباول. إن هذه ليست بالرحلة المألوفة فى العادة. إننى أتفق بحرارة مع رأى الرئيس الذى خرج به من خبرته القتالية فى الحرب الثانية فى المحيط الهادى بأنه بمجرد اتخاذ القائد الأعلى لقرار

الحرب فعلي السلطات المدنية أن تفسح المجال للعسكريين المحترفين لإنجاز مهمتهم. ومع هذا وفي هذه الحال أحسست أنه من الضروري تسوية ما يبدو أنه خلافات بيروقراطية حول أولوية الأهداف. فمن أجل استعادة السلطة المدنية في بنما بأسرع ما يمكن أرادت وزارة الخارجية من الجيش تأمين المباني الحكومية المهمة مثل البنك المركزي. إلي هذا كان خبراء وزارة الخارجية يعتقدون أنه من المهم تدمير أو الاستيلاء علي منشآت البث الإذاعي لإبعاد نورييجا عن الإذاعة. كان لدي البعض في وزارة الدفاع أفكار مختلفة لكن باول وتشيني وافقا بسرعة. كما أبديا استعدادهما لتعديل خططهما لإنقاذ الصحفيين المحاصرين في فندق ماريوت بسبب القتال.

وبمجرد انكسار قوات دفاع بنما واستعادة السلطة المدنية لسيطرتها تكثف البحث عن نورييجا وعشية عيد الميلاد أبلغت المخابرات عن رصد نورييجا في داوري كوبن في بنما سيتي وبمجرد وصول القوات الأمريكية تلاشي نورييجا، وبعد دقائق علمنا أنه لجأ إلي البعثة البابوية بمقر القاصد الرسولي في بنما المونسينيور سيباستيان لابوا. وكانت القوات الأمريكية قد وضعت عدة مواقع تحت المراقبة يحتمل أن يلجأ إليها نورييجا بما في ذلك سفارتي نيكاراجوا والاتحاد السوفيتي. ومن المفارقات الغريبة أنه رغم أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لها تقليد عريق في إيواء اللاجئين السياسيين فلم يشك أحد في مقر القاصد الرسولي.

وأشرف كيميت علي وضع مذكرة نورييجا وأوصي أيضاً الاتصال شخصياً بمسئولي الفاتيكان للتأكد من إدراك البابا للأهمية التي نوليها للمسألة. وفي الساعة الخامسة وثلاثين دقيقة بعد الظهر عشية عيد الميلاد ومن مكتب منزل والدتي في هيوستون اتصلت بالكاردينال أوجستينو كازارولي وزير خارجية الفاتيكان. لكنه كان في طريقه لحضور قداس منتصف الليل في كنيسة القديس بطرس عندما علم بأمر الاتصال الهاتفي. وبعث برسالة عبر جيم كريجار نائب رئيس البعثة الأمريكية في الفاتيكان بأن سياسة الفاتيكان المألوفة في مثل هذه الملابسات هي ترتيب الحصول علي اللجوء السياسي في بلد ثالث، ونوه إلي أن هذا قد يكون مسألة معقدة.

ويوم عيد الميلاد عاود كازارولي الاتصال بي ليقول: إن الفاتيكان لم تقرر موقفها بعد، وأنه يتشاور مع محامين دوليين. وقال: «إنه يخوض معركة سياسية. وأن هذا الطلب جاء من الولايات المتحدة وليس من بنما. وهذا يضعنا أمام مشكلة».

وطلبت من كازاروِلي تسليم نورييجا بصفته هارباً من العدالة. وقلت: «نيافة الكاردينال إنها ليست قضية سياسية. إن هذا استثناءٌ من الحصانة الدبلوماسية. لقد وجهنا إليه اتهامات كتاجر مخدرات. إنه مجرم عتيد. ولن ندعه يذهب لأنه يشكل تهديداً للأمن العام. إنه الآن لاجئ مؤقت. لكنه غير مؤهل للحصول علي اللجوء السياسي. وعليكم إدارك أنه بعد فقد أرواح «أمريكية لاستعادة الديمقراطية في بنما. فلا يمكننا السماح لنورييجا بالذهاب إلي أي بلد آخر سوي الولايات المتحدة».

وأكد الكاردينال مجدداً: «إننا نولي اهتماماً جاداً لطلبكم».

وكنت أدرك تماماً أن القانون الدولي يقف في صفنا. لكن نورييجا أثبت أنه ضيف ثقيل مرعب فقد اصطحب عدداً من الوضعاء لمقر إقامة القاصد الرسولي وشعر لابوا بضيق بالغ لدي علمه بأن مقر إقامته تحول إلي ترسانة مكتسة بحد كبير من الأسلحة. ولزيادة الضغط النفسي عليه قامت القوات الأمريكية ببث الموسيقي الصاخبة علي مدار الساعة. وفي ليلة الثالث من كانون الثاني يناير اجتمع لابوا مع مايك كوزاك ومع البريجادير جنرال مارك سيسنيروس كبير قادة القيادة الجنوبية والميجور جنرال وايني دوانينج في مدرسة بالشارع المواجه لمقر إقامة القاصد الرسولي. وقال لابوا: إن الموالين لنورييجا شعروا بالخوف من أن مظاهرة ضخمة ستنظم الصباح التالي سوف تكتسح قوات الأمن وتمزق جسد نورييجا وصباطه إرباً. وسأل داونينج: عما ستفعله قواته إذا اقتحم المتظاهرون السواجز. فرد بأن الجنود سيطلقون النار في الهواء. وأراد لابوا معرفة ما سيحدث لو واصل المتظاهرون تقدمهم فقال داونينج: «سيدي لن أقتل بريئاً واحداً لحماية هذا الداعر». ولم تشر مفاوضتنا مع لابوا بأن المظاهرة مدبرة بمعرفة مسؤولين أمريكين لتصعيد الضغوط علي نورييجا وعلي المونسنيور.

وكانت تلك الجرعة المكثفة من الواقعية هي القشة الأخيرة التي اقنعت القاصد الرسولي وقال: إنه سيقنع نورييجا بالموافقة علي الرحيل، وفي ظرف ساعات خرج نورييجا من بيت القاصد الرسولي إلي ملعب لكرة القدم حيث سلم نفسه للقوات الأمريكية. وأقلته طائرة

هليوكبتر إلي قاعدة هوارد الجوية حيث تليت عليه قائمة بحقوقه، واقتيد إلي حجز إدارة مكافحة المخدرات، وكان نورييجا يعتقد حتي ليلة الغزو أنه أخاف الولايات المتحدة. وها هو ديكتاتور آخر أساء تقدير تصميم الولايات المتحدة علي حماية مصالحها الحيوية. وكان يعتقد أنه يستطيع تجاوز العاصفة، وبدلاً من ذلك وفي ظرف أسبوعين تحول من «زعيم أعظم» نصب نفسه إلي «هارب مطارد».

انعكاسات علي قضية عادلة

كان من شأن تدخل عسكري أمريكي عادي في أمريكا اللاتينية أن يثير موجات من الغضب من جيراننا في الأمريكتين وانتقادات من المعارضة السياسية في الداخل، وعقب عملية بنما جاء رد الفعل مفاجئاً. فلم يصدر سوي رد فعل متواضع من كافة الدوائر. وفي الكونجرس أشاد معارضون تقليديون مثل جون كيري وجيسي هيلمز اللذين طالبا باتخاذ إجراء متشدد لعدة أشهر بموقف الرئيس.

ويرجع انعدام الإحساس بالخزي تجاه العملية إلي حقيقة أن نورييجا شخصية بالغة السوء وقبيحة ووصيمة، يعرفها جيرانها تمام المعرفة. وهو أيضاً متهم بتهريب المخدرات مما ساهم في إهدار أي فرصة للتعاطف معه. ومع تراجع أهميتها الاستراتيجية بمرور الوقت فإن قناة بنما تقف شاهداً علي الخبرة الأمريكية فقد بنيت بالعرق والكد الأمريكي. ولا يزال أمنها يمثل أهمية قومية لأمريكا.

ومع ذلك كان للبعد العاطفي أثره البالغ. فخلال الساعات السابقة علي بدء العملية قرر ديك تشيني تغيير الاسم الكودي للعملية من الملعقة الزرقاء إلي عملية القضية العادلة. فلو أن هناك عملية عسكرية أطلق عليها أنسب اسم فإنها هذه العملية. وفي جوهرها كانت عملية القضية العادلة عملية لدعم الديمقراطية وحكم القانون في الأمريكتين فقد كان نورييجا ديكتاتوراً سرق الانتخابات وأهدر إرادة الشعب البنمي. وكانت الولايات المتحدة بكل بساطة تنفذ إرادة الشعب البنمي بإعادة الحكومة المنتخبة ديمقراطياً إلي السلطة . فضلاً عن ذلك

كان علي الرئيس واجب دستوري بحماية المواطنين الأمريكيين. فقد تجاوز نورييجا كل الحدود عندما بدأ فى قتل الجنود الأمريكيين فى بنما. ولم تكن الإدارة الأمريكية لتنتظر حتي ترى مقتل المزيد من الجنود الأمريكيين أو احتجازهم رهائن كما حدث فى إيران لترد وببساطة. كنا ننفذ المقطع الرابع من النشيد القومي الذى يدعونا للغزو: «عندما تكون قضيتنا عادلة».

ومع هذا فقد تجاوزت الآثار المفيدة للعملية العادلة موطنها. وكان لها أثر حاسم مختلف فى كولومبيا. حيث كانت حملة الاغتيال السياسى التى يقوم بها أباطرة المخدرات فى ميديين قد أودت لتوها بثالث مرشح رئاسى، والمؤكد أنه لم يكن هناك احتمال لبقاء الديمقراطية بأية حال. كان تصميم الرئيس حافزاً مقوياً منح حكومة كولومبيا الشجاعة للتصدى لأباطرة ميديين. كما اقتنعت حكومة الساندينستا أيضاً بأن عواقب سرقة الانتخابات وخيمة، وشحذت عزيمة المواطنين النيكاراجويين علي النهوض ليكونوا قوة توضع فى الحسبان يوم الانتخاب.

وترك الغزو أيضاً آثاراً هائلة علي معظم الدول الأمريكية، وكان له الفضل الأول فى صدور إعلان سانتياجو التاريخى فى حزيران يونيو ١٩٩١ الذى أقرت فيه الدول الأمريكية مشروع قرار قدمته الولايات المتحدة بإلزام الدول الأعضاء فى المنظمة باتخاذ إجراء جماعى أينما تعرضت الديمقراطية للتهديد. وبدون هذا الإعلان لكانت المنظمة قد عزفت إلي حد كبير عن الموافقة علي العقوبات الاقتصادية على هاييتى أو ممارسة الإنقلاب فى بيرو وجواتيمالا.

وأعتقد أيضاً أنه بتهيئة العقلية الأمريكية لتقبل استخدام القوة فى حقبة ما بعد فيتنام، فقد أرست بنما سابقة عاطفية مؤثرة مكنتنا من حشد الرأى العام الضرورى لشن عملية عاصفة الصحراء بعد ثلاثة عشر شهراً.

ونبع كل ذلك من منبع وحيد فقط هو تصميم الرئيس علي أن إعتداء صارخاً علي الديمقراطية لن يمر دون حساب. وهاهى الولايات المتحدة قد أعربت مرة أخرى وبطريقة مؤثرة أنها ستهب دفاعاً عن الديمقراطية، وتقف بجوار أصدقائها فى الأمريكتين.

الفصل الثاني عشر

حسابات الوحدة

علينا أن نجد طريقة ما لإقناع روسيا بلعب الكرة .

هنري ستيمسون

وزير الحرب للرئيس ترومان

١٩ آيار مايو ١٩٤٥

كان جياني دى ميخائيليس في العادة هو أكثر الموجودين حيوية وانطلاقاً في أي جلسة. وحظى وزير الخارجية الإيطالى بسمعة مدوية كرجل الحظ والفرفشة الذى يقضى معظم أوقات فراغه فى نوادى الديسكو. بل لقد ألف كتاباً عن الرقص. لكنه فى ذلك اليوم من أيام شباط فبراير فى أوتاوا كان على النقيض تماما - بل وشديد الحصافة - ولم يكن ميخائيليس مع عدد من وزراء الخارجية فى مؤتمر حلف شمال الأطلنطى متحمساً لإقدامنا على إتمام الوحدة الأوروبية من خلال ما أصبح معروفاً باسم «اثنان + أربعة» وهو منتدي خاص بالوحدة الألمانية يضم الألمانيتين و(بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة) مع عدم وجود أى عضو من حلف شمال الأطلنطي، وكان قد بدأ فى إعلان اعتراضاته عندما قاطعه هانز ديتريتش جينشر بشدة. وقال جينشر: «لستم فى اللعبة».

والقصة الكاملة وراء مباحثات (اثنان + أربعة) فى ١٣ شباط فبراير هي قصة دبلوماسية «القوى العظمي» وهي لعبة ذكرت فيها بقوة أنه إذا كان الموقع هو الرصيد فإن التوقيت هو فن الحكم.

من يجب اشراكه فى اللعب؟

بعد مغادرتى بوتسدام فى كانون الأول ديسمبر لم تكف أفكارى عن العودة إلي هناك مرات ومرات فى الأسابيع التالية، وباعتبارها المكان الذى شهد آخر ثلاثة اجتماعات للقوي العظمي التى أنهت الحرب العالمية الثانية رمزت بوتسدام إلي مركزية القضية الألمانية فى الحرب الباردة، وبالنسبة للكثيرين سجلت بوتسدام فى الحقيقة بدء الحرب الباردة فقد حقق مؤتمر بوتسدام الذى عقد علي مدي أسبوعين ونصف بدراما غابت عن اجتماعات ستالين وروزفلت وتشرشل فى طهران ومالطا. وبوفاة روزفلت أقدم خلفه هارى ترومان علي إنهاء العلاقة الودية - أول إنجازاته علي الساحة الدولية. فى الوقت ذاته وصل ستالين إلي بوتسدام أكثر زهواً بنفسه عن ذى قبل، وادعي أن هتلر لايزال حياً وعلي ما يرام ويعيش فى ألمانيا. وكان ستالين مشمئزاً من الصحافة التى حاولت معرفة ما يجرى واعتري القلق تشرشل من أقوال المندوبين البريطانيين فى رومانيا المحتلة واشتكي للديكتاتور السوفيتى من أن ستاراً

حديدياً يفرض عليهم. ورد ستالين: «إنها كلها خطابات ملفقة» ليختل تشرشل دبلوماسياً تماماً كما سيخذله الشعب البريطاني في الانتخابات في ٢٦ تموز يوليو. وفيما قررت القوي الأربع الكبري مصير أوربا فقد أجري العلماء في آلامو جوردو بنيومكسيكو اختباراً علي قنبلة ذرية ووافق ترومان علي الهجوم علي هيروشيما وولدت حقبة جديدة في السياسة العالمية.

وبالطبع لم أكن الوحيد الذي يفكر في بوتسدام وتداعياتها في شتاء عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠. وكانت القضية محور تفكير الجميع وظهر أثناء كانون الأول ديسمبر وكانون الثاني يناير مجموعة مقترحات في وسائل الإعلام والدوائر الدبلوماسية.

وتركزت تلك المقترحات عامة في ثلاث فئات أولها: مبادرات سعت إلي تسوية المسألة الألمانية من خلال عقد مؤتمر موسع. وسيكون هذا شأناً أوروبياً صرفاً سيعمل علي إقرار تسوية سلمية نهائية للحرب الباردة. وكان مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا هو المكان الطبيعي المناسب لهذا. حيث أن الأعضاء الخمسة والثلاثين يضمون كافة دول أوروبا وكندا والولايات المتحدة. كان هذا اقتراح رومانسي إلي حد ما. اقتراح يشبه مؤتمر فيينا الذي رسم خريطة أوروبا في أعقاب الحروب النابليونية، أو معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولي. ومن وجهة نظرنا كان عقد مؤتمر في إطار مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا حول الوحدة الألمانية اقتراحاً غير عملي. فمن الصعب فهم كيف يمكن إدارة مثل هذه المفاوضات الدقيقة بحضور خمسة وثلاثين مشاركاً. كما أن قاعدة الإجماع المعمول بها في المنظمة سيعطي للدول الأصغر في المنظمة سلطة الفيتو في قضايا تتجاوزها بكثير. إن مثل هذا المؤتمر الموسع سيعيد إلي الأذهان حتماً ذكريات فرساي والسلام الذي فُرِضَ علي ألمانيا في أعقاب الحرب الأولي، وكان آخر شيء نريد « هو خلق أساس للإستياء في ألمانيا الجديدة. وأخيراً سيستغرق مثل هذا المؤتمر وقتاً طويلاً في الإعداد، وقد يؤدي إلي حدوث تأجيل وارتباك بل وانهيار مع تلاحق الأحداث علي أرض الواقع.

وانبعث فئة المقترحات الثانية مباشرة من مؤتمرات الحرب الثانية وحقيقة أن القوي الأربع الكبري قد اتفقت في بوتسدام علي أن كافة الترتيبات المتعلقة بألمانيا ترتيبات مؤقتة توطئة لإقرار «تسوية نهائية». وبالنسبة لموسكو ثم لندن وباريس بدرجة أقل كان عقد مؤتمر

للقوي الأربع الكبري هو أفضل طريق لإبطاء وإدارة عملية الوحدة. ومن الوجهة القانونية كان للقوي الأربع الكبري حقوق باقية سيتعين التفاوض عليها في أي مشروع لإعادة توحيد ألمانيا غير أن السوفيت كحلفيهم خلال الأيام الأولي للحرب الباردة ينظرون إلي القوي الأربع الكبري ككائن سياسي، لا كأحد كيانات القانون الدولي. وبينما كان الكريملين أشد إصراراً علي استخدام القوي الأربع الكبري كانت لندن وباريس تعتبرها طريقاً لضبط وممارسة التأثير علي تحرك ألمانيا نحو تسيد القارة الأوروبية.

وخلال كانون الأول يناير مارست موسكو ضغوطاً لعقد اجتماع للقوي الأربع الكبري. ففي العاشر من كانون الثاني ديسمبر جاء السفير دوبنين إلي وزارة الخارجية حاملاً رسالة شفوية من شيفرنادزة وطلب شيفرنادزة مشيراً إلي بروز إجماع حول الرغبة للإبقاء علي تبادل وجهات النظر حول القضية الألمانية داخل إطار «القوي الكبري» وعقد سلسلة مشاورات بين موسكو ولندن وباريس وواشنطن. وأضاف قائلاً: «إننا ننطلق من أهمية كل تلك القضايا كلها إن لم يكن للعالم بأسره» وتظل «بالمسؤولية المعروفة» أنها تقع علي القوي الأربع الكبري وبعد أكثر من أسبوعين، وفي ٢٦ كانون الثاني يناير سلم شيفارنكوف مذكرة تثير الاهتمام إلي «تصاعد أنشطة اليمين المتطرف وقوي النازية الجديدة مؤخراً في ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وبعض دول غرب أوروبا الأخري» إن هذا التهديد «يتكاثف» وإن موسكو تتطلع إلي اتخاذ جهود دولية منسقة للتعامل مع هذا الخطر «النازي».

وبالنسبة لنا فإن القوي الأربع الكبري مثل إلي حد كبير مفارقة تاريخية تعود إلي الحرب العالمية الثانية، وكان الرئيس يعتقد أنه علي مدي أربعة عقود أظهر الشعب في ألمانيا الغربية التزامه بالديمقراطية وبالتحالف الغربي، وكان اعتقادنا بتقرير المصير وحقيقة أن إعادة التوحيد وهو هدف رسمي للتحالف علي مدي أربعين عاماً يتطلب منا بذل كل الجهود لرؤية ألمانيا الموحدة، وقد صارت واقعاً في إطار يوفر الاستقرار لأوروبا بعد انتهاء الحرب الباردة. والآن والشعب في ألمانيا الشرقية يدلي بصوته فلم يكن جورج بوش يريد أن يقف الدبلوماسيون في طريقه. وهذا هو السبب الذي دعانا عمداً إلي التقليل من أهمية المطلب

السوفيتي الأولي بعقد اجتماع القوي الأربع الكبري في كانون الأول ديسمبر، وواصلنا صد دعواتهم في الأسابيع التالية.

ولم يدع هذا سوي فئة ثالثة: وتحديداً حل ألماني صرف تندمج في إطاره ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية من دون تدخل خارجي. وحيث ان معظم القضايا الحساسة تتعلق بشواغل ألمانية صرف كان الكثير من الألمان يعتقدون إنه ليست هناك حاجة لأي مشاركة دبلوماسية جادة من الآخرين وعلي الآخرين أن يبتعدوا عن طريق الوحدة وبمجرد أن تتوحد الألمانيتان يمكن أن تجتمع القوي الأربع معاً لتسوية قضية حقوقها القانونية الباقية. وكانت هذه العملية بالطبع الخيار المفضل في بون، ولاسيما لدي المستشار كول. وقد صادف تأييداً في واشنطن ولاسيما من مجلس الأمن القومي.

ولم أشعر بالارتياح تجاه أي من الفئات الثلاث، وفي أعقاب زيارتي لبوتسدام صرت علي اقتناع بأن خطى الوحدة تتجاوز توقعات الجميع. فقد ذاق شعب ألمانيا الشرقية طعم الوحدة والمكاسب المادية المقترنة بها، وسوف تتزايد هجرتهم إلي الغرب ويتزايد أيضاً النزيف الذي يتعرض له الاقتصاد الألماني الشرقي. وسوف يكثف هذا بدوره من الضغوط علي كول وجينشر للإسراع بالخطوات السياسية الضرورية لتوحيد دولتي ألمانيا. ومع انطلاق قطار الوحدة الألمانية فوق القضبان صرت مهموماً من أن موسكو وربما لندن وباريس قد تحاولان إبطاء مسيرته بالظهور في طريقه. فلازال للسوفيت ٣٨٠ ألف جندي في ألمانيا الشرقية. كما أن جورباتشوف يتعرض لضغوط متزايدة «لفقده» أوروبا الشرقية. كما أن لندن وباريس غير متحمستين للوحدة. وكان السماح لشطري ألمانيا بأن يأخذا علي عاتقهما العمل للتوصل إلي حل لوضع من هذا النوع يمثل في اعتقادي وصفة لتدمير القطار. وهذا هو السبب الذي حدا بي إلي عدم الموافقة علي نهج «دعه يعمل» الذي كانت بون والبيت الأبيض يفضلانه في البداية. وأحسست أننا في حاجة إلي عملية يمكن أن تساعد في توصيل الألمانيتين إلي بر الوحدة وتمنح جورباتشوف في الوقت نفسه مكاناً علي الطاولة حتي يكون بوسعه أن يفسر للمتشددين أن موسكو لا تزال ضمن اللعبة، وكنت أريد أيضاً عملية تنظم من

شأن الأحداث الداخلية علي البعد الدولي للوحدة -ولم أكن أريد أن ينتهز السوفيت مميزاتهم لإثارة المشاكل وتعطيل أهدافنا.

وعثرت علي هذه الصيغة في مذكرة بحثها معي دينيس روس وبوب زوليك في ٣٠ كانون الثاني يناير. وتوصلت إدارة التخطيط السياسي إلي هذه الصيغة التي تجمع ما بين نهج انفراد الألمانيتين بعملية إعادة التوحيد الذي تفضله بون والبيت الأبيض ومنتدي القوي الأربع الكبري الذي اقترحته موسكو وأيدته باريس ولندن. وسميت «إثنان + أربعة» وهدفها السماح للولايات المتحدة باستخدام صيغة «إثنان+أربعة» لإتمام الوحدة الألمانية. كانت مميزات تلك الصيغة بالغة الوضوح. فسوف تمنح «الألمانيتان» سيطرة تامة علي القضايا الداخلية. لكنها ستسمح أيضاً للقوي الأربع بالاضطلاع بدور في الأبعاد الخارجية لقضية الوحدة. وسوف تمنح صيغة «إثنان + أربعة» شرعية كبيرة من القوي العظمي للوحدة الألمانية، وهي نقطة اعترف بها الألمان. وسوف تبْقي هذه الصيغة علي موسكو ولندن وباريس ضمن اللعبة بمشاركة واشنطن. والأهم هو أنها ستخلق عملية دبلوماسية لإعادة توحيد ألمانيا لتتراكب مع سرعة الأحداث، وبدون مثل تلك العملية فسوف تتزايد مميزات واحتمالات خيار أن ينفرد الألمان والسوفيت بالاتفاق ويبرمان صفقة خاصة تنطوي علي مثالب للمصالح الغربية (كما سبق لهم وأبرموا اتفاقية بريست ليتوفسك عام ١٩١٨ ورابالو عام ١٩٢٢ واتفاقية مولوتوف ريبنتروب عام ١٩٣٩) وشعرت بأنه من المهم جمع القوي الكبري علي مائدة واحدة حيث يمكننا أن نري جميعاً الأوراق التي يلعب بها كل طرف منا.

وفيما اعتبر روس وزوليك أن صيغة «إثنان + أربعة» صيغة عبقرية فقد كان لها منتقدوها ليس فقط في مجلس الأمن القومي، بل وفي وزارة الخارجية نفسها. ففي الأول من شباط فبراير أثار راي رايتس مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوربية اعتراضات جوهرية علي صيغة «إثنان + أربعة» تنبع جميعاً من رأيه بأن الوحدة الألمانية لن تمضي بالسرعة التي توقعتها مذكرة «إثنان + أربعة» إننا لا نواجه قراراً يستدعي أن ندع الألمان يعالجون الوحدة بأنفسهم. وأن يوسعنا المشاركة عبر قناتنا الثنائية مع بون. ولم تكن هناك صعوبة في أن أُعمِل فكري. ولا يعنيني ما إذا كان المعني قطاراً منطلقاً أو مراراً فكل ما يعنيني هو ألا ندع الفرصة تفوتنا.

مشاورات أولية

فى التاسع والعشرين من كانون الثانى يناير جاء دوجلاس هيرد إلى واشنطن فى أول زيارة له لواشنطن كوزير للخارجية. وكانت صيغة «إثنان + أربعة» على قمة أفكارى إن لم تكن على طرف لسانى، وأبلغته أنه فى اجتماعى القادم مع شيفرنادزة فإننى أعتزم إبلاغ السوفيت بأن الوقت الحالى ليس وقت بحث مستقبل ألمانيا فى إطار القوى الأربع الكبرى. إننا فى حاجة إلى إيجاد آلية خاصة – مكان هادئ – حيث يمكننا معالجة القضية بطريقة لا تبدو وكأنها التفاف حول ألمانيا، ولا تشكل تهديداً للشواغل السوفيتية.

ووافق هيرد ولأنه هو الآخر قد التقى لتوه بهانز مودروف فقد كان يشعر بأن الوحدة حتمية. وقال: «هناك الآن بالفعل تلفزيون ألمانى واحد وشركة طيران ألمانية واحدة وهيلموت كول هو أكثر الزعماء السياسيين شعبية فى ألمانيا الشرقية» لكنه استدرك قائلاً: «لكن لا أحد يفكر فى العواقب». واقترح نفض الغبار عن بعض أفكار الحلفاء فى الخمسينات عندما تصبح هناك إمكانية لتحقيق توحيد ألمانيا. وقال الرئيس إن تاتشر «عازفة عن فكرة الوحدة. فهى ليست ضدها لكنها عازفة عنها».

وبعد أربعة أيام وصل وَهَنْدُوِيٌّ متحمس هو هانز ديتريش جينشر إلى واشنطن. وأبلغنى جينشر أنه بعد انتخابات ١٨ آذار مارس فى ألمانيا الشرقية سوف تتفاوض بون للتوصل إلى اتفاقية ترسم الطريق لإتمام الوحدة. واستفسرت من جينشر عن رأيه فى صيغة «إثنان + أربعة» بعد أن طلبت من زوليك بالفعل الاستفسار عن رأى فرانك إليه فيها. وستصبح قناة زوليك إليه بالنسبة لألمانيا مماثلة لقناة روس تارلسينكو بالنسبة للاتحاد السوفيتى – أى قناتى الخلفية الخاصة مع نظرائى. وأُعْجِبَ جينشر بالفكرة واشترط أن تسبق (الاثنان) (الأربعة). ولم يكن هذا مجرد دلالة لغوية.

فالنسبة للألمان فإن «إثنان + أربعة» ترمز إلى أنهم سيمسكون بزمام القيادة فى قضية الوحدة. لكنهم يعتبرون «أربعة + إثنان» على الناحية الأخرى صيغة أشمل للإملاء. ولهذا فإنها غير مقبولة سياسياً وعاطفياً. واعتبر جينشر أن هذه الآلية لن تستخدم إلا بعد انتخابات

١٨ آذار مارس فى ألمانيا الشرقية (فلم يشأ عمل أى شيء من شأنه إضفاء شرعية على نظام مودروف المتداعى فى ألمانيا الشرقية) .

وغادرت قاعدة «أندروز» الجوية فى ٥ شباط فبراير للقيام بجولة من براغ إلى موسكو فصوفيا ثم بوخارست قبل العودة عبر الأطلنطى إلى كندا. وعقدت أول اجتماعاتى فى شانون بأيرلندا. وأثناء التوقف المعتاد للتزود بالوقود كانت هذه هي المرة الوحيدة التى يعد المكان مناسباً لرولان ديما وزير خارجية فرنسا، ولوس للاجتماع لبحث قضية ألمانيا – ومما زاد الطين بلة فى الساعة الخامسة وعشرين دقيقة فجراً. وبدا ديما مفتوناً بفكرة «إثنان + أربعة» رغم أنه اعترف بأنه يفضل «أربعة + صفر» . وقال إنه سيدرس الفكرة مع ميتران ويرد عليّ. وبعد الهبوط فى أجواء ضبابية فى براغ غفوت لفترة خاطفة ثم توجهنا إلى قلعة هرادكانى للقاء الرئيس فاتسلاف هافيل المؤلف المسرحي والمنشق ذائع الصيت. فقد زج به نظام هوساك فى السجن لعدة سنوات. لكن الشيوعيين لم يستطيعوا تدمير معنوياته على الإطلاق.

وفى الحقيقة كانت «الروح الحرة» ولاتزال هي الطريقة الوحيدة لانتزاع تحمس هافيل اللامحدود للحياة. ولم يكن قد مضى على توليه مهام منصبه سوى عدة أسابيع. لكنه يريد طرح بعض الأفكار مشيراً «إلى أننا لا نريد جلب الشهرة لتشيكوسلوفاكيا أو هافيل. فليس المهم من هو صاحب الأفكار سواء أكان بوش أو جورباتشوف» وأبلغته بأن رونالد ريجان اعتاد الاحتفاظ بعبارة على مكتبه تقول «لانهاية أو حد لما يستطيع الإنسان أن ينجزه إذا لم يهتم عمن ينال الثقة». ورد هافيل بأنه يحتفظ بنفس الشيء على مكتبه ثم انتقل لبحث قضايا أوروبا وألمانيا وبدأ بالقول: «إن تشيكوسلوفاكيا شأنها شأن الكثير من الدول الأخرى معنية بالعودة إلى أوروبا» وأعرب عن اعتقاده بأن عقد مؤتمر هلسنكي آخر يعد طريقاً للتنسيق، لكن الأهم كان هو اقتراحه بعقد مؤتمر سلام يقوم فى نهاية الأمر بتسوية قضايا الحرب العالمية الثانية وتقسيم أوروبا. وقال بوضوح: إن إبقاء حقوق القوى الأربع وإعادة توحيد ألمانيا سيكون محور مثل هذا المؤتمر لأنه وعلى حد تعبيره: «لايمكن أن تقوم قائمة لألمانيا الموحدة فى أوروبا مقسمة أو ألمانيا مقسمة فى أوروبا موحدة» وفى الوقت نفسه كان يعتقد أن بعض الألمان سيريدون إعادة توحيد ألمانيا على الفور، وسيكون ذلك مستحيلاً. وبالنسبة للقوات السوفيتية أبدى استحسانه على فهم كيفية وصول «نصف مليون جندى سوفيتى» فى

ليلة واحدة فى آب أغسطس ١٩٦٨ عندما قرر بريجنيف سحق حركة ربيع براغ، وكيف يقولون الآن: إنهم لا يستطيعون سحب سبعين ألف جندى هذا اليوم. «لكنه أعرب عن اعتقاده بأن هذا شيء يمكن تسويته مع جورباتشوف».

وبدأت باستعراض بعض قضايا التجسس والمخابرات. فالنظم الشيوعية وفى الجانب الأعظم لا تحكم سيطرتها بقوة علي وكالاتها الاستخباراتية. ولأن الكى جى بى هي التى تولت تدريب وتزويد ثم اختراق تلك الوكالات لاحقاً، فقد ظلت أجهزة الأمن رجعية كسابق عهدها حتى برغم أن التغيير ربما يكون قد طال الحكومات فى ثورات عام ١٩٨٩. وهكذا ومن خلال اتصالاتنا الخاصة حاولنا مساعدة الحكومات الجديدة فى إعادة السيطرة علي أجهزة مخابراتها، وما لبثنا أن انتقلنا بسرعة لإجراء مناقشات مستفيضة حول قضية الوحدة الألمانية ونوهت بالسرعة التى تسير بها خطوات الوحدة الألمانية بما يفوق توقعات الجميع، وحاولت إثناءه عن فكرة المؤتمر الموسع. وقلت له أيضاً: إن إقامة ألمانيا محايدة ليست بالفكرة التى تروق للولايات المتحدة. وقال لي: إن مودروف سيزوره بعد ظهر اليوم «وأنه يتحدث عن ألمانيا محايدة فى إطار حملة إعادة انتخابه. إن هذا هراء». وبإيجاز فقد أظهر هافيل التوتر والتوجس السائد بين كل الدول الصغيرة فى أوروبا تقريباً. ففى ناحية كان يعتقد أنه يجب إبطاء خطى الوحدة، وأن مؤتمر سلام موسعاً يجب أن يكون المنتدي المناسب لحسم القضية. وفي الوقت ذاته كان يشعر بالقلق من ألمانيا محايدة - وهو ما يعنى ضمناً أننا فى حاجة سريعة إلي التحرك للإبقاء علي ألمانيا فى حلف شمال الأطلنطى، وأن نراها موحدة قبل إمكانية حدوث ردة فى الإصلاحات فى موسكو.

وتركت هافيل لأزور الكاردينال توماشيك ٩١ عاماً وفيما كان الكاردينال يروى برقة دور أمريكا فى تأسيس تشيكوسلوفاكيا عام ١٩١٨ وجهودنا لمساعدة التشيك عام ١٩٤٥ وأهمية زيارتى، قلت له: «بوسعك أن تعوّل على استمرار تأكيد الولايات المتحدة لشعبكم». وفى تلك اللحظة انفجر مترجمى فى البكاء. فقد كان تشيكياً اضطر للفرار من البلاد عام ١٩٧٣ وانتقم النظام منه بفصل والده من عمله. وهاهو الآن قد عاد إلي براغ الحرة. وقد حرك اجتماعي مع الكاردينال مشاعره. ويبدو أن دورة حياته بأكملها قد طافت بذاكرته فى تلك اللحظة. وتأثرت أيما تأثر لأن زيارتى كان لها دور صغير فى رحلة حياته الشخصية.

والتقيت في المساء في حفل استقبال مع رجل آخر رد إليه الاعتبار وهو ألكسندر دوبتشيك. وباعتباره الأب الروحي لحركة ربيع براغ أُقيل دوبتشيك بعد الغزو السوفيتي وتعرض للمهانة والمذلة من جانب النظام الذي نصبته موسكو. ومن الواضح أنه مثل هافيل لم يفقد روحه. وأبلغني بأنه سيري مودروف بالفعل، واستفسر عما يجب أن يقول له. وقلت: «الانتخابات الحرة والسوق الحرة». وعلق دوبتشيك: «هذا ما ناديت به على الدوام». ورددت: «أعرف ذلك، لأنني أتذكر كم أُعْجِبْتُ بك على الدوام». إنه لشرف عظيم أن ألتقي بمثل هذا الرجل الشجاع الذي سبق الأحداث بإحدى وعشرين سنة.

وفي صباح اليوم التالي، وقبل إلقاء خطابي في جامعة تشارلز توجهت إلي ميدان فينسيسلاس لوضع باقة من الزهور علي النصب التذكاري ليان بالاش هذا الطالب الذي ضحي بنفسه عام ١٩٦٩ احتجاجاً على القمع الشيوعي.

وفيما كانت أعداد كبيرة من الناس تذرع الميدان استوقفني خلوه علي نقيض صورة الحشود التي ضمت مائتي ألف شخص أو أكثر احتشدوا بالميدان أثناء «الثورة المخملية» في كانون الأول ديسمبر. إنه خير تذكار علي أن تقدم الثورة سرعان ما يفسح الطريق إلي العمل المضني لإقامة الديمقراطية، وهي الفكرة الأساسية لخطابي الذي أذيع في كافة أنحاء البلاد.

وقلت أمام الطلاب: «إذا كان عام ١٩٨٩ هو عام الثورة والاكتساح. فلابد وأن يكون عام ١٩٩٠ هو البناء الجديد». وفيما حددت إطاراً عاماً لثلاث عشرة مبادرة أمريكية ملموسة لمساعدة التشيك في تأمين ديمقراطيتهم الجديدة أكدت حاجة كل النظم الجديدة في أوروبا الشرقية لتعزيز شرعيتها لأنه من دون تلك الشرعية لن يترسخ الاستقرار في المنطقة. وفي الواقع كنا نعتقد أن الانتخابات الحرة أمر حاسم في إقامة حائط صد ضد أي ردة شيوعية لدرجة أننا جعلنا من تبني الانتخابات الحرة كمبدأ أحد شروطنا الأساسية لعقد قمة جديدة لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا لتطوير ميثاق هلسنكي. وعرضت أيضاً ضرورة إشراك براغ ووارسو وبودابست والديمقراطيات الجديدة الأخري في العمل معاً في تجمع إقليمي جديد. وشعرت بأن هذا طريق لمساعدتها في تبديد مخاوفها حيال الوحدة الألمانية في الغرب وإمكانية فشل جورباتشوف في الشرق.

ووجهت نداءً خاصاً للطلاب بأن يُبقُوا علي مشاركتهم. لأنهم طالما لعبوا دوراً أساسياً في إسقاط الشيوعيين ويتفقنا في حديث مع روس وتاتويلر في وقت لاحق بأننا في حاجة إلي إيجاد طريقة لمشاركة الشعب الأمريكي في مساعدة أولئك الطلاب في بناء الديمقراطية. وعرضت تاتويلر وروس إقتراحاً بالقول: «ماذا عن فيالق الديمقراطية التي تشكلت علي غرار فيالق السلام» وهكذا ولدت فيالق ديمقراطية المواطنين – وهي حملة قام بها الرئيس بوش لتأييد الديمقراطية في المنطقة.

شواغل الكريملين

وفيما كنت متوجهاً بالطائرة من براغ إلي موسكو بعد ظهر السابع من شباط فبراير انصب تركيزي علي مدي تأثير ثورة شرق أوروبا علي الشرق. وإلي أي حد ستكون موسكو ١٩٩٠ مشابهة لموسكو التي زرتها من قبل في أيار مايو الماضي. وكان أكثر من ربع مليون قد ساروا يوم الأحد الماضي إلي الكريملين لتأييد الإصلاحات الديمقراطية. وكان جورباتشوف وشيفرنادزة يشاركان في مؤتمر الحزب الشيوعي، وأبلغنا يوري دوبنين لدي وصولنا بأن المؤتمر منعقد، وأن شيفرنادزة اضطر للتأخر بعض الوقت عن اجتماعنا الأول.

وكان شيفرنادزة لدي وصوله إلي أوسوبنياك في الساعة الثانية مساءً في غاية الارتياح تملؤه الثقة – رغم ما كنت أعرف أنه مؤتمر مرهق. وقال إن المؤتمر أقر هدف «إقامة اشتراكية ديمقراطية إنسانية» ووضع عملية تكفل نقلنا إلي هذا الهدف، ومن ثم تحقيق الديمقراطية، وكان يعتقد أن البيريسترويكا قد غيرت المجتمع السوفيتي «لدرجة أننا لم نعد نتعرف علي مجتمعنا فالتغييرات هائلة. فالديمقراطية والتحول الديمقراطي والجلاسنوست لم تكن مجرد كلمات أنها سمة للحياة اليومية». وبرغم هذا كان القلق بادياً عليه. لأنه في الوقت الذي بدأت فيه الآليات القديمة تكف عن العمل لم تبدأ الآليات الجديدة في العمل بعد». واستعرضنا الإصلاحات الاقتصادية التي يجريها جورباتشوف بما في ذلك نظام الائتمان

والملكية والأسعار. وقال: «إن سعر الخبز زهيد لدرجة بلغت الناس تستخدمه في إطعام ماشيتها. إننا في حاجة إلي أسعار حقيقية تعني شيئاً».

لكن التغييرات الأعظم طالت السياسة. فالإصلاح السياسي «يسير بخطي بالغة السرعة «وربما يتجاوز» الإصلاح الاقتصادي» وأبدي ترحيبه بالتعددية الجديدة في الاتحاد السوفيتي، واعترف بأنه يتعين علي القيادة اغتنام الفرصة. «ويتعين علي الحزب كحد أدني أن يتخلي عن احتكاره للسلطة، وعليه أن يقر بأن هناك أحزاباً جديدة. وهذا قرار بالغ الصعوبة إن هذا قراري» ودعني أقل بصراحة: إنه يمثل مشكلة تواجهنا، وأن هذا يلقي مقاومة عنيفة الآن». وبينما كنت أتابع حديثه تذكرت كيف أبلغني شيفرنادزة بأنه ليست هناك حاجة لنظام تعددي في الاتحاد السوفيتي. والآن فإن المعركة العظمي في المؤتمر هي مبادرة جورباتشوف بإلغاء المادة السادسة من الدستور السوفيتي التي تمنح «الدور القيادي» للحزب الشيوعي. وقال شيفرنادزة مشيراً إلي أعضاء اللجنة المركزية: «لم يتعودوا علي العمل علي حمل الجميع علي التصويت. إنهم يفترضون أن بوسعهم الفوز فقط. والآن فإننا نقول لهم إنه لكي تفوزوا بموقع فعليكم أن تشاركوا في المناقشات».

وقلت: «مرحباً إلي الديمقراطية. رغم أنها تكون صعبة وغير مريحة» وألححت عليه بشأن قضية ليتوانيا. حيث أعلن الحزب الشيوعي الليتواني استقلاله عن موسكو في ٢٢ كانون الأول ديسمبر ١٩٨٩ مثلما فعل الحزب الشيوعي في أذربيجان. حيث قمعت موسكو بعنف الجبهة الشعبية الآذرية في كانون الثاني يناير. وكما حدث في وايومنج ألححت علي فكرة الاستفتاء لأنني كنت علي اقتناع بأنه أكثر الطرق السلمية والديمقراطية المتاحة أمام دول البلطيق للحصول علي الاستقلال الذي تتمتع به بحكم الأمر الواقع. وذهبت لشوط أبعد وسألته: «إنني أتحدث إليك بصراحة تامة. ما هي الخسارة التي ستحدث لو قررت أذربيجان أن تكون جمهورية مستقلة؟» فربما كان ذلك أيسر حالاً لكل منكما إذا حصلت أذربيجان علي الاستقلال.

وقال وهو يحاج في قضية القوميات مرة أخري: إنها «أفدح مشكلة» تواجه جورباتشوف. ووافق من حيث المبدأ علي فكرة الاستفتاء – وهو موقف يشكل خطوة متقدمة عن موقفه في الخريف – لكنه كان يخشي من أن يثير الاستفتاء حرباً أهلية، وكان يساوره

قلق خاص تجاه منطقته مسقط رأسه – القوقاز – حيث الناس أكثر تقلباً ومراجية، وحيث اللجوء إلى الأسلحة أمر شائع عن البلطيق حيث الناس أكثر هدوءً.



وانتهزنا بقية الجلسة واجتماعات المجموعات الأصغر في اليوم التالي لإحراز تقدم في بقية القضايا، وخاصة الحد من التسلح. وحملت مجموعة مقترحات حول كافة القضايا بدءً من خفض القوات التقليدية في أوروبا والأسلحة الكيماوية إلى صواريخ كرور التي تطلق من الجو وصواريخ كرور التي تطلق من البحر، وكذلك موضوعات سرية كالصواريخ غير المنسوبة ومضادات الأسلحة الأولية، وأبلغت شيفرنادزة: «سيكون بوسعك إبلاغ بيروقراطيتكم بأن الولايات المتحدة تسير في اتجاهكم ... وآمل أنه عندما تطلعون على التفاصيل فسوف تقدرون تحركاتنا. لأنه يجب عليّ أن أكشف لك ظهري لتري الندوب التي توضح أن هذا استغرق جهداً مضنياً».

ورد شيفرنادزة: «كما تعرف فقد أصابتني أنا نفسي بعض تلك الندوب». وفيما اكتسحت التغيرات السياسية الثورية التي تعين علينا أن نديرها مسألة الحد من التسلح. فإن قضايا مثل صواريخ كرور التي تطلق من الجو استغرقت منا أياماً واقتحمت أحياناً معارك بيروقراطية ضارية في عاصمتينا. وكان الحد من الأسلحة النووية قدسية خاصة، واحتفظ كبار كهنة الحقبة الذرية بأسرارهم بحرص بالغ. وكم أعتقد ت أكثر من مرة أنني توصلت لإتفاق مع شيفرنادزة فقط لأرى العسكريين السوفيت وقد دمروه في اجتماعنا التالي.

وفيما يتعلق بألمانيا استعرضنا صيغة «إثنان + أربعة» في اجتماع منفرد آخر صباح يوم الجمعة، وذلك بعد إثارة قلقنا من تزايد نزعة معاداة السامية في الاتحاد السوفيتي في البداية. وكان لدى شيفرنادزة عدة أفكار إن لم تكن متضاربة حول كيفية إتمام الوحدة. وكان يشعر بالقلق حيال تنامي التحركات المناهضة للوجود السوفيتي في ألمانيا الشرقية. وأشار إلى أننا نعتقد أن بعض الشخصيات السياسية في أوروبا ربما تكون تتحرك بسرعة بالغة في مسألة الوحدة وتريد التحرك بسرعة بالغة». فالكريملين يريد إتمام الوحدة على «مراحل مرتبة»

لضمان الاستقرار. وهذا هو السبب الذي يدفع السوفيت إلى تفضيل صيغة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا. واعترف قائلاً: «لكن وبينما نعتقد أن هذه آلية مناسبة فإننا لا نقول أنها الآلية الوحيدة المتاحة». ومع ذلك فقد قال بعد دقائق: «إن اعتقادي الأساسي هو أن التاريخ لن ينظر لنا لو لم نستخدم آلية القوي الأربع بفعالية». واستدرك قائلاً في نفس العبارة: «إن قضية الوحدة ستحسمها الأمة الألمانية والشعب الألماني. لكن عليهما أن يعرفا آراء الآخرين». وهذا هو سبب اعتقاده بضرورة إجراء استفتاء ما، وشرح تناقضه بالقول: «إننا نعتقد أنه من الضروري دراسة كافة الآراء. وفي الحقيقة فإن تحركاتنا قد تأخرت كثيراً في ضوء تلاحق الأحداث».

ويبدو أنه كان واقعاً تحت تأثير البعد العاطفي للقضية. ولا يرجع ذلك إلي تعرضه لهجوم شخصي خلال مؤتمر الحزب «لخسارة» أوروبا الشرقية وألمانيا فحسب. بل أيضاً لفقده شقيقه في الحرب. وقال: «ربما بسبب مشاعرنا وذكرياتنا عن الحرب، ولأننا في حاجة إلي التفكير مرتين قبل الدخول في معركة مع ألمانيا فربما يكون هذا هو السبب في فرط حساسيتنا. إننا نعرف تماماً ويلات الحروب ولا يمكننا نسيان دروس الماضي».



وعلي النقيض كان جورباتشوف واقعياً بل وقانونياً. ويعود هذا في جانب منه بدون شك إلي نجاحه في مؤتمر الحزب، حيث أحرز نصراً سياسياً ساحقاً علي خصومه المحافظين بإنهاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة وخلق رئاسة فعالة وإصلاح حقوق الملكية وقال: «كما ترى لقد قطعنا شوطاً ضخماً، وببساطة يمكن القول فقد صدق المؤتمر علي تعميق وتجذير البيريسترويكا» وكانت معنويات جورباتشوف مرتفعة بسبب النجاح الذي يدد به تقارير الصحافة الغربية بل والسوفيتية عن وضعه السياسي: «حسناً يمكني القول علي الأقل إنهم لم يكونوا مصدر إزعاج مطلقاً ولم يكونوا متلورين ولم يكونوا مفيدين».

وكان يبدو أكثر استفادة من نهجنا تجاه الوحدة الألمانية وبعد تقديمي الأولي سأل ببساطة:

«إنني أقول «أربعة + إثنان» وأنتم تقولون «إثنين + أربعة» كيف تنظر إلي هذه الصيغة؟» ورددت: «إن صيغة «إثنان + أربعة» هي الأفضل». ولقد أعلنت رأيي لإدوارد. إننا لا نعتقد أن آلية القوي الأربع هي الآلية الفعالة. كما أن مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا آلية غير مناسبة. لقد خضنا معاً حربين لإقرار السلام في أوروبا. ولم نبل بلاءً حسناً في معالجة قضايا السلام أثناء الحرب الباردة. ونحن الآن نواجه تغيراً سريعاً وجذرياً. وإننا في وضع أفضل للتعاون في الحفاظ علي السلم».

ورد جورباتشوف «إنني أتفق أساساً مع نهجكم. فالعملية لازالت جارية. وعلينا أن نتكيف مع هذه العملية. علينا أن نتكيف مع الواقع الجديد وألا نكون سلبيين في ضمان أن الاستقرار في أوروبا غير قابل للإهتزاز.

حسناً فبالنسبة لنا ولكم، وبغض النظر عن اختلافاتنا فليس هناك ما يخيف من احتمال إتمام الوحدة الألمانية».

وكان هذا خلافاً صارخاً للمرة الأولي أري شيفرنادزة معارضاً في قضية يتحمس لها جورباتشوف. لكن ربما كان هذا نابعاً من رفض جورباتشوف الإقرار بواقع أعظم؛ وهو إنحسار الاتحاد السوفيتي كقوة عظمي. وقال جورباتشوف: «إنه بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فالقضية تكمن فيمن سيكون اللاعب الأساسي في أوروبا. لكن القضية أسهل بالنسبة لنا. فنحن دولتان عظميان لنا ثقل خاص. إننا نري أيضاً كيف يتحدث كول وفريقه معنا. إنه يدرك تماماً ماذا تعني بقاءنا» ويبدو أن جورباتشوف كان يعتقد أن الاتحاد السوفيتي سيظل قوة عظمي في أوروبا – حتي مع وجود ألمانيا الموحدة وبدأت في الاعتقاد بأن شيفرنادزة ربما يكون قد استشرف المستقبل بوضوح أكثر، وأنه يشعر بقلق من التصديق علي استمرار انحسار الاتحاد السوفيتي.

ومع هذا كنت أكثر اهتماماً بالحصول علي الموافقة السوفيتية علي صيغة «إثنان + أربعة» أكثر من تبين دوافع الكريملين. ولذا وعندما قال جورباتشوف إن صيغة «أربعة +

إثنان، أو «إثنان + أربعة» إستناداً إلي أساس قانوني دولي هي الصيغة المناسبة للموقف صدقت علي موافقته بسرعة وبهدوء.

وفي صباح اليوم التالي أصبحت أول وزير خارجية أجنبي يدلي بشهادته أمام مجلس السوفيت الأعلي. وكنت حتي ذلك اليوم لا أزال مأخوذاً بالتغيير الذي طرأعلي العلاقات السوفيتية الأمريكية، والذي كان من نتيجته أن يكون وزير خارجية الولايات المتحدة هو أول شاهد يقف أمام مجلس السوفيت الأعلي. وفي قاعة سفيردولف بالكرملين وهي قاعة بيضاء تتخذ شكل الكهف ذات سقف عبارة عن قبة جميلة مطلية باللون الأزرق تحدثت أمام لجنة العلاقات الخارجية لمدة عشرين دقيقة، ثم أجبت علي أسئلة الأعضاء لنحو الساعة ومنهم الماريشال أخروميف ويفجيني بريماكوف (وسيصبح بريماكوف في وقت لاحق من العام عنصر ازعاج رئيسي أثناء أزمة الخليج. كان الكثير من الأسئلة صريحاً وشاقاً. لكن الأشق والأصعب في الأمر برمته هو الحفاظ علي تركيزي وأنا أدرك تمام الإدراك أن لينين بروحه وتمثاله المصنوع من المرمر الأبيض يجثم علي أكتافي) .



وبينما كنت أهم بمغادرة موسكو وصلها كول ولم نجتمع في موسكو قبل أن يلتقي بجورباتشوف. فلم يكن يريد خلق انطباع عام في الاتحاد السوفيتي بأن الأمريكيين والألمان يتآمرون بشكل ما ضدهم. وفي السر كنا نتشاور وباستمرار، وفي ذلك الصباح كتبت رسالة إلي كول اطلعه فيها علي مباحثاتي، وأبلغت المستشار كول بأنني أكدت خلال مباحثاتي مع جورباتشوف معارضتي لتسوية قضية الوحدة من خلال مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا أو القوي الأربع الكبري، وأثرت صيغة «اثنين + أربعة» كبديل. وقلت له في الرسالة: «في الوقت الذي يساوره فيه القلق من الوحدة الألمانية – وقد يكون بعضها عائد إلي المشاعر التي تثيرها القضية في الاتحاد السوفيتي– فربما يبدو مستعداً لقبول نهج مهم يمنحه ستاراً أو تفسيراً لتصرفاته».

بلغاريا ورومانيا

وتوجهت من الاتحاد السوفيتي إلي صوفيا ثم بوخارست في زيارتين أضيفتا إلي جولتي قبل ثمان وأربعين ساعة فقط ،كانت الحكومة الجديدة في بلغاريا قد سقطت في نفس اليوم الذي اتخذت فيه قراري بزيارة بلغاريا، وكنت أريد زيارة الدولتين من البداية ولكن عندما أبلغني كريس ليبينجود رئيس فريقي الأمني أنه يشعر أن بإمكانه ضمان سلامتي في بوخارست كان عليّ أن أتخذ القرار النهائي.

كانت الذروة في صوفيا هي تلك الأعداد الغفيرة التي احتشدت في الميدان أمام فندق شيراتون ترقباً لوصولي ووصول زعماء المعارضة الذين اجتمعت معهم في ساعة متأخرة من الليل. وكُتِب علي بعض اللافتات التي رفعها الحشد شعارات مثل «ليرحل الشيوعيون» «ومرحباً بوزير الخارجية» وفور وصولي تعالي هدير هتافات تصفيق الحشود. كانت مظاهرة تلقائية ماكان يُسمَح عنها قبيل بضعة أسابيع فقط. وفي الوقت ذاته وفي قارة أخري كان الرئيس فريدريك دي كليرك يعلن أن نيلسون مانديلا سيصبح رجلا حراً في جنوب أفريقيا. حقيقة لقد كنا نعيش ثورة كونية.

وأبلغني زعماء المعارضة بأشياء أوضحت ما تأكدت منه في براغ. فلا تزال هناك حاجة ماسة إلي بذل عمل شاق وضخم لتدعيم قرارات عام ١٩٨٩ لإقرار ديمقراطية دائمة، واستفسرت منهم عما إذا كان مسموحاً لهم بالوصول بحرية إلي وسائل الإعلام واضعاً في اعتباري أن زعماء الحكومة أبلغوني أن فرصة الحكومة أقل في الوصول إلي وسائل الإعلام من المعارضة. ورد زعماء المعارضة: «إن الحكومة بنت تكلفة توزيع الصحيفة الشيوعية يبلغ ٧٦٠،٠٠٠ نسخة إننا لا نحصل إلا علي ورق يكفي لطبع سبعين ألف نسخة فقط». وقال آخر: «لقد قال روزفلت يجب علي المرء ألا يخشاه الخوف. لكن الخوف جاثم هنا» وأثناء كابوس ستالين كنا نعرف بلدكم العظيم وديمقراطيتكم وأنكم تفقون معناه وقال رجل دين: من الصعب الحصول علي الكتاب المقدس، وأحيانا لا يمكن الحصول عليه إلا بأربعة أو خمسة أضعاف سعره (علمت فيما بعد من بات كيندي مدي الصعوبة التي لاقوها في تدبير غرف لمرافقينا في صوفيا بسبب استمرار الشرطة السرية في السيطرة علي الكثير من الغرف التي اعتادوا استخدامها للتنصت علي الأجانب).

ويوم السبت الحادي عشر من شباط بدأت زيارة خاطفة إلي بوخارست، وكان من المثير للأعصاب أن أهبط في المطار لأجد ناقلة جنود مدرعة في انتظاري علي المدرج. وكانت الرحلة من المطار أسوأ بكثير من كوابيس جورج أورويل: سلسلة من المباني السكنية الغريبة لا يفوقها في قبحها إلا رتابتها إنها تصطف صفاً وراء الآخر شاهداً في صمت علي الجنون الذي ذهب إليه التخطيط المركزي، أو كما قال شيفرنادزة في موسكو: «ديكتاتورية شرسة خلقت مجتمعاً مشوهاً».

وفي مقر وزارة الشئون الخارجية كان المبني محاطاً برجال الميليشيا بزيهم الرسمي أخضر اللون وهم يحملون بنادق طراز إيه كي ٤٧ الهجومية ويقفون كتفاً إلي كتف. كان عليّ أن أستوعب ما أراه أمامي متذكراً نفسي بأن هؤلاء أناس طيبون. فمن الواضح أن الحكومة لاتزال تشعر بالقلق من فلول الشرطة السرية الرومانية السابقة في عهد شاوشيسكو. وكما فعلت في براغ نقلت معلومات عن أجهزة المخابرات الرومانية السابقة إلي رئيس وزراء رومانيا بهدف مساعدة الحكومة في إحكام قبضتها علي السلطة، واختتم الرئيس أيون أليسكو اجتماعي معه بسؤال: «هل تريد أن تري قاعة البرلمان التي لم تُستَخدَم لمائة عام؟» وأجبت بالإيجاب، ومالبث أن أراني قاعة مستديرة عظيمة سقفها عبارة عن قبة زجاجية بديعة، وخلف المنصة رُفِع علم روماني حيث كانت تعلق صورة لشاوشيسكو من قبل.

وكانت المعارضة الرومانية أكثر خوفاً. لكن والمفارقة أكثر حديثاً من المعارضة البلغارية. وكنت أفترض أنها تعتقد أنه إذا كان قد وسعتها النجاة من محاولة حربية في الحرب الأهلية فبإمكانها النجاة من أي شيء. واستهل أحد زعماء المعارضة بالقول: «إن هواتفنا مراقبة. ورسائلنا تُفتَح، وهناك حوادث سيارات لا يمكن تفسيرها. إننا مهددون بالطرد من بلادنا والشرطة السرية تتحرش بنا» وكان زملاؤه أكثر تحديداً وقالوا: «في ٢٢ كانون الأول ديسمبر حدثت محاولة لترهيبنا. لم نعد عرضة للترهيب. بل عرضة للتخويف. فهناك فرق. فيمكن لشرطتنا أن تغير اسمها. لكنها لا تفهم الديمقراطية.فعندما يعتدي عليك أحد باسم الديمقراطية تقول لك الشرطة: «أن بوسعهم عمل ما يحلو لهم لأنهم ديمقراطيون» وبات من الواضح الآن أن المعركة قائمة بين صفوف الشعب الروماني نفسه. وعلي حد تعبير أحد زعماء المعارضة: «تقولون إننا معارضة. معارضة ضد ماذا؟ إننا نقاتل ضد العالم

الشيوعي بين أبناء شعبنا ونفسياً فليس لدي شعبنا أي مفهوم الديمقراطية. فالشعب الروماني مفتت بالكامل إلي ذرات متناثرة مما يصعب إلي حد كبير بدء تشكيل تجمعات من أي نوع من البداية الأولي، وما يستتبع هذا من صعوبة بالغة في إقامة الديمقراطية». ولدي مغادرتنا قاصدين المطار نظرت عالياً وشاهدت رجلاً وحيداً في أحد المباني السكنية القميئة يصفق بيديه تحية للمنصر. وكم كان من المؤثر أن نري روحاً إنسانية تعيش في هذا المكان اللاإنساني.

أوتاوا وميلاد إثنين + أربعة

كان اقتراح الرئيس بوش الذي طرحه في آيار مايو الماضي في خطاب «مابعد الاحتواء» هو السبب الظاهري لمؤتمر أوتاوا، وهو أول اجتماع للثلاثة وعشرين عضواً من أعضاء حلف الأطلنطي ووارسو منذ ثورات عام ١٩٨٩ لكن سرعان ما اتضح أن الوحدة الألمانية هي اللعبة الأساسية – وأن الجميع يريد اللعب.

وبدأت يوم الإثنين الثاني عشر من شباط فبراير بإفطار عمل مع رئيس الوزراء مولروني ووزير الخارجية كلارك وشيفرنادزة، وبدت وطأة المؤتمر الآن أشد علي شيفرنادزة. وقال: «أنها معركة حقيقية، لكنها هذه المرة معركة القيادة»

وقال كلارك: يبدو الأمر وكأنه أشبه بالمعارك داخل مجلس العموم. وقال شيفرنادزة: «بل أسوأ. إن البعض يوجه اتهامات سياسية، وكنت أعرف أن إيجور ليجاتشيف المنافس المحافظ الباقي في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي – قد حذر من ميونيخ جديدة». لكن من الواضح أيضاً أنه اختار شيفرنادزة هدفاً للهجوم. وأبلغنا أن أحد أعضاء اللجنة المركزية قال: «كان الاتحاد السوفيتي قوي في وقت ما. فقد كان كالصخرة. حيث أوروبا الشرقية رهن يديه مما زوّده بضمان أمني. والآن يتداعي كل هذا. ورد شيفرنادزة علي العضو بسؤاله عن ربيع براغ – تلك الفترة الرائعة من عام ١٩٦٨ عندما أراد الشعب عن بكرة أبيه أن يعيش الحياة بشكل مختلف – وكيف سحقه السوفيت بالقوة – وسأل

مستجوبه: ما قولك في هذا؟ وعندما سأله مولرونى عن الإشارات المفيدة التي يمكن أن يوجهها الغرب قال شيفرنادزة: إن الحرس القديم استخدم الدعم الغربي لجورباتشوف ضد الإصلاحيين. وأضاف: إنه بالنسبة «للثوريين القدامي فعلي المرء أن يتوخي الحذر عندما يشاد بأعداء الطبقة العاملة». وقال شيفرنادزة: إنه يثير كل هذا لأنه يريد التأكيد علي أهمية مسألة توحيد ألمانيا.

وفي ضوء معاناته السياسية في الداخل فلا عجب من أن يبدو غارقاً في التضارب حول عملية إدارة هذه القضية «بالغة الأهمية» وقال بنبرة حزن: «إننا نحاول تدبير الأمر لإيجاد حلول. لا أعرف كيف؟ فمن الطبيعي أن يريد الألمان أن يتوحدوا، ومن ناحية أخري لا أحد يدري ما هي العواقب».

ويبدو أن الأحداث قد تجاوزت السوفيت. رغم أنه لايزال أمامهم عدة فرص، ومع انعدام توازن الكريملين كان علينا أن نسعي جاهدين إلي وضع جدول أعمال، وأن نجتذب السوفيت إليه كان لدينا زخم علي الأرض، ومن الضروري الحفاظ علي زخم فكري.

وعقب انتهاء الجلسة الافتتاحية للمؤتمر جلست مع جونشر. وأكد مجدداً أن الألمان لن يحضروا اجتماعاً تملي فيه القوي الأربع الكبري شروط توحيد ألمانيا. وطمأنته مرة أخري أن كلمة «الإثنان» ستسبق كلمة «الأربعة»، وأعرب جونشر عن اعتقاده بأنه يتعين أن توجه الألمانيتان الدعوة لطرح صيغة «إثنان + أربعة».

وفي وقت لاحق بعد الظهر أبلغني دوما أن باريس تؤيد الآلية. رغم أنها تفضل أن يسبق كلمة «الأربعة» كلمة « الإثنان». وقال: إنه سيبحث موضوع الآلية مع شيفرنادزة المقرر أن يلتقيه الساعة الرابعة والربع، وأثار هذا غضبي لأنني أحسست أن هناك مشكلة رمزية لدي الألمان لتفضيل الفرنسيين الصيغة علي نحو «أربعة + إثنان» بما يتعارض مع اقتراحنا «إثنان + أربعة» وهناك أيضاً اختلاف جوهري، فقد كنا في حاجة إلي ضغط توحد الألمانيتين علي الأرض للحصول علي موافقة باريس ولندن وموسكو. ولم أكن أرغب في أن يحمل دوما موسكو علي الموافقة علي نهج لا يوافق عليه الألمان. ولذا فقد أرسلت كارين جروميز للبحث عن شيفرنادزة حتي ألقاه قبل أن يلقاه دوما.

وفي الوقت ذاته اجتمعت مع دوجلاس هيرد، وأبلغته بأننا في حاجة إلي التحرك وفق صيغة «إثنان + أربعة». وإلا فسوف نتعرض لضغوط من آخرين يريدون المشاركة، ولكننا نريد أن يكون السوفيت علي الخط. إنهم يريدون بإلحاح أن يشاركوا في العملية. ولكن إذا تلكأنا في صيغة «إثنان + أربعة» فسوف تـطَـرَحُ صيغ أخرى مثل مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

ورد هيرد: «بأنني رأيت شيفرنادزة للتو وهو في حالة مزاجية يرثي لها. لكنه اعترف في النهاية بأن صيغة «إثنان + أربعة» هي أفضل ما يمكننا عمله وعلينا المضي فيها قدماء.

وقلت: «هذا هو انطباعي أيضاً، وعلينا أن نتحرك حتي يتم التشبث به. فديما يوافق أيضاً رغم أنه يفضل الصيغة علي نحو «أربعة + إثنان» مما سيخلق لنا مشاكل مع الألمان الذين لن يقبلوا بها».

وتساءل دوجلاس: «ما هو الفرق بين «أربعة + إثنان» وبين «إثنان + أربعة»؟.

ورد راي سايتس إنه ليس حاسما بالنسبة لنا. لكن من وجة نظر ألمانية فمن المهم أن يوجه الألمان الدعوات. وقال بوب في ذلك: إن صيغة «إثنان + أربعة» تشبع إحساس الألمان بالتسلسل. فالألمان سيعالجون القضايا الداخلية، ثم يقوم الآخرون بمعالجة القضايا الخارجية معهم.

وأعرب هيردمن اعتقاده بأهمية هذا، وقال مفكرا بصوت عال: «الآن وبعد أن اتضح أن المملكة المتحدة وفرنسا يشاطران الولايات المتحدة وجهة النظر الأساسية فإنني أتساءل عما إذا كان يتعين أن أمضي إلي شيفرنادزة، وأبلغه بأن القوي الغربية الثلاث تتفق مع السوفيت علي التحرك وفقاً لهذه الآلية».

وقال هيرد: «إن هذه فكرة جيدة» مشيراً إلي أن مثل هذا الإجراء خطوة حكيمة الآن في ضوء مزاج شيفرنادزة المعتل.

وفي الساعة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة اجتمعت مع شيفرنادزة في لقاء علي هامش «المؤتمر» ولحسن الحظ كان الجميع متأخرا كما تأخر موعد اجتماع ديما وشرحت مفهومي

بالتفصيل أكبر لصيغة «إثنان + أربعة» وأبلغته بأننا متفقون علي أننا فى حاجة إلي التحرك قدماً. وحاولت أيضاً رفع معنوياته. وكان لايزال فى حالة تأرجح، وكنت على يقين بأننا سنكون فى حاجة له لإقناع موسكو.

❑ ❑ ❑

وكان اجتماعى التالى مع كريزتوف سكوبيزفسكى خير تذكار للسبب الذى يؤكد أنه ليس في مصلحتنا السماح للألمانيين بإتمام الوحدة وحدهما. فقد قال الوزير «إنه متأكد من أن الوحدة تمضي قدماً وأن وارسو لا ترغب فى عرقلة مسيرتها، وفوق هذا وذاك يجب علي المرء أن يكون واقعياً. إننا جيران. فقد بدأت الحرب الأخيرة في بولندا. إننا فى حاجة إلي إقامة علاقات طيبة. فنحن محاصرون بين بلدين كبيرين. ولهذا وبينما لا يريد البولنديون أن يكونوا من «المعارضين» للوحدة الألمانية إلا أنها تشكل مصدر قلق لهم. ومشكلة بولندا الرئيسية هي الحدود، أو كما وصفها وزير خارجية بولندا «التخوم» ففى نهاية الحرب العالمية الثانية توغل ستالين بالحدود البولندية مع ألمانيا نحو الغرب، واستولي على شريط من الأراضى البولندية، وهناك قلق في بولندا من أن ألمانيا الموحدة ستطالب بإعادة هذه الأراضى، وإشار إلي أنه إذا لم تتم تسوية هذه القضية سوف يندلع اثنا عشر نزاعاً حدودياً آخر في أوروبا، وسيكون هذا أمراً «مؤسفاً». واعترف بأن مسؤوليات القوي الأربع تنحصر إلي حد كبير في برلين. لكن وبمجرد أن تبدأ المباحثات بين القوي الأربع والألمانيين سيكون من المفيد إصدار بيان مبكر بشأن الحدود. بهدف إزالة هذا العنصر الذى يسمم الأجواء. وروعتنى إشارته إلي «الأربعة + الإثنان» بعض الشيء. لكننى مالبثت أن تأكدت أنه اجتمع مع السوفيت. وكان هذا مؤشراً آخر علي أنه إذا لم نقر اتفاقنا فى أوتاوا فسوف نفقد ما قد يكون فرصتنا الوحيدة.

وبدأت صباح الثلاثاء الذى تساقطت فيه الثلوج باجتماع عادى علي الإفطار. وأقر جينشر وديما وهيرد بأن التطورات تمضى بأسرع من المتوقع، وإنه علينا أن نقر صيغة «إثنان + أربعة» هذا اليوم. وكنت أعتقد أنه بإصدار إعلان عام فسوف نحول الجدل مما إذا

كانت ستكون هناك وحدة ألمانية إلي ما هي السرعة والشروط التي ستتم الوحدة بمقتضاها.
وبصدور بيان عام لن يستطيع أحد الإقدام علي التراجع. وكلّف بوب زوليك بإعداد بيان قصير، وقد قدمه في ثلاث عبارات مكتوبة فقط:

> أجري وزراء خارجية ست دول مباحثات في أوتاوا واتفقوا علي أنه بعد إجراء انتخابات ١٨ آذار مارس في جمهورية ألمانيا الديمقراطية سوف يجتمع وزيرا خارجية دولتي ألمانيا مع وزراء خارجية القوي الأربع لبحث الجوانب الخارجية للوحدة الألمانية. وستبدأ عما قريب المشاورات التمهيدية علي المستوي الرسمي.

وطلب جينشر تغيير نهاية العبارة الثانية لتصبح علي النحو التالي: «الجوانب الخارجية لإقامة وحدة ألمانية». ويعني هذا التغيير صراحة أن المنتدي سينتهي بإقرار الوحدة لا تأجيلها. وسارعت أنا وديما بالموافقة، واتفق أربعتنا علي أن أفاتح شيفرنادزة خلال جلسة السماوات المفتوحة التي ستعقد في الصباح لاحقاً.

وبمجرد دخولي إلي مركز المؤتمرات طلبت من شيفرنادزة عقد اجتماع جانبي واستعرضت مع شيفرنادزة بوجود مترجمه باقيل بالازشنكو ومترجمي بيتر أفاناسينكو فقط البيان الختامي الذي نريد إصداره – وقال: إنه سيتصل بجورباتشوف علي الفور وسيرد عليّ بمجرد أن يتلقي إجابة، ولمست تردداً من جانب شيفرنادزة ربما نتيجة التيقن من أن الوحدة الألمانية ستثير عاصفة هوجاء في موسكو، وأن هذه قضية أكثر اختلافاً لا يريد أن يحتل مركز الصدارة فيها.

وقبيل الظهر دعاني شيفرنادزة إلي قاعة اجتماعات صغيرة خارج قاعة المؤتمر، وقال: لو أمكننا إدخال تغييرين فسوف يوافق جورباتشوف علي صدور بيان «إثنان + أربعة» فهو يريد أولاً: حذف الإشارة إلي الانتخابات التي ستجري في ألمانيا الشرقية، ولأن الجميع يفترضون أنها ستأتي بحكومة مؤيدة للوحدة فلم يكن جورباتشوف يريد التأكيد عليها. وكنت أعتقد أيضاً أن جورباتشوف يريد بعض المرونة لعقد اجتماع «إثنان + أربعة» قبل الانتخابات. وفي ضوء أن أي اجتماع سيتطلب موافقة الدول الست فلم أشعر بالقلق. لأنني أعتقد أن بوسعنا استخدام الفيتو علي أي اجتماع مقترح بالعمل مع بون ولندن وباريس والاتفاق علي عدم المشاركة، ثانياً: أرادت موسكو إضافة جملة تشير إلي «قضية أمن الدول

المجـاورة» وكـان تقـديري أن هذه الحـملة ربما تكون من بنات أفكار شـيـفـرنادزة لا جورباتشوف، وأنها محاولة من جانبه لاستعادة وترضية بولندا، وخرجت بانطباع محدد بأنه يأمل في استغلال قلق وارسو على الأقل لتأجيل صيغة «إثنان + أربعة» وإذا فشل ذلك فإنه يعتزم على ما يبدو أن يتصدر الدفاع عن مسألة الحدود البولندية بين القوى الأربع الكبرى، وسيتعين تسوية تلك القضية في أي عملية لتوحيد ألمانيا. ولهذا فلم يكن لدىّ أى مشكلة في إدخال هذا التغيير. إن أبسط تفسير يشير إلى أن هذه هي طريقة موسكو المألوفة لطمس الحدود بين «إثنان + أربعة» وبين مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ولكن نظراً لأنه لم تتم دعوة دول أخرى للمشاركة فلم يشغلني هذا التعديل. وقلت لشيفرنادزة إنه يجب علىّ أن أتحدث إلى جينشر وهيرد ودوما. لكني سوف أرد عليه بعد قليل.



ومع ذلك وقبيل مغادرتي أبلغني بأن جورباتشوف لديه عرض مضاد لمبادرة الرئيس بوش حول خفض القوات التقليدية في أوروبا، وكان الرئيس بوش قد اقترح ، خطاب حالة ، على الاتحاد السوفيتي قبل أسبوعين خفض عدد القوات الأمريكية والسوفيتية إلى٩٥ ألف فرد فيما يعرف بالقطاع الأوسط للقوات التقليدية في أوربا. والعنصر الأساسي في هذا الاقتراح هو مساواة مستويات القوات في أوروبا الوسطي في الوقت نفسه، ومنح ميزة للولايات المتحدة في أماكن أخرى في أوروبا. ونظراً لأن القوات السوفيتية لا تتمركز في أراضٍ أجنبية. إلا في القطاع الأوسط، وأننا نعتزم الاحتفاظ بثلاثين ألف جندي إضافي في بقية أوروبا. فإن الأثر الفعلي هو تحويل الحقيقة الأساسية للحرب الباردة وتحديداً تحويل الميزة السوفيتية في القوات التقليدية إلى مثلب. وقد أبلغني جورباتشوف بخفض القوات بالتساوي لتصل إلى ما يتراوح بين ١٩٥ أو ٢٢٥ ألف جندي في أوروبا كلها. وباختـصـار كـان يريد أن يصل إلى الحدود الدنيا للقوات. لكنه لا يريد أن يمنح الولايات المتحدة أي ميزة.

وأبلغني شيفرنادزة بأن جورباتشوف تدبر الأمر خلال عطلة نهاية الأسبوع، وأنه مستعد الآن للموافقة علي مستوي الخفض المتساوي إلي ١٩٥ ألف جندي في القطاع الأوسط شرط أن تدرج الولايات المتحدة خططها بتمركز ثلاثين ألف جندي إضافي في مكان آخر في أوروبا في بند قانوني ملزم في المعاهدة. وصُعِقتُ فبعد مشاوراتنا في موسكو اقترضت أن جورباتشوف سيحتاج لمزيد من الوقت بشأن القوات التقليدية في أوروبا. لكن يبدو أنه تشجع جراء انتصاره في مؤتمر الحزب، وأنه يريد الحفاظ علي زخم العلاقات السوفيتية الأمريكية. ولضمان عدم حدوث لبس سألت شيفرنادزة: «هل توافقون علي أن يكون هناك لا تناظر لقواتنا في أوروبا؟» وبدأ إدوارد يرد، وبدأ بافيل في الترجمة. وقاطع دينيس روس المترجم قائلاً: «ليس هذا ماقاله» (وكان اجتماعنا قد رتب علي عجل لدرجة لم يتمكن معها مترجمي بيتر أفناسينكو من العودة إلي قاعة المؤتمر في الوقت المناسب). فقد ضبط روس الضليع في اللغة الروسية تصاريا قاتلاً في ترجمة بافيل التي تكاد لاتخلو من الأخطاء في العادة. وتحدث بافيل مع شيفرنادزة برهة ثم قال: «سيكون هناك لا تناظر في القطاع الأوسط، لكن نعم سيكون هناك لاتناظر في بقية أوروبا».

وعدت إلي الاجتماع وأنا أشعر بأن الزخم في جانبنا. فالفرصة سانحة أمامنا لإغلاق ملف واحد من أكبر القضايا المحرجة في الحد من الأسلحة التقليدية، وأن نحيل العملية الدبلوماسية لتوحيد ألمانيا إلي منتدي يعزز قوتنا. وسألت فيل زايكوف عضو مجلس الأمن القومي في الرحلة إعداد بيان مقتضب بعد أن وافقت علي مسودته المكتوبة علي الفور، وطلبت منه مراجعته مع جيم دولسي مفاوضنا في مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا، وراجعه أيضاً كل من ريجي بارثولوميو وكيل وزارة الخارجية للشؤون الأمنية الدولية ورئيس وفدنا في مفاوضات الحد من التسلح. ورون ليهمان مدير وكالة الحد من التسلح ونزع السلاح. وطلبت منهم أيضاً مراجعته مع واشنطن للتأكد من عدم اعتراض أحد عليه. (واتضح أن البعض في واشنطن معترض علي إدراج بند في المعاهدة) بل ومعترضون أيضاً علي الالتزام المنفرد الوارد في اقتراح الرئيس. لكن كل ذلك عولج في حينه ليتسني لجوي كلارك أن يعلن الاتفاق في الساعة السادسة مساء ذلك اليوم. وغمرنا السرور جميعاً بتحقيق هذا الانفراج. فللمرة الأولي منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية سيكون لموسكو قوات في أوربا

تقل عن قوات الولايات المتحدة. إضافة إلي أن حدود قوات الاتحاد السوفيتي ستحدد بطريقة يمكن التحقق منها وفي معاهدة ملزمة قانوناً.

❑ ❑ ❑

وغادرت مركز المؤتمرات متوجهاً إلي فندقي حيث وصلت بعيد الظهر. وكانت أولي مهامي هي إطلاع الرئيس علي أحدث التطورات والمواقف واتصلت بكل من الرئيس وسكوكروفت علي خط واحد وبدأت في شرح بيان صيغة «إثنان + أربعة».

لم يكن برينت متحمساً وقال: «لست واثقاً بأن هذه فكرة جيدة لقد تحركنا بسرعة بالغة». ورددت: «لقد فات أوان ذلك فالكل قد وافق عليه».

وقاطعني سكوكروفت قائلاً: «لم يوافق كول» وسأل الرئيس: «جيم. هل أنت واثق من قبول كول لهذا؟» وقلت: «لم يكن جينشر ليوافق إلا إذا كان قد حصل علي موافقة كول».

وقال برينت: «لقد تحدثت مع تيلتشيك، ولست واثقاً من موافقة المستشارية»، ولم يكن هورست تيلتشيك المستشار الشخصي لكول لشؤون الأمن القومي علي وئام مع جينشر.

واختتم الرئيس: «إننا في حاجة حقيقية إلي التأكد من موافقة كول علي هذا». وقلت: «ليكن سأراجع الأمر مع جينشر» وكنت أعرف أنه يجب علينا إصدار البيان حينئذ. إن أي تأجيل سوف يتيح ظهور معارضة من موسكو ولندن وباريس أو عواصم أخري وقد يبعث إلي الحياة أحد مستشاري السوء الذين ينتشرون في الدوائر الدبلوماسية. ومن وجهة نظر الدبلوماسية العامة فسوف يظهر البيان صراحة أن صيغة «إثنان + أربعة» ستعمل علي إتمام الوحدة الألمانية، وأن هذا هو أساس المفاوضات المستقبلية، وستمنع من حدوث ردة سوفيتية. واقتناعاً بأن الرئيس وبرينت أساءا فهم موقف كُول طلبت من جينشر أن يعرج عليّ في غرفتي. وقلت: «هانز - ديتريتش، البيت الأبيض غير واثق أن المستشارية تؤيد صيغة «إثنان + أربعة» ورد: «لماذا هذا غير صحيح، سأتصل بالمستشار» وقلت: «حسناً واطلب منه أن يؤكد رأيه للرئيس بوش».

واستعار جينشر الهاتف الخلص بي في غرفة نومي لإجراء مكالمة خاصة مع كول. وبعد دقائق عاد إلي غرفة المعيشة ليبلغني «ليس هناك مشكلة. فكول موافق موافقة تامة، وهو يتصل الآن ببوش». وقررنا أن يعاود جينشر الاتصال مرة أخري بكول في غضون بضع دقائق لضمان أن الأمور سارت علي مايرام وأنهما علي اتصال - في الوقت ذاته ترقبت وأصغيت وجينشر يتحدث أمامنا عن البعد العاطفي للذي آلت إليه الوحدة: «تعرفون أنني ولدت فيما هو الآن ألمانيا الشرقية، وسوف أعود يوم الجمعة لألقي خطاباً في مسقط رأسي. إنهم يطلقون إسمي علي المدرسة العليا: مدرسة هانز ديتريش جينشر العليا. فقد غُشِيَ علي أساتذتي القدامي عندما عرفوا بإطلاق أسمي علي المدرسة، ومضي إلي شرح كيف يتقاطر أفراد القوات المسلحة الألمانية الشرقية يلتمسون عملاً في القوات المسلحة الألمانية الغربية، وكيف أن سجلات الجيش الألماني الشرقي حافلة بالجنود الذين أبلغوا أجازات مرضية بينما هم فروا من الخدمة بالفعل. وقال: «إنهم يواصلون التقدم ليذكروننى فحسب مرة أخري بالأحداث التى تجري علي الأرض، وأننا في حاجة للاستمرار، وأخيراً عاود الاتصال بكول وأكد لي أن المستشار تحدث إلي الرئيس بوش وطمأنه بأنه يوافق علي صيغة «إثنان + أربعة».

وعاودت الاتصال بالرئيس وبسكوكروفت وسألت: هل اتصل كول؟ ورد الرئيس بأنه اتصل لكن كول لم يؤيد بوضوح صيغة «اثنين + أربعة» ولم يتطرق بالفعل لتأييد البيان.

وقلت: «لقد تحادث كول وجينشر» وأبلغت الرئيس: «انني اعرف أن كول موافق وانك في حاجة لمعاودة الإتصال به» وطلبت من جينشر ان يتصل بكول ليبلغه بأن بوش سيتصل به».

وفي نحو الساعة الثالثة والربع بعد الظهر أعاد الرئيس الاتصال وقال: «لقد اتصلت بكول. وانه موافق علي «اثنين + أربعة». فلنمض قدماً».



وفي وقت لاحق تبينت ماذا أثار التضارب. ففي مكالمة كول الأولي للرئيس الساعة ١:٤٩ بعد الظهر لم يكن كول واضحاً في تأييده «لاثنين + أربعة». وقال مشيراً إلي اجتماعاته مع جورباتشوف في موسكو: لقد بحثنا نفس النقاط التي بحثها جيمس بيكر بأنه يجب أن تعمل الألمانيتان معاً مع القوي الأربع – الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا والاتحاد السوفيتي. لقد أبلغني هانز ديتريش جينشر الذي اتصل بي قبل ساعة واحدة من أوتاوا أن وزراء الخارجية يبحثون نفس القضايا. وفي مكالمة الرئيس لكول في الساعة الثالثة ودقيقة واحدة قدم كول تأييده الصريح. بيدأ بالقول: «جورج. أشعر أن هناك التباساً. إنني أوافق علي ما يبحثه وزراء الخارجية في أوتاوا. وقال الرئيس أيضاً: إنني أشعر بالقلق لأن هذا الموضوع لا يزال مفتوحاً. إننا قد نجد أنفسنا في وضع يطالب فيه آخرون في الشرق والغرب الانضمام إلي جانب القوي الأربع الكبري. حينئذ فسوف تواجهنا مشكلة كبري.

أما وقد تلقينا الضوء الأخضر من عاصمتينا قرر جينشر وأنا المضي قدماً وإصدار بيان صيغة «إثنان + أربعة». فلم نكن نريد أن نمنح أي أحد ثانية واحدة ليفكر مرة ثانية، وبينما كنا ننتظر مكالمة كول والرئيس بوش اتصلت هاتفياً بدوجلاس هيرد ودوما وحصلت علي موافقتهما علي الإضافات التي يريدها شيفرنادزة في البيان. وفي الفقرة الثانية حذفنا عبارة «بعيد انتخابات الثامن عشر من آذار مارس في جمهورية ألمانيا الديمقراطية» وكتبنا بدلاً منها بما في ذلك القضايا الأمنية للدول المجاورة في نهاية الفقرة»*.

ومضينا رتبياً نا لإلتقاط الصور التذكارية لوزراء الخارجية الستة علي درج الغرفة الذي كنت استخدمه للذاتيات فقط. كان المكان في حالة فوضي عارمة حتي جاء كيم هوجارد رابط الجأش الذي يعمل تحت ضغط دائم فأبعد بجسده الحرس الزائد والمتطفلين، وأصلح ياقة دوجلاس هيرد.

---

* جاء نص البيان الختامي علي هذا النحو. «أجري وزراء خارجية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية وفرنسا والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مباحثات في أوتاوا. واتفقوا علي أن يجتمع وزيرا خارجية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية مع وزراء خارجية فرنسا والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة لبحث الجوانب الخارجية لإقامة وحدة ألمانية بما في ذلك القضايا الأمنية للدول المجاورة، وستبدأ قريباً المشاورات التمهيدية علي المستوي الرسمي».

وأثناء الشد والجذب حول ما إذا كان كول قد وافق حقيقة علي ما أنجزناه بات من الواضح لي أن العاملين في مجلس الأمن القومي لم يكونوا معترضين فقط علي صيغة «إثنان + أربعة» بل إنهم يعملون لدفع الرئيس علي عدم الموافقة عليها حتي علي الرغم من اقناع لندن وباريس وموسكو بالموافقة بل وموافقة الألمانيين أيضاً.

وكنت اعتقدت أنني أفضت في شرح الصيغة حتي قبل مغادرتي واشنطن. وكنت قد أعطيت الرئيس الورقة التي أعدتها إدارة التخطيط السياسي التي حددت إطار الآلية في ٣١ كانون الثاني يناير. كما أجري بوب زوليك مشاورات مكثفة مع بوب بلاكويل المساعد الخاص للرئيس للشؤون الأوروبية. فضلاً عن ذلك فقد راجع البيت الأبيض الرسالة التي أرسلتها لكول من موسكو والتي مثلت ذروة هذه الصيغة.

وقبل أن أعود إلي قاعة المؤتمر أجريت ثالث مكالمة هاتفية مع الرئيس من جناحي، وفي هذه المرة تأكدت أن كلينا علي الخط. وقلت: «كان يوماً طيباً هنا. في الواقع إن هذا إنجاز تاريخي. لكن وبصراحة كان إنجازاً تحقق بشق الأنفس. لأن البعض كان متحيراً ضد فكرة «إثنان + أربعة». كان جورج بوش رحب الصدر كدأبه، وأبلغني أنه يتفهم وجهة نظري. وكنت علي ثقة بأنه يشعر الآن مثلي أن الطريقة التي عالجنا بها قضية الوحدة الألمانية هي واحدة من أهم إنجازات السياسة الخارجية خلال فترة رئاسته.

وغادرت جناحي للانضمام إلي مؤتمر حلف الأطلنطي الذي انعقد حيث كانت أجواء الاجتماع متوترة. ولم يكن أحد من وزراء الخارجية الآخرين قد علم بأمر المناقشات الخاصة بصيغة «إثنان + أربعة» والأنكي أنهم لم يعرفوا بأمرها إلا من الصحفيين قبل أن أتمكن أنا وجينشر وهيرد وديما من العودة إلي مركز المؤتمرات لإطلاعهم علي الموضوع، واستاء الحلفاء لعدم التشاور معهم . وقال دي ميخائيليس: «لقد عملنا معاً في التحالف لأربعين عاماً. وكرر هانز فان دين بروك نفس الشكوي مثلما رددها ممثلون من لوكسمبرج والنرويج وبلجيكا وأسبانيا وكندا*.

---

* ما لبث الحلفاء أن أشاروا إلي عدم ارتياحهم لفكرة مناقشة الأمنية للدول المجاورة، لأنها تشير ضمناً إلي أن صيغة «إثنان + أربعة» قد تبحث القضايا المتعلقة بأمنها بدونها، وأنها تشعر بالقلق من التدخل السوفيتي. وكانوا يريدون إدراج كلمة «حيث من المناسب» قبل مناقشة، حتي يمكنهم إصدار بيانات منفردة توضح أن أمنهم ليس موضوعاً مناسباً لهذا المنتدي وأبلغتهم بأن «

وحاولنا تهدئتهم بلطف بالإشارة إلي أن القوي الأربع حقوقاً قانونية تعين وضعها في الإعتبار. لكن في ضوء المشاحنات التي خضناها للحصول علي البيان لم يكن جينشر في حالة نفسية تسمح له بالدخول في مهاترات مع دي ميخائيليس، وفيما أفحم دي ميخائيليس بشدة دق جو كلارك بالمطرقة مؤذناً باختتام الاجتماع. وفي تلك الليلة ونحن نترقب كيفية تغطية الصحافة راودت نفسي: بأنه إذا كان من الصعب الاتفاق علي من يجب أن يلعب فكيف سيكون حال المباراة عندما نبدأ في معالجة قضايا لاحقة.

– هذا التغيير مستحيل لأن البيان قد أُرسل بالإنجليزية بالفعل إلي الصحافة. لكننا وافقنا علي أنه بوسع جو كلارك أن يعلن علناً «أن الدول المجاورة» لا تشير إلي أي أعضاء في الحلف. كما أن الحلفاء سألوا عما إذا كان بوسعي التحدث إلي شيفرنادزة لأطلب منه حذف أداة التعريف (the) الموضوعة قبل كلمتي «الحلفاء والمجاورة» من نسخة البيان المكتوبة باللغة الروسية لأن كلمة (the) يمكن ترجمتها علي أنها تعني «كل». وغادرت المؤتمر ووجدت شيفرنادزة وقلت: «إن بعض الحلفاء يريدون تعديلاً بسيطاً في البيان». سألته هل يمكنكم حذف أداة التعريف (the) من العبارة التي استخدامها بناء علي طلبكم بشأن الدول المجاورة؟ ورد بابتسامة: «إنه أمر بسيط فليس هناك أدوات تعريف في اللغة الروسية، ومن ثم فإنها غير موجودة في البيان بأي حال».

الفصل الثالث عشر

افريقيا نهاية العزل العنصري

... حللت كلماته ووجدت فيها نبرة صدق، وأشعر أنني أتعامل مع رجل مستقيم، لكن كافة أعمدة العزل العنصري لاتزال قائمة.

نيلسون مانديلا

عن فريدريك ويليام دي كليرك

متحدثاً لوزير الخارجية جيمس بيكر

٢١آذار مارس ١٩٩٠

بقدر ما تسعفنى الذاكرة أتذكَّر أننى كنت صياداً ماهراً. فقد غرس أبى فىَّ حب الأماكن الخلوية، ونشأتى علي هواية لازمتى طيلة حياتى ومنحتنى لحظات سعيدة. فعندما كنت فى السادسة اصطحبنى معه فى رحلات صيد البط. وكان يرى فيها طريقة يمضى بها الأب والابن أوقاتاً سعيدة معاً. وكان مصيباً. فقد أمضينا بعضاً من أسعد لحظاتنا رابضين فى مكامن صيد البط. وفى الوقت المناسب سمح لى بممارسة ألعاب صيد أخرى. وعندما بلغت الرابعة عشرة قرر أننى كفء بما يكفى لأرافقه فى رحلات صيد الأيائل فى ويومينج وفى تلك الرحلة فى صيف عام ١٩٤٤ وقعت فى هوى ويومينج وهو ما دفعنى إلي شراء مزرعة فيها عام ١٩٨٨.

وكمعظم الصيادين المهرة طالما أردت القيام برحلة صيد كبرى فى أفريقيا، وفى عام ١٩٧٤ تهيأت لى هذه الفرصة أخيراً. فقد قررت سوزان وأنا قضاء شهر عسل تأخر كثيراً فى رحلة سفاري، وأمضينا ثلاثة أسابيع رائعة فى بوتسوانا. هذا البلد الأفريقى المستقر نسبياً الذى يقطنه عدد صغير من السكان ولم تطله يد التنمية، ويضم مساحات واسعة من البرية البكر فى جنوب القارة الأفريقية. ولم تستهونى للصيد القطط الضخمة والأسود والنمور والفهود ربما بسبب جمالها الأخاذ أو ندرتها.

ومع هذا قمت بصيد حيوانات من عائلة الظباء مثل الكود «البقرة الأفريقية» الوحشية والإمبالا والليشوى والسمور وظبى سيتاتونجا وظبى السبخة.

ومن كل الحيوانات التى أصدتها فى الرحلة لم يكن هناك أكثر إثارة من جاموسة الكاب لطبيعتها التى لا يمكن للتنبؤ بها التى خبرتها فى تجربة شاقة. فبعد ظهر أحد الأيام وجدنا أنفسنا أمام جاموسة أصابها أسد بجروح ومن دون إنذار إندفعت نحونا من مسافة قصيرة بالغة الخطورة. وسرعان ما صوبت بندقيتى لأصيبها برصاصة بين عينيها لتتهاوي علي الأرض علي بعد سبع ياردات منى. حدث كل ذلك بسرعة فائقة لم تكف لإعادة البندقية إلي كتفى. ويقول الخبراء: يجب ألا تغامر فى أدغال أفريقيا إذا لم تكن صياداً بارعاً. وأكد لى حادث بعد الظهر صحة تلك المقولة.

ومع هذا كنت مترددا في صيد الأفيال. واشتريت عدسة لصيد الأفيال. حيث أبلغني الأصدقاء بأن أنياب العاج تكفي لتغطية نصف كلفة رحلة سفاري. لكن رغم أن هواية الصيد وضعتني أكثر من مرة أمام ثور هائل كان يمكن أن يقضي عليّ فلم يسعني أن أقدم على هذا*.

وفي تلك المغامرة سلكنا طريقاً جديدة بكل معنى الكلمة. فقد كنا أول من يصيد في تلك المنطقة التي قررت الحكومة لتوها فتحها أمام الصيد. كانت المنطقة بكراً غير مطروقة لدرجة اضطرتنا لتعليم الأشجار حتى يمكننا تلمس طريق عودتنا إلى المعسكر.



وهكذا وبمشاعر خاصة عدت بعد ستة عشر عاماً إلى جنوب القارة. حيث تفرع طرق سياسية جديدة. وتاريخياً كانت القارة بيدقاً ضعيفاً على طاولة الصراع بين الشرق والغرب. وعلى مدى أكثر من جيل كانت السياسة الأمريكية تجاه أفريقيا تحركها دواعي التنافس مع الاتحاد السوفيتي. لكن مع انتهاء الحرب الباردة وظهور جورباتشوف لاحت فرص جديدة لإخراج بعض الصراعات الإقليمية من عباءة العلاقات السوفيتية الأمريكية. ونتيجة لهذا سرعان ما أصبح استقلال ناميبيا حقيقة قائمة وفي أنجولا تلوح في الأفق مؤشرات إنحسار مواجهة دامت عقداً بين القوتين العظميين. وبرغم تراجع حدة التوتر في تلك المناطق كان خطر الحريق قوياً في جنوب أفريقيا. حيث إستمرت وطأة نظام العزل العنصري. وأنا أتأهب لتولي وزارة الخارجية أتذكر تفكيري أنه بينما نظام العزل العنصري سياسة تجلب كل هذا

* في حزيران يونيو ١٩٨٩ وبصفتي وزيراً الخارجية أوصيت بأن يعلن الرئيس بوش حظراً أمريكياً من جانب واحد على استيراد العاج. ومهّدت هذه المبادرة الطريق أمام الحظر الدولي الذي تمت الموافقة عليه في اجتماع تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٨٩ في جلسات مؤتمر التجارة الدولية حول الأنواع المهددة بالانقراض في لوزان بسويسرا.. وعملت وزارة الدفاع أيضاً على تقديم مالديها من فائض طائرات الهليوكبتر بالجيش إلى كينيا لمساعدة الدكتور ريتشارد ليكي في معركته ضد صيادي الأفيال، وعندما تبينت تكاليف الصيانة الإضافية في العمليات جدوى الفكرة أمرت بتوجيه مليوني دولار من وكالة معونات التنمية الدولية إلى هيئة الحياة البرية الكينية.

المقت في العالم المتحضر لدرجة سوف تزول بها آجلاً وليس عاجلاً. فإنها أيضاً قضية مثيرة وعنيدة لن تنتهي علي الأرجح إلا بحمام دم . وفي بلد يتمتع بهذا الجمال الفائق حيث أصبح العنف سمة شائعه يهدد بالانفجار في صورة عملية إبادة عنصرية . فإن التحدي الماثل أمام الدبلوماسية الأمريكية هو انتهاج سياسة مثالية تقلل فرص حدوث تلك النتيجة المأساوية .

التحرك بتجاوز الارتباط البناء

ومثل أمريكا الوسطي أحدثت جنوب أفريقيا انقسامات سياسية عميقة في الكونجرس ولدي الرأي العام في الثمانينيات حيث عارضت إدارة ريجان بقوة العقوبات التي قررها الكونجرس ضد حكومة الأقلية البيضاء في بريتوريا مفضلة بدلاً من ذلك إنهاء سياسة «الارتباط البناء» بهدف إقناع الأفريكانز في الحزب الوطني الحاكم بإنهاء نظام العزل العنصري. وبعد أن أصدر الكونجرس القانون الشامل لمناهضة العزل العنصري عام ١٩٨٦ الذي فرض عقوبات دبلوماسية واقتصادية قوية ضد جنوب أفريقيا استخدم الرئيس ريجان الفيتو ضد مشروع القانون. وألغي الكونجرس فيتو الرئيس ريجان فيما يعد أكثر رفض مثير لسلطة الرئيس في إدارة السياسة الخارجية خلال فترتي ريجان.

وأعتقد بأن الوقت قد حان للتوصل إلي حل غير حزبي لتسوية هذه القضية العاطفية المثيرة للانقسام. وكسلفه كان الرئيس بوش يعارض العقوبات معتقداً أنها تؤتي بثمار عكسية. وكان يفضل التفاوض علي العزل. ووافقته لكنني أعتقد أيضاً أنها قضية ذات بعد أخلاقي. وأكثر من أي شيء آخر. كانت الخبرة الأمريكية محددة باعتقادنا بالمساواة بين كافة البشر. والعزل العنصري سياسة لا يمكن الدفاع عنها أمام معظم الأمريكيين، وسيؤدي استمرارها إلي تكثيف الضغوط علي الإدارة المطالبة بتشديد العقوبات وهو الأمر الذي أعتقد أنه سيغذي الجدل الداخلي، ويدفع جنوب أفريقيا للتشدد في مواقفها.

وداخل الخارجية الأمريكية اعتبرت جنوب أفريقيا قضية سياسة خارجية ذات تداعيات داخلية كبري. وفي عالم الواقع اعتقدت أنها قضية حقوق مدنية داخلية مثارة في ساحة دولية، وستقضي أي سياسة ناجحة معالجة البعدين بقوة.

ومع ذلك كان من الواضح أنه لاسياسة الارتباط البناء مع بريتوريا ولا عقوبات الكونجرس ضدها قد أفلحت في تسوية لب المشكلة. وقلت أثناء جلسات المصادقة علي تعييني «يجب أن نتحلي بشجاعة كافية للاعتراف بأن العقوبات التي قررناها لم تأت بالثمار المرجوة» «فلم توهن (تلك العقوبات) عزيمة الأفريكانز. ولم تعزز القوة التفاوضية للسود. فالناخبون البيض تحولوا إلي اليمين وازداد القمع، فالتوقعات المفرطة للمناوئين لنظام العزل العنصري بأن النظام يلفظ أنفاسه كانت ساذجة. فقد اشتدت قبضة القمع الحكومي ضد السود، ولازالت حالة الطوارئ التي فرضتها الحكومة عام ١٩٨٥ معلماً رئيسياً للحياة في جنوب أفريقيا، وفي دوائرهم الخاصة يعترف المسؤولون الحكوميون للدبلوماسيين الأمريكيين بأن أجواء الثورة تخيم علي جنوب أفريقيا. ومع تصاعد خطر نشوب عنف جماعي فقد حان الوقت لحدوث تحول في السياسة يبتعد عن موقف لاموازن لمصلحة بريتوريا ضد المعارضة السوداء، ويتبني نهجاً يجتذب مؤيدي المفاوضات من البيض والسود في جنوب أفريقيا.

واستمرت السياسة الأمريكية رهن المراجعة من الناحية الرسمية خلال العام الأول لإدارة بوش . وفي الواقع ومع هذا كان قد تحدد نهج جديد لتسوية الصراع خلال ربيع عام ١٩٨٩م واتضح لي أثناء مراجعة السياسة القائمة أن إدراكاً واسع النطاق نشأ لدي الولايات المتحدة وجنوب أفريقيا –حيث شعر الجانبان أن الإدارات السابقة قد فشلت في إقامة اتصالات مهمة علي المستوي الرئاسي مع الزعماء السود الموثوق بهم في جنوب أفريقيا. وكتبت في مذكرة رفعتها إلي الرئيس في الثاني من آيار مايو ١٩٨٩* «أعتقد أن أولي خطواتكم بشأن جنوب أفريقيا يجب أن تكون هي تصحيح هذا التجاهل».

---

* في عام ١٩٨٤ اجتمع الرئيس ريجان مع ديزموند توتو كبير أساقفة الكنيسة الإنجليكانية في جنوب أفريقيا. ولم يحرز الاجتماع أي نتائج. فقد ألقي توتو محاضرة علي الرئيس حول أخطاء السياسة الأمريكية ثم شن هجوماً لاذعاً علي الرئيس وعلي سياستنا في ممر الجناح الغربي. وأظهر الرئيس ريجان الذي لم يكن يريد في الأصل الاجتماع مع توتو قلقه وكآبته في اليوم التالي عندما سأله الصحفيون عن الكيفية التي سار بها الاجتماع وقال الرئيس دون وجل: «غير مهم، هذا لا يقدم ولا يؤخر»

وأوصيته بتوجيه الدعوة إلي ألبرتينا سيسولو ليجتمع معها في البيت الأبيض. فالسيدة سليلة عائلة سياسية سوداء عريقة في جنوب أفريقيا وزوجها يقضي عقوبة السجن مدي الحياة مع نيلسون مانديلا منذ عام ١٩٦٤ . أما ابنها الزميل السابق في هارفارد فإنه واحد من زعماء الجيل الجديد من الزعامات ويلقي احتراماً واسعاً، وقد أمضي عامين رهن الاعتقال.

وجعلتها قيادتها المتشددة للجبهة الديمقراطية الموحدة التي لا تنتهج العنف وهي المعارض الرئيسي لنظام العزل العنصري في بريتوريا أفضل اختيار للإشارة إلي قرار الرئيس بالاتصال بالزعماء السود المعتدلين، ولتوجيه رسالة قوية أيضاً لحكومة جنوب أفريقيا بأن الرئيس لم يعد محايداً تجاه نظام العزل العنصري، وأنه مطلوب إنجاز الكثير قبل أن يوصي برفع العقوبات الأمريكية.

وكنت علي يقين بأن حكومة جنوب أفريقيا ستكون حاسمة تجاه أي تحرك بإجراء اتصالات رفيعة المستوي مع المعارضة، وربما تقدم علي منع إصدار جواز سفر للسيدة سيسولو. وأشرت إلي أن حل هذه القضية أمر يسير عن طريق توجيه دعوة هادئة لويليام فريدريك دي كليرك للاجتماع معي أثناء زيارة خاطفة يعتزم القيام بها للولايات المتحدة قبل انتخابه المرجح كرئيس لجنوب أفريقيا في أيلول سبتمبر.

وأشرت إلي: «أن الاجتماع معك قد يكون غير مناسب في هذه المرحلة فإننا نعتقد أن دي كليرك سيشعر بالارتياح إذا استُقْبِلَ بمقر الخارجية الأمريكية، وحتي بدون اجتماع مع الرئيس فسوف يكون دي كليرك أول زعيم من جنوب أفريقيا يزور الولايات المتحدة خلال أربعين عاماً منذ إقامة نظام العزل العنصري».

وكالمتوقع لم يشعر مسئولو جنوب أفريقيا بأي ارتياح تجاه دعوة السيدة سيسولو. فبعد أن أبلغهم أيد بيركينز سفير الولايات المتحدة لدي بريتوريا بأمر الدعوة طلبوا السماح لدي كليرك بلقاء الرئيس، ورد بيركينز بوضوح بأن الإصلاحات الحالية التي تجريها حكومة الرئيس المريض بوتا ويليام بوتا لا تكفي لتوجيه دعوة لدي كليرك للقاء الرئيس رغم أنها جوهرية. واتخذت سياستنا الشكل التقليدي لاستراتيجية الترغيب والترهيب. وكنا نبغي من لقاء الرئيس مع الزعماء السود المعتدلين دفع الأفريكانز لإجراء الإصلاحات بخطي أسرع وأشمل وصولاً للنتيجة المرجوة وهي رفع العقوبات الأمريكية.

إرساء معلم جديد

في ٢٧ آيار مايو اجتمعت مع رويلف فريدريك «بيك» بوتا وزير خارجية جنوب أفريقيا في روما أثناء مرافقة الرئيس في زيارته لإيطاليا وبلجيكا وألمانيا. كان اجتماعنا أول اتصال رفيع المستوي مع جنوب أفريقيا خلال إدارة بوش. وبالمعايير السائدة في جنوب أفريقيا يعد بوتا شبه ليبرالي. كان يحظي بشعبية طاغية في دائرته الانتخابية في جوهانسبرج مما يسر له أن يستحث الحكومة علي تخفيف وطأة نظام العزل العنصري. وكان من النوع الاجتماعي المتظاهر المشهور المتوهج – وكان يحلو لهانك كوهين مساعد وزير الخارجية للشؤون الأفريقية أن يصفه بأنه هوي لونج* سياسة جنوب أفريقيا، وكان بالغ الفائدة في مساعدة شيستر كروكر خلف كوهين في التوسط لاتفاق استقلال ناميبيا وأعجبت به.

كان اجتماعاً ودياً لكن صعباً، وأبلغت بوتا أنه في الوقت الذي تعارض فيه الإدارة فرض عقوبات إضافية ضد بريتوريا فإن معارضة الرئيس غير قابلة لطول وسط، واعترفت بأنه فيما تم إحراز تقدم نحو الإصلاح «إلا أن هناك حاجة لتغييرات جذرية مثل أن تتاح أي فرص لتطبيع علاقاتنا» وضغطت عليه لرفع حالة الطوارئ وتخفيف الرقابة والقيود السياسية، والأهم من هذا وذلك إطلاق سراح نيلسون مانديلا وقلت: «إن هذا سيساعدنا علي القول بأن فرض مزيد من العقوبات سيأتي بنتائج سلبية».

والتزم بوتا جانب الدفاع وشكا من تجاهل الغرب لالتزام حكومته بإنهاء العزل العنصري إلي حد كبير. وناشد تقديم المساعدة لا الحرقة مشبهاً موقف بلاده بموقف جورباتشوف «الذي يواجه مشاكل لمحاولة إقرار تغيير في بلاده» وقال: إن الإدارة الأمريكية السابقة لم تعترف مطلقاً بأن جنوب أفريقيا تتحرك نحو الأفضل. وأضاف: «إن لدي حكومتي انطباعاً بأن حكومتكم لن يرضيها أقل من تسليم جنوب أفريقيا إلي كتلة ستقود البلاد نحو الإنهيار» فليس هناك فهم لتعقد الموقف. وأكد لي أن حكومته ستكون أكثر مرونة في التحرك قدماً نحو الإصلاح بعد إجراء الانتخابات. وأضاف قائلاً: إن مجلس الوزراء يجري دراسة

* سياسي أمريكي يكني باسم ملك الصيد عاش من ١٨٩٣ حتي ١٩٣٥ رائد غرب لينيلف حاكم ولاية لويزيانا (١٩٢٨–١٩٣١) تبني برنامجاً ناجحاً للأشغال العامة. عضو مجلس الشيوخ (١٩٣٢–١٩٣٥). المترجم

مستفيضة لمسألة الإفراج عن نيلسون مانديلا، وقال: إنه وعدة زعماء آخرين يفضلون الإفراج عن نيلسون مانديلا لكن قوات الأمن تعارض بشدة. وأسر لي «بأن مانديلا نفسه لا يريد الإفراج عنه في الوقت الراهن . إنه يواجه صعوبات خطيرة مع زوجته وبعض زعماء المؤتمر الوطني يريد تسويتها أولا».



وقد مست دعوة السيدة سيسولو بوضوح وتراً حساساً في بريتوريا خاصة لأنها تتواكب مع دعوة دي كليرك. وقال: «لقد تولد انطباع بوجود ارتباط بينهما . وهذا لا يفيد وقلت له بأقصى رقة ممكنة إن الولايات المتحدة تحترم الاتصال بالسود والبيض، وأنه من المهم للغاية أن تمنح حكومته تأشيرة للسيدة سيسولو للذهاب إلي الولايات المتحدة وتطوع بوتا بأن يكون مفيدا. وترك لدى انطباعاً قاطعاً بأنه سيكون مفيداً بدرجة أكبر لو أنه تم دعوة دي كليرك للقاء الرئيس بدلاً مني. ولم أقدم له مؤشر تشجيع في هذا الأمر.

ورددت: «إننا نشعر بحساسية مفرطة تجاه شواغلكم السياسية الداخلية. إننا نطلب منكم أن تضعونا في اعتباركم أيضاً. وعلينا ألا نضغط من أجل سرعة علاقاتنا الثنائية. وعليكم أن تتفهموا أيضاً أن هذه ليست مجرد قضية سياسة خارجية. لكنها قضية أخلاقية وقضية سياسية داخلية خطيرة في الولايات المتحدة. إننا نعتقد أن العزل العنصري عملية لاأخلاقية». وأكد بوتا: «بوسعي أن أطمأنكم إلى أننا قررنا إنهاء العزل العنصري».

وساورتني بعض الشكوك إلي حد ما. لكنني خرجت من هذا الاجتماع مع بوتا باعتقاد بأن رياحاً جديدة تهب علي جنوب أفريقيا، وأنه بمجرد أن يفوز دي كليرك بالانتخابات فربما يعجل بخطي الإصلاحات. فسرعة الإصلاحات عنصر بالغ الأهمية لإقناع الرأى العام الأمريكي والكونجرس بأن نهاية العزل العنصري بدأت تلوح في كل أرجاء تلك الأمة الممزقة. ولهذا كان من المهم الإبقاء علي الضغوط علي الحكومة للوفاء بالوعود التي يقطعها دي كليرك.

وعلي مدي الأشهر القليلة التالية صدرت مؤشرات متباينة من بريتوريا. وفى ٨ حزيران يونيو– أى بعد اثنى عشر يوماً من اجتماعى مع بوتا قررت الحكومة تمديد حالة الطوارئ لأجل غير مسمي. ومع هذا فقد حصلت ألبرتينا سيسولو علي تأشيرة سفر والتقت مع الرئيس بوش فى البيت الأبيض فى ٣٠حزيران يونيو. وبعد خمسة أيام اجتمع بيك ويليام بوتا مع مانديلا فى السجن لبحث شروط الإفراج النهائى عنه.

إلغاء دعوة مثيرة للجدل

أثار قرار دعوة دى كليرك للاجتماع معى جدلاً بالوزارة. فقد أيد هانك كوهين ومكتب الشئون الأفريقية الفكرة بشدة، ودفع بأن اجتماعى مع دى كليرك يجب تعزيز مستواه ليكون لقاء مع الرئيس. لكن الشكوك كانت تساور دينيس روس وبوب زوليك. ففى ١٢ حزيران يونيو أرسلا لى مذكرة صيغت بعناية اعترضا فيها علي لقاء دى كليرك للرئيس. وقالا: «إن الانطباع الإيجابى الذى من المؤكد أن اجتماع سيسولو مع الرئيس قد تركه داخلياً وبين القوي الديمقراطية فى جنوب أفريقيا سوف يتلاشي إذا لم تقدم زيارة دى كليرك أخباراً جوهرية حول احتمالات الإصلاح ودور الولايات المتحدة فى العملية».

وكان بوتا قد أبلغنى فى روما أنه بينما دى كليرك يريد زيارة واشنطن فإنه فى وضع حرج فهو لم يصل إلي قمة السلطة بعد، ومن ثم فهناك افتقار للتفويض بإجراء الإصلاحات، ولا يمكن أن يغامر بأن ينظر إليه فى وطنه علي أنه يقدم ضمانات خاصة لواشنطن قبل الانتخابات. وفى ضوء هذا الواقع إعتقد روس وزوليك أن من المؤكد أن الزيارة لن تسفر عن نتائج وقد تضعف السياسة الأمريكية بالفعل.

واقترحا أنه للتعويل علي دى كليرك يمكن أن يكون لقاؤه بالرئيس مشروطاً: أى أن يقدم دى كليرك ضماناً خاصاً بأنه فى غضون ستة أشهر من توليه السلطة فسوف يفرِج عن مانديلا ويرفع حالة الطوارئ. وحذر من أن «إخفاقنا فى اتخاذ موقف قوى يمكن أن يضر بمصداقية الرئيس».

واعتقدت أن حجج المؤيدين والمعارضين زادت سخونة القضية. لذا فقد كلفت كوهين بلقاء دى كليرك وأن يسأله مباشرة عما إذا كان مستعداً لأن يستعرض خططه لإنهاء العزل العنصرى بشكل خاص مع الرئيس. وفى اجتماع عقد فى ديربان أبلغ دى كليرك كوهين «ليس لدى أى دفاع عن العزل العنصرى، لكننى أصبحت على يقين منذ سنوات بأنه نظام لا يؤتى أى ثمار. وما لم نجتذب السود كشركاء كاملين فلن تكون بلادى صالحة ليعيش فيها حفيدى». وأبدى استعداده للتحرك الجذرى فى أوائل عام ١٩٩٠ وقال: إنه سيضع خططه للرئاسة. وأبلغ كوهين: «سوف ألغى العزل العنصرى وأقيم ديمقراطية كاملة من خلال التفاوض بأسرع ما يمكن، لكن لا يمكننى أن أعلن ذلك على الملأ الآن، فلا يسعنا أن يُنْظَرُ إلينا على أننا نتلقى الأوامر من الأمريكيين. وأمسك عن كشف إصلاحات محددة. لكنه قال إنه يفهم بأنه يتوقع منه أن يطمئن الرئيس بأنه سيتخذ «تحركات مهمة وملموسة تجاه إنهاء العزل العنصرى خلال الأشهر الأولى لتوليه السلطة».

واستناداً إلى هذه المحادثة أوصى كوهين بأن يلتقى دى كليرك مع الرئيس. وأبرق كوهين من ليبرفيل الجابون فى ٦ تموز يوليو: «صار علينا أن نخرج أنفسنا من اللعبة فى الوقت الذى بدأ فيه الموقف فى التطور بإيجابية. أعتقد أن زيارة دى كليرك تستحق المغامرة الداخلية».

وأثرت تلك المسألة لاحقاً مع الرئيس بشكل خاص. وفى النهاية توصلنا إلى أنه فى ضوء الطبيعة المثيرة للجدل الداخلى كانت الضمانات السرية من دى كليرك غير كافية وأن اجتماعاً لا يسفر عن تقدم ملموس يمكن إعلانه سيلهب حتماً الجبهة المعارضة للعزل العنصرى ويعطى دفعة لمساعى فرض مزيد من العقوبات، وقال الرئيس: إنه لن يجتمع مع دى كليرك حتى يتم إطلاق سراح مانديلا قبل الاجتماع – وهو ما نعرف أنه شرط يستحيل أن يفى به دى كليرك حتى بعد الانتخابات وإثر إبلاغه باستحالة لقائه بالرئيس ألغى دى كليرك زيارته إلى واشنطن. وأثبت رويلف بيك بوتا وزير الخارجية مؤهلاته كرجل دولة قدير، وأعلنت أنه فى ضوء المعارضة الكثيفة فى الكونجرس فإن حكومته لا تريد إثارة صعوبات للرئيس بوش. وفى اليوم السابق كان مائة عضو فى الكونجرس قد طالبوا الرئيس بعدم لقاء دى كليرك.

عودة إلي أفريقيا جديدة

فى أواخر عام ١٩٨٩ اضطر كثير من المتشددين إلي الاعتراف بأن نظاماً جديداً يتجذر فى جنوب أفريقيا. وفى ١٥ تشرين الأول كتوبر – أى بعد أقل من شهر علي أداء دى كليرك اليمين الدستورية كرئيس فى ٢٠ أيلول سبتمبر أطلق سراح والترسيسولو وسبعة من رفاقه في المؤتمر الوطنى الأفريقى. وفى ١٦ تشرين الثانى نوفمبر أمر دى كليرك بإنهاء للعزل العنصرى فى كافة الشواطئ. وبعد أسبوع انسحبت آخر وحدة من قوات جنوب أفريقيا من ناميبيا بعد احتلال دام خمسة وسبعين عاماً. وفى ١٣ كانون الأول ديسمبر اجتمع دى كليرك مع مانديلا فى كيب تاون لبحث قضايا اقتسام السلطة بين البيض والسود .

وفى ٢ شباط فبراير ١٩٩٠ منح دى كليرك الشرعية للمؤتمر الوطنى الأفريقى ولكافة الأحزاب الأخري المناهضة لنظام العزل العنصرى وفى ١١ شباط فبراير خرج نيلسون مانديلا من سجنه بعد سبعة وعشرين عاماً.

وعندما التقيت رويلف بوتا فى روما أبلغنى أن دى كليرك سيخوض الانتخابات ببرنامج لإنهاء العزل العنصرى، وكنت عازفاً عن تصديقه. ومع هذا فقد أقنعنى الآن. وبدون شك لايزال هناك الكثير الذى يتعين عمله. لكن الأجواء قد تغيرت جذرياً لدرجة أننى اعتقدت أن الوقت مناسب لزيارة الطرفين فى المنطقة علي أمل تشجيع المزيد من الإصلاحات. كان هناك الكثيرون من الجنوب أفريقيين علي يمين دى كليرك وعلي يسار مانديلا الذين لازالوا يرفضون الحل الوسط. وكنت أعرف أن مراسم الاحتفال باستقلال ناميبيا قد اقتربت، وقررت انتهاز تلك المناسبة للاجتماع مع دى كليرك فى كيب تاون فى اليوم التالى، وسأكون بهذا أول وزير خارجية أمريكى يزور جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٧٨ .

وقبل توجهى إلي أفريقيا عقدت سلسلة اجتماعات مع زعماء الكونجرس ومع أعضاء فى منظمة ترانس أفريقيا، وهي منظمة أمريكية أفريقية ملتزمة بقوة بإنهاء الفصل العنصرى. وضم ممثلوها القس جيسى جاكسون وكوريتا سكوت كينج، ورغم أن بعضهم يعترض علي لقائى مع دى كليرك فإن عدم اعتراض أى منهم علي توجهى إلي جنوب أفريقيا كان شهادة قوية بالتقدم الذى يتم إحرازه.

وبعد التوقف للتزود بالوقود في جويانا الفرنسية وجزيرة أسنشن بالمحيط الأطلنطي وصلت إلي ويندهوك في ساعة مبكرة من مساء ١٩ آذار مارس، ولدي هبوطي من الطائرة لم أخطئ لافتة كتب عليها «مرحباً بكم في جمهورية ناميبيا» وبموجب اتفاق كانون الأول ديسمبر الذي وافقت كوبا بمقتضاه علي سحب قواتها من أنجولا، وتعهدت جنوب أفريقيا بسحب قواتها من ناميبيا يكون استقلال ناميبيا قد سجل فعلياً إنهاء الحقبة الاستعمارية في القارة الأفريقية. وبالتنسيق مع عدد من حلفائنا كان هذا الإنجاز ثمرة لدبلوماسية أمريكية فعالة قادها سلفي جورج شولتز وشيستركروكر الذي دعوته لينضم إلي الوفد الأمريكي المشارك في احتفالات استقلال ناميبيا.

صنع التاريخ مع مانديلا ودي كليرك

شارك مندوبون من ١٦٤ دولة في احتفالات ناميبيا بالاستقلال، ولذا فقد انتهزت الفرصة لعقد اجتماعات ثنائية مع أحد عشر من زعماء العالم ومنهم الرئيس المصري حسني مبارك وإدوارد شيفرنادزة، واجتمعت أيضاً مع الرئيس الأنجولي خوسيه إدواردو دوس سانتوس مؤكداً أنه من المستحيل تحقيق نصرعسكري علي حركة يونيتا التي تساندها الولايات المتحدة، وحثثته علي بدء مباحثات سلام.

وبعد اجتماع عقدته صباح ٢١ آذار مارس مع هانز ديتريش جينشر في منزل فخم بُني للسفير الألماني عندما كانت ناميبيا محمية ألمانية باسم جنوب غرب أفريقيا عدت إلي مقر إقامتي للإعداد لاجتماعي مع نيلسون مانديلا.

وقبل خمس دقائق من الموعد المقرر لوصوله أرسل مانديلا أحد معاونيه ليستفسر مني عما إذا كنت أستطيع أن أتوجه إليه، ومسروراً بالموافقة وصلت إلي البيت الذي يقيم فيه في ذات اللحظة التي كانت تنطلق فيه سيارة شيفرنادزة الليموزين وهي مرسيدس ذهبية اللون. ورحب بي مانديلا وزوجته عند المدخل، واصطحباني حيث تواجد عدد من رفاقه في

المؤتمر الوطني الأفريقي. وبدأت بالقول: «إنه لشرف لي أن أكون هنا، وإنني أعني ذلك». ومانديلا رجل الكرامة رقيق الحساسية كتوم.

وترك لديّ انطباعاً بأنه شخصية قوية مقنعة. وربما كانت الحكمة التي اكتسبها خلال سجنه الظالم الذي دام سبعة وعشرين عاماً. قد صقلت بلاغته. لكن لم يكن هناك أدني شك في تصميمه علي استكمال الثورة التي أفني فيها شبابه، ولم يكن هناك شك أيضاً فيمن يحكم قبضته: فلم ينبس أي من رفاقه ببنت شفة أثناء الاجتماع. إنه شخصية تتمتع بحضور طاغ ومهابة كبيرة كمحاور.

وبدأ بالتأكيد مجدداً علي معارضة المؤتمر الوطني للعنف، وتخلي عن إصراره علي أن إنهاء العزل العنصري بشكل شرطاً مسبقاً للتفاوض. وقال: «من غير الواقعي توقع أن تلغي الحكومة النظام بين عشية وضحاها. فالأمر يحتاج فسحة من الوقت لإلغائه».

وأضاف: «لقد تحدثت مرتين مع السيد دي كليرك، وحللت كلماته ووجدت فيها نبرة صدق، وأشعر أنني أتعامل مع رجل مستقيم. لكن كافة أعمدة العزل العنصري لاتزال قائمة، وهذا هو السبب الذي يدعونا إلي طلب تشديد العقوبات».

وأصبت بخيبة أمل لمعرفتي أنه لايزال متشبثا بالنظريات الاقتصادية الاشتراكية البالية وعندما تحدثت عن أهمية السوق الحرة رد بأن هناك حاجة إلي تأميم الصناعة. وحاج بالقول: «من الأهمية بمكان إعادة توزيع الثروة لمنح فرصة لأبناء الشعب الذين عانوا الحرمان والأمرين من نظام العزل العنصري»*.

كانت نقطة الخلاف الوحيدة في هذا الاجتماع الودي للغاية هي عدم ارتياحه للاجتماع الذي سأعقده مع دي كليرك بعد ظهر اليوم التالي. وقال: «لايمكن للمرء أن يبني نهجه تجاه جنوب أفريقيا استناداً علي رجل واحد. عليكم ألا تضفوا عليه شرعية أكبر من خلال زيارات

* خلال اجتماعه مع الرئيس بوش في كانون الأول ديسمبر ١٩٩١ عاد مانديلا إلي أفكاره العتيقة. وقلت له بصراحة شديدة: إن التأميم الجزئي للصناعة في جنوب أفريقيا سيوجه لطمة قوية إلي احتمالات الاستثمارات الأجنبية في جنوب أفريقيا وقلت له أيضاً إن رؤساء الشركات الأمريكية بشكل خاص سوف يتجنبون الاستثمار في جنوب أفريقيا، وسرني أن أعلم أنه بمجرد عودته إلي بلاده كف مانديلا عن الحديث عن تأميم الصناعات في جنوب أفريقيا.

رغبة المسئول حتي نري مزيداً من التغيير في حزبه ونظامه. ولم أقلجأ كثيراً لتقليله علي ما يبدو من أهمية الإفراج عنه من السجن قبل خمسة أسابيع فقط. وأجبت بأن الولايات المتحدة ستبقى العقوبات التى تفرضها علي جنوب أفريقيا حتي يتم رفع حالة الطوارئ، ويفرج عن السجناء السياسيين. ومن وجهة نظر تكتيكية ألححت لمانديلا «أن شجاعة دى كليرك تستحق محاولة دعمه رمزياً. وأشرت إلي «أن اتخاذ خطوات إيجابية يرجح أن تشجع علي اتخاذ خطوات أخرى».

كان اجتماعاً جيداً فى شكله وأجوائه أكثر من جوهره. كان مانديلا خلاله متفهماً. لكنه لطيف، وأبرقت إلي الرئيس: «إنه سياسى بالسليقة يعرف كيف يؤثّر فى مستمعيه. لكن من الواضح أنه عملى وحصيف فى الوقت ذاته، وطالما احتفظ بنفوذه المحورى فهذاك أمل فى إحراز تقدم».

وفى الصباح التالى غادرت ويندهوك فى رحلة استغرقت ساعتين إلي كيب تاون بجنوب أفريقيا التى نزلت بها أثناء شهر العسل وأنا متوجه إلي بوتسوانا. كنت قد نسيت جمالها الأخاذ كمدينة خضراء بها ميناء مدهش تحوطه جبال مهيبة.

ولأسباب رمزية عقدت أول اجتماع لى فى جنوب أفريقيا مع الزعماء السود. كان أكثرهم فى السبعينيات من العمر وسبق أن سجنوا لخمسة وعشرين عاماً وتعهدت قائلاً: «سوف نواصل الضغط علي الحكومة. لكننا سوف نعترف بالتغيرات الإيجابية ونقدم حوافز لإبقاء تحركها فى الاتجاه الصحيح» وفوجئت بدعواتهم لإجراء تغيير سلمى وقلقهم من العنف بين السود فى المستوطنات.. كانت تجربة مثيرة أن نلتقى بتلك الشخصيات وكانت فصاحتهم ورددهم مصدر إلهام لنا جميعاً.

وبعد الغداء مع بيك بوتا التقيت مع دى كليرك فى تيوهيونز مقر الإقامة الرسمى السابق لحكام ما تأسس كمستعمرة الكيب، وفاجأنى بأنه رجل صادق وأمين وصديق حميم يدخن السيجار الزورقاني. وبدأت بالإشادة بشجاعته السياسية باتخاذ خطوات إيجابية فى برنامجه، وتعهدت بأن «الولايات المتحدة سوف تساعدكم فى الحفاظ علي متابعة التغيير

الذى بدأنموه. وتكرته بأن العقوبات الواردة فى القانون الشامل لمناهضة العزل العنصرى قاطعة ولن ترفع حتي يتم إلغاء العزل العنصرى «لكننا ندرس كيفية التحرك بحذر حسبما تقتضي الظروف».

وفي الوقت ذاته ضغطت علي دى كليرك لرفع حالة الطوارئ خاصة، لأنها تمثل رمزاً لممارسات تتعارض مع المبادئ الديمقراطية. وتعجب من السبب الذى يدعو لعدم الاعتداد بحكومته بقدر كاف بعد التغييرات التى أجرتها بالفعل. وقال: «إن حالة الطوارئ ما هي إلا أداة صارمة الآن للحفاظ علي القانون والنظام». ورددت بالقول: «السيد الرئيس، إن الاعتقاد يشكل الواقع، والاعتقاد هو أن حالة الطوارئ تشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان الأساسية». وألمحت إلي أن أفضل طريقة لاكتساب منزلة أدبية وسياسية رفيعة هي رفع حالة الطوارئ ودعوة الزعماء السود إلي ممارسة كل ما يسعهم من سلطة يسعون لها بالمساهمة فى وقف أعمال العنف واستعادة النظام إلي المستوطنات. ويبدو أن دى كليرك أخذ بهذه الحجة.

وأصبحت علي اقتناع بأن حكومة جنوب أفريقيا ملتزمة بعملية التغيير وتتوق للتحرك بسرعة وتصميم لمواصلتها حتي تحقق نتائجها، وكمحام فى الأصل يبدو أن دى كليرك ينظر إلي مهمته باعتبارها مهمة لابتكار حل عملى لسرطان العزل العنصرى، ومن الواضح أنه يعي أن مستقبل البيض فى جنوب أفريقيا مرهون بالتوصل إلي حل سياسى عن طريق التفاوض.

واختتم دى كليرك اجتماعنا ببيان قوى عن الهدف. وقال: «إننا علي متن سفينة لا يمكن ولا يتعين أن تستدير وجهتها إنه لا ردة عن العملية التى بدأناها. سوف نصل بها إلي نهايتها المنطقية». وما لبث أن طلب منى أن ألقاه علي انفراد. إن تلك الاجتماعات «الهامشية المنفردة» هي دبلوماسية مستقرة أداة يمكن بها تقليب القضايا بالغة الحساسية علي مختلف جوانبها بطريقة بالغة السرية.

وقال فى نبرة تشع بكل الإقناع: «سأكون آخر رئيس أبيض لجنوب أفريقيا». وفيما بعد أفضيت بتوقعات دى كليرك إلي بيل سوينج سفيرنا فى جنوب أفريقيا الذى طمأننى بأن دى كليرك رجل يحترم كلمته.

وأقنعني اجتماعي مع كل من مانديلا ودي كليرك بأن رياح التغيير تجتاح بالفعل أخيراً المعارضة المناوئة للعزل العنصري وحكومة دي كليرك لدرجة قد يكون بقية العالم متأخر معها في الاعتراف بإمكانياتها. وأحسست برغم البيانات البلاغية وضغوط الراديكاليين من اليسار واليمين أن توازن القوي علي كلا الجانبين يقع في يد المعتدلين الذين يعترفون بجوهر الواقع السياسي المتمثل في أن كل جانب في حاجة إلي تقديم تنازلات حتي يستطيع الآخر أن يطمئن ناخبيه. فهذان قطبا توازن يكمل كل منهما الآخر يتعاملان مباشرة كل منهما مع الآخر وهذا في اعتقادي فأل طيب لتحقيق تقدم في المستقبل. وفي المساء أبرقت للرئيس: «بينما الضغوط السياسية قد تكون شاقة علي كل جانب فقد كشف كلاهما عن الجدية والالتزام اليوم. فإذا كان الذكاء والتصميم شرطين مسبقين للنجاح فربما تكون أمامنا فرصة بالفعل لتحقيق تقدم».

وعقب الاجتماع مع الزعماء السود في جوهانسبرج توجهت إلي كينشاسا عاصمة زائير لعقد اجتماعات حول أنجولا مع الرئيس موبوتو سيسي سيكو ويوناس سافيمبي زعيم حركة يونيتا. وأبلغت سافيمبي بما دار في لقائي مع دوس سانتوس في ويندهوك وطلبت منه أن يقبل إجراء مباحثات سلام رغم تقدمه العسكري. وعدت إلي واشنطن بعد منتصف ليل ٢٥ آذار مارس وأوصيت الرئيس لاحقاً بأن نتجنب دفع دي كليرك نحو التغيير دفعاً. وأملي هو تجنب أي شيء من شأنه إثارة المتطرفين علي كلا الجانبين. وأعتقد أن دي كليرك ومانديلا يمتلكان المؤهلات السياسية لعل أهمها شجاعتهما الشخصية والسياسية لتحقيق تقدم تجاه تسوية خلافاتهما سلمياً.

ريـــاح الســــلام

والباقي كما يقولون هو التاريخ بمعني الكلمة. ففي ٨ كانون الأول ديسمبر قرر دي كليرك رفع حالة الطوارئ باستثناء إقليم ناتال. وفي وقت لاحق من الشهر بدأ مانديلا جولة عالمية ثم اجتمع مع الرئيس بوش في واشنطن في ٢٤ حزيران يونيو. وفي ٦ آب أغسطس

أعلن المؤتمر الوطني الأفريقي رسمياً التخلي عن سياسة الكفاح المسلح ضد الحكومة. وفي ١٨ تشرين الأول أكتوبر رفعت حالة الطوارئ عن إقليم ناتال.

وفي ١١ تموز يوليو ١٩٩٤ أعلن الرئيس بوش إلغاء العقوبات الأمريكية علي جنوب أفريقيا متعللاً بالتغيرات الضخمة التي لا رجعة فيها، التي تجريها حكومة جنوب أفريقيا. فبريتوريا تسير الآن علي طريق لا رجعة فيه نحو إقامة ديمقراطية غير عنصرية متعددة الأحزاب، وهو ما نادت به الولايات المتحدة علي مدي عقود.

وأخيراً وفي العاشر من آيار مايو ١٩٩٤ أدي نيلسون مانديلا اليمين الدستورية رئيساً للبلد الذي أودعه السجن لأكثر من ثلث عمره، وأصبح دي كليرك نائباً لرئيس جنوب أفريقيا. كانت لحظة لم أتوقع أن أشهدها في حياتي. لحظة بالغة الإثارة كتلك التي شهدت إنهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية. وبعد نصف قرن من التعصب الأعمي والقمع هاهي التغيرات الكاسحة تجتاح جنوب أفريقيا أخيراً. وساهمت الدبلوماسية الأمريكية المحسوبة والمطردة في مساعدة وتشجيع تلك التطورات المهمة بطبيعتها السلمية.

الفصل الرابع عشر

ربيع القلاقل

الوحدة الألمانية، استقلال ليتوانيا، اضطرابات الاتحاد السوفيتي

هذه قمة القضايا

إدوارد شيفرنادزة
١٠ شباط فبراير ١٩٩٠

ستفوز بتلك المباراة لكن علينا أن نتحلى بالمهارة أثناء اللعب.

الرئيس بوش
المستشار كول ٢٥ شباط فبراير ١٩٩٠

بعد عشرة أيام من صدور إعلان أوتاوا الخاص بصيغة «إثنان + أربعة» في ١٤ شباط فبراير، وقبل أسابيع فقط من جولتي الإفريقية وصل هيلموت كول إلي واشنطن لإجراء مباحثات في عطلة نهاية الأسبوع مع الرئيس بوش وأثناء الاستجمام في كامب ديفيد لم يكن هناك سوي موضوع حقيقي واحد وقضية جوهرية واحدة: هي الوحدة الألمانية – وما تعنيه لحلف الأطلنطي.

وأكد المستشار كول لنا: «إن ألمانيا لا تريد أن تكون محايدة بأية حال. فسوف يكون مثل هذا القرار قراراً قاتلاً. وليس هناك اهتمام جدي في الحياد وستكون ألمانيا الموحدة عضواً في حلف الأطلنطي».

ومع هذا كان الرئيس لايزال مشغولاً بموسكو: «إنهم يقولون إن ألمانيا يجب ألا تنضم إلي حلف الأطلنطي. فليذهبوا بكلامهم إلي الجحيم. إننا أصحاب اليد الطولي وليسوا هم. لا يمكننا أن ندع السوفيت ينتزعون النصر من بين فكي الهزيمة».

وبصدور إعلان «إثنان + أربعة» فقد اعترفت موسكو ضمناً أن الوحدة الألمانية واقع وشيك. لكن ملابسات ذلك الحدث لاتزال قائمة ولايزال الكرملين يعول عليها. وقبل خمسة أيام فقط صرح جورباتشوف لصحيفة برافدا «بأن توحيد ألمانيا لا يشغل الألمان فحسب... فهناك قضايا جوهرية للعالم الحق في أن يعرفها، ويجب ألا تكون فيها مساحة للغموض».

وفيما يتعلق بحلف الأطلنطي وحلف وارسو يجب «إتمام الوحدة بإيلاء الاعتبار الواجب لمسألة أنه من غير المسموح انتهاك التوازن العسكري الاستراتيجي لهاتين المنظمتين الدوليتين» ويجب أن تكون هناك شفافية كاملة في هذه المسألة. فالخط السوفيتي المتشدد لايزال قائماً: أي لا يجب انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي.

ومع هذا كان كول واثقاً وقال: «إن السوفيت يتفاوضون لكن هذا قد يتحول إلي مسألة أموال. إنهم يريدون المال... إن بقاء ألمانيا بعد الوحدة في حلف الأطلنطي سيثير قلقاً أبدياً للسوفيت وهم يريدون شيئاً في المقابل». ونوه الرئيس: «عليكم أن توسعوا جيوبكم»

وتوقع المستشار كول أن تغير موسكو رأيها وتوافق مع انعقاد القمة السوفيتية الأمريكية المقرر عقدها في نهاية آيار مايو، وأضح قائلاً: «يغمرني إحساس بأن هذا سيكون موقف جورباتشوف... إنه يريد إبرام صفقة مع القوة العظمى الأخرى. فالقضية الأساسية هي عضوية ألمانيا في حلف شمال الأطلنطي. وفي النهاية سوف يقدم جورباتشوف هذا التنازل لرئيس الولايات المتحدة».

وتساءل الرئيس بوش: «ماذا يريد لإبرام الصفقة؟»

وتطوعت بالإجابة: «إنه يريد أمرين . فجورباتشوف يريد أولاً أن يعرف أن ألمانيا تتمسك بقوة بالعضوية الكاملة في حلف شمال الأطلنطي، وهو يريد ثانياً وضع المصالح الأمنية السوفيتية المشروعة في الاعتبار».

وكانت التزامات كول القاطعة تحاذر من الشرط الأول لكن مسألة الضمانات الأمنية قضية مختلفة. وكنت علي يقين بأن ضمان وجود ألمانيا الموحدة في حلف الأطلنطي سوف يقتضي منا توظيف كل المهارات خلال الأشهر القادمة، وأن الكثير من الوقت في تلك الفترة سوف يستنفد في مهمتين في أماكن مثل ويندهوك وتيرنبيرى في اسكتلندا وكليهما علي درجة كبيرة من الأهمية النفسية. فالأولي موجهة إلي الكريملين والثانية إلي البيئة الدولية. وتتمثل الأولي في القيام بإقناع جورباتشوف وشيفرنادزة بأن ألمانيا الموحدة وبقاءها في حلف شمال الأطلنطي لن تشكل أي خطر علي الأمن السوفيتي بل قد تعززه .وسوف يقتضي هذا تسكين آلام أكثر من جيل سوفيتي. لقد شاهدت النصب التذكارية للحرب، وأعرف أن القضية تضرب بجذورها في عمق وجدان الشعب. فضلاً عن ذلك فقد زادت تعقيداً نتيجة تزايد حدة الاستقطاب في السياسة الداخلية في الاتحاد السوفيتي. فالرجعيون يشنون هجوماً مضاداً، والجيش يسعي لتأكيد نفسه، والنزاع في ليتوانيا ينذر بالتحول لأعمال عنف .وكانت قضية ليتوانيا أكثر من كونها قضية داخلية بالنسبة لجورباتشوف، فسعي ليتوانيا للاستقلال يلقي صدي طيباً لدي الشعب الأمريكي والكونجرس، وأي محاولة من جانب موسكو لقمع فيلنوس ستقلص مجال مبادراتنا في مجمل جدول الأعمال السوفيتي.

أما المهمة الثانية وهي إعادة تشكيل البيئة الدولية بإصلاح حلف الأطلنطي ودعم مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا فقد نبعت من المهمة الأولي. وكنت أعرف أن جورباتشوف وشيفرنادزة في حاجة إلي حجج يستطيعان بها التصدي لمنتقديهما في الداخل، وتوفر لهما غطاءً سياسياً يحتاجانه للإقدام علي اتخاذ خيارات صعبة. وكان هذا يعني أنه يتعين علينا العمل مع شركائنا الغربيين لإصلاح حلف شمال الأطلنطي ومؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ليظهرا في صورة أقل تهديداً أمام الشعب السوفيتي. إلي جانب هذا فهناك قضية أشمل هي أن ألمانيا الموحدة سوف تبدل الهيكل الأساسي الجغرافي السياسي والسياسي الاقتصادي لأوروبا، ويعني هذا أن حلف شمال الأطلنطي يجب أن يصبح مؤسسة تتسم بطابع سياسي أكبر ويتعين تدعيم مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وسيتعين إجراء تقسيم قاطع وملزم وواضح للمسؤوليات بين المؤسستين والمجموعة الأوروبية. فيالها من مهمة هائلة.

فبراير في كامب ديفيد: تثبيت الموقف الألماني - الأمريكي

في كامب ديفيد كان كول في حالة مزاجية رائعة. وقال: «لو سارت الأمور علي مايرام فسوف نشهد تغيرات هائلة في أوروبا حتي لو سقط جورباتشوف فسوف يضطر خلفه إلي إنتهاج نفس السياسات. إن هذا تطور جذري في الاتحاد السوفيتي. لقد قلت لجورباتشوف إنه لايسعكم العودة إلي نظام ستالين. وأبلغته بأنه لن تحدث مذبحة علي غرار تيانانمين في أوروبا لا في دريسدن، ولا بودابست، أو وارسو، فسوف تستعصي مثل تلك التطورات علي الفهم. فقد كان هتلر يقتل من يستمعون إلي محطات الإذاعات الأجنبية. لكن برامج التليفزيون الألماني تصل الآن إلي كييف. فقد تغير العالم تغيراً هائلاً وكانت وسائل الإعلام أحد أسباب هذا التغير، وقلت لراكوفسكي رئيس وزراء بولندا السابق «إنه سينتهي هو والشيوعيون عندما يزور البابا بولندا. إن هذه التغيرات هي الواقع الذي نعيشه».

والواقع أكثر وضوحاً في جمهورية ألمانيا الاتحادية الديمقراطية، وقال المستشار: «لقد انهارت الشيوعية في ألمانيا الديمقراطية كبيت من ورق. فقد كانت تبدو كعملاق لكنه

عملاق أجوف. والآن وفي أضخم صفقة في التاريخ هاهي ألمانيا الغربية مقدمة علي شراء ذلك العملاق الأجوف، وركزنا مع كول علي أهم قضيتين تتسمان بصفة الاستمرار وهي الحدود مع بولندا، وقبل ثلاثة أيام من اجتماع كول بعث تاديوش مازوفيكسي رئيس وزراء بولندا رسالة إلي الرئيس دفع فيها «بأن توحيد الأمة الألمانية في دولة واحدة يفتح صفحة حقبة جديدة في تاريخ أوروبا. ولايسعنا دخول تلك الحقبة بينما أمن كافة دول القارة لاسيما جيران ألمانيا غير مضمون».

ومن المحتمل أن يحاول الكريملين تنصيب نفسه بطلاً للبولنديين، ويستغل هذا في إبطاء سرعة الوحدة. وقد تنضم لندن وباريس إلي البولنديين لتكون النتيجة وضع الألمان في حالة حصار – الأمر الذي سيعقد أي تسوية لتلك المشكلة*.

واستعرض كول المشاكل الداخلية التي تواجهه. وقال: إن الغالبية العظمي من الألمان تدرك أن الترسيم الحالي – خط أودر نايسه – سيظل هو خط الحدود الفاصل. لكن البولنديين توغلوا غرباً وطَرِدَ الألمان – وكان هذا رد فعل علي جرائم النازي. لكن الألمان الذين أضيروا هم الأبرياء الذين يتراوح عددهم ما بين اثنى عشر إلي أربعة عشرمليون نسمة. أي أن ثلث سكان براغ عام ١٩٣٧ قد عُزِلوا. وفي عام ١٩٤٥ قتل مليونا مدني ألماني أثناء فرارهم من أوروبا الشرقية. وعلينا أن نعالج هذه المسألة النفسية في بلدي. وقال بوش: لعل أفضل طريقة لمعالجة تلك القضية هي الاعتماد علي ميثاق هلسنكي الذي يعترف بقدسية الحدود والاعتراف علناً بأننا نعترف بالحدود البولندية الألمانية الحالية. وسوف يضعنا هذا في الجانب الصحيح للقضية، ويمنح بون فسحة من الوقت لترتيب الأمور مع وارسو.

وحول عضوية حلف شمال الأطلنطي أكد المستشار كول التزامه العام بالتحالف كما أثار أيضاً قضايا محددة بعينها. مثل: إلي أي مدي ستتناسب ألمانيا الديمقراطية كجزء من ألمانيا الموحدة مع حلف شمال الأطلنطي؟ ما هي الآثار التي سيتركها توسيع الحلف علي هيكله

---

* علمنا أثناء بعد بضعة أسابيع قلائل بأن كبار مسئولي المستشارية يعتقدون أن الفرنسيين يشجعون مازوفيكسي لزيادة مطالبه العامة حول التسوية، وأن كول اتصل بميتران ليشكو له بعد أن أرسل الرئيس الفرنسي رسالة إلي الدول التسع والعشرين أعضاء مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي لا تشارك في مباحثات اثنين + أربعة لطمأنتها بأنه سيكون لها صوت في العملية.

العسكري في المستقبل ومتطلباته؟ وسيقتضي ذلك بالطبع إجراء مشاورات مع الأعضاء الآخرين في التحالف. وأشار الرئيس: «فلنتأكد أننا لن نترك حلفاءنا خارج اللعبة كما لو كنا نقسم أوروبا» وإضافة لهذا قال المستشار: «إنه لا يمكن تمركز وحدات من حلف شمال الأطلنطي بما في ذلك القوات المسلحة الألمانية الغربية علي أراضي ألمانيا الديمقراطية، ولن يكون مفيداً أن تتواجد مجموعة من القوات السوفيتية في ألمانيا الشرقية لأجل غير مسمي. لأن هذا سيشكل انتهاكاً للسيادة الألمانية». وأكد الرئيس قائلاً: «أكره أن نري فرنسا أخري في حلف الأطلنطي. إننا في حاجة لمشاركة كاملة من ألمانيا»*.

واتفقنا علي أنه عند الإشارة إلي أراضي ألمانيا الديمقراطية يجب أن نستخدم اصطلاح «قوات» لا «ولاية». وعقب اجتماعي مع هانز ديتريش جينشر في واشنطن في وقت سابق من الشهر بدأت في القول إن: «ولاية حلف الأطلنطي» أو «ولاية القوات» لن تسري علي ألمانيا الديمقراطية، وبدأت في استخدام العبارة أو مرادفها مع جورباتشوف وشيفرنادزة. لأنها غامضة في جانب وأيسر قبولاً لديهما. ومع هذا وحين جاء دور بلغاريا تأكدنا أنها تثير تصاريحاً محتملاً. فإن ذكر أن «ولاية حلف الأطلنطي» لا تسري علي أراضي ألمانيا قد يعادل قول إن المادتين السادسة والخامسة من معاهدة حلف شمال الأطلنطي لن تطبقا - مما يعني عملياً إبقاء ألمانيا الديمقراطية خارج الضمانات الأمنية لحلف شمال الأطلنطي. ولذا فقد بدأت في استخدام لفظ «قوات» واتفقنا علي تلك الصيغة مع كول، وبهدف التأكيد وضمان موافقة جينشر أرسلت له خطاب متابعة في ٢٨ شباط فبراير منوهاً إلي هذا التحديد.



والحاصل أن كول كان شديد الثقة وقال: «إن الجميع مرتبك ماعداي» مشيراً إلي أن جينشر يواجه مشكلات مع حزبه. وبرغم هذا كان المستشار قلقاً من الآراء في بقية أوروبا.

---

* يذكر أن فرنسا ليست عضواً في القيادة العسكرية الموحدة لحلف شمال الأطلنطي.

وقال: «إن ميتران صامد بقوة. فمعظم أفراد الشعب الفرنسي معنا لكن الصفوة السياسية ضدنا. وعلينا أن نعالج هذه المشكلة. والنرويج وكوبنهاجن حالتان صعبتان. وهولندا والمملكة المتحدة مشكلتان أيضاً».

وقال: «مارجريت تاتشر: لا أستطيع أن أفعل لها شيئاً. فلا يمكن أن أفهمها فالسيدة تاتشر تتحدث معي بطريقة لا يمكن أن أقبلها من أحد آخر». وطمأنه الرئيس: «بأننا لا ننظر إلى الأمور بهذا الشكل. إننا لا نخشى أشباح الماضي، ومارجريت تخشاها. لكن عليك وعلينا أن ندرك ونعترف بدورنا الفريد في التاريخ». وقال المستشار كول: «في ألمانيا الاتحادية هناك غضب بين الألمان. لأننا كنا شركاء ثقاة لأكثر من أربعين عاماً، لماذا لا يفيد هذا؟ إن المنطق لا يفيد».

مسيرة في ويندهوك: إثارة القضية مع شيفرنادزة

كانت دوائر المخابرات تعتقد أن موسكو ستذعن في النهاية لضغوط ألمانيا الموجودة في حلف شمال الأطلنطي بقيود معينة، وكتب بوب بلاكويل ضابط المخابرات المسؤول من الاتحاد السوفيتي في الأول من آذار مارس يقول: «إن القضية الألمانية قضية عميقة الجذور بين أفراد الشعب السوفيتي وأن انتقاد سياسة جورباتشوف بدأ يظهر من مسؤولين مثل ليجاتشيف عضو المكتب السياسي ومسؤولين عسكريين آخرين».

«إن مثل هذا التهديد لا يشكل أي تهديد لجورباتشوف الآن. لكن لو بدا الأمر على أن القوات السوفيتية تُجْبَر على الانسحاب من ألمانيا الديمقراطية، وأنه «خسر» ألمانيا، وأن البيئة الأمنية باتت الآن أكثر تهديداً للاتحاد السوفيتي فإن انهياراً داخلياً – عندما يقترن بشكاوي أخرى – يمكن أن يشكل تهديداً خطيراً لموقفه». ويجب على جورباتشوف التمسك بالطاولة. (ورد التأكيد في النص الأصلي).

وفي موسكو وفي شباط فبراير أعرب جورباتشوف وشيفرنادزة عن قلقهما وحيرتهما تجاه عضوية ألمانيا الموحدة في حلف شمال الأطلنطي. وقال جورباتشوف: «يقيناً فإن أي توسيع لنطاق حلف الأطلنطي مرفوض». مشيراً إلي أنه سيعقد ندوة «لبحث الخيارات». لكنه استدرك قائلاً: «أعتقد أن وجود القوات الأمريكية يمكن أن يكون بناءً وإيجابياً للغاية في الموقف الناشيء... إننا لا نريد في الواقع تكراراً لفرساي حيث يستطيع الألمان تسليح أنفسهم. فدروس الماضي تعلمنا أنه يجب أن تبقي ألمانيا ضمن هياكل أوروبية». كان شيفرنادزة واضحاً. وقال: «إننا نعتقد أيضاً أن الوحدة الألمانية ستثير تساؤلاً حول ما إذا كان حلف شمال الأطلنطي سيبقي كما هو». وكان لكليهما علي ما يبدو تصور لأوروبا يتم بموجبه تعزيز مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وأن يحل حلفا شمال الأطلنطي ووارسو نفسيهما أو دمجهما معاً.

وبحلول آذار مارس يبدو أن تطورات الأحداث قد فاقمت قلقهما. ففي رسالة لوزراء خارجية اثنين+أربعة. في ٢ آذار مارس أشار شيفرنادزة إلي أنه قد تنشأ في ألمانيا الديمقراطية ظروف غير معروفة تقتضي صدور رد فعل، ومن المهم للغاية ومن وجهة نظري ألا ينفرد أي طرف منا نحن الستة بالتصرف*.

ومضي إلي تحديد إطار عام لإجراءات الإخطار وإلا «فقد نجد أنفسنا في وضع بالغ الصعوبة لأن الالتباس غير المرغوب قد يصبح محتملاً حينئذ».

وبعدة أيام تالية سألت الصحافة جورباتشوف صراحة ما هو موقف الاتحاد السوفيتي تجاه أي مشاركة من جانب ألمانيا الموحدة في حلف الأطلنطي؟

ورد بوضوح تام: «لا يمكننا أن نوافق علي ذلك. فهذا مستبعد تماماً». وفي آذار مارس عزز شيفرنادزة موقف رئيسه قائلاً في حديث صحفي إن انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي لن يتفق مع رؤية موسكو «لمصالحها الخاصة والهيكل الأمني للبيت الأوروبي

* عندما كان السفير ماتلوك في موسكو سأل النائب الأول لوزير الخارجية أناتولي كوفاليف عما تعني «الملابسات غير المنظورة». أشار كوفاليف إلي أن الملابسات غير المنظورة لا يمكن وصفها أو توقعها بطبيعتها. ومع ذلك قال «إن الوضع في ألمانيا الديمقراطية مضطرب» وأن التطورات المفاجئة للأحداث فيها قد تضر بمصالحنا جميعاً.

المشترك. وأكد أيضاً أنه يتعين علاج كل القضايا الأمنية المتعلقة بالتسوية الألمانية في إطار مباحثات اثنين + أربعة وفي الأسبوع التالي أوفدت بوب زوليك وراي سايتس وكوندي رايس المساعد الخاص للرئيس للشئون السوفيتية إلي بون للمشاركة في أول اجتماع لاثنين + أربعة علي مستوي المديرين. وفي الجانب الأعظم انحاز الفرنسيون والبريطانيون إلي جانب الألمان الغربيين وإلي جانبنا، وظهر تعاون نسبي بين السوفيت والألمان الشرقيين. واتفق الستة علي جدول أعمال من أربعة بنود هي: الحدود والمسائل العسكرية السياسية، وبرلين وحقوق ومسئوليات القوي الأربع الكبري. وكانت موسكو تريد إضافة موضوعات اقترحتها ألمانيا الديمقراطية وهي «التزامن» وهو الاسم الكودي للتغيرات في هياكل الأمن الأوروبية وقضايا الملكية في ألمانيا الشرقية والتزامات المعاهدة والتسوية السلمية. وقاوم فريقنا بشكل صحيح إدراج النقاط الأربع. وإجمالاً فقد كان الاجتماع الأول اجتماعاً ناجحاً وقطع خطوة لتبديد أي قلق من أن مباحثات اثنين+أربعة قد يستغلها السوفيت كوسيلة لعرقلة الوحدة. ومع ذلك كشف الاجتماع أن هناك الكثير الذي يتعين إنجازه إذا كان لنا أن نحمل موسكو علي الموافقة علي ضم ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي – وهي مهمة قمت بها بنفسي في ١٩ آذار مارس عندما التقيت شيفرنادزة علي هامش احتفالات استقلال ناميبيا في ويندهوك. (وبينما كانت الاحتفالات نفسها رائعة إلا أن الإعاشة كانت كابوساً: فقد اضطر فريقنا إلي النزول كل اثنين أو أربعة في غرفة واحدة كما أقام فريقنا الصحفي في عربة للسكة الحديد).

وبدأنا بستارت وهو موضوع اعتقدت أنه سيكون أقل إثارة للجدل من ألمانيا. وقال شيفرنادزة إنه يعتقد أن بوسعنا تسوية كافة القضايا الرئيسية توطئة لمؤتمر القمة السوفيتي الأمريكي القادم. ومالبث أن تطرق إلي القضايا التي أعتقد أنه يمكن تسويتها بسرعة وهي صواريخ كروز التي تطلق من الجو وصواريخ كروز التي تطلق من البحر ومدة سريان المعاهدة والبند الصريح. ومن كل ذلك كان يعتقد أن لديه مشكلة حول صواريخ كروز التي تطلق من الجو حيث قال إن السوفيت لن يتراجعوا عن موقفهم. وقلت له: لو كان الحال كذلك فسوف يتعين علي رئيسينا حل المشكلة لأنه ليس لدي أي مساحة للتحرك. وقال مداعباً: «سوف نُعنَّف لو فعلنا ذلك. فليس من المتعين أن يهدر الرئيسان وقتهما الثمين في مناقشة مثل تلك التفاصيل» إنني أعتقد أنه ما كان يتعين أن نهدر وقتاً في بحث قضايا كان يمكن أن

يحلها مفاوضونا في جنيف. لكن الشك ساورني بأن القضية لن تحل إلا بإعفاء الماريشال أخروميف الذي يلعب دوراً متزايداً غير بناء في مفاوضات الحد من التسلح.

وما لبثت أن أثرت مبادرة ستارت جديدة. وخلال الثمانينيات ساور القلق البالغ المحللين بسبب تطوير الصواريخ الباليستية العابرة القارات المزودة بمركبات الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه الأكثر دقة (Mirvs) ويعتقد أنها أخطر الأسلحة علي الإطلاق تهديداً للاستقرار لأن بوسع صاروخ واحد مزود بمركبات الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه تدمير عدة أهداف مما يجعله أكثر الأسلحة فعالية في توجيه الضربة الأولي. واقترحت علي شيفرنادزة حلاً علي مرحلتين: تقضي المرحلة الأولي أن نقرر فرض حظر شامل علي الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبات الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه «المتحركة». (وهذا يقتضي من السوفيت إزالة الصواريخ المحملة علي عربات سكة حديد من طراز اس اس ٢٤ وسوف يقتضي هذا وقف جهودنا لنشر صواريخ محملة علي مركبات سكة حديد من طراز إم إكس أو المحافظة علي مباحثات السلام التي تتعثر في الكونجرس) وفي المرحلة الثانية وهي خطة أكثر طموحاً وتستغرق وقتاً أطول سوف نتفق علي إزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبات الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه المنصوبة في صوامع. وساورنا القلق من أن جورباتشوف سوف يرضي بالاقتراح لأنه واقع تحت ضغوط المتشددين. وقلت لشيفرنادزة: «يمكن أن ينظر إلي هذا علي أنه خطوة كبري تجاه تعزيز الاستقرار الاستراتيجي ويمكن أن نفحم المنتقدين الذين يدعون أن مفاوضات ستارت الحالية تسير الآن بشكل معتاد ولا تعكس التغيرات التي تحدث في العالم».

وأبلغني شيفرنادزة بأنه سيحاول تقديم رد في غضون بضعة أسابيع. وأكد أنه «يُثَمِّنُ طرحنا لأفكار جديدة ولاسيما بشكل خاص وكتوم. (ففي ضوء موقف جورباتشوف السياسي فإن أي مبادرة علنية رفيعة المستوي لن تساهم إلا في خلق هدف أمام المحافظين) وأضاف قائلاً: إننا نعمل في عدة أفكار جديدة حول الاستقرار الاستراتيجي لكن لم يتبلور شيء حتي الآن. ومع هذا فإن الجيش ومجلس السوفيت الأعلي «يدققان في كل ما نعمله وهما ينزعان نزعة عاطفية» لكنه استدرك قائلاً: «إن أولي أهدافنا هي إكمال اتفاق ستارت». وعندما

ينتهي السوفيت برفض اقتراحنا فهذا أمر لم يفاجئني وسوف يتعين أن ننتظر إزالة الصواريخ المزودة بمركبات الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه لمرحلة أخرى.

وتعددت خلفية ملاحظاتنا حول ألمانيا قبل يومين بنتيجة الانتخابات في ألمانيا الشرقية. فقد صوت شعب ألمانيا الشرقية فيما سيصبح أول وآخر انتخابات في تاريخ ألمانيا الديمقراطية في صندوق الاقتراع بنفس الطريقة التي صوت بها على الأرض: أي لصالح الوحدة السريعة ولصالح الغرب، وحصلت الأحزاب المرتبطة بنظرائها في ألمانيا الاتحادية (كانت جميعها تدعو للوحدة) على أكثر من خمسة وسبعين في المائة من الأصوات، ولم يعد هناك أدني شك في أن كافة الألمان يريدون الوحدة وسريعاً.

واختار شيفرنادزة ربما متأثراً بنتيجة الانتخابات عدم الخوض في التفاصيل. لكنه ركز بدلاً من ذلك على بعض عناصر القلق العام. وبدأ بالقول: «تعرفون مدي براعة الألمان. إنهم قوة إبداع كامنة هائلة، ولكن وكما شهدنا في الماضي كانوا قوة تدميرية مروعة». وكان يري أن عملية الوحدة تندفع بسرعة بالغة وتتجاوز الحد من التسلح وجهود بناء هيكل أوروبي جديد. واعترف بأن الوحدة باتت حقيقة واقعة، ولهذا فإن ما نفعله يجب أن يكون له تأثير ما على سرعتها فمن المهم ألا تتسارع خطاها. وفيما تبقي من وقت أعتقد أنه يجب أن نسعي لشيء من الضمانات الأمنية.

وفيما أوضح أن صيغة إثنان + أربعة ساهمت في تلبية بعض الاحتياجات السوفيتية، أشار إلي أن هناك مشكلة أخري: فالشعب السوفيتي لايمكن أن يقبل انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف شمال الأطلنطي. وقال: «حقيقة ليس هذا هو تماماً ما أفكر فيه أو أعتقده أو يفكر فيه أو يعتقده جورباتشوف...»

إننا لا نعتقد أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي سيخوضان حرباً ضد بعضهما ما لم تحدث تطورات غير استثنائية. لكن صورة العدو لا تزال مرتسمة في أذهان شعبنا. لقد ارتسمت تلك الصورة عبر عقود. وبينما أعرب عن اعتقاده بأن الزمن يتغير فإن الأثر الواضح أنه لم يتغير بالسرعة الكافية.

وفيما قال في الوقت نفسه إنه لا يمكن قبول ألمانيا الموحدة في عضوية حلف شمال الأطلنطي قال أيضا: «إنني أعترف بأن ألمانيا محايدة تعد مشكلة لايمكن أن يقبل المرء بها» وكان يعي أن موقف موسكو غيرمنطقي واعترف قائلاً: «إنك لا تعرف حلاً للمشكلة وعليك وعليّ أن نبحثها مرة تلو المرة وعلي رئيسنا أن يبحثاها أيضا».

وعندما تطرق في تبيان منطق انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي ومن ثم ضمان عدم تحمل ألمانيا مسؤولية أمنها الخاص واستمرار تواجد عسكري أمريكي في ألمانيا، قدم إجابة مهمة ومثيرة: «عليك أن تضع في الاعتبار ماذا سيحدث غداً، هب أننا تركنا ألمانيا الشرقية وسيكون من الأفضل أن تظلوا في ألمانيا ولن يمثل هذا لنا أي مشكلة. فلن نعترض علي وجودكم. لكن ما هو الموقف لو تعين عليكم الانسحاب أيضاً؟

وتدخلت قائلاً: «لايمكننا التواجد إلا في إطار حلف الأطلنطي». لكن تركيزه كان منصباً علي ألمانيا في المستقبل: «ماهو الحال لو قالوا لك إننا لانريد الانضمام إلي حلف الأطلنطي» وقد قلت لهانز ديتريش جينشر إنه لو كان هو أو كول أو برانت مستشاراً لألمانيا الموحدة فلن يكون لدينا أي مشكلة لكن أنظر إلي الشباب المتسكع علي الزوايا الجمهوريون... ربما أكون مخطئاً فالسيناريوهات الأخري واردة، ولكننا خرجنا بدروس عظمي من التاريخ وأثبتنا أننا عندما تحركنا معاً أنقذنا العالم».

وبعد ستارت وألمانيا كانت التوترات في البلطيق هي البند التالي علي جدول الأعمال. ففي فيلنيوس أعلن البرلمان الاستقلال في الأسبوع الماضي. وكنت أتلقي في ويندهوك تقارير بأن السوفيت يحلقون بطائراتهم الحربية فوق العاصمة الليتوانية. وأصبحنا أكثر قلقاً من أن جورباتشوف قد يستخدم القوة العسكرية في ليتوانيا. ومنذ بداية اجتماعاتنا أكدت لشيفرنادزة أن البلطيق قضية مختلفة تمام الاختلاف في نظر الأمريكيين. وبجانب وضعها القانوني فإن دول البلطيق تحظي بدعم قوي من الكونجرس وتبدو في نظر الأمريكيين علي أنهم الفتية الصغار الذين استولي عليهم بلطجي يبدو أنه مقدم الآن علي سفك الدماء.

وطمأنني شيفرنادزة قائلاً: «لن نستخدم القوة» وأضاف قائلاً: «لكن الوضع قد يكون مختلفاً بالطبع لو تعرضت مواقعنا للهجوم، لكن ليست هذه هي طبيعة سير الأمور في ليتوانيا فربما يحدث هذا في القوقاز – لافي ليتوانيا» . وقال إن الرد الوحيد هو حوار جاد وجوهري، وكان يري أن ليتوانيا اصيبت بحمي الاستقلال، وقال في تأثر: إن «الكريملين حلل الوضع في حذر بالغ» وقال: «إننا توصلنا إلي نتيجة أنه لو انسحبت ليتوانيا من الاتحاد السوفيتي الآن فربما تنهار الجمهورية . فقد ترسخت العلاقات الاقتصادية علي مدار عقود. فلن يستطيعوا تشغيل مصانعهم ومجمعاتهم الصناعية وخطوط السكة الحديد. فهل لهم الحق في اتخاذ هذا القرار غير المسؤول؟» .

وهو يعتقد الآن أن الكثير من الليتوانيين يتأكدون أنه ستحدث عواقب. وأعرب عن اعتقاده بأنه سيكون أمامهم الآن نوع من الحوار الهادئ المتحضر تدعو الحاجة إليه لتعزيز العلاقة في المستقبل وأشار مباشرة إلي تحركات القوات السوفيتية بالتنويه إلي أن الكريملين اتخذ تدابير احترازية لحماية المحطة النووية والمصانع الحربية في ليتوانيا. وقال: أخيراً إن موسكو لاحظت اتزان لهجة بياناتنا العامة وأنها تقدر لنا ضبط النفس.

وأبلغته بأننا حاولنا ألا نفاقم الموقف، لكننا نخشي بشدة من استخدام القوة أو التهديد باللجوء إليها. وكنت سعيداً بأن أسمع منه التزاماً بعدم اللجوء إلي القوة . وقلت: إننا سنراقب الموقف عن كثب. وألمحت بشكل أكثر عمومية إلي أن هناك حاجة لإقرار مشروع قانون الانفصال بسرعة، وأن موسكو في حاجة إلي إقرار آلية موثوق بها لتطبيقها (ربما تكون إجراء استفتاء في كل جمهورية) . وقلت: «هذه في الحقيقة الطريقة الوحيدة التي أري أنها تكفل حل الكثير من المشكلات القومية التي تواجهكم، وربما تختار بعض الجمهوريات الانفصال لكن الأم روسيا كما تقولون قوية، وهي تاريخياً هناك وستستمر»

وقال شيفرنادزة إنه يتفق معي . وأشار إلي أنهم يحاولون وضع اللمسات النهائية علي قانون الانفصال، وقال: إن عليهم إنجازه رغم ما ينطوي عليه من ألم. وخلص إلي أنه انتهي إلي قبول فكرة الاستفتاء أيضاً. لكن من غير الممكن المضي في تطبيقها بالسرعة التي اقترحها» .

وأكدت مجدداً: «لكن الوقت عامل جوهري. فما لم يكن بوسعكم أن تطرحوا مخرجاً أو آلية تبحث الجماهير عنها فسوف يخرج الأمر برمته عن نطاق السيطرة».

وقد حدث بعد أربعة أيام فقد استولت قوات المظلات السوفيتية علي مقر الحزب الشيوعي في فيلنيوس. ورداً علي ذلك كتبت لشيفرنادزة موضحاً أن قدرتنا علي استمرار تبني موقف متوازن «أخذت تتلاشي الآن بسرعة» وأضفت القول: «عليكم أن تدركوا وكما قال الرئيس بوش أن استخدام القوة أو الإكراه سيكون له مردود عكسي. إنه بقراركم طرد الذين من الدبلوماسيين الأمريكيين ووسائل الإعلام العالمية فإنكم تضطرونا إلي اتخاذ موقف علني صارم. إن الخيارات المتاحة أمامنا بسيطة فاستمرار تصرفات من هذا القبيل سيكون له بالقطع أثر عكسي علي علاقتنا» وبعد بضعة أيام أرسل الرئيس رسالة مماثلة إلي جورباتشوف لكن أياً منها لم يكن له أثر علي تصرفات الكريملين، وللمرة الأولي منذ تولي إدارة بوش للسلطة أشعر أن العلاقات السوفيتية تسير نحو منحدر سلبي.

نيسان إبريل في واشنطن: خطوتان إلي الخلف

تصاعد خوفي لدي وصول شيفرنادزة إلي قاعدة أندروز الجوية في ٣ نيسان إبريل لإتمام الاستعدادات لعقد القمة السوفيتية الأمريكية. ولدي وصوله شبه شيفرنادزة الوضع في ليتوانيا بالزلزال وصرح للصحافة «بأن الزلازل لا تحدث في الطبيعة فقط» وبدا شيفرنادزة في غاية الحيرة. والأسوأ أنه التزم بالطابع الرسمي وقدم المجمع الأيديولوجية. بل وانحاز إلي المتشددين أمثال المارشال أخروميف. وفي الواقع فقد تولدت لديّ عنه صورة بأنه دبلوماسي يصوب بندقية دبلوماسية إلي رأسه. فأي خطوة إلي الأمام يمكن أن تقود إلي الانتحار.

وقلت له في أول جلسة من مباحثاتنا استغرقت ثلاث ساعات ونصف الساعة كان موضوعها الوحيد هو ليتوانيا: «أجد لزاماً عليّ أن أبلغك أنني أشعر بالقلق. إنني أشعر بقلق

حقيقي وعميق. إننا لا نريد أن يتدهور الموقف. لأنه سيكون له أثر مباشر علي علاقاتنا لقد حققنا إنجازات هائلة خلال الأربعة عشر شهراً الماضية. ولا أريد أن يتقوض هذا».

ولأنه كان في سبيله لتعداد الضغوط السياسية التي تواجهها القيادة السوفيتية بسبب قضية ألمانيا فقد حاولت إفهامه ما تواجهه واشنطن بشأن ليتوانيا بالإشارة أولاً إلي تصويت مجلس الشيوخ بأغلبية تسعين صوتاً للاشيء لصالح إدانة التصرفات السوفيتية، ثم بعرض حجة كان شخصياً يراها أكثر إقناعاً: «لقد طُلِبَ من الصحافة الأجنبية مغادرة ليتوانيا وناقلات الجند المدرعة تجوب الشوارع وتشاهد علي تلفزيوننا، والآن فإن كل تلك التحركات بالطبع نذير باللجوء إلي القوة، وهذا يحير الجميع، وعليّ أن أبلغكم أن كل من لا يريد أن يري وجود تقدم علاقاتنا من المواجهة إلي التعاون يستغلون ما تفعلونه كأداة للنيل منا» وأومأ شيفرنادزة بالتفهم. واختتمت بالقول: «إنني لا أدري إلي متي سنستطيع الإبقاء علي التعاون إذا لم نتوصل لعملية تمنح ليتوانيا حق تقرير المصير».

وكانت إجابته مزيجاً من الضيق والأيديولوجية الجامدة، وقال: «إننا نريد حواراً جاداً. إننا نعرف أن الليتوانيين في مأزق، وإننا ندرك أنهم لا يعرفون كيف يخرجون منه. إنهم لم يأتوا عندما طَلَبْتُ منهم الحضور قبل أسبوع، وقد أرسل لهم جورباتشوف دعوة شخصية ليأتوا ويبحثوا القضية».

لقد أثار فيتوتاس لاند سبيرجيس أستاذ الموسيقي السابق الذي أصبح رئيساً لليتوانيا سخط الكرملين بوضوح. وأشار شيفرنادزة لاحقاً إلي أنه: «يُعْتَبَرُ عديم الخبرة وساذجاً. ولذا فإنه يتحدث بأشياء خطيرة».

وحاول شيفرنادزة في لحظة ما استدراجي بالإشارة إلي النقد الذي يتعرض له جورباتشوف، وحاول الاستدلال بغزونا لبنما لتزييده. وأضاف بنبرة أيدلوجية جامدة: «بالطبع قد لا تكون المقارنة بين ليتوانيا وبنما مناسبة بالضرورة. فبنما بلد مختلف. أما ليتوانيا فإنها جزء من بلدنا، ولكننا تصرفنا وقادرون علي التصرف والتحدث بشيء من ضبط النفس» ولم يكن قد أثار موضوع بنما علي أنه مشكلة أساسية خلال أي من محادثاتنا خلال الأشهر

الثلاثة الماضية. لكنه يعرج عليها الآن. والأدهي أنه يشعر بالقلق من حدوث أخطار أعظم. وقال: لقد صرحت للصحفيين الأمريكيين في الماضي «بأنه لابديل عن البيريسترويكا والحقيقة إن هذا خطأ. إن هناك بديلاً للبيريسترويكا فإذا لم تنجح فسوف ينكب الاتحاد السوفيتي بعدم الاستقرار، ولو حدث هذا فسوف يظهر ديكتاتور».

وتدخل روس ليسأل شيفرنادزة: ماذا ستفعلون برأيكم الآن لبدء عملية أو حوار؟ وماذا حال دون بدئها الآن؟ وأجاب شيفرنادزة: «حسناً. وسواء أكنا نتحدث بصراحة أو بشكل قانوني عليكم العودة إلي الأمر الواقع. إن قرارهم ليس له أي مسوغ قانوني. وعلي هذا الأساس نستطيع بحث أي شيء».

وأشرت قائلاً: «لقد أجبت علي سؤال دينيس بطريقة قانونية، بطريقة رسمية ولكن لماذا لا تتعامل معه سياسياً لا قانونيا؟ فسياسياً لا يمكنك تجاوز أو تجاهل تصرف غير قانوني؟ تقول إن هذا الإجراء ليس له مسوغ قانوني. لماذا لا توافق ببساطة علي البدء في إجراء حوار وتعلن أنكم ستنظمون استفتاءً وتجرون مباحثات حول العلاقات المستقبلية؟

فإذا كان هذا التصرف غير المشروع كما تقولون ليس له مسوغ قانوني. فلماذا تولونه الاهتمام؟» ورد شيفرنادزة: «في المقام الأول عليهم أن يأتوا إلي موسكو. فلا يمكن أن يذهب جورباتشوف. أنت تعرف وهم يعرفون كيف يمكن الذهاب إلي موسكو. بوسعهم شراء تذاكر وأن يأتوا بالقطار أو سوف نرسل طائرة لنقلهم».

وعقب الجلسة قال دينيس لسيرجي تاراسينكو: «إن الوزير يتحدث عن أهمية الحوار. لكنه يتجنب ذكر كيف يمكن لهذا الحوار أن يبدأ. فماذا يمكن اتخاذه لبدء الحوار؟». وأجاب سيرجي: «لقد أصبحت مسألة كرامة لجورباتشوف فعندما لم يأت لاند سبيرجيس إلي موسكو رغم توجيه الدعوة له فإن عدم مجيئه قد أثار مشاكل عديدة لجورباتشوف. فقد كان هذا كلمة السر التي أثارت الكدر: لاند سبيرجيس إلي موسكو».

وفي الليلة التالية، وعلي عشاء خاص في مقر إقامتي سألت شيفرنادزة: «إذا توجه لاند سبيرجيس إلي موسكو ووافق علي تعليق – مقابل الشاء – الإجراءات التي اتخذتْ في ليتوانيا فهل سيكفي هذا لبدء حوار؟».

وصمت شيفرنادزة لفترة طويلة، وأجاب بأن مثل هذه المسائل تتطلب قراراً من «القيادة الجماعية» في موسكو - ولكن بشكل شخصي - فقد أحس أنه لو جاء لاند سبيرجيس إلي موسكو فسوف يكون ذلك «إيجابياً ومفيداً للغاية» وتوزع بقية زمن الاجتماع الوزاري بين بحث مسألة ألمانيا والحد من التسلح. وجاء بحثنا لقضية الوحدة في سياق بحث القضايا الإقليمية، وخلال البحث سمح شيفرنادزة لألكسندر بوندارينكو الخبير في المسائل الألمانية والمتشدد بأن يصول ويجول أثناء المناقشة. وشعرت بأن لدي شيفرنادزة سببين لإدراة الأمر علي هذا النحو. أولهما: أنه كان في حاجة لتحين الفرصة المناسبة لأنه مكشوف سياسياً للغاية في الداخل لدرجة لا يستطيع معها تحقيق أي تقدم من جانبه (أو كما قالت مارجريت تاتشر عندما اجتمعت مع الرئيس في بيرمودا بعد أسبوع إن الانتقادات تدفع به إلي الهامش).

ثانيهما: كان يريد أن يتعرض زملاؤه لحججنا ومنطقنا. فقد كانت بيروقراطيته ولاسيما العسكريين في موقف المدافع عن السياسة السوفيتية. وفي الواقع كان يبلغهم بأنكم «لو كنتم أذكياء فعليكم أن تجادلوا الأمريكيين». وكان الموقف علي جبهة الحد من التسلح أسوأ حالاً. وفيما كنت أنا وشيفرنادزة نجري معظم مباحثاتنا في جلسات منفردة من قبل فقد إنضم إلينا الآن الماريشال أخروميف والميجور جنرال الكسندر بيرسيكين من هيئة الأركان العامة الذي دفع مظهره المتجهم بعض العاملين معي إلي وصفه باسم «السيد المبتسم» كان السوفيت يتملصون من الكثير من التفاهم الذي توصلنا إليه في موسكو في شباط فبراير*.

وقررت أنه في ظل هذه الظروف فإن الضغط علي شيفرنادزة غير مجد. فليست أمامه أي مساحة للمناورة وأن علينا العودة إلي موسكو لحمل جورباتشوف علي اتخاذ القرارات الحاسمة. وكما قلت في اجتماع الحكومة بعد فترة وجيزة: «كلما تقدمنا في مباحثاتنا ومفاوضاتنا كلما استعصيت القضايا علي الحل».



---

* اتفقنا علي أن نتعامل مع صواريخ كروز التي تطلق من البحر بالتوازي، أي إعلانات سياسية ملزمة، فالسوفيت يريدون الآن حدوداً حتمية ملزمة قانوناً رتحجت صلاية التحقق جانباً، ويريدون الآن تضمينها، وحول صواريخ كروز التي تطلق من البحر توصلنا إلي اتفاق حول كل شيء باستثناء المدي، وكان السوفيت يريدون إعادة فتح قواعد العصر ومجموعة العناصر الأخري.

وبعد أسبوع وفى ١٣ نيسان أبريل هدد جورباتشوف فيلنيوس بفرض حظر اقتصادى مالم يعلن برلمان ليتوانيا إلغاء إعلان الاستقلال فى غضون ثمان وأربعين ساعة*. وبعـد أربعة أيام بدأنا نتلقى تقارير مشوشة عن قطع إمدادات الغاز والبترول عن ليتوانيا.

وفى الساعة الخامسة مساء وفى اجتماع مجلس الأمن القومى أوضح الرئيس أنه لا يريد التحرك بتهور. ومع انحصار الجانبين على ما يبدو فى لعبة ممجوجة اتصلت بشيفرنادزة فى ١٨ نيسان إبريل وأبلغته: «بالطبع سوف نعتبر أى حظر على إمدادات الوقود والغاز عملاً من قبيل الإكراه، وسوف يؤثر بالسلب على مساعينا لإقامة علاقات تجارية أفضل، وهذا مؤشر على أن الاتفاق التجارى الأمريكى السوفيتى سيكون عرضة للخطر إذا مضى جورباتشوف فى تنفيذ تهديده. وأكد شيفرنادزة مجدداً أن الحاجة تقتضى أن يتحرك الليتوانيون أولاً. وفى محاولة للتوسط لبدء حوار سألته عما إذا كانت هناك أى مشكلة لو اتصلنا مع الليتوانيين ورد قائلاً: «ليست لدينا أية اعتراضات. لكنى أريد أن تبقى هذه المكالمة بينى وبينك فى طى الكتمان». وكان شيفرنادزة وأنا على يقين تام بأن تصرف الولايات المتحدة كوسيط يمكن أن يكون بمثابة «ديناميت سياسى فى موسكو وواشنطن».

وبسبب أخطار احتمال انعكاس أى اتصالات رسمية مع الليتوانيين علينا داخلياً وإلحاق أضرار بعلاقتنا الدبلوماسية مع موسكو فقد فاتحنا السيناتور ريتشارد لوجار، وطلبنا منه القيام بمهمة الوساطة، وفى الصباح التالى توجه دينيس روس إلى الكونجرس لإطلاع لوجار وتحديد الإطار العام لما نعتقد أن الليتوانيين بحاجة له لحمل موسكو على إجراء حوار قد يفضى إلى منح الاستقلال سلمياً: عليهم أن يعلقوا إعلانهم بالاستقلال انتظاراً للمفاوضات، والعودة إلى موسكو لإجراء مباحثات، وفى الوقت ذاته علمت من السفارة الأمريكية فى موسكو أن إمدادات الغاز لليتوانيا خُفِضَتْ ولم تقطع بالكامل وأن خطوط الفاكس مقطوعة.

ولم تكن لدىّ أى حساسية تجاه نهجنا. ورغم أن الولايات المتحدة لا تعتبر ليتوانيا جزءاً من الاتحاد السوفيتى فقد كنت على يقين تام بأنه فى ضوء الوضع السياسى السائد فى موسكو فإن الليتوانيين لن يحصلوا على استقلالهم الفعلى ما لم يقدموا أولاً تلك التنازلات الرمزية

* زاد قلقنا عندما أبلغنا البريطانيون أن جورباتشوف لم يستبعد اللجوء إلى القوة فى اجتماع مع دوجلاس هيرد فى موسكو فى ١٠ نيسان إبريل، وأنه هدد بفرض حصار اقتصادى على ليتوانيا.

غير المهمة إلي الكريملين. فعلي القيادة السياسية أن تتخذ الخطوات العملية الضرورية لتحقيق أحلامها.

وفي ٢٠ نيسان إبريل عاودت الاتصال بشيفرنادزة. وأبلغته بأنني «فوجئت» بل تحيرت بصراحة «بسبب قطع الغاز والبترول الذي تواكب مع مكالمتي معك». فربما لم يكن حظرا شاملاً لكنه يقترب من الحظر التام. وكنت أريد أن يعرف أنه يضعني في موقف صعب.

وشاطرته رأيه تجاه رد لاند سبيرجيس الذي تلقيته من لوجار. وفيما كان رئيس ليتوانيا بعيدا بالمرة عن الإيجابية حيث قال: إنه لو كان التجميد غير دائم (علي سبيل المثال تعليق إعلان الاستقلال بدلاً من إلغائه). حينئذ يمكن أن يوافق الليتوانيون . وقال شيفرنادزة إنه يعتقد من حيث المبدأ أن الحوار يمكن أن يبدأ مع تجميد أو تعليق إعلان الاستقلال. لكنه في حاجة لمراجعة جورباتشوف. وتحادثنا مجدداً في اليوم التالي وعلمت أنه في الوقت الذي أرسل فيه جورباتشوف برقية شديدة اللهجة إلي الليتوانيين فقد التقي مسؤول صغير المستوي مع مجموعة نسائية ليتوانية وأشار إلي الحاجة إلي تعليق الاستقلال. وبات من الواضح أن موسكو تنهج مساراً مزدوجاً بالترهيب والترغيب مع ليتوانيا في وقت واحد. لكن من المشكوك فيه أنه يمكن الحفاظ علي التوازن الدقيق.

وفي صباح يوم الإثنين ٢٣ نيسان إبريل علمت أن كبير المتحدثين باسم جورباتشوف أعلن أن بوسع ليتوانيا الاحتفاظ بإعلانها الاستقلال «التاريخي» طالما ألغت ليتوانيا قوانين الاستقلال أو جمدتها. فقد تغير موقف موسكو رغم أنه تغير طفيف، وفي اجتماع مجلس الأمن القومي مساء ذلك اليوم قرر الرئيس أن الهدف الرئيسي يجب أن يتمثل في محاولة وحماية استمرار تحسين مجمل العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، ولم أجد سوي تأييد طفيف بين حلفائنا الأوروبيين لاتخاذ إجراءات قوية لتسجيل عدم موافقتنا علي إجراءات الترهيب الاقتصادية السوفيتية تجاه ليتوانيا، وهكذا فإن أي إجراء سوف نتخذه يحتمل أن يكون عبارة عن إجراءات منفردة. وقرر الرئيس «أن أي رد يجب أن يتناسب مع حجم الجريمة». وهذا يعني أن الاتفاق التجاري الأمريكي السوفيتي الذي نضع اللمسات النهائية عليه سيتم تعليقه – وكتب الرئيس رسالة إلي جورباتشوف في هذا الصدد في ٣٠ نيسان إبريل*.

* عرر مجلس الشيوخ رسالة الرئيس في الأول من آيار مايو عندما صوت بأغلبية ٧٣ مقابل ٢٤ صوتاً بتجميد أي مزايا تجارية مع الاتحاد السوفيتي حتي تتم تسوية أزمة ليتوانيا ويتم رفع الحظر الاقتصادي.

آيار مايو في بون، موسكو، واشنطن تحقيق الانفراج أخيراً

كانت بون صبيحة ذلك اليوم الربيعي المشمس البديع من الأسبوع الأول من آيار مايو تستضيف أول اجتماع وزاري لمباحثات إثنين + أربعة أما وقد أمضيت اليوم في لقاءات مع جينشر ثم كول فقد اجتمعت مع شيفرنادزة في ساعة مبكرة من المساء لنحو أربع ساعات في جناحي في فندق مارتيم كرونجيسفيلدر المطل علي نهر الراين بجنوب بون.

ومرة أخري تناولنا ألمانيا وليتوانيا والحد من التسلح. وبدأت مع هذا بإثارة قضيتين أخريين. فقد اقترحت أولاً: قيام الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي بجهد مشترك لمساعدة المتضررين جوعاً في أثيوبيا – نحن نقدم الأغذية وهم يقدمون الطائرات – كان السيناتور ديفيد بورين بروج لهذه الفكرة، وكنت أعتقد أنها ستصبح نموذجاً للتعاون السوفيتي الأمريكي تجاه تسوية المشاكل الكونية. ثانياً: أثرت مخاوف تجاه شائعات سمعناها عن مذبحة تعتزم منظمة باميات الرجعية ارتكابها ضد يهود الاتحاد السوفيتي في ٥آيار مايو. واعترف شيفرنادزة بأن هذه ليست مجرد شائعات قائلاً: إن القيادة السوفيتية أعدت كافة الخطوات الممكنة لمنعها. وقال: يمكن أن تقع حوادث فردية لكن وزارة الداخلية والأجهزة الأمنية موضوعة في حالة تأهب قصوي واستدعت زعماء باميات وحذروهم من مغبة ارتكاب أعمال عنف ضد اليهود.

وترك شيفرنادزة انطباعاً قاطعاً بأن موسكو أكثر استرخاءً وثقة بأن استراتيجيتها تجاه ليتوانيا تؤتي ثمارها. ولم يبد ضمناً أي إحساس بالإلحاح قائلاً: «علينا أن نتحلي بالصبر» وعندما أكدت أهمية عدم اكتفاء السوفيت بالحديث عن الحاجة إلي الحوار بل يجب عليهم بالفعل اتخاذ خطوات لإقامة حوار، قال: إنه يعتقد أن الحوار سيكون ممكناً وقتاً ما. وأشار إلي تصاعد الجدل بين القيادة الليتوانية حول الحاجة لإقرار تسوية وسط، وأشار ضمناً إلي أنهم سيوافقون، وأكد مجدداً أن السوفيت علي استعداد لبدء الحوار لو أعلن الزعماء الليتوانيون تجميد إعلان الاستقلال والقوانين التالية له وأبدوا استعدادهم للتوجه إلي موسكو لبدء المباحثات. لكنه قال: إن المبادرة – أي الخطوة الأولي يجب أن تأتي من ليتوانيا.

وقلت: «أشعر أحياناً أنه عندما أبحث الموقف في ليتوانيا أري سفينتين تبحران في الليل بمحاذاة بعضهما. إن ما أراه هو أنكم والليتوانيون تتحدثون عن حل المشكلة بالحوار السلمي لكنني لم أشهد بدء الحوار». واستفسرت عما إذا كان لاندسبيرجيس وبقية القيادة الليتوانية قد فهموا بوضوح من السوفيت ما هو المطلوب منهم لترفع موسكو الحصار الاقتصادي وما سوف يحصلون عليه في المقابل. علي وجه التحديد – أي حوار حول الاستقلال. وقال: إنه واثق أنهم سيفعلون «لكنهم حتي هذه اللحظة لم يفعلوا شيئاً. إنهم يتحدثون لكنهم لا يفعلون شيئاً».

وأشار مرة أخري إلي أن الكريملين سيتحلي بالصبر «وينتظر بعض الوقت» أثناء مناقشة الليتوانيين للقضية. ونبهته إلي أن المساحة المتاحة أمامنا للمناورة محدودة وأثرت احتمال أننا قد نُدْفَعُ إلي اللجوء إلي العقوبات الاقتصادية. وقال: لن تكون هذه مأساة. لكنه سيكون سوء حظ وسيكون أيضاً مؤشراً علي النقطة التي تتجه إليها علاقاتنا. وسلمني رسالة من جورباتشوف إلي الرئيس تتضمن نفس الرأي: «أود القول صراحة إن التراجع الحاصل في موقف الإدارة الأمريكية عن موقفها المسؤول السابق قد لا يكون مفيداً في تطبيع الوضع في ليتوانيا أو تطبيع العلاقات السوفيتية الأمريكية» ووصف القضية بأنها مشكلة من «اختصاص الاتحاد السوفيتي».

❑ ❑ ❑

ثم انتقلت إلي بحث الوحدة الألمانية بالقول: «من المهم للغاية ألايكون هناك خاسرون أو رابحون في عملية الوحدة الألمانية». وحددت الإطار العام الذي يحكم موقفنا تجاه الوحدة. «من ناحية لم تكن نريد تغريبا أو التمييز ضد الألمان. وكانت هذه السياسة التي انتهجت بعد الحرب الأولي قد بذرت بذور الاستياء، وكانت أحد أسباب وصول هتلر إلي السلطة. ومن ناحية أخري أردنا أن نضع في الاعتبار الاحتياجات الأمنية المشروعة للآخرين. فإلي جانب الحدود مع ألمانيا. كان ذلك يعني ضمان ألا تتحرر ألمانيا من وسط أوروبا، ومن ثم خلق عدم استقرار خطير. وعرضت عليه إطارا عاماً لرأينا في صيغة «إثنان + أربعة» «كلجنة توجيه» تستطيع اتخاذ قرارات حول عدد محدود من القضايا لكنها تستطيع مناقشة قضايا

أخرى أكثر. وانتهزت الخطاب الذي ألقاه الرئيس في ولاية أوكلاهوما في ٤ أيار مايو حول قضايا الأمن الأوروبي كمؤشر على أننا سمعنا ما يقولونه*.

وقلت له: «إننا نعي دروس أعـوام ١٨٧١ و١٩١٤ و١٩٣٩ عندمـا تعين أن تخـوض حربين على هذه القارة في هذا البلد. وخضنا إلى جانبكم كحلفاء أشرس المعارك وأكثرها تدمـيراً. لسنا في حـاجـة إلى تكرار هذا. ولذا فإننا نريد ربط ألمانيا بأكبر عدد ممكن من المؤسسات.

ورد شيفرنادزة بالقول إن موسكو ترحب بأفكارنا الجديدة. وفي الحقيقة كانت مناقشاتنا لهيكل أوروبي جديد متسقة مع الكثير من أفكارهم – رغم أنها لا تزال في مرحلة البلورة، وقال: إنهم يتفقون معنا في ضرورة عدم وجود تمييز ضد الألمانيتين أو في ألمانيا واحدة في وقت ما. وكان هذا مغزى صيغة «إثنان + أربعة» حيث تجلس الألمانيتان كشريكين كاملين على قدم المساواة.

ورداً على توصيفي لصيغة «إثنان + أربعة» كلجنة توجيه ستتخذ قرارات حول بعض القضايا وتبحث قضايا أخرى وتحيل قضايا أخرى إلى منابر أخرى، قال شيفرنادزة: إنه في حاجـة لإجراء مزيد مـن البحث لهذا الموضوع. وأشار إلى أن السوفيت ينظرون بالفعل إلى صيغـة «إثنان + أربعة» كجهـاز لصـنع القرار، وليس مجـرد جهـاز استشاري. فضلاً عن ذلك كان يعتقد أنه من الضروري ألا تندفع نحو اتخاذ قرارات وأن تكمل عملها فصيغة «إثنان + أربعة» في حاجة إلى معالجة الكثير من القضايا المعقدة. وهي في حاجة إلى مزيد مـن الوقت لأنجاز عملهـا. ولم يشجـع السوفيت التأجيل لكنهم كانوا يشعرون أن صيـغة «إثنان + أربعـة» يجب أن تعمل بالتـوازي مع مـؤتمر الأمن والتعـاون في أوروبا» ومع مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوربا. وعلى حد قوله يجب أن تبدو العلاقة وكأنها صيغة واحدة.

---

* كان خطاب الرئيس في ذلك اليوم يهدف أن يُظهِر لموسكو أننا نتحرك قدماً في مسعى جاد لإضفاء طابع سياسي أكبر على حلف الأطلنطي وتعزيز مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا. وبعث الرئيس برسالة أيضاً إلى ماتفريد فورنر قائد في عملية داخلية في التحالف لتغيير طبيعة الحلف، وهي عملية اعتزمنا الانتهاء منها في قمة الحلف في أوائل الصيف. وأردنا أن يظهر الاجتماع مدى التغيير الذي طرأ على الحلف وأن جورباتشوف وشيفرنادزة سلاحاً يستخدمانه ضد منتقديهم في الداخل.

وباختصار كتبت إلي الرئيس في تلك الليلة رغم أن السوفيت ليسوا علي نفس الموجة أعتقد أن تصورنا لصيغة «إثنان + أربعة» «كلجنة توجيه» ربما يلقى قبولاً لديهم لكن حمْلهم علي قبول انضمام ألمانيا إلي حلف شمال الأطلنطي قد يكون بالغ الصعوبة. وأكد شيفرنادزة مجدداً الصعوبة النفسية التي يجدونها، وخاصة الشعب السوفيتي في هضم انضمام ألمانيا الموحدة لحلف شمال الأطلنطي. وقال هذا وهو يشير ضمناً إلي قبول منطق موقفنا – متفقاً علي أن حياد ألمانيا لا يخدم الاستقرار علي المدي البعيد، وذكر بوضوح أن السوفيت يريدون تواجداً عسكرياً أمريكياً في أوروبا (وليس تواجداً سياسيا واقتصادياً فحسب) وقال: إن الوجود العسكري الأمريكي في أوروبا يجب أن يستمر لسبعة أو عشرة أعوام علي الأقل وربما فترة أطول.

فالواضح أن السوفيت لا يعرفون كيف ينسجمون مع الحلبة. إنهم يتصارعون معها. إنني أشك في أن جورباتشوف لا يريد معالجة قضية عاطفية مثيرة من هذا النوع الآن، ومن المؤكد أنه لن يقدم علي تداولها قبل مؤتمر الحزب. وأكد شيفرنادزة أنه تقرر عقد المؤتمر في تموز يوليو، وأنه سيكون تجمعاً سياسياً في الاتحاد السوفيتي. وكنت آمل أن يتحقق هذا لأننا لا نحرز إلا تقدماً ضئيلاً.

كان الاجتماع الوزاري لاثنين + أربعة في الخامس من آيار مايو حافلاً بالمترادفات التاريخية. ففي مثل ذلك اليوم من عام ١٩٥٥ انتهى نظام الاحتلال ما بعد الحرب العالمية الثانية في ألمانيا، وفي ٧ آيارمايو ١٩٤٥ وُقِّعَتْ أول هدنة في الحرب العالمية الثانية. وبدأت كلمتي بالقول: «إننا نبدأ اليوم عملاً للمصالحة لشعب عاش منفصلاً ردحاً طويلاً ولقارة عانت من الانقسام لفترة طويلة. وستكون كل دول أوروبا هي الفائزة بمساعدة ألمانيا علي نيل وحدتها وحريتها. وأصاب جينشر كبد الحقيقة بقوله: «إننا لا نريد إقامة أوروبا ألمانية بل ألمانيا أوروبية لكن شيفرنادزة اتخذ خطاً متشدداً لا يعكس شيئاً من الشك الذاتي الذي أسر به لي في حديث خاص، وخلص إلي القول: «دعونا نؤدي هذه المباراة الجديدة والأخيرة في الشأن الألماني بطريقة جدية، وبكل الإدارك التام لكافة الأخطار المحدقة التي تنتظر أوروبا وهي تشق طريقها إلي القرن الحادي والعشرين». وفي تلك الليلة شاهدنا عرضاً للألعاب

النارية فوق بون فيما لحتفل الألمان «بنهر الراين في اللهيب» كان عرضاً بديعاً ربما كان سابقاً لأوانه. فلم يلح في الأفق بعد حسم مسألة لانضمام ألمانيا إلي حلف الأطلنطي.

وفي طريق عودتي إلي الوطن توقفت ذلك اليوم في وارسو لأعيد طمأنة البولنديين ولدعوة وزير خارجية بولندا لحضور اجتماع وزراء خارجية إثنين + أربعة في باريس في تموز يوليو. وتحمس كل من مازوفيسكي وسكوبيزفيسكي موقفنا وسرهما أن تسلم الولايات المتحدة دعوة حضور لاجتماع إثنين + أربعة بالنيابة عن وفود إثنين + أربعة.

وبعد عشرة أيام وصلت إلي موسكو لإجراء مباحثات علي مدي أربعة أيام للإعداد للقمة الأمريكية السوفيتية في نهاية آيار مايو. وعلي غير المألوف أتيح لي وقت فراغ. لذا فقد توجهت للقيام بجولة في المدينة وزرت محلات مكدونالدز بفروعها الكبيرة ثم محل جزارة ومحل لبيع الملابس النسائية وصيدلية. وبدا أن الشوارع والمتاجر تعج بالنشاط ولم تكن البنية الأساسية قد تغيرت. كانت لاتزال في مرحلة تحول. كما أن نوعية السلع في المتاجر هي أفضل النوعيات، وكان مكدونالدز هو الأكثر شعبية، ويخصص خطين أحدهما للبيع بالروبل والآخر بالدولار.

وفي الاجتماع الوزاري واصلنا بحث الحد من التسلح من حيث توقفنا في واشنطن. لكننا نتحرك ببطء هنا. وشعر شيفرنادزة بأنه ملزم بالبدء بقراءة إنجازه عن الحد من التسلح أمام كل أعضاء وفده -كما كان يريد أن يظهر أنه موضع ثقة. ولم يكن مستعداً علي ما يبدو لاتخاذ قرارات أو طرح مبادرات كما كان يفعل في السابق. وكتبت للرئيس بعد مباحثاتي في اليوم الأول إن شيفرنادزة مشغول مشوش من كل شيء. فالمشكلات الإقتصادية وانعدام الثقة العامة، والأحساس بفقدان السيطرة، وقضية القوميات، والقلق بشأن ألمانيا كلها قضايا شديدة الوطأة. وعليك أن تسأل مرة أخري أنه مع مثل تلك المشكلات الضخمة، فيكف ينبغي التفكير في صواريخ كروز التي تطلق من الجو؟ وهل تعتقد حقيقة أن بوسعهم إدارة القضية؟.

كان شيفرنادزة أقل اهتماماً ببحث تطورات الموقف في البلطيق عن مناقشة قضية القوميات الأشمل. وقال: «دعنا نفترض أنه قد يحدث انسحاب ليتوانى من الاتحاد، فماذا

سيحدث؟ ماذا يمكن أن يحدث بعد؟ أنا أقول لك. إن المولدافيين يقولون نفس الشيء ومعهم الجورجيون والأرمن والآذريون والأوكرانيون. وفي هذه الحالة يمكن أن نشهد أسوأ سيناريو. وهذا هو الذي يفرض عليك أن تتخذ موقفاً جاداً ومسؤولاً. فالموقف برمته ليس قاصراً علي أوروبا بل إن آثاره قد تطال أيضاً آسيا والشرق الأوسط، وربما لا تظهر الآثار الآن، ولكن في غضون عشر أو خمس عشرة سنة. ولأنه ينحدر من القوقاز فإن شيفرنادزة يعي تماماً الأبعاد المتفجرة لقضية الأعراق، واعتقد أنه يستشعر توجهات سياسية أبعد مدي عن أي أحد آخر بمن فيهم جورباتشوف. وحاولت الإيحاء بحل. وتساءلت لماذا لا تدعون الجمهوريات تمضي وتتبادل العلاقات فيما بينها مثل العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وفنلندا؟ ولم يرد شيفرنادزة.

واليوم روسيا علي الطبيعة وللخروج من ضجيج وصخب موسكو اصطحبني شيفرنادزة إلي بلدة زاجورسك في رحلة تستغرق تسعاً وتسعين دقيقة بالسيارة من العاصمة، وتفقدنا معهد اللاهوت الأرثوذكسي بالبلدة وقدمني شيفرنادزة إلي كبير أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، وقمنا في لحظة ما بإيقاد الشموع معاً. ووجدتها مفارقة عجيبة أن أشارك في مناسبة دينية مع وزير خارجية دولة تقف ضد الدين. وكنت ألمس علي الدوام أن شيفرنادزة رجل صوفي عميق الإيمان. ولطالما تعجبت كثيراً عما إذا كانت مظاهر الإيمان، مثل الأيقونة التي أهداها إليّ في ويوميننج لم تكن طريقته ليظهر لي أن هناك أموراً مشتركة كثيرة تجمعنا أكثر من السياسة. (في عام ١٩٩٢ جري تعميد شيفرنادزة في موطنه جورجيا).

وفي اليوم التالي أمضيت خمس ساعات مع جورباتشوف. وتحدث باستفاضة عن علاقة موسكو بدءاً والعجز المالي في الاتحاد السوفيتي وألمانيا وليتوانيا خاصة، وأنه كان قد اجتمع لتوه مع كازيميرا برونسكين رئيسة وزراء ليتوانيا التي ينظر إليها السوفيت علي أنها أكثر مسئولية عن لاندسبيرجيس.

وللمرة الأولي خلال اجتماعاتنا أثار جورباتشوف بعض القضايا عن نهجنا الحقيقي تجاه الاتحاد السوفيتي، ورغم إعترافه بأن الرئيس بوش أبدي ضبطاً للنفس يثير الإعجاب.

علي الرغم من الضغوط الداخلية الحادة فقد شعر جورباتشوف أننا اتخذنا بعض الخطوات التي تشير إلي أننا لم نحمل عقولنا تماماً بشأن البيريسترويكا. وقال: «إنني ألمس أحياناً وأنا أتأمل النقاط الحساسة في علاقاتنا أنكم تريدون تنازلات، ربما تكونون تسعون إلي انتزاع ميزة. وكنت في الماضي ألحظ ذلك وأراه . والآن اعتقد أن علاقتنا باتت علي درجة أجدني ملزماً معها بتبادل الرأي معكم».

وأورد أمثلة لذلك أوروبا الشرقية وألمانيا وليتوانيا. وأضاف: «إن لديّ معلومات بأن جانباً من سياستكم يتحرك بدافع من محاولة عزل أوروبا الشرقية عن الاتحاد السوفيتي. إنكم تعرفون أن سياستي تتمثل في أنه إذا سعت تلك الدول للابتعاد عن الاتحاد السوفيتي، وإذا كانت تلك رغبتهم، فليفعلوا ذلك. لكن «لا» إذا كانوا يُدفَعون إلي هذا . وبالنسبة لحصول ألمانيا الموحدة علي عضوية حلف الأطلنطي قال: «إن هذا سيعني تطوراً بالغ الخطورة في التوازن الإستراتيجي، إنه يعني تغيراً في التوازن . وأشار أيضاً إلي الشروط التي أمليناها بشأن المشاركة السوفيتية في بنك التنمية والتعمير الأوروبي كمؤشر علي محاولاتنا لعرقلة الآخرين عن مساعدة الاتحاد السوفيتي».

وعن الجبهة الداخلية مضي قائلاً: «هناك آخرون يقولون إن الاتحاد السوفيتي هو الذي يقدم تنازلات في كل شيء من جانب واحد. وهناك مقاومة قوية لكننا نتحرك قدماً ونتوقع منكم أن تتحركوا قدماً أيضاً وإلا تنتظروا المناشدات».

وقلت: «لسنا كذلك» لكنه قاطعني قائلاً: «أولا علينا أن نجد بعض تفاهمات، أليس كذلك» وخلصت إلي القول: «حسناً. إذا لم تكن هناك تفاهمات في نهاية الطريق فسوف نتعرض نحن الاثنين لمشاكل جمة».

كان لسان حاله يقول علي مايبدو أنه في ساعة الشدة. فإنه لا يريد أن تفقد حياته، وهكذا فإن برنامجه الداخلي مرهون بإنجازاته الدولية. لكن يبدو أن العالم الخارجي ينقلب عليه الآن، وأن جورباتشوف بدأ يظهر كما لو كان عاشقاً هجرته محبوبته، وبات وحيداً في المذبح من دون توقع.

وأوضحت أننا لا نسعى إلي استغلال المشاكل التى تمر بها موسكو، أو دفع أوروبا الشرقية للانشقاق. ونوهت إلي أننا سنجد صعوبة فى تبرير استخدام أموال دافعى الضرائب الأمريكيين لمساعدة تمويل القروض للاتحاد السوفيتى من خلال بنك التنمية والتعمير الأوروبى فى الوقت الذى لايزال الاتحاد السوفيتى يدعم دولاً مثل كوبا وفيتنام وكمبوديا بمبالغ تتراوح ما بين عشرة إلي خمسة عشر مليار دولار سنوياً، ويبقى فى الوقت ذاته على ميزانية إنفاق مرتفعة. فضلاً عن ذلك لم تتقدم موسكو بعد فى تنفيذ برنامج إصلاحى اقتصادى جدير بالثقة.

وقال جورباتشوف: إن الاتحاد السوفيتى سيواجه فجوة كبيرة فى التمويل خلال الأعوام القليلة القادمة، وسوف يحتاج إلي عشرين مليار دولار فى صورة قروض والتمانات، وقال: إنه يريد رمزاً على مشاركتنا فى مساعى الإقراض، واعتقدت أنه يريد ذلك إلي حد كبير حتى يستطيع توضيح مدى النجاح الذى تحققه سياساته فى حمل الولايات المتحدة على المساهمة فى تلبية الاحتياجات السوفيتية. وقال جورباتشوف: إن الأعوام القليلة القادمة ستكون حاسمة. لأن موسكو بسبيلها إلي الانتقال إلي اقتصاد السوق. فهى فى حاجة لشراء السلع الاستهلاكية ومنح استثمارات لتحويل المصانع الحربية للإنتاج المدنى لتخفيف آثار ووطأة التحول الاقتصادى.

وأبلغنى جورباتشوف أنه يتعرض لضغوط مضنية ليصعد إجراءاته ضد ليتوانيا وإخضاع ليتوانيا لحكم رئاسى مباشر. وقال: «لقد تلقيت الكثير من البرقيات من كافة أنحاء البلاد وربما أريها للرئيس بوش».

ولأن ما يقولونه هو احتجاج، كما أنهم يقولون أن الرؤساء الأمريكيين يتحركون بسرعة بالغة لحماية المواطنين الأمريكيين فلماذا لا تتحرك بصفتك رئيساً للاتحاد السوفيتى بسرعة لحماية المواطنين الروس فى ليتوانيا؟، ومع هذا فقد كان مصمماً على إيجاد طريقة سلمية لحل الأزمة. وقال: إن الليتوانيين جعلوا الأمر فى غاية الصعوبة. لكن إذا قرروا تعليق إعلان الاستقلال فسوف يبدأ فى إجراء حوار ويرفع العقوبات على الفور. حينئذ يمكن مناقشة وتسوية كافة القضايا الصعبة مثل العلاقات الاقتصادية فى المستقبل والمنشآت العسكرية

والمطالب الإقليمية في بيلاروس. فإذا كان الليتوانيون يريدون الاستقلال فسوف يقبله طالما جاء عن طريق مفاوضات سلمية.

وكانت برونسكين علي استعداد لتعليق تطبيق قوانين الاستقلال لا إعلان الاستقلال. ولم يكن هذا كافياً من وجهة نظر جورباتشوف. فلن يجبر الليتوانيين علي إلغاء الإعلان فسوف يذلهم هذا الإلغاء إلي حد كبير. لكنه يطلب تجميد الإعلان. ورداً علي سؤالي قال: إنه يعتقد أن برونسكين استوعبت المطلوب وسوف تعود إلي فيلنيوس لإقناع مجلس السوفيت الأعلي في ليتوانيا بالتصرف وفقاً للمطلوب.

والتقيت برونسكين عقب اجتماعي مع جورباتشوف مباشرة. واتخذتُ خطاً متشدداً حول الحاجة إلي الإبقاء علي الإعلان. وفيما طمأنتها علي التزامنا باستقلال ليتوانيا قلت: إن التحدي الماثل أمام الليتوانيين هو اتخاذ خطوات سوف تترجم آمالهم في الاستقلال إلي واقع فعلي. وقلت من دون تقديم نصيحة إن التصرفات سوف تفضي إلي حوار فوري. وسألت أيضاً عما سيخسره الليتوانيون بعدم تقديم تجميد فوري لإعلان الاستقلال. وهو التجميد الذي يمكن إلغاؤه دائماً لو أبدي السوفيت سوء نية.

وقالت برونسكين وزملاؤها: إن تجميد الإعلان سيعني العودة إلي الالتزام بالقوانين السوفيتية. وكنت أري أنه لا يوجد فرق جوهري بين ما يريده جورباتشوف وبين ما يبدي الليتوانيون استعداداً لعمله من الناحية العملية. إلا أن هناك فجوة حقيقية في الرموز. وبدأ شبح الشرق الأوسط يلوح في الأفق حيث الشكل يدمر المضمون باستمرار. وأبلغت الرئيس: «إنه حتي برغم الاجتماع مع جورباتشوف وبرونسكين، فإننا لم نخرج من الأحراش بعد».

واستحوذت ألمانيا علي معظم وقت اجتماعي مع جورباتشوف. وسعيت لإيضاح أننا حاولنا الرد علي القلق السوفيتي. وقد وفرت صيغة «إثنان + أربعة» عملية منحت السوفيت مكاناً علي طاولة المفاوضات نظير أنهم يساهمون في تسوية القضية. فضلاً عن ذلك فإننا نستخدم صيغة «اثنين + أربعة» في توجيه بعض القضايا الأخري إلي منابر أخري، وعلي

سبيل المثال إلي مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا حيث يضطلع السوفيت بدور أيضاً.

والأهم أنني قدمت لجورباتشوف ما أسميناه «الضمانات التسع» تسع خطوات محددة شكلت صفقة شاملة يرغب الغرب في اتخاذها لتبديد القلق الأمني السوفيتي وهي:

١- خفض القوات الألمانية في المعاهدة الثانية لخفض القوات التقليدية في أوروبا.

٢- الإسراع بخطي مفاوضات الأسلحة النووية قصيرة المدي.

٣- ضمان أن الألمان لن يطوروا أو يمتلكوا أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيماوية.

٤- استمرار عدم وجود قوات لحلف شمال الأطلنطي في ألمانيا الديمقراطية لفترة انتقالية.

٥- تحديد فترة انتقالية لانسحاب القوات السوفيتية من ألمانيا الديمقراطية.

٦- الانضمام إلي حلف الأطلنطي بجناحيه العسكري والسياسي.

٧- التوصل لاتفاق حول الحدود الألمانية البولندية.

٨- إقامة مؤسسات وتطوير مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

٩- تطوير علاقات اقتصادية مع الألمان مع ضمان أنه سيتم الوفاء بالتزامات ألمانيا الديمقراطية الاقتصادية تجاه الاتحاد السوفيتي*.

* كنا نعتزم بالفعل اتخاذ كافة تلك الخطوات خطوة خطوة. إلا أننا جمعناها صفقة واحدة وأن نسميها «الضمانات التسع» وقد عززنا أثرها السياسي بإعلامنا الكرملين بأنه سيري آثارها كاملة. وقد وضعتُ الصفقة حتي لاتبدو ألمانيا نفسها في وضع غريب، وحتي لا يبدو السوفيت بصورة المغلوب. وفي المقام الأول فقد كانت محاولة من جانبنا لدعم جورباتشوف والمساهمة في تأطير القضية حتي يجد بحوزته تفسيراً يستخدمه في الداخل.

ودون جورباتشوف عدداً كبيراً من الملاحظات وأنا استعرض القائمة وأبدى موافقته التامة عليها. وفي الوقت نفسه قال: إن انضمام ألمانيا الموحدة إلى حلف الأطلنطي أمر مستحيل. وأشار شيفرنادزة إلي: «أن هذا يعني نهاية البيريسترويكا. وسيقول الناس إننا الخاسرون ولسنا الفائزين». وكان جورباتشوف يعتقد أن مشكلتنا هي أننا أسسنا شيئاً علي فرضية واحدة هي تحديداً أن ألمانيا ستريد البقاء في حلف شمال الأطلنطي وتساءل: «ماذا سيكون الحال لو قالت ألمانيا الموحدة يوماً ما إنها تريد البقاء خارج حلف الأطلنطي؟ وماذا سنفعل حينذاك؟ فلو حدث هذا فسوف نفقد قدرتنا في التأثير علي الأحداث، ولن نبذل أي شيء في الفترة الانتقالية لإعداد وتشكيل النظام الجديد. إن لدينا الآن حقوق القوي الأربع الكبري وعملية الوحدة، وهذا يوفر لنا آلة لعمل شيء ما».

وسألته عما إذا كان يعتقد من وجهة نظره أنه يتعين أن تبقي ألمانيا خارج حلف الأطلنطي؟ وأجاب: نعم إنها خارج ويتعين أن تبقي خارج أي تكتل عسكري.

وسألت: «هل تتحدث عن ألمانيا محايدة؟».

ورد بدون منطق: «لا أدري ما إذا كان يتعين أن أسميها كذلك. قد يجوز أن أسميها غير منحازة».

وقال إنه سيولي القضية مزيداً من الدراسة. لكن دعني أضيف أنه إذا لم نستطع إقناعك بحجتنا حينئذ فسوف أقول للرئيس بوش إننا نريد دخول حلف الأطلنطي. إنك تقول في المقام الأول إن حلف الأطلنطي غير موجه ضدنا، وتقول أنها أوروبا جديدة، فلماذا لا ننضم؟».

وأشرت إلى أن هذا سؤال وجه إليّ في مؤتمر صحفي وقال جورباتشوف: «حسنا. هو إذا ليس سؤالاً افتراضياً. إنه ليس أيضاً سؤالا مستحيلا».

وعدت إلي إحدي خططي الرئيسية: وهو أن ميثاق هلسنكي يكفل حق كل دولة في الدخول في أي تحالفات تراها. إن محاولة الإيحاء للألمان بأن عليهم الانضمام إلي هذا التحالف أو ذاك أو تبني الحياد أو عدم الانحياز سوف يحدد الاختيار لهم. ويهيئ أجواء

الاستياء في المستقبل. وقلت: «إن الاستياء سينجم بسبب محاولة طرف آخر فرض إرادته على الألمان».

وتساءل جورباتشوف: «لكن ماذا سيكون الحال لو أرادوا الانضمام إلى حلف وارسو؟ هل أخلص من كلامكم أنكم ستوافقون لو طلبوا الانضمام إلى حلف وارسو؟».

وأجبت: «بأن ميثاق هلسنكي يكفل لكل دولة الانضمام إلى التحالف الذي تريده».

وقال جورباتشوف: «حسناً. هل أخلص إلى أنه لو أرادت ألمانيا الموحدة الانضمام إلى حلف وارسو سوف توافق الولايات المتحدة؟»

ورددت بالقول: «إن موقفنا هو أن أفضل وصفة للاستقرار تتمثل في ضرورة أن تكون ألمانيا الموحدة عضواً في حلف الأطلنطي. لكن تبقي هذه مسألة يقع اختيارها في يد الألمان في نهاية الأمر».

واختتم جورباتشوف اجتماعنا المنفرد بالقول: «من حيث المبدأ أنكم تؤيدون حرية الاختيار للألمان، وهو حق جوهري في العلاقات الدولية. وهكذا فلو أراد الألمان هذا فسوف تعالجونه بالتفاهم».



وغادرت موسكو يوم الأحد ١٩ أيار مايو بانطباع طاغ بأن جورباتشوف يشعر بأنه مضغوط ومن المرجح أن يرد بقوة على أي تحرك أو خطوة تثير له مشاكل سياسية في الداخل. فالجيش يبدو الآن بشكل خاص مكلفاً بمسألة الحد من التسلح* . لكن ألمانيا في المقام

---

* في أعقاب اجتماع جورباتشوف كنا على وشك الانتهاء من صواريخ كروز التي تطلق من البحر وكروز التي تطلق من الجو وبعيه قضايا ستارت. ولسوء الحظ وبعد أن حصلت على موافقة صريحة من جورباتشوف على تاسيت ريندر حاول الوفد السوفيتي إدخال عدد من القيود الجديدة. (وتاسيت ريندر هو صاروخ كروز يطلق من الجو مزود برأس تقليدية) وانتهى بي الحال بالبقاء يوماً آخر في موسكو لتسوية المشكلة تاسيت ريندر ثم ومن المفارقات الغريبة والسخرية فقد ألغتنا كافة صواريخ تاسيت ريندر في الساحات الأولي لحرب الخليج وهكذا أزلناها باعتبارها إحدي قضايا ستارت.

الأول تريد من الضغوط التي يتعرض لها. وكنت أعتقد أن شيفرنادزة أقل عاطفة ومنطقية عن رئيسه بشأن ألمانيا. لكن بات من الواضح أن كليهما يواجه المشاكل. وأحسست أنهما يقفان فينا وفي القيادة الألمانية، وبدا أحياناً أنهما على وشك قبول ألمانيا في حلف الأطلنطي فقط يجرهما إدراكهما السياسي وذكرياتهما التاريخية إلي الوراء.

وفي ٣٠ آيار مايو وصل جورباتشوف الي واشنطن مع الوفد المرافق لعقد ثاني قمة أمريكية سوفيتية بالولايات المتحدة. وفي اليوم الثاني انضممت إلي الرئيس في غرفة مجلس الوزراء مع مجموعة صغيرة لبحث مسألة ألمانيا. وبدأ الرئيس باستعراض «الضمانات التسع» مرة أخري مع جورباتشوف، وأثار قضية عضوية ألمانيا في حلف الأطلنطي وكان فكر جورباتشوف قد تطور منذ أن التقيته في موسكو لكن بطريق مختلف. فقد كان يعتقد أن ألمانيا يمكن أن تكون عضواً في حلفي وارسو والأطلنطي أو لا تنضم لأي منهما، ولم يكن لهذا أي معني لدي الجانب الأمريكي. لكن جورباتشوف وجه نداءً شخصياً إلي الرئيس. وقال: «إنك بحار وتدرك أن وجود مرسي واحد أمر طيب. لكن من الأفضل وجود مرسيين». وقال الرئيس: «إن موسكو تشعر بشكوك عميقة تجاه ألمانيا بينما لا تشعر الولايات المتحدة بأي شكوك. فألمانيا بلد ديمقراطي حقيقي وصديق جيد للولايات المتحدة ولديها إمكانيات بأن تصبح صديقاً قوياً للاتحاد السوفيتي».

وقال جورباتشوف: «إنه يتفهم المشاعر الألمانية. لكنه استدرك قائلاً لا يمكنني إغفال توجهات شعبي».

وقلت: إن لدينا خططاً بالكشف عن حلف أطلنطي جديد معدل في قمة الحلف في تموز يوليو.

وأكد شيفرنادزة ما اتضح أنه أسلوب الكريملين خلال اليوم، ثم حاول ترويج فكرة انضمام ألمانيا إلي الحلفين. وتدخل جورباتشوف قائلاً: ربما تستطيع أي دولة أن تنضم إلي أي حلف. فقد شارك ستالين وروزفلت وتشرشل في تحالف واحد. ومزح جورباتشوف بالقول ربما. فقد يستطيع الاتحاد السوفيتي الانضمام إلي حلف الأطلنطي. ولم تفلح مزحة الرئيس مع أخرومييف بسؤاله عما إذا كان يريد قائداً أمريكياً.

وبعد مزيد من الشد والجذب العقيم. حاول الرئيس بأسلوب آخر وقال: إنه بموجب مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا فإن لكل الدول الحق في اختيار الحلف الذي تنضم إليه. وقال: وهكذا. فإنه يجب أن يكون بوسع ألمانيا أن تقرر اختيار الحلف الذي تريد الانضمام إليه. وسأل جورباتشوف: أليس كذلك؟.

وقال جورباتشوف: نعم، وهو يومئ بالموافقة.

وكان الرئيس جفلاً كالجميع وقال محاولاً حمل جورباتشوف علي إعادة التأكيد علي موقفه الجديد: «إنني سعيد بأن تبدو أنت وأنا علي اتفاق بأنه بوسع الدول اختيار التحالف الذي تنضم إليه». ورد جورباتشوف «علينا هكذا أن نطرحه علي هذا النحو: إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يؤيدان أن تختار ألمانيا نفسها التحالف الذي تريد الانضمام إليه، بعد التوصل إلي تسوية في مفاوضات إثنين + أربعة.

ولم يكن الرئيس يريد مثل هذه الصيغة المحايدة. وأشار بدلاً من ذلك إلي «أن الولايات المتحدة تؤيد بقوة انضمام ألمانيا إلي حلف الأطلنطي ومع هذا لو اختارت ألمانيا طريقاً آخر فسوف نحترم اختيارها».

وقال جورباتشوف: «أوافق» وبدت صدمة حقيقية لدي عدد من مساعديه لموافقة رئيسهم علي هذه الفكرة التي تعادل عملياً الموافقة علي انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي.

وما لبث أن بدا جورباتشوف ينقل عائداً إلي خطه السابق في الجدل، وتحدث عن الحاجة إلي فترة انتقال طويلة. والتفت إلي شيفرنادزة وطلب منه أن يبحث معي مسألة ألمانيا. وفي تطور غريب تحدي شيفرنادزة جورباتشوف. وقال: إن هذه في المقام الأول قضية يجب أن يعالجها الرئيسان. وأخيراً وبعد أن ضغط عليه جورباتشوف وافق شيفرنادزة علي مضض. وكان تقديري أنه فهم التنازل الذي قدمه جورباتشوف، وأنه لا يريد تحمل مسؤوليته بأي شكل فكاهله مثقل بالأعباء.

وأعتقد أن هناك عدة أسباب لتحول جورباتشوف. أولها، التيقن من أن الوحدة الألمانية تفرض نفسها، وأنها تتجاوز موسكو، وثانيها، أنه كان مفكراً مفرطاً في القانونية والمنطقية ينظر إلي الفجوات المنطقية التي تزيد حرارة حججه. ولكن ثالثاً، كان مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا هو الصيغة المفضلة منذ أمد طويل لدي الكريملين كمؤسسة أمنية، وعندما اعتمد الرئيس علي مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا لشرح خيار الولايات المتحدة بتفضيل حلف الأطلنطي لتنضم إليه ألمانيا الموحدة كان جورباتشوف في موقف صعب لتفنيد حجة اعتمدت علي مبادئ مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا.

وشعرت مع تحقيق إنفراجة في مسألة ألمانيا، أو ربما ما يصفه الكثيرون في الوفد السوفيتي ولاسيما أخروميف بأنه انهيار، إننا قد استعدنا الزخم في العلاقات الأمريكية السوفيتية مرة أخري. لكن من منظور جورباتشوف كان التقدم يقتضي العودة إلي موسكو محملاً بمزايا اقتصادية ملموسة، وهذا يعني الاتفاق التجاري. وأبلغني شيفرنادزة بعد ظهر الجمعة قبل ساعات من مشاركة الرئيسين في حفل التوقيع في القاعة الشرقية: «لا يمكننا العودة إلي الوطن بدون هذا» وكان قد سمع نفس الرسالة من جورباتشوف «إنني أريد هذا». وقال الرئيس بوش «لنمض قدماً ولنفعله» وهكذا طلبت من دينيس روس الاجتماع مع الكسندر بسمرتنيخ لإعداد صيغة. ووافقت عليه أنا وشيفرنادزة، وأدخلناه للرئيسين للتوقيع عليه مما أدي إلي تأجيل مراسم التوقيع في القاعة الشرقية ونحن نعكف علي إعداد التفاصيل.

وأمضينا الرئيس وسكوكروفت وأنا اليوم التالي في كامب ديفيد في بحث القضايا الإقليمية مع جورباتشوف وشيفرنادزة وأخروميف في أجواء سادها الاسترخاء والود. وكان جورباتشوف في حالة ممتازة. وقال مازحاً: «إن شرب القهوة منزوعة الكافيين يشبه لعق السكر من كوب» واندمج وقد شجعته قهقهاتنا بسرعة في مهمة أكثر جدية كان مكانها المناسب رغم طرقها هو مباحثات يجريها ستة رجال في أجواء استرخاء عن نشرها في كتاب عنوانه «الدبلوماسية».

وبحثنا موضوعات تراوحت من كشمير إلي كوبا أو أثيوبيا إلي كوريا الشمالية. وبات من المؤكد كما لو أن قبول جورباتشوف انضمام ألمانيا إلي حلف شمال الأطلنطي وقرار

الرئيس حول الاتفاق التجاري قد عزز علاقتنا إلي درجة متقدمة درجة أكثر تعاوناً ومودة شخصية، وذكرتني المناقشات بالمباحثات التي أجراها الرئيس مع المستشار كول رناتشر - أي التفكير بصوت عال والمقارنات وإقامة علاقات شخصية متينة.

يونيو في كوبنهاجن، تيرنبيري، وبرلين
خطوة للأمام. خطوتان للخلف

بعد ثمان وأربعين ساعة من انتهاء قمة واشنطن التقيت مع شيفرنادزة، وهذه المرة علي هامش اجتماع وزراء خارجية مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا في كوبنهاجن، ويبدو أن القمة قد غيرته. فمع اعتراف جورباتشوف بأن موسكو لن تعارض بعد الآن انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف الأطلنطي إذا كان هذا خيار ألمانيا فقد تطرقت مباحثاتي مع شيفرنادزة إلي بقية القضايا الحساسة المرتبطة بالوحدة. وكان أهم ما في المباحثات هو تغيير موسكو لموقفها تجاه القوات المسلحة الألمانية. ففي البداية كانت موسكو تريد تحديد مستوي القوات الألمانية في مباحثات «اثنين + أربعة» ولكن في ٢٣ آيار مايو غيرت موسكو موقفها عندما اجتمع شيفرنادزة مع جينشر وأبلغه بأن القضية ستحال إلي مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا. والآن أبلغني شيفرنادزة بأن السوفيت علي استعداد لقبول التزام ألماني من جانب واحد خارج إطار مفاوضات خفض القوات التقليدية في أوروبا. كان هذا انفراجاً أردت إبلاغ هانز ديتريش جينشر به علي الفور رغم تأخر الوقت ليلاً . وبعد الاتصال بالعاملين مع جينشر توجهت إلي الفندق الذي ينزل به لأبلغه بالموقف السوفيتي الجديد. واستبد به السرور رغم اضطراره لترك سريره.



ومن كوبنهاجن توجهت إلي تيرنبيري- اسكتلندا، وهي منتجع لممارسة رياضة الجولف تقام فيه بطولة بريطانيا المفتوحة للجولف المشاركة في اجتماع مجلس حلف الأطلنطي.

وانتهزت الاجتماع لتدعيم موافقة الحلف لموقفنا تجاه الوحدة الألمانية، وتهيئة الأساس لقمة لندن التي لم يتبق عليها سوي شهر واحد. وفي الوقت ذاته كان حلف وارسو يجتمع في موسكو. وفي إشارة لا تخطئها العين موجهة لنا جاء في بيان الحلف أن الدول الأعضاء تُقَيِّمْ بشكل إيجابي «بعض الخطوات التي اتخذها مؤخراً حلف شمال الأطلنطي. ونتوقع أن يتم تعميق والإسراع بالتوجه الجديد للتغيير في حلف الأطلنطي*».

وفي ١٢ حزيران يونيو اتصل بي جينشر ليطلعني علي نتائج أحدي زياراته لموسكو. وقال: إن الألمان وعدوا بمنح كمية كبيرة من النقد لمساعدة موسكو في سد العجز المالي: خمسة مليارات دولار الآن ثم عشرين مليار دولار لاحقاً. وكان يعتقد أن موقف جورباتشوف حول الأطلنطي بات الآن «نعم لكن» بينما كان موقفه من قبل «لا». لكن جينشر يعتقد أنه من الضروري أن يظهر حلف الأطلنطي أنه يتغير. ووافق وقلت: إننا نتطلع لإنجاز ذلك في قمة لندن.

وبعد عشرة أيام انضممت إلي خمسة وزراء آخرين للمشاركة في احتفال بإزالة نقطة تفتيش تشارلي -- أو علي حد تعبير دوجلاس هيرد: «ها نحن أخيراً نزيل تشارلي من أساسها». فعلي مدار تسعة وعشرين عاماً وقفت نقطة تشارلي رمزاً صارخاً لعالم مقسم. فقد أطلقت النار علي ثمانية أشخاص أثناء محاولتهم الهروب عبر نقطة التفتيش تلك، وتمكن عشرون ألمانياً شرقياً علي الأقل من الهرب منها. الآن ومع قيام رافعة بإزالة المبني الصغير الذي كان يشكل نقطة عبور تشارلي، كانت إزالة النقطة يمكن أن تصبح رمزاً لوحدتنا أو هكذا اعتقدت.

---

* وعد الرئيس في خطاب ألقاه في ٤ آيار مايو باستضافة مؤتمر سياسي أكبر علي حلف شمال الأطلنطي، ودار الكثير من الحديث حول تكيف حلف شمال الأطلنطي الواقع الجديد في الدوائر الدبلوماسية الأوروبية.

(ومالبث تفاؤلى أن تبدد لدي وصولنا إلي قصر نيدرشونهاوزن فى منطقة بانكوف فى برلين الشرقية المشاركة فى جلسة إثنين + أربعة. وقدم شيفرنادزة مداخلة أربكت تماماً كل التقدم الذى أنجزناه خلال الشهر الماضى مشيراً إلي إن هذا اليوم ٢٢ حزيران يونيو يوافق الذكري الأربعين للهجوم «الفاشى» علي الاتحاد السوفيتى. ويدعو الاقتراح السوفيتى إلي «الإبقاء علي حقوق القوي الأربع الكبري بعد إعادة توحيد ألمانيا وتحديد فترة انتقالية مدتها أربع سنوات تتوزع ألمانيا الموحدة خلالها بين حلف الأطلنطى وحلف وارسو، وتحديد حد أقصي للقوات المسلحة الألمانية كما ونوعاً إضافة إلي مجموعة أخري من القيود.

وأثناء مداخلة شيفرنادزة مررت ملاحظة إلي جوليك متسائلاً فيها: ماذا يعنى هذا؟ وجاء رده: «إنه تحريف للحقيقة. لكنه ليس علي يقين تام». وفى ضوء الوضع السياسى الذى تسوده الفوضى فى موسكو لم نكن علي ثقة بأنه لم تحدث ردة ضد الإصلاحيين.

وقلت بوضوح تام عند بدء مداخلتى: «إن السيادة الألمانية أقوي من أى شيء» لكن بدلاً من أن أقوده إلي هناك مباشرة أرسلت بوب زوليك ودينيس روس للإعداد لنقاط مباحثات جديدة لما سيكون أصعب اجتماع من نوعه. ولمكم دينيس روس الخناق علي سيرجى تاراسينكو عقب انتهاء الاجتماع. وقال: إن هذه ردة كاملة. إنكم مراوغون. ما هذا الجحيم الذى نعيشه؟

وقال تاراسينكو: إن الوثيقة التى عرضها شيفرنادزة هى وثيقه للمكتب السياسى وقد تجاوزتها الأحداث. لكن لا يمكن العدول عنها قبل مؤتمر الحزب وسوف تجمد كافة التحركات حتى ١٥ تموز يوليو مع انتهاء مؤتمر الحزب وأصدر شيفرنادزة توجيهاته لتاراسينكو بالموافقة علي الأفكار التى تتوافق مع فترة بعد الخامس والعشرين من تموز يوليو.

وفى وقت لاحق من الليل توجهت إلي مقر إقامة السفير السوفيتى للقاء شيفرنادزة، وبادرت بالتساؤل: «ماذا حدث بين كوبنهاجن وبرلين؟ إن الورقة التى عرضتها هنا تميل إلي وضع ألمانيا فى موضع فريد للغاية. إنها بسبيلها إلي فض العملية. إنها تشكل قيداً علي السيادة. إننى أجد لزاماً علىّ القول إن الأمور تبدو تكوصاً مأساوياً عما تفاهمنا عليه فى

كوبنهاجن لدرجة أود معها أن تفسر لي ما يحدث. فبوسعي التعامل مع الصورة الحقيقية لكنني في حاجة لأعرف ما هي».

وأكد شيفرنادزة قائلاً: «دعني أقل لك صراحة إنه في إعداد مشروع الوثيقة تلك راعينا الموقف الداخلي. فالمزاج العام في البلد لا يتشكل لصالحنا. وعدم وضع هذا في الاعتبار ليس غير معقول فحسب. بل إنه غير مسؤول».

ومضي إلي القول: «إن هناك عاملاً معنوياً ونفسياً وسياسياً تعين وضعه في الحسبان. إننا في حاجة يمكننا معها إبلاغ شعبنا بأننا لا نواجه تهديداً رئيسياً من ألمانيا ولا من الولايات المتحدة ولا من حلف شمال الأطلنطي. لقد أدلي وزير دفاعكم مؤخراً بتصريح حول خفض الانفاق الدفاعي في العقد الحالي. إن مثل تلك المقتربات تساهم في توضيح أننا لا نخوض غمار مواجهة عسكرية بنفس الطريقة مع الولايات المتحدة بعد الآن».

ورددت «إننا نعي تماماً القيود السياسية المفروضة عليكم. ونحن ندرك أيضاً مدي حاجتكم إلي تفسير سياسي ما بغرض الاستهلاك المحلي. وهذا هو السبب الذي حدا بي إلي طرح الضمانات التسع». وقلت لشيفرنادزة: إننا نقترح إقرار إعلان في قمة لندن لحلف شمال الأطلنطي يؤكد تكيف الحلف مع عالم جديد شديد الاختلاف. وأبلغته أيضاً في هذا الصدد بقرارات الرئيس الأخيرة حول مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا بما في ذلك الموافقة علي سكرتارية صغيرة ومركز للحد من الصراعات. وأشارت جميعها إلي مدي جديتنا في تحويل مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا إلي مؤسسة، والتزامنا تجاه أوروبا جديدة تضم الجميع.

وبينما كنت أعتقد أن جورباتشوف وشيفرنادزة يلتزمان موقفاً دفاعياً علي الصعيد الداخلي، ويحتاجان إلي ستار في قضية ألمانيا كنت أشعر أيضاً أنهما يحركان الأمور حتي يريا ماذا يستطيعان أن يحصلا عليه من الولايات المتحدة والتأكد من أنهما يستطيعان التأثير علي الرأي العام، وكنا نشعر دائماً بالقلق من أن السوفييت سوف يحاولون دائماً إجبار الألمان علي الاختيار بين الوحدة وحلف الأطلنطي. ولذا فقد حاولت إرساء معلم واضح من جانبنا. وقلت في النهاية «سوف تتوحد ألمانيا، وإننا مستعدون مع الآخرين لمنح ألمانيا السيادة التي

تستحقها والتي يجب الحصول عليها». ولم أشأ أن يعيش في أي وهم. «فإذا تحون ممارسة الضغط فسوف نعترف بألمانيا موحدة في حلف شمال الأطلنطي رغم الاعتراضات السوفيتية» «قد يكون من الصحيح أن لكم مصالح أكثر تأثراً بشكل حيوي من أي أحد آخر. لكن دعني أقل لكم إننا أيضاً لنا مصالح».

وقال أربع مرات: إن إعلان لندن سوف يشكل حرجاً بالغاً لقدرة الإصلاحيين علي تفسير موقفهم في قضية ألمانيا. وأكد أن ذلك يعود في جانب منه إلي أن إعلاننا سيصدر أثناء انعقاد مؤتمر الحزب، وقد يؤثر ليس فقط علي الموقف السوفيتي تجاه قضية ألمانيا. بل أيضاً علي وضع جورباتشوف السياسي.

كان شيفرنادزة محاصراً بدرجة لم اشهده فيها من قبل. «فالموقف السياسي الداخلي يمسك بخناقه تماماً». وعندما سألته عن وضع جورباتشوف كسكرتير عام قال إنه لا يسعه التنبؤ به. ورغم قوله إنه يثق في قدرة جورباتشوف علي البقاء لو أراد فلم يكن واثقاً من أن هذا سوف يحدث. واستمر في التأكيد علي مناخ الأزمة السائد في موسكو، ولمحت إجهاداً هائلاً علي وجهه.

وبرغم هذا كانت هناك أنباء جيدة نتيجة اجتماعاتي مع شيفرنادزة في برلين. كان متفائلاً تجاه البلطيق. فقد توجه زعماء البلطيق إلي موسكو للمشاركة في اجتماع المجلس الفيدرالي، واعتبر شيفرنادزة أن هذا مؤشر إيجابي علي جديتهم، ولم يشعر بالقلق تجاه بطء تحرك برلمان ليتوانيا. حيث قال: إن هناك استعداداً للعمل ومعالجة للقضايا. إن هذه قضية تظهر علي الأقل أنها قضية خلافية، وأن موسكو وفيلنيوس يتحركان علي ما يبدو تجاه مفاوضات سلمية لتسوية الخلافات. (وفي الواقع قررت موسكو رفع الحظر في ٣٠ حزيران يونيو).

تموز يوليو فى لندن:

حلف أطلنطى جديد ونهج سوفيتى جديد

فى آيار مايو بدأنا الاستعداد تفصيلاً لقمة لندن. وأعد موظفو مجلس الأمن القومى بالتعاون الوثيق مع مجموعة صغيرة من المساعدين فى وزارتى الدفاع والخارجية مشروع إعلان بليغ موجز يتضمن عدة مبادرات مثيرة بما فى ذلك إعلان أن الأسلحة النووية «هي اسلحة الملجأ الأخير حقيقة» . وإزالة المدفعية النووية الأمريكية، واقتراح استراتيجية دفاعية جديدة تسعي إلي تحقيق مزيد من الخفض للقوات التقليدية فى أوروبا فى المعاهدة الثانية ودعوة الخصوم السابقين إلي فتح مكاتب اتصال بحلف شمال الأطلنطى، وتعزيز منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا بإضفاء الطابع المؤسسى عليها.

وفى ١٩ حزيران يونيو انضممت إلي ديك تشينى وكولين باول بمكتب برينت سكوكروفت لمراجعة نص الإعلان، ووافقنا علي مشروع الإعلان مع إضافة بسيطة – تتمثل فى فقرة يتعهد فيها حلف شمال الأطلنطى بعدم الاعتداء، ويدعو حلف وارسو إلي التعامل بالمثل. وذلك إلي جانب عدد من التنقيحات الطفيفة.

كان مشروع الإعلان يضم اثنتين وعشرين فقرة فى صورة مثالية طبق الأصل للإعلان السياسى البليغ الموجز الذى سيكون له أثر بالغ في موسكو. لكن علينا أولاً أن نحصل علي موافقة الأعضاء الخمسة عشر الآخرين فى حلف الأطلنطى.

وسيراً علي التقاليد قررنا الإبقاء علي نص مشروع الإعلان طى الكتمان، وأن يرسله الرئيس إلى نظرائه رؤساء الدول قبيل أيام من القمة حتي يتاح التفاوض حوله من جانب الرؤساء ووزراء الخارجية فى القمة نفسها. ولحلف الأطلنطى بيروقراطيته مثل أى مؤسسة أخري ولا يسعنا تحمل السماح للبيروقراطيين بتنقيح وثيقة سياسية حساسة. فضلاً عن ذلك لم نكن نريد حدوث أى تسريب. فقد كنا نريد إحداث الأثر السياسي بكل ثقله ولأقصي حد فى موسكو عند صدور الإعلان فى النهاية. ويعنى هذا انتهاج هذه الاستراتيجية غير العادية التى تنطوى علي مخاطرة.

وأخيراً وفي ٢١ حزيران يونيو بدأ الرئيس في توزيع مشروع الإعلان علي نظرائه. وجاء رد الفعل إيجابياً باستثناء مارجريت تاتشر والفرنسيين، وعندما التقيت دوجلاس هيرد في بروكسل عشية القمة في ٤ تموز يوليو قال: إن تاتشر غير سعيدة بالمرة خاصة تجاه عبارة «الملجأ الأخير» وأبلغته بأننا نشعر أنه من الضروري إدراج نص «الملجأ الأخير» لأن حدوث تغير في الاستراتيجية النووية سيكون له وقع يفوق أي شيء آخر ليظهر للسوفيت أن العالم يتغير. وأكد هيرد أن رئيسة الوزراء لاتريد خوض معركة مع الرئيس لكنها لا تشعر بالارتياح تجاه هذا النص.

وفي اليوم التالي انضممنا إلي الزعماء المشاركة في القمة، ومن الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حتي الساعة السادسة والنصف بعد الظهر عملت مع زملائي وزراء الخارجية في حلف شمال الأطلنطي، وساورني القلق في بعض الأوقات من أن المفاوضات لن تحرز أي تقدم. وقلت: «أيها السادة، إننا مضطرون القول لحظة ما إنه يجب علينا أن نواصل مراقبة الكرة. إن سبب اجتماعنا والسبب الذي يدعونا إلي العمل لإقرار هذا الإعلان هو توحيد ألمانيا. ولسنا في حاجة إلي تخفيف هذه الوثيقة. فلدينا هدف واحد. إننا نعيش زمناً مختلفاً. «إن هذا ليس عملاً عادياً». وللأسف كان عملاً عادياً بالنسبة للفرنسيين كالعادة حين اعترض رولان دوما علي كل شيء تقريباً، وبينما نحن ننفض لحضور عشاء رسمي مع الملكة ورؤساء الدول اتفقنا علي العودة للاجتماع في الساعة العاشرة والنصف، وأخيراً وفي الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل وفي ملابسنا نصف الرسمية انتهينا من الاجتماع وبقي جوهر الإعلان سليماً لم يمس.

ومن لندن توجهنا جواً إلي هيوستون لاجتماع القمة السنوي لمجموعة السبع. ووافقنا في القمة علي تكليف صندوق النقد الدولي بإجراء دراسة جادة للاقتصاد السوفيتي بهدف إرساء الأساس للمعونة الغربية، وأوضح كول أن الألمان سوف يقدمون من جانب واحد حجماً هائلاً من المعونة لموسكو.

وفي الوقت ذاته انعقد مؤتمر الحزب الشيوعي في موسكو، وتعرض جورباتشوف لانتقادات حادة لكنه صمد. وفي منتصف دورة الحزب ظهر دوي إعلان لندن الذي نشر

نصه كاملاً في صحيفة نيويورك تايمز. ومع صدور أدلة أولية ملموسة علي تغير حلف الأطلنطي، وتعزيز هياكل الأمن الأوروبي استطاع جورباتشوف وشيفرنادزة دحض المحافظين*.

وبعد أسبوع كنا نتزود بالوقود في مطار شانون بإيرلندا في طريق عودتنا إلي باريس لحضور اجتماع وزراي آخر لصيغة «إثنان + أربعة» سيتبين أنه غير موات تقريباً. وأبلغني عدد من الصحفيين المرافقين أنهم انتهوا لتوهم من مراجعة مكاتبهم، وعلموا أن السوفيت والألمان توصلوا لاتفاق. فقد أصدر جورباتشوف وكول في اجتماعهما في ستافروبول مسقط رأس الزعيم السوفيتي بياناً مشتركاً أقرا فيه باستعداد السوفيت لقبول انضمام ألمانيا الموحدة إلي حلف شمال الأطلنطي. واتفقا علي تحديد قوام القوات المسلحة الألمانية بـ ٣٧٠ ألف جندي في إطار خفض القوات التقليدية في أوروبا وتكفل هذا بحل كافة القضايا المتبقية في الملاقات الألمانية السوفيتية، وأعلن الجميع أن هذه «انفراجة تاريخية» فقد تم حل «أبو الأسئلة» كما وصفه شيفرنادزة قبل خمسة أشهر، وفي اللحظة النهائية الحرجة وبعد أسابيع قلائل واجهنا سؤالاً عويصاً آخر. بل قضية عاصفة.

---

* «ساعدنا شيفرنادزه أرسلت له مشروع الإعلان على أمل أن يدفع الإصلاحيين خطوة متقدمة على الرجعيين مع اختتام جلسات مؤتمر الحزب. وفي وقت لاحق من الشهر أبلغني شيفرنادزه بأنه بدون الإعلان لكان من الصعوبة البالغة بمكان بالنسبة لنا اتخاذ قرار بشأن ألمانيا... إذا قارنت ما تقوله لكم ونقول الآن بوثيقة يراهن الظهر كالليل والنهار. إنه حقيقة مثل السماء والأرض»

الفصل الخامس عشر

إرهاصة الغزو

تعتمد الحرب على التفاعل بين الإمكانيات والاحتمالات على حسن أو سوء الحظ. فلا دور على الإطلاق للظروف التي يسود فيها تفكير منطقي بحت.

من أقوال كلاوزفيتز* عن الحرب

توجهت إلى العراق وأجريت نقاشاً مطولاً حول هذه القضية مع الرئيس صدام حسين. وأعتقد أنه معني بتسوية هذه القضية وليست لديه نية لمهاجمة الكويت أو أي طرف آخر

الرئيس المصري

حسني مبارك

٢٥ تموز يوليو ١٩٩٠.

لن يحدث شيء.

الملك حسين

عاهل الأردن في حديث هاتفي مع الرئيس بوش

في ٢٩ تموز يوليو ١٩٩٠

* كارل فون كلاوزفيتز (١٧٨٠ -١٨٣١) جنرال بروسي ولد في بورج، وتقدم في الجيش البروسي وتولى قيادة مدرسة الجيش البروسي ورئاسة الأركان في حملة بونابرت. أهم مؤلفاته التي نشرت بعد وفاته هي مؤلفه بعنوان «عن الحرب» الذي عرض فيه فكرة الحرب الشاملة وهي نظرية عسكرية ثورية أثرت تأثيراً بالغاً في ألمانيا وغيرها. توفي متأثراً بالكوليرا في بروسلاف. (المترجم).

بعد شهر واحد من خطبتى لمارى ستيورات استعداداً للزواج كنت أقطع مسافة الثلاثين ميلاً التى تفصل واشنطن عن كوانتكو بفيرجينيا حيث كنت ضابطاً برتبة ملازم فى فيالق مشاة البحرية على وشك إتمام فترة التدريب الأساسى للضباط ومدتها ستة أشهر. وتبعد كوانتكو مسيرة ساعة بالسيارة عن عاصمة الولايات المتحدة وجال بخاطرى أنه ربما لا تلوح لى الفرصة مرة ثانية على الإطلاق لأكون شاهد عيان لتنصيب رئيس أمريكى.

وبينما نحن نسلك شارع بنسلفانيا غير بعيد عن مقر الكونجرس اقترب منا على نحو غير متوقع مدير تنفيذى بإحدى الشركات الكبرى، وكما تبين اتضح أن ابنه أحد أفراد مشاة البحرية الأمريكية فى كوريا، وقد أثار زيى العسكرى اهتمامه. وكان الرجل يحتفظ بتذكرتين إضافيتين لدخول استعراض التنصيب، وسأل لو كنا نريدهما. وشكرناه على كرمه واتجهنا صوب المقعدين المخصصين فى المنصات المؤقتة المقامة على جانبى شارع بنسلفانيا الذى كان يعج بالإثارة التى أنستنا برودة بعد الظهر. كان المقعدان فى موقع متميز مباشرة فى مواجهة منصة الشرف أمام البيت الأبيض. ولازلت احتفظ بالأوشحة الملونة التى تسلمناها بمناسبة الاستعراض.

وبعد نحو أربعين عاماً فى الثامن من حزيران يونيو ١٩٩١ وجدت نفسى أجلس – فى وضع لم يخطر على بالى – فى منصة أخرى أساهم فى الاحتفال بنصر أمريكى مؤزر آخر، بانتهاء الحرب فى الخليج. وتجمع أكثر من ثمانمائة ألف جندى أمريكى على إمتداد الطريق تكريماً لتضحيات الخمسمائة وخمسين ألف جندى الذين شاركوا فى الحرب والثلاثمائة وتسعين جنديا الذين قتلوا فى حملة تحرير الكويت من الاحتلال العراقى الوحشى. وشارك فى العرض العسكرى تسعة الاف جندى يمثلون مختلف أفرع القوات المسلحة الأمريكية بقيادة الجنرال شوارتسكوف قائد عملية عاصفة الصحراء. وبينما سار طابور العرض بفخار عبر شارع كونيستيتيوشن تحلق فوقه تشكيلات من الطائرات الحربية بدءً من طائرات الشبح المقاتلة إف ١٧ حتى طائرة النقل العملاقة سى٥. غمرنى شعور بالامتنان لقيامى بدور فى واحدة من أكثر اللحظات إثارة للكبرياء الوطنى فى التاريخ العسكرى والدبلوماسى للولايات المتحدة. وتذكرت الكلمات التى افضى بها لى ديك تشينى فيما الرئيس يلقى كلمته أمام جلسة

مشتركة لمجلسي الكونجرس وسط تصفيق حاد قبل ثلاثة أشهر فقط: «بيكر، ليس هناك أروع من هذا».

واتسمت اللحظة بقدر لابأس به من السخرية، فقبل ثمانية عشر شهراً عندما تولي الرئيس مهام منصبه كان يستعصى علي الفهم أن الولايات المتحدة ستخوض حرباً ضد العراق. فبعد ثمانى سنوات من القتال الضارى مع إيران كان صدام حسين يرأس بلداً مستنزفاً معنوياته فى الحضيض. فالصناعات العراقية دُمرتْ والمدن خُربتْ من جراء الأضرار التى أحدثتها المئات من صواريخ سكود الإيرانية. وسقط أكثر من نصف مليون قتيل من سكان العراق البالغ عددهم ١٨مليون نسمة فقط. وبالقطع لم يدر بخلد أحد منا أن هذا البلد الذى سعت أمريكا لخطب وده يمكن أن يجيش الجيوش ليضع العالم علي طريق الحرب فى آب أغسطس عام ١٩٩٠م.

الميل ناحية العــراق

استندت السياسة الأمريكية تجاه العراق التى ورثها الرئيس بوش من إدارة ريجان علي التصميم علي إجهاض الطموحات التوسعية للحكومة الثورية فى إيران. فحلم آية الله الخميني بنشر الأصولية الإسلامية الراديكالية فى مختلف أرجاء الشرق الأوسط كان يُنْظَرُ إليه بكل صواب علي أنه تهديد حقيقى خطير للاستقرار الإقليمي والمصالح الاستراتيجية الأمريكية. فإذا هدد المد الأصولى النابع من طهران الحلفاء الرئيسيين لأمريكا مثل إسرائيل ومصر والعربية السعودية فسوف تسقط المنطقة بأسرها فى هاوية الاضطراب. الأمر الذى يعرض للخطر التدفق المطرد لإمدادات البترول للغرب، ويزيد فرص نشوب حرب جديدة فى الشرق الأوسط.

وكان لقرار احتواء إيران أبعاد سياسية وعاطفية أيضاً. وساهمت أزمة الرهائن فى إيران عام ١٩٧٩ إلي حد كبير فى انتخاب رونالد ريجان عام ١٩٨٠ وأصبح عجز جيمى كارتر

عن ضمان الإفراج عن الدبلوماسيين الأمريكيين الذين احتجزتهم إيران ولمدة ٤٤٤ يوماً مرادفاً لشلل الرئاسة وانحسار القوة الأمريكية في مختلف أنحاء العالم. وبما أننا كنا المستفيدين انتخابياً من هذه الفترة التعسة في تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، وبما أننا شهدنا أيضاً العواقب الوخيمة لفضيحة إيران كونترا عام ١٩٨٦ كنا علي إدراك تام بالقدرات المدمرة لآية الله الخميني علي السياسة الداخلية.

وقبل أربعة أشهر من تولي الرئيس ريجان السلطة قام العراق بغزو إيران مشعلاً حرباً استغرقت ثمانية أعوام لتنتهي بالجمود وتدمير البلدين. وهيأت الحرب لإدارة ريجان وسيلة ملائمة لاحتواء إيران ومساعدة العراق. ومع نهاية عام ١٩٨٢ خلص الرئيس ريجان إلي أن المصلحة القومية تقتضي تطوير العلاقات مع العراق. وفي عام ١٩٨٣ وبعد تنصل صدام من الإرهابي الشهير أبو نضال قررت إدارة ريجان رفع اسم العراق من قائمة الدول التي ترعي الإرهاب. وبعد عام استؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين بعد قطيعة استغرقت سبعة عشر عاماً. وفي غضون نفس الفترة بدأت الولايات المتحدة في تقديم ضمانات قروض مكنت بغداد من شراء حبوب أمريكية. وخلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية تم تزويد العراقيين بالمعلومات الاستخبارية العسكرية، وفي عام ١٩٨٧ عندما بدأت إيران في مهاجمة ناقلات النفط علي أمل حرمان العراق من عائداته المساهمة من صادرات النفط قررت الولايات المتحدة «رفع العلم الأمريكي» علي الناقلات المحايدة ونشرت سفناً حربية في الخليج لحمايتها من الاعتداءات الإيرانية.

وعندما انتهت الحرب العراقية الإيرانية في آب أغسطس عام ١٩٨٨ كانت إدارة ريجان في أشهرها الأخيرة. وقرر الرئيس ريجان ترك أي عملية وإعادة تقييم جادة حول السياسة الأمريكية تجاه الخليج إلي خلفه. وبالتالي فقد أمر الرئيس بوش بإجراء مراجعة استراتيجية بعيد أداء اليمين الدستورية. وانتهت مراجعة تمهيدية في نيسان إبريل ١٩٨٩ لكن إقرارها بصفة نهائية تأجل إلى تشرين الأول أكتوبر.

وخرج العراق من الحرب في حالة عسر شديد. فقد انهار الاقتصاد العراقي بالفعل ودمر الكثير من المدن العراقية وتحول الجانب الأعظم من البنية الأساسية إلي أطلال. وكان صدام

فى حاجة ماسة إلي المال لتعمير بلاده المدمرة الأمر الذى يقتضى إقامة علاقات ودية ليس مع الدول العربية الغنية فحسب بل مع الدول الغربية أيضا.

وكان جيران صدام وخاصة مصر يشعرون بالامتنان له لصده الخطر الإيرانى. واعتقدوا أنه سينصرف بعد الحرب إلي عملية الإعمار الداخلى وشجعوا الولايات المتحدة علي استمالته. وكان حلفاؤنا الغربيين وخاصة الفرنسيين والألمان أكثر اهتماماً ببيع التكنولوجيا لا بإقامة الحواجز. وكان السوفيت لا يزالون قوة عظمي وصدام حليفهم الرئيسي. وفي ضوء البيئة الدولية والإقليمية السائدة حينئذاك لم يكن أمام الولايات المتحدة سوي انتهاج سياسة الاحتواء المزدوج ضد إيران والعراق لتعمل وفقاً لآلياتها الذاتية. ولم تؤت هذه السياسة مفعولها.

وفى ذلك الحين كنا نري فى العراق حليفاً عربياً مفيداً محتملاً فى تحريك عملية السلام المحتضرة فى الشرق الأوسط. وكنا نفترض أن عراقا أقل إنقساماً سيكون مفيداً إلي حد ما لعملية السلام. وعلي العكس كنا نعتقد أنه لو اختار العراق فإن بوسعه تشجيع الفلسطينيين والتأثير عليهم وأردنا إختبار اقتراح أن العلاقات السياسية والاقتصادية الوثيقة مع العراق ربما تقنعه بألا يكون حجر عثرة. وتشجعت أنا شخصياً بهذه الفكرة ليس فقط عن طريق عدد من زعماء الشرق الأوسط. بل أيضاً بواسطة بعض أفضل أصدقاء إسرائيل ومنهم عضو جمهورى بمجلس الشيوخ طلب منى بشكل خاص استمالة العراق.

وفى الوقت ذاته كانت إدارتنا تخوض صراعاً فى واحدة من أكثر فترات التغيير الجذرى فى تاريخ العالم. وشكل انهيار الاتحاد السوفيتى وتفكك حلف وارسو وتوحيد ألمانيا أعظم تغير فى البيئة الاستراتيجية منذ اختراع القنبلة الذرية. وأُنفِقَ الكثير من الوقت والاهتمام فى عملية السلام فى الشرق الأوسط والتطورات فى أمريكا الوسطي والأحداث المفاجئة مثل مذبحة المنشقين فى ميدان تياناتمين فى حزيران يونيو فى بكين. وفى تلك البيئة حينئذاك لم يكن أياً منا يعتقد أن السياسة الأمريكية تجاه العراق تمثل أولوية ملحة. ولم تدر بخلدى أو بخلد الرئيس. ولم تكن مراجعة إدارتنا للسياسة السابقة تجاه العراق بعيدة عن

الاعتبارات الاقتصادية الداخلية. ومنذ البدايات الأولي لإدارة ريجان توسعت سياسة ضمانات القروض للعراق لاستيراد الحبوب بشكل مذهل. وكانت شركة الائتمانات السلعية التابعة لوزارة الزراعة تقدم أكثر من مليار دولار كضمانات قروض في العام للعراق لشراء مواد غذائية أمريكية. ومع عام ١٩٨٩ أصبح العراق تاسع أكبر مشتر للمنتجات الزراعية الأمريكية. وحظيت هذه البرامج بشعبية طاغية في الكونجرس ولدي السياسيين المسؤولين عن الزراعة.

وغني عن القول أن سجل العراق في تسديد هذه القروض كان نظيفاً. فلو أننا حاولنا عزل العراق لحرمنا الشركات الأمريكية أيضاً، وخاصة الشركات الزراعية من فرص تجارية مهمة. ولوحدث هذا لتعرضنا بالتأكيد لانتقادات من المؤيدين المتحمسين في الكونجرس مثل الديمقراطي جاك بروكس من تكساس وشارلي روز من نورث كارولينا وكلاهما سيصبح منتقداً قوياً لكل السياسات التي سبق وأيداها بشدة.

وعلي مدي الأشهر الستة التالية لم تكن السياسة نحو العراق في بؤرة التركيز. ومع ذلك وقع الرئيس في ٢ تشرين الأول أكتوبر ١٩٨٩ توجيه مجلس الأمن القومي٢٦(Nsd26) بتحديد السياسة الأمريكية في الخليج.

وفيما يتعلق بالعراق خلص التوجيه إلي أن: «العلاقات الطبيعية بين العراق والولايات المتحدة سوف تخدم مصالحنا طويلة الأمد وتعزز الاستقرار في الخليج والشرق الأوسط. وكوسيلة لاختبار فرضية أن علاقات الصداقة ربما تدفع العراق إلي تهذيب سلوكه تجاه قضايا مثل الإرهاب وحقوق الإنسان وإنتاج الأسلحة الكيماوية والبيولوجية أبدينا استعدادنا للتوسع في «الحوافز السياسية والاقتصادية» مع بغداد. وفي هذا الصدد اتفقنا «علي مواصلة السعي لتسهيل الفرص أمام الشركات الأمريكية للمشاركة في إعمار الاقتصاد العراقي».

وتضمن التوجيه صراحة سياسة الحرمان من الحوافز لو لم تنجح. ولم تتملكنا أية أوهام بشأن وحشية صدام مع شعبه أو قدرته علي تصعيد التوتر مع جيرانه وفي حينه أقررنا

جميعاً أنه من المحتمل تماماً أن أي ثواب ستقدمه له سيفشل في تحقيق النتيجة المرجوة، ولو حدث هذا فقد نص التوجيه ٢٦(Nsd26) علي «قطع أو خفض مستوي علاقتنا». ونوه التوجيه إلي «أنه ينبغي على القيادة العراقية أن تعي أن أي استخدام غير مشروع للأسلحة الكيماوية أو البيولوجية سيؤدي إلي فرض عقوبات اقتصادية وسياسية سنسعي في سبيل تطبيقها إلي الحصول علي كل تأييد ممكن من حلفائنا وأصدقائنا». وغابت هذه المرونة في التحول السريع من الحوافز إلي الحرمان منها عن الكثيرين. لكنها كانت في الحقيقة أحد العناصر الرئيسية للاستراتيجية.

وكان من المفيد للغاية استطلاع إمكانية أن العلاقات الأفضل قد توقف الإنتشار النووي وتجلب منافع اقتصادية وتعزز احتمالات التوصل إلي سلام بين العرب وإسرائيل. وعلي نفس القدر من الأهمية كان بوسعنا دوماً استئناف الاحتواء لاحقاً لو لم يجد الارتباط نفعاً.

محاولات الارتباط الأولى

حدث أول اتصال مباشر لي مع العراق بعد شهرين من أدائي لليمين. ففي الرابع والعشرين من آذار مارس ١٩٨٩ اجتمعت مع نزار حمدون السفير العراقي السابق لدي الولايات المتحدة الذي كان يشغل منصب وكيل وزارة الخارجية العراقية للشؤون الخارجية. وأبلغت حمدون أن الولايات المتحدة تولي أهمية كبري لعلاقاتها مع العراق، وبأنها تأمل في توثيق العلاقات الثنائية معه. وأكدت أيضاً أن استخدام العراق للأسلحة الكيماوية خلال الحرب مع إيران وضد الأكراد العراقيين يمثل عقبة خطيرة أمام الوصول لهذا الهدف.

وفي السادس من تشرين الأول أكتوبر – أي بعد أربعة أيام من تحديد التوجيه ٢٦ (Nsd26) لسياستنا تجاه العراق اجتمعت للمرة الأولي مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز. وكمعظم الاتصالات الأولية كان الاجتماع لقاء دبلوماسياً ودياً حاول كل منا خلاله تكوين رأي عن الآخر ووضع أساس لاتصالاتنا في المستقبل. وأتذكر الانطباع الذي تركه

عزيز لدي. وطارق عزيز شخصية مهذبة كوزموبوليتانية يتحدث الإنجليزية بطلاقة ويمتلك ناصية الحديث* . إنه في الحقيقة ريبنتروب عصرنا.

كان اهتمامي الأساسي بلقاء عزيز يتمثل في السعي للحصول علي مساعدته في تحريك عملية السلام في الشرق الأوسط. وقوبل اقتراحي بإجراء مباحثات بين إسرائيل وفلسطينين من الأراضي المحتلة، بالرفض. وأخفقت الاجتماعات التي عقدت في الصيف مع ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية في التوصل إلي اتفاق. وفي غضون تلك الفترة طرح مبارك خطة النقاط العشر بهدف كسر الجمود. وعندما طلبت من عزيز الموافقة علي خطة النقاط العشر رد بأن تأييد العراق للخطة معروف تماماً في المنطقة. ومع ذلك كانت حكومته تنتهج سياسة الامتناع عن إصدار بيانات علنية عن عملية السلام. فمثل هذه الحديث «قد يعقد الأمور» واعتبرت تصريحاته تنصلاً مهذباً. لكن الأمل كان لايزال يراودني في أنه ربما يتم إقناع العراق في نهاية المطاف بتقديم المساعدة في التوصل إلي حل.

وفي أول لقاء بيننا أبلغته بأن الولايات المتحدة راجعت علاقتها مع العراق وتريد تعزيزها وتوسيع نطاقها. وكانت هناك أسباب تدفعني للاعتقاد بأنه توجد إمكانية توجيه العلاقات بيننا في اتجاه إيجابي. وقال عزيز إن صدام حسين أصدر إليه تعليمات بالإعراب صراحة عن أن العراق يسعي بنفس القدر لتحسين العلاقات «علي أساس التفاهم والاحترام المتبادل».

وما لبث أن غير لهجته علي غير توقع. وأخذ يكيل الاتهامات للولايات المتحدة بالتدخل في الشؤون الداخلية لبلاده، والقيام بمحاولات سرية لتخريب الحكومة. كانت أدلته واهية. فقد تلقي العراق تقارير تفيد بقيام دبلوماسيين أمريكيين كبار بالاتصال بنظرائهم العرب «لإثارة خوفهم وشكوكهم» تجاه نوايا العراق التي قال إنها نوايا سلمية. وشكك هؤلاء

* يواخيم فون ريبنتروب ١٨٩٣ -١٩٤٦ سياسي ألماني ولد في فيسيل، انضم الحزب الاشتراكي الوطني عام ١٩٣٢ ، وأصبح مستشاراً لهتلر للشؤون الخارجية المسؤول عن المعاهدة البحرية الألمانية الإنجليزية عام ١٩٣٥ . وعمل سفيراً لألمانيا لدي بريطانيا عام ١٩٣٦ . ثم عين وزيراً للخارجية (١٩٣٨-١٩٤٥) أسره البريطانيون عام ١٩٤٥ ، وأعدم بعد أن أدانته محكمة نورمبرج . «المترجم».

المسؤولون – فوق ذلك - في المساعي العراقية لتطوير «قاعدته التكنولوجية» وذلك في إشارة رقيقة إلي تعزيز القدرات العسكرية الذي يمثل مصدراً للإزعاج. وأكد «أن كل ما نفعله هو لصالح شعبنا». وأخيراً وجه الاتهام بأن «بعض الوكالات الأمريكية». يفترض أنها المخابرات الأمريكية تسعي لزعزعة الاستقرار في العراق.

وأبلغته بأن المفاجأة تلجمني من هذه الشكاوي. كان هذا أول احتكاك مباشر مع جنون العظمة الذي أدركت لاحقاً أنه متجذر لدي الدوائر العليا في الحكومة العراقية. وهو ذات الجنون الذي غذي سلسلة حسابات خاطئة عن أمريكا والغرب رتبت عواقب مأوساوية فيما بعد.

وانتقل عزيز إلي الشكوي من تخفيض قروض شركة الإئتمانات السلعية للعراق من مليار دولار إلي ٤٠٠ مليون دولار في العام القادم. وزعم أن هذا الإجراء الذي قال إنه سيؤدي إلي «توتر العلاقات» مرتبط دون مبرر بقضية البنك الإيطالي بنكا ناسونالي ديل لا فارو «التي لم يكن لنا ضلع فيها». وهذه إشارة واضحة إلي ما تكشف عن قيام فرع البنك الإيطالي في جورجيا بتقديم أكثر من ثلاثة مليارات دولار إلي العراق بدون خطابات ضمان معتمدة. وقال عزيز إن بلاده لها عظيم الشرف بالقضاء علي الفساد. ويريد أن يعرف فورا لو أن هناك أدلة علي ثبوت تورط مسؤولين عراقيين. وسألته عما إذا كانت الحكومة العراقية ستتيح تسليم أي مسؤول يشتبه في ارتكابه أخطاء فرد قائلاً: إن ذلك يعتمد علي طبيعة المعلومات التي ستقدم للعراق.

وبما أنني علي علم بالعمليات السرية الحالية للحكومة الأمريكية كنت علي يقين بأن ادعاءات طارق عزيز بالمحاولات الأمريكية لزعزعة استقرار العراق لا أساس لها البتة. ومع هذا ومن قبيل الاطمئنان راجعت الأمر شخصياً مع الرئيس وسكوكروفت. وأبلغت طارق عزيز بعد شهر في رسالة مكتوبة بأن الرئيس كلفني بإخطاركم «أن الولايات المتحدة لا تشارك في أي محاولة لإضعاف استقرار العراق وبوسعي إبلاغكم هذا من أعلي سلطة».

وأضافت: إنه من المهم التطرق إلي «بعض الادعاءات الخطيرة التي تقتضي الحاجة تقصيها» عن إدارة برنامج شركة الإئتمانات السلعية. وبالطبع كنت أشير إلي احتمال تورط مسئولين عراقيين في أنشطة البنك الإيطالي. وراودني الأمل في إمكانيـة تسوية تلك المشكلات واستمرار البرنامج، وأكدت مجدداً: «التزام الرئيس شخصياً» بإرساء أساس متين برغم الاختلافات الحتمية. وأبلغ عزيز سفيرتنا لدي بغداد إبريل جلاسبي أنه يعتبر أن لهجة رسالتي إيجابية.



وفي السادس والعشرين من تشرين الأول أكتوبر رفع جون كيلي مساعد وزير الخارجية لشئون الشـرق الأدني وجنوب آسيـا NEA وإبراهام سـوفير المستشار القانوني لوزارة الخارجية «مذكرة عمل» أوصياني فيها باستمرار تقديم ضمانات الإئتمان السلعي للعراق. وأقر التوصية كل من بوب كيميت ودينك مكورماك وكيل الخارجية للشئون الاقتصادية، وأشارت المذكـرة إلي اتهامـات الفسـاد العراقي وتداعيـات فضيـحة البنك الإيطالي، ونوهت إلي المشاورات التي أجراها محامون من وزارة الخارجية مع نظرائهم في وزارة الزراعة الذين أتيحت لهم فرصة الاطلاع علي تحقيقات البنك الإيطالي، والتشاور مع مكتب المدعي العام الأمريكي في أطلانطا.

(وأجري المحامون أيضاً مشاورات مع وزارة العدل). وأشاروا إلي أنه في الوقت الذي يحتمل فيه تورط عدد من المسئولين العراقيين في القضية. فإن معلوماتنا عن التحقيق تشير إلي أن الإدعاء لا يعتزم توجيه الاتهام الآن لمسئولين عراقيين «وأوصينا بتقديم الإئتمانات السلعية. شرط أن تثبت عملية المراجعة عدم ارتكاب العراقيين أي أخطاء» علي أن تدار علي أساس «مراجعة ذاتية دورية» علي أن يتم الصرف علي دفعات لضمان امتثال العراقيين بالتزامات الإئتمانات السلعية والتعاون في التحقيق في قضية البنك الإيطالي.

واستشهدنا بوعد طارق عزيز بالتعاون التام في قضية البنك الإيطالي باعتباره «خطوة غير مسبوقة من جانب العراق» واعترضنا علي تقديم حجم إئتمانات للعراقيين يقل عما رفضوه في السابق «خاصة عندما يبدو واضحاً أنهم سيقبلون عمليات مراجعة أخري وضمانات أخري معقولة». وسقنا أيضاً سببا جوهرياً بأن كيلي علي وجه الخصوص سيحثني «علي أن قدرتنا هي التأثير علي السياسات العراقية في المجالات المهمة لنا بدءً من لبنان حتي الشرق الأوسط ستتأثر إلي حد كبير بنتائج مفاوضات الإئتمانات السلعية».

ويندرج هذه الموقف ضمن معايير التوجيه Nsd26. وفي ٣١ تشرين الأول أكتوبر وافقت علي التوصية، وطلبت من كلايتون يوتر وزير الزراعة المضي قدماً في تطبيق برنامج قرض المليار دولار علي دفعات. وفي ذات اليوم اتصلت بيوتر وطلبت منه تنفيذ البرنامج بالكامل مع اتخاذ الضمانات الكافية للتأكد من عدم تكرار المخالفات السابقة. وأبلغني: «أعتقد أننا ننظر إلي الأمر بنفس نظرة رجالك». سوف أشرع فيه علي الفور».

وبعد ثلاثة أيام قررت وزارة الزراعة المضي قدماً في تنفيذ برنامج قرض المليار دولار علي دفعتين مع الضمانات التي بحثها مع يوتر وعرض الاقتراح علي المجلس الاستشاري القومي حول السياسات الدولية والمالية (NAC) وهي لجنة من الوكالات الحكومية تعني بتنسيق سياسات مثل قروض الائتمانات السلعية التي تتجاوز حدود الاختصاص. وفي السادس من تشرين الثاني نوفمبر أقر المجلس الاستشاري قرض المليار دولار كله علي أن تكون الدفعة الأولي خمسمائة مليون دولار. ولن يتم تقديم الدفعة الثانية قبل مراجعة امتثال العراق ودراسة أي تطورات جديدة بشأن قضية البنك.

ـ وفي رسالة بعثت بها لطارق عزيز في اليوم التالي أبلغته بأن القرار «يعكس الأهمية التي نوليها لأهمية علاقاتنا مع العراق بأنني سعيد لما بلغني عن تعهده بالتعاون التام في قضية البنك الإيطالي». وأشرت إلي «أن تعاوننا في هذا الأمر خال من أي شائبة لعدم الشرعية».

وفي ١٧كانون الثاني يناير تجاوز الرئيس معارضة الكونجرس ووقع توجيهاً بالسماح لبنك التصدير والاستيراد بتقديم قرض بنحو مائتي مليون دولار لتمويل مشتريات الحبوب للعراق وقال: إن رفض هذا القرض «لن يخدم المصالح القومية للولايات المتحدة». وتأكد أن هذا القرار الذي أيدته بالكامل هو أقصي ما استطعنا بذله من جهود ليصل العراق علي تهذيب سلوكه.

تحول صدام المشؤوم

وبرغم مواصلتنا نهج الثواب تدهورت علاقتنا مع العراق ونحن في مطلع العام الجديد. وعلي الفور تقريباً تبني العراقيون نمطاً للسلوك وصفه جون كيلي «بأنه ربيع سوء السلوك العدائي» ومع شهر نيسان إبريل بات واضحاً أن سياستنا لم تحقق النتائج المرجوة. وأصبح من الضروري الآن اتخاذ موقف المواجهة مع بغداد.

ولا مجال للشك في أن سلوك صدام قد تغير للأسوأ في أوائل عام ١٩٩٠. وبات خطابه أكثر حدة وتهديدا. وأعدم صحفيا بريطانيا إيراني المولد بتهمة التجسس* وتعالت شكوته في مرارة من افتتاحية أذيعت في إذاعة صوت أمريكا وتضمنت إشارة سريعة إلي الدولة البوليسية في العراق، وأخذ يتهم الولايات المتحدة علانية بالتدخل في الخليج. وقام ببناء ست منصات لإطلاق صواريخ سكود في غرب العراق يصل مداها إلي إسرائيل، وعزز جهوده لامتلاك تكنولوجيا متقدمة يمكنه تطويعها لتستخدم في برامجه العسكرية والنووية.

(وينبغي التنويه إلي أن النشاط المخابراتي لم يكثف بشكل خاص علي ما كان يدور في العراق. ويسري وصف وينستون تشرشل للاتحاد السوفيتي الستاليني تماماً علي العراق الذي كان لغزاً فيه لغز مبهم).

---

* هو فارزاد بازوفت الذي كان يعمل بصحيفة الأوبزرفر البريطانية (المترجم).

ونتيجة لذلك كان من الصعوبة البالغة بمكان تحديد مدي ما يصنعه صدام حسين من تحولات استراتيجية بل وحتي تكتيكية. وتبدو العناصر التي تستعيدها الذاكرة يسيرة علي الفهم. فمدي الفقر الذي يعاني منه العراق وحاجته إلي السطو علي بنك مثل الكويت أو جنون عظمة صدام من هجوم آخر علي منشآته النووية – كانت تقبل مختلف التفسيرات في حينه.

ومع هذا تعارض سلوك صدام الوحشي المتزايد مع دبلوماسيته الخاصة التي تجنح بإفراط نحو المصالحة. وفي ١٢ شباط فبراير اجتمع كيلي وإبريل جلاسبي مع صدام حسين لتسعين دقيقة في بغداد. وأشارت كل الروايات إلي أنه كان اجتماعاً ودياً. وقال صدام إنه مع تراجع الاتحاد السوفيتي كقوة عظمي فإن أمام الولايات المتحدة فرصة للمساعدة في تحقيق الاستقرار في الشرق الأوسط.

وكان مغزي رسالته أنه يفضل السلام علي الحرب في الشرق الأوسط. لكنه يشك في أن الولايات المتحدة ستمارس الضغط اللازم علي إسرائيل من أجل تحريك عملية السلام. ومن جانبه أكد كيلي مجدداً التزام الرئيس بما قال إنه «صداقة حميمة وحقيقية لمصلحتنا المشتركة»، وأبلغ كيلي، صدام أيضاً بأن التقرير السنوي للخارجية الأمريكية عن حقوق الإنسان المقرر أن يصدر في غضون أسبوعين يتضمن انتقاداً حاداً لنظام بغداد.

ومع تزايد أذي صدام أصبحنا عن قلقنا بحدة أكبر. ففي ٢٧ شباط فبراير أوضح سكروكروفت للسفير العراقي استياء الرئيس من انتقادات صدام الأخيرة للولايات المتحدة. وبعد ثلاثة أيام أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية توجيهاً قوياً لسفاراتنا في العواصم العربية متضمناً تعليمات للسفراء بشرح «اختلافنا الجذري» مع العراق حول الانتشار النووي والأسلحة الكيماوية ونشر صواريخ سكود وحقوق الإنسان. وفي ٣ آذار مارس أبلغ سكيب جنيم نائب كيلي السفير العراقي بأن تصريحات صدام «مروعة».

وفي الثاني من نيسان إبريل تغيرت حساباتنا الاستراتيجية عندما هدد صدام إسرائيل صراحة في رسالته إلي القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية. فللمرة الأولي أكد صدام امتلاك العراق لأسلحة كيماوية وتوعد قائلاً: «اقسم بالله العظيم أن نحرق نصف إسرائيل لو

تعرضنا للهجوم». وأثارت هذه التصريحات انزعاج العالم العربي والشرق الأوسط، وسارعت الإدارة بشجبها. وأصدرت تعليمات لتاتويلر بأن تصفها «بأنها نارية وغير مسؤولة وعتيقة» ومع ذلك فقد رددت عندما سُئلت بأن العلاقات الثنائية ليست قيد المراجعة نتيجة لتصريحات صدام النارية. ولئن صح هذا في تلك اللحظة فإنه لم يدم طويلاً.

وفي اليوم التالي للرسالة بقي كيميت وروس بعد انتهاء الاجتماع الصباحي للعاملين لبحث التطور الجديد معي. وقالا لي: إن لفظ «حرق إسرائيل» لا يجب النظر إليه كثورة منعزلة. وقال روس: «إن سياستنا تقوم علي وهم خاطئ بأن بوسعنا حمل هذا الرجل علي الاعتزال» وقال كيميت: «لايمكننا، فلم أعد أشعر بالارتياح لهذه السياسة، إنهم رجال غلاظ قد لا تجدي معهم غير الشدة. وبما أن سياسة الثواب لم تؤت بثمارها فقد حان وقت سياسة العقاب» ووافقتهما علي ضرورة تغيير سياستنا، ووافقت علي توصية كيميت بأن تطالب الخارجية عقد اجتماع للجنة النواب لدراسة تعديل سياستنا تجاه العراق لتصبح سياسة الاحتواء. وقررت أيضاً ضرورة تسليم التوجيه لوزارة الخارجية العراقية». وفي ١١ نيسان إبريل أرسل كيميت برقية بهذا التوجيه إلي جلاسبي لنقله إلي العراقيين «بأن العراق ستكون علي مسار تصادم مع الولايات المتحدة لو واصل تبني إجراءات تهدد الاستقرار في المنطقة وتقوض المساعي الدولية للحد من التسلح وتهزأ بالقوانين الأمريكية».



وفي اليوم التالي اجتمع صدام مع أعضاء مجلس الشيوخ روبرت دول وجيمس مكلورى وهوارد ميتزينباوم وفرانك موركوفسكي وآلان سيمبسون في مدينة الموصل بشمال العراق. وبناء علي طلب منهم أرسلت وزارة الخارجية توجيهاً سياسياً جديداً إلي السفارة الأمريكية في بغداد يتيح لهم الاهتداء بآرائنا قبل الاجتماع - كان التوجيه مكتوباً بلغة غير دبلوماسية إلي حد غير عادي. وجاء فيه أن المواقف العراقية الأخيرة سببت «تردٍ شديد في العلاقات الثنائية وكررت حرفياً لغة رسالة كيميت إلي جلاسبي. وقدم لأعضاء مجلس الشيوخ تفاصيل عن

السلوك العراقي مثار التساؤل وطلب منهم ابلاغ صدام بأنه يتعين عليه اتخاذ خطوات ملموسة لوقف انتهاكات حقوق الإنسان وإنهاء المشتريات غير المشروعة. وأشارت البرقية إلى ضرورة لفت نظر صدام إلي «أنه بدون مثل هذه الإجراءات من جانبكم فربما يتبدد القليل الذي تبقي من تأييد أمريكا للعراق».

وعاد أعضاء مجلس الشيوخ إلي واشنطن وأعلنوا أن صدام زعيم يمكن للولايات المتحدة أن تعمل معه. ولم تكن نصيحتهم الخاصة للرئيس ولي أقل تفاؤلاً عن تصريحاتهم العلنية. وبرغم هذا فقد أثارت رسالة صدام مشاكل لدينا لدرجة اضطرتني لاستغلالها في اجتماع خاص عقد في مكتبي في اليوم التالي مع إدوار شيفرنادزة لممارسة ضغط عليه لتأييد دعوة للتوصل إلي معاهدة دولية للحد من الأسلحة الكيماوية. وقلت لشيفرنادزة: «إن وجود أناس مثل صدام حسين سبب كاف لتقديم حافز لإثارة قضية الأسلحة الكيماوية بكافة أبعادها».

وفي البداية صادف كيميت قدراً من المعارضة من العاملين في مجلس الأمن الذين كانوا يريدون استمرار السياسة الحالية. وقال أحد مسئولي مجلس الأمن القومي: «كيميت، ربما يكون بيننا شيء من الاختلاف في وجهات النظر في هذه القضية». ومع هذا وبعد أربعة أيام من لقاء أعضاء مجلس الشيوخ لصدام اجتمعت لجنة النواب في البيت الأبيض في ١٦ نيسان إبريل لمواجهة معضلة عملية تتمثل في كيفية الرد بقوة علي السلوك العراقي غير المقبول وعلي تهديدات صدام، والاحتفاظ في الوقت نفسه بالقدرة علي إعادة بناء العلاقات تدريجياً لو تحسن سلوك بغداد. ووافقت لجنة النواب علي استمرار برنامج الدفعة الثانية من الإئتمان. وتقرر تشكيل لجنة من الوكالات الحكومية الأمريكية لتنسيق الجهود لمكافحة الأنشطة النووية العراقية، وتم تقديم ورقة بالخيارات المتاحة. وتأجل اتخاذ قرار حول ائتمانات آي إكس – آي إم وبينما شكل قرار تعليق الدفعة الثانية من الائتمانات تغيراً مهماً في السياسة. فإن قضية ما يتعين عمله بشأن السياسة الأمريكية حيال العراق كان لابد وأن تشكل «إرباكاً» لمبادئ إجراء مراجعة سياسية شاملة.

وعقب إجتماع لجنة النواب أرسل لي كيميت مذكرة يحث فيها علي ضرورة أن تسعي الخارجية لإلغاء برنامج الائتمان السلعي برمته وقال: «إذا استمررنا في تقديم الائتمانات

السلمية والتعاملات آى إكس آى إم فإننى أعتقد أن صدام حسين سيعتبر القرار مؤشراً إيجابياً سيدفعه إلي الاستخفاف بالجهود الأخري التى ربما نتخذها لوقف حملته للحصول علي الأسلحة النووية.

وفى الأول من آيار مايو أدليت بشهادتى أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ. وفى سياق ردى علي سؤال السيناتور روبرت كاستين من ويسكونسين قلت: «من السابق لأوانه بعض الشيء» بحث عقوبات محتملة ضد العراق. كانت معارضتى تعود أساساً لأسباب مؤسسية. فقد تقدم عدد من الأعضاء بمشروعات قوانين تدعو إلي فرض عقوبات إلزامية ضد العراق. وكنت أعتقد أن مثل هذه التشريعات ستسلبنا أى مرونة في التعامل مع العراق وستجور أيضاً علي حق الرئيس فى إدارة السياسة الخارجية.

فضلاً عن ذلك، وبينما كانت علاقتنا تنحدر نحو الأسوأ لم أكن أعتقد أنه من الحكمة اتخاذ مواقف نهائية فى اللحظة الراهنة. وطلب منا عدد من حلفائنا العرب ومنهم مصر والعربية السعودية انتهاج موقف وسط. وفى ٣٠ نيسان إبريل بعث الملك فهد برسالة للرئيس قال فيها إن حكومته تسعي «لتهدئة الأمور» مع العراق وفى الوقت نفسه زارنى وفد من السفراء العرب ومنهم سفيرا مصر والكويت للتدخل فى النزاع وأن «التصريحات النارية» أمر شائع من الزعماء العرب الراديكاليين. وفى هذه اللحظة لم يكن هناك ثمة سبب يدعو للاعتقاد بأن صدام يتجاوز مجرد التهديد الشفوى.

بالإضافة إلي ذلك كان استمرار السياسة القديمة لايزال يستقطب عددا من الأنصار. ففى ١٨آيار مايو أبرق أحد كبار العاملين بمجلس الأمن القومى بأفكاره من بغداد حيث كان فى زيارة تقصى حقائق. وفى مذكرة نسبها الكثيرون خطأ إلي جلاسبى شدد بإلحاح علي ضرورة صرف الدفعة الثانية. فقد أبلغ العراقيين هو ووفد الشيوخ لتوهم بأنه لا توجد مؤامرة لمعاقبة العراق، وأن الولايات المتحدة لاتزال منفتحة أمام «علاقة عمل ممتازة لو هذب العراق تصرفاته» وكتب قائلاً: «مالم تثر وزارة الزراعة اعتراضاً قانونياً فإننا فى حاجة للمضى قدماً فى تقديم الدفعة الثانية من الائتمانات السلمية». وكان فريق التفتيش التابع

لوزارة الزراعة قد أعطي العراقيين بالفعل شهادة إبراء ذمة، وبالقطع فإن معاقبة العراق في مثل هذه الظروف «سيعتبر في نظر العراقيين مجرد جانب سياسي محض من مؤامرة امريكية ضد العراق».

وفي غضون أيام اجتمعت لجنة النواب للمرة الثانية (٢٩ آيار مايو) لمراجعة مختلف الخيارات. وبعد عرض أحدث المستجدات حول الائتمانات السلعية وتحقيقات قضية البنك الإيطالي ساد شعور بالإجماع لصالح تعليق كافة برامج القروض الاقتصادية للعراق. وفي اليوم التالي وفي قمة بغداد ندد صدام بالكويت لمشاركتها «في حرب اقتصادية» ضد بلاده وتحدي أمير الكويت الذي رفض مطالب صدام بتقديم مليارات الدولارات علي سبيل التعويض وتقديم تنازلات إقليمية.

الموقف يتدهور

وفي أوائل فصل الصيف إزداد قلق الإدارة الأمريكية من عدوانية صدام التي تواصلت حدتها. وفي ١٦ تموز يوليو اشتكي طارق عزيز في مذكرة لأمين عام الجامعة العربية من تورط الكويت والإمارات العربية المتحدة في «عدوان مباشر» ضد العراق بزيادة إنتاجهما من البترول وهو نفس الاتهام الذي ساقه صدام علانية في خطاب ألقاه في اليوم التالي في الاحتفال بالذكري الثانية والعشرين لعودة حزب البعث. وحذر صدام الذي اتهم الولايات المتحدة بتقديم «الخنجر المسموم لأعدائه من أنه إذا لم تجد الكلمات فمن الضروري فعل شيء ما»*.

وفي ١٩ تموز يوليو أرسلت برقية موجزة لسفارات الولايات المتحدة في الشرق الأوسط تتضمن توجيهاً بالسياسة الجديدة حول النزاع العراقي الكويتي، وصدرت تعليمات إلي

* الرسالة مؤرخة ١٥تموز١٩٩٠-٢٣ذي الحجة ١٤١٠هـ

الدبلوماسيين الأمريكيين بالتأكيد علي نقطتين في كافة اتصالاتهم مع نظرائهم العرب. هما: أولاً «ضرورة تسوية النزاعات بالوسائل السلمية وليس عن طريق التخويف والتهديد باستخدام القوة». ثانياً: «إن الولايات المتحدة لا تزج بنفسها في موضوع هو من صميم القضايا الثنائية يخص العراق والكويت». ومع هذا لم يطرأ أي تغيير علي السياسة الأمريكية فلازلنا علي التزامنا بضمان تدفق البترول من الخليج وتأييد سيادة ووحدة أراضي دول الخليج ... وسنواصل الدفاع عن مصالحنا الحيوية في الخليج»

وفي ٢١ تموز يوليو – أي بعد يومين من رصد الأقمار الصناعية الأمريكية تحركات حاشدة للقوات والعتاد العراقي باتجاه الحدود الكويتية طلبت دولة الإمارات العربية المتحدة من الولايات المتحدة المشاركة في مناورة عسكرية مشتركة لإظهار التضامن ضد تهديدات صدام الجديدة. وعارض مكتب شؤون الشرق الأوسط الفكرة في البداية خشية إغضاب صدام. وساورت الشكوك العربية السعودية أيضاً خشية أن تؤدي هذه المناورات إلي استفزاز صدام. واعتقدت أن المناورة المشتركة طريقة مناسبة لإظهار عدم الارتياح الأمريكي من صدام وإيضاح التزامنا بحماية المصالح الحيوية للولايات المتحدة في المنطقة ووافق الرئيس علي إجرائها في ٢٣ تموز يوليو.

وفي ذلك الحين كنا نتلقي تقارير استخباراتية عن حشود عسكرية عراقية قرب الحدود مع الكويت، واتفق رأي الخبراء في الداخل والخارج علي أن صدام يراوغ علي أمل تخويف الكويت لحملها علي تقديم تنازلات. وفي حينه لم يكن ذلك افتراض غير منطقي. كما أن استراتيجيتنا في تشديد تصريحاتنا وبياناتنا والمشاركة في مناورات مشتركة كانت كافية لمواجهة التخويف فقط.



وفي ٢٥ تموز يوليو غادرت واشنطن في الساعة السابعة والربع صباحاً متوجهاً إلي جاكرتا لإجراء مشاورات تستغرق سبعة أيام في آسيا. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم

اسْتُدعِيَتْ جلاسبي إلي مقر الخارجية العراقية في بغداد وبدون سابق إنذار نُقِلَتْ إلي مكتب صدام لعقد اجتماع دام ساعتين. وبسبب الطبيعة المفاجئة للاجتماع تصرفت جلاسبي بدون تعليمات محددة، ولكن علي ضوء التوجيه العام الصادر في ١٩ تموز يوليو.

وفي تقريرها المؤلف من ثماني صفحات المرسل في برقية واحدة عن الاجتماع، والذي يعد بحق وفقاً للتقاليد الدبلوماسية تحليلاً دقيقاً لحديث صدام الملتوي أشارت جلاسبي إلي أن صدام يريد طمأنة الرئيس بأن نواياه سلمية، وهكذا فإنه يأمل في أن تخف حدة الانتقادات الأمريكية للعراق. ووافق صدام على التفاوض مع السعوديين والكويتيين في غضون فترة وجيزة للغاية. وكان «حاداً» في انتقاده «للكويتيين» لرفضهم مساعدته في تخفيف الأزمة المالية للعراق. وبينما أشار إلي سعي «بعض الدوائر» في الحكومة الأمريكية لتعويض العراق. فلم يكن يعتقد أن الرئيس وأننا ضالعان في مثل هذا السلوك.

واعترفت جلاسبي في تحليلها بأن المناورات المشتركة مع الإمارات ولدت الأثر المطلوب. وبات صدام يشعر الآن بالقلق من النوايا الأمريكية ويتوق لتجنب إغضاب الولايات المتحدة. وخلصت جلاسبي: «لقد ملكنا اهتمامه تماماً وهذا شيء حسن. واعتقد أن من الملائم الآن تخفيف حدة الانتقادات العلنية للعراق حتي نري كيفية سير المفاوضات».

كان الأمل لايزال يراودنا في نزع فتيل الأزمة. وفي ٢٨ تموز يوليو أعد موظفو مجلس الأمن القومي ونقح موظفو الخارجية رسالة الرئيس التالية لصدام: «سررت بنبأ الاتفاق بين العراق والكويت علي إجراء مفاوضات في مدينة جدة للتوصل إلي حل سلمي للتوتر الحالي بينكما. فللولايات المتحدة والعراق مصلحة قوية في الحفاظ علي السلام والاستقرار في الشرق الأوسط، ولهذا السبب فإننا نعتقد أن الوسائل السلمية هي أفضل طريقة لحل هذه الخلافات لا التهديد باستخدام القوة العسكرية أو الصراع». وكان من الواضح أن هذه الرسالة لم تكن حازمة بما يكفي، وأن صدام ربما فسر الأيام الثلاثة التالية لاجتماعه مع جلاسبي بعدم إحساسنا بقدر كبير من القلق.

وفي هذه المرحلة أوصت الخارجية بضرورة اتخاذنا خطوة إضافية بتوجيه قوة مهام حاسمة من حاملة الطائرات كانت تتجه إلي دييجو جارسيا في المحيط الهندي إلي شمال بحر العرب كمؤشر علي قلقنا، غير أن الفكرة قوبلت بمعارضة الجيش، وللإنصاف يجب القول أنه كان هناك اجماع داخل الحكومة بأن حدة الأزمة ستخف. وبرغم الحشود العراقية الملزم علي الحدود اعتُبِرتْ أنباء الاجتماع الذي سيعقد بين دبلوماسيين كويتيين وعراقيين في جدة في ٣١ تموز يوليو تطوراً يبعث علي الأمل. ورغم هذا أقدمت القوات العراقية بعد يومين علي غزو الكويت المعزلاء.

دواعي التشكك في الغزو

وباسترجاع الأحداث نجد أنه من اليسير القول أنه كان علينا الاعتراف مبكراً بأننا لم نفلح في تهذيب سلوك صدام، وأنه كان علينا تغيير سياستنا في وقت مبكر وبدرجة أكبر مما فعلنا. وكان ينبغي علي الأقل إعطاء سياستنا نحو العراق مساحة أكبر علي شاشة الرصد في وقت مبكر، وأعتقد أن الأسباب التي لم تحملنا علي تغيير سياستنا نحو العراق مبكراً وإلي مدي بعيد أسباب عديدة ومعقدة. وبينما وددت لو أننا أولينا مزيداً من الاهتمام بالعراق مبكراً. فإنني في ضوء ما حدث لازلت غير مقتنع بأنه كان بوسعنا ردع العراق عن غزو الكويت بأي إجراء باستثناء تحريك قواتنا إلي المنطقة.

ويوضح هذا الفصل برمته – ربما أكثر من أي شيء آخر – مدي صعوبة تغيير أي نهج دبلوماسي مستقر منذ فترة. وعلي أفضل الأحوال فإن هذه غالباً مهمة شاقة تستنفد الوقت. علاوة علي ذلك فإن الدبلوماسية – مثل التفكير الأمريكي – تنحيز بشكل أساسي إلي «تحسين العلاقات» فتغيير السياسة من التعاون إلي المجابهة هو علي الدوام اقتراح بالغ الصعوبة– خاصة عندما يكون التأييد للسياسة القائمة راسخاً بقوة في مختلف دوائر المصالح الانتخابية والبيروقراطية مثلما هو الحال في السياسة نحو العراق.

وعلي سبيل المثال فإن تغيير السياسة كان سيستتبعه انتقاد موسع حاد من الكثيرين الذين انتقدونا لاحقاً لعدم تغيير سياستنا في مرحلة مبكرة. فلو كنا قد لوحنا بوقف قروض استيراد الحبوب لتعرضنا لحرب ضروس من كبار أعضاء الكونجرس. وعلي نحو مماثل بادر كثير ممن انتقدنا لعدم تحلينا بقدر أكبر من الحسم تجاه العراق بانتقادنا عندما هددنا باستخدام القوة. ولازلت أعتقد أنه لو كان الرئيس قد تحدث قبل آب أغسطس ١٩٩٠ عن رغبتنا في الدخول في حرب لحماية الكويت لرفع الكثيرون من أعضاء الكونجرس أصابع الاتهام. وحتي بعد غزو صدام للكويت لم يكن هناك أدني تأييد داخلي. هذا إذا كان هناك تأييد أصلاً -لاستخدام القوة العسكرية، وكان علينا بناء هذا التأييد بشق الأنفس. ولا يجب علي رئيس أمريكي التلويح باستخدام القوة ما لم يكن مستعداً لاستخدامها بالفعل.

وكما سبق أن أشرت من قبل كانت الإدارة مشغولة أساساً بالتغيير الاستراتيجي الأكثر أهمية في العلاقات بين الشرق والغرب وهي السياسة الكونية نتيجة انهيار في أوربا الشرقية. فقد سعي الغرب لأربعين عاماً لحدوث هذا التطور. ومما يدعو للسخرية فإن انهيار الإمبراطورية السوفيتية الذي استنفد طاقاتنا هو بالتأكيد الذي أصاب صدام بالاكتئاب لدرجة دفعته لأن يري الولايات المتحدة في شباط فبراير ١٩٩٠ كقوة هيمنة تهدد طموحاته الإقليمية.

❑ ❑ ❑

وبالإضافة إلي ماسبق كان أصدقاؤنا في المنطقة - بلا استثناء - يصرون باستمرار علي أن صدام يستعرض عضلاته فقط، وأن المواجهة معه ستزيد الأمورسوءً. وببساطة فإن السبب الذي لم يدفع أي إنسان للاعتقاد بأنه سيقدم علي شن هجوم يتمثل في أنه ما من حساب واقعي لمصالحه يمكن أن يدفعه إلي تصورالقيام بغزو شامل للكويت. وحدد شيفرنادزة الأمر علي وجهه الصحيح في موسكو في ثالث أيام الغزو: إنه تصرف غير رشيد غير ذي معني. بل إن صدام نفسه قال لجلاسبي قبل أسبوع واحد من الغزو: «لا تدفعونا نحو

«العرب». ولا تجعلوها الخيار الوحيد الذي يبقي لنا للدفاع عن كرامتنا. فإذا ما أذلت الولايات المتحدة العراق علناً فلن يبقي أمامنا من خيار سوي الرد مهما كان غير منطقي ومدمر الذات». ولسوء الحظ حول صدام كلماته إلي واقع.

وحتي الإسرائيليون كانوا يعتقدون أن صدام يهدد لانتزاع تنازلات اقتصادية من الكويت. وأبلغ مسئول المخابرات الإسرائيلية الموساد نظراءهم في المخابرات الأمريكية بأن تصريحات صدام النارية تهدف لردع أي هجوم اسرائيلي وليس تهديد العرب. وفي ٣١ تموز يوليو تلقينا تطمينات من الملك حسين والرئيس مبارك بأن تهديدات صدام تهديدات لفظية «لاتشكل تهديداً فعلياً». ومما يدعو للسخرية أن معظم حلفائنا كانوا يبدون القلق في دوائرهم الخاصة خلال ربيع وصيف ١٩٩٠ من أن الولايات المتحدة قد تبالغ في ردها علي عدوانية صدام الجديدة.

ومن وجهة نظري فإن الفرصة الواقعية الوحيدة لردع صدام كانت تتمثل في تحول القوات الأمريكية إلي المنطقة. وما كان الكويتيون والسعوديون ولا حتي الكونجرس سيؤيدون هذا التوجه قبل الثاني من آب أغسطس. حقاً لقد كانت صدمة الغزو هي التي سمحت لنا بالتدخل العسكري قبل أي شيء آخر.

وآخر ما يثير السخرية: بالطبع إنه إذا ما نجحنا في ردع عدوان صدام فسوف يجادل الغرب في كيفية احتواء صدام الذي يستمد شجاعته من آلة حربية بالغة القوة وترسانة نووية وكيماوية أشد فتكاً مما تصورته المخابرات الغربية. وفي التحليل النهائي فإن «فشلنا» في ردع صدام ربما يكون قد حال دون وقوع نتيجة أشد سوءً بكثير.

الفصل السادس عشر

بناء التحالف

إن لم يكن فاعلاً ... أننا لم نستطع العمل بطريقة جماعية لصد العدوان، فإنني لا أعرف ماذا سنفعل لمنع تكرار حدوث هذا مرة أخرى.

الوزير بيكر

لادوارد شيفرنادزة

خلال قمة بوش–جورباتشوف

٩ أيلول سبتمبر هلسنكي – فنلندا

كان أبي بطلاً أمريكياً حقيقياً فى الحرب العالمية الأولي حين عمل ضابطاً برتبة كابتن فى الفرقة ١٩ مشاة العاملة بفرنسا. ونال أعلي الأنواط لشجاعته. لكنه كمعظم الجنود الذين شاهدوا مقتل أصدقائهم لم يكن يحب الحديث عن هذا الموضوع كثيراً. ومع هذا فقد حكي لى عن اليوم الذى أمر فيه جنوده باقتحام خندق احتله الألمان. وردوا بأن الخندق خال من جنود الأعداء. وحاصره شعور قوى بأن الخوف يمتلك قواته خشية اقتحام الخندق. ولذا فقد سحب مسدسه عيار ٤٥ ملليمتر وهبط درج الخندق بنفسه. وبعد عدة دقائق خرج يقتاد ثلاثة من الأسري الألمان. كان درساً فى القيادة والإقدام لازلت أعيه حتي اليوم. كما أنه ساهم فى تشكيل آرائى عن تفوق الزعامة الأمريكية فى مختلف أنحاء العالم.

ونشأت علي الاعتقاد بأن أمريكا قادت العالم خلال الحرب العالمية الأولي عندما كان أبى يقاتل «هناك» فى الخنادق ضد القيصر، وقد عايشت هذه الزعامة فى الحرب العالمية الثانية. إن كل أمريكى من أبناء جيلي يتذكر أو تتذكر ماذا كان يعمل يوم السابع من كانون الأول ديسمبر ١٩٤١. كنت فى ذلك اليوم فتي فى العادية عشرة مولعاً برياضة التنس. وبعد ظهر ذلك اليوم الأحد كنت قد انتهيت لتوى من لعب مباراة فى نادى أوكس الريفى فى هيوستون، وكنت أسير من ملاعب التنس إلي مبني النادى. وبينما كنت أجتاز أرض الجولف، تناهي إلي سمعى صوت المذياع «تعرض ميناء بيرل هاربور للقصف للتو». لم يكن أبواى مغرمين بالرئيس روزفلت؛ فقد صوت أبى لصالحه مرة واحدة عام ١٩٣٢ لكنه لم يكررها مرة ثانية. وكان معارضاً قوياً للصفقة الجديدة التى كان يعتبر أنها ترقي إلي حد الاشتراكية. وأحياناً عندما يحل بعض ضيوفنا فى المنزل كان يطلب منى قراءة بعض ما أتذكر من أبيات مناوئة لروزفلت من الشعر الهزلى. لكن لم يخطر علي بالى أو علي بال أبى التشكيك فى عبقرية روزفلت فى إدارة السياسة الخارجية. ومثل جورج بوش فإننى أنتمى لجيل اعتنق بصدق فكرة «الباكس أمريكانا» أى أمريكا القوة المشاركة من أجل إحداث تغيير خلاق وبناء حول العالم.

ولاأزال أعتقد أنه فى القضايا الكونية وعلي مدار الخمسين عاماً الأخيرة حدث الكثير من الأشياء ذات القيمة الدائمة إلي حد كبير نتيجة للمشاركة الديناميكية الفعالة للزعامة الأمريكية. وكان هذا أمر مسلم به فى عقلى علي الدوام.

وها هي تلك الزعامة تتعرض للتحدى مرة أخري فى الثانى من آب أغسطس ١٩٩٠. وبهذا الغزو الفاضح للكويت أسفرت طموحات صدام حسين عن نفسها بكل قوتها وأبعادها. وبينما أعتقد كثيرون أن الحشود العسكرية العراقية علي الحدود مع الكويت فى أواخر تموز يوليو لم تستهدف سوي تخويف الكويت لفتح خزائنها، وبينما اعتقد البعض أن العراق قد يستولى علي حقل بترول الرميلة وربما بوبيان وجزر الوعدة ككروت مساومة لانتزاع تنازلات من أمير الكويت، لم يكن أحد يتوقع غزواً شاملاً. وبإرساله طوابيره المدرعة إلي الحدود الكويتية السعودية كشف صدام عن شهيته واستعداده للإقدام علي المخاطرة. وبرغم البيانات المشتركة غير المسبوقة التى أصدرتها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مطار فنوكوفو/٢ فى ثانى أيام الأزمة والتصويت بالإجماع فى مجلس الأمن بإدانة الغزو واصل العراق دفع قواته إلي الكويت علي مدار الأسبوع التالى للغزو.

ورداً علي ذلك أعلن بوش لدي نزوله من طائرة مشاة البحرية رقم واحد فى حديقة البيت الأبيض بعد ظهر يوم الأحد الخامس من آب أغسطس ما يمكن القول أنه أشهر وأشجع موقف خلال رئاسته: «لن يستمر هذا العدوان علي الكويت». واستشهد بعض المنتقدين بهذا الحزم والتصريح الذى أصدره الرئيس علي أنه مؤشر علي نية الرئيس لخوض الحرب منذ البداية الأولي.

ومع هذا سوف تكون هذه قراءة خاطئة لكل من جورج بوش الرجل والموقف الذى وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه باعتبارها القوة العظمي الوحيدة الباقية فى العالم فى شهر آب أغسطس. فقد عكس التصريح إحساسه الغريزى والفطرى منذ اللحظة الأولي بأن هذه ليست أزمة عادية، وأن هذا سيصبح نقطة فارقة فى التاريخ. وأظهر تصريحه أيضاً تصميمه علي ألا يؤتى العدوان العراقى ثماره.



وفي المراحل الأولي من الصراع – منذ أيام شهر آب أغسطس الحارة إلي شهر شباط العاصفة – كان الرئيس يؤكد هذا التصميم مرة تلو المرة كلما أقدم علي اتخاذ قرار، ومع كل قرار كان المجتمع الدولي يقترب خطوة من طرد العراق من الكويت. وما لم يكشفه تصريح الرئيس هو الكيفية التي سيتبعها لتحقيق هذا الهدف.

ومن المشكوك فيه أنه كان بوسع أحد أن يتوقع كيفية نشوب هذه الأزمة. فلم يكن بسع سوي القلة تصور الدور الحاسم الذي سيلعبه الاتحاد السوفيتي بقيادة وزير خارجية نافذ البصيرة هو إدوارد شيفرنادزة في معالجة عدوان دولة حليفة. وما كان أحد يتصور المدي الذي سيذهب إليه العرب في العمل مع الأمريكيين والأوربيين لعزل دولة عربية كان زعيمها يعتقد أنه الوريث الشرعي لعبد الناصر. وباسترجاع الأحداث يمكننا الإشادة تماماً بالكيفية التي أتاح بها انتهاء الحرب الباردة إقامة هذا التحالف الدولي غير المسبوق المعروف بدرع الصحراء، والقيام بالمعجزة العسكرية عاصفة الصحراء. وكيف أتاحا بدورهما تحريك مسار عملية السلام في الشرق الأوسط مما أتاح لإسرائيل في النهاية الجلوس في مدريد والتباحث مباشرة وجهاً لوجه مع جيرانها العرب. فبدون تلك الأحداث المحفزة لما كانت إسرائيل في سلام الآن مع الأردن، وما كانت تتفاوض لإقرار السلام مع الفلسطينيين واللبنانيين.

إن ما فعله الرئيس في الخليج هو الصواب بعينه. لقد أقدم جورج بوش علي اتخاذ خيارات صعبة توقعها العالم من الزعامة الأمريكية، وحتي عندما يشكو بعض أصدقائنا علانية من ممارستنا لتلك الزعامة. ولم يكن أي منا غافلاً عن العقائق السياسية المرعبة التي أفرزتها الأزمة لرئيس كانت واثقاً أنه سيخوض حملة لإعادة انتخابه في غضون سنتين. وفي أحد أيام آب أغسطس كنا نجلس علي إنفراد بالمكتب البيضاوي. وقلت له: «اعرف أنك تدرك حقيقة أن الوضع يحمل كل الأسباب التي أدت إلي سقوط ثلاثة من آخر خمسة رؤساء أمريكيين: أزمة رهائن، تراتيب القتلي، ركود اقتصادي شامل، نتيجة ارتفاع سعر برميل البترول إلي أربعين دولاراً». وفهم الرئيس المغزي تماماً. ورد قائلاً: «جيمي. إنني أعرف ذلك، لكننا نفعل الصواب. إننا سنفعل ما هو في المصلحة الوطنية للولايات المتحدة وليحدث ما يحدث».

دبلوماسية القوة وبناء التحالف

فى اجتماع عقده مجلس الأمن القومى فى الرابع من آب أغسطس فى كامب ديفيد قرر الرئيس أن الأولوية الحتمية هي ردع أي تقدم عراقى نحو العربية السعودية. وبتوازى مع هذه المهمة مهمة إفراغ الغزو العراقى من ثماره بانتهاج سياسة دبلوماسية القوة ضد صدام حسين. وسوف نبدأ بالضغوط الدبلوماسية، ثم تطبيق الضغوط الاقتصادية لأقصي درجة منظمة من خلال الأمم المتحدة، وأخيراً التحرك نحو الضغط العسكرى بزيادة حجم القوات الأمريكية تدريجياً فى الخليج. وكانت استراتيجيتنا هي قيادة تحالف سياسى عالمى بهدف عزل العراق. وأملنا عن طريق استخدام العقوبات الاقتصادية حمل صدام علي دفع ثمن غال لعدوانه ليجد نفسه مضطراً للإفراج عن رهائنه الغربيين وينسحب من الكويت. وإذا لم ينسحب فسوف نطرده بالقوة العسكرية، ولم يخامرنى أدني شك فى أنه لتطبيق هذه الاستراتيجية فإننا فى حاجة لإقامة تحالف بين الشركاء، وفى الحقيقة فإننى أبلغت شيفرنادزة الكثير عندما إجتمعنا فى الثالث من آب أغسطس . والمرء أن يتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لهجومنا الدبلوماسى لو كنا قد تجاهلنا السوفيت الحليف التقليدى للعراق. فاستراتيجيتنا فى ممارسة ضغوط اقتصادية كان لابد وأن تمنى بالفشل لو رفضت تركيا إغلاق خط أنابيب النفط القادم إليها من العراق. كما أنه فى حالة القيام بعمل عسكرى فإننا فى حاجة إلي تأييد الشعب الأمريكي والكونجرس لدعم الحرب. ولكسب هذا التأييد فعلينا إثبات أننا استنفدنا أولاً كافة الوسائل السلمية، وأننا تصرفنا كزعيم للمجتمع الدولى وليس كحارس منفرد، وأننا أصررنا علي أن تشاركنا الدول الأخري العبء وخاصة الكلفة المالية، وأن العرب فى الخليج لن تثير حرباً مع السوفيت. لأنهم يتصرفون بالتنسيق معنا. وفى ظل تلك الظروف لم تكن هناك أدني فرصة أو نسبة مئوية لاتخاذ قرار منفرد بتقليل فرصتنا إلي حد كبير فى تحقيق نجاح تام. لأنه سيعنى فشلا سياسيا شبه مؤكد دولياً ومحلياً.

وعلي وجه التحديد كانت الأمم المتحدة هي الأداة الأولي لتشكيل التحالف. ففى الثانى من آب أغسطس وبتوصية منا أقر مجلس الأمن الدولى أول ما سيصل مجموعه إلي اثنى عشر قراراً، ولم يكتف القرار رقم ٦٦٠ بإدانة غزو صدام للكويت. بل طالب بانسحاب شامل

وغير مشروط. كانت لغة القرار بالغة البساطة والوضوح قمنا بصياغتها بهدف التأكيد على أن التصويت إما مع أو ضد العدوان، وكنا نعتقد أنه من الضروري إبعاد الجدل عن أن يصبح مواجهة بين العراق والولايات المتحدة مما سيزيد من صعوبة مهمة بناء التحالف والحفاظ على استمراره .وساهمت الطبيعة الصارخة لعدوان صدام بكل تأكيد في ذلك فحتي كوبا فاجأتنا بالانضمام إلينا في التصويت بالإجماع بـ ١٤صوتاً مقابل لا أحد، مع امتناع اليمن فقط عن التصويت.

وفي اليوم التالي في موسكو شاركت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في إدانة الغزو وقطع إمدادات الأسلحة إلي بغداد. وبعد ثلاثة أيام وافقت العربية السعودية علي نشر مائة ألف جندي أمريكي في المملكة. وفي غضون أقل من أسبوع كانت كتل البناء الأساسية الثلاث للتحالف قد أرسيت بالفعل.



وكان بالوسع أن تكون عملية عاصفة الصحراء مبادرة أمريكية صرفا. فمن الوجهة القانونية كان الرئيس مستوفياً لشروط التصرف بموجب المادة «٥١» من ميثاق الأمم المتحدة التي تخول للدول الأعضاء حق الدفاع عن النفس.

واعتقد بعض حلفائنا أننا يجب أن نطبق المادة «٥١» وأن نبدأ بنشر القوات الأمريكية في الخليج، وأن نباشر العمليات الحربية بأسرع وقت ممكن. كان أبرز هؤلاء الصقور هي مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا، وليس في الأمر أدني مفاجأة.

وفي السادس من آب أغسطس اجتمع الرئيس في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض مع رئيسة الوزراء. وكُتِبَ الكثير عن العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمي كما أن العلاقات التي ربطت الدولتين علي مدي قرنين عتيقة ومستديمة من كافة النواحي. وليس لنا أصدقاء أفضل من البريطانيين. فالعلاقات بيننا شديدة الخصوصية. وهذا يمنح

البريطانيين رخصة لا يملكها أحد غيرهم، هذه الرخصة التي كانوا يلوون بها أذرعنا أحياناً. وكانوا مهرة في ذلك في بعض الأحيان، وكما أظهرت قيادتها الشجاعة خلال حرب فوكلاند عام١٩٨٢ كانت مارجريت تاتشر عضواً رائداً في مدرسة – أفعل ما يتعين عمله الآن وليساورك القلق عليه فيما بعد – . ولم تتردد مطلقاً في أن تجهر بما تفكر فيه، وفي هذه الحالة لم يخالجها أدني حرج في الإعراب عن شكوكها الخطيرة لتفضيلنا اتباع نهج متعدد الأطراف تجاه صدام. وقالت: «لايمكننا بكل بساطة السماح باستمرار هذا. علينا أن نعالجه الآن».

واتفقنا علي أن المادة «٥١» من ميثاق الأمم المتحدة تخول لنا الحق في التصرف من جانب واحد. لكنها كانت تعتقد أن التوجه بطلب إلي مجلس الأمن لفرض عقوبات ضد العراق، وهو ما حدث في ذلك اليوم – سوف يعرقل اتخاذنا لإجراء عسكري في وقت لاحق بموجب المادة «٥١» من ميثاق الأمم المتحدة. وأقتضي بوب كيميت بأنها علي خطأ من الوجهة القانونية، واعترفت هي بذلك في وقت ما فيما بعد. وانطلاقاً من طريقة تفكيري كان اختلافنا حول الجوانب القانونية خلافاً أكاديمياً. وعملياً لم تكن أمام الولايات المتحدة من خيار أولي آخر سوي تجربة نهج التحالف في التعامل مع الأزمة. وبدون هذا لم يكن بوسعنا مطلقاً حشد كل هذا التأييد لإقناع صدام بأنه يواجه المجتمع المتحضر بأسره. وليس قوة عظمي منفردة ربما يستطيع ترويعها. وبدونه ما استطعنا مطلقاً الحصول علي هذا القدر من التضامن من الدول، وهو تضامن يعد حاسماً لعزل صدام دبلوماسياً، وبدونه أيضاً لكانت مصداقية قضيتنا موضع شك – ليس في العالم العربي فحسب – لكن لدي البعض في الغرب أيضاً بما في ذلك الولايات المتحدة. وفي هذا الوقت لم نكن نملك التأييد السياسي الداخلي الضروري لعمل ما أقدمنا علي عمله في نهاية الأمر لطرد العراق من الكويت. وتحريك «٥٥٠»ألف جندي أمريكي إلي الخليج وخوض الحرب. وكم من المرات تعين علي القوي العظمي الادعاء كذباً بأنها تسعي لعمل جماعي ثم تمضي لتنفيذه بمفردها مثلما فعلنا في جرينادا عام ١٩٨٣ وفي بنما ١٩٨٩ . لكن الحال لم يكن كذلك هذه المرة بكل تأكيد.

أما وقد قررنا إقامة تحالف فقد صرفنا كل اهتمامنا إلي المهمة العملية والشاقة بضم الأعضاء والحفاظ علي التحالف طيلة مراحل الأزمة. كانت التغيرات الجذرية تجتاح الاتحاد

السوفيتي، فمشية الحرب لستقال شيفرنادزة ليحرم الولايات المتحدة من أقوى حلفائها داخل الحكومة السوفيتية.

وألقت سياسة العقوبات أعباءً مالية ضخمة علي عدد من الدول. بل إن الكثير من الدول المشاركة في التحالف كانت مترددة في البداية في الدخول فعلاً في حرب مع العراق. وكنت أعتقد أن الحفاظ علي التضامن في التحالف أشد صعوبة من تشكيله.

وفي إدارة التداعيات الإقليمية للأزمة كنا في حاجة لأن نفكر في مجموعة اللاعبين الرئيسيين في المنطقة إضافة إلي السعوديين: مثل تركيا هذا البلد الذى تتسم فيه الحكومة المدنية عادة بالضعف، والذى ساهم القلق الحقيقى الذى ينتابه حيال القومية الكردية في تقويض استقراره الوطنى، وسوريا التى يكن رئيسها كراهية لصدام. لكنه كان أيضاً منح الراحة لإسرائيل، ومصر صوت الاعتدال العربي الرئيسي في المنطقة. وإسرائيل التى كان برسمها تقويض للتحالف في أية لحظة بالإقدام علي أى تحرك وقائى ضد صدام وإيران التى لم يتفوق علي عدائها للعراق سوي كراهية الولايات المتحدة، والأردن التى اتبع ملكها سياسة المراوغة تجنباً لاثارة نفور جاره القوى صدام، والفلسطينيون الذين هدد تأييدهم لصدام آمالنا في حشد أغلبية عربية مناهضة للعراق ودول الخليج المطمع التالى لصدام، واليمن الذى شق تأييده للعراق صف التضامن العربي.

وبرغم هذا كانت عملية درع الصحراء أولاً وفي المقام الأول مجابهة عالمية. وهكذا فجأة وعلي أعقاب انحسار القوة العظمي السوفيتية اتجه اثنان من أضخم جيوش العالم نحو القتال في منطقة تشكل ملتقي لثلاث قارات وثلاث حضارات وثلاث ثقافات. بما ينطوى عليه ذلك من تداعيات محتملة بالغة الخطورة علي الاستقرار الإقليمي والأمن الاقتصادى العالمي. وأكدت الحاجة الملحة للأمن الاقتصادى العالمي إلي جانب الضرورة الماسة لجمع مليارات الدولارات لتمويل جهودنا ضرورة إشراك القوي العالمية الناشئة مثل اليابان وألمانيا الغربية. ورسخ قرار ذهابنا إلي الأمم المتحدة منذ البداية الطبيعة العالمية للأزمة بوضوح.



وربما تبدو عملية حشد تحالف دبلوماسي داخل مجلس الأمن – نظرياً – تجربة خادعة بسيطة. وفي أي قضية بديهية كنا عادة ما نبدأ بنظرائنا بين «الدول الخمس دائمة العضوية» بريطانيا العظمي وفرنسا والاتحاد السوفيتي والصين حيث بوسع أي منهم إجهاض أهدافنا باستخدام الفيتو. وسوف نبدأ حتماً ببريطانيا أخلص حلفائنا علي الدوام. ويلي بريطانيا فرنسا ثم السوفيت. وفي هذه الحالة، ونتيجة لاجتماعي مع شيفرنادزة في ٢ آب أغسطس كنا قد حصلنا بالفعل علي التزام من السوفيت بفرض حظر علي تصدير الأسلحة للعراق. وظلت فرنسا لأمد طويل مصدراً رئيسياً للأسلحة للعراق، وكانت الحكومة واقعة تحت ضغط الفرنسيين. وما كان بوسع الفرنسيين الظهور بمظهر أقل ليناً عن السوفيت، وبمجرد أن نتوصل لإجماع قوي بين هؤلاء الثلاثة يصبح من اليسير التعامل مع الصينيين. ولم تكن الصين تكره شيئاً قدر كراهيتها أن تكون مستثناة مما يحب كيميت أن يسميه «نادي الكبار» ببساطة شديدة يكره الصينيون أن يتم عزلهم. كما كانوا يكرهون بصفة خاصة أن يظهروا أنهم أشد عرقلة عن السوفيت. ويرجع هذا في جانب منه إلي أن مذبحة عام ١٩٨٩ التي راح ضحيتها مئات المنشقين في تيانانمين تسببت في عزلهم دبلوماسياً.

وكانت الاستراتيجية التي اتبعناها في مجلس الأمن استراتيجية تبادلية لمجمل نهج دبلوماسية القوة. وغالباً ما أثبتت فعاليتها، وكان السوفيت مهمين – ليس فقط باعتبارهم قوة عظمي تعيش في مرحلة انحسار – لكن بوصفهم لاعبا إقليمياً فاعلاً وراعياً لتوريد الأسلحة للعراق وسوريا لفترة طويلة. ولكل من بريطانيا وفرنسا تاريخ طويل تقلب بين النجاح والفشل في الشرق الأوسط. فبريطانيا هي المسؤولة في المقام الأول عن إنشاء العراق الذي استقل عام ١٩٣٢. وبرغم ابتعادهما عن المنطقة بعد حرب السويس فإنهما اعتبرتا الأزمة فرصة سانحة لتأكيد تراثهما كقوتين عظميين. كانت بكين علي الدوام لاعبا غير مؤهل من غير المرجح أن يؤيد جهودنا. لكنه لن يرغب في تقويضها في نهاية المطاف.

وفور ضمان تأييد الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن يمكن أن يتحول تركيزنا إلي الدول العشر الأخري الأعضاء في مجلس الأمن. والكثير منها دول غير منحازة بالاسم، دول صغيرة يمكن انتزاع أصواتها. واتبعنا معها استراتيجية فاقت الامتياز تمثلت في الإشارة إلي أننا عرضنا قضيتنا علي الأمم المتحدة الملاذ التقليدي للفقراء بدلاً من العمل

بمفردنا. وكان بوسعنا استغلال واقع آخر: فمع انهيار الشيوعية ترسخ وضع الولايات المتحدة كقوة عظمي وحيدة. ونتيجة لذلك بات الجميع يخطب ودها. وقد أكسبها هذا نفوذاً هائلاً لم نكن لنتردد في توظيفه خلال الأزمة.

السوفيت

اعتبرت السوفيت مفتاحاً أساسياً منذ البداية. وفي كل حساب للاستراتيجية كنت أعتبر تأييدهم شرطاً لازماً لتشكيل تحالف يعتد به. وكان يتعين التودد إليهم ورعايتهم وإشراكهم لدرجة لم يكن يتصورها أي صانع سياسة أمريكي من قبل. وفي الواقع فقد تبادلت أنا وشيفرنادزة إحدي عشرة مكالمة هاتفية وخمس رسائل في شهر آب أغسطس وحده، وهو مستوى من التشاور لم يكن بالوسع تصور حدوثه قبل عام واحد فقط. كانت موافقتهم حاسمة للغاية، وكانت علاقتي مع شيفرنادزة يعول عليها بالقدر الكافي للدرجة التي كنت مستعداً معها لقطع المزيد من الأميال للإبقاء عليها حتي في ضوء الاعتراضات التي تصدر من حين لآخر عن بعض زملائي في أجهزة الأمن القومي. وحتى الآن كان تأييدهم لازماً علي قدر مشقته. وذكرني بذلك رسالة تلقيتها من شيفرنادزة بعد يومين فقط من اجتماعنا في مطار فنوكوفو/٢ . كانت لهجة الرسالة مختلفة إلى حد بعيد عن اللهجة الرقيقة التي سادت اجتماعنا، وجاء في الرسالة أن حكومته سوف تعارض إصدار أي قرارات جديدة في الأمم المتحدة حتي يُمنَحَ العراق وقتاً كافياً لسحب قواته من الكويت. كان من الواضح أن حالة الغضب تتملك اللوبي العربي بسبب البيان الأمريكي السوفيتي المشترك، وأن شيفرنادزة يدفع الثمن.

وفي صبـاح الخامس من آب أغسطس اجـتـمـعت في البـيت الأبيض مع برينت سكوكروفت ومع الرئيس لبحث المهمة الدقيقة بإبلاغ الأخبار العاجلة للسوفيت علي وجه السرعة بأن الملك فهد طلب تدخل القوات الأمريكية. وفي ضوء رسالة شيفرنادزة فلابد

وأنهم كانوا غير سعداء. وقررت ضرورة الاتصال بشيفرنادزة هاتفياً، وحاولت تجميل الأخبار قدر المستطاع، وأبلغته بأن الملك فهد طلب تدخلنا، لكننا لا نعتزم توسيع نفوذنا في الخليج.

وفي صباح السابع من آب أغسطس اتصلت من واشنطن بإدوارد شيفرنادزة بالداشا الخاصة به خارج موسكو. وناقشت معه أحدث تقارير المخابرات عن الغزو، وقلت إن الرئيس أرسل قوات أمريكية إلى الخليج استجابة لطلب الملك فهد، وأخبرته أن القوات ستبدأ انتشارها اعتباراً من اليوم التالي، وأن الرئيس سيدلي بتصريح علني عن الموضوع يوم الأربعاء. وفي الثامن من آب أغسطس أوضحت أن هذا الانتشار ذو طبيعة مؤقتة، وأن قواتنا ستغادر العربية السعودية بمجرد تسوية الأزمة. فليس لدينا نية في السعي لوجود أمريكي دائم في المنطقة.

وأحسست بمدى التوتر الموجود على الطرف الآخر لخط الهاتف، فالسوفيت يشعرون بحساسية مفرطة تجاه وضعهم. وحتى برغم إخطارهم بقرارنا قبل ثمان وأربعين ساعة سلفاً كان الغضب يتملك شيفرنادزة، وقال: أريد أن أعرف هل كنت تتشاور معنا أم تخطرنا؟.

ورددت «حسناً، إدوارد إنني أتحدث معك لأن هذا شيء لا نريد أن نفعله بأنفسنا. إنني أريد أن أعرف منك ما إذا كانت القوات السوفيتية تريد أن تشارك معنا في قوة متعددة الجنسيات. كان هذا سيوضح التصميم وسيجعل اللجوء للقوة أقل احتمالاً».

وأدركت منذ هذه اللحظة أنه من المفيد للغاية تجنب الإجابة المباشرة على السؤال غير المريح على أمل نقل المناقشة إلى أرضية أكثر راحة وألفة. كان التصرف تصرفاً ارتجالياً لكن يبدو أنه كان فعالاً. ولمست تغيراً في لهجته حين لم يلبث أن سأل: «ما رأيك في لجنة أركان الحرب بمجلس الأمن الدولي؟» وكم سعى السوفيت لسنوات لإحياء هذا الجهاز المحتضر المنبثق عن الأمم المتحدة كأداة لمنح أنفسهم دوراً أكبر في عمليات حفظ السلام. وبرغم التطمينات التي قدمتها لشيفرنادزة في موسكو قبل ثلاثة أيام كان اللوبي العربي بوزارته مقتنعا على مايبدو بأن الرئيس يتآمر لتوجيه ضربة أمريكية للعراق، وهكذا فإنه يلح على فكرة لجنة أركان الحرب منذ وقوع الغزو على أمل إمكانية استخدامها لمنع وقوع هجوم لم

تكن لدينا أي نية لشنه في ذلك الحين. وأبلغته بأنني سوف أثير القضية علي الفور مع الرئيس.

وكما هو متوقع انتهي اقتراحي بشأن المشاركة السوفيتية في قوة متعددة الجنسيات واقتراح شيفرنادزة بإحياء لجنة أركان الحرب إلي لاشيء مع بيروقراطية الخارجية. حيث دفعت بأن دعوة السوفيت لإقرار وجود عسكري أمريكي متكرر في الخليج يتعارض مع أربعين عاماً من الدبلوماسية التي وضعت لمنع تدخل السوفيت في المنطقة. وفي البداية أعرب كل من الرئيس وباول وتشيني وسكوكروفت عن شكوكهم. وأبدي باول قلقاً خاصاً حول منح السوفيت دوراً في هجوم محتمل علي العراق في المستقبل.



وتمثل رأيي في أننا بحاجة إلي السوفيت أكثر من أي أحد آخر. فقد أقدم جورباتشوف وشيفرنادزة علي الكثير من المخاطر في الاتفاق معنا علي بيان مشترك. كان الاعتقاد بأننا يمكننا مواصلة إبعادهم عن ساحة الشرق الأوسط ينطوي علي سذاجة ويشكل خطراً علي مصالحنا. وفي النهاية تطور إجماع بأنه ربما يكون من الأهمية البالغة بمكان إشراك السوفيت في تحالفنا العسكري. فبالتأكيد ستقوم قيامة صدام حسين بمجرد أن يعرف أن المصدر الرئيسي لتوريد السلاح له ربما يكون قد بات علي استعداد الآن للانضمام إلي عمليات مشتركة مع الأمريكيين. واتصلت هاتفياً بشيفرنادزة في ٨آب أغسطس لإبلاغه بأن الرئيس ليس لديه «مشكلة مطلقاً» تجاه مشاركة السوفيت العسكرية في قوة متعددة الجنسيات في الخليج. ووعدني ببحث الفكرة مع جورباتشوف. وبعد ساعات عدة اتصل بي ليبلغني بأن السوفيت لن يشاركوا في تحالف عسكري. وعلمت فيما بعد أن ذكريات المأساة السوفيتية في أفغانستان حيث تورطت موسكو في حرب عصابات مع التمرد الإسلامي قد ساهمت في وأد الفكرة. ومع هذا كنت متيقناً من أن هذا الرفض يخدم مصالحنا الاستراتيجية جيداً. فرفضهم المشاركة ألحق الضرر بمصداقية المتشددين الذين رفضوا المشاركة في حل يشتمل علي

استخدام القوة. وفي الوقت ذاته تراجعت حدة حساسيات السوفيت الهشة بعرضنا إشراكهم في التحالف. وأدركت أن مجمل علاقاتنا لم تصب بسوء، وذلك عندما أبلغني شيفرنادزة بأن السوفيت سوف يؤيدوننا في قرار جديد في الأمم المتحدة.

الوصلة التركية

وفي وقت لاحق من هذا اليوم أصدر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٦٦١ الذي تضمن فرض عقوبات اقتصادية مشددة علي العراق. فقد أقر القرار بالفعل فرض حظر شامل علي كافة التعاملات التجارية مع صدام وحكومته العميلة في الكويت. ولم تكن أولي خطوات استراتيجيتنا هي عزل العراق دبلوماسياً فقط. بل خنق اقتصاده أيضاً. فعزم صدام يعود في جانب منه إلي رغبته في ملء خزائنه الخاوية من عائدات البترول الكويتية الضخمة. ولحرمانه من هذه الثروة وإثبات مصداقية العقوبات كان من الضروري إغلاق خط أنابيب البترول الذي يضخ النفط العراقي إلي البحر المتوسط عبر أراضي تركيا. وبعد ثلاثة أيام من تصويت الأمم المتحدة علي القرار طرت إلي تركيا لعقد سلسلة من الاجتماعات مع الرئيس تورجوت أوزال رئيس تركيا لتكون الأولي من عشرين دولة تعين علي أن أزورها خلال الأزمة.

وكنت أعرف أوزال منذ أيام وزارة الخزانة. فقد تولي وهو الاقتصادي البارع تمثيل بلاده في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. وهو رجل ودود سرعان ما تعلو الابتسامة شفتيه. واعتمد أسلوبه الثابت في صنع القرار علي غريزته لا علي البيروقراطية الحكومية. وكانت إحدي مميزات أوزال أنه أمر بالفعل بإغلاق خط الأنابيب في اليوم السابق لوصولي لأتقدم إليه بهذا المطلب. وأبلغني بأنه يعرف بأن القرار لن يحظي بالشعبية. لكن هذا هو الصواب، وأنه لن يسمح بمرور برونقطة واحدة، وقال أيضاً إنه يعتقد بأن صدام رجل مجنون، وأنه إذا نشبت الحرب فإن الجيش العراقي لن يقاتل. ووصف أوزال

الجيش العراقي بأنه «جيش أجوف» وخلال اجتماعنا كان أوزال يفتح ويغلق التليفزيون ليتابع أحدث التطورات عبر شبكة سي إن إن. وأعرب أوزال عن اعتقاده بأن صدام شأن معظم المستأسدين سيغير نهجه عند المواجهة. وأشار إلي أن العقوبات ستؤتي الأثر المرغوب في غضون أقل من ثلاثة أسابيع. وكم وددت أن يكون علي صواب. لكن إذا لم يكن الحال كذلك فسيكون علينا في نهاية المطاف أن نطلب الكثير من تركيا. ومنذ عام ١٩٦٦ احتفظت الولايات المتحدة بجناح من المقاتلات التكتيكية في قاعدة جوية تركية بالقرب من انجرليك. وكان الوجود العسكري الأمريكي في تركيا مثار جدل علي الدوام، وبسبب المعارضة السياسية الداخلية رفض الأتراك قيام طلعات أمريكية خلال أزمة الرهائن عام ١٩٨٠ أو نشر مشاة البحرية المشؤوم في لبنان عام ١٩٨٣. وإذا دخلنا الحرب مع العراق فسوف نحتاج إلي موافقة أوزال علي نشر مزيد من طائراتنا الحربية في تركيا وشن هجمات جوية من قاعدة إنجرليك والقواعد الجوية الأخري. وبرغم تفاؤله كنت أشك في أن أوزال يشعر في قرارة نفسه بأننا سنكون في حاجة إلي قواعده في نهاية الأمر. ولمساعدته في مواجهته دبلوماسييه العصبيين والرأي العام التركي أبلغته بأن الولايات المتحدة ملتزمة بتوفير الأموال اللازمة لتعويض ما يقدر بنحو مليار دولار من العائدات السنوية ستخسرها تركيا جراء الحظر التجاري. وكنت أعرف أيضاً أن الاحتياجات النفسية لتركيا أكثر أهمية من المتطلبات الاقتصادية. فعلي مدار سنوات ثار غضب تركيا تجاه ما تعتبره افتقاد الالتزام من بعض زملائها في حلف شمال الأطلنطي. وكانت تركيا تتوق لكي تعامل كشريك كامل في حلف شمال الأطلنطي. كما كانت تريد علي أحر من الجمر الحصول علي عضوية المجموعة الأوروبية. وقلت لأوزال: إنني تشاورت بالفعل مع الحلفاء الرئيسيين في حلف شمال الأطلنطي وإنني مفوض في إعادة التأكيد علي التزام الحلف بالدفاع عن تركيا لو تعرضت لهجوم عراقي انتقاماً لإغلاق خط أنابيب البترول. وأبلغته أيضاً أن الولايات المتحدة أقرت رسمياً وسوف تزيد بقوة طلب تركيا بالانضمام إلي المجموعة الأوروبية رغم أن هذا القرار من صميم اختصاصات المجموعة الأوروبية.

وأبدي أوزال امتنانه. غير أنه كانت لديه قائمة مطالب خاصة. وقال إن تقديرات الخبراء الاقتصاديين الأتراك تشير إلي أن تركيا سوف تخسر عائدات تقدر بـ ٢,٥٠مليار

دولار نتيجة إغلاق خط أنابيب البترول. وأشار إلي أنه سيكون من المفيد لو أمكن إقناع البنك الدولي بزيادة قيمة قروضه إلي تركيا من ٤٠٠ مليون دولار إلي مليار دولار.

وتحسباً لهذا الطلب كنت قد تحدثت قبل أسبوع مع الرئيس بوش والصديق القديم باربر كونابل عضو الكونجرس الجمهوري السابق عن نيويورك الذي عينه الرئيس رونالد ريجان رئيساً للبنك الدولي بتوصية مني كوزير للخزانة. وشعرت بالسعادة لإخطار أوزال باستعداد البنك الدولي تقديم قروض تتروح ما بين مليار إلي ١,٥ مليار دولار كل عام علي مدي العامين القادمين.

واعتقد أن كل ذلك كان له ما يبرره بكل جدارة. لكنه كان أيضاً مؤشرات برجماتية لواقع سياسي. فنحن في حاجة إلي تأييد أوزال. بل وربما نحتاج بشدة صلاحياته في وقت لاحق. ووفر استعداده للمجازفة والمشاركة من أجل الولايات المتحدة منذ البدايات الأولي لنا حافزاً شخصيا لتقديمها له. وخلال مراحل الأزمة كان أوزال متفانياً في تأييده للولايات المتحدة. لقد كان زعيماً ذو قلب كبير يتحلي بشجاعة فائقة، ومثل شيفرنادزة كان مستعداً المرة تلو الأخري لتجاوز تحفظ وزارة خارجيته وأن يفعل الصواب. وكم كانت أمريكا محظوظة لأن يكون لها أصدقاء وحلفاء مثله. وكان لي عظيم الشرف أن أمثل بلادي وأنا مواطن عادي وبتكليف من الرئيس كلينتون في تشييع جنازته عام ١٩٩٣.

وقبيل انتهاء الاجتماع أكد أوزال مجدداً الفكرة الملحة بأن صدام هو أكثر الطغاة خطورة في العالم. وقال أوزال إنه ينبغي – كحد أدني – تدمير ما بحوزته من صواريخ سكود ومنشآته الكيماوية، ويجب طرده من العراق بقوة السلاح لو اقتضي الأمر. ولكنه أكد أن هذه الخطوات غير كافية للتعامل مع الخطر.

وتحدث أوزال بصراحة بلغت حد القول: «هل نحن بسبيلنا إلي التخلص من صدام حسين؟». ورددت قائلاً: «إن القانون يمنعنا من اتخاذ إجراءات لمساعدة المسؤولين الأجانب. إن تركيزنا ينصب علي خنقه من خلال العقوبات السياسية والاقتصادية». ولم يبد القلق علي

يزال. وقال: «إننا في حاجة للإجهاز عليه. فالجميع معرض للخطر إذا استمر وجوده. إننا سنكون في خطر حقيقي. رجاء أن تبلغ الرئيس بوش بالمضي قدماً في ذلك».

السوفييت مرة ثانية

خلال الأسابيع التالية تحدثت بشكل شبه يومي مع شيفرنادزة الذي لايزال اللوبي العربي يحرقه مع استمرار غضبه من البيان المشترك الذي صدر في فنوكوفو. فمن يسمون بالخبراء الذين طمأنوا شيفرنادزة بأن صدام لن يشن أي هجوم يجادلون الآن أن بوسعهم السيطرة عليه. ودفعوا بأن التلويح باستخدام القوة أمر غير ضروري لإعادة دولة حليفة إلي صوابها. بل إنه سوف يدمر العلاقة معها. وكنت أعرف أنه متردد، وأنه يريد الوقوف بجانبنا لكنه يتعرض لضغوط جمة. وواصلت التأكيد علي أن القضية لا تتمثل في أننا نلتمس ذريعة لاستخدام القوة. بل إننا في حاجة إلي الإعراب عن استعدادنا لاستخدام القوة لإجبار صدام علي الخروج من الكويت. وفي غضون ذلك وافق شيفرنادزة علي تأييد اثنين من قرارات الأمم المتحدة. يعلن أولهما بطلان ضم العراق للكويت ويطالب الثاني بالإفراج الفوري عن كافة المواطنين الأجانب الذين يحتجزهم صدام كرهائن بالفعل. غير أن التعاون بين القوتين العظميين توقف تقريباً في منتصف آب أغسطس عندما ذكرت المخابرات الأمريكية أن ناقلة تجارية تبحر باتجاه ميناء عدن اليمني حاملة شحنة من النفط العراقي.

كان للجدل حول ما إذا كان يتعين وقف الناقلة باستخدام القوة العسكرية واحداً من المواقف القليلة التي وجدت نفسي فيها معزولاً تماماً من زملائي تشيني وسكوكروفت وباول الذين ارتأوا جميعاً ضرورة وقف الناقلة وشل حركتها واعتلائها. بل كانت هناك بعض الآراء المنادية بإغراق الناقلة لو تجاهلت طلقات التحذير الأمريكية. وبدأ البعض في وزارة الخارجية يتندر علي مؤيدي هذا النهج بالإشارة لهم باسم «جمهور المادة ٥١» وكنت مقراً بأن لنا الحق بموجب المادة ٥١ في وقف إبحار الناقلة. ولكن في ضوء أحاديثي مع شيفرنادزة كنت واثقاً من أن أي إجراء منفرد من جانبنا سينطوي علي كارثة في هذه اللحظة. فمجلس الأمن

الدولي قد صوت بفرض عقوبات اقتصادية ضد العراق. لكنه لم يجز وسائل عسكرية لتطبيقه. وبدون أي تفويض صريح جديد من الأمم المتحدة كنت واثقاً من ابتعاد السوفيت عن التحالف لتحدث كارثة سوف تهدد استراتيجيتنا كلها بكل تأكيد.

وكنت أتحدث عبر وصلة محمولة للاتصال بالقمر الصناعي مثبتة علي قمة صخرة جرانيتية (تحولت إلي مرتع لقوارض المرموط) تبعد بضع ياردات عن الرواق الأمامي لكابينة مزرعتي بيندالي في ويومينج، وأبلغت شيفرنادزة بأنني أوعزت للرئيس بأن نتخلي عن اعتراض الناقلة. لكن علي شرط أن يؤيدنا السوفيت في إصدار قرار جديد في الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة العسكرية لتطبيق الحظر التجاري. ولم يبد عليه الارتياح وقال إن السوفيت يريدون التأكد من أن العراقيين يتهكمون الحظر قبل قطع أي خطوة جديدة.

وفي العشرين من آب أغسطس أبلغني شيفرنادزة بأنه يري أن بوسع السوفيت إقناع صدام بالانسحاب غير المشروط وطلب إمهاله خمسة أيام للانتهاء من المسألة. ووافقت علي رفع طلبه إلي الرئيس لكنني اقترحت اختصار مدة المهلة.

واتصلت بالرئيس في كينيبنكبورت حيث أصابه اقتراحي بإحباط واضح. كان الجميع يبلغونه بأن التسويف سوف يقوض إدراك العزيمة الأمريكية. وأبلغت الرئيس «بأننا سنكون في موقف أسوأ لو خسرنا السوفيت عما لو خسرنا السفينة» وعقب اجتماع مع تشيني وباول وسكوكروفت ولاري إيجلبيرجر انحاز إلي صفي علي مضض. ويوم الأربعاء ٢٢ آب أغسطس اتصلت بشيفرنادزة وقلت له إن أمام السوفيت ثلاثة أيام. فقد وافق الرئيس علي تأجيل التصويت علي قرار جديد للأمم المتحدة حتي يوم السبت ٢٥ آب أغسطس. وتساءلت: «لكن هل تضمنني الآن أنه إذا تحركنا يوم السبت هل نحصل علي تأييدهم؟ ووعدني شيفرنادزة ببحث الأمر»

وفي ٢٤ آب أغسطس اتصل بي شيفرنادزة وأبلغني أن جورباتشوف بعث برسالة شديدة اللهجة إلي صدام يطلب منه تقديم إجابة قاطعة وشافية في غضون أربع وعشرين ساعة عما إذا كان سينسحب من الكويت. وبعد ظهر اليوم التالي وصلتني رسالة علي وزارة الخارجية.

بيرس: وعدت بالاتصال بكم في الساعة الحادية عشرة بتوقيت موسكو. ولكن نظراً لانشغالي في الكرملين فإنني أطلب مساعدة السفير ماتلوك لنقل رسالتي. لقد تلقيت رداً من العراقيين. وأعتقد أن التطبيق عملية غير مجدية. وهكذا فقد قررنا إصدار تعليماتنا لمندوبنا بمجلس الأمن للاتصال بالسفير بيكرينج والمندوبين الآخرين بمجلس الأمن الدولي. وكما أبلغتكم فسوف نقترح تعديلات معينة علي مشروع القرار دون المساس بجوهره. لكن مع توسيع نطاق الوسائل التي يمكن استخدامها لأغراض السيطرة. وأعتقد أن بوسع مندوبينا الآن بدء مشاورات فيما بينهم ومع الأعضاء الآخرين في مجلس الأمن الدولي للعمل علي إقرار مشروع القرار. إذا كان لديك أي استفسار وعند الضرورة سأكون علي استعداد غداً لتلقي اتصال منكم »

إدوارد شيفرنادزة

وكنت أعرف شيفرنادزة بما يكفي لأفهم أن لغة رسالته تعني أنه سئم تماماً من اللوبي العربي بوزارته ومن العراقيين أيضاً. وارتكب صدام خطأً جسيماً أيضاً في إساءة الحسابات لعدم الرد بإيجابية علي السوفيت. وهكذا تقوض نفوذ اللوبي العربي في الخارجية السوفيتية علي جورباتشوف وشيفرنادزة.



وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي ٢٥ آب أغسطس أقر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٦٦٥ بمنع كافة التعاملات التجارية مع العراق باستخدام كافة الوسائل وصدر القرار بأغلبية ١٣ مقابل لاشيء مع امتناع اثنين عن التصويت هما كوبا واليمن. وأعتقد أن التأييد السوفيتي للقرار كان لحظة حيوية في العملية الدبلوماسية برمتها. لقد كان في اعتقادي تصويتاً صعباً عن قرار استخدام القوة في تشرين الثاني نوفمبر. فلو كنا قد طبقنا المادة ٥١ – واعتلينا أو أغرقنا الناقلة فأعتقد أننا ماكنا قد حصلنا علي تأييد السوفيت لنا في هذا القرار الذي يجيز استخدام القوة العسكرية لتطبيق الحظر التجاري، وكذلك علي القرارات التالية التي

أجازت استخدام القوة العسكرية لطرد العراق من الكويت ولو حدث ذلك فربما انهار التحالف برمته. وفي النهاية سُمِحَ الناقلة بالوصول إلي الميناء.

جـولة قصيرة خاطفـة

وبدأت عزلة صدام تأخذ مجراها. ومع أوائل أيلول سبتمبر أصدرت الأمم المتحدة خمسة قرارات. لكن التأييد الدبلوماسي في الأمم المتحدة غير كاف برغم أنه حاسم وضروري. ومن وجهة نظر دبلوماسية وأخلاقية أيضاً كنا في حاجة ماسة إلي الإلحاح في الحصول علي التزامات مالية من دول أخري للمساعدة في تأمين كلفة العملية. كان الرئيس علي استعداد لتحمل الجانب الأكبر من العبء، فإذا اقتضت الحاجة استخدام القوة لطرد العراق من الكويت فسوف يلقي الأمريكيون حتفهم في الخليج. وكان أقل ما يمكن توقعه من الدول التي نساعدها ومن كافة حلفائنا الموضوعين علي المحك في الأزمة أن ينضموا إلينا في المقابل ليس بتقديم القوات بأكبر حجم ممكن بل أيضاً بتمويل كلفة عملية درع الصحراء.

وكنا علي يقين تام بأنه حتي إذا لم ندخل الحرب فإن الكلفة ستكون باهظة. فنحن نحشد مئات الآلاف من الجنود وننقلهم بمعداتهم إلي الخليج جواً وبحراً. وبمجرد أن يصلوا إلي هناك علينا أن نوفر لهم كل شيء من الصواريخ حتي معجون الأسنان لمدة أشهر. كانت تقديراتنا الأولية للتكاليف المباشرة علي وزارة الخزانة الأمريكية تبلغ عشرات الآلاف من المليارات من الدولارات. علاوة علي التزامنا علي ذلك فقد أحسسنا بأن علينا التزاماً بتوفير الأموال اللازمة لتعويض الصعوبات الاقتصادية الحادة التي سوف يسببها الحظر التجاري علي شركائنا في التحالف وخاصة مصر وتركيا. وفي وقت سادت فيه حالة من الغموض الاقتصادي في الداخل كان من المستحيل سياسيا الحصول علي تأييد داخلي للعملية مالم تبرهن علي أن العم سام لن يسدد الفاتورة بينما أثرياء آخرون مثلنا يجلسون علي الخطوط الجانبية.

وكان هذا أصل ما بات يشتهر في الصحافة باسم «الجولة القصيرة الخاطفة» لبيكر. كانت جولة استغرقت أحد عشر يوماً لتسع دول، وشملت أيضاً قمة بوش جورباتشوف في هلسنكي. إضافة إلي مباحثات حاسمة في موسكو حول الوحدة الألمانية وزيارة إلي دمشق لإقناع الرئيس حافظ الأسد بالانضمام إلي التحالف. وقد بدأت الجولة وانتهت بالتوقف في اثنتين من الدول كان تأييدهما المالي لجهودنا بالغ الأهمية وهما العربية السعودية وألمانيا الغربية.

وفي الرحلة التي استغرقت اثنتي عشرة ساعة من واشنطن إلي العربية السعودية بحثت مع العاملين معي الرقم المحدد الذي سنطلب الحصول عليه من شركائنا العرب. وراجعنا صفحات وصفحات من التحليلات المالية التي أعدها البنتاجون ووزارتا الخزانة والخارجية في محاولة لتقدير كلفة عملية درع الصحراء. وسيكون من الحكمة البالغة الإشارة إلي أننا اجتهدنا في مراجعة البيانات بهدف الوصول إلي اتفاق صادق حول حجم الكلفة المحتملة والنصيب العادل للعربية السعودية والكويت فيها. لكن الحقيقة أننا كنا في هذه المرحلة المبكرة من الأزمة ندرك أن ضرورة اقتسام الكلفة تعد تحدياً سياسياً لا اقتصادياً في المقام الأ ' كان يتعين علينا أن نعرب لمواطنينا في الداخل أن الجميع - ولسنا وحدنا - يتحملون المخاطر ويقدمون التضحيات، وكان للأرقام المعروضة أمامنا أساس في الحقيقة لكنها أرقام دقيقة حددها المحاسبون وتتناقض مع الأرقام الفضفاضة التي يمكن قبولها سياسياً. ومن وجهة نظر رمزية كانت منخفضة بشكل غير مقبول. ولذا فقد ضاعفناها علي الفور وجري حساب الأرقام المحددة، وبعد عدة أشهر وبعد انتهاء الحرب والأزمة في بعض الأحيان، وكانت قريبة إلي حد كبير من تقديراتنا الجزافية.

ووصلت إلي جدة في ٦ أيلول سبتمبر واجتمعت مع الملك فهد في الساعة التاسعة صباحا وغمرني إحساس قبل وصولي إلي المملكة أننا سنحظي بتعاون تام من السعوديين ومثل رعاياه كان الملك مشغولاً للغاية بتهديد صدام المتفلت القابع علي قيد بضع مئات من الأميال من حدوده. وكان الملك يري أن وجود بلاده عرضة لخطر داهم. ومنذ البداية كان السعوديون أشد أعضاء التحالف تحمساً. فعندما وصل تشيني إلي السعودية ليطلب السماح

بإرسال القوات الأمريكية كان الملك قد فكر ملياً بوضوح قبل أن يبدأ الاجتماع. ولم يكن السعوديون يريدون وصول القوات الأمريكية إلي أراضيهم فحسب: فكم تمنوا في دوائرهم الخاصة ألا يتم التوصل إلي تسوية دبلوماسية. فلم يكن السعوديون يريدون طرده من الكويت فقط بل كانوا يودون تدميره.

والحل الوحيد بالنسبة لهم هو حرب تقودها الولايات المتحدة للقضاء علي آلة صدام الحربية مرة واحدة وللأبد. ومنذ البداية كانوا يدافعون دائماً عن الاستخدام الشامل للقوة. وكنا نعرف أنه إذا حانت لحظة الحرب فسوف يتم السماح تلقائياً باستخدام القواعد السعودية في العمليات. لكننا كنا نشك في استعداد الملك لتحمل أي عبء مالي يطلبه منه الأمريكيون.

وحثني سفيرنا شاس فريمان علي عدم المغالاة في الأرقام . وأبلغني قبل الاجتماع «بأنهم يشدون الحزام لتوفير الأموال فلا تلح في طلب الكثير الآن». ولم أوافقه .

وخلال اجتماعنا أبدي الملك امتنانه البالغ لما بذلته أمريكا . وقال: إننا نقف بين السلام والكارثة التي يجلبها لبلادي . كانت تعليقاته حادة ومتحاملة علي صدام وهوأمر متوقع في ضوء التهديد الذي تتعرض له المملكة.

وقلت له: «إننا مستعدون ليس لوضع أموالنا فحسب بل ودمائنا تحت تصرف بلدكم ونحن في حاجة إلي تحمل نصيبكم العادل» وأضفت قائلا اعتقد أن مبلغ ١٥ مليار دولار إسهام مناسب . وابدي الملك فهد موافقته علي الفور. «وأشار: عليك أن تبلغنا بما تريد وما تود أن نفعله. وعليك بالتحادث مع وزير الخارجية». كان هذا هو امتنان الملك لما أبدته أمريكا من استعداد لعمله من أجل بلده لدرجة غادرت معها الاجتماع يغمرني إحساس بأنه لابد وأنه سيوافق علي أي رقم أقترحه. وفي الصباح التالي التقيت علي الإفطار مع وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل خريج برينستون والأمير بندر سفير السعودية في واشنطن اللذين عرضا صراحة تصورهما حول اقتسام الأعباء. وقال بندر: «لا تطلب منا خمسة عشر مليار دولار ما لم تحصل علي خمسة عشر مليار دولار من الكويتيين فيمكنهم تحمل هذا المبلغ فلديهم كل

منه الأصول. فماذا سيجنون إذا لم يستعيدوا بلدهم؟ لذا عليك أن تطلب منهم قدر ما تطلب منا وسوف تحصل على ما تطلب.

وصباح اليوم التالى توجهت إلي الطائف بالعربية السعودية للاجتماع مع أمير الكويت الرجل الهادئ الذى نشأ ورفل فى النعيم واتخذ ثلاث عشرة زوجة. كان الغزو شديد الوطأة علي الأمير. فها هو أمير إقطاعى طُرِدَ من بلاده لفترة مؤقتة واضْطُرَّ للجوء إلي فندق الشيراتون فى بلد مجاور. والأسوأ أنه محط زيارات وزير خارجية يطلب منه مليارات الدولارات، ودائما ما كانت تنتهى بسيل من أسئلة الصحفيين الأمريكيين – فى مهانة لم يتعرض لها مطلقاً فى حياته – وعندما حدثته للمرة الأولي اضطررت لأبطع ابتسامة عندما لاحظت نظرة عبوس مروعة ارتسمت علي وجهه. وقال لى بعد مغادرة الصحفيين: «ليس هذا هو تقليدنا». ولم استطع منع نفسى من القول: «إننى أثق بأن سموكم سيعتاد عليه». وفى الوقت المناسب شعر بارتياح جم مع ما لابد وأنه كان تجربة غير مريحة. لكن الأمير وافق بسهولة – كالملك فهد –علي تقديم مبلغ ١٥ مليار دولار الذى قال السعوديون أنه يمكن أن يوفروها بسهولة.



وبعد زيارة خاطفة للإمارات المتحدة توجهت جواً إلي القاهرة لرؤية صديق قديم. ويعود أول لقاء لى مع حسنى مبارك إلي فترة ريجان الانتقالية ١٩٨٠ عندما كنت سميناً لشغل وظيفة رئيس هيئة موظفى البيت الأبيض، ولا يزال بوسعى تذكر أولي الكلمات التى أفضي بها إلىّ. فقد دخل الغرفة فى رشاقة وصافحنى بحرارة متسائلا: «أين دباباتى؟». كانت إدارة كارتر قد تعهدت بتزويده بعدد من الدبابات لكنه لم يتسلمها بعد. وعاتبنى برقة قائلا: «لقد وعدتمونى ببعض الدبابات. إننا نريدها أين هي؟». وأحببت مبارك منذ ذلك الحين. وجاء حبه للدعابة وروحه المرحة التى يتسم بها الشعب المصرى متمماً لنمط الشخصية الحازمة الشجاعة التى تعيد إلي الأذهان أنور السادات سلفه وراعيه. وفى اليوم الذى تليته

علي الإفطار في الاسكندرية كان مبارك لايزال يستشيط غضباً بعد أن ضلله صدام حسين الذي أبلغه قبل الثاني من آب أغسطس أنه لا يعتزم غزو الكويت. وساهمت تطمينات مبارك فيما تبين أنه سوء تقدير بالغ لصدام من جانب الحكومة الأمريكية وفي أماكن أخري وتكرر لخذلانه أصدقائه.

وكالمتوقع، انتابه غضب جارف من صدام. وقال وهو يلوح بأصبعه السبابة في الهواء وهي عادته عندما ينفعل: «جيم. إنني أقول لك إنه رجل مجنون. كيف يكون مجنوناً إلي هذا الحد؟ كيف يخدع نفسه بهذا الشكل؟ إنه لا يستمع لأحد». وفوجئت حين عرفت أن حنق مبارك علي صدام لا يدانيه سوي ازدرائه الملك حسين عاهل الأردن الذي اتهمه مبارك بالضلوع في مؤامرة مع صدام حسين لغزو الكويت واقتسام غنائم الاحتلال. وأكد مبارك أن صدام أسطورة في شراء جيرانه. ففي عام ١٩٨٩ أقنعه بالانضمام إلي العراق والأردن واليمن الشمالية لتأسيس مجلس التعاون العربي لتعزيز العلاقات الاقتصادية. ومع ذلك فقد اتضح لمبارك بعد الغزو أن صدام كان يعتزم استغلال مجلس التعاون العربي لتعزيز طموحاته الاستراتيجية الإقليمية. وفي إحدي مراحل التعاون عرض صدام علي مبارك وعلي عدد من وزرائه هدايا تمثلت في عدد من سيارات المرسيدس. ورفض مبارك السيارة المقدمة له وتلك المعروضة علي وزرائه. لكن الآخرين كانوا أقل احتراماً. وقال: «اذهب إلي عمان وسوف تري كل السيارات المرسيدس الجديدة». وكان علي إقتناع بأن الملك حسين سمح لنفسه بأن يشركه صدام معه. وبالنسبة له فإن هذا يفسر رفض الملك إدانة غزو الكويت. وقال: «لقد قلت للملك ماذا يجري، ماذا تفعل؟».

كان مبارك متشدداً في موقفه المناوئ لصدام كالسعوديين تماماً. وأعرب عن اعتقاده بأنه يتعين تدمير قدرة صدام علي تهديد جيرانه، وأبدي استعداده لإرسال قوات مصرية للمشاركة في التحالف، وشعر بالارتياح والسرور لدي معرفته باستعداد الولايات المتحدة لإسقاط ديونه التي تبلغ سبعة مليارات دولار. وكان يريد اتخاذ إجراء ضد صدام وكان يعتقد أن الأمر لن يستغرق طويلاً. وتوقع أنه في غضون ستة أسابيع فسوف تجبر العقوبات صدام

الذليل علي التراجع في خزي.

وقلت: « السيد الرئيس. آمل أن يكون هذا صحيح، لكن لايمكن أن نضع خططنا علي أساس أن هذا حقيقي . علينا أن نضع الخطط علي أساس أنه من الضروري استمرار تصعيد الضغوط عليه» .

فصل إضافي في موسكو وهلسنكي

وتوجهت من القاهرة جوا الي هلسنكي لانضم إلي الرئيس في قمه رتبت علي عجل مع الرئيس جورباتشوف لتنسيق مواقف القوى العظمي حول أزمة الخليج . وجاء الاجتماع نتيجة منطقية لمباحثاتي مع شفرنادزة في مطار فنوكوفو/٢ قبل شهر . وفي غضون ذلك انهمك صدام في محاولة شق الصف العربي، والعمل بقوة مع أنصاره في الخارجية السوفيتية . كان من الضروري في ذلك الوقت الإعراب مجددا علي أن القوى العظمي لاتزال متفقة في موقفها من الأزمة . وخلال اجتماعي مع الرئيس وسكوكروفت لليلة السابقة علي القمة التي تستغرق يوما واحدا ، أكدت أن اجتماع الرئيس وجورباتشوف والتأكيد مجددا علي ما أعلنه وزيرا خارجيتيهما في مطار فنوكوفو غير كاف. إن هناك حاجة إلي صدور بيان مشترك جديد لرتق لغة البيان السابق، وقد طلبت من العاملين معي إعداد مشروع بيان مشترك أثناء رحلتنا من القاهرة إلي هلسنكي، وسوف يوضح صدور بيان مشترك أقوى بطريقة مثيرة أنه برغم جهود صدام فإن زعماء التحالف أكثر اتحاداً. بل إنهم مستعدون عند الاقتضاء لدراسة اتخاذ تدابير أشد لإجبار صدام علي الخروج من الكويت. وأراد الرئيس أيضاً توجيه نداء شخصي لجورباتشوف الذى كان يشعر بقلق واضح وكبير من نوايا السياسة الأمريكية، واحتمال استخدام للقوة بقدر يفوق شيفرنادزة.

وفى صباح التاسع من أيلول سبتمبر اجتمعت مع شيفرنادزة أثناء اجتماع الرئيس بوش مع شيفرنادزة وجورباتشوف في قصر الرئاسة. وكالمتوقع كان السوفيت لازالوا يروجون

لحلمهم طويل الأمد بعقد مؤتمر دولي حول الشرق الأوسط. وكان جورباتشوف وشيفرنادزة قد ألقيا خطابين قبيل بضعة أيام ربطا فيهما التسوية فى الخليج بالمشكلة الفلسطينية. وقلت: إداوارد، «سوف تكون هذه كارثة. إنه يبدو وكأن صدام هو الذى ألقاه، وأنه حصل على شيء لا يستطيع أحد غيره الحصول عليه. سيكون نصراً مؤزراً له، وسيوجه رسالة بأن طريقته فى التعامل تؤتى ثمارها. وسوف يضع العرب المعتدلين فى موقف دفاعى، ويثير كافة أنواع المشاكل مع الإسرائيليين. ببساطة لا يمكننا فعل هذا». وعقب مناقشة طويلة قال شيفرنادزة: «أوافق. لكن دعنا نتحدث عن السلام بشكل ما». وقلت: «علينا أن نؤكد اهتمامنا بالتوصل إلى تسوية سلمية، واهتمامنا بضمان تحقيق النجاح وإبداء استعدادنا لإيضاح أنه إذا لم تؤت العقوبات مفعولها فسنكون على استعداد لاتخاذ خطوات إضافية. وآمل أنه إذا لم تُجْدِ العقوبات نفعاً ولم تُنْجَزْ المهمة فسوف تشعرون بمطلق الحرية فى الانضمام لنا فى مجلس الأمن الدولى للحصول على التفويض بالتحرك وفقاً لبنود القرار الصادر حول الاعتراض البحرى. إننا هنا نتحدث عن استخدام إجراءات مناسبة. إننى لا أطلب منك توقيع شيك على بياض وأسألك أن تفعله اليوم. إننى أضع إطاراً عاماً فحسب رداً على استفساركم عن الخطوات التالية، وعن الاتجاه الذى ربما نريد السير فيه».

ورد شيفرنادزة: «إننى علي اتفاق تام معك. فكل ما قلناه كان صواباً، ويمكن أن يخفق، ويتعين علىّ القول إننى سأكون أقل قلقاً لو اعتقدت أننا نتعامل مع شخص لا يمكن توقع تصرفاته لكنه على استعداد للمقامرة».

وما لبثت حينئذ أن أخرجت مشروع البيان المشترك المقترح الذى أعده العاملون معى وشرعت فى قراءته على شيفرنادزة، وتضمنت صياغة مشروع البيان إشارة إلى خطوات إضافية، سيدرس بوش وجورباتشوف اتخاذها إذا رفض صدام الانسحاب من الكويت. وقال: «هذا حسن. هذا حسن جداً. فليعمل دينيس [روس] وسيرجى [تاراسينكو] فى العمل فى مشروع البيان».

وسرعان ما اتضح عندما عدت للانضمام إلى الرئيس لإبلاغه بنتائج اجتماعنا أن جورباتشوف ألح عليه بشدة فى موضوع المؤتمر الدولى الخاص بالشرق الأوسط. وعندما

سمعته يقول: «حسنا، أعتقد أنه في سبيله لأن يطالب عقد مؤتمر دولي». انتابني القلق من احتمال موافقته على الفكرة. وعكفت مجموعة صغيرة مذا تضم سكوكروفت وسنونو وروس وجون كيلي وكوندي رايس وريتشارد هاس المساعد الخاص للرئيس لشؤون الشرق الأدنى في دراسة القضية.

وانفعل روس أيما انفعال – وقال: «لا يمكن أن نفعل هذا. إنه سيقوض تماماً ما نحاول عمله. إننا سنضع المعتدلين العرب في موقف يقدم فيه صدام للفلسطينيين ما لا يستطيعون تقديمه. فإذا أوجدنا هذه الصلة فبوسعه ادعاء النصر. ولو حدث هذا سوف نواجه شرق أوسط أشد خطورة مما رأيناه».

ورد الرئيس: «حسناً لا أعتقد أنه سيقبل أي شيء أقل من هذا. فقد أشرنا إلي أن شيفرنادزة قبل بالفعل مشروع البيان المشترك الذي أعددناه، وهو لا يتضمن أي ذكر للمؤتمر». وتدخلت في الحديث قائلاً: «ليس لدينا خيار. لا يمكننا الحديث عن مؤتمر دولي. إن هذا سيكون نصراً مؤزراً له، وسوف يكون كارثة لأصدقائنا في العالم العربي».

ورد الرئيس: «حسناً. إنني أخشي من أن نجد أنفسنا مضطرين لعمل هذا. إننا نريد إصدار بيان مشترك وجورباتشوف يريد هذا مقابل ذلك».

وذكرته قائلاً: «لقد حصلنا علي مشروع بيان مشترك. ولم يتم ذكره مطلقاً لا تقلق بشأنه». ورد الرئيس بحدة لم أعهدها ولا يمكن أن أنساها مطلقاً: «حسناً، لابد أن أقلق. لقد أرسلت كل هؤلاء الأولاد خارج البلاد ولم يفعلها أحد آخر وقد فعلتها. وبدأت في اتخاذ كل الخطوات التي تصمم أنني لن أعرض أرواحهم للخطر دونما اقتضاء. فإذا استطعت استعادتهم من هناك بدون قتال فسوف أفعل». وفجأة خيم علي الغرفة صمت مطبق، وتحدث الرئيس من قلبه وبكل جوارحه عن التفرد والمسؤولية التي لا يشعر بها سوي القائد. وبعد عدة دقائق كسر سنونو حاجز الصمت وقال: «حسناً. ربما يكون بوسعنا وضع إشارة إلي مؤتمر دولي في البيان» وانفجرت صائحاً: «كف عن هذا جون». وأخيراً تحدث الرئيس قائلاً: «جيمي، انظر إذا كان بوسعك الحصول علي البيان بدونه. فسيكون أمر جيد».

❑ ❑ ❑

كان روس وتاراسينكو قد أعدا مشروع بيان مشترك أغفل أى ذكر للمؤتمر الدولى، لكنه تضمن إشارات غامضة على العمل سوياً فى المنطقة بعد انتهاء الأزمة، «ولتسوية كافة المشكلات الباقية فى الشرق الأوسط والخليج». وبعد أن وافقت أنا وشيفرنادزة عليه عرضت مشروع البيان المشترك على الاجتماع التالى الجارى بين جورباتشوف وشيفرنادزة. وراجع جورباتشوف نص المشروع سطراً سطراً، وطلب إدخال تعديلات طفيفة للغاية قبل إضافة ذكر الاحتياجات الإنسانية للمدنيين العراقيين. وبعد أن لخصت التعديلات أحس جورباتشوف بالارتياح، وقال: «حسناً، فلننقحه». وكما اتضح كان أعضاء اللوبى العربى فى الغرفة المجاورة يأملون فى إفراغ مضمون النص الذى أقره جورباتشوف لتوه. وفى تكرار لتجربتى فى مطار فنوكوفو/٢ قاموا بإعداد مشروع باتخاذ خطوات جديدة، واختفت مطالبة صدام بانسحاب غير مشروط. وعندما أفضى لى روس بالأمر حولت دفة الاجتماع لأثير القضية مباشرة مع جورباتشوف. وتساءلت وأنا أقرأ النص الأصلى على جورباتشوف: «السيد الرئيس، أليس هذا هو البيان الذى وافقت عليه؟» فرد «دا» وفى هذه اللحظة على الأقل لزم اللوبى العربى الحذر.

وبالطبع فإن الغموض البناء يمكن أن يفيد فى ممارسة الدبلوماسية. لكنه أداة خطيرة فى معظم الأحوال إذا استخدم بشكل هزيل. وفى الغالب فإن التحديد القاطع هو الوسيلة الأكثر تفضيلاً. وبشكل عام فإننى أفضل الخروج من الاجتماع وهو مشبع بأجواء الاختلاف بدلاً من سوء فهم سوف يلقى بمشاكل أكبر على الطريق.

وما من شيء يثير غضبى مثل المحاور الذى يحاول مراجعة اتفاق اقتضى جهداً شاقاً فى إعداده.

وأعطانا البيان المشترك الذى أصدره الرئيسان بوش وجورباتشوف أكثر من نصف الرغيف. فقد وافق السوفيت على «تصميمنا على إنهاء هذا العدوان وإذا أخفقت الجهود الحالية لانهائه فإننا مستعدون لاتخاذ خطوات إضافية». وبالمقابل التزمنا سراً – دونما حاجة للإعلان العام – بمحاولة العمل مع السوفيت فى مؤتمر إقليمى للسلام فى الشرق الأوسط بعد

انسحاب العراق من الكويت وحرمان كل من صدام وأصدقائه في الخارجية السوفيتية من الحصول علي التزام صريح بالربط الذي سعوا إليه. كانت صفقة جيدة. وتعزز التعاون السوفيتي مع استراتيجيتنا بقدر هام*.

وبعد يومين وفي ١٢ أيلول سبتمبر التقيت نظيري السوفيتي في موسكو لتوقيع الوثائق التي تقرر نهائياً إعادة التوحيد التاريخي لألمانيا، وبعد انتهاء محادثات إثنين زائد أربعة الوزارية. أمضيت يوماً إضافياً للاجتماع مع جورباتشوف وشيفرنادزة في الكرملين لبحث مختلف القضايا الثنائية الباقية من قمة هلسنكي. ولاحقاً استفسر جورباتشوف وشيفرنادزة عما إذا كان يمكن لقالي ودينيس روس علي انفراد. وانتقلنا إلي غرفة اجتماعات صغيرة وجلسنا حول طاولة دائرية صغيرة. ولم يكن لديّ أدني فكرة عما يدور بعقل جورباتشوف عندما بدأ الحديث بمناجاة عن أحلامه بتحويل النظام السوفيتي إلي اقتصاد السوق الحرة. وبدأ قائلاً: «إننا نريد المساعدة. إننا الآن في منتصف طريق التحول، وفي التحرك لتطبيق تلك الإصلاحات سيحدث استياء كبير. إن الأمر بالغ المشقة علينا الآن. فالوضع الداخلي يتدهور بشدة. «وفي غضون ستة إلي تسعة أشهر سوف تتحسن أمورنا. لكننا نريد المساعدة الآن. فعلينا توفير احتياجات الشعب خلال فترة التحول. أعرف أن هناك حداً لما يمكنكم عمله. لكن هل بوسعكم مساعدتنا في الحصول علي بعض المال من السعوديين؟». وحدد مبلغاً يتراوح بين أربعة إلي خمسة مليارات دولار.

وأبلغت جورباتشوف بأنني سأنظر فيما أستطيع عمله. (وانتهي هذا الاجتماع بالغ الجدية نهاية هزلية عندما أظهرت لجورباتشوف شيئاً أعطاه لي أحد الأشخاص علي سبيل الدعابة في الولايات المتحدة. كان كيساً صغيراً يحتوي علي ورق ذكري واحد. ورسمت علي وجهه صورة صدام، وعلي ظهره كتب الحمقي التوافه الكبار الذين لا يعرفون متي ينسحبون. وانفجر جورباتشوف وشيفرنادزة في الضحك بعد ترجمة معني الكتابة، وأخذ جورباتشوف الكيس ووضعه في جيبه).

---

* أوفينا بهذا الالتزام السري بالشروع في العمل فور انتهاء الحرب لعقد المؤتمر الإقليمي تحت رعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وكانت النتيجة انعقاد مؤتمر مدريد في ٣٠ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١.

وإثر عودتي إلي واشنطن وبعد تقصي الجوانب القانونية للتأكد من عدم وجود موانع من طلب المعونة المالية من السعوديين للسوفيت، قمت بمراجعة الرئيس الذي لم ير في الأمر أي غضاضة. فنحن في حاجة لاستمرار مساعدة السوفيت، ولن يكلفنا الأمر شيئاً أن نطلب المال من السعوديين نيابة عنهم.

وبعد أسبوعين وخلال اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك أثرت المناقشة في اجتماع خاص مع الأمير سعود الفيصل والأمير بندر. وقلت لهما: لا يمكن إبلاغكما بماذا تفعلون، لكن جورباتشوف يمر بموقف عصيب. إنه يتعرض لضغوط جمة من الحرس القديم ومن المهم دعمه في مواجهة هذه الضغوط.

ورد سعود: فهمت، سوف نفعل شيئاً. وكان عند كلمته وتحول هذا الشيء إلي منح قرض سخي قيمته 4مليارات دولار إلي السوفيت في الشتاء. وشعر جورباتشوف بامتنان عظيم للسعوديين، واتصل بالرئيس هاتفياً في وقت لاحق ليشكره علي دعمه. وأعتقد أن دورنا في ترتيب حصول السوفيت علي القرض كان جوهرياً في تعزيز مساندة السوفيت لقرار استخدام القوة، واستمرارهم بقوة في التحالف علي مدار الأزمة.

اللمسات النهائية: دمشق وبون

وبعد الاجتماع مع جورباتشوف طرت من موسكو إلي سوريا في زيارة أثارت جدلاً هائلاً في الخارجية لدرجة هددت بعدم إتمامها. فقد استماتت روس في معارضة الزيارة، وتمثلت وجهة نظره لأسبابه الخاصة في أن الرئيس الأسد سوف ينضم إلي تحالفنا لامحالة. فالأسد يُضْمِرَ عداءً شخصياً لصدام الذي يعد منافسه الرئيسي في المنطقة رغم انتمائهما لفرعي حزب البعث، ولم تكن علاقاتهما علي ما يرام نتيجة اعتقاد الأسد لسنوات بأن صدام يسعي لقتله. وسيكون تركيع صدام أفضل خدمة لأغراض الأسد. ولم يكن هناك شك في استعداد الأسد لإرسال قوات سورية إلي العربية السعودية. وعلمنا من مبارك أن الأسد وعد

بالفعل بإرسال فرقة سورية واحدة علي الأقل، ووعد السعوديون بتحمل تكاليفها. فضلاً عن ذلك وافق الأسد على طلبنا إيفاد ممثل لحضور اجتماع الجامعة العربية فى آب أغسطس فى القاهرة، والذى تم خلاله رسمياً الموافقة علي التحالف العربي. وكمسألة عملية فقد تم ضمان الأسد تماماً. وجادل روس: «وعندما تذهب إلي دمشق فإنك تفعل شيئا يريده على أحر من الجمر ولن تحصل على أى شئ منه لا يكون هو مستعداً لعمله بالفعل».

ومنذ البداية كنت أريد الذهاب إلي سوريا رغم اعتراضات روس. ورغم وجاهة حججه شعرت أن الأهمية الرمزية للمشاركة السورية أكثر حسماً بكثير من مشاركتها الفعلية. ومع تمثيل سوريا تتعزز مصداقية شركائنا العرب في التحالف بقدر هائل. لكن كان عقلي يختزن هدفاً أبعد بكثير. فليس هناك طريق لتحريك عملية السلام الشاملة فى الشرق الأوسط بدون مشاركة حيوية من جانب سوريا، وأعتقد أن الفرصة ستكون مواتية للبدء فى تهيئة الأرض مع الأسد لبذل مساع جديدة لإحياء عملية السلام. كان السؤال الوحيد هو التوقيت. وكنت أعرف أيضاً أن الرئيس بوش يتوق لمشاركة السوريين. وكان يعتقد على الدوام أن جورج شولتز ارتكب خطأً فادحاً بقطع الاتصالات مع سوريا عقب الانفجار المأساوى لثكنات مشاة البحرية الأمريكية فى بيروت عام ١٩٨٣. وفى عام ١٩٨٦ أراد جورج بوش نائب الرئيس زيارة دمشق فى إطار جولته في الشرق الأوسط لكن مساعديه أثنوه عن عزمه علي مضض خشية احتمال الإحفاق السياسى. وقيل له: كيف سيبدو الأمر إذا فجر الإرهابيون الذين ترعاهم سوريا طائرة؟ فسوف تجلب صوره كارثة عليه وعلي ريجان. وقبل كارهاً عدم زيارة سوريا، لكنه كان يعتقد دوماً أن الولايات المتحدة تخلت عن الكرة، وإنه كان عليها أن تشترك مع الأسد رغم الاختلاف الشديد حول دعم سوريا للإرهاب الدولي والتورط القوى فى تهريب المخدرات. وها هو الآن نموذج تلتقى فيه المصالح الاستراتيجية الامريكية مع اعتقاد الرئيس بأننا أهدرنا بالفعل فرصاً ذهبية للتعامل مع سوريا.

وبسبب معارضة روس المستميتة أُسْقِطَتْ دمشق أثناء التخطيط الأولى لجولتى المقررة فى شهر أيلول سبتمبر. لكن فى أحد أيام آب أغسطس أبلغنى الرئيس: «أعتقد أنه يجب أن تدرس التوجه إلي سوريا. لا أريد أن نعطئ الفرصة ثانية». ولأننى حبذت التوجه إلي سوريا

في وقت ما اصدرت تعليماتي إلي تاتويلر بإدراج دمشق في نهاية جولتي. وأخيراً أثبتت بصيرة الرئيس صوابها عن أهمية سوريا. سواء من ناحية حرب الخليج أو في عملية السلام.

وأعلنت أنني سأتوجه إلي دمشق بنفسي، وذلك في مؤتمر صحفي عُقِدَ في أعقاب الاجتماع الوزاري لحلف شمال الأطلنطي في بروكسل. وأثار الإعلان ضجةً كبري في الصحافة الأمريكية لأنه سيكون أول اجتماع علي مستوي عالٍ بين وزير خارجية أمريكي ورئيس سوري منذ عامين.

واجتمعت بالأسد في دمشق في ١٤ أيلول سبتمبر في مبني بسيط وصفه يطل علي شارع سكني في مواجهة البيت الذي يقيم فيه الأسد. كان الأثاث مريحاً لكن غاية في البساطة. فالغرفة مستطيلة يوجد بها مقعدان وثيران تفصل بينهما منضدة صغيرة بأحد طرفي الغرفة. كانت الستائر المخملية باللون الزيتوني تغطي حائطا طويلا بالغرفة ويوجد خلف الستائر نوافذ مزودة بزجاج واق من الرصاص ولا يمكن فتحها حتي وإن ارتفعت درجة الحرارة فيها كما يحدث في الغالب. وعند الطرف الآخر للغرفة يوجد بابان يفضيان إلي مكتب الأسد حيث يقضي معظم وقته. كانت اللوحة الوحيدة التي تزدان بها الغرفة عبارة عن لوحة تمثل معركة حطين التي هزم فيها القائد المسلم صلاح الدين أعدامه الصليبيين.

وبعد الدعابات المعتادة قدمت نفسي له بإيجاز، وأكدت علي أنني والرئيس صديقان حميمان منذ ثلاثين عاماً. وقلت: «إننا صديقان حميمان للغاية. إنني أشاطره كل شيء ويشاطرني كل شيء». وكنت أريد أن ينظر لي الأسد باعتباري امتداداً للرئيس ، شخص يمكن قبول وصفه لوجهات نظر بوش كشيء مقدس، وأن كلامه كلام حسن. وأبلغني السفير إدوارد جيرجيان أن الأسد يولي أهمية كبيرة لمصداقية محاوره من عدمها. وقلت: له إنني سمعت إنك مفاوض شديد المراس. لكن يمكن الثقة في أنه يفي بكلمته بمجرد التعهد بها.

ورد بابتسامة قائلاً: «حسناً، لقد سمعنا أشياء عنك أيضاً، إننا نتابع التقارير المتعلقة بآرائكم بحرص بالغ. لقد توصلنا إلي نتيجة بأنكم رجل قوي وحاسم، فأنت تقول ما تعني وهذا يجعلنا نعتقد أنك رجل مستقيم. وربما كان من الأفضل لنا أن نقول هذا من وراء

ظهرك. لكن هذه سمة مهمة. فمن الأهمية بمكان أن يكون الشخص صريحا ومباشرا بغض النظر عما إذا كنا نتفق أم نختلف. وعندما تتوفر تلك الخصال تتوفر الثقة حتي في حالة الاختلاف. ويجب ألا تكون هناك قضايا خفية بيننا» وأبديت ملاحظة حول ثقة الرئيس. فإنه يفضل استخدام لفظ التفخيم «نحن» في أحاديثه الدبلوماسية.

وشرحت الوضع في الخليج باعتباره أول أزمة حقيقية تندلع في حقبة ما بعد الحرب الباردة – وقلت: «إن نظاماً جديداً في طريقه للتبلور بطريقة مهمة من كيفية تعاملنا مع هذه الأزمة. وهذا هو السبب الذي يقتضي عدم نجاح صدام. حتي في الهزيمة لا يمكن أن ينظر إليه كبطل. واستعرضت استعداداتنا العسكرية بإيجاز أمام الأسد، وأبلغته بأن الهدف الأساسي لزيارتي هو معرفة ما إذا كان مستعداً للسماح لفرقته بالمشاركة في التحالف العسكري مشاركة فعالة. كان إرسال قوات سورية بادرة رمزية مهمة. لكن إذا اندلعت الحرب فإننا نريد مشاركة قوات الأسد في العمليات إلي جانب المصريين.

وقلت: «في حالة العمليات الحربية فإننا في حاجة لمعرفة ماذا ستفعل بقواتك التي ترسلها إلي العربية السعودية وبقواتك المرابطة علي الحدود العراقية السورية». ونحن نعتقد أنه من المهم ألا تجرى مناقشة علنية لهذا الاحتمال سوي القول إننا لا نستبعد إجابة مباشرة جرياً علي ما عرفت أنها عادته. وقال: إنه يأمل في أن توهن العقوبات عزيمة صدام. وأمضي في تأمل: «إنهم قساة ولابد من عقابهم» ولكن عندما سألته عن الوقت الذي يعتقد أن العقوبات ستستغرقه لتؤتي مفعولها رد قائلاً: إنه ليس لديه معلومات يعتد بها عن الوضع الداخلي في العراق. لكنه لم يترك أي شك في أنه لا يؤيد عدوه اللدود. وأشار إلي أن غزو صدام الكويت خطأ. ولذا فإن سوريا تتبني الموقف المبدئي بتأييد جهود التحالف. لكنه ظل علي غموض تام حول نطاق مشاركة سوريا. وبعد لأي وجهد قال أخيراً إنه لم يقرر بعد حجم القوات التي سيرسلها إلي العربية السعودية. وتعهد: «سوف نلتزم بإرسال العدد المطلوب حتي مائة ألف جندي». وحيث إن السوريين لم يتعهدوا بالفعل سوي بفرقة مدرعة واحدة كانت بادرة مشجعة أن يبدي الأسد عندئذ حتي مجرد استعداده لتوسيع نطاق مشاركته. وقال: «سوف نفعل الصواب. لكن ليس من السهل عمله بسبب الرأي العام السوري».

وقلت: «السيد الرئيس، ليس بالهين علينا أن نكون هناك، فلدينا الرأي العام الأمريكي، وهناك الكثيرون الذين ينتقدون وجودي في سوريا اليوم، لكن من المهم أن نكون هنا لبحث هذه الأزمة، وآمل أن نكون هنا في المستقبل أيضاً».

وألقي عليَّ الأسد محاضرة عن الجُبْنِ الأمريكي، لكنه كان تبادلاً إيجابياً للآراء، وبعد تفكير بتُّ أعتقد الآن أنه من المرجح أن تكون هذه أول معرفة لي بأن الأسد ربما يكون مستعداً لدراسة تحمل جانب من المخاطر الضرورية الهامة لإحياء عملية السلام المحتضرة.

وفي المقام الأول فالأسد رجل واقعي، فلم يكن في حاجة للقول أن الانضمام إلي التحالف سيعزز نفوذه في العالم العربي، ويساهم في تصفية ضغائنه مع صدام حسين، وهو يعرف بالبديهة أيضاً أنه سيجعل من السهل علي الولايات المتحدة التعامل مع سوريا، لكنني أردت منه الاعتراف بأن المخاطر أكثر من الورود علي طريق علاقتنا الثنائية، ومن وجهة نظري فإن الوصول إلي نتيجة ناجحة في الخليج سوف يفتح سبلاً جديدة لإحياء آفاق عملية السلام في المنطقة.

وقلت: «إننا متفائلون من أن الملابسات التي تجمع سوريا ومصر ودول الخليج في تحالف عربي رئيسي تبشر بمستقبل جيد لعملية السلام العربية الإسرائيلية».

وفي ختام الاجتماع نوه الأسد: «إننا نشعر بالارتياح تجاه المناقشات، وليس هناك بديل عن مثل هذه الاجتماعات المباشرة، وآمل أن يمكننا هذا في المستقبل من إنجاز الكثير، فهذا من مصلحة كل بلادنا ومن مصلحة السلام في الشرق الأوسط، إنني أريد السلام عن طريق حقيقي». كان من السابق لأوانه إلي حد بعيد معرفة ما إذا كان يعني ذلك، فقد ظل يقوله لسنوات كمعظم الزعماء العرب، لكن تم إنجاز الهدف الأكثر إلحاحاً، والتزمت سوريا بالمشاركة في التحالف.



وتوجهت من دمشق إلي روما لإجراء مشاورات مقتضبة مع الزعماء الإيطاليين الذين وافقوا علي إرسال سرب من طائرات تورنادو إلي الخليج، ثم توجهت إلي ألمانيا حيث إلتقيت في ساعة متأخرة بعد ظهر ١٥ أيلول سبتمبر مع المستشار كول في مسقط رأسه لودفيجشافين التي لا تبعد كثيراً عن القاعدة الجوية الأمريكية العملاقة في رامشتاين. ورغم أن الدستور الألماني يحظر علي كول إرسال قوات إلي الخليج فإن ضمان الحصول علي التزام مالي ألماني أمر ملزم من الناحية الرمزية. وقبيل مغادرة واشنطن كنت قد تعرضت لوابل من الشكاوي أثناء إدلائي بشهادتي أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ حول الدول الأخري التي لا تشارك في تحمل نصيبها من العبء. وتعرضت ألمانيا لانتقادات خاصة، وكنت أتبني وجهة النظر القائلة بأن استجابة ألمانيا للأزمة كانت حتي ذلك الحين مخيبة للآمال، رغم أنني لم أفصح عن ذلك علانية. كان تردد الألمان مثيراً لحيرة كبيرة، لأنني شاركت قبل يومين اثنين في موسكو في حفل التوقيع علي المعاهدة التي انهي الحلفاء الأربعة المنتصرون في الحرب العالمية الثانية بموجبها حقوق الاحتلال في ألمانيا الغربية، مما مهد الطريق لإعادة توحيد ألمانيا بعد نحو نصف قرن. وكان اتفاقاً توسطت فيه الولايات المتحدة أساساً، ويعرف الألمان ذلك، وها نحن الآن نريد شيئاً من المساعدة في المقابل.

وقبل أن أصل كانت وزارة الخارجية قد بدأت في تسريب بعض الأنباء عن استعداد ألمانيا لأن تكون أكثر إيجابية. لكن كنت أريد التأكد من أن المستشار كول يعي المحاذير. واقتصر الاجتماع علينا وعلي المترجمين فقط.

وقلت: «لقد عملنا عن كثب في العام الماضي لتلبية مطالبكم. وأعتقد أننا أنجزنا عملاً جيداً، ولم يكن الأمر سهلاً علي الدوام. لقد عملنا عن كثب سوياً وكنا نطلعكم علي كل خطوة. كان إنجازاً رائعاً لنا. لكن لنا بعض المطالب الآن. «إنكم لن تشاركوا بأي قوات لأن دستوركم يحظر هذا، وإذا بدا أنكم بخلاء بالنسبة للمال فسوف تحصلون علي كل المزايا من هذا وإن تساهموا بشيء»، وحتي لو لم أكن أعتقد ذلك فإن الأمر يُفْهَمُ علي هذا النحو. عليكم أن تضعوني في موقف استطيع فيه عندما أقف أمام الكونجرس أن أقول إن ألمانيا تتحمل نصيبها العادل. إنني أعرف مدي أهمية العلاقات الأمريكية الألمانية لكم وأنتم تعرفون مدي

أهميتها عندي. لكن لا يمكنكم أن تدعوني أُشنَق بسببها، والمستشار رجل أطلنطي ملتزم ومدافع قوي عن الولايات المتحدة ووجودها في أوروبا وصديق مقرب للرئيس بوش وزعيم دائم الامتنان لما قدمته أمريكا. وأظهر هذا بتقديم مساعدة بلغت نحو مليارى دولار، إضافة إلي تقديم عتاد لإسناد القوات الأمريكية في الخليج قيمته ملايين الدولارات، ووافق المستشار علي زيادة المساعدة العسكرية والاقتصادية لتركيا بقدر مهم، وتقديم سفن ألمانية لنقل القوات المدرعة المصرية ودباباتها الثقيلة إلي الخليج.

ولدي عودتي إلي واشنطن في تمام الثالثة فجر السادس عشر من أيلول سبتمبر راودتني الأفكار بأن لديّ أدلة دامغة علي أن دبلوماسيتنا تؤتي مفعولها. وفي وقت لاحق من اليوم سوف تصدر الأمم المتحدة قرارها السابع بإدانة الغزو. وها هو التحالف الدبلوماسي قد التأم، وبدأت العقوبات تؤثر علي العراق وتعهد شركاؤنا بمليارات الدولارات لتحمل العبء المالي لعملية درع الصحراء. لكن صدام لايزال في الكويت، وتشير تصريحاته وخطبه إلي أنه ليس في عجلة من أمره للانسحاب.

الفصل السابع عشر

كل الوسائل اللازمة

إن صدام رجل يفقد توازنه... رجل لا يعرف شيئاً عن الأخلاق . شخص يستهين بكل قيمة إنسانية يعتنقها أي مجتمع. ربما كان الله قد ساق هذه الأحداث لنتخلص من صدام.

الملك فهد

للوزير بكر

جدة، العربية السعودية

٥ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠

بحلول تشرين الأول أكتوبر نجح الردع الأمريكي في الخليج. فلو كان صدام حسين يخطط لغزو العربية السعودية فإن نشر الرئيس للقوات في شهر آب أغسطس يكون قد قلل من هذا التهديد*.

ونجحت مساعينا الدبلوماسية التي ساعدتها غطرسة صدام في عزله عن التيار الدبلوماسي الأساسي. فما من أحد يؤيد الغزو العراقي للكويت في أي مكان في العالم. لكنه ظل في الكويت مع ذلك غير عابئ بضغوطنا، وأصبح الرئيس علي اقتناع بأنه بات من الضروري الآن أن تلجأ السياسة الأمريكية إلي نهج أكثر قوة.

ولسوء الحظ ثبت خطأ أصدقائنا المتفائلين في المنطقة في تقديرهم لآثار العقوبات الاقتصادية علي العراق. فمنذ البداية كان مبارك وأوزال علي اقتناع بأن العقوبات ستركع صدام وتحمله علي الخروج من الكويت في غضون ستة أسابيع. واتفق معهما جورباتشوف وشيفرنادزة. وفي البداية اقتنعنا بتقييمهم المتفائل: فهم يعرفون خصمهم أفضل منا. ومع ذلك وبعد مرور شهرين وبينما الحظر يثبت فعاليته المؤكدة بالمعني الاقتصادي توصلت إلي اعتقاد شأن معظم زملائي في الحكومة بأن العقوبات وحدها لن تنجح مطلقاً في طرد العراق من الكويت.

ومن أوجه كثيرة كان العراق مرشحا مثاليا لتؤثر فيه العقوبات الاقتصادية. فالعراق يعتمد علي الواردات إلي حد كبير لإطعام شعبه وتشغيل صناعاته. ويمكن الحد من صادراته الأساسية – البترول – بإغلاق خط الأنابيب الواصل إلي تركيا والعربية السعودية وفرض الحصار البحري في الخليج. ومن الناحية الجغرافية فإن العراق يعتبر معزولا نسبياً. وبرغم

---

* في الحقيقة، أنه بعد بضعة أسابيع من انتهاء حرب الخليج عرفت شيئاً أشار إلي أن صدام كان يعتزم بشدة تجاوز حدود الكويت وأُبلغت أن صدام بعث برسالة شخصية إلي الرئيس الإيراني علي أكبر هاشمي رفسنجاني تحدث فيها عن نواياه في التحالف السلمي مع إيران علي أرض أشار إليها سابقاً التي يمتد بطول ٨٠٠ كيلومتراً. ويبدو أن رفسنجاني فتح الخريطة وقاس ساحل الخليج وتأكد من أن صدام يصف حدوداً جديدة تمتد من الحدود العراقية في تلك المنطقة إلي الإمارات العربية متشمل بالطبع ساحل العربية السعودية علي الخليج.

حدوث بعض الانتهاكات للحظر عبر المملكة الأردنية الهاشمية مع دول أخري تتاخم العراق، فقد كان الأردن يلتزم إلي حدكبير بالحظر المفروض علي جاره القوى.

وسياسياً لم يكن من المرجح أن تؤدى العقوبات إلي إجبار صدام علي الخروج من الكويت. فأولاً مكنت الطبيعة الشمولية للنظام، صدام دونما اعتبار أو خوف من احتجاج الرأى العام – من إعادة تخصيص الموارد الضخمة فى مختلف أنحاء البلاد لاستمرار إطعام وتزويد جيشه وأجهزته الأمنية بالعتاد، وثانياً فإن الزعيم اليائس بالقدر الذى دفعه لغزو جاره من المرجح أن يتملكه قدر من اليأس يدفعه إلي الصمود فى وجه العقوبات . كانت الكويت جائزة كبيرة لصدام، وكان فى سبيله ليُجْبَرَ علي دفع ثمن باهظ للغاية لإعادة الكويت.

فقد كبدت ثماني سنوات من الحرب مع إيران العراق كلفة اقتصادية وبشرية، وكان من المشكوك فيه أن العقوبات قصيرة الأجل يمكن أن تنجح فى مضاعفة هذه الكلفة. وثالثاً كان الزمن فى صف صدام حسين من الناحية العملية. أما هؤلاء الذين يحاجون بإعطاء فسحة من الوقت لتؤتي العقوبات مفعولها فإنهم يسيئون مراراً تقدير صعوبة الحفاظ علي تماسك التحالف لفترة طويلة. وأخيراً هناك احتمال لانشقاق شريك رئيسى عن التحالف ومن المرجح فى هذه الحالة أن يتقوض التحالف. وكان من المقامرة الكبيرة أنه مع إبداء الاستعداد لاستخدام القوة لإعادة الكويت فمن غير المرجح أن يسلم صدام الكويت دون التلويح علي الأقل بتهديد قاطع باستخدام القوة ضده.

ومع ذلك كانت لاتزال هناك فرصة ضئيلة بأن العقوبات مقترنة بالتلويح بالقوة العسكرية ربما تقنع صدام بالانسحاب من الكويت. لكن حتي يمكن أن يكون لمثل هذا التهديد مصداقية فإن قواتنا فى الخليج تحتاج إلي تعزيز رئيسى. وفى الوقت نفسه فإننا فى حاجة لأن نشرع فى هدوء فى تقصى احتمالات الحصول علي قرار من الأمم المتحدة يجيز لنا استخدام القوة ضد صدام إذا لم ينسحب من الكويت فى مطلع عام ١٩٩١.

تعــزيز القــوة

في منتصف تشرين الأول أكتوبر اتصل بي كولين باول وقال: «أريد أن أتحدث معك حديثاً خاصاً قصيراً». وهكذا التقينا بعد ظهر ١٩ تشرين الأول أكتوبر لخمس وأربعين دقيقة في مكتبي. واحترمت رغبة باول في أن يكون اللقاء خاصاً، وتخليت عن عادتي بإبلاغ ديك تشيني بمثل هذه الاتصالات. وألمح البعض إلى أن باول وأنا معروف عنا ممارستنا لاستخدام القوة، وأنه جاء يطلب مساعدتي في معارضة وصول التطورات لانتهاج هذا النهج. وفي الحقيقة لم يكن الحال كذلك حيث إن الاجتماع أسفر عن اتفاقنا نحن الاثنين على ضرورة انتهاج سياسة عسكرية ودبلوماسية متشددة إذا تبددت كل الأمال في إخراج العراق من الكويت.

وسبق لنا العمل عن قرب خلال فترة الرئاسة الثانية لريجان عندما كان باول مستشاراً للأمن القومي وأنا وزير الخزانة. وكان يعرف أنه تربطني علاقة شخصية وثيقة بالرئيس. واعترف بأن العقوبات لن تكون لها آثار جوهرية على صدام، وكان يدرك أيضاً أن الرئيس سيضطر قريباً لاتخاذ قرار حول الخيارات المتشددة الضرورية. وأعتقد أن هدفه كان ببساطة هو معرفة إحساسي تجاه الموقف بشكل أفضل.

وفي ١٥ تشرين الأول أكتوبر التقيت مع بوب كيميت وبحثنا الخطوات المطلوب اتخاذها إذا تعين المضي قدماً في الخيار العسكري، وشملت تلك الخطوات استصدار قرارات إضافية من مجلس الأمن، وجهد دبلوماسي ضخم لحشد التأييد لاستخدام القوة، وتعزيز قواتنا في الخليج، وإقامة ترتيبات قيادة وسيطرة فعالة. ثم القيام بجولة في أوائل تشرين الثاني نوفمبر للتشاور حول تلك الخطوات مع شركائنا في التحالف.

وكما تبين كان يجمعني أنا وباول نمط تفكير واحد. فقد شاطرته قلقه من أن السياسة الحالية تشكل انحرافاً. فإذا كان انتشار قواتنا قد ساهم في احتواء مخططات صدام في العربية السعودية إلا أنه غير كاف لإخراجه من الكويت. وكان واضحاً لكلينا أن الحاجة ستدعو لاتخاذ المزيد لإنجاز هذه المهمة، واتفقنا أثناء حديثنا على أنه إذا لم يحدث مزيد من

الاستفزازات من جانب صدام فسوف تنحصر اختياراتنا في ثلاثة اختيارات هي: إبقاء كل الخيارات مفتوحة وهو ما سيطيل أمد الانحراف أو الاختيار الصد لسياسة الاحتواء المطلة التي يتم بمقتضاها تعزيز العقوبات وأن تظل القوات الأمريكية في الخليج لأجل غير مسمى في إطار مهمة دفاعية في المقام الأول، أو تشكيل قدرة هجومية تكفي لطرد العراق من الكويت لو اقتضت الضرورة.

وحبذنا الخيار الثالث. وقال باول: «إن لدينا القدرة علي بناء قوة هجومية حقيقية. فلابد وأن يقتنع هذا صدام حسين بأننا جادون وسوف يتطلب تعزيز القوة أربع فرق علي الأقل من القوات البرية. لكن كلينا كان يعتقد أننا لن ننجو علي الأرجح من الناحية السياسية إذا تحملت الولايات المتحدة نسبة خمسة وسبعين في المائة من الخسائر البشرية في حالة نشوب الحرب. ويتعين أن يشمل حشد القوة نشر عدد جوهري من القوات الإضافية من دول أخري وخاصة الدول العربية. ويمكن أن تكون هذه القوة الضخمة علي أهبة الاستعداد للقتال في غضون ثلاثة أشهر. ووافقني باول في الرأي بأن الخيار العسكري لابد وأن يكون مرتبطاً بمساع دبلوماسية تفوضنا في استخدام القوة العسكرية عند الاقتضاء



وفي اليوم التالي في المنزل قمت بتلخيص برنامج عمل يستند علي الخيارات التي بحثتها مع باول في نقاط دونتها لنفسي علي ظهر مظروف. وأشرت إلي أنه «لاستباق تراجع التأييد فلابد وأن يعلن الرئيس يوماً سيتم بعده استخدام القوة. وكنت أفكر بأن الموعد المناسب ربما يكون الأول من شباط فبراير أو أول آذار مارس. لكن «أياً كان الموعد الذي سنختاره فإننا في حاجة لأن نكون علي أتم استعداد. وفي الوقت ذاته يتعين أن نشرع فوراً في حشد «قوة ضخمة» في الخليج. ولتبرير هذا العمل كتبت: «إن النظام العالمي الجديد عليه أن يلتزم بالمبادئ ويتصدي للعدوان» فيجب ألا نكرر نفس الأخطاء التي ارتكبناها في الثلاثينات أو في فيتنام – كالتعويض والتردد – الخ. فإذا كنا نريد انجاز المهمة فعلينا تشكيل

قوة ضخمة. وفي غضون ذلك علينا أن نتوجه إلي الأمم المتحدة والكونجرس طلبا لتأييدهما في حالة استخدام القوة.

وكتبت: إذا وافق الكونجرس ولم ينسحب فعليك بالبدء؟ وإذا لم يوافقوا فما عليك حينئذ سوي الإعلان عن أننا سوف نحتويه وسنواصل فرض العقوبات وسوف يستمر تمركز القوات هناك كما في ألمانيا وكوريا، وفي هذه الحالة سيكون علينا دراسة إجلاء نهائي لبقية الدبلوماسيين الأمريكيين المتواجدين في الكويت.

وفي اليوم التالي اتصلت بالرئيس وأبلغته برغبتي في لقائه لقاء خاصاً للتشاور حول شيء ما. ورد: «لماذا لا تأتي فوراً وسوف نتناول شراباً». وبعد ظهر ذلك اليوم - الأحد - لخصت آرائي له في البيت الأبيض. وقال إنه يعتبرها آراء مهمة وأنه يتعاطف معها بشكل عام، ولكن كعادته يريد بعض الوقت لدراستها. واتفقنا علي ضرورة بحث القضية مع كبار مستشاريه. وفي الوقت الذي كنت أبحث فيه الفكرة مع الرئيس توجه باول إلي الرياض ليبحث مع شوارتسكوف احتياجاته لتوجيه تهديد هجومي فعال.

وعلي مدار الأيام الثلاثة التالية أثار الرئيس هذه القضايا مع تشيني وباول وسكوكروفت ومعي في عدة مناسبات. ففي ٢٤ تشرين الأول أكتوبر قال إنه يفضل نشراً جديداً رئيسياً للقوات الأمريكية في المنطقة. وفي ٣١ تشرين الأول أكتوبر - أي في اليوم التالي لعقد اجتماع لمدة ساعتين في غرفة الاجتماعات وافق الرئيس رسمياً علي تعزيز القوات بواقع مائتي ألف جندي يُرسَلون إلي العربية السعودية. وضاعف هذا النشر، وسوف يوفر القدرة المدرعة الثقيلة المطلوبة لخوض معركة برية. وبمجرد وصول هذه التعزيزات من الولايات المتحدة وألمانيا فإن قوتنا الدفاعية ستكتسب قدرة هجومية ضخمة. وإذا احتاجت الولايات المتحدة خوض الحرب فسوف نكون في وضع يسمح بالقتال والنصر.

وبرغم أن البعض اتَّهمَ بأن تعزيز القوة يرقي إلي حد اتخاذ قرار بخوض الحرب كان الرئيس وكبارُ مساعديه لايزالون يأملون في أن حشد القوات سوف يقنع صدام بالانسحاب

من الكويت بدون حرب، وأن دبلوماسية القوة ستؤتي مفعولها. وربما بدت الحرب وكأنها قضية واضحة ومباشرة نسبياً. ومع هذا فقد واجهتنا أرقام محتملة عن الخسائر البشرية قدرها البنتاجون بالآلاف. ناهيك عن شبح شن هجمات بالأسلحة الكيماوية والبيولوجية وتوقعات استمرار الحرب لأشهر لا أيام. ولم يكن يخالجني أي شك في أن الرئيس سوف يجيز استخدام القوة عند الاقتضاء، وأننا حريصون علي الحفاظ علي خياراتنا في إطار المادة ٥١، من ميثاق الأمم المتحدة. لكن ومنذ البداية الأولي اعترف الرئيس بأهمية الحصول علي الموافقة الصريحة للمجتمع الدولي لو كان ذلك ممكناً. ولسنوات دأب حلفاؤنا علي الشكوي من عقلية راعي البقر الأمريكي. وقد عززت عملياتنا الخاطفة في جرينادا وبنما هذا الانطباع. وباختيار تشكيل تحالف سياسي ودولي مناهض للعراق أثبت بوش أنه استوعب هذه الانتقادات. ومع هذا فقد كان يعتقد في المقام الأول عن صواب بأن التلويح باستخدام القوة سيكون أكثر إقناعاً لو حظي بموافقة رسمية من معظم أعضاء العالم المتحضر. وهذا هو السبب الذي دعاه في أواخر تشرين الأول أكتوبر – ليس فحسب إلي زيادة عدد القوات الأمريكية. بل السعي أيضاً لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يفوض التحالف خوض الحرب عند الضرورة.

وكان هذا القرار مفروغا منه علي أية حال. وعارضت مارجريت تاتشر الفكرة معتقدة أننا إذا فشلنا في استصدار القرار فسوف تتقوض إلي حد بعيد قدرة التحالف علي استخدام القوة بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وكانت تعتنق الرأي القائل بأن الأمم المتحدة سوف ترفض مثل هذا القرار الذي سنقدمه، وهكذا فإن مخاطر محاولة استصداره تفوق بكثير أي احتمالات للكسب. وأيدها في الرأي ديك تشيني وبرينت سكوكروفت. وكنت أوافقهم جميعاً الرأي في أنها ستكون خسارة فادحة لو خسرنا مثل هذا التصويت الحاسم. ولم أبذل علي أية حال أي محاوله لاستصدار القرار ما لم أكن متأكداً من موافقة الأعضاء عليه ومع ذلك كنت أعتقد أن بوسع الدبلوماسية المكثفة أن تمكننا من الحصول علي التأييد الضروري. وحاججت بأن هذا سيحدث بطريقة تكفل عدم عرض القضية مطلقاً علي مجلس الأمن للتصويت ما لم نتأكد أننا حصلنا علي الالتزامات الكافية لمعرفة النتيجة النهائية وأخيراً وافق الرئيس علي أنها مجازفة تستحق المغامرة، وكانت مهمتي ترويج القرار في مجلس الأمن ومع شركائنا في التحالف.

كـل الوسائل اللازمـة

أملى الجدول الزمني لجهودنا الدبلوماسية واقعا بسيطا لا ينازع. فبطريق المصادفة البحتة وبموجب ترتيب منذ أمد بعيد، سوف تتولي الولايات المتحدة رئاسة مجلس الأمن ثم تنتقل الرئاسة الدورية للمجلس إلي اليمن حليف العراق الذى يمارس التحالف بشدة، وكمسألة عملية سيتعين إجراء أى تصويت علي القرار فى موعد لا يتجاوز الثلاثين من تشرين الثاني نوفمبر.

وفى تشرين الأول أكتوبر، وقبل وقت طويل من اتخاذ قرار تعزيز القوة كنت قد طلبت من لجنة النواب إعداد نص مشروع قرار مقترح. وكنت أريد أن يتضمن مشروع القرار إعلاناً واضحاً لا لبس فيه يجيز ويقر استخدام القوة، وليس التفويض باستخدام القوة. وتضمن النص الذى اقترحته «كل الوسائل اللازمة بما فى ذلك استخدام القوة». ومع هذا فإن الدبلوماسية البارعة هي التى تستند إلي فن الممكن. ولذا فقد كنا فى مركز قوى. وبطلب مني استقصى بوب كيميت الجوانب القانونية، وخلص إلي أنه إذا اعترض السوفيت وحلفاء آخرون علي مثل هذا التحديد فإن عبارة «كل الوسائل اللازمة» علي بساطتها تتضمن الإجازة الكافية لخوض الحرب. ومع هذا كنت أقل اهتماماً بقواعد اللغة عن اهتمامي بالتفوق العددى الكاسح فى مجلس الأمن. ومع وجود اليمن وكوبا فى عضوية مجلس الأمن فى تشرين الثاني نوفمبر فمن غير المرجح التصويت بالإجماع. لكن حدوث انقسام كبير فى التصويت بمجلس الأمن سيجعل من اليسير علي صدام أن يدفع بأنه ضحية انتقام امريكى صهيونى، ومن ثم يقوض مصداقية العملية العسكرية.

وحرصت علي إجراء لقاء شخصى مع كل رئيس دولة أو وزير خارجية كل دولة عضو فى مجلس الأمن فى الأسابيع السابقة علي إجراء التصويت فى المجلس. ويشتهر مندوبو الدول فى الأمم المتحدة باستقلاليتهم. وسوف يجعل التفاوض مع رؤسائهم مباشرة وعدم التوصل إلي اتفاق فى مجلس الأمن أمراً أقل احتمالاً. وأردت أيضاً حضور وزراء خارجية الدول الخمس عشرة الأعضاء فى المجلس عملية التصويت. فقد كنا نطلب من المجلس إجازة

استخدام القوة للمرة الأولي منذ أزمة كوريا. فببساطة كان القرار قراراً حاسماً يتطلب معالجة علي أرفع مستوي.

يوماً كان مقداره سبعاً وثلاثين ساعة

غادرت واشنطن في الثالث من تشرين الثاني نوفمبر. وفي غضون الأسابيع الثلاثة التالية أمضيت ثمانية عشر يوماً في التجول بين اثنتي عشرة دولة في ثلاث قارات. وفي اليوم التالي لعيد الشكر أبلغني طاقم طائرتي التابعة للقوات الجوية الأمريكية أنني سجلت رقماً قياسياً شخصياً ليوم كان مقداره سبعاً وثلاثين ساعة انتقلت فيه من جدة إلي بوجوتا – كولومبيا – إلي لوس انجلوس، ثم إلي مسقط رأسي هيوستون. وفي العمل في الفترة المتبقية علي انتهاء تشرين الأول أكتوبر اجتمعت شخصياً مع كل نظرائي في مجلس الأمن في عملية معقدة من التملق والإقناع والتهديد. بل وشراء الأصوات في بعض الأحيان. وهذه هي سياسة الدبلوماسية.

وفوضني الرئيس في حالة حدوث معارضة للقرار في تقديم بعض التنازلات لكسب أعضاء المجلس الجامحين. وخلال جولتي العالمية من شرق العالم لغربه كنت أحتفظ في جيبي بقائمة من الإغراءات الدبلوماسية التي يمكن أن نلتزم بها مقابل الحصول علي التأييد. وعلي سبيل المثال كنا علي استعداد للالتزام بسحب فئة معينة من القوات الأمريكية من العربية السعودية إذا انسحب العراقيون. كما كنا علي استعداد أيضاً لتشكيل هيئة تحكيم في لاهاي للفصل في الإدعاءات العراقية الكويتية لمعالجة النزاع الحدودي بشمولية. وكما تبين لم تكن هناك حاجة لأي من تلك الإغراءات.

وخلال زياراتي اجتمعت مع معظم أعضاء التحالف العسكري لإطلاعهم علي آخر استعداداتنا، والحصول من كل منهم علي ثلاثة تطمينات حساسة. وكنا في حاجة للتأكد من

أن كافة العمليات ستكون تحت سيطرة القادة الأمريكيين، وكنا فى حاجة أيضاً إلي معرفة أنه ليست هناك اعتراضات علي قصف العراق، وأن الشركاء سيظلون معاً حتي إذا انتقمت إسرائيل فى حالة تعرضها لهجوم عراقى.

وخلال أول توقف فى المنامة عاصمة البحرين التقيت الأمير الشيخ عيسي بن سلمان ال خليفة فى مستشفي بابكو حيث كان يتعافي من نوبة قلبية. وتتولي عائلة آل خليفة حكم البحرين منذ عام ١٧٨٢. وكما توقعت كان مؤيداً للغاية. وقلت له: «فى حالة بدء القتال ومتي بدأ فإننا نريد أن نكون قادرين علي طلب توجيه ضربات. ونحن فى حاجة أيضاً لأن نعرف ما إذا كان حلفاؤنا العرب والمسلمون في التحالف سيواجهون متاعب إذا ما تم شن عمليات هجومية ضد العراق بما فى ذلك قصف بغداد. وإذا ما قصف صدام حسين إسرائيل هل سيواصل شركاؤنا العرب التزامهم بالرد العسكرى ضد العراق؟» وكان الأمير إيجابياً تجاه النقاط الثلاثة. وتعهد قائلاً: «إن البحرين سوف تزيد كل جهد ضد العراق. فلن يجدى السلام مع صدام. فالكلب المسعور يعض كل من يقف فى طريقه».

وغادرت المنامة لتفقد قوات الفرقة الأولي فرسان بالجيش التى تمركزت فى ذلك الحين فى الصحراء الوسطي بالعربية السعودية. وفى نهاية رحلة صاخبة بطائرة هليوكبتر مفتوحة استغرقت خمسا وسبعين دقيقة كان منظر ٤٢٠٠ من جنود الفرقة الأولى فرسان الذى بدأ يلوح فى الأفق مؤثراً ومتحركاً. وتحدثت إلى الجنود وأنا أقف تحت شبكة ضخمة مموهة من منصدة وقف بجانبيها جنديان يرتديان زى الميدان الذى يعود إلي القرن التاسع عشر. وذكرتهم بأنهم هم وجهودهم يشغلون تفكيرنا باستمرار، وأنه بدون شجاعتهم سيكون هذا الجهد كله مستحيلاً.

ولمست مدي ارتفاع معنوياتهم وأنهم متلهفون لمواجهة كل ما ينتظرهم أيا ما كان ولمتزجت واختلطت بالجنود، وقال لى ضابط برتبة كابتن إنه ذهب إلي المدرسة ولعب الكرة مع ابنى مايك فى أكاديمية نورث ويست بهيوستون. ولدى مغادرتى أهدانى الجنود علبة مما يعتبره الكثيرون واحداً من أقل الجوانب الجذابة للحياة العسكرية، التعيين الميدانى. ومنذ أيام

خدمتي في مشاة البحرية كنت أعرف أن أفضل وجبة في التعيين الميداني هي الفتائق الحارة وكنت أحمل معي زجاجة طوال الوقت.

وفي الطائف حصلت من أمير الكويت علي موافقة مماثلة. وبالطبع كان يريد استعادة بلاده وهزيمة صدام، والأفضل أن يتم هذا بأسرع ما يمكن. واقترح أن أبحث نقاطي الثلاث مع ولي العهد الذي لم تكن لديه أي تحفظات علي النقطتين الأوليين. لكنه أعتبر أن النقطة الثالثة تنطوي علي بعض المشاكل، وطمأنته قائلاً: «إننا لن نقبل أي حل جزئي، لكننا نريد أن نعرف موقف العرب إذا هاجم صدام إسرائيل. إننا نريد أن نتأكد أنكم ستكونون معنا». ويبدو أن سؤالي أثار التوتر بين الكويتيين. وساد صمت مطبق لبرهة. وسأل ولي العهد: «هل لنا أن نضمن أن إسرائيل لن تتخذ الخطوة الأولي بمهاجمة العراق». ورددت قائلاً: «لنفترض العكس إننا نريد طرح هذه القضايا علي الطاولة. إننا نريد أن نعرف موقفكم لو هاجم صدام حسين إسرائيل». واعترض ولي العهد قائلاً: إنك محق في إثارة هذا السؤال. إن موقفنا واضح «لكنه لم يكن كذلك». فكل ما كان واضحاً هو الصعوبة التي وجدها في صياغة رده. ولم ينقطع ولي العهد عن التحول لمستشاريه والتحدث معهم بالعربية. وحثثته بلطف: «إننا نعرف أنه موضوع بالغ الصعوبة. وسوف أفتح الموضوع مع كل العرب الذين سوف التقيهم في جولتي وأطرح عليهم نفس السؤال ولابد أن أعرف الإجابة».

وأخيراً تلقيت الإجابة المطلوبة: «فيما يتعلق بموقف الشعب الكويتي إذا هاجم صدام إسرائيل، فلأنكم تحاولون تحرير بلادنا فإنني لا أعتقد أن أي كويتي سيقول أي شيء. فإذا بدأ الهجوم فليكن».

ورددت: «هذا هو كل ما كنت في حاجة لسماعه».

وبعد ظهر ذلك اليوم تحدثت لفترة وجيزة في بهو فندق الشيراتون مع أربعة كويتيين نجحوا في الهرب من وطنهم المحتل. وتعرضوا جميعاً للتعذيب وأصيبوا بعاهات مستديمة فقد أُطْلِقَتْ النار علي مؤخرة رأس أحدهم وقُطِعَ لِسَانُه وشوه وجهه بشكل مرعب. وتعرض آخر لاعتداء جنسي لدرجة بات عاجزاً بعدها عن المشي. وأتذكر أن هذه هي المرة الأولي

التى أشاهد فيها على الطبيعة ضحايا انعدام إنسانية رجل. وأصابتنى الصدمة والخيبة والغضب نتيجة ما أصابهم.

❑ ❑ ❑

وقبل اجتماعى مع الملك فهد فى جدة اجتمعت لمدة ساعتين مع الأمير سعود الفيصل والأمير بندر الذى ألَحَّ علىَّ التعجيل ببدء الحرب. كان الأمير بندر يصر بشكل خاص على التحرك بسرعة. وقال فى سخرية: «أما أن ينهار أو ننهار نحن فى كانون الثانى يناير» ورددت قائلاً: «إنه لا يزال على الرئيس أن يتخذ القرار. لكننى أعرف الاتجاه الذى يسير فيه» وطرحت عليهما الأسئلة الثلاثة التى سأثيرها مع الملك فهد. وتوقعوا ألا تثير أى مشاكل تجاه هيكل قيادة وعمليات هجومية أمريكى ضد العراق. وذكرتهما: «بأن الطائرات الأمريكية سوف تقتل مواطنين عربا فى العراق». ورد الأمير سعود قائلاً: «إن العراق لم يقتل أمريكيين فى الكويت بل قتل مواطنين عربا. فهذه ليست مشكلة». وانقسما حول مسألة وقوع هجوم إسرائيلى على العراق وطمأننى بندر بانجليزيته التى أتقنها خلال سنوات تواجده فى واشنطن. لكن سعود كان يعتقد «أنها ربما تكون مشكلة معقدة سيتعين على الملك حسمها بنفسه».

واجتمعت مع الملك فى قصر السلام من الساعة العاشرة مساءً حتى منتصف الليل، وقدم الملك شراب الجزر المجلوب من الطائف، والذى قال إنه المشروب المفضل لمارجريت تاتشر. كان الملك متشدداً مثل سعود وبندر. وبات يعتقد الآن أن صدام خطط فى الأصل لمهاجمة المنطقة، ولم يردعه سوى الرد السريع للقوات الأمريكية. وقال: «إن الأصدقاء الحقيقيين هم الذين يمكن الاعتماد عليهم عندما يحتاجهم المرء. فالولايات المتحدة والمملكة فى خندق واحد». ووصف صدام بأنه رجل يفقد توازنه. رجل لا يعرف شيئاً عن الأخلاق، شخص يستهين بكل قيمة إنسانية. «وربما كان الله قد ساق هذه الأحداث لنتخلص من صدام».

وكما توقعت لم يكن من الصعب إقناع الملك بالحاجة للاستجابة بقوة أشد تجاه الأزمة. ووافق علي فكرة استصدار قرار من الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة. وعندما طلبت منه السماح علي الفور بنشر مائتي ألف جندي أمريكي إضافي أبدي موافقته بكل بساطة. وطلبت منه السماح بأن تكون السيطرة علي مجريات الحرب في يد القادة الأمريكيين لا بيد الضباط السعوديين. قال مبتسماً: «إن مثل هذه الترتيبات أ.د.ر ضروري». وأبدي موافقته في قضية إسرائيل الحساسة».

وأبلغته بكل استحياء ممكن عما إذا كان بوسعي أن أسأله المزيد من الدعم المالي. رد مبتسماً «لاشيء مستحيل علي النقاش بين الشركاء» وذكرته أنه وافق خلال زيارتي السابقة علي تقديم ٢,٥ مليار دولار لتغطية تكاليف الوقود والمياه والتجهيزات ونقل القوات الأمريكية داخل العربية السعودية. وقلت: إنني أعتقد الآن أنه من المناسب له أن يغطي أيضاً تكاليف نقل القوات الأمريكية من الولايات المتحدة إلي العربية السعودية. ورد قائلاً: «إن هناك سرطاناً الآن في المنطقة، ولابد من التضحية بكل شيء لاستئصاله. إنني موافق، ليست هناك مشكلة».

وطرت إلي القاهرة لعقد اجتماع خاطف مع الرئيس حسني مبارك بقصر الاتحادية بمصر الجديدة. وكانت إجاباته علي أسئلتي الثلاثة إيجابية كالمتوقع. ومع ذلك لم يكن مبارك متأكداً مما إذا كان بوسعه إرسال فرقة مصرية ثالثة إلي الخليج كما طلبت. وقال: إن الشعب المصري لا يريد تدمير دولة عربية أخرى. وكان له تقييم متحفظ علي طلبي بالسماح للطائرات الأمريكية باستخدام اثنتين من القواعد المصرية في شن عمليات هجومية. ومع ذلك كنت واثقاً من أنه سيوافق في النهاية.

الصينيون والروس المتشككون

وبعد الاجتماع أمضيت خمسين دقيقة في قاعة كبار الزوار بمطار القاهرة أمارس ضغوطاً علي وزير الخارجية الصيني تشيان تشيتشين الذي كان في طريقه لمقابلة صدام

حسين. وتم ترتيب اجتماعات قبل بضعة أيام عندما علمنا أنني سأكون موجوداً في المنطقة بالصدفة لحظة وجوده فيها. وتشجعت عندما أبلغني تشيان أنه يعتزم إبلاغ صدام بأن الصين ملتزمة بالتطبيق الكامل لكافة قرارات الأمم المتحدة، وبأن الانسحاب غير المشروط هو السبيل الوحيد لتجنب إراقة الدماء.

وشرحت له قرار إجازة استخدام القوة، واستطردت: «إن أفضل شيء يمكن أن تفعله للمساعدة في التوصل إلي حل سلمي لهذه الأزمة هو إبلاغ صدام بأن الصين سوف تؤيد هذا القرار» ولم يبد تشيان التزامه. وكان تشيان يعتقد أن العقوبات بدأت تؤتي مفعولها وقال: بما أن الحال كذلك فإن الحديث عن استخدام القوة سابق لأوانه. ودفع قائلاً: «إن الحرب سوف تغير توازن القوى في الخليج وينبغي تجنبها بأي ثمن. وطالما أن هناك بارقة أمل في السلام فلن تألوا الصين جهداً في التوصل إلي تسوية سلمية». وعدت للإلحاح عليه بشأن القرار. وقلت «مالم نقنع صدام بأننا جادون فليست هناك أدني فرصة. إن لم تكن هناك أي فرصة علي الإطلاق لانسحابه من الكويت سلمياً».

كان الصينيون لايزالون علي غضبهم لعدم قيام الرئيس أو قيامي بزيارة الصين. وشرحت أن مثل هذه الزيارة ستثير انتقادات داخلية من المحتم أن تصيب علاقاتنا الثنائية بانتكاسة. ولتعزيز وجهة نظري قرأت رسالتين حديثتين من أعضاء في الكونجرس يعربون فيهما عن الغضب لترفق بوش في معاملة الصين، وتشيان مفاوض داهية أراد الربط بين تأييد القرار بتعهد بقيام الرئيس بزيارة للصين وأبلغته بأنني سأوافق علي إيفاد بوب كيميت إلي بكين بتعليمات ببحث زيارة محتملة لي عام ١٩٩١.

وأعتقد أن تشيان فهم هذا علي أن استخدام الصين للفيتو سينطوي علي كارثة بالنسبة لتحسين العلاقات الصينية الأمريكية. لكنني أردت التيقن من أنه تلقي الرسالة. وأشرت علي استحياء: «أننا لا نتحدث مع أصدقائنا الذين لا ينضمون إلينا. لكن نسألهم ألا يقفوا في الطريق» ولم يرد تشيان لكن تعبيرات جسمه ولهجة تعليقاته دفعتني إلي الاعتقاد بأن الصينيين لن يكونوا عقبة، وأبرقت إلي الرئيس بهذا التقرير «إن إحساسي هو أنه بمجرد عودة

تشيان إلي الصين سوف يخلصون إلي أن من مصلحتهم إما تأييد القرار أو الامتناع عن التصويت علي أسوأ الأحوال. وأعتقد أننا لسنا في حاجة إلي قيامي بزيارة لهم للحصول علي تأييدهم أو قبولهم بقرار الأمم المتحدة».



واجتمعت في أنقرة في اليوم التالي ٧تشرين الثاني نوفمبر لمدة ساعتين مع الرئيس أوزال الذي كان يعتقد شأن تشيان أن الحظر الاقتصادي بدأ يؤتي مفعوله. وكخبير اقتصادي متمرس كان يتابع باستمرار حركة أسعار السلع في بغداد. وأشار إلي أن سعر جوال الأرز زنة خمسين كيلو جراماً قد قفز من ستة دنانير في اليوم السابق للغزو إلي أكثر من مائتي دينار. وبالمثل فإن ثمن ثمانية كيلوجرامات من الدقيق يزيد الآن عن المرتب الشهري لكبار المسؤولين. وقلت: «أعرف أنك تعتقد أن العقوبات سوف تؤتي مفعولها. وقد سبق لشيفرنادزة القول إن آثارها ستظهر في غضون شهرين، وها نحن الآن في الشهر الرابع». وأيد أوزال القرار ووافق علي دراسة طلب بإرسال لواء مدرع إلي العربية السعودية، كما وافق أيضاً علي السماح بزيادة عدد الطائرات الأمريكية المتمركزة في القواعد التركية من ٤٨ طائرة إلي ١٣٠ طائرة. غير أنه لم يكن واثقاً من السماح لتلك الطائرات بقصف العراق. وكنت علي ثقة من أن أوزال مثله مثل مبارك سوف يوافق إذا اندلعت الحرب التي كانت تبدو أكثر احتمالاً. وأسررت لأوزال «إننا متشائمون للغاية من فرص تسوية الأزمة سلمياً. فليست هناك أي بادرة علي أن صدام في سبيله للانسحاب».

وطرت من أنقرة إلي موسكو ببردها وثلوجها في السابع من تشرين الثاني نوفمبر، الذي يوافق الذكري الثالثة والسبعين للثورة البلشفية، لإجراء مباحثات استغرقت ثلاث عشرة ساعة مع جورباتشوف وشيفرنادزة بدءً من الساعة التاسعة صباح يوم الثامن من تشرين الثاني نوفمبر. وكنت أعرف أن الرئيس سوف يعلن في غضون بضع ساعات قرار تعزيز القوات. لذا أسرعت في شرح التفاصيل لشيفرنادزة كنوع من المجاملة. وهيأت المجال لطرح مسألة

قرار استخدام القوة. لكن شيفرنادزة كان مقتنعاً بأن الوقت غير مناسب. وأعرب عن اعتقاده بأن التلويح باستخدام القوة ربما يحول صدام إلي بطل. وقال شيفرنادزة: «ربما يتعين علينا تشديد العقوبات». ورددت: «إدوارد. ليست هناك مشكلة في تشديد العقوبات. إن هذا الرجل سيدع كل فرد في بلاده يتضور جوعاً قبل الانسحاب» وذكرته بأن شركاءنا العرب يصرون علي أن الحرب لا يمكن أن تبدأ بعد منتصف آذار مارس عندما يحل شهر رمضان، ثم بعد ذلك ستحرقنا حرارة الصيف اللافحة. ومن الناحية العملية فإن أي تأجيل ربما يضطرنا إلي تأجيل العمل العسكري إلي الخريف وقلت: «إن الشكوك تحيط بإمكانية أن نستطيع الحفاظ علي التحالف كل تلك الفترة».

وبمجرد أن انتهيت قال شيفرنادزة: «أفهم ذلك». وأمضي شيفرنادزة أشهراً في قتال اللوبي العربي في وزارته. فقد كان يعرف مدي هشاشة التحالف في الواقع. وما لبث نهجه أن تغير علي الفور بالكامل. وقال: «حينئذ فالشيء الوحيد الحاسم هو أنه إذا كنتم ستستخدمون القوة عليكم أن تضمنوا نجاحكم. فقد تعلمنا الكثير من أفغانستان. ولا تصغوا إلي العسكريين الذين يقدمون لكم آراء بسيطة بضمان النجاح. عليكم أن تتأكدوا من النجاح. هل أنتم واثقون من أنكم درستم الأمر دراسة وافية؟» ومن الواضح أن السوفيت كانوا لا يزالون يعانون من صراعهم الخاص علي نمط فيتنام.

ورددت: «إنني أريدكم أن تسمعوا من العسكريين الأمريكيين. وسوف استدعى هوارد جريفز. إنه مستشار لعلاقتنا أن استدعيه ليتحدث معكم. إننا نفعل شيئاً لم يحدث مطلقاً من قبل. وأخليت القاعة من الجميع باستثناء المترجمين، وقدم الجنرال جريفز عرضاً سرياً شديد التفصيل عن خطتنا الحربية. كان جريفز شديد الحرص بعدم الإفراط في تحديد قدرات أسلحتنا في الميدان. لكن عرضه لتصورنا التكتيكي في إدارة الحرب كان مع ذلك تبادلاً استثنائياً للمعلومات العسكرية من خصم سابق إلي آخر. وفي حقبة أخري لم يكن يخطر علي البال مطلقاً أن يُسْمَحَ لضابط أمريكي كبير بإطلاع وزير الخارجية السوفيتي علي خطط حربية ضد دولة حليفة للسوفيت.

وبدأ جريفز شرحه بالقول: «إن تصورنا يتمثل في المقام الأول في تدمير قدرة العراقيين علي توصيل التعليمات الاستراتيجية لقواتهم. وبهذه الطريقة سوف نحرمهم من القدرة علي شن حرب ضد قواتنا أو تنظيم دفاع ضد هجماتنا. حينئذ سوف تدمر دفاعاتهم الجوية من الصواريخ والطائرات. وبمجرد إنجاز هذا سيكون بوسعنا التحرك دون تهديد لتدمير قواتهم البرية في الكويت والعراق». وبأسلوبه الهادئ المقتصد لخص جريفز مجموعة الأسلحة الفتاكة التي بحوزة التحالف مؤكداً التفوق الساحق للقوات البرية الأمريكية. وقال: «بوسع دباباتنا تدمير دبابات الخصم وهي تنطلق بأقصي سرعة، ولا يملك العراقيون طريقة للدفاع عن أنفسهم» ولأسباب واضحة أمسك عن ذكر أن الدبابات العراقية الرديئة هي دبابات سوفيتية الصنع. وأشارت تقديرات جريفز إلي أنه في أسوأ الأحوال وفي أسوأ السيناريوهات فإن العملية الجوية والبرية المشتركة لن تستغرق أكثر من ثلاثة أشهر.

وكنت أعرف أن الجدول الزمني الذي عرضه جريفز جدول مخادع تماماً. فخلال الأسبوعين الماضيين عرض تشيني وباول تفصيلاً عليَّ خطط البنتاجون الطارئة في حالة الاضطرار لاستخدام القوة. وأشارت تقديرات هذه الخطط الحربية إلي أن التحالف سوف يكسب الحرب في غضون ثلاثة إلي أربعة أسابيع. وتمت طمأنتي بأن هذا تقييم أمين للواقع العسكري. لكنني كنت أخشي من احتمال أن يعتقد شيفرنادزة أنه مبالغ فيه إلي حد كبير. وأبلغت جريفز أنه إذا وعندما يتم استدعاؤه لتقديم هذا العرض فعليه أن يخفف السيناريو ويقول: إن الحرب ستنتهي في غضون ثلاثة أشهر. وعندما سمعت تحذير شيفرنادزة من الركون إلي سيناريوهات العسكريين المتفائلة شعرت بالارتياح لأننا قررنا إلتزام جانب الحذر.

وبدا شيفرنادزة وكأنه مستوعب تماماً نتيجة التفاصيل والثقة البادية من عرض جريفز. وأثار سؤالاً واحداً في تعجب: ألا تقلقكم صواريخ سكود؟ ورد جريفز: «لا، إنها لا تشغلنا مطلقاً لأنها غير دقيقة بالمرة. إنها لا تشكل خطراً علي قواتنا. واستغرق الأمر برهة لابتلاع الإهانة الجسيمة التي وجهها جريفز بلطف. فقد أبلغ وزير الخارجية السوفيتي لتوه أن أحد أفضل صواريخ جيشه لا يعدو أن يكون مجرد قطعة عديمة القيمة من الحديد الخردة. وصمت

شيفرنادزة لبرهة ثم لاحت منه ابتسامة عريضة. فقد تم إقناعه علي الأقل بأننا نعرف ماذا نفعل.

وقت: «علينا أن نتأهب لاستخدام القوة. لأننا لا نعرف أن هذا «القرار» سيؤتي مفعوله» ووافق شيفرنادزة. وحمل شيفرنادزة نفسه في النهاية علي القبول مطلقاً: «بمجرد انتهائكم من هذا عليكم أن تستعدوا وعليكم أن تحققوا النجاح». فقد كان في البداية مقتنعاً بأن صدام لن يقدم مطلقاً علي الغزو. ثم خلص إلي أنه بمجرد أن تضيق العقوبات عليه الخناق فسوف يثوب إلي رشده، وللمرة الأولي أحسست أنه بدأ يحرف بشكل أفضل.

وقال: «انظر إنني أريد أن أخرج وأهين الرئيس أولاً»: ورفع سماعة الهاتف وأبلغ جورباتشوف بأنه يتعين أن يقابلني وأن يوافق علي اقتراحي. ثم توجه جورباتشوف إلي داشا في نوفو أوجاريفو، ووصل قبل وصولي بعشرين دقيقة لأعرض قضيتي مباشرة.

وما لبث موكبنا الصغير أن اتجه إلي نوفو أوجاريفو – الذي يشبه كامب ديفيد في رحلة جميلة استغرقت نصف الساعة عبر السهل الروسي كثيف الاشجار الذي تكسوه الثلوج . كان المشهد غاية في الروعة. فطبقة الثلج الرقيقة تزيد بهاء المنظر. كما أن بالوسع رؤية الغزلان من الطريق.



وعندما وصلنا إلي المبني الرئيسي الضخم للمجمع المنعزل ولونه بلون الخردل استقبلنا جورباتشوف بردهة المدخل تحت ثريا بديعة. وكنت أول مسؤول أمريكي رفيع المستوي يطأ المكان. والمبني مريح وحديث نسبياً، وعلمت فيما بعد أن التلفزيون في غرفة العاملين يستقبل إرسال شكبة MTV وليس شبكة CNN واصطحبني جورباتشوف للهبوط إلي قاعة مكتبه لعقد اجتماع استغرق ساعتين، ولدي دخول المصورين الصحفيين لالتقاط صور ما قبل الاجتماع تدافعوا بعنف لدرجة حطموا معها طاولة خشبية وكسروا الزجاج وقلبوا أباريق المياه. واستهل جورباتشوف الاجتماع بعقد أصبعي السبابة والوسطي في كلتا يديه قائلاً: «إن

المهم حقيقة هو أن نظل مخلصين لبعضنا. فلا يمكن أن ندع سفاحاً كهذا يفلت بما فعل» كانت بادرة مشجعة. لكن جورباتشوف سرعان ما أوضح أنه غير متحمس للقرار، وقال: من الطبيعي أن تطلبوا معونة السوفيت. لكن من الصعب أن تسألوا المساعدة في شن حرب ضد دولة حليفة. فضلاً عن ذلك كان يعتقد أن تحديد مهلة نهائية سيكون له أثر عكسي. فالعقلية العربية تتسم بالعناد في وجه الإنذار حسبما قال.

وبدأت لهجة جورباتشوف تحتد: «أنت تعرف الآن. إنه إذا أصدرنا قراراً يجيز استخدام القوة، وإذا لم يتحرك صدام فعليكم بالفعل أن تستخدموا القوة. وإذا فعلتم ذلك فهل أنتم مستعدون للقيام بذلك الآن؟». وقلت: إن الرئيس يدرك هذا تماماً. إنه عازف عن استخدام القوة لكنه مستعد لاستخدامها.

وبينما أبحث عن أرضية دبلوماسية وسط اقترح جورباتشوف بشكل مفاجئ إصدار قرارين. أولهما يجيز استخدام القوة. لكن بعد مهلة مدتها ستة أسابيع ويقضي الثاني بدء العمليات العسكرية إذا لم ينسحب صدام حسين من الكويت. كانت فكرة مروعة. وقلت لجورباتشوف: إن الأمر يبدو وكأننا نتراجع عن شرط الانسحاب غير المشروط. وقلت: «لن نستصدر قراراً ثانياً، وسوف نشجع صدام على القيام بانسحاب رمزي يمكن أن يسفر عن حل جزئي» هذا هو ما اقترحته في محاولة التوصل إلى تسوية مع جورباتشوف – أي إصدار قرار واحد يمكن بعده استخدام القوة. ولم يشأ جورباتشوف قطع أي التزام في ذلك الوقت. وقال عن فكرته ثنائية الأبعاد: «إنها مجرد فكرة على أن أتفحصها بشكل مفصل» ووعدني بتقديم إجابة للرئيس في غضون أحد عشر يوماً عند لقائهما في قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي ستعقد في باريس.

وفي طريق العودة إلى بيت الضيافة أوسر بتياك أبلغت روس ومارجريت تاتويلر أن جورباتشوف سوف يؤيدنا في نهاية الأمر، وبدا الرئيس مسترخياً في هذا المنزل الريفي وكان ودوداً ورقيقاً مع العاملين معي.

وبحثت أنا وتاتويلر وروس في السيارة ماذا يتعين عمله مع جيش الإعلام الذي يتلهف لمعرفة ما حدث خلال ما كان بالفعل يوماً طويلاً ومشحوناً. ولدى عودتنا إلى موسكو عزف

شيفرنادزة عن لقاء الصحافة قبل استكمال اجتماعاتنا متعللا بعدم الانتهاء من بحث مسألة مباحثات الاسلحة التقليدية فى أوروبا.

وقالت تاتويلر: «سيدى . إن صحافتنا غير معنية بالأسلحة التقليدية . إنها معنية بالخليج. وهى تعتقد أن هذا هو سبب وجودنا هنا».

وهكذا وحتى قبل إنهاء ما كان بالفعل يوماً شاقاً مضنياً عقدت أنا وشيفرنادزة مؤتمراً صحفياً مشتركاً. وسئل عما إذا كان يرى أن هناك موقفاً يقتضى احتمال استخدام القوة لطرد صدام من الكويت فقال: «يحتمل ألا يمكن استبعاد هذا، كما أنه قد يظهر موقفاً يدعو بشدة إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء». ولم يسعنى أن اخفى ابتسامة غير دبلوماسية. فقد أظهر شيفرنادزة مرة ثانية شجاعته فى إستباق خصومه وحملهم على الإذعان بالاعتراف بالأمر المحتم.

وبدأنا على العشاء اجتماعاً آخر تركز أساساً على المراحل النهائية لمباحثات الأسلحة التقليدية فى أوروبا. لأننا أردنا إنهاء المفاوضات قبل قمة مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا، وفى لحظة ما عرض شيفرنادزة مواصلة اللقاء طيلة الليلة. وكنا قد أحرزنا تقدماً كافياً لينتهى اليوم بعد الساعة العاشرة بقليل.

وفى صباح اليوم التالى أرسلت برقية إلى الرئيس بعنوان «يومى فى موسكو الثامن من تشرين الثانى نوفمبر ١٩٩٠». لخصت فيها ما شعرت أنه تقدم نحو تحقيق هدفنا. وبدأت البرقية:

> «أجريت مباحثات مطولة غير عادية مع شيفرنادزة وجورباتشوف اليوم. وقد أصغى كلاهما وشرحا شواغلهما، وطرأ على موقفيهما تقدم هام أثناء سير المباحثات. واقترب شيفرنادزة بشكل خاص من موقفنا بضرورة صدور قرار من الأمم المتحدة بإجازة استخدام القوة فى الشهر الحالى. أما جورباتشوف فإنه على الطريق لكنه لم يصل بعد ...... وفى الوقت الذى اعتقد أن شيفرنادزة غير متحمس لاستخدام القوة فإنه أكثر ميلا للاعتقاد بأنها لابد وأن تستخدم فى نهاية المطاف. ومن جانبه فإن تصور جورباتشوف عن النظام العالمى

الجديد هو أن الوقت غير مناسب للتعايش مع حقيقة أننا ربما نحتاج إلى استخدام القوة في هذا الاختبار الأولي.. وأعتقد أن اهتمامهما بإقامة علاقات طيبة ورغبتهما في الشراكة معنا ستدفعهما نحو الاتجاه الصحيح. لكن الأمر قد يتطلب بعض الوقت والجهد لتحقيق النتيجة».



الأوروبيـون والأفارقـة

في التاسع من تشرين الثاني نوفمبر الذي يوافق الذكرى الأولى لسقوط سور برلين توجهت إلى لندن حيث لازالت رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر تعاني المشاكل من جراء قرار السعي لاستصدار قرار من الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة. ولم تكن تعتقد أن الرئيس في حاجة لعمل هذا المساعدة في حشد التأييد السياسي في الداخل وفي الكونجرس.

وأشرت بلطف: «السيدة رئيسة الوزراء. أرجو أن تدعونا أن نكون الحكم على العواقب السياسية الداخلية في الولايات المتحدة». ومن منطلق صداقتنا وتحالفنا الوثيق لم تدع مجالاً للشك في أن بلدها ستكون معنا أيا ما كان القرار.



وفي العاشر من تشرين الثاني نوفمبر توجهت إلى باريس للقاء الرئيس ميتران وبالصدفة البحتة كان صديقي ومواطني لويد بينتسين وزوجته بي. إيه ينزلان في فندق رويال مونصو حيث أنزل. واستمتعنا بشرب قهوة الصباح معا قبل لقائي بالرئيس ميتران.

والفرنسيون شديدوا المراس بالفطرة، وعلي حد الوصف المهذب لدوجلاس هيرد: «إن لهم طريقة خاصة في تناول الأمور، فقد وافقوا علي إرسال قوة الرد السريع الخاصة بهم إلي العربية السعودية لكنهم أصروا في البداية علي ألا توضع تحت القيادة الأمريكية. ومن الناحية الدبلوماسية كانوا يفضلون تطبيق العقوبات لفترة أطول قبل دراسة اللجوء إلي القوة. كما أنهم حبذوا أيضاً ربط الأزمة بعملية السلام في الشرق الأوسط الأمر الذي يفيد صدام حسين. وكنت أشعر علي الدوام بأن الفرنسيين سوف يكونون معنا في مجلس الأمن. لكنهم كانوا كدأبهم في الشغف بالجدل والولع بالحديث وعرض المقترحات.

كان ميتران بارعاً في إلزام محاوريه جانب الدفاع، وهكذا فقد بدأ بالشكوي من التقارير الواردة في الصحافة الفرنسية من مسؤولين أمريكيين لم تحددهم بالإسم يقولون: إن الولايات المتحدة تشك في صدق عزيمة فرنسا. ومع هذا سرعان ما ترك شيئاً من الشك حول مدي الحاجة لاتخاذ إجراء قوي ضد صدام حسين. وقال ميتران: «إنه متوحش وذكي وحاد وأكثر خطورة من الآخرين، وصدام حسين في الكويت لا يختلف عن الأسد في لبنان وفرنسا لا تري أي اختلاف بين ما يجري في الكويت وبين ما يجري في لبنان غير أننا لم نهب للدفاع عن لبنان، إنكم علي صواب عندما تقولون إننا حليفان منذ أمد طويل. ولو طلبت منكم المساعدة في لبنان فلن يقدم أحد يد العون».

«إن علاقتنا طيبة بالأمير وبالعربية السعودية. فقد زرت العربية السعودية مؤخراً. وتلقيت هدايا قيمة. وفي قصورهم لا تقع عين المرء علي نساء أو أفراد عاديين من الشعب، فهذه ليست الحكومات التي أود أن أرسل جنوداً فرنسيين ليقتلوا في سبيلهم، فما من دولة يمكن أن تحقق مبادئ الكويت ولا يمكنهم أن يطلبوا جنوداً ليموتوا من أجل الطريقة التي ينتخب بها الكويتيون هذا الشكل من الحكومة. كيف يتأتي لي أن أبلغ الفلاحين الفرنسيين بأنني رهنت أرواح أبنائهم للاحتفاظ بمليارديرا؟ صحيح أن أمير الكويت رجل رقيق. هل يمكن أن تضمن أن استخدام القوة ليس مجرد حماية لأمن الأرصدة في بنوك سويسرا؟ إنها فكرة تصيبني بفتور تام».

«ومع ذلك فصدام ليس غير ضار، إنه خطير، وهناك حاجة لاحتوائه فلنا في العربية السعودية ستة آلاف جندي يتمركزون هناك وبحريتنا تقوم بمهامها في الخليج وأفريقيا. وبعد الولايات المتحدة فإننا نقوم بأفضل جهد، وإذا لم يشعر أنه مهدد فلن ينسحب. فالصداقة السابقة بين فرنسا والعراق لم تتحول إلي صداقة شخصية مع صدام. فقد طلب لقائي علي مدار الأعوام التسعة الماضية. ولم أذهب إلي العراق مطلقاً ولم ألتق به مطلقاً وهناك فتور في علاقتنا حتي برغم أننا – فرنسا – ساعدناه عسكرياً ببيع بعض الأشياء ولتسع سنوات رفضت طلبه بإعادة بناء محطة الطاقة التي دمرها الإسرائيليون وعرّض هذا الرفض علاقات بلدينا للخطر».

وبدا ميتران مستعداً للحرب. غير أنه لم يكن يعتقد أن المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة تكفي لتبرير هجوم من الوجهة السياسية. وقال: «إن المادة ٥١ لا تقنع الرأي العام، إن خمسة وخمسين مليون فرنسي ليسوا محامين دوليين. إننا في حاجة لأن يضمن ذلك القرار العواقب التي سيجرها».

وقال ميتران: «إنه يوجز نفسه في خيارات بسيطة: حرب أم سلام. إن إجازة الأمم المتحدة إرسال قوات لتطبيق القانون الدولي هو الشكل الذي أفضله. وأعتقد أن تلك الحرب ضرورية. وأياً كانت الصورة فلابد وأن تشمل نزع سلاحه وتجريده من أسلحته. لقد لخصت آرائي، وسوف نشارك بقدر يفوق مشاركة بعض أصدقائكم وحلفائكم».

وهاهم الفرنسيون يوافقوننا علي طريقتهم الخاصة. وأبلغت ميتران بأن الرئيس سيشعر بسعادة بالغة لآرائه، وعزز تحمس فرنسا احتمالات إقرار قرار استخدام القوة.



وبعد العودة إلي واشنطن بثلاثة أيام وزيارة خاطفة إلي بيرمودا للقاء جوي كلارك وزير الخارجية الكندي استأنفت ملحمتي في بروكسل في ١٥ تشرين الثاني نوفمبر حيث

شاركت في اجتماع مع مارك إيسكينز وزير خارجية الدانمرك في السادس عشر من تشرين الثاني نوفمبر. وكان اجتماعي الثاني في جنيف مع ثلاثة أعضاء من مجلس الأمن الدولي ومن مجموعة عدم الانحياز، وهم ساحل العاج وأثيوبيا وزائير. كان أول اجتماع مع دينكا تسفاي وزير خارجية أثيوبيا، وبرغم توجهاتها الراديكالية انحازت أثيوبيا إلي جانبنا في عمليات التصويت العشر السابقة في مجلس الأمن. ولأنها تعرضت لغزو موسوليني إيطاليا عام ١٩٣٣ فإن أثيوبيا تشعر بحساسية بالغة لتعرض الدول الصغيرة للابتلاع بواسطة الجيران الأقوياء المعتدين، وقد وافقت علي العرض. وكذلك كان الحال مع زائير برغم أن وزير خارجيتها كتاتيا موشابشوا أعرب عن عدم سعادته بقطع الكونجرس للمعونة العسكرية لزائير. وأبلغته بأن الرئيس يشعر باستياء بالغ تجاه قرار الكونجرس، وأن الإدارة ستحاول الإبقاء علي المعونة.

كانت العقدة المحتملة الوحيدة تكمن في ساحل العاج. وعندما التقيت مع وزير خارجيتها سيمون أكي الذي كان مثل إيسكينز وزيراً للمالية عندما كنت أنا وزيرا للخزانة تطرق إلي الموضوع مباشرة. وقال: «إن الشاغل الرئيسي لبلادي الآن ليس هو الخليج. إنه التنمية. إننا نعاني من أزمة مالية. فمجموعة السبع بحثت إسقاط الديون. وسوف يكون إسقاط الديون مفيد للغاية».

وكما اتضح لم تكن ساحل العاج مدرجة علي خطة إسقاط الديون التي أقرتها مجموعة السبع في تورنتو عام ١٩٨٦. وقلت: «دعني أري ما إذا كان هناك شيء يمكن عمله. سأبحث ماذا يمكن عمله دون أن أعد بشيء أو أربطه بالموضوع الآخر الذي نناقشه اليوم، وأعرف أنكم لا تقترحون شيئاً من هذا القبيل» وبالطبع فإننا علي معرفة جيدة.

وفي ذلك المساء وعقب اجتماع قصير مع يوناس سافيمبي بشأن أنجولا، اجتمعت مع العاملين معي لمراجعة هجومنا الدبلوماسي. وتجادلنا حول ما إذا كان يتعين علينا التوجه إلي ماليزيا، وهي عضو في مجلس الأمن. وسوف تستثار حفيظة الصينيين إذا حلقنا فوق

أراضيهم مرة أخرى دون أن نتوقف بها، ولذا قررنا نتقصى ما إذا كان بالوسع إقناع الماليزيين بلقائهم في مكان آخر.

وفي ١٨ تشرين الثاني نوفمبر اليوم السابق على هامش اجتماعات مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التقيت أدريان نستاسي وزير خارجية رومانيا في باريس. ولم ألق أي مقاومة منه، وربما يكمن السبب في أنني قمت بزيارة بوخارست في آخر شهور العام الماضي وقدمت ٨٠ مليون دولار كمعونة إنسانية للحكومة الجديدة برغم تحفظاتنا على سجل حقوق الإنسان في رومانيا

وفي وقت سابق من اليوم أمضيت نصف ساعة على الهاتف مع وزير الخارجية الصيني تشيان تشيتشين من جناحي بفندق أنتركونتيننتال، وكانت أجهزة الاتصال التي ترافق وزير الخارجية دائماً تمكنني من التحدث مع بكين عبر مركز العمليات بالخارجية. وكان القلق يساورني من أن عزوف جورباتشوف عن إعلان تأييده علناً للقرار سيجعل من اليسير على الصين استخدام الفيتو. وأكدت أنني أشعر بالثقة في أن السوفيت سيصوتون معنا، وطلبت منه أن يدرس التصريح علانية بأنهم لن يستخدموا الفيتو ضد القرار. وقال: إنه لا يمكنه الرد عبر الهاتف، وأنه يجب التشاور مع حكومته. كان الصينيون يمارسون دبلوماسية شديدة المراس. ففي اجتماعنا بالقاهرة أبلغته باستعدادنا لاستقباله في واشنطن بعد انتهاء التصويت في مجلس الأمن. وعرضت عليه حافزاً بأن الرئيس سيستقبله في حالة التصويت بنعم. لكنني أنا الذي سيستقبله لو امتنعت الصين عن التصويت. وكان يصر على لقاء الرئيس طالما أن الصين لم تستخدم الفيتو. وذكرته قائلاً: «السيد الوزير. ليس هذا هو اتفاقنا» وساورتني الشكوك في أنهم لن يستخدموا الفيتو. لكننا كنا نريد تصويتاً بالإجماع من جانب الدول الخمس دائمة العضوية. كما أن الاجتماع مع الرئيس هو أفضل ورقة ألعبها.



وفي الساعة الحادية عشرة والربع مساءً اجتمعت مع شيفرنادزة الذي كان قد وصل في وقت متأخر إلي باريس. واستمر اجتماعنا حتي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل نبحث في صيغة القرار فيما بدا لي أنه المرة المائة خلال الأسابيع القليلة الماضية. وعرضت علي شيفرنادزة مشروع صياغة كتبتها بخط يدي. وتحت إلحاحه خلت الصياغة من عبارة «استخدام القوة» وتضمن المشروع أيضاً فكرة جورباتشوف عن حسن النوايا.

وأبلغني شيفرنادزة بأن السوفيت سيصوتون لصالح القرار، وأنه لم يثر بشأنه أي تساؤل جوهري منذ اجتماعنا في موسكو. وقال: «لكننا لا نريد الإعلان عن ذلك علناً. فنحن نريد التحدث مع العراقيين مرة أخرى». وفي حوالي الساعة ١,٤٥ دقيقة التقينا لفترة وجيزة مع الصحفيين علي درج فندق انتركونتيننتال وواجهت صعوبة حتي لا أظهر بالغ الاسترخاء والارتياح بدرجة تفصح فيها تعبيرات جسدي حقيقة أنني الآن في نهاية الأمر أعرف أننا سنحصل علي القرار. وانهار جسدي فوق الفراش من فرط الإنهاك في الساعة الثانية صباحاً وبعد ربع الساعة أيقظني رنين الهاتف، وجاءني صوت مارجريت تاتوايلر بأن ساحل العاج سوف تصوت للقرار غير أنها لا تقول هذا من أجل إعلانه. كان هذا تاسع صوت مؤكد.

من صنعاء إلي بوجوتا

وفي ختام مباحثات مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي وقعت خلالها معاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا انضممت إلي طائرة الرئيس، وتوجهنا إلي جدة في الحادي والعشرين من تشرين الثاني نوفمبر. وصباح اليوم التالي انهمك الرئيس في احتفالات عيد الشكر المطولة مع قواتنا المتمركزة في العربية السعودية. وغادرت إلي العاصمة اليمنية صنعاء علي أمل إقناع اليمنيين بالتصويت معنا علي القرار. وكنت أعرف أنها مغامرة جسورة. فهناك تاريخ طويل من إراقة الدماء بين السعوديين واليمنيين زاده سوءً إدانة اليمن

الملك فهد لاستدعائه قوات أجنبية لأرض المملكة. ورد السعوديون بتشديد إجراءات استقدام العمالة الأجنبية. مما اضطر آلاف اليمنيين للعودة إلى وطنهم. كان من الواضح تماماً أن اليمنيين لن يصوتوا لصالحنا، وأبلغني السعوديون وهم على صواب بأنني أهدر وقتي بالذهاب إلى اليمن.

كانت اليمن مهندس محاولة إثارة المتاعب داخل مجلس الأمن للضغط من أجل استصدار قرار سعت إليه طويلاً منظمة التحرير الفلسطينية بهدف الحصول علي حماية الأمم المتحدة للفلسطينيين المقيمين في المناطق المحتلة. وإلي جانب مطالب أخري كانوا يريدون من الأمم المتحدة تعيين مفوض لمراقبة معاملة الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة. والفكرة قديمة طالما لقيت تأييداً من كثير من الدول غير المنحازة. لكن رعاتها يضغطون الآن لإجراء تصويت عليها في مجلس الأمن قبل التصويت علي قرار استخدام القوة. وإذا نجحوا في إجبار المجلس في التصويت عليها فربما تجد الولايات المتحدة نفسها مضطرة لاستخدام الفيتو. وسيثير هذا صعوبات لبعض شركائنا العرب، ويعطي وزناً ومصداقية لاستراتيجية صدام في صبغ الأزمة بالطابع العربي الإسرائيلي. وفيما نحن نركز علي قرار استخدام القوة كان علي الدبلوماسية الامريكية أن تجد للوسائل الكفيلة بعرقلة مبكرة لدراسة قرار الأراضي الذي يشكل عقبة كؤودا.

وذَكَّرْتُ الرئيس علي عبد الله صالح بأن الولايات المتحدة لم تدرج اليمن الموحد علي قائمة الدول الراعية للإرهاب – حتي علي الرغم من أن اليمن الجنوبي كان مدرجاً عليها قبل وحدته مع الشمال. وذكرته أيضاً بأننا حثثنا السعوديين علي تخفيف الوطأة علي اليمنيين. لكن دون جدوى. وقلت «نحن لا نفهم عدم تعاونك معنا في مجلس الأمن» وكنت أريد أن يعرفوا أنهم سوف يدفعون الثمن اذا واصلوا التصرف في الأمم المتحدة بأسلوب نعتبره غير مقبول. فاليمن يخاطر بسلوكه هذا بفقدان معونة أمريكية سنوية قدرها ٧٠مليون دولار. وبدا أنه أقل اكتراثاً بكثير تجاه أزمة الخليج عما يستوجبه الموقف. وأكد علي: «إن هذا أشبه بعاصفة صيف وسوف تنقشع» ورددت: «لو هبت العاصفة ستكون عاتية».

وكان علي عبد الله صالح مضيفاً سخياً. فقبيل اجتماعنا رتب لنا زيارة لصنعاء القديمة التي يرجع تاريخها لأكثر من ألفي عام. كان المكان أشبه بليالي ألف ليلة وليلة. وأثناء تجوالنا في الأزقة والحواري المرصوفة بالأحجار في منطقة السوق شاهدنا الرجال القادمين لتوهم من جوف الصحراء لبيع سلعهم. كانوا جميعاً يرتدون العقال ويتمنطقون بالخناجر المقوسة. كان الجميع رجلاً أم سيدة عجوزاً أم شاباً يلوك القات ذا التأثير المخدر المعتدل حسبما قيل لنا.

وفي أعقاب جولتنا في صنعاء القديمة تناول الفريق المرافق لي وأنا غداء يوم عيد الشكر مع الرئيس صالح. لقد فاق كرمه كل توقع – رغم أننا تناولنا الضأن لا الديك الرومي. وخرجنا للقاء الصحافة حيث أعرب عن معارضة قوية للقرار. ولم أكن أتوقع الحصول علي تأييده – غير أنه لم يبد أي دلائل في اللقاء الخاص علي أنه سيرفض طلبي بمثل هذه القوة علي الملأ.



وعدت إلي جدة في ذلك المساء، وتلقيت رداً بأن وزير الخارجية الماليزي وافق علي لقائي إما في لوس أنجلوس أو هيوستون، أو مكان ما في الهادي. وقررت التوجه إلي لوس أنجلوس للقاء وزير الخارجية الماليزي في المطار من بوجوتا حيث من المقرر أن ألتقي الرئيس سيزار جافيريا تروخيلو ليس فقط لكسب تأييده في التصويت بل أيضاً لأعرب له عن عدم ارتياحنا من تصرفات مندوبه في الأمم المتحدة الذي شكا علانية من سياستنا تجاه العراق. وعقب رحلة استغرقت ثماني ساعات إلي الآزور لإعادة التزود بالوقود طرت طيلة الليل إلي بوجوتا حيث توجهنا من المطار في سيارات مدرعة زرقاء كشاهد علي حملة الإرهاب التي يمارسها أباطرة المخدرات. وقال الرئيس جافيريا: «لقد ساءتني صراحة الأفكار التي عرضها مندوبكم في نيويورك. إن هذه الأفكار تنطوي علي إمكانية تقويض كل ما حشدناه ضد كل ما حاول صدام جاهداً تحقيقه. إنني أطلب منكم أن تتشاوروا معنا حول

أفكاركم قبل كتابتها وتوزيعها علي نطاق واسع في الأمم المتحدة. وسوف تؤدي مثل هذه المشاورات إلي تجنب اعطاء إنطباع بوجود إنقسام بين الولايات المتحدة وكولومبيا في مجلس الأمن. وبينما بدا الارتباك والضيق علي مندوب كولومبيا في الأمم المتحدة الذي وصل من نيويورك للانضمام إلي الاجتماع لاحظ الرئيس جافيريا استيائي بوضوح.

وشرحت تفاصيل قرارنا بما في ذلك عبارة كل الوسائل اللازمة. ورد قائلاً: «من المهم أن نمثل كولومبيا والولايات المتحدة الأمريكتين غير منقسمتين. فسوف يكون الأمر مثيراً لخيبة أمل بالغة. فطريقة حل هذه المشكلة أمر حاسم للإنسانية بأسرها. إننا نتبني نفس الأهداف مثلكم تماماً. وفي النهاية سوف نصوت معكم. وسوف نجد طريقة. لكنه كان يبحث عن ورقة توت لصدام. وقال: «من المهم أن يشعر صدام أنه يحصل علي شيء ما عندما ينسحب» شيء مثل انسحاب القوات الأمريكية من المنطقة». ورددت بالقول: «إنه يصعب تمييز إنقاذ ماء وجه صدام عن مكافأة عدوان وحشي. لا يمكن أن نسقط في شرك الحلول الجزئية» وغادرت بوجوتا بالتزام شخصي من جافيريا بالتصويت معنا بكل تأكيد، وعلي علم تام بأن الكارثة التي سنلقاها بوجوتا في الأمم المتحدة علي وشك الانتهاء.



وبعد إعادة التزود بالوقود في قرطاجنة طرنا لسبع ساعات إلي لوس أنجلوس لعقد اجتماع مع وزير الخارجية الماليزي أبو الحسن الذي أعرف أن من الصعب استمالته وبحكومتهم الإسلامية التي تفيض بالكبرياء وشديدة المراس في الغالب كان الماليزيون يضغطون من أجل استصدار قرار الأراضي المحتلة. فقد شعروا بالاستياء للطيران ثلاثين ساعة من ماليزيا للقائي ولابد أنهم متعبون.

ومنذ اللحظة الأولي بدا الوزير بخشونة مشيراً إلي «إننا كنا نفضل أن نراك في ماليزيا» أعرف أن هذا الاجتماع سيكون شائكاً. وقال بلهجة عنيفة: «لابد أن أعرب لكم صراحة عن

عدم سعادتنا تجاه نهج الولايات المتحدة في غرب آسيا. إنكم تقودون هذا الإجراء لمعاقبة العراق. إننا في حاجة إلي التحدث عن العدوان الإسرائيلي علي الفلسطينيين فماليزيا لا تعارض عقاب صدام. وفي الوقت نفسه يتعين معاقبة إسرائيل علي الطريقة التي تهدد بها الفلسطينيين. سوف ندرس قراركم بعناية فائقة. لكننا لا يمكن أن نؤيد العقوبات من أجل تدمير فعلي للعراق». ورددت قائلاً: «إن هذا القرار يعطينا الأمل الوحيد للتوصل إلي نهاية سلمية للموقف. إننا لا نريد إراقة دماءالأمريكيين في الصحراء. وهناك مخاطرة كبري للأمريكيين ولإدارتهم».

وتساءل: «هل تقترحون تهديداً بالحرب؟».

وقلت إن القرار الذي نقترحه في الأمم المتحدة سيكون ذو طبيعة عامة. إنه لن يتضمن ذكرا لكلمة القوة، ولن يتضمن كلمة عسكري. إننا لا نسعي لقرار يتطلب القوة. كان الماليزيون يريدون إعطاء العقوبات مهلة من الوقت ولهذا فقد كررت حججي المعهودة: أعتقد أن العقوبات لن تؤتي مفعولها علي المدي الطويل. ولا يمكننا إبقاء قواتنا وبهذا الحجم في الصحراء فلا يتعين السماح للدول الكبري بابتلاع الدول الأصغر.

«من المهم القول لصدام حسين إنه سوف يتم طرده من الكويت بطريقة أو بأخري. لقد أمضيت شخصياً أربعة عشر شهراً في خطة سلام عربية إسرائيلية. لكنني أعتقد بقوة أنه لا يمكنكم الربط بين القضيتين وإلا فسوف تعطون من صدام بطلاً».

وبعد مناقشة مطولة حول القضايا القانونية اختتم الوزير استعراضاً بالغ المشقة والصعوبة بقوله: «آمل ألا يؤثر موقفنا علي علاقتنا الثنائية». إنني سعيد لمبادرتكم بالإشارة إلي أنه في ضوء الأحداث العالمية الأخيرة ربما يكون من الضروري دراسة مستقبل العلاقات مع الولايات المتحدة بعناية فائقة». ورددت «السيد الوزير: إن الطريق الوحيد للإجابة علي هذا هو القول بأن هذا مهم لنا وللعالم، وأنه يجب أن يكون مهماً لكم». وفجأة ران صمت مطبق علي الغرفة وكان بوسع المرء سماع دبة النملة. واعتقدت للمرة الأولي أنه استوعب مدي خطورة الموقف الذي نحن حياله.



وعقب الاجتماع توجهت إلي هيوستون لأقضى عطلة نهاية الأسبوع مع أمي البالغة من العمر ٩٦ عاماً ونال مني التعب والإجهاد عندما وصلت. لكنها كانت المرة الأخيرة التي أراها فيها. وفي الطريق راجعت البرقيات التي تطلب من كافة الدول الأعضاء في مجلس الأمن الدولي إيفاد وزراء خارجيتهم للاجتماع الذي سيعقد في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر وتضمنت الدعوة الموجهة إلي وزير الخارجية الكوبي ملاحظة شخصية مني أطلب فيها الاجتماع في نيويورك ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر. وتضمنت البرقيات مشروع صياغة للاقتراح ونص المشروع علي استخدام كل الوسائل اللازمة إذا لم ينسحب العراق من الكويت في موعد أقصاه الأول من كانون الثاني يناير.



وفي ٢٦ تشرين الثاني نوفمبر اتصل بي دوجلاس هيرد تليفونياً من لندن معرباً عن قلقه من أنه ربما يكون من الخطأ تحديد موعد قاطع في القرار للانسحاب العراقي. وقال: إن تحديد موعد قاطع ربما يسبب «إثارة كلما اقترب» ويزيد من مخاطر احتمال وقوع هجوم وقائي من جانب العراق. وقلت: «دوجلاس. من الضروري إبقاء السوفيت في الصورة إنهم حساسون للغاية حول الموضوع». وطلبت منه المساعدة في ضمان تصويت الكولومبيين وقال «إنهم مدينون لنا وسوف نحاول معهم».

الحشد الأخير في الأمم المتحدة

في ٢٨ تشرين الثاني نوفمبر – أي في اليوم السابق علي التصويت توجهت وقصدت مباشرة البعثة السوفيتية لعقد اجتماع مع شيفرنادزة لمدة ساعتين، وهناك تلقيت مجموعة مربكة من الأخبار. وأفصح شيفرنادزة: «لقد تحدثنا مع العراقيين وقالوا لنا: إنه إذا بدأت الحرب فسوف يهاجمون إسرائيل» وأعطاني محضيطة اجتماع في بغداد بين دبلوماسيين

سوفيت وطارق عزيز. وقال «أعتقد إنها بداية للفرقة». وتساءلت: «هل سيبلغ عزيز صدام بالحقيقة ؟» وأسح شيفرنادزة: «أعتقد أنه سيفعل». فلازلت غير متأكد، فالمعروف – أكثر من مرة أن صدام يرد علي الأخبار السيئة بإعدامات سريعة.

وخلال الاجتماع اتفقنا علي الصياغة النهائية للقرار. وعرقل جورباتشوف موعد الأول من كانون الثاني يناير. ولا يزال جورباتشوف بإيعاز من أحد أفراد اللوبي العربي بوزارة الخارجية السوفيتية يعتقد أن بوسعه إلي حد ما إقناع صدام بالانسحاب من الكويت إذا منح وقتاً كافياً. وألح علي يوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني يناير كموعد نهائي للمهلة. وببساطة فمن غير المعقول التأخر لمدة شهرين بعد إصدار القرار، فسوف يوفر وقتاً كافياً لحدوث مأساة ويثير تساؤلات حول مدى مصداقية استعدادنا لاستخدام القوة. واقترحت فرنسا تسوية. ووافق الرئيس وتحددت المهلة النهائية بالخامس عشر من كانون الثاني يناير.



وتوجهت إلي فندق والدورف إستوريا للاجتماع مع وزير الخارجية الكوبي ايزيدورو مالميركا. وهذا هو أول اجتماع رسمي علي المستوي الوزاري بين بلدينا منذ نحو ثلاثين عاماً، ومع هذا كان علينا التحايل علي القواعد لعقد هذا الاجتماع. ومن الناحية الفنية عقدت الاجتماع، مع وزير الخارجية الكوبي بصفتي رئيساً لمجلس الأمن الدولي، وليس كوزير لخارجية الولايات المتحدة.

وهيأ تأييد كوبا لستة قرارات سابقة للأمم المتحدة ضد صدام حسين أرضية مشتركة يمكن البناء عليها. وقلت: «هناك خلافات بيننا لكن ثم بعض الأمور التي بمكاننا الاتفاق حولها. فبعض المبادئ عرضة للخطر. فلا يمكن السماح بنجاح عدوان من دون استفزاز تعرضت له دولة صغيرة. إن احتجاز الرهائن يشكل انتهاكاً لكل المعايير الدولية ويتعين إدانته. إننا نعرف أن حكومتكم قد أجرت مباحثات مع العراق تفيد بأنهم لابد وأن ينسحبوا

ويسمحوا بعودة الحكومة الكويتية. وبصراحة إذا لم نتفق حول تلك النقاط فإننا لا نعتزم الاجتماع معكم». «إننا نعمل من أجل هذا القرار لأننا نعتقد أنها الفرصة الوحيدة الباقية أمام السلام. وآمل في أن تتأكدوا أن الولايات المتحدة تعمل من خلال الأمم المتحدة. إننا نتصرف بطريقة مشروعة على الساحة الدولية. فقد شجعنا كثيرون على أن يتم هذا التحرك وفقاً للمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، لكننا رفضنا. إن لدينا عشر قرارات من مجلس الأمن الدولى وقد صوتم لصالح ستة منها ولم يطبق أى منهم».

وتعتبر الكثير من الدول الصغيرة مثل كوبا الأمم المتحدة منبرها الرئيسى. ولذا فقد مضيت لشق طريقى للتأكيد على استراتيجية متعددة الأطراف. وقلت: «إننا نرى أن مصداقية الأمم المتحدة على المحك هنا. فمن الأهمية البالغة بمكان ضرورة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة إذا ما أريد للأمم المتحدة أن تكون جهاز فعالاً لصيانة الأمن والسلم الدوليين. وربما يكون الأكثر أهمية أن تكون لدينا أمم متحدة مؤثرة وفعالة من أجل الدول الصغيرة. فليس هناك مكان لنظام عالمى سلمى إذا كان بوسع الدول الكبرى التهام الدول الصغرى. فهذا هو المعروض على المحك هنا. شكرا لقدومكم. هذا ما عندى».

كان وزير الخارجية الكوبى رجلا عجوزا يعانى من إعاقة فى القدم. وباستثناء وابل من الانتقادات اللاذعة للسياسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين فقد أمسك عن الطنطنة الأيديولوجية الفارغة التى نتوقعها جميعاً من فيدل كاسترو تأييداً لنداء سلمى منفذ. وقال: إن الهدف هو تجنب القتال. والمشكلة كما يراها هي أن القرار سيؤدى تقريباً إلى وقوع الحرب التى يمكن أن تزيد من أسعار البترول وتخلق «كارثة اقتصادية للعالم».

وقال. «إننا نعتقد أن الكثيرين سيموتون إذا بدأت الحرب. ومع الوقت سوف يقبل العراق بالشروط. أما النزوع لاستخدام القوة فلن يفيد. فالتلويح بالقوة يساهم فى تصلب موقف العراق. إننا نعتقد أن إقرار هذا القرار لن يسفر عن نتيجة سلمية. إنكم تحاولون إيجاد صيغة للاقتتال بدون عمل عسكرى. إننا نرى أن تحديد موعد قاطع أمر خطير قد يساء تفسيره. إنه يدفع العراق للمبادرة بالهجوم أولاً. إننا نشعر أن القرار الذى قدمتموه هو عملية تدفع باتجاه الحرب إننا على خلاف معكم».

وردت: «لايمكن أن ننازعكم فيما قلتم. إننا نختلف معكم حول أفضل ما يمكن الحصول عليه هناك. أنتم تقولون إن شعب الكويت سيعاني من الحرب. وأنا أقول ليست هناك معاناة تفوق معاناته حالياً. إننا لا نعتقد أن العقوبات ستؤتى مفعولها على المدي القصير. فسوف يختص جيشه بالطعام أولاً، ولذا فإن النصيب الأوفر من المعاناة سيخص شعبه، ونتيجة لسياساته لايمكن أن يقوم الجار الكبير بغزو الجار الصغير ويمارس وحشيته عليه. والخط الأساسي أننا نتفق على الهدف النهائي. لكننا نختلف حول أفضل طريقة لتحقيقه. ولا يجب أن يكرر المجتمع الدولي نفس أخطائه في الثلاثينيات. وسوف يقول لكم السوفيت نفس الشيء وآمل أنكم ستدرسون عدم التصويت ضد القرار وأن تتعرضوا للعزلة».

ولم تقلقه حجتي غير الرقيقة، ورد «إننا لا نخشي عواقب عدم التصويت لصالح القرار غداً. وآمل ألا نكون بمفردنا في هذا الموقف، لكننا لن نتردد أن نكون بمفردنا وأن نحاول تجنب الحرب» كانت مغامرة كبري: لأنه حتي في وجه الضغوط من حليفهم الرئيسي لأمد طويل السوفيت لم تتزحزح كوبا عن موقفها.

وتأخر وزير الخارجية الصيني تشيان علي الطريق، ولذا فقد بدأ اجتماعنا قبيل منتصف الليل. ومع تلك اللحظة توصل حوارنا إلي أن الصينيين قرروا أن الامتناع عن التصويت هو الحد الأدني الضروري لنا لإعادة العلاقات إلي مسارها. وكانوا علي صواب فقد سمحنا بالفعل لتشيان بزيارة واشنطن في اليوم التالي للتصويت لكنني بذلت محاولة أخيرة لإقناعه بأن الامتناع عن التصويت سيكلف المصالح الصينية الكثير. وقلت: «إن أي شيء أقل من تأييد القرار سيضعف وحدتنا ويروج صدام، ومن ثم سيجلب انتقادات من الكونجرس والرأي العام الأمريكي. ويمكن أن يلحق هذا ضرراً بأجواء زيارتكم بما قد يحد من قدرتنا علي المرونة لدفع العلاقات الثنائية.» «وحتي أكون أميناً فإن أعضاء الكونجرس يفترضون أنك سوف تصوت بنعم. إنني لا أعتزم أن أضغط عليكم الليلة بما ستصوتون به. لكن التصويت الإيجابي سيكون عاملاً أساسياً لدفع علاقتنا إلي الأمام. فلازال هناك رأي في الكونجرس بأن علينا التعامل معكم. ومن المهم أن تكون هناك وحدة في موقف الأعضاء الخمسة دائمي

العضوية. لقد أغفلنا أي إشارة إلي استخدام القوة من النص. ومرحباً بكم في واشنطن يوم الجمعة بغض النظر عن تصويتكم».

كان الصينيون يشعرون بالاستياء لعدم قبولي عرضهم بزيارة الصين. واشتكي تشيان قائلاً: «هذا هو الاجتماع الخامس بيننا لكن ليس هناك تبادل للزيارات لعاصمتي بلدينا إن هذا أمر غير طبيعي ويضر بعلاقتنا. لن نستخدم الفيتو ضد القرار، ولا يمكننا تأييده بسبب استخدام القوة. لقد زرتم عدة دول مؤخراً، وآمل أن تزوروا الصين» كان الامتناع عن التصويت هو أفضل ما خرجنا به من الصينيين.

ويبدو أن النظم الشمولية لا تفكر مطلقاً في أن سياساتها الداخلية بغض النظر عن مدي قمعيتها لابد وأن تكون لها أي عواقب علي العلاقات الثنائية. ورددت: «إن لكم في جورج بوش الرجل المناسب الذي يعرف الصين ويريد تحسين العلاقات. لكن أمامه قيوداً سياسية لما يمكنه أو لا يمكنه عمله».

وآويت إلي فراشي نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً. واستيقظت صباح اليوم التالي علي مكالمة من الرئيس الذي كان يريد الاطمئنان علي سبل إقناع الصينيين بالتصويت لصالح القرار. وقال: إنه مستعد لاستقبال وزراء الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن علي الغداء يمكن بعده عقد لقاء علي الهامش مع الوزير الصيني. فهذه الصيغة هي التي سيظهر الاجتماع معها وكأنه مرتب علي عجل، لقاء مجاملة أكثر منه لقاءً لتقديم مقابل دبلوماسي».

وعقدت وأنا لاأزال بروب الحمام اجتماعاً مع كبار مساعدي بجناحي في والدورف استوريا لبحث الاقتراح. وتم الاتفاق علي ضرورة قيامي بالاتصال بالوزير وإبلاغه بدعوة الرئيس، لكن ماس أحد شعر بأن هناك فرصة أكبر لقبولها. كان الصينيون شديدي المراس فهم يعرفون أننا نعرف أنهم لن يستخدموا الفيتو لإحباط القرار، وساورني الشك في أن اجتماعاً عاجلاً لن يكون مقبولاً. واتصلت بتشيان وعندما رد عليَّ في منتصف اجتماعي مع دوجلاس هيرد، نقلت له رسالة الرئيس. ولم يقدم رداً قاطعاً وقال: «أشكرك سوف أعرض الأمر علي بكين».

ويمكن أن تتلوع أبعاد الصينيين عندما يريدون، وعدم الإدعاء أحد هذه الأبعاد. وبعد فترة وجيزة عاود تشيان الاتصال قائلاً: «لا يمكننا التصويت بنعم. فتعليمات حكومتي هي الامتناع عن التصويت. فلن نصوت بنعم لمجرد عقد اجتماع. فينبغي عقد هذا الاجتماع لأننا امتنعنا عن التصويت» وقلت له أنني أشعر بخيبة الأمل، ولكن كما وعدته فمرحباً به في اجتماع». وقلت والآن «إننا في حاجة لوضع خطة لزيارتكم إلي واشنطن، وما لم أقله أن تخطيطنا سيشمل اجتماعه معي وليس مع الرئيس».

وعقب التصويت نقل لي بوب كيميت رسالة من تشيان عند منتصف الليل. فقد شعر الصينيون بالغضب عندما رأوا مشروع خطة زيارة وزير الخارجية الصيني لواشنطن وقد خلت من لقاء مع الرئيس. كانت الرسالة واضحة: إذا لم يجتمع تشيان مع الرئيس فلن يزور واشنطن. وخدعنا الصينيون هذه المرة وبسبب كل مشاكلنا معهم لم نكن نرغب في تضييق خناق العزلة عليهم. فقد سبق الإعلان بالفعل عن زيارة تشيان وسيتسبب الإلغاء في إصابة العلاقات الثنائية بانتكاسة جديدة وسيثير ارتباك كلا الجانبين. واتصلت بالرئيس وأوصيت بالاستسلام حتي لا يتفاقم وضع غير سار بالفعل. وقلت: «هذا ثمن زهيد لتجنب استخدام الفيتو» ووافق علي الفور، وسيحصل الصينيون علي اجتماع مع الرئيس. لكنهم لن يحصلوا علي ما أرادوه بالفعل: أي زيارة الرئيس للصين والتزام بالسعي لرفع العقوبات الاقتصادية التي فرضت عقب مذبحة ميدان تواناتمين، وكان هذا سيمنحنا تصويتاً بنعم علي القرار لكن بكلفة مرعبة علي حساب المبادئ.



وخلال يوم التصويت عكفت علي إعداد ملاحظاتي كرئيس لمجلس الأمن بسلسلة من الاجتماعات الثنائية مع نظرائي الوزراء، ومنهم رولان ديما وقال ديما: «إن هذه مناسبة تاريخية. فمن غير المعتاد أن يتواجد وزراء خارجية الدول الخمس دائمة العضوية في مكان واحد. ماذا يدور بخلدك عن اجتماعنا ونحن هنا لإعطاء العراق الانطباع بأن الدول الخمس الدائمة موحدة في تفكيرها؟».

وانسجمنا شخصياً مع بعضنا جيداً. ولكن ها نحن مرة أخري نرى أن الفرنسيين هم الفرنسيون. فمن وجهة نظرهم فإننا نتبع سياسة لينة تجاه إسرائيل أكثر مما يقتضيه الموقف. كان ديما يحاول لتوجيه إيماءة إلي الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وحلفائهم في الأمم المتحدة. وقلت: «رولان. إنني أشد رغبة في عمل ذلك لكنني غير مستعد لأن يجتمع خمستنا ليبحث موضوع الأراضي المحتلة. فهذا سيكون ربط بين القضيتين». وقال: «أفهم . يمكننا الحديث عن المنطقة بشكل عام». إنها فكرة معقولة من حيث المبدأ. إنني أعد لترتيب عشاء خاص لوزراء الدول الخمس دائمة العضوية في المجلس عقب التصويت.

وفي الساعة الثانية ظهراً اتصلت بالرئيس لإبلاغه بأنه ربما يكون عليه إجراء اتصال أخير برئيس الوزراء الماليزي. وأبلغته أيضاً بأن السوفيت والسعوديين والكويتين لازالوا يمارسون ضغوطاً علي الصينيين لتغيير موقفهم والتصويت بنعم. وبعد أربعين دقيقة اجتمعت لفترة وجيزة بخافيير بيريز دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة. وسلمته شيكين بمبلغ «١٨٦» مليون دولار كجزء من الأقساط المتأخرة علي الولايات المتحدة للأمم المتحدة. (وبموجب القانون لا يجوز لوزارة الخزانة إصدار شيك تزيد قيمته عن مائة مليون دولار) . وتجاهلت عدة دول أقساطها المتأخرة المستحقة للأمم المتحدة، وحتي الولايات المتحدة عليها أقساط متأخرة للأمم المتحدة. غير أن الرئيس أراد توجيه إيماءة رمزية تقديراً للمساعدة التي قدمتها الأمم المتحدة خلال الأزمة. وسمعت أن «دي كويار مستاء لعدم قيام بيروقراطية الأمم المتحدة بدور في أزمة الخليج».

فمنذ البداية كان العرض عرضنا: فقد حشدنا التحالف وأرسل الرئيس أبناء أمريكا وبناتها إلي الخليج.

وفي الساعة الثالثة اجتمعت لمدة قصيرة مع وزير الخارجية الكولومبي الذي أبلغني أن بلاده مع كوبا واليمن وماليزيا لن يضغطوا خلال الاجتماع للتصويت علي قرار الأراضي المحتلة. وأحسست بأن سبب رعاية أفكاره يرجع إلي أن بعض الدبلوماسية البارعة من جانب الولايات المتحدة وحلفائها، ولاسيما بريطانيا العظمي قد ضمنت عدم توفر شرط

الأصوات التسعة لعرض مشروع القرار علي المجلس. وشكرت الوزير علي أية حال لقدراته كرجل دولة. وقلت له: «إننا نفعل الصواب. فلابد من ردع العدوان».

وبعد عشر دقائق أبلغني وزير خارجية ماليزيا أن بلاده سوف تصوت معنا. لكنه اعتزم الضغط لاتخاذ إجراء لصالح الفلسطينيين. كانوا شديدي المراس لكنني شكرته لرقته. وقلت: «لدينا خمسمائة ألف شاب أمريكي في الخليج وأعتقد أنك يمكن أن تتفهم قلقنا».

ولم يتبق أمامي سوي عشر دقائق للاستعداد لاجتماع مجلس الأمن. وتلقيت مذكرة عاجلة من توم بيكرينج مندوبنا لدي الأمم المتحدة وأحد مساعديه وقرأت البيان المعد للمرة الأخيرة.

وقبيل انعقاد الجلسة أبلغني جون كيلي أن اليمن قرر بصفة نهائية التصويت ضد القرار وقلت: «حسناً سوف يكون هذا أغلي تصويت بـ «لا» بالنسبة لهم» وأفادت عدة تقارير إخبارية فيما بعد أنني أثاور ولم يكن الحال كذلك.

تصـويت تاريخـي

في الساعة الثالثة والنصف طرقت بالمطرقة طالباً النظام. امتلأت القاعة وتدفق الحضور رجال الدبلوماسيون ووقفوا بأعداد كبيرة حول مائدة الاجتماع. كانت الجلسة رقم «٢٩٦٣» لمجلس الأمن ولعلها أهمها علي الإطلاق. ومثل وزراء خارجية ثلاث عشرة دولة من الدول الخمس عشرة الأعضاء بلادهم، وهي المرة الرابعة التي ينعقد فيها المجلس علي هذا المستوي. كنت أعرف حقيقة الموقف من التصويت لكني اتحدث إلي جمع غفير من الحضور. فقد حان الوقت لمواجهة كل من العراق والشعب الأمريكي بمسألة الحرب في الصحراء. وقلت: «أود أن أبدأ مناقشة اليوم باقتباس اعتقد أنه يوضح علي نحو مناسب سياق مناقشاتنا لهذا اليوم» وهذا الاقتباس نصه: «ما من سابقة لشعب راح ضحية مثل هذا الظلم وما

برح حتي اللحظة مهدداً بأن يُحْرَقَ فريسة للموت، وأيضاً لم يوجد مطلقاً مثال علي حكومة تمضي بارتكاب إبادة منهجية لدولة باتباع وسائل همجية في انتهاك لأكثر العهود قداسة التي قطعت لجميع شعوب المعمورة بألا يكون لجوء إلي حروب الفتح، وبألا تستعمل الغازات السامة والسموم المهلكة ضد الأبرياء من بني البشر».

«هذه العبارات في اعتقادي كان يصح أن تصدر عن أمير الكويت لكنها لم تصدر عنه. إن هذه العبارات نُطِقَ بها في عام ١٩٣٦ وليس في عام ١٩٩٠ لقد صدرت عن هيلاسلاسي زعيم أثيوبيا. الرجل الذي وجد بلده يتعرض للغزو والاحتلال كما عوملت الكويت بوحشية منذ ٢ آب أغسطس، ومن المحزن أن هذا النداء إلي عصبة الأمم قد وقع علي آذان صماء، وفشلت جهود عصبة الأمم لوقف العدوان، وتلت ذلك الحرب والاضطراب في الساحة الدولية».

«إن التاريخ أعطانا الآن فرصة أخري بعد أن خلصنا من الحرب الباردة فأمامنا الآن فرصة لبناء العالم الذي كان المؤسسون لهذه المنظمة – مؤسسوا الأمم المتحدة – ينشدونه. أمامنا فرصة لجعل مجلس الأمن والأمم المتحدة أداتين حقيقيتين لكم وللعدالة في العالم بأسره. ولا ينبغي أن تسمح للأمم المتحدة بأن تلقي مصير عصبة الأمم. لابد أن نحقق رؤانا المشتركة لعالم يسوده العدل والسلام في فترة ما بعد الحرب الباردة».

«ولكننا إذا كان لنا أن نفعل ذلك لابد أن نواجه التهديد الذي يتعرض له السلم العالمي والذي نجم عن عدوان صدام حسين، ولهذا فإن المناقشة التي نحن علي وشك بدئها تعتبر فيما أظن من أهم المناقشات التي جرت في تاريخ الأمم المتحدة، وهي بالقطع ستحدد وإلي حد كبير مستقبل هذه الهيئة. لابد أن يكون هدفنا اليوم هو إقناع صدام حسين بأنه لا يمكن تجاهل المطالب الإنسانية العادلة للمجلس وللمجتمع الدولي، وإذا لم يعكس العراق اتجاه مسار الأحداث سلمياً فسيلزم اتخاذ إجراءات ضرورية أخري بما في ذلك استخدام القوة. لابد أن نضع هذا الخيار أمام صدام حسين بكل وضوح»

وفقا للقرارات السابق اتخاذها بشأن هذا البند أدعو ممثل العراق الدائم لدي الأمم المتحدة إلي شغل مقعد علي طاولة المجلس، وأدعو نائب رئيس وزراء ووزير خارجية الكويت إلي شغل مقعد علي طاولة المجلس. وتحدث الكويتيون وتلاهم مندوب العراق بنفس اللغة السقيمة ضد «الطموحات الإمبريالية الأمريكية» والتي مللنا سماعها علي مدار أشهر، وفي الساعة الرابعة وعشر دقائق مررت مذكرة إلي السكرتير العام جاء فيها: «إن أفضل طريقة للدفاع عن عمل الصواب هي انتقاد وتقريع الولايات المتحدة بقسوة»



وللإنصاف كان من حق خصوم مشروع القرار أن يُسْمَعَ رأيهم. وتحدثت اليمن بمقتضى ترتيب سابق. وشكا وزير الخارجية اليمني من ازدواجية المعايير حول القضية الفلسطينية، وادعي أننا في سبيلنا للتصويت علي قرار بالحرب. وكان مصيباً علي الأقل في هذا الصدد.

وكم كان شديد الاندفاع بالفعل في رغبته في تجريح خصومه القدامي، السعوديين. وساورني اعتقاد بأنه سيكون تصرفاً باهظ الثمن لليمن علي جيرانهم الأغنياء في الشمال، وكنت علي يقين أن كلفته ستكون باهظة مع الولايات المتحدة. ومررت مذكرة سريعة إلي بوب كيميت قلت فيها: «إن مندوب اليمن الدائم حظي بما يتراوح بين مائتين إلي مائتين وخمسين مليون دولارا من التصفيق لخطابه. وكان كيلي في حاجة إلي التحدث مع الكويتيين وكنت أريد التحدث مع كيلي وريجي عن برنامج مساعدتنا إلي اليمن*».

وكالمتوقع انحازت كوبا إلي جانب العراقيين أيضاً. وفي منتصف كلمة وزير الخارجية ماليركا مررت مذكرة إلي برني أرونسون مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمريكتين الذي تقع الشؤون الكوبية ضمن مسؤولياته. كان أرونسون متبرماً مني لسماعيّ لوقف الصيد

* كان برنامج معونتنا إلي اليمن يبلغ ٧٠ مليون دولار سنوياً لكن دولاً أخرى في التحالف كانت تقدم معونات أيضاً.

الجائر، وهو مسمى نبيل يعتقد أنه يهدد طاقتي. وتوقفت في المذكرة قائلاً: «بعد الاستماع إلي النصف الأول من كلمة وزير خارجية كوبا فإنني علي اقتناع تام بأن كوبا سوف تصوت أ–بلا. أو ب – بلا. إنك بسبيلك للنقل من موقعك العالي كمساعد لوزير الخارجية لشؤون الأمريكتين لمنصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الصيد الجائر.

وكان تشيان تشيتشين وزير خارجية الصين آخر ستة تحدثوا قبل إجراء التصويت. ورغم الامتنان الشخصي الذي يكنه لي لكن كل جهودنا باءت بالفشل في إقناعه عن الامتناع عن التصويت. وقال تشيان: «إن الإجراءات المتعجلة تتناقض مع اعتقاد الصين بضرورة تسوية النزاعات الدولية بالطرق السلمية. ومرة أخري سجلت مذكرة لنفسي «أن الصين لا يسعها اللجوء إلي الوسائل العسكرية. اللهم إلا في حالة الاختناق المروري مثلما حدث في ميدان تيانانمين في حزيران يونيو عام ١٩٨٩».

وفي الساعة الخامسة وست وعشرين دقيقة طلبت التصويت برفع الأيدي. وكان التصويت كاسحاً. اثنا عشر صوتاً مؤيداً ومعارضة كوبا واليمن. وامتناع الصين عن التصويت. كان القرار رقم ٦٧٨ واضحاً وصريحاً. فقد قرر المجلس أن يمنح العراق «فرصة واحدة أخيرة كلفته.. لتم عن حسن النوايا لسحب قواته دون شروط من الكويت في موعد أقصاه الخامس عشر من كانون الثاني يناير ١٩٩١ فإذا لم ينسحب صدام من الكويت في هذا الموعد فإن المجلس يأذن للدول الأعضاء بأن تستخدم جميع الوسائل اللازمة... وإعادة السلم والأمن الدوليين إلي نصابهما في المنطقة».



ومنذ الأزمة الكورية عام ١٩٥٠ لم تمنح الأمم المتحدة هذا التفويض الساحق لشن الحرب.

ووفقاً للتقاليد المعمول بها فإن لرئيس المجلس الحق في إلقاء الكلمة الأخيرة، وقلت: «السادة أعضاء المجلس. إننا نجتمع في ظرف تاريخي حاسم. فبوسعنا أن نستغل انتهاء الحرب الباردة لتجاوز أسلوب تسوية النزاعات عن طريق القوة، وإلا فسوف نعود لنشهد صراعات إقليمية شرسة قد تكون القوة هي العنصر الوحيد الذي يعيد الحق إلى نصابه. فبوسعنا سلوك الطريق الصعب تجاه السلام وحكم القانون، وإلا فسوف يسود أسلوب صدام العدواني الوحشي ويسود حكم الغاب. وببساطة إنه اختيار بين الصواب والخطأ. وأعتقد أننا نتحلى بالشجاعة والقوة لاختيار الصواب».

وبهذا التصويت اكتملت بالفعل كافة العناصر السياسية والعسكرية لخطتنا لإجبار العراق على الخروج من الكويت بما يضفي مصداقية على تهديدنا باستخدام القوة، وأصبح للتحالف الآن يملك قرارا من مجلس الأمن يجيز استخدام القوة عند الاقتضاء.

الفصل الثامن عشر

تحقيق إجماع في الوطن

من الضروري للغاية أن نتعاون.إننا نواجه خصماً شاقاً وقوياً.
إننا في حاجة إلى توجيه أقوى إشارة ممكنة إلى صدام بأنه لا
يمكن إشاعة الانقسام بين الأمريكيين.

الوزير بيكر
الشهادات الكونغرس في البيت الأبيض
تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠

إن الرأي العام في هذا البلد هو كل شيء.

إبراهام لينكولن

١٨٥٩

في السابع من تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ اليوم الرابع من جولة شملت إحدى عشرة دولة لحشد تأييد شركاء التحالف لدعم قرار «كل الوسائل اللازمة» وصلت إلي موسكو بعيد الساعة الخامسة بعد الظهر ونزلت بجناحي في فندق ميجدونارودنايا بعد ساعة. وانتهزت فرصة عدم وجود ارتباطات في هذا المساء لاتناول عشائي في جناحي بالفندق ثم أجري علمية مساج، وفيما بعد وقبل أن آوي إلي الفراش في المساء عرجت علي غرفة بوب كيميت حيث احتشد فريق العاملين لتبادل الملاحظات في ختام يوم بدأ قبل أربع عشرة ساعة في أنقرة. كان كيميت يتصل بالهاتف بواشنطن وشأن معظم العاملين معي كنت أرتدي تريننج سوت وحذاءً خفيفا وهو الزي المفضل لنا بعد ساعات العمل. سواء علي الطريق أو في الرحلات الطويلة.

وفي وقت سابق من اليوم وأثناء توجهنا إلي موسكو لعقد اجتماع مع جورباتشوف وشيفرنادزة علمت من ريتشارد هاس ممثل مجلس الأمن القومي في الرحلة، أن البيت الأبيض يعتزم الإعلان عن نشر جديد ضخم للقوات الأمريكية في الخليج اليوم التالي. فقد اتخذ الرئيس القرار في ٣١ تشرين الأول أكتوبر – أي قبل ستة أيام من انتخابات التجديد. ولكن لمنحنا فرصة للتشاور مع شركائنا في التحالف، ولتفادي تحوله إلي قضية انتخابية حزبية. فقد قررنا تأجيل الإعلان الرسمي عنه حتي وقت لاحق. كان التوقيت مرعباً. فلم يكن الكونجرس ولا حلفاؤنا مؤهلين بالقدر المناسب لتلقي الأنباء. ولن يسعد السوفيت بالأنباء، وأنا أعرف أن شيفرنادزة الذي يعارض بشدة الحل العسكري سيشعر بالغضب إذا شعر مرة أخري بأنه أُبلغَ بالأمر بعد حدوثه. فقد كان من الأجدي التريث بضعة أيام للتأكد من إبلاغ كافة الأطراف. ومن وقع المفاجأة لعدم استشارتي في قرار نشر القوات صببت جام غضبي علي هاس وهو أكبر ضحية قريبة المنال. وتساءلت: «ما فائدة وجود رجل من مجلس الأمن القومي معي في الرحلة؟». وأمرت هاس برفع شكوي مباشرة إلي سكوكروفت بالنيابة عني، وفي الوقت نفسه أبرقت باعتراضاتي إلي سكوكروفت مضيفاً توصيحاً رمزياً بفوائد التأجيل. إن الإعلان الذي من شأنه أن يدفع البلاد إلي التفكير جدياً في الحرب يتعين عدم إعلانه في يوم المحاربين القدماء.

ووضع كيميت سماعة الهاتف، وأكد ما عرفناه بشكل غير رسمي على الطائرة اليوم السابق. فسوف يعلن الرئيس صباح اليوم التالي في واشنطن قرار تعزيز القوة. ورفضتْ توصيتي بطلب تأجيل الإعلان حتى الانتهاء من إجراء المشاورات اللازمة مع الكونجرس والتحالف. وبسبب حساسيته المفرطة أحيط القرار بأقصى درجات السرية بشكل استثنائي. وبات البيت الأبيض يخشى الآن من أن هناك أنباءً على وشك التسرب من البنتاجون، ولذا فقد قرر اختصار الموعد الأصلي للإعلان.

وكنت أفترض أن البيت الأبيض سيقوم على الأقل بترتيب لقاءات خاطفة لكبار أعضاء الكونجرس قبل إعلان الرئيس القرار، وكنت مخطئاً في هذا التصور، كما أوضحت مكالمة كيميت. وفوجئت وشعرت بالانزعاج من هذه الأنباء غير أن جانيت موليتز كبيرة مسئولي الاتصال مع الكونجرس هي التي صعقت بشدة لدي معرفتها أن هذا القرار بالغ الأهمية سيتم الإعلان عنه دون التشاور المناسب مع الكونجرس. وقالت: «لا أصدق أن هذا سيحدث دون إبلاغهم بأي شيء. فليس لديهم أدني فكرة على أننا نستعد للحرب. سوف يجن جنون هؤلاء الرجال. سوف تلاقي الكثير لدي عودتك».

كانت موليتز حادة على الدوام في تقييمها لكيفية رد الكونجرس على تطور معين. فالضغوط الدبلوماسية والعقوبات الاقتصادية هي أقصى ما يمكن أن يصدق عليه الكونجرس. أما التزام جديد شامل بالقوة العسكرية فإنه مسألة أخري. وأتذكر اعتقادي بأن حشد تأييد في الكونجرس أمر شاق يتساوي في صعوبته مع إقرار الإصلاح الضريبي الشامل في ولاية ريجان الثانية.

واتصلت بالرئيس وطلبت منه أن يبادر بالاتصال هاتفياً بقيادات الكونجرس لإبلاغهم بالأنباء التي ستكون غير سعيدة بكل تأكيد. واقترحت أيضاً ترتيبا فورياً للقاء الرئيس مع زعماء الكونجرس بمجرد عودتهم إلي واشنطن في الأسبوع التالي.

وفي الواقع فقد استعرضت موليتز رد الفعل بشكل يخفف من وطأته، وحتي لو تم إخطارهم سلفاً لكان الكثيرون من الأعضاء قد عارضوا قرارنا. لكن الغضب تملكهم من المفاجأة. واستغرق الأمر جهداً مكثفاً لمدة شهرين لاحتواء الضرر وإصدار قرار من مجلس

الأمن، ومجهود دبلوماسي أخير من الرئيس توج بمباحثات مباشرة بيني وبين وزير خارجية العراق بهدف إقناع أعضاء الكونجرس لتأييد خيار التدخل العسكري الأمريكي – وهذا نهج سياسي طالما نظر إليه الكونجرس بحذر منذ أن – تشبث ليندون جونسون بقرار الكونجرس حول خليج تونكين عام ١٩٦٤ كمبرر للحشد العسكري الأمريكي في فيتنام.

وفي النهاية تطورت أزمة الخليج بطريقة قاطعة فكان للصراع الموهن ما بعد فيتنام الطويل الأمد والمتكرر أثر موقت علي سيرها علي الأقل. وبأقوي المعايير، ولأن عملية عاصفة الصحراء أحرزت نجاحاً باهراً بات الشعب الأمريكي وممثلوه المنتخبين أكثر استعداداً للموافقة علي استخدام القوة العسكرية عند ظهور ظروف شديدة الوضوح تتعرض فيها المصلحة الوطنية للخطر. (ومع هذا ومن قبيل المفارقة فإن النجاح الباهر ربما خلق أعراضه الخاصة المثيرة للاضطراب. وفي المستقبل فإن استخدام القوة العسكرية الأمريكية في مواقف لا تستدعي القوة الشاملة ربما يكون أصعب سياسياً بكثير بسبب عاصفة الصحراء). لكن منذ بداية الأزمة لم يكن بوسع أي منا أن يدرك ذلك. وعلي النقيض كان قرار الرئيس السري بإصدار أوامر بتحرك القوات الأمريكية للقتال إذا اقتضت الضرورة لطرد صدام حسين من الكويت يفتقر التأييد بوضوح لدي كل من الكونجرس والرأي العام.

ورغم عدم موافقة كل زملائي كنت مقتنعاً بأنه في الوقت الذي يملك فيه الرئيس السلطة القانونية للتحرك منفرداً كمسألة فعلية وسياسية. فإننا سنرتكب خطأ جسيماً بخوض حرب كبيرة كهذه من دون ضمان تأييد الكونجرس. وسيتأكد أن هذه ستصبح مهمة لا تقل صعوبة عن حشد تحالف دولي ضد صدام.



وقبل غزو العراق للكويت كنا قد بدأنا نشدد سياستنا تجاه نظام بغداد. كانت سياسة الارتباط البناء تتحول إلي سياسة أكثر واقعية وانتقاداً لصدام. ومع هذا كان هذا الخط المتشدد كافياً بدرجة يمكن معها إلتماس العذر للقلة المتابعة من الأمريكيين الذين أخطأوا لمس هذا

التغيير. ثم هكذا عملياً بين عشية وضحاها انتقلنا من محاولة العمل مع صدام إلي تشبيهه بهتلر. وجعل هذا التناقض الواضح من الصعب إثارة وعي الشعب الأمريكي بالتهديد الذي يمثله صدام.

ومن وجهة نظر سيكولوجية فإننا نواجه عقبة لفت نظر الرأي العام إلي تهديد جديد تماما. وعلي مدي جيل شاهد الأمريكيون الاتحاد السوفيتي كعدو وحيد. لكن مع عام ١٩٩٠ تراجعت موسكو في أذهان معظم أفراد الشعب باعتبارها التهديد الجدي الحقيقي. وخلال هذا التحول يبرز العراق وصدام حسين الذي يتولي قيادة رابع أضخم جيش في العالم فجأة، قد امتلك مخزوناً ضخماً من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية ويعكف حثيثاً علي تطوير قدرات نووية. ومع ذلك لم يكن صدام حسين زعيماً معروفا لدي الغالبية الساحقة من الأمريكيين، ولهذا كان من الصعب طرح قضية الخطر الذي يمثله صدام حسين. وتفاقمت هذه المشكلة من حقيقة أن قلة قليلة فقط هي التي تعرف شيئاً عن الكويت. هذا إذا كانت تلك القلة تعرف موقعها الجغرافي علي الإطلاق. وحتي هؤلاء الذين يعرفون أن الكويت بلد صغير تحكمه ملكية إقطاعية غير متشبعين بالتقاليد الديمقراطية الغربية وعلي مدار عقود منذ أن اقتطع البريطانيون الكويت من العراق لم تسمح عائلة الصباح الحاكمة بإجراء الانتخابات ولو مرة واحدة.

وبالمثل عكس عدم اهتمام الكونجرس لامبالاة الرأي العام الأمريكي. ولتأكيد سياسة السلطة التنفيذية طويلة الأمد بأن المصالح الأمريكية الحيوية في المنطقة معرضة للخطر احتفظت الولايات المتحدة بوجود بحري في الخليج لأكثر من عشرين عاماً. ومع ذلك كان الرأي السائد في الكونجرس الذي تمتلكه أغلبية الأعضاء من كلا الحزبين أن التدخل العسكري الأمريكي في الخليج غير حاسم للمصلحة القومية الأمريكية. بل إن البعض اعتبر النشر الأولي للقوات الأمريكية في العربية السعودية في أوائل شهر آب أغسطس رداً خطيراً مبالغاً فيه. إضافة إلي ذلك كان الربط بين البترول والاقتصاد الأمريكي مجرد ربط تجريدي إلي حد كبير. فقد مرت أكثر من عشر سنوات منذ أن تعرض الأمريكيون لأزمة طاقة. ولن يحدث تحول سريع لدي الناخبين لحث الكونجرس علي إرسال قوات لحماية مصالحنا في الخليج.

شــرح التهديد الجديد

منذ البداية الأولى كان هجومنا الدبلوماسي في الأمم المتحدة عنصراً حاسماً في الفوز بتأييد الكونجرس المتردد. ومنذ أوائل آب أغسطس كانت لنا الغلبة في مجلس الأمن الدولي واستصدرنا القرار تلو القرار لتشديد عزلة صدام حسين سياسياً واقتصاديا. وكنا نعتقد أن الأثر التراكمي لهذه القرارات سيكون له فائدة إضافية في الداخل تدفع في النهاية الكونجرس المتردد إلى وضع نشط سياسياً. وكنت أريد أن أستطيع سؤال أعضاء الكونجرس المتشككين كيف يتسنى لهم حرمان الرئيس من تأييد قدمته له في مجلس الأمن دول مثل أثيوبيا وماليزيا وزائير. وعندما أصدرت الأمم المتحدة أخيراً القرار رقم ٦٧٨ في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر بإجازة استخدام «كل الوسائل اللازمة» لطرد العراق من الكويت تكون اللبنة الأساسية لاستراتيجيتنا الداخلية قد وضعت في مكانها. ولم يصبح لدينا التفويض الدبلوماسي لشن الحرب فحسب بل أصبحت لدينا الفعالية والقدرة السياسية - بالفعل - لإحراج المترددين في الكونجرس لحملهم على عمل الشيء الصحيح.

وفي مختلف الأحوال كانت هناك علاقة تبادلية وثيقة بين التحالف الدولي والتأييد الداخلي. وكلما قوي التحالف كلما كان من اليسير تحقيق إجماع في الداخل. وبالمثل كلما اشتد التأييد الداخلي كلما ازدادت القدرة القيادية للرئيس في مواجهة الحكومات الأخرى. وعلى سبيل المثال يمكن توظيف الانتقاد الداخلي لألمانيا واليابان لدفع بون وطوكيو لتقديم مساهمات مالية أكبر لتعويض عدم مساهمتهما بقوات مقاتلة في التحالف. والعكس صحيح أيضاً إذا بدأ التحالف في التصدع فسوف يتقلص التأييد في الكونجرس والرأى العام. وهب أن الكونجرس غل يد الرئيس برفض تأييده سياسياً فربما تقوض التحالف.

ومما يدعو للسخرية أن المسار الدبلوماسي تسبب في انتكاسة مبكرة غير متوقعة لاستراتيجيتنا لحشد تأييد الكونجرس. ففي السادس من آب أغسطس وبطلب من الولايات المتحدة أقر مجلس الأمن الدولي القرار رقم ٦٦١ بفرض عقوبات اقتصادية على العراق. ولسوء الحظ هيأ القرار لبعض أعضاء الكونجرس فرصة لإشباع ميولهم المعروفة باللعب على الجانبين. فبوسعهم مواصلة التنديد بعدوان العراق مع استغلال القرار في الوقت نفسه كستار

للسقوط في قبضة معضلة السياسة الوسط: فماذا سنفعل لو لم تؤت العقوبات ثمارها؟ لقد وفر قرار العقوبات عذراً مثالياً للكثير من الأعضاء لتجنب الإقدام علي اختيارات صعبة لمدة عام وهو إطار زمني طالما تردد في الكونجرس لكنه إطار غير واقعي بالمرة. وليست هناك طريقة علي أية حال للحفاظ علي تماسك التحالف الدولي كل تلك المدة. وفي الحقيقة ساورني الشك في أن السبب الذي حدا ببعض زعماء الكونجرس لإظهار تأييدهم القوي والمبكر لمعالجة أزمة الخليج في الأمم المتحدة يكمن في اعتقادهم أنه لن يجري تصويت مطلقاً علي اتخاذ إجراء عسكري، ومن ثم إبعاد الكونجرس عن الشرك السياسي. وأكدت مولهنز هذا في إطار مناقشات صريحة مع بعض الزعماء والعاملين معهم. ومظاهر الجبن تلك ممارسة شائعة لدي الكثيرين في الكونجرس الذين يستميتون في إلصاق أنفسهم بانتصارات الرئيس، وينأون بأنفسهم عن فشله. وبأي معيار كانت سياستنا تجاه الخليج محفوفة بالكثير من المخاطر. وفي إحجام آخر ناجم عن أعراض فيتنام لم يكن أعضاء الكونجرس يرغبون في تحمل مسئولية إرسال قوات من ولاياتهم ودوائرهم لما قد يصبح حرباً دامية. لذا فضل كثيرون في الكونجرس إيثار السلامة سياسياً بعمل شيء لو كان متاحاً علي أية حال.

وكانت وجهة نظري بضرورة السعي للحصول علي تفويض من الكونجرس تستند إلي واقع سياسي لا واقع دستوري أو قانوني. وفي الجانب الأكبر سعت إدارة بوش جاهدة لاستمرار إطلاع الكونجرس علي مجريات الأحداث. وقبل أي شيء كان جورج بوش نفسه عضواً سابقاً بالكونجرس ويدرك ببصيرته حكمة استمرار إطلاع الكونجرس. فضلاً عن ذلك، ومن جانبي كان التشاور مع الكونجرس وعلي مدار سنوات خدمتي في الحياة العامة تمتعت بعلاقة مع السلطة التشريعية ويرجع ذلك إلي حد كبير لعملي المستمر معها. وعندما عدت إلي الحكومة عام ١٩٨١ لأصبح رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض في ظل رئاسة ريجان قررت ألا أغادر مكتبي في نهاية اليوم مطلقاً بدون الرد علي مكالمات أعضاء الكونجرس دونما اعتبار لمكانة العضو صغيرا كان أم كبيرا. ولاثنتي عشرة سنة تمسكت بهذا التقليد وأعتقد أنه أتي بثماره للرئيسين ريجان وبوش ولي أنا أيضاً. ونحن في أمريكا نقيس نجاح أو فشل رؤسائنا إلي حد كبير اعتماداً علي سجلاتهم التشريعية. فقد كانت علاقة الرئيس كارتر مع الكونجرس الذي يسيطر عليه حزبه تعاني من توتر متكرر، وقد دفع ثمن هذا غالياً في

صورة انعدام الفعالية التشريعية مما ساهم في هزيمته. وأعرف أن الرئيس ريجان سيكون مشغولاً مع مجلس يسيطر عليه الديمقراطيون لدرجة خوض معارك طاحنة معه، ولذا كان من الضروري الحفاظ علي خطوط الاتصال مفتوحة ومتحضرة مع الكونجرس. ونتيجة لذلك وبرغم خوض معارك تشريعية شرسة مع الديمقراطيين أعتقد أن الرئيس ريجان حظي بعلاقات أفضل مع الكونجرس عما توقع معظم المراقبين.

❑ ❑ ❑

ورغم هذا فإنني أعتقد أن الكونجرس (لا) يتمتع بحق مصادرة الرئيس، سواء في إدارة السياسة الخارجية أو نشر القوات العسكرية الأمريكية. ولا يمكن مهاجمة الدستور في هذه النقطة. فسلطة إدارة السياسة الخارجية خاصة عندما تتضمن الامتيازات القاصرة علي القائد الأعلي تقع في يد السلطة التنفيذية. ولم يساورني أي شك مطلقاً في أن الرئيس لا يحتاج مطلقاً إلي موافقة الكونجرس لإصدار أوامر للقوات بالقتال. ومع هذا فإن أزمة الخليج عملية غير محدودة مثل عمليتي جرينادا أو بنما. وحتي إذا كان القانون لا يقتضي الحصول علي موافقة الكونجرس فإنني أعتقد أن إرسال مئات الآلاف من الجنود إلي المعركة مع احتمال سقوط خسائر بشرية فادحة – وبدون موافقة الكونجرس – قد يثبت أنه انتصار باهظ الثمن. وبيني وبين نفسي كنت أخشي من أنه إذا لم نحصل علي موافقة الكونجرس فلن نستطيع شن هجوم علي صدام حسين من وجهة نظر سياسية وربما نضطر للاكتفاء بسياسة الاحتواء.

وبرغم هذا ازدادت مهمتنا في حشد التأييد تعقيداً نتيجة تنازع الولاية الذي احتدم منذ حرب فيتنام بين الرئيس والكونجرس حول السلطة الحكومية التي يحق لها شن الحرب، واعتبر قانون صلاحيات الحرب لعام ١٩٧٣ – الذي حد من سلطة السلطة التنفيذية في إدارة العمليات الحربية غير دستوري، ولم يحظ سوي بالتزام ظاهري من الرؤساء الستة السابقين مما أثار حنقاً كبيراً في الكونجرس. وفي تشرين الأول أكتوبر وأنا رئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض جمع الرئيس ريجان قيادات الكونجرس في الغرفة الصفراء بمقر إقامته مساء أحد الأيام. وأبلغهم أن القوات الامريكية ستغزو جزيرة جرينادا صباح اليوم التالي. وقال رئيس

مجلس النواب أونيل: إن هذه المجاملة غير كافية بموجب قانون صلاحيات الحرب واشتكي: «إن هذا إخطار وليس تشاورا. حظ سعيد. ويادر بمغادرة البيت الأبيض تاركاً وراءه رسالة ضمنية: عليكم ألا تنتظروا أي تأييد من جانبنا إذا سارت الأمور علي غير ما يرام.

وازدادت مشاكلنا تعقيداً نتيجة التأكد أنه في خريف عام ١٩٩٠ ظهرت خلافات في التصور بين الإدارة والكونجرس حول الاتجاه الذي تتطور فيه السياسة. كنا جميعاً في الحكومة نتحرك علي مضض نحو الحقيقة التي شعر بها الرئيس في وقت مبكر – أي حتمية استخدام القوة علي الأرجح. وفي الوقت الذي كنا نأمل فيه أن تعزيز القوة سيدفع صدام إلي التأكد من تصميمنا،وأن ينسحب من الكويت، وأن مجرد إرسال تلك القوات هو اعتراف ضمني بأن الأوامر ربما تصدر إليها في نهاية المطاف بالدخول في معركة إذا لم ينسحب صدام حسين. وهكذا فإن كل يوم يمر يزيد من احتمالات الحرب.

وعلي أمل تهيئة الكونجرس والرأي العام لهذا الواقع الجديد، انتهزت فرصة خطاب كان من المقرر إلقاؤه منذ فترة طويلة أمام مجلس الشؤون الخارجية الدولية في لوس انجلوس في ٢٩ تشرين الأول أكتوبر لمعالجة قضية الاستخدام المحتمل للقوة ضد العراق بشكل أكثر صراحة عما حدث في تصريحاتي السابقة. وقلت: إنه في منطقة متفجرة مثل الشرق الأوسط «عندما تضاف أسلحة الدمار الشامل إلي المزيد من إمدادات الطاقة العالمية. يتولد مزيج متفجر» وأشرت إلي أن الرئيس مصمم علي عدم التساهل مع العدوان العراقي. وأضفت قائلاً: «إن قواتنا هناك لتقديم رد عسكري حاسم وفعال إذا اقتضي الموقف». وبكلمات منتقاة بعناية لتحدث أثرها المطلوب، قلت: إنه في الوقت الذي لم يدع فيه الرئيس ساحة دبلوماسية إلا وطرقها التماساً لحل سلمي، فليس هناك مجال واحد للشك في أننا لن نستبعد احتمال استخدام القوة إذا استمر العراق في احتلال الكويت».

ولسوء الحظ تجاهل كثير من أعضاء الكونجرس تلك المؤشرات، وركزوا بدلاً من ذلك علي تصريحاتي حول طريقة المعاملة الفجة للرهائن الأمريكيين في العراق. فقد اتُهِمتُ كذبا علنا في الواقع بالمبالغة في قضية معاناة الرهائن. ومن الواضح أن الكونجرس لم يكن لديه أدني فكرة عن تغيير الواقع. كانوا لا يزالون يتبنون الخيار الأسهل سياسياً – أي الاعتماد علي

العقوبات. ونتيجة لذلك كان إعلان الثامن من تشرين الثاني نوفمبر بنشر جديد القوات بمثابة قنبلة انفجرت في الكونجرس وأُخذت قيادات الحزبين في الكونجرس بالمفاجأة، ولاسيما السيناتور سام نان والنائب لويس أسبين رئيس لجان الخدمات المسلحة وهي اللجان المعنية. وشعروا جميعاً أنهم هُمِّشوا وسارع نان بالإعلان صراحة أنه لم يعرف بأمر الإعلان إلا قبيل ساعات وفي أحد المطاعم. وأصابت السكتة قادة الديمقراطيين بشكل خاص. ولم يساهم إلتزام الرئيس بعقد اجتماع مبكر سعياً للحصول على موافقة القيادات في تهدئة أحد.

وظائف، وظائف، وظائف.

في ٨ تشرين الثاني نوفمبر اليوم السابق على الاجتماع توجهت إلى بيرمودا لعقد اجتماع ثنائي عاجل مع جوى كلارك وزير الشئون الخارجية الكندى. ومنذ وقوع الأزمة لم تتردد كندا في تقديم دعم قوى، وأبلغنى كلارك بأن حكومته ستوافق على قرار استخدام القوة في مجلس الأمن، وعقب الاجتماع انتهزت فرصة المؤتمر الصحفى المشترك لأشرح أنه في الوقت الذى نصمم فيه على الوقوف في وجه عدوان صدام فإن هناك أيضاً تأييداً داخليا جوهريا لسياستنا.

وقلت: «إن شريان الحياة الاقتصادية للعالم الصناعى ينبع من الخليج، ولا يمكننا السماح لديكتاتور مثل هذا بسد شريان الحياة الاقتصادية والنزول به إلى مستوى المواطن الأمريكى العادى دعنى أقل إن هذا يعنى الوظائف. وإذا أردت تلخيص الأمر في كلمة واحدة فإنها الوظائف، وبسبب الركود الاقتصادى العالمى فإن سيطرة – بلد، واحد أو إن شئت ديكتاتور واحد – على شريان الحياة الاقتصادية للغرب سيؤدى إلى فقدان المواطنين الأمريكيين لوظائفهم».

واخترت كلماتى بعناية. فقبل ثلاثة أيام في موسكو قلت إن مستوى معيشة كل مواطن أمريكى معرضة للخطر في الخليج. وكان هدف تصريحاتى في بيرمودا هو تعزيز

تصريحاتي السابقة. وفي الحقيقة أصابني الإحباط لعدة أسابيع من جراء العجز الجماعي للإدارة عن وضع أسس قوي متناسق لسياسة الرئيس، وتراوحت بياناتنا العامة ما بين المبدئية إلي السرية. فأحياناً ما تحدثنا عن التصدي للعدوان وإقامة نظام عالمي جديد. وأحياناً أخري وصفنا صدام حسين بأنه هتلر جديد، وتذرعنا بتهديده للاستقرار العالمي نتيجة ارتفاع أسعار البترول. وكانت كل تلك الحجج صحيحة. لقد قمنا بالرد علي انتهاك صارخ للقانون الدولي، وشجبنا حالة عدوان سافر ولأول أزمة حقيقية في عالم ما بعد الحرب الباردة وها نحن نتعامل مع شخصية مصابة بجنون العظمة. لكن من الحقيقي أيضاً أن مصالحنا القومية مهددة بالخطر، وهو شيء تعترف به كل الإدارات السابقة. ديمقراطية أم جمهورية. وكان علينا أن نواصل تأمين إمدادات الطاقة. وشكل ردنا السريع في أوائل آب أغسطس ردعاً لصدام حسين عن غزو العربية السعودية. لكن إذا سمحنا له بالبقاء في الكويت سيكون بوسع صدام الدموي – الذي اعترف بنفسه أنه أقدم علي الغزو لملء خزائنه الخاوية من عائدات النفط الكويتي – التأثير بسهولة علي قرارات تسعير البترول في العالم. ويلي ذلك بالتأكيد ارتفاع لأسعار النفط الخام يحتمل أن يتسبب بدوره – ليس في فقط في تراجع في الاقتصاد العالمي بل أيضاً في ركود في الاقتصاد الأمريكي الهش. ويعني هذا حتماً فقدان عشرات الآلاف لوظائفهم في أمريكا.

وبصراحة فقد بذلنا جهداً مضنياً – ليس فقط في شرح المضاعفات الاقتصادية الجوهرية للعدوان العراقي علي الاقتصاد. بل أيضاً التهديد الذي يشكله هذا العدوان علي السلم والأمن الدوليين بسبب أسلحة الدمار الشامل. كما أننا بدأنا ندفع ثمناً سياسياً في الداخل نتيجة التضارب في التصريحات. وبدأ التأييد العام لعملية درع الصحراء في التراجع. وبدأ المحتجون يحاصرون الرئيس بمؤشرات تدعو إلي «لا للدم مقابل النفط».

كان موقف الكونجرس متقلباً بشكل متزايد تجاه الحشد العسكري المستمر. وكنت أبحث عن صيغة تنبه الداخل إلي فداحة التهديد الذي يتعرض له المواطن الأمريكي العادي، ومن ثم ضمان التأييد لسياسة ربما تنتهي بالحرب في صحراء الكويت.

وفي النهاية ظهر الأسوأ، وفي غمرة محاولة لإضفاء بعض الانسجام علي رسالة الرئيس بالغت في رد فعلي علي الشكاوي المتزايدة من أن النفط هو السبب الوحيد لوجودنا

في الخليج. لقد اتخذت قراراً سياسياً معقداً هو في أساسه موقف مبدئي ضد عدوان وقع دون استفزاز، وحاولت تعريفه أو طرحه كحساب اقتصادي مجرد – هو الوظائف. ولازال أعتقد أنني كنت علي صواب. لكنه نهج لم يؤت ثماره. وهناك عنصر اقتصادي جوهري في السياسة ولم يكن هذا العنصر مقصوراً علي النفط فحسب. ولو أنني استخدمت اصطلاح «الرفاهية الاقتصادية» بدلاً من «الوظائف» فلربما قوبلت باستحسان أكبر.



وفور انتهاء المؤتمر الصحفي تم تسليمي نسخة برقية أثارت الارتباك. فقد حث السيناتور ريتشارد لوجار من إنديانا وهو جمهوري صاحب صوت انتقادي في لجنة العلاقات الخارجية الرئيس علانية علي استدعاء الكونجرس للانعقاد من عطلته الصيفية في جلسة خاصة لدراسة إصدار قرار يجيز اتخاذ عمل عسكري ضد صدام. كان لوجار يروج لفكرته منذ بعض الوقت، وكان قد غادر المكتب البيضاوي لتوه بالاقتناع خاطئ بأنه تحدث للرئيس لمساندته. كانت محاولة حسنة النية من جانب لوجار. وقال ناخبوه إنهم لا يفهمون ضرورة إرسال مزيد من القوات. وكان لوجار يعتقد أن إصدار الكونجرس لقرار تأييد سيوجه بياناً قوياً وواضحاً لدعم غير حزبي لسياسته. وانضم السيناتور بوب دول إلي لوجار في اقتراحه. وارتأى دول أنه إلي جانب مميزاته فإنه يشكل فرصة للي ذراع الديمقراطيين الذين يمارسون السياسة لكنهم يشعرون أنه يتسني فهم التردد في التصويت ضد القائد الأعلي فيما يرقي جوهرياً إلي حد إعلان الحرب.

وفي ظاهره كان اقتراحاً مغرياً لحرمان الديمقراطيين من المزيد من الفرص في اللعب علي الجانبين. لكن اقتراح لوجار كان ينطوي علي كارثة محتملة. وفي حينه لم تكن نملك الأصوات الكافية. فقد كان الأعضاء المؤثرون في كلا الجانبين يشعرون بالغضب لعدم استشارتهم حول تعزيز القوة. فالسعي للحصول علي قرار وعدم الحصول عليه سوف يمثل كارثة. وسوف تغل يد الرئيس. وواقعياً لم يكن يتسني لنا استخدام القوة بوجود معارضة

صريحة من جانب الكونجرس. وسوف يقف تحالفنا الدولي متعجباً من مدي ديمومة التصميم الأمريكي، وسوف تلقي قدرة الرئيس علي إدارة السياسة الخارجية في مهب الشكوك. فضلاً عن ذلك فإن العقوبات الاقتصادية لم تطبق إلا منذ ستين يوماً. ولا تزال أغلبية أعضاء الكونجرس تعتقد أن العقوبات ستجبر العراق علي الانسحاب من الكويت إذا أعطيت الوقت الكافي.

وحذرتني جانيت موليدر من أننا إذا ذهبنا إلي الكونجرس كما يريد لوجار فستكون فرصته قوية في إصدار قرار مشروط بالحرب. وحينئذ ستكون لدينا إجازة بالذهاب إلي الحرب، لكن فقط في حالة إعطاء العقوبات عدة أشهر لتثبت فعاليتها. فالفكرة بالغة الخطورة إلي حد التحريم. ومن الناحية القانونية كنا نشعر أن لدينا السلطة للتحرك في الخليج. لكن عدم الحصول علي موافقة الكونجرس سوف تكون له عواقب وخيمة علي المدي البعيد.

ومن المفارقات الغريبة أن الذي خفف أزمتنا إلي حد كبير هو تعاون زعيم الأغلبية الديمقراطية بمجلس الشيوخ جورج ميتشيل. وبعد عودتي من بيرمودا أجريت عدة محادثات مع ميتشيل. وفي النهاية اتفق معي علي أن قرار الكونجرس مهم – لكن بعد صدور قرار مماثل من الأمم المتحدة. وأبلغني ميتشيل بأن التصويت هناك حقاً ليس من أجل تأييد قرار نظيف لكن قرارا حازماً من الأمم المتحدة سيوفر مبرراً قوياً لإقناع الأعضاء المترددين، وأخيراً أعلن ميتشيل علانية أنه لن يدعو إلي عقد جلسة خاصة بناء علي اقتراح لوجار.



وفي اليوم التالي لعودتي من بيرمودا شاركت في واحد من أكثر الاجتماعات المشحونة بالخلافات التي يمكنني تذكرها مع قيادات الكونجرس من الحزبين. فالرئيس عاقد العزم علي الدفاع عن قرار إرسال القوات باعتباره الإجراء الوقائي الأهم، ويؤكد علي أن أفضل أمل لتجنب الحرب هو إقناع صدام بأننا لا نستعرض.

وقلت: «هذا هو الاحتمال الوحيد لتسوية هذه الأزمة سلمياً. فصحافته تصرخ بأننا عاجزون عن التنفس. إن علينا مسؤولية مشتركة بعدم توجيه مؤشرات متضاربة». كان التردد بادياً علي الأعضاء. لم يكن هناك مناص من السخرية وأنا استمع إلي إدانتهم لسياستنا، لقد عدت لتوي من جولة هيأت فيها الحلفاء لاحتمال شن الحرب. بينما الكونجرس الذي تعتبر موافقته أساسية ليس علي الخط.

وعجل الفوران التشريعي المتصاعد الجدل داخل الإدارة حول مدي صحة طلب الحصول علي قرار تأييد من الكونجرس علي الإطلاق. كنت لاأزال أعتقد أنه يتعين علينا المحاولة، وسوف نحصل عليه في النهاية. ففي كل الخلافات بين السلطتين التشريعية والتنفيذية حول صلاحيات خوض الحرب عادة ما انحاز الكونجرس إلي صف الرئيس في مثل هذه المسائل. وسوف يقتضي الأمر قدراً هاماً من التشاور والمعونة. لكني كنت علي ثقة من أن الرئيس إذا طلب القرارمن الكونجرس فلن يُـردّ طلبه في النهاية، وكان نائب الرئيس يؤيد هذا الرأي بقوة. أما سكوكروفت فقد التزم جانب الحياد. فقد كان يري أن القرار مفيد لكنه غير إلزامي. وعارض تشيني الفكرة معتبراً أن مضاعفات خسارة التصويت بالغة الخطورة ومجازفة غير جائزة. وطلب جون سنونو رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض ضرورة تجاهل الكونجرس قائلاً أنه يجب علي الرئيس أن يفعل ما يشاء.

ولو كنا قد خلصنا إلي أنه لا مجال لقرار تأييد فقد كان الرئيس مستعداً علي الدوام للالتفاف علي الكونجرس عند الاقتضاء وخوض الحرب بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة، ووفقاً لقرار الأمم المتحدة بإجازة استخدام القوة. وفي إحدي المراحل درسنا التحايل علي المسألة باللجوء الفعلي إلي قانون صلاحيات الحرب الذي يجيز للرئيس خوض حرب لتسعين يوماً بدون موافقة الكونجرس. وكان البنتاجون يؤكد لنا أن هذه الحرب ستنتهي في هذا الموعد. وحتي إذا ثبت خطأ هذا التقويم فلن يكون هناك مجال أمام الكونجرس للتصويت بوقف القتال بمجرد بدء العمليات. وفي النهاية توصلنا إلي أن هذه الحيلة سترسي سابقة دستورية مروعة تلازم حرية الرئيس في العمل مستقبلاً.

وفي اجتماع عقد في كانون الأول ديسمبر مع قادة الكونجرس انتهي الجدل الداخلي عندما سأل أحدهم جورج بوش عما يريد. وقال الرئيس: «ما أفضله هو أن ندع الكونجرس يبارك ما أوشك أن أفعله».

مواجهة في الكونجرس

كنت أري أن أي محاولة للحصول علي تأييد الكونجرس بعيدة عن اليقين، وهو رأي عززته شهادة علي مدي يومين أمام النواب المتشككين. ففي أواخر تشرين الثاني نوفمبر تلقيت دعوة من دانتي فاسيل رئيس لجنة الشؤون الخارجية. وعادة ما أنسجم أنا وفاسيل جيداً. وباعتباره ديمقراطياً محافظاً كان أحد الصقور في معظم القضايا التي تمس الأمن القومي وكنت أعرف أنه سيؤيد الرئيس، لكنه قال لي بصريح العبارة إن هناك تصوراً في الكونجرس بأنني أتعالي علي الكونجرس برفض الإدلاء بالشهادة، وكان مصيباً في هذا. فقد كنت عازفاً للغاية عن إطلاع الكونجرس علي المعلومات المتعلقة بالمفاوضات الحساسة التي أجريتها عن خطط الطوارئ الخاصة بالحرب. وأعرف أن أي شيء أتفوه به حتي وإن كان في الجلسات الحكومية سيظهر في صحف اليوم التالي. وهكذا خلصت إلي أن الأوقع أن أتجنب الكونجرس مؤقتاً علي أن أغامر بحدوث تسرب إخباري قد يخرج سياستنا عن مسارها ويهدد الانسجام الداخلي لتحالفنا الدولي.

وأبلغني فاسيل إن سياسة التجاهل الرقيق هذه قد وصلت إلي ما يسمي في الاقتصاد بتناقص الغلة. وقال: إنني أتعرض لانتقادات الأعضاء، وأعتقد أنك في حاجة للظهور هناك، «وسمعت نفس الشيء من بعض الحلفاء الجمهوريين أيضاً. وكمسألة عملية كنت أعرف أيضاً أنه لا يمكننا أن نطلب من الكونجرس قرار تأييد قبل موافقتي أولاً علي الشهادة. وقررت المثول أمام لجنتي الشؤون الخارجية بالمجلسين في أوائل كانون الأول ديسمبر. وبترتيب مسبق تحدد هذان الموعدان فيما بعد الانتهاء من التصويت علي قرار إجازة استخدام القوة

في مجلس الأمن الدولي. سوف يزودنا قرار الأمم المتحدة بسند قوى لمطالبة الكونجرس بتأييد الرئيس. وكنت أدرك أن ظهورى أمام الكونجرس سيكون واحداً من الفرص الأخيرة المتاحة لإقناع الكونجرس المتردد بأن السياسة التى يمارسها بوضوح وهي الإعداد للحرب -هي فى الحقيقة الفرصة الوحيدة لضمان التسوية السلمية التى نعمل جميعاً من أجلها. وكنت أعرف أيضاً أنه سيكون من الصعب ترويجها.

وفى شهادتى أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ فى الخامس من كانون الأول ديسمبر استعرضت الحجج الأخلاقية والتاريخية التى دفعتنا للتصدى لعدوان صدام من جانب الرئيس ومن جانبنا جميعاً منذ آب أغسطس. ودافعت أيضاً عن حشدنا العسكرى باعتباره إجراء احترازياً حكيماً تقتضيه الضرورة للحفاظ علي مصداقية مساعينا الدبلوماسية. فلو اعتقد صدام أن الخيار العسكرى ليس إلا مجرد تهويش فلن ينسحب من الكويت مطلقاً. لكن هدفى الأساسى كان شن هجوم صريح علي الحجة التى يتوارى الكثير من أعضاء الكونجرس خلفها. وهي الفكرة الخاطئة بأن العقوبات ستؤدى حتما إلي خروج صدام من الكويت لو مُنحتْ الوقت الكافى. وقلت: «علينا أن نواجه حقيقة مرور أربعة أشهر علي نشوب هذا الصراع ولم تفلح أى من جهودنا فى ظهور أى بادرة علي تغير صدام. أعتقد أن علينا أن نواجه الحقيقة الصعبة التى لا يمكن لأحد أن يقولها لكم. إن العقوبات وحدها لن تستطيع فرض كلفة باهظة علي صدام حسين تحمله علي الانسحاب. إننى شخصياً متشائم فى إمكانية قدرتها علي ذلك» .

وتوقعت أن نجاح صدام فى حمل الغرب علي الإذعان «لن يكفل إلا مزيداً من النزاع، مزيداً من الصراع ثم حرباً شاملة فى نهاية المطاف. ولن يكون هناك سوي أمل ضئيل أمام أى جهد لتحقيق السلام فى الشرق الأوسط.

واقتصادياً فإن عدوانه يعرض للخطر شرايين الحياة للعالم – النفط – ويهدد بحدوث كساد وركود هنا وفى الخارج، وينزل أفدح الضرر بالديمقراطيات الوليدة التى تستطيع التعايش معها بالكاد. إن عدوانه ما هو إلا محاولة لرهن الآمال الاقتصادية لعالم ما بعد الحرب الباردة فى قبضة رجل واحد.

«أما سياسياً، السيد الرئيس – أخيراً سياسياً – فعلينا أن ندافع عن زعامة أمريكا – ليس لأننا نسعي إليها لكن لأنه ما من أحد آخر يستطيع الاضطلاع بالزعامة. إننا لم نقف متحدين لأربعين عاماً لوضع نهاية سلمية للحرب الباردة من أجل أن نجعل العالم آمنا لأمثال صدام حسين. وببساطة إنه لخيار بين الصواب وبين الخطأ. السيد الرئيس. أعتقد أننا نتحلي بالشجاعة والإقدام لعمل ما هو صواب». وكنت أريد أيضاً أن يفهم الأعضاء أنهم في الوقت الذى ربما كانوا مترددين فى المشاركة فعليهم أن يتأهبوا لدفع ثمن سياسي للجلوس علي الهامش. بينما الرئيس يسعي للحل السياسي. وألقيت بهذا القفاز بلغة محسوبة لا تثير خجلهم لأقولها صراحة: «إن هذه آخر أفضل فرصة للتوصل إلي تسوية سلمية. فإذا كان علينا أن نتهيأ أمامنا أى فرصة للنجاح فلابد وأن أذهب إلي بغداد بتأييد تام من الكونجرس والشعب الأمريكى لرسالة المجتمع الدولى».



(يوم الجمعة الماضى اقترح الرئيس إيفادى إلي بغداد، وأن ترسل العراق وزير الخارجية طارق عزيز إلي واشنطن كمحاولة أخيرة للتوصل إلي تسوية سلمية).

وكما توقعت كانت اللجنة ودودة.. لكن سرعان ما جنح الحوار نحو المواجهة. واتضح لى أن الأعضاء مهووسون بالتمسك بالعقوبات باعتبارها المخرج الأسهل لدرجة رفض التفكير فى فكرة أن العقوبات لن تجدى نفعاً فى حقيقة الأمر. كان هناك تمسك قاطع بآرائهم. وتساءل النائب الجمهورى فرانك موركوفسكي من ألاسكا ما إذا كان يتعين علينا عرض حقل مبروك كويتي علي صدام . وهي فكرة مروعة لدفع «ثمن الجريمة»، وافق عليها الديمقراطى بول سيمون من ألينوى وكريستوفر رود من كونيكتيكيت.

وكان أشد المنتقدين صراحة هو بول ساربانيس من ميريلاند وديمقراطى آخر أبلغانى أن رأى الإدارة بأن للرئيس الحق فى خوض الحرب بدون موافقة الكونجرس «يتعارض تماماً مع الدستور» ثم ما لبث أن أبدي دفاعاً مؤثراً عن العقوبات.

وقال ساريانيس في صوت أقرب إلي الصياح: «يبدو أنكم وضعتمونا علي طريق الحرب. وزعم أن تعزيز القوة وتحديد المهلة يعنيان في الحقيقة أننا غير معنيين بالتوصل إلي تسوية سلمية. لأن العقوبات ستتطلب «أكثر من أربعة أو ستة أو عشرة أشهر» لتحصل علي فرصة عادلة، وهو جدول زمني أعرف أنه غير واقعي من الناحية العملية.

واتهم قائلاً: «إن هذا التعزيز للقوة يأخذكم إلي طريق لا عدول عنه نحو خوض الحرب. والآن لا يمكنني أن أطلب أي أسرة تفقد إبناً أو ابنة في نزاع يمكن أن ينشب خلال الثلاثين أو التسعين يوماً القادمة. إن هذا يجهض أي احتمال للتسوية السلمية قبل التوصل إليها لأن خيار العقوبات لم يستنفذ بعد».

«إنكم تنتهجون سياسة تؤتي مفعولها. فالعقوبات تعصره. والواضح أنها تعصره يوماً بعد يوم. وبدلاً من ذلك تخلينا عن سياستنا وتحولنا الآن إلي نهج أعتقد أنه يقودنا نحو الصراع. إن هذا هو الوقت الذي يحتاج إلي الدأب والعزيمة وتصميم عداء المسافات الطويلة. والأمر يحتاج إلي شجاعة لمثل هذه النوعية. فآخر أفضل فرصة لتسوية سلمية، هو استمرار سياسة العقوبات لفترة طويلة كافية من الوقت لمنحها فرصة لتؤتي ثمارها».

واعتقدت أن هذا المنطق للإقناع ساذج علي أفضل تقدير. وقد حصل ساريانيس علي منحة سيشيل رودوس ويتمتع بخبرة عريضة في الشؤون الدولية. وكمسألة عملية إنه يعرف تماماً كما أعرف أنه سيكون من شبه المستحيل الحفاظ علي التحالف الدولي كل تلك الفترة التي يقترحها.

كان ساريانيس قد قال كل ما عنده لدرجة لم يجرؤ معها علي أن يطرح سؤالاً واحداً، لكنني لم أرد أن يمضي دون عقاب. وقلت: «السيناتور. دعني أقل: إنني أطل من نافذتي بوزارة الخارجية صباح كل يوم لأري مقبرة أرلينجتون الوطنية. إنني أعرف تماما ما هو الخطر الكامن هنا، وأعتقد أن رئيس الولايات المتحدة يعرف هذا جيدا. لسنا من النوع المتهور. لسنا متهورين. السيد السيناتور: إنني كوزير خارجية لوطننا الحبيب أدرك جسامة المسؤولية التي تنتظرني ولن نألو جهداً أو نترك حجراً دون أن نقلبه بحثاً عن حل سلمي، ويسرني إبلاغك بأن هذا هو ما نفعله، وهذا هو ما سنواصل عمله. لأن هذا هو ما نريده.

وسوف أبلغك أيضاً أنني أعتقد أن هناك مخاطرة في إساءة تقييم ما يمكن أن يقودنا إلي التوصل إلي حل سلمي. وما لم يمكننا إقناع هذا الديكتاتور بأن التهديد باستخدام القوة تهديد جاد، وأنه يجازف بإمكانية طرده من الكويت إذا لم يترك الكويت سلمياً. فإننا لن نتوصل إلي تسوية سلمية.

وفي اليوم التالي أدليت بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب التي كانت أقل تصلباً. ومثل نظرائهم كان الشك يساورهم تجاه تعزيز القوات وأظهروا تفضيلهم لخيار العقوبات.

ووصلت جلسة الإستماع إلي أدنى نقطة عندما غادر فاسيل وكبار الأعضاء الديمقراطيين الآخرين الغرفة مسلماً رئاسة اللجنة إلي بيتر كوستماير من بنسلفانيا. وباعتباره عضواً صغيراً في اللجنة سيسمح لكوست ماير في الأحوال العادية بتوجيه أسئلة لمدة دقائق. ومع ذلك وباعتباره قائما بأعمال رئيس اللجنة فبوسعه التأثير علي اللجنة متى شاء. وخلال المثول عشرات المرات أمام لجان الكونجرس لسنوات تعلمت توخي الحذر عندما يبدأ عضو معارض حديثه بإشارة كذبية، وهكذا فقد التقطت إيماءة بما سيحدث عندما بدأ كوستماير بالإشادة «بإقتداركم أنت والرئيس في حشد وتحريك القوات الدولية ضد صدام حسين» ثم بعد قراءة مقتطفات من كلاوزيفيتس عن الحاجة إلي موازنة كلفة الحرب بقيمتها السياسية، سأل: هل أنتم مقتنعون علي نقيضنا باعتباركم وزيراً للخارجية ومواطناً دأب بأن هذا الموضوع يستحق فقد ثلاثين أو خمسين أو ستين ألف جندي أمريكي؟

كان سؤاله مجرد تهويج وإثارة تستهدف جذب العناوين. وحتي في أسوأ السيناريوهات أشارت تقديرات البنتاجون إلى أن الخسائر البشرية تبلغ عدة آلاف. ووقف شعر رأسي لمدي العناد البادي في هذا الهجوم الرخيص. وقال لي معاوني الجالسون خلفي في وقت لاحق أن قفاى احمر بشدة خلال المناقشات التي تلت ذلك.

ورددت: «إن هذا مجرد سؤال افتراضي ليس له أساس أعرفه في الحقيقة».

وأصر قائلاً «إن عدم سؤال نفسك هذا السؤال كرجل ربما يكون مشاركا في اتخاذ هذا القرار، بالنسبة لي أعتقد أنه سوف يكون بكل الاحترام الواجب، سيدي، موقفا غير مسؤول».

ورددت وحرارتي ترتفع: «بالطبع عليك أن تفعل. وعليك أيضاً أن تسأل نفسك أسئلة بالغة الحساسية أيضاً عن المدة التي تعتقد أن الاشتباك قد يستغرقها. لكن ليس عليك أن تفعل هذا في منتدي عام».

وواصل كوستماير لعبته السياسية إنه أداء كلاسيكي: «عندما تكف عن ضرب زوجتك». وفي الحقيقة فقد أراد أن يعرف مدى قدر الخسائر في حرب بالخليج. وكان الكونجرس يعتزم مواصلة السعي لانتهاج سياسة الاتجاه المضاد. وكان أسهل طريق لعمل ذلك هو تضخيم صورة أكياس الجثث في أخبار المساء. فقد كان يعرف كما أعرف أن الإجابة الوحيدة المناسبة هي أن فقد روح واحدة كثير للغاية.

ولازال مصراً علي محاولة معرفة رقم مدى وقال: «يبدو لي أنها إذا كانت ستكلف – ولا أعتقد رغم أنه ليس لدى أي فكرة ٢٥٠ ألف جندى أليس الأمر مهماً؟ ألا يستحق الأمر. فمن أجل ٢٥٠ألف عليك أن تتحدث حول تلك القضية؟»

ومصمماً علي عدم إعطائه إجابة قلت: «حينئذ سوف أحيل السيد كوستماير إلي قيادة الجيش حيث هم فقط الذين يمكنهم تقديم تقييم معقول في هذا الصدد». ورد كوستماير بالإدعاء بأن قادة الجيش مثل الأدميرال كروى شهدوا بان ترك العقوبات تؤتي ثمارها هو أفضل نهج سياسي. واعترضت قائلاً: «إن هذا يمثل نسبة خمسين في المائة من تقييم سياسي». فقد أردت القول إنه خلال توليه رئاسة هيئة الأركان لم يرد كروى مطلقاً استخدام القوة العسكرية في أي مكان أو زمان وبأي شكل بغض النظر عن فوائده. فقد كان لديه دائماً سبب لضرورة عدم اعتماد القوة. قبل نحو عقد من الزمان عندما فكر الرئيس ريجان في استخدام القوة في جرينادا استمعت إلي كروى في حديث خاص يعارض الغزو الذي نفذه لاحقاً من منطلق الواجب، وأسررت لنفسي بالقول بأن كروى وأمثاله من المنتقدين هم عسكريون ممتازون. ونفت بأنهم ليسوا خبراء بارعون في المسائل السياسية. وقال

كوستماير: «هل هناك سؤال أهم لطرحه من كم عدد الأمريكيين – السيد وزير الخارجية – الذين سيموتون في الخليج إن ذهبنا للحرب».

وردت بحدة: «كفى، دعني أبلغك بالوقت الذي يتعين السؤال فيه. إن السؤال ينبغي طرحه عندما وإذا اتُخِذَ قرار باستخدام القوة. هذا هو الوقت الذي يجب طرح السؤال فيه ومن المناسب أن يوجه – إذا جاز لي القول – إلي القادة العسكريين».

وبشكوي زائفة لم تكن القضية قد عولجت بعد أن استسلم كوستماير وشأن معظم المواجهات مع الكونجرس انتهت هذه المواجهة بالجمود. فلم أحدد له رقماً عن حجم الخسائر البشرية. لكن صوته كان عاليا في برامج التليفزيون. وكنت أعتقد أنه نوع رخيص جديد من الهجمات، وأغضبني بشكل خاص استنتاجه أننا غير مبالين بإرسال الجنود الأمريكيين ليلقوا حتفهم. وتساءلت بيني وبين نفسي – أثناء حدوث هذه اللعبة الرخيصة – كيف كان كوستماير سيتصرف لو تبدلت الأدوار، وفي هذه الحالة لعل كوستماير بالضبط ما يتهمنا – بفعله أي بالتلاعب بأرواح جنودنا. لقد كانت إساءة بالغة لهم ومضايقة للكونجرس وللإدارة لم أكن معنياً بالتسامح حيالها في المستقبل، وفي المرة التالية حين طُلِبَتْ مني الشهادة أمام اللجنة بعثت برسالة إلي فاسيل تستفسر عما إذا كان شخصاً مفوضاً سيتولي رئاسة الجلسة طيلة الوقت لضمان السيطرة علي الإجراءات.



وخلال بقية كانون الأول ديسمبر تابعنا جميعاً «القضية في الكونجرس الذي تأجلت جلساته في أواخر تشرين الأول أكتوبر. وعملت عدة عناصر لصالحنا ليس أقلها تصلب صدام مع وساطات السوفيت وآخرين، وصوتت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر بأن إجازة استخدام القوة باتت عنصراً إلزامياً. وبالتصويت ضد الرئيس فإن الكونجرس لن يولي ظهره فقط لالتزام أمريكا التقليدي بتأييد قرارات الأمم المتحدة. بل إنه سيستخف

بإرادة المجتمع الدولي، وشكل مئات الجنود الموجودين بالفعل في الصحراء مشكلة حادة لأولئك العازفين عن تأييد الرئيس، وإذا بدأت الحرب وثارت الصعوبات فسوف يتعرض الأعضاء للانتقاد إذا رفضوا تأييد الرئيس.

وجاءت المساعدة أيضاً من أقوي أنصار إسرائيل في الكونجرس. كان الكثير من هؤلاء من الديمقراطيين أمثال السيناتور آل جور وجوي ليبرمان والنواب ليس أسبن وستيفين سولارز. وقد نظر بعضهم إلي الرئيس ولي بعين الشك اعتقاداً منهم بأننا ملنا نحو العرب أثناء محاولتنا إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط العام الماضي. وما يدعو للسخرية مع ذلك أنهم كانوا سريعي التأثر بالإقناع لضيق الأفق – فمن وجهة نظرهم فإن الحرب في الخليج – رغم أنها ربما لا تكون احتمالاً مرغوباً فيه يمكن أن يكون لها أثر جانبي مفيد فسوف يتم تدمير أقوي تهديد لأمن إسرائيل. والسياسة حقاً تصنع العجائب. فالكثير من الأعضاء غير المؤيدين في العادة أيدوا مبادرات الإدارة في الخليج.

وربما كان العنصر الحاسم هو عرض إيفاد بيكر إلي بغداد، وعزيز إلي واشنطن في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر. وهدفنا الأخير «هو أن نظهر للكونجرس وللشعب الأمريكي وللتاريخ أننا لازلنا نبحث عن طرق تجنب الحرب لا شن حرب». وعندما فشل اجتماعنا في تحقيق انفراج بدأ ت المعارضة في الكونجرس في التراجع.

وبعد ثلاثة أيام في ١٢ كانون الثاني يناير صوت الكونجرس علي تفويض الرئيس بشن الحرب في إطار قرار الأمم المتحدة. ووافق مجلس الشيوخ علي القرار بأغلبية ٥٢ مقابل ٤٧ وكان حدوث أي تغيير في الأصوات سيغير النتيجة. وبات لدينا الآن ما وصفه توم فولي رئيس المجلس بما يرقي عملياً إلي حد إعلان الحرب. وكل ما تبقي للأسف هو أن نستخدمه.

الفصل التاسع عشر

آخر أفضل فرصة للسلام

للأسف ...

الوزير بيكر

في مؤتمر صحفي عقب اجتماعه مع طارق عزيز

٩ كانون الثاني يناير ١٩٩١

عندما كنت طالباً أدرس الكلاسيكيات في جامعة برينستون أتذكر قراءة مؤلف المؤرخ اليوناني ثوسيديدس حرب بيلو بونيزيان. وما من شك في أن أي جهد من جانبي كان دافعه أن هذه قراءة مطلوبة لدواع دراسية. وفي تلك الأيام كنت أكثر ميلاً للتركيز علي استراتيجية لعب الرجبي من التركيز علي أرفف مكتبة فايرستون. كان شرح ثوسيديديس في بلاغة «إن ما جعل الحرب حتمية هو تنامي قوة أثينا وما سببه هذا من خوف في أسبرطة». تعبيراً رائعاً عن الواقعية السياسية. علاوة علي ذلك فإن ثوسيد يدس واحد من أوائل المؤرخين الذين فكروا فيما إذا وكيف كان يمكن تجنب حرب وقعت بالفعل: أي ما هي الحالات المحددة التي تؤدي إلي وقوع الحرب؟ ما هي الفرصة الأخيرة المحتملة لتجنب وقوع الحرب؟ متي تفسح الإرادة الإنسانية والرغبة في الحفاظ علي السلام الطريق أمام الكارثة وتدعو الضرورة لشن الحرب؟

وبالنسبة لدارس فإن تلك أسئلة منطق وأدلة. أما بالنسبة لرجل دولة يستند للواقع فإنها أسئلة العاطفة والفطرة. أما بالنسبة للجندي الذي يعمل في ظل الخطر فلا مجال لكثرة الأسئلة لكثرة الأوقات التي يصبح فيها المستقبل المرعب واقعاً خطراً.

وخلال أزمة الخليج ظهرت لي الإجابة علي تلك الأسئلة في ذلك المساء الصافي المنعش في جنيف عندما انتهي اجتماعي مع طارق عزيز بفندق إنتركونتيننتال ترجد بيننا علي الطاولة رسالة الرئيس بوش إلي صدام حسين. فلم يمنع إنذارنا النهائي الكارثة التي توشك علي أن تحل بالشعب العراقي. وحتي ذلك الحين كنت أعتقد أنه بقدر أهوال الحرب يتبلج الأمل في السلام بإن العراق سينسحب من الكويت بدون استخدام القوة. ومنذ ذلك المساء أدرك قلبي ما أعمله عقلي من حسابات قبل زمن طويل: أن أمريكا ستخوض الحرب في القريب، وأن مهمتي كدبلوماسي لن تكون بعد الآن محاولة التوصل إلي حل سياسي ومن ثم منع الحرب، بل ستكون مساندة المجهود الحربي للفوز بالحرب أما كيف توصلت إلي هذا الرأي فإنه رحلة غير مباشرة من تصويت الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ بإجازة استخدام القوة لإنهاء العدوان العراقي.

ويرجع أساس لقائي بطارق عزيز إلي محادثة أجريتها مع الرئيس بوش مساء التصويت التاريخي في الأمم المتحدة. فقد تحدثت إليه من غرفة في الأمم المتحدة. كان سعيداً بالتأييد

الساحق للقرار ٦٧٨ وأراد استطلاع الخطوات التالية . وقال: «أريد أن أتحدث معك عن فكرة طرأت على عقلي، وكنت أعتقد أنني أعرف ما يدور بعقله لأننا بحثناها بشكل عابر من قبل. ولكن لأني كنت في غرفة يوجد بها آخرون ولم يكن الخط الهاتفي مؤمناً رددت بحذر . وقلت «لدي بعض الأفكار عن كيفية حشد التأييد الداخلي، وها نحن الآن قد حصلنا علي التأييد الدولي» . واقترح أن يكون أول ما نفعله صباح اليوم التالي أن نجتمع مع سكوكروفت.

ومن هذا الاجتماع الذي استغرق ساعتين ظهر الاقتراح الذي فكر فيه الرئيس علي مدار ثلاثة أسابيع: وهو بذل محاولة مباشرة وجهاً لوجه لتفادي وقوع الحرب في الخليج، وكانت هذه المبادرة أكبر مفاجأة في أزمة الخليج بأسرها. بل إنها أكثرها جدلاً علي الإطلاق. فقد أثارت حيرة وذهول أصدقائنا وأدخلت السرور علي قلب منتقدينا وزادت الهمس عن ضعف تصميم أمريكا. وعلي الأقل فقد قوضت مؤقتاً مصداقيتنا لدي بعض شركائنا في التحالف. وهيأت لصدام حسين فرصة دعائية. ولم تحظ المبادرة بقبول عدد آخر من أعضاء وزارة حرب الرئيس وآخرين من أقرب معاوني.

ومثلما كان إعلان تعزيز القوة في ٨تشرين الثاني نوفمبر نقطة التحول في الحشد العسكري والقرار ٦٧٨ مفتاح دعم التحالف الدولي، أصبح اجتماعي مع طارق عزيز نقطة تحول في بناء الإجماع الداخلي: وعقب الاجتماع سيفوض الكونجرس الرئيس في استخدام القوة، وسيضع التحالف اللمسات النهائية وسيبدأ الجيش في التحرك.

عرض بيكر إلي بغداد، عزيز إلي واشنطن

حتي أواخر تشرين الثاني نوفمبر لم نكن قد حققنا إجماعاً داخلياً وراء استخدام القوة. وعقب تصويت الأمم المتحدة وجد الرئيس نفسه في موقف غريب. فقد كان مقتنعاً كل الاقتناع بضرورة شن الحرب إذا لم ينسحب صدام حسين بحلول الخامس عشر من كانون الثاني يناير. لكنه عاجز حتي الآن عن جمع الكونجرس والرأي العام بثبات حوله.

وعقب محادثتي مع الرئيس بعد تصويت الأمم المتحدة في ٢٩تشرين الثاني نوفمبر استقبلت وزراء خارجية الدول الخمس دائمة العضوية علي عشاء في فندق والدورف إستوريا. كان العشاء قاصراً علي وزراء الخارجية فقط. فلا عاملين باستثناء المترجمين. وهدفي من إقامة العشاء هو توجيه الشكر إلي شيفرنادزة وهيرد وديما لصمودهم وممارسة قدر من الضغط القوي علي تشيان لاستمرار موافقته واستشراف خيارات المستقبل المتاحة.

وتحققاً من مأساوية اللحظة انهمكنا في بعض المزاح ونحن نتناول الكوكتيل أثناء انتظار وصول تشيان. وقال ديما مازحاً: «إننا سعداء لعدم تولي دوجلاس رئاسة الوزارة. لأننا لا نريد فض مجموعتنا التي أبلت بلاءً حسناً». ورد هيرد: «أعتقد أن الكي جي بي لها دخل في الأمر أليس كذلك؟» ورد شيفرنادزة بوجه جامد: «لن أقول الآن. ولكن عندما أكتب مذكراتي سيحتوي علي قول الكثير» ومع خفوت الضحك أعاد شيفرنادزة دفة الحديث إلي الأرض الجادة التي يتعين علينا أن نتوصل لحل لها: وهي كيفية تجنب نشوب الحرب التي حصلنا علي إجازة لشنها: «علينا أن نتكاتف معاً. لأن صدام يعرف كيف يلعب علي ما بيننا من تناقضات. إنه خطير لا يمكن توقع تصرفاته».

وأضاف ديما: «يجب علينا أن ندعه يعرف حقيقة مشاعرنا. لقد تلقيت معلومات ولدي الآن انطباع بأن معاونيه لا يطلعونه بالقدر الكافي. فهذا دأب كل ديكتاتور. فهو لا يريد أن يسمع ولذا لا يتم إبلاغه بالكثير».

وقال هيرد: إن دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة «يعمل في غموض» لكنه يعتزم القيام بزيارة العراق في غضون أسبوع. وكنت أعتقد أن من المهم تأييد مهمته. وقلت: «انظروا. إننا نعرف أنه للأسبوع الأول سوف يضرب صدام صدره وينتقد القرار. فرولان يقول إنه يشعر بأنه لا يتم إطلاع صدام بالقدر الكافي، ويقترح احتمال أن يسلم دي كويار نسخة من القرار رقم ٦٧٨ لصدام مباشرة».



وتشكك شيفرنادزة «ربما كان الوضع كذلك. لكنني لا أفكر هكذا. إنني أعتقد أنه يفهم ويعرف حقيقة ما يدور. نعم، ربما يحيط به المتملقون لكنه يعرف حقيقة ما يجرى في العالم. إنه يعرف اللعب علي التناقضات بيننا. وهكذا فعلينا أن نتفق نحن الخمسة فيما بيننا. علينا أن نقول هذا عبر السكرتير العام للأمم المتحدة أو آخرين لكن المهم أن يعرف صدام تماماً أننا نحن الخمسة نتصرف في توحد».

وما إن فرغ من هذه الكلمات حتي ألقي على طاولة العشاء فكرة لم نفهم عنها شيئاً سلفاً فكرة اعترف بأنه لم يبحثها مع جوربالشوف. وعرض اقتراحه قائلاً: «لماذا لا نعقد قمة لرؤساء الدول الخمس دائمة العضوية قبيل بضعة أيام من انتهاء مهلة الخامس عشر من كانون الثاني يناير». وأبدي هيرد تشككه، وتدخل قائلاً: «علينا أن نعرف ماذا نتوقعه من قمة من هذا القبيل». ورد شيفرنادزة: «إن مجرد حقيقة إمكانية عقد هذه القمة سيرتب آثاراً هائلة. يجب التفكير فيه. إننا في حاجة لتلقي تعليمات من زعمائنا».

وارتأي ديما في الاقتراح طريقاً لضمان عدم انشقاق الصينيين علينا مرة أخري. وببراعة اقترح احتمال عقد هذا الاجتماع في بكين. وهو اقتراح يستهدف بالتأكيد إرضاء غرور الصينيين. وإذا لم يتيسر إقناع الزعماء. فيحتمل أن يتعين علينا نحن الخمسة الاجتماع في الصين لإصدار إعلان مشترك».

وأصر شيفرنادزة علي القول «بأن اجتماع القمة سيكون في حاجة لإعطائه تطمينات بأن أحداً لن يهاجمه. فالأمر يستحق بحق التفكير فيه. فإذا انسحب وإذا أظهر زعماء دولنا الخمسة احتراماً له فسوف يصون شغاف كبريائه».

كانت هذه واحدة من المرات القلائل أثناء الحرب التي أشعر أن شيفرنادزة يخدع نفسه. فعبر وساطات كثيرة أوضح العراقيون رأيهم بأنهم يخشون تعرضهم للهجوم حتي إذا بدأوا الانسحاب. وكنت أعتقد أنها خدعة جوفاء أخري يقوم بها صدام لكسب الوقت بإقناع التحالف بأنه سينسحب. وقلت بحدة: «إن هذا ليس مجرد انقاذ لماء وجهه. بل إنه إنقاذ لمؤخرته». وجلس تشيان صامتاً طيلة الحوار. ثم قال: «إن صدام يريد مكافأة علي انسحابه من الكويت. ويريد ضمانات بعد هذا. إنه يريد ضمانات بأن أحداً لن يهاجمه. إنه خائف من

الحرب» . وأكد تشيني اهتمامه بإجراء مباحثات مباشرة بين الولايات المتحدة والعراق لتوجيه الرسالة بأنه إذا انسحب صدام فإن قواته المنسحبة لن تتعرض لهجوم التحالف.

وقال هيرد: «إن صدام يخشي أولاً وأخيراً الولايات المتحدة ورئيس المملكة المتحدة أو فرنسا أو للعربية السعودية» . واقترح أن يوجه الرئيس تعهداً بضمان سري في هذا الصدد لبغداد علي أن يتم البدء في ترديد نفس الشيء علناً لثلاثة أسابيع قبل انتهاء المهلة .

وقال شيفرنادزة: «لاأزال أعتقد أنه سينسحب من الكويت. ويتعين أن يذهب السكرتير العام إلي بغداد. ثم نعطيه جميعاً نفس الرسالة بشكل منفرد. (بأنه لن يهاجَمْ إذا انسحب من الكويت ثم نرسل جميعاً في الأول من كانون الثاني يناير بنفس الرسالة سوياً) .

وأبدي ديما موافقته، وقال: هل هناك ضمان أفضل بأنه لن يتعرض للهجوم أفضل من سماعه من الدول التي تقود مجلس الأمن؟ وعليه أن يأمل في أنه سينجو بالمصير الكامن فيما نقدمه له اليوم» .

وانتهي عشاؤنا دون التوصل إلي نتيجة حاسمة شأن الكثير من العشاء الدبلوماسي بدون خطة عمل حقيقية سوي الاتفاق علي تبادل المشاورات خلال الأيام القادمة . وكان من الواضح أن أحداً لا يعتزم السماح بأن تتحول الأيام الخمسة والأربعون الباقية «كمهلة السلام» إلي فترة توقف حقيقية في دبلوماسية معالجة أزمة الخليج. ومن جانبي اعتقدت أن اجتماعاً بين الدول الخمس دائمة العضوية والمراقبين ينطوي علي مغزي هام لكنها فكرة لا ينصح بها، بصفة تؤدي إلي فقدان السيطرة علي جدول الأعمال الدبلوماسي. ففي مثل هذا الاجتماع ستتعرض الولايات المتحدة بالتأكيد لضغوط للعدول عن القرار الذي أقره مجلس الأمن بالكامل لتوه.



وفي اجتماعنا صباح الثلاثين من تشرين الثاني نوفمبر في المكتب البيضاوي أبلغني الرئيس أنا وسكوكروفت أنه يشعر بأن عليه التزاما بتقصي احتمالات إجراء مباحثات مباشرة

مع العراق، وأن صيغة مثل هذه المباحثات تراود عقله لعدة أسابيع. واستبعد فكرة عقد اجتماع مع صدام نفسه، لكنه مستعد لاستقبال طارق عزيز، وأنه يريد مني الاجتماع مع صدام حسين. وقال الرئيس: «إذا خاف من الموقف منك أنت فسوف يعرف أن التهديد حقيقي».

كانت فكرة اجتماع «الفرصة الأخيرة» على مستوى رفيع يروج لها في واشنطن بأشكال مختلفة. قبل ثلاثة أيام اقترح لي هاملتون أحد أشكالها. وكان اقتراح الرئيس حسبما تعي الذاكرة – إن لم يكن توقيته شبه متوقع فالمباحثات المباشرة هي التعبير الأخير عن النمط الشخصي لجورج بوش في الدبلوماسية والسياسة. أما وقد اجتمع مع كل من تاتشر وميتران وجورباتشوف وفهد ومعظم رؤساء الدول الآخرين المشاركين في التحالف، فإنه يريد الآن إعطاء دفعة شخصية أخيرة مع الخصم.

ومضى الرئيس إلي القول إنه إذا شاهد صدام حسين جلسات استماع الكونجرس في شبكة سي إن إن فربما شك في صدق عزيمتنا ووافقته، ففي الحقيقة وخلال جلسة مجلس الأمن في اليوم السابق استشهد مندوب العراق لدي الأمم المتحدة بأقوال السيناتور بوب كيري من نبراسكا، والتي ورد فيها أن تحولنا إلي استخدام القوة «خطأ يهدر احتمالات إقامة نظام عالمي جديد لصالح تكتيكات وأساليب النظام القديم. وبدلاً من الاعتماد علي الدبلوماسية والتعاون والتنظيم متعدد الأطراف لتدفق الأسلحة. سوف نلجأ أساساً للاعتماد علي القوات الأمريكية ومبيعات الأسلحة الأمريكية». فضلاً عن ذلك فإن صدام ربما يكون قد أخطأ قراءة التاريخ. إنه مأخوذ بتجربتنا في فيتنام، وإنه مثل حافظ الأسد يعتقد أن انسحابنا من بيروت عقب انفجار ثكنات مشاة البحرية في بيروت في تشرين الأول أكتوبر عام ١٩٨٣ أظهر «أن نفس الأمريكيين قصير» وعلي نقيض الأسد كان صدام يريد اختبار هذه الفرضية بطريق مثير ينطوي علي مغامرة كبيرة.

وواصل الرئيس حديثه بالتأكيد علي الكيفية التي سينظر بها التاريخ لأفعاله، ومع اقتراب الحرب كان يعكس بقدر متزايد كيف سيتم الحكم علي أفعاله، ولاسيما ما إذا كان قد بذل قصارى جهده لتجنب اندلاع الحرب. كان بوش ملتزماً تمام الالتزام بالحرب إذا اقتضت

الضرورة، وقد عبر هذا الحاجز الشخصي قبلنا جميعا. فالذهاب إلي الحرب هو آخر ما سعي إليه. فكل ما كان يهدف إليه حقاً هو خروج العراق من الكويت. وبينما أنا أصغي لحديث الرئيس ذكرني بحديث في هلسنكي في أيلول سبتمبر عندما أبلغنا جميعا أنه وضع رجالنا ونساءنا في الصحراء، وأنه هو المسؤول أخيرا – وأنه لن يعرض أرواحهم للخطر مالم يضطر إلي ذلك.

وأحسست أن الاقتراح ينطوي علي ثلاث ميزات بديهية. **أولها** أنه سيمنحنا آخر فرصة دبلوماسية لتجنب الحرب. فإن اجتماعاً مباشراً ربما يزيد ضروراته السياسية والنفسية التي قد تدفع صدام إلي الإنسحاب. فبالتأكيد سوف يمنحه فرصة يمكن أن يستغلها لتجنب الحرب إن كان يريدها. وإذا لم تنجح في إقناع صدام بالانسحاب في المفاوضات المباشرة حينئذ فلن يستطيع أحد التشكيك في أننا بذلنا قصارى جهدنا. وسوف يساعدنا هذا في التعامل مع السوفيت والآخرين المترددين في استخدام القوة. وفي موسكو بشكل خاص سوف تعطي مبادرة الرئيس تفسيراً لجورباتشوف بأن بوسعه تلجيم المتشددين مثل بلحوفي بريماكوف الذين يحاولون التدخل في الخط الصارم الذي اتخذه شيفرنادزة تجاه إعمال قرارات الأمم المتحدة.

ثانيها سوف يساعدنا هذا الاقتراح داخلياً. فلو اجتمع الرئيس بطارق عزيز، وذهبت أنا لبغداد فلن يجرؤ – حتي منتقدونا – علي القول إننا لم نقطع ما قال الرئيس مراراً: «إنه الميل الأخير في نحو السلام» ومع وقوف الأمم المتحدة ورائنا بحزم لن يجرؤ عضو في الكونجرس بصدق علي معارضة الحرب إذا لم تقنع هذه الاجتماعات رفيعة المستوي في حمل العراق علي الانسحاب من الكويت. وللمفارقة، فبوسعنا بمجرد عرض عقد مثل هذه الاجتماعات أن نأمل في ضمان تحقيق الإجماع الداخلي الضروري لشن الحرب.

وأخيراً سيُظهِرُ الاقتراح أننا نفعل شيئاً آخر لا مجرد الإعداد للحرب مع اقتراب المهلة من نهايتها. كنت لاأزال مشغولاً تماماً بالحديث الذي دار الليلة السابقة في عشاء وزراء خارجية الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن حول اجتماع رفيع المستوي للأعضاء الخمسة دائمي العضوية في المجلس. وأحسست أنه بدون مبادرة دبلوماسية من جانبنا

فسيكون من الصعب الحفاظ على تماسك ووحدة التحالف الدولي في وجه الاقتراحات المطروحة من مختلف أنحاء العالم للتوصل إلى تسوية سلمية –ومعظمها سيتضمن بالضرورة تخفيف قرارات الأمم المتحدة.

❑ ❑ ❑

وتضخم قلقي من حدوث جمود في وقت سابق من صباح اليوم عندما ظهرت في برنامج «صباح الخير أمريكا» الذي تبثه شبكة إيه بي سي. وقبل أن أظهر على الهواء سمعت السكرتير العام للأمم المتحدة يؤكد في حديث أنه يتعين عدم إهدار أي فرصة لإحلال السلام في الفترة المتبقية على يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير. ورداً على سؤال تشارلي جيبسون عما نحن بصدد عمله في الأيام السابقة على الخامس عشر من كانون الثاني يناير قلت «إن هذا لا يعني أننا سنتهمك في خمسة وأربعين يوماً من الاسترخاء.. لكنه يعني أننا سنعيش خمسة وأربعين يوماً في بذل جهود شاقة وأمينة وجادة بحسن نية في محاولة للتوصل إلى تسوية دبلوماسية وسياسية وسلمية لهذه المشكلة». والآن ونحن في المكتب البيضاوي تأكدت أننا إذا أخذنا زمام المبادرة يمكننا السيطرة على أي مباحثات رفيعة المستوى. أما وقد جاهدنا للحفاظ على تماسك التحالف شعرت بالقلق من أن حدثا آخر قد يتدخل لإحداث أثر عكسي على التحالف، ومن ثم يقلص مساحة قدرتنا على العمل.

فخمسة وأربعون يوماً يمكن أن تكون دهراً.

وتملكت العصبية سكوكروفت من الفكرة. وتمثل قلقه المعلن في أن مثل هذا النهج الشخصي قد يستغل من جانب صدام، وقد يساهم في تعقيد أو تأجيل التخطيط العسكري. وتساءل: «ماذا نفعل، إذا سحب بضعة آلاف من جنوده وعرض الانسحاب إذا فعلنا نفس الشيء؟». وعلمت فيما بعد أن القلق ساوره مع آخرين أنه بمجرد أن أذهب للتباحث مع صدام حسين – مع كل هذا التركيز العالمي على اجتماعي – فسوف تقودني غريزتي الطبيعية للتفاوض والعودة بحل وسط. وفي هذه النقطة كانوا على خطأ تام. فمنذ البداية كنت من

انصار وجهـة النظر القائلة بأنه لا يجب علينا ولا يمكننا التفاوض –حقا – حول التراجع عن قرارات مجلس الأمـن التي عملنا جاهدين لاستصدارها. فمصداقية الولايات المتحدة في خطر.

ورغم معارضة سكوكروفت الصامتة قرر الرئيس المضي قدماً في عرضه. وعكف ثلاثتنا بسرعة في إعادة صياغة بيان كان الرئيس قد أعد مشروعه شخصياً الليلة الماضية. وللتأكد من عدم وجود تلميحة واحدة عن استعدادنا للتوصل إلى حل وسط مع صدام أضفت العبارة التالية إلي مشروع البيان، «لكن دعنا نكن واضحين عما لن نتحدث عنه – وهو التراجع عن قرارات الأمم المتحدة». ليس هناك ما نحن مستعدون لعمله لصدام حسين ما لم ينسحب العراق. فلا يمكن أن تكون الولايات المتحدة قد قادت الزمام في الأمم المتحدة لاستصدار قرارات مجلس الأمن ثم تلتف حولها وتخففها من جانب واحد في مفاوضات مباشرة مع العراقيين.

وفي الساعة الحادية عشرة صباحاً توجه الرئيس إلي قاعة المؤتمرات الصحفية بالبيت الأبيض، وأعلن أنه مستعد للقاء طارق عزيز في الأسبوع الذي يقع فيه العاشر من كانون أول ديسمبر، ثم يرسلني إلي بغداد للقاء صدام حسين «في وقت مناسب للطرفين» ما بين الخامس عشر من كانون الأول ديسمبر حتي الخامس عشر من كانون الثاني يناير١٩٩١ أي في نهاية المهلة التي حددتها الأمم المتحدة للانسحاب العراقي. لن تكون هناك تنازلات لإغراء صدام للانسحاب من الكويت، ولن تصدر إيماءات لإنقاذ ماء الوجه. فالانسحاب غير المشروط هو البديل الوحيد للحرب. فعرضه مجرد محاولة أمام العالم هذه المرة «لقطع الميل الإضافي نحو السلام» لأن جورج بوش يعرف دونا عن أي أحد آخر أننا مدينون لرجالنا ونسائنا البواسل في الخليج وعائلاتهم في الوطن بأنه لم يترك حجرا إلا وقلبه بحثاً عن تسوية سلمية.

النتيجة : التضارب مقابل الإجماع

أثار إعلان الرئيس التناقضات بين متطلبات التحالف الدولي وبين تحقيق إجماع داخلي. ولم يكن وقع القرار جيداً لدي بعض أصدقائنا الذين شعروا بالضيق لعدم استشارتهم

سلفاً وتساءل بعض شركائنا فى التحالف عما إذا كانت مهلة الخامس عشر من كانون الثانى يناير مهلة حقيقية، وساهم المرض فى إثارة تكهنات بين العديد من حلفائنا الأوربيين والعرب بأننا لا نريد حقيقة استخدام القوة، وأننا نتطلع جاهدين لتجنب هذا الطريق.

وخلقت الحاجة إلي السرية أجواء تضارب استغرقت منا بضعة أيام لتبديدها. ويحتمل أن يكون من الحقيقي أن صدام أساء تفسير مبادرتنا واعتبرها مؤشر ضعف.

وفي الوقت نفسه فقد أعادت المبادرة طمأنة حلفائنا الذين يتسمون بالحذر مثل السوفيت والفرنسيين بأننا غير مندفعين في تهور نحو الحرب. ومكنتنا أيضا من القول بأنه لا يجب غل يد الرئيس بواسطة الكونجرس قبل مابدأت في وصفه، آخر أفضل فرصة للسلام.

ومن بين حلفائنا كان السعوديون والكويتيون أكثر قلقا بشكل خاص خشيه أن تؤدي المباحثات إلي السيناريو الكابوس بانسحاب صدام من الكويت وآلته العسكرية سليمة. وكانوا غير سعداء أيضا لعدم إخطارهم مسبقا. وبعد ثلاثة أيام من الإعلان عن المبادرة اجتمعت مع وزير الخارجية الكويتي والسفير الصباح بمقر الخارجيه الأمريكية لطمأنتهما بأنه ليست لدينا أي نية للتراجع. وأبلغته بأن الحاجة لالتزام السرية كانت عنصرا بالغ الأهمية لدرجة أنني لم أبلغ الأعضاء الخمسة دائمي العضوية في مجلس الأمن سلفا. وتراجع قلقه بعض الشيء عندما أبلغته – أنه رغم رغبتنا في التوصل إلى تسوية سلمية، فإن إحساسي الخاص يقول إنه ربما نضطر لاستخدام القوة.

وداخليا روع الاقتراح الكونجرس. وذُهل الديمقراطيون الذين استماتوا فى معارضة الحرب: فكيف يمكنهم معارضة رئيس يؤيده تحالف دولى غير مسبوق ويرغب فى الإقدام على مثل هذه المقامرة الكبيرة من أجل السلام؟. وكنت أعرف أيضاً أن الاقتراح عمل لإصلاح الضرر الناجم عن جلسات الاستماع فى الكونجرس التى رأسها سام نان والتى شهدت أيضاً إدلاء ويليام كروى رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة السابق بمعارضة استخدام القوة. وظهرت أول بادرة عن أن الاقتراح ولد زخماً وراء مسعى الرئيس فى اجتماع عقد بعد الظهر مع قيادة الكونجرس فى غرفة الحكومة بالبيت الأبيض. وأثارت قيادات الكونجرس خلال الاجتماع عددا من الأسئلة – غير أن كل القيادات فى الكونجرس تقريباً أشادت بالرئيس سراً، والأهم أن هذه الإشادة صدرت علناً عندما التقوا مع الصحافة.

ويوضت المسئولون تماماً كأسواق المال التي شهدت تقلباً كبيراً نتيجة هذه الأنباء. ولم يعرف أي من أقرب معاوني شيئاً عن الاقتراح سلفاً. وكالمتوقع لم يشعروا بالسعادة نتيجة استبعادهم من عملية صنع القرار. وساورتهم الشكوك تجاه الاقتراح. وحذر بوب كيميت من أن غياب التحديد في البيان سيعزز الانطباع في بعض الدوائر بأننا نتراجع. واعتقدت مارجريت تاتويلر أنه اقتراح غير مفيد. وقالت إذا اندلعت الحرب ستُلْقَى عليك مسؤولية الفشل الدبلوماسي. وحتي إذا تفاوضت حول انسحاب غير مشروط مع العراق سوف يتهمني البعض بالتفريط للديكتاتور. ولم يعرف دينيس روس شيئاً عن الاقتراح أيضاً، وعندما سمع أخباره قال لي إنه خطأ فادح. واعترف بأن المبادرة نفسها جيدة، ولاسيما من زاوية الحاجة إلي حشد تأييد داخلي لسياستنا. «لكن فكرة المدة من ١٥كانون الأول ديسمبر حتي ١٥كانون الثاني يناير فكرة خطأ. فسوف يقول العراقيون: إن يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير موعد جيد ومن ثم يبددون مهلتكم». وكنت قد أدرجت عبارة «موعد مناسب للطرفين» في بيان الرئيس اعتقاداً بأنها تقدم لنا مخرجاً. ومن الغبي القول إن موعداً قريباً من موعد انتهاء المهلة لا يلائم الطرفين. وواصل روس إصراره بالقول: «إنهم سيبحثون عن موعد متأخر للغاية، وسيفطنون ذلك لتفريغ المهلة من مضمونها» وكنت أشجع العاملين معي دائما علي الحديث صراحة. لكن لم استسع أن يقال أن رئيس الولايات المتحدة والمسؤولين الاثنين الكبار عن السياسة الخارجية قد ارتكبا خطأ جسيماً. ومع ذلك فقد خلصت إلي أن روس مصيب في نقطة التوقيت. وفي غضون الأسابيع القليلة القادمة أعددنا التركيز علي الاستراتيجية، وقدمنا الجدول الزمني المقبول قبيل إنهاء المهلة للتأكد من أن العراقيين يعرفون أن موعد الخامس عشر من كانون الثاني يناير موعد حقيقي لا يمكن العدول عنه.



وعلي مدار الشهر التالي ناور الجانبان لتحقيق مميزات دبلوماسية. وبعد يومين من المؤتمر الصحفي للرئيس قبلت الحكومة العراقية اقتراحه لإجراء المباحثات. وفي ٣كانون الأول ديسمبر وافق العراقيون علي اقتراحنا بأن تكون المباحثات ثنائية وبمطالبتنا بأن تكون

المشاركة محدودة، وسرعان ما أحبطنا اقتراحاً عراقياً أن تشمل المباحثات مندوبين عن الفلسطينيين. وفي ٦ كانون الأول ديسمبر، وفي تحرك محسوب لإضعاف الإجماع الدولي وراء استخدام القوة بدأ صدام في إطلاق سراح الرهائن الأجانب في العراق والكويت، ومن بينهم ألفي رهينة غربية. أما وقد وجه إيماءة مثيرة تهدف إلي إظهاره كرجل مسؤول بدأ صدام يضغط علينا مرة أخري لإجراء مباحثات موسعة لبدء حوار حول قضايا الشرق الأوسط يستهدف تحويل البحث من «الكويت» إلي «فلسطين» وقد لجأ إليه طيلة الأزمة. ورفضنا مجددا. كان الموضوع الوحيد المقبول للمباحثات هو انسحاب العراق من الكويت.

وتصاعدت حدة التوتر مع مرور الوقت وأرادت بغداد أن ألتقي صدام في ١٢ كانون الثاني يناير – أي قبل ثلاثة أيام فقط من انتهاء المهلة. وقبلنا اقتراحهم بأن يزور طارق عزيز واشنطن في ١٧ كانون الأول ديسمبر. لكننا استبعدنا يوم الثاني عشر كموعد لزيارتي. ولإظهار مرونتنا اقترحنا خمسة عشر موعداً بديلاً ما بين العشرين من كانون الأول ديسمبر حتي الثالث من كانون الثاني يناير بما في ذلك يوم أعياد الميلاد. وكان هذا خداعاً لأنني كنت مستعداً للاجتماع في وقت متأخر نسبياً لو اقتضت الضرورة. لكنني كنت آمل أن بياني سيشكل ضغطاً علي بغداد.

وفي ١٤ كانون الأول ديسمبر أعلن الرئيس أن الاجتماع مع عزيز «سيمتد». وعنف صدام لمحاولته التلاعب بالمفاوضات. وصرح للصحفيين «بأنه يستطيع أن يري جون كونالي، ومحمد علي ، وتيد هيث بمجرد طلب المقابلة بعد خمس عشرة دقيقة. لكنه لا يملك ساعة أو ساعتين بين العشرين من كانون الأول ديسمبر والثالث من كانون الثاني يناير ليستقبل وزير خارجية الولايات المتحدة». وفي اليوم التالي قرر صدام إلغاء زيارة عزيز إلي واشنطن قائلاً: «إنه إذا أرادت الولايات المتحدة استغلال الاجتماعات لتكرار قرارات الأمم المتحدة فلا داعي للذهاب».



وعلي مدار الأسبوعين التاليين تمسك الطرفان بموقفيهما. وفى أول أيام العام الجديد جمع الرئيس كبار مستشاريه علي العشاء. وكنا متفقين علي أن فكرة اجتماع قمة بين الدول الخمسة دائمة العضوية فكرة غير جيدة. لكن ما وصفه الرئيس فى دوائره الخاصة بمبادرة «وطن روطن» لم تناقش مطولاً. ومع هذا كنت أعرف أن لديه أفكاراً ثانية حول إرسالى إلي بغداد. وخلال اتصال بى بعد الظهر لتهنئتي بالعام الجديد أبلغنى أنه يشعر بالقلق من احتمال أن يفسر حلفاؤنا الاجتماع مع صدام بأنه محاولة للتوصل إلي صفقة. ورددت بأنه يتعين علينا إبقاء خيار بغداد قائماً لفترة. وخلال الأسابيع القليلة المتبقية علي انتهاء المهلة أحسست أنه من الضرورى لأهداف داخلية أن ينظر إلينا علي أننا نبذل محاولات إضافية للتوصل إلي تسوية.

وسويت هذه التناقضات بين احتياجاتنا الدولية ومتطلباتنا الداخلية صباح اليوم التالى فى اجتماع ضم سكوكروفت وسونونو وأنا فى حجرته الصغيرة المجاورة للمكتب البيضاوى. وقال الرئيس إنه يستبعد اجتماع بغداد. ومع ذلك ففى اليوم التالى الثالث من كانون الثانى يناير أعلن علي الملأ استعدادى للقاء عزيز فى جنيف فى أى من السابع أو الثامن أو التاسع من كانون الثانى يناير. ووافق العراق، وسألتقى بعزيز فى جنيف فى التاسع من كانون الثانى يناير. وأسرتنى فكرة الاجتماع مع صدام. لكن عندما استقر رأينا أخيراً علي جنيف كحل وسط لم تصبنى خيبة أمل كبيرة – وبعد بضعة أيام من اقتراح الرئيس فى ٣٠ كانون الأول ديسمبر أتصل بى الأمير بندر وأشار علي بأن بغداد هي آخرمكان كان يحسن أن أفكر فى زيارته. وقال: «لابد وأن تكون مجنوناً لتذهب إلي هناك. فلن يتورع هذا الرجل عن احتجازك رهينة». كان بندر مقتنعاً بأنه إذا تم إقناع صدام حقيقة فسوف نلهث خلفه لأن هذا الرجل لا يلتزم بأى قاعدة. وكنت لاأزال أعتقد أنه من المستبعد تماماً أن يُقْدِمَ علي فعلة من هذا القبيل. فربما يكون صدام غير رشيد لكنه يدرك تماماً أن احتجازى رهينة سيمطر علي رأسه جام غضب وانتقام حكومة الولايات المتحدة. وتأكد رأيى بعد أسبوع عندما بدأ صدام فى إطلاق سراح الرهائن الغربيين. كان بندر يريد منى ألا أذهب فى المقام الأول. فالسعوديين لا يرغبون فى التوصل إلي حل وسط يترك جيش صدام سليماً. فقلقه لم يشكل مخاطرة كبري فى رأيى ولم يكن له أى دور فى قرار عدم لقاء صدام. لكننى أود الاعتراف

بأن تحمسي للذهاب إلي بغداد قد تراجع إلي حد ما بعد حديثي مع بندر، وخاصة أن روس أثار نفس القلق. ففي ضوء محاولة اغتيال الرئيس بوش في الكويت في آذار مارس ١٩٩٣ التي دبرها صدام، فربما أكون قد أعطيت صدام مصداقية تفوق ما يستحقه بكثير.

❑ ❑ ❑

وبعد ظهر اليوم الذي وافق فيه العراق علي عقد اجتماع جنيف اجتمعت مع أبريل جلاسبي لأعرف رأيها قبل اجتماعي مع عزيز. وأثناء الحديث أعادت رواية قصة معبرة عن دعوتها مع دبلوماسيين آخرين إلي موقع بناء سد في شمال العراق. وتفوه صدام بتعليقات ازدراء بالعمال الفيتناميين الذين يعملون في بناء السد ووصفهم بالدونية. وتعجب قائلاً: «هؤلاء هم الذين هزموا الأمريكيين». وخلال أشهر الأزمة الأربعة لمسنا أدلة متكررة عن عقلية صدام هذه. فقد كان يعتقد أن فيتنام قضت علي الروح الأمريكية لدرجة أننا لن نقاتل مرة أخري مطلقاً.

«عمل جيد ونتيجة بالغة الســوء»

وصلت إلي جنيف بعيد الساعة التاسعة مساء الثامن من كانون الثاني يناير منهكاً من اليوم الذي قضيته في لندن وتوقفي في باريس وبون وميلانو. ومن الطبيعي أن يكون في استقبال وزير الخارجية الأمريكي لدي وصوله إلي جنيف سفيران أمريكيان يعملان هناك: وهما سفير الولايات المتحدة لدي سويسرا ومندوب الولايات المتحدة لدي المقر الأوروبي للأمم المتحدة. ومع ذلك فلم نكن نريد أن يثير اختيار جنيف كمكان لعقد الاجتماع أجواء «الأمر كالمعتاد» ولذا اتصلنا بهما وطلبنا منهما عدم استقبالي بالمطار. ومع وصول موكبي إلي فندق انتركونتيننتال استقبلتني مجموعة من مناهضي الحرب تقف في زاوية عبر الشارع، فهكذا

السويسريون في احتياطهم وسلوكهم لدرجة أصبح فيها المشهد سيرياليا. وظهرت السريالية في الداخل أيضاً. فقد أطلت حمامة خشبية ضخمة يتدلى من منقارها غصن الزيتون علي الباب الرئيسي للفندق وآلاف الصحفيين يتحركون لا يفعلون شيئاً بكل معني الكلمة سوي تبادل الشائعات.

وخلال الإعداد لهذا الاجتماع أردت أن أملك القدرة عند الضرورة لأحمل عزيز علي تقدير مدي الدمار الذي ستنزله الحرب بالعراق. ولذا فقد طلبت عندما كنت في لندن قبل ثلاثة أيام من هوارد جريفز إعداد ملخص غير سري لخطتنا للحرب والاستعداد لتقديمه خلال الاجتماع. وطلبت من البنتاجون أيضاً توفير ست صور بالأقمار الصناعية عن الأهداف المحتملة في بغداد لتكون مع جريفز عند الاجتماع. ومن الضروري أن تكون القيادة العراقية تدرك أنه لن يسمح للعراق بشن حرب استنزاف كتلك التي شنوها مع إيران لثماني سنوات. فسوف تحدد قواتنا لا قواتهم قواعد الاشتباك. ومع ذلك كان لدى ديك تشيني وكولين باول في اليوم السابق علي الاجتماع أفكار ثانوية. فقد ساورهما القلق من أن الاجتماع يكشف الكثير عن خطتنا التكتيكية. كان باول يشعر بقلق خاص من أننا إذا أفرطنا في الحديث عن الحرب الجوية فسوف يتحصن العراقيون مما سيعقد مهمتنا في تدمير تمركزات القوات العراقية ويطيل أمد الحرب. ونتيجة لذلك فقد مزقنا الصور التي التقطتها أجهزة تكنولوجية متقدمة. وكان عرض جريفز بالغ الحرص متحاشياً الخوض في أي تفاصيل قد تعرض قواتنا للخطر. ومع هذا كانت النسخة المعدلة التي عرضت عليّ في اليوم السابق علي الاجتماع تلخيصاً بارعاً لقدرة الجيش الأمريكي.

وأشار جريفز: «لديكم عددا كبير من منصات إطلاق صواريخ سكود ويمكننا تدميرها في عدة أيام. فنحن نعرف الوقت الذي تستغرقه إعادة تحميلها ونستطيع استهدافها بناء علي معرفتنا بمبادئ عملياتكم. نحن نعرف أن لديكم عشرة آلاف سلاح بري هجومي في المنطقة. ونعرف مناطق تمركزها. ونعرف أن لديكم ٢١٠٠ دبابة إنكم في حاجة لمعرفة أن بوسع دباباتنا أن تطلق النار بفعالية شديدة وهي تتحرك. ويمكننا رصد دباباتكم علي مسافة كيلومترين ويمكننا تدميرها ونحن نتحرك بسرعة نحو ستين كيلومتر في الساعة. وإذا لم تصدقوا ذلك فانتظروا لتروا» وقال جريفز إن بوسع مدافعنا بعيدة المدي في بعض سفننا «أن

تبيد تمركزات قواتكم، وأن صواريخنا من طراز توماهوك ليست مدمرة فحسب بل إنها بالغة الدقة لدرجة أنها تستطيع إصابة جزء محدد من مبني فى قلب بغداد بعد إطلاقها من سفنها المتمركزة فى الخليج. وشرح كيف يمكن أن تحلق طائراتنا الشبح دون أن يرصدها الرادار وكيف تستطيع أسلحتنا أن تدمر قدرتكم علي التحكم ونحن مستعدون لاستخدامها».



كان استعراضنا دقيقاً لقدرة التحالف علي معاقبة العراق. وقلت لجريفز: «دعنا ننتظر ونري كيف ستسير الأمور فإذا اتضح أنها مناقشات جادة فربما لا نحتاج إلي عرضكم. فلتكن علي استعداد كانت خطتى هي الرد بالمثل علي طارق عزيز. فإذا تحدث حديثا أجوفا ومواﻻً للقتال فسوف يسد جريفز ما فى حديثى من فجوات، وإذا ثبت أنه «شرطى مخلص» لصدام فإن محاضرة تهديد حول التفوق العسكرى قد يكون لها آثار عكسية.

والحقيقة كنت آمل أن يغير عزيز رأيه نتيجة ما سيسمعه مني. لكن لم تساورنى أية أوهام. فقد افترضت أن المباحثات لن تكون ناجحة وأنه فى غضون أيام سوف تنشب الحرب. كانت معظم بداية البيان المتشائم الذى أدليت به فى مؤتمر صحفى عقب الاجتماع قد أعد فى اليوم السابق علي الاجتماع. فلم يكن هناك سوي القليل الذى يبعث علي التفاؤل.

وفيما توجهت للنوم تردد صدي خافت لهتافات المتظاهرين المناهضين للحرب إلي غرفنا بينما الاستعدادات جارية للاجتماع. وتفاوض فريقنا المتقدم المؤلف من كارين جرومبر وكيم هوجارد وجودى بارنيس مع العراقيين حتي الساعة الثالثة فجراً حول مسائل البروتوكول بما فى ذلك حجم الأعلام التى ستوضع علي الطاولة. وحتي قبل أن تبدأ مباحثاتنا صباح اليوم التالى واجهت اختباراً دبلوماسياً. فمن المألوف أن تبدأ مثل هذا الاجتماع بالتصافح أمام الكاميرات لكننى كنت عازفاً عن القيام بذلك. ربما كان طارق عزيز يرتدى بدلة مصنوعة فى باريس ويتحدث الإنجليزية كخريجى أكسفورد. لكن هذه القشرة

تخفى رجلاً فجاً وبغياً محلصاً. وكنت لا أريد أن توحى مصافحتى بانطباع بأن هذا مجرد اجتماع روتينى آخر لوزيرى خارجية. كان الأمر يتجاوز ذلك بكل جدية. ولازال كل من عزيز وأنا دبلوماسياً محترفاً، ولا أريد أن أخلق أى هنة يمكن أن يستغلها البعض للإشارة إلي أننا غير جادين فى قطع الميل الإضافى. ولذا فقد قررت مصافحته بدون الابتسام، كانت نظرة الاشمئزاز واضحة.

ومع انتهاء لحظة التقاط الصور جلسنا للعمل فى قاعة الأمم بالفندق بالغرفة D وأمامى جلس عزيز وبجواره مجموعة أبرزها برزان التكريتى الأخ غير الشقيق لصدام حسين، وهو رجل يشتهر بوحشيته التى تدعمها سيرته. ولعب برزان دوراً حاسماً فى تصفية واحد وعشرين مسؤولاً كبيراً فى سعى صدام لتولى السلطة عام ١٩٧٩. ثم تولي رئاسة المخابرات حتي أواخر عام ١٩٨٣ عندما اختلف مع صدام حول مسألة عائلية. ولإزاحته عن طريقه نفي صدام برزان إلي سويسرا كمندوب دائم للعراق لدي المقر الأوروبى للأمم المتحدة حيث قام فى إحدي المرات بضرب سائقه فى حفل استقبال دبلوماسى بسبب تأخره فى إحضار السيارة، وما لبث برزان أن رد الاعتبار لنفسه عن طريق مفاوضاته السرية مع طهران لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية، وأيضاً بعمله فى شبكة الأسلحة السرية فى العراق. ولم يتفوه بكلمة واحدة خلال الاجتماع. لكنه تلقي أثنائه عدة مذكرات بواسطة عدد من أفراد بعثته فى جنيف، كما غادر الغرفة عدة مرات والمباحثات دائرة. وكان وجوده إلي جواره إشارة لا تخطئها العين بأن صدام يريد تقريراً مستقلاً عن الاجتماع، وإذا كان هناك ما يثير الشك فلابد وأن يكون جلوس المترجم الشخصى لصدام بجوار عزيز رغم أن وزير الخارجية يتحدث الإنجليزية بطلاقة. والواضح أن عزيز لن يخرج قيد أنملة عن تعليماته.



وبدأت الحديث، يليني جمال هلال مترجمى الجديد للعربية. وأعتقد أن فرصته الأولي فى الترجمة هي أهم فرصة، وأملت أن يثبت نفسه فيها، (وقد فعل).

لقد حضرت إلي الاجتماع دون أن تعلق بي أوهام. حتي إذا كان صدام قد خطط للانسحاب من الكويت فلن يقدم عزيز أي تفاصيل. وبدلاً من ذلك سيحمل معه مجموعة من أسئلة الاستقصاء ومقارعة الحجج - فالخدع الأولية للانسحاب مع الخطوات الفعلية يتعين أن تملأ في وقت لاحق بواسطة صدام نفسه. ولذا فلم أكن أطمح في الحصول علي اقتراح محدد. لكن كنت آمل الحصول علي خطوة في الاتجاه الصحيح رغم عدم توقعها ولم تأت تلك الخطوة مطلقاً.

وبطريقة الحوار الدبلوماسي التي زادها الزمن إجلالاً بدأ عزيز وأنا بالتعميمات. وقلت: «إن هذا اجتماع مهم آمل أن توافقني الرأي بأننا نجتمع كممثلين لدولتين ذات سيادة رغم خلافاتهما الجوهرية. ويجب ألا يكون هدفنا تبادل ممارسة الضغوط كل منا علي الآخر. ومع هذا ينبغي ألا تكون هناك مفاجأة في أنني هنا للتفاوض حول قرارات أقرتها الأمم المتحدة. إنني هنا لإجراء اتصال. لايشمل التباحث فقط بل الإصغاء أيضا. وآمل أن تشاطرني روح الرغبة في الحديث والإصغاء. وسوف أقبل بالنظام الذي تريده. لكن قبل أن تتخذ قرارك دعني أسلمك رسالة من الرئيس بوش إلي الرئيس صدام حسين وأطلب منك تسليمها. وأصل الرسالة في المظروف وها هي نسخة منها. وأخرجت الرسالة ودفعتها عبر الطاولة».

وفي اجتماعنا في بداية العام الجديد قرر الرئيس إرسال الرسالة كمحاولة أخيرة للاتصال بصدام مباشرة. ومع هذا كنا نشك في أن عزيز ربما يرفض تسلم الرسالة، وهكذا قررنا إرسال صورة منها في نفس الوقت إلي السفير العراقي لدي واشنطن. وتوصلنا إلي قرار بالإجماع أيضاً بوضع أصل الرسالة في مظروف مغلق وتسليم عزيز صورة منها. فلو كانت قد صدرت إليه أوامر بعدم تسلم الرسالة فسيقع تحت ضغوط شديدة لتجنب قراءة صورته.

وبدأ الحديث: «السيد الوزير شكراً. إنني آمل أن يكون هذا الاجتماع اجتماعاً مثمراً وطريق تحقيق هذا هو أن يصغي كل منا للآخر» وطلب إمهاله بعض الوقت لقراءة الرسالة.

وقال عقب فراغه من قراءة الرسالة: «السيد الوزير، قلتم إن هدف الاجتماع ليس ممارسة أي منا الضغط علي الآخر، لقد قرأت الرسالة إنها مليئة بتعبيرات التهديد. وفي

الحقيقة فإنها غريبة علي طريقة الاتصال بين رؤساء الدول فلا يمكنني قبولها. ربما يمكنكم نشرها في وسائل إعلامكم. وآمل ألا يتسبب هذا في عرقلة الاجتماع. إننا لم نتحدث طيلة الأزمة وشعبانا يتجهان نحو المجابهة وينعين بحث كل إمكانات التوصل إلي تسوية سلمية بين بلدينا».

وردت: «أريد أن أوضح أنني لا أعتبر هذه الرسالة غير مناسبة بأي شكل. إنها مهمة حتي يفهم كل منا الآخر بوضوح. ولا يمكنني أن أحملكم علي أخذ هذه الرسالة معكم ولن أحاول. ومع هذا يجب أن تعرف أننا ربما أو لاربما ننشرها وأنك الشخص الوحيد في جانبكم الذي يعرف محتواها. إنها تبدو مسؤولية جسيمة أن يأخذها المرء علي عاتقه. إذا كان هذا ما تريده فليكن». وسرت رعشة في يد عزيز وتركت رسالة الرئيس وصورة عزيز منها في منتصف الطاولة. وفي أول استراحة طلبت من كارين جرومبز وبرن مانزر رئيس الأمن القومي تركهما في مكانهما.

وقلت: «إن هدف اجتماعنا هو أن تتركوا الكويت وهذا هو الحل الوحيد الذي نقبله، وإذا لم تنسحبوا فسوف نجد أنفسنا في خضم المعركة. وإذا خضتم حرباً مع التحالف فسوف تخسرونها بكل تأكيد، فلن تكون هذه حرب استنزاف كتلك التي حاربتموها ضد إيران، وسوف نقاتلكم بكل الوسائل والأسلحة التي تعزز قوتنا لا قوتكم. إن لدينا الوسائل الكفيلة بأن نحدد نحن لا أنتم طبيعة المعركة التي سندخلها».

«إن هذا ليس تهديداً، بل إخطار لكم. قد تختارون رفضه أولا تثقون فيما نقوله، لكن علينا مسؤولية إبلاغكم بأن قواتنا تتمتع بمميزات تكنولوجية مذهلة، ووجهة نظرنا تتمثل في أنه إذا اندلعت الحرب فسوف تواجهون قوة نيرانية مطرقة مهلكة. ومن رأينا وربما ترفضوا أو تختلفوا إن قواتنا سوف تدمر قدرتكم علي إدارة شؤون بلدكم بل، وستدمر قدرتكم علي قيادة قواتكم.» «إننا ملزمون بأن نبلغكم بأنه لن يحدث جمود. فلن يكون هناك وقف لإطلاق النار بوساطة الأمم المتحدة أو فرصة لالتقاط الأنفاس لإجراء مفاوضات. فإذا بدأت الحرب فسوف تكون حرباً شاملة. ولن تكون هذه فيتنام ثانية، فإذا بدأت الحرب، لاقدر الله، فسوف تكون بفرص الوصول إلي نتيجة سريعة وحاسمة».

ثم تطرقت إلي نقطة: «في الجانب المظلم للقضية» الذي طلب مني كولين باول تحديداً التحدث عنها بأوضح عبارات ممكنة. وحذرت «من أنه إذا إستخدمتم الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية ضد قواتنا فسوف يطالب الشعب الأمريكي بالانتقام. ولدينا وسائل الانتقام، وفيما يتعلق بهذا الجانب من استعراضي فإن هذا ليس تهديداً بل إنه وعد. فإذا حدث استخدام لمثل تلك الأسلحة فإن هدفنا لن يكون مجرد تحرير الكويت، بل القضاء علي النظام الحالي في بغداد، وسيحاسب أي شخص مسؤول عن استخدام تلك الأسلحة».

❑ ❑ ❑

كان الرئيس قد قرر في كامب ديفيد في كانون الأول ديسمبر أن أفضل طريقة لردع العراق من استخدام أسلحة الدمار الشامل سوف تتمثل في توجيه تهديد بالقضاء علي نظام البعث نفسه، وقرر أيضاً ألا تنتقم القوات الأمريكية باستخدام الأسلحة الكيماوية أو النووية إذا استخدم العراقيون الأسلحة الكيماوية. ولم تكن هناك حاجة واضحة لإبلاغ العراقيين بهذا. وعلي أمل إقناعهم بالتبصر في شأن لمدي حماقة الحرب تركت لديهم الانطباع عن عمد بأن استخدام الأسلحة الكيماوية أو البيولوجية من جانب العراق سيستدعي حتماً انتقاماً نووياً تكتيكياً. (ونحن لا ندري ما إذا كان هذا هو السبب الذي يبدو أنه كان وراء عدم الاستخدام المؤكد للأسلحة الكيماوية من جانب العراق أثناء الحرب. ومن رأيي أن هذا الغموض المحسوب فيما يتعلق بكيفية ردنا المحتمل يشكل جانباً من هذا السبب).

وخلصت إلي القول: «بأن الحرب سوف تدمر كل شيء جاهدتم لبنائه في العراق، وسوف تثير بفضل عدم استعدادكم للانسحاب من الكويت صراعاً سيحول العراق إلي بلد ضعيف ومتخلف». وأعربت لعزيز عن قلقي بأن العراقيين علي وشك لارتكاب خطأ آخر في الحساب عن التصميم الأمريكي. وقلت: «هناك زعماء آخرون أساءوا حساب قدرة الديمقراطية الأمريكية علي القتال ودفعوا الثمن في النهاية. فلا تكرروا خطأهم. ولا تسيئوا تفسير مختلف الأصوات التي تسمعونها ضمن المجتمع الأمريكي. إن لدينا أقوي نظام حكم في العالم. فسوف تتوحد أمريكا لخوض الحرب إذا لم تدعوا لنا أي خيار آخر».

وعندما سعيت نحو تحويل هذا الجانب القائم على إلي جانب مشرق تدخل عزيز قائلاً ترغيب وترهيب: «وأشدت بحسن إدراكه مما انتزع منه ابتسامة نادرة « لقد أبلغت بقلقكم من احتمال تعرضكم للهجوم إذا انسحبتم أو لم تنسحبوا. دعني أكرر تطمينات الرئيس مباشرة لن تتعرضوا للهجوم» .

وكنت أذكره في الواقع بأن الأمريكيين لا يطلقون النار علي خصمهم في الظهر. واختتمت مداخلتي بالقول بأننا نريد قيام العراق والكويت بتسوية خلافاتهما سلمياً لكن بعد الانسحاب، وقلت إنني مسرور لإيفاد رئيسكم لكم إلي جنيف. فهذه آخر أفضل فرصة للسلام.



وبدلاً من الرد علي جوهر كلامي بدأ عزيز بطلب بالاحترام، وأحس وكأن مس النقص الوطني الذاتي قد أصابه أنه ملزم بالتأكيد علي أن بلاده لا يحكمها حمقي. وسوف يعود إلي هذه النقطة فوراً خلال الاجتماع.

وذكرني قائلاً «إننا نقود بلدنا منذ اثنتين وعشرين سنة ومتوسط عمر قيادتنا هو الخمسينيات فأنا في الخامسة والخمسين ورئيسنا في الرابعة والخمسين. وأعتقد أنك توافقني علي أن هذه سن ناضجة» . ولأنني تجاوزت الستين لم أستطع رفض هذه الفرصة لأعلق في سخرية «إن هذه سن الشباب» . وأخطأ عزيز فهم الدعابة بل وبدا عليه الغضب بوضوح، ورد بلهجة أكثرحدة بعد ان أعتبر هذا الكلام إهانة «هذا غير حقيقي» فالحكماء يقولون إن الحكمة تأتي بعد الأربعين.. إننا نعي تماماً ما يدور حولنا. فمنذ الثاني من آب أغسطس ونحن نتوقع إجراء عسكرياً أمريكياً ضد العراق. فالولايات المتحدة قوة عظمي ومؤخراً فقط باتت القوة العظمي الوحيدة في العالم. ولذا فعندما نتصرف كما نتصرف يجب ألا يساوركم أي شك في أن هذا السلوك من جانبنا ليس نتيجة جهل. إنكم بلد متقدم وإنكم حركتم أسلحة هائلة إلي المنطقة. إنني أطمئنكم بأننا نعرف مدي الفعالية والقدرة التدميرية لكل سلاح. إننا حكومة مجتهدة ونشيطة . فنحن نعمل بكد ونقرأ ونحلل ونتابع» . وأضاف: «لا تساورني أية أوهام عن

كلفة الحرب. إن أصغر أبنائي في الحادية عشرة. وكل ما يعيه في حياته هو الحرب والغارات الجوية والصواريخ الإيرانية. فالحرب غير غريبة علينا. وهناك آية في القرآن تصف الحرب بأنها أمر بغيض (كتب عليكم القتال وهو كره لكم). وهكذا فنحن نعي هذه الحقائق ونعرف تصميمكم على أن تكون الحرب مدمرة». «إنني أقول هذا بدون صلف رغم أن بعض بياناتكم تحتوي على إهانات، وسوف تظل القيادة الحالية تحكم العراق الآن وفي المستقبل. أما هؤلاء الذين سيختفون فليسوا في العراق بل بعض أصدقائكم في المنطقة»*.

وندد عزيز «بالوصف العربي» لبلاده بأنها دولة شمولية. وقال: «إن العراق بلد يعود تاريخه إلى ستة آلاف عام. وكم قامت على أرضه الممالك والإمبراطوريات والحضارات. لقد صمدنا أمام تحالفات مثل تحالفاتكم في الماضي، وسوف نصمد أطول من صمود تحالفكم. إننا لا نخشى أن تهاجمنا قوة متفوقة. فشعبنا لا يؤيدنا فحسب. بل إنه يحبنا. فشعبنا البالغ عدده تسعة عشرة مليوناً مقتنع بأنه بمجرد أن تبدأ الحرب بيننا فسوف ننتصر. أريد أن أقول إن الحرب لا تخيفنا أو تردع العراق. فقضية الحرب ليست قضية نخشاها نحن أو أنتم، وآمل ألا تخطئوا في حساب قدرتنا على تحمل كلفة الحرب». وتيقنت أنه سيكون من غير المجدي أن يعرض هوارد جريفز رؤيته المهلكة للصراع المحتمل.

ورفعنا الجلسة للاستراحة بعد ساعتين وخمس دقائق. ورغم عدم تحقيق تقدم كانت لهجة الاحتراف هي المسيطرة طيلة الاجتماع، واتصلت بالرئيس من جناحي لأبلغه تقريراً موجزاً وقلت: «لا يمكنني إبلاغك بشيء فلم نحصل على أي تحرك منهم حتى الآن. لكنهم في سبيل الخروج عن طريقهم المألوف لمحاولة إظهار أنهم مسؤولون. إنه لم يتسلم رسالتك لكنه قرأها. وأبلغته أيضاً أنني أتوقع من العراقيين أن يواصلوا تصلبهم.

وعلى الدرج انتاب السعار جيش الإعلام الذي كان يغطي وقائع الاجتماع. فقد استغرقت مباحثاتنا وقتاً أطول من المتوقع مما أثار شائعات عن حدوث انفراج كنا نعرف أنه

---

* بالطبع كان عزيز محقاً في هذا الأمر. فقد كان تهديدنا للنظام في العراق مرهوناً باستخدامه لأسلحة الدمار الشامل التي نعتقد أنه لم يحدث. ويضم الفصل ٢٤ مزيداً من التفاصيل عن قرارنا الحكيم بعدم دخول بغداد أو الإطاحة بصدام.

لم يحدث. لكننا كنا عاجزين عن إخفائه. فقد تقلبت أسعار البترول والأسواق المالية بينما شبكة سي إن إن تنقل وقائع الاجتماع على الهواء مباشرة لجميع أنحاء العالم. لقد كانت طريقة غريبة لإدارة الدبلوماسية لكنها حتمية في عصر الاتصالات الفورية.



وعندما عدنا إلى طاولة المباحثات في الساعة ٢,٣٠ بعد الظهر تعثرت بقية المباحثات في قضايا غير جوهرية إلى حد كبير. واشتكي عزيز مراراً من ازدواجية المعايير الأمريكية حيال إسرائيل. فإذا كان بوسع العدو امتلاك أسلحة نووية وكيماوية فللعراق كل الحق في امتلاكها. وتوقع بأن الحرب لو بدأت فسوف ينشق التحالف العربي قبل قتال أشقائهم. ووصف الرئيس مبارك بأنه «جاهل بتاريخ المنطقة» واشتكي من أن الأمم المتحدة تصرفت بشكل ظالم ضد العراق.

ووصف الغزو بأنه إجراء دفاعي ضد «تحالف بين الولايات المتحدة وإسرائيل وحكام الكويت السابقين لتدمير العراق». وفي نفس اللحظة ناقض نفسه بالتأكيد على «أن أحداث آب أغسطس وما تلاها لها صلة بنسبة مائة في المائة بالفلسطينيين». وها هو قد أعاد الربط بالقضية الفلسطينية مرة أخري. وقال: «إنها أم كل المشاكل. لقد كان هذا العنصر الذي أثار كل عدم الاستقرار في المنطقة» وقلت: «برغم روح الصراحة. فلن يقبل أحد في العالم تفسيركم – بمن في ذلك حلفاؤكم – بأنكم تصرفتم دفاعاً عن النفس ضد الكويت. إنني لا أشكك في صدقكم، لكني أبلغكم أن أحداً لن يستسيغه في العالم. بوسعكم التغلب علي كل تلك المشكلات بالانسحاب من الكويت».

وعندما سألته عما إذا كان قد قرأتقرير منظمة العفو الدولية الذي يتضمن تفاصيل الفظائع التي أرتكبها العراقيون في الكويت رد عزيز بأغرب حجة سمعتها في الاجتماع كله «واعترف بوقوع بعض الحوادث» لكنه أشار ضمناً إلى أن الخدم الهنود هم المسؤولون عن معظم أعمال النهب والسرقة خلال الاحتلال.

وفي حديث سابق كان عزيز حريصاً علي إثبات قدرة القيادة العراقية مما بدا لي أنه خداع للنفس. وأردت أن أذكره مرة أخري بأن الخبرة الأمريكية في فيتنام وخبرة العراق مع إيران غير قابلة للتكرار بعد الآن. ورددت: «لا تدعوا قادتكم العسكريين يقنعونكم بأن استراتيجيتكم ضد إيران سيتم تطبيقها مرة ثانية ضدنا، إنكم تواجهون شكلاً مختلفاً تمام الاختلاف من القوة. لقد سمعت أنكم تعتقدون أنه لو أنكم إستطعتم توسيع نطاق الصراع وتمكنتم من إحداث خسائر بشرية فإننا لن نستطيع الاستمرار. إننا نعتقد بقوة أن هذا لن يحدث فبسبب تفوق قواتنا سوف نملي شروطنا علي المعركة ولن تملوها أنتم».

وبعد استراحة ثانية استغرقت عشرين دقيقة هذه المرة استأنف عزيز كلامه ورد بطريقة عشوائية علي النقاط التي سبق أن أثرتها. وقال: «إن قادتنا العسكريين رجال شجعان لكنهم ليسوا حمقي. فلهم خبرتهم الطويلة في الحرب. إنهم يتابعون نشر قواتكم وتمركزاتها بدقة بالغة. وقد درسوا دراسات متقدمة لنظم تسلحكم» واعترف قائلاً: «إن حرباً جديدة سوف تكون مختلفة عن التجربة الإيرانية لكنها لن تكون أقل صعوبة. لم تكن الحرب مع إيران مهمة سهلة.. ورغم هذا يمكننا تحمل العبء والخروج منتصرين من الحرب. إننا نشعر أننا نعامل بشكل ظالم. هذا هو شعورنا، وعندما يتولد مثل هذا الشعور بين أفراد الشعب وتفرض علينا الحرب فسوف يقاتل الشعب فلا يساوركم الشك في تصميم شعبنا علي الصمود. إننا مصممون علي أنه إذا دخلنا الحرب فسوف تستغرق وقتاً طويلاً، سنة، سنتان» كانت تعليقاته دليلاً جديداً علي أن العراقيين يفترضون أننا لم نتعلم شيئاً من فيتنام.

وتوقع عزيز مجدداً أن العرب سينظر إليها علي أنها صراع عربي أمريكي. وقال: «بمجرد أن يدخل شعب معركة وتنطلق النيران وتراق الدماء، حينئذ يعود كل شعب إلي أصله ويتصرف بفطرته. فإذا هاجمتهم دولة عربية، ستصبحون عدواً للدول العربية» وما لبث أن أضاف دون توقع: «إذا كنت مهتماً بإجراء مزيد من الحوار، يمكن إجراء مزيد من المباحثات» وأحيا اقتراح الرئيس السابق بعقد اجتماع بيني وبين صدام في بغداد. فقد كانت فرصة اللحظة الأخيرة لاجبارنا علي تجاوز المهلة النهائية. وذكرته بأن الرئيس بوش عرض هذا الاقتراح قبل ستة أسابيع علي وجه الدقة وقلت: «السيد الوزير فات أوان ذلك. هذا الاجتماع هو فرصتك فإذا لم تكن مستعداً للتصرف في الأمر الآن، فلتنس. فلم يبق سوي ستة

أيام من الآن. لا تفكر أن بوسعك تأجيله أو تمديد المهلة، وأكدت لعزيز أنني سأكون سعيداً بزيارة بغداد لكن فقط بعد انسحاب العراق من الكويت.

واستفسر قائلاً: «لماذا لا تشجع حلاً عربياً؟» ورددت «يمكن أن يكون هناك حل عربي، إذا انسحب العراق من الكويت». كأننا ندور في دوائر. وذكرت عزيز بأنه لم يرد علي طلبي السابق بالخروج الآمن لأعضاء سفارتنا، وكنت قد طلبت أن يضمن شخصياً إمكانية مغادرة خمسة دبلوماسيين أمريكيين باقين لبغداد في ١٢كانون الثاني يناير دون إبطاء. وقطع عزيز تعهداً شخصياً علي نفسه. وكان هذا هو التنازل الوحيد الذي انتزعته من العراقيين.

وبعد ست ساعات وخمس وأربعين دقيقة قلت: «السيد الوزير. انتهي ما عندي، ليس لدي مزيد. كيف تريد أن تواجه الصحافة؟ واقترح: « لماذا لا تذهب أنت أولاً» ورددت: «ليكن سوف يستغرق الأمر بضع دقائق للاستعداد وسوف أذهب أولاً» هل عقدتم العزم علي عدم استلام الرسالة؟ قال: «نعم» وللحق كان عزيز دبلوماسياً محترفاً من البداية حتي النهاية. فقد كانت مباحثات فاترة ومباشرة وغير مثمرة بالمرة علي حد ما تسعفني الذاكرة وعلي نقيض المفاوضات المعتادة لم يعط عزيز مطلقا حرية الحركة، وبالطبع ما كنا لنتفاوض حول قرارات الأمم المتحدة. ولم يرد علي عقلي أي شك في أننا نتجه نحو الحرب. ولن أنسي مطلقاً نظرة عزيز ونحن نتصافح في بداية الاجتماع. لم يبد عليه الغضب أو العدوانية بل كانت نظرات استسلام للقضاء والقدر. وقال: «وداعاً السيد الوزير ربما نلتقي ثانية» ورددت: «وداعاً السيد الوزير» . ولم أشعر تجاهه بأي عداء علي الإطلاق. فقد أدي عملاً جيداً للغاية لكن بنتائج بالغة السوء.

الحرب تصبح ضرورة حتمية

وبناءً علي تعليماتي ظلت رسالة الرئيس إلي صدام وصورة عزيز في منتصف الطاولة حتي بعد مغادرة الحجرة. وقد استردهما ساندي تشارلز من موظفي مجلس الأمن القومي،

وقد وضع عزيز خطاً تحت ثلاث فقرات من الرسالة «كارثة تنزل بشعب العراق». «فلو حلت الحرب ستكون مأساة مروعة تحدق بكم وببلدكم» «وسوف يتم تحميلكم مباشرة مسؤولية الأعمال الإرهابية».

وصعدت الدرج إلي جناحي وخلعت الجاكيت والحذاء وتمددت علي السرير بينما يجري إيصال مكالمتي للرئيس بالبيت الأبيض. وقلت: «ليس هناك شيء فلم يفرطوا في بوصة واحدة. وإيسوا علي استعداد لتغيير موقفهم. فلم يعرضوا شيئاً جديداً. ولو فكرة واحدة وقد أبلغتهم ذلك» ثم نزلت لأواجه الصحافة.

وقلت: «سيداتي سادتي للأسف فعلي مدار أكثر من ست ساعات لم أسمع شيئا يوحي بأي مرونة عراقية أياً كانت بامتثالهم لقرارات الأمم المتحدة. وعندما طلب منى صحفي أن أصف أجواء الاجتماع لم أفكر في الإجابة. ورددت: كئيب.

ومن وجهة نظر تكتيكية كانت لهجة تصريحاتي تقصد تعزيز الرسالة بأن الولايات المتحدة لا العراقيين هي الطرف العاقل. كنت أعرف أننا سنفوز بالحرب مع العراق. لكن فوز المعركة مع الكونجرس والرأي العام لايزال موضع شك. وكان المستهدف الأساسي لمؤتمري الصحفي هو الجمهور الأمريكي. وكان نموذجاً آخر للدبلوماسية عبر التليفزيون» ويبدو أنه كان ناجحاً. وسيعلق سام نان الذي صوت ضد قرار استخدام القوة في الكونجرس في وقت لاحق بأنه بمجرد أن نطقت بكلمة «للأسف» فقد تلاشت أي فرصة لهزيمة قرار استخدام القوة.

وأشاعت كلمة «للأسف» الاضطراب في البورصات العالمية. ومع استمرار الاجتماع ومع إصدار البيت الأبيض بيان جاء فيه أن المباحثات «جوهرية» ارتفع مؤشر داو جونز الصناعي بأكثر من أربعين نقطة وقت انعقاد مؤتمري الصحفي. وسجل عند الإقفال زيادة تجاوزت ٣٩ نقطة. أما أسعار النفط التي تراجعت فقد ارتفعت من ٢٣,٣٥ دولارا للبرميل الواحد عندما بدأ المؤتمر الصحفي إلي ٣١دولارا للبرميل الواحد في وقت لاحق. وإذا شكك أحد في الاعتماد المتبادل والتداخل الكوني وقوة الاتصالات الفورية فلابد وأن تكون تلك التطورات قد غيرت تفكيره.

وعدت فيما بعد إلي جناحي لمتابعة المؤتمر الصحفي لعزيز. ولم يتفوق علي فصاحته سوي تضليله. وعلي مدار خمس وأربعين دقيقة لم يتطرق بالذكر للكويت مرة واحدة مكتفياً بالإشارة «إلي الموقف في الخليج» كان الأمر غريباً للغاية لأنه تحدث غالباً عن الكويت خلال الاجتماع مستخدماً فقط كلمة «الفلسطينيين» أكثر. أما نهج الاستسلام للقضاء والقدر فقد اختفي ليفسح مكانه لغطرسة عدمية. وعندما سأله صحفي عما إذا كان العراق سيهاجم إسرائيل خلال الحرب أجاب عزيز: «نعم، نعم» وسأل صحفي: هل باتت الحرب ضرورة حتمية؟ أجاب: «إن هذا يعود للإدارة الأمريكية لتقرره. فالعراق مستعد لكافة التوقعات .. إننا مستعدون منذ البداية».

ثم اتصلت بشيفرنادزة في موسكو لأبلغه بعدم إحراز تقدم. وتحدثنا لنحو خمس وأربعين دقيقة عن الاجتماع إضافة إلي التوتر المتصاعد في البلطيق.



ورغم تذكير عزيز بأن العراق غزا الكويت بسبب «مؤامرة» آل الصباح لتركيع العراق اقتصادياً. فلم تكن الكويت سوي دفعة مقدمة لطموحات صدام الإقليمية. بل وربما الدولية أيضاً. ها هو وفي المقام الأول زعيم معاصر في الشرق الأوسط مأخوذ بمقارنة نفسه بنبوخذنصر. فهو كما أشار لي الرئيس مبارك بعد الحرب: استراتيجي رفض المخاطرة بقواته البرية المقاتلة ضد إيران عندما بدأت طهران تخسر الحرب. ليوفرها لأهدافه الإقليمية في السيطرة. كان صدام ينظر باتجاه الشمال الشرقي والشمال الغربي لا باتجاه الجنوب.

وبالنسبة لاتجاه الشمال الشرقي فقد رأي حليفه الاتحاد السوفيتي – يعيش مرحلة إنحسار – مضطراً للتخلي عن إمبراطوريته في وسط وشرق أوروبا. وأكثر مما اعتقد معظم المفكرين الاستراتيجيين الآخرين، كان صدام يري في الانحسار السوفيتي خطراً يبشر بحلول «لحظة القطبية الأحادية» وهي فترة ستكون فيها الولايات المتحدة هي القوة العظمي الوحيدة. ومن شأن هذا ألا يناصر جهوده في الهيمنة علي الشرق الأوسط في ضوء العلاقات الأمريكية

الوثيقة مع إسرائيل، وبدرجة ليست أقل مع مصر والعربية السعودية ومعظم المعتدلين العرب.

كان التهديد الذي يري صدام أنه يحدق بمخططاته المتعاظمة ليصبح عبد الناصر الجديد يتمثل في اتجاه الشمال الغربي: أمريكا. وهذا أحد التفسيرات بكل تأكيد لتصريحات جنون العظمة التي أدلي بها في أواخر ربيع وأوائل صيف عام ١٩٩٠، وفي إتهاماته الأولي بأن المخابرات الأمريكية تحاول زعزعة استقرار نظامه. ولسوء الحظ أنه ربما كان خارج نطاق اهتماماتنا لكننا كنا محور اهتمامه.

وخلال الاجتماع أبلغني طارق عزيز بأن قضية الحرب ليست قضية خوف من جانبنا أو جانبكم «كان مخطئاً وكان ثوسيديديس علي صواب». فالذي حتم غزو الكويت والحرب التي جاءت لتنهيه هو هبوط القوة السوفيتية وصعود القوة الأمريكية، والخوف الذي سببه هذا لصدام حسين.. الخوف من أنه في الوقت الذي ربما لا تريد أمريكا الآن علي تربعه علي السلطة فسوف يكون من المحتمل للغاية أن تفعل ذلك بمجرد أن تتبلور القطبية الأحادية. ورأي صدام أن هذه هي فرصته وحاول استغلالها.

وفي صباح اليوم التالي وأنا أغادر علي متن الطائرة العسكرية ٧٠٧ التي كانت الطائرة الخاصة للرئيس كيندي. كانت شواطئ بحيرة جنيف تتراءي تحتنا وقد كستها الثلوج. والتفتت مارجريت تاتويلر إلي دينيس روس ملخصة الحقيقة المرة للحظة. وقالت: «دينيس إن هذه مدينة جميلة. علينا أن نعود إليها بعد أن تنتهي الحرب فليس أمامنا وقت طويل».

الفصل العشرون

الدرع يصبح سيفاً

ندعو الله جميعاً أن يساعد شعبه. فصدام حسين مستعد للتضحية بملايين الشباب والشيوخ لإشباع نهمه.

الشيخ زايد

رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة

أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة

١٠ كانون الثاني يناير ١٩٩١

إنه رجل لا تعنيه سوى نفسه. ولا يعنيه شيء آخر حتى وإن كان تدمير بلاده.

ولي عهد الكويت

الطائف، العربية السعودية

١١ كانون الثاني يناير ١٩٩١

لا يمكنني توقع ما إذا كان صدام سوف يغير رأيه في اللحظة الأخيرة وينسحب من الكويت. لكنني أخشى الأسوأ.

الرئيس المصري

حسني مبارك

القاهرة، مصر

١٢ كانون الثاني يناير ١٩٩١

بعد يومين من الاجتماع الفاشل مع طارق عزيز فى جنيف وصلت إلي الطائف لعقد اجتماع اخر مع أمير الكويت فى المنفي. ثم قمت بزيارة تفقدية لطياري وأطقم جناح المقاتلات التكتيكية ٤٨ - بالقوات الجوية الأمريكية الذين أعيد نشر مقاتلاتهم القاذفة طراز إف - ١١١ وطائرات التشويش الألكتروني من طراز إي إف - ١١١ من قاعدتها في انجلترا في مطار عسكري سعودي في الصحراء خارج الطائف. كان هؤلاء الشباب والشابات علي وشك أن يصبحوا السنارة الطقية فيما كنت أعرف أنه سيكون المحاولة الأخيرة لإقناع القيادة العراقية بجدية المهلة النهائية في ١٥كانون الثاني يناير.

كانت زيارتي هذه هي الثانية «لجناح الحرية» وعندما كنت هناك في الزيارة الخاطفة في أيلول سبتمبر لم يكن قد وصل إلي القاعدة سوي بضع مئات من أفراد الجناح. ولمست ضجرهم وملهم وإحباطهم إلي حد كبير. كانت لهجة أسئلتهم تحمل معني انهم يعتبرون أنفسهم مجرد عملية تجميل وتواجدهم مجرد إستعراض للقوة.

والجناح/٤٨ يتمتع بخبرة قتالية ميدانية جيدة، فطائراته هي التي قادت الهجمات الأمريكية علي ليبيا عام ١٩٨٦. كانوا يريدون العمل لا الجمود. ولم تفلح تعبيرات الإمتنان والعرفان بخدمه الوطن في رفع معنوياتهم وطلب أحدهم «دعونا نعمل شيئا»

والآن ومع إقتراب يوم الخامس عشر من كانون الثاني يناير بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندي وطائراتهم مدججة بالسلاح. وشحذت أربعة أشهر من التدريب في الصحراء من همتهم وارتفعت معنوياتهم نتيجة فشل اجتماع جنيف. وبينما كنت أتحدث إليهم في أحد الهناجر لم يكن مرحهم يتقد بل يلتهب. فقد وصف جورج مارشال جنود أمريكا بأفضل وصف: أين تجد مثل هؤلاء الرجال؟. وبدون شك كانوا صفوة أمريكا. لكن في هذه المناسبة الكئيبة لم أكن أتحدث حقيقة لهم فحسب. بل إلي مستمع آخر في بغداد..

وعقب اجتماع عزيز تأكدت أن احتمال تجنب الحرب لم يعد قائماً علي الأرجح. فقد بدا صدام عازماً علي ارتكاب خطأ آخر في الحساب عن تصميم أمريكا. ولأننا نعرف أن صدام يشاهد شبكة سي إن إن كانت هناك مناشدة أخيرة بالفعل فلا يمكن بسهولة تجاهل محاولة عامة كما حدث مع رسالة الرئيس في جنيف. وفي طريقي من الرياض إلي أبوظبى ذلك الصباح أعدت صياغة مشروع كلمتي أمام الجناح/٤٨. وضمنت تعليقاتي باختصار بلغة واضحة لا تخفي إشارتها. وقلت أمام القوات: «إن الوقت يمضى لكن الطريق أمام السلام

لايزال مفتوحاً. ولازال هناك وقت أمام العراق لسلوك هذا الطريق..، فلازال بإمكانهم اختيار السلام وتجنب الكارثة. لكن الاختيار بيدهم وبيدهم وحدهم. ولكننا نأمل ونتضرع ونعمل من أجل السلام. فإنه يتعين على أمريكا وكافة دول التحالف الاستعداد لصراع لا نسعى إليه لكننا لن نفر منه».

«وعندما تحدثت إليكم قبل شهرين أبلغنى معظمكم أنكم مستعدون لكنكم تساءلتم عن الوقت الذى سيمر قبل أن تعرفوا ما إذا كنتم ستستدعون للعمل لصد العدوان المروع. والآن وحتى تدق الساعة الثانية عشرة منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثانى يناير لا يمكننى أن أعطيكم إجابة شافية قاطعة. لكن يسعنى إبلاغكم بإنه لن يتعين عليكم الانتظار كثيراً لتسمعوا إجابة لسؤالكم». وانفجرت هتافات محمومة لدى الجنود وانطلقوا فى الصفير ومرت عصبية محمومة. فالقوات مستعدة، وكما قلت فى جنيف، هناك الكثير من الأخطاء المرافقة فى الحسابات وأننا نخشى سوء حساب آخر، فسوف يكون خطأ مأساوياً. إننا نعتقد أنه إذا انسحب العراق من الكويت فمن المستحيل أن ينتظر صدام حسين حتى يبلغ حافة الهاوية ليتحرك. وتركز قلقنا أنه وفقاً لأسلوبه المعتاد فسوف يخطئ حساب أين توجد هذه الحافة.

وحتى لا يكون هناك مجال لسوء الفهم دعونى أكن فى غاية الوضوح: «إننا سنصل حافة الهاوية فى منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثانى يناير. كانت هذه أكبر نقطة نقترب منها فى الإعلان علنا عن الموعد الذى ستبدأ فيه الحرب. ودفعنى لقاء الطيارين إلى تذكر تجربتى العسكرية المتواضعة والتفكير فيها. ففى عام ١٩٥٢ تخرجت من جامعة برنيستون وأنا أبلغ من العمر ٢٢ عاماً لأبدأ الخدمة العسكرية بالتدريب فى وحدات مشاة البحرية – أعى تماما مجموعة من الضباط برتبة ملازم ثان بمشاة البحرية الذى مابلغوا أن قتلوا فى كوريا. كان الحماس يغمرنى فى ذلك الحين. ولم يكن بوسع الشاب الإنضمام إلى مشاة البحرية ما لم يكن مستعداً للقتال. ومن حسن حظى أننى لم أخدم فى كوريا.

ومساء ذلك اليوم فى الطائف لمست مدى التناقض بين حسن حظى قبل أربعة عقود وحظ مئات الآلاف من شبابنا وفتياتنا الذين ارتبكت حياتهم ومهنهم. بل وربما فقدوها فى سبيل التفانى فى خدمة بلدهم.



وأبلغني جيم ميد صديقي وسلفي في جامعة برينسيكون الذي انضم معي إلي وحدات مشاة البحرية لدراسة استطلاع توجيه نيران البحرية وهو تخصصي العسكري الدقيق. وعادة ما يظلأ مستطلعوا وموجهوا النيران البحرية الشاطئ في الموجة الأولي تضمهم تشكيلات من مجموعات تتراوح من ستة إلي ثمانية أفراد لا فصيلة من أربعين فرداً. ولا يضطلع قائد المجموعة بمسئوليات قائد الفصيلة المؤلفة من أربعين رجلاً، وكان توجيه نيران السفن الحربية رغم خطورته أشد إثارة وتشويقاً من المشاة. وعندما دخلت مدرسة الأساس في كوانتكو بفرجينيا في آب أغسطس ١٩٥٢ . تم إبلاغي بأن أولئك الذين قدموا أنفسهم ويحصلون علي أعلي الدرجات سيتم تلبية طلباتهم بإلحاقهم بالتخصص الذي يختارونه. وهكذا تفانيت في العمل كواحد من المجتهدين، وجاء ترتيبي الخمسون في مجموعة من خمسمائة مرشح لرتبة ضابط. وكنت أعتقد أنني أقرب من أن أكون الأول في مجموعتي من الذين ستوكل إليهم مهام احتياطية. ولذا عندما استدعاني الميجور قائد وحدتي للحديث حول تخصصي الأول قال: «بوكر، لقد أبليت بلاءً حسناً أريدك أن تتولي قيادة فصيلة، إننا نحتاج أفضل عناصرنا في مشاة البحرية قادة للفصائل». وأخذتني المفاجأة وتذكرت قولي له: «ميجور هذا يتناقض تماماً مع ما أبلغتني به عندما بدأنا هنا وهو أنني إذا ما برعت وأبليت بلاء حسناً فسوف تكون فرصتي جيدة في الالتحاق بالتخصص الذي أفضله. إنني أريد حقيقة أن أكون فرد استطلاع وتوجيه نيران البحرية».

وتصورت أن صراحتي ستقودني لأستقل أول سفينة تقل جنوداً إلي كوريا. وبدلاً من ذلك حدثت المفاجأة وأصبحت فرد الاستطلاع وتوجيه النيران البحرية العامل رقم (٠٨٤٠). وتم إلحاقي بسرية اتصال النيران الجوية البحرية بقوة مشاة البحرية بالأسطول بأطلانطا بكامب ليجيني نورث كاليفورنيا. ومن هناك أُلحقتُ بكتيبة التعزيز بمشاة البحرية الأمريكية بالأسطول السادس في البحر المتوسط حيث أمضيت معظم الوقت علي العاملة مترونيا. وكنت أتوقع أن أذهب إلي كوريا كفرد استطلاع وتوجيه نيران البحرية. لكن أقصي نقطة وصلت إليها للاقتراب من القتال هي مناورات التدريب في البحر المتوسط ثم في بورتريكو لاحقاً حيث ساهمت في توجيه نيران المدافع العملاقة عيار ستين بوصة بالعاملة ميسوري.

كانت حرب كوريا في عنفوانها، وكنت أفترض أنه قد يتم إرسالي إلي هناك في أي لحظة وأمضيت وقتاً في التفكير في ذلك، وانتهي الحال بعشرات الملازمين من دفعتي في كوانتيكو

بالموت في كوريا. كنت راغباً في القتال. ناهيك عن القول أنني خشيته. أما أولئك الذين تعرضوا لهذا الاحتمال وإن كان بعيداً بالذهاب إلي القتال فإنهم يكذبون لو قالوا إن الخوف لم يتملكهم حول عدم عودتهم.

❑ ❑ ❑

وفي ذلك الهنجر بالطائف لتذكر ما جال بخاطري بأنه يوجد هنا بعض أفراد مثل رجالنا في مدرسة الأساس الذين زاملوني وذهبوا إلي كوريا. وكأفراد دفعتي كانت تحركهم دوافع هائلة: فيحوزتهم طائرات رهيبة ويتحرقون كما قالوا المرة تلو الأخري للتحليق فوق العراق وإصابة هدفهم. وكنت أعرف من أعماقي أنه في غضون أربعة أو خمسة أيام علي أقصي تقدير سوف يحلقون بطائراتهم لشن الهجوم، ولن يعود بعضهم إلي قواعده. وبالنسبة لي، والحقيقة بالنسبة لنا جميعاً هنا كانت لحظة مفجرة لكل العواطف. وإغرورقت عيناي بالدموع أكثر من مرة. وتناولت كل ما يمكن أن يحفظ هدوئي.

وشكلت زيارة الهنجر الذروة العاطفية لجولتي التي استغرقت تسعة أيام وبدأت في السادس من كانون الثاني يناير وهي سادس زيارة لي إلي الخارج منذ اندلاع أزمة الخليج في آب أغسطس. واستقطب اجتماعي في ٩كانون الثاني يناير في جنيف مع طارق عزيز في منتصف الجولة اهتمام العالم. وبينما كنا نأمل في تحقيق انفراجة في جنيف كنا نضع اللمسات النهائية لاستعداداتنا مع شركائنا في التحالف لخوض الحرب لو لم يحدث هذا الانفراج. وكنا في حاجة للتأكد من استمرار صمودهم.

كنا نريد التأكد أنهم سيرسلون قواتهم إلي المعركة تحت قيادة الجنرالات الأمريكيين. أما بالنسبة لشركائنا العرب كان من المهم التأكد مرة ثانية من صمودهم لو هاجم العراق إسرائيل كما يؤكد عزيز الآن علي الملأ، وكنت في حاجة أيضاً إلي بدء إجراءات إخطار الحكومات الأخري بشأن بداية العمليات الحربية وضمان التزامات جديدة بالدعم المالي من الكثير منها. وحملتني رحلتي من حرارة الخليج اللافحة إلي برودة أوتاوا حيث حالت الثلوج

الكثيفة دون مغادرتي إلي واشنطن. وإجمالاً قطعت ١٨٧٢٤٠ ميلاً للقاء زعماء من خمس عشرة دولة والسكرتير العام لحلف شمال الأطلنطي، وربما يمكن النظر إليها كلها – في الواقع – علي أنها اجتماع أخير لمجلس وزراء الحرب الدولي.

وباستثناء العرب الذين كانوا متقلقين في تلهفهم للحرب واجهت مزيجاً من التصميم وتدبر الشر في كافة الدول التي توقفت بها. فقد ساد قلق بشكل خاص في كثير من الدوائر حول الخسائر البشرية، ولاسيما الخسائر المحتم وقوعها بين المدنيين نتيجة «الأضرار الإضافية» للهجمات الجوية. وكان هؤلاء القادة الذين اجتمعت بهم قبل لقائي مع عزيز متشائمون من احتمالات تحقيق انفراجة في اجتماع جنيف. وشعر بعضهم بالقلق من أن صدام قد يعرض حلاً. وطمأنتهم بأنه ليست لدي نية بالقبول بما هو أقل من بنود قرارات الأمم المتحدة. كان المزاج العام مزاج تسليم. فلم يترك صدام خياراً آخر.



بدأت الجولة في لندن حيث التأييد المطلق كالعهد دائماً. وعقب اللقاء في ٧ كانون الثاني يناير مع دوجلاس هيرد الذي أخفق في إقناعنا بأنه قد تكون هناك صعوبة في قيام طائراتنا بمهاجمة منشآت انتاج الأسلحة البيولوجية كما هو مقرر، توصلت إلي اتفاق حاسم بالتمركز المؤقت للقوات مع وزير الخارجية الأسباني فيليبي أوردونيز، وهو دبلوماسي بارع وقدير معروف بين زملائه باسم «باكو» (توفي أوردونيز. لكن ليس قبل أن يعمل عن قرب معي مرة أخري عندما وقع اختيارنا علي مدريد لاستضافة مؤتمر السلام في الشرق الأوسط). وتمركزت القواعد والمقاتلات الأمريكية في أسبانيا لعقود لكن حكومة مدريد أصبحت بالغة الحساسية تجاه هذا التمركز.

وارتأى البنتاجون أنه من الضروري حصول القاذفات الأمريكية الثقيلة طراز بي ٥٢ وطائرات التزود بالوقود في الجو طراز كي سي ١٣٥ علي حق التمركز المؤقت في قاعدة توريخون. وتقبل أوردونيز حجتي بأن هذه ملابسات غير عادية، وأبلغني بأن حكومته ستسمح باستخدام قاعدة توريخون كقاعدة انطلاق لقاذفات بي ٥٢ ولعمليات إعادة التزود

بالوقود لقاذفات أمريكية أخري من نفس الطراز وهي في طريقها من قواعدها الأمريكية لشن هجمات علي أهداف في العراق والكويت.

الفرنسيون مـرة أخـري

عقب التشاور مع جاك بوس وزير خارجية لوكسمبورج الذي تولي رئاسة المجموعة الأوروبية توجهت إلي باريس. وعندما وصلت إليها في ٨ كانون الأول ديسمبر كنت لاأزال غاضباً من الفرنسيين بسبب إجتماع مجلس حلف شمال الأطلنطي قبل ثلاثة أيام في بروكسل فقد وصل رولان ديما وزير خارجية فرنسا متأخراً وإنصرف مبكراً تاركاً أوامر لسفير فرنسا بعدم الموافقةعلي أي شيء. وترتب علي هذا إقرار مجموعة قرارات تتعلق بحرب الخليج بأغلبية خمسة عشر صوتا مقابل صوت واحد. وأصررت علي إجراء غيرمسبوق بتسجيل كل صوت للتركيز علانية علي الاعتراضات الفرنسية داخل حلف الأطلنطي. وأبلغني مانفريد فيرنر أن التصرف الفرنسي لم يكن مناسباً وزاد غضبه من حنقي. وعندما إلتقيت مع ديما قبل إجتماعي مع ميتران تحدثت بصراحة بالغة حول ما أتصور أنه فوز فرنسي مريب.

وقلت: «نحن لا نري هذا من أي بلد سوي فرنسا. وفي أماكن أخري في أوروبا نشعر بأن علينا التعامل مع مثل هذه الكراهية. ففيرنر غاضب وأنا أيضاً. فهذه ليست طريقة معاملة الصديق. لقد تقاربنا لفترة طويلة بما يسمح بمنع حدوث هذا». وفي الوقت الذي ألقي فيه بالمسؤولية علي بيروقراطية بروكسل الأمريكية والفرنسية كان توجه ديما تصالحياً، واعترف ديما: «إن هناك في نهجنا معياراً لكبرياء في غير موضعه. شعور بأن الولايات المتحدة تملي أشياء علي فرنسا». وقال: إن مرجع مثل هذه الحساسية «بقايا أعراض الديجولية في النزعة الاستقلالية». كان ديما يعترف ضمناً بما أعتاد وزير خارجية أوروبي أن يصفه في دوائره بالأسلوب الفرنسي. ويسود الانسجام الشخصي بيني وبين ديما. ووعدني بإصلاح الأمور. بل ورافقني إلي المطار كبادرة لحسن نيته.

وبدأت الاجتماع مع ميتران بقراءة رسالة الرئيس بوش إلي صدام حسين وطلبت مقترحاته. واعتبر ميتران أنها رسالة ممتازة: إنها رسالة عنيفة ومفهومة. إنها لا تدع خيارا أمام صدام سوي الاستسلام التام. غير أنه اعترض علي عبارة وردت فى صدر الصفحة الثانية تتعهد بأنه لو انسحب صدام من الكويت فسوف يفلت العراق من التدمير واعتبر أن هذه لغة حمقاء فمن الخطأ القول تدمير العراق. إنه يخلق خلطاً بين المؤسستين المدنية والعسكرية، وهو أمر سيستخدم حتماً لأغراض دعائية. كان تعليقا موفقاً للغاية. فلم يكن لنا أى مشكلة مع شعب العراق.فربما تم اعتبار الإشارة إلي تدمير بلد بأكمله محاولة منفردة من جانبنا لتوسيع قرارات مجلس الأمن. وبعد التشاور مع الرئيس بوش تم تعديل الصياغة لتصبح «إذا انسحب العراق فسوف تفلت المؤسسة العسكرية العراقية من التدمير».

وبعد هذه النقطة بات الحوار أكثر صعوبة حيث حاولت الحصول علي التزام كان ميتران عازفاً بوضوح عن تقديمه. ويتمثل فى أنه فى حالة الحرب فإن قوات التحالف بما فى ذلك القوات الفرنسية سوف تكون خاضعة لقيادة موحدة بقيادة ضابط أمريكي. وبعد شد وجذب حول هذه النقطة أكد ميتران أنه فى الوقت الذى لن تشارك قواته الجوية فى الهجمات الجوية «فليس هناك مانع من توحيد العمليات الحربية مع الولايات المتحدة تحت قيادة أمريكية فى اليوم الذى تبدأ فيه العمليات البرية».

ثم انتقلنا إلي بحث الخلاف بيننا حول مؤتمر دولى للسلام فى الشرق الأوسط. فقد اقترح عقد مثل هذا المؤتمر علي مدي سبع سنوات وسنواصل تبنى هذا الاقتراح. وقال: «إنكم مخطئون بمعارضته، وإسرائيل ترتكب خطأ بمعارضته أيضاً. فشامير بالغ التصلب والتعنت حول هذه القضية» [ولابد من التنويه إلي أن إبلاغه لى بتعنت شامير يشبه إبلاغ نوح بالطوفان].



كانت محادثات شاقة لكن ميتران سلم في النهاية. وأبرقت للرئيس «سوف يكون الفرنسيون بجانبنا عندما تدعو الحاجة. فربما تكون الطريق وعرة في الأسبوع القادم أو بعده» وفي اجتماعي مع هيلموت كول بعد ظهر اليوم نفسه لاحظت أن الألمان أوفو بالالتزامات المالية التي قطعها كول في أيلول سبتمبر في لودفيجشافين. ولكن كما هوالحال مع كافة حلفائنا غير المشاركين بقوات عسكرية سيكون من المطلوب تقديم المزيد عام ١٩٩١.

وقلت: «ليس لدي أدني تفاؤل حول فرصتنا في تجنب صراع رغم أننا لا نستبعد تجنبه علي الإطلاق. فلازال من المحتمل أن يستوعب الرسالة. كان المستشار متشككا في إمكانية التزامنا بعدم مهاجمة الواحدات العراقية إذا انسحبت من الكويت. وقلت له يمكن ضمان أننا لن نهاجمها «وأن القوات الأمريكية هي القوات الوحيدة الكبيرة بما يكفي لتثير له مشكلات خطيرة».

وفيما يتعلق بالأموال قال كول: إنه سيدرس بعناية طلبي بتقديم ٣٣٥ مليون دولار شهرياً. وقال: «علي أن أفكر في هذا الأمر لكنني سوف أفعل شيئا».

جاء التوقف الأخير قبل جنيف في ميلانو حيث التقيت جياني دي ميخائيليس. ولطالما دافع الإيطاليون بشدة عن الوجود الأمريكي في أوروبا وعن دورنا القيادي في حلف شمال الأطلنطي، وساهموا بعدة أسراب من المقاتلات في المجهود الحربي. لكنهم كانوا يشعرون بحساسية في بعض الأحيان من أننا نولي أهتماما أكبر بالبريطانيين والفرنسيين والألمان. ورفض دي ميخائيليس طلب عقد الاجتماع في بروكسل، وأصر علي عقده في إيطاليا حيث أكد الإيطاليون مجدداً مساندتهم لجهودنا.

العـرب

بعد اليوم الحافل غير المثمر مع عزيز في جنيف توجهت إلي الرياض في العاشر من كانون الثاني يناير للتشاور مع السعوديين. وقبل لقاء الملك فهد اجتمعت علي للعشاء مع الأمير سعود والأمير بندر اللذين كانا متحمسين كالمتوقع لإحتمال إقتراب موعد مجابهة

عدوهما اللدود. وحتى حلفاء صدام حملوا أنفسهم على تقبل الحرب. وأسرَّ سعود فى نشوة بالغة نقلاً عن مصدر قال إنه وثيق الصلة بالملك حسين «بأن هناك جواً قاتماً يخيم فى عمان بسبب عدم إنهيار التحالف». وأكد لى تأييد المملكة التام. وأكد سعود: «أننا نعتزم أن نرى هذه المشاركة وقد أُنجِزَتْ. فقد اتخذت العربية السعودية قرارها الخطير الذى لاعدول عنه مطلقاً مثلما اتخذ الرئيس قراره». وأبلغنى بندر بأن له أخا كان مناهضاً قوياً لأمريكا، والآن لا يرانى إلا ويقول إنه مدين باعتذار عن الولايات المتحدة. كانت هناك بعض اللمسات النهائية التى يتعين وضعها. واتفقنا على أنه بمجرد صدور الأوامر بالهجوم سيقوم بندر بإبلاغ الملك فهد بكلمة سر متفق عليها: «صديقنا القديم سليمان سوف يأتى». وأشار إلى أن الملك سيجتمع حينئذ مع كافة كبار مسؤولى الحكومة فى مركز قيادة تحت الأرض. وبمجرد تجمعهم سيتم قطع كافة الاتصالات الهاتفية مع الخارج. ورغم أن السعوديين أصدقاؤنا وحلفاؤنا لكن تأمين اتصالاتهم يمكن وصفه تلطفاً بأنه – غير فعال – وفى ضوء الأرواح المعرضة للخطر فما من أحد يريد المخاطرة بوجود وزير ثرثار قد يفضح أمر العمليات.

وعرَضَتْ الحصة السعودية فى كلفة درع الصحراء لعام ١٩٩١ وقدرها ١,١ مليار دولار فى الشهر وتزيد لو امتدت العمليات ، و٨٠٠مليون دولار معونة اقتصادية لتركيا ومليار دولار على مدى خمس سنوات للصندوق الدفاعى الخاص بتركيا. و٨٠٠ مليون دولار لشرق أوروبا للمساهمة فى تعويض إرتفاع أسعار الطاقة نتيجة الارتفاع الكبير فى أسعارها بسبب الحظر المفروض على البترول العراقى. وكان سعود يريد أن يعرف ما سنطلبه من الكويت. وأبلغته بأننا نطلب نصف هذا المبلغ. وكما فعل فى الاجتماع السابق حثنى سعود على ألا أطلب من الكويتيين أقل مما أطلب من السعوديين. وقال إن البلدين تحملا حصة متساوية عام ١٩٩٠ كما أن الكويت تمتلك احتياطياً أكبر من النقد الأجنبى. ووافقت على أن أفكر فى الأمر قبل وصولى إلى الطائف للقاء الأمير.

واعتقدت أن إصرار سعود على تقسيم العبء المالى بالتساوى بين البلدين هو نتيجة لبعض التوتر بين الحكومتين أكثر منه تلميحاً إلى صعوبات مالية تعانى منها السعودية. ومع هذا، وبينما نحن ننتظر لقاء الملك تلقيت تلميحاً – بخطأ اعتقادى – فقد أشار شاس فريمان سفيرنا فى السعودية علىّ بأنه يجب علينا ألا نطلب المزيد من السعوديين، وقال إنه نتيجة

لالتزاماتهم السابقة فى عملية درع الصحراء فإنهم يواجهون عجزاً فى السيولة المالية لم يشأ سعود أن يعترف به أمامى.

وبدت لى أنها حالة تقليدية للموالاة من جانب واحد من أفضل ديلوماسيينا. وقلت: «إننى سأواجه الكونجرس، وسأطلب منهم تمويل هذه العملية. لقد شرحت للأمريكيين أن دماء أبنائهم قد تراق. فإذا كنت تعتقد أننا لن نطلب من السعوديين عدم تمويل هذه العملية فسوف يكون هناك تفكير آخر مستقبلاً. وكانت هذه آخر مرة أسمع منه طلب التساهل مع السعوديين فى كلفة العملية.

وكما توقعت كان الملك فهد بالغ الكرم عندما أبلغته بأننا نحتاج مزيداً من الدعم المالى. وقال: «بالطبع فالمال ليس أغلى من الأرواح، فما قيمة المال إذا لم يخدمنا ونحن نؤدى واجبنا؟ فكيف يمكن تقييم أرواح الذين يقاتلون بالدولار؟ سوف تجاب طلباتكم وسوف تواصل العربية السعودية دفع حصتها العادلة فى كلفة عملية درع الصحراء».



كان الملك قد تلقى عدة رسائل من صدام تطلب الاجتماع به. ورفضها بعناد باعتبارها استعراضاً سياسياً. وقبل يومين من غزو الكويت أرسل الملك فهد الأمير سعود إلى بغداد حيث كلفه صدام بأن يطمئن الملك بأن أنباء حدوث غزو غير صحيحة. ونتيجة لهذه الخيانة الشخصية فلن يغفر الملك فهد لصدام أبداً. ويحلو القول أنه كلما شاهدت صدام فى زيه العسكرى على شاشة التليفزيون فإنه يذكرنى بمرشدى المتفرجين بدور السينما فى هيوستون أيام شبابى. ابتسم فهد وقال: إن نفس الفكرة راودته وقال: «إن صدام ورجاله يبدون فى أزيائهم مثل المهرجين المبهرجين».

وطلبت من الملك أن يساعدنا فى اقناع الرئيس الأسد فى إلزام قواته بالمشاركة فى الهجوم إذا باتت الحرب ضرورية. ولأسباب رمزية وعاطفية كان من المهم للجنود العرب أن يحرروا مدينة الكويت، فقد أبلغنى الرئيس مراراً: «إننى لا أريد أن تدخل القوات الأمريكية

عاصمة عربية، وبينما كنا جميعا علي ثقة من أن قواتنا ستكون حتماً رأس الحربة أي هجوم بري فإن المشاركة السورية في الهجوم ستكون مفيدة للغاية.

وفي اجتماع رتب علي عجل في جنيف في ١٧ تشرين الثاني نوفمبر نجح الرئيس بجهد كبير في إقناع الأسد بالسماح بنشر قواته في عمليات دفاعية لو بدأت الحرب. لكنه فشل في الحصول علي التزامه بتحرك القوات السورية عبر الحدود والمشاركة في الهجوم.

كنت أعرف أن الأمر سيكون شاقاً. وعلمت من السعوديين أن القادة السوريين يعرقلون القيام بدور هجومي ، وباعتبارهما من أوثق حلفاء السوفيت كان العراقيون والسوريون يعتمدون علي الأسلحة الروسية إلي حد كبير. وخشي السوريون من أنه إذا شاركوا في القتال علي الجبهة فربما يحدث خطأ بتحديدهم علي أنهم قوات معادية في غمرة المعركة ومن ثم تدكهم نيران القوات الأمريكية.

وأراد السوريون جني الفوائد السياسية للمشاركة، ولكن من مسافة آمنة فقط. ولتهدئة عصبيتهم أوفدت هوارد جريفز إلي وزارة الدفاع السعودية ليطلب من نورمان شوارتسكوف إعداد دور هجومي قد يناط بالقوات السورية. وبعد ساعة عاد جريفز حاملاً حل شوارتسكوف: لن يطلب من السوريين دخول أراضي العراق لكنهم سيدخلون الكويت كاحتياطي استراتيجي للقوات المصرية المدرعة، وسينضمون إلي الهجوم إذا احتاج المصريون إلي مساعدة. ووافق الملك فهد علي إيفاد الأمير سعود إلي دمشق صباح اليوم التالي للضغط علي الأسد شخصياً قبل وصولي بيومين.

وبعد منتصف الليل بفترة واجتماعنا يوشك علي الانتهاء عرض الملك فهد اقتراحاً تكتيكياً جيداً. وأشار إلي أن القوات العراقية ستوضع في حالة تأهب قصوي في ١٥ كانون الأول ديسمبر. ولو تأجل الهجوم قليلاً ستخف درجة التأهب. وقال: «عندما لا يحدث شيء يوم الخامس عشر سيقول البعض إن شيئاً لن يحدث. وأري الانتظار يومين ثم نهاجمهم» وتراكبت نصيحته بشكل جوهري مع حساباتنا التكتيكية.



ومع مغادرة طائرتي الرياض في الطريق إلي أبو ظبي صباح اليوم التالي تطلعت من نافذة الطائرة لأشاهد مئات الطائرات الحربية الأمريكية رابضة تصطف جناحاً بجوار جناح تملأ المدرج. وكان من المثير التيقن من أن الأوامر ستصدر إلي هذه الطائرات بكل تأكيد للهجوم في غضون أيام.

وكالملك فهد كان الشيخ زايد صقراً عنيداً. وكان يعتقد أن الحرب ستستغرق ثلاثة أيام وسيتم إخراج العراقيين من الكويت في غضون ثمان وأربعين ساعة. وقال: «إن صدام يحكم ومسدسه في يده. إنه لا يتورع عن ضرب ضباط جيشه بالرصاص. ندعو الله أن يساعد شعبه. فصدام حسين مستعد للتضحية بالملايين من الشباب والشيوخ لإشباع نهمه».

ولم يبد اعتراضاً عندما أثرت مسألة ارتفاع تكلفة الحرب. وقال: «أرجو أن تقدم لنا التقديرات وسنبحث الأمر. وسوف نلتزم بما يلتزمون به» وما لبثت أن اجتمعت بعد ذلك في الطائف مع ولي عهد الكويت وأبلغته بأننا نطلب ٤٠٠ مليون دولار شهرياً تكلفة مباشرة للوجود العسكري الأمريكي في الخليج. وطلبت إضافة إلي ذلك تقديم ٨٠٠ مليون دولار لتركيا علاوة علي ١٥٠ مليون دولار سبق التعهد بها، إلي جانب ٤٠٠ مليون دولار لدول شرق أوروبا. ووافق من حيث المبدأ علي كل ما اقترحته مالياً. وفي هذا الصدد تذكرت النقطة التي أرتأها سعود. فالأرقام التي طرحتها علي ولي العهد الكويتي متكافئة مع تلك التي طلبتها من السعوديين.



وبعد التحدث مع الطيارين وأطقم الجناح الثامن والأربعين توجهت إلي القاهرة حيث وجدت الرئيس مبارك متعكر المزاج. فقد تلقي لتوه ما وصفه بأنه رد «فج» علي رسالة تصالحية أرسلها إلي صدام مؤخراً. وفي ضوء هذه التجربة غير السارة قال إنه لم يفاجأ عندما علم أن طارق عزيز رفض تسلم رسالة الرئيس. وقال مبارك: «كان عليه تسلمها، وكان علي صدام حسين أن يجيب عليها. فهذا هو الأسلوب الذي يتعامل به المتحضرون».

ووصف مبارك صدام بأوصاف لاذعة مثل أوصاف الملك فهد لصدام. وقال «إنه يطرح نفسه كصاحب رسالة كالنبي محمد».

وبالمصادفة كان عبد الكريم الإرياني وزير خارجية اليمن موجوداً في هذه اللحظة في القاهرة استعداداً للتوجه إلي بغداد علي أمل التوسط للتوصل إلي اتفاق مثير في اللحظة الأخيرة لتجنب الحرب. وأبلغني مبارك أن الوزير يعتقد أن صدام ربما يوافق علي الانسحاب إذا اطمأن إلي أن القوات الأمريكية لن تهاجم قواته المنسحبة. وكما نقول في تكساس كنت أعرف أن الكلب لن يصطاد. وعرضت ذلك بالضبط علي عزيز في جنيف لكن دون جدوي. وطلب مني مبارك التحدث مع الإرياني بأي شكل. ولم أكن مهيأ لإهدار أي وقت مع اليمنيين بعد أن رفضوا التعاون في مجلس الأمن الدولي. لكن مبارك حليف وصديق قوي وكان قد طمأنني لتوه أنه بمجرد بدء الحرب «يمكن أن تعتمد الولايات المتحدة علي مصر» كان مبارك صلباً كالحديد. فأمريكا مدينة له بتقديم بادرة أعرف أنها غير مجدية. ورفضت عقد اجتماع. لكني وافقت علي التحدث إليه في الهاتف. وبعد دقائق اتصل الإرياني علي الخط الخاص بمبارك. كانت نغمتي ساخرة عن عمد «إنني أشعر بخيبة أمل كبيرة لتصويتكم ضد القرار رقم ٦٧٨» وأكدت مجدداً سياسة الرئيس: إذا ما انسحب العراق علي الفور وبدون شروط فلن يشن التحالف أي هجوم. وبدا الوزير مفعماً بالأمل وأنهي المكالمة ليبدأ البحث عن تسوية وهمية. وأوفدت بوب كيميت إلي الفندق الذي ينزل به الإرياني لينقل رسالة لم أشأ ذكرها في الهاتف: إذا ذهب الإرياني إلي بغداد فليتأكد من عدم وجوده بها بعد منتصف ليل الخامس عشر من كانون الثاني يناير. ورد كيميت بأن الإرياني جفل بالمعني الحرفي للكلمة -عندما سمع تحذيري» وأوضح له أنه لن يبقي إلا لساعات فقط. وعلي الأقل فقد تلقي الإرياني الرسالة. وآمل أن ينقل إحساسه الشخصي بالانزعاج إلي صدام.

وكما فعلت مع الملك فهد طلبت من مبارك المساعدة في إقناع السوريين وأشرت «إلي أنه من الصعب عليّ الاعتقاد بأن السوريين سيجلسون علي الطاولة ولا يتحملون نصيبهم» وقال مبارك: لا تقلق من صديقي الأسد.



وتوجهت من القاهرة مباشرة إلي دمشق لعقد اجتماع بعد الظهر مباشرة مع الرئيس الاسد استغرق نحو أربع ساعات. كان الأسد قد وجه لتوه نداء علنياً لصدام والشعب العراقي بالانسحاب من الكويت في محاولة أخيرة من جانبه لتجنب الحرب. وأعتقد أن كلينا كان يعرف في هذه اللحظة أن الحرب باتت حتمية. لكنني لم أشأ أن أترك الأسد دون علم. وأبلغته «بأننا إذا اتخذنا هذا القرار بعد انقضاء المهلة فينبغي أن يكون هذا بمثابة التشاور معكم. فلا تتوقع أن تسمع شيئا آخر». والأسد رجل متمرس علي قراءة ما بين السطور وفهم ما أريد أن أقوله علي وجه الدقة. «هذا يناسبنا».

وأبلغته بأنه مع اقتراب المهلة من نهايتها فمن الضروري أن يكون لدينا تحديد واضح لطبيعة المشاركة السورية في العمليات القتالية. وقلت وأنا أشرح الخطوط العامة للمهمة القتالية المحددة التي قدمها نورمان شوارتسكوف قبل يومين: «عندما يجلس معظم الناس علي الطاولة يكونون مستعدين التعامل مع الأوراق» لكنني لم أترك انطباعاً لدي الأسد الذي كان تردده مبدياً في الظاهر علي حسابات استراتيجية أخري. وفي حديث مطول أظهر فيه اقتدارا علي المقارعة الفكرية التي يمكن وصفها بشيء من السخرية بأنها تلمودية، ذكرني الأسد بأنه أمر قواته فقط بالدفاع عن العربية السعودية وليس بمهاجمة الأشقاء العرب. ولم يتطرق بالذكر لقلق ضباطه الذي سمعته في السعودية. بل ظهرت مؤشرات أجواء غير ودية. وتعهد قائلاً: «لن نتخلف في أجواء ضبابية ولايمكننا أن نسمح للآخرين بذلك». وأكثر من ذلك فقد ألمح إلي أن مشاركته بالحد الأدني جلبت له متاعب مع الرأي العام.

وتساءل: «ماذا سنقول للشعب السوري. إن هناك من السوريين من يتساءل عن سبب إرسال جنود إلي الخليج».

وقلت: «السيد الرئيس. أن اقترح عليكم ما يقال للشعب السوري» «لقد تحدثت عن الرأي العام الأمريكي. فلدينا مشاكل مماثلة».

«وربما يسعكم القول إن قواتكم تعمل كإحتياطي للقوات العربية التي تحرر أشقاء عرب تعرضوا للغزو والوحشية، وإن هدفكم الوحيد هو تحرير الكويت وإن قواتكم لن تحارب علي أرض العراق».

وقال: «لو كنت مواطناً سورياً هل تعتقد أن يكفيك هذا؟» .

وقلت: «أعتقد أن الشعب السوري يصدقكم عندما تتكلم. فلو قلت لهم هذا فسوف يصدقونك» .

وقال: «نعم سوف يصدقونني. لكن الكلمات لن تكفي لإقناعهم. إنني لا أعطيك قراراً نهائياً. إنني أبحث القضية معك. إننا نريد أن يكون كل شيء واضحاً» .

وبالطبع فإن فكرة أن للأسد مصداقية إلي حد ما لدي الرأي العام السوري غير قابلة للتصديق. فالأسد يسيطر سيطرة تامة علي بلاده. وعند هذه النقطة في مفاوضات دقيقة وحساسة فالأكثر أهمية هو استمالته لا معارضة تحايله لما أشعر أنه قلق داخلي غير موجود.

وفي النهاية لم تفلح حججي في استمالته فيما يتعلق بمشاركة قواته في القتال في الكويت. ووعدني قائلاً: «حسناً سوف نتحدث إلي السعوديين. وهذا ما أعرف أنه المعادل الدبلوماسي «لا تحبس أنفاسك خوفاً» وكم أجريت مئات الجولات من المفاوضات خلال عملي سراً وفي العلن - كان الأسد علي الدوام واحداً من أشد المفاوضين بأساً. وكنت أعرف أنه محاور مرعب في مهمة ما بعد الحرب في البحث عن السلام في الشرق الأوسط. وأخيراً وافق السوريون علي دخول الكويت. لكن فقط في دور إسناد عسكري غير مهم في المؤخرة.



وغادرت دمشق متوجهاً إلي أنقرة لكن الضباب كان يغلف العاصمة التركية. وعلي قيد بضع مئات من الأمتار من مدرج الهبوط اضطر قائد الطائرة لإلغاء محاولة الهبوط مرتين. وتسبب ضعف الرؤية في إفشال محاولة الهبوط أكثر من مرة، وطلبت من الطيارين الكف عن محاولة الهبوط، وتم تحويل طائرتنا إلي قاعدة إنجرليك الجوية حيث أخذت الطائرات الحربية الأمريكية أهبتها للقتال. وأمضيت الليل في أجنحة الطيارين العزاب. ونام كبار

العاملين معي علي أسرة خفيفة في غرف مشتركة بينما أقلت سيارات الأتوبيس صغار معاوني والطاقم الصحفي إلي فندق خمس نجوم. وعندما إلتقيت في النهاية مع أوزال في اليوم التالي كان صلباً كالعهد به.



وكان آخر توقفين لي مع أقوى حلفائنا بريطانيا العظمي وكندا. وكمؤشر علي خطورة الموقف التقي بي جون ميجور الذي تولي خلفا لمارجريت تاتشر في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠، في لفتة كريمة خلال توقفي للتزود بالوقود في قاعدة جوية ملكية في ألكونبوري. كان مؤيداً متحمساً كالمتوقع. وعندما استفسرت منه عما إذا كانت هناك حاجة لاستشارة أحد آخر. قال: فقط الملكة إليزابيث هي الباقية التي يجب إخطارها. وقال: «إنني أعتقد أنها لن -وضحك في سره – تمسك عن تقديم الموافقة للمرة الأولي منذ ثلاثمائة عام».



وفي أوتاوا لم يكن بريان مولروني أقل تأييداً من ميجور. والعجب فإن هذا التوقف الأخير هو الذي سبب لي لحظات غير مريحة. فقبل اجتماعي مع مولروني اجتمعت مع جاريث إيفانز وزير خارجية استراليا الذي تصادف وجوده في أوتاوا. كان إيفانز وزير خارجية متألق وقدير ولامع وممتاز. وكان صديقاً أيضاً. وسررت عندما علمت منه أن استراليا تؤيد التحالف بشدة. لكن سعادتي تراجعت بعد الاعتراض علي قضية الإخطار المسبق الدقيقة. ولاجدال في أن حالتي النفسية تأثرت بالإرهاق المضني. لكنني رددت بفور علي إصراره بضرورة إخطاره مسبقاً بالهجوم «لأن الاستراليين عرضة للخطر» ورددت عليه: «إن لديكم فرقاطة واحدة في الخليج. إن لدينا خمسمائة ألف جندي وجندية علي الأرض ولن أجازف بأمنهم بإخطار سابق لأوانه» وفي غمرة النقاش المحتدم الذي تلا ذلك

طلب إيفانز أن يعرف على الفور موعد الهجوم بدقة، وأعلن صراحة أنني أخفى الموعد عن حليف. كان تعريضه ولهجته غير مقبولة. وقلت بعنف: لن يكون هناك أخطار مسبق من أي نوع. وانقذت صداقتنا الاجتماع وكذلك قدرتنا على العمل عن قرب في عدد من القضايا المهمة المتعلقة بآسيا والهادى.

ليتوانيا تنفجر

عدت إلي واشنطن منتصف نهار الرابع عشر من كانون الثاني يناير يغمرني ارتياح لتشاوري مع كل الحلفاء. كان التحالف صلباً ومستعدا للأمر المحتم. وفي الوقت نفسه تمت تذكرتي بأن السياسة الخارجية هي سياسة متعددة الأبعاد في الغالب في أحرج اللحظات. وبينما نحن نتأهب للتدخل في حرب الخليج كنا نقوم بإجلاء الدبلوماسيين الأمريكيين والأجانب من الصومال حيث بات العنف العشائري يهدد باحتواءالبلاد في حرب صريحة. وفجأة نشبت أزمة في البلطيق وكشفت هذه الجولة التحدى الذي يواجه صانعي السياسة الأمريكية لدي تعاملهم مع مجموعة متنوعة من الأزمات كتلك التي تحدث عندما يكون بعض المسؤولين يعملون في واشنطن وبعضهم خارج البلاد. فالعالم لا يسكن ولا يهدأ بينما التركيز منصب علي أزمة واحدة. فمن شبه المحتم أن تحدث أزمة أخري، ولتحقيق النجاح فمن المهم للغاية تحقيق تعاون وتنسيق وثيق بين الإدارات والمسؤولين. وهذا هو السبب علي سبيل المثال لوجود مندوب من كل وكالة أو إدارة معنية علي طائرتي. وبينما لا توجد سوي أمثلة قليلة لمؤشرات الإخفاق فإنه يحسب لكل المشاركين حقيقة أننا بقينا علي اتصال وثيق كما فعلنا. ولأننا فعلنا هذا فقد استطاع الرئيس أن يمضي وقته في قيادة الولايات المتحدة في التعامل مع مجموعة الأزمات المتعددة لا في تصفية الخلافات أو سوء الفهم بيننا.



فى الحادى عشر من كانون الثانى يناير تفجرت فى فيلنيوس التوترات التى كانت تتراكم منذ بداية العام بين موسكو والحكومة ذات النزعة الاستقلالية فى ليتوانيا. فقد فتحت القوات السوفيتية المحمولة جواً التى وصلت إلي ليتوانيا لتطبيق قوانين التجنيد - نيرانها علي حشد يحيط بدار الطباعة الحكومية الرئيسى مما أسفر عن إصابة عدة مواطنين بجراح. ومع نهاية اليوم طوقت القوات محطة التلفزيون الحكومية ومبان حكومية أخري.

وبعثت برسالة إلي شيفرنادزة شرحت فيها أن ميتران وكول ودبما وجينشر وهيرد أبلغوني جميعاً أن أى قمع فى ليتوانيا سيرتب آثارا سلبية علي استعدادهم للاستمرار فى تقديم المعونة إلي الاتحاد السوفيتى. وينطبق نفس الأمر بوضوح علي الولايات المتحدة. ورغم استقالة شيفرنادزة فى عشرين كانون الأول ديسمبر، ولم يتبق له سوي أيام فى الخارجية أرسلت له الرسالة لأعطيه حافزاً ومصداقية يستند إليهما فى إمكانية التوجه إلي جورباتشوف ويتحدث إليه عن عواقب الإجراءات الناجمة عن فرض الحكم الرئاسى فى البلطيق.

ورغم اتفاق جورباتشوف وبوريس يلتسين علي تسوية الأزمة سلمياً إلا أن القادة المحليين تركوا الموقف يتداعي ليخرج عن نطاق السيطرة. وصباح ١٣ كانون الثانى يناير «الأحد الدامى» قتلت القوات السوفيتية خمسة عشر ليتوانياً وجرحت المئات فى هجوم علي محطة التلفزيون. وبدا أن سلطة جورباتشوف تتداعي وأن البلطيق علي شفا الفوضى.

كان إعداد رد مناسب علي الموقف عملية خادعة. ويقيناً لا يمكن الصفح عن العنف لكن يتعين أن تكون لغتنا أكثر من حادة. فضربة علي الرسغ قد تحبط همة أصدقائنا فى البلطيق، وتشجع منتقدينا فى الكونجرس الذين سيبادرون بالتأكيد إلي الاتهام بأننا ننظر إلي الطريق الآخر للإبقاء علي السوفيت فى تحالف حرب الخليج. والأهم أنه لو استغل السوفيت مهلة الخامس عشر من كانون الثاني يناير مفترضين انشغالنا فى المراحل الأخيرة للتخطيط للحرب فيتعين تحريرهم من أوهامهم. ومن ناحية أخري لم يكن هناك شك فى أن جورباتشوف يتعرض لضغوط متزايدة من أعداء الإصلاح. فالتشدد معه قد يشجع منتقديه ويضعف موقفه وهو ما يتعارض بوضوح مع المصالح الاستراتيجية الامريكية. علاوة علي ذلك فلم تكن نريد أن نكون أشداء للغاية مع جورباتشوف لدرجة ربما تغريه بالفكاك منا علي

حد قول الرئيس. واتفق الرئيس معى على ضرورة أن تكون استجابتنا محسوبة لكنها قوية بدرجة تكفى لإقناع كافة الأطراف بمدى جديتنا. وأعتقد أن البيان الطلى للرئيس وكذلك بيانى الذى صدر فى الفترة قبل اجتماعى مع أوزال فى ١٣ كانون الثانى يناير قد حقق هذا التوازن الدقيق. فقد أكدنا فيهما على أنه فى الوقت الذى نؤيد ونعجب بالمساعى السوفيتية للتغيير من خلال البيريسترويكا والجلاسنوست فإن استخدام القوة فى البلطيق يشكل تناقضاً جوهرياً ومأوساوياً لهذه المبادئ. وقلت إن الحوار السلمى لا القوة هو الطريق الوحيد نحو تحقيق الاستقرار والشرعية على المدى البعيد.



وفى صباح الخامس عشر من كانون الثانى يناير بذلت محاولة رسمية مع القائم بأعمال السفارة السوفيتية سيرجى شيرتيفريكوف الذى تولى إدارة السفارة حتى يتم تعيين بديل لألكسندر بسمرتنيخ وأبلغته بأنه ليس هناك مبرر البته لاستخدام القوة ضد حكومة ليتوانيا المنتخبة ديمقراطياً، وأن لدينا ما يبرر قلقنا من تغير السياسة السوفيتية نحو الأسوأ وقلت: «إن العنف الذى يحدث فى دول البلطيق الثلاث يثير مفارقات غير سعيدة بفترات سابقة فى التاريخ السوفيتى. إنه يقدم سبباً للقلق تجاه عملية الإصلاح، ويتعارض مباشرة مع تطمينات جورباتشوف للرئيس بوش فى قمة واشنطن بأنه سوف يحل مسألة البلطيق دون عنف. لقد أُنتخبتْ حكومات البلطيق فى عملية أوجدها جورباتشوف نفسه. إن القلق يساورنا من أنها تهدد تراثه التاريخى».

وبدون وجود تعليمات بدأ شيرتيفريكوف كالمتوقع. وقال: «إننى اقدر صراحة تعليقاتكم» مستفسراً عما إذا كانت تمثل وجهة نظر شخصية أم أنها بيان رسمى لحكومة الولايات المتحدة». ورددت ببرود: «لقد كلفنى الرئيس بأن أنقل قلقه. ولذا عليكم اعتبارها رسمية». ووصف هذه الأحداث بأنها «مأساوية تدعو للأسف» وأكد أن جورباتشوف نأى بنفسه عن تلك الحوادث، وأمر بإجراء تحقيق شامل. كانت اعتذاراته واهية. وقد فجرت التوترات إرتفاع الأسعار الأخير. وهناك تهديد حقيقى بحدوث الفوضى والإضطراب فى ليتوانيا. فالقوات

تحركت للفصل بين الأطراف المتناحرة التي تهدد النظام العام. وتساءلت: «ماهو سبيل إستيلاء القوات علي محطة التليفزيون؟». وقال: «لإسكات البيانات الملتهبة التي تحرض الجماهير علي مقاومة قوي الإصلاح الديمقراطي». وتذكرته قائلاً: «لقد عملنا بقوة لتعزيز العلاقات الامريكية السوفيتية وأنجزنا عملاً عظيماً. ومع ذلك فإن إستمرار العنف سيؤثر حتماً علي قدرتنا علي مواصلة طريقنا». ولم أكن واثقاً من أنه إستوعب الرسالة، ولذا فقد كررتها في محادثة هاتفية أجريتها في الصحي مع بسمرتنيخ بحجة تهنئته بتعيينه خلفا لشيفرنادزة وقلت: «إن قدرتنا علي إستمرار العمل في تعزيز علاقاتنا يعتمد علي تمسك حكومتكم بمبادئ البيريسترويكا وآمل ألا يشكل ما يحدث عودة إلي التفكير والممارسات القديمة».

وأكد بسمرتنيخ أن هذه الأحداث غير السعيدة «أحداث فردية ولا تمثل تغييراً في السياسة» وقال: «ليس هذا هو الشكل الذي ينبغي أن تسير وفقه الأمور. ويمكن تسوية هذه النزاعات إنها لا تشكل قمعاً. فالتوتر في هذه اللحظة خرج عن نطاق السيطرة».

وأحسست أن بسمرتنيخ يعتقد فيما يقوله لي. وكنت أعرف أيضاً أن جورباتشوف يتعرض لضغوط شديدة من اليمين. وما لم يقدر مدي الخطورة فربما يضطر إلي تبني خط أشد تطرفاً ضد دول البلطيق. كان بسمرتنيخ يفهم السياسة الأمريكية جيداً، وذكرته بأن الكونجرس لن يتسامح تجاه مزيد من العنف وكذلك الرئيس. وقلت: «لايمكننا أن نقف هكذا ولا ننتبه للتطورات الأخيرة. فإذا لم تفعلوا شيئا ألكسندر فسوف ينهي هذا كل شيء». وطمأنني بسمرتنيخ أن جورباتشوف يتفهم المخاطر المحدقة بعلاقتنا، وسوف يحل هذه الصعوبات بطريقة سلمية».



كانت وجهة نظري الخاصة في حينه أن جورباتشوف يعرف عما حدث أكثر مما يود تصديقه كرئيس، وربما يكون يخبر الولايات المتحدة بدرجة ما. واعتقدت أيضاً أنه يعرف ما تفعله قواته في البلطيق. فسلطاته تتآكل بسرعة. فعدم الإرتياح من الإصلاحات يشجع

منتقديه من اليمين. وفي غضون ثمانية أشهر سينجو جورباتشوف من محاولة إنقلاب لم تحسم مصيره. وفي حالة يأس أقدم على مغامرة مصرية للتحول بإتجاه منتقديه المحافظين. فربما حقف هجومه في البلطيق موقتاً من الضغوط الداخلية عليه. لكنه إذا استمر فسوف يدمر العلاقة الجديدة مع الولايات المتحدة التي عمل هو وشيفرنادزة معي ومع الرئيس لبنائها. وفي الوقت الذي لم يكن بوسعنا تجاهل التصرف السوفيتي لم نكن لنتحمل وطأة خسارة السوفيت عشية حرب الخليج. وهذا واحد من أمثلة كثيرة تنازعتنا فيها المبادئ والمصالح والواقعية والمثالية في سعينا لممارسة دبلوماسية خلاقة.

وأعتقد أن ردنا حقق التوازن الدقيق: الشدة الكافية لتجنب كارثة في البلطيق لكن دون دفع السوفيت للخروج من التحالف. وتلقي بسمرتنيخ الرسالة على نحو ما أملت، وهدأت حدة الأزمة أخيراً. لكن في وقت لم يتسن معه إنقاذ قمة بوش جورباتشوف المقررة في شباط فبراير ١٩٩١، والتي تأجلت لأجل غير مسمي. ولكن في الوقت الذي انتهت فيه مكالمتي مع بسمرتنيخ اقتربت أزمة الخليج من ذروتها. فسوف تنقضي المهلة في غضون أقل من ثماني ساعات. وفي غضون ما يزيد عن أربع وعشرين ساعة بقليل ستدخل أمريكا حرباً. فقد وقع الرئيس الأوامر الضرورية.

وأخطأت سياسة حافة الهاوية التي انتهجها صدام حساب قوة أمريكا على الصمود. ومن المؤكد أن ثمن أخطائه في الحساب سيكون مأساوياً، وكلي أمل أن يدفع هو وآلته العسكرية الثمن وحدهما لا هؤلاء الرجال والفتيات الذين كانوا يتأهبون في هذه اللحظة لتحويل عملية درع الصحراء إلى عاصفة الصحراء. ولم يتبق سوي شيء وحيد هو أن نصلي من أجل نجاحهم وسلامتهم.

الفصل الحادي والعشرون

عبور الحافة

إن هذه أصعب اللحظات التي عشناها.

إسحاق شامير
رئيس وزراء إسرائيل
لإيجلبرجر نائب وزير الخارجية
٢٣ كانون الثاني يناير ١٩٩١
في رد فعله على هجمات صواريخ سكود العراقية

حسناً فالأوقات بالغة التوتر.

بسمرتنيخ
وزير الخارجية السوفيتي
في مكالمة هاتفية مع الوزير بيكر
٢٤ كانون الثاني يناير ١٩٩١

صباح السادس عشر من كانون الثاني يناير تلقيت مكالمة من الرئيس. واستفسر قائلاً هل بمكنك القدوم علي الغداء؟ إنني أريد أن نتحدث. لم يكن هناك سوانا في غرفة الطعام الخاصة بمقر الإقامة في البيت الأبيض. كنا نجلس علي انفراد كتلك الأوقات التي التقينا فيها مرات لا حصر لها علي مدار الأعوام الثلاثين الماضية. لكن هذه المرة أحسست بتوتر داخلي من غير السهل رصده في رجل اجتماعي وانبساطي مثل جورج بوش. فقبل إنقضاء اليوم ستكون الولايات المتحدة في حرب. لقد اتخذ لتوه قرارات ستؤدي إلي إرسال ما قيل له أنه سيدفع مئات الجنود ومشاة البحرية والطيارين والملاحين إلي حتفهم. وفي لحظة الحقيقة في رئاسته وربما تكون اللحظة الأهم في الرحلة التي بدأناها معاً في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٧٨م، كنت أعرف أنه يلتمس شيئاً من الاطمئنان والسكينة.

وجدته متكدراً. إنه مطمئن للقرارات الصعبة التي اتخذها. وشعر أنه تلقي نصيحة جيدة من ديك تشيني والجنرالات، وكان مقتنعاً بأن قوات عاصفة الصحراء عالية التدريب والتجهيز وروحها المعنوية مرتفعة. وموضوعياً ليس هناك مجال للخسارة بأية حال، فينبغي أن ينتهي الأمر في غضون أسابيع بأدني خسارة بشرية، ويبقي أنه وهو الطيار الشاب السابق في البحرية في المحيط الهادي الذي خاض تجربة القتال من قبل يعرف أن الحرب لا تسير كما هو مدون في الكتب وخطط العمليات – فهناك «ضباب الحرب».

وكما ذَكّرَنَا كولين باول أكثر من مرة فالحرب مليئة بالمفاجآت. وأنبأتني لهجة الرئيس بأنه يشعر بقلق عنيف من احتمال حدوث عواقب وخيمة. وقال: «أعرف أن هذا هو الصواب الذي يتعين عمله. وأعرف أننا فعلنا الصواب. إننا لم نهدر فرصة واحدة. ولا يمكن الحصول علي تقديرات بالخسائر البشرية المنتظر حدوثها. فإذا كانت تقديرات العسكريين دقيقة فسوف تكون نتيجة المعركة القادمة جيدة. أما إذا كانت التقديرات خاطئة – كما حدث في فيتنام – فستكون الخسائر البشرية مرتفعة والنتيجة أقل يقيناً. وكنا نعرف نحن الاثنين مدي الخطورة الماثلة نتيجة العواقب المحتملة للخسائر في أرواح الجنود وبين العائلات والبلد، ويجب الإعتراف بأنه إنتابني قلق هائل مثله تماماً حيال النتيجة التي يحتمل حدوثها.

وقلت بالطبع: «إن قرار الدخول في حرب هو أصعب قرار يتعين أن يواجهه رئيس. لكنك اتخذت القرارات الصحيحة. لقد اتخذتها بالطريقة السليمة وسوف تؤتي ثمارها».

وإفترضت أن الجانب الشاق في مهمتي قد إنتهي. والآن سيصبح من الضروري بالطبع الحفاظ علي سلامة التحالف السياسي الذي أقمناه. وبالتأكيد سيتم استمالة السوفيت لطرح مبادرة دبلوماسية جديدة. ويمكن أن تهدد مثل تلك الجهود تماسك التحالف وستكون في حاجة إلي تذبيتها بلباقة لكن بحزم. وأحسست بعظمة الجهد الذي بذله الرئيس وإدارته في الإعداد لإقامة التحالف الدولي وتحقيق إجماع داخلي لتأييد سياستنا. لكن دبلوماسية القوة أخفقت في حمل العراق علي الانسحاب من الكويت، وأصبحت أعتقد أن السياسة تفسح مكانها لشيء آخر فسوف يتحول التركيز في هذه الأزمة إلي ميدان المعركة والبنتاجون. وكنت مخطئاً. وتقريباً علي الفور وجدت نفسي وقد عدت إلي قلب العاصفة. وكما توعد طارق عزيز في جنيف تحول العراق بسرعة إلي ضرب إسرائيل في محاولة لاستفزاز حكومة شامير للانتقام. الأمر الذي قد يشكل تصعيداً مأساوياً سيجهز التحالف السياسي والعسكري. وبينما صواريخ سكود تنهمر علي المدن الاسرائيلية ظهرت أمامنا مهمة سياسية إضافية. بهدف منع إسرائيل من الدخول في الحرب وخلال الأيام الأولي للحرب الجوية انفقت معظم جهودي في بذل محاولات لإقناع إسرائيل بعمل ما لم تعمله من قبل وهو الامتناع عن الانتقام من المعتدي، وكانت جهودي لحمل السوفيت علي عدم إحداث مأساة جديدة أقل نجاحاً. وانفجر بيان مشترك مع وزير الخارجية السوفيتي الجديد في أواخر كانون الثاني يناير محدثاً مشكلة كبري مع البيت الأبيض.

الحرب تبدأ

عقب تناول الغداء مع الرئيس يوم ١٦ كانون الثاني يناير عدت إلي وزارة الخارجية للإعداد لجولة مكثفة من الإخطارات، وفي الوقت الذي كانت فيه الطائرات الحربية الأمريكية وصواريخ توماهوك تقترب للانقضاض علي العراق عقدت لقاءات منفردة مع

سفراء إسرائيل والعربية السعودية وألمانيا وسوريا واليابان. وأجريت أربع عشرة مكالمة هاتفية مع نظرائي وزراء الخارجية وكبار أعضاء لجنتي الشؤون الخارجية في الكونجرس الأمريكي.

وفي تمام الساعة السادسة وإحدى عشرة دقيقة مساء بتوقيت واشنطن أيقظت ألكسندر بسمرتنيخ في شقته بموسكو وأبلغته بأن الهجوم على العراق سيبدأ «عما قليل». ورد بسمرتنيخ بأن هذا تطور مثير، وألح عليّ لمعرفة توقيت أكثر تحديدا. وأبلغته بأن يتوقع هجوما في غضون ساعة. وطلب مني التأجيل. فسيحتاج جورباتشوف بعض الوقت لتوجيه نداء أخير إلى صدام. ولهذا السبب تحديدا أحجمت عن إبلاغ السوفيت حتى قبيل وقت قصير من بدء القصف. وهكذا «لقد فات الأوان ألكسندر لقد تجاوزنا هذه النقطة».

وبعد سبع وعشرين دقيقة طلبني بسمرتنيخ على الهاتف. وقال: إن جورباتشوف يطلب كجميل شخصي من الرئيس أن يؤجل الحرب لأربع وعشرين ساعة على الأقل. وأكد، إن هذا طلب شخصي من رئيس الاتحاد السوفيتي». وأبلغته بأن الأحداث تجاوزت هذا الطلب «إننا في ساعة الصفر، ولا يمكنك تأجيل عملية بهذا الحجم».



وفيما بعد جلست في مكتبي وقد تناولت شراب مارتيني دوبل أشاهد شبكة سي إن. إن لمعلق برناردشاو والمراسل جون هوليمان وكلاهما أعرفه من أيام البيت الأبيض وهما يبثان على الهواء مباشرة من بغداد أن تقارير الحرب الجوية بدأ يثبت خطؤها على ما يبدو لأن شيئا لم يحدث. وبعدها بثوان بدآ في التحدث من تحت مكتبيهما فيما بدأت الانفجارات تهز بغداد. ودار بخلدي هاتحن هذا. وأتذكر التفكير في أنني كنت شبه متيقن من أنني لن أكون مرة أخرى في موقف أشاهد فيه بالفعل بداية حرب شاركت بدور هام في الإعداد لها. وعادت أفكاري لتدور حول طياري إف ١١١ الذين زرتهم في الطائف قبل خمسة أيام. وهاهم الآن في موجتهم الأولى للتحليق فوق بغداد. وتلوت صلاة صامتة تضرعاً لسلامتهم.

وبينما أنا أتابع وقائع الحرب الجارية على شاشة التلفزيون تأكدت أن عدداً من التقارير استخدمت الخرائط التي كشفت دون قصد عن أهداف خططنا لضربها هذه الليلة، وطلبت من مارجريت تاتويلر الاتصال بجون مكويلي من شبكة إيه بي سي . ورالف بيجلايتر من شبكة سي إن إن لإبلاغهما بأن بعض الخرائط تكشف خططاً فعلية للقصف. وللحقيقة أخذت الشبكتان باقتراحاتنا والتزمتا الحرص في المستقبل في عرض تقاريرهما. وفي وقت لاحق في المساء اتصل الرئيس هاتفياً وقال: «يبدو أن الحرب بدأت بداية طيبة»، وكان متحمساً للتقارير التي ترد من الميدان، فلم نفقد أي من طائراتنا في الطلعات الأولي للهجوم وهو أمر لا يصدقه العقل.

لكن سرعان ما تبدد ارتياحنا لانخفاض حجم الخسائر البشرية في صفوف التحالف في المساء التالي عندما سقطت ثمانية صواريخ سكود علي تل أبيب وحيفا. وكنت أحلق شعري في فندق شيراتون كارلتون عندما سمعت نبأ الهجوم. وتوجهت بالسيارة مسافة البلوكين الباقيين علي البيت الأبيض وقصدت مباشرة مكتب برينت سكوكروفت بالجناح الغربي في تمام الساعة السابعة و٣٩ دقيقة مساءً، وانضم إلينا لاري إيجلبيرجر وبوب جيتس وعدد من المساعدين في مجلس الأمن القومي.

اللغــز الإســرائيلي

خــلال فـتـرة الإعــداد للحـرب كـان إبعـاد إسرائيل عن دائرة الصـراع هو الشـاغل الاستراتيجي الرئيسي لدبلوماسيتنا. وتعقدت مهمتنا من جراء حقيقة أن العلاقات بين بلدينا لم تكن في أفضل حـالاتها. كنت لاأزال أعـتـقـد أن إسرائيل سوف تدرك أن ضبط النفس سيخدم أهدافها ومصالحها الأرحب. واعترف بعض أقدم أصدقائها بهذه الحقيقة. كانت النخبة العربية تعي أن صدام يشكل أكبر تهديد لها عن إسرائيل. ومع أنني استطعت تأمين التوصل لاتفاقيات مع كافة شركائنا العرب في التحـالف أنه إذا هاجم صدام إسرائيل أولاً وإذا ردت إسرائيل فسوف يظلون علي بقائهم في التحـالف. فليس بوسع زعيم عـربي التأكـد من أن

الجماهير لن تنزل إلي الشارع وتهدد استقرار نظمها إذا ردت إسرائيل بالانتقام. إضافة إلي أن مثل هذا التصعيد سيعطي إيران مبرراً لتعزيز موقفها السياسي في المنطقة بمغازلة الجماهير التي لم تتأثر وهي ترقب في الوقت نفسه التحالف يدمر ألد أعدائها العراق.

وفي أوائل كانون الثاني يناير حذر ديفيد ليفي وزير خارجية إسرائيل علناً من أن أي هجوم عراقي سيعتبر إعلاناً بالحرب وسيستدعي «عقاباً مروعاً». ولإبداء قلقنا بقوة من أن هذا التصرف سيكون سياسة غير حكيمة تماماً أوفد الرئيس لاري إيجلبيرجر وبول ولفوتيس لإسرائيل لحثها علي ضبط النفس. وكنت أعتقد أنه برغم تشدد ليفي فإن إسحاق شامير رئيس الحكومة الإسرائيلية قد أعد في الحقيقة حساباً استراتيجياً آخر قبل بدء الحرب بكثير يتمثل في كسر القاعدة والإحجام عن الانتقام والرد. وكان مثل هذا القرار بالغ الخطورة لأي زعيم إسرائيلي. فقد كان عنصر الرد الفوري الشامل دائماً هو عماد نظرية الرد الإسرائيلية. فمن المبادئ الأساسية في السياسة الإسرائيلية: إنه يجب أن يعرف العرب دائماً أنه متي هاجموا إسرائيل فإنها ترد بقوة ساحقة. لكن شامير يدرك أيضاً المخاطر الجمة علي إسرائيل. فالولايات المتحدة حشدت ائتلافاً دولياً غير مسبوق يضم دولاً عربية للتعامل مع أقوي تهديد لإسرائيل. فلن يفيد إسرائيل الإقدام علي عمل من شأنه تعريض هذا الإجراء موضع الترحيب للخطر. وكمسألة عملية لا يمكن للقوات الجوية الإسرائيلية مسايرة التحالف فيما سينزله بصدام. وأدرك شامير أيضاً أنه إذا تدخلت إسرائيل فسوف يساهم هذا في تصدع التحالف مما سيؤدي إلي خسارة إسرائيل لهدفها الاستراتيجي الأكبر – المتمثل في تدمير القدرات العسكرية لصدام حسين. ومن وجهة نظر سياسية محضة كان ضبط النفس مفيداً لشامير. لقد أضر تصلبه في عملية السلام بعلاقته مع الإدارة والرأي العام الأمريكي. وبالتصرف بشكل مسؤول فإن صورته الشخصية سوف تتحسن لديهما، وربما أحس أيضاً وله بعض المبرر أن إسرائيل تجني فائدة من ضبط النفس.

علاوة علي ذلك وكما بات معروفاً تماماً الآن فإن شامير كان يجتمع سراً منذ بعض الوقت مع الملك حسين في محاولة للتوصل إلي صيغة ربما تؤدي إلي إقرار سلام بين إسرائيل والأردن. وبرغم استمرار تأييد الأردن للعراق خلال الأزمة فقد ظل علي اتصاله مع شامير. وخلال أحد اجتماعاتهما السرية أبلغ شامير أنه إذا اندلعت الحرب فسوف يضطر

لمهاجمة أي طائرة إسرائيلية تدخل الأجواء الأردنية لمهاجمة العراق. وكان شامير يدرك أن الطيارين الإسرائيليين سيردون بالمثل وسوف يتجسد فجأة شبح حرب لتشمل بين العرب وإسرائيل. وكان شامير يدرك تماماً أنه يتعين علي إسرائيل ألا تعمل لمصلحة صدام بأن تدع نفسها تنزلق إلي الصراع.

❑ ❑ ❑

وبمجرد أن بدأت صواريخ سكود تنهمر علي المدن الإسرائيلية فإن تفضيل شامير لضبط النفس بدأ يتعرض لضغوط محمومة من قوات الدفاع الإسرائيلية ولاسيما القوات الجوية. وضغط وزير الدفاع موشيه أرينز للسماح بشن هجمات جوية انتقامية، وفي غضون دقائق من سقوط أول صاروخ سكود اتصل أرينز بالهاتف بديك تشيني يطلب الحصول علي الكود الإلكتروني (تحديد - العدو والصديق I F F) والذي يمكن باستخدامه تحديد الطائرات الصديقة من الطائرات المعادية. والأسوأ أن أرينز أبلغ تشيني بأن الهجمات المضادة التي يطلب شنها ستقتضي دخول الطائرات الحربية وطائرات الهليوكبتر الإسرائيلية الأجواء السعودية في طريقها لضرب العراق. وطلب أن يتصل الرئيس بوش بالسعوديين لضمان سماحهم بتحليق الطائرات الإسرائيلية في أجوائهم.

واتصلت بالرئيس في مقر إقامته وأطلعته علي هذه الطلبات. كانت علاقته متوترة مع شامير، ولذا فقد طلب مني الاتصال برئيس الوزراء مباشرة ومناشدته ضبط النفس والاتصال أيضاً بأرينز. وفي انتظار توصيلي هاتفياً بشامير اتصلت بسفراء العربية السعودية ومصر وسوريا لنقل رسائل مماثلة لهم: سوف نبذل قصاري جهودنا لعدم تدخل إسرائيل في الحرب. لكننا نتوقع أن تظل بلادهم علي صمودها كما تعهد لي شخصياً زعماء دولهم في أوائل كانون الثاني يناير. وأبلغت الأمير بندر بأن الإسرائيليين يريدون السماح لهم بالدخول في الأجواء السعودية لمهاجمة العراق. وقال بندر: إن الملك فهد رجل كريم لكن تقديم مثل هذا الطلب سيكون إهداراً للوقت.

وكنت أعرف ميشا أرينز جيدا من خلال عمله كوزير للخارجية وقد عملنا معاً بشكل جيد. وبرغم تشدده فقد اعتبرته دبلوماسياً عملياً أدي عملاً جيداً بالتوازن الحكيم مع متطلبات رأي عام إسرائيلي منفجر. وعندما تحادثت معه أخيراً في التاسعة وثلاثين دقيقة مساءً لم يكن مراجعه تصالحياً مما يعكس الضغوط التي يتعرض لها بوصفه وزير دفاع مطلوب منه عمل شيء ما.

وأبلغني أرينز بوضوح: «ليس أمامنا أي خيار. علينا أن نرد لقد هاجمونا. فلا يمكن أن تجلس إسرائيل هكذا وتضرب بالصواريخ ثم لا تفعل شيئاً». وأبلغته بأنه علي المستوي الشخصي «فإن الرئيس وكلنا جميعاً نشعر بالحزن والأسف لوقوع الهجمات». «إننا نتفهم الرغبة في الانتقام بكل تأكيد. لكن الانتقام سيكون كارثة. فليس من مصلحتكم تعقيد مهمتنا. إن هذا يشكل خطورة عليكم بقدر ما يشكل خطورة علينا. لا يمكنكم أن تدعو هذا الرجل يفلت من الشرك. آمل أن تجدوا طريقة بأقصي ما يمكن لعدم الرد علي الهجوم. عليكم أن تعتبروا هذا طلباً رسمياً بعدم الرد». وكان أرينز متصلباً، وبرغم تجاهل طلبه بالحصول علي الكود الإلكتروني (I F F) فقد أصر علي حق إسرائيل في الدفاع عن النفس. لكنه وافق علي بحث طلبنا بضبط النفس مع شامير علي الفور.

وفي هذه المحادثة كرر أرينز طلبه السابق بالحصول علي موافقة بدخول الأجواء السعودية. وكنت أعرف أنها مسألة مستحيلة. كان الملك فهد قد أعطانا تعهداً قوياً بالاستمرار في التحالف حتي إذا ردت إسرائيل لو تعرضت لهجوم من العراق، لكن السماح بدخول الطائرات الإسرائيلية الأجواء السعودية أمر بالغ الصعوبة. ثم كلما شددنا من صعوبة الرد أمام إسرائيل كلما قل فعلاً احتمال إقدامها علي الرد.



أخيراً وبعد ساعة تم توصيلي بشامير وقلت له: «إن الغضب يتملك الرئيس ويتملكنا جميعاً من هذا العدوان. لكن آمل ألا تردوا». وفي غضون دقائق من إطلاق صواريخ سكود أمر شوارتسكوف بتوجيه قاذفات مقاتلة أمريكية وبريطانية إلي غرب العراق بأوامر بالبحث عن

منصات صواريخ سكود وتدميرها وطمأنت شامير «بأن أربع طائرات إف ١٥ تحلق الآن فوق مواقع إطلاق الصواريخ. السيد رئيس الوزراء إننا سنتعامل مع غرب العراق بالجدية اللازمة. فلا يمكن أن تفعل قواتكم الجوية ما لا نفعله قواتنا. ولو كان الأمر كذلك فأبلغنا وسوف نفعله».

وكنت أعتقد أن شامير يريد البقاء بعيداً عن الحرب رغم ضغوط جنرالاته وضغوط الرأى العام، ولذا فقد ألمحت إلى أن ضبطه للنفس ليس ضرورياً فحسب بل إنه سيساعد في إصلاح العلاقات الثنائية والتي يعرف كلينا أنها تعاني من بعض المتاعب. وقلت: «إننا نقدر تمام التقدير نهج حكومة إسرائيل خلال الأزمة. وسوف نتذكر ذلك فهذا أمر بالغ الأهمية لنا». ولم يتفوه شامير بالكثير لكنه حذرني: «إن هذه مشكلة مروعة تواجهنا جميعاً. إن إسرائيل لم تقتصر مرة واحدة في الرد». وشكرني علي ما أشعر به من قلق وتعهد بمعاودة الاتصال بي في المساء. وقال: «إنني في حاجة للتحدث مع مجلس وزرائي» وكنت أعرف منذ البداية أن شامير لن يصدر أوامر بشن هجوم إسرائيلي قبل معاودة الاتصال بي.

وفي الساعة الثانية وثلاث دقائق فجراً أيقظني شامير في المنزل ليبلغني رسالة مروعة للغاية: «السيد الوزير لقد قرر مجلس الوزراء الإعداد لشن هجوم فوري رداً علي الهجوم علي تل أبيب وحيفا» وأبلغت شامير صراحة بأن مثل هذا الهجوم سيكون كارثة علي إسرائيل. وقلت: «لا أحد معرض للخطر مثلكم. فلا تزيدوا تعقيد الأمور أمام إنجاز المهمة لكم. وقبل أن تقدموا علي شيء دعونا نري إذا كانت الهجمات ستستمر».

وأقر شامير بأهمية أن تبذل إسرائيل كل ما تستطيع لعدم استفزاز الدول العربية. لكنه رفض استبعاد شن هجوم. وقلت: «السيد رئيس الوزراء لا يمكنكم عمل ذلك فليس في مصلحتكم. سوف نستجيب لكل احتياجاتكم. أياً كانت. لكن لا يمكنكم الإقدام علي هذا».

وتحدث شامير وكأن الانتقام أمر واقع. لكنني أدرك تماماً أنه يعي وأريئز الحقائق العسكرية: إنه لكي تهاجم إسرائيل العراق، فإنه يتعين علي قوات التحالف إما «وقف العمليات» أي وقف الطلعات الجوية في منطقة معينة، ومن ثم إخلاء ممر جوي لطائرات إسرائيل الحربية، أو إعطاء إسرائيل الكود الإلكتروني (I F F). ولم نكن ننوي القيام بأي

من الأمرين. وطالما أن الحال كذلك فإننا نعتقد أن توعد إسرائيل بالهجوم لن يتم تنفيذه علي الأرجح.

وللإعراب عن حسن نيتنا في التوصل لحل لهجمات سكود قرر الرئيس إعادة إرسال ايجلبيرجر إلي إسرائيل وأعطي في المقام الأول شيكاً علي بياض: أيا كان ما تطلبه إسرائيل ثمناً لابتعادها عن الحرب. وقلت لإيجلبيرجر: «ابذلوا كل ما في وسعكم لضمان السيطرة علي قضية صواريخ سكود»، ثم قلت مازحاً: لا تعد إلي الوطن إذا لم تنجح» ووعدني «لن أفشل».



وبعيد وصوله إلي تل أبيب في ٢٠كانون الثاني يناير أبلغ شامير، إيجلبيرجر أنه إذا استمرت الهجمات بصواريخ سكود فسوف تنتقم إسرائيل. وكان تقرير إيجلبيرجر عن الحالة المزاجية لشامير وأرينز بليغاً: «إن تصرفاتهما خطيرة وأصواتهما حادة... إن هناك حلاً لضبط إسرائيل للنفس - إننا نقترب منه» وأعرب أرينز عن اعتقاده بأن الولايات المتحدة لم تفعل ما يكفي للقضاء علي منصات إطلاق صواريخ صدام، وبالإضافة إلي شن مزيد من الهجمات الجوية طلب أرينز قناة اتصال مع أقمار التجسس الأمريكية حتي يتمكن المخططون الإسرائيليون من الحصول علي معلومات فورية عن تحركات القوات العراقية. وطلب إقامة قناة اتصال مباشرة مع مقر قيادة شوارتسكوف والسماح بتمركز طاقم تخطيط إسرائيلي علي متن حاملة طائرات أمريكية. كما أنه يريد كحد أدني إلحاق جنرال إسرائيلي بالقيادة المركزية الأمريكية.

ووافقت علي توصية إيجلبيرجر بضرورة رفض هذه المطالب برقة. كان أرينز يلح في طلب مساعدة القوات الأمريكية في وضع خطط الهجمات الإسرائيلية ضد العراق. كان هذا أمرا غير قابل للنقاش. واعتقدت أن أفضل طريقة هي المزيد من التزام التحالف لمواجهة صواريخ سكود. وكان الأمر صحيحاً تماماً كما وصفه إيجلبيرجر: «إن الأخطار التي تحدق بأهدافنا في عملية عاصفة الصحراء نتيجة ذلك .. (تتقزم) إزاء الأثر المحتمل لهجوم إسرائيلي».

وعلي مدار الأيام الخمسة التالية تم الاتفاق علي مختلف التدابير. فقد أمر شوارتسكوف قواته بشن مزيد من الطلعات الهجومية علي غرب العراق. ورغم أن إسرائيل رفضت عرضنا قبل الحرب بتزويدها بصواريخ باترويت فأنها باتت متلهفة الآن للحصول عليها. وبدأنا تبادل معلومات المخابرات مع إسرائيل التي واصلت طلب إقامة قناة اتصال مباشرة مع مقر القيادة الدفاعية بإسرائيل. وساعدت المخابرات الإسرائيلية القادة الأمريكيين في تحديد الأهداف، ووافق الرئيس علي بعض عمليات القوات الخاصة ضد أهداف في غرب العراق.

وبمجرد أن بدأنا في الاعتقاد بأن تهديد الانتقام الإسرائيلي بدأ يتراجع، سقط مزيد من صواريخ سكود علي تل أبيب في ٢٢ كانون الثاني يناير. واتصل بي إيجلبيرجر هاتفياً ليلقي أخباراً مزعجة: فقد نقل أحد مستشاري شامير المقربين رسالة عبر السفير الأمريكي: «إنه إذا لم يمكنكم إعطاءنا شيئاً كبيراً ومهماً فسنمضي في الانتقام». وجدد الإسرائيليون طلبهم بفتح ممر جوي بعرض خمسة أميال عبر الأجواء السعودية لشن عملية كوماندوز ضد منصات صواريخ سكود «وتوقف» الطلعات الجوية الأمريكية بالقرب منه لمدة ثلاث ساعات. وصدرت التعليمات لإيجلبيرجر بإبلاغهم أننا لن نفعل شيئاً لتمكينهم من شن هجوم. وعزز البنتاجون هذا الرأي بعد أن شعر بالإهانة لتصريح أرينز العلني بضعف أداء الجيش الأمريكي في تدمير صواريخ سكود. وفي الحقيقة فإن جهدنا لتدمير كل منصات إطلاق صواريخ سكود كان الجزء الوحيد من العملية برمتها التي كانت توقعات الجيش مفرطة في التفاؤل بشأنه».



وفي وقت لاحق من اليوم تلقيت طلباً ملحاً من البنتاجون. فقد أُسْقِطَتْ طائرة طيار أمريكي فوق غرب العراق، ويقتضي أكثر الطرق المباشرة لطائرات البحث والإنقاذ الهليوكبتر الأمريكية المرور في الأجواء السورية. واتصلت هاتفياً بوزير الخارجية السوري فاروق الشرع وطلبت منه إذناً من الرئيس الأسد لأسباب إنسانية. وقال الشرع: إن لمثل هذا الطلب آثار سياسية يتعين دراستها ووضعها في الإعتبار، وقلت له: ليس أمامنا وقت لمثل هذا التفسير. فينبغي القيام بعملية البحث في غضون ساعة وإلا وقع الطيار في أسر العراقيين. ورد الشرع

بعد لحظات قليلة. فقد وافق الأسد علي القيام بهذه العملية مرة واحدة بشكل استثنائي شرط عدم الإعلان عنها، وأن تُحَلِّقَ طائراتنا بدون أضواء. وتم إنقاذ الطيار في نهاية الأمر. ومع ذلك فقد رفض الأسد الرد علي طلب ثان قدمه البنتاجون، ونتيجة لهذا لم نستطع التحليق في الأجواء السورية بصواريخ توماهوك.

وعززت الهجمات الجديدة بصواريخ سكود الضغوط التي يتعرض لها شامير، وفي ٢٣كانون الثاني يناير بعث برسالة إلي الرئيس يطلب فيها رسمياً من الولايات المتحدة أن تتنحي وأن تدع الانتقام لإسرائيل، وقال شامير: بكل الاحترام اللازم للقوات الأمريكية «فإننا نعتقد أنه بمكاننا بل يتعين علينا أن نشن عملية أمامها فرصة لإنجاز المهمة وتحقيق أهدافها». وفي هذا الوقت من الأزمة كنا قد بذلنا الكثير لإسرائيل. وكان الرئيس مستعداً ليفعل الأكثر لكننا جميعاً كنا نعتقد أن الأوان قد آن علي إسرائيل لترد لنا الجميل. وصدرت التعليمات لإيجلبيرجر بإبلاغ شامير بأن الرئيس لا يمكن أن يوافق علي «وقف الحرب» لكن إذا ضبطت إسرائيل نفسها ولم تنتقم فإن الولايات المتحدة مستعدة لمضاعفة عدد صواريخ باتريوت في إسرائيل، وإرسال فريق من خبراء تحديد الأهداف لبحث اقتراحات التعامل مع صواريخ سكود وتزويد اسرائيل بمعلومات المخابرات التي تجلبها شبكة أقمار الاتصالات الجديدة المتقدمة التي تختبر في الخليج. وكنا نعتقد أن هذا تعويض يخدم مصالح إسرائيل تماماً.

وانزعج شامير مما إعتبره رابطاً غير مقبول في عرضنا. وانتقد رئيس الوزراء اقتراحنا باعتباره «غير إنساني» وقال إنه لا يفهم كيف يجرؤ صديق علي التفوه بمثل هذه الكلمات. فقد كدره الشرط الوارد في اقتراح صواريخ باتريوت. كان شاميريغالب ضميره من هجمات سكود الأولي، وبات يشعر الآن أن سماحته تعرضت للخيانة. وأبلغ إيجلبيرجر: «إن هذه أصعب لحظة نواجهها». وأبلغني إيجلبيرجر أن الكلمات لا تجدي «لقد قطعنا خطوة كبيرة إلي الوراء نكوصاً عن أجواء الثقة التي استطعنا تهيئتها خلال الاسابيع الأخيرة».

وفي إنكار للذات تطوع إيجلبيرجر بتحمل الفشل. وطلب مني السماح بالعودة إلي شامير وإبلاغه بأنه يشعر بالضيق لتجاوزه التعليمات الصادرة إليه بالربط بين المعونة الإضافية وبين الالتزام بعدم مهاجمة العراق. وسوف يؤكد إيجلبيرجر مجدداً أنه في الوقت الذي لن

توقف فيه أمريكا العمليات الحربية وأننا نتوقع في الوقت نفسه أيضاً أن تغل إسرائيل يدها فإن عرض الرئيس بتقديم المعونة غير مشروط وسينفذ علي الفور. وقدم إيجلبيرجر نصيحة بأن «تقديم شيء إلي جانب ذلك سوف يجعلنا نحصل علي معظم ما نريد» ولوضح لشامير في الوقت نفسه أنه لا يجب أن يطلب منا وقف العمليات الحربية».

وحتي في أحرج اللحظات لم يفقد إيجلبيرجر حسن التصرف. وأبرق لي قائلاً: «لو حازت نصائحي قبولك. فإنني استطيع العودة إلي شامير في ساعة مبكرة صباح الخميس. أما إذا لم يلق ذلك قبولكم وقررتم إعفائي: فأرجو انتظاري حتي أعود، إنني بحاجة إلي الطائرة لأعود إلي الوطن».

وكالمتوقع نصح إيجلبيرجر بحل خلاق لكسر الجمود. فتقديم مزيد من المعونة الأمريكية غير المشروطة إلي إسرائيل سيعطي شامير قوة كبيرة في مواجهة المتشددين في حكومته. فبوسعه الآن القول أنه انتزع تنازلات من الولايات المتحدة نتيجة التزامه بضبط النفس.

وفي النهاية أثبتت صواريخ سكود أنها لا تعدو أن تكون مجرد سلاح سياسي أكثر منه سلاح تهديد عسكري. وما هي المصلحة الاستراتيجية تنتصر في النهاية علي الاندفاع الكبير. وكان رفضنا إعطاء إسرائيل الكود الإلكتروني (I F F) حاسماً في تحقيق هذه النتيجة. وكان شامير يرأس حكومة ائتلافية هشة. فربما دُفِعَ للهجوم إذا حصل علي الكود الإلكتروني. وبدون هذا الكود كانت هناك مخاطرة فادحة بقيام طيار إسرائيلي بإسقاط طائرة أمريكية والعكس بالعكس، ولو حدث هذا لكان كارثة للدولتين. ورغم تفضيل شامير العملي بالبقاء بعيداً عن الحرب، فإنني أعتقد أننا لو كنا قد أعطينا حكومة إسرائيل الكود الإلكتروني لكانت قد ردت علي الهجوم العراقي عاجلاً أم آجلاً.

وقبل ساعتين من عودة إيجلبيرجر من تل أبيب في ٢٦ كانون الثاني يناير اجتمعت مع بسمرتنيخ للمرة الأولي منذ تعيينه وزيراً للخارجية. كانت هذه الجولة الأولي من ثلاث جولات عقدت يوم السبت هيمنت عليها تطورات الوضع في الخليج. وعلي المستوي الشخصي كنت تواقاً للتعاون مع بسمرتنيخ. فقد كان سفيراً لدي الولايات المتحدة وصديقاً للإصلاح في الاتحاد السوفيتي. والأهم أنه رد بسرعة علي تحذيراتي من التدخل السوفيتي في البلطيق، وتبادل بنجاح مع جورباتشوف بأن التأييد الأمريكي للبيريسترويكا سيتقلص إذا لم تتوقف أساليب استخدام القوة، وكان أقوي أصدقاء أمريكا بين رفاقه. وكنت أريد مساعدته في تعزيز قاعدة قوته وإلزامه شخصياً بالتعاون معنا. وبعد نقاش مطول أكدت خلاله مجدداً رأى الرئيس بأن اندلاع مزيد من العنف في البلطيق ينطوى علي كارثة للتعاون الأمريكي السوفيتي. ثم تحولنا لبحث أزمة الخليج. وطمأنني إلي أن جورباتشوف لن يتراجع عن الالتزام السوفيتي تجاه استخدام القوة لطرد العراق من الكويت. وقال: «كان علينا أن نجلس معكم ونبحث الأمور» وفي الوقت نفسه كان القلق ينتاب صانعي السياسة السوفيت مع ذلك من تصاعد حجم الدمار وارتفاع حجم الخسائر البشرية. كان من الواضح أن اللوبي العربي يمارس ألاعيبه القديمة. كان بسمرتنيخ يسعي للتوصل إلي صيغة لوقف القتال ومنح صدام فرصة لإنقاذ ماء الوجه للخروج من الكويت. وذكرته بأن صدام حصل علي كل فرص الانسحاب من الكويت وأنه تجاهل كافة قرارات مجلس الأمن الدولي. لقد فرض الحرب علي شعبه. وقال في نبرة تأنيب: «إننا سلبيون بالنسبة للخطوات السياسية في المرحلة التي تدور فيها الأعمال الحربية. إن هناك موقفاً متنامياً في العديد من البلدان من أن القصف أصبح أكثر تدميراً. وإنه لا يجرى في الوقت نفسه البحث عن أى شيء آخر. والأهم هو البحث عن حل سياسي لإنهاء الحرب. «وربما يكون من المناسب توجيه بادرة من نوع ما، وأضاف أن السوفيت يفكرون في عرض مشروع قرار جديد علي مجلس الأمن يدعو لوقف القصف.

كان اقتراحاً غير مقبول. ورددت: «بأننا إذا منحناه مهلة. فسوف نلوح أمامه فرصة لإصلاح بعض الأضرار التي حدثت. وسنمنحه فرصة لإعادة تسليح قواته. وسيكلفنا هذا أرواح جنودنا» وكنا نعرف أيضاً أن إجراء جدل آخر في الأمم المتحدة سيمنح السوفيت فرصة

جديدة لبناء زخم سياسي لوقف إطلاق النار مما قد يتيح لصدام حسين الفرار من الكويت ومعظم قواته سليمة.

وأمح بسمرتنيخ قائلاً: «إننا حقيقة في حاجة إلي اتخاذ بعض الخطوات. ومن المهم للغاية أن نبدأ التفكير في البني الأمنية ما بعد الأزمة» وأخيراً كف عن الحديث حول قرار جديد واقترح أن نختتم لقاءنا بإصدار بيان مشترك كالبيانين اللذين صدرا من قبل في موسكو وهلسنكي وطلبت منه العودة ومعه مشروع معد. وكمؤشر علي ضعف الأهمية التي أوليها لهذا البيان لم اقترح أن يقوم معاوني بإعداد المشروع الأولي للبيان المشترك كما فعلنا في مطار فنوكوفو / ٢ وفي هلسنكي.

وبعد يومين من يوم الإثنين ٢٨ كانون الثاني يناير عاد بسمرتنيخ حاملاً مشروعي بيانين مشتركين. أحدهما متعلق بحرب الخليج والثاني حول الشرق الأوسط. كانت صياغة كلا البيانين غير مقبولة بالمرة. فهي تحمل بصمات أصدقاء صدام حسين في الخارجية السوفيتية. كانت صياغة البيان المتعلق بالشرق الأوسط بالغة الخطورة بشكل خاص لأنها أعادت شبح إحياء الربط الذي سعينا لتجنبه منذ بداية الأزمة. وفي الوقت نفسه كنت أعرف أن هزيمة صدام حسين سوف تهيئ فرصاً جديدة لإحراز تقدم في المسائل العربية الإسرائيلية واقترحت أن نعمل علي التوصل إلي صياغة يقبلها الطرفان وترضي السوفيت وتمنح بسمرتنيخ قوة لتعزيز وضعه في موسكو بأنه قوي مثل سلفه وتبقي الضغط علي صدام.

وجاءت الصياغة الأخيرة حلاً وسطاً يطلق يدنا في المساومة أكثر مما يمنح لبسمرتنيخ. ووافق السوفيت علي «أن انسحاب العراق من الكويت لايزال يمثل هدف المجتمع الدولي». وبالمقابل وافقنا علي الصياغة التي طلبها السوفيت «إن الوزيرين لا يزالان علي اعتقادهما بأن تراجع الأعمال الحربية سيكون ممكناً لو قطع العراق التزاماً قوياً بالانسحاب من الكويت».



وعلي الغداء يوم الثلاثاء مع العاملين معي قبل اجتماعنا مع بسمرتنيخ لوضع اللمسات النهائية علي البيان بحثنا إمكانية أن هذه الصياغة ربما يتم تفسيرها بأنها ضعف في تأييدنا للانسحاب غير المشروط. ولهذه الأهداف المحددة تمسكنا بصياغة ترمي إلي تعزيز تصميمنا. وأضيفت عبارة: أن الوزيرين لايزالان علي اعتقادهما، لتشير إلي عدم حدوث تغير في سياستنا الحالية. وأصرويا أيضاً علي أن أي التزام عراقي بالانسحاب لابد وأن تعززه خطوات فورية وملموسة تؤدى إلي إمتثال تام لقرارات الأمم المتحدة التى تدعو إلي انسحاب غير مشروط. وخلصت إلي أن هذه المتطلبات تحمينا من الاتهام بأننا نرسى سياسة جديدة، كانت تسوية وسطا اعتقدت أنها مقبولة تماماً، ولاسيما أننا اقنعنا السوفيت بقبول صياغة جديدة حول الصراع العربى الإسرائيلي تجاوزت بكثير الصياغة الواردة فى البيانات السابقة.

كنا نعرف أن الصحيفة تنتاب البيت الأبيض من أن السوفيت يستعدون لينأوا بأنفسهم عن استمرار الحرب الجوية. لكننى لم أشعر أن الحاجة تقتضى مراجعة موظفى مجلس الأمن القومى. إنه بيان وزراى وليس بياناً رئاسياً، وعندما يتم إصداره فسوف يتأكد البيت الأبيض من أننا ألزمنا السوفيت بموقف أكثر رسوخاً بتأييد للسياسة الأمريكية في الخليج والشرق الأوسط.

واجتمعت مع بسمرتنيخ بعيد الساعة الرابعة بعد الظهر في ٢٩ كانون الثاني يناير. ونحن علي وشك الانتهاء قال لى: «سيكون من المفيد فعلاً نشر هذا البيان» ومن وجهة نظر عملية أبلغته بأن هذا قليل الفائدة. فسوف يغطيه الرئيس في خطاب حالة الاتحاد فى تلك الليلة. وقلت: «صدقنى يا ألكسندر. إن هذا لن يحتل سطرين في أى صحيفة أمريكية». واقترحت عليه التريث لمدة يومين قبل نشر البيان.

وكان بسمرتنيخ متصلباً، وحذر من أنه: «إذا عدت إلي موسكو ولم يصدر هذا البيان فسوف أواجه معارضة هائلة». فربما يستطيع اللوبى العربى إقناع جورباتشوف بالإصرار علي إدخال تعديلات. وأضاف: إن هذا حقيقى فيما يتعلق بالصياغة الجديدة حول الشرق الأوسط وقال: «إننى أريد أن نكون قادرين علي إدراج تلك الكلمات. ولكن عندما أعود إلي موسكو فسوف يرون الكلمات القديمة وقد اختفت وسوف نواجه مشكلة. دعنا نفرغ منه الآن ونجعل منه حقيقة واقعة» ووافقت علي مضض إلي حد ما علي أن نفعل ما يريده البيان،

وسوف نكتفي بنشره بغرفة الصحافة بالخارجية. واعتقدت أنه سيتم تجاهل الأمر حتي اليوم التالي بسبب خطاب الرئيس. وقررت الخروج علي عادتي المألوفة وعدم مرافقة بسمرتنيخ لهبوط الدرج. لأنني لم اشعر أننا قد اتفقنا علي شيء بشكل أهمية خاصة، ومما ضاعف من الخطأ، أن البيان لم تعده ولم تشرف عليه مارجريت تاتويلر التي غادرت بعد أن أبلغت صحفيينا بأنني لن أعقد مؤتمراً صحفياً مع بسمرتنيخ عقب الاجتماع. وسيتعين علينا بدون شك المسارعة بالتعرف علي الخطر وتقنتني من واحد من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها وأنا وزير للخارجية.

وفي البهو كان المصورون يضبطون كاميراتهم حتي يمكن للمراسلين الدبلوماسيين التعليق علي الجانب المتعلق بالسياسة الخارجية في خطاب الرئيس ومبني الخارجية مأخوذ كخلفية لهم. وكانوا أيضاً متلهفين لتغطية مغادرة بسمرتنيخ وأثناء مغادرته للمبني سألته مجموعة من الصحفيين بشكل روتيني عن سير مباحثاتنا وانتهز بسمرتنيخ الفرصة عند التوقف في فرح تقريباً وأخرج نسخة من جيب معطفه وبدأ في قراءتها أمام الكاميرا بمفرده.

وفجأة ظهرت رواية مثيرة لصحفيي الخارجية الذين انتابتهم العصبية بعد أن تحولت الأضواء عنهم للتركز على نظرائهم في البنتاجون والبيت الأبيض. ويشتهر الصحفيون بسوء السمعة لرغبتهم في عرض الأخبار من منطلق إما أبيض أو أسود. وهكذا وبدون الاستفادة والاستعانة بأي خلفية من مكتبي الصحفي. فطوا الخطأ فبإشارتهم إلي أننا سنقبل وقف إطلاق النار مقابل وعد من العراق بالانسحاب من الكويت فقد افترضوا خطأ أن مبدأ المشروطية قد أدخل في المعادلة للمرة الأولي. علاوة علي ذلك يمكن القول أن هناك ارتباطاً بين القضيتين وهي سياسة طالما قاومناها بإصرار وصلابة لعدة أشهر.



وبعد وقت غير طويل وجه سؤال إلي برينت سكوكروفت عن البيان خلال إيجاز صحفي في البيت الأبيض عن خطاب حالة الاتحاد. ولم تكن لديه فكرة عن البيان. وتشمم

الصحفيون رائحة رواية لدا. وكرئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض، فقد لمست في أكثر من مناسبة إلي أي مدي تعشق الصحافة ما أصبح يعرف بروايات «الشجار في غرفة القبطان» وطرأ علي ذهني ما يمكن أن تطل به علينا صحف الصباح من عناوين «صراع في الإدارة حول ضربة سياسية جديدة».

ولا يمكن أن ألوم سكوكروفت لانزعاجه بعد أن أمسكت المفاجأة بتلابيبه. وعندما اتصل بي مستفسراً عما يحدث طمأنته بأنني لم أوافق علي أي تغيير في السياسة، وبعد ليلة لم أذق فيها طعم النوم تقريباً. اتصلت بالرئيس لأقدم اعتذاري في اليوم التالي. وقلت «تعرف تماماً أنني لم أقصد بأي حال التشويش علي خطاب حالة الاتحاد. وكان يدرك تماماً أنني لا يمكن أن أحاول عمل ذلك، وقبل تفسيري بكل كرمه المعتاد. لكن سعار وسائل الإعلام خرج عن النطاق وبات يهدد بإلقاء ظلاله علي خطاب حالة الاتحاد، وأفادت التقارير علي نطاق واسع أنه غاضب مني. ومع أنه لم يظهر هذا الغضب لي مطلقاً فما كنت لألومه بكل تأكيد لو أنه أبدي غضبه مني. وعزز تقارير استياء الرئيس مني قدر كبير من تحمس جون سنونو رئيس هيئة موظفي البيت الأبيض، وكذلك بعض العربيين في مجلس الأمن القومي الذين تلهفوا لاقتناص ميزة من خطأ الحساب الذي ارتكبته. وحدث الخطأ نتيجة إهمال لا خطأ في التدبير. وكنت أعرف أن البيان لم يتضمن أي تغيير في السياسة، وكنت أعتقد بسذاجة أن طبيعته المحددة لن تستقطب سوي الاهتمام العادي المألوف. ولازلت أعتقد أن الحال لم يكن ليخرج عن هذا لو أن بسمرتنيخ لم يكن متلهفاً علي نشر البيان لأسبابه الخاصة. ولأنه معين حديثاً في منصبه فقد كان يحاول ترسيخ إقدامه كوريث شرعي لشيفرنادزة. فقد أراد توضيح أنه لاعب لا يقل مقدرة علي الساحة الدولية من سلفه. وعقب هذه المشكلة شعرت أنه تم استغلالي. لكني كنت غاضباً من نفسي أكثر من غضبي من بسمرتنيخ. كان لابد وأن أتصور ما قد يحدث. وخرجت بخبرة هائلة عن أساليب ولشطط ووسائل الإعلام لمجرد ارتكاب مثل هذا الخطأ غير المقصود.

وأثار البيان المشترك ضجة في حينه. وشكك المنتقدون في جدوي ومعقولية إصداره والطريقة التي عولج بها والتي اتسمت بالضعف – لكن البيان لم يكن عليه غبار في حد ذاته فهدفه هو ألزام السوفييت بالبقاء في التحالف معنا. فقد ذهب حليفنا العظيم وكان

بسمرتنيخ جديداً في منصبه ولازال اللوبي العربي يخضعه للإختبار. حيث كان هذا اللوبي يمارس ضغوطه من أجل مبادرة سلام جديدة. وحتي قبل وصول بسمرتنيخ إلي واشنطن كان الحديث عن وقف العمليات العربية يدور في موسكو. كانت فكرة تنطوى علي كارثة، فلو توقفت الحرب فسيكون من شبه المستحيل استئنافها. وأحسست أن صيغة جديدة تعيد إلزامهم بالوقوف مع التحالف وإجازة الأمم المتحدة القائمة سوف يعزز تعاوننا القائم.

ولازلت أعتقد أن هذا «لم يكن بالصفقة الكبرى». ومع ذلك فقد خدم البيان الهدف الذى تصورته. فبعد ثلاثة أسابيع عندما حاول جورباتشوف طرح مبادرته السلمية قبل وقوع الهجوم البرى فقد لجأنا إلي البيان المشترك لتذكيرهم بما سبق والتزموا به بالفعل. كانت ساخطاً علي معاملة الإحسان بالإساءة لدرجة لم أقاوم معها أدني رغبة في الانتقام.

ففي أحد الاجتماعات التى عقدت فى شهر شباط فبراير، وكان يحضرها عدد من منتقديَّ انتهزت المناسبة لأرسم تعبيراً جامداً علي وجهي وأبلغ الرئيس بجدية «إن أفضل شيء هو أننا حصلنا علي هذا البيان». ولكن في الأسابيع التالية أثبت جورباتشوف واللوبي العربي في حكومته أنهم أكثر إثارة المشاكل.

الفصل الثاني والعشرين

مناورة جورباتشوف

لو بدأت الحرب [البرية] اليوم، فسوف تبدأ وسيرى العالم كله أنها تبدأ في ملابسات يكون الاتحاد السوفيتي قد حقق فعلا انجازا ضخماً في التوصل لتسوية سياسية ... حينئذ سوف يتحمل أولئك الذين بدأوها المسؤولية على عاتقهم.

بريماكوف

المبعوث السوفيتي

٢٣ شباط فبراير ١٩٩١

أكد محاوري: «إنني لست هنا كي أثير الانقسام بيننا، ولن أكون هناك لأخلق المشاكل» الوقت بعيد ظهر الثامن عشر من تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٠، زارني بريماكوف السياسي السوفيتي الذي يتمتع بقدر لا بأس به من المهارة والدهاء، وكان لدى كل الأسباب المثيرة للشكوك. كان بريماكوف عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي أحد كبار أعضاء اللوبي العربي بالخارجية السوفيتية، صديقاً لي ومدافعاً عن صدام حسين.

كان بريماكوف يزور واشنطن ليطرح على الرئيس مبادرة سلام سوفيتية أقنع ميخائيل جورباتشوف بتبنيها بأمل إنهاء حرب الخليج. وجسدت زيارته الطبيعة المزدوجة للسلوك السوفيتي خلال أزمة الخليج. وفي لحظات حرجة كان تضامنهم الدبلوماسي لا يقدر بثمن، فالاتحاد السوفيتي قد وافق في الواقع في ذلك الوقت على كافة قرارات الأمم المتحدة القسمة ضد العراق، وكان صلباً في مطالبته بضرورة انسحاب صدام من الكويت.

وبمجرد أن بدأت الحرب الجوية في كانون الثاني يناير ١٩٩١ أصبحت الجهود السوفيتية لتجنب نشوب حرب برية بدون شك أكبر عائق سياسي أمامنا. وتحت ستار استعادة المكانة السوفيتية في العالم سعي بريماكوف إلي تملق جورباتشوف سعياً في الوقت نفسه لتعزيز مركزه في الخارجية والمكتب السياسي. ودبلوماسيا كانت جهوده ترمي إلي إنقاذ علاقة الحامي بالعميل التقليدية بين الاتحاد السوفيتي والعراق أكثر من اهتمامها بحمل صدام علي الانسحاب غير المشروط من الكويت، ونتيجة لهذا وجدت الولايات المتحدة نفسها الآن في بعض الأحيان تعمل في أهداف متعارضة مع أهم شريك استراتيجي في الأزمة، وبحلول شباط فبراير ١٩٩١ ساهمت مناورات بريماكوف في تعقيد خطط هجوم بري للتحالف لطرد العراق من الكويت.

وخلال عملية درع الصحراء تابعت تدخل بريماكوف بمزيج من الضيق والصبر. كانت جولاته الإقليمية والكونية أمراً بغيضاً لكننا مستعدون للتسامح إزاءه. فكل من رأي شيئاً يستطيع حمل صدام علي الخروج من الكويت دون شروط بدون اللجوء للقوة موضع ترحيب. وإذا كان لأحد أن يبدد أوهام جنون عظمة صدام فإنه بريماكوف الذي يعرفه منذ أكثر من عشرين عاماً، ويعتبره صدام أفضل السوفيت إلي قلبه. فضلاً عن هذا كنت أحب بريماكوف شخصياً. فقد أشاد به شيفرنادزة صاحب الفضل علي الكثيرين في البداية. لكنه ما لبث أن

بدأ يشعر بالملل منه لتدخله في اختصاصاته. ويعود أول لقاء لي مع بريماكوف إلي شباط فبراير ١٩٩٠ في موسكو عندما تحدثت وأجبت عن الأسئلة أمام لجنة الشؤون الدولية بمجلس السوفيت الأعلي التي كان يرأسها بريماكوف. وأتيحت لي فرصة معرفته بشكل أفضل في آيار مايو ١٩٩٠ في عشاء غير رسمي أقامه لي شيفرنادزة في منزل صديقه الفنان زوراب تسيريتيلي الذي أتحفنا فيه ليلته بوجبة جورجية عظيمة. في ذلك الوقت كانت العلاقات لاتزال وثيقة بينهما وكانت القنوات الدبلوماسية مليئة بالتكهنات بأن شيفرنادزة سيصبح قريباً رئيساً للوزراء وسيحل محله بريماكوف. وافترضت حينذاك أنه بدعوة بريماكوف كضيف وحيد علي العشاء أراد شيفرنادزة الإيحاء لي بأن بريماكوف ربما يكون نظيري قريباً. وأتي ثلاثتنا علي نصف جالون من الترخون، وهي فودكا جورجية قوية بنكهة الأعشاب بلون غسول الفم. واستمتعت برفقة بريماكوف في ذلك المساء. ودفعتني أنخاب الصداقة السوفيتية الأمريكية التي قدمت في تعاقب بلكنة إنجليزية رصينة إلي الاعتقاد بأننا نفكر بطريقة واحدة حول مستقبل اتجاه العلاقات بين بلدينا. وفي اجتماعاتي التالية مع المسؤولين السوفيت كان بريماكوف يلح في البحث عني لإجراء حوار خاص في ركن هادئ بغرفة الاجتماع. وبدا أنه ملتزم بالبيريسترويكا وموال لشيفرنادزة. كان ذكياً رقيقاً ومحاوراً ممتازاً ويعرف تاريخه العربي جيداً. ومع بداية الأزمة اعتقدت أن بريماكوف مؤهل للمساعدة في التوصل إلي تسوية سياسية.

مفاجأة بريماكوف في تشرين الأول أكتوبر

مع وصول بريماكوف إلي واشنطن في تشرين الأول أكتوبر كانت أوهامي قد تبددت منذ أمد طويل. وتهددت جهودنا لإبقاء السوفيت علي وفاق مع الدبلوماسية الأمريكية مراراً نتيجة نزوع بريماكوف لحماية دولة حليفة للسوفيت. وشككت في أنه كان واحداً من أعضاء اللوبي العربي الذين حاولوا تخفيف صياغة البيان المشترك الأول الذي عملت فيه مع شيفرنادزة في أوائل آب أغسطس. وفي اجتماع هلسنكي في أيلول سبتمبر حاول إزالة هذه الصياغة من بيان مشترك جديد وافق عليه بالفعل الرئيسان بوش وجورباتشوف. ووزع

لاستراتيجية صدام لإضعاف التحالف العربي بربط الأزمة الكويتية بالقضية الأشمل للصراع العربي الإسرائيلي، ولأنه وبعد ضغوط شخصية، وعلي غير رغبة شيفرنادزة تمكن من إقناع جورباتشوف بإيفاده إلي بغداد للتوسط في التوصل لاتفاق، وليس هناك مجال للشك في أن خطة بريماكوف كانت ذئبا في ثياب حمل، واستسلاماً لا حلاً وسطاً. وقد حذرني شيفرنادزة كثيراً، ففي رسالة خاصة سلمها إلي دينيس روس عبر سيرجي تاراسينكو نبهني إلي أنه يعارض بشدة الخطة التي يعرضها علي بريماكوف حالياً. وقد أحس بأن بريماكوف خانه وأن جورباتشوف أهانه لأنه بسماحه لبريماكوف بطرح مبادرة سلام فقد سمح له بتجاوز صلاحيات شيفرنادزة كوزير للخارجية.

وبدأ بريماكوف بما اتضح أنه الكلمات المشجعة الوحيدة التي سمعتها. وطمأنني بأن جورباتشوف أمره بإعادة التأكيد على أن السوفيت سيظلون علي تأييدهم التام للتحالف السياسي. ومضي القول: «أنه مهما حدث فسنظل معكم» واستدرك قائلاً: لكن من الضروري مع ذلك بحث مقترحات جديدة للتوصل إلي تسوية سلمية. وقلت لبريماكوف من الواضح أن هذا هدف ثمين لكن لا يتعين تحقيقه علي حساب المبادئ. وقلت: «لايمكننا مكافأة هذا التصرف، لا يمكن قبول ما هو أدني من الانسحاب غير المشروط. فالرئيس أبدي استعداده علي الدوام للإصغاء لأي أفكار ربما تساهم في تجنب إراقة الدماء. لكن مكافأة صدام موضوع غير قابل للتفاوض».

وقال بريماكوف: «حسنا. إنني أعرف هذا الرجل لعشرين عاما. إنه يعاني من عقدة الماسادا. فإذا وضعناه في الزاوية فسوف يحدث الانفجار». ولو خيرناه فقط بين الحرب والاستسلام فبالتأكيد سوف يختار صدام الحرب. ولن يثنيه التهديد بالقوة» ورددت عليه بجفاء إلي حد ما: «إنه إذا لم يكن التهديد بالقوة كافياً حينئذ ربما يتم استخدام القوة. واحتج قائلاً: «لكن الحرب سوف تخلق انفجاراً قد يكون من الصعب علي أي منا تجاوزه. فإذا انفجر الموقف فسوف يكون الانفجار مروعاً، ولذا فإذا كان بوسعنا تجنب إندلاع حرب، فنحن في حاجة إلي هذا. فإنه الآن موضوع في الزاوية. وعلينا أن نجد له مخرجاً. لقد رأيته وأحسست أنه لن يتراجع. لكن أعتقد أن هناك سبيلاً لوضع نهج يمكننا من إخراجه».

وباختصار عرض بريماكوف ما وصفه بأنه «إنقاذ ماء الوجه» بعبارات غامضة وأشار إلي أنه قد يكون من المفيد أن تلتزم الولايات المتحدة بعقد مؤتمر دولي بعد الحرب لمعالجة القضية الفلسطينية. وربما يتعين السماح لصدام باستمرار الاحتفاظ بجزيرتين متنازع عليهما وحقل الرميلة البترولي. وباعتبارهم لطرف معنيون فربما يرغب السعوديون في التفاوض علي الخصوصيات مع العراق. ورغم عدم ثقته إلا أنه كان يعتقد أن صدام سيجد في هذه الشروط شروطاً مقبولة، وما يلبث أن يوافق علي الانسحاب طواعية من الكويت. ولاعجب- فقد بدت كصيغة ربما يقبلها نيفيل تشمبرلين* .



والمثير للمفارقة أن رأي بريماكوف الكارثة لفترة ما بعد الحرب كان سيتحقق في الواقع علي وجه الدقة إذا منحنا صدام المخرج الذي اقترحه بريماكوف. ففي هذه الحالة كان صدام سيواصل الهيمنة علي المنطقة وستعتبره الجماهير العربية أعظم قائد بعد عبد الناصر. ولن تستطيع دولة عربية مقاومة نفوذ زعيم تحدي كلا القوتين العظميين. فمن شأن انتصار صدام تشجيعه علي شن مزيد من العدوان. وفي النهاية سوف تزيد مخاطر اندلاع مواجهات عسكرية أشد في المستقبل. كان خطة بريماكوف السلمية خطة دهاء. إنه يريد ببساطة حماية عميل ولم يكن هناك داع لإهدار مزيد من الوقت. فقد كان من المقرر أن أدلي بشهادتي أمام لجنة الشؤون الخارجية بمجلس النواب، ولم يكن هناك شيء في خطة بريماكوف لإنقاذ ماء الوجه ما يغري بالتأخر عن الذهاب إلي الكونجرس.

وقلت: «حسناً. لماذا لا تواصل محادثاتك مع دينيس روس وسوف يبلغني بما يحدث. لكن أري أنه من الصعب أن أشاركك التفاؤل. إن كل ما تقترحه هو إما مكافأة له أو سينظر إليه علي أنه مكافأة له».

ولم يكن بريماكوف أحمقاً. وبعد عدم التوصل إلي نتيجة أعاد تعهد جورباتشوف باستمرار التأييد. ووعد «بأنه لن تحدث فجوة بيننا. وسوف نؤيد كل ما تفعلوه أيا كان. وإذا

---

* رئيس الوزراء البريطاني ١٩٣٧-١٩٤٠ الذي اتبع سياسة تهدئة تجاه هتلر وموسوليني (المترجم).

كان هذا يعني الحرب فليكن. لكنني أعتقد أن هذا سيكون خطأ مروعاً. ورأي أنه سوف يزيد التطرف في المنطقة. واعتقد أنه سيدمر كليهما».

وفي الصباح التالي التقي بريماكوف مع الرئيس في المكتب البيضاوي. وكان بريماكوف قد نال في اجتماعه معي وفي الاجتماع التالي مع روس ما يكفي لتهذيب لغته مع الرئيس إلي حد كبير. وقاومت الابتسام عندما سمعته يتحدث إلي الرئيس بأنه لايجب مكافأة صدام حسين بأي حال. وباتت مقترحاته أشد حرصاً بين يوم وليلة. لكنها لاتزال ترقي إلي حد الاستسلام. فلن يوافق الرئيس علي أي منها. لكن أضيف جديد إلي سوء حظ بريماكوف بالاجتماع مع الرئيس بعد أن قرأ لتوه تقريراً مروعا أعدته منظمة العفو الدولية عن الفظائع المرتكبة في الكويت وكتاب بفصل الكيفية التي تصرفت بها قوات هتلر لدي إحتلال الدول. وأراد بريماكوف بدء حوار لكن لم تتح له فرصة علي الإطلاق. وقال الرئيس: «إنهم كالنازي. إنهم يحطون ويقتلون نهباً وسلباً لن نقبل هذا. إنكم تتفقون وجه من لا ينتمي إلي العالم المتحضر. لن نقبل هذا النوع من التصرف غير المتحضر في هذا اليوم أو العصر». وقال الرئيس إنه ليس لديه اعتراض علي زيارة بريماكوف لبغداد لبذل محاولة أخري من أجل السلام «لكن عليك بإبلاغه أنك وجدت حائطاً صلباً هنا».

كان إجتماع بريماكوف عملية تمهيدية في المقام الأول، مجرد مجاملة لجورباتشوف لإظهار أننا نأخذ السوفيت علي محمل الجد، ونحتاج لتعاونهم الدبلوماسي المستمر. لكن لا يمكن الثقة في أن بريماكوف سينقل تقييمنا بصدق إلي موسكو خشية تحمل الفشل، ومن ثم يخسر نقطة بيروقراطية. ولذا فقد بادرت عقب إنتهاء الإجتماع بالإقتراح علي الرئيس بأن يتصل مباشرة بجورباتشوف للتأكد من أنه يعرف أنه في الوقت الذي نقدر فيه مساعدته فإن خطة بريماكوف تعد كارثة.

الرهانات السوفيتية ورهاناتنا

وخلال تلك الفترة شكل تدخل بريماكوف إرباكاً ضخماً لنا. لأنه سرعان ما إتضح مع مرور الوقت أنه ولا جورباتشوف يتمتعان بنفوذ كاف لدي العراقيين لحملهم علي تعديل موقفهم. لقد أثارا ضجة هائلة دون أثر يذكر.

ومن ناحية أخرى كانت العلاقات الثنائية البناءة حيوية للغاية للمصالح الاستراتيجية الأمريكية. وكان تعاونهما ضرورياً في قضايا مثل الحد من التسلح والاستقرار في أوروبا. وكان جورباتشوف شريكاً جيداً معنا في الوحدة الألمانية والخليج. ومع المشاركة البناءة مع السوفيت فإن إحياء عملية السلام في الشرق الأوسط سيكون مهمة أقل صعوبة. كما أننا في حاجة أيضاً لمساعدتهم في صراعات إقليمية أخرى، ولذا فمن المهم أن تساعدهم الولايات المتحدة في عملية التحرير السياسي والاقتصادي في الاتحاد السوفيتي. ولكل تلك الأسباب كان من الضروري دفع ثمن مناسب لجورباتشوف. وكحد أدنى علينا أن نصغي إلى مقترحاته ونستقبل مبعوثيه. وأتذكر مراراً ملاحظتي خلال تلك الفترة «علينا ألا نسابقه في هذا» وكان الرئيس متفقاً مع هذا الرأي. وفي كل تصريح علني تقريباً، وفي كل محادثاته الخاصة مع جورباتشوف كان الرئيس حريصاً على القول أنه يقدر شخصياً تلك الجهود التي يعتبر في دوائره الخاصة أنها مبادرات خاطئة تحركها دوافع مخلصة، وكنا نريد نحن الاثنين عمل كل ما نستطيع لدعم موقف جورباتشوف المنحسر في الداخل. إن إصغائنا لمقترحاته وتسامحنا مع مبادرات بريماكوف الفضولية بأدب جم لهو خير دليل على مدى الضعف العقلي الذي اعترى موقف جورباتشوف.

ولأسبابه الاستراتيجية الخاصة إعترف جورباتشوف بشكل مماثل بضرورة البقاء في الفلك الأمريكي أيا كانت الضاضة التي يشعر بها شخصياً تجاه هذا الاقتراح. كان إستمرار الدعم المادي والمعنوي الأمريكي لبرنامج إصلاحه الاقتصادي المؤلم والمثير للجدل أمراً مهماً. ومن وجهة نظر سياسية كان يدرك تماماً أن مفتاح عدم انقطاع الدعم الإضافي لبرنامجه يقع في يد واشنطن. فقد تدخلنا لدي السعوديين وأصدقائنا لتقديم الدعم المالي لجورباتشوف. وبإختصار فهو مدين لنا ومحتاج لنا. كان دافعه لاستمرار تعاونه مع السياسة الأمريكية تجاه الخليج يتعرض لمقاومة مستمرة نتيجة لضغوط مضادة هائلة.

وجغرافياً لم يكن يفصل الاتحاد السوفيتي سوي بضع مئات من الأميال من الأراضي الإيرانية والتركية. ولذا فمن منظور عاطفي كانت الحرب بالضرورة علي أبواب الاتحاد السوفيتي. ولذا فإن قلقهم في هذا الصدد أشبه بالقلق الأمريكي تجاه نشوب حرب في أمريكا الوسطي، ومن ثم يمكن تفهمه. وتاريخياً وحتي غزوه للكويت كان العراق دولة عميلة

للسوفيت وواجهة لهم، وبعد خمسة أشهر تعرض العميل «الحليف» لأقوي هجوم جوى غربى منذ الحرب العالمية الثانية – كما أن زاعيه طرف دبلوماسى فى هذا الهجوم . وسوف يسرى هذا الشبح ليطوف بدول أخري حليفة سوف تتسائل بدون شك عن مدي مصداقية وديمومة ارتباطها بموسكو. وعسكرياً كان جورباتشوف يخضع لضغوط هائلة من جنرالاته. فالعراقيون لم يألوا جهداً فى تعزيز قواتهم التقليدية، وزاد من قوة تسليحهم السوفيتى الحديث حصولهم علي بعض الأسلحة الغربية المتطورة. وما كانت تكتيكاتهم التى صقلها علي مر السنين آلاف من الخبراء السوفيت سوي مرآة عاكسة للعقيدة القتالية السوفيتية. ومع أوائل شباط فبراير بات من الواضح أن الأسلحة والتكتيكات الأمريكية فى الحرب الجوية تذل جيش صدام. وكم تباهي الضباط السوفيت مراراً أمام زائريهم الأمريكيين فى أواخر ١٩٩٠ بأن الجيش العراقى سيكون نداً للتحالف بكل صدق. وفى هلسنكى حذرنى الماريشال سيرجى أخروميف. «عليكم ألا تسيئوا تقدير هؤلاء. فسوف يبلون بلاءً حسناً ولن تكون المعركة معهم معركة سهلة».

والآن فلابد وأن أخروميف وكبار المسؤولين العسكريين السوفيت تتملكهم العصبية البالغة لأن الحرب البرية لم تنزل الهزيمة بصدام حسين فحسب بل كشفت بوضوح زيف أسطورة القوة العسكرية السوفيتية.



ولا يتعين بأى حال الاستهانة بالأثر الحاسم للفوضى الداخلية علي عملية صنع القرار فى الاتحاد السوفيتى خلال تلك الفترة. وبحلول خريف ١٩٩٠ تعرضت البيريسترويكا لهجوم ضار واستقال شيفرنادزه، وباتت قبضة جورباتشوف علي السلطة مهتزة بشكل متزايد. وعلي يساره يقف أشد الإصلاحيين تطرفاً بقيادة بوريس يلتسين الذى لم يستمع تلكؤ خطي الإصلاح السياسى والاقتصادى، وكانت الشكوك تراودهم أيضاً حول الالتزام الحقيقى له.

والأهم كان جورباتشوف محاصراً بهجوم محافظ مضاد بلغ ذروته في الانقلاب البرلماني الفاشل في حزيران يونيو ١٩٩١ والمحاولة الانقلابية التي وقعت بعد شهرين لاحقاً. وأصبح الحرس القديم أشد ضراوة بشكل متزايد، وبالنسبة لهم كانت أحداث مثل توحيد ألمانيا وتحرير أوروبا الشرقية وانفضاض حلف وارسو ومعاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا مجرد نماذج للاستسلام السوفيتي. وساهم التخلي عن العراق في دفع المحافظين نحو الهاوية. وتكتلوا بصلابة ضد جورباتشوف، وتمثل الحد الفاصل في إنبعاث الحق السوفيتي في قمع أحداث ليتوانيا في كانون الثاني يناير ١٩٩١. فلو أن جورباتشوف كان يسيطر تمام السيطرة علي مقاليد الاتحاد السوفيتي لما وقع القمع في دول البلطيق حسبما أعتقد.

كانت كل تلك التوترات تحدث علي خلفية الخداع السوفيتي للذات عن انحسار وضعهم الجيوبولوتيكي. فأثناء حرب يوم كيبور* كان السوفيت شركاء أصليين. فقد هدد الاحتمال النظري بنشوب حرب نووية بين القوتين العظميين بتحويل هذا الصراع الإقليمي إلي حرب عالمية. أما في أزمة الخليج فلم يكن هناك وجود لمثل هذا الاحتمال النظري. فقد حيد البيان المشترك في الثالث من آب أغسطس قدرتهم علي التحرك من وجهة نظر عسكرية وبمجرد صدور قرار «كل الوسائل اللازمة» من الأمم المتحدة في أواخر تشرين الثاني نوفمبر أصبحت الدبلوماسية أقل أهمية من زاوية تحديد النتيجة النهائية، لأنه لا يمكن إجراء مفاوضات بعيداً عن قرارات الأمم المتحدة طالما نحن معنيون. كان للوبي العربي في الخارجية السوفيتية يعتقد أنه ما لم يُتَّخَذْ إجراء ما لتغيير هذا التوجه فسرعان ما سينظر إلي السوفيت علي الأرجح علي أنهم فكرة عارضة بالنسبة للهيمنة الأمريكية علي المنطقة.

وفي هذا الصدد إلتقت مصالح بريماكوف مع طموحات جورباتشوف الكبيرة في أن يصبح صانعاً للسلام. وفي غمرة الحرب الجوية كانت أزمة الخليج عرضاً أمريكياً بحتاً. ومع ذلك فإن مبادرة سلام سوفيتية ناجحة تحول دون اندلاع حرب برية ستسمح للسوفيت للتأكيد بأنهم ساهموا في صنع النتيجة. وسيتم كذلك تحقيق الحاجة المتزايدة لجورباتشوف لإظهار أن اتحاده السوفيتي المتداعي استعاد وضعه في الساحة الدولية.

---

* حرب أكتوبر ١٩٧٣.

هجوم جورباتشوف الدبلوماسي

وعلي الفور تقريباً تلاقت مختلف هذه الاعتبارات الخارجية والضغوط الداخلية لتدفع جورباتشوف نحو السعي لإيجاد حل لتفادي نشوب حرب برية. وبعد يومين من بدء الحرب الجوية إتصل جورباتشوف بالرئيس يطلب وقف الأعمال الحربية. وقال جورباتشوف: إن وحشية هجماتنا مروِّعة. فقد تلقي صدام الرسالة بوضوح. والآن بات علي التحالف أن يخفف من وطأة الهجوم ويسمح للدبلوماسية السوفيتية بالتوصل إلي تسوية سلمية. ورد الرئيس بأن وقف العمليات الحربية سيعني ببساطة السماح لصدام حسين بالادعاء أنه حمل أعداءه مرة أخري علي الإذعان. سوف تستمر الحرب.

وفي العاشر من شباط فبراير وبدعوي «التطورات المثيرة التي تبعث علي الإنزعاج في الخليج» أعلن جورباتشوف إيفاد مبعوثه الشخصي إلي العراق علي أمل وقف الحرب. وبعد يومين وصل بريماكوف إلي بغداد ليعرض خطة علي صديقه القديم صدام. كانت عناصرها خادعة بكل بساطة: فقد حث صدام علي إعلان استعداده للانسحاب من الكويت في غضون فترة محددة من الوقت يمكن أن يتم فيها الانسحاب. وأبلغ صدام أنه في المقابل يمكن إقناع التحالف بالموافقة علي وقف إطلاق النار – وهي صفقة لم يكن بريماكوف مفوضا لعرضها ولا يمكن قبولها حتي من ظاهرها – ولم يكن لدي الرئيس أي نية لقبول صيغة تتراجع عن قرارات الأمم المتحدة. فلم تجر مناقشة هذا البديل من جانبنا مطلقاً حتي لو في السر.

ولا يخامرني أي شك في أن بريماكوف روج لمبادرته السلمية الجديدة بإبلاغ جورباتشوف أنه يمكن أن يسدي لصديقه جورج بوش جميلاً سياسياً بإنقاذ حياة آلاف الجنود الأمريكيين. وصادف هذا التفكير هوى لدي جورباتشوف علي الأرجح لأنه شجعه علي الإعتقاد بأن بوسعه في ذات الوقت الاحتفاظ بعلاقته مع الولايات المتحدة وتعزيز حقه للتراجع «بإنقاذ» العراق، وتعزيز مكانته كرجل دولة من الطراز الأول.

وفي ١٥ شباط فبراير إتصل بي بسمرتنيخ هاتفياً في منتصف اجتماع لي مع الرئيس. وتلقيت المكالمة في غرفة صغيرة مجاورة للمكتب البيضاوي. وقال بسمرتنيخ إن جورباتشوف بعث لتوه رسالة إلي الرئيس تتضمن تفاصيل إقتراح بريماكوف. والأهم هو

وجهة نظره بأن بريماكوف إكتشف عنصراً غير محدد «مشجع في سلوك صدام» يبشر بإحتمال تحقيق إنفراج. وفى الحقيقة فقد أرسل صدام طارق عزيز إلي موسكو لبحث المسألة مع جورباتشوف. وأبلغته بأننا لن نصدر حكماً حتى نتلقي رسالة جورباتشوف.

وكالمتوقع أعطي بسمرتنيخ تفسيراً شديد الصراحة لما توصل إليه بريماكوف بالفعل. ولم تكن مفاجأة لى أن يحجم عن إبلاغي بأن رسالة جورباتشوف تضمنت عبارات غير مقبولة «سيكون من غير المرغوب شن هجمات برية شاملة حتي لو كانت مقررة خلال فترة مباحثات موسكو».

ولم تكن هناك حاجة لمناقشة ردنا. وفي بيان نشر في وقت لاحق في بغداد وافق صدام علي مجرد دراسة الانسحاب. وعندما قرأ الرئيس رسالة جورباتشوف كان رده بليغاً، «لا سبيل» ووصف الاقتراح بأنه «خدعة كبرى» وإتصلت ببسمرتنيخ لأؤكد له مجدداً الرأى بأن خطة بريماكوف ما هي إلا خدعة. وأبلغته بأننا لن «نقبل ما هو أقل من قرارات الأمم المتحدة بدون شروط» ومع ذلك فقد وافقته علي أن صدام قد يبدأ أخيراً فى تقدير عواقب موقفه. وأضفت قائلاً: «إننا نريد دليلا» والدليل الوحيد المقبول هو أن يكف صدام عن فرض أى شروط حول أى انسحاب، ويبدو أن بسمرتنيخ أُخذَ بصلابتي. وقال إن العراقيين خففوا موقفهم بدرجة مهمة، وأنه يتعين أن ترحب الولايات المتحدة بهذا التطور. لا أن تدينه.



وبعد ثلاثة أيام، وبعد ظهر ٨ شباط فبراير عاود بسمرتنيخ الإتصال بي هاتفياً حاملاً أفكاراً أكثر تشجيعاً. فقد أسفرت المباحثات بين جورباتشوف وطارق عزيز عن التوصل إلي اقتراح حل وسط جديد للسلام، وسوف تصل برقية من جورباتشوف لواشنطن فى غضون تسعين دقيقة. وأكد لي أن عناصر الاقتراح «تقع فى الإطار الذى ناقشناه». وعاد طارق عزيز إلي بغداد وطلب منه الحصول علي موافقة صدام حسين فى أسرع وقت ممكن.

وفي وقت لاحق بعد الظهر لخص شيتفيريكوف حطة جورباتشوف لي في مكالمة هاتفية إستغرقت عشرين دقيقة. وأول عناصر الخطة أن يعلن العراق استعداده للانسحاب ويوافق علي موعد محدد لسحب القوات. وثاني هذه العناصر أن الانسحاب سيبدأ في اليوم التالي لوقف إطلاق النار، وثالثها أنه سيكون إنسحابا غير مشروط. وأخيراً فإن القوات العراقية المنسحبة لن تتعرض لأي هجوم كما سبق وتعهدنا علناً.

وقال شيتفيريكوف أنه عندما استفسر طارق عزيز عن القضية الفلسطينية الإسرائيلية رد جورباتشوف بأن الاتحاد السوفيتي سوف يصر علي أن تعالج الأمم المتحدة كافة القضايا والصراعات المعقدة في الشرق الأوسط بما في ذلك قضية الأمن الإقليمي. وعلي هامش ملاحظات دونتها بخط اليد عن هذه المكالمة كتبت تعليقاً واحدا «عتيق». وها هم السوفيت يلعبون مرة أخري لعبة الربط. ولم تتضمن الخطة أي بند عن تبادل أسري الحرب وتجاهلت متطلبات معظم قرارات الأمم الأحد عشر.

ونوهت رسالة جورباتشوف إلي أن العراقيين ردوا علي مقترحاته «باعتراضات غاضبة» ومع ذلك فلم يرفضوها كلية، ووافقوا علي السعي للحصول علي رد فوري من صدام. ورأي جورباتشوف «بداية تغير مؤكد في فهم الوقائع من جانب صدام وفريقه». وألمح جورباتشوف إلي أن هذه المرونة الجديدة من بغداد يجب أن توضع في الاعتبار لدي شن عمليات عسكرية في الأيام القليلة القادمة. فقد شكا له العراقيون من أن «بغداد تتعرض لقصف عنيف في الوقت الذي كان المبعوث الشخصي للرئيس السوفيتي يزور فيه العاصمة العراقية». ومن المحتمل أن بريماكوف عرض القضية علي جورباتشوف بأن الولايات المتحدة أكثر اهتماماً بمهاجمة العراق من صنع السلام. وفي الواقع لقد قمنا بالهجوم لتحقيق السلام للكويت والمنطقة ككل.

وتضمنت خطة جورباتشوف عناصر جديدة. فمن الواضح أن صدام بدأ يتصرف وكأنه يخشي حقيقة وقوع هجوم بري أمريكي. لكن هذا لم يكن كافياً، وأبلغت جورباتشوف بأننا لن نفكر في الاقتراح ما لم يعلن العراق موافقته علي النقاط الأربع كلها. ثم أرسل الرئيس رسالة إلي جورباتشوف يعلن فيها أن الخطة غير مرضية. وفي وقت لاحق من يوم الثلاثاء ١٩ شباط فبراير أعلن أن الخطة «تقصر» في التوصل إلي حل مقبول.

واتصلت بيسمرتنيخ للتأكيد علي أن أي انسحاب لابد وأن يبدأ مع وقف إطلاق النار لا بعده كما اقترح جورباتشوف، وأن تبادل الأسري يجب أن يبدأ بعد أربع وعشرين ساعة. وقلت: إننا نخشي من أن صدام سوف يستغل أي غموض.

وفي رسالة ثانية إلي جورباتشوف في اليوم التالي خيب الرئيس آمال جورباتشوف بكل رقة. وجاء في الرسالة «إنني أقدر جهودكم لكن القلق يساورني من أن القصور والغموض الكامن في إقتراحكم قد يغري صدام حسين بأنه يمكن أن يفلت من عواقب أفعاله ويؤدي إلي نتائج غير حاسمة قد يستغلها سياسياً. وتضمنت الرسالة شرطاً جديداً بأنه لن تتم دراسة وقف إطلاق النار قبل بدء انسحاب عراقي «شامل» يجب أن يكتمل في غضون ست وتسعين ساعة.



وفي مناقشات جرت بعد ظهر الأربعاء والخميس وافق مجلس وزراء حرب الرئيس بالإجماع علي توجيه إنذار نهائي جديد مماثل للإنذار الذي وجه قبل شن الحرب الجوية، وبعد سلسلة مباحثات هاتفية مكثفة مع حلفائنا الرئيسيين مساء الخميس وصباح الجمعة أصبحنا متأكدين من أن شركائنا لازالوا عند التزاماتهم.

لكن جورباتشوف لم يكف عن محاولاته لمنع نشوب حرب برية. ففي صباح يوم الجمعة ٢٢ شباط فبراير مع إنتهاء الاستعدادات النهائية، اتصل جورباتشوف بالرئيس ليبلغه بصورة منقحة لاقتراحه السابق. وكنت أقوم مع الرئيس بتقييم التطورات الأخيرة في المكتب البيضاوي عندما جاءت المكالمة. كان الرئيس متأخراً عن موعده في حفل مقام بالحديقة الوردية، ومن المقرر بعد الحفل أن يشهد مراسم أداء لين مارتين لليمين كوزير للعمل. وطلب مني أن أتحدث معه حتي يمكنني الانتهاء من هذا الحدث. ولم يكن لدي كلينا أي فكرة عن أن المكالمة ستستغرق ساعة وأربعين دقيقة.

وبدأ جورباتشوف بالقول: «أود أن أطلعكم عن اجتماعاتي العاجلة مع المندوبين العراقيين. فالعراق لم يوافق علي تلك المقترحات. لكن عزيز يعتقد أن صدام حسين سوف يقبلها». وسوف يقبل العراق الآن بانسحاب فوري غير مشروط علي أن يبدأ في اليوم التالي لوقف اطلاق النار، وبمجرد اكتمال الانسحاب في غضون ثلاثة أسابيع وفقاً لقرار الأمم المتحدة ٦٦٠ تلغى كافة القرارات الأخرى. وفيما أشاد به كتنازل ضخم، أبلغني جورباتشوف بأنه تخلي عن فكرة ربط الأزمة بعملية السلام في الشرق الأوسط.

وأشرت إلي أن الانسحاب الذي يتصوره جورباتشوف غير فوري ومشروط. إضافة إلي ذلك فسوف تمنح هذه الخطة حصانة للعراق ضد مختلف العقوبات والتعويضات والتبعات حسب ما هو وارد في قرارات مجلس الأمن الدولي نتيجة لغزو الكويت. ودفعت الحرب البرية صدام نحو حافة الحقيقة. والآن فإنه يريد الإفلات من العواقب الأخرى لعدوانه غير المبرر. وأبلغت جورباتشوف بأنني لا أريد الافتراض بأنني أتحدث باسم الرئيس لكنني أعتقد أنه سيعتبر أن تلك الشروط غير مقبولة.

ولم يسر جورباتشوف من سماع هذا. وتساءل في لهجة تنبئ عن غضب: «ما هي أولوياتكم؟. لقد تعاونت معكم وحاولت التوصل إلي دور سياسي لحماية جنودكم والعراقيين. إن مهمتنا إيجاد حل حاسم لكنه عملي، فلا يمكنكم الحصول عليه في أسبوع واحد». ورددت: «لقد دخلوا الكويت في يومين» وعندما عاد الرئيس أعاد جورباتشوف عرض تفاصيل خطته دون جدوي. وبعد إطلاعه علي صور آبار البترول الكويتية المحترقة شعر الرئيس بالغضب الشديد لأن جورباتشوف يريد في واقع الأمر إعفاء صدام مما قررته كافة قررات الأمم المتحدة. وعندما طلب منه جورباتشوف إمهال المفاوضات بضعة أيام فلائل، لم يكن الرئيس في حالة تسمح له بالكلام. وقال: «إن هذا الرجل سيفعل كل شيء». لقد أشعل النار في حقول البترول الكويتية. لايمكننا قبول هذا». وسرعان ما تراجع جورباتشوف قائلاً: «انظر، إنني لا أدافع عنه» وفي ختام المحادثة وضع الرئيس سماعة الهاتف وهو يقول: «إنه أمر غير مقبول بالمرة».

مهلة وحيدة أخيرة

وفي غضون ساعة أمر الرئيس مارلين فيتزووتر المتحدث باسمه بتوجيه إنذار نهائي وحيد أخير «إنه في محاولة أخيرة لحمل العراق علي الإمتثال لإرادة المجتمع الدولي». وجاء فيه: «إنه إذا أريد تجنب حرب برية يجب علي العراقيين الموافقة علي كافة قرارات الأمم المتحدة السابقة، وأن يبدأوا انسحاباً شاملاً بحلول ظهر اليوم التالي ٢٣ شباط فبراير بتوقيت نيويورك علي أن يكتمل الانسحاب في غضون أسبوع».

وبعد ذلك طلب مني الرئيس الانضمام إليه في كامب ديفيد لتمضية عطلة نهاية الأسبوع. وقال إنه يريدني هناك عندما تكون الحرب البرية قد بدأت. وكنت أعتقد أن موضوعاً آخر يطرق فكره مثلي. فخلال الشهر الماضي استوعبت كما هائلاً من النقد اللاذع المنسوب إلي مصادر في البيت الأبيض نتيجة البيان المشترك مع بسمرتنيخ. واعتقدت أنها طريقته المعهودة في كرمها وصمتها - بإرسال إشارة بأنه غير راض عما يوجه لي. فهو يحتفظ بحقه في إعلان غضبه مني ويدخره للقاء خاص. لكنني أشعر أنه ما من أحد يملك هذه الرخصة وخاصة علي الملن ودون إعلان أسماء.

ورغم رفض الرئيس، بَذَل جورباتشوف محاولة محمومة أخيرة للتفاوض وقبل الساعة الواحدة يوم الثالث والعشرين من شباط فبراير أيقظني بسمرتنيخ في سريري في بيرش لودج ليبلغني بأن طارق عزيز سوف يعلن عما قليل التزام العراق بانسحاب فوري وغير مشروط وهكذا فليس هناك أي سبب لبدء هجوم بري، وقال: «إن إنذار الرئيس النهائي «عقّدَ الأمور» لكن الدبلوماسية السوفيتية حملت صدام علي القبول. والآن هانحن نتبادل الحديث مع بعضنا. ومرة أخري ذكرت بسمرتنيخ بأن عرض الانسحاب المطروح غير فوري ومشروط ويتضمن إلغاء أحد عشر من قرارات الأمم المتحدة. وأشرت إذا كان العراق قد إستطاع دخول الكويت في يومين فقد كان بوسعه بالتأكيد الخروج منها في غضون أقل من ثلاثة أسابيع.

وبدأ إحتياطي بسمرتنيخ الدبلوماسي في التراجع. وشكا قائلاً: إنه عشية نصر سياسي وعسكري، تدور خلافاتنا حول مسائل قانونية. إن هذا يشبه تجادل المحامين حول كلمات. ورددت بأن خلافاتنا جوهرية وليست خلافات شكلية، وأن صدام يستغل مباحثاته مع السوفيت كستار لحملة الأرض المحروقة لتدمير الكويت حتي ونحن نتحدث. لن نقبل بما هو دون التطبيق التام والقبول الكامل بشروط الرئيس. وقلت لو إقتضي الأمر سوف نبدي اعتراضنا علناً علي دعوة جورباتشوف بعقد لجتماع لمجلس الأمن مالم يوافق العراق موافقة تامة علي شروطنا ويبدأ في الانسحاب. واتضح لي أن السوفيت لازالوا عاجزين عن اقناع العراقيين بالموافقة علي مجرد الحد الأدني.



كان عناد صدام تكرارا للحظة الأزمة التي أحبطت نزعات جورباتشوف السلمية وجعلت مهمتنا أقل صعوبة. وفي النهاية تعنت العراقيون مع السوفيت كما تعنتوا معنا في جنيف. وعندما ظهر القوى العربي لإعادة تنظيم الجهود وإقناع جورباتشوف للتفويض بإجراء حوار جديد خذله العراقيون. وباستمرار كان العراقيون ألد أعدائهم. وكان بوسعهم بسهولة تعقيد جهودنا بشيء من المؤشرات المتواضعة. وبشكل خاص فربما اضطرنا انسحاب جزئي من الكويت إلي دراسة تأجيل الهجوم البري، ولجعلنا الأمر أكثر صعوبة أمام استمرار وجود السوفيت في التحالف.

ولم تكن عريكة جورباتشوف فقي عصر يوم إنقضاء المهلة، ولكن قبل بداية الهجوم البري بالفعل اضطررت أنا والرئيس لقطع مباراة تنس رائعة تخللتها مجموعة متنوعة من الكرات الطائرة علي ملعب راكيت. كان جورباتشوف علي الهاتف يقدم مناشدة أخيرة. وتلقي الرئيس المكالمة في مركز اللياقة الصغير. وجلست علي دكة في غرفة الملابس للرجال وهو يتحدث في الهاتف وأشار إلي أن الاختلافات بين الموقفين الأمريكي والسوفيتي قد

تقلصت لمجرد «التفاصيل» وألمح إلي أن بضعة أيام قلائل من المفاوضات ستكون مفضلة بالتأكيد عن مذابح الحرب البرية. كان الرئيس دمثاً في حزم. وأبدي تقديره لجهود جورباتشوف لكن صدام يتلاعب. وأشار إلي أنه لو تحدث جورباتشوف مع المراقبين في أي وقت في القريب فعليه أن يذكرهم بأن المهلة التي انتهت لتوها يتعين اعتبارها مهلة حقيقية كتلك التي سبقت الحرب الجوية. وفهم جورباتشوف الرسالة الضمنية الواردة في «اقتراح» الرئيس .

وبعد بضع دقائق أي في الساعة ٣,٥٢ دقيقة مساء عاود بسمرتنيخ الاتصال بي واستغرقت المكالمة اثنتين وعشرين دقيقة. كان بسمرتنيخ يسعي لمكالمة جورباتشوف مع الرئيس. وقال: «أمامنا الآن فرصة لوقف عودة النعوش إلي الوطن من الخليج». وامتدحت بسمرتنيخ لما وصفته «بالهدف النبيل» فقد سبق أن أشاد الرئيس بجهود جورباتشوف. لكن لايزال هناك خلاف جوهري: إننا نعتقد أن صدام لن يخرج من الكويت مالم يُجبر علي الانسحاب. وقلت: «إنهم لازالوا يريدون الشراء» وعلينا أن نقنعهم بأن أبواب المتجر لم تعد مفتوحة. عليهم أن يقفوا ويقولوا إنهم ضربوا ثم ينسحبوا فلا يمكن السماح باستمرار محاولاتهم للشراء. وتلقي بسمرتنيخ هذا الصد بكدر.

وفي وقت لاحق من المساء تحدثت إلي واشنطن مع الرئيس الذي كان في طريقه ليتحدث إلي الأمة عن بدء الحرب البرية. وفي الساعة ٩,٥٠ مساء إتصلت ببسمرتنيخ من مقر الخارجية الأمريكية لإبلاغه بأن العمليات البرية بدأت منذ نحو الساعة. وسوف يعلن الرئيس هذا في الساعة العاشرة مساء. لكنه طلب إبلاغ السوفيت سلفاً كنوع من المجاملة. وقال بسمرتنيخ: «من الأسف أن أسمع هذا». وشكرته لجهوده وتمنيت العمل معه في ظروف أفضل في المستقبل. ولم تستغرق المكالمة سوي دقيقة واحدة فلم يكن هناك شيء آخر يمكن قوله. واستقال بسمرتنيخ وأصابته خيبة أمل جمة لعجزه عن وقف ماكان يعتقد أنه خطأ مروع.

ومثلما فعلت لدي بدء الحرب الجوية. سرعان ما بادرت بإخطار حلفائنا بمن فيهم السكرتير العام للأمم المتحدة ورئيس وزراء إيطاليا والسكرتير العام لحلف شمال الأطلنطي

ووزراء خارجية أسبانيا وهولندا وسوريا واليابان وإسرائيل ولوكسمبورج، وشعك السرور بوضوح راهان شوفال لدى سماع هذه الأنباء، وتساءل عما إذا كنا نعتزم الإطاحة بصدام وردت: أننا لا نعتزم توسيع الأهداف الحربية أو السياسية، لكن إذا أطاح الشعب العراقي بصدام من السلطة «فلن نبكي».

نهاية سريعة

وبرغم أنه مخبط في الكثير من النواحي، كنت بصراحة شديد العصبية تجاه بدء العمليات البرية. فالحرب الجوية سارت بأفضل صورة فاقت أي توقعات: فلم نفقد سوى ٢٧طائرة أمريكية في القتال وهو رقم توقع بعضهم أن نفقده في الليلة الأولى للحرب. وانتابني القلق مع ذلك لإمكانية ارتفاع الخسائر البشرية. لأننا أرسلنا فيالق مدرعات ومشاة للعراق والكويت. كان العسكريون لايزالون يخشون من إستخدام العراقيين للأسلحة الكيماوية ضد القوات المهاجمة، وكنت أعرف أن الحرب البرية تنطوي على مخاطر وأكثر كلفة في الأرواح البشرية من الحرب الجوية. وأتذكر في إحدى اللحظات أنني تطلعت من نافذة مكتبي بالدور السابع عبر نهر بوتوماك نحو مقبرة أرلينجتون الوطنية. وتساءلت كم عدد الشباب الأمريكي الجسور الذي سيطويه تراب هذه المقبرة في القريب.

ولم يدر جدل داخلي حول ضرورة الحرب البرية لتحقيق أهدافنا العسكرية والسياسية. كنا جميعاً نفضل تفادي الحرب البرية لو كان ذلك ممكناً، وكملاح سابق كان الرئيس يدرك تماماً حدود قوة القوات الجوية، ولم يكن راغباً في مراجعة ثانية لآراء الجنرالات الذين كانوا يعتقدون أنه ليس هناك بديل.

ولم يتم تأكيد التخطيط الأولي للحرب البرية. وفي الحقيقة كم شكونا مراراً في أحاديثنا الخاصة، تشيني وسكوكروفت وأنا عن عزوف مبكر ملحوظ في البنتاجون لاستخدام القوة لتحقيق أهداف سياسية. وكرئيس لهيئة موظفي البيت الأبيض خلال فترة الرئاسة الأولى لريجان طالما سمعت كبار مسؤولي وزارة الدفاع يدافعون مراراً عن عدم الزج بقواتهم في

أماكن مثل جرينادا. وكُتِبَ الكثير حول هذه الظاهرة وعَكَسَتْ الخطط الأولية للعمليات التى تم تقديمها فى خريف عام ١٩٩٠ هذه العقلية. وأشار سكوكروفت بجفاء إلي أنها خطة قتالية ترمى إلي إظهار لماذا يتعين علينا ألا نقاتل. وكان محورها مهاجمة صلب الدفاعات العراقية فى الكويت، أسميناها خطة نصب واشنطن التذكارى – أى الاختراق فى العمق. فسوف تحتشد قواتنا بأعداد ضخمة، ولابد وأن الخسائر البشرية ستكون فادحة. وتحت ضغوط من تشينى وسكوكروفت ظهر ما يعرف بخطة «خطاف اليسار» وهي مناورة جريئة على الأجناب.

وكلما نوقش خيار الهجوم كان البنتاجون يلح فى طلب المزيد من الرجال والعتاد. وكانت إستراتيجية تشينى التى أيدتها أنا وسكوكروفت هي التوصية لدى الرئيس بالنزول عند كل المطالب، وكان المطلوب نشر ست حاملات طائرات وفرقة مشاة بحرية وفيلق ثان من الجيش من ألمانيا واستدعاء «١٥٧» ألف جندى لاحتياط بهدف تعزيز مصداقية التزامنا وتحقيق نصر سريع ساحق. وكانت النتيجة الإضافية لهذه الاستراتيجية ضمان إزالة أى تحفظات من جانب العسكريين.

وأعطاهم الرئيس كل ما طلبوه، وكان السيناريو الأخير للحرب خطة مناورة بارعة علي الأجناب والآن وبعد أن ارتاحوا إلي أنهم سينجزون مهمتهم أصبح قادة الجيش أكثر تفاؤلاً تجاه قدرة قواتهم علي إنهاء الحرب بسرعة وبأدنى قدر من الخسائر فى الأرواح. وطمأنتنا أيضاً تقارير استخبارات دوريات مشاة البحرية التى استطاعت التسلل خلف الدفاعات العراقية تحت جنح الظلام. واكتشفت تلك الدوريات أن الخنادق العراقية المتقدمة إما خاوية أو مليئة بالجثث. وأبلغنا باول أنه عندما وقع الهجوم سرعان ما تهاوت دفاعات العدو. كنت أعرف أننا سنفوز، لكننى أعترف بأننى كنت أقل اقتناعاً بأن نتيجة الحرب ستكون نظيفة وسريعة كما يقال لنا وخاصة فى ضوء التقديرات السابقة للخسائر البشرية.

وفى النهاية كان للتفاؤل أساس قوى. وكان الهجوم البرى الذى شُنَّ تحت جنح الظلام قبل فجر ٢٤ شباط فبراير نموذجاً يحتذى للنجاح. ونزلت هزيمة منكرة بقوات العراق. وكانت الخسائر البشرية الأمريكية ضئيلة للغاية. وفى غضون ثمان وأربعين ساعة تهاوت المقاومة

المنظمة في مسرح العمليات. وأعلن الرئيس أن الحرب سوف تستمر لكن قوات التحالف لن تهاجم الجنود العزل المنسحبين.

وفي صباح ٢٧ شباط فبراير تجمعنا في المكتب البيضاوي لتقييم الموقف. وكان الرأي العام السائد بيننا جميعا أننا حققنا أهدافنا السياسية والعسكرية من الحرب. وأتذكر قول كولين باول بتأثر: «إننا نقتل آلاف الأشخاص بالمعنى الحرفي للكلمة» فالعراقيون يحاولون الهرب عبر «طريق الموت السريع» واتصل الرئيس بنورمان شوارتسكوف الذي وافق على أن أهدافنا من الحرب قد تحققت. وفي هذه الليلة أعلن الرئيس وقف إطلاق النار بعد مائة ساعة من القتال.

وبعد ستة أسابيع من بدئها إنتهت عملية عاصفة الصحراء. كان الرئيس قد أحسن بتعهده «بأن هذا لن يستمر». وإنتهى أول اختبار لنظام ما بعد الحرب الباردة بانتصار القوة والدبلوماسية الأمريكية. فقد عوقب العراق وتلاشي تهديده الاستراتيجي للمنطقة إلي حد كبير. ولسوء الحظ سرعان ما ستؤكد الأحداث أن صدام مني بالهزيمة لكنه لايزال في السلطة.

الفصل الثالث والعشرون

رؤية للشرق الأوسط مابعد الحرب

علينا أن نتطلع الآن لما بعد النصر والحرب، وعلينا أن نستجيب لتحدي ضمان السلام.

الرئيس بوش

في خطاب إلى الأمة

واشنطن دي سي ٢٧ شباط فبراير ١٩٩١

كان مشهداً لايصدق من مشاهد جحيم دانتي. وبينما أنا متجه بالطائرة من الطائف إلي مدينة الكويت بعد ظهر التاسع من آذار مارس، بعد أقل من أسبوعين من إنتهاء عملية عاصفة الصحراء ما كنت لأصدق ما أراه من نافذة طائرة القوات الجوية الأمريكية. كانت سماء الصحراء الساطعة في العادة قد تحولت إلي ظلام دامس مخيف بفعل كتل سحب الدخان المنبعثة من أكثر من ستمائة حريق في آبار البترول التي أشعلت القوات العراقية المنسحبة من الكويت النار فيها. وبطول أكثر من مائة ميل خرجت هذه الحرائق عن نطاق السيطرة. كانت ألسنة اللهب ترتفع في السماء لآلاف الأقدام كنافورات الماء الساخن برتقالية اللون، وثم حرائق أخري تمور في صدوع بالأرض تمتد بطول أميال. وفي الوقت الذي هبطنا فيه بمطار الكويت الدولي المحترق الذي كان مسرحاً لمعركة ضارية بين مشاة البحرية الأمريكية والقوات العراقية. كانت طائراتنا بلونها الفضي البراق قد اكتست بطبقة من الشحوم البترولية.

وأنا أتطلع من نافذة كابينتي وجدت أنه من العسير إستساغة هذه الوحشية البالغة، وهذا العمل العدواني المتعمد. ولم يسعني عمل أي شيء سوي التعجب من كيفية تجرؤ أي إنسان علي إصدار أوامر بارتكاب هذا العمل غير المتحضر. وأتذكر أنني شاهدت حرائق في آبار البترول في تكساس من قبل – لكن لايمكن مقارنة هذا بأي شيء علي الإطلاق. لقد صدمني هذا المشهد المروع لدرجة أبرقت معها للرئيس لاحقاً بأنني رأيت لتوي دماراً هائلاً وكارثة بيئية مروعة. لابد أن يدفع العراق ثمن هذا.

وقبيل الهبوط استدرنا نحو الشمال لنحلق فوق الطريق السريع رقم ٦ وهو الطريق الرئيسي الذي يربط مدينة الكويت بالبصرة. حيث إنفرد طياروا التحالف بالجنود العراقيين المنسحبين في العراء في اليوم الأخير للحرب.

وشاهدت مئات الدبابات وناقلات الجند المدرعة وقطع المدفعية المحترقة. ناهيك عن مئات السيارات المدنية التي اغتصبها العراقيون. وعندما سدت المركبات المحترقة الطريق اندفع العراقيون نحو الصحراء حيث أصبحوا صيداً سهلاً. وعلي جانبي الطريق بعمق مئات

الأمتار تناثر الحطام فوق الرمال. ولاعجب فسرعان ما وُصِفَ هذا الطريق بأنه طريق الموت.

وما لبثت أن أحسست بأن هذا الدمار والرعب المأساوى ينطوى علي شيء أكثر إيجابية: وهو بذور الأمل لمنطقة طالما وئدت فيها أحلام السلام والمصالحة بقسوة لعدة قرون. فلكل هذا الدمار المنتشر تحت طريق رحلتنا الجوية اعتقدت أن غزو الكويت وتحريرها بواسطة تحالف قادته الولايات المتحدة قد هيأ واقعاً جديداً فى المنطقة. فالتطرف العربى فقد مصداقيته لتقوى يد الدول العربية المعتدلة مثل مصر والعربية السعودية. وبهزيمة العراق كسبت الولايات المتحدة عميق امتنان كافة دول الخليج. وفى الوقت نفسه حيدنا أخطر تهديد لأمن إسرائيل. وها هو الاتحاد السوفيتى القوة المثيرة للمشاكل فى المنطقة لأمد طويل، قد بات شريكا للدبلوماسية الأمريكية. واكتسبت مصداقية الولايات المتحدة الدولية زخماً أكبر عن أى وقت مضي منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية.

وبات من الواضح لى أن حرب الخليج فتحت نافذة غير مسبوقة للبحث عن إمكانية إقرار السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب. وكان دينيس روس مغرماً بالقول: «لقد شهدنا زلزالاً علينا أن نتحرك قبل أن تستقر طبقات الأرض فسوف يحدث الاستقرار ولن يستغرق وقتا طويلا علي الإطلاق». ووجدت هذا التشابه أمراً حتمياً فى ضوء التاريخ المؤلم للدبلوماسية فى الشرق الأوسط. ولم أكن علي يقين تام علي الإطلاق بمقدرتنا علي اغتنام هذه الفرصة النادرة. فلن يكون من اليسير غزو الكراهية المتأصلة مثلما حدث مع القوات العراقية. والآن فإننى أشعر بقوة أنه يتعين بذل هذا الجهد. فالدبلوماسية الأمريكية أوشكت علي تحقيق انفراجة عام ١٩٨٩-١٩٩٠ فى ظل ظروف غير مواتية إلي حد كبير.

رؤية ما بعد الحرب

فى شهادتى أمام لجنتى الشؤون الخارجية بالكونجرس ٦ ،٧شباط فبراير ١٩٩١ عرضت لمحة عن أفكارى تجاه إحياء عملية السلام فى الشرق الأوسط بعد الحرب. ومع ذلك لم تحظ

اللجنتان ولا وسائل الإعلام اهتماماً كافياً لهذا الجانب من شهادتي. وكان اهتمامهم منصبا علي استكشاف مدي التقدم في الحرب الجوية والمطالبة بالتعويضات من العراق بعد الحرب وانتقاد ألمانيا واليابان لعدم تقديمهما مزيداً من المساعدة المالية للتحالف.

كان الهدف الأساسي لشهادتي هو طرح تصور أولي لرؤية الرئيس لما بعد حرب الخليج. كان أحياء عملية السلام في الشرق الأوسط هو العماد الرابع لخطة من خمسة أجزاء لجلب الاستقرار إلي توازن القوي في المنطقة، ومنع عودة النزعة التوسعية العراقية للظهور مرة أخري، وعلي حد تعبيري «ضمان السلام» الذي نعمل علي تحقيقه للأجيال القادمة.

واشتملت الخطة علي ترتيبات جديدة للأمن القومي بما في ذلك قوة حفظ سلام عربية يدعمها تواجد بحري أمريكي موسع في المنطقة، واتفاقات إقليمية للحد من التسلح لوقف انتشار الأسلحة التقليدية، ومنع العراق من إعادة تبني برامج صناعة أسلحة الدمار الشامل، وبرنامج طموح للإعمار الاقتصادي، وجهود جديدة للصيانة لتقليل الاعتماد الأمريكي علي البترول*.

وكان الجانب الأكثر إثارة للجدل في شهادتي هو التأكيد علي ضرورة إشراك عراق ما بعد صدام في جهود خلق منطقة أكثر استقراراً. وقلت: «إن عصر الإعمار والإنعاش ينبغي ألا يكون فرصة لأعمال انتقامية ضد دولة فُرِضَتْ عليها الحرب نتيجة طموحات ديكتاتور. فالمستقبل الآمن المزدهر الذي يأمل كل شخص في أن يراه في الخليج يستدعي إشراك العراق».

وفي اليوم التالي لشهادتي طرحت فكرة بنك التنمية في الشرق الأوسط في تعليقاتي أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي لتمويل التنمية الاقتصادية في المنطقة. وعرضت هذه الفكرة بدون موافقة مسبقة من وزارة الخزانة التي كانت تبدي فتوراً

* كان موضوع الطاقة إضافة متأخرة للخطة في رد فعل غير رشيد في المقام الأول علي مقال نشرته الواشنطن بوست كشفت فيه عن خطة النقاط الأربع قبل عدة أيام من إدلائي بشهادتي، وكان يهدف أيضاً إلي حث البيروقراطية علي المشاركة في التنمية. وأثار هذا الإقحام لموضوع داخلي في خطة مكرسة للسياسة الخارجية قدراً معقولاً من الدهشة في البيت الأبيض.

تجاه الفكرة. وعندما أعلن الرئيس علانية في وقت لاحق أن الأموال الأمريكية لن تنفق علي إعمار العراق، ماتت فكرة بنك التنمية. كانت حالة تقليدية تماماً لزرع فكرة جيدة وحكيمة للغاية قبل أن تكون جاهزة.

ولازلت أري أن الخطة بأكملها تصور قيم لما فيه من رؤية وتفاؤل في المقام الأول. كان بنك التنمية حلاً خلاقاً بشكل خاص. ولا يزال الشرق الأوسط أرض الثروة غير المتكافئة، هو المنطقة الوحيدة في العالم التي تفتقر إلي وجود مثل هذا البنك. ومع شروط مناسبة حول أي معونة لإعمار العراق، وعلي سبيل المثال عراق ما بعد صدام، لايزال البنك يمثل فكرة جيدة ولم أفاجأ عندما تبنته إدارة كلينتون عام١٩٩٤.

ولسوء الحظ وكما أثبتت الأحداث التالية أن الإطار الذي حددت ملامحه لم ينفذ إلي حد كبير، باستثناء عملية السلام. فقد أيدت دول الخليج في البداية فكرة قوة حفظ السلام العربية ثم ابتعدت عنها في هدوء. وفي الحقيقة فإن أمن الخليج يقع الآن بقدر كبير علي عاتق الولايات المتحدة كما كان الحال قبل عاصفة الصحراء.



ويرجع فشل خطة ما بعد الحرب في جانب منه إلي إساءة تقديرنا للفترة التي سيستمر فيها صدام. فمعظم تخطيطنا في هذا الصدد بني علي افتراض أن صدام لن يستمر في السلطة. وعندما عزز سلطته في الشهور التالية لإنتهاء العمليات الحربية تقوض الكثير من أسس الخطة.

وخلال شهادتي التزمت الإدارة بمحاولة السعي لإحياء عملية السلام. وقلت أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب: «دعونا ألا نخدع أنفسنا. لقد أثارت هذه الأزمة مشاعر بين الإسرائيليين والفلسطينيين لن تزول بسهولة أمام المصالحة» وأضفت قائلاً: ومع ذلك ربما لاحت فرص للسلام لو كان لدي الأطراف استعداد له. وها هو وقت لاستكشاف ماإذا كان هناك وجود لمثل هذه الفرص.

كان فشل محاولتي الأولي في دبلوماسية صنع السلام في ربيع ١٩٩٠ قد ولّد لديّ شعوراً بخيبة الأمل واستكنت إلي حد ما لرأي يقول: إن الآمال ضئيلة في إحراز تقدم في المستقبل المنظور. وأتذكر قولي لنفسي بعد ذلك إن عزوفي الأولي عن المشاركة كان له أسبابه القوية، وأنه يتعين عليّ أن أصغي لنفسي والآن وبرغم نجاح الدبلوماسية الأمريكية والعرب نفسها لاتزال بعض الأصوات المحترمة تعتقد بأنه ما كان يتعين إنفاق الأموال الأمريكية علي القضية.

وقبل ثلاثة أيام من مغادرتي إلي الشرق الأوسط تضمنت مذكرة داخلية تعكس آراء هاريي شيرمان أحد أبرز أعضاء فريق التخطيط بالخارجية تقييماً محبطاً للموقف: «إن المتاح أمامنا لحظة قصيرة لإعادة ترتيب بعض أثاث المنزل الداعر علي أمل جعله أكثر راحة».

ومع ذلك كان تقييمي نابعاً أساساً من الحرب. وكمسألة عملية أحسست أننا ربما نتعرض للانتقاد علي الأرجح لو أننا لم نبذل محاولة جديدة. فأثناء حشد هذا التحالف السياسي والعسكري ضد العراق تعهدت مراراً بأن الولايات المتحدة ستعالج القضايا الأشمل للشرق الأوسط عقب تسوية أزمة الغزو. وبدرجة كبيرة مكنني هذا الوعد من إحباط جهود ربط غزو الكويت بالصراع العربي الإسرائيلي، أما وقد أعطيّتُ كلمتي في هذا الصدد شعرت أن عليّ التزاماً معنوياً بأن أبذل المحاولة.

وليس هناك شك في أن بيئة المنطقة قد تغيرت. وبات من الواضح أن العالم كله يريد فجأة التقرب من الولايات المتحدة. فقد ولت الإمبراطورية السوفيتية فقيم ومبادئ التجربة الأمريكية للديمقراطية والسوق الحر يتم اعتناقها في مختلف أنحاء العالم علي نحو لم يسبق له مثيل من قبل. وبدا كما لو أن الجميع يريدون أن يكونوا أوثق أصدقاء أمريكا. وبرغم أننا لم نبذل جهوداً كبيرة لشرح هذا التصور، فإن هذا التقدم العالمي للمثاليات الديمقراطية يقدم ما نعني به حقيقة بإصطلاح «النظام العالمي الجديد» وليس لاختفاء الصراعات الإقليمية كما فسره الكثيرون. وتعزز مركزنا أيضاً كقوة عظمي وحيدة نتيجة للحرب. وأصبحنا نتمتع بقوة ومصداقية هائلتين في مختلف أنحاء العالم، وأصبحنا نقف علي قمة نفوذنا في الشرق الأوسط. وكنت أعتقد أن الوقت قد حان لأغتنام اللحظة. فلو ترددنا لفقدنا فرصة تاريخية.

وعارض بريث سكوكروفت الفكرة فى البداية، ولنفس الأسباب المتعددة التى دفعتنى إلي تجنب طرح مبادرة سلام فى الشهور الأولي بعد أن توليت وزارة الخارجية، اعتقد سكوكروفت أن أى جهد سيبذل محكوم عليه بالفشل، وتمثلت وجهة نظره فى أن إسرائيل هي العقبة الرئيسية أمام السلام، ولن يكون بوسعنا إقناع شامير بالتخلى عن معارضته المتصلبة بفتح حوار مع الفلسطينيين. وفى أحد اجتماعاتنا مع الرئيس قال: «إننى أعتقد أنه لا يمكن تحقيق أى شىء. هل نريد حقاً طرح شىء من حيث لا تلوح فرصة حقيقية للنجاح».

وكنت أعرف أن الرئيس متلهف معى لبذل محاولة: فقد أسر لى بذلك عدة مرات، وعندما فاتحته فى الموضوع فى شباط فبراير وافق بحماس علي خطتى. لكن إذا استمرت معارضة سكوكروفت لطرح مبادرة جديدة سيصبح النجاح أكثر صعوبة. ولذا فقد طلبت من نائبى إيجلبيرجر زيارته. وأبلغه إيجلبيرجر بصراحة أو أننى راغب فى بذل جهد فعليه ألا يعارضه. وأتي سعى إيجلبيرجر الودى مع زميله ثماره ووافق بريث.

تصــور المســارين

إستخلصت الكثير من الدروس المهمة من خبرتى السابقة مع عملية السلام. وبات من الواضح لى الآن وعلي سبيل المثال أن أى مبادرة أمريكية جديدة ستفشل إذا استندت فحسب علي الأمر الواقع دبلوماسياً. إن بذل محاولة جديدة لإقامة حوار بين الفلسطينيين والإسرائيليين كما فعلنا عام ١٩٨٩ سيثبت قصور الرؤية ولن يجدى نفعاً، وأثناء الحرب أعطي بعض الفلسطينيين الأسطح وهم يهللون لسقوط صواريخ سكود العراقية علي مدن إسرائيلية ونتيجة لذلك إزداد تشدد الموقف الإسرائيلى. ومن الناحية العملية سيستحيل إقناع شامير بالمشاركة مع الفلسطينيين دون إغراء إضافى. وسوف تتطلب أى مبادرة جديدة بعداً لدولة عربية.

واستخلصت درساً أخر مهماً عن أفضل طريقة للتعامل مع شامير. كان شامير شخصية شديدة التناقض. فقد كان يريد أن يكون صانع سلام لكنه أيضاً «مستوطن» جعلت سياساته

في الضفة الغربية السلام أبعد منالاً. وخلصت إلي أن الطريقة الوحيدة للتعامل مع هذا هو ابتكار صيغة ما تضعه في موضع يستحيل أن يرفض فيه أي مبادرة جديدة.

وتوصلت إلي أن أفضل طريقة لاغتنام اللحظة هو ابتكار وسائل جديدة لكسر التابو المتعلق بالمباحثات المباشرة القائم منذ بداية تأسيس إسرائيل ١٩٤٨. فلم تؤد معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة عام١٩٧٩ إلي كسر هذا الحاجز قطعياً. وباستثناء مصر فلن تتعامل حكومات عربية مباشرة مع الإسرائيليين. والحجة مثيرة بكل بساطة: لا يمكنكم تحقيق السلام إذا لم يمكنكم التحادث. وطرأ علي ذهني أن هذه أفضل فرصنا بل وربما تكون آخرها لكسر هذا الحاجز.

وقررت في مشاوراتي مع كبار مستشاري أننا سنحاول سلوك نهج ذي مسارين. وسوف نحاول إحياء عملية تؤدي إلي إقامة حوار إسرائيلي فلسطيني - رغم اعترافنا بأن مسألة التمثيل الفلسطيني ستكون في النهاية أصعب القضايا علي الحل. ومع ذلك وفي الوقت نفسه سوف نقترح مساراً ثانياً - إجراء مباحثات مباشرة بين إسرائيل والدول العربية في شكل مؤتمر إقليمي حول الشرق الأوسط برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي تمثل فيه كافة الأطراف. كان هذا الشكل تجربة محسوبة في غموض بنّاءّ. فيمكن للعرب الإدعاء بأن هذا هو المؤتمر الدولي الذي طالما سعوا إلي عقده، وبالمثل يمكن أن تدعي إسرائيل إن هذا لايعدو أن يكون مجرد مباحثات مباشرة أرادتها علي مدار أربعين عاماً. ولا تختلف عن مباحثات جنيف ١٩٧٣ التي شاركوا فيها، وليست مؤتمراً دوليا موسعاً برعاية الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وللعمل علي تهيئة فرص نجاح المسار الثاني سيتعين عليّ إقناع كلا الجانبين بأن الجانب الآخر قد أبدي تغيراً مهماً في نهجه. ولهذا السبب قررت اقتراح ما أصبح يعرف بالتبادلية المتوازنة. وسأطلب من إسرائيل وجيرانها العرب دراسة تدابير معينة لبناء الثقة كوسائل للإعراب عن أن الجانبين مستعدان لتهيئة أرض جديدة في مسألة السلام. وكنت أعلم أن كل جانب سيكون في حاجة ما من الطرف الآخر لأغراض التغطية السياسية. وسيكون علي العرب تبرير أي تحركات تجاه إسرائيل بالإشارة إلي مرونة إسرائيل تجاه

الفلسطينيين. وبالمثل سيكون علي الإسرائيليين وضع أى تنازلات من جانبهم فى إطار مصالحة أشمل مع الدول العربية. إضافة إلي ذلك فلن يكون أى جانب مستعد للتحرك أولاً. وكنت أعتقد أن الخطوات المتبادلة المتوازية هي الحل المنطقى لهذا المأزق.

وسينطوى التطبيق علي مقامرة كبيرة لكنه ممكن. واستندت حساباتى علي افتراض بأنه سيكون من الصعوبة البالغة علي العرب القول لا للولايات المتحدة بعد كل ما بذلناه فى عاصفة الصحراء. وكنت أعتقد أيضاً أنهم لن يستطيعوا الجلوس علي الهامش كما فعلوا عام١٩٨٩. ولأسبابهم الخاصة عليهم أن يبرهنوا أيضاً عن اهتمامهم بالقضية الفلسطينية. ومع فقد المتطرفين العرب لمصداقيتهم وبعد أن دب الشقاق فى صفوفهم تعزز اعتقادى بأن العربية السعودية ودول الخليج الأخري ستشعر بثقة أكبر، ومن ثم ربما تكون أكثر استعدادا للإقدام علي مخاطر أكبر، وربما يصبح الأسد أكثر استعداداً لإبداء المرونة بعد أن أصبح حلفاؤه السوفيت شركاء – لامتنافسين – مع الولايات المتحدة.

ولو استطعت إقناع الدول العربية بالموافقة علي مباحثات مباشرة فلن يستطيع شامير الرفض فى النهاية علي حد اعتقادى. لأن إسرائيل كانت تقول علي مدار أربعين عاماً إنها تريد إجراء مفاوضات مباشرة مع جيرانها العرب. وفى الوقت الذى علمتنى فيه تجربتى مدي الصعوبة التى سألاقيها فى العمل مع شامير كنت أعتقد أيضاً أنه يريد أن يكون رئيس الوزراء الذى بدأ عملية ستجلب السلام يوما ما لإسرائيل.

اختبار المياه

ولأننى كنت أعتقد أن شامير هو أكثر عقبة مباشرة، فمن المهم الإعراب أولاً أن حرب الخليج قد أحدثت تغيراً فى نهج العرب. ولهذا السبب قررت ضرورة أن تكون العربية السعودية هي أول توقف لى فى جولة تستغرق عشرة أيام فى سبع دول شملت إجراء مباحثات فى موسكو وأنقرة. وفى مباحثاتى فى العربية السعودية وإسرائيل ومصر وسوريا أوضحت أن الولايات المتحدة مستعدة لأن تكون ما وصفه الرئيس «محفزا للسلام» لكن ليس

قبل أن تبدى كافة الأطراف استعدادها لتحمل المخاطر. وبعد شرح تصور السارين بالتفصيل ألححت علي محاوري بضرورة تأييده، واستفسرت عما إذا كانوا سيدرسون اتخاذ خطوات تصالحية لو كان نظراؤهم علي استعداد لفعل الشيء نفسه.

وعقب وصولي إلي الرياض صباح الثامن من آذار-مارس اجتمعت مع نورمان شوارتسكوف الذي كان شديد الحماس بعد نجاح الحرب، وقوياً في اعتقاده بأن القوات الأمريكية قد انجزت مهمتها ويتعين ألا يطلب منها البقاء في المنطقة يوماً واحداً دون مبرر. وقال لي: «إننا في حاجة للخروج من هنا اليوم قبل الغد». وطلبت منه ألا يقلق بسبب هذا الموضوع فقد وعد الرئيس بانسحاب مبكر كما تعهدت بنفس الشيء للسوفيت.

وقبل لقاء الملك فهد التقيت علي العشاء مع الأمير سعود وزير الخارجية ومع الأمير بندر، وفي أعقاب انتصار التحالف لمست لديهم جميعاً إحساس بالارتياح العميق – ليس فقط تجاه وضعهم في المنطقة. بل أيضاً لتعزيز علاقتنا الثنائية. ومع ذلك ساورهم القلق من استمرار وجود صدام بالسلطة رغم هزيمته. وحددت الإطار العام لخططنا باستمرار العقوبات التي قررتها الأمم المتحدة لضمان عدم تهديد صدام لجيرانه. ولم تبدد تطميناتي كل قلق السعوديين.

وعقب اجتماع موسع اجتمعت لاحقاً مع الملك فهد علي انفراد لبحث عملية السلام. وقلت: «يمكننا الشعور بارتياح كبير لما حققناه معاً. لكن لا يمكننا الاكتفاء بما أنجزناه في الحرب. وعلينا الآن أن نعطي مزيداً من الطاقة والتصميم لضمان السلام». ولم أكن أرغب في الإيحاء بالعجرفة أو الغطرسة. لكن الولايات المتحدة اكتسبت مصداقية لدي طرفي القضية الفلسطينية الإسرائيلية. إننا نرغب في توظيف هذه المصداقية. إننا مستعدون بعد الحرب لنشمر عن سواعدنا وأن نعمل جاهدين لإقرار سلام عربي إسرائيلي كما فعلنا لهزيمة صدام. «لكن دعنا نكن صرحاء: إن بوسعنا العمل علي التأثير علي مواقف إسرائيل ونهيئ فرصاً للسلام. لكن فقط إذا كنتم ملتزمون علي قدم المساواة بالتحرك قدماً. وهذا يعني أنه يجب عليكم أن تساعدوننا بتقديم وسائل المعالجة. فلا يمكننا. بل لن نأخذ الأمر علي عاتقنا وحدنا». وبدا الملك مستغرقاً في التفكير ويصغي بعناية ويهز رأسه من حين لآخر.



وحددت الإطار العام لفكرة نهج المسارين، وحددت مجموعة تدابير بناء الثقة التي قد تفكر فيها إسرائيل والعربية السعودية واقترحت إمكانية التخلي عن مقاطعة السعوديين لإسرائيل، ورفض قرار الأمم المتحدة الصادر عام ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالعنصرية وإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل ولقاء الإسرائيليين علي مستويات دنيا أو تبادل سري لمعلومات المخابرات حول النشاط الإرهابي. وفي المقابل فإنني مستعد لحث شامير علي الرد بالمثل. مثل وقف الإبعاد والاعتقال الإداري للفلسطينيين في الأراضي المحتلة، وسحب الجيش الإسرائيلي من مدن معينة في الضفة الغربية وقطاع غزة، وطمأنت الملك بأن أي تنازلات محتملة من جانبه ستحاط بأقصي درجات السرية. وقلت: يجب أن تثقوا فيّ بما فيه الكفاية حتي تبلغني بما يمكنك عمله. ولتتأكدوا أنني لن أطرحه علي المائدة علناً بدون التأكد من حصولكم علي مقابله من الإسرائيليين».

وأبلغت الملك بكل صراحة أنني أحتاج منه شيئاً يمكن التأثير به علي شامير. وتعهدت قائلاً: «إنني والرئيس مستعدان لعمل المطلوب هنا. وهذا يتضمن مناقشات صريحة مع الإسرائيليين. لكننا نريد شيئاً ما نعمل معه. فماذا أنتم مستعدون لعمله؟ ماذا يمكن أن أقول للإسرائيليين».

«إنني أطلب منكم مرة ثانية أن تضعوا ثقتكم فيّ وفي الرئيس. إن هذا هو أوان تحطيم التابوهات القديمة وتحقيق انفراجة من أجل السلام. فبدونها فإن الخلافات عميقة لدرجة قد يعود معها العالم العربي الي الافتراضات وأنماط السلوك القديمة - وسوف يبرر هذا رفض اسرائيل للتغير، وأخشي من ضياع فرصة تاريخيه لتحقيق تقدم».

وتقليديا فضل السعوديون التزام درجه معينة من الجبن تجاه هذه المسائل في عملية السلام. لكن عندما بدأ الملك فهد في الرد علي تعليقاتي احسست بتغير جذري في لهجته. ثقة لم ألمسها خلال اجتماعاتي الأربعة معه أثناء أزمة الخليج. فللمرة الأولي بدا مستعدا لاتخاذ موقف قيادي تجاه عمليه السلام - وأقصي بشيء لم أسمعه منه علي الإطلاق من قبل: إذا أمكن إيجاد وطن للفلسطينيين فإنه مستعد للموافقه علي إقامة علاقات اقتصادية وسياسية كاملة مع إسرائيل.

ورد قائلا: « السيد الوزير. إن ما قلته هو ماكنت أحس به في أعماق قلبي إنني أريد التوصل مرة واحدة وللأبد لتسوية المشكلة الفلسطينية الإسرائيلية . فهذه المشكلة هي الصراع الاساسي في المنطقة، وهي صلب كل المشاكل . إنها تعطي صدام وآخرين مثل القذافي مادة للترويج لأنفسهم. فلا ينبغي ان تقوم لها قائمة بعد الآن ، ينبغي حلها».

وكما توقعت كان الملك عازفا عن الالتزام بأي أفعال محددة لكنه أقر بأهمية إعطائي شيئا ما لاستخدامه مع الإسرائيليين ووعدني بالرد على قبل مغادرتي المملكة.

وختم بالقول: « إنني أعتبر هذه واحده من أفضل لياليّ. فربما شاءت إرادة الله حدوث أزمة صدام لتكون نقطه انطلاق لحل هذه المشكلة الأكبر- فلو لم يرفض صدام كافه عروض الرئيس قبل ١٥ كانون الثاني يناير ربما لم تتهيأ أمامنا هذه الفرصة الماثلة أمامنا الآن».

وكانت لهجة الملك مشجعة لدرجة أرسلت معها هذه الرسالة إلي الرئيس: «إن الدليل فى البردينج لكننا بعيدون ولا نستطيع أكله. ولكن اعتقد أنه من الإنصاف القول إننا أثرنا إهتمامهم».



وفى الصباح التالى توجهت إلي الطائف لزيارة أمير الكويت الذى لم يعد إلي بلاده. وأشرت بأقصي رقة ممكنة إلى أنه سيكون من الحكمة بالنسبة له أن يعود إلي الوطن قريباً لإسكات الانتقاد الموجه إلي غيابه. من الواضح أنه كان لايزال منزعجاً من الغزو والسلب الذى تعرض له وطنه ويشعر بالعصبية من أن التهديد الذى يشكله العراق لم ينقض عليه بالكامل. وفضل بقاء القوات الأمريكية فى الكويت بأعداد كبيرة لأجل غير مسمي. وشرحت له أن الرئيس يعتقد أنه من غير الملائم الاحتفاظ بوجود دائم للقوات البرية الأمريكية فى المنطقة، لكن عدة آلاف من القوات ستبقي لفترة انتقالية.

كان الأمير أقل تقبلاً لأفكارى عن عملية السلام. وقال إن الخطوات المتوازية لن تكون لها مصداقية علي الأرجح مالم يقترحها مجلس الأمن الدولى. وذكرته بأن علاقة الولايات

المتحدة مع إسرائيل تجعلنا البلد الوحيد صاحب النفوذ الكبير عليهم. وأشرت قائلا: «سموكم، إنه باستخدام الأمم المتحدة فسوف تتبدد أي فرصة للتأثير علي إسرائيل» وأثناء حديثنا تكشف مدي عدم سروري المتزايد تجاه عناد الأمير البادي خاصة وقد حررت بلده للتو (يلزم التنويه إلي أنه بعد فترة وجيزة أصبحت الكويت أشد تأييدا لجهودنا ولعملية السلام).

ولحسن الحظ لم يشاركه في تردده ولي العهد الذي اجتمعت معه بعد الظهر في مدينة الكويت في منزل أحد رجال الأعمال الأثرياء لا في القصر الأميري الذي أصيب بأضرار مادية أثناء القتال. وظهرت علي المدينة آثار قتال شرس. فأثار القصف البادية علي الكثير من المباني وأحشاء المدرعات العراقية وإجراءات الأمن المشددة علي غير العادة أقوي تذكار للمعركة. وخلال اجتماعنا كان ولي العهد أكثر إيجابية تجاه مقترحاتنا عن ابن عمه. كان رد فعله أكثر قرباً من روح الملك فهد. وقال «إن الوقت الحالي هو وقت التحرك وأمامنا فرصة للتحرك الآن».

وعدت إلي الرياض، وفي العاشر من آذار مارس اجتمعت مع وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجي الذي يضم العربية السعودية ودول الخليج الأخري، وشهد الاجتماع أيضاً وزيراً خارجية مصر وسوريا. وقدم المجلس تأييداً بالإجماع لخطة الرئيس لتحقيق الاستقرار الإقليمي. وفي الدوائر الخاصة كانوا أشد تحمساً. وأبلغني أمير البحرين أنه يريد استمرار الوجود البحري الأمريكي لخمسين عاماً أخري. وأبلغني وزير خارجيته أن بلاده مستعدة لمنح الولايات المتحدة أي شيء تريده.

ومع ذلك كان رد فعل فاروق الشرع وزير الخارجية السوري أكثر أهمية. وأبلغني الشرع بشكل شخصي أنه لو سمح الإسرائيليون بإجراء انتخابات جديدة في الأراضي المحتلة فسوف تمارس سوريا وجيرانها نفوذهم المهم للضغط لانتخاب هيئة تمثيلية جديدة للفلسطينيين تكون أكثر تأييداً لعملية السلام.



وبات من الواضح حينئذ أن الدول العربية المعتدلة، ولاسيما العربية السعودية مهتمة بممارسة دور قيادى أكبر فى قضايا الأمن الإقليمى وفى عملية السلام. وتأكد هذا لى قبل أن أغادر الرياض حينما بعث لى الملك فهد برسالة عبر بندر بأنه يؤيد نهج المساريـن من حيث المبدأ، وأنه سيدرس اتخاذ خطوات محددة تبعاً لموقف شامير. وأبرقت إلي الرئيس بالرسالة التالية علي الفور مضيفاً هذه الفكرة: «إن أساس هذا التحسن فى الموقف العربى يكمن فى المصداقية غير العادية التى نحظي بها فى المنطقة. فلم يبلغ الموقف الأمريكى مثل هذه الذروة قط، ولم يثق العرب مطلقاً مثل هذه الثقة فى قدرة الولايات المتحدة ليعطوا كلمتهم بمنحنا مساحة للتحرك إلي الأمام».

وفى القاهرة وجدت الرئيس مبارك فى حالة ممتازة، وبات من الواضح علي الفور أنه يؤيد الولايات المتحدة بشدة، وأكد مراراً أهمية علاقته مع الرئيس . وقال: إن القدرة علي رفع سماعة الهاتف والتحدث مع جورج بوش لا تقدر بثمن. وفى هذه اللحظة رفع بالفعل سماعة الهاتف واتصل بالرئيس الأسد فى دمشق. ومن الواضح أنه أبلغه من أجلى أننا أفضل إدارة تعاملت معها المنطقة. وقال: «إذا لم يتم إحراز تقدم مع هذه الإدارة فلن يحرز هذا التقدم». وقال لى:«من الضرورى أن يقدم الأسد لك شيئاً ما للعمل به، لدى زيارتك لسوريا. ورد الأسد بأنه يتطلع لزيارتى وسوف يشارك بجدية. وأيد مبارك تصور المساريـن لكنه لم يكن متحمساً بشكل خاص لفكرة المؤتمر الإقليمى، ولازال متشككاً تجاه قبول إسرائيل مبادرة من هذا القبيل. وقال مبارك: لن يتغير شامير. إنه غير معنى بالسلام. وكرر هذا التقويم القاسى عدة مرات خلال الحديث.

رد الفعـل الإســرائيلى

وتوجهت من القاهرة إلي تل أبيب لأصلها بعيد الساعة الثالثة بعد الظهر. وفى اليوم السابق كان إرهابى فلسطينى قد طعن أربع سيدات حتي الموت فى القدس. ووصف القاتل تصرفه بأنه رسالة شخصية موجهة لى. وتفجرت التوترات نتيجة الحادث وبناء علي نصائح الأمن ألغيت علي مضض جولة سيراً علي الأقدام فى المدينة القديمة مع العمدة تيدى

كوليك. وبعد ظهر اليوم التالي، ورغبة في مواساة أسر الضحايا، توجهت بالسيارة دون سابق إعلان، وفي محاولة غير ناجحة للتواري عن الأنظار – إلي مقبرة جيفات شاؤول لا يرافقني سوي دينيس روس ومارجريت تاتويلر للترحم علي الضحايا. ومع ذلك فإن الصحافة الإسرائيلية التي تلتقط تردد الشرطة سمعت أننا هناك، وتدفق الصحفيون علي المقبرة. وكشفت الوحشية وعنصر المفاجأة في قتل النساء الأربعة لي البعد الإنساني لمأساة الشرق الأوسط، وهو بعد كان يُحجب تماماً في الغالب في غمرة الجدل السياسي المكثف. كان من المستحيل ألا يستثار المرء ويضطرب من واقع الخبرة.

❑ ❑ ❑

وبرغم مشاكلنا السابقة مع حكومة شامير فقد تأثرت بحرارة الترحيب بي في أول زيارة لي لإسرائيل. وأتذكر إعجابي بروعة البلد وبهجة السفر من تل أبيب إلي القدس، وأثرت زيارة النصب التذكاري ياد فاشيم فيّ أنا وسوزان لدرجة شاركنا معها علي البكاء. وأنا أستقل الطائرة باتجاه الشمال لجولة تفقدية من الجو لمرتفعات الجولان استطعت أن ألمس للمرة الأولي الإحساس الإسرائيلي العميق بالتعرض للخطر. ومن طائرة الهليوكبتر التي أقلتني كان بوسعي رؤية عرض البلاد كله من ساحل البحر المتوسط في الغرب حتي حدودها مع أعدائها في الشرق. وفكرت أيضاً في أثر التكنولوجيا علي الأمن. وتعتبر الجولان بدون شك مساحة حاسمة من الأرض. ولكن إطلاق صواريخ سكود من علي بعد مئات الأميال أثناء الحرب أوضح أن احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان لم يعد يقدم ضماناً مطلقاً ضد الهجوم من اتجاه الشمال الشرقي.

وتناولت العشاء مساء ذلك اليوم مع ديفيد ليفي وزير الخارجية الإسرائيلي. وخرجت من هذا الاجتماع الأول باعتقاد بأن ليفي أصبح أكثر مرونة واعتدالاً عن رئيسه، وبرغم أنه «كوزير الاضطرار» ساهم في وأد محاولاتي الأولي لمست في ليفي سياسياً بات الآن مستعداً لإلزام نفسه ومستقبله بقضية السلام. وأتذكر أنه في إحدي المراحل أشرت إلي أن الدول العربية التي كانت تعارض إسرائيل بشدة باتت تتحدث الآن عن السلام. وطمأنني ليفي

«بأننا سنتحدث عن السلام مع أي أحد». كان سياسياً ومشجعاً. وعقب اجتماعنا وقبل أن أجتمع مع شامير صرح للصحفيين بأننا على طريق السلام. لكن أصبحت أرى في ليفي رجلاً واقعياً مستعداً للإقدام على بعض المخاطر من أجل السلام، ودفع شامير وأرينز وآخرين في هذا الاتجاه.

وفي الثامنة والنصف صباح اليوم التالي اجتمعت مع شامير. وبدأت بشكره على ما أبداه من ضبط للنفس أثناء الحرب، وأكدت مجدداً التزام الرئيس بضمان التفوق العسكري لإسرائيل. وأوضحت أن أمن إسرائيل غير مطروح للتفاوض. لكنني حثثته على اغتنام ما وصفته «بالفرص والتوجهات الجديدة» في المنطقة، وخاصة من جانب العربية السعودية. وقلت: «إن المعتدلين العرب في التحالف أظهروا قيمتهم كشركاء. ولتحقيق تقدم معهم عليك أن تساعدهم في القضية الفلسطينية. ولن يكون هناك وقت أفضل من الآن للتحرك حيث إن المتطرفين ضعفاء وفاقدون لمصداقيتهم، وحيث يشعر أصدقاؤنا العرب بالقوة والثقة وحيث المصداقية الأمريكية في أوجها». وأبلغت شامير أنه وللمرة الأولى وجدت الملك فهد مستعداً لممارسة عملية القيادة في السلام». وكان متشككاً وذكرني بتحفظ السعوديين تجاه مثل هذه المسائل. لكن عندما كشفت أن الملك أبلغني «بأننا نعرف أن هناك دولة تسمى إسرائيل، ولايمكن لأحد، والأهم لا ينبغي لأحد أن ينفي وجودها»، يبدو أن وقع الكلمات كان هاماً لديه. وقلت: «السيد رئيس الوزراء. بصراحة إن السعوديين لا يتصرفون من منطلق تحفظهم التقليدي. أعتقد أنه عهد جديد. إنك زعيم تلوح أمامه فرصة ليغتنم لحظة استراتيجية في تاريخ إسرائيل والشعب اليهودي، وأريد أن أساعدكم. وبقدر ما أستطيع عمله فيمكنني إثناء الأوروبيين والسوفيت والآخرين عن فكرة المؤتمر الدولي لكنني أحتاج مساعدة».



وكما فعلت مع الزعماء العرب عددت تدابير بناء الثقة التي يتعين أن يتخذها الجانبان. وحثثته على تبني سياسات أقل قمعاً في الأراضي المحتلة، وإعلان استعداده للقاء الفلسطينيين

بدون إجراء انتخابات جديدة ، والتفكير في الانسحاب من جنوب لبنان في غضون ستة شهور إلي سنة إذا كان يوسعنا أن نري عدم حدوث هجمات إرهابية ضد شمال إسرائيل. وقلت: من المهم قطع التزام بالبدء في مفاوضات مع سوريا حول الجولان.

وكالمتوقع كان شامير أكثر اهتماماً بالحديث عما يتعين أن يفعله العرب. وأكد أنه كحد أدني عليهم تعليق المقاطعة الاقتصادية والاعتراف بحق إسرائيل في الوجود. ومع ذلك فقد أدلي بعدة تعليقات مهمة. وقبل شامير رأيي بأن مفهوم «الحكم الذاتي» لسكان الأراضي «اصطلاح مطاطي» بالنسبة للفلسطينيين. وقال في لحظة من اللحظات: «أننا في حاجة إلي إيجاد اصطلاح أكثر فعالية». ورد بشكل صوتٍ علي إقتراحي بأن «الحكم الذاتي» ربما كان صيغة لغوية أكثر فائدة وخاصة عندما أشرت إلي أن «السعوديين أحبوا هذا الاصطلاح عندما تباحثت معهم في الرياض» . وشجعني إصراره أيضاً بأن الولايات المتحدة يجب أن تبذل كل ما هو ممكن لإبقاء الملك حسين في السلطة رغم تأييده لصدام حسين خلال الحرب، وقال إن الأردن المستقر أمر حاسم لاحتمالات إقرار السلام علي المدي البعيد.

وقال شامير إنه متأكد من أن المفاوضات يجب أن تتجاوز خطوات الحكم الذاتي وتتناول الوضع النهائي للفلسطينيين في الأراضي. وكرر اقتراحه لعام ١٩٨٩ الخاص بالجدول الزمني الذي يمكن بمقتضاه بدء مباحثات الوضع النهائي في غضون ثلاثة أعوام من تطبيق ترتيبات انتقالية. وفي الوقت الذي كان من الواضح فيه أن شامير غير مستعد لتغيير معارضته لمبدأ الأرض مقابل السلام. فقد كان هذا رأي يتجاوز تماماً رفضه حتي لمجرد مناقشة الوضع النهائي.

ولاقت فكرة المؤتمر قبولاً ما لدي شامير الذي قال إنه سيدرس فكرة المؤتمر الإقليمي مع مصر والأردن والعربية السعودية وسوريا. لكنه عارض عقد المؤتمر تحت رعاية مشتركة مع الاتحاد السوفيتي. وأحسست مع هذا أن هذه المعارضة سوف تزول إذا استأنف السوفيت علاقتهم الدبلوماسية مع إسرائيل.

وفي إحدي اللحظات قال: «السيد الوزير» لابد أن نكون متشددين » وقلت مبتسماً: «السيد رئيس الوزراء، لن يتهمكم أحد بغير ذلك» . لكنه أظهر مرونة في الاجتماع كانت مشجعة

ومفاجئة. وكانت أهم بادرة تبعث على الأمل في واقع جديد هي دعوته لسوزان ولى بالتقاء معه ومع زوجته بمقر إقامة رئيس الوزراء بالقدس.

ورغم عدم ارتياح الحكومة الإسرائيلية استقبلت وفداً من عشرة فلسطينيين بعد ظهر ذلك اليوم بمقر إقامة قنصل عام أمريكا في القدس ومنهم فيصل الحسيني وحنان عشراوي اللذان سيصبحان محاوري الرئيسيين من الفلسطينيين. وكان هدفي تعزيز اعتقاد الرئيس بضرورة تضمين الحقوق الفلسطينية المشروعة في السلام الدائم. وأردت أن أذكرهما مع ذلك بأن تأييد منظمة التحرير الفلسطينية العراق في الحرب لم يكن مفيداً للقضية الفلسطينية. كانت مناقشة حيوية وفعالة، وأمضيا وقتاً طويلاً - كالمتوقع - في شرح تفاصيل معاناة الشعب الفلسطيني على يد الإسرائيليين. وخفف دفاعهما من سخطهما بالتأكيد، ولم يكن موقفهما التكتيكي سيئاً وهما يعرفان ذلك. وسلموني رسالة من عرفات قال فيها أنه يفوضهم في تمثيله. (وكنت أتلقى رسالة مماثلة طبق الأصل في كل لقاء تال معهما) وقلت: «لقد اجتمعت مع رؤساء ثماني دول عربية قالوا كلهم إنهم لن يؤيدوا قيادتكم. أنتم معتدلون وتتمتعون بإدراك جيد. عليكم أن تتأكدوا أننا لسنا في سبيلنا لإحياء الحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية في ضوء مساندة عرفات لصدام حسين.

وطلبا رسمياً استئناف الحوار الذي أراد الإسرائيليون أن نصفه بأنه «انتهى» لكنى وصفته بأنه «معلق» عندما أوقفناه في وقت سابق وذكرتهم قائلاً: «بإمكانكم أن تكونوا أكبر الفائزين أو الخاسرين أكثر من أي أحد آخر في العملية. إذا تمسكتم بمواقفكم القديمة. فلن نصل إلى شيء». وكما لو كانوا يؤكدون رأيي طرحوا اقتراحاً سخيفاً بضرورة قيام نفس التحالف الدولي الذي طبق قرار الأمم المتحدة ٦٧٨ بتحرير الكويت بتطبيق القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ بإخراج الإسرائيليين من الأراضي المحتلة. ورددت: «إذا كنتم تطلبون إرسال الفرقة ٨٢ المحمولة جواً فانسوا الأمر. فلن يحدث هذا» ومضيت في طرحي في شرح الفرق بين القرار ٦٧٨ الملزم وغير المشروط والقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يدعوان لإجراء مفاوضات على أساس مبدأ الأرض مقابل السلام. وتأكدت أنهم شعروا بالارتياح بوضوح لمجرد تحدثهم معنا مباشرة على الأقل.



كان عشائي مع شامير في المساء لقاءً إجتماعياً في المقام الأول يهدف من وجهة نظري إلي إقامة جسور بيننا. وفي هذا الصدد فقد ساهم في إقامة علاقة شخصية قوية بخلاف ماهو شائع. ووجدت في شامير الشخص الوحيد في الحكومة الإسرائيلية الذي استطيع أن أتبادل المعلومات معه علي الدوام وكلي ثقة في أنها لن تتسرب. وفي الوقت الذي تركنا فيه المنصب تأكدنا من أن رأي الآخر كان جيداً بغض النظر عن صعوبة اللحظة . كان هذا العشاء جزءً مهماً في بناء الثقة المتبادلة.

وعقب ذلك واصلت زوجتانا الحديث علي مائدة الطعام بينما انتحي رئيس الوزراء جانباً في ركن صغير للجلوس بحجرة المعيشة. وأخرج من ملفاته رسالة بعث بها الرئيس فورد إلي رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك إسحاق رابين في الأول من أيلول سبتمبر١٩٧٥ يعيد فيها التأكيد علي دعم الولايات المتحدة لإسرائيل؛ وطلب مني قراءة الرسالة مع إيلاء أهمية خاصة للفقرة الأخيرة في الرسالة، والتي تعهدت بأنه في صياغة سياسة المستقبل فيما يتعلق بالتسوية السلمية سوف تعطي الولايات المتحدة «وزناً كبيراً لموقف إسرائيل بأن أي اتفاق سلام مع سوريا يجب أن يستند إلي احتفاظ إسرائيل بمرتفعات الجولان». كان التزاما طلب مني إعادة تأكيده في خطابات الضمانات وقد فعلت. وكنت متأكداً بعد الاجتماعين اللذين عقدتهما مع الرئيس الأسد خلال أزمة الخليج بأن سوريا لن تقبل مطلقاً إقامة سلام مع إسرائيل بدون إعادة الجولان. وفي ظاهر الأمر بدا شامير يؤكد أن إسرائيل لن تنسحب إنسحاباً كلياً من الجولان تحت أي ظرف. ومع ذلك خلصت إلي أن شامير يشير علي الأقل إلي درجة ما من المرونة. وإلا لما كان قد فكر في إثارة الموضوع معي. وسألته: «ماذا لو وضعتْ قوات أمريكية هناك؟» وصمت لبرهة كما لو كان قد بوغت بالفكرة. وقال: «حينئذ سيكون الأمر مختلفاً» وسنعود إلي الموضوع مرة أخري.

وأبلغني شامير بأن إسرائيل جادة في البحث عن السلام. لكن ليس هناك أحد يمكن التحادث معه. فالفلسطينيون الذين اجتمعت معهم بعد الظهر غير مقبولين لديه. وقال: «إننا نعرفهم، إننا نعرف كل شيء عنهم. إنهم منظمة التحرير الفلسطينية». وأشرت دون أن أصادف أي نجاح إلي أنه بينما الكثير منهم مرتبط بعرفات فليس بينهم مسؤول في منظمة التحرير الفلسطينية. واتضح أن شامير سيعترض علي مشاركة معظمهم في أي وفد رسمي

فى أى مباحثات، وأبلغنى أنه اجتمع سراً مع الملك حسين وأن الملك حاسم السلام. وأضاف أنه يعتقد أن إقامة شكل من الكونفدرالية مع الأردن فى مرحلة قادمة فى المستقبل هو أفضل حل لمشكلة الضفة الغربية.

وفى تلك الليلة وجدت شامير جاداً ومفكراً. وعلي الأقل أكثر استعدادا عن ذى قبل للإقدام علي خيارات أصعب، وأحسست أن شامير فهم ذلك لأن أعدامه الدائمين يحدون الاعتدال وسيطلب منه المشاركة شاء أم أبي. ومع ذلك كنت أعرف أن نزعته ستكون المضى قدما لكن بخطي شديدة البطء والحرص.

الوصـلة السـورية

بدأت فى التوصل إلي نتيجة مفادها أن سوريا هي مفتاح تحقيق تقدم مهم. فمشاركة الأسد ستظهر مؤشراً بأقوي طريقة مؤثرة. علي مشروعية جهودنا فى أعين العرب. وفى الواقع فإن مشاركته سوف تحمي العملية. وأملت فى أن يؤثر الوزن الجماعى للدول العربية الأخري في الأسد. كما أن اجتماعَـيَّ معه خلال أزمة الخليج قد أقنعانى – علي الأقل – أنه مستعد لمراجعة تصلبه التقليدى تجاه صنع السلام مع إسرائيل.

وأبلغنى مُسَاعِدَيَّ فى عجالة أننى أعددت بهمة أكبر للاجتماع الأول مع الأسد عن أى لقاء مماثل مع كل زعيم آخر تقريباً. وهناك قضايا سياسية معقدة يصعب استيعابها، وكنت أريد أن أعرف طبيعة الوضع السياسى الداخلى فى سوريا وطبيعة علاقاته مع الزعماء العرب الآخـرين. وأتذكر أيضاً أننى كنت أحاول التعرف علي شخصيته وأسلوبه فى التفاوض وتفكيره وكيفية تعامله مع القضايا. وتأكدت من أن الأسد يحظي بسمعته كرجل مفكر وجاد وصادق العزم لا يستسلم، وأنه يحب الاجتماعات المطولة التى تستهدف إرهاق محاوره.

وقبل بضعـة أشهر كنت أتحدث عن الشرق الأوسط مع إسحاق رابين وزير الدفاع الإسرائيلى. كان كلانا يعرف أن أى اختراق نحو السلام لن يحدث بدون مشاركة فعالة من

جانب سوريا. وأبلغني رابين أن الأسد واحد من ألد أعدائه. لكن يحتمل أن يكون أذكي لاعب في الشرق الأوسط. وفي المقام الأول فإنه رجل يلتزم بكلمته، وقال رابين: «إنه شديد البأس لكن إذا توصلت إلي اتفاق معه فسوف يلتزم به حرفياً. لا تفترض أنه لن تكون هناك روح، لكن يمكنك الاعتماد علي ما يوافق عليه». وأذهلني تقييم رابين، وعقدت العزم علي إختباره عند لقائي بالأسد في ١٤ أيلول سبتمبر ١٩٩٠ في أول لقاء من أحد عشر لقاء. وطال كل لقاءاتنا كان اجتماعا مطولا استغرق أربع ساعات ونصف الساعة دون انقطاع. ولم يرافقني سوي إدوارد جيريجيان سفيرنا في دمشق الذي يتحدث العربية بطلاقة، وبات علي علاقة جيدة بالأسد علي مدي عامين قبل اللقاء.

وعقب جلسة مطولة تناولت الموقف في الخليج تحولت مناقشاتنا إلي إجراء حوار حول علاقاتنا الثنائية التي تشهد توتراً علي مدار عقد من الزمن بسبب مساندة سوريا لأنشطة إرهابية دولية هي المقام الأول. وكما سيتم تذكيري في كل اجتماع، تعامل الأسد مع شكاواي من مساندة سوريا للإرهاب بالطريقة التي ربما يتعامل بها الشخص مع عم متفلت في لقاء عائلي. أي كإزعاج حتمي يتعين تحمله بكل أدب. لم يظهر الأسد أي لين علي الإطلاق حول هذا الموضوع وتسامح بالكاد تجاه ما اعتبره تدخلا في الشؤون الداخلية لسوريا. وقال: «لقد أجرينا مباحثات مستفيضة حول قضية الإرهاب مع السفير، ولسنا في حاجة إلي الحديث عنها مرة أخري». لكنني أصررت وأنفقنا أكثر من ساعة في الحديث عنها علي أية حال. ولم يقدم الأسد أي اعتذار لتأييده للإرهاب ضد إسرائيل الذي كان يعتبره جزءً من الكفاح المسلح من أجل التحرر من احتلال ظالم. لكنه أكد موافقته علي إدانة أعمال العنف في أماكن أخري، وأكد أن «أي شخص علي أرض سوريا ينفذ أو يخطط لعملية إرهابية خارج الأرض المحتلة سوف يحاكم وقوانيننا بالغة الصرامة حقاً». وأثرت قضية تفجير طائرة بان أمريكان في الرحلة رقم ١٠٣ عام ١٩٨٨ فوق لوكيربي باسكتلندا، وكذلك تقارير المخابرات الأولية التي تشير إلي تورط سوريا. وكرر الأسد إصراره علي عدم تورط سوريا في المأساة، لكن إذا كان لدي الولايات المتحدة أي أدلة مغايرة فسوف يدرسها. «كان هذا واحدا من مرات عديدة أثرت فيها القضية مع السوريين حتي توصلت تحقيقاتنا إلي أن المأساة من تدبير إرهابيين ليبيين».

❑ ❑ ❑

وأخيراً انتقلت مباحثاتنا إلي عملية السلام. وبلغة كررتها عشرات المرات خلال زياراتى عرضت علي الأسد تصورى للسيناريو النهائي: إنه بمجرد الانتهاء من إزالة التهديد الذى يشكله صدام علي استقرار المنطقة سوف تشعر كافة الأطراف بأنها أكثر قدرة علي الإقدام علي المخاطرة من أجل السلام. وقلت: «إننا متفائلون من أن الملابسات سوف تجمع سوريا ومصر ودول الخليج فى تحالف عربى رئيسى يستطيع العمل جيداً من أجل مستقبل عملية السلام العربية الإسرائيلية».

وأبلغته بأن الولايات المتحدة لن تحاول فرض تسوية علي الأطراف وأشرت «إلي أنه فى كتاب صدر مؤخراً ذكر المؤلف أنه إذا كنتم تعتزمون العمل علي إقرار السلام فى الشرق الأوسط فعليكم أن تكونوا أطباء توليد بنسبة تسعين فى المائة، ولن يحل السلام حتي تكون الأم مستعدة». وضحك الأسد ثم قال: «يجب أن يعرف الإسرائيليون أن سوريا لن توافق علي إقرار السلام بينما جزء من أراضيها واقع تحت الاحتلال، وأنه بدون سوريا فلن يكون هناك سلام عربى إسرائيلى».

وأكد كالمتوقع: «يجب أن يفهم كل إسرائيلى إنه لا يمكن إقامة أى سلام بدون إعادة الجولان كاملة» ومن المفارقات الساخرة أن ما كان يجب أن تكون كلمات بالغة الجدية قد شوهت نتيجة خطأ فى الترجمة. فقد قال المترجم «لا يمكن إقامة أى سلام بدون إعادة – وذكر كلمة الجوع – بدلاً من المرتفعات كاملة» كانت هذه واحدة من اللحظات المحرجة فى هذا اللقاء الأول.

وعقب هذا الاجتماع أحسست أن الانقسام بين المعتدلين والمتطرفين فى العالم العربى قد اتسع. وعلي المستوي الشخصى علمت لاحقاً أن الأسد أبلغ أحد مساعديه أنه أعجب بما وصفه «مزيجى التكساسى – البرينستونى».

ولدي تطبيق القانون – وبرغم توفر سابقة تقود إلي صنع القرار– عليك أن تعتمد علي الحدس مراراً وتكراراً. وعقب هذا الاجتماع الأول مع الأسد أحسست بفطرتى أن رابين كان مصيباً. فالأسد رجل ذكى ماكر شديد البأس غير مبالٍ للإقدام علي المخاطرة لتحقيق أهدافه. لكن من المرجح أن يلتزم تماماً بأى اتفاق بمجرد التوصل إليه. ولم تساورنى أية أوهام حول

شدة بأسه، وتاريخه المفزع في رعاية الإرهابيين. لقد خبر القوة وقد استخدمها بقسوة في الماضي.

وفي الاجتماع الثاني الذي عقد في ١٢كانون الثاني يناير١٩٩١ الذي تركز أساساً على امتناع الأسد عن السماح بقواته بالمشاركة في العمليات الهجومية في الكويت في حالة وقوع هجوم بري. وانتهزت فرصة الاجتماع لإجراء حوار مطول مع الأسد حول عملية السلام أيضاً. والآن فهم الأسد أنه سيتم تحييد صدام كقوة سياسية إقليمية، وأن بيئة مابعد الحرب ستهيئ مبادرات جديدة ومبشرة لاستعادة الأرض التي خسرها في حرب عام ١٩٦٧ . كانت لغته أكثر إيجابية عنها في أيلول سبتمبر. وقال: «إننا نريد العمل معكم ومستعدون لذلك» ومع ذلك فقد أضاف إضافة حذرة إلى موقفه الأصلي، وأكد: «لابد أن نستعيد الجولان +ستر». واستفسرت عما يعني، ورد في ابتسامة: «حسناً إن الإسرائيليين أذكياء». كان المفاوض الشرس يشير في دعابة إلى أن ثمن السلام لن ينقص نتيجة مشاركته في عاصفة الصحراء. وكم شاركت في مئات المفاوضات في حياتي العامة والخاصة كانت أشقها تلك التي أجريتها مع الأسد.

وكان اجتماعنا الثالث ١٣ آذار مارس الذي استغرق سبع ساعات كاملة أكثرها إيجابية من ناحية الأجواء. أما وقد أحاطه مبارك بتفاصيل إقتراحي فقد استوعبها بالفعل. وقال إنه يرغب في عمل شيء ما. وهكذا أبدي تأييده للنهج المسارين، لكنه كان أقل تحمساً لإجراءات بناء الثقة المتوازية. ووافق علي أن إسرائيل هي التي يجب أن تتخذ مثل هذه الخطوات لكنه أبدي فتوراً تجاه فكرة أن الدول العربية يجب أن تفعل الشيء نفسه. وفي كل الزيارات الأخري في المنطقة تم تبني تصور الإجراءات المتبادلة المتوازية. ومع هذا خلصت إلي أن الأسد صادق عندما قال إنه لم يلمس قط التزاماً أمريكياً بمثل هذه المصداقية من قبل، وأنه مستعد للرد علي جدية أهدافنا بجدية مماثلة. وأبرقت للرئيس بهذا التقييم قائلاً: «ترك لدى الأسد انطباعاً واضحاً بأنه جاد في السعي لإقرار السلام، لكنه سيكون بندقة يصعب فرقشتها».



كنت أقل انشغالاً بشأن السوفيت الذين سرهم إدراجهم فى اقتراح الرئيس بشأن الشرق الأوسط ما بعد الحرب. ومع ذلك وفي اجتماع عقد في موسكو في ١٥ آذار مارس نبهت بسمرتنيخ إلي أنه يجب علي موسكو أن تكون مستعدة للإقدام علي اختيارات قاسية، وأبلغت بسمرتنيخ بأن الرئيس مستعد لقبول عقد مؤتمر إقليمى برعاية مشتركة مع السوفيت. ومع ذلك فإنه يتوقع من جورباتشوف بالمقابل إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل، وقلت: «لامجال للتأخير في هذا الصدد يالكسندر. إن هذا معيار حاسم لحسن نواياكم. إنه عهد جديد وإنه أفضل فرصة للإعراب للجميع علي أن التفكير الجديد لايزال قائماً بشكل جيد في السياسة الخارجية السوفيتية» وقال بسمرتنيخ إن جورباتشوف مستعد للإعتراف بإسرائيل لكن ليس علي الفور. كان هذا مناسباً بالنسبة لي. ففي الوقت المناسب سأرغب بل سأحاول استغلاله لإغراء شامير للحصول علي شيء مقابله.

وبعثت البرقية التالية للرئيس: «اتضح لي أن الكسندر ورئيسه في حاجة لإشراكهما في هذه القضية لإظهار أن التفكير الجديد يؤتى ثماره خارج البلاد».



وعقب الاجتماع مع الرئيس أوزال في أنقرة عدت إلي واشنطن في الساعة ٢,٣٠ فجر السابع عشر من آذار مارس يخالجني إحساس بالارتياح بأن بيئة المنطقة قد تغيرت نتيجة الحرب. وأبلغت في تقريري للرئيس في منتصف الجولة: «ليس هناك شك في أن شيئاً يحتمل أن يكون مهماً يحتمل بين العرب، ولا يمكننا أن نعرف الوقت الذي سيستغرقه هذا، أو لماذا كان سيستجد بما يكفى لتحريك الإسرائيليين. وحتي لو كان الحال كذلك فلا يمكننا التأكد من أنه سيتغلب علي الانقسام والاضطراب القائم بين الفلسطينيين في المستقبل القريب. لكن ربما تهيئ هذه البيئة الاستراتيجية الجديدة المسرح لظهور الفلسطينيين القادرين علي صنع السلام».

وأثناء عودتي إلي الوطن اتضحت لي ثلاث حقائق.

أولاً: إنه سيكون من الضروري تقديم تنازلات عربية لحمل شامير على المشاركة. لكنني أعتقد أن كلا الأمرين ممكن.

ثانياً: إن حل عقدة التمثيل الفلسطيني المستعصية ستكون أشد صعوبة عما كنت أتوقع.

وأخيراً: لن تكون هناك عملية فعالة بدون مشاركة سورية.

وفي الأسابيع التالية سيكون عليّ أن أقنع كلا الطرفين بالانتقال من التأكيدات المبهمة لحسن النية إلي اتخاذ خطوات ملموسة لكسر الجمود. وحتي بالاستفادة بالواقع الاستراتيجي الجديد وإشاعة تفكير جديد فسوف يظل هذا هدفاً شاقاً كما كان قبل الحرب. فلاتزال التابوهات السابقة علي حالها. لكنها بدون شك تخضع لأقوي عملية مراجعة مكثفة في تاريخ هذا الصراع المرير. وفي منطقة مستعصية كالشرق الأوسط ليس هناك أساس ولو صغير للبناء عليه.

الفصل الرابع والعشرون

صدام يبقى في السلطة

إن مشكلتنا عظيمة تحتاج لجهود دولية.

من رسالة لاجئين أكراد
سلمت إلى وزير الخارجية بيكر
٨ نيسان إبريل ١٩٩١

صباح العاشر من آب أغسطس ١٩٥٣ ضرب زلزال عنيف ثلاث جزر يونانية في سلسلة جزر أيونيان، وعلي مدار الأيام الخمسة التالية اجتاحت جزر سيفالونيا وإيثاكا وزانتي أمواج المد والحرائق ومائة وعشرين تابعا رئيسياً للزلزال. وأشارت الحسابات المعاصرة إلي أن القوة التدميرية للزلزال تعادل انفجار قنبلة ذرية. وتوفي نحو خمسمائة شخص، ودمر ٢٥ ألف منزل، وتشرد ٨٩٣ ألف شخص من الناجين وأصبحوا بدون مأوي. واختفت عدة مدن من علي وجه الأرض.

وكضابط برتبة ملازم ثان في مشاة البحرية في الثالثة والعشرين من العمر مكلف بالخدمة في الأسطول السادس الأمريكي أمضيت أسبوعين أشارك في عمليات الإنقاذ والإغاثة التي يقوم بها حلف شمال الأطلنطي. وقمنا بإسقاط الإمدادات والخبز وصفائح مياه الشرب من طائرات هليكبتر بريطانية إلي الناجين في عشرات المدن التي سويت بالأرض بالمعني الحرفي. وفعلياً لم يبق مبني قائما في زاكينثوس عاصمة زانتي التي أحاطتها الحرائق الضخمة من كل اتجاه عقب وقوع الزلزال.

كانت كتيبتي مكلفة بالمهمة المروعة باستخراج القتلي من بين الانقاض. وسبق لي مشاهدة جثث الموتي، أثناء محاولتي القصيرة لدراسة الطب، فقد رأيت الجثث تطفو في محلول الفورمالديهايد، ثم وطلبة الطب يقومون بتشريحها لاحقا. ويمكن الآن أن أتذكر حتي اليوم منظر الجثث المشوهة المتحللة التي انتشلناها من تحت أنقاض منازلهم ومشاريعهم. وبعد أكثر من أربعين عاماً لاتزال الوجوه الجميلة لعشرات الأطفال الذين يتمهم الزلزال أقوي تذكار لمدينة زاكينثوس .

ولم يقدر لي أن أشاهد مثل هذه الوجوه الجميلة الأخاذة حتي ٨نيسان إبريل ١٩٩١، بين الجبال التي كست الثلوج قممها بجنوب شرق تركيا وشمال العراق في منطقة يقطنها آلاف اللاجئين الأكراد الذين فروا من الرعب الذي تثيره قوات صدام حسين المتوحشة.

وقبل ثلاثة أيام فقط أعلن الرئيس عن جهد طموح بإسقاط جوي للإمدادات والأغذية إلي أكراد العراق الذين يعانون بشدة. وكان قد طلب مني الحصول علي تقرير مباشر عن الموقف من تورجوت أوزال في أنقرة. غير أن مارجريت تاتوبلر اقترحت زيارة أحد

معسكرات اللاجئين. ففي الأيام السابقة علي مغادرتي للقيام بثاني جولاتي في الشرق الأوسط بعد الحرب حثتني تاتويلر علي إضافة مثل هذه الزيارة إلي خطة الجولة. فقد تنبهت إلي تدهور محنة الأكراد وتزايد اهتمام الإعلام بها. وكنا جميعاً في الإدارة ندرك الانتقادات الموجهة إلينا لعدم بذل ما يكفي لحماية الأكراد في شمال العراق والشيعة في الجنوب من هجمات القوات العراقية. وقالت: من المهم الإعراب بطريقة مثيرة علي أن الولايات المتحدة لم تترك المنطقة بعد الحرب.

وافقت علي توصية تاتويلر دون تقدير للصعوبات اللوجستية التي ستثيرها مثل هذه الزيارة. كان المطار الوحيد الذي يمكنه استقبال طائرتنا البوينج ٧٠٧ يبعد خمسة وتسعين دقيقة بالهليوكبتر من الحدود التركية العراقية. واستبعد فريق الأمن استخدام طائرات الهليوكبتر التركية. لذا فقد تم تفكيك طائرات هليوكبتر عسكرية أمريكية ونقلت من قواعد أمريكية في أوربا ليعاد تجميعها في مطار ديار بكر العسكري وبعد الهبوط هناك تفقدت واحدة من طائرات سي130E التي ستستخدم لإسقاط المساعدات الغذائية للاجئين.

وبعد رحلة بالهليوكبتر علي ارتفاع ١٣٠٠ قدم فوق القمم الجبلية الثلجية والوديان العميقة ونهر دجلة وصلت إلي مقر قيادة اللواء جاوردنا بالجيش التركي قرب جوركوروجا، وتلقيت تقريراً موجزاً من مسؤولين عسكريين أتراك والحاكم المحلي للمنطقة. ثم استقبلت وفداً من خمسة وعشرين لاجئاً كردياً يمثلون مختلف الفصائل بعمائمهم وسراويلهم الطويلة المنتفخة. كانوا في غاية الرقة، وأبدوا تقديراً عظيماً لزيارتي. لكنهم أوضحوا لي أنهم يعتقدون أنه لا الولايات المتحدة ولا العالم قد بذلوا ما يكفي من أجل شعبهم. وسلموني رسالة مكتوبة بخط اليد وقعها العشرات منهم تضمنت شكر التحالف لجهوده في العراق، وطلبوا تقديم مساعدة إنسانية. أثناء قراءتي للرسالة استوقفتني عبارتان «إن كافة العراقيين يتطلعون للحرية ونظام ديمقراطي في بغداد. لكن الأخطاء والقرارات الخاطئة التي سمحت للنظام العراقي باستخدام الدبابات والهليوكبتر هي التي سببت هذه المأساة». وسري تيار خفي من العاطفة في هذا الاجتماع، ولاسيما عندما قصوا عليّ روايات عن قيام القوات العراقية باقتراع أصدقائهم وأفراد عائلاتهم. لكن العرض الذي قدموه لي كان هادئاً وعقلانياً. لكن لا

هم ولا شريط الفيديو الذى عرضه أورال أمامى فى أنقرة فى اليوم السابق وأظهر قوافل اللاجئين بطول اثنى عشر ميلاً هيأوني لما سوف أشاهده.

وبعد توجيه النصح بترك الطعام الذى أحضره بعض العاملين معنا لتقديمه للاجئين لأن من شأن ذلك إثارة أعمال عنف تكدسنا فى مركبات رباعية الدفع تابعة للجيش التركى، وسرنا لمدة عشر إلى خمس عشرة دقيقة فى طريق ترابى ملتو باتجاه قمة سلسلة جبلية شاهقة بارتفاع نحو تسعة آلاف قدم ونحن نقترب من القمة بدا المنحدر فجأة يعج بمجموعات من البشر. كان الحرمان واليأس المستشرى فى الساحة لايطاق بمعني الكلمة. فالنسوة تنقل المياه غير النظيفة للشرب وغسل الملابس التى نشرت لتجف على الشجيرات والأشجار القليلة الباقية فى المنطقة. فقد قطعت معظم الأشجار لاستخدامها فى التدفئة اتقاء البرودة التى تصل إلى درجة التجمد ليلاً. وتناثرت عدة خيام قديمة متهالكة. كانت أوضاع الصحة العامة تمثل دعوة مفتوحة لانتشار الأمراض الخطيرة. ومعظمهم يسير حافى القدمين، والقليل منهم يرتدى ثياباً معقولة. وفى كل مكان تواجد الأطفال بما ينبئ عن معدات خاوية.



وعادت ذاكرتى إلى أطفال زاكيثوس لكن مع اختلاف كئيب. فقد نجا هؤلاء الأطفال من الكارثة. وبدون مساعدة عاجلة فربما تلقى هذه البراءة حتفها من العيش فى العراء عرضة للعوامل الجوية ومن الجوع والأمراض. وبعد يومين توفى سبعة وثلاثون لاجئاً من البرد. منهم سبعة وعشرون طفلاً. ومن الناحية العملية لم يكن هناك ملاذ لمصابيهم. وأمضيت وقتاً فى الخلاء. وأعرف شدة البرودة التى تحل فى الليل على ارتفاع نحو تسعة آلاف قدم فى الجبال حتى فى فصل الربيع. وتذكرت عندما تساءلت بينى وبين نفسى عما سيحدث لهؤلاء عندما تتساقط ثلوج الشتاء.

وعلى قمة السلسلة الجبلية خرجت من مركبتى وسرت على الطريق الترابى وعبرت الحدود داخل العراق. وأنا أتطلع إلى السفوح على الجانب العراقى للجبل لاح لى على الفور

هول الكابوس. وأمامي وادٍ جبلي متخم يعج بنحو خمسين إلي ستين ألف لاجئ، وهو جزء فقط من فيض اللاجئين علي طول الحدود الذي أشارت بعض التقديرات أنه بلغ ربع مليون لاجئ. وعلي الفور أحاطت بي مجموعة من اللاجئين تصفق وتلوح لي. وجاء صوت لحوح يصيح: مستر بيكر، مستر بيكر، هل يمكنني التحدث إليكم؟. أرجوك؟، أرجوك مستر بيكر إنني في حاجة للتحدث إليك.

واندفع رجل ربعة عبر المجموعة وحاول دون نجاح اختراق طوق القوات التركية التي تتولي حمايتي. وطلبت من الحراس السماح له بالمرور. كان اسمه سام وقد ترك كل متاعه الذي يملكه في بلده كركوك. وسار لستة أيام حتي وصل إلي هذا المكان القفر المهجور. وقال لي: «إننا نعاني، إن أطفالنا يعانون المجاعة والجوع. إننا في حاجة للأطباء والأدوية والمياه. فالقصف المكثف ينهال فوق رؤوسنا. عليكم أن تفعلوا شيئاً لمساعدتنا».

ومن الصعب حتي هذا اليوم وصف بلاغة وفصاحة مناشدته الصحيحة. وقلت له: سوف أبذل قصاري جهدي للبدء في عملية إغاثة. وقلت: «إن الأمر بيد المجتمع الدولي ككل لعمل شيء ما تجاه هذه الجريمة، وبعيد دقائق أصبح ما كان همساً بين اللاجئين إعلاناً مدوياً بأن شخصية أمريكية رفيعة تزور المنطقة. وتدافعت كتل بشرية نحو مجموعتنا وسدت الطرق، وسدت طريق وصولنا إلي مركباتنا أثناء التدافع، وأبلغنا المسؤولون الأتراك الذين يرافقوننا أنهم يفقدون السيطرة علي الحشود، وأصروا علي ضرورة مغادرتنا علي الفور. كان هذا واحدا من المرات القليلة التي أحسست أن أمني الشخصي يحوطه قلق حقيقي من الموقف. واستدرنا للعودة إلي تركيا، وبدا الجبل كله مغروساً بالبشر ويدوي بالتصفيق والتهليل، وصممت علي أن أري الولايات المتحدة وقد فعلت أقصي ما يمكنها عمله لمنع هذا الموقف من التحول إلي كارثة بشرية أكثر ما هو حاصل.

ونحن نستقل الطائرة الهليوكبتر في طريق العودة إلي ديار بكر راودت نفسي بأن هؤلاء الناس الذين رأيتهم ما هم إلا نماذج حية لإرادة التحرر. فلا يمكن السماح بتركهم ليلقوا حتفهم، ولم يكن هذا مجرد تحدٍ سياسي للولايات المتحدة. فقد كانت حالة إنسانية طارئة في الحقيقة ذات أبعاد متعددة.

وعندما عدت إلي ديار بكر عقدت مؤتمراً صحفياً مع أحمد وزير خارجية تركيا. وانتهزت هذه الفرصة لأظهر مدي الإلحاح والانزعاج تجاه ما رأيته لدي. وعقب إقلاع الطائرة استدعيت جون بولتون مساعد وزير الخارجية لشؤون المنظمات الدولية وبرنيستون ليمان مدير برنامج اللاجئين إلي كابينتي وأبلغتهما بكل وضوح أنني أريد عمل شيء وشيء سريع للتخفيف مما اعتقدت أنه سيكون معاناة شاملة. كان هذان المساعدين من أفضل العناصر الوظيفية ولم يكونا في حاجة لحثهما علي العمل وطمأناني إلي أنه سيتم بذل كل الجهود لإزالة المعوقات البيروقراطية وحشد منظمات الإغاثة المتطوعة الخاصة والدولية. وأقلعت الطائرة في رحلة استغرقت تسعين دقيقة إلي إسرائيل. ولعدة دقائق بعد الإقلاع رأينا الطرق المترامية والممرات مكتظة باللاجئين النازحين من العراق. ثم اتصلت بالرئيس من الطائرة هاتفياً وأبلغته: «لا يمكنني أن أصف حجم المأساة الإنسانية التي شاهدتها لدي. ليس لديك فكرة عن الكابوس الإنساني هنا. إن هناك كارثة ستحدث لو لم نتحرك بسرعة. إن اللاجئين يموتون يومياً. علينا أن نفعل شيئاً وأن نفعله الآن. وإذا لم يحدث فسوف يلقي الآلاف حتفهم» وقلت: «إنه لمن هذه المأساة التي يستعصي وصفها يجب علي الإدارة أن تكرس نفس الجهود للقيام بعملية إغاثة عاجلة كما فعلنا في حشد تحالف دولي في المقام الأول. واقترحت أن يتصل الرئيس بالسكرتير العام للأمم المتحدة، ويطلب منه تعيين منسق إغاثة علي الفور، واقترحت أيضاً ضرورة اتصاله بقادة التحالف الرئيسيين لحثهم علي التعهد بمزيد من عمليات الإغاثة وتقديم المساهمات علي الفور، وأوصيت أن نطلب من الكونجرس اعتماداً إضافياً عاجلاً كمعونة للأكراد وأن يتم الضغط علي الأمم المتحدة لدراسة رهن مصادرات عراقية في المستقبل لدعم عملية الإغاثة. وقلت: «إن ما عملناه حتي الآن شيء هزيل. علينا أن نحشد العالم. علينا أن نفكر في عمل ضخم. وإلا فسوف يصبح هذا تدميراً منهجياً لشعب بأسره». ولمس الرئيس مدي الإلحاح في صوتي، وقال إنه سيأمر باتخاذ عمل علي الفور.

ونحن في طريقنا من تركيا إلي إسرائيل اتصلت ببوب كيميت لإصدار تعليمات له بإجراء عملية بين الوكالات. وقلت: «لايهمني ما تفعله لكن عليك بفعل شيء ما». وفهم ما

أعديه لكنه أبلغني بأن البيروقراطية تثير بعض التحفظات العملية واللوجستية حيال عملية إغاثة.



وعندما وصلت فيما بعد إلي فندق الملك داود بالقدس بعد عدة ساعات أردت متابعة مكالمتي مع الرئيس بنداء شخصي لعمل شيء ما إلي ديك تشيني. لكنه كان في حديقة السفارية الأمريكية، ولذا فقد نقلت مارجريت تاتويلر رسالة من ثلاثة أجزاء إلي كاثي ايموندي مساعدة تشيني منذ أن كنا نعمل جميعاً في الحملة الانتخابية الرئاسية عام ١٩٧٦. وتضمنت الرسالة: «أولاً: إن الوضع يائس وعاجل. ثانياً: إن اللاجئين سيموتون. ثالثاً: إن الجيش الأمريكي هو المؤسسة الوحيدة التي يمكنها المساعدة. لذا أرجو تجاوز كل الرسميات وتحلوا بالمرونة». وفيما بعد علمت من كيميت أنه عقب تلقي الرسالة أبلغ تشيني زملاءه أنه على مدار ستين عاماً لم يعرف أنني «مثير القلق». وهكذا فقد حازت رسالتي اهتمامه. ومع ذلك فقد تأكدت أن المعونة الإنسانية وحدها لن تكون كافية. وبمجرد ضمان نجاتهم مما هم فيه يتعين أن يكون بوسع الأكراد في نهاية الأمر العودة إلي وطنهم دون سطوة التهديد بالتعرض للاضطهاد والمضايقة التي دفعتهم إلي الفرار للنجاة بأرواحهم. لم تكن محنة اللاجئين الأكراد فحسب حافزاً للتوسع الضخم في عملية الإغاثة الأمريكية والدولية التي باتت تعرف باسم توفير الراحة، بل دفعتني أيضاً إلي الضغط لوضع سياسة جديدة أعلنها الرئيس في ١٦ نيسان إبريل بإقامة ملاذات آمنة للأكراد في شمال العراق. وهي عبارة عن معسكرات للاجئين تحميها القوات الأمريكية وتديرها الأمم المتحدة تحت قيادة الليفتنانت جنرال جيناك - جون شاليكا شفيلي نائب قائد القوات الأمريكية في أوروبا. (ولاحقاً لن يصبح ممثل هيئة الأركان المشتركة الأمريكية على طائرتي بل سيخلف كولين باول في رئاسة الأركان). كانت أضخم عملية إغاثة عسكرية يتم تنفيذها، وقدم ما قيمته ملايين الدولارات من الأغذية والإمدادات لأكثر من أربعمائة ألف لاجئ.

وأعتقد أن التدخل الأمريكي أنقذ حياة عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء لحرب الخليج وما بعدها. ولم تخفنا هذه الجهود مع ذلك من تعرض سياستنا ما بعد الحرب للانتقاد. فقد اتهمنا منتقدونا بأننا حرضنا علي تمرد الأكراد والشيعة ضد صدام في الأيام التالية مباشرة لانتهاء الحرب ثم تركهم يواجهون قدرهم برفض تقديم المساعدة لهم. سواء من خلال عمل عسكري أو مساعدة سرية. وهذه هي نفس الأصوات الكثيرة التي تدعي أيضاً أنه تم وقف عملية عاصفة الصحراء قبل أوانها لأسباب سياسية، وأنه كان يتعين أن تدخل القوات الأمريكية بغداد وتحتل أجزاءً كبيرة من أراضي العراق. ولم نكن قد تبنينا كهدف حربي أو سياسي استبدال النظام العراقي. ومع ذلك فقد كنا نأمل ونعتقد أن صدام حسين لن يبقي في السلطة بعد هذه الهزيمة الساحقة. ومما يثير السخرية أن الانتفاضة في الشمال والجنوب ساهمت في تعزيز قبضته علي السلطة بدلاً من أن تضعفها كما كنا نتوقع. لأنه نجح بمهارة في إقناع جيشه بأن هذه الأحداث تتطلب استمرار قيادته من أجل الحفاظ علي العراق. وعندما تمكن من تعزيز سلطته أربك صدام حساباتنا الاستراتيجية. وكانت النتيجة خير تذكار بأن عواقب النجاح غالباً ما تكون أكثر تعقيداً ويستعصي توقعها كما هو محسوب.

إنهـــاء الحـــرب

استندت سياسة الإدارة في الأسابيع التالية لوقف الأعمال الحربية علي مزيج معقد من الحسابات تستهدف تبديد قلق استراتيجي شديد الوضوح في الذهن: هو ما كنا نشير إليه دائماً بلبننة العراق الذي كنا نعتقد أنه لو حدث سيثير كابوساً جيوسياسياً. لكن هناك بعداً عاطفياً أيضاً، وكان هذا واضحاً للغاية في قرار الرئيس الذي وافق عليه كافة مستشاريه السياسيين والعسكريين بإنهاء الحرب في الموعد الذي حدده بدلاً من استمرارها لبضعة أيام. ومن النقد الموجه إلي سياستنا خلال هذه الفترة، كان هذا أقلها قيمة. فالكثيرون ممن يشكون من أننا أخطأنا بقرار وقف الحرب كانوا من أشد المؤيدين له لدي إعلانه. والحقيقة هي أن قرار الرئيس بوقف إطلاق النار بعد مائة ساعة من القتال قد أيده بحماس كل من القوات المسلحة وشركاؤنا في التحالف والكونجرس والرأي العام الأمريكي.

ففى غضون ساعات من شن الحرب البرية اتضح لنا جميعاً أن النصر سيكون سريعاً وشاملاً، وذكر باول وتشيني أن العراقيين منوا بهزيمة منكرة. وذكرت المخابرات الأمريكية أن معظم قوات الحرس الجمهوري قد دمرت. وتم تدمير أو أسر آلاف الدبابات وقطع المدفعية. وحقق التحالف الذى تقوده الولايات المتحدة أهدافه السياسية والحربية. فقد تحررت الكويت وأصبح الجيش العراقي ضعيفاً بدرجة شَلّتْ معها قدرة صدام علي تهديد جيرانه فى المستقبل بشكل واضح وجوهرى. كان النصر نصراً ناجحاً ومذهلاً أُحْرِزَ بسرعة وبأقل خسائر بشرية، ولم يكن هناك سبب عملياتى يدعو للبقاء.

وكانت القيادات العسكرية متشددة فى هذا الهدف. واعتقدت القيادة العسكرية أن القوة انجزت مهمتها علي خير ما يرام، ولابد من إعادتها إلي الوطن علي الفور. وباستثناء بعض الحوادث العارضة بحدوث وفيات أمريكية من «نيران صديقة» كانت الحرب إنجازاً هائلاً. ولكن وكما أوضح كلاوزفيتس فإنه فى الحرب تصبح أوهن الأشياء بالغة الصعوبة، ومن ثم يسود الغموض. إن حرباً مطولة حتي وإن استغرقت يوماً واحداً أو يومين يمكن أن تسفر عن حدوث خسائر بشرية أمريكية لامبرر لها.

ودبلوماسياً وداخلياً كان المزاج السائد يدعو إلي انهاء القتال، وبات الطيارون الأمريكيون المقاتلون يعودون من مهامهم ليتحدثون عن «الرماية علي الديك الرومي الحي» للعراقيين اليائسين الفارين إلي الشمال علي طول ما أصبح يعرف باسم طريق الموت، ومن المؤكد أن هذه التعليقات ستتلوها عما قريب صور لخسارة مروعة عن المذبحة. وقد سعي السوفيت بشكل محموم لمنع الهجوم البرى. والآن هناك مخاوف حقيقية من أنهم قد يشقون صف التحالف بدعوة مجلس الأمن إلي وقف استمرار المذبحة. وعودة إلي الوطن بدأ يسود اعتقاد بأن هذه توشك لأن تتحول إلي حرب لا أمريكية – لدرجة بالغة الحمق من الأيسر بل من اليمين وقتها.

ومنذ بداية الأزمة رددنا مراراً بأن الولايات المتحدة ليس لديها دوافع تتجاوز فرص الإمتثال لقرارات الأمم المتحدة وطرد العراق من الكويت. وقلنا : إنه ليست لنا أي مخططات موسعة للاحتفاظ بوجود عسكرى دائم وجوهرى فى المنطقة. وأبسط طريقة لتحقيق مصداقية

حول هذه النقطة لدي كل الأطراف هو الوفاء بكلمتنا: والانسحاب علي الفور من العراق. وباختصار ليس هناك سبب يدعو البقاء من وجهة نظر عسكرية أو سياسية

شائعة الزحف نحو بغداد

يدور الجدل حتي هذا اليوم حول ما إذا كان من المتعين أن نواصل هجومنا لندخل بغداد ونطيح بنظام صدام حسين. واعتقد أن هذه فكرة غير مجدية الآن كما كانت من قبل – ليس لمجرد الأسباب القانونية الضيقة بأن قرارات الأمم المتحدة لا تجيز أي شيء يتجاوز تحرير الكويت. فالحقيقة كاملة تجسد أبعاداً استراتيجية وعملية ودبلوماسية وسياسية دعت الرئيس لاتخاذ قرار بعدم الزحف نحو بغداد – وهو قرار صائب علي الإطلاق لم يثر أي جدل قطياً.

واستراتيجياً كان الهدف الحقيقي هو إخراج العراق من الكويت بطريقة تكفل تدمير القوات العسكرية الهجومية لصدام حسين وتعجل بسقوطه من السلطة. ومع إعلان وقف إطلاق النار في ٢٨ شباط فبراير، كان الجانب الأعظم من الآلة العسكرية العراقية بما في ذلك معظم برامج أسلحته النووية والكيماوية والبيولوجية، قد دمر. أما وقد تم إنجاز الأهداف السياسية والحربية، لم يكن هناك سبب بكل معني الكلمة يدفع لإرسال جنودنا نحو الشمال.

علاوة علي ذلك كنا نعتقد أن الزحف نحو بغداد أمر سخيف من وجهة نظر عملية. علي أدني تقدير سيحول هذا الزحف صدام إلي بطل قومي. وهكذا فجأة يمكن تصوير حرب التحالف لتحرير الكويت من غزو ندد به العالم علي أنها غزو أمريكي للعراق. فضلاً عن ذلك وحتي مع تفوقنا العسكري فإن احتمالات العثور علي صدام احتمالات بعيدة. وحتي في بنما البلد الصديق للولايات المتحدة الذي تمركزت فيه قوات أمريكية معظم سنوات القرن الحالي استغرق الأمر من قوات الغزو الأمريكي خمسة عشر يوماً للعثور علي الجنرال مانويل نورييجا وأسره عام ١٩٨٩. وعلي خلاف بنما، حيث كانت توجد حكومة منتخبة ديمقراطياً لتولي السلطة، فلا توجد أي معارضة عراقية منظمة لصدام، ولمزيد من الإيضاح يمكن توقع إقدام الجنود المدنيين العراقيين علي مقاومة استيلاء العدو علي بلدهم بضراوة لم تحدث في

ميدان المعركة فى الكويت، وحتى إذا وقع صدام فى الأسر وأطيح بنظامه فستظل القوات الأمريكية تواجه شبح الاحتلال العسكرى لأجل غيرمعلوم لتهدئة البلد ودعم الحكومة الجديدة التى تولت السلطة . ويقيناً سوف تؤدى حرب المدن التى ستستتبع ذلك إلي سقوط خسائر بشرية بين الجنود الأمريكيين تفوق ما سقط خلال الحرب ذاتها. مما سيثير عاصفة سياسية فى الداخل وانتقادات كثير من الحلفاء ثم تفكك التحالف. ومن المفارقات الغريبة أنه بينما كان صدام مخطئاً فى تصوره بأن معاناة أمريكا فى فيتنام ولبنان سوف تنقذه من الحرب فإن الدروس المؤلمة التى استخلصها صناع السياسة الأمريكيون من هذين الصراعين ربما كانت هي ذاتها التى أنقذت صدام بالفعل من الأسر.

ودبلوماسياً، فإن الإلحاح للزحف نحو بغداد لم يكن ليتسبب فى صدع داخل التحالف فحسب بل كان سيحدث زلزالاً، وفى الواقع أننا لو اخترنا هذا النهج ما كنا لنصبح فى وضع يؤهلنا لبدء عملية سلام دلت مضي. لأننا سنفقد كل أعضاء التحالف العربى. فضلاً عن هذا فإنه بقدر ما يريد جيران صدام احتواءه بقدر ما يخشون من احتمال أن يصبح العراق ضعيفاً بطريقة غير متوقعة تقود ملالى إيران الذين يمكنهم نشر الأصولية الإسلامية بمساعدة شيعة العراق، وسرعان ما يتحولون إلي قوة هيمنة إقليمية . كان هذا يشكل هاجساً حقيقياً لدي إدارة بوش وكثير من حلفائنا أيضاً. وتماماً كما ساهم الخوف من التوسعية الإيرانية فى تشكيل سياستنا ما قبل الحرب تجاه العراق كانت نفس الفوبيا عاملاً مهماً فى صنع قرارنا ما بعد الحرب.

ونفسياً دشكل نجاح الحرب أقوي زخم للنفسية الأمريكى. ففى ستة أسابيع قضت عملية عاصفة الصحراء علي الميراث المرير لحرب فيتنام. واجتاحت حمي النصر البلاد بدرجة لم تشهدها منذ الحرب العالمية الثانية . فلاعجب أن تكون النغمة السائدة حتي المواطن العادى فى الشارع هي ضرورة «إعادة الأبناء إلي الوطن».

ولم تكن هناك أى رغبة علي المستويات العليا للحكومة الأمريكية فى احتلال جزء من العراق. ناهيك عن رفض للجيش بقوة. وأبلغنى الأمير بندر فى ٢٧ شباط فبراير أن العالم العربى يهمه أن يحدث الانسحاب بسرعة وبشكل ملحوظ، وفى نهاية الحرب سيطرت قوات

التحالف علي مساحة كبيرة من أرض جنوب العراق - أى كل ما يقع جنوب وشرق السماوة أسفل نهر الفرات حتي البصرة. وفى هذه المنطقة تتناثر الألغام والذخيرة الحية، وكان شوارتسكوف يشعر بالقلق من حدوث خسارة بشرية لا مبرر لها. وعندما التقيته فى الرياض فى آذار مارس قال: إن احتلال أى أرض لا يحقق غرضا عسكريا، وأكد أن رجالى يعيشون فى الحفر. إنهم لا يخدمون أى هدف، ليس هناك عدو. فقد هزمنا العدو لكنها منطقة شديدة الخطورة مليئة بالألغام الأرضية والقنابل الانشطارية، إنه وقت العودة، وأبلغته أن الرئيس قال إنه يريد عودة قواتنا بأسرع ما يمكن.

مساعدة الأكراد

فى الثانى من آذار مارس أى بعد يومين من إعلان الرئيس وقف إطلاق النار، وفى اليوم الذى أقر فيه مجلس الأمن الدولى القرار ٦٨٦ الذى يحدد بنود وقف إطلاق النار انضم الشيعة المتمردون إلى المنشقين من الجيش للاستيلاء على بلدة الناصرية. وحشد صدام حسين ما تبقي من قوات حرسه الجمهورى المتصدع لإخماد هذا التمرد. وفى الوقت نفسه كان يواجه تمرداً آخر فى الشمال من الأكراد خصومه منذ أمد بعيد.

وفى الوقت الذى التزمنا الحذر فى اتخاذ إقصاء صدام حسين من السلطة هدفاً سياسياً أو حربياً. فقد أعلنت الإدارة الأمريكية بوضوح منذ وقت أننا لن نذرف الدموع لو أطيح بصدام حسين من السلطة . وكان هناك سبب يدعو للأمل فى أن قيادة القوات المسلحة المهزومة سوف تنتفض فى وجه الرجل المسؤول عن الهزيمة الماحقة فى الكويت، وفى الواقع فقد حدث العكس تماماً. وقدم التمردان سببا مقنعاً للجيش لتناسى أدائه المخزى فى عاصفة الصحراء، وفجأة ظهرت حرب جديدة. حرب يمكنهم الفوز بها. واتضح هذا بجلاء مع استمرا القتال فبرغم ضعفها وقلة عتادها كانت الفرق العراقية الأربع والعشرون التى لم تشاهد وهى تشارك فى أى قتال فى عاصفة الصحراء كافية لإخماد التمرد. ومن الناحية العملية لم يكن يكفل نجاح التمرد سوي عمليات عسكرية أمريكية مباشرة علي الأقل.

ولم نكن نساعد المتمردين عسكرياً خشية التعجيل بتفسخ العراق وجر المنطقة إلي دائرة عدم الاستقرار في المقام الأول، وينظر إلي الشيعة بطبيعة الحال علي أنهم منحازون إلي إيران. كما أن الأكراد الذين يطالبون بإقامة دولة كردستان المستقلة عن تركيا تتنازعهم قيادات مشتتة، ويشكلون مصدر قلق مستمر لتركيا. ولكل هذه الأسباب الجيوسياسية كنا نتوخي الحرص في مساعدة أي منهما. وكنا نعتقد أنه من الضروري أن يبقي العراق سليماً مع أو بدون قيادة جديدة أكثر عقلانية. ولم ننظر جميعاً بارتياح لعكس ذلك. وكنا نعتقد أن التمردين سوف يثيران حتماً الضغوط غير المرحب بها في العراق والمنطقة بأسرها.



وتعزز حذرنا في هذا الصدد عندما زج الإيرانيون بأنفسهم في المعمعة. فسرعان ما بادرت إيران بتأييد المنشقين سعياً منها لاستغلال فراغ السلطة الإقليمي الناجم عن الحرب لتحدي منافسها اللدود. ودعا الرئيس الإيراني هاشمي رفسنجاني، صدام إلي الاستقالة، وناشد المواطنين العراقيين إلي الانتفاض في وجه زعمائهم الذين فقدوا الثقة. وخلال تلك الفترة وجهت إيران عدة نداءات تحث الشيعة للإطاحة بصدام. ولازال القلق قوياً في المنطقة من الأصولية الإيرانية، وكنا نخشي من مساعدة آيات الله في طهران بدون قصد عن طريق مساعدة الشيعة.

واستندت حساباتنا السياسية إلي عزوف، مكثف داخل الإدارة بفعل أي شيء قد يؤدي في نهاية المطاف إلي إعادة اشتراك القوات الأمريكية في عمليات في العراق. وتمثل الحافز الفعال في أن الحرب قد انتهت، ولا يتعين أن تبدأ من جديد. كان هذا التفكير سائداً علي نطاق واسع داخل البنتاجون، الذي عارض توصية لجنة للتوافق بإقامة منطقة منزوعة السلاح بجنوب العراق تقوم قوات الأمم المتحدة فيها بمهام الدورية. وشكل التردد المؤسسي عنصرا إضافيا في اتخاذ قرار بعدم إسقاط طائرات الهليوكبتر العراقية حتي بعد أن بدأت مهاجمة المتمردين.

وعندما اجتمع شوارتسكوف مع نظرائه العراقيين فى ٣٠ آذار مارس لإملاء بنود وقف إطلاق النار كان قد حظر كافة رحلات الطائرات العراقية ثابتة الجناح. ولأن القصف الأمريكى أدي إلي تدمير الجسور فى العراق طلب الجنرالات المهزومون السماح باستخدام طائرات الهليوكبتر لإعادة تزويد القوات العراقية المتناثرة فى أنحاء البلاد. ومع إحكام القوات الجوية للتحالف لسيطرتها علي أجواء العراق كان شوارتسكوف يعرف تماماً أن طائرات الهليوكبتر لا تشكل أى تهديد لجنوده، ولذا فقد وافق علي هذا الطلب. كان قراراً اتخذ علي أرض الواقع، وإنصافاً لشوارتسكوف فإنه يبدو معقولاً بكل تأكيد من وجهة نظر عسكرية. وليست هناك أسباب خاصة تدعو للتشكيك فيما بدا فى حينه أنه لا يعدو أن يكون مجرد مجاملة من المنتصر للمهزوم. وبمجرد أن بدأت طائرات الهليوكبتر الحربية فى دك القرى الشيعية والكردية أدركنا جميعاً أنه كان من الخطأ عدم النص صراحة علي حظر طلعات طائرات الهليوكبتر العراقية كما حدث مع الطائرات ثابتة الجناح.

. ولا أتذكر حدوث جدل بين الرئيس وكبار مستشاريه حول هذه القضية. سواء قبل أو بعد قرار شوارتسكوف. وأعتقد أيضاً أن قوات صدام حسين كانت ستسيطر بسرعة علي التمرد بطائرات الهليوكبتر أو بدونها. وخلص محللو المخابرات إلي أن التفوق العددى والمدفعية والمدرعات العراقية كانت كافية لإخماد التمرد، وكان اسقاط طائرات الهليوكبتر كفيل بإحداث أثر عاطفى رمزى. إلا أنه لن يكفل ضمان نجاح التمرد، واعتقد كولين باول بشكل خاص أن إسقاط طائرات الهليوكبتر قد يجرنا إلي حربٍ أهلية. وهو تصور لا نبتغيه نحن ولا شركاؤنا في التحالف، وثار جدل طفيف إن لم يثر علي الإطلاق فى حينه حول أن أكثر الطرق المناسبة أمام الولايات المتحدة للعمل هي زيادة المساعدة الإنسانية للاجئين.



وخلال تلك الفترة ثار قدر من المناقشة حول تأييد التمرد ضد صدام حسين من خلال عمليات سرية. وأتذكر تماما الحجج التى ساقها عدد من كبار المسؤولين من دول أخري فى التحالف. وأبلغنى أحدهم: «علينا أن نجد طريقة لمساعدة الشعب فى التخلص من صدام. لقد حان الآن وقت تأجيج الإضطراب». وقال قليلون إنهم مستعدون للمساعدة بالأموال والمشاركة

فى عمليات سرية. وقال هؤلاء: «إننا فى حاجة لبعض المساعدة» وقيل لى: «عليكم بمعاملة المعارضة العراقية كما تعاملتم مع المجاهدين الأفغان. فهذا هو الطريق الوحيد الذى يفصل الجيش العراقى عن صدام» وقال هذا المسؤول إنه إذا تم تزويد المتمردين بصواريخ مضادة للدبابات وصواريخ أرض جو فلن يصبح بوسعهم الدفاع عن أنفسهم فحسب بل يمكنهم أيضاً إلحاق هزائم كبيرة بقوات صدام. كانت قوات الجيش العراق فى حاجة إلي تحقيق نصر سريع لاستعادة ثقتها المهدرة. وربما يكون تمرد صعب ومكلف أمرا غير مقبول نفسياً. وقال أحد وزراء الخارجية: «إن الجيش بحاجة لأن يعرف أنه طالما بقى صدام حسين فى السلطة فسوف يكون عليه أن يخوض حرباً داخلية طويلة ومكلفة، ومتي تحقق ذلك فسوف يكون الجيش أكثر استعداداً للتحرك ضد صدام». ولأسباب واضحة لا يمكنني الخوض فى تفاصيل المناقشات الداخلية فى الحكومة الأمريكية فيما يتعلق بمقترحات القيام بعمليات سرية. وغنى عن القول أنها أثارت مجموعة أسئلة شائكة. هل يمكن إجراء تلك العمليات بنجاح فى ضوء تقييم المخابرات بأنه يمكن للولايات المتحدة وشركائها فى التحالف القيام بها؟ هل ستؤدى مثل تلك العمليات إلي مجرد تقسيم العراق وتعمل ضد رغبتنا فى إعادة الاستقرار إلي الخليج؟ وإذا تمت تجربة هذه المحاولات وفشلت هل يمكننا الاعتماد علي العقوبات الاقتصادية والسياسية الجوهرية ضد العراق؟. وألمح بعض المنتقدين إلي أن القيام بمثل هذه العمليات السرية وإسقاط طائرات الهليوكبتر أو الاحتفاظ بأرض عراقية ربما كانت قد ساعدت هدفاً بعيد المدي فى ضمان أن النظام العراقى لن يشكل أى تهديد علي استقرار المنطقة.

وفى ذلك الحين أثارت كل تلك الإجراءات المحتملة شكلاً أو آخر من أشكال المخاطرة. فمن ناحية هناك خطر من انجرار أو انغماس الجيش الأمريكى فى حرب أهلية عراقية. وقد أوضحنا خلال الأزمة فى مشاوراتنا مع شركاء التحالف أننا لا نريد الاضطلاع بدور فى الحفاظ علي النظام فى العراق. علاوة علي ذلك فقد أردنا تشجيع دول الخليج مع السوريين والمصريين علي إقامة بنى أمنية لما بعد الحرب فى المنطقة. ووعد الرئيس مراراً أننا لا نسعي للاحتفاظ بوجود عسكرى دائم، وأنه كلما تم الإسراع بمغادرة قواتنا كلما نشأت الضغوط علي دول الخليج للعمل علي ضمان أمنها.



وكنا نشعر بحذر بالغ تجاه تفسخ العراق. وكنا نحتاج وجود التحالف بعد الحرب بنفس احتياجنا له قبل الحرب لسببين أساسيين. أولهما: أننا علمنا أثناء الحرب أن برنامج صدام حسين لتطوير أسلحة الدمار الشامل أشد خطورة ومحاط بسرية بالغة عما كنا نعتقد في البداية. وكنا مصممين علي استغلال نصرنا في عاصفة الصحراء لإخضاع النظام العراقي لأقوي وأدق نظام تفتيش علي الأسلحة لاستئصال أي فرصة أمام استمرار البرنامج. وكنا مصممين أيضاً علي استمرار فرض العقوبات السياسية والاقتصادية الجوهرية ضد العرق للحد من نزعاته العدوانية، وهي العقوبات التي لاتزال سارية حتي الآن. ولوضع صدام في القفص إذا جاز التعبير فإننا نحتاج إلي تطبيق قرارات الأمم المتحدة القائمة (وإصدار قرارات إضافية جديدة). ونريد كافة شركائنا في التحالف ليكونوا معنا لتحقيق هذا الهدف. ثانيهما كانت هزيمة صدام تعتبر تنصلاً واضحاً من التطرف الراديكالي وهيأت فرصة فريدة للسعي لإقرار سلام دائم في الشرق الأوسط بين العرب والإسرائيليين، ولإنجاز هذا الهدف فإننا بحاجة إلي الحفاظ علي سلامة التحالف والتركيز علي إقرار السلام.

صدام إلي أين؟

وبينما نزلت الهزيمة بصدام انتابت العصبية زعماء آخرين لبقائه في السلطة. وعندما اجتمعت مع شامير في القدس في ٨ نيسان إبريل لبحث عملية السلام كان شديد القلق من أنه بالرغم من النصر الساحق فلازال صدام حياً ويمسك بزمام السلطة، وقال شامير: «إنه درس غير جيد للمنطقة. فمثل هذا الرجل إذا جاز وصفه بأنه رجل وهو الذي كلفنا الكثير من الخسائر، والذي جرؤ علي مهاجمتنا بالصواريخ، هو رجل لا يمكن أن نتعايش معه. وأعتقد أن كل شيء في المنطقة سيظل موقفاً حتي تتغير هذه الوقائع». ورددت بأن كافة شركائنا العرب في التحالف يعتقدون بأن صدام سيطاح به في انقلاب في غضون ست أو ثمانية أشهر. لكنني كنت قلقاً من أن الانتفاضة في الشمال والجنوب ربما تكون قد خلقت صيحة تأييد له.

وفي اليوم التالي في القاهرة أعرب الرئيس مبارك عن قلق مماثل. وفي جانب من مناقشاتنا شمل مشكلة اللاجئين أشرت إلي أن صدام يسعي للانتقام من تركيا وإيران بإجبار الأكراد علي الفرار عبر حدودهما. ورد مبارك: «إن صدام ليس بهذا الذكاء إنه ببساطة يود قتلهم».

ومن المهم تذكر أنه في الوقت الذي سيتم فيه الترحيب برحيل صدام فإن هذا الرحيل لم يكن هدفا معلنا لسياستنا. كنا نلتزم دائماً بحذر بالغ في إنكاره كهدف سياسي أو حربي. وفي الوقت نفسه لم نتوقع حقيقة أنه سينجو بعد هزيمة ماحقة بمثل هذا الثقل. وربما كان يتعين علينا تذكر أن صدام ناج مخادع وجد طريقة ما لإرباك أعدائه. وحتي اليوم لايزال صدام مسيطراً علي بلاده. بينما الإدارة التي هزمته بمهارة ودبلوماسية وعسكرية فذة لم تعد في السلطة. وتذكرت كخبير شاهد علي غرابة أطوار التاريخ شيئاً قاله طارق عزيز لي في جنيف «سوف نبقي هنا لفترة طويلة بعد ذهابكم». كان هذا واحداً من أمور قليلة ثبتت صحتها.

الفصل الخامس والعشرون

مقدمة لمؤتمر الشرق الأوسط

إلقاء التبعة على الآخرين

أريد أن أطرح عليك أفكاري قبل أن نبدأ هذه الجولة. ليست لدي أي توقعات مفرطة. لكن هناك بعض الحقائق الجديدة تجعل من المحتمل إحراز تقدم والفضل يرجع لنا ولكل من يبذل جهداً.

من مذكرة بيكر

إلى الرئيس بوش

عشية أول جولة من ثماني جولات مكوكية في عملية السلام

في غضون أسبوعين من عودتي إلي واشنطن من الشرق الأوسط في منتصف آذار مارس بدأ الخوف يراودني من أن تفاؤلي تجاه إحياء السلام بات في غير موضعه. فجأة سقطت الكلمات الشجاعة ومؤشرات الأمل التي وجدتها في كل زيارة لي لدولة من دول المنطقة، ضحية للأمر الواقع الرهيب. وعلي كل المستويات وصولاً إلي الرئيس مارست الدبلوماسية الأمريكية ضغوطاً علي كل الأطراف لتجاوز تفاهاتها، باتخاذ خطوات ملموسة ولم يكن أحد مستعداً للمساعدة.

ومع نهاية آذار مارس أصبح من الواضح أنه ما لم أكسر الوعد الذي قطعته علي نفسي بتجنب الدبلوماسية المكوكية فسوف تغلق نافذة الفرصة التي فتحتها عاصفة الصحراء نتيجة للقصور الذاتي، وسيكون السلام هو الخاسر. لكن مصداقية ومكانة الولايات المتحدة سوف تتأثر أيضاً. أما وقد بدأت هذه العملية أصبحت عاقداً العزم الآن علي محاولة إنقاذها من فشل سابق لأوانه.

وفي أوائل نيسان إبريل أوصيت لدى الرئيس بأن أبدأ جولة مكثفة من الدبلوماسية الشخصية في المنطقة. وأشرت في مذكرة إلي الرئيس مؤرخة في السادس من نيسان إبريل إلي أنه «ليست لدي أي توقعات مفرطة. لكن هنالك بعض الحقائق الجديدة تجعل من المحتمل إحراز تقدم، والفضل يرجع لنا ولكل من يبذل جهداً». وتظل هدفي الاستراتيجي كما كان في آذار مارس في إقناع كافة الأطراف بكسر التابوهات حول المباحثات المباشرة بين إسرائيل وجاراتها، ولتحقيق هذا الهدف عقدت العزم علي الضغط عليهم من أجل تقديم تنازلات رمزية للقضاء علي الميراث المتبادل للكراهية وانعدام الثقة. ولسوف أطلب من الملك فهد والرئيس مبارك المساعدة في «تليين موقف الأسد». وإبعاد منظمة التحرير الفلسطينية عن أي دور رسمي في العملية، ومحاولة الحصول علي تعهدات من كافة الأطراف بالمشاركة في مؤتمر إقليمي للسلام. وستُطلَبُ معونة السوفيت بمشاركة الولايات المتحدة في رعاية المؤتمر، وسيتم حث الأوربيين ومنظمة التحرير الفلسطينية برقة متناهية علي الابتعاد بسبب الاعتراضات الإسرائيلية.

كان محور نهجي التكتيكي بالغ البساطة، وكتبت في المذكرة أننا نريد من الجميع الاستثمار في العملية حتي لا يكون من السهل الفكاك منها. إننا نريد منهم أن يساهموا

بحصصهم فى نجاحها وزيادة الكلفة عليهم لو فشلت. وفى تلك اللحظة لم يساورنى أى شك فى أن هذه الجولة القادمة من دبلوماسية الشرق الأوسط ستحملنى علي قطع ما يعادل دورتين حول العالم فى ستة أسابيع. وما لم أتوقع أنه فى الوقت الذى سيتم فيه إنجاز درجة من التقدم تفوق التوقعات المعقولة في نهاية هذه الملحمة فسوف يظل البحث عن السلام خداعاً مثيراً للعصب كالعهد به.

جفـــاء شـــامير

كالمعتاد يمر طريق الآلام نحو السلام عبر القدس. وتواكب مع وصولي إلي إسرائيل فى التاسع من نيسان إبريل ظهور مؤشرات متناقضة. فقد أعلن ميشا آرينز إطلاق سراح ١٢٠٠ سجين منهم ثلاثمائة فلسطينى من المعتقلين إداريا بسبب الانتفاضة. ومع ذلك خفتت بهجة هذا الإجراء لبناء الثقة موضع الترحيب بسبب إقامة مزيد من المستوطنات فى الأراضى المحتلة.

وسرعان ما بادرت بإعلان اعتراضى علي المستوطنات في اجتماع مع ديفيد ليفى الذى كان ينزع منذ البداية نحو تأييد السلام. وقلت: «إن لدينا تفاهما واتفاقات يجب أن تكتسب مصداقية». وشكوت قائلاً:«إن تصريحات آريل شارون وزير الإسكان النارية ونزعته التوسعية تقوض عملية السلام، وخاصة لأن هذه التصريحات تُذَاعُ لتبدو وكأنها تمثل السياسة الرسمية لحكومة إسرائيل. إن هذه الأفعال تؤكد صراحة الانطباع بأن إسرائيل تضللنا عن عمد».

وقال ليفى مازحاً: «عليك أن تنال درجة دكتوراه في الفلسفة فى الألغام الأرضية والعراقيل إنك بارع فى تلمسها وتجنبها». ولم يتراجع فى مسألة المستوطنات مصراً علي أن إسرائيل لم توافق علي وقف بنائها فى شهر شباط فبراير. بل وافقت علي ألا يسكنها المهاجرون السوفيت.

وقبل مغادرتى واشنطن عقدت لقاءً خاصاً فى منزلى مع دان مريدور وزير العدل السابق فى حكومة شامير والنجم الساطع فى حزب الليكود. وأبلغته بأننى أتوقع الحصول علي

بإجابة لثلاثة أسئلة جوهرية خلال زيارتي: هل ستشارك إسرائيل فى مؤتمر إقليمي مع العرب والفلسطينيين؟ هل سيوافقون علي أن أساس عقد مثل هذا الاجتماع سيكون التوصل إلي تسوية شاملة يستند إلي قرار الأمم المتحدة ٢٤٢؟ هل ستشارك إسرائيل لو شارك فلسطينيون من الأراضي؟. وأعددت هذه الأسئلة فى القدس علي شامير فى أول اجتماع مما سيصبح ثمانية اجتماعات معه خلال الأسابيع الستة التالية. وبعد حوار استغرق ربع الساعة حول قضايا أخري قال شامير «الآن دعنا نتطرق إلي أسئلتك التى تعرف أنها ليست الأسهل فى العالم». وأحسست بالارتياح بعد أن علمت أن شامير تقدم بعض الشيء. فقد تخلي عن معارضته السابقة لمشاركة السوفيت فى رعاية المؤتمر، وقال إن إسرائيل باتت مستعدة الآن للمشاركة فى مؤتمر إقليمي لكن ليس تحت رعاية الأمم المتحدة كما كان العرب يصرون لسنوات. ووافق أيضاً علي التمثيل الفلسطيني، لكنه أراد أن يكون الفلسطينيون جزءاً من وفد مشترك مع الأردن. وأعرب عن اعتقاده بأن تأثير منظمة التحرير الفلسطينية سوف يتلاشي بهذا الشكل ومع ذلك فلم يكن راضياً عن أسس المؤتمر. فبالنسبة للعرب (ومعظم دول العالم) فإن قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ يقضي بمبادلة الأرض بالسلام، وهو ماكان شامير يتوعد بألا يحدث علي الإطلاق. فقد أراد إضافة عبارة «علي نحو ما تم الاتفاق عليه فى كامب ديفيد» فى صياغة القرار. لأن موقف إسرائيل تمثل فى أن مناحم بيجين لم يوافق علي مبادلة الأرض بالسلام فى اتفاقية عام ١٩٧٨ التى توصل إليها مع أنور السادات تحت رعاية الرئيس جيمي كارتر فى كامب ديفيد. وقلت له: إن هذه مجرد مسألة دلالة لغوية. فبوسع كلا الجانبين أن يفسرا صيغة القرار كيفما شاءا. غير أن العرب لن يوافقوا مطلقاً علي أى تعديل فى الصياغة اللغوية للقرار ٢٤٢ باعتباره أساساً لعقد الاجتماع.



وكان اجتماعي مع فلسطينيي الأراضي بعد ظهر ذلك اليوم أكثر إيحاءً بالتفاؤل عن الاجتماع الأول فى آذار مارس، وباغتني الغياب شبه التام للهجوم العنيف والشعيرة المألوفة بالتحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية. ولمست فى المقام الأول مرارة تولدت نتيجة

المشاركة في اجتماعنا الأول. فبرغم تعرضهم لانتقاد حاد من أشقائهم لاجتماعهم معي للمرة الثانية أوضح كل منهم بجلاء أنهم يريدون أن يكونوا جزءاً من العملية. والأهم أنهم وافقوا علي الشروط المسبقة الثلاثة التي حددها شامير لقاء الاجتماع معهم في إطار مؤتمر إقليمي. ووافقوا علي تأييد عملية المسارين بين إسرائيل والعرب والفلسطينيين، وعلي المفاوضات المرحلية وإقرار السلام مع إسرائيل. وأشرت في رسالة للرئيس: «إن هذا وحده هو مؤشر جيد عن التغير الذي طرأ علي المزاج والنهج بين الزعماء الفلسطينيين المحتملين في الأراضي». ولم أكن أريد البدء في مباحثات حاسمة مع شامير حول موضوع يثير مواجهة، ولذا فقد تريثت حتي بداية اجتماعنا التالي في اليوم التالي ١٠ نيسان إبريل للاحتجاج لديه علي الاستفزاز الاستيطاني الأخير. ففي ١٣ آذار مارس أعلن شارون أن إسرائيل ستبني ١٣٠٠٠ وحدة سكنية جديدة في الأراضي المحتلة خلال الأعوام الثلاثة القادمة. وفي وقت تطلب فيه الولايات المتحدة من كافة الأطراف أن تقدم مؤشرات تصالحية في قضية السلام كان هذا تطورا محبطا بشكل خاص.

وقلت لشامير: «إنني أري أي محاولة متعمدة لتخريب السلام علي إنها مشكلة حقيقية بالنسبة لنا. وإنني أطلب منكم بكل الاحترام المبادرة بنفي تلك التصريحات».

وكعادته حاول شامير الالتفاف حول شكواي وقال: «إنني غير مرتاح لهذه التصريحات وجميع من في البلاد يعرف ذلك».

ورددت: «إنني لا أطلب منك تبني موقفنا. لكنني أطلب منك منع هذا الرجل من زرع الألغام علي طريق السلام».

وقال شامير: «لا أريد إقحامك في سياستنا الداخلية».

وحذرته قائلاً «لا أود أن أري سياستكم الداخلية تستغرقنا. لكن هذا سيحدث لو استمرت الاستفزازات الإستيطانية»

ورد شامير: «سأتولي الأمر، والآن فقد أحسست بالطبع أنه لن ولم يفعل».

وتحولت إلي عملية السلام، وسرني أن أعرف أن شامير قرر التخلي عن عبارة علي نحو ما تم الاتفاق عليه في كامب ديفيد، وقال إنه سيدرس اقتراحي بالسماح بحضورممثلين للمجموعة الأوروبية بصفة مراقب في المؤتمر. ولم يكن شامير يثق في الأوروبيين، ويعتقد أنهم يدافعون في معظمهم عن العرب، لكنني كنت أعتقد أن بادرة من نوع ما ستكون أمراً مهماً لاستبعاد بعضهم عن تعقيد العملية. وبرغم هذا لم أفاجأ عندماعرفت أن لدي شامير طلباً جديداً سوف يعرضه. ففي الاجتماع الأول طلب تعهداً من الولايات المتحدة بأن الفلسطينيين لن يتطرقوا مطلقاً بالذكر لمنظمة التحرير الفلسطينية. والآن فإنه يريد رسالة من الفلسطينيين الذين سيشاركون في المؤتمر يتبرأون فيها بأنفسهم رسميا عن منظمة التحرير الفلسطينية، ويتعهدون بأنهم لا يمثلون عرفات. ورفضت هذه الفكرة رفضاً باتاً. ولفتُّ نظره قائلاً: «إنك تبالغ في التشدد فلا يمكنك أن تصر علي أن ينتحروا» وقلت سوف أبلغ العرب بأن الإلحاح العلني علي وجود منظمة التحرير سيعرقل العملية، وهو ما كنت أعتقد فيه بشدة. وسوف تموت العملية لو أصرت إسرائيل علي الحصول علي الرسالة. وقلت لشامير: «لو فرضت شرطاًيجعل من المستحيل التحرك قدماً فسوف أمضي وأعلن سبب فشلها علي وجه التحديد».

وقبل مغادرتي أردت التأكد من عدم وجود سوء فهم حول قضية التمثيل الفلسطيني. كانت فكرتي بسيطة. وقلت: «إذا لم تكن راغباً في الجلوس معهم إذا قالوا أنهم يمثلون منظمة التحرير، فإنني أريد إجابة شافية قبل مغادرتي الشرق الأوسط. فقال شامير إنه سيصطر كارهاً.

وبوجه عام أحسست أن الاجتماعين شكلا بداية مبشرة، ولم يساورني شك في أنه سيكون من الصعب حمل شامير علي الحركة. لكنه تحرك وبات لدي الآن شيء لأعرضه علي مبارك الذي كان متفائلاً كالمتوقع عندما زرته بعد ظهر ذلك اليوم في القاهرة. وبعد قليل من الشكوك في بداية الأمر بات مبارك علي استعداد الآن لتأييد فكرة المؤتمر الإقليمي ووافق أيضاً علي فكرة شامير بالمشاركة بوفد أردني فلسطيني مشترك، وتوقع أن كلا من إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية لن يدخلا في مواجهة كلامية.

وفيما بعد طلب مبارك رؤيتي في اجتماع خاص. وقال: «لم أرد أن أقول هذا أمام آخرين. لكن جيم: إنني مندهش لتقدم شامير كل هذا القدر. فقد سبق أن أبلغني أنه يعتقد أنه لن يتسنى مطلقاً تحقيق تقدم مع وجود حكومة إسرائيلية برئاسة شامير.

جفـاء الأسـد المماثـل

عقب اجتماعات منفصلة مع وزراء خارجية العربية السعودية ومصر وتونس توجهت بالطائرة إلي دمشق في ١١ نيسان إبريل لمقابلة الأسد. واستغرق هذا الاجتماع خمس ساعات ونصف الساعة لم يتخلله توقف إلا فترة الإفطار في رمضان. ولأنني أعرف أن الأسد أصعب مفاوض عربي فلم أسع للحصول منه سوي علي القليل في البداية. وأبلغته «بأنه ليس المطلوب منكم الآن إنهاء حالة الحرب أو الاعتراف بإسرائيل. وأضفت قائلا: «إن ما نود رؤيته من سوريا هو أن تلتزموا بالعملية» وطلبت منه الإمساك عن انتقاد أي فلسطينيين يرغبون في التباحث مع إسرائيل والعمل لدي منظمة التحرير الفلسطينية للابتعاد قدر الإمكان. وإجمالا فقد اردت الحصول علي موافقة الأسد علي المشاركة في المؤتمر الإقليمي. وأصغي الأسد في اهتمام إلي تلخيصي لرد فعل شامير. لكنه تجاهله تماماً مركزاً علي المؤتمر بدلاً من ذلك. وقال: إنه مستعد للمشاركة لكن فقط في حالة تلبية أربعة شروط. وأصر علي ما وصفه بأنه مؤتمر دولي. وأراد الحصول علي ضمانات بأن راعيي المؤتمر سيضمنان كافة نتائجه. وإنه يجب أن يبقي في حالة انعقاد لضمان إعطاء رخم للمفاوضات، وأضاف قائلاً: إنه لضمان أن المؤتمر اكتسب ما وصفه مراراً بأنه «شرعية دولية» وسلطة معنوية فلابد من انعقاده تحت رعاية الأمم المتحدة.

وبدرجات متفاوتة شكلت ثلاثة من مطالبه الخاصة مشاكل لإسرائيل. لكنني أعتقد أن الحلول الوسط يمكن أن تصاغ بطريقة تكفل احتمال إقناع شامير بالموافقة عليها في نهاية الأمر. وفي الحقيقة فقد توصلنا إلي حل وسط خلال الاجتماع حول ما يمكن تسمية المؤتمر به. ورفض الأسد في البداية تفضيل إسرائيل تسميته «بمؤتمر إقليمي» وقال: «إن هذا الوصف سيقلل من أهمية المؤتمر. لنطلق عليه الاسم الواجب الذي يستحقه».

وتساءل بوجه جامد: «هل هو مؤتمر تنظيمي أو اقتصادي أو سينمائي؟ فلابد أن يطلق عليه اسم» وأبلغته أنني أفضل عبارة عصمت عبد المجيد وزير خارجية مصر بأن المؤتمر هو المؤتمر. وذكرته بأنه ليس هناك شيء يمكن أن يمنعه من وصف المؤتمر بأنه مؤتمر دولي أو يمنع إسرائيل كما أعرف من وصفه بأنه مؤتمر إقليمي. وأخيراً اقترح الأسد أنه طالما أن الاجتماع يرمي إلي تحقيق السلام، فلابد وأن يوصف بأنه مؤتمر سلام. ووافقت علي الاقتراح علي الفور. لأنه في واقع الأمر مؤتمر سيبدأ مفاوضات مباشرة حول السلام. أما شرطه الرابع بشأن إشراف الأمم المتحدة علي المؤتمر فقد كان خنجراً مشهراً نحو قلب السلام. فإسرائيل كانت تنظر علي الدوام، ولها مبررها إلي الأمم المتحدة علي أنها عدو رهيب لا يكبحه سوي الفيتو الأمريكي في مجلس الأمن الدولي، ورسخ قرار الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ بمساواة الصهيونية بالعنصرية وجهة النظر هذه، وكنت متيقناً تماماً من أن شامير لن يحضر مطلقاً أي مؤتمر يعقد تحت رعاية الأمم المتحدة أياً كان مسماه.

وحذرت قائلاً: «أما عن قضية السلطة المعنوية لتواجد الأمم المتحدة فدعني أشر عليكم بما يلي كوسيط لا يمكننا إقناع إسرائيل بالمشاركة في مؤتمر دولي يعقد تحت رعاية الأمم المتحدة. إن هذه حقيقة مؤكدة لا يمكنني تجاوزها. وإذا أصررتم علي ذلك فإنني أعرف أنني لا يمكنني أن أكفل نجاحه». ورد الأسد بدهاء «إذا كان قد تم توفير مظلة كافية من الأمم المتحدة لحرب الخليج. فلماذا لا توفر هذه المظلة للمؤتمر؟» ورددت بالقول إن تواجد الأمم المتحدة لا يشكل مشكلة للولايات المتحدة، وقلت له في الحقيقة فقد رغبت في الضغط علي شامير للسماح بمشاركة الأمم المتحدة كمراقب. وأكدت مجدداً: «إنه لا يسعنا التوصل إلي اتفاق لو كانت هناك مظلة من الأمم المتحدة».

واعتبرت مطالب الأسد في معظمها ستاراً تمويهياً، واعتقدت أن هذه حجج من هو غير معني حقيقة بإجراء حوار. وقلت للأسد: «إن النقاط التي تثيرها هي مسائل تتعلق بالشكل لا بالجوهر. فالقضية الحقيقية هنا ليست الاسم الذي سنطلقه علي المؤتمر. إنها قضية ما إذا كان الإسرائيليون والفلسطينيون والسوريون والأردنيون واللبنانيون قد قرروا أن الوقت قد حان لإقرار السلام. ولن نعرف ذلك مطلقاً إذا استمرت الأطراف بدون تبادل الحديث مع بعضها البعض. وراوغ الأسد للالتفاف علي النقطة التي أثرتها بخطبة مطولة عن سبب امتناع

سوريا عن حضور مباحثات جنيف ١٩٧٣ ، وهو مؤتمر إقليمي انعقد تحت رعاية الولايات المتحدة والسوفيت عقب حرب تشرين الأول أكتوبر في الشرق الأوسط.



وحاولت الضرب علي وتر الواقعية بالإشارة إلي أنه بالإصرار علي موقفه فسوف يمنح إسرائيل فرصة للرفض وتحميل دمشق المسؤولية. وقلت: «لا تقدم لهم عذراء لعدم المشاركة في مباحثات السلام وأن يقولوا إنه خطأ العرب. ورفض الأسد القبول تماماً دون أي استجابة للمنطق. وسألته وقد تصاعد إحباطي: ماذا يحتمل أن يخسره بالحضور؟.

ورد: «سوف نخسر الرأي العام العربي. وعليهم أن يعرفوا ما يدور. فلن تكون هذه مقامرة بل ستكون شكلاً من أشكال الانتحار. فلو أنها سياسة انتحارية تعود بالفائدة علي الشعب ما ترددت في انتهاجها لكن من الحماقة البالغة انتهاجها إذا لم تكن هناك نتيجة إيجابية».

وفي النهاية اتفقنا علي أن يدرس كل منا تحفظات الآخر وقلت: السيد الرئيس، صحيح أنكم لم تجعلوا الأمر مستحيلاً، لكنكم جعلتموه بالغ الصعوبة. وتظاهر بعدم التصديق وأكد: «لم يكن هذا قصدي، إنني أردت أن يكلل بالنجاح». لكن كان من الواضح أنه كان يريد نجاحه دون أن يقدم أي تنازلات من جانبه. وبيني وبين نفسي لم أكن واثقاً تماماً من أننا سنستطيع تجنب اعتراضاته.

وتواكب إحباطي من الأسد مع ضيقي لحدوث تسرب آخر غير مرغوب من إسرائيل بالزعم خطأ أنني وافقت علي استبعاد فلسطينيي القدس الشرقية من أي وفد فلسطيني. وفي طريقي من دمشق إلي جنيف حيث اجتمعت مع طاهر المصري وزير خارجية الأردن، ومسؤولي المجموعة الأوروبية وشيمون بيريز رئيس حزب العمل الإسرائيلي، أمليت رسالة إلي شامير من طائرتي وخاطبت الناحية الإيجابية، وأبلغته بأنه في الوقت الذي كان فيه الأسد صعباً حول قضية المؤتمر فقد وافق هو والقادة العرب الآخرون علي تصور المسارين وشكل ما من أشكال المؤتمر علي الأقل.

وقلت في إشارة إلي التسرب: «إنني أريد تفادي الألغام الأرضية. فلا تسلطوا عليها الضوء إن قدرتي على إنجاز المهمة تعتمد علي أن يتحفظ الجميع في تصريحاتهم العلنية حول القضايا الحساسة. وهذا هو السبب في أن التعليقات العلنية لا تفيدنا في هذا الوقت. إنني بالغ الجدية في محاولة تجنب قضية القدس الشرقية. لكن في هذه المرحلة لا أستطيع مطلقاً أن أقول إن أحداً من القدس الشرقية لن يشارك في هذه العملية».

ولدي عودتي إلي واشنطن من جنيف في الثاني عشر من نيسان إبريل أحسست أنني أحرز تقدما بطيئا. لكنني لم أشارك فريقي الرأي وساورتني نفسي بأن العملية يحتمل أن يقضي عليها. ومع كل الشروط التي تطرحها سوريا وإسرائيل فالهوة شاسعة بين الأطراف إلي حد كبير.

وبعد عودتي إلي واشنطن تلقيت رد شامير علي رسالتي في الخامس عشر من نيسان إبريل. وحط من عزيمتي أن أري تمسكه بالشكل كالأسد. وقال في رده: «لأن المؤتمر الإقليمي لن يكون هو الشكل الذي ستجري فيه مفاوضات السلام. فلا مسوغ لتسميته بأنه مؤتمر سلام». وقال أيضاً: إن إسرائيل لن تقبل مطلقاً بمشاركة فلسطينيين من القدس الشرقية في أي وفد. إن هذا سيخلق وضعاً يستعصي الدفاع عنه. لأنه يضع القدس الشرقية علي جدول الأعمال.

وبعد أربعة أيام من العمل في واشنطن واجتماع وزاري مع المجموعة الأوروبية في لوكسمبرج عدت إلي إسرائيل في ١٨ نيسان إبريل. وفي اجتماع عقدته مع شامير اليوم التالي أبلغته بأن الأمر استغرق جهداً مضنياً ومؤلماً لإقامة عملية تتواءم مع ما تشعر به إسرائيل من قلق، وقد حان الوقت لكي يدرس الحلول الوسط. وقلت: لا يمكنني أن أتوصل إلي اتفاق يقصر أعمال المؤتمر علي اجتماع واحد «لكن يمكنني التوصل إلي اتفاق يوفر لكم الحماية». فالمؤتمر لن تكون له صلاحيات أخذ الأصوات أو اتخاذ قرارات أو فرض حلول علي أي من المشاركين، وسيظل لإسرائيل الحق في الانسحاب في أي وقت تشاء.

وقلت: «إن ما أطلبه منكم أن تفعلوه أن تعطوني مرونة إجرائية كافية لإنجاز هذا. وإذا لم ينجح هذا فلنضعنا في وضع تلقي فيه التبعة علي العرب». ولم تكن هذه المرة الأخيرة

التى استخدم فيها هذا القول الذى يغيب أصله عن ذاكرتي. ومنذ البداية كان هو القوة الرئيسية التى أملكها. وتغاضى شامير ومعاونوه عن بدائلى. وبدلاً من ذلك راحوا يضعون باستمرار العقبات الإجرائية ونقاط الجدل والتحفظات والقلق. وبدا لى أنه لا نهاية لهذه المماحكات والممارسة المحسوبة البلبلة لكسب الوقت والتملص من الخيارات الصعبة المطلوب اتخاذها. وبدأ ضيقى يحرج لأفضل ما لدى. فالآن قمت بتفصيل عملية بنيت أساساً على مطالب إسرائيلية محددة، ولا يرضى عنها شامير. وأخيراً قلت: «إذا لم يمكنك مساعدتى فسوف أعود إلى الوطن».

تقارب في العقبة وردة في جدة

وعقب اجتماعى مع الفلسطينيين مرة أخرى قررت التوقف فى الأردن، الذى كنت أتفادى زيارته فى جولاتى السابقة بالمنطقة لعدم ارتياحنا لتأييده للعراق، وتوجهت إلى مدينة العقبة الساحلية على البحر الأحمر حيث استضافنى الملك حسين على مأدبة غداء فى قصره الصيفى. وتعود معرفتى بالملك إلى عهد بعيد. كما أنه صديق مقرب للرئيس بوش. ففى أوائل عام ١٩٧٧ وبعيد عودتنى أنا وجورج بوش إلى هيوستون عقب انتخاب جيمى كارتر حل الملك حسين ضيف شرف على مأدبة عشاء فى منزل بوش، وباربرا بوش، وجعلت علاقتهما الشخصية القوية التى توطدت نحو عشرين عاماً من تأييد الملك لصدام حسين خلال الحرب خيانة شخصية سببت ألماً هائلاً للرئيس. وكانت هذه العلاقة سبباً فى إثارة غضب غير عادى لدى رجل يفضل تبرئة الصديق والعدو لو لم تتوفر أسلحة الإدانة. فلازال الرئيس يشعر بغضب عارم من الملك حسين لدرجة دفعته إلى رفض عدة طلبات من الملك حسين للاجتماع معه. كنت ما أزال مكدراً. لكننا كنا ندرك أنه لن تكون هناك عملية سلام بدون مشاركة فعالة من الأردن. وبشكل خاص سيكون الملك حاسماً فى إقناع الفلسطينيين بالقدوم إلى مائدة المفاوضات.

وكنا نعرف أيضاً أن الولايات المتحدة تملك الآن قوة ملحوظة لممارستها. فالملك يشعر بأنه أكثر أماناً على عرشه المحفوف بالمخاطر مع المساعدة الأمريكية. فضلاً عن ذلك فإن

الاقتصاد الأردني يجتاز فترة عصيبة. كما أن مموليه السعوديين السابقين كانوا أكثر غضبا منه عنا. وبدأت ديونه الخارجية تتزايد. ويقيم أكثر من ثلاثمائة ألف فلسطيني في مخيمات في بلاده في أعقاب الحرب يستنزفون من خزائنه المنهكة. وببساطة فإن الملك محطم، ويريد مساعده أمريكية لإقناع مموليه في الرياض لإنقاذه من عثرته. كانت كل تلك الأسباب العملية تدعو إلي الاعتقاد بأن الملك سيكون مستعداً لعمل أي شيء لإنهاء عزلته السياسية وإصلاح علاقته مع الولايات المتحدة.

والملك رجل بالغ الرقة، ورحب بي بحرارة في قصره المطل علي البحر، وفيما كان مرافقونا يتبادلون التحيات المألوفة قبل الغداء راودت نفسي بأن هاهنا أناسا يرموننا بأفظع التهم ثم يتصرفون وكأن شيئاً لم يكن. وكان اهتمامي منصباً علي تحريك عملية السلام. لذا فقد أردت أن يعرف الملك أننا مستعدون للتحرك خطوة خطوة حتي نصفح وننسي الماضي، لكن فقط إذا شارك الأردن بفعالية في مبادرة السلام الأمريكية. وبترتيب مسبق أمضيت معه ربع الساعة قبل الغداء علي انفراد لشرح هذا الواقع الجديد وتحديد الإطار العام لشروط التوصل إلي مصالحة نهائية.

وطلب مني الملك: أرجو إبلاغ أطيب تمنياتي إلي الرئيس. وقلت سأنقلها جلالتكم، لكنني في حاجة لأن تعرفوا أن الأمر سيستغرق مجهوداً شاقا لإصلاح علاقات الأردن مع الولايات المتحدة. فمن الصعب فهم بعض ما قيل.

«إنني لا أريد التطرق إلي ما يقسمنا. إنني هنا في محاولة لمعرفة ما إذا كان بوسعنا التحرك نحو السلام. لكن تجب الإشارة إلي أن هناك مشاعر ضيق شديد في الولايات المتحدة، وامل أن نستطيع تجاوز هذا لكن الأمر سوف يستغرق بعض الوقت. وقلت له أيضاً: «إنه برغم خلافاتنا فسوف نبذل ما بوسعنا لمساعدته في إصلاح أموره مع السعوديين».

وأراني الملك صور بعض أحدث العتاد الذي ضبط مع الإرهابيين الذين دخلوا الأردن لقتله. وقال لي أيضاً أنه ملتزم بالسلام وبتحسين علاقاته المتوترة مع واشنطن. ولم يبذل أي محاولة حقيقية لتبرير تأييده لصدام. ومع ذلك فقد أفاض في الحديث لتبرير تصرفه أثناء الحرب، ولم يكن حديثه مقنعاً لوفدنا بالمرة. وفي إحدي اللحظات زعم أن صدام يفكر في

إقامة نظام سياسي أكثر ديمقراطية. ونوهت في برقيتي إلي الرئيس: «إنني أعتقد أن العادات القديمة تموت بعد نضال مرير». لكنني أبلغته أيضاً أنني وجدت أن الاجتماع مشجع للغاية.

ومع بداية العشاء كان من الواضح أن الملك فهم المغزي. فالنسبة لنا حتي تساعده الآن فعليه الاستجابة لشروطنا. وبسرعة بالغة وافق علي حضور المؤتمر، وأعلن أن الأردن سوف تشارك حتي لو غابت سوريا (وهو ما كنت أشعر في ذلك الوقت أنه أمر غير مرجح). ووافق أيضاً من حيث المبدأ علي فكرة شامير بتشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك، وأقر أيضاً بالحل الوسط الذي اقترحته بمنح صفة مراقب للأمم المتحدة، وتعهد بإبلاغ منظمة التحرير الفلسطينية بالابتعاد قدر الإمكان، وأن يشجع الفلسطينيين علي استمرار الالتزام بعملية السلام. وطلبت منه أن يقول أمام الصحافة شيئاً ما عن تحطيم التابوهات وقد فعل، ولخطأ الفريق الصحفي المرافق لي رصد آثار تصريحه. لكنني انتهزت الفرصة عندما اتصلت بشامير هاتفياً قبل مغادرة العقبة بأن آراء الملك أقرب إلي آرائه من الأسد.



ومع نهاية اليوم أرسلت موجزاً إلي الرئيس: «لديّ بصيص أمل في قدرتنا علي معالجة القضايا الرئيسية عقب اجتماعات اليوم يفوق ما كان لديّ أمس. لكنني أعتقد أن مفتاح دبلوماسية معالجة القضية بين الفلسطينيين والإسرائيليين يكمن في الاعتراف بأنه سيكون هناك صعود وهبوط وعلينا أن نتحرك تبعاً لذلك. إننا لا نتعامل فقط مع مخاوف تميل في الغالب إلي محاصرة الآمال، بل أيضاً مع تردد هائل في الإقدام علي التعهد بالتزامات محددة. وأفضل طريق للتعامل مع الأمر هو حث الجميع نحو المزيد من الواقعية».

وفي ٢١ نيسان إبريل عدت للقاء مبارك في القاهرة لألتمس مساعدته مع السوريين والسعوديين. وقلت: «إننا في مرحلة لا نستطيع فيها عمل أي شيء من دون أن تقدم الحكومات العربية علي اتخاذ قرارات. إنني في حاجة إلي مساعدتك ومساعدة الملك فهد.

إنني أريد المساعدة لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية. فبوسعكما أن تطلبا من عرفات عدم عرقلة هذه العملية».

وطمأنني مبارك بقوله: «إن الفلسطينيين يدركون أن هذا هو السبيل الوحيد إنهم يفهموننا».

وكدأبه كان مبارك سخياً بعرضه المساعدة في إقناع من أسماهم «بالأشقاء» وعرض الاتصال بشامير وإبلاغه بأن استمرار مؤتمر الأمم المتحدة لن يلحق أي ضرر بإسرائيل.

وتطوع بوضع طائرته الخاصة تحت تصرف مدير مكتبه للشئون السياسية أسامة الباز حتي يتمكن من زيارة الأسد والملك حسين علي الفور. وعرضت عليه مشروع بيان تأييد أملت إن يصدره الملك فهد. وحذر من أن البيان سيخيف السعوديين. فخلال عملية السلام مع السادات توجهت إلي العربية السعودية أربع عشرة مرة. ولا أعتقد أنهم سيقولون هذا الكلام. ولم يكن هذا ما أملت في أن أسمعه، وكان مبارك حتي الآن هو الزعيم العربي الوحيد المعني بما هو أكثر من الكلام المنمق.

ووصلت إلي جدة في وقت لاحق من اليوم للقاء مع الأمير سعود قبل الاجتماع مع الملك فهد، وأبلغني سعود أنه في الوقت الذي تؤيد فيه بلاده الجهود الأمريكية فلن يكون من المناسب لها المشاركة في مؤتمر سلام. وهالني ما سمعت. وحتي وفقاً لمعايير التحفظ السعودي التقليدي كان مثل هذا الرفض دافعا لحبس الأنفاس في ضوء مناصرة الولايات المتحدة مؤخرا للمملكة.

وفي اجتماع عقد في ساعة متأخرة مساء كالمعتاد كان الملك ودودا للغاية كسابق عهده. لكن مراوغته برقة تعد تذكارا بالنزعة السعودية التقليدية بالابتعاد عن المجازفة – وطلبت منه أن يصدر بيانا معتدلا تأييدا للسلام حتي يمكنني استخدامه لإلزام شامير جانب الدفاع. وتعلل بعدة اعتذارات عن عدم رغبته في إلهاب الرأي العام العربي. وذكرت الملك قائلا: «لننا شركاؤكم. إننا نعمل هذا من أجلكم. ونريدكم أن تقفوا معنا. فكيف يتسني أن نكون شركاء في الحرب ولكن ليس في السلام؟. فإذا لم يمكنكم عمل ذلك فماذا سأقول لصديقكم جورج بوش؟».

ورد الملك: «أبلغه بأنني صديقه. لكننا سنبحث الأمر ثم نرد عليكم». وفى النهاية تعهد الملك بأن يبذل مساعيه لدي السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية. بل وحتي لدي شقيقه فى وقت ما الملك حسين. وأصدر السعوديون فى وقت لاحق بياناً معدلاً يوافق علي المبادرة الأمريكية، ويؤيد فكرة عقد مؤتمر، ولقد كان هذا البيان أفضل من بياناتهم العامة المداهنة لكنه متخلف بخطوات عن التقدم الحقيقي نحو الأمام. وسيتعين تشجيع الملك فهد لتقديم شيء ينطوى علي أثر حقيقي. ومع ذلك فقد قدم هذا الشيء فى النهاية. وما كان يتيسير الشروع اليوم فى عملية سلام لولا القرارات الشجاعة التى اتخذها الملك فهد والرئيس مبارك.



وعكست برقيتي إلي الرئيس عدم سعادتي فى تلك اللحظة. وكتبت له قائلاً: «برغم بياناتهم بدأ السعوديون فى العودة إلي سابق عهدهم، وبرغم تعهدهم السابق فلم يقدموا لنا شيئاً نعمل به مع إسرائيل. إننى أخشي من أن إبلاغ إسرائيل بحدوث تغيرفى العالم العربى قد لا يحدث له صدي في الليلة. لقد أبديت عدم ارتياحى للملك. وأري أن عدم ارتياحى سوف يدفعه لبذل المزيد».

وأعاد إليّ هذا التحول المثير للاضطراب الدور الأساسي للأمير بندر سفير السعودية لدي وشنطن. وباعتباره ابن أخ الملك فهد حظي بندر بنفوذ غير عادي لدي عمه. وقد تلقي تعليمه فى الولايات المتحدة ويمتلك ناصية اللغة الإنجليزية، ولديه دراية واسعة بالنفسية الأمريكية أيضاً. كما يتمتع بذكاء خارق، وهو أكثر مستشارى الملك فهد المقربين منه.

وقبل كل زياراتى السابقة إلي العربية السعودية كان الأمير بندر يعود إلي بلده لإطلاع الملك فهد قبل وصولى. وكانت قدراته فى الإقناع حاسمة في كثير من الأحوال. ومع هذا فلم أستطع الاستفادة من خدماته فى هذه الزيارة ؛ فقد كان وهو الطيار السابق فى القوات الجوية السعودية قد اضطر للهبوط اضطرارياً بطائرته من طراز إف ٥ عام ١٩٧٧ مما تسبب فى إصابته بآلام مستديمة فى ظهره، واشتدت عليه الآلام، واضطر لقضاء فترة نقاهة لعدة أسابيع فى الشاليه الخاص بوالده بالقرب من جنيف.

ولعدة أيام قبل وصولى إلي العربية السعودية تركت عدة رسائل لبندر لم يرد عليها مطلقاً. وكانت آخر رسائلي تهدف لفت انتباهه: «أرجو إبلاغ الأمير بندر أنني اتصل به لمجرد السؤال عن أحواله. إنني أعاني الأمرين هنا بينما هو جالس في شاليهه الملكي. أتمني أن يقضي أوقاتاً طيبة. سوف اتصل به لدي وصولي إلي تل أبيب».

وأراد بندر أن يذكرني بأن الدبلوماسية السعودية غير متهورة، واتضح لي أن غيابه يشجع وزراء الملك فهد الأكثر تحفظاً. كان السبب هو آلام ظهره وما إلي ذلك. فقد كان لابد وأن يمارس الضغط عليه للانضمام إلي المناظرة إذا ما كان للملك فهد أن يرد علي شجاعة رئيس الولايات المتحدة قبل شهرين فقط.

دبلوماسية المثانة

في ٢٣ نيسان إبريل اجتمعت مع الأسد مرة أخري في دمشق. وبدون شك كانت هذه أصعب وأشق مفاوضات أجريها علي الإطلاق. وجعلت من مفاوضاتي المطولة للحد من التسلح تبدو بالغة اليسر. واستغرق الاجتماع تسع ساعات وستاً وأربعين دقيقة دون انقطاع في غرفة خانقة لا تطاق لا يسري فيها سوي النذر اليسير من الهواء المكيف، بنوافذ مغلقة واقية من الرصاص تخفيها ستائر سميكة زيتونية اللون. وضيفنا الأسد بتقديم القهوة التركية الثقيلة وعصير الليمون شديد الحلاوة غير المثلج الذي شربت منه كميات غزيرة بسبب شدة الحرارة. وبعد مرور ست ساعات علي بدء الاجتماع ألح نداء الطبيعة علي السفير إدوارد جيرجيان. وفيما أسهب الأسد في حديثه المطول الأثير معدداً شرور اتفاقية سايكس بيكو بلغ الموقف حدا حرجاً. وكتب جيرجيان رسالة بخط منعكش يذكرني بإثارة قضية سياسية معينة لم تثر حتي الآن. وقال فيها: «وبالطبع فإن الوقت ملائم لك الآن للذهاب إلي دورة المياه». كانت كليتاي تعملان بنشاط يستعصي تفسيره. لذا فقد أشرت له بالخروج. كانت نظرة الكرب البادية علي وجهه بالغة الدلالة، وأومأ إلي وزير الخارجية السوري بأنه يحتاج إلي إجراء مكالمة عاجلة مهمة، وأثناء غيابه كشفت طبيعة مهمة جيرجيان: وقلت: «السيد الرئيس

لك أن تتعجب لماذا ذهب السفير إلي دورة المياه لإجراء مكالمة هاتفية مهمة. وانفجر الأسد في الضحك. ولدي عودة جيرجيان تظاهرنا بأننا لا نعرف شيئاً.

وبعد ساعة أو أكثر سحبت منديلاً أبيض اللون ولوحت به للأسد. وأعلنت «استسلامي عَلى أن أذهب إلي الحمام». وهكذا تحت الوصف الذي سأظل أطلقه دائماً علي مباحثاتي لثلاث وستين ساعة مع الأسد «دبلوماسية المثانة».



كان التفاوض مع الأسد يشكل دائماً مباراة لأقصي درجات التحمل مما يستدعي الانتباه لتقارير المخابرات التي تتواتر باستمرار عن سوء حالته الصحية. فالأسد صاحب عزيمة شديدة الصلابة. كنا نجلس دوماً متجاورين علي مقعدين كبيرين وثيرين يشعرانى بأنني أبدو كالقزم والأسد يشبه أبو الهول. فقدماه ملتصقتان بالأرض، وركبتاه منضمومتان، ويداه معقودتان في حجره، ولا يغير هذا الوضع علي الإطلاق، وكم كنت في حاجة دائماً لإجراء مساج عقب كل لقاء معه حيث كان النظر إلي يساري بزاوية تسعين درجة يصيب رقبتي بالتشنج، وذات مرة عندما ذكرت هذا الأمر للرئيس مبارك انطلقت ضحكته الأثيرة وقال إنه طالما حث الأسد – دون جدوى – علي تغيير وضع المقعدين حتي يواجه كل منهما الآخر. لكن الأسد علي الجانب الآخر لم يبد أدني قدر من عدم الارتياح. ويبدو أنه يستسيغ هذه الجلسات المجهدة وهي حالة تقليدية لمحاولة الفوز عن طريق الإجهاد.

وفي هذا الاجتماع لم تكن للأسد قناة في مطلبين كنت واثقاً أن شامير لن يقبلهما. فقد أصر علي «مشاركة كاملة» للأمم المتحدة بحضور كافة أعضاء مجلس الأمن، وكذلك استمرار انعقاد المؤتمر – أي مؤتمر في حالة انعقاد دائم.

وفي بداية الاجتماع عرضت اقتراحاً يمكن وصفه بإنصاف أنه اقتراح مهم من حيث مداه. وأبلغت الأسد بأنه استجابة لإصراره السابق بأن يضمن راعيا المؤتمر كافة نتائجه فإنني علي استعداد لدراسة فكرة قطع تعهد رسمي أمريكي يضمن أمن الحدود السورية

الإسرائيلية في مرتفعات الجولان. وأوضحت أنه لا يمكن تقديم هذا الالتزام إلا بعد تفاوض سوريا وإسرائيل علي سلام كامل وشامل.

وأبلغتني النظرة البادية علي وجهه أن الاقتراح فاجأه واستحوذ علي اهتمامه. ومضيت إلى القول أنه سيكون مضيعة للوقت بالنسبة لي أن أبحث هذه الفكرة مع الرئيس ما لم يكن مستعداً لإسقاط إعتراضية علي شكليات المؤتمر وقلت: «لست مستعداً حتي لإثارة الموضوع مع الرئيس ما لم تكن مستعداً للتخلي عن هذين الشيئين».



واعتَرِفُ بأن هذا الوضع ما هو إلا محض أسلوب تفاوضي، وفي الحقيقة فقد ناقشت هذا الأمر مع الرئيس وسكوكروفت عقب اجتماعي مع الأسد. وكانت فكرتنا عن ضمان الحدود تتمثل في عرض تمركز قوات حفظ سلام أمريكية في منطقة عازلة في الجولان لضمان أمن الحدود بين إسرائيل وسوريا. وهذا هو الضمان الأمني النهائي. وفي المقام الأول أثبتت حرب الخليج أن التكنولوجيا العسكرية الأمريكية هي معجزة العالم. وسوف يحتاج مثل هذا الجهد الدبلوماسي والعسكري موافقة الكونجرس. لكننا كنا نشعر أن معظم أنصار إسرائيل في الكونجرس سوف يرحبون بمثل هذه المشاركة الأمريكية المباشرة إذا أمكن أن تصبح محوراً لسلام آمن بين إسرائيل وألد جيرانها العرب.

وقد أثبت شكل آخر للفكرة نجاحه من قبل. حيث كان عنصراً أساسياً لاتفاقية السلام بين إسرائيل ومصر، وتواصل القوات الأمريكية الخدمة في سيناء من دون حوادث منذ أكثر من خمسة عشر عاماً بعد التوصل للاتفاق. وكان رأينا أن الجانب الأكبر من المؤسسة السياسية في إسرائيل قد سئم من كون إسرائيل بلد يعيش حالة حرب أبدية، وأن إسرائيل لن تنعم بسلام كامل حتي تحقق السلام الشامل مع سوريا.

وقلت للأسد: «انظر ان يمكنك مطلقاً حمل إسرائيل علي الانسحاب من الجولان ما لم تضمن أمنها. إن هذه قضية أمنية وليست بالقضية الأيديولوجية في إسرائيل. فالأمم المتحدة

لا تحظي بالثقة فى إسرائيل لكن الولايات المتحدة هى التى تحظى بهذه الثقة. وربما كان هذا هو الطريق الوحيد لحمل إسرائيل علي التفكير فى الانسحاب»

واستطردت قائلاً: «إذا كان لنا أن نحرز تقدما فى هذه القضية عليك أن تقدم لى شيئاً أعمل به». ورد الأسد بالقول: «إن الأشواك الملقاة علي الطريق هي أشواك إسرائيلية لا عربية».

وقلت: «لقد أمضيت أكثر من ست وثلاثين ساعة معكم ووجدت نفسي أقول نعم بالعربية للاثكم بالعربية أيضاً» ورد الأسد بابتسامة: «إنك تتعلم العربية هذا شيء طيب».

وواصل الأسد جدله مثيراً مطالب سطحية كنت أدرك أنها غير واقعية بالمرة. ورحت ألتمس شيئاً مماثلا قد يضطره إلي العودة إلي عالم الواقع. وأخيراً قلت بدون تفكير: السيد الرئيس حسناً. أنتم تعرفون وكما نقول نحن فى تكساس أنه لو كان للضفدع أجنحة لما حك مؤخرته بالأرض».

وأصاب الذعر جيرجان لدرجة غمس معها يده دون أن يدرى فى سلطانية المشهيات* التى قدمت لنا لنتسلي بها أثناء الاجتماع الطول. ونظر جمال هلال إليّ وقد تملكه رعب هائل. وقال: «لا يمكننى أن أترجم هذا إلي الإنجليزية» فما بالك بالعربية» وأصيب الأسد بحيرة شديدة وتساءل ماذا يعني هذا؟ ماذا يعنى هذا؟ وقلت: «إدوارد. اعتقد أن هذا صعب علي الترجمة» ورد جرجيان «السيد الوزير اعتقد أنه لا يمكن ترجمته». وفكرت لبرهة ثم عدلت صيغة كلماتي وقلت للأسد «لقد تَذَكَّرْتُ بما كانت تقوله أمي وأنا شاب» لو لم يتوقف الكلب عن الجري لاصطاد الأرنب» وكنت علي ثقة تامة من أنه لم تكن لديه أدني فكرة عما تحدث.

وقلت: «السيد الرئيس. إننا فى حاجة إلي اتفاق يتسم بالواقعية. لقد قدمت لى أربع نقاط لمعالجتها. وانتهيت بالفعل من معالجة إثنتين منها وإننى أعمل للتعامل جزئياً مع النقطتين الباقيتين». وراوغ الأسد قائلاً: «إننى ألمس مدي قوة تصميمكم».

* المشهيات الشامية مصنوعة من الحمص وزيت السمسم والثوم مختلف إليها الليمون.

وقت. لا يفصل بين أصبعي السبابة والابهام سوي بوصة. يمكننا أن نستغرق عشر سنوات أو خمسين أو مائة عام أخري في معالجة القضية لكنكم تهدرون فرصة طيبة. إنكم لم تقطعوا شوطاً كبيراً، ولا يمكنني أن أستمر في التجوال، وعلينا في لحظة من اللحظات أن نعتبركم داخل العملية أو خارجها وهذا قراركم، لا قراري. إنني أريدكم داخل العملية ولا يمكنني أن أحدد كيف يمكنكم أن تدعو هذه العملية تسير».

ورد الأسد: «لو كنت مكاني لما كنت أكثر مرونة مني الآن».

وحاولت احتواء إحساسي المتزايد بالسخط وشكوت: «السيد الرئيس إنكم لم تقدموا لي أي مرونة».

ورد قائلاً: «إن الأرض عنصر مهم. إنها تمثل عنصر الكرامة والشرف فالرجل لا يختار لدخول الجنة ما لم يستطع أن يفعل ذلك بشرف. إننا لا نريد أحداً أن يقول إننا تخلينا عما كنا نطالب به علي مدي عشرين عاماً».

وتخلصت من الرد علي كلامه المحرج بالقول «يوسعك التحدث لعشرين عاماً أخري بما تتحدث به عن الأرض وسوف يستمر الموقف في التدهور. إن طبيعة المفاوضات وخلق عملية سلام هما المجالان اللذان يتعين علي الجميع أن يتحركوا فيهما بعض الشيء، إنني أكن كل تقدير واحترام لكليكما المحديديين، لكنكم الوحيد الذي لم يتحرك قيد أنملة».

وقال: «إننا نبغي التوصل إلي حل وسط بين الرعاية الكاملة من الأمم المتحدة للمؤتمر كما تريد سوريا وبين عدم مشاركة الأمم المتحدة كما تريد إسرائيل» وضغطت عليه للموافقة علي مقابل بسيط: إنني سأطلب من الرئيس الموافقة علي الضمانات الأمنية. لكن فقط إذا أبلغتموني بأن هاتين القضيتين لن تطرحا علي المائدة. وقبل أن أمضي قدماً فإنني في حاجة لكي أعرف أنه لو عدت حاملاً الموافقة فسوف تساعدونني علي عقد المؤتمر. وقال: «بصراحة لا يمكنني أن أعطيكم إجابة قبل التشاور مع أجهزة الحزب والجبهة القومية التقدمية وسوف نبذل قصاري جهدنا».



كان هذا كما أعلم هو الرقص النهائي. فليس هناك أحد في الجمهورية العربية السورية يحتاج الأسد لمشاورته سوي الأسد نفسه. وخلصت بحدة وأنا أغلق حقيبتي بعنف لأتأكد من إدراك الأسد لمدي ضيقي: «ليكن دعنا ننصرف عنه».

وقبل أن أغادر الغرفة قررت إثارة المخاطر أمام الأسد. وقلت كان الجميع يبلغونني أنك أدهى وأذكي زعيم في الشرق الأوسط. وقد أوحت لي مباحثاتي معكم بذلك. لكن على أن أعترف بأنني أمضيت وقتاً صعباً في فهم لماذا أو كيف ستهدر الفرصة حتى وإن كانت متسعة لتحقيق الانسحاب الإسرائيلي من الجولان من أجل شروط إجرائية لن تؤثر أو تضمن تحقيق نتائج.

«لقد استمتعت حقيقة بمباحثاتي هنا، وكانت محاوراتنا شيقة للغاية، فلو حصلت علي الإجابات الصواب منكم علي هاتين القضيتين فسوف أعود إلي دمشق، ولو حصلت علي الإجابات الخاطئة فلا أتوقع أن أراك مرة ثانية لفترة طويلة». والحقيقة أن إحساسي قادني إلي الاعتقاد بأن الأسد سوف يتحرك، وأنه ببساطة ينتظر ليري نتيجة لقائي مع شامير يوم الجمعة. لكنني أردت التيقن من أنه فهم أن الكرة في ملعبه. ولسوء الحظ عندما التقيت مع شامير مرة ثانية في ٢٦ نيسان إبريل كان من الواضح أن الإسرائيليين أصبحوا أكثر لا أقل تصلباً. فلم يكونوا أشد تصلباً في رفضهم لشكليات المؤتمر فحسب. بل أثاروا عقبات جديدة محتملة علي الطريق. والآن تيقنت من صواب كيسينجر بأن هذا أسلوب معتاد. وسوف يعلن شامير موقفاً غير قابل للتفاوض يوصف في البيانات الإسرائيلية بأنه «خط أحمر» ثم يضعون الألغام لعشرة أميال أمام هذا الخط. وأبلغني شامير الآن بأن إسرائيل لن تكون سعيدة لغياب السعوديين عن المؤتمر. وتذكرت أنني حذرت الملك فهد من أن رفضه المشاركة سيقدم للإسرائيليين عذراً مقنعاً لمزيد من التباطؤ. وكالمتوقع يقول الإسرائيليون الآن إن المؤتمر بدون السعوديين لا يشكل أهمية.

وبعد ساعة أو أكثر من الجدل تزايد إحباطي من شامير. وذكرته قائلاً: «إنني أسمع الآن هيكل اجتماع يلبي متطلباتكم بشأن منظمة التحرير الفلسطينية بشروط تعكس مراحل كامب ديفيد. إننا نلبي كل تلك الأمور وأنتم تقولون إن الأطراف لا يمكنها أن تجتمع ثانية حتي عندما يكون لكم الحق في استخدام الفيتو علي عودة المؤتمر للانعقاد. ولابد أن أبلغكم أنني

أشعر بخيبة أمل بالغة. إنني أجهد نفسي ولا أجد تعاوناً منكم. لقد انتهيت. إنني أقول لكم إنه ما من أحد عمل بجد وبمشقة من أجلكم مثلي».

وقال شامير: «أنتم تعملون بكل طاقتكم. إنني أعترف بذلك لكنه لا يفيدنا نحن فقط. فما هي حاجتنا في ذلك؟» وقلت: «إن وجود الأمم المتحدة كمراقب مجرد وجود رمزي لا يكلف إسرائيل شيئاً» ورد شامير: «لا يمكنني أن أقبل مشاركة الأمم المتحدة إنها مشكلة». وذكرت شامير بأنني تركت له ثلاثة أسئلة وقلت: «إن كل ما حصلت عليه هو لا «ن»، ولاحتمال مشاركة المجموعة الأوروبية. لقد جئت لأقول: «إنني كنت عارفاً أساساً عن المجيء إلى هنا مرة ثانية». واقترح شامير: «حسناً، عليك أن تفكر فيه ملياً وتحدد كيف يمكننا رأب الهوة» وقلت مراوغاً: في الرد عليه. «إنك في حاجة إلى التفكير فيه بعناية».



وكسر توتر اللحظة حدوث تطور غير متوقع فقد استدعيت من الغرفة وأبلغتني سوزان أن والدتي قد توفيت في منزلها بهيوستون عن عمر يناهز السادسة والتسعين. واستوعبت النبأ بمزيج من الأسف وإحساس بالذنب لابن ابتعد كثيراً عن المنزل لسنوات، وكم انتابها الرعب لعودتنا إلى واشنطن عام ١٩٨٠ وكم افتقدتنا كثيراً، وخاصة مع ضعف حالتها الصحية، وفي كل مرة كنت أتركها كان ضعفها يغمرني بإحساس مخيف بأن هذه هي المرة الأخيرة التي أراها فيها. وبرغم أنها عاشت حياة رائعة كما كان يحلو لها أن تقول دائماً. فقد كان من الصعب تقبل حقيقة أنها قد ماتت. وأبلغت شامير بأنه يجب عليّ أنا أغادر على الفور. كان شامير كريماً في تقديم ما يمكن أن أصفه حقيقة بأنه تعزية من القلب.

وامتزج حزني على موت أمي. بل وربما تفاقم من عدم ارتياحي بسبب تصلب رئيس الوزراء الإسرائيلي، وفي طريقي إلى المطار استشرت خيبة أملي. وتوعدت أمام دينيس روس: «سوف أحمله التبعة» ونصح روس: «علينا ألا نتسرع في الحكم لنري كيف سيكون ردهم» كانت نصيحة حكيمة. لكنني أعترف بأنني كنت أغادر عائداً إلى الوطن في حالة قنوط بالغ أفقدني إيماني في مصداقية شامير.

وربما بسبب حالتي النفسية المتأزمة بعث لي روس بمذكرة في الثلاثين من نيسان إبريل تشير إلي توجه إيجابي وقال: «ببعض الطرق فإننا بالفعل نقترب من جمع الأمور». وأعترف بوجود خلافات ضخمة بين إسرائيل وسوريا حول القضيتين الأخريين . لكنه ذكرني بأنني وشامير بحثنا صيغة حول أصعب القضايا وهي قضية القدس الشرقية. ووافقت الولايات المتحدة علي عدم تضمين سكان القدس الشرقية في الجانب الفلسطيني من الوفد المشترك. وفي المقابل تعهدت إسرائيل علي عدم الاعتراض علي أي عضو في الجانب الأردني من الوفد يحمل جواز سفر أردني حتي لو تصادف أن يكون قد ولد أو نشأ في القدس الشرقية. ومع ذلك يتعين التأكد من أن هذا الحل الوسط الجاد سيكون مقبولاً من الفلسطينيين.

وفي ٣ أيار مايو بعد يومين من عودتي إلي واشنطن بعد جنازة والدتي اتصل بي جيرجيان بأن الأسد قد استسلم في النقطتين الشائكتين اللتين أثرنا في اجتماعنا السابق. فعلي حد قول وزير خارجيته أصبح الأسد مستعداً لقبول أي تسوية وسط حول وضع الأمم المتحدة كمراقب وعودة المؤتمر للانعقاد باتفاق المشاركين، وغمرتني بهجة شديدة. فقد بات لدي الآن قوة جديدة تمكنني من تحدي كافة الأطراف الأخري وخاصة إسرائيل والسعوديين لإظهار مرونة مماثلة.

ظهر السعوديين يقـوى

جعل هذا الانفراج مع الأسد من رفض السعوديين المشاركة بأي طريقة في مؤتمر السلام أمراً مزعجاً. فلو ظل المعتدلون العرب علي الهامش فبوسع شامير الإدعاء عن حق أن المواقف العربية لم تتغير حقيقة، وسيزيد هذا من عزوفه في الابتعاد عن طاولة السلام. وبدا الموقف السعودي قصير النظر بالنسبة لي، ونتيجة لتحفظهم بدأ سخط الكونجرس يتزايد حول فوائد عاصفة الصحراء. ومسلحاً بهذا الواقع قام دينيس روس بزيارة الأمير بندر في منزله الفاخر بضواحي فيرجينيا، ودفع روس بأنه إن لم يحركهم سبب آخر سوي مصلحتهم الخاصة فيجب علي المملكة أن توجه بادرة علي الأقل نحو السلام. واقترح أن يوفد السعوديون ممثلاً

عن مجلس التعاون الخليجي للمشاركة في المؤتمر كمراقب. وعندما علمت بالفكرة فيما بعد من دينيس روس اعتقدت أنه طريق ساذج للتغلب علي التحفظ السعودي القطري. وسوف يوفر إيفاد ممثل لمجلس التعاون الخليجي الذي يضم ست دول خليجية للملك فهد ستار حماية تجاه أشد رعاياه تشدداً. وعلي العكس، وحيث إن السعودية هي القوة المهيمنة علي المجلس يمكنني الدفع لدي الإسرائيليين بأن السعوديين يشاركون في العملية بالفعل. وراقت الفكرة لبندر ووافق علي ترويجها بقوة لدي الملك فهد ومع من دأب علي وصفهم بشيء من الإحباط «بذور التفكير العتيق» في وزارة الخارجية.

وفي ٧ آيار مايو اجتمعت أنا والرئيس مع بندر في البيت الأبيض لنطلب منه رسمياً نقل طلبنا إلي الملك فهد. وطلبنا منه أيضاً أن يطلب من الملك أن يعلن أن العربية السعودية ستشارك في مجموعات العمل متعددة الأطراف حول القضايا الإقليمية مثل المياه والحد من التسلح بعد أن يبدأ عمل مجموعات العمل السياسية. ومن المهم أيضاً أن يعلن الملك علانية أنه سيوقف حالة الحرب مع إسرائيل مقابل وقف إسرائيل للنشاط الاستيطاني. وقال الرئيس: «علينا حمل العربية السعودية علي التحرك قدماً». وقال بندر إنه سيتوجه إلي الوطن هذه الليلة. ووعد قائلاً: «سأبذل قصاري جهدي» وطلب مني في حديث خاص ألا يساورني القلق. وقال: «استرخ سوف نصل إلي شيء ما».

وبعد ثلاثة أيام أعلن السعوديون أن مجلس التعاون الخليجي سيشارك في جلسة افتتاح مؤتمر السلام. والأهم أن السعوديين سوف يشاركون في المباحثات متعددة الأطراف. كان تطوراً مذهلاً. لقد وافق خادم الحرمين الشريفين أن ينضم للآخرين في نفس الغرفة التي يجلس فيها الإسرائيليون. وفي البداية رفضت الدول الخمس الأخري الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي المشاركة في المؤتمر. لكنني علمت في وقت لاحق أن الملك فهد أيقظ حكام تلك الدول في الساعة الثانية فجراً للحصول علي موافقتهم شخصياً. ووافق الملك فهد وبندر علي اثنين من طلباتنا الثلاثة: وها هو قطب عربي آخر قد انضم إلي الخط. وسوف تعزز مشاركة السعوديين الضغوط الآن علي الأردن وسوريا للقبول. وفي اليوم التالي ١١آيار مايو غادرت متوجهاً إلي المنطقة في الجولة الرابعة منذ إنهاء حرب الخليج. وخلال الخمسة عشر يوماً منذ مغادرة إسرائيل حدث تحول هائل في المعنويات. كانت الحالة المعنوية علي الطائرة

فى غاية الارتفاع. فالمساومة الشاقة تنتظرنا. لكن غمرنى إحساس بأن هناك زخماً من أجل السلام بدأ يتجسد أخيراً.

رفـض الأســد المزدوج

لم يدم تفاؤلى لوقت طويل. ولاحت أُولي بوادر المشاكل مع وصولى إلي دمشق عشية الحادى عشر من آيار مايو حيث كان فى استقبالى فاروق الشرع وزير الخارجية السورى، وكان هذا الاجراء إجراءً معتادا من جانب السوريين. فبالإضافة إلي أنه إجراء مراسمى جيد فإنه يمكن الشرع من التقاط خيوط أفكارى ويقيم لغة جسدى ويبلغ الأسد قبل اجتماعى معه. ومكنتنى طريقة العمل هذه بالطبع من نقل رسالة قبل الاجتماع، وخاصة فيما يتعلق باللهجة. وأثناء توجهنا من المطار أشار عليّ الشرع بأن الأسد غير موقفه بشأن أحدي النقاط الأساسية. وسيتعين علي الولايات المتحدة الموافقة علي إمكانية عودة المؤتمر للانعقاد بدون موافقة كافة الأطراف. وقلت: «ليس هذا ما اتفقنا عليه السيد الوزير». وحمل لى جيرجيان صباح اليوم التالى المزيد من الأنباء السيئة. فقد أبلغه الشرع بأن الأسد عدل عن التزامه الثانى، وبات يصر الآن علي ضرورة حضور الأمم المتحدة المؤتمر «كشريك كامل» وطلبت من فريق العاملين معى التعليق فى الحواشى علي صورة طبق الأصل من محضر اجتماعى السابق. وهكذا سأكون مستعدا لتفنيد ما بدا أنه عدول تام فى الرأى من جانب الأسد.

وهجس فى نفسى أن هذا الاجتماع سيكون بالقطع اجتماعاً غير سار، وليس مجرد اجتماع منهك، وهكذا وفى الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالى بدأت جلستنا بمزحة علي أمل إشاعة جو من المرح علي الموقف. وقلت مازحاً: «إن الصحافة بدأت تشير إلي الاجتماعات التى نعقدها بدبلوماسية المثانة» وتجاهل الأسد المزحة. وتساءل: ماذا حدث منذ أن غادرتنا؟ وعلي مدار الساعات الخمس والدقائق الخمس والأربعين التالية مال الحوار نحو التراجع.

وفي إيجاز أكد الأسد أنه يرفض الآن الحلول الوسط التي سبق وأن قبل بها. والأسوأ فقد بات يبرر تصرفه هذا بالتأكيد علي أنني أسأت عرض طبيعة الضمانات الأمنية التي يبدو أن الرئيس مستعد لدراسة اتخاذها علي الحدود السورية الإسرائيلية.

وذكرت الأسد أنه في اجتماعنا السابق كنت محددا في قولي بأنني لن أثير موضوع الضمانات الأمنية الأمريكية مع الرئيس بوش مالم يوافق هو أولاً علي حل وسط بشأن النقطتين مثار الخلاف. وأردت بالفعل إفهامه بأنه يحيد بالفعل عن التزاماته التي قطعها لرئيس الولايات المتحدة، واستفسرت قائلاً: «ماذا أقول للرئيس الآن؟» ورد قائلاً: «عليك أن تقول له إنني قدمت تنازلاً كبيراً بقبول مشاركة كاملة للأمم المتحدة بدلاً من رعاية كاملة من جانبها».

وما لبث الأسد أن أدعي أنني وعدت في اجتماعنا السابق بضمان عودة الجولان إلي سوريا مقابل تنازلاته. وقال أشعر أنكم تراجعتم في القضية الأساسية التي بحثناها في اجتماعنا الأخير. وقلت: إنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل بل وشرعت في القراءة بصوت عال من محضر الجلسة السابق لدعم رأيي وأضفت قائلاً: «لن تجد في المحضر أننا نضمن أن تعيد إسرائيل الجولان إلي سوريا. لكن الواقع أنه فقط مع استمرار الضمان الأمني للحدود في اعتقادي ستتاح لكم الفرصة لاستعادة الجولان» كان محضر الجلسة غاية في الوضوح كما أن الأسد رجل شديد الذكاء لدرجة تستعصي معها إساءة الفهم. ولسبب ما قرر الأسد الحنث بكلمته، وبات يتهمني بذلك التهمة الآن في محاولة واضحة لتبرير تصرفه. وقلت: «إن موقفكم غير واقعي بالمرة». ولم يهتز الأسد وأكد قائلاً: «إنني لم أطلب منكم ضمان إعادة الجولان. أنت الذي عرضت ذلك» في حقيقة الأمر كان الأسد يتهمني بالكذب. ورددت وأنا أحاول الحفاظ علي رباطة جأشي بشق النفس: «لا ياسيدي ليس كذلك». وأكد مجدداً: «لم يساورني أي شك أو لبس في أن الضمانات المشار إليها في الاجتماع السابق يجري سحبها والعدول عنها» ورددت بجمود: «إننا لم نسحب أي ضمانات».

ولحسن الحظ ما لبث الأسد أن بدأ في إلقاء درس في التاريخ بأسلوبه الأثير لتحويل الانتباه للالتفاف علي هجوم محاوره وإرهاقه في نهاية الأمر. كانت محاضرته تنصب علي

السأم، وحافلة بالتكرار الممل لدرجة راح معها نائبه عبد الحليم خدام في النوم. وبعد نصف ساعة من هذا الجو القاتم لم يعد بوسعي تحمل المزيد. وقلت: «سأكون صريحاً. إنك تدع إسرائيل بعيدة عن النطاق. إنني أحاول البحث عن سبيل يتيح لنا عقد هذا المؤتمر أو إننا لم يتسن ذلك فلنلق التبعة على الآخرين إذا لم ننجح». ولم يحرك الأسد ساكناً.

وذكرت الأسد بأن الطمأنة الأمريكية المقدمة ما هي إلا وسيلة لحمل إسرائيل على الانسحاب من مرتفعات الجولان، ومثل هذا العرض من الولايات المتحدة عرض غير مسبوق، ويتعين عليه ألا يقلل من أهميته. ولفت نظره قائلاً: «لكن إذا كنت تفضل الآن التركيز على الشكل لا على الجوهر، فثق في أنك ستكون الخاسر. فسوف تغرقها إسرائيل بالسكان ولن تستعيدها للأبد».



وأخيراً عرضت على الأسد حلا وسطا جديداً حول وضع الأمم المتحدة المعقد لدراسته: ويتمثل هذا الحل في أن راعيي المؤتمر سيواصلان إطلاع السكرتير العام للأمم المتحدة على مجريات المحادثات الثنائية ومتعددة الأطراف. وقلت: في الواقع فإن هذا سيكون أكثر إقناعاً من صيغة المشاركة الكاملة التي يتبناها الأسد أو صفة المراقب التي اقترحها كحل وسط، ورد الأسد: «هذه فكرة جديدة تماماً وسوف أدرسها». لكنه رفض التطرق تماما إلي القضية الثانية، وقال: «بالنسبة لقضية استمرار انعقاد المؤتمر، فإنها قضية مفروغ منها».

وكمسألة مبدأ كنت قد وطدت نفسي علي مواصلة الاستماع إلي أحاديث الأسد المطولة في الاجتماعات السابقة بغض النظر عن حذلقتها أو عدم ملاءمتها للموضوع المطروح علي البحث. لكنه تجاوز الحد الآن من وجهة نظري. فقد أعطاني كلمته ثم سحبها ويتهمني بالنذالة في التفاوض، وبات من الواضح لي الآن وكما نقول في تكساس أنني أتعرض للغش.

وأغلقت حقيبتي في حدة بكل ما أوتيت من قوة. وأعلنت: «أننا في حاجة للتوجه إلي القاهرة. لقد قتلنا الموضوع بحثاً. إننا نعود إلي حيث بدأنا. ولن أكون بشرا لو قلت لك إنني لم

أصبح بحيبة أمل. وبفضل عنادك لن تجري مباحثات سلام. لكنني أشكرك علي ما أمضيناه من وقت. امل أن ألقاك مرة ثانية وقتاً ما. وفي تلك اللحظة كنت واثقاً أنني لن أزور دمشق مرة ثانية علي الإطلاق لكن النتيجة ستلقي عليها.

وللمرة الأولي بدأ الأسد في موقف دفاعي وأكد: «إنني لم أقل شيئاً وأتراجع عنه مطلقاً» ورددت: «السيد الرئيس يجب أن أقول، إنني أشعر بأنك مفرط في الشك وعدم الثقة لدرجة سوف تستخلص معها معان لا أقصدها. لقد أعد هذا الاقتراح ليناسبك تماما لكن بسبب شكوكك فقد تهدر هذه الفرصة».

وقال الأسد «سوف نناقش هذا هنا في سوريا. لكن انطباعنا الآن غير إيجابي» وتأكدت أنه سوء تقدير كبير. وألقي الأسد بالمسؤولية علي إسرائيل لتصلبهم. ورددت بأنه قد يكون محقاً ربما كانت إسرائيل غير جادة. لكن اختبارهم هو الطريق الوحيد الذي أعرفه. وقلت: «لاتعتبر الأمر وكأنه سؤال عمن يعطي ماذا حول قضيته الرمزية. لكن انظر ماذا سيكون الحكم بعد الفشل. فلتضع نفسك في موقف تعمل فيه سوريا من أجل السلام.»



وعلي الطائرة التي أقلتني إلي القاهرة تناقشت مع مساعدي عن سبب تراجع الأسد في بجاحة. فربما اعتقد أننا نوشك علي التوصل إلي اتفاق وأراد إبطاء سرعة المسيرة. ومن المحتمل أيضاً أنه فكر في الضمانات الأمنية، وخلص إلي أنها لا تستحق تقديم تنازلات. وآثرت الاعتقاد بأنه ينتظر حتي يري ماذا يمكن أن انتزع من تنازلات جديدة من شامير. ومثل الكثير من الزعماء العرب كان الأسد يعتنق فكرة أن الولايات المتحدة يمكنها ببساطة أن توجه إسرائيل حينما تشاء بسبب اعتمادها علي المساعدات المالية والأمنية الأمريكية. إنني أعرف مدي زيف ذلك الانطباع بالفعل.

لقد ضايقني الأسد لأنه انتهك واحدا من مبادئي الأساسية في التفاوض. إنني أرد بفتور عندما يعيد محاوري فتح قضية تم تسويتها بالفعل. إنني لا أؤمن بهذا فالاتفاق اتفاق.

وخلال الاجتماع حاولت عن عمد التخفيف من ضيقي. وعمدت إلي الإشارة إلي تراجعه باعتباره مجرد سوء تفاهم «لكنني في الحقيقة كنت غاضباً مما اعتبرته سوء نية محسوبا ، وخلال الرحلة التي استغرقت أربعاً وتسعين دقيقة إلي القاهرة للقاء وزير الخارجية السوفيتي الكسندر بسمرتنيخ عرضت علي الصحفيين المرافقين لي خلفية موجزة حملت فيها علي الأسد. وأوضحت وأنا أتحدث للصحفيين من قبيل الاحتياط كمصدر رفيع المستوي في الإدارة، أثناء توجه الوزير بيكر من دمشق إلي القاهرة. «إن الأسد يشكل عقبة أمام التقدم، وألمحت إلي أنه إذا ظل علي تصلبه فإن الولايات المتحدة قد تواصل العملية بدون سوريا، وأردت ترك الانطباع بأن الأسد قد لا يكون علي مستوي التحديات المطلوبة من الزعماء الكبار، وقد نجحت علي مايبدو. فبعد أسبوعين في لشبونة اتصل فاروق الشرع وزير الخارجية السوري بدينيس روس الذي اعتقد أنه هو الذي أدلي بذلك التصريح وناشده بوضوح بعدم الإدلاء مرة أخري بمثل هذه التصريحات المادة.

وفي برقيتي إلي الرئيس اعترفت بأنه من وجهة نظر شخصية فقد ترك عدول الأسد عن موقفه طعم العلقم في حلقي. وبدد آمالي في إحراز انفراجة. واعترفت أنه في هذه المرحلة كنت لاأزال مصاباً بخيبة أمل من الأسد عندما وصلت إلي القاهرة. لكنني أحسست بقدر أكبر بعض الشيء من السكينة عقب اجتماعي مع بسمرتنيخ في الغرفة الذهبية بمقر إقامة السفير السوفيتي. كان بسمرتنيخ يقوم بجولة مكوكية في المنطقة بنفسه لأول مرة وعرض تقييماً إيجابياً عن مباحثاته. وقال لي: «أعتقد أن الأسد مستعد لأن يكون أكثر مرونة تجاه قضية الأمم المتحدة مما يبدو عليه الآن». وسوف يكتب جورباتشوف رسالة إلي الأسد وسوف يضغط هو علي الأسد شخصياً بعد يومين في دمشق. وقال بسمرتنيخ: «اعتقد أنه متشكك في الجدل حول المسؤولية».

مصر والأردن ثانية

ولم تفلح ليلة من النوم في إعادة الاعتدال إلي مزاجي المعتل، وفي اليوم التالي ١٣ آيار مايو حملت بدون حق - احباطاتي إلي حسني مبارك الزعيم العربي الوحيد الذي تعلي

بالشجاعة والالتزام بالسلام منذ البداية، والذى كان يستحق ما هو أفضل من ذلك من مضيفه المحبط. كان السوريون قد أطلعوه على الموقف بالفعل. لكن تصرفى هو ما كان فى حاجة لمعرفته بالفعل. وقال: «جيم، لا يمكننى تفسير خيبة الأمل البادية على وجهك». وشكوت قائلاً «لا يمكننى أن أظل أتجول هنا بالطائرة. إننا عاجزون عن الحركة. وإسرائيل لا تريد التزحزح عن موقفها» لقد كابد مبارك كل هذا من قبل. وأشار علىّ قائلاً: «كن صبوراً سوف تنال السوريين». ورددت: «أود القول إننى لن أواصل ذلك. وإذا أردت أن أبقى هنا فالأفضل أن تقدم لى سبباً جيداً يدعونى للبقاء هنا» وحتى الآن ليس هناك ما يحملنى على البقاء.

وكان مبارك يعتقد أن الأسد يريد كسب الوقت على أمل تحقيق صفقة أفضل. وقال: «إنك تتعامل مع تاجر شاطر. ومفاوض عنيد. فالأسد يعطيك بصيصاً من الأمل ثم ما يلبث أن يغير قواعد اللعب» وقال بلهجة أبوية: إن هذا هو الأسلوب المألوف للأسد وهو أسلوب أفاده بامتياز فى الماضى، وألمح إلى أننى أبالغ فى رد فعلى تجاه إحباط اللحظة. وأكد مبارك أن الأسد رجل شديد الذكاء بدرجة تجعله يقدر عواقب العناد.

وطلبت منه أن يذكر الأسد أنه بسبب حرب الخليج وتفوق وضع الولايات المتحدة فى العالم فمن غير المرجح أن يكون أى رئيس أمريكى آخر فى وضع يمكنه من تقديم ضمانات للحدود فى الجولان، وقلت: «لايمكننى تصديق أنه مستعد لتقويض هذه الفرصة». وكان مبارك يسبقنى بخطوة كالمعتاد. وكان يستعد للتوجه إلى أوروبا خلال الأسبوع وقد غير خطته بالفعل ليتوقف فى دمشق ليعزز رسالتى شخصياً مع الأسد. ووعدنى مبارك: «سوف أبلغ شقيقى أنه سيكون أحمقاً لو اختار عدم الموافقة على الاقتراحات المطروحة».

وعقب غداء عمل مع مبارك بسمرتتيخ اجتمعت مع وزير الخارجية اللبنانى فارس بويز الذى أكد لى بشكل قاطع أن لبنان سوف تشارك فى عملية السلام. ورحبت بتلك الأنباء بشىء من التحفظ. فكلانا يعرف أن لبنان لا يستطيع عمل أى شىء إلا بموافقة الأسد.



وبعد ظهر اليوم التالي ١٤ آيار مايو توجهت إلي عمان لعقد ثاني اجتماع مع الملك حسين. وذكرته بأن مشاركته حاسمة بغض النظر عن قرار الأسد. وألححت عليه للحصول علي التزام منه. لكنه قال: إنه في حاجة لمزيد من المشاورات. كان مستعداً لتشكيل وفد مشترك لحضور مؤتمر للسلام. لكن لو طلب منه الفلسطينيون ذلك. وأكدت مجدداً أن إسرائيل تدرك في قرارة نفسها أن أي وفد فلسطيني لابد أن يحظي بموافقة ضمنية من منظمة التحرير الفلسطينية. لكن دوراً ظاهراً للمنظمة لن يكون مقبولاً. وقلت: «إن الفلسطينيين في الأراضي المحتلة في حاجة للعمل معكم في الظاهر. وعليك أن تبقي علاقتك مع المنظمة وراء ستار، وأن تعمل في تشكيل الوفد فلا يمكن أن يظهر عرفات في عمان أثناء تلك العملية». «وأبلغني الملك بأنه لن تكون هناك مشكلة في هذا الأمر» ووافق علي توظيف قنواته الخاصة لطمأنة الإسرائيليين بأنه لن تحدث أي مفاجآت في تشكيل الوفد. وكمكافأة لتشجيعه علي الاستمرار في التعاون قلت للملك: إنه برغم اعتراض الكونجرس فسوف تقدم الإدارة قريباً للأردن معونة غذائية قيمتها ٢٧ مليون دولار.

وأحسست بأن العاهل الحذر بات شديد التلهف للمشاركة، لكنه سيحتفظ بقراره حتي يري رد فعل الأسد. وفي تصريحاته للصحافة عقب اجتماعنا انصب حديثه علي تكرار الكلمات الواردة في مشروع بيان مشترك كنت قد عرضته عليه. وراوغ في إجابته علي سؤال عما إذا كان سيشارك في المؤتمرمبدياً ترحيبه بقرار مجلس التعاون الخليجي بالمشاركة، وحث الأسد علي المشاركة أيضاً. وقال: «لقد حان الوقت للتخلي عن الشعارات والتابوهات، وأن نري علي وجه الدقة من هو الملتزم حقيقة بقضية السلام» واعتبرت أن هذا التصريح الذي عكس تحديداً، الصيغة التي درجت علي استخدامها منذ أول جولة لي في المنطقة في شهر آذار مارس يشكل بادرة إيجابية.

وكان من المقرر أن أتوجه إلي القدس بعد اجتماعي مع الملك. وفي اليوم السابق كنت قد شكوت للعاملين معي: «أنني سجين في جولاتي للأمن والصحافة الخرقاء .إنني تقريباً لم أشاهد الأرض التي يتقاتل عليها هؤلاء الناس». وردت تاتويلر باقتراح أنه بدلاً من التوجه من عمان إلي القدس عن طريق الجو يمكننا السفر عن طريق البر، ثم نعبر جسر اللنبي علي

نهر الأردن سيراً على الأقدام. كانت الفكرة جيدة، وسيكون هذا عنصراً سياسياً ومعنوياً مهماً باعتباري أول وزير خارجية أمريكي يقوم بمثل هذه الرحلة.

❑ ❑ ❑

وبعد انتهاء مؤتمري الصحفي في عمان توجه موكبنا لمدة خمس وأربعين دقيقة باتجاه الغرب نحو نهر الأردن. وعندما وصلنا إلي جسر اللنبي كان في استقبالنا اثنان من ضباط الجيش الأردني برتبة عقيد رافقاني سيراً علي الأقدام حتي منتصف الجسر، حيث انتظرني للبريجادير جنرال جادي زوهار من الجيش الإسرائيلي. ولبرهة خاطفة لفنا صمت رهيب. وما لبث أحد الضابطين الأردنيين أن التفت لي قائلاً: «سيدي لا يمكنني السير أبعد من هذا». وحياني وزميله واستدارا وغادرا، وواصلت سيري فوق الجسر برفقة الجنرال زوهار. وفيما اقطع بقية الخطوات نحو إسرائيل لمست مدي هشاشة الحاجز النفسي الذي يفصل تلك الشعوب التي بدت خلافاتهما مرات ومرات مستعصية علي الحل. كانت هذه الرحلة القصيرة لوزير خارجية عبر الجسر الخشبي العتيق أكثر دلالة من أي شيء آخر علي أهمية تعزيز التعايش بين تلك الشعوب.

وكان اجتماعنا الرابع مع الزعماء الفلسطينيين الثلاثة في القدس مساء ذلك اليوم أقل من مرضٍ. وعلي نقيض الاجتماعات الثلاثة السابقة بدا وكأن الحسيني وعشراوي وزكريا الآغا قد عادوا إلي سابق موقفهم. وعادوا إلي إثارة حجتهم القديمة بأنه يتعين معالجة قضية القدس قبل البدء في مباحثات السلام، وأكدوا أن تشكيل الوفد الفلسطيني قضية تخص الفلسطينيين وحدهم وهو الموقف الذي كرره الحسيني أمام الصحفيين فيما بعد.

وكانوا يلقنوني دائما دروساً عن ازدواجية المعايير لدي الولايات المتحدة. وتساءل أحدهم «ربما أكون غير لبق؟ مما دفعني إلي أن أسأل نفسي عن الكيفية التي سأعرف بها الفرق. «إنك لم تستطع أن تحصل علي شيء من الإسرائيليين حول المستوطنات والإبعاد والخنق الاقتصادي المتزايد. إن الأمور تزداد سوءً وقد أظهرت أنك لم تسجل هدفاً صائباً».

والآن بدأت في الاعتقاد أن الفلسطينيين أكثر اهتماماً بالجدل من حل أي شيء، وقاطعت محدثي: هل سنظل نتكلم إلي الأبد؟ إن خمسة وستين بالمائة مما تقولون إنها أرضكم قد أقيمت بها مستوطنات إسرائيلية. وإذا لم يتسن لنا البدء في التفاوض فسوف تصبح خمسة وثمانون في المائة. لكن يمكننا منحكم المفاوضات لو تعاونتم. وبدأت أشعر وكأنني رئيس طاقم طائرة عتيقة ملصمة بالأسلاك والعلكة وفي كل مرة يتم فيها سد شرخ يظهر شرخ آخر.

تنديد حلو مـر في القـدس

التقيت صباح اليوم التالي مع شامير للمرة الخامسة في غضون أسابيع، وفي الحقيقة تبخر صبري تجاه مراوغاته. كنت مشحوناً عن آخري. لكن رئيس الوزراء أفحمني عندما بدأ الاجتماع بتسليمي رسالة تشهد بأن حكومته زرعت أيكة من ست وتسعين شجيرة تنوب بحديقة الاستقلال الأمريكية كتذكري حية تخليداً لوالدتي. ومست هذه البادرة شغاف قلبي واغرورقت عيناي بالدموع وأنا أشكره علي لفتته. وتغير مزاجي تماماً. وأبلغني مساعدي في وقت لاحق أن لفتة شامير أبعدت خروج ما كانوا يخشون من أنه ربما يتطور إلي اجتماع جاف، عن نطاق السيطرة.

ومع ذلك كان الاجتماع شاقا. وأبلغت شامير بأنني لازلت غير سعيد لعدم استعداده إظهار مرونه في القضيتين الباقيتين مثار الخلاف: وهما وضع المراقب للامم المتحدة في المؤتمر واستمرار انعقاده. وأعلمته أنني أشعر بضيق بالغ بشكل خاص من أن يوسي بن أهارون أحد مساعديه الرئيسيين قد استخف بالقرار السعودي بالمشاركه في المباحثات متعددة الأطراف بقوله في تصريح علني يوم الأحد إن القرار السعودي «لا يضيف شيئاً لعملية السلام . وقلت وأنا أحدق في أهارون « علي مدار أربعين عاما طالما دعا الإسرائيليون الدول العربية الي عمل ما فعلته العربية السعودية، ثم يأتي مسئول إسرائيلي ليرفضه. لقد أرسل رد فعلكم إشارة مرعبة للعرب. والتزم أهارون الصمت خلال هذا التنديد.. وحاول شامير تلطيف الأجواء . وقال كما لو كان يعتذر: « أنه لا يعني هذا في حقيقه الأمر»

«وشكوت أيضاً من أن التسرب السابق لأوانه من جانب إسرائيل قد أحبط خطط زيارة رمزية مهمة لأحد أخوة الملك فهد للقدس الشرقية. وأشرت إلي أن مثل هذا التسرب أمر مدمر. وبالطبع فإن إقامة أو التوسع فى المستوطنات فى كل مرة أصل فيها إسرائيل لا يرسل بالقطع مؤشرات إيجابية للعرب عن نواياكم».

وقلت له: إن أكبر إحباطاتي تتمثل فى أنكم تتركون إنطباعاً بأنكم وسوريا فى نفس المركب بأن كليكما يريد التمسك بالشكليات. «وأعدت الحجج التى طرحتها على شامير المرة تلو الأخري: إن العملية انحرفت عن عمد نحو الشروط الإسرائيلية، مما أثار غضباً كبيراً لدي العرب، بهدف منح إسرائيل ما كانت تريده علي الدوام. المفاوضات المباشرة. أما التخفى وراء قضايا هامشية ليس لها أثر علي المفاوضات المباشرة فإنه رؤية قاصرة للغاية بالنسبة لمصالح إسرائيل».

وقلت: «إننى لا أعرف صراحة ما إذا كانت سوريا سوف تبدأ تغيير مواقفها حول الشكليات أم لا. لكن الذى أعرفه أنه إذا فشلنا فإننى أريد أن تكون سوريا هي الطرف الذى ينظر إليه باعتباره الطرف الذى رفض الموافقة علي عملية معقولة.

وسألت شامير مرة أخري أن يسقط اعتراضاته علي القضيتين الإجرائيتين الباقيتين، وتعهدت فى المقابل بإبلاغ العرب بأنه ليست هناك إمكانية لضم أى فلسطيني من القدس الشرقية فى الجانب الفلسطيني فى أى وفد مشترك. وأضفت إلي تعهدى: «ودعنى أطمئنك أيضاً أننى لن أسمح بتغيير الأهداف. فلن أعود إليكم لتناول هذه القضايا وأطلب المزيد. فيمكنكم التمسك بموقفكم وكلكم ثقة فى أن المسؤولية ستقع الآن علي عاتق السوريين».

وقلت: إننى أتوقع كحد أدني أن تقدم إسرائيل ملخصاً مكتوباً يحدد علي وجه الدقة ما وافقت عليه إسرائيل حتي يمكننا أن نطلع العرب علي ما هو مطلوب منهم علي وجه التحديد للتوصل إلى اتفاق. وكان «ورقة الحل هذه» هدف ثانوى أيضا.



وفى الواقع فقد أرحت هذا الاتفاق المكتوب حتي إذا ما وافق الملك حسين والأسد علي حل وسط حول القضيتين الباقيتين فلن تكون إسرائيل فى موقف يتيح لها إثارة قضايا جديدة.

وضغطت مرة أخري علي شامير للتخلي عن اعتراضه، وقلت عليكم أن تعطوني شيئاً حول قضية الأمم المتحدة، وعليكم أن تعطوني شيئاً حول استمرار انعقاد المؤتمر. وإذا لم يحدث ذلك فسوف تقع المسؤولية علي عاتق إسرائيل لا علي العرب.

ولم يكن شامير لين العريكة، ولذا لجأت إلي حيلة مسرحية علي أمل حمله علي تليين موقفه من منح الأمم المتحدة – صفة المراقب: إن أمامكم رجل يجلس هكذا – ووضعت يدي علي فمي حتي لا أستطيع التحدث. هل يمكن أن تبلغني كيف يشكل هذا تهديدا؟ إنني لم أفهم. وحتي شامير ارتسمت علي وجهه ابتسامة وشكوت: «إنك لا تعطيني شيئاً حول هذا الأمر عليك أن تقدم لي شيئاً ما».

وقد قطرها فى النهاية. ففي صباح اليوم التالي الخميس ١٦ آيار مايو رفض شامير أن يتزحزح قيد أنملة عن موقفه تجاه وضع الأمم المتحدة كمراقب، ولكنه أعلن أن إسرائيل ستنظر إلي المباحثات متعددة الأطراف التي ستكون فى المؤتمر علي أنها تشكل استمرارا للعملية. لم يكن كافياً لكن مع مذكرة التفاهم حول المبادئ المؤلفة من اثنتى عشرة نقطة التى عكف فريق العمل علي إعدادها طيلة الليل فعلي الأقل هناك شيء جديد يمكن ترويجه لدي الأسد وحسين.

وصرحت للصحفيين فى مطار بن جوريون بأنني لم أصب بالإحباط، أعتقد أننا نحرز تقدماً، وفى الحقيقة كان كل ما بحوزتي بعد أن قطعت ٥٣٠٦٨ ميلاً فى جولة مكوكية بالمنطقة مجرد نذر يسير من التنازلات من شامير وتراجع من جانب الأسد. وفى طريق عودتي الطويل من تل أبيب إلي واشنطن أعددت مذكرة لعرضها علي الرئيس تلخص وقائع جولتي وتحدد خطوات المستقبل. واستهللت المذكرة بالقول إنني أعود من هذه الجولة محملا بخيبة أمل بسبب النهج الذي واجهته فى سوريا. لكن الأمل لازال يراودني تجاه فرصنا. وبرغم صعوبة الطريق، وربما كان الهدف لايزال بعيد المنال فإن أمامنا فرصة للبدء فى العملية

وكنت علي يقين من أنه إذا أمكن حمل الأسد علي تغيير موقفه فسوف تكون مشاركة الملك حسين مؤكدة. كان الشك يساورني حيال الأسد. لكن لاتزال هناك فرصة لإمكانية إقناع الملك حسين بالمشاركة منفرداً. وبعد أن علمت أنه سيزور سوريا عما قريب اتصلت به قبل مغادرتي إسرائيل، وأردت الحصول منه علي التزام بحضور المؤتمر بغض النظر عن موقف سوريا وقال: «سأكون سيد مصيري. إنني أتوجه إلي دمشق لأسباب شكلية فقط. لست مستعداً للمقامرة، لكن إذا أمكن إقناعه بالمشاركة فسيحل الوقت لإنهاء عزلته السياسية والاقتصادية».

❑ ❑ ❑

وبعد عودتي إلي واشنطن قمت بمراجعة الموقف مع الرئيس وسكوكروفت، واتفقنا علي أن جولة مكثفة من دبلوماسية الهاتف يشارك فيها الرئيس يجب أن يتلوها عمل ما للإجبار علي التحرك. ولفترة من الوقت درسنا تحريك الأمور نحو الذروة بقيام الرئيس بتوجيه الدعوات لكافة الأطراف لحضور المؤتمر. ومع هذا لم أكن علي ثقة تامة من أن الوقت مناسب تماماً لممارسة سياسة حافة الهاوية. فلو وجهنا الدعوات وتخلف أحد عن الحضور فربما تنهار العملية برمتها كبيت من الورق. وفي ضوء تصلب شامير لم أكن مستعداً للمجازفة بأي شيء في هذه المرحلة. وسوف يكون من الصعب علي إسرائيل وسوريا رفض دعوة استناداً إلي رموز لا تزال مثار خلاف.

وقررنا اللجوء إلي خطوة مؤقتة وفي ٣١ آيار مايو بعث الرئيس رسائل إلي شامير والأسد ومبارك والملك حسين والملك فهد يحثهم جميعاً علي إبداء مرونة جديدة حتي يمكن عقد مؤتمر سلام. وقمت أنا شخصياً بتسليم رسالة الأسد إلي وزير خارجيته في اجتماع في لشبونة في اليوم التالي. وتضمنت الرسالة لغة جديدة حول دور الأمم المتحدة علي أمل أن ترضي تحفظات الأسد. واحتوت الرسالة أيضاً علي تحذيرات مستترة صيغت بعناية لحمل الأسد علي مراجعة موقفه. فقد كتب الرئيس: «لايمكننا أن نوافق علي ألا تمضي العملية حتي

وإن احترتم عدم المشاركة. فضلاً عن ذلك فقد أشار إلي: «أن علاقتنا الثنائية رهن بأمور عدة: لكن ومع دول أخري في المنطقة فإن جانباً حاسماً من تلك العلاقة رهن بموقف سوريا من السلام». وكنت واثقاً من أن الأسد سوف يقدر العواقب. فالقطار يغادر المحطة وسوف يحدث مالا يحمد عقباه لو تخلفت سوريا عن الركوب. وأكدت هذه النقطة مجدداً مع الشرع الذي أراد منى التوجه إلي دمشق لعقد جلسة مطولة أخري. ورددت قائلاً: «لن يكون لهذا معني إلا إذا كنت موقناً أن الزيارة ستكون إيجابية» وقال محتجاً: «لقد زار كيسنجر دمشق ثلاث عشرة مرة. وقلت: «لا أعتزم عمل ذلك».

وبعد ستة أيام رد شامير برسالة بالغة الحدة رافضاً أي حل وسط حول قضيتي دور الأمم المتحدة أو استمرار انعقاد المؤتمر، وكنت أتوقع أن يكون رده أكثر اختلافاً، وقد أعادت لهجته المتشددة تأكيد ظنوني وشكوكي بأن شامير يكل بساطة غير معنى بالسلام.

وبينما تحاشي شامير قول لا. بل إن رسالته أظهرت قدراً من العصبية بأنه ربما أمكننا المضي قدماً وتوجيه الدعوات أحسست أن أنجح حيلنا التكتيكية هي إقناع الأسد بأن يقدم قدراً من الحلول الوسط، ومن ثم إلزام شامير جانب الدفاع. فإذا أظهرت سوريا قدراً من المرونة لدرجة تنأى إسرائيل بنفسها عن العملية فسيعيد شامير التفكير لتجنب دمغه بأنه الوحيد الذي لا يأبه بإجراء محادثات سلمية.

وعقب اجتماعي مع الشرع في لشبونة بعثت بهذا التقييم الخاص إلي الرئيس: «في النهاية أعتقد أننا جعلنا الأسد يشعر بأنه غير مستريح. إنه يريد إقامة علاقات معنا، وإنه يدرك أنه لا يستطيع ذلك إذا تشدد معنا في عملية السلام. وبالمثل فإنه يشعر بالخوف من تحميله مسئولية عرقلة السلام، كما أنه يعلم أننا جادون في التحرك وفي تحميل المسئولية لمن يعرقل العملية. وربما كان هذا غير كاف لكن في هذه اللحظة فقد هيأنا أنفسنا بأفضل ما يمكن».



وبرغم هذا كانت الدلائل الأولية غير مشجعة. فقد اتخذ السوريون موقفاً بأنه طالما أن الإسرائيليين رفضوا رسالة من الرئيس فإن الأسد غير ملزم باتخاذ أى شيء. ونقلت رسالة عبر جيرجيان مفادها بأنه عندما يرسل رئيس الولايات المتحدة رسالة إلي رئيس دولة آخر فمن المتعين الرد عليها. وطلبت أيضاً من مبارك والملك فهد تذكير الأسد أنه بمجرد الموافقة على التباحث سوف تتهيأ أمامه فرصة ثمينة لا تقدر بثمن لطرح مؤهلاته كرجل دولة، بينما ستنتقل المسؤولية إلي أعدائه الألداء فى القدس. وفشلت جهودى فى زحزحة شامير. والآن فكرت بشيء من السخرية فى أن خط الدفاع الأخير لانقاذ عملية السلام يقع فى دمشق. وبرغم العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل فإن الأسد هو الوحيد الذى يوجد فى موقف يمكنه من تحريك الإسرائيليين. ولم يعد يحدونى سوي الأمل فى أنه سوف يحصد مزايا اغتنام الفرصة أكثر من شامير.

الفصل السادس والعشرون

من برلين إلى البلقان

لقد قتلنا الشيوعية لكننا لانزال نواجه مخلفاتها التي لاتزال سامة.

صالح بريشا

زعيم المعارضة الألبانية

٢٢حزيران يونيو١٩٩١

الخميس ٢٠ حزيران يونيو (بعد أسبوعين - يوم ساطع الشمس في برلين، يوم مثالي للخروج والاستمتاع بدفء الشمس مع إنجاز بعض العمل. ووافق ألكسندر بسمرتنيخ، ولذا فقد جلسنا حول طاولة بالحديقة الخلفية لمقر إقامة السفير، وحاولنا إحراز تقدم في معاهدة ستارت. وبالطبع لم يكن من اليسير إنجاز هذا. لكن بسمرتنيخ كان شديد الفطنة علي الدوام. ومزح قائلاً: «إنه في الوقت الذي قمنا فيه بتسوية قضية الحد من التسلح سوف يعمل فيها ابني البالغ من العمر ستة أشهر» وبعد ساعتين اختتمنا بمؤتمر صحفي قصير.

كنت أزور برلين للمشاركة في اجتماع وزاري لمؤتمر الأمن والتعاون في أوربا ولإلقاء خطاب يستند إلي خطابي في برلين في كانون الأول ديسمبر حول البنية الأساسية والدبلوماسية الجديدة في أوربا. كنت أتطلع للاستمتاع بأول مساء خالٍ من الاجتماعات عندما دخل بوب بيرسون السكرتير التنفيذي لوزارة الخارجية علي عجل. وقال بيرسون: «إن المقر الرئيسي تلقي لتوه برقية عاجلة من السفير ماتلوك في موسكو». وانعقد حاجباي. كان تصنيف البرقية «فلاش» لا يستخدم إلا في أشد حالات الضرورة. كاندلاع حرب أو هجوم علي سفارة. وشرح بيرسون: «إن العمدة بوبوف توجه إلي سبازو هاوس لمقابلة ماتلوك لأمر عاجل. وكتب بقلم رصاص علي قصاصة ورق، هناك انقلاب سيقع ضد جورباتشوف. وذهب لورانس إيجلبيرجر إلي البيت الأبيض لمقابلة الرئيس».

وقلت: «هناك حاجة لإبلاغ جورباتشوف فلنتصل بالرئيس، وإذا وافق فإنني أريد مقابلة بسمرتنيخ الآن».

وعدت إلي فندق انتركونتيننتال الذي يبعد عشر بالسيارة دقائق علي مسافة تسع دقائق، وتحدثت إلي الرئيس باستخدام وصلة الهاتف المؤمنة إس تي يو III المركبة في جناحي. وكان الرئيس قد أبلغ إيجلبيرجر بأن يصدر توجيهاته لماتلوك بطلب الاجتماع مع جورباتشوف. ووافق الرئيس علي ضرورة أن أتحدث مع بسمرتنيخ بعيد دقائق. وقلت له: «لدي شيء هام لك وأريد أن أبلغك به شخصياً، هل يمكن أن تأتي إلي فندقي في ظرف دقائق؟» وبوضوح لم يكن لدي بسمرتنيخ أي مفتاح يفسر له سر رغبتي في لقائه. وافترضت أنه اعتقد أنني أريد إيضاح بعض خفايا قضية الحد من التسلح، وعلي أية حال فقد أبلغني أن لديه ارتباطاً مع وزير الخارجية القبرصي: «ألا يمكن أن ينتظر هذا الأمر؟».

وقلت: «ألكسندر أعتقد حقيقة أن الأمر ضروري. إن ما أحمله لك جديد ومهم».

وقال ربما استطاع أحد آخر القدوم. ورددت «لا ألكسندر يجب أن تأتي أنت وبمفردك.»

وأخيراً تلقي الرسالة. وبعد خمس عشرة دقيقة وصل إلي جناحي. وقلت: «ألكسندر. لقد أبلغتنا مصادر موثوق بها أنه ستقع محاولة للإطاحة بجورباتشوف غداً. لقد فهمنا أن المحاولة تشمل بافلوف وكريوتشكوف ويازوف ولوكيانوف*. إن ماتلوك يطلب لقاء مع جورباتشوف. هناك حاجة لكي نتصل به ونبلغه بأهمية إتمام اللقاء وفوراً، ولكن لا يمكنك إبلاغه بالسبب عبر الهاتف «بسبب احتمال تنصت الـ كي جي بي». وشكرني بسمرتنيخ الذي بدت عليه الموافقة، وغادر علي الفور لإبلاغ جورباتشوف عن طريق مساعده لأمد بعيد أناتولي شيرنيايف وفي ذلك الوقت كان الرئيس يطلع الرئيس الروسي بوريس يلتسين الذي كان متواجداً في البيت الأبيض في زيارة مقررة منذ أمد بعيد.

وبعد دقائق ذهب ماتلوك إلي مكتب جورباتشوف في الكريملين ونقل له التحذير. وانزعج الرئيس السوفيتي إيما انزعاج. وتأكد من أنه في غمرة المناورة البرلمانية في ذلك الأسبوع كان المتشددون يحاولون تمزيق برنامجه الإصلاحي لكنه توصل إلي أن فكرة الانقلاب فكرة خيالية، واعتقد أنه ليس بإمكان أحد الإطاحة به. وحتي هذه اللحظة كان علي صواب. فليست هناك محاولة انقلاب. برغم أن بافلوف قام بمحاولة مكشوفة للاستيلاء علي السلطة من خلال البرلمان السوفيتي.

وكنا حكماء لأننا أخذنا التحذيرات بتدبير انقلاب مأخذ الجد. وأوشك جورباتشوف علي أن يطاح به في محاولة انقلابية بعد شهرين. لكن جهودنا لتحذيره والعمل معه في ذلك اليوم من شهر حزيران يونيو كشفت عن واحدة من أشد المفارقات حسما في العلاقات الأمريكية السوفيتية منذ بدء أزمة الخليج حتي ربيع وصيف ١٩٩١ وهي أن التعاون الأمريكي السوفيتي بلغ نقطة الذروة فموقف جورباتشوف السياسي الداخلي واستقرار الدولة السوفيتية يسجلان أدني مستوياتهما.

---

* كان فالنتين بافلوف رئيسا لوزراء الاتحاد السوفيتي وفلاديمير كريوتشكوف رئيساً لـ كي جي بي وديمتري يازوف وزيراً للدفاع وأناتولي لوكيانوف رئيساً للبرلمان وزميلا في مدرسة الحقوق لجورباتشوف.

الفرص السوفيتية والأخطار

قبل نحو عام، وفى ١٨ تموز يوليو التقيت على هامش اجتماع اثنين + أربعة الوزارى فى باريس مع إدوارد شيفرنادزة لبحث حالة العلاقات بيننا. كنت قادماً لتوى من قمة حلف شمال الأطلنطى فى لندن ومن قمة هيوستون الاقتصادية. وكانت القمتان قد ساهمتا فى تقدم العلاقات بين الشرق والغرب بقدر مهم – قمة لندن بتبنى إعلان سياسى وأمنى ساعدنا فى ضم ألمانيا الموحدة لحلف الأطلنطى، وقمة هيوستون بإصدار توجيهات إلى المؤسسات المالية الدولية بإجراء دراسة حول الاقتصاد السوفيتى كشرط مسبق لتقديم أى مساعدة مالية غربية على نطاق واسع. لكن البعد السياسى لعلاقاتنا هو الذى أردت إثارته مع شيفرنادزة.

وقبل أسبوع، وفى المؤتمر العام للحزب شن يلتسين هجوما عنيفاً على الحزب وتركه. وأخذ فى لوم الحزب داعياً بأنه لا يمكن مطلقاً أن يكون قوة حقيقية لإحداث تغير حقيقى. وذهب إلى حد المجازفة باتخاذ موقف أكثر راديكالية من جورباتشوف تجاه الإصلاح السياسى والاقتصادى. واستقال جافريل بوبوف عمدة موسكو وأناتولى سوبشاك عمدة لينتجراد من الحزب. ولأول وهلة بدا الأمر كما لو أن نواة معارضة قابلة للتطور أخذت فى التشكل.

وفى الوقت الذى واصلنا فيه الالتزام بالعمل من خلال جورباتشوف لتعزيز مصالح السياسة الخارجية الأمريكية، فقد أردنا حماية موقفنا بتنويع الاتصالات السياسية التى بدأنا فى إقامتها فى الاتحاد السوفيتى.

قلت الكثير للوفد الصحفى المرافق لنا فى الطريق إلى باريس، لكنى أردت الآن استعراض نهجنا المتطور مع شيفرنادزة. وقلت: «سنقوم من وقت لآخر بلقاء زعماء المعارضة فى الاتحاد السوفيتى مثلما نلتقى مع زعماء المعارضة فى بلاد أخرى. فعندما يأتى زعماء المعارضة فى البلاد الأخرى إلى الولايات المتحدة فإننا نلتقى معهم. وهذا أمر عادى بالنسبة لنا.» وأبلغته بأننى لا أريد منه أن يسيء تفسير هذا باعتباره فتورا فى رغبتنا فى نجاح البيريسترويكا ومع هذا «فإذا نشأ حزب للمعارضة فى الاتحاد السوفيتى وعندما ينشأ مثل هذا الحزب فمن المتوقع أن نلتقى بممثلى هذا الحزب. فهذه هى الطريقة التى نتعامل بها مع أحزاب المعارضة فى الدول الديمقراطية، ويجب ألا تسيء أنت أو الرئيس تفسير هذا الإجراء. إنه يشكل حقيقة جانباً من مفهومنا للديمقراطية».

وقال شيفرنادزة إنه سعيد بسماع هذا. وفي الحقيقة فقد كان يتطلع إلي الوقت الذي توجد فيه معارضة حقيقية في الاتحاد السوفيتي. وأشار إيجلبيرجر أنه في الوقت الراهن «فإنه لا وجود لما أسميه بالمعارضة المسؤولة. فلا يوجد الآن سوي مغامرون علي الساحة السياسية. إنهم غير جادين لأنهم جميعاً يريدون المعارضة من أجل مضايقة جورباتشوف».

وقلت مازحاً: «عندما يزور جورباتشوف واشنطن فإنه يلتقي مع الديمقراطيين» وليس لدينا مشكلة مع هذا، إننا نتفهمه».

ورد شيفرنادزة «لكن يجب أن أقول إنني لا أتذكر أن هناك ديمقراطياً قد وجه إهانات لرئيس الولايات المتحدة أثناء تلك الإجتماعات» وقال بحدة: «إن ذلك يشكل ثقافة حقيقية الآن».

وانتهت المحادثة بمجرد أن بدأت تقريباً. وأصبحت علي ثقة الآن من أنني قد أرسيت الأساس للتوسع في عدد ونمط الاتصالات مع المعارضة السياسية في الاتحاد السوفيتي.



وبعد أقل من شهر أقدم العراق علي غزو الكويت وتزايدت حاجتنا ليس إلي التعاون السوفيتي فحسب، بل إلي مشاركة جورباتشوف شخصياً. وخلال أزمة الخليج وحرب تحرير الكويت تعين علينا الاعتماد المرة تلو الأخري علي العلاقة الشخصية التي أقمتها والرئيس بحرص مع جورباتشوف وشيفرنادزة. فضلاً عن ذلك فقد تمكنا من الاحتفاظ بالزخم في العلاقات الأمريكية السوفيتية خلال تلك الفترة. وأثناء قمة مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا التي عقدت في باريس في تشرين الثاني نوفمبر صنفنا التغيرات التي شهدتها أوروبا خلال العام الماضي، وعززنا مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا وجعلنا منه ما أصبحت أسميه «ضمير القارة» وانضم كل أعضاء حلفي شمال الأطلنطي ووارسو إلي بقية دول أوروبا في التوقيع علي «ميثاق باريس» الذي أنهي حقبة الانقسام والمواجهة. وأعلن أن «الأمن لا يتجزأ» ووافق علي «إقامة شراكة» وبسط كل طرف يد الصداقة للطرف الآخر.

وبكثير من العمل المضني أكملنا معاهدة خفض القوات التقليدية في أوروبا ووقع عليها رؤساء الدول في باريس في ١٩ تشرين الثاني نوفمبر. (في إحدي جلسات التفاوض المطولة مع شيفرنادزة بمقر البعثة السوفيتية لدي الأمم المتحدة في شهر تشرين الأول أكتوبر حصلت علي استراحة عزفت خلالها نشيد مشاة البحرية علي البيانو*. وقلت لزملائي السوفيت: «أعتقد أنه لم يدر بخلدكم علي الإطلاق أنكم ستسمعون نشيد البحرية الأمريكية يعزف بمقر البعثة السوفيتية، وممن؟ من وزير الخارجية الأمريكي» وقررت معاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوربا التي أنجزت خلال أقل من عامين خفضاً مهماً ليس فقط في عدد الأفراد، بل في عدد الدبابات وناقلات الجند المدرعة والمدفعية، وهي الأسلحة التي ظلت لجيل كامل تثير المخاوف من حدوث هجوم سوفيتي خاطف علي غرب أوروبا. فقد خفض أعضاء حلف وارسو الآن عدد معظم قوائمهم حيث المطلوب منهم خفضها بعشرة أضعاف المطلوب من حلف الأطلنطي.

وبرغم هذا، وبعد فترة وجيزة من التوقيع في باريس برزت عدة خلافات حول تفاصيل المعاهدة. كان الجيش السوفيتي يعزز قوته بأقوي مما كان في ربيع ١٩٩٠. واستغرق الأمر منا حتي حزيران يونيو ١٩٩١ لتسوية تلك الخلافات**.

لكن في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠ حدثت الصاعقة. ففي ما وصفه: «بأنه ربما كان أقصر وأصعب خطاب» في حياته استقال شيفرنادزة من منصبه كوزير للخارجية في الاتحاد السوفيتي «احتجاجاً علي بداية الديكتاتورية». وشعرت بصدمة. فقبل أسبوعين فقط التقينا في هيوستون حيث زار معالم هيوستون التي تشمل مركز جونسون للفضاء حيث تحدثنا مع رواد الفضاء الأمريكيين الذين يدورون حول الأرض بل شملت أيضاً المنزل الذي نشأت فيه. وقدمت إدوارد ومانولي إلي والدتي. كان شيفرنادزة وزوجته بالغي الرقة مع والدتي. وأهديا والدتي براداً للشاي، وأمسك إدوارد بيدها برقة ولطف وهي تحكي لهما ذكريات جميلة عني.

---

* كان هذا النشيد هو المقطوعة الوحيدة التي أستطيع عزفها علي البيانو.

** أولاً اختلفنا مع الاتحاد السوفيتي حول حجم الترسانة التقليدية لموسكو. ثانياً: كان هناك سبب يحصر القلق في أن السوفيت بدأوا في تحريك الأسلحة خارج الأطلنطي إلي منطقة الأورال (أيه تي تي يو) ومن ثم إخراجها من نطاق معاهدة خفض الأسلحة التقليدية. ثالثاً: اختلفنا مع السوفيت حول تعريفهم الفرق الثلاث المتمركزة قرب البحر الأسود. كانت هذه الفرق مشكلة كقوات في الجيش، ومن ثم تندرج في إطار حدود معاهدة خفض الأسلحة التقليدية في أوروبا. وأعاد الجيش السوفيتي تعريفها بأنها وحدات الدفاع عن السواحل لإخراجها من نطاق المعاهدة.

وعدنا إلي واشنطن علي متن طائرتي، وتناولنا شيئاً من الفودكا أثناء الرحلة. وبدا شيفرنادزة تحت تأثير ضغوط كبيرة بعيداً عن التركيز والتفكير بعض الشيء قبل نهاية الرحلة. لا يفعل شيئاً سوي الضحك والمزاح. لم يكن لدى أدني علم بأنه علي وشك الاستقالة. وتأكدت أن شيفرنادزة يتعرض لضغوط سياسية هائلة في الداخل، لكنه كان في مأزق دائم في موسكو. وكنت أشعر أنه من الصعب أنه سيترك جورباتشوف. فقد بدا الاثنان وكأنهما متلازمان لا يفترقان.

وهبطت إلي قاعة الصحافة بالخارجية في الطابق الأول لأدلى بتصريح مقتضب عن استقالته. لم تكن بالمهمة السهلة، فقد كان زميلاً محترماً. لكن علاقتنا تجاوزت العلاقة المهنية بكثير. وقلت للصحفيين: «إنني أعرف أن إدوارد شيفرنادزة رجل عند كلمته. رجل الشجاعة والمبادئ والإيمان الراسخ». وعندما استفسر أحد الصحفيين عن طبيعة مشاعري الشخصية قلت: «كلي فخر بأن أصف هذا الرجل بأنه صديق. وأعتقد أننا أنجزنا أشياء مهمة خلال الأشهر الثلاثة والعشرين التي استطعنا أن نعمل خلالها سوياً، ومن زاوية شخصية بحتة أجد لزاماً عليّ أن أقول أنني سوف أفتقده».



وفي اليوم التالي تلقي ماتلوك رسالة من شيفرنادزة عبر سيرجي تاراسينكو. وطلب مني شيفرنادزة أن أعي أنه ما كان ليستقيل لو لم يكن واثقاً من أنه لا مجال للعدول عن النهج الإيجابي في العلاقات الأمريكية السوفيتية. وكان يعتقد أن خليفته سيجد نفسه ملزماً باتباع نفس النهج. برغم أنه استحدث تغيرات ببطء شديد. ورفض جورباتشوف قبول الاستقالة، غير أن شيفرنادزة شعر بأنه لا يمكنه البقاء بعد أن أعلن ترك منصبه. واعتقد شيفرنادزة أن الاستمرار سيكون انتحاراً معنوياً. وبعد شهر بعث لي رسالة وقال: «إنه شعر بدفء جميل من تصريحاتي العلنية حول استقالته. لكن وبصراحة شديدة فقد تأججت مشاعري وأحاسيسي لقلقي من أن الاستقالة جاءت بمثابة مفاجأة لكم... وبالطبع لك الحق في أن تغضب لعدم إبلاغي لك بما كنت أفكر فيه علي مدي العام الماضي رغم تعدد

لقاءاتنا. ومع هذا فهناك حد لا أملك بعده القدرة على قطع خطوة واحدة، وهذا ما أثق أن بوسعكم تفهمه تماماً. ورددت عليه بأنني أتفهم سبب عدم إبلاغه لي بعزمه على الاستقالة وأكبرته «لأن قناعتكم وقيمكم قد حملتكم على الإقدام على اتخاذ هذه الخطوة الشجاعة والصعبة».

وساهمت استقالة شيفرنادزة وتصلب الجيش السوفيتي تجاه قضايا الحد من التسلح وقمع مظاهرات ليتوانيا في كانون الثاني يناير ١٩٩١ في زيادة قلقي تجاه فرص جورباتشوف. وأتذكر جيداً جلسة عقدت في البيت الأبيض في أواخر كانون الثاني يناير مع اثنين من خبراء الشؤون السوفيتية بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية هما بوب بلاكويل وجورج كولت. وأتذكر ما قلت في هذا الصدد عقب انتهائهما من عرض ما لديهما - وكانا مفرطان في التشاؤم -«ماذا تقولان يازميلان هل البورصة تتجه نحو الهبوط؟. إننا نريد أن نبيع».

لكن في حالة العلاقات الأمريكية السوفيتية يعني «البيع» محاولة الحصول على أقصى ما يمكن من السوفييت حتى قبل أن يحدث تحول أكبر نحو اليمين أو تغيير باتجاه التفكك. والسبيل إلى ذلك هو الاحتفاظ بعلاقاتنا مع جورباتشوف حتى يمكننا مواصلة حرب الخليج بنجاح، وهو ما فعلناه، وكذلك الانتهاء من معاهدة ستارت وهو ما أنجزناه في تموز يوليو، وضمان عدم انهيار معاهدة خفض القوات التقليدية في أوروبا والتقدم في الوقت نفسه في القضايا التي لم تتقدم في سياستنا الخارجية، وخاصة إحراز تقدم نحو السلام في الشرق الأوسط.



وفي آذار مارس عدت إلى موسكو للمرة الأولى خلال ستة أشهر كان الاستقطاب السياسي أكثر حدة. فقبل أربعة أيام من زيارتي نزل يلتسين وأنصاره إلى شوارع العاصمة السوفيتية وعدد من المدن الكبرى الأخرى مستقطباً جماهير غفيرة داعياً إلى إجراء إصلاحات جذرية. وحث يلتسين أنصاره على «إعلان الحرب على قيادة هذا البلد التي جرتنا إلى المأزق».

وعندما التقيت مع جورباتشوف في ١٥آذار مارس كان اهتمامه موجهاً إلي مشكلات وطنه، وخاصة يلتسين. وباعتباره قارئاً نهماً لترجمات الصحافة الغربية وقعت عينا جورباتشوف في مجلة تايم علي تصريح لأحد مسؤولي سفارتنا بأن الاتحادالسوفيتي كان علي شفا ثورة. وقال جورباتشوف بحدة: «هذا خطأ. لم نكن نعيش علي شفا ثورة. بل إننا نعيش ثورة». وقال إنه يعاني من التوترات. كما أن الضغوط هائلة. لكن تغييرات طفيفة والإصلاحات جرت مع النظام ولم تؤت مفعولها. وهناك حاجة إلي فحص ومراجعة شاملة. ويجب أن تكون جوهرية وشاملة. ورغم هذا قال جورباتشوف إنه في حاجة إلي مساحة للمناورة. وقال: «إن كل مناورة لا تستهدف العدول عن البيريسترويكا بل الحفاظ عليها». وعلي أية حال كان قلقه منصباً علي الاقتصاد بقدر أكبر من قلقه علي السياسة. وفي إشارته إلي التراجع الاقتصادي الحاد"قال: «لقد استغل هتلر التراجع الحاد في الإنتاج الاقتصادي للوصول إلي السلطة. فالديكتاتور يظهر دائماً في ظل ظروف تتسم بالفوضي والعجز الاقتصادي الشامل. فالضغوط المهيئة لظهور ديكتاتور تتشكل الآن في الاتحاد السوفيتي».

وتساءلت مشيراً إلي الاستفتاء المقرر إجراؤه في ١٧ آذار مارس حول مستقبل الاتحاد: «لماذا لا يتم تسوية قضايا الجمهوريات والمركز أولا؟ فهذه قضايا سياسية إنها قضايا قابلة للحل عن طريق محاولة إعادة تشكيل اقتصاد اصطبغ علي مدار سبعين عاماً بتقاليد ونفسية النظام الموجه. فلماذا لا تستغل فرصة الاستفتاء لتعلن الفوز وتستميل الجمهوريات وتعدل قوانين الانفصال؟».

وكان جورباتشوف يعتقد أن مشروع معاهدة الاتحاد السوفيتي يلبي هذه الاحتياجات، وكنت أقل ثقة في ذلك. فربما قفزت معاهدة الاتحاد علي بعض اختلافات الجمهوريات والمركز، لكن يبدو أن القوة تنتقل إلي الشارع – والعبارة مستعارة من أقوال لينين – وهذا يرضي الجمهوريات على المدى البعيد

وعن يلتسين كان جورباتشوف شديد العصبية. وقال إن يلتسين شخصية غير مستقرة وسوف يستغل الخطابة الجماهيرية ليصبح ديكتاتوراً لو تهيأت له الفرصة. وكرر شيفرنادزة نفس وجهة النظر، وشعرت أن يلتسين رجل مسرحي وتاجر سياسة كبير رجل يميل

للإيماءات المبالغ فيها، لكنه في المقام الأول سياسي الشارع الذكي الذي لمس المزاج الديمقراطي يجتاح البلاد. كما أن ما يبدو وكأنه عدم استقرار يمكن أن يفسر بسهولة ما يقوده الأعوان السياسي يلتسين وكنا بسببها نشهد صعوداً وهبوطاً. لكن مبتغانا هو من يستطيع تحريك مئات آلاف الجماهير إلي الشارع.

ويوم وصولي إلي موسكو بعث يلتسين رسالة بأنه يريد لقائي بشكل خاص لمدة عشر دقائق، سواء قبل أو بعد العشاء الذي سأقيمه مساء اليوم التالي. وبعثت مذكرة إلي الرئيس أبلغه فيها بأنني أعتزم لقاء يلتسين ما لم يعتقد أن اللقاء غير مستساغ. ولم يعترض الرئيس ولذا امضيت قدماً ورتبت موعداً للاجتماع. ومع ذلك وقبل ساعات من موعد العشاء وقبل عشر دقائق من الموعد المفترض أن أري فيه جورباتشوف تذكرت أن يلتسين طلب لقائي إما في مكتبه أو في بيت الضيافة الخاص بجمهورية روسيا أو في مكان محايد. لم يكن ذلك سوي محاولة لتعزيز أهميته الرمزية، ودفع جورباتشوف نحو الحائط. ولذا وبينما غادرت لحضور الاجتماع قام العاملون معي بالاتصال بمجلس الأمن القومي، وبعد التشاور مع الرئيس رد عليّ سكوكروفت بأنه يتعين عليّ إثارة الموضوع مع جورباتشوف الذي أثار ضجة شديدة بطبيعة الحال. لكن قبل أن أتمكن من التحدث إلي يلتسين بعث العاملون معه برسالة لي بأنه لن يستطيع حضور العشاء (وبالتالي فلن يتم اللقاء الخاص) وسوف يوفد شخصاً آخر*.



كانت هذه الواقعة مؤشراً علي العلاقة المعقدة بين جورباتشوف ويلتسين لكنها أظهرت أيضاً التوازن الدقيق الذي يجب أن نحافظ عليه بينهما. فمن ناحية كان جورباتشوف في صيف عام ١٩٩١ واحداً من أعظم السياسيين الذين لا يحظون بالشعبية في الاتحاد السوفيتي لكنه يظل رئيساً وقائداً أعلي لجيش بلد يمتلك ٣٠ ألف رأس نووية، والرجل المسؤول عن

* وقد قبل وأرسل فلاديمير لوكين الذي عينه يلتسين أول سفير لروسيا الاتحادية لدي الولايات المتحدة.

صناعة القرار في الكريملين في القضايا الحيوية لمصلحتنا مثل ستارت وخفض القوات التقليدية في أوروبا، والسلام في الشرق الأوسط. كما أن قراراته تجاه مثل هذه القضايا المهمة بالنسبة لنا هي التي ساهمت بقدر كبير في إنقاذ شعبيته. ومن ناحية أخري كان يلتسين هو القوة السياسية الأكثر نمواً في الاتحاد السوفيتي. وفي شهر حزيران يونيو سوف يصبح أول رئيس منتخب ديمقراطياً في تاريخ روسيا حصل علي تفويض ساحق بإجراء تغيير جذري. وبدون شك فإن توطيد العلاقات معه وتأييده أمر ينسجم مع قيمنا، ويصب بالتأكيد في مصالحنا بعيدة المدي بإقامة الديمقراطية في الاتحاد السوفيتي.

ولم يساورني شك في أن جهودنا للموازنة بين هذه المصالح المعقدة والحفاظ علي العلاقة مع كليهما قد أثارت حفيظتهما معاً من وقت لآخر. وبالنسبة للدبلوماسية الأمريكية فالمهم حقيقة هو ما إذا كان قدر قليل من الحفيظة قد استحال إلي سخط دائم أثر بالعكس علي مصالحنا. وأعتقد أنه من الواضح في حالة ميخائيل جورباتشوف ويلتسين كان الحال هو العكس. كان كلاهما يقدر علاقته مع جورج بوش والولايات المتحدة، ليس فقط من زاوية مكانتهما في العالم، بل أيضاً من زاوية موقفهما في الداخل. وكانت معالجتنا للتحول من جورباتشوف إلي يلتسين فعالة ومفيدة بشكل جوهري للولايات المتحدة من عدة أوجه.

وكان الدعم الغربي للإصلاح الاقتصادي هو القضية الداخلية الرئيسية في الاتحاد السوفيتي التي تعين أن نقيم فيها توازناً في ربيع عام ١٩٩١. ومرة تلو الأخري منذ مجيئنا إلي السلطة في كانون الثاني يناير١٩٨٩ أظهر جورباتشوف عزوفاً عن ركوب الصعب وتبني برنامج إصلاح حقيقي. واتصل هذا عام ١٩٩٠ وحتي ربيع ١٩٩١. ولم يكن مرد هذا الافتقار إلي الأفكار الخلاقة. ففي آب أغسطس ١٩٩٠ اقترح ستانيسلاف شاتالين وهو اقتصادي مؤيد للسوق الحرة وفقاً للمعايير السوفيتية وأحد كبار مستشاري جورباتشوف، اقترح خطة للتحول إلي اقتصاد السوق في غضون خمسمائة يوم. لكن وبعد دراسة «خطة الخمسمائة يوم» وعلي مدار شهر حولها جورباتشوف إلي «خطة رئاسية» أكثر منها خطة لاقتصاد السوق. ومع نيسان إبريل ١٩٩١ سكن الرجعيون الكريملين بأعداد فاقت الاصلاحيين، واقترح رئيس الوزراء بافلوف برنامج «أزمة» تضمن قدراً أكبر من التخطيط المركزي يفوق ما احتواه من اقتصاديات السوق.

ودخل علي الخط جريجوري يافلينسكي المستشار المقرب ليلتسين والذي ساعد شاتالين في إعداد «خطة الخمسمائة يوم» ومجموعة من أساتذة هارفارد*. واقترحوا فكرة «المساومة الكبري» التي يتم بمقتضاها أن يتحرك الاتحاد السوفيتي بحسم ناحية نظام السوق الحرة مقابل أن يقدم الغرب مليارات الدولارات للمساعدة في تخفيف حدة صدمة التحول. وساورني الشك عندما علمت بالفكرة لأول مرة من بوب زوليك. وغمرني الشك في أن جورباتشوف يملك الإرادة السياسية أو المقدرة علي تطبيق الخطة. فضلاً عن ذلك لم يكن هناك اتفاق غربي لتقديم مبالغ المعونة الضخمة، ولم أر اتفاقاً من هذا القبيل يلوح في الأفق. لكنني طلبت منه مواصلة العمل مع يافلينسكي علي أمل الخروج ببعض الأفكار المتبادلة تمهلنا نتجاوز خطة بافلوف. ولسوء الحظ كانت فكرة أي مساومة لاتزال ميتة عندما قرر جورباتشوف ايفاد بريماكوف لبحث القضايا الاقتصادية**.

وسياسياً كان تدخل بريماكوف في أزمة الخليج قد أضر بمصداقيته لدي الإدارة الأمريكية. أما في الاقتصاد فقد كان مبتدئاً. وعندما التقيته في ٢٩أيار مايو قلت له: إنني أقول لجورباتشوف وشيفرنادزة إنهما في حاجة للإقدام علي خيارات صعبة فيما يتعلق بالاقتصاد. وبصفتي وزير خزانة سابق قلت له: ليست هناك طرق مختصرة. فلابد أن تحدث آلام بغض النظر عما يصنعان، ولذا فعليهما أن يتجرعاه بسرعة وصواب. لكن بريماكوف لم يأت بجديد ويمكنني القول إن اجتماعاتنا لم تحدث سوي تغير طفيف في التفكير السوفيتي. وواصل جورباتشوف المراوغة، وفي الوقت الذي جعل فيه القضية السياسية للمساعدة الغربية أكثر اقناعاً فلم يقم بإصلاحات اقتصادية لتحريك مثل هذه المحاولة، وانتهت «المساومة الكبري» بأنها لا مساومة كبري ولا يحزنون.

انهيار في بلجراد

عقب «محاولة الانقلاب التي لم تتم» والاجتماع الوزاري لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا غادرت برلين يوم الجمعة ٢١حزيران يونيو في زيارة لمدة يوم واحد لبلجراد

* كان من بينهم بوب بلاكويل مسؤول السابق المكلف من قبل الرئيس بملف أوروبا (وهو غير بوب بلاكويل موظف المخابرات المركزية الأمريكية) الذي ترك مجلس الأمن القومي للعمل بالأكاديمية

** حاولت أنا والرئيس دعم تمهج يافلينسكي في الاصلاح الجذري بالإدلاء بتصريحات تؤيد أعماله وأفكاره.

يوغسلافيا. كانت تلابيب صراع سياسي معقد وكثيف تمسك بخناق جمهوريات يوغسلافيا الاتحادية الست. سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة والهرسك وصربيا والجبل الأسود ومقدونيا. وكان زعماء يوغسلافيا الاتحادية يتبارون لتحقيق ميزة من التفسخ السريع ليوغسلافيا الاتحادية فيما فضل وارين زيمرمان سفيرنا لدي بلجراد أن يسميه تنافس «الشد والجذب» بين القوميات.

كانت سلوفينيا وكرواتيا تسعيان للحصول علي الاستقلال التام، وحددتا مهلة نهائية في آخر حزيران يونيو لاتخاذ خطواتهما من جانب واحد. وربما كانت يوغسلافيا الاتحادية أكثر بلد متنافر عرقياً في أوروبا لكن محاولات إعلان الاستقلال من جانب واحد ومن ثم القضاء علي إمكانية التفاوض للانفصال سلمياً قد أثارت شبح الحرب الأهلية. وفي الاجتماع الوزاري لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا الذي عقد في برلين اتخذت المنظمة إجراء غير مسبوق بإقحام نفسها في جدل داخلي يدور بأحد الدول الأعضاء و «أصدرت بياناً يدعو إلي حل سلمي للأزمة الحالية، وكدافع إيجابي أوضح مؤتمر الأمن والتعاون في أوربا أن المجتمع الدولي سوف يساعد يوغسلافيا في جهودها في التحول السياسي والاقتصادي إذا حدث سلمياً وبالاتفاق. لكن لتكملة هذه الرسالة الإيجابية فإننا في حاجة لتوجيه مؤشر سلبي في محاولة لهز مختلف قادة يوغسلافيا الاتحادية لقبول حقيقتين أساسيتين: هما أولاً: أنهم في حاجة إلي التفاوض لتسوية خلافاتهم، وألا يقدموا علي اتخاذ إجراءات متعددة، وثانياً: أن المجتمع الدولي لن يتسامح تحت أي ظرف تجاه استخدام القوة. وكانت هذه هي الرسالة التي حملني جميع زملائي الأوروبيين في برلين علي نقلها إلي بلجراد، وهي رسالة كنت مستعداً لنقلها لأن قلقاً كبيراً ساور الرئيس وساورني من أن يوغسلافيا علي وشك الإنفجار.

❑ ❑ ❑

بدأ يومي في بلجراد بداية شؤم فقد تلقي مكتب التحقيقات الفيدرالي إخبارية بوجود تهديدات لي، وكان المصدر علي حد قول المكتب موثوق به. ولدي وصولي توجهت مباشرة إلي قصر الاتحاد، وهو مبني ستاليني الطراز يضم الحكومة اليوغسلافية وحكومات الجمهوريات الست. وكان لكل جمهورية قاعة اجتماعات ضخمة مزدانة بأعمال فنية

مستوحاة من تراثها العرقي. وعلي مدار الساعات العشر التالية بخلاف جولة جانبية للقاء ممثلين عن أقليم كوسوفو قمت بجولة مكوكية من قاعة إلي أخري أجتمع مع زعماء كل جمهورية. وبدأت يومي وأنهيته بجلسة مع آنتي ماركوفيتش رئيس الحكومة الاتحادية الذي كان يحاول دون جدوي منع برميل بارود البلقان من الانفجار.

وفي كل اجتماع طرحت نفس النقاط الأساسية. ولأني أزور بلجراد لا بصفتي ممثلاً للولايات المتحدة بل ممثلاً أيضاً لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا فقد أردت أن يعي زعماء كل جمهورية والاتحاد اليوغسلافي أن كل أوروبا وكذا الولايات المتحدة تشعر بقلق بالغ تجاه الوضع في يوغسلافيا. وطلبت من كل ممثل شخصياً وباعتباره زعيماً سياسياً التأكيد مجدداً علي الالتزام بمبادئ هلسنكي، ولاسيما ضرورة التسوية السلمية لكافة النزاعات، ويجب ألا تتغير الحدود إلا بالاتفاق، ويجب حماية حقوق الإنسان وخاصة حقوق الأقليات.

ثم مضيت إلي طرح أربعة شواغل محددة- أولاً: قلت: مراراً وتكراراً :إن اهتمامنا الأساسي في المسألة اليوغسلافية هو تسويتها سلمياً. وسوف نظل علي معارضتنا لاستخدام القوة أو التلويح بها لتسوية الخلافات السياسية. وأكدت مجدداً أن التصرفات المنفردة من جانب واحد تنذر بوقوع كارثة وهو ما أكدته للسلوفينيين والكروات وقلت أيضاً: أنه في الوقت الذي نؤيد فيه سلامة أراضي يوغسلافيا وحدود الجمهوريات القائمة ولن نقبل بالتغيرات من جانب واحد، فالمجتمع الدولي يعترف – بالطبع – بأنه إذا أرادت الجمهورية تعديل الحدود بالوسائل السلمية والاتفاق فإنها مسألة أخري مختلفة تماماً.

ثانياً: أثرت مسألة حقوق الإنسان – الألبان في كوسوفو والمجريون في فويفوديना والصرب في كرواتيا. وأبلغت كل محاور من محاوري أنه يمكن حماية تلك الحقوق بشكل أفضل من خلال ما أسميه «تجديد ديمقراطي للاتحاد اليوغسلافي» وقلت لماركوفيتش وكل رئيس جمهورية في الاتحاد اليوغسلافي إن شكل الاتحاد فيدرالي أو كونفدرالي أو أي شكل آخر أمر يحسمهم وحدهم. لكنني حذرت من أن أي محاولة لتقسيم يوغسلافيا علي أسس عرقية لن تؤدي إلا لإراقة الدماء وإنكار حقوق الأقليات، وذهبت إلي حد الإشارة إلي أنه في الوقت الذي لا نسعي فيه إلي عزل أحد في يوغسلافيا فإن أولئك الذين يتلاعبون بحقوق الأقليات سيعزلون أنفسهم عن المجتمع الدولي. وأكدت علي هذا الأمر بشكل خاص مع الصرب والكروات.

ثالثا: أثرت الحاجة إلي استمرار الرئاسة التناوبية بحكم الدستور في الاتحاد اليوغسلافي. وفي آيارمايو منع الصرب تولي الكرواتي ستيبي ميسيتش للرئاسة. وأثار هذا حنق الكروات والسلوفينيين، وفسر عن «حق» بأنه تلاعب في السلطة من جانب الصرب.

وأخيراً: ولأن الاقتصاد في حالة تدهور، حاولت إبراز المضاعفات الاقتصادية لمزيد من الصراعات. وفي الوقت الذي أشرت فيه إلي أن المجتمع الدولي والولايات المتحدة لن يقدما المساعدة لمن سيمزق البلاد، أكدت علي أن المجموعة الأوروبية والولايات المتحدة سيقدمان المساعدة الاقتصادية باتجاه الحل السلمي. والأهم أنه في الأجل القصير عرضت المجموعة الأوروبية المساعدة في وضع دستور جديد، وألححت علي اليوغسلاف لسلوك هذا الطريق لتسوية نزاعاتهم.



وتنقلت من قاعة إلي قاعة مشهراً هذه الحجج في كل اجتماع لكنني لم أفلح في إقناع أحد. فالرئيسان البوسني علي عزت بيجوفيتش والمقدوني فلاديمير جليجوروف يتفهمان بالفعل موقف المجتمع الدولي ولا يحتاجان لإقناع، وأكثر من غيرهما ممن قابلتهم ذلك اليوم استشرف هذان الرئيسان واستشعرا الخطر الحقيقي لنشوب حرب أهلية.

وعلي نقيضهما كان الرئيس السلوفيني ميلان كوشان شبه الحالم وبادر بالقول رداً علي مداخلتي: «السيد الوزير. سوف ترى إنه لا أحد في يوغسلافيا يحتكر الحقيقة، ففي سلوفينيا تؤيد نسبة ستة وثمانين في المائة من السكان استقلال الجمهورية. فالسؤال ليس هو ماإذا كان يتعين تنفيذ القرار بل كيفية تنفيذه. قلتم: إن تصرفنا قد يفجر أعمال عنف. لكن العنف الروحي والمادي قائم بالفعل. إننا نود إنهاء ذلك. فالعنف يتبدى في صورة القومية والصراعات القومية. إن هذه مفارقة: فيوغسلافيا قامت علي الأيديولوجية، ولذا فإنها تنتمي إلي الماضي».

كان اجتماعي التالي مع سلوبودان ميلوسفيتش رئيس صربيا وهو رجل قامت حياته كلها علي استحضار الماضي لإلهاب الحاضر. ومنذ الوهلة الأولي يبدو ميلوسفيتش بهيأته الودود وبدلته الشيك وشعره القصير متصلبا وكاذبا، وكنت أدرك أنه شأنه شأن المتصلبين لا يحترم سوى القوة. وقررت ألا أهادنه وقلت: «إننا نريد إقامة علاقات طيبة مع صربيا. لكن الأمر بيدك أنت، وأجد لزاما عليّ إبلاغك بأننا نعتبر أن سياستك هي السبب الرئيسي لأزمة يوغسلافيا الراهنة. فبوسعك المساعدة في أن تتقدم الصفوف لإقامة اتحاد ديمقراطي مزدهر يفيد شعوب يوغسلافيا. وإلا فإنك تدفع شعبك وجمهوريتك ويوغسلافيا نحو الحرب الأهلية والتفكك».

وحذرته من أن استخدام القوة سيثير نقمة المجتمع الدولي. ثم عرضت قائمة بالقضايا التي تثير القلق وهي استغلال السخط العرقي – عدم احترام حقوق الإنسان في كوسوفو – تخريب إصلاحات ماركوفيتش الاقتصادية، وعرقلة تولي ميسيتش السلطة.

وواصلت الحديث قائلاً: «لو أصررت على الدفع نحو تفكك يوغسلافيا، فسوف توقف صربيا بمفردها، وسترفض الولايات المتحدة والمجتمع الدولي أي إدعاءات صربية بالسيادة على أراضي خارج حدودها. وستكون صربيا منبوذاً دولياً داخل أوروبا لجيل أو أكثر».

كان هذا الاجتماع أشد الاجتماعات جدلاً في ذلك اليوم. كان محاوراً فاتراً لا يريد أن يجد نفسه في خانة المدافع، ويسعني القول أنه كان يحاول الحفاظ على المظهر الدبلوماسي «بالتبادل المألوف لوجهات النظر». وفي الواقع فقد مضى معظم وقت الاجتماع ينفي أن يكون لصربيا أي علاقة بما تشهده يوغسلافيا من مشكلات. وأحياناً شعرت بأنني أتحدث إلى جدار ذي شعر قصير، وساورني شك في أنني لن أترك أي أثر من أي نوع.

وعقب انتهاء اجتماعي مع ميلوسفيتش توجهت إلى لقاء فرانيو تودجمان رئيس كرواتيا. وبعد أن طرحت ما يقلقني بشكل عام أبدى رفضه التام. وقال: «إن مخاوف الحرب في يوغسلافيا يفاقمها أولئك الذين ليست لهم جذور سياسية في أي دولة. أولئك الذين يريدون فرض حلولهم على الدول الأخرى. فالشيوعيون المقاتلون والمركزيون يريدون توريط الجيش ضد كرواتيا. ومع أنه جنرال سابق كان تودجمان يعرف أنه برغم أن ثلثي عدد

الضباط من الصرب. فإن أيديولوجيتهم لا تسمح لهم بالعمل ضد كرواتيا وسلوفينيا، وبدا لى هذا غير طبيعى ولم يكن هناك ما يمكن إضافته. لكن توديمان شخصية عنيدة. وفى الحقيقة يبدو العناد وكأنه سمة تَحكمتْ على أساس عرقى. وعلى الأقل فى الوقت الحالى فيما يتعلق بكوشان وتوديمان وميلوسفيتش كان المنطق هو آخر ما يريد أن يصغى له هؤلاء الزعماء.

وانهيت يوماً طويلاً مع رئيس الوزراء ماركوفيتش الذى كان رجلاً عاقلاً يدرك تماماً مخاطر الحرب الأهلية.



وبادر بالسؤال ما هو انطباعك عن الاجتماعات التى عقدتها مع رؤساء الجمهوريات الست؟.

ورددت بصراحة: «لقد إزداد قلقى الآن عما كان عليه من قبل» ومضيت إلى طرح اقتراحين. الأول لماركوفيتش باستغلال عرض المجموعة الأوروبية للمساعدة فى إعداد دستور جديد لبدء حوار، وقلت: إنكم فى حاجة ماسة إلى عملية. إنكم فى حاجة إليها فى القريب. وإلا فإن الجمهوريات ستواصل اتخاذ إجراءات تتمسك بها بقوة أكبر. والثانى محاولة إقناع سلوفينيا وكرواتيا بالإدلاء ببيانات عامة. بل إصدار بيانات برلمانية إن أمكن بالاعتراف بأن مستقبل يوغسلافيا قيد التفاوض الآن. وكنت أشعر أن هذا ربما يتيح للصرب (وحلفائهم فى الجبل الأسود) السماح بتولى ميسيتش للرئاسة. وكنت بعيداً عن التفاؤل بأن أيا من المبادرتين سيؤتى مفعوله. لكننى شعرت بأنه يجب على ماركوفيتش أن يفعل شيئاً.

وشرعت فى إعطائه فكرة عما دار فى لقاءاتى. وبدأت بالقول: «إننى لا استطيع الكلمات. إن الزعماء الذى يخفقون فى التفاوض سوف يتحملون المسؤولية لو اندلع العنف. ولن تعترف الولايات المتحدة أو دولة أخرى بالانفصال من جانب واحد. «وشرحت كيف حذرت ميلوسفيتش وتوديمان من أى مؤامرة لتقسيم البوسنة. وهو ما أفضى به بيجوفيتش لى».

ولأن ماركوفيتش يسيطر علي الجيش الوطني اليوغسلافي وعلاقاته ختمت حديثي معه بالتحذير مجدداً من مغبة أي استخدام للقوة للحفاظ علي الاتحاد اليوغسلافي: «إن اللجوء إلي القوة سوف يستغل من جانب أولئك الذين يريدون تفكيك الاتحاد، وسوف تصور هذه القضية علي أنها قضية الحرية والديمقراطية من جانب، وقضية القوة علي الجانب الآخر، وسوف تحتار في الولايات المتحدة دائماً قضية الديمقراطية إذا ما اضطررنا للاختيار بين الديمقراطية والقوة». ثم تحولت للضرب علي وتر المصلحة الذاتية الحكومة الاتحادية قائلاً: «إن استخدام القوة سيفقد يوغسلافيا تأييد معظم المجتمع الدولي، وبالطبع فإن الولايات المتحدة ستدفع بحجة أن تقرير المصير لا يمكن أن يتحدد من جانب واحد. بل يجب أن يتحدد من خلال الحوار والوسائل السلمية. لكن يمكننا إثارة هذه الحجة في حالة استخدام القوة».

ولم يرد ماركوفيتش بشكل مباشر بل غيَّرَ الموضوع، وتحدث حديثاً فلسفياً وقال: «علي مدار خمسة وسبعين عاماً تشكل الكثير من الهياكل التي لا يمكن أن تنفض بسهولة. فقد امتزجت الشعوب والأمم وارتبط الكثيرون بالزواج. فليس من اليسير علي أحد أن يمضي قدماً في الانفصال».

ورددت: «إنني أتفق معك علي أن الانفصال سوف ينذر أعمال عنف وإراقة دماء، وبمجرد أن يبدأ فلن تستطيع وقفه. فلابد من التوصل لاتفاق بين الجمهوريات، وإلا فلن يكون هناك سبيل لإثناء سلوفينيا عن الانفصال والاستيلاء علي مواقع في غضون ستة أسابيع. قد يكون من المنطقي استخدام الجيش لمنع حدوث هذا. لكنه سيشعل الانفجار. فالأمر لا يحتاج سوي عود ثقاب».

كان يوماً مثبطاً للهمة. واحداً من أشد الأيام إحباطاً التي واجهتها في حياتي كوزير للخارجية. ولا أتذكر يوماً وجدت نفسي فيه في موقف تجاهل فيه محاوري المنطق ومصالحهم الذاتية تماماً. فهؤلاء الزعماء يتوجهون إلي الحرب الأهلية مباشرة ولا شيء قادر علي تغيير عقلياتهم.

وفي تقريري عن هذا اليوم كتبت للرئيس: «عملت بقوة ضد اتخاذ خطوات منفردة من جانب واحد قد تجهض عملية التفاوض، وجاهدت جاهداً لضخ جرعة مركزة من الواقعية في

مناخ سياسي غير واقعي بالمرة يسود يوغسلافيا. وسر ماركوفيتش بالرسالة وقوة دفع الزيارة، وبصراحة يساورني الشك في جدواها. ويرجع سبب هذا الإحساس إلي أجواء الجنون التي سادت أجواء اجتماعاتي: فقد بدأ الزعماء كمن يلقي بنفسه تحت عجلات السيارة وهو نائم ولا تجدي معه نفعاً أصوات التحذيرمهما علت، أو الصفع علي الوجه كما في حالة ميلوسفيتش وظلوا علي مكابرتهم.

وأبلغت الرئيس أننا في حاجة للعمل مع الأوروبيين لاستمرار سياسة عدم الاعتراف ضد أي جمهورية تعلن الاستقلال من جانب واحد، في محاولة لتشجيع الاعتدال. إن الخطوات الفعلية التي بدأت لتطبيق الاستقلال «تشكيل نقاط جمارك علي سبيل المثال» هي التي ستؤدي سريعاً إلي التفكك والحرب «إننا نرغب في مواصلة إقناع ماركوفيتش بضبط النفس وخاصة فيما يتعلق باستخدام الجيش للرد علي إعلان الاستقلال».

وختمت تقريري بنتيجة متشائمة: «إن إحساسي يقول لي إننا لن ننجح في إقامة حوار جاد حول مستقبل يوغسلافيا حتي تشعر كافة الأطراف تماماً بإحساس أكبر بالإلحاح والخطر. ربما لا نستطيع أن نملي ذلك من الخارج. لكن علينا نحن والآخرين أن نواصل السعـي»*.

الطريق إلي ألبانيا

رأيت بشارة انهيار الشيوعية في اليوم التالي وأنا أقطع رحلة بالطائرة لمدة ساعة نحو الجنوب إلي تيرانا عاصمة ألبانيا. وتحت ظل حكم أنور خوجه الستاليني المتشدد لأكثر من أربعة عقود كانت ألبانيا أكثر الدول تخلفاً وعزلة في أوروبا. وكانت آخر من خلع العباءة الشيوعية عندما أجرت أول انتخابات تعددية في ٣١آذار مارس ١٩٩١. وقبل أسبوع من وصولي تولت حكومة انتقالية مقاليد السلطة بدلاً من الحكومة الشيوعية وضمت جماعات من المعارضة، وأردت استغلال المكانة الأمريكية «التي عززتها عاصفة الصحراء إلي حد كبير» لدفع الألبان للتحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة.

---

* في ٢٥ حزيران يونيو صوت برلمان كرواتيا وسلوفينيا علي الاستقلال، واندلعت الحرب في اليوم التالي. ويعالج الفصل ٣٢ السياسة الأمريكية خلال تلك الفترة.

وبعد هبوط شاق بسبب انتشار الحفر علي ممر الهبوط نزلت من الطائرة لتواجه لم يخطر علي بال. ففي العادة كان وصولنا يتحول إلي ساحة عسكرية. لكن الأمر يختلف تمام الاختلاف هذه المرة. فقد تجمع حشد من عدة مئات من المتحمسين علي مدرج المطار وفيما أهم أنا والوفد المرافق بركوب السيارات والأتوبيسات المعدة لنا، لستقل الألبان الذين وفدوا إلي المطار لاستقبالنا سياراتهم وأتوبيساتهم العتيقة وحاولوا اللحاق بموكبنا.

وأثناء مغادرتنا المطار بدأت ألحظ تجمعات صغيرة من الأفراد كل خمسين ياردة أو أكثر. وعادة ما كانوا يقفون بجوار محراث يجره ثور أو ثوران. كانت الابتسامة لا تفارق هؤلاء الرجال والنساء والأطفال الذين رفعوا لافتات كتب عليها: «مرحباً بالمستر بيكر أو بكر أو بيبكر». ورفع آخرون لافتات كتب عليها: «بارك الله أمريكا».

وبعد قطع مسافة لا بأس بها عبر الريف الألباني الذهبي الذي ذكرني بأدغال كاليفورنيا المحيطة بمزرعة رونالد ريجان في سانتا باربارا وصلنا إلي مشارف تيرانا ودلفنا إلي الفوضي. وتحولت مجموعات البشر الصغيرة إلي كتل جماهيرية حاشدة ثلاثة، خمسة، سبعة، تتحلق علي الطريق. وقفز الصبية والشباب إلي الطريق للمس أو تقبيل سيارتي. بل إن رجلاً ألقي بنفسه أمام الموكب وأخذ يقبل الأرض. ونثر الكثيرون الزهور. وقفز عدة أفراد فوق مقدمة وسقف سيارتي، واضطر فريقي الأمني لإنزالهم. ولمنع حدوث إصابات ترك أفراد الأمن سياراتهم وشرعوا في الهرولة بجوار سيارتي في محاولة لإبعاد الأطفال الصغار حتي لا يسقط أحد منهم تحت عجلاتها. وتوقف الموكب مرات ومرات، وأحاطت بنا الجماهير ودوت صيحات الفرح. «وقد أثار هذا احتمال إقدام الحشد علي حمل السيارة وهو مابدا أنه أمر يستعصي على التصديق باستثناء ما أفضي به بعض الطلبة الألبان لطاقمة فريقنا بالنية على فعل هذا».

وقال بيل جاستيل الرجل الثاني في قيادة فريقنا الأمني: «عليكم بمواصلة السير» لكن في بعض الأحيان بدا أنه ليس هناك مكان لنذهب إليه سوي الخوض شبراً شبراً بين طوفان البشر. وكلما اقتربنا من وسط المدينة كلما ازدادت صعوبة تحركنا «واستغرق الأمر منا نحو الساعة لقطع الأميال الأربعة أو الخمسة من المطار». وبدأ الشارع في الضيق. فعلي كل جانب توجد مبان سكنية تتألف من ثلاثة إلي خمسة طوابق. وفي كل نافذة شاهدت الوجوه

المبتسمة والألبان الذين يحملون لافتات أو أعلام أمريكية صنعوها بأنفسهم. ورفع الرجال أصابعهم بعلامة النصر، والتي علمت فيما بعد أنها شعار المعارضة الديمقراطية الألبانية، ورفعت النسوة بأطفالهن لأراهم، وألقين علينا بالقبلات. وعندما وصلنا إلي ميدان اسكندر بك حيث كان من المقرر أن ألقي كلمة تداعت إلينا الهتافات رويدا رويداً. كان الميدان مكتظاً بنحو ربع إلي نصف مليون نسمة في بلد يتجاوز سكانه الملايين الثلاثة بقليل، وفي مدينة يقطنها ٢٥٠ ألف نسمة.



كنا نتوقع أن نري حشدا كبيراً لكن ليس بهذا الحجم. وعلي مدي خمسة عشر عاماً امضيتها في خدمة السياسة الوطنية لم أشهد مطلقاً شيئاً كهذا. لم يكن جون دانسي من أخبار شبكة ان بي سي الذي قام بتغطية السياسة الأمريكية بصدق هو الآخر ما يري. وذكرني مشهد الجماهير الفرحة التي تغمرها مشاعر عارمة باللقطات التي شاهدتها في الجرائد السينمائية لانتهاء الحرب العالمية الثانية. وبالنسبة للألبان وبعد العيش لسبعة وأربعين عاماً تحت ظل أقسي نظام شيوعي استبدادي انعزالي في العالم ساورني اعتقاد أنه أشبه بانتهاء حرب. ولم أشعر من قبل بامتنان بمثل هذا القدر لتمثيل بلدي. كما لم أكن أعرف مطلقاً لماذا دون بقية أنحاء العالم – حتي وإن أخذناه علي أنه أمر مسلم به – تعد أمريكا تجسيداً لأمل الحرية «مدينة تتلألأ فوق تل» كما اعتاد ريجان أن يصفها.

كان الحشد صاخباً ومتلاصقاً لدرجة أنه في محاولة لتهدئته جعلت صالح بريشا زعيم المعارضة حينئذ يبدأ في الحديث أولاً. وساورني قلق من أن الحشد المبتهج قد يطيح بالمنصة الخشبية المفترض أن أتحدث عليها مما قد يتسبب في مأساة تؤدي لسحق البعض. وقال بريشا أمام الحشد: «إن الطريقة الأمريكية في الترحيب أهدأ من طريقتنا أيها الأصدقاء، لذا أرجوكم أن ندعه يتحدث».

ولدي ارتقائي المنصة المؤقتة استقبلتني هتافات «الولايات المتحدة.. الولايات المتحدة... الولايات المتحدة» «بوش ... بوش ... بوش» وبدأت بالقول «بالنيابة عن الرئيس

بوش وللشعب الأمريكي أتيت إليكم اليوم لأقول إن الحرية أثبتت نجاحها» وبعد الترجمة اشتعل حماس الحشد. وأضفت: «ها أنتم أصبحتم أحرار في اعتناق ما ترون من أفكار» ومرة أخرى تعالى هدير الجماهير. وتمايل الحشد في موجات متتالية مستغلاً حماسة ما ذكرني بحفل موسيقى روك حاشد أكثر من أي شيء آخر. وازداد قلقي من أن درجة الحرارة المرتفعة قد تتسبب في حدوث حالات من ضربات الشمس. ولذا قررت اختصار كلمتي. لكن ذلك لم يختصر اللحظة التي سأظل أتذكرها إلى الأبد. ولا يمكن مقارنة لقاءاتي مع السياسيين الألبان مع الجماهير التي رأيتها رغم جاذبية صالح بريشا. وكمعظم زعماء ما بعد الشيوعية الذين التقيتهم في أوروبا الشرقية كان بريشا قليل الخبرة، ففي ظل النظام الشيوعي البائد كان يعمل جراحاً للقلب. لكنه يفهم مجتمعه تماما حتي وإن اضطر إلي الشرح مستخدماً المصطلحات الطبية. فقد قال: «إن ألبانيا رأس ديمقراطي وقلب ديمقراطي لكن في جسد بلشفي» وأمضيت معظم الصيف وبقية الصيف في الشرق الأوسط ولكن في آب أغسطس انطبق وصف بريشا عن الجسد البلشفي على الاتحاد السوفيتي بزعامة جورباتشوف*.

---

* تابعت ألبانيا عن كثب فيما بعد، وسرني أن يصبح بريشا رئيساً لألبانيا في نيسان إبريل ١٩٩٢ . والأهم سرني أن أرى التزام الحكومة بمبادئ السوق الحرة والخصخصة. وكما كتب وليام ريمسون أول سفير لنا في ألبانيا والموظف البارع بالسلك الدبلوماسي ذات مرة: «إن الحرية تثبت نجاحها، إنها تثبت نجاحها حقاً بما يفوق تصور الكثيرين عندما تحدثت للشعب الألباني في ميدان اسكندر بيك».

الفصل السابع والعشرون

انفراجة على طريق السلام

قبلنا.

إسحاق شامير

رئيس وزراء إسرائيل مؤكداً قرار إسرائيل

بالمشاركة في مؤتمر السلام ٣١ تموز يوليو ١٩٩١

بعد ظهر ١٤ تموز يوليو ١٩٩١ كنت أجتمع مع الكسندر بسمرتنيخ في مكتبي بوزارة الخارجية لوضع اللمسات النهائية حول معاهدة ستارت، عندما ابلغتني كارون جاكسون أن إدوارد جيرجيان يريدني في مكالمة عاجلة. وذهبت إلي الغرفة المجاورة لتلقي المكالمة. واستفسرت في لهجة قال لي فيما بعد إنها أوحت بأهمية بالغة، إدوارد. ماذا هناك؟. ورد «السيد الوزير، حسناً إن يدي تمسك الآن برد الأسد علي الرئيس بوش. إننا نبعث برقية الآن لكم وللرئيس. إنه قبول تام لدعوتنا لمؤتمر السلام».

ولم يسعني أن أصدق أنه ليست هناك ثغرة ما. كانت ذكريات مراوغات وخداع آيار مايو المجيولة لاتزال حية في الأذهان. لكن جيرجيان دبلوماسي قدير بالغ الحرص. وشرح أنه كان متأكداً تماما أن في الأمر خدعة لدرجة دفعته لقراءة الرسالة مرتين ليشفي غليل نفسه. وقلت: «عظيم يا إدوارد. إنجاز رائع. إنني أتطلع لقراءة الرسالة». واتصلت بالرئيس هاتفياً ثم أبلغت الصحافة بهذه الأنباء. وقلت: «إنه وفقاً لسفيرنا في دمشق فقد وافق الرئيس الأسد علي قبول الدعوة».

ولاحظ جيرجيان بود في وقت لاحق لتهيئة مخرج لنفسي بإرجاع التفسير الإيجابي له وليس لي، وذكرني «أنت تعرف، حقيقة لقد وصفتني هذا». وكان علي صواب. لكن تاريخ دبلوماسية الشرق الأوسط مليء بالغموض وسوء الفهم وأردت التيقن. وعندما اطلعت علي برقية جرجيان في وقت لاحق من اليوم خلصت إلي أن جيرجيان مصيب في رأيه. وجاء في البرقية: «إن التطمينات والإيضاحات الواردة في رسالة الرئيس «سيكون لها أثر تراكمي في الوفاء بشروطنا من زاوية دور الأمم المتحدة: كما أنها تقدم أساساً للشرعية الدولية». ونتيجة لهذا «فإن سوريا تلبي دعوتكم بالمشاركة في مؤتمر سلام تقديراً لجهود وساطتكم ليست هناك خدعة، وسوف تجلس سوريا علي المائدة مع إسرائيل، وهكذا فإنها تتخلي عن الموقف السياسي الذي تبنته منذ بدء الصراع مع إسرائيل».

وأنا أقرأ موافقته مرة أخري أدركت أن الأسد قد منحنا القدر المفقود من القوة لبدء المرحلة الأخيرة من أجل السلام. فقد تهيأت الفرصة الآن لتوليد زخم تستحيل مقاومته باتجاه مفاوضات مباشرة. كنت قد تأخرت بالفعل عن القمة السنوية لمجموعة الدول

الصناعية السبع الكبري. وفي اللحظة التي سيتم فيها اختتام القمة في لندن سأتوجه مباشرة إلي الشرق الأوسط. واعتزمت استغلال فرصة موافقة الأسد علي المشاركة لإغواء الدول العربية الأخري، ليس لأن تحذو حذوه، بل أيضاً للتوجيه بادرات جديدة لإسرائيل. ومزوداً بتلك البادرات الجديدة عن الالتزام العربي بالسلام بات بوسعي حينئذ أن أعرض علي شامير ما أملت أن يكون صورة واضحة تماما عن استعداد العرب للدخول في مفاوضات مباشرة، وهو ما كانوا يرفضونه رفضاً قاطعاً. بل إنه هدف إسرائيل المعلن علي مدي أكثر من أربعين عاماً. واعتقدت أنه ليس بوسع شامير ولا الفلسطينيين الاستمرار علي عنادهم في ظل هذه الظروف.

وأخيراً اثبتت نظرتي صحتها، والتقيت الأسد في ١٨ تموز يوليو، وبعد ثلاثة أشهر علي وجه التحديد وأربع جولات مضنية وستين ألف ميل إضافي من الدبلوماسية المكوكية وجهت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي دعوات صيغت بعناية وتطلبت جهداً مضنياً للمشاركة في مؤتمر سلام يعقد في مدريد اعتباراً من الثلاثين من تشرين الأول أكتوبر. إن القصة الحقيقية لكيفية خروج مدريد إلي الوجود قصة خصبة للتصميم والبدايات الزائفة والشجاعة السياسية والشخصية والأزمة الملتوية والمثابرة والدأب وإساءة التقييم وفقد الأعصاب والمفاوضات اللانهائية، وعشرات الحلول الوسط الخلاقة وحسن وسوء النية. وفي النهاية منيت سنوات العداء والفوضي بالهزيمة أمام شجاعة وعزيمة الأطراف نفسها علي منح فرصة للسلام مدعومة بالمساندة النفسية ومصداقية إبداع خلاق من آخر قوة عظمي في العالم.

التأكد من أن نعم تعني نعم

أدي تصادف انعقاد قمة الدول السبع الكبري إلي تأجيل وصولي إلي دمشق للظفر بموافقة الأسد غير المشروطة، وتقديم الإشادة الدبلوماسية اللائقة له. والأهم أنه هيأ وسيلة قيمة لتعزيز استراتيجيتنا من أجل السلام بتأكيد الحاجة إلي إيماءات متبادلة بين العرب والإسرائيليين. وفي استجابة بالإجماع لاقتراح عرضه الرئيس بوش دعت مجموعة السبع

لإنهاء المقاطعة الاقتصادية العربية لإسرائيل ووقف بناء المستوطنات الإسرائيلية الجديدة فى الأراضى. ولم يسعد الإسرائيليون. لكن مصداقية أمريكا كوسيط نزيه قد تعززت لدي العرب وهو ما كنا ننتويه.

ومنذ بداية اجتماعنا لم يدر بذهن الأسد سوي شيء واحد وهو تأكيد قبوله لمقترحات الرئيس بوش. وأفصح عن نيته باختيار أن يكون اللقاء قصيراً علي غير العادة، ١٥٠ دقيقة فقط، وهو ما يعد بالنسبة له لقاء عمل خاطف. وعندما بدأ الجلسة بتوقع أن يكون هذا الاجتماع أقصر من الاجتماعات السابقة لأننا سبق وأن بحثنا هذه القضايا باستفاضة. أدركت أن الموافقة الواردة فى خطاب الأسد موافقة حقيقية. وخشيت من أن اجتماعا موسعاً آخر سيوضح أن التزام الأسد أكثر غموضاً مما أعلن. فلم يكن ينقصنى القلق. وفى نقطة أخري ذَكَّرَنِي الأسد – كما لو كنت أنا سبب لقاءاتنا المطولة – أنه يجب ألا ننسي الحاجة لإجراء مناقشة موجزة بهدف إعطاء انطباع إيجابي.

وقلت للأسد إن خطابه حفز قمة الدول الصناعية السبع وهو المسؤول مباشرة عن ضمان إصدار قرار يدعو إلي وقف بناء المستوطنات، وكذلك رفع المقاطعة العربية. وأضفت «لا يمكننى المبالغة فى وصف الأثر المثير الهائل الذى أحدثه خطابكم فى العالم إنه ينظر إليكم الآن علي انك اخترت السلام، وفى المفاوضات دائماً ما يكون الإطراء مفيداً، وقد أردت لمس وتر الأنا لدي الأسد. وعرضت عليه نظرة عامة عن أسلوبي التكتيكي. وقلت: «آمل أن نبدأ هنا فى سوريا تهيئة أجواء تُنْقَلُ لإسرائيل تجعل من الصعب عليهم قول لا».

وكما اتضح كان كلانا مشغول بقلق مواز. وأردت التأكد من أن سوريا لن تتراجع فى مؤتمرنا الصحفى المشترك التالى. ورد: «لا محل للتساؤل. لقد اتفقنا علي تلك النقاط إنها واضحة»، ومن جانبه أراد الأسد أن يشعر بالراحة بالتأكد من أنه لن يحدث تراجع عن مقترحات ونقاط الرئيس، وطمأنته بأنه« فيما يتعلق بما نقترح لن يحدث أي تراجع فلن تكون هناك عملية يسبقها تراجع».

واستفسرت منه عن تصريحه الذي يحتمل أن يثير المشاكل، والذي أدلي به في اليوم السابق عن أنه تعين ان يكون للامم المتحدة – المراقب دور هام في المؤتمر وهو ما وعدت

شامير بألا يحدث. واتضح علي الفور أنه بينما يفضل هذا الدور فإنه لا يشكل شرطا للمشاركة. وسرني أن ابلغ الرئيس « ليس هناك غموض. لقد قبلوا مقترحاتنا. فلدينا موافقة وسنقوم بمحاولة للبناء عليها».

أما وقد حصلت علي تطمينات كافية توجهت إلي القاهرة لأجد أجواءً متفائلة، وأردت أن يصدر مبارك بيانا يربط بين استعداد العرب لتعليق المقاطعة بتعليق النشاط الاستيطاني. فمن شأن هذا البيان إحداث أثر نفسي بتجاوز كل المقاييس لإظهار حدوث تغير واضح لا تخطئه العين فى مواقف العرب تجاه الدولة اليهودية. وصحفياً سوف يتم دفع إسرائيل إلي موقف غير مريح برفضها شيئا ذا قيمة حقيقية – أي رفع العقوبات بالتمسك بسياسة الاستيطان. وقلت لمبارك: «ان نقدم حجة علي أن المستوطنات عقبة علي طريق السلام، فينبغي علي العرب أن يبدوا ذلك». وكالعادة كان مبارك شجاعاً فى تأييده وأدلي بهذا التصريح فى المؤتمر الصحفى الذى أعقب الاجتماع.



وبعد يوم حافل بالاجتماعات فى القاهرة فى اليوم التالي توجهت إلي جدة للقاء الملك فهد فى الساعة ٩,٤٠ جرياً علي عادته المفضلة بعقد الاجتماعات ليلاً. وقلت له: «لا يمكننا أن نغادر العربية السعودية بدون نتيجة» مذكراً إياه بأن موافقته ستجعل من اليسير علينا التعامل مع الضغوط المتوقعة من الكونجرس لاتخاذ إجراء مبكر حول ضمانات القروض الإسرائيلية التى يمارسها بشدة. وبشيء قليل من المراجعة وافق علي إصدار بيان يؤيد مبارك. وقال الملك: «إن أخى مبارك زعيم عظيم وسوف نؤيد مبادرته. لكن علينا أن ننسق مع الأخ حافظ الأسد». ورددت «إن حافظ الأسد لا يحب ذلك، وسوف ينظر إلي الطريق الآخر».

كانت موافقة الملك من تدبير بندر إلي حد بعيد. فهو الذى توصل إلي الفكرة فى المقام الأول، ودفع بأنه من الأوقع أن تخرج المبادرة من مبارك ويصدق عليها الملك، لا العكس.

وعرفت أن وزير الخارجية سعود يشعر بارتياح أكبر للانخراط فى تيار الإجماع العربى الرئيسى. لكنه وعدنى بألا أغادر جدة خالى الوفاض وقد أوفى. وطلبت من الملك فهد أن يضغط علي الملك حسين والفلسطينيين لتشكيل وفد مشترك وإبعاد منظمة التحرير وراء الستار. ووافق علي كل مطالبى.

وقلت: «إننى وجورج بوش ممتنان لهذا القرار. أعرف أنه ليس بالقرار السهل لكنه الشىء الصحيح».

وقال الملك: «لقد تغير الشرق الأوسط فإذا سلكنا طريق السلام فإن مقاطعة شركات الدول الصديقة لن تكون ذات معني».

وبصراحة كان القلق يساورني تجاه الملك حسين. وحتي وهو يطلب من الولايات المتحدة إصلاح علاقاته مع العربية السعودية أصدر كتاباً أبيض عن حرب الخليج حاول تبرير سياسة الأردن بتأييد صدام حسين. لكن سرعان ما اتضح لدي وصولى إلي عمان فى ٢١ تمور يوليو بأن الشجاعة التى أظهرها مبارك والملك فهد قد شحذت عزيمته. وخلال ثلاث ساعات من المباحثات وافق الملك علي المشاركة فى المؤتمر، وأقر اقتراح الإيماءات المتبادلة رفع المقاطعة ووقف المستوطنات. وطمأنني أيضاً أنه يعمل بجدية لتشكيل الوفد المشترك. فقد وجه رئيس وزرائه الدعوة لفلسطينيين من الأراضى لزيارة عمان لبحث الأسماء المحتمل مشاركتها فى الوفد. وذكرته بمعيارى تشكيل الوفد. إن الوفد يمكن أن يضم فلسطينيا مقيماً فى الأردن، وينتمى لعائلة مشهورة بالقدس علي ألا يكون مسؤولاً فى الحكومة أو منظمة التحرير الفلسطينية. وأكدت أنه يجب عليه إعلان أن المباحثات قد بدأت مع «فلسطينيين من الأراضى» بهدف تهدئة مخاوف إسرائيل من مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية. وبعثت برقية للرئيس «أن الملك أفضل فى السر عنه فى العلن. ومع هذا فقد قال علناً ما يكفى للمساعدة».

آخر الحصون: الفلسطينيون وشامير

كنت أعرف دائماً أن الفلسطينيين سيكونون آخر حصن عربي. ففي أوائل تموز يوليو التقيت في مكتبي في واشنطن مع فيصل الحسيني وحنان عشراوي، الفلسطينيين اللذين التقي بهما بانتظام لاقتناعهما بحكمة تشكيل وفد مشترك مع الأردن. وحتي ذلك الحين وافقت إسرائيل سراً علي إمكانية مشاركة فلسطينيين من خارج الأراضي، فلسطينيو الشتات، في المباحثات النهائية حول الوضع النهائي للأراضي. ومع هذا كان الحسيني وعشرواي لا يزالان يصران علي ضرورة تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية بشكل ما في مؤتمر السلام، وهو ما أبلغتهما أن حدوثه مستحيل. كما عارضا فكرة الوفد المشترك مع الأردن. وعندما التقيت بهما في القدس مرة ثانية في ٢١ تموز يوليو كانا لا يزالان علي عنادهما. كان لقاؤنا علي العشاء متوترا ومثيراً للعاطفة، وكما أبلغت الرئيس لاحقاً «فقد أبلغتهما بأن القطار يتحرك ومن الأفضل ألا يفوتهما. لأنه من غير المحتمل أن يعود مرة أخري في القريب».

ولسوء الحظ كان عرفات لا يزال محجماً عن تفويض الفلسطينيين الاجتماع مع الأردنيين، وطلبوا مني خطاب تفاهم لدفع عرفات لاتخاذ قرار، أو علي الأقل جعل الأمر أكثر صعوبة عليه في منعنا من الذهاب إلي عمان. وأبلغتهما بأن الولايات المتحدة ستقدم خطاب ضمانات. لكن فقط عندما يبدأ العمل الفعلي في تشكيل وفد مشترك.

وأكدت «أننا في حاجة إلي فصل قاطع بين الشكل والجوهر. إنني لا أقصد بهذا عدم الاحترام، لكنكما تعرفان كما أعرف أنهم يقولون إن الفلسطينيين لا يدعون أي فرصة لإهدار الفرص، وأرجو ألا تهدروا هذه الفرصة». وقلت «من تعتقدون أنه وراء بيان مجموعة السبع؟ ومن تعتقدون أنه وراء بيان مبارك حول الاستيطان والمقاطعة؟ من تعتقدون أنه وراء الموافقة السعودية؟ إن هذه الاشياء لم تأت من فراغ».

وتوقفت قائلاً: «بمجرد أن تبدأوا أنتم وإسرائيل فلن يكون هناك مجال للتراجع، لكن هذا لن يحدث مالم تسوي قضية التمثيل». وقلت لهما: إن ثمن المشاركة سيكون لا بأس به. فسوف يقبل الإسرائيليون بمشاركة فلسطيني من أشهر عائلات القدس يقيم الآن في الأردن، ولكن في الجانب الأردني من الوفد المشترك. وبالإنابة عن الرئيس عرضت عليهما عدة

ضمانات بشأن المفاوضات المستقبلية. فسوف تؤيد الولايات المتحدة مشاركة فلسطينيين من القدس الشرقية وفلسطينيي الشتات فى مفاوضات الوضع النهائى للأراضى. بالإضافة إلى ذلك فإننا متفقون مع السوفيت على أن استبعاد فلسطينيين من القدس الشرقية لن يرسى سابقة للمفاوضات الفعلية ذاتها فى المستقبل. لكن العلاقة غير المباشرة مع القدس الشرقية هو أفضل ما يمكنهما الحصول عليه الآن.



وعلى ما يبدو لم يبد أى منهما أى قدر من التغيير. وظلا بتشككهما وسرعة غضبهما متشككان فى موافقة الأسد بشكل تام. وشكت عشراوى من أن رفع المقاطعة ما هو إلا مكافأة لإسرائيل على تخفيف سياسة الاستيطان. وأكدت قائلة: يجب أن يفعلوا هذا دون مكافأة. وكالمتوقع فقد تملكهما الغضب لفقدهما ورقة القدس. ومن المفهوم أن الوطأة كانت أشد على فيصل الحسينى. فالحسينى مقدسى عريق الحسب. فوالده عبد القادر الحسينى المحارب الفلسطينى الأسطورى الذى قتل فى حرب ١٩٤٨. كان فيصل الحسينى ابن اخ الشيخ أمين الحسينى مفتى القدس الراحل، وهو الزعيم السرى لحركة فتح - الجناح السياسى لمنظمة التحرير الفلسطينية فى الأراضى المحتلة لنحو عشرين عاماً. وأقنعت علاقته بفتح شامير بأنه إرهابى وهو اعتقاد لم يؤكده ما بحوزتنا من أدلة. لكنة عقيدة راسخة لدى الإسرائيليين. ويمكن القول أنه أكثر الفلسطينيين صدقاً. لكن إسرائيل لن تقبله عضواً فى الوفد الفلسطينى. وأبلغت الحسينى بأن الرئيس سوف يستقبله فى البيت الأبيض باعتباره زعيماً شرفياً لفلسطينيى الأراضى. لكن عليه أن يقبل مشاركة فلسطينى فى الجانب الأردنى من الوفد المشترك باعتباره همزة الوصل الوحيدة لمسألة القدس التى يمكننى إقناع إسرائيل بقبولها. وكنت على ثقة تامة من أن حرمانه من حقه الشرعى سيكون جرعة دواء مر يتجرعها بشكل استثنائى. اتضح هذا بجلاء تام فى تعبيرات وجهه عندما أبلغته ذلك.

ورد الحسينى «لايمكننا أن نتناول هذا الأمر. إنها مسألة مبدأ. إنه خط أحمر بالنسبة لنا ولا يمكننا أن نتعامل فى عملية نضطر فيها على قبول هذا الشرط. فسوف ينظر الفلسطينيون

إلي غياب سكان القدس الشرقية من الوفد علي أنه بمثابة تشييع لجنازة القدس الشرقية. ورددت إنه رغم أن حكومة شامير معارضة سياسياً في قضية السلام فإنه يمكنها حشد قوة ضخمة تجاه قضية القدس. ومن الوجهة العملية يتعين أن تنتظر قضية القدس لمرحلة لاحقة. وحذرت من أنه «إذا أبرزتموها أولا فلن تكون هناك عملية سلام، وستكون هذه هي البداية والنهاية لكم. لأن الفلسطينيين هم الذي سيعانون أيما معاناة من غياب العملية السلمية».

وكدأبه في اجتماعاتنا فرد الحسيني خرائط تظهر المستوطنات الإسرائيلية فيها باللون البرتقالي. وقلت مخاطباً المثل: «فيصل، إذا لم تجلسوا علي المائدة، فسوف تأتي قريباً بخريطة كلها باللون البرتقالي، وسيكون هذا النقاش غير ذات أهمية علي الإطلاق».

وانفجرت عشراوي بصوت كالرعد: «إن هذا ظلم بين بل أشد أنواع الظلم. فالإسرائيليون الذين لم يتواجدوا هنا إلا منذ سنوات قليلة سيشاركون في الوفد بينما سيحرم الفلسطينيون الذين تعيش عائلاتهم في القدس الشرقية علي مدي قرون من المشاركة».

وصحت: «ليكن، إن القضية ليست العدل، أو ما الذي يحتمل أن يكون صحيحاً. إنها مسألة واقع. إننا لا نقترب من حل هذا الوضع المعقد. وتطلعت باجتماعي مع شامير لقطع الطريق علي مواجهة وشيكة. ومع ذلك أوحت لي فطرتي أنني أحرزت شيئاً ضئيلاً من التقدم. وأمِلْتُ في أن حنكتهما – والاعتقاد بأنني أبذل بأمانة أقصي ما أستطيع – سوف يتطابان في النهاية.

وقبل أن أصفه باليوم العصيب عقدت لقاءً منفرداً مع شامير في وقت لاحق في المساء. وكان يدرك أن مباحثاتي مع العرب قد عززت الضغوط عليه، ولذا فقد حاول في التمهيد بأن يلزمني جانب الدفاع، وبادرني بالقول إن هناك شبهة في إسرائيل بأن الولايات المتحدة عازمة علي إجبار إسرائيل على الخروج من الأراضي. ورددت بأن هناك شبهة قوية في الولايات المتحدة بأنكم غير جادين بشأن مفاوضات السلام.



وبدت صدمة حقيقية علي شامير وبدا شبه مصعوق يعتريه الشك تجاه قبول الأسد. وكما كان مبارك يشك في استعداد شامير في التوصل إلي حل وسط قبل ثلاثة أشهر ها هو رئيس وزراء إسرائيل لا يصدق الآن بقبول الأسد وخاصة لأن المؤتمر كما يعرف شامير سينعقد أساساً علي هدي من المطالب الإسرائيلية. وأثار أسئلة عاصفة كان يبدو وكأنه يحاول الاعتماد عليّ في الحصول علي مصداقية لا يستطيع أن يتوصل إليها بنفسه بينها لألد أعدائه. وسأل شامير «ما سر هذا التغيير؟ إن الأسد لم يتفوه بكلمة واحدة عن السلام، ما هدفه؟ إنه ليس شخصية مثيرة كالسادات». وأبلغته بأن مبارك وفهد والملك حسين أبلغوا الأسد جميعابأنه لن تتاح أمامه فرصة مثل هذه علي الإطلاق. وأنه اعتقد صدق هذا في نهاية الأمر. وقلت: «إن ما حصل خلال هذا الأسبوع ليس أقل من انفراجة طالما سعيتم لها منذ عقود» أما وقد استجاب شركاء التفاوض العرب للشروط الإسرائيلية إلي حد كبير فالوقت الآن هو وقت الجوهر. وذكرته أنه في غضون عشرة أيام سوف يلتقي الرئيس مع جورباتشوف في موسكو حينها ستطرح علي السوفيت موعداً لعقد المؤتمر. وأعتقد أن السوفيت سوف يوافقون علي انعقاده في الخريف. وطالبته بضرورة حسم التردد الإسرائيلي الآن. وفي اجتماع سابق مع شامير، وقبل أن أثير القضية مع الأسد تحدثت معه حول احتمال تمركز قوات أمريكية علي مرتفعات الجولان عقب توصل سوريا وإسرائيل إلي السلام. وبدا أنه يرحب بالفكرة في البداية. لكنه شعر بفتور نحوها في نهاية الأمر – ربما لأن تواجداً عسكرياً أمريكياً سيضعف أي حجة بأن إسرائيل تريد الاحتفاظ بالجولان لضمان أمنها. وسألني عما إذا كانت الولايات المتحدة لاتزال تؤيد خطاب الرئيس فورد عام ١٩٧٥ الذي أطلعني عليه في آذار مارس. وقال لا نريدكم أن تؤيدوا موقف سوريا بأنه يتعين علي إسرائيل الانسحاب من الجولان، وأكدت موقفنا مجدداً بأن هذه مسألة من صميم المفاوضات الثنائية بين إسرائيل وسوريا، وقلت لشامير إننا سوف نؤكد مجدداً في خطاب الضمانات الأمريكية لإسرائيل إن الولايات المتحدة لاتزال تؤيد بحزم الالتزام الذي قطعه الرئيس فورد.

وكان بوسعي أن استشف من لهجة شامير أنه لم يتوقع مطلقاً أن يوافق الأسد. ومع هذا وفي ضوء هذا الواقع كان يعرف تماماً أن الكرة في ملعبه الآن، ولا يمكنه عملياً أن يقول لا لمؤتمر إقليمي. وفي ختام الاجتماع أحسست أنني طمأنته بما يكفي. لكنه قال إنه يحتاج بعض الوقت لاتخاذ قرار، ووعدني قائلاً سوف أقدم لك رداً قريباً جداً.

وكالمعتاد وعندما نجتمع بحضور المستشارين من كلا الجانبين كان شامير كثير الشكوى بعض الشيء في اجتماع ثان عقد صباح اليوم التالي. وفي إحدى المراحل طلب على سبيل المثال مني إعطاءه نسخة من رسالة الأسد. ورددت «هل تتوقع مني أن أطلع الأسد على رسالة منك للرئيس بوش؟» وعرضت أن أطلعه على موجز عن فحولها وقَبِل عرضي.

وفي النهاية قال شامير: «إننا في حاجة لبعض الوقت لكن سوف تتلقى الإجابات فلا يصيبك الإحباط».



وفي الأسبوع التالي وجهت اهتمامي إلى مؤتمر رابطة دول جنوب شرق آسيا «آسيان» في ماليزيا ثم القيام بزيارة خاطفة لمنغوليا لاستكمال تلك الرحلة التي قطعتها في آب أغسطس ١٩٩٠ ثم قمة موسكو بين الرئيس وجورباتشوف التي تبدأ في تموز يوليو. وكان الشرق الأوسط مهمشا إلى حد ما بالنسبة لاهتمامات القمة التي بلغت ذروتها بالتوقيع على معاهدة ستارت. ومع ذلك فقد توصلنا إلى اتفاق مع السوفيت على موعد في تشرين الأول أكتوبر لعقد مؤتمر السلام. وكان بسمرتنيخ يفضل التريث حتى وقت متأخر من الخريف. «لكننا كنا على شفا التوصل إلى اتفاق نهائي، وخشيت من أن أي تأخير قد يدمر زخمنا. فالفلسطينيون بوجه خاص يمثلون مشكلة. وساورني الشك أنه بدون ضغط يشكله تحديد موعد نهائي حقيقي فلن يجتازوا العتبة.

وقبل مغادرتي القدس تركت رسالة بأنني مستعد للعودة لكن إذا وافق شامير على المشاركة في المؤتمر قبل وصولي. ونقل لي الإسرائيليون رسالة عبر دينيس روس في موسكو بأن شامير قبل المشاركة. ومع ذلك لم تكن برقيتهم ترقى إلى حد القبول التام، وأبلغني روس «إنه يريد تأجيل قول نعم حتى تزور إسرائيل». أما وقد اكتويت أكثر من مرة فإن هذا لا يكفي. واتصلت بشامير هاتفياً من جناحي بفندق بيننا وشكرته على رده الإيجابي، وقلت لكنني لن آتي إليكم ما لم تقل لي نعم الآن.

ووعد شامير بألا يصيبني بالإحباط لكنني لم آن. واحتج قائلاً لكن لدينا قلق يتعين مناقشته. مذيراً من جديد بعض التحفظات السابقة بأن العرب سيجدون طريقة لإقحام الأمم المتحدة بما يضر بإسرائيل. وطالب مني أيضاً إلغاء قرار دمغ الصهيونية بالعنصرية، في الأمم المتحدة. وأبلغته بأنني سأدرس النقاط التي أثارها وأعود للاتصال به عندما يسمح وقتي بالحديث. وكنت مستعداً لموافقته على بعضها لكنني لم أكن مستعداً للموافقة عليها كلها.

وبعد التشاور مع الرئيس عاودت الاتصال بشامير صباح اليوم التالي وتعهدت بأن تبذل الولايات المتحدة «جهوداً جادة» لإلغاء قرار دمغ الصهيونية بالعنصرية وطمأنته إلي أن الولايات المتحدة لن تسمح بأن تخلق الأمم المتحدة «عملية تنافسية» للمؤتمر. لكني رفضت رفضاً باتاً ما طلبه باستخدام الفيتو تلقائياً لمدة عامين في مجلس الأمن علي أي إجراء تعارضه إسرائيل. وقلت له لن آتي إلي إسرائيل للتفاوض علي هذه القضايا.

وقلت: «إنني أريد منك أن تكون قادراً علي أن تقف معي بعد اجتماع قصير لتقول نعم لمقترحاتنا بحل وسط. فلا تزال هناك قضية التمثيل الفلسطيني التي يتعين معالجتها. وما عليك إلا أن تقول نعم لاشيء سواها. والسر في هذا إنني أريد أن تظهر وأنت تقول «نعم» وتلقي التهمة علي الفلسطينيين».

وسادت لحظة صمت عابرة ثم في الساعة ٨,٤٠ مساءً قال شامير في صوت رقيق «لقد قررنا دخول عملية التفاوض وفقاً للاقتراح الأمريكي. لقد قبلناه وقلت: «السيد رئيس الوزراء هذا هائل إنني سعيد لسماع ذلك» وقلت له سأسعد بزيارتك في القدس اليوم التالي».



ووصلت حاملاً معي هدية من جورباتشوف أعلم أنها ستسر الإسرائيليين. ففي أول أيام قمة آب أغسطس أفضي لي جورباتشوف: «جيم بوسعك أن تبلغهم أن الاتحاد السوفيتي سوف يستأنف العلاقات الدبلوماسية معهم قبل انعقاد المؤتمر» وقد احتفظت بتلك الأنباء التي عرفتها وأبقيتها علي الكتمان لمدة أشهر لأكشف عنها النقاب في الوقت الملائم مع إعادة

التعليمات التى أعطيتها لشامير عبر الهاتف. كان اجتماعاً قصيراً نسبياً هو فى الحقيقة عكس التيار. لكن المسألة الحساسة المتعلقة بتمثيل الفلسطينيين لم تزل قائمة، وطلبت من شامير القبول بالتفاهم الأمريكى الذى قدمته للفلسطينيين بشأن المفاوضات المستقبلية حول القدس. وقلت: إننى لا أسألك التضحية بمبادئك. لكن أظهر لى قدراً من المرونة لإبلاغهم – أى الفلسطينيين أنهم لا يتخلون عن مطالبهم حتى قبل أن تبدأ المفاوضات. «وأبلغته بأن الأهم هو الإمساك عن التفاوض بشأن قضية التمثيل عبر الصحافة».

وفيما بعد التقيت أنا ورئيس الـــوزراء مع الصحفيين. وبدت لهجتــه رقيقة لكن هدوءه عكس غلياناً كان يعتمل فى داخله. فقد بدا شامير كما لو كان ثمرة بيرسيمون* بعـد تقشيرها.

وقد أفضى لى ذات مرة أنه يعتقد أنه سيكون رئيس الوزراء الذى يبدأ مباحثات السلام مع العرب لكن أحداً غيره هو الذى سيجنى ثمارها. وساورنى الشك فى أنه ما كان يتوقع مطلقاً أن تتحقق هذه البداية بسرعة بالغة. لكن ها هى الولايات المتحدة أوصلت جيران إسرائيل إلى صيغة لطالما سعت إليها على مدى أربعين عاماً. وهى المفاوضات المباشرة. ولم يكن أمامه خيار سوى قول نعم. كنت أعرف ذلك وقد قالها.

معركة تغليب الشكل على الجوهر

أخيراً الآن وبعد لأى استقرت التبعة على أكتاف طرف واحد «الفلسطينيون». وربما لأنهم يتمتعون بذكاء مفرط لفهم أن الزخم الذى لا يقاوَم والذى أُسِّسْتُ فى خلقه قد وصل إلى عتبة بابهم، كان الفلسطينيون أشد انفعالاً عندما التقينا فى الثانى من آب أغسطس. وأبلغنى الحسينى وعشراوى أنهما يخشيان الاغتيال بيد متطرفين يمينيين إسرائيليين، وقال الحسينى: «إنكم تتحدثون إلى رجل ميت. إننى على ثقة تامة من أن المتطرفين الإسرائيليين

* ثمرة صفراء اللون لشجرة ذو سبيروس واسم ذو سبيروس معرب من اللاتينية، وهذه الشجرة شجرة مثمرة والزينة من الفصيلة الأبنوسية وأنواعها متعددة يزرع معظمها فى المناطق الحارة. (المترجم).

سيقتلوننى ربما فى غضون أسبوع أو شهر أو شهرين لكنهم سينالون منى. فلا تدعونى أموت خالى الوفاض لاشىء فى جيبى» *.

وأثناء هذا الاجتماع الذى استغرق أربع ساعات قرأ علىّ رسالة عنيفة لاذعة من تونس، ولم آخذها مأخذ الجد. وقلت: آمل أن تكون الرسالة قد كتبت قبل الاجتماع. لكنها أضفت طابعاً مثيراً علي الضغوط التى يشعران بها صراحة.

ولم يكن لدى خيار سوي زيادة قلقهما بتذكيرهما بأنهم أصبحوا العقبة الأخيرة أمام عملية ربما تنهى احتلال إسرائيل للفلسطينيين يوما ما. وقلت لهما: «لقد قبل شامير لتوه شروطنا للعملية. وهي نفس الشروط التى قال فى رسالة إلي الرئيس إنه لن يقبلها. إننى لم أحصل علي موقفه النهائى، لأنه يستطيع الاحتماء بحقيقة عدم تشكيلنا لوفد مشترك». وفشلت محاولتى للضرب علي وتر المصلحة الذاتية فى تحريكهما. فلازالا مشغولين بقضية التمثيل وغير مستعدين لقبول أى حلول وسط. وأرادا من الولايات المتحدة تغيير سياستها طويلة الأمد المعارضة لإقامة دولة فلسطينية مستقلة. وعرضت عليهما خطاب ضمانات أشرت إلي أنه سيبدد قلقهما. وقلت: «ما يدور فى رأسى هو صيغة محتملة ستعيد تأكيد تأييدنا لحقوقكم السياسية المشروعة. وهي لا تتضمن دولة فلسطينية مستقلة منفصلة، ولكنها لا تستبعد حق تقرير المصير فى إطار كونفدرالية مع الأردن».

وحاولت إقناعهما بأن مختلف هذه البيانات والتطمينات والإيماءات التى اقتضت إعداداً مضنياً سيكون لها أثر كبير فى توضيح أنهما لم يتنازلا عن مطالبهما المتعلقة بالقدس قبل إجراء المفاوضات، وأن قضية القدس الشرقية ستدرج علي جدول الأعمال فى مرحلة ما. وقلت: «إذا أبلغتمانى أن هذا غير مستحسن بما يكفى. حينئذ أجد لزاماً علىّ أن أبلغكما بأن موقفكما يغلب الشكل علي الجوهر. وأن هذا الموقف لسوء الحظ قد ساهم فى خلق واستمرار

* بحثت موضوع حمايتهما لأن القلق ساورنى علي سلامتهما. ولن يقبل الفلسطينيون توفير حماية إسرائيلية من منطلق المبادئ والعزة؛ ولذا وبتوجيهات من الرئيس قامت المخابرات الأمريكية سراً بتدريب حراس شخصيين فلسطينيين علي المهام الأمنية. وطلبت من شامير أيضاً دراسة ما إذا كان بوسعه القبول بأى إجراء عبر قنوات المخابرات لتقليل المخاطر. وسارع بالرد بأنه سيبحث ما إذا كان بالوسع فعل أى شيء. ولسوء الحظ عندما تعرضت هذه الشراذم أمام عمدة بيت لحم إلياس فريج خلال اجتماع فى واشنطن طلب منى ألا أقلق. وقال: «إننا جميعاً نتلقى تهديدات علي مدار العشرين عاماً الأخيرة».

المأساة الفلسطينية. فبالله لا تدعا إسرائيل تتستر وراء المشكلة». ومع نهاية الاجتماع رجوت منهما شيئاً أخيراً وحيداً، أن يبلغا الصحفيين بأننا نحرز تقدماً، وقلت لهما: «لستما في حاجة إلي رواية أن التبعة ملقاة علي الفلسطينيين».

وأثرت نفس الحجج مع الملك حسين في وقت لاحق من اليوم في عمان. وطلبت منه استخدام قناته الخاصة مع إسرائيل ليقدم الأسماء الفلسطينية إلي شامير. وفي تلك المرحلة لا يمكن أن تكون هناك أي مفاجآت. وطمأنني بأن ذلك لو سيحدث بالفعل، ووافقت علي طلبه بالحصول علي خطاب ضمانات منفصل. وتوصلت إلي أن الملك بات علي الخط وبقوة أخيراً. وفي برقية ليلية أبلغت الرئيس: «حان الوقت لمحاولة تقديم المعونة مرة ثانية». ثم قمت بزيارة المغرب وتونس والجزائر، وحصلت على موافقتهم علي المشاركة في المباحثات متعددة الأطراف. وفي تونس تلقيت من الرئيس زين العابدين بن علي حمامة ضخمة تحمل غصن الزيتون، وقلت: دعونا نري إذا كان بوسعنا أن نجعل هذه الحمامة تطير. وعدت إلي واشنطن في ٥ آب أغسطس. كنت قد قطعت مسافة طويلة للغاية لدرجة أن أفراد الطاقم الأمني قالوا في المزاح بأنه كان يتعين عليهم ملء بطاقات التصويت الغيابي سلفاً*.

كابوس الضمانات المعقدة

بعد أحداث العام الماضي الخطيرة التي اضطرتني للقيام بجولة الأيام الثلاثة والعشرين في اثنتي عشرة دولة قطعت خلالها ٣٣,٧٦٩ ميلاً أحسست أن هناك مبرراً لقيامي بأجازة، وهكذا غادرت واشنطن في ٩ آب أغسطس علي أمل الاستمتاع ببعض الوقت للصيد في مزرعتي في ويومينج، وبعد عشرة أيام تعكر صفو الرحلة بسبب المحاولة الانقلابية ضد جورباتشوف من جانب المتشددين (نورد مزيداً من التفاصيل في الفصل القادم) مما اضطرني إلي العودة إلي واشنطن لعقد سلسلة من اللقاءات مع الرئيس ثم القيام بزيارة إلي

* في إحدي مراحل جولاتنا المطولة تلك بعث لي الويفتننت كولونيل دون جاكسون قائد طائرتنا بهذه المذكرة: «بموجب برنامج طيراننا المذكور يحق لك القيام برحلة ذهاب وإياب لاثنين بين واشنطن دي سي. وطراز الرجاء طلب هذا الطاقم»

بروكمل للمشاركة في اجتماع عاجل لوزراء خارجية حلف شمال الأطلنطي ثم زيارة الرئيس في مقر إقامته الصيفي بمسقط رأسه كينيبونكبورت بولاية مين لإجراء مزيد من المشاورات حول الانقلاب الفاشل وتداعياته.

وعندما عدت إلي ويوميتج في ٢٢ آب أغسطس كان لايزال من المتعين إنجاز أعمال حاسمة في عملية السلام برغم موافقة إسرائيل المشروطة. فلاتزال القضية الفلسطينية تمقيداً قاتلاً محتملاً. يأتي بعد هذا مسألة توفير غطاء دبلوماسي لكافة الأطراف لجعل مشاركتها في مؤتمر السلام أكثر قبولاً. وخلال مناقشاتي مع شامير في آيار مايو تعهدت بأن تقدم الولايات المتحدة خطاباً إضافياً يتضمن التزامات وتفاهم مفصل. وبدون مفاجآت سارعت إسرائيل علي الفور بتسريب تلك الأنباء إلي الصحافة. وبسرعة بالغة ردت الأردن وسوريا والفلسطينيون بطلبات للحصول علي خطابات ضمانات خاصة بهم. وبهدف إحداث نوع من التوازن لم يكن هناك بد من تقديمها. وهكذا بدأ شهران من المساومات الشاقة مع كل من هذه الأطراف لإعداد تلك الخطابات.

وأثبت هذا أنه تجربة تثير النقمة كمحاولة للسير في حقل ألغام ضخم. وأراد كل طرف من المشاركين صياغة محددة تهدد مخاوفه. ويقيناً فإن الصياغة التي ستطمئن واحدا منهم سوف تثير غضب الآخر. ومنذ البداية حاولت تقليل التشاحن لأدني حد بمراعاة ثلاث حقائق مطلقة: أن كل الأطراف الأخري ستطلع علي البنود الواردة في كل خطاب – إن السياسة الأمريكية أو صلاحيات المؤتمر لا يمكن تغييرها بواسطة أي صياغة. «وسيكفل هذا ألا نقع في نفس حجر الضمانات السرية المتضاربة كما سبق وحدث مع بعض أسلافي». وأثار ضيقي إلي حد كبير تجاهل تلك المعايير أثناء التفاوض علي بنود الخطابات. وحاولوا جميعاً بشكل دائم – دون نجاح – انتزاع التزامات سياسية أمريكية جديدة من خلال تلك الخطابات.

وتطلب وضع صياغة عامة يمكن أن تقبلها كافة الأطراف، وإقناعهم جميعاً بأن تسريب محتوي الخطابات ينذر بكارثة – وتطلب هذا مهارة خارقة علي أرفع مستوي، وكم من مرة أوشك صبري علي النفاد بسبب محاولة محاور أو آخر الحصول علي مكافأة

دبلوماسية بإيلاء إعتبار اضافى قليل من شأنه الإضرار بالتوازن اللغوى الدقيق للصياغة. وفى النهاية وفرت هذه الخطابات الدفعة النفسية بتشجيع كافة الأطراف مما أتاح انعقاد المؤتمر من وجهة نظرى.

❑ ❑ ❑

ومع منتصف أيلول وبعد مشاورات مهمة مع كافة الأطراف قام بها خبراء وزارة الخارجية تم إعداد مسودات خطابات الضمانات. وقبل أن يتسنى لنا توجيه دعوات لانعقاد المؤتمر، كان من المتعين علينا التفاوض حول القبول الرسمى لكل خطاب. وأردت أن أعرض مسودة خطاب الدعوة لا التفاوض عليه حتي لا يفاجأ أحد بمحتواه. ولازالت قضية التمثيل مطروحة بسبب عناد منظمة التحرير الفلسطينية فى المقام الأول. وأمّلت فى أن تساهم جولتى الثالثة فى الشرق الأوسط خلال شهرين، والتى بدأت فى القدس فى ١٦ أيلول سبتمبر عقب زيارات للمكسيك والتحول المفاجئ فى الاتحاد السوفيتى، فى إزالة ما تبقي من عقبات وإفساح الطريق أمام انعقاد المؤتمر. ومرة أخري لم تكن هذه هي المرة الأولي التى يكون فيها تفاؤلى تجاه عملية السلام فى غير محله.

وجاء اجتماعى مع شامير هادئاً علي غير توقع. وقد أبدي الإسرائيليون بعض القلق من خطاب الضمانات. لكن تولد لدى الآن إحساس بأن عقبة شامير باتت أقل بكثير عن عقبة مستشاريه العسكريين مثل ميشا أرينز ويوسى بن أهارون. وخلال تلك المناقشات تطور نمط أصبحت الاعتراضات تثار من خلاله فى بعض الأحيان من جانب بعض المعاونين مثل ايلى روبنشتاين ويوسى بن أهارون. وفى إحدي المراحل قاطعت الحديث لأقول: «إننى لا أريد سماع هذا الكلام من المعاونين. بل أريد سماع تلك الاعتراضات من رئيس الحكومة بموجب الدستور. فبوسع رئيس الوزراء أن يعبر عن نفسه». وكما توقعت لم يكن شامير يشاركهم كل تلك الاعتراضات.

أما اجتماعى مع الفلسطينيين بمقر إقامة قنصل عام الولايات المتحدة مساء ذلك اليوم فقد اتسم بالصعوبة كالمتوقع. وفى تعبير مجازى غير مقصود عن الهوة التى تفصل بيننا، تناول الوفدان طعامهما فى مكانين متباعدين منفصلين بالقاعة مما يعكس مدي الإحباط.

فقد ظلوا علي جمودهم خلال الأسابيع الستة التي انقضت علي آخر اجتماع معهم عاجزين عن التحلي بالعزيمة السياسية للتحرك قدماً. فلم يحُرزْ أي تقدم تجاه تشكيل الوفد المشترك مع الأردن. وبسبب ترويع تونس «أي منظمة التحرير» لم يبدأ الفلسطينيون في التفاوض مع الملك حسين. وأردت أن يوقنوا أن أداءهم يصيبني شخصيا بالإحباط وقد بدأ صبري ينفد سريعا تجاهه.

وقلت: « لقد حان الوقت للكف عن الحديث عن العمل ليتم الشروع فيه. إنكم تتعرضون لخطر إهدار أفضل فرصة تلوح أمامكم حتي الآن لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي». .

إنني – عفوا لفرنسيتي أدير ظهري لكم، وإنني في غاية الإحباط لأن جهودنا لم تسفر ولو عن أبسط دليل علي انكم تتخذون ما نطلبه منكم – أي البدء في اتصالات مع الأردن حول الوفد المشترك.

وسلمتهم رسالة من الرئيس تتضمن اثنتي عشرة ضمانة بما في ذلك صيغةخاصة عن القدس كنت قد وعدتهم بها من قبل. وقلت: « هذا هو أفضل ما يمكننا عرضه. وهو أفضل مانلتموه حتي الآن وأفضل ما تحصلون عليه – في اعتقادي قبل إجراء أي مفاوضات.»



وفي صباح اليوم التالي وعقب اجتماع مثير للجدل مع شامير وكبار مساعديه أخفق في تسوية خلافاتنا حول المستوطنات وضمانات القروض غادرت الي القاهرة حيث وجدت مبارك علي صموده المعتاد. وأطلعني علي جهوده لإقناع منظمة التحرير الفلسطينية بالكف عن عرقلة الفلسطينيين. واجتمعت قبل توجهي إلي دمشق مع الأمير بندرحيث أبلغني أن السعوديين تلقوا تقارير استخبارية بان صدام حسين قد تيقن من خسارة كل شيء ويفكر في الانسحاب – لكن ليس قبل أن يشفي غليله بالانتقام من المملكة. وساور القلق السعوديين من أنه ربما يستطيع شن هجوم أخير بثلاث أو أربع صواريخ سكود مزوده برؤوس كيماوية. وقال بندر، « آمل أن تتدخل وسائل استطلاعكم بما يكفي لتعطينا إنذارا مبكراً». ورددت بإننا نراقب

القدرات العسكرية لصدام عن كثب، وسوف نبلغ السعوديين.. لكني كنت أعتقد أنه من غير المرجح أن يقدم صدام علي الإنتحار. ومع هذا شعر بندر بالارتياح عندما سمع أن الرئيس وافق علي طلب سابق بالحصول علي صواريخ باترويت إضافية. ووعدت بأن صواريخ باترويت ستأخذ طريقها الي المملكة من الكويت غدا.

كان اجتماعي مع الأسد بعد ظهر اليوم التالي اجتماعا مطولا استغرق ست ساعات. وقلت له: «إن أكبر عقبه الآن هي عجز الفلسطينيين عن عمل أي شيء». وطلبت منه توجيه مبادرة إلي الفلسطينيين ومنظمه التحرير الفلسطينية في تونس «بأنهم إذا لم يتحركوا معكم فربما نتحرك بدونهم مع الملك حسين.» ثم سلمت الأسد مسودة خطاب ضمانات يتضمن ثماني نقاط تفاهم محددة نصت النقطة السادسة علي إعادة تأكيد معارضة الولايات المتحدة مجددا للمستوطنات.

وفي هذه النقطة ثار نزاع جديد حول رسالة الرئيس فورد عام١٩٧٥ حول الجولان. وكان شامير يصر علي أن تعيد الولايات المتحدة التأكيد علي تعهد فورد علي « إيلاء ثقل كبير » لرأي إسرائيل بأن أي معاهدة سلام إسرائيلية سورية ، يجب أن تستند الي وجود إسرائيل في الجولان. وأبدي الأسد رأيا قاتما تجاه هذا التعهد قائلا: إنه يتناقض مع وعود الرئيس بوش الواردة في رسالته المؤرخة ٣١ أيار مايو للأسد. وشكا قائلا: «إنها رسالة بالغة الغرابة. هل يمكننا أن نعطي حق التنازل عن أراضينا.؟».

وقلت: إن عرض الرئيس بوش بالضمانات الأمنية هو في حقيقة الأمر دليل نهائي علي «إيلاء ثقل كبير» لرأي إسرائيل وفي الوقت ذاته قدم فرصة لسوريا للتفاوض مع إسرائيل حول إعادة الجولان. ويبدو أن الأسد قد راوغ أمام منطق هذا الموقف فلم يظهر قبولاً أو رفضاً عن عمد. وتبددت آمالي في ضمان موافقته علي الخطاب قبل مغادرتي إلي عمان سريعاً، واتفقنا علي العودة إلي الاجتماع في غضون يومين قبيل عودتي إلي واشنطن.

وأثناء زيارتي للأردن في ١٩ أيلول سبتمبر التقاه الملك حسين ألححت علي عقد اجتماع مع الفلسطينيين في عمان لإظهار بادرة رمزية مثيرة بأن هناك تحركاً جارياً باتجاه تشكيل وفد أردني فلسطيني مشترك. وطلبت من مبارك أن يضغط علي منظمة التحرير لعدم عرقلة

الاجتماع وعلي شامير ليسهل سفر حنان عشراوى من رام الله عبر الضفة الغربية إلي عمان. وحتي للحظة التى أيقظنى فيها وزير الخارجية الأردنى حينذاك طاهر المصرى فى الساعة الثالثة صباحاً، كنت أعتقد أن الاجتماع لن يتم. وكنت أعرف أن الإسرائيليين لا يحبون عشراوى بسبب علاقاتها مع فتح. غير أن مصلحتهم فى تشكيل وفد مشترك تغلبت علي شكوكهم حول تطرفها.

ومع ذلك كانت عشراوى الصلبة الشجاعة التى تتحلي بالكبرياء والمتشددة أحياناً واضحة وحاسمة فى عرض رأيها بشكل استثنائى. وأكبرتها بفطرتي. وعندما لا تندمن بشراهة فإنها تتحدث الإنجليزية بطلاقة. وفى البداية كانت هي مترجم فيصل الحسينى لكن مع مرور الوقت أصبحت تضطلع بدور أكثر أهمية فى الوفد، وفى النهاية أصبحت المتحدث باسم الفلسطينيين. وكفلسطينية مسيحية بدت عشراوى مشحونة بغضب خاص من ادعاءات الإسرائيليين بأن الأراضى هي أرض الميعاد. وقالت: إن أجدادها قطنوا تلك الأراضى لقرون وهم أتباع المسيح.

وسلمت عشراوى مسودة خطاب الضمانات، وذكرتها بأن الشلل الفلسطيني يشكل أخطر تهديد لفشل العملية. ولو بقيّ الفلسطينيون خارجها فإنهم يقامرون بأن يظلوا علي الهامش، وتوقعت أن العرب لن يشاركوا مطلقاً فى المؤتمر بدون الفلسطينيين. وكنت متيقناً من أنها علي خطأ. وقلت: «إننا لا نفضل الحلول الجزئية. ولكننا سنحصل علي ما يمكننا فبعض التقدم أفضل من لاشيء». وجاء دورنا لتوجيه رسالة بأن الوقت مهيأ لاتخاذ قرار. وأشارت قائلة طالما أعجبنى ثباتكم ومثابرتكم فى معالجة قضية فشل كثيرون فى حلها.

وثَمَنْتُ إطراءها وتساءلت عما إذا كانت الأيديولوجية الراسخة لشعبها ستؤدى إلي فشل جهودى. وذكرتها برقة فى الختام أنه لو تسرب محتوي الرسالة التى بحوزتها إلي الصحافة تكون العملية قد ماتت ويوسعي الذهاب للصيد. وقالت فى ابتسامة رقيقة تفصح – ليس للمرة الأولي– عن روح الدعابة: «ربما كانت تلك نتيجة أفضل ، السيد الوزير».

عقبة سورية أخرى علي الطريق

فى ٢٠ أيلول سبتمبر وصلت إلي دمشق فى تمام الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة صباحاً. وفى الطريق من المطار إلي دمشق أثار الشرع مشكلة جديدة. وقال: إن الأسد يشعر بخيبة أمل تجاه خطاب الضمانات. ولم يسرنى سماع ذلك. وتواصلت المفاوضات فى اجتماع مطول آخر استغرق نحو خمس ساعات.

وقلت: لقد أزعجنى أن أسمع أن الشرع يروج لفكرة أن الولايات المتحدة أعدت خطاب الضمانات لسوريامع الإسرائيليين. وأوضحت: «لقد قلت إننا لم نطلع أى طرف علي رسالة الضمانات الخاصة بالطرف الأخر. إننى أقول الحقيقة. فمن المهم للغاية أن تكون كلمتى حقيقية» ودافع الأسد عن الشرع وحاول تهدئتى. وقال:«إن الوزير لم يقل إنكم عملتم مع الإسرائيليين فى كتابة الخطاب. إنه يعنى أنه كان للإسرائيليين دور محدد لا أعرفه».

وبوضوح: فقد أراد الأسد إلزامى جانب الدفاع منذ البداية. وادعي أنه ظل حتي منتصف الليل يقرأ التقارير الإخبارية المتعلقة بخطاب الضمانات الإسرائيلى. وكلما أوغل فى القراءة كلما قلت فرحته. وفى رأيه الخاطئ أن الخطاب دمر صلاحيات المؤتمر. وهو شيء طمأنته بأن لن يتم السماح بحدوثه.

وقال الأسد: «إن هذا يعنى أننا نعود إلي المربع رقم واحد، وأننا نهدر وقتنا. إن الضمانات التى أعطيت لإسرائيل تدمر التقدم الذى نعتقد أننا أحرزناه كما تدمر كافة اتصالاتنا السابقة مع الولايات المتحدة».

وقلت: «أشعر بالأسف بسبب شعورك هذا». وحول اهتمامه إلي مسودة خطاب الدعوة الذى عرضته عليه موحياً بأنه لم تفته أدق التفاصيل. وأبدي اعتراضه علي فقرة تصف المفاوضات «بأنها مباشرة، وجهاً لوجه» وقال: «إنها مباشرة، ألا يكفى هذا؟».

وقلت مازحاً: «إن وجهاً لوجه أفضل بالقطع من ظهر لظهر» وقال: «لا ينقص إلا أن تقول.... «ابتسامة» وقلت: «حسناً سأقبل » ولم يستغرب. وفاجأنى بالقول «لا، لا أريد «ابتسامة» ووافقت علي هذا الإسقاط.

وما لبث أن وضع الأسد عقبة إجرائية جديدة، وقال: «لقد فوجئت تماماً بأن هناك لجاناً متعددة الأطراف تعمل لبحث القضايا الإقليمية بينما أراضينا لاتزال محتلة.» وقلت له: إنني بصراحة أشعر بالصدمة لأنه يريد أن يرهن عمل هذه اللجان بقضية ربما يحتاج حلها لعدة عقود.

ورد الأسد قائلاً: «كيف يمكننا بحث التعاون الاقتصادي بينما حالة الحرب لاتزال قائمة؟ فلم يحدث هذا مطلقاً منذ بدء التاريخ. فإذا أراد أحد أن يبحث التعاون الاقتصادي مع إسرائيل فليفعل. فسوف تحاسب الجماهير هذا الشخص».

وذَكَّرْتُ الأسد بأنه وأنا تطرقنا عدة مرات لهذا الموضوع. وبرغم أننا بحثنا الجدوى على مدار ساعة كان من الواضح أن هناك خلافاً جذرياً حول هذه النقطة. وكنت أعتقد أن المباحثات متعددة الأطراف حول حقوق المياه واللاجئين والتنمية الاقتصادية ستكمل عملية السلام بتحسين الأجواء وتهيئة أرضية مشتركة بين كافة الأعداء القدامى. ومع هذا أراد الأسد أن تنص الدعوة على أن المفاوضات متعددة الأطراف لن تبدأ إلا بعد انتهاء «المفاوضات الثنائية بنجاح». وهي صيغة تستغرق سنوات. وقلت للأسد: لك مطلق الحرية في عدم المشاركة في المفاوضات المتعددة الأطراف ووافقت على بحث صياغة وسط في هذا الصدد بألا تبدأ المباحثات المتعددة الأطراف إلا بعد «إحراز تقدم جوهري». وبالمقابل طلبت اختصار موعد بدء المباحثات الثنائية ليومين بعد انتهاء مراسم الافتتاح بدلاً من خمسة أو سبعة أيام. ووافقنا على دراسة هذه التحويلات ومعاودة الاجتماع في غضون أسابيع قلائل. وفيما نحن نختتم المباحثات أردت أن يعترف الأسد بأن قاعدة التقادم الضمنية تسري على مساوماته وقلت: «تذكر في النهاية أن هذه دعوتنا. وفي مرحلة ما سوف نرجهها بغض النظر عن الاعتراضات السورية».

وخلصت إلي أن موقف الأسد رغم أنه يستند إلي آرائه القديمة لا يعدو أن يكون مجرد مناورة أكثر منه موقفاً مبدئياً. كان الأسد يجس النبض ليرى ماذا قد يستطيع أن ينتزعه مني. كما أنه يبدي رغبته في رهن كافة الاعتبارات الأخرى على وضع مفاوضاته مع إسرائيل وبرغم هذا توقعت في برقية أرسلتها إلي الرئيس بأن الأسد سوف يحضر المؤتمر. «أعتقد حقاً أن وسيلتنا مع كافة الأطراف حتى الآن هي الدعوة... فهذا هو الشيء الوحيد

الذي سيجبر علي اتخاذ قرارات ويضع الجميع في موقف يتعين عليهم فيه قول لا أو نعم. ولا أحد يريد قول لا». لكن الوقت يمر أمام عقد المؤتمر في تشرين الأول أكتوبر. إن القلق يساورني مثل مبارك من أن العملية بدأت لا تحتمل أي تأخير. وكنت أدرك علي مضض أنه لا يمكن تفادي جولة أخري للمنطقة.

ختام الأغنية

وفي ساعة متأخرة مساء السبت ١٢ تشرين الأول أكتوبر غادرت واشنطن في طريقي إلي الشرق الأوسط في رابع زيارة لي للمنطقة في غضون عدة أشهر. فقد قرر الرئيس ضرورة توجيه دعوات عقد المؤتمر يوم الجمعة التالي عندما ألتقي بترتيب مسبق مع بوريس بانكين وزير الخارجية السوفيتي الجديد في إسرائيل. ومنذ وقت طويل بدأت في الاعتقاد بأنه كلما سويت نقطتان مثار خلاف ثارت محلهما خمس نقاط. وبشكل متزايد كانت المفاجآت تنتظرني عند كل منحني. فإن يتكفل بإسكات أولئك الذين يناورون لتأجيل للعملية أو إجهاضها سوي واقع مؤكد بتوجيه دعوة عامة. ولم يكن أمامي سوي ستة أيام لإنهاء دبلوماسيتي المكوكية بالتوقف في القاهرة وعمان ودمشق والقدس، وفي تلك اللحظة كنت أعتقد أننا في الجولة النهائية. لكن بعد ثلاثة أشهر من الرسالة التي وافق فيها الأسد علي المشاركة فلاتزال مشاركته غير مؤكدة. ولاتزال العقدة المستعصية للتمثيل الفلسطيني تلقي ظلالاً من عدم اليقين علي احتمالات تحقيق انفراجة تاريخية.

وسبق هذه الزيارة ثلاثة أسابيع من الدبلوماسية المكثفة بهدف تضييق هذه الخلافات بين الأطراف حول خطابات الضمانات. ولعل أهم تلك الجهود اجتماعي مع الشرع في جناحي بفندق والدورف ستوريا في نيويورك علي هامش دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة. وسرعان ما تحول إلي اجتماع غير سار بالمرة عندما سلمني مسودة لاتتشابه إلا في القليل مع النسخةالأمريكية التي تركتها في دمشق في ٢٠ أيلول سبتمبر. والأسوأ تضمنت مسودة الخطاب عدة نقاط تفاهم تمثل تغييراً مهماً في السياسة الأمريكية حول عدد من القضايا الحرجة. ونقطة نقطة شرعت في رفض صياغة الأسد لتناقضها مع هدف

الضمانات وقلت: «فاروق. بصراحة إن القلق ينتابني تجاه حسن نواياكم. لكنكم تغيرون القواعد الأساسية».

وقال الشرع: «إن تلك المطالب تتفق مع سياستكم» وفي تلك اللحظة كان قد استنفد قدرتي على التسامح وانفجرت أضرب الطاولة بيدي: «لاتبلغني عما تكون سياستنا. إن سياستنا ليست تقرير المصير للفلسطينيين لقد تطرقت لذلك معك من قبل. وقلت لك إننا لن نغير سياستنا تجاه القرار رقم ٢٤٢ من أجل إسرائيل، وكذلك لن تغير سياستنا تجاه القرار رقم ٢٤٢ من أجلكم».

وفيما تواصل طرقي على المنضدة تلاشت فجأة شهية الشرع لإجراء حوار إضافي. وأوضح قائلاً: «إنك تصيبني بالسأم» ورددت إنني لا أقصد إصابتك بالسأم لكن حينما تحاول أن تضع الكلمات في فمي فهذا يصيبني بالجنون.

ويوم السبت ١٢ تشرين الأول أكتوبر بدأت جولتي الثامنة في الشرق الأوسط في غضون أقل من عام بالتوجه إلي القاهرة وعمان. كانت رسائلي إلي مبارك والملك حسين متطابقة والتمست معاونتهما في تشكيل الوفد في موعد لقائي مع شامير. كنت في حاجة لقائمة الأسماء. «أسماء لا تجلب المشاكل وكنت في حاجة لأعرف أيضاً أن يعرف الفلسطينيون أنه إذا أعلنت منظمة التحرير الفلسطينية الأسماء فقد انتهت العملية. وينبغي إبلاغ الأسد بأنه يجب أن يشارك في المؤتمر حتي لو لم يشارك في المباحثات المتعددة الأطراف. وطلبت معروفا إضافياً من الملك، كان مطلباً حساساً. لقد حثثته في لقاء خاص أن ينقل قائمة الأسماء عبر وسائله الخاصة حتي يطمئن شامير لعدم وجود مفاجآت. وأكدت «أنتم الشخص الوحيد الذي بمكنه عمل ذلك. إنه سيثق فيكم بقدر أكبر منا حول هذه المسألة. لا أريد منكم أكثر من هذا. إن هذا هو مفتاح العملية برمتها». ووافق علي تقديم المساعدة وشعر بالارتياح عندما تيقن أنني أتابع جاهداً طلبه العاجل بشراء طراز متقدم لنظام متطور مضاد للصواريخ لطائرته الخاصة.

وطمأنني الزعيمان أنه رغم مظاهرة الردة فإن الأسد والفلسطينيين اتخذوا بالفعل قرارا أساسياً بالمشاركة. وفي الوقت الذي لم أشاطر مبارك وحسين ثقتهما فإنني كنت أعتقد أنني

فى وضع جيد وأدرك أن الفلسطينيين لا يريدون العملية فحسب، بل يروعهم لدرجة الموت أن يتم تحميلهم مسئولية الفشل. وفى تلك الليلة كتبت للرئيس: «إننى فى سبيلى للمضى قدماً. إننى فى طريقى لأوضح أننا نقترب من نهاية الطريق. فإما أن ندع هذه العملية تؤتى ثمارها الآن أو فإننى سأنسحب منها محدداً الطرف المسؤول عن الفشل».

محاولة أخيرة مع الأسد المتمترس

في الساعة ١٢,٤٥ دقيقة يوم الخامس عشر من تشرين الأول أكتوبر زرت الأسد علي أمل تسوية بقية خلافاتنا. بدأ الاجتماع بود كبير مع تأكيد الأسد لحساسياته وحديث عن عملية التأكيد لكبار مسئولي الحكومة الأمريكية. ونوهت بشكل مرتجل إلي أن احتمال الصعوبة فى تلك المسائل عادة ما يرتبط بأهمية الموقف. ورددت: «كلما قفز القرد لأعلي كلما استطاع المرء أن يري خلفيته أكثر» وابتسم الأسد وقال: معك حق.

وسرعان ما حل الملل عندما عرض الأسد أربعة عشرة تعديلاً أراد إدخالها علي خطاب الضمانات. وانصب أهمها علي المباحثات متعددة الأطراف. وعرضت عليه صياغة جديدة تهدف إلي إزالة خلافاتنا. وتدعو الصياغة الجديدة المشاركين إلي الاجتماع لترتيب عقد المباحثات المتعددة الأطراف فى غضون أسبوعين لا البدء فيها بالفعل. وعندما واصلنا محادثاتنا مساء ذلك اليوم بعد استراحة لخمس ساعات رفض الأسد الفكرة. كان يريد النص علي أن المباحثات المتعددة الأطراف لن تبدأ إلا بعد أن «تنهى المباحثات الثنائية أعمالها بنجاح» وكنت أعى أن هذه وصفة لتأجيل العملية لأجل غير مسمي. وسعيت لحل وسط آخر: سيتم النص علي أن السوريين غير ملزمين بالمشاركة عن طريق تعديل الصياغة من «الأطراف» إلي تلك الأطراف التى ستشارك فى المفاوضات متعددة الأطراف.

وقال الأسد: «لا أريد أن أدخل حقل الألغام هذا. فهو حقل لا تجدى معه كاسحات الألغام إننا فى سوريا لا يمكن أن نوافق علي شيء من هذا القبيل ما لم يكن لدينا شيء ملموس نقدمه لشعبنا. لا يمكننى أن أتحرك خطوة واحدة فى هذا الاتجاه».

وقلت «إنني لا أطلب منك شيئاً».

«لا يمكنني حتي التحرك بمجرد الكلمات. لا يمكنني حتي أن أقول إنني موافق. فلو فعلت هذا فإنني مسؤول أمام شعبي». وأحسست أن الوضع آخذ في التدهور وأكد الأسد شكوكي بإنهاء الحوار. وقال: «إننا الآن في المربع رقم واحد. لا يمكننا التحرك وفقاً لهذه الشروط. وعلي أية حال إننا ندفعك للنوم». ولم أكن شديد التيقظ في تلك اللحظة فحسب بل كنت استشيط غضباً.

وقلت في الختام: «لقد علمت أشياء عن العقلية العربية في معالجة عملية السلام. فعلي عكس الغربيين فأنتم العرب لا تسلكون طريقاً ما لم تعرفون إلي أين يفضي. لكن إذا لم نسلك هذا الطريق فلن نصل إلي النهاية مطلقاً أو إلي مكان ما في هذه النقطة».

وعدت إلي جناحي بالفندق وبدلت ملابس وارتديت الروب وجمعت فريق العاملين في الساعة ١,٣٠ بعد منتصف الليل حول مائدة الطعام في جناحي بفندق شيراتون. وشكوت قائلاً: «إن التعامل مع هذا الرجل يشبه خلع الضرس. لاشيء سهل. فالمرء يعتقد أنه توصل إلي اتفاق ثم ما يلبث أن يظهر شيء آخر في حاجة دائماً لتثبيته».

وكنا نشك في أن السوريين زرعوا أجهزة تنصت لذا خفضت صوتي. وأشرت بيدي «كما لو كنت أمارس أسلوب التصيد» إننا سنستسلم في هذه النقطة إذا اضطررنا. علينا أن نلزم الأسد بهذه العملية إذا كان لنا أن نحقق النجاح وهذا هو ما سنفعله. وقلت لهم: لو اقتضى الأمر سوف نستسلم في قضية المباحثات المتعددة الأطراف، وسوف تصاب إسرائيل بالإحباط. لكنني أحسست أن شامير لن يترك العملية بسبب المتعددة الأطراف إذا وافقت سوريا علي لقاء إسرائيل وجهاً لوجه.

ونوهت في برقيتي إلي الرئيس إلي أن الأسد فشل في تفهم أن المتعددة الأطراف يمكن أن تشجع علي انتزاع تنازلات ملموسة بتوضيح أن العرب مستعدون للتعامل معهم كشركاء إقليميين. وكتبت في البرقية: «إن بعض تلك الحقائق لم تغير رأي الأسد. ببساطة، إنه يريد باستمرار عزل إسرائيل، وتوضيح أنه لن تكون هناك جوائز إقليمية حتي ينسحب الإسرائيليون

من الجولان. إن ضعفه لا قوته هو الذي يدفعه لمعارضة أي مباحثات متعددة الأطراف، خاصة لأنه يخشي أن العرب الآخرين سيبدأون في التوصل لاتفاقات، ومن ثم تتراجع حاجة ودوافع إسرائيل في الاستجابة له».

«وكما تري فقد عشت يوماً ملتوياً آخر في الشرق الأوسط. إنني لا أعتزم المضي لفترة أطول». واختتمت البرقية بتفسير شخصي طالما مزح الرئيس معي لسنوات حول ضرورة الأبعاد المضجرة للسياسة حتي وإن كانت عرضية مستخدماً كمثاله الخاص مؤتمرات الجمهوريين أيام الشباب، وأردت أن يعرف صديقي (الرئيس) مدي عذاب ثماني ساعات من المصارعة مع الأسد. وكتبت بخط يد متمكن «إن هذا ممتع تقريباً مثل مؤتمرك أثناء الشباب» كانت تلك مذكرة دبلوماسية أعرف أنها لا تحتاج لترجمة خبير.



وصباح اليوم التالي عكف العاملون معي جاهدين علي الانتهاء من صياغة مسودة خطاب ضمانات آخر وخطاب دعوة أملاً في أن يرضي الأسد حول المباحثات المتعددة الأطراف. وفشلت كل جهودهم في الحديث معي حول التضحية بالمتعددة. وقبل أن أعود للاجتماع مع الأسد قلت: «علينا أن نكون مستعدين للعمل بهمة ونشاط». وبعد قدر ملحوظ من الجدل اعتبرته غير ضروري حول الصياغة بدأ الأسد يرهقني.

وقلت: «سوف أعطيك شيئاً ما حول قضية الخطاب الفلسطيني» وفجأة وعلي غير توقع ألح عليّ شيء ما نتيجة لسياسة حافة الهاوية التي يمارسها الأسد وأسلوب الاجهاد الجسدي الذي تسبب في نوبات دوار خلال جولاتي المكوكية فلم يكن الغضب ينتابني فقط لمجرد الأثر. وقلت: «إنه خطاب جيد. فإذا لم يرق لك ما نفعله وتري أن بوسعك استعادة الجولان «بدون الجلوس مع إسرائيل فلتمض قدماً واستعدها».

ولم يتأثر الأسد بانفجاري ورد قائلاً: «إنك لا تفعل هذا من أجلنا في المقام الأول بل لمصلحتكم» وقلت: «نعم لكنه في مصلحة شعوب المنطقة، وكل ما يسعنا عمله أن نكون محفزاً لا يمكننا فرض شيء. هناك أشياء يمكننا عملها وأخري لا يمكننا عملها».

وأخذنا استراحة قصيرة حتي يتمكن الأسد من قراءة خطاب الدعوة. وخلالها ألح عليّ الأسد في إضافة فقرة إلي خطاب الضمانات تقول: «إن القدس جزء من الأراضي المحتلة». كان يعرف أن تلك سياسة أمريكية قديمة. وكان يعرف أيضاً أن هذه صياغة ملتهبة بدرجة قد يدفع إدراجها إسرائيل لرفض المشاركة في المؤتمر.

وقلت محتجاً: «إنك تطلب مني أكثر مما يطلب الفلسطينيون لا أعتقد أن هذا مناسب. إنكم تدفعوننا لمدي بعيد للغاية. ربما لا تشاركون في العملية. لا أريد منكم أن تقدموا لإسرائيل أي سبب لعدم المشاركة وربما فعلتم».

ولدي عودة الأسد. أعدت عرض فكرتي. وقلت: هذا أفضل ما يمكن أن أفعله. واستمر الأسد علي موقفه متمسكاً بالمراوغة التي دفعتني إلي حافة انفجار ثان.

ومال الوزير محمد قدور علي الأسد، وحذره بالعربية لتأخذ حذرك إنه غاضب حقيقة وبدا الأسد مرتبكاً. وتساءل: لماذا هو غاضب؟ إننا نتفاوض. وحينئذ تلاقت أعيننا وبدا أنه أدرك إنه وصل إلي نقطة غير صحيحة بالتأكيد.

وفجأة أفضي الأسد بالكلمات التي تقت لسماعها: «إننا نوافق علي خطاب الضمانات، واعتقد أن هذا يحل القضايا». ومرر دينيس روس مذكرة لي: «خذ النقود واهرب». فلنخرج من هنا، ولم يثر الأسد قضية المباحثات المتعددة الأطراف فيما يستعصي علي التفسير.

فض السوق الفلسطيني

وتوجهت من دمشق إلي تل أبيب جواً واجتمعت مع الفلسطينيين بعيد الساعة الثامنة مساء بالتوقيت المحلي. وأخيراً وبعد لأي تم إحراز تقدم. فقد التقي الفلسطينيون في عمان وشرعوا في اختيار أسماء الوفد ونشرت الصحافة الأردنية قائمة بأسماء عشرين مرشحاً وطمأنني الفلسطينيون بأنهم يعملون لإعداد قائمة بالأسماء المقبولة. ثم، ومن دون توقع

أعادوا فتح موضوع القدس طالبين الحصول علي تنازل مستحيل. وسببت عدة شهور من الإحباط مقرونة بالإجهاد في صدور رد فعل عاطفي محض لا حساب تكتيكي.

وانفجرت قائلاً:«كم مرة فتحنا فيها هذا الموضوع. إنني سئمت وتعبت من هذا معكم. فإن السوق لا تغلق أبداً لقد نلتها أتمني لكم حياة سعيدة».

ونهضت وسرت خارجاً من الغرفة باتجاه غرفة الضيوف بخلفية مقر الإقامة. ومن عادتي أن أسرع الخطي في مناسبتين: عندما يتاح لي وقت حر علي غير توقع، وعندما استشيط غضباً، وقد اجتمعنا في هذه الحالة وذكرني دينيس روس عندما قابلني بعد خمس دقائق، بأنني كنت أسرع الخطي وأهمهم بكلمة «هؤلاء الناس. هؤلاء الناس». وطلب منه الفلسطينيون تهدئتي. وأبلغهم روس أنني لن أهدأ مطلقاً ما لم يتخلوا عن مطالبهم الجديد. ووافقوا علي الفور، وعندما أبلغني بهذا هدأ روعي. واقترحت «أن نبقي بضع دقائق قبل أن نعود». وأردت تأجيج قلقهم، ولذا فقد تأخرت لربع ساعة.

ولدي عودتي كانوا قد استوعبوا الرسالة. وقال الحسيني: «أعتقد أن بوسعنا الحصول علي الأسماء لنقدمها لكم مساء غد أو صباح الجمعة» وقلت: إذا كان من شأن ذلك المساعدة فسوف أراها للمرة الأولي في القدس الشرقية في بادرة احترام لشجاعتهم.

وأبلغت الرئيس: «أعتقد أن احتمالاتنا تزدهر فلازلت في حاجة للحصول علي الأسماء من الفلسطينيين، وقد علمت أنه لا يمكن للمرء أن يصبح ثرياً لو تآمر عليهم. ولازلت أعتقد أننا أحرزنا تقدماً كافياً اليوم لنقترب من النهاية للغاية».

وعلي النقيض كان اجتماعي مع شامير في صباح اليوم التالي نموذجاً للوضوح والود. ومع ذلك كان الاسرائيليون قبل الأسد لايزالون يصلون في الهامش ينقصون أي شيء آخر يمكن أن ينتزعوه مني. وخلال المفاوضات السابقة طلب المفاوضون الإسرائيليون إدخال خمسة وأربعين تعديلاً في خطاب الضمانات وخطاب الدعوة. وتوصلنا لاتفاق حول اثنين وثلاثين منها. أما بقية الثلاثة عشر تعديلاً فقد كانت تافهة تقريباً مثل ضمان أن تكون كافة كلمات الافتتاح في المؤتمر معتدلة اللهجة. وأخري أكثر صراحة مثل الحصول علي التزام

صريح بكافة الاتفاقات الثنائية الحالية، ونقاط تفاهم وضمانات حتي تلك الصادرة عن إدارات سابقة. وأوضحت لشامير أنني رفضت طلب الأسد بأن أصدق علانية علي الوعد الشفوي للذي قطعة الرئيس نيكسون عام ١٩٧٤ بأن الولايات المتحدة ستبلغ إسرائيل بإعادة مرتفعات الجولان. وقلت: «لن أسلك هذا الطريق مع أي طرف».

ولم يقل شامير الكثير خلال الاجتماع مما أفصح لي أن المناقشات لقوية في جوهرها. ومع ضمان مشاركة الأسد الآن باتت بدائل شامير مغلقة فعلاً. وما لم يعطه الفلسطينيون ذريعة في اللحظة الأخيرة، فلا يمكن لشامير أن يقول لا. والآن فإما نعم أو فسوف يتحمل التبعة.

وفي الساعة ٧,٥٥ صباح يوم ١٨ تشرين الأول أكتوبر اجتمعت مع عشرة فلسطينيين بمقر القنصلية العامة للولايات المتحدة في القدس. وبدلاً من الأربعة عشرة اسماً أعطوني سبعة أسماء، وطمأنوني بأن بقية الأسماء ستعرض عليّ قريباً. وبهدف التأمين تم حجبها نتيجة تهديدات القتل ومعارضة منظمة التحرير الفلسطينية. وأردت أن أحيي شجاعتهم وعزيمتهم. وفي النهاية طلبت منهم أن يلتفوا حولي. وقلت: «أعرف مدي صعوبة هذا بالنسبة لكم لكن هذه فرصتكم الأخيرة ولا تستطيع أن تقول إنكم لم تغتنموها». كانت لحظة عاطفية ومؤثرة تمثل بداية النهاية لرحلة شاقة لهم. وفي النهاية لم تكن قدراتي الإقناعية أو إلقاء التبعة هي التي أنجحت اليوم. لكنها خشيتهم من ضياع الفرصة. وأعتقد أنهم فهموا في النهاية أنه لو أفلتت هذه الفرصة فربما ظلوا في التيه إلي الأبد.



وكل ما تبقي هو وضع اللمسات النهائية علي توجيه الدعوات مع بوريس بانكين. وتوجهت من القدس الشرقية إلي فندق الملك داود حيث اجتمعت مع بانكين في جناح يقع بالدور الثالث. وقررنا مؤقتاً إصدار بيان مشترك في وقت لاحق بعد الظهر. ومع ذلك وأثناء الاجتماع علمت أن الفلسطينيين نفوا علانية إعطاء الأسماء لي وأنهم يشاركون فيما وصف

لى بأنه معركة علي الغداء فى فندق بالاس لبحث اسماء سبعة أعضاء جدد. وتغلب حرصى المفرط علي رغبتى فى اكتمال العملية. وأبلغت بانكس أننى قد غيرت رأيى. فربما يتعين تأجيل توجيه الدعوات ليوم أو اثنين. وأبدي موافقته: فالسوفيت يشعرون بسرور بأنهم راع مشترك فى العملية لدرجة أننى أطلب الحصول علي تفويضهم أساسا فى أى ترتيب. وترك دينيس روس الجناح ليبلغ الوفد المرافق لى بأن المؤتمر الصحفى قد تأجل.

وبعد دقائق عاد روس وقال: إن فريقه فى حاجة إلي لقائى علي وجه السرعة لمراجعتى فى قرارى. وضايقنى هذا الأمر لكن بانكس انسحب فى لطف إلي غرفة مجاورة. وخلال الثلث ساعة القادمة ناقشت مميزات التأجيل مع تاتويلر وروس ودان كيرتزر وبيل بيرنز وآرون ميللر والمفيربيل براون. وكان جميعهم متفقين علي حثي علي مراجعة موقفي. وقالوا: إن الأطراف متقاربة بدرجة لم نشهدها من قبل. فلا يستطيع أى قدر من المفاوضات الجديدة أن يقارب بينها. وما لم أفرض واقعا بتوجيه الدعوة لهم فلن يقدم الفلسطينيون الأسماء السبعة الأخري. وقال كيرتزر الذى كان أكثرهم تأييداً للتحرك دون إبطاء: «إن التأجيل فى هذه الحالة سيؤدى إلي الاستمرار. فعلينا أن نمضى قدماً الآن، وأن نقدم علي المجازفة لأن المجازفة تصب فى مصلحتنا الآن». واقتنعت فى النهاية. ولدي استئناف اجتماعى مع بانكس قلت: إننى غيرت رأيى وسوف نمضى قدماً كالمقرر. وفى الساعة ٤,٢٥ بعد الظهر، وجهنا الدعوات فى مؤتمر مشترك ومنحنا المدعوين مهلة خمسة أيام للرد.

وذلك المساء تابعت سى إن إن علي عشاء من السلامون المدخن والسلاطة والفواكه المجففة فى جناحى وبرفقتى روس وتاتويلر. كان الاجهاد قد نال منا جميعاً. ورغم عدم حصولنا علي موافقات رسمية لكن فى ضوء النوايا والأهداف فقد انتهي الأمر. ومنحت نفسى بكأسى مارتينى ونحن نتبادل الأنخاب احتفالاً باحتمال إنهاء ما قد يكون أعظم تابو فى الصراع العربى الإسرائيلى، أى عدم استعداد الأطراف حتي لمجرد الاجتماع والحديث.

وفى الطريق إلي مدريد صباح اليوم التالى لتوجيه الشكر للأسبان علي موافقتهم علي استضافة المؤتمر فى اللحظة الأخيرة، تلقيت رسالة بأن الفلسطينيين تقدموا بالأسماء السبعة الباقية كانت مقبولة جميعاً من الإسرائيليين، وكان للفلسطينيين مطلب واحد. كانوا يريدون منا

أن تعلن أنهم أول من رد علي الدعوة. وضحكت فى سرى من هذا المطلب. وكما يذكرنا الكتاب المقدس فإن الأخير سيكون الأول وسيكون الأول هو الأخير.

يوم الثلاثاء، لابد من مدريد

مع انتصاف شهرآب أغسطس باتت احتمالات عقد مؤتمر السلام فعلياً فى أواخر تشرين الأول أكتوبر كافية بما يجعل اختيار مكان مناسب لعقده أمرا لا مفر منه. وبدأت مناقشات مع روس وتاتوبلر وكارين جروميز المخطط الرئيسى لجولاتى. وبدأنا فى البحث فى هدوء عن موقع تتوفر فيه المتطلبات السياسية والإدارية للمؤتمر. لكن من المؤكد أن التوصل إلي اتفاق حول الموقع المناسب لأمرشديد الوعورة ككل شيء آخر مرتبط بعملية السلام. وفى النهاية كان اختيار مدريد هو الحل الوسط فى اللحظة الأخيرة دون إخطار مسبق بالفعل.

ولأسباب غير خافية كانت واشنطن هي إختيارنا الأول الذى سارعت إسرائيل بقبوله. ومع ذلك كان السوفيت باعتبارهم راعياً مشاركاً أقل تحمساً كالمتوقع منا لهذه الفكرة. ووقع تفضيلهم علي براغ وأيدوا القاهرة كبديل.لكن حتي علي الرغم من السلام القائم مع مصر اعترض شامير علي انعقاد المؤتمر فى عاصمة عربية. فضلاً عن ذلك لم يكن راغباً فى تقديم مكافأة لما اعتبره عن صدق بأنه فتور مبارك الشخصي تجاهه. كانت سويسرا مرشحاً واضحاً يريد الدور شأن الكثير من الدول الأخري. لكننا ندرك أن الوجود الدائم لمقر الأمم المتحدة فى جنيف سيثير حساسية إسرائيل تجاه مشاركة الأمم المتحدة. إلي ذلك فقد يثير فشل مؤتمر جنيف للسلام عام ١٩٧٣ الذى قاطعته سوريا والفلسطينيون مقاربات تاريخية لالزوم لها.

وفيما تطور الاتفاق لصالح اختيار عاصمة أوربية استقر الرأى علي لاهاى. وبدت لاهاى بكل المعايير مكاناً نموذجياً. فهولندا تتمتع بعلاقات طيبة مع الإسرائيلين. لكن هولندا كانت تتولي الرئاسة الدورية للمجموعة الأوربية فى ذلك الوقت، وهي مصادفة كنا نعتقد أنها تعزز تفضيل الأسد لدور أوربى أكبر. فضلاً عن هذا ولأن الأسد يفضل اسم «مؤتمر السلام»

اعتقدنا أن رمزية الموقع المؤقت للاجتماع – أى قصر المؤتمرات –مقر محكمة العدل الدولية – يصادف هوى لديه. ويوجد فى لاهاى أيضاً غرف الفنادق وتسهيلات للاجتماعات لا تكفى لاستيعاب أحد عشر وفداً وسبعمائة مندوب فقط بل حشد الصحفيين الذى قُدر أن عدده يتراوح بين ستة آلاف وسبعة آلاف – كما أن شامير أدرج لاهاى علي قائمته «المقبولة».

وفى أواخر أيلول سبتمبر أوفدت مجموعة صغيرة من الخبراء برئاسة كارين جروميز للبدء سراً فى التخطيط للمؤتمر مع مسؤولى البروتوكول الهولنديين. وضم وفد جروميز مسؤولين من البيت الأبيض ووزارة الخزانة علي دراية تامة بكل جوانب ترتيب اللقاءات الضخمة. كانت هذه الاجتماعات اجتماعات سرية لم تُخطَر بها السفارة الأمريكية، وبعد ثلاثة أسابيع من المداولات المكثفة أُعِدّتْ خطة مفصلة وكل ما تبقي هو المهمة الدقيقة المتمثلة فى ترويج الموقع لدي المشاركين أنفسهم. وطرحت الفكرة مع الأسد فى أول اجتماع من الاجتماعين اللذين عقدتهما معه فى ١٥تشرين الأول أكتوبر، ولم يبد تحمساً بدعوي عدم وجود سفارة سورية فى لاهاى ووجود «مشكلة سياسية» مع هولندا. ولم يشأ الأسد أن يوضح ما هي هذه المشكلة السياسية. ولذا طلبت من كارين جروميز أن تتصل بهانز فان دين بروك الذى قال: إن مشكلة الأسد ربما تكون نابعة من قرار العقوبات الاقتصادية الذى صوتت هولندا لصالحه. وأبدى تفضيله لسويسرا حيث اجتمع مع الرئيس كارتر عام ١٩٧٨ . وأشار إلي أن بلداً محايداً يناسبنا جميعاً. وفى نهاية الاجتماع أعدت طرح فكرة لاهاى واعترض مرة ثانية ورفض اقتراحى البديل كوبنهاجن (فليس لدينا سفارة) وبراغ (غير ملائمة).



وفى منتصف تلك الليلة تقريباً طلبت من مارجريت تاتويلر تقديم عرض مفصل حول التسهيلات والمنشآت والترتيبات الرائعة فى لاهاى. وبرغم تقديم تاتويلر عرضاً قوياً واطلاعها الأسد علي خرائط وكتيب عن لاهاى فقد ذهبت جهودنا لاستمالته سدي. وسمعت تاتويلر التى انتابها الضيق تشير إلي أن السوريين وقد نسفوا ما أعدته سيكونون بالقطع أول

من يبادر إلي الشكوي إذا لم يسر أي شيء علي ما يرام في المؤتمر. وسألت الأسد ما هي المدينة التي ستقبلون بها؟. وأجاب روما، بون، باريس، جنيف، لوزان، فيينا، أي مدينة إيطالية كلها مقبولة. وقلت مازحاً: «مونت كارلو فهذه أكبر مقامرة في التاريخ» ورد ضاحكاً «لكن المفاوضين سيذهبون للعب القمار».

وأخيراً سألت ماذا عن مدريد أو لشبونة؟ ولم يكن لسوريا سفارة في البرتغال. وقال الأسد: «إن مدريد أفضل من لشبونة». وأدركت أنه بات لدينا حل وسط أخيراً. إذا كان بوسع الأسبان الترتيب لعقد المؤتمر في هذه الفترة الوجيزة. لأن مدريد كانت من بين الأماكن المقبولة لدي الإسرائيليين.

وفي الساعات الأولي من صباح السابع عشر من تشرين الأول أكتوبر اتصلت هاتفياً بوزير الخارجية الأسباني باكو أوردونيز من غرفتي بفندق الملك داود بالقدس وطلبت منه الاستفسار من رئيس الوزراء فيليبي جونزاليز عما إذا كانت أسبانيا قادرة وراغبة في استضافة مؤتمر علي أن يوافينا بالرد في غضون ثلاثين دقيقة. ورد أوردونيز بسرعة وقال: «إن الوقت مضغوط، لكن سيكون علينا بذل قصاري ما في وسعنا». وفي ظرف يومين وبعد الحصول علي موافقة بانكين وشامير كنت في طريقي إلي مدريد. وطلبت من العاملين الذين بذلوا جهداً مضنياً في التنظيم سراً لعقد مؤتمر في لاهاي إلغاء كل شيء وأن يتوجهوا إلي أسبانيا. ولم يبق أمامنا للعمل سوي أحد عشر يوماً.

وأثبت تنظيم أول مؤتمر من نوعه متعدد الأطراف للسلام بين العرب والإسرائيليين انه تحد لوجستي هائل. فبالإضافة إلي ترتيبات ضمان الأمن والإعاشة بشكل مناسب لكل الوفود والصحافة كان علينا أن نقرر تقريباً كل جوانب الاجتماع الفعلي. تفاصيل مثل مدة ونظام إلقاء الكلمات، شكل المائدة التي صنعت خصوصاً، أماكن جلوس المندوبين، وهو موضوع كان مثار شد وجذب بين الأطراف، وحجم المساحات الإدارية التي ستخصص لكل وفد. ويعود جانب كبير من الفضل في نجاح المؤتمر إلي فريق التنظيم تاتويلر، جروميير، دان كروتزر، لين دينت، جاري هوستر، وبيل جاسكين. إن ما حققوه خلال أقل من أسبوعين لهو إنجاز رائع في حقيقة الأمر.

وأثبت القصر الملكي في مدريد باستثناء لوحة الملك كارل الخامس (شارلكان)* وهو يذبح المسلمين والتي رفعت علي عجل لتوضع في المخزن لأسباب واضحة. أنه مكان بالغ الروعة لعقد مؤتمر سلام وتحت ثماني ثريات ساحرة تدلت في بهو الأعمدة التف مندوبو إسرائيل وسوريا ومصر والأردن ولبنان والفلسطينيون تكسوهم مسحة من الحذر حول مائدة علي شكل حرف T صباح الثلاثين من تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١.

وشهد مراسم افتتاح فعاليات المؤتمر الرئيسان بوش وجورباتشوف اللذان كان لكلمتيهما البليغتين بالغ الأثر في إضفاء أجواء من الإثارة والروعة.

وسري في المكان دفء التودد المقصود، وهو ما كان حقيقياً في واقع الأمر. وقيم المندوبون كل منهم الآخر من طرف خفي وتحاشوا تبادل النظرات وبذلوا جهدا شاقاً لتجنب حتي المصافحة الروتينية. وباستثناء علمي راعيي المؤتمر خلت مراسم الافتتاح من الأعلام انعكاساً لرفض إسرائيل الجلوس مع وفد فلسطيني يرفع علم منظمة التحرير الفلسطينية. ولا تعي ذاكرتي أي اجتماع خال من الشراك الدبلوماسية.

إن مؤتمر مدريد يشكل نصراً مدوياً بكل المعايير العقلانية. فقيمته الدائمة تتمثل بكل بساطة في انعقاده. فبعد ثلاثة وأربعين عاماً من الصراع الدامي طوي التاريخ تلك المحرمات القديمة عند تحادث العرب مع الإسرائيليين في ظرف ساعة أعد لها بعناية. وكجدران أريحا تهاوت الحواجز النفسية التي ظلت قائمة لنصف قرن إلي الأبد صباح ذلك اليوم الخريفي الصافي.

وفي غمرة بهجة اللحظة لم تساور أي منا أي أوهام عن العذابات القادمة. وكما قلت للصحفيين لاحقاً: «علينا أن نحبو قبل أن نمشي، وعلينا أن نمشي قبل أن نجري». واليوم أعتقد أننا بدأنا الحبو جميعاً. وأنا أخط هذه الكلمات بعد ثلاثة أعوام فقد نضجت عملية السلام إلي

---

* الملك كارل الخامس (شارلكان) ولد عام ١٥٠٠ إمبراطور الغرب ١٥١٩-١٥٥٦. ملك أسبانيا ١٥١٦-١٥٥٦ احتل تلمسان عام ١٥٣٠ وتونس ١٥٣٥ وقصف الجزائر ١٥٤١. اعتزل في دير يوست وتوفي فيه (المترجم).

درجة بدأت فيها العداوات القديمة في الرحيل، وربما تكون قد تعلمت الجرى. وكلى أمل أن ترى في حياتى عدواً بارعاً تجاه إقرار سلام دائم. وآمل ألا أكون مخطرساً لو قلت: إننى فخور بالمساهمة في عملية بدأت تستبدل الكراهية بالأمل والخوف بالصداقة.

وأبلغنى بعض مستشارى فيمابعد أنهم لم يرونى في مثل هذه الحالة من السكينة والصفاء. فبعد ثمانية أشهر من الدبلوماسية المرهقة التى تثير السخط في بعض الأحيان ساورني شك في أنهم خلطوا ببساطة الصفاء والسكينة بالإرهاق المضنى. لكن في الحقيقة كنت أدرك أننى والرئيس قد أنجزنا شيئاً مهماً في البحث عن السلام. وآمل أن أتناسي شيئاً من الرضا عن النفس في هذا المجال.

وأثناء الاستراحة في الجلسة الافتتاحية لمحت إيتان بنتسور في الصف الأخير في الوفد الإسرائيلى. وباعتباره موظفاً محترفاً في السلك الدبلوماسي كان بنتسور أحد كبار مستشارى ديفيد ليفى، وكان مثل رئيسه واحداً من أقوي مؤيدى عملية السلام.

فمع أوائل أيلول سبتمبر ١٩٩٠ وفي لقاء مع دينيس روس في مطعم بنيويورك اقترح صيغة المسارين التى أصبحت فيما بعد محوراً للمبادرة الأمريكية. وشددت علي يده بحرارة وما لبث أن احتضننى بكل قوة. وقال بتأثر بالغ أزال تحفظى المعهود: «السيد الوزير لقد فعلناها . لقد فعلناها» ورددت «أنت مصيب بالإيمان لقد فعلناها».

الفصل الثامن والعشرون

الإمبراطورية تتداعى

إذا أطعمت الجماهير بالشعارات الثورية، فسوف تصغي لك اليوم وغداً وبعد غد، أما في اليوم الرابع فسوف تقول "فلتذهب إلى الجحيم".

نيكيتا خروتشوف

برغم أنني تكساسي حتي النخاع فقد وقعت في غرام ولاية أخري منذ صباي: هي ويومينج، ومنذ أن وقعت عيناي علي روعة برية توروفاري عام ١٩٤٤ خلال أول رحلة لي لصيد الأيائل برفقة والدي وقعت في هوي ويوميتج بقدر ما يمكن أن يحب تكساس نشأ وترعرع في تكساس ولاية أخري.

ودرجت منذ العام ١٩٨٨ علي أن أمضي جانباً من شهر آب أغسطس استجم لأقصي ما يسمح المرء راغباً بشكل عام في الانعزال عن بقية العالم وتعقيداته. وينطبق هذا بشكل فعلي علي فترة عملي كوزير للخارجية. لأنه في أوقات كثيرة طالما رغبت في أن أترك العمل وراء ظهري. لكنني كنت أجده ينتظرني معظم الوقت. لكن علي الأقل في مزرعتي علي السفح الغربي لجبال ويندريفر كان الأمر أكثر صعوبة. وكنت استمتع بتلك الأيام القليلة من شهر آب أغسطس عندما يكون بوسعي الطواف بالمزرعة والبرية المحيطة بها أتعقب حيوان الموظ والغزلان والأيائل، أو النزول إلي النهر للصيد تحت شمس الصيف. وحينما أكون هناك أحاول أن أحب الأرض لأقصي مدي حيث أستيقظ مع بزوغ الفجر لأري الحيوانات البرية وهي تتناول طعامها، واستريح الليل مع تواري الشمس خلف قمم كراجي.

كان هذا هو حالي مساء يوم الأحد ١٨ آب أغسطس ١٩٩١ عندما رحت في النوم سريعاً في الساعة العاشرة وإحدي وعشرين دقيقة مساءً، عندما دق جرس الهاتف. كان مركز العمليات بوزارة الخارجية علي الهاتف حيث أراد الموظف المناوب إطلاعي علي تطورات ذلك اليوم في موسكو. فقد جاء في إعلان بثته إذاعة موسكو في الساعة السادسة صباحاً وأوردته وكالة الأنباء السوفيتية تاس أن جينادي ياناييف نائب الرئيس قد تولي رئاسة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية «لعجز جورباتشوف عن ممارسة مهامه لأسباب صحية». «وشكلت لجنة دولة للطوارئ» وقررت «عصابة الثمانية» كما اشتهرت فيما بعد وضمت في عضويتها ياناييف ووزير الدفاع ديمتري يازوف ورئيس جهاز المخابرات السوفيتية كي جي بي فلاديمير كريو تشكوف وزير الداخلية بوريس بوجو ورئيس الوزراء فالنتين بافلوف وثلاثة آخرين، قررت إعلان حالة الطوارئ لفترة «مؤقتة»*.

* الثلاثة الآخرون هم أوليج بكلانوف أحد كبار المدافعين عن مؤسسة الصناعات العسكرية، وفاسيلي ستارودبتسيف رئيس نقابة الفلاحين الرسمية، والكسندر تيزياكوف رئيس اتحاد شركات الدولة.

وأقدمت اللجنة على إجراءاتها «بهدف انتشال البلاد من الأزمة المستفحلة والشاملة السياسية والعرقية والصراع الأهلي والفوضي والفوضوية التي باتت تهدد أرواح وأمن مواطني الاتحاد السوفيتي وسيادته وسلامة أراضيه وحريته واستقلاله». وذكرت عصابة الثمانية أنها تريد «منع المجتمع من الإنزلاق نحو كارثة وطنية وإقرار القانون والنظام».

ولم يتح لنا حتى ذلك الوقت أكثر من هذين البيانين، وكنت أعرف أن جورباتشوف توجه إلي القرم لقضاء العطلة علي أن يجتمع مع رؤساء الجمهوريات في موسكو يوم الثلاثاء لتوقيع اتفاقية الاتحاد التي كانت ستنقل السلطة بشكل جوهري بعيداً عن الهياكل السوفيتية المركزية، وكنت أعرف أيضاً أن الكسندر ياكوفليف أحد كبار مساعديه والأب الروحي للبيريسترويكا قد استقال يوم الجمعة الماضي من الحزب الشيوعي محذراً من وقوع انقلاب، واتضح الآن فقط أنه كان ذو بصيرة نافذة. وبينما أويت إلي الفراش عاجزاً عن النوم استرجع عقلي التحذيرات التي أبلغناها إلي جورباتشوف وبسمرتنيخ من انقلاب محتمل قبل شهرين.

واتصلت بالرئيس، وكان يمضي عطلة في كينيبونكبورت، والذي تحادث لتوه مع سكوكروفت الذي كان ينزل بأحد الفنادق هناك، وشاهد التقارير الأولية علي شاشة سي إن إن. ولم تكن هناك أي معلومات حقيقية بخلاف تلك التي نعرفها بالفعل. لكن كلينا قدر علي الفور مدي الخطورة المحتملة للموقف. واقترح الرئيس أن يؤدي بوب شتراوس سفيرنا المعين لدي الاتحاد السوفيتي اليمين الدستورية وأن ندرس إرساله فوراً إلي موسكو. وكان جيم كولينز القائم بالأعمال واحداً من أكفأ رجال السلك الدبلوماسي والقنصلي. لكن كان لشتراوس طابع سياسي استمده من صداقته للرئيس ولي –بغض النظر عن كونه ديمقراطيا– ويمكن أن يوجه ما يقوله أو يفعله بعض المؤشرات القوية. ووافقت علي أن تلك فكرة صائبة. لكننا قررنا التريث بضع ساعات لرؤية كيفية تطور الأحداث في موسكو. واستفسرت سوزان بمجرد انتهاء المكالمة: «ماذا يحدث؟» ورددت عليها: «يبدو أن هناك انقلاباً في موسكو».

وقالت: «ها هي ذي عطلة أخري تنقضي بسرعة» وبالطبع كانت أزمة الخليج قد نشبت في مطلع آب أغسطس للعام الماضي.

وقلت مطمئنا: «لاتقلقي ياعزيزتي فلن يتكرر ما حدث العام الماضي فلنتحل بالأمل والشجاعة أكثر من أي شيء آخر» وغمرني إحساس بأنه سيكون من العسير علي قوي

الرجعية فى الاتحاد السوفيتى أن تعيد مارد الحرية إلى القمقم الآن. فقد قطع الإصلاح شوطاً بعيداً. لكن من ناحية مشاعرى علىّ أن أعترف بأننى كنت قلقاً. وكان القلق يساورنى بشكل خاص على إدوارد شيفرنادزة. صحيح أنه قد استقال من حكومة جورباتشوف إلا أنه لايزال يمثل رمزاً حياً يتنفس للبيريسترويكا فى الاتحاد السوفيتى والغرب. وأحسست أنه سيعتقل بكل تأكيد، والله وحده يعلم ماذا سيلحق به بعد ذلك. فهذا هو الاتحاد السوفيتى كما أن عصابة الثمانية هددت باتخاذ إجراءات حاسمة. وشعرت بالقلق من حدوث نسخة لعام ١٩٩١ من الثورة البلشفية تحت قيادة «لجنة الطوارئ».

الانقلاب: اليوم الأول

فى الساعة ١,٥٤ فجر الإثنين التاسع عشر من آب أغسطس اتصلت بمركز العمليات بالخارجية فيما سيصبح أول عدة اطلاعات سأتلقاها ذلك اليوم. وأخذت إذاعة موسكو والتليفزيون السوفيتى فى إذاعة الموسيقى الكلاسيكية فى مؤشر هام لحدوث اضطراب سياسى، وتواترت أنباء عن نزول ناقلات الجند المدرعة والدبابات إلى بعض شوارع موسكو، وفى ليتوانيا احتلت القوات السوفيتية محطة التليفزيون وبينما كانت تلك الأنشطة تثير القلق فإن الانقلاب كشف على ما يبدو عن عشوائية مفرطة. وراودتنى نفسى لابد وأنهم اعتقلوا يلتسين والديمقراطيين الآخرين الآن. لابد وأنهم قطعوا الاتصالات مع العالم الخارجى. لكن المناوب طمأننى بأنه لانزال بوسعنا الاتصال بموسكو. كما أن سى إن إن لاتزال تبث من هناك. كان الأمر محيراً للغاية.

وأبلغت كيم بأننى أريد معلومات أعمق وأشمل، وطلبت إبلاغى بأى معلومات للاستخبارات والحصول عليها. فى الوقت ذاته كان النوم ضرباً من المستحيل. وبعيد الساعة الخامسة فجراً بقليل وهو الموعد المعتاد لاستيقاظى لمشاهدة الحيوانات تلقيت عدة تقارير استخباراتية قرأتها بعناية قبل أن أعاود الاتصال بالمناوب الساعة الخامسة وسبع وأربعين دقيقة للوقوف على الأحداث. كان الوقت بعد الظهر فى موسكو. واتخذت الدبابات مواقع لها

حول المباني الرئيسية ويبدو أن عملية عسكرية أشمل تدور في الطليق. وفي مؤتمره الصحفي وصف يلتسين الانقلاب بأنه «جنون وعمل غير مشروع» واعتلي دبابة ودعا الشعب إلي الإضراب وتحدي لجنة الطوارئ.

وأوصلني مركز العمليات ببوب شتراوس الذي كان يمضي عطلته في كاليفورنيا قبل تولي مهام منصبه الجديد وسألته أن يحزم حقائبه وأن يستعد للعودة إلي واشنطن فالأمور أخذت تتعاظم.

وفي الساعة السادسة وأربع عشرة دقيقة أوصلني مركز العمليات مع سكوكروفت الذي أبلغني بالمؤتمر الصحفي الذي اختتمه الرئيس لتوه في الساعات الأولي من الصباح «كانت الساعة الثامنة والربع صباحاً». وغير متأكدين مما يدور في موسكو قرر الرئيس وسكوكروفت الاكتفاء بالرد في الوقت الحالي بأسلوب خفيف رغم أن الرئيس أشار قائلاً: «أعتقد أنه من المهم أن تعرف أن الانقلاب يمكن أن يفشل. فبوسعهم الاستيلاء علي السلطة ثم يناقضون إرادة الشعب». وكان الرئيس في سبيله للعودة إلي واشنطن علي الفور. وأبلغت بريت أنني سألحق بهم أنا وشتراوس في واشنطن أيضاً. وبعد انتهاء المكالمة أجري لاري إيجلبرجر القائم بأعمال وزير الخارجية أثناء غيابي، أول مكالمة من خمس مكالمات معي في ذلك اليوم لتنسيق ردنا مع البيت الأبيض والحكومات الأجنبية.

وبعد عدة دقائق اتصل بي هانز فان دين بروك من هولندا. وكان يريد عقد اجتماع لوزراء خارجية حلف الأطلنطي ووافقته رغم اقتراحي للتريث لبضعة أيام لمنحنا فسحة من الوقت لتقييم مدي أي تغييرات تحدث في موسكو. وقلت: «آمل في إمكانية إجهاض الانقلاب. فلا ينبغي أن يفوت الحلفاء أي فرصة لإجهاض الانقلاب». وتساءل: «هل تعتقد أن عقد اجتماع لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا سيكون وهما في ظل الملابسات الحالية؟» وأبلغته علي العكس قائلاً: «إن الإصلاحيين وضعوا ثقة كبيرة في مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا. فعقد اجتماع لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبايكون طريقة ملائمة لإجبار النظام السوفيتي الحالي لاتخاذ موقف وفقاً لمبادئ هلسنكي وميثاق باريس. فمثل هذا الاجتماع يمكن أن يفصل حبة القمح عن قشرتها».

واتصل دينيس روس الذى كان يستجم فى نيوهامبشاير بعد انتهاء مكالمة فان دين بروك بثلاث دقائق. وكان روس يشعر أن الجيش هو الأساس، أولاً: لأن الجيش كما أبلغنى لن يلجأ على الأرجح إلي استخدام العنف ضد المدنيين السوفيت. وثانياً: إننا بدأنا نري الشقاقات علي أرض الواقع فى موسكو. فقد انضمت بعض القوات إلي يلتسين وقد يتسبب هذا فى فشل الانقلاب. وأكد روس: «إن هؤلاء قد يحاولون حشد التأييد بإثارة وجود تهديد خارجى، ونحن فى حاجة إلي انتزاع هذه الذريعة منهم».

❑ ❑ ❑

وأثرت نفس تلك النقاط مع هانز ديتريش جينشر الذى اتصل بى فى الساعة السابعة وأربعين دقيقةصباحا أى بعد ثلاثين دقيقة. وأكدت أيضاً أننا فى حاجة إلي استمرار تركيز الأنظار علي موسكو، وألا نسمح لعصابة الثمانية بمحاولة تحويل الأزمة. إلي صراع بين الشرق والغرب. وهذا هو أحد الأسباب التى حدت بى إلي تفضيل تأجيل عقد اجتماع لحلف الأطلنطى لبضعة أيام. واستفسرت من جينشر عما إذا كانت لديه أى معلومات عن ألكسندر بسمرتنيخ الذى كان يمضى عطلة. لكنه كان يعتزم العودة إلي موسكو فى ذلك اليوم. وقال وزير الخارجية الألمانى إنه لا يعرف شيئاً عن مكان وجود بسمرتنيخ.

وعقب انتهاء مكالمتى مع جينشر عاودت الاتصال بإيجلبرجر ثم شتراوس ثم روس وأخيراً تاتويلر ونائبها ريتشارد بوتشر للتأكيد علي أننا ستشارك فى الإيجاز الصحفى عند الظهر.

واتصل بوب زوليك الذى كان يمضى عطلته فى اسكتلندا بعد ساعة ونصف الساعة للتأكيد علي نقطة واحدة معى «وهي أننا نفتقر إلي كثير من عناصر القوة فى هذا الموقف. لكن الشرعية هي عنصر القوة الوحيد الذى نملكه. إننا فى حاجة إلي حرمان عصابة الثمانية من أى شرعية». وتصريحاتنا وبياناتنا هي الطريق لتحقيق ذلك الهدف. وأشار علىّ أيضاً بأن نناشد الجيش، وعرض علىّ عبارة مفيدة: «إن جيش الشعب لا يمكن أن يطلق النار علي أبناء الشعب».

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً اتصل بي إيجلبيرجر لإبلاغي أن السفير السوفيتي لدي الولايات المتحدة فيكتور كومبليكتوف طلب عقد اجتماع وهو ما وافق عليه لارى من أجل ممارسة ضغط قوى، واستهل السفير الاجتماع بالقول: «إن جورباتشوف مريض وإن هذا سبب ما يحدث». وسلم رسالة من ياناييف إلي الرئيس. وكتب ياناييف محذراً من «وضع يخرج عن نطاق السيطرة تتعدد فيه مراكز القوي» ومن «خطر حقيقي بتفسخ البلاد، وفي ظل تلك الظروف لم يكن أمامنا من خيار سوي إتخاذ إجراءات حازمة لوقف الانزلاق نحو الكارثة». ومع هذا وفي محاولة للتثبيط ردنا تعهد ياناييف باستمرار سريان المعاهدات والاتفاقيات، وتصميم القيادة الجديدة علي تعزيز التعاون الذي يعود بفائدة متبادلة مع شركائنا الأجانب. واختتمت الرسالة بمحاولة خرقاء للطمأنة: «وللعلم فإن ميخائيل سيرجيفيتش في أمان تام لا يهدده شيء». وأعتقد أنه من السهل أن يقول المرء هذا. وبالمقابل سلم لارى لكومبليكتوف ورقة بموقف متشدد حددت الخطوط العامة لوجهة نظرنا. وجاء فيها «إن هذه المحاولة المضللة غير الشرعية للالتفاف علي القانون السوفيتي وإرادة الشعوب لاتخدم مصلحة أحد». وأشارت ورقة الموقف «إلي انزعاجنا العميق من نتيجة الأحداث وإدانتنا إلي اللجوء غير الدستوري إلي القوة»*.

وكان دوجلاس هيرد هو التالي في قائمة المتصلين بالهاتف. وكان هيرد ينسق مع زملائه في المجموعة الأوروبية، وكانوا يريدون مني الانضمام إليهم في بروكسل في اجتماع مجلس حلف الأطلنطي يوم الأربعاء. ووافقت، وأبلغته بأنه في الوقت الذي نحتاج فيه إلي إدانة حازمة للانقلاب، فإننا في حاجة إلي صياغة مواقفنا لأنه ما من طرف خارجي يملك نفوذاً كافياً داخل الاتحاد السوفيتي لتغيير مسار الأحداث. وقال: إن حكومة جلالة الملكة اتخذت نفس الموقف الأساسي، ولم تؤيد دعوة البعض في الغرب لشعب موسكو بالنزول إلي الشارع. فالتحريض الغربي قد يؤدي إلي نتائج عكسية، أو يسفر عن اندلاع حرب أهلية أو شيوع حالة من الفوضي. لكن علينا التأكيد علي إمكانية فشل الانقلاب وقد فعلنا. وقال: إن الأوروبيين يدرسون فكرة عقد مؤتمر للمجموعة الأوروبية وأبديت له قلقي من أن «مثل هذا

---

* بدأت أول صياغة لمسودة ورقة الموقف في الساعة السادسة صباحاً في ذلك اليوم في وزارة الخارجية بواسطة لارى ناير مدير إدارة الشئون السوفيتية وأندرو كاريندالي من إدارة التخطيط السياسي.

الاجتماع قد ينتهي بتصافح حار ودون برنامج محدد وقت: بدلاً من ذلك ربما يكون بوسع رئيس الوزراء جون ميجور زيارة الرئيس عندما يعود إلي كينيبونكبورت.

وبعد أربع دقائق اتصلت بالرئيس الموجود الآن في واشنطن. فقد عاد إليها صباحاً رغم هبوب إعصار بوب الذي كان يضرب الساحل الشرقي، وطائرة القوات الجوية رقم واحد وهي تتمايل وتترنح لدي شق طريقها باتجاه الجنوب الشرقي. وأبلغته بفحوي محادثتي مع دوجلاس هيرد. وتحدث الرئيس مع ثلاثين رئيس دولة وبات يشعر الآن أن عقد اجتماع لحلف الأطلنطي أصبح ذا مغزي.



وفي الواقع أصبح يقينه يتزايد إلي حد ما بأن مآل الانقلاب إلي الفشل. وعلي مدار الساعات الست عشرة منذ الإعلان الذي أذاعته إذاعة موسكو لم تشاهد بعد المؤشرات التقليدية للانقلاب. ورصدت دوائر المخابرات محاصرة القوات لمنزل داشا جورباتشوف علي البحر الأسود، وتواجد عدد غير مألوف من السفن الحربية قبالة الساحل. لكن الانقلابيين لم يغلقوا وسائل الإعلام بعد، وافتقر المجهود الحربي إلي التناسق ولم يعتقل أحد. وفي مؤتمر صحفي اتخذت لجنة الطوارئ خطاً متشدداً. لكن يدي ياناييف ارتعشت أثناء حديثه، وبدا واحد علي الأقل من زملائه ثملاً. وفي الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر بتوقيت موسكو قرر ياناييف فرض حالة الطوارئ. لكن المواطنين كانوا يتنقلون بحرية في المدينة كان أمراً بالغ الغرابة.

ومن ناحية أخري بدت قوة يلتسين تتصاعد مع تزايد الضغوط عليه. كان يلتسين بارعاً في تحريك الجماهير، ووصف الانقلاب بأنه «تمرد مسلح» وطالب بإعادة جورباتشوف. ويبدو أنه شجع زعماء موسكو بمن فيهما باكوفليف وشيفرنادزة. وفي الوقت الذي تنفست فيه الصعداء لأنهما يتمتعان بالحرية ويتحدثان تملكتني الحيرة وتعجبت لعدم اعتقالهما حتي الآن؟ ودار بخلدي أنني كنت سأعتقلهما بالقطع لو كنت قائداً للانقلاب.

وانتابني إحساس أنا والرئيس بأن الزخم يتصاعد ضد الانقلاب. واتفقنا علي أن صدور بيان رئاسي أقوي سيكون مفيداً. لاسيما لأن يلتسين طلب هذا الطلب. «وتلقي جيم كولينز هذا الطلب من اندريه كوزيريف وزير الخارجية الروسي». وما لبث أن تواتر المزيد من الأنباء. فعلي صعيد الجبهة العسكرية انشقت فيما يبدو عناصر من فوج القوات الخاصة تامانسكي بما في ذلك عشر دبابات بدأت تتأهب الآن للدفاع عن مقر برلمان الاتحاد السوفيتي، «البيت الأبيض الروسي» كما يشتهر. فهل يمكن أن يتحول المد؟

وانشغلت بقية فترة ما بعد الظهر في مزيد من المكالمات الهاتفية مع إيجلبيرجر ومكالمة هاتفية أخري من هيرد ومكالمة من نظيرتي الكندية باربارا مكدوجال التي طلبت عقد اجتماع لمجموعة السبع وحلف شمال الأطلنطي مما سيجعل الرد الغربي ذا طابع سياسي أكبر وعسكري أقل. من ناحية أخري، وعقب اجتماع موسع بين الأجهزة الحكومية لمناقشة الخيارات ومعلومات الاستخبارات قرر الرئيس اتخاذ خط علني أكثر تشدداً، وأصدر ورقة للموقف التي سلمها إيجلبيرجر إلي كومبليكتوف في الوقت المناسب لتصدر أثناء المساء.

وفي الخامسة إلا ربعاً مساء ركبت طائرة تابعة للقوات الجوية في بيناذلبي ويومينج عائداً إلي واشنطن. وكان معي عدد من رفاق السفر وفيهم بوب شتراوس ومارلين فيتزووتر المتحدث باسم البيت الأبيض وبيت ويليامز المتحدث باسم البنتاجون الذي كان يقوم بجولة في الريف عندما هبطت طائرة هليوكبتر تابعة للحرس الوطني في ويومينج في مكان قريب وتم إبلاغه بأمر الانقلاب في موسكو. وكان لايزال يرتدي ملابس التدريب ونحن نتجه شرقاً، وبعد توقف قصير للتزود بالوقود في قاعدة رايت تيرسون الجوية في أوهايو هبطنا في قاعدة أندروز الجوية في تمام الحادية عشرة والنصف مساء مع طلوع الشمس في موسكو، بينما كان الرئيس يتساءل: «ماذا عن آب أغسطس؟».

الانقلاب الفاشل

بدأت يوم الثلاثاء بالتحدث إلي جيم كولينز في موسكو حيث أشار إلي حدوث حالة من الجمود. وشعرت بأن هذا مؤشر جيد، فالانقلاب في حاجة إلي زخم ليحقق النجاح. كما أن

موقف التحدى الذى اتخذه يلتسين منع عصابة الثمانية من احكام قبضتها علي البلاد. وفى الساعة العاشرة صباحاً انضممت إلي الرئيس أثناء أداء شتراوس لليمين فى احتفال خاص أقيم بالمكتب البيضاوى، واستهل الرئيس يومه بالاتصال ببوريس يلتسين ليشد من أزر الزعيم الروسى وليقوض الانقلاب. وتوجه الرئيس إلي الحديقة الوردية لعقد مؤتمر صحفى فى الساعة العاشرة والنصف، وقال بوضوح: «إن الاستيلاء علي السلطة بطريقة غير دستورية يشكل إهانة للأهداف والطموحات التى احتضنتها الشعوب السوفيتية فى الأعوام الأخيرة. إن هذا العمل يضع الاتحاد السوفيتى علي خلاف مع المجتمع الدولى». وما لبث أن أعلن – ما وصفه أحد كتاب الأعمدة بأنه صدمة كهربائية – إنه اتصل لتوه مع بوريس يلتسين وأنه أكد للسيد يلتسين استمرار تأييد الولايات المتحدة لهدفه بإعادة السيد جورباتشوف باعتباره الزعيم المنتخب بطريقة دستورية. واستخدم الرئيس أسرع المصادرالمتاحة لتصل الرسالة إلي موسكو، وهى شبكة سى إن إن.

وعقب انتهاء المؤتمر الصحفى ترأس الرئيس اجتماعاً فى المكتب البيضاوى لتقويم الاحتمالات. وتواترت أنباء غير مؤكدة عن سقوط بافلوف مريضاً واستقالة يازوف من اللجنة. وفى خارج روسيا صدرت أقوي معارضة للانقلاب من الزعيم القازاقستانى نورسلطان نزار باييف إضافة إلي زعيمى أوكرانيا ومولدافيا. وكنا نأمل جميعاً فى تصدع عصابة الثمانية، لكننا لم نعول علي ذلك. وأثار إعلان لجنة الطوارئ حالة الطوارئ. لكن هاهي اللجنة عاجزة مرة أخري عن تطبيقها. واستخدمت القوة في البلطيق دون اماكن أخري في الاتحاد السوفيتى. ووراء ذلك كان الخطر ماثلا باندلاع حرب أهلية. لاسيما إذا تواصلت الانقسامات داخل الجيش، وبات من المحتمل للغاية أن تنفصل الجمهوريات لو استمر الجمود.

وقرر الرئيس التوسع فى دعمنا ليلتسين فى جانب منه باستخدام إذاعة صوت أمريكا لنشر رسالته فى مختلف أنحاء الاتحاد السوفيتى. وأراد الاستمرار أيضاً فى حرمان الانقلابيين من أى شرعية وتجميد المساعدة الاقتصادية. لكنه قرر الكف عن اتخاذ أى إجراءات أخري مثل فرض عقوبات اقتصادية، أو إلغاء الاجتماعات المقررة حتي نري كيفية سير الأمور فى موسكو. وسوف يتوجه شتراوس إلي موسكو. لكنه لن يلتقى أو يقدم أوراق

اعتماده إلي النظام الجديد. كان الرئيس يحاول الاتصال بجورباتشوف منذ الاثنين دون أي نجاح. وحاولت نفس الشيء مع الكسندر بسمرتنيخ وأسفرت محاولاتي عن نفس النتائج. وفي الثانية عشرة إلا ربعاً وكنت لاأزال في البيت الأبيض اتصل كوميليكتوف وسألته: «ألديك وزير للخارجية؟ فمن الغريب أن أكون قادراً علي مدار ثلاث سنوات أن أرفع سماعة التليفون وأتحدث مع وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ولا أستطيع ذلك الآن».

وأبلغني أن بسمرتنيخ كان يستجم في مينسك، وأنه عاد إلي موسكو يوم الأحد. وأن وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يعاني من ارتفاع شديد في درجة الحرارة، وأنه ليس مريضاً دبلوماسياً. فهو علي ما يرام سياسياً.

كان القلق يساورني علي بسمرتنيخ فقد كان مؤيداً قوياً للتعاون السوفيتي الأمريكي. كما كان عاملاً مهماً في التوصل لاتفاقية ستارت، وفي دفع عملية السلام في الشرق الأوسط. لكن ليس هذا هو وقت المرض، عندما يتجه أفراد الشعب نحو المتاريس.



وأمضيت بقية يوم الثلاثاء للإعداد لاجتماع حلف الأطلنطي وعقد اجتماع ثنائي مع جيري دينستبير وزير خارجية التشيك. وأبلغني بأن الانقلاب مزعزع للغاية. وأشار دينستبير إلي أن بلاده قد تغرق في طوفان من اللاجئين إذا أدي الانقلاب إلي حرب أهلية أو أشاع حالة من الفوضي. وقد عززت جمهورية التشيك بالفعل عدد قوات حراس الحدود علي حدودها التي تمتد بطول خمسة وخمسين ميلاً مع الاتحاد السوفيتي.

وشُدتْ أعصابي في الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة مع تواتر أنباء عن إطلاق نار بالأسلحة الآلية قرب مقر السفارة الأمريكية والبرلمان الروسي (البيت الأبيض) علي بعد مئات من الياردات. ثم اشتعلت أعصابي مرة ثانية بعد برهة مع تواتر مزيد من الأنباء التي تكهنت بوقوع هجوم علي البيت الأبيض الروسي قبل الفجر الذي يوشك أن يبزغ بعد ساعات في موسكو.

وأخيراً غادرت مقر الخارجية بعيد الساعة السادسة لأذهب لرحلة طيران ليلية إلي بروكسل بعد ساعات. وغمرني إحساس بالعجز – وهو شعور نادراً ما ينتابني في حياتي – بينما طائرتي تحلق فوق الأطلنطي في منتصف الليل. وانتظرت وقوع الأسوأ أو حدوث هجوم ساحق، وأن يتصل مركز العمليات ليبلغني بأنباء لجتياح الكي جي بي وقوات وزارة الداخلية للمتاريس وقتل يلتسين أثناء الاجتياح والهجوم.

لكن لم يحدث الهجوم الساحق. فلدي وصولي إلي بروكسل تلقيت أفضل ما يمكن أن أسأل عنه من أنباء: لم يحدث هجوم شامل، وجرت بعض التحركات العسكرية وسحق ثلاثة مدافعين شجعان عندما ناورت مجموعة من ناقلات الجند المدرعة داخل بضع بلوكات قرب البيت الأبيض الروسي. لكن يلتسين لايزال حياً، ولا تزال المتاريس سليمة.

وسيطرت التطورات المهمة في موسكو علي جلسة حلف الأطلنطي. وعقب الاجتماع مع السكرتير العام للحلف مانفريد فيرنز ثم دوجلاس هيرد جلست علي غداء عمل مع نظرائي قبل عقد اجتماع رسمي لمجلس حلف شمال الأطلنطي. وأثناء الغداء مع الوزراء تلقينا مزيجاً من التقارير كان من الصعب استخلاص نموذج محدد منها: فقد أعلن قائد منطقة الفولجا العسكرية تأييده ليلتسين، وخيم الهدوء علي كييف وييرفان. وكانت الكي جي بي تتحرك صوب المشروعات المشتركة وشوهدت الدبابات تغادر موسكو.

وفي لحظة ما استدعي فيرنز من بين الوزراء لتلقي مكالمة هاتفية من يلتسين. وأخيراً بدأنا نتلقي شيئاً من الأنباء المؤكدة. يبدو أن الأحداث تتلاحق بسرعة الآن. فإيفان سيلاييف رئيس وزراء روسيا والكسندر روتسكوي نائب رئيس برلمان روسيا يتوجهان بنفسيهما جواً إلي القرم لاصطحاب جورباتشوف والعودة به إلي موسكو. «وطلبا من عدد من السفارات الأجنبية إيفاد ممثلين، وحاول كوليتز الانضمام إليهما غير أن تحركات الوحدات العسكرية التي تغادر موسكو عرقلت حركة المرور مما حال دون لحاقه بالرحلة». وأكدت وكالة أنباء تاس أن وزارة الدفاع اصدرت أوامر لكافة القوات بمغادرة موسكو. وأبرق مسئولو السفارات بأن الدبابات التي نشرت للدفاع عن البيت الأبيض الروسي بدأت في مغادرته.



وعقب انتهاء الجلسة عقدت مؤتمراً صحفياً، واجتمعت لفترة وجيزة مع هيرد وديما، ثم اتصلت بالرئيس. ويبدو أن الانقلاب يتهاوي. لكننا كنا عازفين عن قول أي شيء محدد حتي نتيقن منه تماماً. في الوقت ذاته اجتمعت مع كوزيريف الذي طلب علانية من الدول الديمقراطية أن تظل متيقظة. فليس هناك وقت للشعور بالبهجة، وكان يعتقد أنه حتي يودع كل أعضاء عصابة الثمانية السجن ويعود جورباتشوف إلي موسكو فليس بوسع أحد أن يتأكد أن الديموقراطيين قد انتصروا.

وفور انتهاء لقائي مع كوزيريف جاء إليّ جينشر وقال: إن إلكسندر ياكوفليف علي الهاتف في غرفة العاملين الأمريكيين في حلف الأطلنطي. وأبلغني «بأن كافة القوات والدبابات قد غادرت موسكو. وسوف يصل جورباتشوف في غضون خمس عشرة إلي عشرين دقيقة. وقد قمنا باعتقال عدد من أعضاء لجنة الطوارئ بتهمة ارتكاب جرائم ضد الدستور» وبادرت بالاتصال بالرئيس لإبلاغه بهذه الأنباء الطيبة علي الفور بعد أن حصلنا عليها من فم الأسد من موسكو.

وسرعان ما تحولت بهجتي إلي حذر بعد خمس دقائق عندما اتصل بسمرتنيخ. وحذرني قائلاً: «كن حريصاً من تقارير وسائل الإعلام وخاصة سي إن إن. لأن الوضع لم يعد إلي طبيعته. تمسك برد فعلك الأصلي المنادي بإعادة الحكومة السوفيتية الشرعية». وأبلغته «بأننا سنفعل ذلك». وعقب حديث مقتضب حول عملية السلام في الشرق الأوسط استفسرت منه عن حالته الشخصية. وقلت: «استنتجت من سفيركم لدي واشنطن أن مرضكم ليس مرضاً دبلوماسياً» ورد «إنه ليس فيروس لكنه أخطر»*.

وأخيراً وفي تمام الساعة الثانية والربع فجراً حطت طائرة إيروفلوت بموسكو. وهبط جورباتشوف متجهماً ومهزوزاً إلي حد ما. وانتهي الانقلاب. لكن سلسلة ردود الأفعال قد بدأت.

* بعد يومين عرفت مدي خطورة الموقف عندما اتصل بي بسمرتنيخ ليبلغني أنه أجبر علي الاستقالة. لقد كان بالغ السلبية أثناء الانقلاب، ويكون من المستحيل أن يستمر في منصبه وزيراً للخارجية. أما ما لم يقله لي حتي إجراء المحادثة الهاتفية هي أن ابيكوبول كان بسوره أثناء المكالمة.

لا يزال سوفيتياً، لكن هل هو اتحـاد؟

عدت إلي واشنطن ليل الأربعاء ثم توجهت إلي كينيبونكبورت صباح الخميس لبحث الخطوات التالية مع الرئيس. وخلصنا إلي أنه مع انتصار (المركز) (جورباتشوف) وزعماء الجمهوريات (يلتسين) الملتزمان بالإصلاح، وتقلص نفوذ أجهزة الأمن والجيش. فلابد وأن نتوقع أن تتحرك القيادة السياسية بقوة نحو الإصلاح الآن. وهيمنت عدة اعتبارات وحاجات علي مناقشاتنا:

١- صفقة إصلاح اقتصادية جذرية.

٢- تطبيق فوري لمعاهدة ستارت، وخفض القوات التقليدية في أوربا، ومتابعة مباحثات الحد من التسلح.

٣- السيطرة المدنية علي الجيش وأجهزة الأمن .

٤- خفض الإنفاق العسكري.

٥- استمرار السياسة الخارجية.

٦- إجراء مفاوضات جادة حول استقلال البلطيق بحكم الأمر الواقع.

٧- توسيع التعاون الاقتصادي الفني .

٨- مراعاة الأعراف الدولية لحقوق الإنسان.

ومع ذلك يبدو أن جورباتشوف أخطأ تماماً في قراءة حجم التغير الذي طرأ علي العالم بالفعل. ومن منزل عائلة بوش في ووكر بوينت شاهدت أنا والرئيس جورباتشوف وهو يعلن الحاجة إلي «تجديد» الحزب الشيوعي. وأصابتنا صدمة شديدة. فقد أراد الشعب بوضوح تصفية الحزب لا تجديده، وقد أفصح عن نواياه بوضوح بتحطيم تماثيل لينين في مختلف أرجاء الاتحاد السوفيتي. كان الاتحاد السوفيتي آخذ في التفسخ بسرعة، ومعه وضع جورباتشوف. ومع حلول السبت تعرض جورباتشوف لضغوط للاستقالة من رئاسة الحزب،

وحلت اللجنة المركزية للحرب ونقلت كافة أملاك الحرب إلي البرلمان. وخارج روسيا صوت البرلمان الأوكراني بأغلبية ساحقة علي الاستقلال، وتلاه في اليوم التالي برلمان بيلاروسيا ثم مولدافيا بعد يومين.

❑ ❑ ❑

وعدت إلي المزرعة علي أمل نيل قسط من الراحة والاستجمام قبل أن ينفجر جزء آخر من العالم. وأمضيت الأسبوع التالي آخذ أقل قسط يسعني من الراحة والاستجمام بينما يستغرقني كثير من التفكير في تلك الأحداث المروعة وأنا أذرع التلال التي تطوق مزرعتي. وبدت الأسئلة التي تواجهني محددة تماماً. هل بوسع يلتسين وجورباتشوف التعاون؟ كيف سنتعامل مع ما سيصبح حكومة ائتلافية بشكل أساسي؟ هل سيظل الاتحاد السوفيتي موحداً؟ وأمسكت رأسي من شدة وطأة هذه الأسئلة؟.

ولم أعثر سوى علي إجابات قليلة في مذكرتين أعدهما خبيرا الشؤون السوفيتية بإدارة التخطيط السياسي أندروكار بندال وجون هاناه. وأشارت أولاهما، وكانت بعنوان «ماذا يتعين عمله» وهي مسرحية عن كتاب لينين الصادر عام ١٩٠٢ إلي أن الشعب الروسي قد أزال آخر آثار الستالينية، وباتت الأبواب مفتوحة الآن علي مصراعيها أمام احتمالات إجراء إصلاحات سياسية واقتصادية جذرية. وجاء بالمذكرة: «إن المركز ومؤسساته ستظل قائمة في الوقت الحالي. لكن اعتماداً علي تساهل الجمهوريات إلي حد كبير. ومن أجل البقاء يجب علي المركز أن يحول نفسه إلي طليعة للإصلاحات الجذرية. وإذا أخفق في إحداث هذا التحول فسوف يصبح جزءاً من المشكلة بدلاً من أن يكون جزءاً من حلها. وفي ظل هذه الملابسات ستحاول الجمهوريات تنحية المركز جانباً وتحاول ابتكار آلية جديدة تصوغ العلاقات من خلالها. وباختصار باتت أيام جورباتشوف معدودة إذا لم يصبح ديمقراطياً بدرجة أكبر من يلتسين وهو احتمال وجدته غير مرجح.

وبدأت في دراسة مجموعة من المبادرات القيمة الواردة في المذكرة، وعلي سبيل المثال عقد مؤتمر للدول المانحة للمعونة الإنسانية، وتكثيف ضخم للمساعدة الغذائية الأمريكية.

تأسيس صناديق للمشروعات وبرامج فيالق السلام للجمهوريات وصندوق حديدة المحركات، لتحويل الصناعات الدفاعية السوفيتية إلى الإنتاج المدني. إضافة إلي عدة انطلاقات سياسية جديدة. علي سبيل المثال ربط المعونة بالانتخابات، وتعديل مناقشات ستارت لتتناول أخطار نشوب حروب عارضة، وحظر الصواريخ الباليستية المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه المنصوبة. (الذي اقترحناه ورفضته موسكو ربيع عام ١٩٩٠).

وحتي نعرف كيف ستمضي العلاقة بين جورباتشوف ويلتسين، وبين المركز والجمهوريات كنت حذراً في الكتابة إلي جورباتشوف كلية. وكنت أعتقد أيضاً أنه من السابق لأوانه طرح مجموعة جديدة من المبادرات علي الرئيس قبل أن أعود وأدرس مباشرة كيفية تطور الأحداث في موسكو وبقية أنحاء الاتحاد السوفيتي.

وعلي أية حال فقد كانت أولوية الرئيس الأولي هي البلطيق. وفي أعقاب فشل الانقلاب تحركت دول البلطيق بكل قوة لنيل الاستقلال. ودش يلتسين البداية بالاعتراف باستونيا ولاتفيا في ٢٤آب أغسطس (كانت روسيا قد اعترفت بليتوانيا بالفعل في ٢٩تموز يوليو)، وقد سارعت عدة دول اسكندنافية بالفعل للاعتراف بها، وتزايدت الضغوط علينا لنحذو حذوها. ولأننا لم نعترف مطلقاً بضم دول البلطيق إلي الاتحاد السوفيتي فقد أعلن الرئيس ببساطة في ٢أيلول سبتمبر إقامة علاقات دبلوماسية مع ليتوانيا واستونيا ولاتفيا، وأننا سنعمل علي تأكيد حقيقة الاستقلال.

وثار السؤال السياسي الأكبر حول الجمهوريات الأخري. وكنت أبحث عن أداة دبلوماسية تساهم في تشكيل سلوكها. ووجدت فكرة مفيدة في المذكرة الثانية. فقد بدأت بالإشارة إلي: «أن الإمبراطورية السوفيتية الخارجية قد انهارت عام ١٩٨٩ ويبدو أن الإمبراطورية السوفيتية الداخلية تنهار الآن». وبينما بدا أن الشق الأكبر من الحملة الإعلامية للاستقلال مرتبط بجهد تبذله كل جمهورية عن عمد لتعزيز مركزها التفاوضي في أي مفاوضات حذرت المذكرة من أن هناك «إمكانية حقيقية من أن إعلانات الاستقلال الحقيقية ستثير نزاعات إقليمية واقتصادية وعسكرية بين الجمهوريات». ففي هذا الأسبوع حذر يلتسين

من أن المناطق التي يسيطر عليها الروس من أوكرانيا وقازاقستان لن يسمح لها بالإنسلاخ. ومضت المذكرة إلي القول: وفي الوقت الذي ستتقرر فيه الأحداث علي الأرض. فإن آراءنا سيكون لها أثر كبير علي كيفية تحرك الزعماء تماماً مثلما حدث في الانقلاب. ويمكننا بتبني خمسة مبادئ «أن تضع الإطار العام الفلسفي والعملي الذي يمكن في سياقه أن تحدث عملية تفكك الاتحاد السوفيتي سلمياً بشكل منظم».

كانت المبادئ ذاتها مباشرة وصريحة: أولاً: حق تقرير المصير سلمياً بما يتسق مع القيم والمبادئ الديمقراطية. ثانياً: احترام الحدود القائمة حالياً علي أن تجري أي تعديلات سلمياً بالاتفاق. ثالثاً: احترام الديمقراطية وحكم القانون وخاصة الانتخابات والاستفتاء. رابعاً: احترام حقوق الأقليات. خامساً: احترام القانون الدولي والالتزامات الدولية. وكانت قوة تلك المبادئ تكمن في بساطتها، ومثلما كانت مبادئ الرئيس «الأربعة» التي حكمت نهجنا تجاه الوحدة الألمانية فإن المبادئ «الخمسة» يمكن أن تخلق بنية سياسية تساعدنا خلال ما أعتقد أنه فترة انتقال تزداد اضطراباً.



ومع ذلك اعتقدت أن الأيام القادمة تحمل بين طياتها بعض الفرص الحقيقية. فقد أبدي الشعب رغبته وتشوقه للحرية، وأحسست أن من غير المرجح أن تكبح تلك الطموحات مرة أخرى. كانت نافذة الفرص مفتوحة أمام الديمقراطية لأن الشيوعية باتت قوة بائدة، رغم أن الكثيرين من البيروقراطيين يتظاهرون بالديمقراطية لمجرد البقاء في السلطة. كانت أقوي المخاطر تكمن في احتمال أن التفسخ والتفكك قد يؤدي إلي اندلاع أعمال عنف بين الجمهوريات أو الأعراق. وهو أشد ما يثير القلق في بلد يمتلك آلاف الرؤوس النووية.

وعزز ميلي إلي تبني هذه المبادئ اجتماع عقد في ذلك الوقت بين جيم كوليتز وسيرجي تاراسينكو في موسكو. وحذر تاراسينكو الذي كان يتحدث بالأصالة عن شيفرنادزة،

حذر كولينز من أن إثارة يلتسين لنزعة القومية الروسية أمر بالغ الخطورة. وأعرب تاراسينكو عن اعتقاده بأنه «ليس هناك قوة توازن حقيقية مع المشاعر القومية ومع القوي التي تدفع باتجاه التفكك. فالرئيس ضعيف وهياكل الحكومة المركزية عاجزة تقريباً عن القيام بعمل مستقل» وكان شيفرنادزة يعتقد أن صدور بيان منا يؤكد علي مبادئ هلسنكي والحاجة إلي تسوية النزاعات سلمياً يمكن أن يفعل الكثير في تقليل احتمالات الصراع.

وبعد مناقشة المبادئ الخمسة مع سكوكروفت وموافقته عليها أعلنت تلك المبادئ في إيجاز صحفي بالبيت الأبيض في الرابع من أيلول سبتمبر. وفي ذات اليوم جلست مع الرئيس لبحث أولويات الاقتصاد السوفيتي. وتبلورت تلك الأولويات في أولويات ثلاث: الأولي: حث اللجنة الاقتصادية السوفيتية الجديدة التي تشكلت غداة الانقلاب علي إعداد خطة إصلاح شاملة نحو إقامة اقتصاد السوق بالتعاون مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وإلي أن يتم ذلك سيكون تقديم المعونة واسعة النطاق غير مجد من الناحية الفعلية. وتمثلت أولويتنا الثانية في المعونة الإنسانية في محاولة لمساعدة السوفيت علي تجاوز ما كان ينبئ بأنه شتاء شديد القسوة، وثالثها: هو المعونة الفنية، وكنا نأمل أن يكون هدفنا توزيع الأغذية والطاقة وتحويل الصناعات الدفاعية إلي الإنتاج المدني.

وكان الأكثر أهمية من الاقتصاد والسياسة بالنسبة للرئيس هو قضية الأسلحة النووية. وأثناء المحاولة الانقلابية رصدت المخابرات الأمريكية عدة مؤشرات غريبة شملت قوات الصواريخ الاستراتيجية – أي الذراع النووي للجيش السوفيتي. وفي الوقت الذي لم تلح فيه مؤشرات علي تزايد التهديد بوقوع حادث نووي فقد أثارت تلك المؤشرات الغريبة قلقه بالطبع، وطلب مني أن أولي أهمية خاصة لقضايا السيطرة والتحكم عندما أتحادث مع جورباتشوف ويلتسين وقيادة الجيش*. وحدث ذلك بعد قليل لأننا قررنا أن هناك سبيلاً وحيداً لمعرفة ما يدور حقيقة في الاتحاد السوفيتي وهذا بالنسبة لي أن أتوجه إلي هناك بنفسي.

---

* أصدر الرئيس تعليماته أيضاً إلي ديك تشيني وكولين باول بتقديم أفكار جديدة وجادة لتقليل خطر نشوب حرب نووية. وبعد مناقشات وجدل مهم بين مستشاريه أعلن في ٢٧ أيلول سبتمبر سلسلة من الخطوات الجذرية شملت إزالة أو تدمير من جانب واحد للأسلحة النووية التكتيكية، إزالة الصواريخ الباليستية المتحركة العابرة القارات وصواريخ على آر إيه ايه الهجومية قصيرة المدي، واقتراح إزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه.

موسكو على شفا.....ماذا؟

في كل مرة أهبط فيها موسكو صادفتني مدينة جديدة على ما يبدو، ولم يكن العاشر من أيلول سبتمبر استثناءً من القاعدة. وفي الواقع كان اليوم الأول لي في موسكو يوماً سريالياً. وتوجهت من مطار فنوكوفو المهجور إلى حد موحش إلى الكريملين الذي كان يرفل في فوضى الأسابيع الماضية، ثم إلى البيت الأبيض الذي كان يمكن رؤية بقايا المتاريس حوله. وفي الحقيقة كانت المتاريس توجد على مسافات متساوية بين سفارتنا والبيت الأبيض، ويمكن رؤية الزهور وباقات الورود التي وضعت تخليداً للشباب الثلاثة الذين ضحوا بأرواحهم أثناء الانقلاب.

وقضيت معظم اليوم مع جورباتشوف ويلتسين، وأعطيت كلا منهما واحداً من الأعلام الأمريكية التي كانت مرفوعة على الكونجرس الأمريكي يوم الحادي والعشرين من آب أغسطس، وعقب اجتماعي مع يلتسين توجهت إلى اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا حيث شاهدت وزير خارجية ليتوانيا يلقي كلمته أمام الحضور. وفي تلك الليلة كتبت إلى الرئيس: «لو أن أحداً قال لنا قبل شهرين أن وزير خارجية ليتوانيا المستقلة سيلقي خطاباً إيجابياً للغاية أمام اجتماع مؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا بموسكو في أيلول سبتمبر لتساءلنا عما يتعاطاه. فذلك يجسد التغيرات الهائلة التي تحدث هناء.

كان جورباتشوف ويلتسين يتمتعان بثقة بالغة. وزالت عن جورباتشوف صورة المهزوز التي لازمته في أواخر آب أغسطس وحلت محلها صورته القديمة - الإصلاحي السوفيتي الواثق الذي لا يكاد ينتابه أي شك في الذات على الإطلاق. وكان يلتسين مفعماً بالقوة أيضاً. فقد حولته تلك اللحظات التي اعتلى فيها الدبابة والساعات التي أمضاها من مبتدئ مغامر مارق إلى شخصية عالمية حقيقية.

وقلت لجورباتشوف: «لقد مضى زمن الكلام إننا في حاجة للعمل. إن أمامكم فرصة عظيمة للتحرك لأن الضغوط قد زالت. ويتعين الآن أن تتحرك بحسم» وقلت نفس الشيء ليلتسين. وأكدت على حاجتهم إلى برنامج موثوق به يوضع بالاتفاق مع صندوق النقد

الدولى والبنك الدولى بهدف الانتقال نحو اقتصاد السوق الحر. ووافق الاثنان. لكن كلا منهما أكد الحاجة إلي المساعدة الأجنبية، وخاصة لتلبية الاحتياجات الإنسانية التى ستتفاقم علي الأرجح مع دخول الشتاء الروسى القارص.

وأشاد جورباتشوف فى دوائره الخاصة والعامة بالرئيس بوش لدوره الشخصى أثناء الانقلاب، وحملنى ببعض المشاعر لتوجيه الشكر للرئيس. وقال: «نعرف أنه بعد الانقلاب كان الجميع بالعي للرد معى، والآن فقط فإننا نري بأوضح ما يكون سواء داخل الاتحاد السوفيتى أو خارجه من كانوا معنا ومن كانوا ضدنا». وفى مؤتمرنا الصحفى طلب منى جورباتشوف تسليم الرئيس واحداً من أربعة أشرطة فيديو صورها فى القرم خلال أحلك ساعاته. وكان بالتسين يحمل تقديراً عالياً للرئيس، ولاسيما مكالمة الرئيس له فى ثانى أيام الانقلاب.

ولم تكن تلك نقاط الاتفاق العامة بينهما فقط علي الأقل فى تلك اللحظة. وبصراحة شديدة فقد فوجئت تماماً بمدي تعاونهما وتنسيقهما واتفاقهما حول عدد من القضايا. وسألت كليهما: «من الذى سيتحكم فى الأسلحة النووية؟ فنحن نقول علناً إننا نريد سلطة قيادة مركزية واحدة. ونحن لا نريد رؤية أكثر من دولة نووية». واتفق الاثنان علي أن المركز يجب أن يحتفظ بالسيطرة علي كافة الأسلحة النووية الاستراتيجية والتكتيكية، وأشار جورباتشوف إلي أن التسلسل القيادى يمر عبره. واتفقا أيضاً علي ضرورة وجود عملة وحيدة فى الاتحاد الاقتصادى الجديد. واتفقا أيضاً علي أن اتحاداً اقتصادياً جديداً وأنسب أشكاله معاهدة اقتصادية يعكف علي إعدادها جريجورى يافليذسكى مع الجمهوريات يعد أمراً جوهريا لحكم ما وصفاه «بمنطقة اقتصادية ناشئة».



لم تكن للعين تخطئ مدى حاجة كل منهما للآخر علي المدي القصير علي الأقل. وفى الحقيقة فقد أكد كل منهما لى علي قوة التعاون الوثيق بينهما. وأكد جورباتشوف علي شجاعة

يلتسين، وتحدث يلتسين عن جورباتشوف، ووصفه بأنه «رجل قد تغير» وقال: إن الاتصالات الهاتفية بينهما لا تنقطع طوال الوقت. ومنح موقف يلتسين ضد الانقلاب شرعية له لدي المواطن العادي، وهي شرعية كان يتوق لها جورباتشوف. وأصبح يلتسين يعرف بينهم بـ «قوجد» زعيم كالقيصر يمكن أن يوفر الاستقرار الذي يرغبونه بكل شدة بعد فوضي حقبة البيريسترويكا. وكانت تلك الشرعية هي ما يفتقده جورباتشوف الآن. وفي تلك الآونة كان يلتسين في حاجة إلي خبرة جورباتشوف لتسيير الحكومة. وكان يريد أيضاً علي ما يبدو المساعدة مع الجمهوريات الأخري التي كانت تخشي الروس بشكل عام ويلتسين بشكل خاص.

ومع ذلك كانت مجالات اتفاقهما تعكس في الصميم أساسا أفكاراً سلبية، فقد كانا في حاجة إلي ردع أي محاولة انقلابية أخري. إضافة إلي الحاجة لمنع التفسخ والفوضي العارمة وتجنب المجاعة. وقال جورباتشوف: «إن هناك قوي متعاطفة مع الانقلاب لم تفصح عن نفسها بعد. لقد قطعنا رأس الحية. لكننا نريد التحرك بأقصي سرعة لتجنب تكرار ما حدث».

وكان الإسراع بالتعاون مع الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة يشكل قضية أخري. ففي ضوء تزايد الغموض حول مستقبل الاتحاد السوفيتي كنا في عجلة «للتشبث» بالمكاسب هنا وهناك، فضلاً عن ذلك وللحصول علي المعونة الغربية كان يتعين علي موسكو تسوية عدد من مشكلات السياسة الخارجية. وقلت: «من المهم لنا جميعاً أن يكون بوسعنا الإشارة إلي بعض النتائج الملموسة لهذه الزيارات، ولاسيما في مجال السياسة الخارجية، فلنقرب بعض الأمور التي لم نستطع تقريبها من قبل. فلنأخذ بعض الإجراءات التي بوسعنا أن نأخذها لنوضح بجلاء أن يوماً جديداً قد أشرق هنا». واستجابا لطلبي، وفي الحقيقة فقد تنافسا في محاولة أن يكون كل منهما أكثر تعاوناً من الآخر. وضغطت بشدة علي كل منهما حول عدد من القضايا القديمة، ولاسيما شحنات الأسلحة إلي أفغانستان، والمساعدات المالية لكوبا، والتواجد العسكري السوفيتي فيها. وقلت: إن الغرب سيكون مستعداً لمساعدتهم لأقصي مدي، وأن يساعدهم في قضية الديون لو أوضحا أنهما لم يعودا يدعمان الأنظمة الشيوعية في مختلف أنحاء العالم. وقال جورباتشوف في مزحة ساخرة من الدين السوفيتي: «لقد أنفقنا ٨٢ مليار علي الأيديولوجية».

وكان يلتسين أكثر نزوعاً للعمل. لدرجة أنه عندما اقترحت وقف شحنات الأسلحة إلي أفغانستان ليعزز فرصة التوصل إلي تسوية في أفغانستان تدخل بقوة قائلاً: «سوف أبلغ جورباتشوف بأن يفعل ذلك». وعقب الاجتماع اتصل بجورباتشوف ثم عاود الاتصال بي وطمأنني بأن الاتحاد السوفيتي سيوافق علي مهلة الأول من كانون الثاني يناير١٩٩٢ لوقف شحنات الأسلحة إلي أفغانستان. وذهلت من السرعة التي يمكننا بها إحراز تقدم. فقد وافق جورباتشوف خلال اجتماعي معه علي بدء الانسحاب من كوبا. وبدون توقع موافقته استفسرت منه أثناء توجهنا لعقد مؤتمرنا الصحفي في قاعة سان بطرسبرج عما إذا كان بوسعه إعلان ذلك. وقال إنه يمكنه وقد فعل. وهيمن هذا الإعلان علي تغطية الصحافة وأثار ذعراً قوياً ومشاعر صعبة في كوبا التي لم تعلم بهذا الأمر للوهلة الأولي إلا من المؤتمر الصحفي. وفي وقت لاحق أبلغني بأنه سيتم خفض كافة أشكال المعونة العسكرية والاقتصادية مع الأول من كانون يناير١٩٩٢ وسوف ينسحب كافة الجنود السوفيت من كوبا في ذلك الموعد. واتضح لي أن الدافع الرئيسي لاتخاذ مثل هذه الخطوة غير المسبوقة في موسكو رغم فشل الانقلاب هو تمهيد الطريق أمام مساعدة أمريكية أكبر. وكانت اجتماعاتي مع بوريس بانكين وزير خارجية الاتحاد السوفيتي والدرية كوزيريف وزير خارجية جمهورية روسيا انعكاساً لاجتماعاتي مع رئيسيهما. وتعهد كلاهما بالتعاون التام*.

وفي المقام الأول كان أمام جورباتشوف ويلتسين بشكل عام مهمة سياسية في الأجل القصير بإقصاء من يتحدي سلطتهما. لكن علي المدي الطويل الذي سيتطلب تطوير برنامج عمل إيجابي فقد كنت أقل ثقة. وفي تلك الليلة كتبت إلي الرئيس: «لا أعلم إلي متي سوف يستمر تعاونهما. لكن كليهما يري بوضوح أنه في مصلحة كل منهما الآخر».

ولكن عندما تفحصت الوجه الجديد المثير للأمل في الموقف السياسي وجدت الأخطار الكامنة علي نفس القدر. فقد تقوض الاقتصاد. كما أن المعونة الإنسانية المطلوبة ضخمة للغاية. واستمر جورباتشوف في إظهار فهم أقل للخطوات الأساسية المطلوبة لتحويل اقتصاد موجه إلي اقتصاد سوق حر، وأكثر من أي شيء آخر بدت الفوضي تسود العلاقات

* بدأ كوزيريف الاجتماع بالإشارة إلي البقع الموجودة علي الجدران. كما ترى فإن جدراننا عارية. فقد كان هذا المبني مقراً للحزب الشيوعي وقد رفعنا اللوحات القديمة ولم نقرر بعد ماذا نضع مكانها.

الاقتصادية. «وفي لحظة ما، قال جوروباتشوف إنهم في حاجة إلي سيطرة محكمة علي أي صندوق استقرار، لأن الأمور تختفي هنا. فقد حصلنا علي الكثير من الأموال من أجل الوحدة الألمانية، وعندما سألت الرجال أُبْلَغْتُ بأنهم لا يعرفون أين هي. وقال لي ياكوفليف أسأل في كل مكان، وسوف تكون الإجابة لا أحد يعرف. وقال لي ياكوفليف في وقت لاحق «إنها ذهبت».

وأظهرت اللقاءات التي أجراها العاملون معي وموظفو السفارة مع رجل الشارع أن كل ما سمعوه هو مجرد كلام، وفي الوقت نفسه تزداد صعوبة الحصول يوماً بعد يوم علي الأغذية والسلع الأساسية عما كان عليه الحال قبل عام أو عامين. وقال أحد معارف مارجريت تاتويلر من زيارات سابقة إن أول من يضع الفودكا علي الأرفف سيكون هو الفائز بالجائزة. ويبدو أن هناك الكثير من التأييد الكامن لكل من يستطيع أن يعد بإقرار النظام. كان البعض أكثر صراحة. لقد ذهب ثمانية. لكن لايزال هناك الآلاف. وتمثلت المشاعر علي مايبدو في أنه لو لاحت فرصة جديدة للرجعية فإن الجولة الجديدة لن تكون عملاً ساذجاً.

وعزز تلك الانطباعات المباحثات التي أجريتها في اليومين التاليين. وبدأت يوم الخميس ١٢ أيلول سبتمبر مع إيفان سيلاييف رئيس اللجنة الاقتصادية الجديدة، وهو رجل واضح يتفجر بالطاقة. وتضم اللجنة يافلنسكي وكوزيريف ويافلينسكي الذي أصبح الآن أكثر اهتماماً بوضع خطة تضمن الحصول علي موافقة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. (وفي الليلة السابقة، وقبل العشاء أبلغ يافلينسكي بوب زوليك أنه كان ضمن المجموعة التي توجهت لاعتقال بوجو وزير الداخلية. وقبل دخولهم شقته «كان بوجو وزوجته قد انتحرا بالمسدسات».

وبدأ سيلاييف بتوجيه شكر ساخر لزعماء الانقلاب الذين قال إنهم دبروا للانقلاب في ذات الغرفة التي نجلس فيها. فقد عجلت تصرفاتهم بحدوث مواجهة بين المحافظين والإصلاحيين، والآن فإن الإصلاحيين هم الذين يعتلون القمة. ومع ذلك فقد بدا واقعياً بل وحتي متشائماً تجاه احتمالات تغيير دفة الاقتصاد. وقال سيلاييف: إن الوضع بالغ الخطورة. فجذور الهياكل السابقة لاتزال موجودة. وكذلك الذين دافعوا عن الأساليب القديمة. وربما كان هناك بعض المتهورين الذين يحاولون انتزاع بعض المميزات. وأوضح أن مهمة «إدارته

الانتقالية، هي تجنب وقوع مزيد من التدهور الاقتصادي وتفادي المجاعة. وتطرقنا إلي العلاقة بين المركز والجمهوريات. لكنني أحسست بأن هناك الكثير الذي يتعين عمله. وبينما أشار سيلايف إلي أنهم نجحوا في تقديم القضايا الاقتصادية علي القضايا السياسية فلم أكن متأكداً إلي أي حد سوف يمضون بدون حل مسألة العلاقات السياسية الملحة.

وأكد علي تلك النقطة محاوري التالي العمدة بوبوف الذي قال: «إن كل جمهورية تجد نفسها في وضع مختلف عن الأخري. فبعضها يمكنه الاستمرار بإمكانياته الذاتية. لكن ليس بوسع جمهوريات أخري الاعتماد علي إمكاناتها. إن هذا سيبدو مثل الكعكة الملفوفة. وبرأيه فليست هناك حكومة قوية. فليس هناك سوي العصبية والغموض. وربما تجد روسيا نفسها مضطرة لتولي دور المركز. وسوف ينضم الآخرون. لكن لن يحدث هذا إذا كان لروسيا دور حاسم. والغرب في حاجة لمنح مساعداته إلي المركز. لكن بطريقة تمول دون إعادة تشكيل المركز، وهي ليست بالمهمة السهلة علي الإطلاق.

وأكثر من الزعماء الوطنيين كان العمدة منشغلاً بمشاكل حقيقية مثل إطعام سكان موسكو. وقال: «إن موسكو ليس بوسعها إعالة نفسها خلال الشتاء. إننا في حاجة لخمسة عشر ألف طن من البيض ومائتي ألف طن من الحليب وعشرة آلاف طن من البطاطس المهروسة. ولدي جيشكم مخزون من بعض هذه المواد سيتم التخلص منها بعد ثلاثة أعوام لكن موادنا تكفي الإعاشة لثلاث سنوات أمر يناسبنا تماماً». كان اعترافاً خطيراً بمشاكل تواجه بلداً تحدث زعماؤه ذات مرة عن دفن الغرب.



وكان اجتماعي مع شيفرنادزة هو أشد الاجتماعات إثارة للعواطف علي الإطلاق. فبعد تسعة أشهر من تحذيره من مغبة حدوث انقلاب واستقالته دفاعاً عن المبدأ هاهو لاحقاً ينضم بشجاعة إلي يلتسين لإفشال الانقلاب. وأحسست بأنني هنا مع رجل الاستقامة. ولي الشرف

بأن أدعوه صديقي. وقال: إن هناك فراغاً في السلطة والشرعية واضطرابات اجتماعية هائلة تموج بها البلاد. ومطلب مدا عدم الحكم علي البلاد بما يدور في موسكو وسان بطرسبرج. ففي أماكن أخري لا يتمتع الديمقراطيون بالقوة الكافية. وكان هو أيضاً يشعر بالقلق من الشتاء. وقال: «إن الناس قد تنزل إلي الشارع وهذا خطر حقيقي قائم. واعتقد أن جورباتشوف قرر أخيراً التحرك بطريقة جذرية. فضمير صديقي يضمر الكثير. إن أبسط تحليل يكشف عن أن هذا التهديد كان حقيقياً. وقد قام بإجازة بعد إجراء بروفة لهذا الانقلاب ولم يلحظه.»*

وقال شيفرنادزة أيضاً: إن الثقل والقوة الحقيقية في الاقتصاد انتقلت إلي الجمهوريات، ومرة أخري أكدت الحاجة إلي ترتيب ما حتي يعرف العالم الخارجي أين تكمن القوة الحقيقية في مجال الاقتصاد. وهذه أيضاً حتمية تدعو لتطبيق برنامج اقتصادي موثوق به.

وفي المجال السياسي كان شيفرنادزة يتطلع كعادته دائماً إلي المستقبل. وأشار إلي أن المبادئ الخمسة ستؤتي ثمارها في الفترة الانتقالية. لكن علي المدي البعيد فالأمر مختلف تماماً. وتوقع أن تصبح الأصولية هي مشكلة آسيا الوسطي مع نهاية القرن. وأسر لي: «سوف تجد نفسك في عالم جديد تماماً. عليك أن تبلغهم بضرورة إقامة اتحاد جديد، وإلا فسوف تعم الفوضي».



وفي ذلك المساء، وعندما استضفت زعماء الجمهوريات علي العشاء شارك فيه مزيج من رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات ووزراء الخارجية. شاهدت حول المائدة وأثناء المباحثات صورة مصغرة للاتحاد السوفيتي المنتظر بعد الانقلاب ومشاكله. وأياً كانت النشوة التي غمرتهم بإعلانات استقلالهم بعد الانقلاب فقد تبددت لتفسح الطريق أمام قدر مهم من

* أبلغني جورباتشوف أن الحقيقة هي أن الانقلاب كان متوقعاً منذ ثمانية عشر شهراً.

الواقعية. وأشار رئيس وزراء مولدافيا فاليريو موراقسكى* إلى أن الاستقلال شيء قيم، «لكن علينا أن نعيش، وأن نتحلي بالواقعية» كانت هذه هي النغمة الثابتة التى سمعتها من كل واحد من زعماء الجمهوريات باستثناء وحيد هو فيساريون جوجوشفيلى رئيس وزراء جورجيا رغم تحدثه عن الحاجة إلى إقامة تعاون اقتصادى بمجرد أن تحظي جورجيا بالاعتراف الدولى.

وأشاروا جميعاً إلي أهمية المبادئ الخمسة، وعندما أكدت علي أن العلاقات مع الولايات المتحدة وتأييدها سوف يعتمد علي مراعاة تلك المعايير وجدت موافقة عامة. وكتبت إلي الرئيس فى تلك الليلة: «إن المبادئ الخمسة يمكن أن تصبح أداة مفيدة للغاية فى التأثير علي سلوك زعماء الجمهوريات» واعترف الزعماء أيضاً باتفاقهم حول ما وصفوه «بمنطقة اقتصادية واحدة» وتفهمهم لحتمية التعاون والتنسيق حول المعونة. واستعرضت الصعوبات التى ستواجه الغرب فى تقديم المعونة الإنسانية والمعونات الاقتصادية الأخري فى غياب ترتيبات تحدد سلطة صنع القرار الاقتصادى.

وكان من الواضح أيضاً أن المشاعر القومية ليست علي درجة كبيرة من العمق. وانتهي بى الحال فى نهاية المساء كوسيط بين سيلاييف ورئيس الوزراء الأوكرانى فيتولد توكين. وأبلغنى الزعيم الأوكرانى أن أوكرانيا سوف توقع علي اتفاقية الاتحاد الاقتصادى شرط أن تتلقي ضمانات بأن توزيع المعونة الخارجية سيتم علي قدم المساواة، وهو ما لم يكن الحال بالنسبة لأموال الوحدة الألمانية. ووافق سيلاييف علي تقديم مثل هذا الالتزام. لكن الشكوك المتبادلة كانت بالغة الوضوح. كان من شبه المؤكد أن الضغوط القومية فى السياسة التنافسية الجديدة لكل جمهورية ستفصح عن نفسها. ومهما كانت الأسباب الاقتصادية الرشيدة التى تدفع للتوحد فقد كانت أكثر توازناً من الأسباب السياسية التى تدفع نحو التفسخ.



---

* غيرت مولدافيا اسمها إلي مولدوفا كمثال علي الثقافة الوطنية التى اكتسحت الاتحاد السوفيتى وطرأت تغييرات أيضاً لى جمهوريتين أخريين. فقد تغير اسم بيلاروسيا إلي بيلاروس وقرغيزيا إلي قرغيزستان.

وبدأت يوم الجمعة بالاجتماع مع ياكوفليف رفيق سلاح شيفرنادزة، واستهل بالقول: «إن من الصعب فهم أن هذه ثورة حقيقية، وخاصة في تفكير الشعب». وشدني هذا التناقض الشخصي فشيفرنادزة وياكوفليف رجلان دمثان متحضران كان دورهما قويا في إفشال الانقلاب. وقال: لقد ذهب ابناي إلى المتاريس الموضوعة حول البيت الأبيض. ولم أكن أتصور أن يحدث هذا، والآن فإن السلطة في أيدي الديمقراطيين. ولا يعرف الكثيرون حقيقة ماذا تعني الديمقراطية. إنهم يمارسون الحرب فحسب».

وحذر من أن أخطاءً سوف ترتكب، لأننا نشغل بعض الوظائف بمدنيين فمع كرئيس ال كي جي بي الجديد، وهو مدني بنسبة مائتين في المائة. وعلمت أن القائد الجديد لشرطة موسكو لا يعرف شيئا عن مهام رجل الشرطة. لكن علينا أن نحمي الديمقراطية بالمدنيين». وشعر بأن انتحار الماريشال أخروميييف بعد ثلاثة أيام ينطوي على مأساةحقيقية. وأشار إلى بسميرتنيخ، بأنه رجل جيد وديمقراطي صحيح. لكنه يفتقر إلى الشجاعة».

واجتمعت مع وزير الدفاع الجديد يفجيني شابوشنيكوف في قاعة اجتماعات كبيرة مزدانة بخمس لوحات جدارية ضخمة لمعارك حربية في الطابق الخامس بمقر وزارة الدفاع الذي مررنا أمامه عدة مرات لكن لم يستقبل به أي من وزراء الخارجية الأمريكيين. وبدأ الوزير طرحه بالإشارة إلى «أن هذا لم يكن انقلابا عسكريا،فنحن لم نستخدم أي سلاح ضد شعبنا. فقد فعلته مجموعة صغيرة من الانقلابيين لم تكن تعي ما يجري في بلدنا. كان عليهم ان يطلوا من نوافذهم. كان عليهم أن يسيروا. إن الشعب والجيش والعصر الذي نعيشه هم الذين أوقفوا الانقلاب. فالديمقراطية تيار كبير وليست تيارا ضيقا كما اعتقدوا. لقد انتقلت بلدي إلى طريق الديمقراطية»

وقلت له: أعي ذلك ،وقد أشرنا إلى شجاعته الشخصية أثناء الإنقلاب واستفسرت عن رؤيته للجيش السوفيتي الذي يتناسب مع الديمقراطية الجديدة .

وقال إنه اجتمع مع زعماء الجمهوريات. وأن جمهوريات البلطيق تمثل حالة خاصة. إنها تريد انسحاباً فورياً للجيش السوفيتي. وقال: «لو بنيت مساكن في روسيا فسوف أنقلهم

بأسرع ما يمكن، وقد أُبلغ زعماء البلطيق بأن الأمر سيستغرق بعض الوقت. لكنه يشعر أنهم يتفهمون المشكلات التي تواجهه.

وبالنسبة لشابوشنيكوف فإن التحول الاقتصادي كان يمثل التحدي الأول، رغم أنه حذرني على الصعيد السياسي: «أرجو ألا تتسرعوا في الاعتراف بكل تلك الجمهوريات الجديدة» . ثم تحول بشيئ من البراءة إلي مارجريت تاتوبلر. أرجو من السيدة تاتوبلر ألا تقول أمام التليفزيون شيئاً عما قلته للتو. وطمأنته إلي أننا لن ننسب إليه شيئاً في تصريحاته للصحافة الأمريكية، وكم يكشف هذا مدي حداثة، بل وحتي سذاجة الزعماء الجدد. وكان مثل جورباتشوف صلباً في اعتقاده بضرورة السيطرة المركزية علي الأسلحة النووية التكتيكية . فضلاً عن ذلك كان شابوشنيكوف والجنرال أوليج لوبوف الرئيس الجديد لهيئة الأركان الذي اجتمعت معه لثلاثين دقيقة يكثفان علي إجراء عملية تقييم لحجم وشكل الجيش. إضافة إلي هيكل القوة. وكان كلاهما يتوق إلي الاجتماع مع ديك تشيني وكولين باول، وكنت مقتنعاً بأن هذا يمكن أن تكون له آثار علي سلوك موسكو خارجياً. ليس علي المدي البعيد فحسب. بل ويمكن أن يساهم في جعل الجيش أكثر قدرة علي الدفاع عن الإصلاح داخلياً.



ومثلما هو الحال في كل اجتماعاتي لحظت العلاقات بين المركز والجمهوريات الصدارة في مباحثاتي. كان وزير الدفاع السوفيتي يريد إجراء إصلاحات ستحدث تغيرات جذرية في طبيعة الجيش السوفيتي ليعكس التوازن المتغير بين المركز والجمهوريات، وتحدث شابوشنيكوف عن الجيش الذي ارتبط بالفعل باتفاقية علاقات مع كل جمهورية. وحدد قائلاً: إن تواجد الجيش في أي جمهورية سيتم صياغته وفقاً لعقيدة محددة تقتضي من الجيش حماية حدود الجمهورية مع إلزامه بعدم التدخل في الشئون الداخلية للجمهورية. وأشار إلي

أن القائد المحلي سيكون ضمن التسلسل القيادي لرئاسة الأركان. لكنه سيعمل بالتنسيق مع مجلس محلي من بين عشرة أو خمسة عشر زعيماً محلياً في كل جمهورية، وطلب الاطلاع علي اتفاقية وضع عام للقوات (سوفا) وهي الإطار القانوني الذي تستخدمه لدي تمركز القوات الأمريكية في الخارج واضعاً نصب عينيه صياغة العلاقة بين الجيش وكل جمهورية، ورغم أنه كان قائداً للقوات الجوية فقد أراد تحويل وزارة الدفاع إلي مؤسسة تستند إلي أساس مدني. وكان مهتماً أيضاً بتغيير صورة الجيش في المجتمع السوفيتي باستمارة عقيدة قضائية محلية مثلما تستخدم في محاكمة أفراد الجيش الذين يرتكبون جرائم. وكان يعتقد أن هذا سيحول الجيش إلي جيش محترف وأقل تهديداً في عيون الرأي العام.

وفي وقت لاحق بعد ظهر اليوم وصلت إلي ميدان دزيرجينسكي الذي يوجد به مبني لوبيانكا مقر الكي جي بي لأجد فاديم باكاتين الرئيس الجديد للجهاز في انتظاري علي حافة الرصيف للترحيب بي. وقال أمام صحافتنا «أشعر بشيء من العصبية» وهو ما وجدت فيه اعترافاً صريحاً ملطفاً. فإذا كان قد حدث واجتمع وزير خارجية امريكي مع وزير الدفاع السوفيتي بمقر وزارة الدفاع فليس من المستغرب أن يعقد اجتماعاً مماثلاً في عرين الكي جي بي نفسه، وأثرت معه مجموعة من القضايا التي نحتاج مساعدته فيها، ولاسيما قضية أسري الحرب والمفقودين في فيتنام. وقال: «سوف نفتح الملفات فربما كان هنالك شيء يخص أسري الحرب والمفقودين في فيتنام، ولكن لنكن أمناء فإن هذه المنظمة غير معروف عنها الاحتفاظ بسجلات مكثفة. كما أنهم دمروا الكثير منها، ولا أعرف ما إذا كنا سنعثر عليها». وقال: إنه سيعمل علي إصلاح هيكل الكي بي جي. فقد توسعت الكي جي بي وتضخمت إلي حد كبير. وستقوم بضبطها.

وفي الأسبوع الماضي استضاف باكاتين اجتماعاً ضم رؤساء الكي جي بي في الإثنى عشرة جمهورية واتفقوا علي الحل للجمهوريات لا فوقها. وستكون مهمته تنسيق الجهود، وتحدث عن تحويل الكي جي بي إلي منظمة أشبه بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية سي آي إيه. وأكد باكاتين علي أن دورها الأساسي سيكون الاستخبارات الخارجية لا القمع السياسي الداخلي أو التخويف. وشعر بضرورة وجود أساس قانوني للكي جي بي، وعكف علي دراسة كيف يساهم القانون الأمريكي في دعمها وتعزيزها وتميزها.

وتساءل عما إذا كنا سنكون منفتحين حول تكاليف التبادل بين الكى جى بى والسى آى إيه وهو ما يراه مفيداً على الأقل من ناحية الأثر الذى سيتركه ذلك على تحويل الكى جى بى إلى مؤسسة محترفة كما يريد. وقلت لنفسى إن هذا بلد داعر فقبل شهر واحد كان رئيس الكى جى بى يعتقل الرئيس جورباتشوف، والآن يدرس رئيسها القانون الأمريكى لمحاكاة المخابرات المركزية الأمريكية.

كان فاتراً لكنه مخلص وصريح ولم يظهر انفعاله إلا عند التطرق إلى مناقشة العلاقات بين المركز والجمهوريات. ودفع باكاتين قائلاً: إن زعماء الجمهوريات يتصرفون بشكل غير مسؤول. استقلال، نعم. ليكن ولكن ليتصرفوا بمسؤولية. إننى لا أتحدث عن دول البلطيق، ولكن عن الآخرين إنهم يعتقدون أن الانفصال سوف يساعدهم، وأن الغرب سوف ينقذهم. ولا يسعنا سوى العيش معاً – ليس كما كان الحال فى الماضى – ولكن معاً وخاصة فى أوكرانيا.

وقلت له: إننى أشعر أن الجمهوريات سوف تتعاون اقتصادياً.

ووافق ولكنه أكد: «إننا فى حاجة إلى الاستقرار السياسى، وإلا فسوف ننزلق إلى هاوية. فروسيا وقازاقستان وأوكرانيا لا يمكن أن تعيش بدون اتحاد، إننا نريد اتحاداً فضفاضاً لكى تشعر الناس بالأمان».



وفى ذلك المساء توجهت بالطائرة إلى سان بطرسبرج (التى استعادت اسمها القديم بعد أن حملت اسم لينينجراد لسبعة وستين عاماً.) لحضور مأدبة عشاء مع أناتولى زوبتشاك عمدة المدينة الذى كان شجاعاً مثل يلتسين فى تحدى الانقلاب. (وساعده الكولونيل جنرال فيكتور سامسونوف قائد منطقة لينينجراد العسكرية الذى رفض نشر قواته أثناء الانقلاب، وجلس سامسونوف إلى جوار زوبتشاك خلال العشاء. وأسرتنى شخصية زوبتشاك الكاريزمية وأحسست أنه فى سبيله للانضمام إلى القيادة الوطنية، وإلى جانب جاذبيته الشخصية كان

مشحوناً بأفكار جديدة. كانت عظيمة مثل طلبه البيض والطيب والمساعدات الإنسانية الأخرى. وفيما أنا استمع إليه شدني تحمسه وقيمه. لكن كافة الإصلاحيين يفتقرون إلي المعرفة العملية بسبيل إقامة مجتمع مدني. كما أن آرائهم حول اقتصاد السوق الحرة بالغة السذاجة. فالشيوعية لم تدمر الحرية فحسب بل قضت أيضاً علي الأفكار العملية اللازمة لنيلها. وتأكدت أن زوبتشاك والآخرين سيكونون في حاجة إلي إيجاد طريقهم الخاص لإقامة الديمقراطية والسوق الحرة، وأنه في الوقت الذي يمكننا أن نقدم المساعدة في هذه المهمة الشاقة فلا يمكننا أن نحل محلهم في تلك الجهود. وأنا أتلفتُ حولي انتابني إحساس بالسخرية لأن أكون في سان بطرسبرج مسقط رأس الثورة البلشفية، وأن أصغي إلي واحد من حلقة الرجال المسؤولين عن إزالة ميراث لينين. وتساءلت عما سيحكم به التاريخ علي رجال مثل زوبتشاك ويلتسين، وراودني الأمل في أنه سيكون منصفا .

وفي مذكرة إلي الرئيس لخصت التحدي الذي نواجهه: « إن الحقيقة الحالية هي أن لنا مصلحة هائلة في نجاح الديمقراطيين هنا. إن نجاحهم سوف يغير العالم بطريقة تعكس قيمنا وآمالنا. إن ما قد يكون علي المحك هو ما يعادل إنعاش ألمانيا واليابان ما بعد الحرب كحلفاء ديمقراطيين لكن في هذه المرة بعد حرب باردة طويلة لا بعد حرب ساخنة قصيرة. إن فشل الديمقراطيين سيوجد عالما أكثر خطورة وتهديدا، ولا يساورني سوي القليل من القلق أنه إذا لم يستطيعوا البدء في تسليم السلع فسوف يبرز زعيم متسلط من اليمين المناهض للأجانب».

وفي ضوء الخلافات طويلة الأمد أعتقد أننا في حاجة إلي التحلي بالواقعية في الاعتراف بأن النجاح قد يرقى إلي منع رد فعل مضاد ويمنح الديمقراطيين مجالا ووقتا للنهوض بما سيكون رحلة طويلة. لكنها ستكون في حد ذاتها ميراثا تاريخيا.

دول البلطيق المستقلة آخر المطاف.

أمضيت اليوم التالي ، السبت الثاني عشر من أيلول سبتمبر أطوف بدول البلطيق بدءً بتالين ثم ريجا لأحط في النهاية في فيلنيوس قبل العودة إلي سان بطرسبرج. وكان كل

توقف يوضح اختلافا هاما عن موسكو وسان بطرسبرج رغم انه لايُنكَر بالانقلاب. ففي كل موقع زرته شاهدت إما متاريس أو أكياس رمال أو صخور مستديرة ضخمة موضوعة أمام المباني الحكوميه لحمايتها. وتمثل الاختلاف الي حد ما في وظيفة الحجم؛ فموسكو وسان بطرسبرج تشبهان نيويورك ولوس انجلوس في الضخامه وكبر المساحة. ولكن مدن البلطيق تبدو مختلفة، وغمرني شعور حقيقي بأنه تحت الواجهة الشيوعية تتواري جذور تاريخية ووطنية مؤهلة للإبداع.

وفي الدول الثلاث كان هناك شاغل مفهوم حول الحاجة إلي التجديد الاقتصادي والإسراع لإيقاع « الطلاق مع الاتحاد السوفيتي» علي حد قول إدجارسافيا رئيس وزراء استونيا. ويبدا أن الاستونيين كانوا الأكثر تقدماً فى مجال الإصلاح الاقتصادي، وقد يرجع السبب أساساً إلي ارتباطهم الوثيق لبعض الوقت مع فنلندا. وترك زعماء البلطيق انطباعاً مؤثراً للغاية -وخاصة رئيس الوزراء جودمانيس- حيث كانوا يقودون شعبهم نحو أكثر التوجهات أهمية من زاوية الإصلاح الاقتصادي، وفي ليتوانيا تحدث لاندسبيرجس وجيديماناس فاجنوريس رئيس الوزراء «بلغة» الخصخصة والإصلاح الاقتصادي. لكن يتعين التأكد مما إذا كانوا علي استعداد تام «لقطع المسيرة».

كان زعماء البلطيق مهتمين بصفقة المعونة التى وافق عليها الرئيس، وأعلنتها فى كل توقف. لكنهم رأوا أن لزيارة وزير خارجية الولايات المتحدة لبلادهم أهمية سياسية بالغة، فقد أبلغ ألجيرداس سودارجاس وزير خارجية ليتوانيا أحد زملائي -بقدر كبير من المبالغة- عندما خرج وزير الخارجية من الطائرة، نظرت فى ساعتى. إنها خطوة مهمة تماثل فى أهميتها هبوط نيل آرمسترونج علي سطح القمر. وكان لعرضنا بإيفاد مندوبي فيالق السلام، وقع كبير، فقد قال الرئيس الأستوني أرنولد روتيل: «أرجو أن توفد ثلاث كتائب».

لكن إخراج القوات السوفيتية كان قضيتهم الملحة. وكان الاستونيون يريدون إثارة القضية علي المستوي الدولي للضغط علي السوفيت، وكان اللاتفيون مستعدين لتسوية القضية علي مراحل. وكانوا يريدون أولاً أن تنسحب القوات من المناطق المدنية وتتمركز فى القواعد العسكرية فقط. وكانوا يريدون ثانياً وضع آلية لاستكمال الانسحاب. كانت الدول

الثلاث تواجه صعوبة واحدة كبرى فيما يتعلق بالقوات، فهناك نقص حاد في المعلومات من جانب موسكو حول وضع القوات والعتاد والمنشآت في تلك الجمهوريات. وأبلغني الرئيس أناتوليس جوربونوفس: «إننا نريد أن نكون منطقة خالية من الأسلحة النووية .ووفقاً لما يعلنه السوفييت فليست هناك أسلحة نووية علي أراضينا، لكننا لا نعرف مدي دقة هذه الإعلانات. كان الليتوانيون متصلبين ويصرون علي أمور لن تحدث مطلقاً علي المدي القصير مثل الانسحاب الفوري والكامل للقوات السوفيتية ونزع سلاح بيلاروسيا وفرض قيود علي نقل العتاد العسكري إلي كالينينجراد، وهو شريط من الأراضي السوفيتية ملاصق لبولندا وأصبح معزولاً الآن بعد استقلال ليتوانيا. وأرادت الدول الثلاث أن تتصدي الولايات المتحدة لإثارة قضيتهم مع موسكو.

واستمعت إلي كل ما أراد كل زعيم أن يقوله، وأبلغتهم بأننا نأمل في أن يحدث الانسحاب السوفيتي بأسرع ما يمكن وسنحث هذا للسوفيت. لكن عليهم أن يتفاوضوا علي القضايا المحددة مع السوفيت. ونقلت النقاط التي أثارها شابوشنيكوف معي: أن السوفيت يتفهمون ويعترفون باستقلال البلطيق ولاينساورهم أي وهم في إمكانية بقاء قواتهم فيها. فضلاً عن ذلك فسوف يتم تسريح مواطني البلطيق من القوات السوفيتية. وبسبب نقص المساكن فسوف تكون موسكو في حاجة حتي الأول من كانون الثاني يناير١٩٩٤ – وهو موعد تم ربطه بوضوح باكتمال توحيد ألمانيا – لإكمال الانسحاب. لكن القوات التي ارتبطت بأعمال استفزازية لاسيما ذوي الباريهات السوداء سيتم سحبها علي الفور.

ورفض الليتوانيون كل هذا، وبدا الاستونيون مهتمين بها أما اللاتفيون فقد أبدوا اهتماما واضحاً. وكتبت إلي الرئيس: «ربما نسمع بعض المواقف المتحمدة، وسوف يلين موقف الليتوانيين عندما يتعاملون مباشرة مع الجيش السوفيتي. والشئ الوحيد الذي أعتقده بقوة هو أنه يتعين علينا ألا نتغمس». وقلت إن غير ذلك سوف يلقي علينا بالمسؤولية في الوقت الذي نحتاج فيه أن نكون علي الهامش لجذب كل طرف نحو الاتفاق.



وإلي جانب القوات السوفيتية كان علي كل دولة من تلك الدول الجديدة التعامل مع مشكلة الروس والآخرين الذين تم توطينهم خلال الاحتلال السوفيتي، ويدعون الآن أن وطنهم هو دول البلطيق. وخلال اجتماعاتي أكدت علي مبادئ هلسنكي في احترام حقوق الإنسان ومعاملة الأقليات علي قدم المساواة. ومرة أخري بدا اللاتفيون الأكثر تعقلاً. وكان الاستونيون أقل تعقلاً حيث أرادوا ضرورة مغادرة كافة الروس العاملين في مجالات الدفاع والأمن الداخلي أو قطاع الصناعات العسكرية لاستونيا -بغض النظر عن طول فترة تقاعدهم أو فترة عيشهم في استونيا. وبدا الليتوانيون الأقل تسامحاً في قضية الروس. وفي الوقت الذي أوضحوا فيه أنهم لا يبرئون فيه كل الذين سجنهم السوفيت لارتكابهم جرائم حرب في الحرب العالمية الثانية. فقد لمست شعوراً متأصلاً بأن بعض المواطنين أرقي من الآخرين في عيون الليتوانيين. وكان هذا تذكار آخر بأن الشيوعية جمدت العداوات العرقية طويلة العهد في مكانها، والآن ومع ذوبان جليد الحرب الباردة عن المرجح للغاية أن يقع محور الصراع علي الحدود العرقية ولا يوجد في التنافس بين الدول.

آلما آتا: هل لايزال اتحاداً سوفيتيا؟

أمضيت معظم يوم الأحد في رحلة طيران لنحو ست ساعات باتجاه الشرق والجنوب قاصداً ألما آتا* عاصمة قازاقستان. وتقع ألما آتا «أرض التفاح» علي مكان مرتفع بالجبال التي تفصل الاتحاد السوفيتي عن منغوليا والصين والهند وإيران والدول الأخري الواقعة في الجنوب. وفيما أتطلع إلي القمم الوعرة والسفوح القاحلة انتابني إحساس لوهلة أنني قد عدت إلي وايومينج وسرعان ما عرفت أن الرئيس نورسلطان نزار باييف أراد أن يشعرني أنني في وطني.

---

* تغير اسمها إلي أكمولا وقرر برلمان كازاخستان اتخاذ أكمولا عاصمة للبلاد مع أوائل القرن القادم. وتقع أكمولا بوسط كازاخستان علي نهر أشيم في منطقة السهول توجد بها مناجم الفحم والنحاس والذهب. قد تنخفض بها الحرارة إلي ٤٠ درجة مئوية تحت الصفر في الشتاء. عدد سكانها نحو ثلاثمائة ألف نسمة. تأسست عام ١٨٣٠. كانت تسمي تسالينوجراد في الحقبة السوفيتية. اسم أكمولا يعني بالمقبرة البيضاء لكن الكازاخيين يقولون أن الاسم يعني بالمعبد الأبيض. تبعد ١٣٠٠ كم شمال العاصمة الحالية. وأخيرا تقرر تغيير اسم العاصمة إلي الأستانة (المترجم).

وفي تلك الليلة حلت سوزان معي مضيفين علي نزارباييف وقرينته وابنتهما علي عشاء خاص لم يشاركهم فيه من جانبنا سوي بوب شتراوس وديتيس روس وبيتر أفاناسينكو وعزفت ابنة نزار باييف علي البيانو أمامنا، وشربنا عدة أنخاب تحية لما أسماه الزعيم القازاقستاني «التحالف القازاقستاني الأمريكي الاستراتيجي». وبمجرد أن غادرت زوجته وابنته سارة عقب إنتهاء العشاء، شرع في شرح سبب حاجة بلاده لمثل هذا التحالف. وأشار: «لو طفت ببلادنا سوف ترى الأطفال الروس يضربون الأطفال القازاق. هذا هو الأمر بالنسبة لي. ليس من السهل العيش معهم». ونزاباييف رجل بالغ الذكاء وقدير وكان حليفاً ومريداً قوياً لجورباتشوف. وكان قلقاً بشكل خاص من يلتسين والزمرة المحيطة به «مافيا سفير دلوفيسك»* المنحدرين من مسقط رأس يلتسين فيما وراء الأورال. وفي صورة طبق الأصل من الرسالة التي نقلها تاراسينكو إلي كولينز حذر نزارباييف من «قوميتهم الخطيرة». ويريد القازاق الذين تحيط بهم قوة عظمي من كل جانب تقريباً. للوصول إلي الولايات المتحدة باعتبارها القوة الوحيدة في العالم التي يمكنها ضمان سلامهم وأمنهم.

وعرض عليه روس المبادئ الخمسة. وكان من الواضح أنه تفهم كيف يمكن أن تساعده هذه المبادئ في حماية بلاده من غلاة القوميين للروس. ومع ذلك فقد بدا أقل اهتماماً بالعناصر الديمقراطية فيها. وأكدنا علي أن مراعاة تلك المبادئ سيكون حاسماً – ليس من أجل الدعم السياسي الغربي فحسب بل للمعونة الغربية أيضاً.

وعقب انتهاء الاجتماع سأل نزارباييف عما إذا كنت قد استمتعت بحمام ساونا «علي النمط الشرقي» وعندما أجبت بلا، قال بكل بساطة: «هيا بنا» وقد توثقت معرفتنا للغاية وكان كريماً للغاية. وبدا أن هذا هو أقل ما يمكن عمله، وسرعان ما تجرد مترجمنا بيتر أفاناسينكو وبوب شتراوس وأنا من ملابسنا وجلسنا مع نزار باييف وصحنا الفودكا في باتيا الرئاسة – وهي حمام ساونا روسي أكثر اتساعاً وراحة حتي بالمعايير الغربية. وانتظر رون مازير وبقية الفريق الأمني في الخارج مع ديتيس روس الذي توسل معتذراً بدعوى إصابته بالبرد.

* كان اسمها Ekaterin Burg وأيضاً Yekaterin Burg أسسها بطرس العظيم عام ١٧٢١ وأطلق عليها اسم زوجته الامبراطورة كاترين الأولي. سجن فيها العائلة الإمبراطور نيكولاس الثاني وعائلته عقب ثورة عام ١٩٠٧م. وأعدموا جميعاً في ١٦ تموز يوليو ١٩١٨ أعيد تسميتها عام ١٩٢٤ نسبة إلي زعيم شيوعي

وحدثنا نزار بابيف عن عادات وتاريخ القازاق، وحاول بيتر أن يترجم لنا عبر البخار لكنني أنا وشتراوس كنا قد تركنا القلق الجيوستراتيجي وراء ظهورنا. وبعد نحو عشرين دقيقة التقط حزمة كبيرة من أغصان الأوكالبتوس* وضربني على ظهري وقدماي لكي تتفتح المسام وأزيد الأثر العلاجي للحرارة. ولدى رؤيته ذلك قال شتراوس إنه اكتفى وخرج وقال لمجموعة من الأمن بالخارج مازحاً: «اللعنة، هاتوني رئيس الولايات المتحدة على الهاتف، إن وزير خارجيته ينتفض عارياً ورئيس قازاقستان يضربه!».

وأنهينا اللقاء بتمني ليلة طيبة لنزار بابيف بعد منتصف الليل للعودة إلى منزل الضيافة الرئاسي لأجد معظم العاملين معي مستيقظين وهم يعتقدون أنني قد طرحت مبادرة كبرى جديدة!. وسألوا: كيف سار الأمر؟ وقلت «عظيم» .. دون أن أشفي غليلهم .



وفي اليوم التالي، وبينما طائرتنا ترتفع نحو السماء لتحلق فوق الجبال للقيام بجولة مكوكية أخرى في الشرق الأوسط كنت شديد الامتنان لفشل الانقلاب وتجنب الكارثة المحتملة. لكن كان من الواضح للغاية أننا لم نخرج من الغابة بعد فيما يتعلق بالتغيير الجذري في الاتحاد السوفيتي، وكذا من الواضح أيضاً تماماً أن تحديات صعبة تنتظرنا.

---

* الأوكالبتوس كلمة معربة عن اليونانية، وتعني الستر أو المغطاة لوجود ما يشبه العمامة يغطي الزهرة. شجر من الفصيلة الآسية يجود في الأرض الرطبة ولا يحتمل البرد. أنواعه كثيرة. بعضها كبير وبعضها صغير يستعمل ورقه وزهره في الطب ويستخلص منه دهن عطر. (المترجم).

الفصل التاسع والعشرون

المستوطنات وضمانات القروض وسياسة السلام

في سبيل ٣٫٩ مليون يهودي إسرائيلي ومليون من عرب إسرائيل لا يتعين رهن مستقبلهم بسبب مائة ألف مستوطن في الأراضي فإنني أعتزم المثابرة.

إسحاق رابين

لوزير الخارجية بيكر

القدس، ٢٠ تموز يوليو ١٩٩٢

قيل وكتب الكثير عن العلاقات العاصفة غالباً بين الولايات المتحدة وإسرائيل خلال إدارة بوش، ولن أنكر هذا الأمر الواضح. ورغم التزام أمريكا الراسخ بأمن إسرائيل منذ لحظة تأسيسها، وهو الالتزام الذي أكدته إدارة بوش مبكراً ومراراً فقد توترت علاقاتنا الثنائية في الحقيقة بشكل دوري خلال فترة عملي وزيراً للخارجية. وفي المقام الأول وخلال فترة الشهور الثمانية العاصفة بشكل خاص عام ١٩٩١ فقد درسنا بجدية إعلان أن سفير إسرائيل لدي الولايات المتحدة شخص غير مرغوب فيه. كما أقدم رئيس وزراء إسرائيل علي اتهام الولايات المتحدة بإيذاء «المشاعر اليهودية والصهيونية في الصميم» وهو إدعاء لا يستحق الالتفات إليه علي الإطلاق.

ومع ذلك فمن المهم عدم إغفال حقيقة أنه علي الرغم من تلك التوترات بسبب الاختلافات السياسية الجوهرية فقد قدمت الولايات المتحدة في الأعوام ما بين ١٩٨٩ و١٩٩٢ خمس إسهامات مهمة لوجود ولأمن إسرائيل تفوق وتتجاوز إنجازات أسلافنا. فأثناء تلك الفترة مكنت دبلوماسيتنا وخزانتنا إسرائيل من استيعاب مئات الآلاف من اليهود الروس والسوريين والأثيوبيين. وكنا أداة محورية في مساعدة إسرائيل علي إقامة علاقات دبلوماسية مع أربع وأربعين دولة بما في ذلك الاتحاد السوفيتي. وكنا وراء إلغاء قرار الجمعية للأمم المتحدة لعام ١٩٧٥م * بدمغ الصهيونية بالعنصرية. كما أن الجيش الأمريكي بعملية عاصفة الصحراء لم يطرد العراق من الكويت فحسب. بل إنه في الواقع قضي علي التهديد الاستراتيجي الذي كان يمثله ألد أعداء إسرائيل. وأخيراً أعتقد أن التاريخ سوف يسجل أن أهم انجازات بلدنا لصالح إسرائيل هو جمعنا جيران إسرائيل علي مائدة السلام لإجراء مباحثات مباشرة. وهو هدف طالما سعت إسرائيل لتحقيقه علي مدي أربعين عاماً، وهو إنجاز ساهم في إقرار السلام بين إسرائيل والأردن وإعلان المبادئ التاريخي بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

فقد تطلب إنعاش عملية السلام في الشرق الأوسط، التي تجذرت في مؤتمر مدريد في تشرين الأول أكتوبر وتتواصل إلي الآن من إدارة بوش الإقدام علي اختيارات بالغة القسوة

* قرار رقم ٣٣٧٩ الصادر عام ١٩٧٥م (المترجم).

وغير شعبية. وربما كانت أشق هذه الاختيارات، وخاصة فيما يتعلق بعلاقاتنا الثنائية – هي قراراتنا في أواخر عام ١٩٩١ وربيع عام ١٩٩٢ أولاً بتعليق ولاحقاً بوضع شروط علي طلب إسرائيل بالحصول علي ضمانات قروض قدرها عشرة مليارات دولار لاستيعاب المهاجرين من الاتحاد السوفيتي. واكتسبت هذه القرارات مصداقية في عديد من الدوائر، وجلبت لنا العار في دوائر أخري، وخاصة بين العناصر الأشد تطرفاً في الحكومة الإسرائيلية وكثير من أقوي حلفائها في الولايات المتحدة. وبدرجة ما فقد ساهمت أيضاً في هزيمة حكومة شامير في حزيران يونيو ١٩٩٢ وحلول حكومة عمالية أكثر اعتدالاً برئاسة إسحاق رابين محلها. ومع هذا كانت الحوادث المؤسفة التي أحاطت بقضية ضمانات القروض حاسمة لقضية السلام، ومن ثم لمصالح إسرائيل الاستراتيجية رغم إضرارها وتمزيقها للعلاقات التاريخية بين الولايات المتحدة وإسرائيل من وقت لآخر. لقد كانت قضية صعبة مثيرة للخلاف وزاد من حدة صعوبتها وإثارتها الخلاف تداخلها مع أكثر القضايا تفجراً، وهي توسيع إسرائيل للمستوطنات في الأراضي المحتلة.

التزامنا التاريخي بالاستيعاب

مثل كل أسلافنا تفهمت إدارة بوش أن استيعاب اليهود من مختلف أنحاء العالم يمثل أساساً لالتزام إسرائيل كدولة. ومنذ عام ١٩٤٨ هاجر ملايين من يهود الشتات من أربع قارات إلي إسرائيل (خلال فترة عملي وزيراً للخارجية استقبلت إسرائيل نصف مليون مهاجر). وفي العقد الأخير قدمت أغلبية المهاجرين من الاتحاد السوفيتي نحو مليون مهاجر منذ عام ١٩٨٧. ويجب أيضاً تذكر أن الدبلوماسية الهجومية لإدارتي ريجان وبوش كانت حاسمة في إقناع السوفيت بمنح تأشيرات خروج للمهاجرين السوفيت، فجورج بوش عندما كان نائباً للرئيس تولي شخصياً مسؤولية تأمين خروج يهود الفلاشا من أثيوبيا. كما استطاع إقناع حافظ الأسد بالسماح بهجرة بعض اليهود السوريين.

وتاريخياً أيدت الولايات المتحدة بقوة الهجرة اليهودية. كما خصص جزء من معونتنا المالية إلي إسرائيل كل عام لتمويل برامج الاستيعاب. ومع ذلك وفي ظل الإدارات

الديمقراطية والجمهورية كانت السياسة الأمريكية تميز بوضوح بين استيعاب اليهود فى إسرائيل ذاتها وبين توطينهم فى الأراضى المحتلة. وفى الإدارة توصلنا فى وقت مبكر إلي أن مثل تلك المستوطنات تمثل عقبة كؤودا أمام عملية السلام فى الشرق الأوسط، وكنا نعتقد كمسألة مبدأ أنه يجب ألا نسمح عن يقين بأن تمول أموال دافعي للضرائب الأمريكيين أنشطة تتناقض مع السياسة الأمريكية والسلام. وفى كافة اجتماعاتنا مع نظرائنا الإسرائيليين علي كافة المستويات كنا نعرب عن تحفظاتنا تجاه السياسة الاستيطانية التى تنتهجها حكومة شامير.

وبرغم هذا ومع الارتفاع الرهيب لأعداد المهاجرين من اليهود السوفيت بين عشية وضحاها من ثلاثة عشر ألفاً عام ١٩٨٩ إلي ١٨٥ألفاً عام ١٩٩٠، تصاعد النشاط الاستيطانى الإسرائيلى، وكان الكثير من تلك المستوطنات الجديدة يقع فى قطاع غزة والضفة الغربية. وبعدما اتضح أن شامير غير مستعد أو عاجز عن تبديد قلق الرئيس حول المستوطنات كان من المحتم نشوب الأزمة. وتبدت الأزمة فى صورة طلب إسرائيل عام ١٩٨٩ بالحصول علي ضمانات قروض أمريكية للإسكان بقيمة أربعمائة مليون دولار.

كانت مثل تلك الضمانات واحدة من عدة أشكال للمعونة الخارجية الأمريكية لإسرائيل. وفى العادة تسعي إسرائيل للحصول علي قروض من أسواق المال العالمية لجمع الأموال اللازمة لتمويل الاستيعاب. كما أن تعهداً أمريكياً بضمان تلك القروض حال العجز عن السداد مكن إسرائيل من الحصول علي أسعار فائدة أفضل. وفى الواقع كانت الثقة التامة فى الولايات المتحدة ومصداقيتها هي الضمان الإضافى. (ومن غير المعروف أنه وبموجب القانون الفيدرالى يجب أن يكون حجم المعونة الاقتصادية الأمريكية لإسرائيل أكبر من الحجم السنوى الواجب الأداء علي إسرائيل من القروض المستحقة التى تضمنها الخزانة الأمريكية).

وفى الخامس والعشرين من آيار مايو ١٩٩٠ وافق الكونجرس علي ضمانات قروض بقيمة ٤٠٠ مليون دولار بغرض توفير الإسكان والبنية الأساسية فى إسرائيل للاجئين السوفيت ،فى العام المالى الذين يبدأ فى الأول من تشرين الأول أكتوبر، وأعرب التشريع عن رغبة الكونجرس فى ضرورة عدم استخدام ضمانات القروض فى المستوطنات الواقعة خارج حدود

إسرائيل ماقبل عام ١٩٦٧ المسماة بالخط الأخضر. وعلي مدار الأشهر التالية أوضحنا مراراً لإسرائيل سواء في بياناتنا العامة أو في أحاديثنا الخاصة أن توطين اليهود السوفيت في الأراضي المحتلة وبناء مستوطنات جديدة يعرض عملية السلام للخطر. ولأنه لا يمكن تقديم أموال أمريكية لتمويل مثل هذه الأهداف فقد قررت وكالة المعونة الدولية حجب موافقتها علي الضمانات ريثما يتم الحصول علي ضمانات.

❑ ❑ ❑

وفي الأول من آذار مارس أَبْلَغتُ لجنة الاعتمادات الفرعية للعمليات الخارجية بأن الموافقة علي ضمانات قروض بقيمة أربعمائة دولار مرهونة بالحصول علي ضمانات إضافية بعدم استخدام أي من هذه الأموال في الأراضي المحتلة. وكحد أدنى فسوف تصر الإدارة علي إخطارها سلفاً بخطط بناء المستوطنات الجديدة وبحساب دقيق لكيفية إنفاق مبلغ الأربعمائة مليون دولار.

وأثرت نفس النقطة في وقت لاحق في مكالمة هاتفية مع شامير الذي اتهم الولايات المتحدة بفرض شروط علي تأييدها لإسرائيل للمرة الأولي*. ورددت: «إننا لم نضع شروطاً علي المعونة التي تبلغ ثلاثة مليارات دولار التي نقدمها لكم، ولكن بالنسبة لنا فمن المنطقي أن نطلب ضمانات للموافقة علي مبلغ إضافي»

وفي تلك اللحظة كان شامير موافقاً علي مايبدو وقال: «من المنطقي أنه يجب عليكم أن تعرفوا كيف سنستخدم أموالكم» .وحقيقة الأمر هي أننا نعرف أن قدراً من المليارات الثلاثة التي نقدمها لإسرائيل سنوياً يستخدم في تمويل سياسة الاستيطان الإسرائيلي. لكننا كنا نريد ألا نري أموالاً إضافية لدافع الضرائب الأمريكي تستخدم في تمويل توسع عدواني لسياسة طالما عارضها بشدة الرؤساء المتعاقبون من الحزبين.

---

* كان رغم شامير خاطئا تماماً وفي الواقع فإن الكثير من برامج المعونة الأمريكية لإسرائيل يتضمن عدة شروط أساسية وخاصة تلك المتعلقة بالمعونة العسكرية

وفي الوقت ذاته تواصل ظهور المستوطنات الجديدة بما في ذلك مستوطنة أقيمت في الحي المسيحي من القدس الشرقية. وبعد أن وصف متحدث باسم الخارجية هذا بأنه: «عمل استفزازي يتسم بالبلادة» أعلنت وزارة الخارجية الإسرائيلية أن «من حق اليهود العيش في أي مكان .. وخاصة في مدينة القدس».

وفي ٥ أيلول سبتمبر اجتمعت مع ديفيد ليفي وزير الخارجية الإسرائيلي في واشنطن علي أمل منع أزمة وشيكة. فالاحتلال العراقي للكويت دخل شهره الثاني، وسيكون حسن النية وضبط النفس من جانب إسرائيل حال اندلاع حرب في الخليج أمراً جوهرياً. وأبلغته «أنني أريد تسوية تلك القضية. وأريد أن أحلها معكم» وقال لي إن إسرائيل مستعدة لقدر من الأخطار المسبق بالنشاط الاستيطاني. وسلمته مسودة رسالة تتضمن تفاصيل الضمانات التي سنحتاجها للموافقة علي ضمانات القروض. وبعد ثلاثة أسابيع وفي اجتماع متابعة في نيويورك تناولنا بعض المسائل الدقيقة. وقلت له: إنني أريد الضمانات كتابة. وفي الثاني من تشرين الأول أكتوبر سلمني ليفي رسالة تتعهد فيها إسرائيل بإطلاع الولايات المتحدة على النشاط الاستيطاني الجديد، وسوف تبذل قصاري جهدها لوضع بيان بالإنفاق علي المستوطنات في الأراضي. والأهم أنه تعهد بعدم توطين المهاجرين السوفيت وراء الخط الأخضر. واستناداً إلي تلك الضمانات وافق الرئيس علي إمكانية الإفراج عن ضمانات قروض بمبلغ أربعمائة مليون دولار بمجرد استكمال عملية المراجعة بواسطة الوكالات الحكومية.

ولسوء الحظ فقد ذهبت تلك التعهدات أدراج الرياح. وبرغم الضمانات التي قدمها ليفي فلم نحصل مطلقاً علي المعلومات التي وُعِدْنَا بها. وفي ١٨ تشرين الأول أكتوبر بعث لي ليفي رسالة يتراجع فيها عن التزامه بعدم توطين المهاجرين السوفيت في القدس الشرقية. وشعرت أن ليفي رجل كريم. لكنني لم أكن مرتاحاً لما بدا أنه سوء نية من جانب حكومة إسرائيل بشكل عام. فضلاً عن ذلك سرعان ما تواترت الأنباء إلي السفارة الأمريكية في تل أبيب بأنه تم تنظيم زيارات للمهاجرين السوفيت للمستوطنات الموجودة في الأراضي بهدف تشجيعهم علي الاستيطان هناك. وعندما ذكرنا الإسرائيليين بوعودهم بتقديم معلومات لنا كانت التطمينات تردنا مراراً بأنها في البريد. ولم تصل تلك المعلومات مطلقاً، ونتيجة لذلك رفضنا الإفراج عن ضمانات القروض.

قضية المليارات العشرة

في ٢٢ كانون الثاني يناير - أي بعد ستة أيام من قيام قوات التحالف بشن الغارات الجوية ضد قوات صدام حسين في الكويت والعراق، أعلن إسحاق موريدخاي وزير المالية الإسرائيلي أن بلاده ستطلب قريباً الحصول علي مبلغ ثلاثة عشر مليار دولار كمعونة إضافية من الولايات المتحدة منها عشرة مليارات دولار في صورة ضمانات قروض لتوطين اليهود السوفيت، وثلاثة مليارات تعويضاً عن الأضرار التي تكبدتها المدن الإسرائيلية جراء الهجمات بصواريخ سكود. وكان لورانس إيجلبيرجر هو أول مسؤول في الحكومة الأمريكية يعرف بهذا الأمر عندما كان في إسرائيل يحاول إقناع شامير بعدم الانتقام من العراق. وفي غضون دقائق من علمه بالطلب من موريدخاي شخصياً استمع إيجلبيرجر إلي الأنباء في إذاعة إسرائيل، وبعث برسالة إلي شامير قال فيها: أن توقيت مثل هذا الطلب شديد الرعب يجب سحبه علي الفور.

وتضايق شامير من الإعلان، وعنف وزير ماليته. لكن الضرر النفسي قد وقع بالفعل، ويقيناً كان بعض التعريف مطلوباً. فقد كان هناك تقدير بالغ داخل الإدارة وفي البلاد ككل لضبط النفس الرائع من جانب إسرائيل. فللمرة الأولي في تاريخها لم تقدم علي انتقام سريع ضد أي هجوم. لكن الآن وبدون التشاور فإنها تطالب علناً بتعويض في شكل أضخم صفقة معونة أجنبية منفردة في التاريخ الأمريكي، ومنذ البداية كانت مقامرة جريئة خاصة – لأنه لم تبذل أي محاولة لتبرير الطلب ببيانات ميدانية. كان الأمر يبدو وكأن حكومة شامير قد جمعت تلك الأرقام من الهواء. وعلانية قلنا: إن الولايات المتحدة ستدرس الطلب «دراسة واقية». لكن لم يكن لدينا النية القيام بذلك حتي تحين اللحظة المناسبة. ففي الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تخوض حرباً في محاولة لهزيمة العراق الذي يشكل التهديد الأكبر لأمن إسرائيل كان من الخطأ في تلك اللحظة التخلي عن تلك المحاولة الرئيسية لدخول معركة مع الكونجرس حول الحجم المناسب لصفقة معونة إضافية لإسرائيل.

وفي النهاية ورغم عدم استعدادنا حينذاك للبت في طلب المليارات العشرة فقد أسفر اتفاق حل وسط مع زلمان شوفال سفير إسرائيل في واشنطن عن الإفراج عن ضمانات

قروض مجمدة بمبلغ أربعمائة مليون دولار. وتقديم ٦٥٠مليون دولار معونة مباشرة كتعويض مباشر للخسائر التي تكبدتها إسرائيل أثناء الحرب. كان المبلغ الأخير سخياً لأن تقدير مراجعة الوكالات الحكومية أشارت إلي أن التكلفة الفعلية لتعويض إسرائيل عن الأضرار التي لحقت بها نتيجة صواريخ سكود العراقية كانت تقل عن مائتي مليون دولار. وبالمقابل وافقت إسرائيل علي تجميد طلبها بالحصول علي المليارات العشرة حتي انتهاء عطلة الكونجرس الصيفية في أيلول سبتمبر. حينئذ ستكون الحرب قد انتهت وسوف تتأجل قضية ضمانات القروض الإضافية إلي العام المالي القادم.

إسكات لسان سليط

وكأن المشاكل القائمة لم تكن كافية فقد زاد الطين بلة، وتعقد الخلاف نتيجة انفجار سيء التوقيت من السفير شوفال. ويدين شوفال المصرفي الذي لا يرتبط بعلاقات وثيقة مع شامير أوليفي، بتعيينه في منصبه إلي سياسة الائتلاف. كان شوفال عضواً بارزاً وشريكا في ائتلاف الليكود غير ممثل في حكومة شامير، واستمد شهرته من لسانه المنفلت. وقبيل أول اجتماع بيننا وصف إسرائيل علانية بأنها: «ابن العم الفقير» الذي تريد الولايات المتحدة إعاشته في الغرفة الخلفية.

وتجاوز ولعه بدبلوماسية «اللسان السليط» كل الحدود في الرابع عشر من شباط فبراير عندما نقلت صحيفة واشنطن بوست تصريحه لوكالة أنباء رويتر «إننا نشعر في بعض الأحيان أن الولايات المتحدة تراوغنا» واشتكي أيضاً من أن إسرائيل لم تتلق حتي الآن «سنداً واحداً من المعونة» لتعويض خسائرها المتضخمة بما في ذلك خسائرها من السياحة نتيجة حرب الخليج. كانت هذه هدية عيد القديس فالنتين من حليف وثيق.

وفي اعتقادي فإن شوفال أبدي سوء نية واضحا بإعلان انتقاده علي الملأ، خاصة لأنه تم إبلاغه اليوم السابق بأننا سنفرج قريباً عن ضمانات قروض، وتملكني الغيظ لدرجة أنني طلبت من معاوني البحث عن المبررات القانونية لإعلان شوفال شخصية غير مرغوب فيها

وطرده من الولايات المتحدة لانتهاكه الصارخ للآداب والأعراف الدبلوماسية. وهاتفت الرئيس الذي لم يكن سعيداً بالمرة بما حدث.

واستقر رأيي في نهاية الأمر علي أن طلب استدعاء شوفال سيزيد توتر العلاقات في وقت دقيق. ولكن في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم استدعيته إلي مكتبي لتعنيفه رسمياً. ولم أكن في حالة تسمح بالمجاملات الدبلوماسية، وبدأت الحديث «زالمان. إننا نواجه مشكلة، وليست مشكلة بسيطة إنها مشكلة عويصة، لقد قُلْتَ أشياء غير حقيقية بالمرة. لقد قلت إننا لم نقدم لكم سنتاً واحداً. حسناً. من هم الوطنيون؟ ما هي الأطقم الأمريكية التي ندفع لها؟ ماذا عن الصواريخ التي نطلقها بتكلفة مليون دولار لكل صاروخ يطلق؟ ماذا عن أرواح الجنود الأمريكيين المعرضة للخطر في الخليج للذين يتعاملون مع أخطر تهديد استراتيجي علي وجود إسرائيل؟».

وبهته قائلاً: إن الظهور أمام الصحافة لمحاولة التأثير علي السياسة الأمريكية استراتيجية تأتي بنتائج عكسية تماماً. وقلت: «إنني أشعر بالأسف لاضطراري بأن أبلغكم بهذا، لكن الحقيقة هي أنكم لا تملكون تصريحاً بهذا الشأن. فإذا كانت لديك مشكلة فعليك أن تأتي وتبلغ وزير الخارجية بها لا أن تهرع إلي الصحافة وتوجه التهديدات والانتقادات. فمن في هذه الإدارة الذي سيتقدم ويحصل لك علي الأموال إن لم أكن أنا. إنني لا أتذكر واقعة قال فيها سفير حتي او سفير دولة معادية مثل ما قلت عنا، وأشرت لو أن سفيراً أمريكياً تصرف علي هذا النحو لأرسلتموه إلي بلده».

وقال شوفال: لا أعتقد أننا فعلنا شيئاً طائشاً. لا أعتقد ذلك. أعتقد أننا جلسنا كما نفعل، وقدم اعتذاره، وقطع علي نفسه وعداً بأنه سيحاول أن يكون كريماً وأميناً معي دائماً.

وكررت القول: «إنك لم تفعل. فقد لجأت إلي الصحافة. كان بوسعك إبلاغنا لكنك لم تفعل. وعليّ أن أبلغك أننا غاضبون. إنني أشعر بالأسف لأن اختتم الاجتماع بمثل هذه الملاحظة. لكن هذا هو واقع الحال» ولم أبذل أي شيء يتيح له الاستمرار حتي النهاية.

وأعتقد أن ثورتي ساهمت في تأديبه حقيقة. وقال: «رب ضارة نافعة» وآمل أن تكون الأيام القادمة أفضل» ورددت «سوف نرى».

❑ ❑ ❑

وللتأكد من أن شوفال قد فهم الرسالة بوضوح بعث الرئيس رسالة شفوية إلى شامير عبر سفيرنا وألحقتها بهذه الرسالة:

"بالأمس أدلى سفيركم بعدد من التصريحات حول العلاقة الإسرائيلية الأمريكية لا أعتقد أنها غير دقيقة أو مضللة فحسب بل إنها معادية إلى حد كبير. وأجد لزاماً عليّ القول بكل صراحة أنه سيكون من العسير استمرار إدارة شؤوننا الدبلوماسية من خلاله في ضوء التحيز الواضح في لهجته.

لولا أن الأوقات بمثل هذه الدرجة من الدقة والحرج والتوتر كالحاصل الآن لما كنت أقبل بأن يواصل ممثلكم في واشنطن السيد رئيس الوزراء أما والحال كذلك فسوف أتجاوز مشاعري إقراراً بأهمية اللحظة والحرص على استمرار الاتصالات الوثيقة بين دولتينا في هذا الوقت الحرج. ومع هذا وإذا حدث تكرار لما حدث بالأمس من جانب السفير فلن يكون أمامي أي خيار سوى طرده من البلاد.

إنني أشعر بالأسف لأن أحمل علاقاتنا مشكلة أخرى. لكن لا يمكن مكما بكل بساطة قبول تصرف مثل الذي حدث وكلي ثقة في أنكم سوف تسمعون له النصيحة"

وبعد فترة وجيزة رد عليّ شامير برسالة قائلاً: أنه سيضمن عدم حدوث شيء من هذا القبيل في المستقبل. وقد حدث فقد تحسنت علاقتي بشوفال فيما بعد، ولعب دوراً حيوياً في إقناع حكومته بالمشاركة في مؤتمر مدريد. وعندما تركت وزارة الخارجية أقام مأدبة عشاء

لتوديعي، وقدم لي شديد الإمتنان لإنجازاتي بالأصالة عن بلاده. وكنا حريصان علي رؤية كل منا للآخر في المناسبات المختلفة بعد أن تركنا الحكومة سواء في إسرائيل أو واشنطن.

وبعد ستة أيام من اجتماعي مع شوفال اتصلت هاتفياً بليفي لأبلغه قرار الرئيس بالإفراج عن ضمانات قروض قيمتها أربعمائة مليون دولار، وعلي مدي الأشهر الستة التالية توارت قضية ضمانات القروض فيما ركزت الإدارة جهودها علي كسب الحرب وكفالة سلام أكثر استقراراً، والتعامل مع قضية اللاجئين العراقيين وتحريك عملية السلام في الشرق الأوسط.

لكن التوترات تصاعدت في تلك الفترة بسبب سياسة الاستيطان الإسرائيلية لأن آريل شارون وزير الإسكان الإسرائيلي المولع بالقتال اندفع بشراسة في توسيع المستوطنات. وأثناء زيارتي الأولي لإسرائيل في آذار مارس كنت قد نبهت ليفي إلي أن قرار الرئيس حول طلب ضمانات القروض «المليارات العشرة» سيقرره طبيعة النشاط الاستيطاني خلال الأشهر القليلة القادمة.



وفي زيارتي الثانية بعد شهر رفض شامير تماماً إشارتي إلي ضرورة أن تحد إسرائيل من توسيع المستوطنات كبادرة لحسن النية من أجل السلام. وبعد خمسة أيام في ١٦ نيسان إبريل انتقل المستوطنون إلي مستوطنة جديدة في ريفافا بالضفة الغربية. وفور تقديم السفير الأمريكي بيل براون احتجاجا رسمياً بادر آريل شارون وزير الإسكان الإسرائيلي إلي الإعلان عن خطط لبناء ٢٤ ألف وحدة سكنية جديدة في الأراضي المحتلة لإيواء ٨٨ ألف مستوطن. وبدلاً من ضمانات القروض الأمريكية سعت إسرائيل لدي دول أخري وخاصة ألمانيا وفرنسا للحصول علي ضمانات قروض ومنح لا ترد للمساهمة في تمويل استيعاب المهاجرين عبر نشاط استيطاني إضافي.

وفي غمرة كل هذا أعلنت الحكومة الإسرائيلية أن شارون سيزور واشنطن في أوائل آيار مايو. وقبل وصوله اتصل بي المحامي ليونارد جارمنت وهو صديق قديم وقال: إن شارون طلب الاجتماع معي. وقلت لجارمنت لا يسعني التفكير في أحد لا أرغب في لقائه. ورد جارمنت: ربما كان رئيس الوزراء القادم في إسرائيل. ورددت: إن سياسة شارون الاستيطانية أضرت بآمال السلام وبعلاقاتنا مع إسرائيل. إنني لا أرفض لقاءه فحسب بل إنني تدخلت لدي الرئيس لمنع عقد اجتماع بينه وبين جاك كيمب وزير الإسكان والتنمية الحضرية في مكتب كيمب .وعقد الاجتماع الذي لم يكن ينصح بعقده تحت أي ظروف بالسفارة الإسرائيلية لعدم ترك أي انطباع بأن حكومة الولايات المتحدة تعطي مصداقية لشارون وسياسته غير المفيدة، ومثل سياسة الاستيطان كان شارون نفسه عقبة أمام السلام.

وبرغم توتر العلاقات واصلت الولايات تأييد قضية الهجرة اليهودية. وفي آيار مايو بدأت إسرائيل جسراً جوياً لنقل ١٦ ألفا من يهود الفلاشا. وكان تهجيرهم ثمرة مباشرة لنداء وجهه الرئيس بوش إلي القائم بأعمال الرئيس الأثيوبي اللفتنانت جنرال تسفاي جبري كيدان. وفي كل اجتماع من اجتماعاتي مع الرئيس الأسد خلال ذلك العام سعيت لديه بشدة ومراراً للسماح بهجرة اليهود السوريين إلي إسرائيل.

المراوغة لكسب الوقت والسلام

في الحقيقة كنا نأمل جميعاً في أن تتواري قضية ضمانات القروض إلي حد ما، وبدلاً من ذلك فقد طفت علي السطح في أسوأ لحظة ممكنة. ومما يدعو للسخرية أنه في الوقت الذي تعززت فيه احتمالات إقرار السلام في صيف عام ١٩٩١ خيم شبح مواجهة حول المستوطنات وضمانات القروض كشبح بانكر مهدداً بإهدار التقدم الملحوظ الذي أحرز منذ انتهاء الحرب، وبات من الحاسم إيجاد طريقة ما لموارأة القضية حتي نهاية العام.

وكانت أقوي ذريعة سياسية للتأجيل هو حقيقة أن عملية السلام هي التي ستتواري بدلاً من ذلك. وخلال زياراتي إلي الشرق الاوسط ربيع وصيف العام أعرب كل الزعماء العرب

الذين التقيتهم عن عدم ارتياحهم مرارا لاحتمالات تقديم ضمانات القروض في غياب قيد ما علي النشاط الاستيطاني. وضاق الفصب الفلسطينيين بشكل خاص من هذا الموضوع، ومع ذلك كانت الاعتراضات التي أبداها الرئيس مبارك والملك فهد اعتراضات أكثر عملية عنها أعتراضات أيديولوجية. فقد دفعا بأن ضمانات القروض أصبحت تشكل اختبارا جوهريا لإنصاف الولايات المتحدة فيما يتعلق بعملية السلام.

وقال لي الملك فهد في أحد لقاءاتنا في شهر تموز يوليو: «صديقي إن مصداقيتكم كوسيط نزيه هي أهم الكروت التي يمكنكم اللعب بها. إنني أتفهم التزام بلدكم تجاه وجود إسرائيل. لكن هذا ليس وجوداً، ولابد أن تكون لكم مصداقية، وكنت واثقاً من وجاهة رأيه. فبدون تجميد شامل لبناء المستوطنات – وهو أمر مستحيل تماماً – فإن برنامج ضمانات قروض بهذا الحجم الذي تطلبه إسرائيل سينظر إليه حتماً في العالم العربي علي أنه إقرار مالي أمريكي لأطماع الليكود في الأراضي، وكانا يخشيان من أن يظهرا وكأنهما في موقف إذعان.

وعلي النقيض فإن جدلاً عاماً حول المستوطنات قد يقنع شامير بأن عليه أن يرفض المشاركة في عملية السلام ويدعو إلي إجراء انتخابات. وباختصار فإن معالجة الجدل حول ضمانات القروض بأسلوب المواجهة لن يفيد، ولم يكن هناك سبيل لتجنب خسارة الإسرائيليين أو العرب. وعلي أية حال فسوف تنتهي عملية السلام إلي الموت.

وفي منتصف الصيف نبهنا حلفاء في الكونجرس إلي أن إسرائيل ومنظمة الإيباك يعدان الساحة لشن هجوم ساحق لانتزاع موافقة الكونجرس علي ضمانات القروض بالمليارات العشرة بموافقة أو بدون موافقة الإدارة، وبدأ دينيس روس وجانيت موليتز عقد اجتماعات مع توم ديني وكبار المسؤولين الآخرين في الإيباك في محاولة لإقناعهم بأن توقيتهم لإثارة القضية توقيت مروع، وأن التأجيل أمر مفضل لمعركة سيخسرها الجميع. وفشلت تلك الاجتماعات في إقناع مسؤولي الإيباك وحتي عندما قيل لديني وزملائه إن الرئيس سيخوض المعركة إذا لزم الأمر فلم يصدقوا. وأبلغوا شامير بأن الرئيس تعوزه الإرادة السياسية لتحدي الإيباك، وسرعان ما سيخضع للكونجرس علي أية حال.



وبحلول آب أغسطس شرعت الإيباك في توزيع مسودة تشريع علي أصدقائها في الكونجرس، وكثفت ضغوطها علي زعماء الكونجرس. وتمثلت استراتيجيتهم التي عرفناها في إقناع جورج ميتشل زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، وتوم فولي رئيس مجلس النواب بالموافقة علي الضمانات، وهكذا وضع الرئيس أمام الأمر الواقع. ولم يكن أمامنا من خيار آخر سوي انتهاج استراتيجية وقائية خاصة بنا.

وفي السابع والعشرين من آب أغسطس وضعت موليتز تفاصيل استراتيجيتنا في الكونجرس في مذكرة من صفحة واحدة. وكتبت موليتز في المذكرة تقول: «إن الخطوة الأولي هي التأكد من تفهم القيادة أن إثارة قضية ضمانات القروض الآن سوف تقضي علي عملية السلام. علاوة علي ذلك سوف نؤكد أن مسؤولية الفشل ستقع مباشرة علي عاتق الكونجرس» وفي ظل تلك الملابسات فإنني أعتقد أن الأمر سيشكل خطورة سياسية بالغة بالنسبة لهم، ومع هذا علينا تحقيق هذا الإقناع قبل أن يفعلوا هم .. ويظهروا تأييدهم علناً».

ومن مزرعتي في ويوميدج اتصلت هاتفياً بميتشل وفولي في أواخر آب أغسطس موجهاً لهما رسالة بسيطة: عليكما أن تمنحا السلام فرصة، وأبلغتهما بأنه عندما أجتمع مع شامير في غضون أسبوعين فإنني أريد أن يكون بوسعي إبلاغه بأنه لمصلحة تحريك السلام، فقد انضم الكونجرس إلي الرئيس في تأجيل القضية. وحيث إن الموعد المستهدف لعقد مؤتمر السلام في مدريد هو أواخر تشرين الأول أكتوبر. فسوف تكون أمامنا فسحة كافية من الوقت لأن تمضي العملية قدماً دون نكوص قبل أن تظهر قضية الاستيطان وضمانات القروض المزعجة، وأوضحت أن أي شيء أقل من ذلك سوف يقضي علي عملية السلام فإذا وافقنا علي ضمانات القروض سوف نخسر العرب وإذا رفضناها فسوف نخسر إسرائيل.

وقلت لكليهما. «إن هذه أهم خطوة يمكنكما اتخاذها في هذه اللحظة لإمكانية البدء في مفاوضات السلام التاريخية». ولم يلزما نفسيهما بأي موقف. لكنهما قالا إنهما سوف يدرسان طلبي. وأحسست أن فولي سوف يساعدنا. لكن القلق ساورني تجاه ميتشيل الذي كان يتعرض لضغوط قوية من الإيباك.

وفي الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة بتوقيت روكي موننتين في الأول من أيلول سبتمبر تحدثت مع شامير بالهاتف من ويوميدج. وقلت له إنه عندما اتفقنا علي بحث

قضية ضمانات القروض مرة أخري في أيلول سبتمبر لم أكن أعرف أننا سنكون في غاية القرب من إجراء مفاوضات مباشرة مع العرب. والآن فهناك احتمال حقيقي بعقد مؤتمر السلام الإقليمي في تشرين الأول أكتوبر مسجلا إجراء أول مباحثات مباشرة مع جيران إسرائيل العرب، وهو ما كانت إسرائيل تريده دائماً.

وقلت: «إننا نحتاج بعضاً من الوقت من جانبكم. فإذا أثيرت القضية الآن فإننا نهدد إمكانية إجراء المباحثات المباشرة. وكنت أريد تجنب أي جدل في الكونجرس يبرز الخلاف بيننا حول المستوطنات فلن يفيد هذا سوي المتربصين الذين لا يريدون لعملية السلام أن تمضي قدماً» وطلبت من شامير أن يؤجل رسمياً طلب الحصول علي ضمانات القروض «المليارات العشرة» لمدة ١٢٠ يوماً أو حتي بداية العام.

ورد شامير بأنه منهك للغاية بعد يوم طويل من المعارك حول مشروع الموازنة، ولم يستوعب كل ما قلته. وقال: إنه يريد أن يفكر في تلك القضايا باستغراق وحرص شديد، وأن يتشاور مع معاونيه ثم يعاود الحديث مرة أخري بالهاتف عبر خط أفضل. لكنني أتذكر تماماً وهو يبلغني أنه للوهلة الأولي يعتقد أن طلبي للتأجيل غير منطقي في ظل هذه الظروف. واتفقنا علي معاودة الحديث في غضون ثمان وأربعين ساعة، وحدث ذلك بعد ظهر يوم الثالث من أيلول سبتمبر عقب عودتي إلي واشنطن.

وأكدت مجدداً لشامير في هذه المحادثة أنني والرئيس «ملتزمان تماماً» بنجاح استيعاب اليهود السوفيت في إسرائيل. لكنني أعربت «عن قلقي العميق» من أن إثارة قضية ضمانات القروض والمستوطنات عشية انعقاد مؤتمر السلام ستتحول إلي «مائدة صواعق للرافضين».

وقلت: «لو أثيرت هذه القضية الآن. فلن نجد طريقاً لتجنب نشوب معركة علنية حول المستوطنات، وأخشي من إمكانية خسارة فرصة تاريخية لإجراء مفاوضات مباشرة. فالأمر هكذا بكل بساطة»، وطلبت منه كحد أدني أن يؤجل طلب ضمانات القروض لما بعد اجتماعنا في القدس بعد أسبوعين.

وتغيرت لهجة شامير بوضوح عن محادثتنا السابقة. وقال: إنه بعد إمعان التفكير فإنه لا يمكنه الموافقة علي أي تأجيل. وعن تأجيل الطلب قال إنه مسألة مالية ملحة «لأنه سيشكل

عبئاً علي الموازنة، مثلما هو مسألة مبدأ، وأضاف: «لا يمكننا قبول ربط هذه القضية بعملية السلام. لقد انتظرنا طويلاً، وعلينا أن نمضي».

وأبلغته بأنني أشعر بخيبة الأمل من قراره، وسوف أوصي علي مضض بأن يطلب الرئيس التأجيل لمدة ١٢٠ يوماً رغم قرار إسرائيل، وقلت: إننا لا نريد افتعال معركة مع إسرائيل لكن الخطر المحدق بعملية السلام كبير بدرجة لا يمكن تجاهلها.

كان التغير المفاجئ والحاد في لهجته من السلاسة إلي التحدث محوراً حتي عرفت فيما بعد أنه ومستشاريه تشاوروا مع أصدقائهم في الولايات المتحدة وتلقوا تطمينات بأن الكونجرس سيوافق علي ضمانات القروض بسهولة.



وفي اليوم التالي لهذه المحادثة مع شامير تناولت الغداء في مكتبي مع السيناتور باتريك جي ليهي من فيرمونت وأريك نيوسوم رئيس موظفي لجنته الفرعية: وطالما تعاملت مع ليهي وهو صديق عزيز من أيام الدراسة في برينستون خلال فترة عملي للسابقة بالبيت الأبيض ووزارة الخزانة. وفي كانون الأول ديسمبر عام ١٩٨٨ طلب ليهي أن يزورني في مكتبي المؤقت بوزارة الخارجية. وأبلغني بأنه في سبيله لتولي لجنة الاعتمادات الفرعية للعمليات الخارجية. واعترف بأنها: «وظيفة لا تجلب الشكر، لكنني أريدك أن تدرك أنني أسعي لمساعدتك بكل السبل الممكنة لإحراز تقدم في عملية السلام».

وبرغم انتقاده لمستوطناتهم بين الحين والآخر كان ليهي يعتبر صديقاً موضع ثقة لإسرائيل. وفي الحقيقة فقد أبلغني أنه إذا استطاع الرئيس وأنا أن نبرهن علي حدوث تقدم حقيقي تجاه السلام فإنه مستعد للوقوف في الكونجرس لتأييدنا حتي لو كانت قضية يحتمل أن تكون موضع معارضة من إسرائيل. كان موقفاً مبدئياً وغاية في الشجاعة من سياسي محارب وأبلغته تقديري لموقفه وساورني الشك في أنني سأحتاج عرضه وقتاً ما، والآن وبعد نحو ثلاثة أعوام ها هو قد جاء الوقت.

كان ليهى وتيوسوم فى حالة عصبية شديدة لأنهما يدركان الواقع السياسى لتحدى الإيباك. وأكدت مجدداً أن اخر ما يفكر فيه الرئيس هو خوض معركة. وقلت: ولكن إذا لم تؤجل فسوف تنشب معركة. «إنكم لا تتركون لنا أى خيار ولا تراودكم أوهام فيما ستكونه تلك المعركة». ولم أدع أى شك فى أن القاه الكبحة الذى أحمله فى منطقاتى فى الشرق الأوسط متاح الآن لاستخدامه فى الداخل إذا أصر الكونجرس علي إثارة القضية فى هذا الوقت بالغ الحساسية برغم تحذيراتنا عن التأثير العكسى علي عملية السلام.

واتجهنا نحن الثلاثة بالسيارة إلي البيت الأبيض. وكرئيس لهيئة موظفى البيت الأبيض خلال فترة الرئيس ريجان فقد رأيت فى مناسبات عديدة كيف لانت عريكة أشد المنتقدين تصلباً فى أجواء بهاء المكتب البيضاوى. كان الرئيس بوش بالغ الفصاحة فى عرض قضية التأجيل. لكنه قال أيضاً بلهجة رقيقة وحازمة فى الوقت نفسه: «سوف نشير إلي من تقع عليه المسؤولية».

ولم يعد هناك أى مجال أمام أنصاف الحلول. فقد أوضحت الإيباك بما لا يدعو مجالاً للشك أنها قضيتهم. وتوعدوا بأن أى عضو سيصوت لصالح التأجيل سيوصم بأنه عدو لإسرائيل. وفى معركة شاملة فسوف يكون الخطر فادحاً بالنسبة للإدارة.

وفى نهاية اليوم تلقيت الوصف الذى كان يحلو لصديقى الراحل لى أتووتر أن يطلقه فى مثل هذه الملابسات المحفوفة بمخاطر جمة: «إما أنك بطل أو أبله» ولم يتهرب منى مطلقاً فى أى تحد ولم يكن ليتهرب فى هذه المرة فلا مجال لتجنبه. فعملية السلام تتجه لإثمار النتائج.

وفى ١٢ أيلول سبتمبر، وقبل توجيه نداء علنى للتأجيل عقد الرئيس لقاء مجاملة مع الزعماء اليهود فى البيت الأبيض. وحذره أحد ضيوفه بأن عليه أن يفكر مرتين قبل المضى قدماً. لأن أصدقاء إسرائيل سوف يحرجونه لو أصر علي إجراء تصويت. وليس جورج بوش هو الذى يلملم حاجياته ويرحل دون خوض المعركة فى مثل هذه المواقف. كان هذا التحدى سابقاً علي تصريحاته التى قال فيها: «إنه رجل وحيد يقاتل «قوى سياسية قوية تبلغ نحو ألف عضو جماعة ضغط».

وأساء المنتقدون تفسير هذه التصريحات بأنها إشارة إلي أنه لا ينبغى أن يكون لأصدقاء إسرائيل الحق فى الضغط علي الكونجرس لرفع التظلم، وأن الرئيس يثير قضية ازدواج الولاء. ولم يكن هذا قصده، وكل من يعرفه يعلم ذلك تماماً، ولكنه بهذا القول فتح ثغرة للإيباك دون قصد لأن تبدأ فى اتهامه بأنه معاد لإسرائيل، ومع هذا فقد كان هذا إدعاءً زائفاً تماماً ولم يصب أى مصداقية. وفى الواقع ومع نهاية الجدل، فقد اعترف الكثير من أنصار إسرائيل فى الكونجرس فى دوائرهم الخاصة بأن الإيباك مذنبة بتصلبها الذى يصر علي إثارة القضية الآن. وتفرد موقفنا إلي حد كبير بسبب هذا الخطأ التكتيكى وشعبية الرئيس الجارفة بعد حرب الخليج. لكن الأهم هو اعتراف معظم أعضاء الكونجرس بأن طلب التأجيل معقول تماماً فى ظل تلك الظروف.



ومع احتدام خطوط المعركة فى الكونجرس عدت إلي الشرق الأوسط. وكان أول توقف لى فى القدس حيث التقيت شامير فى ١٦ و١٧ أيلول سبتمبر عقب انتهاء جولتى فى الاتحاد السوفيتى. وانصب التركيز فى جلستى المباحثات بيننا حول وضع شكليات مؤتمر السلام. وبينما أحرز بعض التقدم فى هذا الصدد. فلم نحرز أى تقدم من أى نوع حول قضية ضمانات القروض.

وعرضت علي شامير الإطار العام لاقتراح الرئيس ذى النقاط الست لتأجيل طلب ضمانات القروض حتي كانون الثانى يناير متعهداً بعدم تأجيل القضية مرة أخرى، وأنه سيتم تعويض أى خسائر مالية بسبب هذا التأجيل وقلت: «اقتراحى لكم هو الإمساك بالكلاب وإبعاد الموضوع عن جدول الأعمال خلال المائة وعشرين يوماً القادمة». ورفضت اقتراح أرينز بأن نوافق علي ضمانات قروض بقيمة مليارى دولار، وأن نؤجل مناقشة القضية حتي كانون الثانى يناير.

وأخرجت من حقيبتى الدبلوماسية لصحيفة نيويورك تايمز بعنوان «الرئيس علي صواب بشأن إسرائيل» وهو ما قوبل بصمت مطبق.

وقلت لشامير: «إننا علي أعتاب مرحلة تاريخية: فالسلام أكثر أهمية بكثير من هذا بحيث لا يجب أن نعرضه للخطر بمعركة حول هذه القضية». ورد مساعده إيلي روبنشتاين* إن إسرائيل علي تمام الاستعداد لخوض معركة، وأضاف: «إن أمامنا مهمة تاريخية. وقد أبلغنا أصدقاؤنا في أمريكا والكونجرس أنها مضمونة، وقد حدثت منا وليست منهم، وفي تلك اللحظة كنت علي يقين من أننا نمتلك الأصوات الكافية لفوزنا في مجلس الشيوخ. وكان ايبي يؤيد التأجيل علانية الآن، وكشفت حملة ضغط مكثفة قادتها جانيت مولينار أن معظم الأعضاء غير مستعدين للمجازفة بانهيار عملية السلام بمعارضة مطلب التأجيل، وبات من الواضح لي أن حكومة إسرائيل قد تلقت معلومات سيئة مغلوطة من أصدقائها في واشنطن، وأنها تسيء تقدير مدي تصميم الرئيس بوش نتيجة لتلك المعلومات.

وفي البداية قال شامير إنه ليس أمام إسرائيل من خيار آخر سوي المضي قدماً، وأنها تعارض ربطنا بين المستوطنات وضمانات القروض ورددت: «إذا أردت الضمانات الأمريكية فعليكم بقبول موقفنا حول المستوطنات، فلا يمكننا التوقيع دون شروط علي مبلغ عشرة مليارات دولار» وأخيراً يبدو أن شامير يشير إلي أنه رغم تحفظات أرينز وعدد آخر من المستشارين فإن حكومته يمكن أن تقبل التأجيل علي مضض. وقال لي: «إن هذا قرار أمريكي وكنا نريده غير ذلك، ولكننا سنقبل به».



وفي ٢ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ وافق مجلس الشيوخ علي تأجيل دراسة مسألة ضمانات القروض لمدة ١٢٠ يوماً. وقال البعض إنها المرة الثانية التي تلقي فيها الإيباك هزيمة في مبادرة تشريعية. كانت الأولي هي تصويت مجلس الشيوخ عام ١٩٨١ حول بيع طائرات الاستطلاع أواكس للعربية السعودية في مستهل فترة حكم إدارة ريجان. وبعد شهر واحد افتتحت إسرائيل مستوطنة أخري لكن في الجولان هذه المرة.

---

* عمل سفيراً لإسرائيل لدي واشنطن وتولي لفترة رئاسة الوفد الإسرائيلي في مفاوضات المسار السوري (المترجم).

عودة وجع القلب

مع انتهاء مهلة المائة وعشرين يوماً في أوائل عام ١٩٩٢ أعادت الإدارة تقييم قضية ضمانات القروض والمستوطنات، وخلصنا في وقت مناسب تماماً إلى أن موقف الرئيس قد تعزز خلال التدخل لفترة الأربعة أشهر. وتواصلت سياسة التوسع الاستيطاني من جانب حزب الليكود ولكن بثمن باهظ. فقد أظهر استطلاع للرأي أن نسبة ٧٦في المائة من سكان إسرائيل تبدو علي استعداد لقبول سياسة الاستيطان المشروطة وفقاً لما وصفته الإدارة الأمريكية باعتبارها شروطاً معقولة. وبدأت المشاعر داخل الطائفة اليهودية الأمريكية تتحول ضد الخط المتشدد لليكود.

وبرغم هذا تضمن مشروع موازنة شامير لعام ١٩٩٢ إقامة ٥٥٠٠ وحدة سكنية في الأراضي المحتلة. فضلاً عن ذلك فإن تقديرات موارد مشروع موازنته افترضت تلقي ٢ مليار دولار في صورة ضمانات قروض أمريكية كدفعة أولي من المليارات العشرة للمساعدة في تمويل بناء هذه المستوطنات. فقد كان يعتقد بوضوح أن بوسعه الفوز بالاثنين. وكان من المهم أن يفهم أن ذلك لن يكون بمقدوره.

وكتب دينيس روس في مذكرة بتاريخ ١٠كانون الثاني يناير١٩٩٢ «بأن مفتاح استراتيجيتنا يتمثل في ضرورة التركيز علي حاجة حكومة شامير في أن تقدم علي خيار أساسي بين الوفاءبالتحدي التاريخي باستيعاب اليهود السوفيت أو الاستمرار دونما تغيير في بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة ».

وكنت مع هذا التقييم لكنني فضلت محاولة إيجاد صيغة وسط. فقد عرض علي باتي ليهي بديلاً موثوقاً في اجتماع عشية عيد الميلاد في مكتبي الشهر الماضي. فقد اقترح ليهي رهن ضمانات القروض بحظر بناء أي مستوطنات جديدة وخفضها بواقع المبلغ الذي تنفقه إسرائيل علي الانتهاء من تشطيب المستوطنات التي يجري بناؤها بالفعل. واعتقدت أن هذه طريقة خلاقة لإنهاء الخلاف مع إسرائيل، والتعامل مع مشكلة خفض ضمانات القروض بما يعادل ما ينفق علي المستوطنات. فعن طريق خفض ضمانات القروض دولاراً بدولار بما يعادل ما ينفق علي المستوطنات فلن تستطيع إسرائيل اجتذاب اعتمادات من أماكنٍ أخري،

وحينئذ يمكننا أن نعلن أن ضمانات القروض الأمريكية لا تستخدم لبناء مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة. وفي ٢٦ كانون الثاني يناير رفض شامير تماماً اقتراحاً بهذا المعني عرضته علي السفير شوفال قبل يومين. وواصلت أنا وشوفال البحث عن الحلول الوسط الممكنة. وفي الحادي والعشرين من شباط فبراير أعلن أن إسرائيل مستعدة لقبول ملياري دولار في صورة ضمانات قروض لعام واحد. لكنها لن توافق تحت أي ظروف علي تجميد بناء المستوطنات الجديدة. ورفضت هذا الاقتراح المضاد.



وفي ٢٤ شباط فبراير ذات اليوم الذي استؤنفت فيه جولة جديدة من مفاوضات السلام في واشنطن بين إسرائيل وجيرانها العرب، أعلنت موقف الرئيس في شهادتي أمام لجنة فرعية بمجلس النواب برئاسة ديفيد أوبي من ويسكونسين. كان أوبي هو نظير ليهي في مجلس النواب ومعارضاً قوياً للمستوطنات. وطمأنني بشكل شخصي بأنه سيؤيدنا في القضية. وأبلغت اللجنة أن الرئيس سيقدم عشرة مليارات دولار كاملة كضمانات قروض علي مدي خمسة أعوام فقط إذا جمدت إسرائيل كافة النشاط الاستيطاني في الأراضي. وأوضحت أنه إذا لم يكن هذا مقبولاً فسوف نوافق علي مبلغ أقل كثيراً علي أساس سنوي. وسيتم خصم كلفة تشطيب المستوطنات التي يجري بناؤها بالفعل من أي ضمانات أمريكية. أو ما يسمي استقطاع ليهي. وفي أي الأحوال سيكون علي إسرائيل وقف كافة المستوطنات الجديدة في الأراضي.

وواصل أصدقاء إسرائيل ضغوطهم للحصول علي أنسب الشروط. وفي ١٧ آذار مارس اجتمع الرئيس مع ليهي والسيناتور روبرت كاستين من ويسكونسين الزميل الجمهوري لليهي، والمدافع القوي عن مصالح إسرائيل. وقدما حلا وسطاً يقضي بمنح إسرائيل ملياري دولار كضمانات قروض فورية يستقطع منها مبلغ مائتي مليون دولار يتوقع أن تنفقه إسرائيل علي المستوطنات عام ١٩٩٢. ومع ذلك فقد كانت النسخة الأصلية للاقتراح مليئة بالاستثناءات

والإعفاءات والتحولات. وكان الأثر الفعلي هو إطلاق الحرية لإسرائيل في استخدام ضمانات القروض لاستمرار بناء المستوطنات بمعدل كبير لعام آخر علي الأقل. وكنت واثقاً من أن مثل هذا الاحتمال سوف يدفع العرب بعيداً عن مائدة التفاوض. فضلاً عن ذلك فإنه يرتطم مباشرة بمعارضتنا للنشاط الاستيطاني. ورفض الرئيس بوش هذا الحل الوسط باعتباره غير مقبول، وتوعد باستخدام الفيتو ضد أي تشريع لضمانات القروض لا يتضمن تجميداً لأي مستوطنات جديدة.

ووضع إنذار الرئيس تسوية للقضية بالفعل. فقد انهارت المعارضة في الكونجرس تحت وطأة التلويح باستخدام الفيتو، وأقر مشروع قانون المساعدات الأجنبية في نيسان إبريل خالياً من أي ضمانات قروض لإسرائيل. كانت مميزات الرئيس أهم بعد في طريقة تطور الأمور في هذه المسألة. ولكن كم هي نادرة تلك الحياة أو السياسة المثالية حيث تكون النتائج ثمرة للمميزات والفضائل فحسب. وبغض النظر عن تعنت حكومة شامير الذي ساهم في تعبئة الرأي العام الأمريكي ضد موقف إسرائيل في هذه القضية الخاصة. فقد استفادت قضيتنا بقدر مهم من قوة انعدام شعبية المعونة الخارجية وخاصة في سنة الانتخابات.

وبدون أدني شك كان فشل الإيباك السابق في عرقلة طلبنا بتأجيل ضمانات القروض لأربعة أشهر سلاماً نفسياً في صالحنا. أما وقد خسرت في أيلول سبتمبر لم يعد ينظر إلي الإيباك الآن علي أنها القوة التي لا تقهر في الكونجرس. ونتيجة لذلك كان من الأيسر أن تدوم مميزات موقف الرئيس.

زيارة إسرائيل جديدة

في ٢٣ حزيران يونيو ١٩٩٢ أطاح الناخبون الإسرائيليون بحزب الليكود بزعامة شامير من السلطة بأغلبية كبيرة. وسيرأس الحكومة العمالية الجديدة إسحاق رابين، صوت الاعتدال الذي كانت آراؤه حول قضايا السلام والمستوطنات تختلف اختلافاً مهماً عن شامير.

واستيعاباً لوقائع الماضي فمن الواضح أن الجدل حول ضمانات القروض قد ساهم بوضوح في إلحاق الهزيمة بالليكود. ومع ذلك فلم نقدر في حينه أهميته بالنسبة للانتخابات الإسرائيلية. وفي الواقع فقد كنت أعتقد أن الليكود سوف يفوز مما سيشجع سياسات شامير المتشددة. وبدلاً من ذلك فإن إخفاق شامير في الحصول علي ضمانات قروض من أوثق حلفاء إسرائيل قد هز حكومته. فتدهور العلاقات مع الولايات المتحدة نتيجة سياسة الاستيطان المتعنتة. قد كلف الليكود الكثير لأن الإدارة المناسبة للولايات المتحدة الأمريكية ضرورة ملحة لنجاح أي حكومة إسرائيلية. وأعتقد أنه كان بوسع حكومة شامير أن تكون مرنة بدرجة تكفي للحصول علي ضمانات القروض من دون المساومة علي مبادئها.

وألمح عدة منتقدين إلي أن تشدد إدارة بوش في قضية ضمانات القروض قد انتهج عن عمد كوسيلة لعرقلة الليكود. ولم يكن هذا حقيقياً. والحقيقي هو أن معظم خبراء شؤون الشرق الأوسط بالخارجية كانوا يعتقدون أن عملية السلام ستكون في خطر علي الدوام إذا استمرت حكومة شامير في السلطة. وبوسعي تذكر قول أحد معاوني لي علي الطائرة العائدة من مدريد أنه في الوقت الذي تعد فيه مشاركة شامير جوهرية لترتيب انعقاد مؤتمر السلام فسيكون من المستحيل إحراز تقدم يذكر إلي أن تحل حكومة تلتزم بمبادلة الأرض بالسلام محل حكومة شامير. ووافقت علي هذا التقييم. لكن لم يكن من صميم سياستنا استغلال قضية ضمانات قروض المستوطنات للتأثير علي الانتخابات الإسرائيلية. فقد أبلغني شامير نفسه في مناسبات عدة أنه يجب علي الولايات المتحدة أن تتصرف كوسيط نزيه في عملية السلام. ولم يكن بوسعنا الوفاء بتلك النزاهة بدون رهن ضمانات القروض بفرض قيود علي النشاط الاستيطاني. فالفشل في ذلك سيعني إنهاء عملية السلام*.

وعندما كنا نُتّهمّ بإملاء الشروط علي إسرائيل في قضية من قضايا السياسة الداخلية (المستوطنات) كان موقفنا يتمثل في بساطة في أننا لا نقول للإسرائيليين إنهم غير أحرار في

* الجدير للاهتمام أنه بعد مرور ثلاثة أيام علي الانتخابات نقلت صحيفة معاريف عن شامير قوله في دوائره الخاصة إنه كان يعتزم المماطلة في مباحثات السلام لعشر سنوات سيواصل خلالها سياسته الاستيطانية المحمومة في الأراضي المحتلة. ونفي شامير هذا التقرير عبر متحدث باسمه. لكن هذا يؤكد مع ذلك شكوكي القوية بأنه شديد العزوف عن التوجه إلي مدريد والتفاوض بجدية علي أساس مبدأ الأرض مقابل السلام

العيش فى أى مكان يشاءون، أو أن الحكومة غير حرة فى بناء المستوطنات فى الأراضى، لكننا ببساطة لن نجمع أموال دافعى الضرائب الأمريكيين لتمويل سياسة تتعارض مع سياسة كافة الحكومات السابقة، جمهورية كانت أم ديمقراطية.

❑ ❑ ❑

وبفوز رابين بذلت الجهود للتوصل إلي حل وسط حول المستوطنات وضمانات القروض. ففى ١٣ تموز يوليو اتصلت هاتفياً برابين واقترحت عليه ضرورة أن نهيئ أرضية مشتركة للعمل للتوصل إلي اتفاق يزيل العقدة المستعصية حول القضية مرة واحدة وللأبد خلال جولتى القادمة فى المنطقة. وأبلغنى بأنه يسعدنى أن أعرف أن حكومته تعتزم إجراء خفض هام علي النشاط الاستيطانى.

وبعد ستة أيام التقيت رئيس الوزراء الجديد فى القدس، وفى هذه المرة لم استقبل ببناء مستوطنة جديدة وعلي العكس فقد جمد رابين بالفعل عقود بناء سبعة آلاف وحدة سكنية فى الأراضى، وقال لى: إنه رغم المشكلات القانونية فإنه يعتزم إلغاء تلك العقود. وكان فى سبيله أيضاً إلي إلغاء مختلف أشكال الحوافز والدعم التى قررتها حكومة شامير لتشجيع الإسرائيليين علي الانتقال إلي الأراضى. وقال رابين: إن حركة المستوطنين مزودة بالسلاح لكنه لن يرتدع. وقال: «فى سبيل ٣,٩مليون يهودى إسرائيلى ومليون من عرب إسرائيل لا يتعين رهن مستقبلهم بسبب مائة ألف مستوطن فى الأراضى، فإننى أعتزم المثابرة». وفى لحظة مشاعر فياضة شديدة التأثير أكد لى رابين: «سوف نفى بما نقول، ولن نكذب عليكم، كان تغير الأجواء جذرياً بشكل إيجابى».

وبرغم هذا قرر رابين أن الكلفة السياسية والمالية لإلغاء أحدي عشرة ألف وحدة سكنية يجري بناؤها بالفعل باهظة للغاية، وأعرب عن أمله فى إمكانية الحصول علي ضمانات قروض أمريكية وأبلغته بأنه فى الوقت الذى لايزال من المتعين تسوية بعض المسائل العالقة فإننى أعتقد أن هناك ما يدعو لتوقع للتوصل لاتفاق عندما يزور الولايات المتحدة.

وكتبت للرئيس فى ٢١ تموز يوليو: «إننى أزور إسرائيل مختلفة. فالمزاج والأجواء تدفع للأمل. فرابين منفتح ومباشر وشديد الوضوح مع أهدافه. إنه يعكف حالياً علي إعادة ترتيب أولويات إسرائيل بعيداً عن الأراضي ولصالح إنعاش الاقتصاد».

وفي العاشر من آب أغسطس استضاف بوش رابين في منزله الصيفي فى كينيبونكبورت. وكما تبين كانت المفاوضات أكثر صعوبة مما توقعنا حتي أنها استمرت إلي الساعة الرابعة بعد الظهر قبل أن يتسني للتوصل إلي اتفاق. كانت قضية الخلاف الأساسية هي ما يسمي بالمستوطنات الاستراتيجية التى أقامها الإسرائيليون فى مرتفعات الجولان وغور الأردن. وفرق رابين بوضوح بين تلك المستوطنات والمستوطنات «السياسية» ولم يوافق صراحة علي الكف عن «تكثيف» المستوطنات الإستراتيجية عند الاقتضاء. لكنه طمأننا إلي أن الإسكان فى المناطق الاستراتيجية آخذ فى الانحسار، وأن حكومته تتوقع استمرار هذا الانحسار. وقال للرئيس: «إننا لا نعتزم إقامة أى مستوطنات جديدة فى تلك المناطق لكن لا يسعنى أن أقدم لكم التزاماً صريحاً».

والأكثر أهمية أن رابين التزم بسياسة استيطان مختلفة تماماً، وأشار بكل تأكيد: «إننا نرتب أولوياتنا. ولن تقوم حكومة إسرائيل بإنشاء أو تقرر بناء مستوطنة جديدة، وستمنع الأفراد من بناء المستوطنات، ولن تصادر الأرض العربية بعد الآن لبناء المستوطنات. والأكثر من هذا فقد رضخت إسرائيل لإصرارنا بضرورة استقطاع أى أموال تنفق علي نشاط المستوطنات الجارى بناؤها فى الأراضي من أى ضمانات قروض».

واستناداً إلي هذا وضمانات أخري من رئيس وزراء إسرائيل أعلن الرئيس أنه سيطلب من الكونجرس الموافقة علي ضمانات قروض بعشرة مليارات دولار علي الفور. وفى الخامس من تشرين الأول من أكتوبر وافق الكونجرس علي ضمانات القروض. وبعد عدة أشهر من الخلاف المحتدم حول هذه القضية لم تعد العلاقات الأمريكية الإسرائيلية موضوعاً لهذا التوتر.

الفصل الثلاثون

إلى حيث ألقت

مشيعاً بالدموع بدون انفجار

إن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود والقضية الآن هي كيف يسير تفكك الاتحاد السوفيتي من الآن فصاعداً. وهدفنا هو أن يحدث التفكك بأقصى درجة سلمية ممكنة.

من مذكرة عن سياسة وزارة الخارجية

٢٥ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩١

على مدار أكثر من أربعين عاماً قادت الولايات المتحدة الغرب في نضاله ضد الشيوعية والتهديد الذي كانت تفرضه على أثمن قيمنا. لقد شكل هذا الكفاح حياة كل الأمريكيين. واضطر كافة الأمم إلى العيش في ظل شبح الدمار النووي. وقد انتهت تلك المواجهة الآن

الرئيس بوش

٢٥ كانون الأول ديسمبر ١٩٩١

فى الوقت الذى عكفت فيه معظم أيام شهرى أيلول سبتمبر وتشرين الأول أكتوبر ١٩٩١ فى الإعداد لمؤتمر مدريد للسلام فى الشرق الأوسط كنا نراقب بحذر تفكيك الاتحاد السوفيتى لنفسه، وتلاشت إلى حد ما الحماسة الثورية التى ظهرت فى أواخر آب أغسطس وأوائل أيلول سبتمبر. لكن جهود جورباتشوف لإعادة التفاوض حول معاهدة الاتحاد المنكوبة لم تؤسس شيئاً ذا قيمة. وواصلت الجمهوريات تكريس استقلالها وهو توجه تعزز فى أواسط تشرين الأول أكتوبر عندما أعلنت أوكرانيا إنها لن تنضم إلي المعاهدة الاقتصادية. وبعد أسبوعين وفى يوم الإثنين ٢٨ تشرين الأول أكتوبر أعلن يلتسين أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراء حاسم، واقترح وصفة اقتصادية صادقة لجمهورية روسيا شملت إلغاء التسعيرة الجبرية مع نهاية العام والتعجيل بعملية الخصخصة، وخفض الدعم المالي للوزارات السوفيتية. وطلب يلتسين فى خطابه من الجمهوريات الأخري الانضمام إلي برنامجه. لكنه أوضح بجلاء أن روسيا لن تتسامح مع أى تأجيل، وسوف تمضى بمفردها عند الاقتضاء.

وفى اليوم التالى انضممت إلي الرئيس بوش فى مدريد عشية مؤتمر السلام الذى سيصبح آخر اجتماع مع ميخائيل جورباتشوف كرئيس للاتحاد السوفيتى. كان جورباتشوف مشتتاً يفتقد التركيز بدرجة لم ألحظها عليه مطلقاً. لم تكن هذه عقليته.. تلك العقلية المتقدة الذكاء. كان ما أشاهده تعقيدا مطلقا – جراء التحديات الجسيمة التى تمسك بخناقه. وبدأ جورباتشوف بمناقشة قضية الشرق الأوسط. لكنه مالبث أن أصبح مشغولاً بمشاكله الداخلية ومال للحديث عنها. وانتقد زعماء الجمهوريات «النهج الكارثة» الذى ينتهجونه، وأبلغ الرئيس بأن مزيداً من تفسخ الاتحاد السوفيتى سيؤدى إلي زعزعة استقرار العالم. وبدا كغريق يبحث عن قشة يتعلق بها لإنقاذه. كان من الصعب الشعور بعدم الرثاء لحاله.

وفى ساعة مبكرة فى آخر أيام المؤتمر وبعد فترة طويلة من مغادرة الرئيسين عقدت جلسة استغرقت عشرين دقيقة مع بانكين وزير خارجية الاتحاد السوفيتى، وكان بدوره أكثر انشغالاً بالعلاقات بين المركز والجمهوريات عن الصراع العربى الإسرائيلى. وقال: «لو جاز لى، فإننى أود اقتراح الرد الذى قد يقدمه رئيسكم علي خطاب يلتسين. وقررت الإصغاء إليه – رغم يقينى بأن جورج بوش لن يقدم نصيحة لبوريس يلتسين فى أمر السياسة الروسية. وقال بانكين: أولا علي الرئيس أن يبلغ يلتسين أن برنامجه الاقتصادى متماسك. لكنه فى

حاجة فعلاً إلي تنفيذه الآن. وقال بانكين: ثانياً: علي الرئيس أن يبلغ يلتسين «أنه عندما تهاجمون مؤسسات الحكومة المركزية فقد تضرون بمصالحكم الخاصة. فقد أضعفتَ هذه المؤسسات المركزية وتخربت. إنها في حاجة إلي تلقي المعونة من بقية العالم. والمسألة هي أن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي سياسة إيجابية. فقد تحققت إنجازات كبيرة وإن تدمير وزارة الشؤون الخارجية سوف يدمر صورتكم كزعيم سياسي يفكر بأسلوب كوني» وقلت له: سوف أنقل تعليقكم. لكني اعتبرت أقواله مجرد مؤشر آخر علي مدي تداعي المركز: فهاهو وزير خارجية الاتحاد السوفيتي يتوسل لي أن أطلب من الرئيس بوش أن يتدخل لدي رئيس جمهورية روسيا للإبقاء علي وزارته.

وكما اتضح كان بانكين سيستخدم بعض المساعدة للحفاظ علي وظيفته سليمة. وفي ١٣ تشرين الثاني نوفمبر وبينما كنت في سول لحضور اجتماع «للأبيك» بعث لي دينيس روس رسالة بأن فرانك إليه أحد مساعدي جينشر قد تباحث لتوه مع سيرجي تاراسينكو الذي قال إنه سيعاد تعيين شيفرنادزة وزيراً للخارجية. وحذر روس: «لكن تعيينه ربما يعكس رغبة جورباتشوف (بالاتفاق مع شيفرنادزة) في حملنا علي الاضطلاع بدور أكثر فعالية في الحفاظ علي الاتحاد. واعتقدت أنه علينا أن نتوخي الحذر في هذا لأن هدفنا يجب أن يكون تحقيق مصالحنا (علي سبيل المثال منع انتشار أسلحة الدمار الشامل). وليس تأييد المركز أو الحفاظ علي الاتحاد.

الاعتراف بأوكرانيا

كانت سياسة التنافس القومي التي شغلت بالي في أيلول سبتمبر آخذة في التكثف، وبات من الواضح أن الأول من كانون الأول ديسمبر يتبلور كأهم موعد لسياستنا السوفيتية. ففي ذلك اليوم سيتوجه الأوكرانيون إلي صناديق الاقتراع للتصويت في استفتاء يؤكد استقلال أوكرانيا. وخلال الأسبوعين الأخيرين من تشرين الثاني نوفمبر أجرينا عدة مناقشات حول ما إذا كان يتعين الاعتراف بذلك الاستقلال*

* كانت النتيجة معروفة سلفاً بأن التصويت سيكون في صالح الاستقلال بأغلبية ساحقة.

كانت وزارة الدفاع هي الأكثر ميلا ورغبة في الاعتراف بدءً من القمة ديك تشيني. كان تشيني يريد رؤية تفكك الاتحاد السوفيتي، ويعتقد أن أوكرانيا هي المفتاح والأكثر من هذا اعتقاده أنه «بدخول عقر الدار» بالاعتراف فسوف تكون القيادة الأوكرانية أكثر نزوعاً لإقامة علاقات إيجابية معنا. واتخذت موقفاً مختلفاً بعض الشيء. وكنت أريد التيقن من أن الاتحاد السوفيتي تفكك «سلمياً» وهذا يعني في المقام الأول منع حدوث اشتباك روسي- أوكراني. وفي اللعبة السياسية الثلاثية بين المركز وروسيا وكييف لم أكن أريد أن نتحرك بالدفاع أو استفزاز أو نفاقم نزاعاً يمكن تجنبه. فضلاً عن ذلك أنه في الوقت الذي كنت أعتقد أن «المبادئ الخمسة» التي أعلنتها في الرابع من أيلول سبتمبر قد ساهمت في توجيه الطموحات السياسية في اتجاه إيجابي فإن الاعتراف يشكل ورقة أكثر قوة. كانت هذه ميزة سياسية، ولم أكن أريد أن ألعب بهذه الورقة إلا عندما نحصل علي ضمانات محددة من كل جمهورية حول قضايا مثل القيادة والتحكم في الأسلحة النووية.

ولسوء الحظ وحتي قبل أن يتمني بحث آرائنا مع الرئيس حدد جيف سميث من صحيفة واشنطن بوست إطار الجدل في مقال نشره يوم الإثنين ٢٥ تشرين الثاني نوفمبر بعنوان «خلاف بين المسؤولين الأمريكين حول كيفية الرد علي استقلال أوكرانيا». تملكني الكمد والغضب الجام ليس من ديك تشيني. بل من البيروقراطية الخرقاء التي كانت المصدر الأول للرواية. ولعل هذه هي المرة الوحيدة في تاريخ إدارة بوش التي أتذكر تسرب خلاف سياسي حقيقي كنت طرفاً فيه إلي الصحافة قبل أن يمكننا تسويته فيما بيننا.



وفي الساعة ٨,٣٧ صباح الثلاثاء اتصل بي شيفرنادزة بعد تحمله المسؤولية كاملة عن السياسة الخارجية السوفيتية لبحث قضية الشرق الأوسط. وانتهزت الفرصة لأسأله عن أوكرانيا. وكان يشعر أن التصويت سيكون في صالح الاستقلال. لكن هذا لن يقود بالضرورة إلي الانفصال عن الاتحاد. وتوقع قائلاً: «إذا انفصلت أوكرانيا فسوف يثير هذا عواقب لا يمكن التوقع بها مطلقاً. مثل مشكلة العلاقات بين روسيا وأوكرانيا، ووضع القرم ومنطقة

الدونباس (وهي منطقة مناجم الفحم وإنتاج المعادن، وهي دولة في حد ذاتها يقطنها الروس أساساً). ناهيك عن شرق أوكرانيا الذي سيكون قضية بحد ذاته. وأعرب عن أمله في أن تقدم القيادة علي إجراء «تغيرات مهمة» فيما يتعلق بالعلاقات بين المركز والاتحاد ككل.

وسألت: «ماذا سيكون موقفكم من الاعتراف إذا أعلنت الجمهوريات الاستقلال علي أن تظل جزءً من دولة كونفدرالية أو عضواً في اتحاد فضفاض يضم دولاً ذات سيادة؟» وأبدي اعتقاده بأنه لن تكون هناك مشكلة، وأشار إلي أن أحدث مشروع لمعاهدة الاتحاد سيسمح بذلك «رغم أن المركز سيحتفظ بمؤسسات قوية للدولة تتمتع بسلطات قوية لكن سيسمح لأعضائه بإقامة علاقات مع الآخرين». وبدا هذا النهج غير منطقي بالنسبة لي لكنني لم أشأ أن أضغط عليه أكثر من ذلك.

وبعد ساعتين توجهت إلي البيت الأبيض للمشاركة في اجتماع لمجلس الأمن القومي حول أوكرانيا. وفي ورقة خيارات أعدها إيدهيويت الذي حل محل كوندي رايس كمساعد خاص للرئيس للشئون السوفيتية تم تسوية معظم الخلافات بين الخارجية والدفاع. وبعد مناقشات قصيرة استقر الرئيس علي خيار الخارجية «بتأجيل الاعتراف» رغم اتفاقنا جميعاً علي أنه لمدة أسابيع لا أشهر. وقرر الرئيس أيضاً إيفاد مبعوث خاص إلي كييف بعد الأول من كانون الأول ديسمبر لتوجيه بيان تأييد قوي لرغبات شعب أوكرانيا، وإيفاد بوب زوليك إلي بروكسل للعمل علي تحقيق إجماع داخل حلف الأطلنطي ومع المجموعة الأوروبية. فضلاً عن ذلك فقد اتفقنا علي أن أزور أوكرانيا وأجزاء أخري في الاتحاد السوفيتي في أواخر كانون الأول ديسمبر. وفي غضون أقل من ساعة قمنا بحل قضية متفجرة محتملة أو هكذا اعتقدت.



ومع حلول صباح يوم الخميس كانت الوسيلة في قبضتنا. فقد حدد الرئيس الإطار العام لموقفنا في اجتماع خاص مع مجموعة صغيرة من الأمريكيين ذوي الأصل الأوكراني الذين سارعوا علي الفور بتسريب كل ما قاله الرئيس له وأضفوا عليها كل إضافات ممكنة أثناء

ذلك. وتاهت الفروق فى موقفنا فى تغطية الصحافة. وكان الحفاظ علي اتفاق الحلفاء مع موقفنا صعب للغاية، وفى موسكو انتاب الغضب جورباتشوف كما ترتد.

ومع ذلك وارى جورباتشوف غضبه عندما اتصل به الرئيس يوم السبت ليطلعه علي أبعاد موقفنا. وأبلغ جورباتشوف بوش أن التصويت لن يكون بالضرورة انفصالا عن الاتحاد، وهو ما كان من قبيل التمني علي أفضل الأحوال. واتصل الرئيس بيلتسين وبعثت رسالة شيفرنادزة عبر السفير شتراوس. كان رد شتراوس بالغ التشاؤم. وقال: إن تقارير الصحافة عن موقفنا دمرت شيفرنادزة، وأكد شتراوس أنه لم ير شيفرنادزة بمثل هذا الاضطراب حتي وقت الانقلاب.

وفى الأول من كانون الأول ديسمبر صوتت نسبة أكثر من تسعين بالمائة من الأوكرانيين لصالح الاستقلال، وانتخب ليونيد كرافتشوك رئيساً للبلاد. وفى اليوم التالى صرح مارلين فيتزووتر: «بأن الولايات المتحدة تتطلع إلي إقامة علاقات طبيعية مع أوكرانيا. علاقة نتوقع أن نقيمها مع بلد يتحول إلي الديمقراطية»، ومن وجهة نظر المجتمع الدولى فإن إحدي قدمى الاتحاد السوفيتى علي الأقل قد باتت فى القبر.

عودة إلى برينستون

بحثت فى ذلك الأسبوع الخط السياسى الذى أعتقد أن علينا أن ننتهجه بعد الاستفتاء الأوكرانى مع تاتويلر وبوب زوليك ودينيس روس، ووضعت خططاً مؤقتة لبلورة ذلك النهج السياسى فى خطاب سألقيه فى الثانى عشر من كانون الأول ديسمبر فى برينستون. كانت عودتى إلى الكلية التى تخرجت منها بهذه الطريقة بالنسبة لى عودة جميلة إلى موطنى، ولكنها ستسمح لنا أيضاً بتعزيز هدفنا الأساسى. وهو انهيار الاتحاد السوفيتى. وكان جورج كينان صاحب مبدأ الاحتواء فى معهد الدراسات المتقدمة فى برينستون وعرفت أنه سيحضر للاستماع إلي الخطاب لو سمحت له الظروف.

لم يكن النهج الذي يدور في رأسي هو التخلي الحاسم عن مبدأ الاحتواء (وهو المبدأ الذي بدأنا نتخلي عنه بالفعل منذ عامين) فقط بل التخلي أيضاً عن رهاننا الصحيح السابق علي جورباتشوف. وكنت أشعر أن جورباتشوف شخصية تاريخية حقيقية ربما كانت مسؤولة عن تحويل العالم إلي الشكل الذي سنعرفه. فقد أنهي الحرب الباردة، وأنهي الإمبراطورية السوفيتية سلمياً. الأمر الذي يجب أن نشعر تجاهه بالامتنان والاحترام لكن من الواضح أن حقبة جديدة قد بدأت في الظهور.

ويوم الأحد ٨ كانون الأول ديسمبر عندما سألني بوب شيفر في برنامج «واجه الأمة» بشبكة سي بي إس عما إذا كنت أعتقد أن بوسع جورباتشوف الحفاظ علي تماسك الاتحاد السوفيتي أوضحت ما يلي: «أعتقد أن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود. وأعتقد أن محاولات ستبذل للحفاظ علي شكل ما من أشكال المركز. فهل يستطيع أحد تحديد صلاحيات هذا المركز؟ ومضيت إلي تحديد القضية بأنه في الوقت الذي تلوح أمامنا فيه فرص هائلة فإن أخطاراً عظيمة تحدق بنا، وإذا لم ينفض الاتحاد سلمياً فإن هناك احتمالاً بأن نشهد «يوغسلافيا بالأسلحة النووية».



وفي الوقت ذاته وعلي الطرف الآخر من الكرة الأرضية كان بوريس يلتسين يعمل علي ضمان عدم وجود الاتحاد السوفيتي بعد الآن. واتفق يلتسين مع نظيريه الأوكراني ليونيد كرافتشوك والبيلاروسي ستانيسلاف شوشكيفيتش في اجتماع عقدوه في منتجع للصيد قرب بريست بالقرب من الحدود البولندية علي إعلان تفكيك الاتحاد السوفيتي رسمياً. وفي ذات الاجتماع اتفقوا علي إقامة رابطة كومنولث الدول المستقلة (CIS) تكون عاصمتها مينسك. وتحدث إعلان بريست عن «قيادة موحدة في المجال الاستراتيجي العسكري المشترك» إلي جانب تنسيق السياسة الخارجية، وإقامة اتحاد جمركي واقتصادي. وفي ضوء ثقل الكومنولث من ناحية عدد السكان والإنتاج الصناعي والقوات المسلحة فلا يمكن النظر

إلي الكومنولث إلا باعتباره قضاء مبرماً علي جهود جورباتشوف لإعادة التفاوض علي معاهدة اتحاد. وبحكم الأمر الواقع فإن جورباتشوف تنتظره مصاعب جمة.

وأضاف يلتسين الإهانة إلي الجراح باتصاله بالرئيس بوش بعد ظهر يوم الأحد لاطلاعه علي اتفاق بريست قبل أن يتصل بجورباتشوف. كان اتفاق الكومنولث معداً بشكل مدروس في جانب منه لنيل تأييدنا، فقد تضمن البيان المبادئ الخمسة التي أعلنتها إضافة إلي كافة المواقف الصحيحة الخاصة بالأسلحة النووية. لكن مكالمة يلتسين مع الرئيس بوش كانت موجهة إلي الداخل. فقد ولّد مجرد إجراء المكالمة انطباعاً بأن الولايات المتحدة قد وافقت علي إقامة الكومنولث.

وبدأ جورباتشوف معركة مضادة يوم الإثنين، ووصف الكومنولث بأنه «غير شرعي ويشكل خطورة بالغة. فلن يساهم إلا في إشاعة الفوضي والاضطراب». وتوجه يوم الثلاثاء إلي مقر وزارة الدفاع السوفيتية في محاولة واضحة لاستمالة الجيش*.

وعقد يلتسين اجتماعاً استغرق ساعتين مع القيادة العليا السوفيتية يوم الأربعاء. كانت تلك التحركات تشكل كابوساً جيوسياسياً: فزعيما الكرملين، وبهذا الثقل يتصارعان علي السلطة السياسية، ويحاول كل منهما اجتذاب الجيش إلي صفه مما أثار شبح اندلاع حرب أهلية والبلبلة تحيط بالأسلحة النووية.

وفي أجواء الأزمة هذه اكتسب خطابي في ١٢ كانون الأول ديسمبر أهمية إضافية. (ففي ذلك اليوم نهضت من النوم بالفعل في الساعة الرابعة والنصف فجراً يساورني القلق حيال توجه الخطاب. واتصلت بمارجريت تاتويلر للتأكد من عدم تسرب الخطاب إلي الصحافة لم يكن قد تسرب).

---

* في ذلك اليوم في واشنطن حذر روبرت جيتس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية الجديد في شهادته أمام لجنة الخدمات المسلحة بمجلس النواب من حق من أن الأوضاع الاقتصادية بما في ذلك النقص الحاد في الوقود والأغذية في بعض المناطق وتفكك القوات المسلحة، واستمرار الصراعات العرقية سوف تتفاقم في هذا الشتاء الصعب لخطر اضطراب في الاتحاد السوفيتي منذ وصول البلاشفة إلي السلطة.

وبدأت الخطاب بتوجيه تحية عرفان إلي كينان (الذى كان جالساً بالصف الأول).
وقلت: لقد أتت سياسة الاحتواء مفعولها (فالدولة التى أسسها لينين وبناها ستالين كانت تحمل بذور فنائها) والآن (ونتيجة لانهيار الاتحاد السوفيتى فإننا نعيش فى عالم جديد. علينا أن نغتنم فرصة هذه الثورة الروسية التى بدأت مع هزيمة انقلاب آب أغسطس لتأسيس علاقات –علاقات– لا تفيد أمريكا وحدها بل والعالم بأسره)* وفى الوقت الذى أشدت فيه بجورباتشوف لتيسيره حدوث تلك التحولات فقد أوضحت اعتقادنا بأن عصره قد ولي، وقلت: «لقد ضمن مكانه فى التاريخ لمساهمته في إنهاء الحرب الباردة سلمياً، وهو لهذا يستحق عرفان واحترام العالم».

وحددت إطاراً نظرياً لإدارة عملية التغير السريعة المقترنة بانهيار الاتحاد السوفيتى.
وقلت: «وكما أننا أقمنا تحالفاً ضد الستالينية أثناء الحرب الباردة. فعلي أمريكا الآن أن تحشد تحالفاً لتأييد الحرية »ولتحفيز هذا التحالف اقترحت عقد مؤتمر تنسيق للإسراع بجهودنا لتقديم المعونة الإنسانية لشعوب الاتحاد السوفيتى». لم يكن الهدف من المؤتمر أن يكون آلية لتحريك الجهود الدولية، بل طريقاً أيضاً للتغلب علي التعقيدات البيروقراطية فى الحكومة الأمريكية، واستمر الخطاب فى تحديد الإطار العام لسلسلة من المبادرات الرامية لإدارة المخاطر المقترنة بالأسلحة النووية، ودعم الديمقراطية والاستقلال فى الجمهوريات، وتقديم المساعدات للتغلب علي الكارثة الإنسانية، وتشجيع إقامة السوق الحرة. واشتملت المبادرات الإحدي والعشرين علي خطوات محددة مثل إيفاد خبراء فنيين لمساعدة الجمهوريات علي إقامة رقابة علي صادرات التكنولوجيا الخطرة، وتعزيز علاقاتنا لتعليم الزعماء المحليين وزعماء الجمهوريات الأشكال الديمقراطية للإدارة، وزيادة بعثات فيالق السلام إلي الجمهوريات وتعيين لارى إيجلبرجر «قيصر» للإشراف علي برنامجنا (المساعدة التى تقتضى التغلب علي المقاومة البيروقراطية).

---

* كنت أعتزم فى الأصل الإشارة إلي العلاقات الأمريكية مع روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخري لكن تأسيس الكومنولث والمفاوضات الجارية حوله اقتضت منى العدول عن هذا التركيز الوحيد علي الجمهوريات، واستخدمت العبارة الواضحة «روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخري وأى كيانات مشتركة». ومشيراً علي سبيل المثال إلي الكومنولث التعامل مع أى مؤسسات بين الجمهوريات التى تنشأ عقب انتهاء الجمهوريات من مفاوضاتها.

واختتمت الخطاب بتعبير مجازي: «إذا كنا قد تواجهنا خلال الحرب الباردة كعقربين في زجاجة واحدة. فإن دول الغرب والجمهوريات السوفيتية السابقة تقف الآن كمتسلقين غير مهرة فوق جبل شاهق تمسك جميعها في حبل واحد، لذا فإن السقوط نحو الفاشية أو الفوضى العارمة في الاتحاد السوفيتي السابق سوف يجر دول الغرب إلي السقوط أيضاً. وعلي نفس القدر من الأهمية فإن سحباً قوياً مطرداً من جانبنا الآن يمكن أن يساعد الروس والأوكرانيين وجيرانهم علي التماس موطئ لأقدامهم ليصبح بوسعهم النهوض والتمتع بالديمقراطية والحرية. ويتعين علينا تقوية الحبل لا قطعه».

وأثناء توجهي إلي موسكو في غضون ثمان وأربعين ساعة تساءلت عما إذا كان بالإمكان إيجاد موطئ قدم صلب في بلد ينحدر نحو الفوضى.

عودة إلي الاتحاد السوفيتي للمرة الأخيرة؟

عندما وصلت إلي موسكو بعد ظهر الأحد الخامس عشر من كانون الأول ديسمبر كنت محظوظاً أن أجد في استقبالي موكباً يستطيع نقلي إلي أي مكان. فقد أغلق أكثر من تسعين مطاراً بسبب نقص وقود الطائرات، وكانت معظم طائرات شركة إيرفلوت رابضة في المطارات، وواجهت سفارتنا صعوبات في توفير البنزين لسياراتها، وكل هذا يحدث في بلد ملك أضخم احتياطي بترولي مؤكد في العالم!. وقد طمأنني كوزيريف عبر الهاتف أن أزمة وقود «ليست علي هذا القدر من السوء» ولكن كالمعتاد بذل لين دينت وطاقم القوات الجوية دي نقلنا إلي أقصي بقاع العالم جهداً خارقاً في تذليل كافة المشكلات اللوجستية. وفي وقت الذي كنا نستريح لبضع ساعات في فندق بنتا جاء ستروب تالبوت من مجلة تايم وسلم يدي روس نسخة من حديث أجراه مع جورباتشوف، ورسالة من «شخص ما» من العاملين ع جورباتشوف تلقي ضمانات بحجب اسمه.

وفي الحديث انتقدني جورباتشوف «للتسرعي الشديد في القول إن الاتحاد السوفيتي لم يعد له وجود. فالأحداث تترى هنا. وبينما نحن نحاول تدبر الأمور يبدو أن الولايات المتحدة تعرف كل شيء بالفعل! ولا أعتقد أن هذا من قبيل الإخلاص»*.

كان جورباتشوف يفكر في الاستقالة على ما يبدو، ولكنه أبقى خياراته مفتوحة الآن، وربما درس القيام بدور في رابطة كومنولث الدول المستقلة شرط عدم تعرضه للإهانة. لكن رسالة الموظف مضت إلي القول: إن هناك احتمالاً بنسبة خمسين في المائة على الأقل بأن يصبح جورباتشوف «شخصية عادية» في غضون أسابيع قلائل، وإن البعض يحاول الشروع في اتخاذ إجراءات جنائية ضد الرئيس السوفيتي. وطلبت الرسالة ضرورة ألا يتورط يلتسين في مثل تلك الإجراءات. وقرنت الرسالة الاستعداد للخدمة في الكومنولث بشروط مناسبة بخوف مشروع من محاكمة سياسية صورية.

وكانت الرسالة مؤشراً ملموساً عن القلق وعدم الاستقرار اللذين يجتاحان موسكو، وهو إحساس تعزز بعد عدة دقائق عندما أبلغني بوب بيرسون سكرتيري التنفيذي بأن جافريل بوبوف استقال من منصبه كعمدة لموسكو.

وبعد برهة عقدت اجتماعاً مع أندريه كوزيريف في مبنى المقر القديم للحزب الشيوعي بميدان ستارايا بموسكو. وأشار كوزيريف إلي أن هذه ربما كانت المرة الأخيرة التي نجتمع فيها هنا. بما يشير إلي أنه يعتزم الاستيلاء على مقر الخارجية السوفيتية قريباً.

وبعد أن وصف خطابي في برينستون بأنه «ممتاز» تطرق إلي الموضوع مباشرة. وقال: «هذا هو وقت الأمل والتحدي. فالولايات المتحدة مطلوب منها جهد ضخم جديد في إطار مساعيها لدعم الديمقراطية في العالم».

❑ ❑ ❑

---

* حذف تالبوت بقية العبارة «كما نعرفه».

وشرحت أن خطابي كان هدفه منح الأمل للإصلاحيين في الاتحاد السوفيتي، وتحقيق إجماع في أمريكا وراء شراكتنا وقلت: «إننا نري الفرص المهمة والأخطار الكافية في التطورات الحادثة هناك، لكننا لا نعتزم الزج بأنفسنا في تلك العملية الداخلية، وهو أمر أكده الرئيس بوش في مباحثاتنا ذلك الأسبوع. ومضيت في تحديد أهداف جولتي التي كانت تشتمل علي فهم التطورات السياسية السوفيتية، وخاصة إعلان بريست، واستيضاح قضايا التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية، وبدء مساعدة إنسانية شاملة.

وقال كوزيريف لاغياً الاتحاد السوفيتي من الوجود حتي قبل أن ينهار كله بالفعل: «إنه مع تفسخ الدولة القديمة أصبح الأمر أكثر خطورة. فبقايا المركز تثير الفوضي في البلاد وتعرقل الرغبة المنطقية للجمهوريات في تقرير المصير وبإقامة الكومنولث نحاول وضع هذه العملية في إطار سياسي وقانوني. وفي الوقت الذي لم تتم تسوية كل شيء فإننا نري أن نحاول تدعيم تلك العملية». وأوضح كوزيريف خشيته من تفسخ محتمل لو حاول المركز إعادة تأكيد نفسه في شكل جديد. وحذر قائلاً: «لو حاول المركز القديم إقامة مركز جديد، ولو فقدنا هذا الزخم نحو إقامة الكومنولث فسوف نفقد جمهوريتي روسيا وأوكرانيا، وسوف يحدث المزيد من التفسخ غير المسيطر عليه. إن هناك خوفاً ونفوراً من أي مركز، وخاصة طالما بقيت آثار المركز القديم. وستكون الجمهوريات الأخري أقل استعداداً للتعاون مع روسيا حتي تختفي كافة عناصر ومقومات المركز القديم». وما لبث أن قال إنه من أجل إقامة كومنولث فعال «فإنه يجب علي الولايات المتحدة الاعتراف بروسيا وأوكرانيا وبيلاروس».

ورداً علي ذلك أشرت إلي أن القضايا الخطيرة في حاجة إلي دراسة قبل أن تعلن الولايات المتحدة اعترافها. وأوضحت أن هناك عدة تفسيرات للكومنولث، وتعين تسوية هذا الأمر. وطرحت استفسارات من قبيل: هل ستكون لكم سياسة خارجية مشتركة؟ هل تطلبون الاعتراف بالكومنولث باعتباره كياناً واحداً؟ هل تتحدثون بالنيابة عن جمهوريات الكومنولث الأخري؟ هل ستكون هناك سياسة دفاعية مشتركة؟ ما هي الدول التي ستشارك في الكومنولث؟

وأجاب كوزيريف بأن الكومنولث «مثل المظلة. فكل دولة فيه دولة مستقلة. والكومنولث أشبه بمعاهدة صداقة بين تلك الدول، ويدعي البعض أن هذه المعاهدة ما هي إلا إعلان

نوايا. وإنه أكثر من هذا، كما أنه يعكس الوضع السياسي، بالطبع من المبالغة القول بأن كل الأمور قد سويت». فسوف يكون «المركز» الوحيد في المجال العسكري. ولم تشف تفسيراته غليلنا وسألت: «قلت إنه ستكون هناك قيادة عسكرية مركزية، لكن من الذي سيتولي السيطرة علي القوات في الأراضي؟» وأشار كوزيريف إلي أن بعض القوات ستوضع تحت قيادة سلطات الجمهوريات، وستوضع الأخري تحت قيادة الماريشال شابوشنيكوف. وسألت أيضاً: «لكن ممن سيتلقي الأوامر، وكيف ستديرون السياسة الخارجية؟».

وانضم إليّ بقية أعضاء الوفد. وسأل السفير شتراوس عما إذا كانت روسيا تعتزم الاعتراف ببقية أعضاء الكومنولث وتبادل السفراء. وسأل دينيس روس عن عملية السلام في الشرق الأوسط. وسأل ريجي بارثولوميو عما سيحدث بشأن تحويل الأسلحة التقليدية. واستفسر إيد هيويت عن رسوم الشحن علي شحنات الحبوب، واستفسر توم نيلز مساعد وزير الخارجية الجديد للشئون الأوروبية عن مصير النقد الأجنبي من عائدات البترول والغاز.



ولم يكن لدي كوزيريف سوي القليل من الإجابات. هذا إن كان لديه أي إجابات، وقلت: «هل سيتعين علينا إجراء عشرات المناقشات؟» ولكثر من أي شيء آخر أكدت مناقشاتنا صحة توقعاتي، وأنه في غمرة هذه الدورة ستكون الأسئلة أكثر من الإجابات بكثير؟ ولم يكن لدي كوزيريف أي شيء ملموس ليقدمه لي، وربما كان هذا هو السبب في أنه ركز علي الاعتراف. لكن كان هناك اعتباران يحركانه. فمن ناحية كان يعتقد أن الاعتراف سيعطي زخماً للكومنولث. لأن أوكرانيا علي وجه الخصوص لن تلتزم بآلية التنسيق إلا إذا تم تلبية احتياجاتها النفسية للمكانة والشرعية الدولية بشكل تام. وقال: إنه بمجرد تلبية تلك الاحتياجات النفسية فسوف تتولد لدي الأوكرانيين الثقة والأساس السياسي للموافقة علي ترتيبات التنسيق حول القضايا النووية والعسكرية والاقتصادية والحدودية. وأعرب كوزيريف عن اعتقاده بأنه في حالة عدم إشباع حاجة الأوكرانيين إلي تحقيق هويتهم فسوف تبتعد كييف وستعارض أي عناصر ستجعل من الكومنولث كياناً ذي مغزى.

ومن ناحية أخري كان كوزيريف يشعر علي ما يبدو أن الاعتراف بروسيا أمر ضروري للتغلب علي تضارب السلطة بين روسيا والمركز الذي يجعل من الصعوبة بمكان تحديد من تقع عليه المسؤولية. كانت حجة كوزيريف بضرورة الاعتراف الفوري بروسيا مدفوعة إلي حد كبير بقلقه من غياب قواعد لصنع القرار.

وكانت حكومة يلتسين في حاجة إلي الاضطلاع بمسؤوليات دولة حقيقية. وفي الوقت ذاته كان وجود رئيسين في موسكو رئيساً للاتحاد السوفيتي، ورئيس لروسيا قد خلق تضارباً وغموضاً وتنافساً علي السلطة والمسؤولية.

غير أن عجز كوزيريف عن تقديم إجابات محددة، وخاصة علي أسئلة عمن سيساعدنا في القضايا اللوجستية والتوزيع والإشراف علي المعونة الغذائية كشف عن أنه لايزال يتعين علي الروس معالجة الأسئلة الرئيسية للحكم. وأبرقت للرئيس في تلك الليلة: «بأن الاعتراف وحده لن يحل تلك المشكلة. فإذا كان الروس يريدون منا أن نساعدهم فعليهم أن يسهلوا لنا مساعدتهم»

وأفضيت ببعض تلك الأفكار والشواغل لمن بات الآن صديقي وزميلي القديم إدوارد شيفرنادزة علي مائدة عشاء أقيمت تلك الليلة. ومرة أخري كنا في ضيافة صديقه الفنان الجورجي زوراب تسيريتيلي. ولدي دخولي شقته من الشارع فوجئت بوجود مصور سوفيتي وحيد. وفي الماضي كان اجتماعي مع شيفرنادزة يحتل الأولوية الأولي، وكان يدفع الصحافة إلي التدفق علي الشارع لتغطيته بدرجة تربك حركة المرور. وتشاطرنا الرأي بأن نهاية الاتحاد السوفيتي أصبحت وشيكة. وسوف ينتهي دور شيفرنادزة أيضاً، ويبدو أن قدره هو أن يشهد نهاية البيريسترويكا وهو وزير الخارجية كما شهد بدايتها وهو وزير للخارجية أيضاً.

واجتمعنا في غرفة مزدانة بلوحات تجريدية جريئة الألوان حول منضدة بلاستيكية بيضاء اللون وأثاث متعدد الألوان. واستهل شيفرنادزة المناقشة بالتأكيد علي أهمية تأييد الولايات المتحدة للتحول في الاتحاد السوفيتي. وقال: «إن حضوركم يشكل أهمية بالغة. فلا يمكن للولايات المتحدة أن تقف علي الهامش، ولا يمكنكم أن تقفوا كمراقب خارجي فلا يمكنكم أن تغضوا الطرف، وتدعوا الأمور تجري خارجة عن نطاق السيطرة»

وبالنسبة للكومنولث وافق شيفرنادزة علي أنه طريق معقول لبلورة العلاقات السياسية وضمان التعبير السلمي. وفي تلك اللحظة كان يعتقد أن الكومنولث صيغ علي عجل، وأن يلتسين والزعماء الآخرين لم يفكروا ملياً في كافة التفاصيل. وأعربت استناداً إلي حديثي مع كوزيريف بعد ظهر ذلك اليوم -عن اتفاقي مع تقييمه. وقلت: «إنني مثلك أشعر بقلق من أن أطراف الكومنولث الجديد لا تعرف إلي أين هي ذاهبة». وأكد علي ضرورة أن تستخدم أمريكا ميزتها الفريدة لدفع أعضاء الكومنولث نحو التفاهم الضروري حول قضايا التحكم والسيطرة النووية.

كان شيفرنادزة أكثر قلقاً حول التفسخ العسكري المحتمل ودور الجماهير وقال: «إن القوات المسلحة في حالة يرثي لها، فتفكيرها بالغ السوء الآن. فوزير الدفاع لا يعرف ماذا يفعل أو من يتبع. فهو يحترم جورباتشوف. لكنه يري أن السلطة الحقيقية مع يلتسين». وأشار شيفرنادزة أنه لتحريك الأطراف في الاتجاه الصحيح يجب تطبيق الاعتراف «أقوي أوراقنا» حتي تعيد الجمهوريات تدبر الأمور. وحذر من أنه إذا لم تسو قضية التحكم والسيطرة العسكرية فسوف يفشل الكومنولث علي الأرجح، وسوف نري حدوث التفسخ في روسيا والجمهوريات الأخري».



وفي الوقت الذي كان يشعر بالقلق من الفوضي والاضطراب المحتمل مع زوال الاتحاد السوفيتي فقد كان قادراً علي التذكر وصبغ الدوامة المحيطة به بنظرة فلسفية، وأشار قائلاً: «لقد بدأنا كل هذا في ويوميونج وهالطا. ففي السياسة القديمة كانت هي العدو الولايات المتحدة، والآن فإننا نتخلص من كل هذا. إن كل ما حدث يبدو طبيعياً ومناسباً، وعندما بدأت أنا وجورباتشوف كنا علي يقين من أن الدولة كما نعرفها لا يمكن أن تدوم. لكن لم تكن لدينا حدود زمنية أو جداول».

ورددت: «ليس هناك سبيل لتوقع الآثار المتعددة لخروج عفريت الحرية من القمقم. فسوف يسجل لاسميكما أنت وجورباتشوف كزعيمين مستنيرين تحليا بشجاعة سياسية

وشخصية منقطعة النظير، وسوف يكون هذا هو حكم التاريخ. فالطريق الآخر كان لابد وأن يكون الانفجار العنيف. بل لايزال بالإمكان حدوث حرب أهلية».

وقال بنبرة كدر: «لقد قمنا على الأقل بعملية إصلاح محكومة وحلنا دون حدوث النموذج الروماني «العنف» لكن كان يجب علينا بذل جهد أكبر على الصعيد الاقتصادى».

وقلت وأنا أرثى لحاله: «لكن انظر إلى ما فعلت. فها هي ألمانيا قد توحدت سلمياً والسلام يعم أوروبا الوسطى والشرقية. فقد كان من المحتمل ألا يحدث هذا سلمياً».

وتدخل شيفرنادزة قائلاً: «من السابق لأوانه بعض الشيء الحديث عن التاريخ. دع ذلك للمؤرخين. كان علينا أن نقيم اقتصاد سوق حرة. لقد أخطأنا - أولا - في المراحل والتوقيت. ثانياً: إننا لم نفهم شعبنا جيداً.. وخاصة قضية الولاءات القومية والعرقية. لقد أسأنا تقدير دور القومية.

«لقد ارتكبت أخطاء، وكذلك جورباتشوف. إن قادة الانقلاب هم سبب هذا التمزق. كان يتعين أن يشغلوا تفكير جورباتشوف، ولطالما حذرت جورباتشوف. حذرناه جميعاً. كيف تسمح لنفسك وتذهب لقضاء عطلة؟ لقد انتشلهم جورباتشوف من لاشيء وأوصلهم لما كانوا فيه. ومع ذلك قال شيفرنادزة: «عليك أن تزيد جورباتشوف بود وكرم. إنه في موقف صعب». (أبلغنا تاراسينكو أن شيفرنادزة غادر شقته في الليل وأمضى ساعات طويلة مع جورباتشوف لمجرد الحديث). وانتقد ستروب تالبوت ومجلة تايم لتقديم ترجمة غير أمينة لتصريحي في برنامج «واجه الصحافة» بحذف كلمتي «كما نعرفه» وأشار إلي أن جورباتشوف ما كان ليقول أنني تعجلت للغاية لو أنه تلقي النص الكامل لما قلته بالفعل.

وانتقلنا إلي غرفة بالطابق الأسفل، واسترخينا أثناء العشاء، وفيما نحن نتبادل الخطابات والنكات علي العشاء الذي ضم لحم رأس الخنزير البري وتخللته أنخاب للفودكا المترخونة الخضراء. شعرت بالارتياح لأنه في غاية الطمأنينة مع نفسه. فهاهو نجمه في السلطة يوشك علي الأفول، وبدلاً من أن يكون منهاراً أو حسوداً فقد كان هادئاً راضياً عن الماضي، ومستعداً لمواجهة المستقبل.

الانقلاب السلمي

وفي اليوم التالي شاهدت علي الطبيعة ماضي الاتحاد السوفيتي ومستقبل روسيا، وخلال نحو عشر ساعات من الاجتماعات مع يلتسين وجورباتشوف وشابوشنيكوف وشيفرنادزة لاحظت حدوث انتقال السلطة ماثلاً أمام عيني. وبدأت سلسلة الاجتماعات باجتماع مع يلتسين في قاعة سانت كاترين في الكريملين. كانت تلك القاعة الشبيهة بمجلس الوزراء بالبيت الأبيض مقر السلطة السوفيتية. حيث دأب جورباتشوف علي استقبالي فيها خلال زياراتي السابقة لموسكو مثلما كان يفعل مع وزراء خارجية ورؤساء وزراء آخرين. لكن هذه المرة أصر يلتسين علي لقائي فيها منحياً جورباتشوف والاتحاد السوفيتي بشكل رمزي. وعزز يلتسين هذا البيان السياسي الذي لا تخطئه عين وذلك بإجلاس يفجيني شابوشنيكوف وزير الدفاع السوفيتي إلي جواره حتي برغم أنه من المقرر أن أجتمع معه في وقت لاحق ذلك اليوم.

ورحب بنا يلتسين «مرحباً بكم في هذا المبني الروسي علي الأرض الروسية» كان يستشعر أهميته وقوته، وعلي أتم الاستعداد ليظهر من هو الرئيس. وقلت ليلتسين إنه في ضوء عدم خروجي بنقاط وتفاصيل محددة من اجتماعي بعد ظهر اليوم السابق مع كوزيريف «فهذا وقت ملائم لإجراء مباحثات مستفيضة واهتمامنا الوحيد هو مساعدتكم حيثما نستطيع». ورد يلتسين بظرف يخفي بين طياته مرارة وأسا: «بالتأكيد فهذا ليس اهتماماً أمريكياً فقط.» وقلت: «هذا حقيقي. فالتحول الذي يجتاح هذه المنطقة مصدر قلق واضح للولايات المتحدة. وأجد لزاماً عليّ أن أنوه إلي عزمي عدم الخوض في قضايا روسيا الداخلية. وما لبثت أن طلبت منه تفسيراً للتطورات التي أفضت لاتفاق الثامن من كانون الأول ديسمبر في بريست وتداعياته.

وقال: «لقد ذهب الانقلاب بالنسخة الأولي لمعاهدة الاتحاد» وفي الشهور التالية تفاوضت روسيا والجمهوريات الأخري مع جورباتشوف. لكن هذا لم يؤد إلا إلي اختلاف جوهري حول شكل الاتحاد في المستقبل. «جورباتشوف يصر علي دولة موحدة ذات مركز وحيد قوي. ولم تكن هناك فرصة لأن يقر مجلس السوفيت الروسي ذلك». وقال يلتسين:

«ومع ذلك فإن العامل الحاسم في النهاية في وفاة معاهدة الاتحاد هو الإستفتاء الأوكراني. فلا معني لاتحاد بدون أوكرانيا. وأكد يلتسين أنه في ظل تلك الظروف لا يمكن لروسيا أن تقف علي الهامش. وقد حاول جورباتشوف إقناع كرافتشوف لكن يلتسين أحس بأن عليه التزاماً بتنظيم اجتماع بريست، وإلا «آل» الحال بروسيا وأوكرانيا علي طرفي نقيض بجيشين مستقلين وعمليتين منفصلتين. وسيكون لاتفاق الكومنولث «مجالات موحدة» قيادة واحدة للقوات النووية. لكنه نفي نفياً قاطعاً الأنباء الصحفية القائلة بأن جورباتشوف قد يتولي رئاسة الكومنولث.

وأوضح يلتسين أن زعماء جمهوريات آسيا الوسطي الخمس قد اجتمعوا واتفقوا علي الانضمام إلي الكومنولث، وكان يلتسين وكرافتشوك وشوشكيفيتش علي موعد للقاء زعماء دول آسيا الوسطي في ألما آتا في الحادي والعشرين من كانون الأول ديسمبر للمشاركة في حفل التوقيع وستوقع أرمينيا ومولدافيا. وخلص إلي القول: «من الطبيعي أن تعلن الدول الثلاث المؤسسة للاتحاد عام ١٩٢٢، زواله» وسيتم حل معظم وزارات الاتحاد السوفيتي والأجهزة الأخري. أما التي لن تلغي فسوف تنتقل إلي روسيا. وسوف تنتقل إلي روسيا كافة السفارات ومكاتب التمثيل التجارية الخارجية». وقال: «إن روسيا ستشغل مقعد الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن الدولي، وسوف تستوعب وزارة الخارجية السوفيتيـــة ووزارة الداخليـــة وجـــزء من الكي جي بي وسوف تحترم كافة الاتفاقيات والمعاهدات الموروثة عن الاتحاد السوفيتي مع استثناء وحيد بعدم دعم الأنظمة الشيوعية الذي قال «إنه أخذ في التوقف بسرعة».



وكان من الصعب ألا أَبَاغَتَ بعد هذا العرض المذهل. فالمهم بالنسبة لي هو قول: أن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد له وجود، والأهم أن يحدد لي الإطار العام تفصيلاً من رئيس روسيا في ذات القاعة التي كانت المقر الرئيسي للقوة السوفيتية. وقلت ليلتسين: تفهمت الوضع السياسي جيداً الآن. وأضفت قائلا «إذن أعرف أيضاً إلي أي درجة يمكن أن تساعد

في العواصم الأخرى بتشجيع الخطوات اللازمة لتسوية القضايا الباقية». والآن جاء دوري للحديث فقد كنت أريد أن يقدم يلتسين عدة تطمينات علنية حول القضايا الحيوية بالنسبة لنا: فبسؤاله (وكل الزعماء الذين التقيهم) بالإدلاء بتصريحات علنية كنت أريد إرساء معيار يمكن أن نلزمهم به في المستقبل. وكانت أربع من الضمانات المعنية تتعلق بالقضايا الأمنية أردت بموجبها الحصول علي موافقة من يلتسين بالعمل مع زعماء الجمهوريات الأخري لمعالجة التحكم والسيطرة وتخزين الأسلحة النووية والمشاركة في الجهود الرامية إلي إبطال سلمي لمفعول الأسلحة النووية، ومنع الانتشار النووي والتعاون معنا لضمان الإسراع بالتصديق علي معاهدة ستارت والقوات التقليدية في أوروبا.

كان يلتسين حريصاً علي الطمأنة في قضايا التحكم والسيطرة النووية (وأيده شابوشنيكوف الذي أومأ بالموافقة) موضحاً أن الكومنولث الجديد سيضم هيكل تحكم وسيطرة وحيد علي درجة رفيعة من التوحد، ومضي يلتسين قائلاً: إن الإدارة المشتركة للزر النووي غير ممكنة، وسينتهي الحال بروسيا باعتبارها القوة النووية الوحيدة في الكومنولث بعد الفراغ من تطبيق خفض القوات النووية. ووافق أيضاً علي الدخول في مفاوضات معنا حول تفكيك وإبطال الرؤوس النووية، وحول التخزين الآمن للأسلحة والتخطيط المشترك للطوارئ بما في ذلك الحوادث النووية، وحول متابعة مبادرة الرئيس بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه التي أعلنت في ١٧ أيلول. وكانت الطمأنة الأخيرة التي سعيت للحصول عليها هو اهتمامنا لتبعئة الجهود لتقديم المعونة الإنسانية. ولم يساهم اجتماعي مع كوزيريف كثيرا في تبديد قلقي من عدم وجود هياكل ومؤسسات تكفل توزيع المعونة بمجرد تلقيها. وأبلغت يلتسين بأننا نحتاج إلي أسماء مسؤولي المدن والأقاليم والمناطق الذين يمكن أن يخدموا كمسئولي اتصال معنا. ووعد يلتسين بتقديم قائمة بالأسماء، ووافق علي فكرتي بأن يعمل عسكريون أمريكيون مع عسكريين سوفيت في توزيع المعونة. ورحب بمساعينا لتوسيع دائرة الدول المانحة، وانتقد برنامج المعونات الألماني لعام ١٩٩٠ باعتباره محابياً لموسكو المركز إلي حد بعيد. وما لبث يلتسين أن طرح عدة أفكار. فإلي جانب الاعتراف كان يريد أن تكون روسيا هي الدولة الوريث للاتحاد السوفيتي وأعرب عن أمله في ضم روسيا وبيلاروس وأوكرانيا إلي مؤتمر الأمن والتعاون في

أوروبا وطلب ضم الثلاثة إلي مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلنطي في ٢٠ كانون الأول ديسمبر* . وفي بادرة واضحة عن انعدام ثقته في جورباتشوف أكد بقوة أنه لو حضر شيفرنادزة الاجتماع ممثلاً للاتحاد السوفيتي فيجب أن يكون مفهوماً أنه لا يمثل روسيا «بأي صفة».

وأبلغته أن كل تلك القضايا تأتي في سياق قضية الاعتراف، ولن يسعنا حلها حتي نتفهم جوهر مضمون علاقاتنا بشكل أفضل.

وقال: إنه يريد علي المدي البعيد «دمج» المؤسسة العسكرية لكومنولث الدول المستقلة مع حلف شمال الأطلنطي. واستنتج قائلاً: «سيكون من المهم لأمن روسيا الارتباط مع التحالف العسكري الوحيد في أوروبا».



وقبيل انتهاء جلستنا تحول الاجتماع إلي اجتماع منفرد بيني وبين يلتسين لمناقشة تفاصيل قضية التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية علي وجه التحديد. وعن الأسئلة الباقية عمن يسيطر بالفعل علي القوات النووية للاتحاد السوفيتي قدم لي يلتسين إطاراً عاماً لكيفية عمل نظام الإطلاق حالياً، وتصوره لكيفية عمل النظام في الكومنولث. وقال لي إنهم أقاموا «خطاً نووياً ساخناً» بينه وبين جورباتشوف وشابوشنيكوف. ويمكن هذا النظام الثلاثة من تنسيق أي عملية إطلاق لسلاح نووي. فلدي كل واحد منهم حقيبة مزودة بشفرات الإطلاق ويجب علي الثلاثة الاتفاق قبل الضغط علي الزر. وأوضح أن نظام الكومنولث سيعمل بنفس الشكل. لكن الحقائب ستكون بحوزته هو وشابوشنيكوف. وسيشارك الزعماء «النوويون الآخرون في الخط النووي الساخن» لكن لن يكون بوسعهم إصدار أمر بإطلاق سلاح نووي.

---

* مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلنطي هو مبادرة لحلف شمال الأطلنطي طرحتها مع هانز ديتريش جينشر للوصول إلي دول حلف وارسو السابق، وكانت جزءاً من مساعيها لتهيئة حلف شمال الأطلنطي لعالم ما بعد الحرب الباردة وتطوير تفكيره السياسي.

وقال إن زعماء أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروسيا لا يعرفون كيف تعمل هذه الأجهزة وهذا هو السبب الذى حداني وإبلاغك أنت وحدك. «فسوف يشعرون بالارتياح لوجود خطوط هاتف لديهم» وقال يلتسين: إنه مع وجود خمسة أطراف على «الخط النووي» مع وجود الحقائب لدي اثنين فقط فإن أدق طريقة لوصف نظام التحكم والسيطرة في الكومنولث هو نظام «تشاور لا تنسيق».

وأثرت قضية ولعدة أخيرة: وهو ما يروج من شائعات عن احتمال محاكمة جورباتشوف جنائياً. وقلت إن هذا سيكون خطأ لن يفهمه المجتمع الدولى. إننا نأمل فى أن يتم انتقال السلطة بطريقة كريمة كما يحدث فى الغرب. إن إذلال جورباتشوف لن يخدم أى غرض. وبرغم كراهيته الشخصية لجورباتشوف فقد استوعب يلتسين الموقف وأبدي موافقته.



وبينما لم يتبق سوي نصف الساعة على الموعد المحدد للقائى مع جورباتشوف (هرعت بأقصي سرعة ممكنة لأن موكبى كان يسير ببطء بالغ بسبب سقوط الثلوج بكثافة بعد الظهر) إلي السفارة الأمريكية لتناول ساندوتش خفيف من التونة. وبعد الغداء السريع -عشرين دقيقة – فى مكتب جيم كولينز بالسفارة عدت إلي الكريملين للقاء استغرق ثلاث ساعات. وعندما وصل وفدنا إلي الباب قدر مدير المراسم بالكريملين الذى شاهدنا ونحن نغادر قبل أقل من ساعة عودتنا بسرعة بابتسامة مجاملة.

واجتمعت مع جورباتشوف فى ذات الغرفة التى تركتها قبل ثلاثين دقيقة لكن ثلوج الشتاء الكثيفة قد زادت قتامة يوم غائم بالفعل. كان الجو شديد القتامة فى الخارج لدي بدء الاجتماع.

وحيث تألق يلتسين خبا جورباتشوف وأحاط به اثنان من شركائه الأصليين، شيفرنادزة وياكوفليف. فقد ساعداه فى طرح البيريسترويكا والجلاسنوست والتفكير الجديد. لكنهما انتقداه أيضاً فى مناسبات مختلفة، وابتعدا عنه لدرجة استقال معها كل منهما. ومع هذا ها هما الآن

قد عادا والتفا حوله فيما دوره يوشك على النهاية. فهو نموذج للرجال الأوفياء وبالإيمان الذين يمكن الإشادة به لوفائهما وإخلاصهما لمعتقداتهما ولأصدقائهما حتي في أوقات الشدة.

وبدأ جورباتشوف بوقار قائلاً بدون إقناع «من الأهمية بمكان أن التطورات هنا تجرى وفقاً لدستورنا، ولم تنح نحو الفوضي، ولازلت ملتزماً بإصلاح هذه الدولة متعددة القوميات. فهذه العملية لم تصل إلي حد المأزق. ففي الخامس والعشرين من تشرين الثاني في نوفمبر قررنا إيفاد مشروع المعاهدة إلي الجمهوريات. ووقعنا جميعاً مشروع المعاهدة هنا وتحدثت أنا شخصيا مع ستة من زعماء الجمهوريات» وجف حلقي وأخرجت الميلامونت التي كنت أحملها خصيصاً لاجتماعاتي المطولة مع الأسد. وعندما لاحظ جورباتشوف ناولته واحدة وأخري لشيفرنادزة، وقال جورباتشوف محاولاً علي ما يبدو تذكر وقت أسعد: «نعم سأتناولها. إن هذا هو نفس الشيء الذي أعطيتني إياه في كامب ديفيد».

واستطرد جورباتشوف قائلاً: إن يلتسين أشار إلي أن معاهدة الاتحاد لن تكون فعالة بدون أوكرانيا، وهذا ما لا أفهمه البته. وقال مشيراً علي ما يبدو إلي الأنباء الصحفية الخاصة باجتماع الرئيس مع الأمريكيين ذوى الأصل الأوكراني وحديثي مع برنامج واجه الأمة: «إنني لا أريد حقيقة أن أقدم لكم تحليلاً لما حدث. لكن هذا مصدر قلق لنا وعلينا معالجته. ربما كانت هناك أخطاء فقد ارتكبت بعض الأخطاء الفادحة من جانبي ومن جانبكم. ومع ذلك فإن ما يتعين علينا مناقشته هو المستقبل والواقع كما هو قائم الآن. ولذا فإنني أعتقد أن دوري هو توظيف كل إمكانياتي لضمان سير العملية الجارية بطريق تكفل عدم حدوث تفسخ أعظم».

ومضي إلي حد انتقاد اتفاق بريست. لكنه ما لبث أن غير وجهته عائداً إلي أرض الواقع، «إنني أريد أن أساهم ويساهم زملائي في تحديد مستقبل الكومنولث واستمرارية الوراثة. إنني حقيقة أتمني لهم النجاح. لكن لا أعتقد أنهم سينجحون. وإذا لم ينجحوا فسوف يكون كل ما تفانينا في عمله خلال تلك السنوات في مهب الريح». وما لبث أن اعترف بالوضع القائم قائلاً في تساؤل مزعج: «في ضوء ما بحثتموه مع يلتسين والتقين من وزراء الخارجية فماذا تعتزم بحثه معي اليوم؟».

وأوضحت له أنني لا أريد التورط في شئونهم الداخلية وأنني بالغ الحرص في هذا الصدد. وأبلغته بأنني أشاطره قلقه وشواغله من عمومية اتفاقية الكومنولث وقلت إنني أمضيت أربع ساعات التمس الحصول علي التفاصيل المحددة من رئيس روسيا، وأضفت: «إن هذه الاتفاقية تعتبر قذيفة علي أفضل الأحوال، إنني أوافقك بأنه إذا لم تنجح هذه العملية فسوف يحدث تفسخ أفدح».

وأكد جورباتشوف أنه اتفق مع يلتسين علي إطار زمني انتقالي حول الكيفية التي يتعين أن تسير بمقتضاها هذه العملية «فيما يفترض أن يتضمن موعد تقاعد جورباتشوف كزعيم للاتحاد السوفيتي». لكن ما لبث أن عاودته روح التحدي مرة أخري قائلاً: «لقد اجتمعوا في بريست وقرروا طي صفحة الاتحاد السوفيتي. إن هذا انقلاب من نوع ما. إنني لم أبلغ بالاتفاقية إلا بعد إبلاغ الرئيس بوش. لذا فإنني أقول: إنني لاأزال ملتزماً بموقفي. دع الشعب يقرر، ويتصرف كالديمقراطيين لا قطاع الطرق».

وأبدي فزعه من أن يلتسين يعمل علي ما يبدو بشروط اتفاقهما «باتخاذ قرارات حول وزارات الاتحاد السوفيتي من وراء ظهري. وبالطبع لهم الحرية في قول إن الاتحاد السوفيتي قد مات. فلو كان الحال كذلك فإنه ليس هناك قوانين، وليس هناك دور في الأمم المتحدة .. فإذا كان الاتحاد السوفيتي قد انتهي ولا يوجد كومنولث فما هو الموجود إذن؟». وحثنا علي عدم الاعتراف بالدول الجديدة علي الفور. وأعرب عن اعتقاده أن بوسعنا أن نقدم أفضل مساعدة باستخدام الاعتراف كهدف يتعين إنجازه.

لم تكن لنا مصلحة في إطالة عمر الاتحاد السوفيتي. لكن اجتماعاتي أقنعتني بالفعل بأنه ما من أحد يعمل علي إحياء الجسد الشيوعي الهامد أمامنا. لكن مصلحتنا الأكيدة في تشكيل مستقبل وسلوك الدول الوريثة. والاعتراف هو أضخم «جزرة» نملكها، وأردت ن نصل إلي تفاهم معين مع جمهوريات روسيا وأوكرانيا والجمهوريات الأخري.

وبعد شيء من الشد والجذب اختتم جورباتشوف الاجتماع بشيء من النبل. «إننا نتحمل المسئولية عن الشعب، وعن هذا البلد. سوف نساعد هذه العملية، وآمل أن تكون هذه المهمة الشاقة قد هيأت لك تفهماً أقوي. أرجو نقل أطيب أمنياتي للرئيس بوش».



ولدي خروجنا سألت ياكوفليف عما إذا كان هو الذي نقل إلينا الرسالة عبر تالبوت. ولم يكن هو*. لكنه انتهز فرصة للقول: «سوف أواصل تأييد جورباتشوف حتي النهاية. إنني أكره أن أري جورباتشوف وقد حطَّ من شأنه». وأجبت: «وأنا كذلك» وكلي ثقة بأنه من المؤكد أن هذا هو آخر اجتماع لجورباتشوف مع مسؤول غربي رفيع المستوي. فقد أظهر شجاعة منقطعة النظير في تطبيق البيريسترويكا والجلاسنوست والتفكير الجديد في المقام الأول فقد ساهم في تغيير الاتحاد السوفيتي، ومن ثم العلاقات بين الشرق والغرب. وغمرني إحساس بأن التاريخ سوف ينصفه. لكنني أملت أيضاً أن يدرك قريباً أن دوره قد انقضي وأن يتنحي بلباقة.

وانتقلنا وسط الثلوج إلي مقر وزارة الدفاع السوفيتية لعقد ثاني اجتماع في غضون ثلاثة أشهر مع وزير الدفاع شابوشنيكوف وبرغم تقديم يلتسين لتصوره حول الكيفية التي سيتم بها حل القضايا العسكرية لكومنولث الدول المستقلة فلا تزال بعض التفاصيل غائبة. وكنت أريد أن أسمعها مباشرة من العسكريين. فضلاً عن ذلك فإن شابوشنيكوف باعتباره قائداً للقوات الاستراتيجية، وأحد اثنين يملكان سلطة شن ضربة نووية فقد كان شخصياً عنصراً أساسياً في ضمان الأمان للترسانة النووية السوفيتية الضخمة. وبنفس القدر أردت التأكد من أننا علي اتفاق تام في الرأي.

كان وزير الدفاع هادئاً تماماً، ويبدو واثقاً من أنه أحكم سيطرته، وسيستطيع صياغة تفاصيل التحول العسكري القادمة. وبدأ بالقول: «إن الحياة تمضي للأمام، وليس هناك من يستطيع أن يقف في وجه التغيير» واستعرض ترتيبات التحكم والسيطرة المعدلة للكومنولث وأكد ما شرحه لي يلتسين من قبل وسألت: «ممن تتلقي الأوامر الآن؟» ورد «جورباتشوف» وتابعت مشيراً إلي اجتماع ألما آتا القادم: «هل سيتغير ذلك قبل الحادي والعشرين من كانون الأول ديسمبر؟» وأجاب شابوشنيكوف: «إن الأمر ليس مرهوناً بي» وذلك في محاولة واضحة لإبعاد الجيش عن مكائد الكريملين – علي الرغم من أن اجتماعات جورباتشوف ويلتسين مع القيادة العليا في الأسبوع الماضي ووجود شابوشنيكوف في اجتماعي مع يلتسين أوحت لي بغير ذلك.

* علمت فيما بعد أن الذي بعث الرسالة هو باقين بالاتفاق.

وسألته عن الأسلحة النووية التكتيكية وهي الفئة المقرر إزالتها بالكامل والواردة في اقتراح الرئيس بوش في ٢٧ أيلول سبتمبر. وطمأنني شابوشنيكوف «بأن كافة الجمهوريات لديها استعداد تام لتنفيذ التفاهم الذي توصل إليه الرئيس بوش وجورباتشوف حول إزالتها. إننا نقوم بسحب كافة الأسلحة التكتيكية من الجمهوريات الأخرى إلي روسيا». وتعهد بإتمامها مع أوائل عام ١٩٩٢ كانت هذه ضمانة حاسمة، فإلي جانب قضية التحكم والسيطرة كان القلق يساورني من أخطار فقدان الأسلحة النووية، فالأسلحة النووية التكتيكية صغيرة بما يكفي لتهريبها خارج البلاد ولأماكن مثل بغداد وطرابلس.

وأشار شابوشنيكوف إلي إن قرار كرافتشوك بالاستيلاء علي القوات السوفيتية المتمركزة علي الأراضي الأوكرانية قد أثار «مشكلة» ولكن تم التوصل إلي حلول فعالة خلال عدة أحاديث مع الرئيس الأوكراني. وقال شابوشنيكوف: إن الأهم «هو أن كرافتشوك أكد أنه ليس له أي مطالب في الأسلحة النووية، وأنه لا يسعي للحصول علي زر نووي» وأعربت بيلاروسيا عن موقف مماثل *.



وانتقل ليشرح لي ترتيبات صنع القرار العسكري في الكومنولث، وأشار إلي تصريح يلتسين في وقت سابق من اليوم بأنه لن يكون هناك «مركز» في الكومنولث موضحاً أن «هذا حقيقي كاقتراح عام. لكن الأمر مختلف في المجال العسكري، فلا يمكننا العمل من دون مركز. فالكثير من القضايا تجمعنا مثل الحاجة إلي مجال عمليات واستراتيجيات واحدة» وقدم تصوراً عن «تحالف دفاعي» حيث: الاعتداء علي بلد يشكل عدواناً علي الجميع». وتابع بوصف مجموعة من ترتيبات اتخاذ القرار والإمداد والتخزين بدت مألوفة للغاية. وقال بنبرة سخرية: «إذا بدا ذلك مثل حلف شمال الاطلنطي فارجو ألا تفاجأ. فقد درست تحالفكم دراسة

---

* عندما سألته عن خطة أوكرانيا بإقامة جيش قوامه أربعمائة ألف جندي، وهي الخطة التي أثارت انزعاجنا لدرجة دفعتنا لانتقادها علناً. قال شابوشنيكوف: إن ذلك سيثير قلق أوروبا بأسرها، وأن كرافتشوك اتفق معه علي الكف عن الحديث حول مثل تلك القوة الكبيرة.

مدأنية». كان وصف شايوشنيكوف يستحق الإشادة بكل تأكيد (لقد خدم حلف الأطلنطي تماما) لكنه سيتطلب بالطبع التعاون التام من جانب زعماء الجمهوريات الأخري، وقال ان المناقشات جارية وانه سيحضر الاجتماعات القادمة في ألما آتا لشرح هذه الترتيبات.

ومالبث أن أثرت قضية تأييد الولايات المتحدة لازالة الأسلحة النووية السوفيتية. فمن المقرر تطبيق اتفاقيات مثل ستارت، وشعرت بأن هناك الحاحا للتحرك قدما لطمأنة الجميع في كل مكان في المقام الأول. وقد سبق أن طمأنني كل من يلتسين وشايوشنيكوف بأن الكومنولث سيلتزم بكافة المعاهدات التي وقعها الاتحاد السوفيتي، لكننا كنا نريد التأكد من أن تلك الالتزامات سوف تتحول الي حقائق علي الأرض. إضافة إلي ذلك فقد أبلغت شايوشنيكوف «أن الكونجرس رصد مخصصات ضخمة لهذا الغرض. والأمر يرجع لكم في أن تقرروا ما إذا كنتم تريدون منا أن نساعدكم، وإذا كان الأمر كذلك فعليكم أن تحددوا أين يمكن المساعدة» ورد شايوشنيكوف قائلا إنه في الوقت الذي كان فيه سباق التسلح باهظ التكلفة «فان نزع السلاح سيكون مكلفا أيضا». ولم يكن مستعدا للخوض في تفاصيل الكيفية التي يمكن أن نساعد بها «لكنه أبدي ترحيبه بخبراتنا. خاصة إذا كنا علي استعداد لتحمل جزء من التكلفة».

ولعقد آخر اجتماعاتي في ذلك اليوم توجهت الي أوسينتياك للقاء شيفرنادزة علي الغداء. وتوجهنا مباشرة إلي الغرفة الصغيرة التي اجتمعنا فيه لأول مرة في آيار مايو١٩٨٩. وتذكرت الاجتماعات التي طالما عقدناها هنا في هذه الغرفة، والإنجازات التي تمخضت عنها تلك الاجتماعات. وكالليلة السابقة وجدت شيفرنادزة متيقنا من مستقبله راضيا به. لم يكن مشغولا بنفسه قدر انشغاله بما تخبئه الأيام القادمة.

وقال: «علينا أن نحاول الحفاظ علي كل ما أنجزناه خلال تلك الأعوام» كان يشعر بالقلق من احتمال أن يؤدي تحرير الأسعار وارتفاع حجم البطالة والتراجع المحتمل للاحتياطي النقدي مجتمعة إلي حدوث «انفجار» في شهر شباط فبراير. وقال: «سوف تشعر الجماهير بالقلق، فهناك أسباب تثير الخوف من أن المتطرفين قد يثبون الي السلطة – وهذا ما يضفي أهمية علي استمرار اتصالاتكم مع زعماء الإصلاح». وأوضح أن القلق البالغ يساور

الجماهير من عجز المواد التموينية والسلع قائلا: «ان زوجتي تخزن تلك المواد. ان شقتي مكدسة بمواد لسنا في حاجة إليها» ومضي إلي القول إن الطريق الوحيد لمنح الناس سبباً للإيمان بالديمقراطيين هو توفير كميات وفيرة من السلع والمواد الغذائية. وهذا يعني اقتصاد سوق حرة بما في ذلك تحرير الأسعار والخصخصة.

وأبلغني شيفرنادزة أنه لن يشارك في اجتماعات مجلس التعاون الوزاري لحلف شمال الأطلنطي في بروكسل، لكنه سيرسل نائباً يمثل وزارة الخارجية وتساءل: «ماذا يعني ذهابي؟» موضحاً أن «الاتحاد السوفيتي» سيمثل بستة مقاعد في الاجتماع مما سيمكن وزراء خارجية الجمهوريات الأساسية من الحضور.

وفي محاولة لتلخيص مشاعره قال: «لقد أبلغني تاراسينكو أنه ما كان ينبغي عليّ العودة إلي وزارة الخارجية. لقد كنا نشعر أن سيئاً سوف يحدث لكن لا أشعر بأي أسف. لقد عدنا أصدقاء لجورباتشوف. ففي هذه الأيام الأخيرة في عمر الاتحاد السوفيتي ها نحن لا نزال هنا معاً».

ورددت «لقد فعلتم الصواب دائماً في أعين المجتمع الدولي. إنني لا أعتقد أنكم تدركون مدي ما تحظون به من احترام».



وعقب مؤتمر صحفي قصير اصطحبني فريقي الأمني بسرعة علي نحو غير متوقع من مدخل خلفي للابتعاد عن المتظاهرين الذين كانوا يرددون هتافات في الردهة. ولم يدع لي هذا أي فرصة لتوجيه الشكر لصديقي لكل ما بذله من أجل العلاقات بين الشرق والغرب ولأقول له وداعاً. وبمجرد عودتي إلي جناحي بفندق بلدنا اتصلت بشيفرنادزة لأوضح له ما حدث. وقلت: «آسف بشدة لأنه لم تسنح لي فرصة كي أودعك شخصياً». وتفهم الموقف تماماً. وأضفت: «إنني أود أن أوجه لك الشكر لكل ما أنجزناه سوياً، ودعني أقل لك إن لي الشرف بأن ألقبك بصديقي» وأثناء اجتماعاتي علي مدار اليوم تيقنت أكثر من أي شيء آخر

أن متانة الصداقة المبنية علي الثقة هي السبب وراء إنجاز ما أنجزته أنا وشيفرنادزة. وقلت: «أتوقع أن ألقاك عما قريب مرة أخري سواء في واشنطن أو موسكو».

وفي تقريري إلي الرئيس في تلك الليلة قلت كان يومي «مليئاً بالتناقضات» التي تتقلب بين حيوية وثقة يلتسين وقلق وهواجس جورباتشوف والإصلاحيين في الجمهورية في التركيز علي مجموعة ضخمة من الترتيبات السياسية، وكما أشار شيفرنادزة – فإنه لا يبذل جهداً كافياً لمواجهة المشاكل الحقيقية التي يعاني منها المواطن العادي كنقص المواد الغذائية والبطالة علي سبيل المثال. وأبلغت الرئيس: «إن السؤال الهام هو هل يستطيع يلتسين ترجمة حماسته الثورية إلي تغيير في السلوك وإجراء تحسينات علي أرض الواقع؟. فالخلافات طويلة الأمد... ومن شبه المؤكد أن الأمور ستزداد سوءً لا تحسناً. ناهيك عن أنني لازلت أشعر بالقلق من أنه لايزال هنالك اتجاه للتركيز علي مجموعة ضخمة من الترتيبات السياسية مع استمرار تجاهل أهمية معالجة المشكلات الحقيقية التي تواجه المواطن العادي». وفي اليوم التالي سيرتد إليّ صدي كلماتي.

زاوية آسيا الوسطي

غادرت موسكو يوم الثلاثاء السابع عشر من كانون الأول ديسمبر، وتوجهت جنوب آسيا الوسطي قاصداً بشكيك عاصمة قيرغيزستان. وفي غمرة تشكيل الكومنولث كان الرئيس القيرغيزي عسكر أكاييف شخصية جدلية. ففي منطقة الطابع الغالب فيها هو الإعجاب بالقادة العسكريين لا بالديمقراطيين أمثال جيفرسون كان أكاييف استثناءً ويؤمن حقيقة بالديمقراطية واقتصاد السوق الحرة. وشعرت بأن زيارتي لقيرغيزستان ستكون رمزاً مهما لأكاييف ولمسلمي المنطقة بأن الولايات المتحدة مستعدة لمساندة إصلاحاتهم وهي قضية أثارها شيفرنادزة معي. وكنت أعي أنه من المهم أن نظهر لمسلمي المنطقة نفس التشجيع الذي قدمناه للسلاف في روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا. ولدي وصولنا إلي بشكيك التي غطتها الثلوج كان في استقبالنا الرئيس عسكر أكاييف وكامل مجلس وزرائه. وعند هبوطي درجات

سلم الطائرة كان أكاييف عاقداً قبضتي يده أعلي رأسه كما لو كان قد فاز ببطولة ملاكمة في الوزن الثقيل. وبعد انتهاء حفل الاستقبال التقليدي بتناول «العيش والملح» توجهنا بالسيارة عبر الريف القرغيزي الفج إلي مقر الرئاسة.

ولمست مدي التزام وإيمان أكاييف بالكومنولث. وأوضح أنه من الأهمية بمكان لأمن قيرغيزستان الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع روسيا، وأشار إلي أن العلاقة مع روسيا تستمد أهميتها من سببين رئيسيين: الحاجة إلي احتواء الأصولية الإسلامية، ومواجهة المشكلات المحتملة مع الصين. وقال: إن تحفظه الوحيد علي الكومنولث هو ضرورة المساواة بين دول آسيا الوسطي. ووعد بإثارة القضية في اجتماع ألما آتا كتعديل محتمل لمعاهدة الكومنولث.

وبعد انتهاء الجلسة الخاصة انضممنا دون توقع إلي العاملين معنا بالطابق الأسفل علي عشاء قيرغيزي تقليدي، ومع بدء تناول الأنخاب قال: «لقد حملت زيارتك لنا بشارة الخير – أي تساقط الثلوج – بما يبشر بمحصول وفير. إن زيارتك تاريخية. نرجو أن تداوم عليها».

وخلال اجتماعنا الخاص وأثناء تناول العشاء أبدى أكاييف ارتياحاً أكثر حيال تفاصيل الكومنولث عن زملائه في موسكو. ومن دون شك فإن السبب الرئيسي لارتياحه هو أن قيرغيزستان لا تمتلك قوات نووية استراتيجية، «ولا ترغب في امتلاكها». وقال أكاييف: إن كل ما نريده هو تشكيل «حرس وطني يضم نحو ألف فرد» فلسنا نريد جيشاً، وأوضح أن قيرغيزستان ستتسلح بدلاً من ذلك بمبادئنا الخمسة. ومن هذا التصريح ما أحسست أنه الدرس الرئيسي المستخلص من هذه الزيارة الخاطفة: إنه مع نفوذنا المعنوي الهائل لدي الكثير من تلك الجمهوريات وزعمائها فإن الولايات المتحدة تتحمل مسؤولية فريدة لتأييد جهود الإصلاح وعلينا الاضطلاع بها من خلال الرمز (مثل زيارتي لقيرغيزستان) والجوهر (المساعدات الفنية والإنسانية).



وعقب انتهاء العشاء غادرت بشكيك في رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة متوجهاً إلى ألما آتا عاصمة قازاقستان للاجتماع مع الرئيس نزاربايف. كان نزار بايف لاعباً أساسياً في الجهود الرامية لإعادة تشكيل الاتحاد السوفيتي، واعترف بضرورة تقديم توضيح أفضل لمعاهدة الكومنولث. وبرغم أنه رئيس لأحد أربع جمهوريات تمتلك أسلحة نووية استراتيجية لم يشارك نزاربايف في اجتماع بريست. وفي غضون أربعة أيام سوف يستضيف اجتماعاً للكومنولث. لذا أحسست أنه من الضروري أن أثير بعض هواجسنا وشواغلنا، والأهم أن أسمع شواغله وهواجسه.

وبدأ نزار بايف بحديث منفرد مطول ساحر أعطى لنا خلفية مفاجئة عن مولد الكومنولث. وقال: «لقد دعاني جورباتشوف أنا وشوشكيفيتش ويلتسين وكرافتشوك للاجتماع معه بعد ظهر الإثنين ٩ كانون الأول ديسمبر. وتوجهت إلى موسكو يوم الأحد الثامن من كانون الأول ديسمبر. ولدي تواجدي في المطار بعد وصولي تلقيت رسالة بأن يلتسين يسعى في طلبي. كان يتصل بي من بريست. وبريست هذه تقع في الغابات. وقال: «إننا نجلس هنا ونقرر إقامة كومنولث. ورددت عليه: «إنك لم تبلغني بهذا الأمر من قبل، وكنت قد تحدثت إليه يوم السادس من كانون الأول ديسمبر وأبلغني أنه متوجه إلى مينسك، وتذكر أن هذا هو يوم السادس لوضع اتفاق ثنائي مع شكوشكيفتش وقال إنه سيطلب من كرافتشوك أن يأتي لإبلاغ الإثنين بأمر المستقبل.

وأضاف نزاربايف: «أبلغني يلتسين بأنه يرغب في زيارة كرافتشوك ويتشاور معه حول ما يريده بشأن اجتماع يوم الإثنين الذي دعا إليه جورباتشوف. وبدلاً من هذا فقد حدث أن توجه إلى مينسك وأبرم صفقة. فلماذا تعجل في إبرام الصفقة؟ إنني أعنى أنها صفقة مسلوقة. صفقة غير رسمية. صفقة مسلوقة تماماً.

كان نزار بايف غاضباً. لكنه لم يستفز. وسأل يلتسين: «هل هذه آخر صفقة من هذا القبيل؟ هل هذه آخر صفقة يتم إبرامها؟. وأعرب شوشكيفيتش عن أسفه لرئيس قازاقستان عن الكيفية التي سارت بها الأمور. وقال له نزاربايف: «إننا لا نتحدث عن طموح شخصي لكننا نتعامل مع مجموعة ضخمة من القضايا». وأبلغني نزاربايف أنه بينما لايزال في

موسكو اتصل بجورباتشوف في التاسع من كانون الأول ديسمبر ليبلغه بأنه لن يحضر اللقاء ولن يحضره الآخرون أيضاً وقال: «إن جورباتشوف رد قائلاً: لماذا لا تمر عليّ لعشر دقائق؟ وقد فعلت. ووجدت يلتسين هناك، ولم يكن يعرف أنني سأكون هناك، وبالقطع لم أكن أعرف أنه سيكون هناك. ووجه جورباتشوف عدة أسئلة بسيطة حول الجنسية والحدود والجيش لكن يلتسين لم يستطع الإجابة على أي منها.

«إن الحقيقة الآن هي أن ثلاثة منهم عقدوا اجتماعاً وتوصل ثلاثتهم إلي صفقة. فما الذي دعا ثلاث دول نووية إلي الاجتماع وترك الرابعة؟ ولم يقدم لي مطلقاً أي تفسير لسبب استبعادي.

وجرحت الترويكا السلافية كبرياء نزاربايف، والأكثر أهمية أنها لخطبت حساباته الجيوسياسية لكنه لم يكن الرجل الذي يعيش في الماضي. وبعد أن استعرض معي التاريخ القصير للكومنولث انتقل نزار باييف ليستعرض أفكاره الاستراتيجية. وقال: إنه في ضوء محدودية الخيارات المتاحة أمام قازاقستان التي تنحصر في الانضمام إلي الكومنولث أو تشكيل اتحاد فيدرالي لدول آسيا الوسطي أو المضي منفردة فسوف يعمل علي إنجاح الكومنولث. ولم يكن خيار جورباتشوف المفضل – إعادة وضع معاهدة اتحاد – قابلاً للتطبيق. وقال الرئيس القازاقستاني: «لقد انتهينا إلي ذلك. وأضاف قائلاً: «بدلاً من ذلك فإنني أريد بذل كل ما هو ممكن للتوصل إلي معاهدة طبيعية هنا في ألما آتا». وقال: كخطوة أولي سوف يصر علي ضرورة إدخال تعديلات علي الاتفاق* وقدر ميزاته علي وجه التحديد. فهو يتمتع بثقل جمهوريات آسيا الوسطي الأربع معه. وهو يمتلك أيضاً أسلحة نووية. وقال: «إن لديهم مائة محطة لتوليد الكهرباء في روسيا وأوكرانيا لا تستطيع العمل بدون فحمنا. الفحم المستخرج من قازاقستان». إنني مندهش لعدم تدبرهم لما فعلوه.



* كان أول تعديل هو النص علي أن كل أعضاء الكومنولث أعضاء مؤسسون لتلافي حدوث تفرقة بين الجمهوريات السلافية والجمهوريات الآسيوية. (وهو تماماً ما أبلغني به أكاييف في وقت سابق). وقال نزارباييف: «هذا هو طريق الإنجاز فلا يمكنك إنجاز شيء بالطريقة التي تصرفوا بها». وكان التعديل الثاني هو إلزام الجمهوريات النووية الأربع بتوقيع معاهدة تحدد علي وجه الدقة آليات التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية. وأوضح نزارباييف: «إنهم صاغوا مشروعها بأسلوب فضفاض أحمق». والتعديل الثالث هو إعادة التوقيع علي الاتفاق في ألما آتا بعد التعديل المناسب.

ثم أبلغني: «لقد اعتذروا وانتهي الأمر. ومرة أخري ها أنا أجد نفسي مضطراً لأقوم بدور رجل المطافئ. إنني في سبيلي لجمعهم مرة أخري».

ومع انتهاء مفاجآته بدأت في تكرار كل ما قلته للكافة في موسكو. «لقد أوضحت بجلاء أننا غير معنيين بإقحام أنفسنا في العملية. إنها عملية يجب إتمامها بواسطة أطرافها أنفسهم وليس بواسطتنا». وأشار نزارباييف إلي أن يلتسين انتهز مكالمته الهاتفية مع الرئيس بوش ليدعي أنه حصل علي تأييد الولايات المتحدة. وقلت له: إن الرئيس لم يتخذ أي موقف لا بشكل عام أو خاص، وأنه أوضح أن هذا من شأن الجمهوريات والمركز. وقبل نزارباييف توضيحي. لكن سوء فهمه في البداية ألقي بعض الضوء علي التضارب الواضح في موسكو حول موقفنا تجاه الكومنولث. وساورني الشك في أن يلتسين لابد وأنه أبلغ جورباتشوف أنه تلقي هو والكومنولث مباركة الرئيس بوش مما يفسر علي الأرجح رد فعل جورباتشوف المبالغ فيه علي تصريحاتي بأن الاتحاد السوفيتي كما نعرفه لم يعد موجوداً.

وما لبثت أن أثرت مع نزارباييف قضيتين حاسمتين أخريين: هما انضمام قازاقستان إلي معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وإمكانية تقديم المعونة الإنسانية والفنية. وقال نزارباييف: «إذا اعترف المجتمع الدولي وقبل بوجود قازاقستان فسوف نعلن أننا دولة غير نووية. فهذا هو أفضل سبيل لضمان سلامة أرضينا. وهذا هو ما نطلبه». كانت إجابة مرضية رغم أنني علمت في ربيع عام ١٩٩٢ أنه كان بوسعه – وليس في الآراء مفاجأة – توتير المفاوضات للحصول علي كل ما يستطيع من مميزات.

وفيما يتعلق بالمعونة الإنسانية رحب نزارباييف بكل ما يمكن أن نقدمه. وكان متلهفاً علي اكتساب الخبرة الغربية لإتمام التحول الاقتصادي في قازاقستان، وإقامة مشروعات تجتذب الاستثمارات الأجنبية. وقال: «أرسلوا لنا خبراء ومستثمرين، لا أموال». وأبلغته أنه بالإضافة إلي إثارة تلك القضايا مع حلفائنا الغربيين وصندوق النقد الدولي فسوف أوفد بوب فاوفر الذي نقل من مكتب شرق آسيا ليتولي منصب نائب وكيل الوزارة للشؤون الاقتصادية للمساعدة في الإسراع بخطي الإصلاح.

وعندما استقر بي الحال في غرفتي في الساعة الثالثة فجراً أحسست بأن الساعات الثلاث التي أمضيتها مع نزارباييف كانت من أفضل الأوقات التي أمضيتها حتي الآن. فقد

كان رعيماً لا يمكن أن تخطيء العين مكانته لكن من دون شك كانت تنتظره أيام عصيبة فقد كانت أمامه مجموعة من القضايا الاقتصادية المعقدة ليتعامل معها في تلك الأيام. ناهيك عن أن اجتماع الكومنولث المقرر عقده في غضون ثلاثة أيام سيكون بالغ الأهمية. لكنه كان يمتلك رؤية لما هو مطلوب. إضافة إلي فهم دقيق لكيفية تحقيق إنجازات فعلية علي الأرض.

الدولتان النوويتان الأخريان بيلاروس وأوكرانيا

أمضيت يوم الأربعاء ١٨ كانون الأول ديسمبر مع ستانيسلاف شوشكيفيش والرئيس الأوكراني ليونيد كرافتشوك في كييف لاستعرض نفس القضايا الأساسية: الأمان النووي، وإزالة الأسلحة النووية ونظام التحكم والسيطرة والالتزام بالمعاهدات القائمة للحد من التسلح والالتزام بمبدأ التحرر السياسي والاقتصادي ووعد بإقامة نقاط اتصال علي المستوي المحلي للمساعدة في تنسيق وتوزيع المعونة الإنسانية.

وفي أول اجتماع لي في مينسك مع شوشكيفيتش لمست أنه شخصية واثقة ومقبولة بشكل عام. ولم يكن هذا الفيزيائي السابق قد تولي منصبه إلا في شهر أيلول سبتمبر. وبعد أن غادرت الصحافة قاعة الاجتماع عقب التقاط الصور التذكارية (الإخبارية) قبل الاجتماع قال إنه اكتشف أن الرد علي الصحفيين أمام الكاميرا «تجربة حمقاء فلست معتاداً علي هذا الجانب للمنصب».

وألح شوشكيفيتش في التأكيد علي أن بيلاروس ستقبل كل ما نريد بشأن الأسلحة النووية، ولأنه عايش كارثة تشرنوبيل كان يعتقد أنه من الضروري إزالة كل الأسلحة النووية من أراضي بيلاروس وسعي بلهفة للحصول علي الخبرة الأمريكية في تفكيك تلك الأسلحة، ووعدته بتقديم تلك الخبرة.

وسارع أيضاً بالانتقال إلي شرح كيفية تحرك بيلاروس في مجال الاصلاح السياسي والاقتصادي. وزعم أن بيلاروس تتصدر كل الجمهوريات الأخري علي طريق الخصخصة،

وأن البرلمان يناقش حالياً عناصر دستور ديموقراطي جديد. وقال إنه يريد إزالة آثار الحرب الباردة من بيلاروس وأننا: «لانرغب بأي حال من الأحوال إعادة تجربة الأربعين عاماً الماضية. إننا نريد أن تصبح دولة عفية طبيعية».

وعن الكومنولث أعرب رئيس بيلاروس عن أمله في نجاح اجتماع ألما آتا وأبدي استعداده للعمل علي انجاحه. وبرغم أننا لم نبحث تعديلات نزارباييف علي وجه التحديد إلا أنني أحسست أنها قد تمثل مشكلة لبلاسين أو شوشكيفيتش. وقلت: إننا نريد أن يكلل اجتماعاً ألما آتا بالنجاح .لأننا نري في جانبه خطر الأصولية الاسلامية يجتاح ما كان يعرف بآسيا الوسطي السوفيتية. ومضيت إلي القول إنه «يربط جمهوريات آسيا الوسطي بالجمهوريات السلافية. ويمكن أن تعمل كجسر بين الشرق والغرب وعازلاً آمناً أمام انتشار الأصولية الإسلامية المتطرفة».

ورد شوشكيفيتش: «بشكل عام فإننا علي اتفاق تام مع موقفكم».

وأبدي كرافيتشوك تعاوناً مماثلاً مساء ذلك اليوم في كييف. كان هذا الأمر يبعث علي الاطمئنان لأن القلق كان يساورني بشأن كرافتشوك في اجتماع الكومنولث. وبينما كنت في قازاقستان تلقيت تقارير بأن كرافتشوك لن يحضر علي الأرجح اجتماع ألما آتا. ولأنه يشكل ثاني أكبر قوة جيوسياسة بعد روسيا فقد خشيت من أن عدم مشاركته قد يتسبب في انفجار الكومنولث بما يحتمل أن يدفع المنطقة نحو الفوضي.



وما يبعث علي المفاجأة أن كرافتشوك استهل مباحثاتنا بالإشادة بالكومنولث. ويبدو أنه تشاور مع يلتسين ونزارباييف قبل الاجتماع معي، وهكذا فقد تغير موقفه من اجتماع ألما آتا، وسرعان ما أبلغني بأنه سيشارك في الاجتماع وأن أوكرانيا مستعدة للذهاب إلي الاجتماع.

وسألته عما سيحدث في روسيا إذا لم يصمد الكومنولث، ماذا سيحدث لمختلف الجماعات العرقية مثل شعبي الشيشان والأنجوش؟ «ففي ظل مثل تلك الظروف سوف تواجه

روسيا صعوبات هائلة مع الضغوط الساعية نحو الاستقلال من قبل مختلف المناطق. إن روسيا تواجه مشكلات أيديولوجية خطيرة لأنها خليط من المسيحية والإسلام». وقال: إنه حتي علي الرغم من أن الكومنولث فكرة أوكرانية فقد كان الروس أكثر تعلقاً بها «وتبنوها بشغف بالغ». وحذر أيضاً من أن هناك أيضاً مطامع روسية فى إقامة دولة عظمي «وهذا أمر غير مقبول».

وأعربت أوكرانيا عن استعدادها للانضمام إلي معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية وقد طلبت بالفعل من الوكالة الدولية للطاقة الذرية إيفاد مندوبين إلي كييف حتي يتسني البدء فى عملية التنفيذ. وقال: إن أوكرانيا سوف تلتزم بكافة المعاهدات النووية القائمة وترحب بالخبرة الامريكية للمساعدة في إجراء تخزين وتحويل وتفكيك آمن لأسلحتها النووية. ومثل نزاربايف كان كرافتشوك يفضل جهة سيطرة وحيدة علي القوات الاستراتيجية، وأكد علي أنه حتي يتم الانتهاء من إعداد كافة الترتيبات اللوجستية ستكون كافة القوات النووية المتمركزة فى أوكرانيا «غير قابلة للعمل».

وعقب انتهاء ذلك المساء فى كييف كنت أكثر ثقة عن ذى قبل في وقت سابق من الأسبوع فى إمكانية احتواء الصراعات السياسية. وكنت علي اقتناع بأن الكومنولث سيتشكل بصورة ما خلال اجتماع ألما آتا. كان اقتناعي الخاص أن الكومنولث لن يعمر طويلاً لكنه يمكن أن يعمل كآلية للتوسط فى تسوية النزاعات بين الجمهوريات مع تأكيد وتطور استقلالها.

وخلال كل اجتماعاتي ذلك الأسبوع ظهر قاسم مشترك واحد جمع الجمهوريات ألا وهو الرغبة فى إرضاء الولايات المتحدة. فقد أبلغني نزارباييف أنه يحتفظ بالمبادئ الخمسة فى أدراج مكتبه، وطلب منا كرافتشوك إيفاد خبراء لضمان تطبيق أوكرانيا لتلك المبادئ. وأبرقت للرئيس أن سلطتنا المعنوية «تهيىء فرصة نادرة، إنها تقتضي المسؤولية أيضاً» وبسبب موقفنا – وقبولنا – شبه التام لرغبتهم فإنهم يتطلعون للحصول علي مساعدتنا ويمكن توظيف استعدادنا لتقديم المساعدة لتشكيل وصياغة ما يفعلون ويوسعهم أيضاً استغلاله لإقامة سلطتهم» وقلت: «إنه يمكن تأجيل الاعتراف لفترة طويلة. لكن يجب ألا تطول لأكثر مما ينبغي. وكنت أعتقد أنه ينبغي علينا الانتظار لما بعد اجتماع ألما آتا.

النهـايــة

امضيت الخميس ١٩كانون الأول ديسمبر في اجتماع المجلس الوزراي لحلف شمال الأطلنطي في بروكسل، وأمضيت يوم الجمعة في الجلسة الأولي لمجلس التعاون الوزارى لحلف شمال الأطلنطي. كان الاتحاد السوفيتي ينهار في تلك اللحظة، فمع وصولنا علمنا أن يلتسين أصدر قراراً بالاستيلاء علي الكريملين ووزارتي الخارجية والداخلية. ومع زملائي في حلف شمال الأطلنطي اقترحت أن يساهم الحلف في توفير الدعم اللوجستي لتقديم شحنات الأغذية والأدوية إلي الجمهوريات. فالحلف لا يمتلك القدرة فحسب، بل سوف يشكل هذا تحولاً رمزياً مهماً من كونه منظمة تتمحور نحو ردع العدوان إلي منظمة تساهم في إقرار سلام جديد.

(فالمبادرة تمثل أيضاً رمزاً لمدي سلاسة التعاون بين وزارتي الخارجية والدفاع أثناء إدارة بوش. فقد توصلنا إلي الفكرة أثناء الرحلة) ووضعنا لمساتها النهائية في كيف في اتصالات هاتفية مع كولين باول وديك تشيني. وتمثل الإزعاج الوحيد في الحرمان من النوم. فلم يذق هادلي خبير الأمن والحد من التسلح بوزارة الدفاع والجنرال شالكاشفيلي مساعد باول في ذلك الوقت طعم النوم).

وأمضيت أيضاً بعض الوقت في تهدئة خواطر بعض الأوروبيين بسبب مؤتمر التنسيق الذي اعتبره الكثيرون منهم إهانة لهم. وأبلغت جياني دي ميخاليس أن خطأنا هو عدم تضمين المجموعة الأوروبية في الدعوة. ورد جياني: «لا بل إن خطأنا - المجموعة الأوربية- هو عدم التفكير فيه أولاً. إننا في حاجة ماسة إلي عقد هذا المؤتمر الذي اقترحتموه بأسرع وقت ممكن». ولمست استياء مماثلاً بين معظم شركائنا في الحلف رغم أن الاستياء اتخذ منحطفاً مغايراً مع الفرنسيين. حيث وصفها الرئيس ميتران أنها مبادرة «غير ضرورية البتة». وعن مؤتمر التنسيق أبلغت رولان دوما: «لا تقلق منه وعليك ألا تأتي إذا لم تكن راغباً في المجئ سوف اعتبرك من الرافضين». وكان لهذا وقع طيب فقد شارك الفرنسيون وأدوا أداءً ممتازاً.

وشكل اجتماع مجلس التعاون الوزارى لحلف شمال الأطلنطي خطاً فاصلاً. ففي القاعة التي أديرت منها الكثير من الأزمات بين الشرق والغرب ها هو بوسعي الآن أن أنظر وأري

وزراء خارجية يمثلون كل دول حلف وارسو السابق. كانت الدلالة واضحة. لكن الاجتماع شكل أيضاً محاولة أولية من جانب حلف شمال الأطلنطي لهجر الحرب الباردة، وبذر بذور مؤسسات ما بعد الحرب الباردة بالوصول إلي دول الشرق وتوسيع مجموعة الدول الديموقراطية.



وفيما بين الاجتماعات الوزارية والثنائية حاولت الاتصال بنزاربايف عدة مرات وأبلغني في إحدي المحاولات بأنه لا يوجد سوي خطي تليفون يربطان قازاقستان بالخارج. وقد أردت التحدث إلي نزاربايف قبل بدء الاجتماع لإبلاغه بالمواقف الإيجابية التي سمعتها في مينسك وكييف. وأخيراً تمكنت من الاتصال به مساء يوم العشرين في ذات اللحظة التي كان يستقبل الوفود التي تصل للمشاركة في الاجتماع التاريخي.

وبدأت المحادثة بالقول: «أود إبلاغكم بأطيب أمنياتي وأنتم علي وشك بدء الاجتماع. لقد قدمت لزملائي في حلف شمال الأطلنطي تقريراً وافياً حول زيارتي لكم، وقد سروا للغاية من التطمينات التي قدمتموها بشأن الأمان النووي».

وأعرب نزار بايف عن تفاؤله وإمكانية تبديد القلق الذي أبداه لي قبل ثلاثة أيام. لكن قلقه حيال أوكرانيا لا يزال موجوداً لكن حدته خفت بعض الشيء. ويبدو أنه تلقي إجابات مشجعة علي التعديلات التي اقترح إدخالها علي معاهدة الكومنولث. وقال: «تلقيت ضمانات من الجميع هنا بأننا سننجح في إقامة الكومنولث، ولن أدع أحداً يغادر هنا من دون التوصل إلي اتفاق».

وقلت: «لو أن هناك أحدا يستطيع دفع هذا الأمر نحو الأمام فهو أنت. إنني أنتظر معرفة النتائج ورؤية قازاقستان عضواً في المجتمع الدولي في نهاية المطاف».

وفي اليوم التالي لدي عودتنا إلي وشنطن اتصل بي نزاربايف علي الطائرة لإبلاغي بنتائج الاجتماع. وأبلغني بأخبار سعيدة للغاية. واستهل المحادثة: «لقد انتهي اجتماع ألما آتا

وشاركت إحدي عشرة جمهورية في الاجتماع. وبالإضافة إلي الثماني التي تعرفها* شاركت أيضاً كل من مولدوفا وأرمينيا وأذربيجان. لقد أقمنا كومنولث الدول المستقلة».

إن تفاصيل الاتفاق تشكل يقيناً خطوة متقدمة. وقال: «إننا عاقدون العزم ولن يكون هناك سوي أربع جمهوريات نووية. لكن السيطرة والتحكم في الأسلحة النووية سيكون في روسيا حيث سيجري التخلص من كافة الأسلحة النووية التكتيكية، وستظل الأسلحة النووية الاستراتيجية موجودة في روسيا وقازاقستان. ومع هذا فسوف تعلن قازاقستان أنها منطقة خالية من الأسلحة النووية بمجرد انضمامها إلي الأمم المتحدة».

وأضاف قائلاً: «قررنا أيضاً ضرورة كفالة الأمان التام لجورباتشوف، وينبغي توفيره له. لقد أحطنا أيضاً علماً بطلب الرئيس يلتسين (الذي علمت فيما بعد أنه طرحه علناً في مؤتمر صحفي عقب انتهاء اجتماع ألما آتا) بضرورة كفالة العمل والعيش الكريم للرئيس جورباتشوف. ورددت: «أولاً يجب عليّ إبلاغك بأمتناني لمكالمتك ولتقريرك الوافي إنه يتفق مع كل ما بحثناه مع زعماء الجمهوريات». وقال: «شكراً لك لكن الأمر لم يكن سهلاً». وأضفت قائلاً: «كان أداؤكم رائعاً، وأريد إبلاغكم بأننا سنتحرك كالمتوقع في مسألة الاعتراف بمعظم أعضاء الكومنولث بما في ذلك قازاقستان».

وقال وهو يداري ضحكة خافتة: «السيد وزير الخارجية أمل أن تكون قازاقستان في مقدمة تلك الدول». ورددت: «اعتبر الأمر منتهياً. وسنكون علي اتصال قريباً».

وبعد أربعة أيام استقال ميخائيل جورباتشوف يوم عيد ميلاد السيد المسيح. وأنزل العلم الذي يحمل علامة المطرقة والمنجل للمرة الأخيرة من ساريته التي ظل يرفرف عليها فوق الكريملين لسبعة وأربعين عاماً. ورفع مكانه العلم الروسي ذو الألوان الثلاثة. وحل اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. فها هي التجربة التي بدأها كارل ماركس وفلاديمير لينين ونفذها جوزيف ستالين قد فشلت.

---

* هي الدول السلافية الثلاث (روسيا وبيلاروس وأوكرانيا) ودول آسيا الوسطي الخمس (قازاقستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وتركمانستان، وأوزبكستان).

الفصل الحادي والثلاثون

دخول حقبة جديدة

أتذكر قول وزير الخارجية مهز راسه بنبرة حزن... في أي لحظة من اليوم يستيقظ نحو ثلثي سكان العالم على الأقل يَقْسِمُ البعض منهم على الأذى.

سايروس فانس
وزير الخارجية الأسبق ١٩٨٣

طالما طُلِبَ مني عدة مرات باعتباري أحد ستة كان لهم شرف تولي منصبي وزير الخزانة والخارجية أن أحدد الفرق بين وزارة الخارجية ووزارة الخزانة. ومن الواضح أن الموقعين ينطويان علي قدر بالغ من الأهمية والتحدي غير الاستثنائي. ففي وزارة الخزانة أمامك مرونة أكبر في اختيار القضايا التي تريد التركيز عليها. فوزير الخزانة حر نسبياً في تخصيص وقته، وتحديد أولوياته في تنفيذ جدول أعمال سياسة الرئيس، وفي الجانب الأكبر فإن القضايا التي تتطلب العناية يمكن توقعها إلي حد كبير.

ومع هذا فإن وزير الخارجية يعد رهينة لبيئته أكثر من أي عضو آخر في الحكومة. فلا أكاد أصل في أي لحظة إلي مكتبي في الدور السابع بوزارة الخارجية في السابعة صباحاً ينتظرني يوم حافل مشحون بالتفاصيل التي أعدت بكل دقة إلا لكي ألقي الجدول المعد حتي أتعامل مع تطورات غير متوقعة في أقصي بقاع الأرض. وتعلمت في الخارجية أن للمشاكل موهبة بارعة في ملاحقتك أينما تكون.

فقد تفجرت بعض تلك الأحداث مثل غزو الكويت بينما أحداث أخري تستقطب اهتمام العالم بأسره علي أشدها. وثم أحداث أخري لا تظهر في الصحف، وأقل القليل ما يظهر في الصفحات الأولي، وتقع الأغلبية العظمي منها بين الأحداث القائمة بالفعل. لكن جميعها علي درجة من الخطورة تمس نجاح السياسة الخارجية وتستوجب تخصيص القدر الواجب من الوقت والاهتمام.

ففي أي لحظة تقف أعين الرأي العام ووسائل الإعلام ترقب في يقظة بالغة أهم قضايا السياسة الخارجية في تلك اللحظة. وفي إدارة بوش كانت هناك حرب الخليج، توحيد ألمانيا وعملية السلام في الشرق الأوسط، والعلاقات السوفيتية الأمريكية، وهذا هو ما تناولت معظمه من قبل. ومع هذا فلم تعالج أي من هذه القضايا ذات الأهمية الاستراتيجية البالغة من فراغ. فالحقيقة أنه في الوقت الذي كان الرئيس وكبار مستشاريه لشؤون السياسة الخارجية يعالجون تلك القضايا فقد كنا نتعامل في ذات الوقت مع مجموعة أخري متداخلة من القضايا أفرزتها مبادراتنا والأخرى فاجأتنا بها الأحداث. لكنها جميعا قضايا تستدعي متابعة فعالة مستمرة لضمان حماية وازدهار مصالح بلادنا. وما سوف أورده ليس إلا نماذج لمجموعة قضايا كانت

إدارتها اليومية علي نفس القدر من الأهمية لنجاح مسيرة السياسة الخارجية الأمريكية تماما كالقضايا التي تتطلب إدارة رفيعة المستوي.

الصين: إنقاذ زواج مضطرب

مع عام ١٩٩٠ ونتيجة للأجواء الملبدة بالغبار الشديد تجاه الصين بعد مذبحة تيانانمين لم يكن هناك احتمال أو مبرر لطرح أي مبادرة مهمة لتحسين العلاقات الصينية الأمريكية. ومع هذا لم يكن لدينا أي استعداد لشطب الصين بكل بساطة. وترتيباً علي هذا انتقل التأكيد في سياستنا باتجاه الفرص متعددة الأطراف حيث يمكننا التعامل مع الصينيين في إطار أوسع وأقل إثارة للجدل حول القضايا ذات الاهتمام المشترك.

كان أهم إنجاز في هذا الصدد هو مسعانا الناجح لإثناء الصين عن استخدام الفيتو في مجلس الأمن الدولي مما كان سيعرقل جهود الولايات المتحدة لإخراج صدام حسين من الكويت. وكانت مثابرتنا الدبلوماسية مفيدة أيضاً في اتخاذ القرار الصيني بالانضمام إلي جهود الأمم المتحدة الرامية إلي التوصل لتسوية من خلال التفاوض للحرب في كمبوديا، وهي مبادرة توجت باتفاق باريس للسلام عام ١٩٩١ الذي أعاد الاستقرار إلي هذه الأرض المضطربة*.

وعملنا أيضاً علي ضم الصين وتايوان وهونج كونج إلي منظمة التعاون الإقليمي أبيك عام ١٩٩١. وكان هذا العمل الأخير هو أقوي رسالة إلي الصينيين بأنه في الوقت الذي نشعر فيه بقلق بالغ حيال القمع الذي يمارسونه في الداخل فإن الرئيس ملتزم باستمرار الارتباط الاستراتيجي قدر الإمكان.

ومع منتصف عام ١٩٩١ أصبحت قضية العلاقات الثنائية أكثر إقناعاً. وبرغم تعاونهم في قضية الخليج تنامي قلقنا من ضلوع الصينيين في انتشار الأسلحة النووية. وأكدت

* طرحت هذه المبادرة عام ١٩٨٩ إثر انهيار مفاوضات السلام الدولية في كمبوديا، وعندها اقترحت الولايات المتحدة بذل جهود للتوصل إلي تسوية تحت رعاية الدول الخمس دائمة العضوية في الأمم المتحدة.

مخابراتنا قيام بكين ببيع صواريخ أرض/ أرض إلي باكستان وسوريا وإيران، وأسلحة مضادة للطائرات إلي ليبيا تستخدمها لحماية مصنعها للأسلحة الكيماوية. والأكثر مدعاة للقلق قيام الصين منذ فترة بمساعدة البرامج النووية لإيران وباكستان اللتين يشتبه في محاولتهما إنتاج أسلحة نووية. لكن من المهم المشاركة مع الصينيين في تلك القضايا بغض النظر عن المناخ السياسي الداخلي. والحقيقة المجردة هي أن الصين مهمة لمصالحنا الكونية لدرجة يتعذر عزلها. وبالفعل وعند انتهاء حرب الخليج كان بعض أشد المنتقدين في الكونجرس يعترفون في دوائرهم الخاصة بضرورة التعامل مع الصين.

ومع هذا فطالما ضغطنا مراراً علي الصينيين لتخفيف قمع القوي الديمقراطية، وانصب اهتمامهم كالمتوقع علي المطالبة برفع العقوبات الأمريكية، والحصول علي رسالة رمزية رفيعة المستوي كزيارة يقوم بها وزير الخارجية الأمريكي إلي بكين. أما ولم تسعدهم الاتصالات الأدني مستوي التي أمر بها الرئيس للإبقاء علي الحوار، فقد ألحوا مراراً عليّ لتحديد زيارة. وخلال اجتماعين مع تشيان تشيتشين وزير خارجية الصين في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩٠ وتركزا علي أزمة الخليج، أكدت أن أي زيارة يقوم بها مسئول أمريكي رفيع المستوي للصين مرهونة بتحقيق تقدم كبير في مجال حقوق الإنسان، وقلت لتشيان يوم ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر: «لا يمكننا تحسين العلاقات من جانب واحد. فمن دون تقدم واضح من جانبكم لا يمكنني أن أزور بلدكم، وليس لدينا أي فرصة لإقناع الكونجرس والشعب الأمريكي بأهمية التحرك قدماً» وكبادرة لحسن النية أوفدت بوب كيميت إلي الصين في كانون الأول ديسمبر مفوضاً بالتباحث حول زيارة أقوم بها، ولكن بمجرد تحقيق تقدم ملموس في قضية حقوق الإنسان.

❏ ❏ ❏

ومع خريف عام ١٩٩١ اختلطت ردود بكين حول مساعينا المتكررة. ففي مجال بيع الصواريخ فقد رفضوا مطالبنا بالالتزام العلني بالخطوط العريضة لنظام الرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ MTCR وهو اتفاق دولي استهدف منع تدفق الصواريخ الباليستية متوسطة

المدي. ومع هذا وافقوا من حيث المبدأ علي قبول بنود اتفاقية منع إنتشار الأسلحة النووية. وبناءً علي أوامرنا بدأوا في الضغط علي حليفتهم كوريا الشمالية بأن تحذو حذوهم. وإلي ذلك فقد طمأنونا بشكل خاص بأنهم سيلغون بيع صواريخ من طراز إم - ٩ إلي سوريا.

وعن حقوق الإنسان رفضت الصين إلغاء أو تخفيف الأحكام الصادرة بحق معظم المنشقين. كما رفضت المساعي الأمريكية للحصول علي قائمة بأسماء الموتي والمسجونين. كما رفضت أيضاً عدة تداءات من عدة دول بالسماح للصليب الأحمر الدولي بتفقد السجون الصينية. ومن ناحية أخري فقد سمحت لفانج ليجي وأسرته بمغادرة الصين، وكذلك سمحت بمغادرة ازواج أو زوجات المنشقين المقيمين في الولايات المتحدة. كما أطلقت سراح نحو تسعمائة اعتقلوا بعد وقوع مذبحة ميدان تياناناميين. كما وافقت علي اعتماد مندوب لصوت أمريكا بدلاً من مراسلها الذي طرد أثناء وقوع مذبحة الميدان. كما أستأنفت منح فولبرايت الدراسية وبرامج فيالق السلام التي قررت قطعها بعد المذبحة.

ولم تكن تلك البادرات كافية لتبديد قلق المعارضة في الكونجرس لرفع العقوبات. لكن مع اقتران تلك البادرات باستعدادهم خلال حرب الخليج لعدم استخدام الفيتو ضد قرارات مجلس الأمن الدولي التي لم يؤيدوها بالفعل اعتقد الرئيس وأنا بأن هناك أسباباً كافية الآن تسمح لي بالسفر إلي الصين علي أمل إقناع قيادتها بالمخاطر الحقيقية التي تمثلها سياساتهم القمعية.

وكنا لا نزال علي اعتقاد بأن الصينيين لم يستوعبوا حجم الدمار الذي الحقته المذبحة بالعلاقات الصينية الأمريكية، ولذا فقد قررت عقد اجتماع آخر مع تشيان في ٢٧ أيلول سبتمبر ١٩٩١ علي هامش اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. فقبل الالتزام بإتمام الزيارة أردنا تنبيه الصين إلي أن هذه آخر أفضل فرصة بالنسبة لهم. فإذا ما اعتبرت زيارتي غير ناجحة في الولايات المتحدة فلم يكن يساورنا أدني شك في أن الكونجرس سينتزع أمر العلاقات الصينية الأمريكية من الرئيس.

وقلت لتشيان: «إنني أريد التوجه إلي الصين لكن عليَّ التأكد من أن الزيارة سوف تعزز علاقتنا لا أن تزيد من صعوبة دفعها قدما. إن ما أريد معرفته هو ماذا يمكنني إنجازه بتلك الزيارة». وكان تشيان موغلاً في الغموض.

وألححت عليه: «إنني أريد تحرك الصين بشيء ما حول حقوق الإنسان ومنع الانتشار النووي. فالكونجرس ينتظر تجاوز الرئيس في قضية العلاقات مع الصين. فهل يمكن أن نتحدث علي وجه التحديد؟ إنني أريد تحديداً محرقة ما إذا كان هناك شيء سيمكنني أنا والرئيس التعويل عليه».

وقال: إنه يمكن مناقشة أي قضية وإنني واثق من أنه سيتم إحراز بعض النجاح. وأبلغت تشيان أن هذا لا يكفي. وها هو يراوغني مرة أخري لكنني أحسست أنه استوعب الرسالة.



وفي ٩ تشرين الثاني نوفمبر بعد ستة أيام من اختتام مؤتمر الشرق الأوسط في مدريد غادرت أوروبا حيث شاركت في قمة حلف الأطلنطي مع الرئيس -متوجهاً إلي اليابان وكوريا والصين. ووصلت إلي بكين في الساعة ٢,٢٥ فجراً في الخامس عشر من تشرين الثاني نوفمبر، وبدأت مباحثات استغرقت ثلاثة أيام مع تشيان في بيت الضيافة ديا ويداي. وبدأ بتقديم قائمة من التنازلات التي يريدها مني وفي مقدمتها رفع كافة العقوبات. ورداً علي ذلك أثرت مجمل العلاقات الثنائية ومتعددة الأطراف مستخدماً أقوي لغة حول قضية حقوق الإنسان.

وقلت في ختام استعراض استغرق خمسا وأربعين دقيقة: «حان الوقت الذي يجب أن تنهجوا فيه نهجاً عملياً. إنني لا أتوقع حدوث معجزات. لكنني أتوقع الاعتراف بمصالحكم. إنني أريد نتائج ملموسة لا وعودا ولا اجتماعات ولا تسويفا. فعندما سأستقل الطائرة ستنطلق التقييمات علي الفور حول نجاح أو فشل هذه الزيارة. فإذا اعتُبِرتْ الزيارة فاشلة فسوف ينتزع الكونجرس قضية سياسة الصين من الرئيس».

ولم يحرك تشيان ساكناً، وسارع برفض مطالبي بضرورة عفو الصين عن المدانين بتهمة الاحتجاج دون عنف خلال انتفاضة حزيران يونيو ١٩٨٩ والسماح للجنة الدولية للصليب الأحمر الدولي بتفقد أحوال السجون الصينية.

وحاولت في كافة اجتماعاتي اللاحقة التأكيد التام علي أن علاقاتنا تجتاز مفترق طرق. وخرجت من اجتماعي مع تشيان باعتقاد بأن القيادة الصينية لا يمكن أن تعي ببساطة أن مذبحة تيانانمين قد أطاحت بالتأييد القومي لاستعادة العلاقات بين بلدينا، ومع نهاية اليوم لم يكن هناك أدني سبب يدعو للتفاؤل.



وعقدت في صباح اليوم التالي أول اجتماع من ستة اجتماعات مع رئيس الوزراء لي بينج. كان رجلاً تكنوقراطياً بالسابقة والخبرة ومتشدداً. لم يعتذر مطلقاً عن دوره في سحق الحركة الديمقراطية وتلقيت تحذيرات بأنه سيكون في غاية الصعوبة. لكنني ما كنت أتوقع أن يكون غير بناء بالمرة. فقد أصم أذنيه لكل ما قلته بالفعل، وخاصة ما يتعلق بحقوق الإنسان حيث قال: «لأننا نعتنق قيماً مختلفة وأيديولوجية مختلفة فلا يمكننا سوي الالتزام بإجراء مناقشات».

كان الموضوع الأساسي لديه هو انضمام الصين فوراً ومن دون شروط إلي الاتفاقية العامة للتجارة والتعريفات «الجات». وكان متصلباً في طلبه بضرورة ضم الصين إلي الاتفاقية قبل تايوان. وأكد علي أن الصين تستحق أن تعامل كبقية الدول. وقلت له: إنه يجب علي جمهورية الصين الشعبية أن تحرر ممارساتها التجارية للوفاء بالمعايير الدولية قبل أن توافق الولايات المتحدة علي حصولها علي عضوية الجات. وأبلغته أيضاً بأن الولايات المتحدة ستؤيد انضمام جمهورية الصين الشعبية وتايوان إلي الجات. لكنها لن تعد بانضمام الصين أولاً. واستاء من موقفي وكرر طلبه عدة مرات.

وعندما أدرت دفة الحوار مرة أخري إلي قضية حقوق الإنسان لم تلح في موقفه أي بادرة لين. وعندما بدأ في تفنيد وصفي لأحداث شهر حزيران يونيو بأنها مأساة أدركت أن احتمالات إحراز تقدم مهم احتمالات قاتمة وواهية. واعترف قائلاً: « إن أحداث ميدان تيانانمين كانت حدثاً طيباً. إننا لا نعتبرها مأساة. انظر إلي ما يدور في دول وسط وشرق

أوربا والاتحاد السوفيتي الآن . «وأكد علي أنه لو أن الدول الأخري تعاملت مع المنشقين بشدة لما واجهت إلا القليل من المشكلات» . وقال: «إن شعبنا يؤيد ما فعلناه في ذلك الحين» .

وبأبسط تعبير هالني ما سمعت، وخاصة لأنه يؤمن بما يقول، ورددت قائلاً: «سأكون صريحاً معك. لو أن ما قلته لي لتوك هو كل ما تعرضه لما كان بوسع الرئيس وأنا تأييد هذه العلاقة» .

ولم يظهر علي لي بينج أي قلق. وقال: «عليك أن تكون سعيداً لأني قابلتك . وإنك عقدت كل تلك الاجتماعات مع كبار مسئولي الحكومة» . وزاد الطين بلة شكواه من استبعاد بكين من مؤتمر السلام في مدريد.

ومن البداية حتي النهاية كان الأداء مزعجاً لدرجة طرأ علي بالي احتمال الانسحاب من الاجتماعات. واعتقدت أن من غير الحكمة أن أنسحب، وواصلت الاجتماعات المقتومة الخالية من الروح حتي أثيرت بقية قضايا جدول الأعمال. واعتبرت ذلك الاجتماع كارثة وهو رأي شاركني فيه بعض أعضاء وفدنا الذين أبلغوني لاحقاً أنهم خلصوا فيما بينهم إلي أن الزيارة قد فشلت، ولو أني سألتهم رأيهم لأوصوا بالتوجه مباشرة إلي المطار ومغادرة الصين.

وسرعان ما طرأ مزيد من التدهور علي الموقف. ففي اجتماعي التالي أبلغني الرئيس يانج شانج كون وهو شخصية لطيفة: «إن أكبر إنجازاتكم هي الاستماع مباشرة إلي آراء القيادة الصينية التي يسيء الآخرون تفسيرها» . ورددت: «السيد الرئيس. إن هذا النوع من الإنجاز لا يقدم ولا يؤخر» .



كان المحاور الوحيد الذي بدا أكثر معقولية بعض الشيء هو جيانج زيمين السكرتير العام للحزب. ومثل لي بينج لم يكن يعتقد أن مذبحة تيانانمين مأساة. وتابع قائلاً: «لكن لا يستطيع القول إنها نعمة» . ولم يكن جيانج معنياً سوي بالثرثرة وقص الحكايات، وصدمني بمثله مثل رفاقه عندما أثرت قضية حقوق الإنسان.

ولم تسفر مباحثات شاقة بالغة الصعوبة علي مدي يومين عن أى نتائج بشأن قضية حقوق الإنسان وهي المعيار السياسى الذهبى للحكم علي نجاح أو فشل الزيارة. كان الصينيون يتبعون استراتيجية الأرض المحروقة. إنهم يتوعدون ويحاجون، ولا يتركون أى مساحة حتي اللحظة الأخيرة. بل وفى بعض الأحيان حتي بعد تلك اللحظة.

وكم تمنيت لو أصدق أن عريكة مضيفى أشداء المراس سوف تلين فى نهاية المطاف، ولكن فى الحقيقة لم يساورنى أى هاجس حقيقى فى أن تلك المباحثات علي وشك الانهيار والاحتراق، وأن العلاقات سوف تشهد مزيداً من التردى نتيجة تعنت الصينيين إضافة إلي الجهود والمخاطرة التى أقدمنا عليها بالقيام بزيارتى.

وأمضيت يومى الثالث والأخير في الصين فى اجتماع مطول مع تشيان وعدد آخر من المسئولين، وبدأت الاجتماع بقراءة رسالة من الرئيس بوش إلي دينج شياو بينج. وطلبت تسليم الرسالة شخصياً إلي دينج لكن طلبى رفض. وكان الرئيس يأمل أن نداءً شخصياً من صديق قديم قد يؤثر فى دينج لكن رفض حكومته أوحي لى بأن الرسالة بادرة غير مجدية. ومع ذلك فقد أصررت علي قراءتها بصوت عال علي أمل أن يقوم أحد الحاضرين بإبلاغ مضمونها إلي دينج.

وما لبثت أن وضعت حداً للمطاردة. وقلت لتشيان: «لم أسمع شيئاً حول قضية حقوق الإنسان. وهي المعيار الذى سيتم الحكم به علي مدي نجاح زيارتى، وآمل أن يكون لديكم شىء هذا الصباح فى هذا المجال».

وما لبث تشيان – الذى انتظر حتي أوشك اجتماعنا علي الانتهاء فى الأجواء الصينية المعتادة – أن بدأ فى تعديد القائمة التى يعتقد أن الجانب الصيني مستعد لتنفيذها. وقال إن الصين مستعدة لتأمين إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية، وسوف توجه الدعوة إلي مؤتمر الحزب للتصديق علي معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية مع نهاية العام. كما أبدي استعداد الصين أيضاً لمراعاة الخطوط العريضة لنظام الرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ MTCR و رفعت الولايات المتحدة عقوبات بعينها مفروضة علي الشركات الصينية. فضلاً عن ذلك فقد تمكنا من التوصل لاتفاقيتين تجاريتين مهمتين يتعلقان بدخول السوق الصينية، وحماية حقوق الملكية الفكرية.

وأخيراً تطرق إلي مسألة حقوق الإنسان. فسوف تسمح الصين بسفر المنشقين الذين أمضوا مدة العقوبة إلي الخارج، وسيتم في القريب إطلاق سراح الذين من أبرز منتقدي النظام. واستعرض حالة ٧٣٣ متظاهراً كنت قد سلمته قائمة بأسمائهم خلال اجتماعنا الأول. وأكد تشيان أنها غير كاملة بالمرة. فلم يتسن التعرف علي ٣٤٠ شخصاً كانت لدينا أسباب قوية تدفع للاعتقاد بأنهم رهن الاحتجاز. ووعد بتبديد القلق القائم حول تسخير السجناء في العمل في الصناعات المخصصة للتصدير، وقبل طلبي بالسماح للدبلوماسيين الأمريكين بزيارة السجون الصينية.



لم يكن انفراجاً حاسماً لكنه تقدم علي أية حال. وأبلغت تشيان أنني أريد التشاور مع فريق العاملين معي. ورفضت عرضه بذهابنا إلي قاعة اجتماعات قريبة افتراضاً بأنها مزروعة بأجهزة التنصت. وبدلاً من ذلك ترجلت مع كبار مساعدي علي درج بيت الضيافة حيث جلسنا تحت الشمس نتدارس خياراتنا.

وفيما بات من الواضح لنا جميعاً أنه ربما تكون قد أحرزنا تقدماً طيباً في قضايا منع انتشار الأسلحة النووية نتيجة اللغة التي أمكننا استخدامها في التفاوض فلم نحرز أي انفراجة في قضية حقوق الإنسان. واقترح بعض العاملين معي ضرورة إنهاء الاجتماع عند هذا الحد، ومغادرة الصين قبل موعد مغادرتنا المقرر بساعتين لإبداء استيائنا، وخلصت إلي ضرورة بقائنا والضغط علي الصينيين حتي وإن كانت احتمالات انتزاع المزيد من تشيان بعيدة.

وقلت: «لقد اتخذنا قراراً بضرورة إبلاغهم بعدم ارتياحنا تجاه حقوق الإنسان فلم يبدل ما فيه الكفاية في هذا المجال، فلم تقدم أي حجة مقنعة، وقررنا أيضاً رفض المطلب الصيني برفع العقوبات مقابل الاتفاق علي نظام للرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ.

وعندما استأنفنا الاجتماع اقترحت علي تشيان تشكيل مجموعات عمل لصياغة بيان حول القضايا الرئيسية مثار الخلاف، وأبلغته أيضاً بأنني أريد أن يكون بوسعي التصريح علانية بأن حوارنا حول قضية حقوق الإنسان سيستمر بعد الاجتماع. وراوغ كما هو متوقع.

وعاودنا الاجتماع بعد ساعتين. وقرأت علي تشيان – كلمة كلمة – الصياغة التي أعدتها مجموعة العمل الأمريكية حتى لا يحدث أي سوء فهم. وأثارت الصياغة الخاصة بنظام الرقابة علي تكنولوجيا الصواريخ مناقشة حامية. وشككت في أن السبب هو: أن الصين وقعت عقوداً مغرية لتزويد باكستان بالصواريخ. وعلي الأرجح فإن عدداً من كبار مسؤولي الحكومة والحزب أو عائلاتهم سيستفيدون من إتمام تلك العقود. فضلاً عن ذلك فإن باكستان القوية تشكل ثقلاً مضاداً للهند التي تشترك في الحدود مع الصين.

وواصل الجانب الصيني محاولة إحداث الثغرات. فقد أصروا علي ضرورة وضع إشارات محددة لسوريا وباكستان وإيران، واعترضوا علي كلمتي «سوف تلتزم» الصين بالخطوط العامة لنظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ وطالبوا بتغييرها إلي «تعتزم أن تلتزم». كان تشيان بإلحاحه صعبنا علي إدراج تعهد أقل حزماً يشي ضمنا بأن مركزاً ما في دوائر الدفاع ربما يراوغ للتملص من هذا الالتزام. (وفي عام ١٩٩٣ فرضت إدارة كلينتون حظراً علي الصين لبيعها صواريخ إلي باكستان في انتهاك لنظام مراقبة تكنولوجيا الصواريخ).

وانتهي الأمر بعد خمس ساعات من بدئه. فبعد ثماني عشرة ساعة من المفاوضات الشاقة علي مدي ثلاثة أيام تم إحراز نتائج تكفي لإنقاذ الزيارة من أن توصم بالفشل. وفي المؤتمر الصحفي الذي عقدته أبرزت موافقة الصين علي استمرار دیك شيفتر مساعد وزير الخارجية لحقوق الإنسان ليواصل حواره مع نظيره الأجنبي. كان نصراً محدوداً، لكنه نصر مهم فهذه هي المرة الأولي التي يوافق فيها الصينيون علي بحث قضايا يعتبرونها من صميم شؤونهم الداخلية باستمرار.

وكانت نتائج الزيارة كافية للابقاء علي العلاقات الثنائية علي قيد الحياة وإجهاض محاولات الكونجرس لاحقاً لحرمان الصين من وضع الدولة الأولي بالرعاية. وبكل معني الكلمة كانت سياستنا ناجحة في تأكيد الواقع: بأنه مهما كانت الهوة بين نظامينا فإن الصين ليست كوبا. فتحقيق المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة يقتضي الارتباط لا العزلة. ولحسن الحظ كان هذا هو الدرس الذي استوعبه خلفاؤنا أخيراً. لكن بعد الدمار الخطير الذي الحقته سياسة التذبذب بمصداقية الولايات المتحدة.

كوريا الشمالية: دبلوماسية الارتباط والمثابرة

ربما كانت جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية الأشد قسوة فى النظام الأول - أكثر النظم الشيوعية الباقية شؤماً فى العالم. وجعلها تصميمها علي تنفيذ برنامج سرى لصناعة الأسلحة النووية قوة أكثر خطورة باعتبارها قوة عسكرية تقليدية مرعبة فى آسيا. ومن المفارقات العجيبة أنه مع تبدد خطر نشوب صراع شامل بإنهاء الحرب الباردة فقد تضخم شبح انتشار الأسلحة النووية لاحقاً فى واحدة من أكثر بؤر عدم الاستقرار فى العالم - شبه الجزيرة الكورية.

وبرغم توقيعها علي معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية كثف الكوريون الشماليون سراً من تطوير أسلحتهم النووية، وبات لدي المفتشين الدوليين وثائق دامغة تثبت ازدواجيتهم فى هذا الصدد. وفى الوقت الذى كان فيه التهديد النووى الكورى الشمالى بعيداً عن الحل، فلم تكن بيونج يانج تتمتع برفاهية مواصلة تحقيق طموحاتها النووية بدون تحد. والفضل فى ذلك إلي حد كبير للدبلوماسية الخفية المكثفة التى مارستها إدارة بوش لإجبار الكوريين الشماليين بعد سنوات من المراوغة علي الوفاء بالالتزامات الدولية بالتوقيع علي اتفاق للأمان النووى مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

وعندما انضمت كوريا الشمالية إلي معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية فى كانون الأول ديسمبر ١٩٨٥ فقد أصبحت ملزمة بتوقيع هذا الاتفاق، والسماح بتفتيش منشآتها النووية فى غضون ثمانية عشراً شهراً. وبعد ثلاث سنوات مع تولى إدارة بوش كان لايزال يتعين عليهم التوقيع علي الاتفاق. وبالتالى وفى أوائل عام ١٩٨٩ تبنينا استراتيجية المسارين للتعامل مع المشكلة. وأمر الرئيس بتكثيف أنشطتنا الاستخبارية لتحديد ما يجرى علي وجه الدقة فى يونجبيون. وفى الوقت نفسه استهدفت دبلوماسيتنا ممارسة ضغط دولى علي كوريا الشمالية لإجبارها علي الوفاء بموافقتها علي التوقيع علي اتفاق للأمان النووى تسمح بإجراء التفتيش.

ولم تكن الولايات المتحدة تتمتع بأدني نفوذ علي نظام كيم إيل سونج، وبالتالى فقد التمسنا العون من حليفى كوريا الشمالية العظميين الاتحاد السوفيتى والصين للضغط علي تلك

الدولة التي تدور في فلكيهما. وأثرت تلك القضية في ثالث اجتماع لي مع إدوارد شيفرنادزة في باريس في ٢٩ تموز يوليو ١٩٨٩. وأبلغت شيفرنادزة أن حكومة الولايات المتحدة تعتقد بأن كوريا الشمالية «ربما» كانت تبني بنية أساسية لبرنامج تسلح نووي قد يدخل حيز التنفيذ في التسعينيات. وطلبت من الاتحاد السوفيتي القيام «بجهد فعال» للضغط علي الكوريين لوقف إعادة معالجة البلوتونيوم، والتوقيع علي اتفاق الأمان النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية. ورد شيفرنادزة: «إننا نعمل في هذه القضية. إنهم ينفون تطوير أسلحة نووية» لكنه وافق علي إجراء مشاورات جديدة رفيعة المستوي لتسوية القضية.



وبعد شهرين وأثناء اجتماعنا الوزاري في ويوميتج كان شيفرنادزة أقل إيجابية. وعندما ألححت عليه مرة أخري قال: «لقد سمعنا شكواكم من قبل. إننا نرفض وقف إرسال أسلحة (تقليدية) إلي كوريا الشمالية مع وجود مثل هذه الحشود الضخمة للقوات الأمريكية في الجنوب» ومع هذا فقد اتفقنا علي أن الاستقرار مسألة تثير قلقاً بالغاً. كما اتفقنا أيضاً علي مواصلة الضغط علي الشمال بشأن اتفاق الأمان النووي.

وعلي مدار عام ١٩٩٠ أثرت الموضوع مع شيفرنادزة في كل اجتماع. كما ألححت علي الصين أيضاً. وأثناء اجتماعي في واشنطن مع وزير الخارجية الصيني تشيان تشيتشين لبحث أزمة الخليج في ٣٠ تشرين الثاني نوفمبر أبلغني تشيان بأن حكومته أثارت القضية «مراراً» مع بيونج يانج التي ترفض بإصرار وجود أي نوايا شريرة*.

ورويداً رويداً بدأت الجهود المتراكمة لدبلوماسيتنا لعزل كوريا الشمالية تؤتي ثمارها مع السوفيت. ففي حزيران يونيو ١٩٩٠ وفي لفتة انتقاد لاذع لحليفة طويل الأمد -كوريا

---

* دأب الصينيون باستمرار علي الدفاع عن نوايا الكوريين الشماليين أكثر من السوفيت، وخلال اجتماعي في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩١ مع رئيس الوزراء لي بونج فقد رفض قلقي، وقال: «أتني مهندس نووي. إنهم لا يملكون القدرة علي القيام بذلك» ومع هذا وفي آخر اجتماعاتي أثناء تلك الزيارة تعهد تشيان بأن حكومته ستواصل الضغط علي كوريا الشمالية للامتثال والتوقيع علي اتفاق الأمان النووي.

الشمالية– اجتمع جورباتشوف مع روه تاي وو رئيس كوريا الجنوبية في سان فرانسيسكو. وبعد ثلاثة أشهر أقام السوفيت علاقات دبلوماسية مع الجنوب. وتعرضت بيونج يانج لضغوط مكثفة، وعندما امتنع الصينيون فيما بعد عن استخدام الفيتو ضد دخول الكوريتين إلي الأمم المتحدة بات من الواضح أن ازدراء كوريا الشمالية لمعايير منع الانتشار النووي يقودها إلي مسار العزلة الدولية.

ومع عام ١٩٩١ كانت الدبلوماسية الأمريكية تتمتع بميزة سلاح سيكولوجي قوي جديد. وهو نصرنا الكاسح في حرب الخليج. ودفعهم الاستعراض الرهيب الذي قدمته القوة العسكرية الأمريكية خلال عملية عاصفة الصحراء إلي التوقف. فقد رأوا بطريقة جلية لالبس فيها ما فعلته التكنولوجيا الأمريكية، وماذا يمكن أن تفعله بهم لو استدعي الأمر. فكوريا الشمالية نظام تأسس علي القوة واستخدام بها. فهم لا يفهمون غير ذلك. وعمل هذا الواقع لمصلحتنا هذه المرة. فلو استمروا في التصرف كنظام خارج علي القانون فسوف يخشون في لحظة من اللحظات من احتمال الدخول في مواجهة حتمية مع الولايات المتحدة. وفجأة تمتعنا بمصداقية مهمة مع بلد لا نقيم معه علاقات دبلوماسية.

وفي الوقت ذاته أعطت خبرتنا في الخليج زخماً جديداً لهجومنا الدبلوماسي. فبعد حرب الخليج بات من الواضح أن برامج العراق النووية والكيماوية والبيولوجية أكثر تقدماً عما كانت المخابرات الغربية تتصوره في السابق. ونتيجة لهذا كثفنا المراقبة الأمريكية لمجمع يونجبيون النووي لمحاولة وتحديد ما يجري علي وجه الدقة. وبينما لم يصل الأمر إلي حد دراسة توجيه ضربة عسكرية إلي المنشآت النووية الكورية الشمالية فقد قامت وزارة الدفاع الأمريكية مع ذلك بمراجعة خطط الطوارئ القائمة لشن مثل هذا الهجوم باستخدام صواريخ كروز التي أثبتت أداءً رائعاً في الخليج.



وكانت استراتيجية الدبلوماسية الأمريكية تجاه كوريا الشمالية خلال تلك الفترة تمثل انعكاساً – بحكم تصميمها – لما فعلناه أثناء عملية درع الصحراء. وكما حدث في الخليج بدأنا

في حشد تحالف دولي للضغط من أجل التوصل إلي تسوية سلمية ملوحين في الوقت نفسه بشبح فرض عقوبات من جانب الأمم المتحدة إذا لم تجد الدبلوماسية نفعاً، وعندما تفشل كل الجهود فسوف يسمح لنا بأن تتحدث قوتنا التي ظهرت في الخليج مع بيونج يانج.

وفي الوقت ذاته كانت سياستنا تقدم الترهيب مع شيء من الترغيب المهم. ففي أيلول سبتمبر ١٩٩١ طرح الرئيس بوش اقتراحه بفرض حظر علي كافة الأسلحة النووية التكتيكية في مختلف أنحاء العالم، واتساقاً مع هذا القرار أعلنا في ٢٣تشرين الأول أكتوبر أنه سيتم إزالة كافة الأسلحة النووية الأمريكية من كوريا الجنوبية بحلول شهر نيسان.إبريل١٩٩٢. وبعد ذلك سحبت أول دفعة من تلك الأسلحة، وفجأة تبخر الأساس الراسخ لبيونج يانج لتوفير رادع نووي ضد أي هجوم من الجنوب.

واضطر هذا التطور كوريا الشمالية إلي الشروع في إجراء مباحثات مع سول. وهو ما بدا في حينه أنه خطوة أولي باتجاه التطبيع. وفي كانون الأول ديسمبر ١٩٩١ وقعت الكوريتان اتفاقيات تتعهدان فيها بالتعايش السلمي، وتؤكدان ضرورة إخلاء شبه الجزيرة الكورية من الأسلحة النووية. وفي ٢٦ كانون الأول ديسمبر ١٩٩١ وافقت كوريا الشمالية علي التوقيع علي اتفاق الأمان النووي مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية، والسماح لمفتشيها بدخول مجمع يونجبيون وهكذا تمكنت الدبلوماسية الأمريكية مباشرة من إزالة ست سنوات من العناد الكوري الشمالي. وفي كانون الثاني يناير ١٩٩٢ اجتمع مسئولون كوريون شماليون مع مسئولين أمريكيين كبار للمرة الأولي منذ أربعين عاماً في الأمم المتحدة. ورأس الوفد الأمريكي أرنولد كانتر وكيل الوزارة الجديد للشئون السياسية، وأوضح كانتر أنه ليس أمام بيونج يانج سوي خيار واحد: هو الامتثال للاتفاقيات الدولية التي وقعتها لتوها، وإلا فسوف تواجه مزيداً من العزلة. إضافة إلي المعاناة الاقتصادية.

وأفصحت الأحداث اللاحقة عن عنصر آخر في عملية اتخاذ القرار في بيونج يانج. إنهم يعتقدون بوضوح أن بوسعهم التمويه علي حجم برنامجهم ويخدعون المجتمع الدولي بدفعه للاعتقاد ببراءة نواياهم. وأثبت هذا أنه خطأ كبير في الحسابات.

وكجزء من نظام الوكالة الدولية للطاقة الذرية فإن كوريا الشمالية ملزمة بتقديم سجل مكتوب عن برنامجها النووي. فهذا التقرير يزود الخبراء الفنيين بمعلومات جديدة لمقارنتها

بتحليلات الاستخبارات السابقة. وسرعان ما كشف هذا المسح أن كوريا الشمالية تخفي الحجم الحقيقي لبرنامجها النووي. وتوصل مفتشو الوكالة الدولية للطاقة الذرية إلي نفس النتيجة علي الفور. فقد أوضحت فحوصات أجريت علي المواد التي قدمت لهم أن الكوريين الشماليين عالجوا كمية أكبر من البلوتونيوم تفوق ما اعترفوا به.

وفي غضون نفس تلك الفترة اكتشفت الأقمار الصناعية وجود منشأتين مشتبه فيهما لم تدرج علي القوائم المدرجة بالوثائق التي قُدِّمَتْ إلي المفتشين. كان أحد الموقعين مبنى دفنه الكوريون الشماليون بسرعة بالغة تحت أطنان الأتربة وزرعت به أشجار حديثة العهد واكتشفت الاستخبارات الأمريكية بسهولة وجود هذا «الجسم».

وكان أحد آخر أعمال إدارة بوش في كانون يناير ١٩٩٣هي تقديم صور الأقمار الصناعية الخاصة بهذه المنشأة إلي الوكالة الدولية للطاقة الذرية. لأن هناك أسباباً قوية تدعو إلي الاعتقاد بأنها استخدمت لإخفاء النفايات النووية. وفي ذلك الشهر أيضاً أعلنت الوكالة الدولية للطاقة الذرية أن عينات البلوتونيوم تشير إلي تحويل البلوتونيوم الذي يستخدم في صنع الأسلحة النووية سراً عندما أغلقت كوريا الشمالية مفاعلها النووي عام ١٩٨٩ وبعد أربعة أعوام ونتيجة مباشرة للجهود الأمريكية تكشفت ازدواجية كوريا الشمالية*.

● ظل الوضع متأزماً بين المجتمع الدولي ويتفاوض مع كوريا الشمالية للسماح بإجراء تفتيش لموقعين يدور حولهما النزاع. وحينئذ، وفي ضوء تهديدات كوريا الشمالية بالانسحاب من معاهدة انتشار الأسلحة النووية أبرمت إدارة كلينتون اتفاق عام ١٩٩٤ مع كوريا الشمالية. لم تستمر سياسة الترهيب والترغيب، وأصبحت سياسة ترغيب فقط أسفرت عن تقديم موارد للطاقة لمساعدة اقتصاد كوريا الشمالية المحاصر ومفاعلين جديدين وعلاقات دبلوماسية. فضلاً عن ذلك منحت بيونج يانج مهلة خمسة أعوام أخرى لتنفيذ ما تعهدت به عام ١٩٩١ – أي السماح بتفتيش كامل لمنشآتها النووية. كان هذا الاتفاق اتفاقاً سياسياً ملائماً، وسيؤكد في نهاية الأمر في اعتقادي أنه خطأ سيجعل الاستقرار في شبه الجزيرة الكورية أقل احتمالاً.

وكنت آمل أن أكون علي خطأ في اعتقادي وأن يكون لدي المعتقدين الالتزام باقتراح نهج بديل. وبدلاً من الرضوخ لتهديدات بيونج يانج المتعلقة بالحرب أعتقد أنه كان علي الولايات المتحدة التوجه إلي مجلس الأمن لاستصدار قرارات بفرض عقوبات اقتصادية علي كوريا الشمالية لانتهاكها التزاماتها الدولية المؤكدة تماماً كما فعلنا ضد العراق (وفي اعتقادي واستناداً إلي محادثاتي معهم لم يكن الصينيون ليستخدموا الفيتو ضد عقوبات تفرضها الأمم المتحدة ضد كوريا الشمالية لأنهم يعترضون علي وجود قوة نووية في شبه الجزيرة الكورية). وكذلك تعزيز قواتنا في كوريا الجنوبية إلي أي حد نعتبره ضرورياً. وإشعار كوريا الشمالية بوضوح أنه علي مدي أكثر من أربعين عاماً حافظ الردع النووي علي السلام في أوربا أمام التفوق السوفيتي –

أنجولا : انهاء الحرب الباردة فى أفريقيا

مع بداية إدارة بوش بدأت الحرب السوفيتية الأمريكية غير المباشرة فى أنجولا تظهر مؤشرات الوهن والإنهاك. فمنذ عام ١٩٧٥ شن الاتحاد الوطنى لاستقلال أنجولا التام (يونيتا) Unita بزعامة يوناس سافيمبى بتأييد من إدارة ريجان وكثير من أعضاء الكونجرس اليمينين حرب عصابات ضد حكومة أنجولا الماركسية برئاسة خوسيه إدواردو دوس سانتوس وحركته الشعبية لتحرير أنجولا MPLA وحظيت حكومة دوس سانتوس بتأييد سوفيتى شامل تضمن أكثر من ألف خبير عسكرى ونحو خمسين ألف جندى كوبى متمركزين فى المستعمرة البرتغالية السابقة. وحظى سافيمبى بمعونة سرية أمريكية تقدر بملايين الدولارات وبمساعدة جنوب أفريقيا.

كان الصراع فى أنجولا صراعاً قد ضخّمه خبراء الاستراتيجية على مدار نحو عقدين من الزمان ليصبح عماداً لتنافس الحرب الباردة. ومع ذلك فقد كنت أعتبر أنجولا شأن أمريكا الوسطى قضية إقليمية يتعين تسويتها فى إطار عملية صياغة علاقة تعاون استراتيجى مع السوفيت. وبينما كانت تلك المواجهة مفهومة فى زمن سابق فلم يكن لدى القوى العظمى عام ١٩٨٩ أى أسباب مقنعة للتدرج فى هذا الصراع. فقد كان هذا وقت التحرك لمعالجة القضايا الأكثر إلحاحاً، وكانت الحرب الأهلية فى أنجولا مهيأة للحل.

ففى كانون الأول ديسمبر ١٩٨٨ وُقِّعَتْ فى نيويورك اتفاقية سلام بوساطة أمريكية تضمن استقلال ناميبيا. وبمقتضى بنود الاتفاقية وافقت كوبا على سحب قواتها من أنجولا. بينما تعهدت جنوب أفريقيا بسحب قواتها من ناميبيا. ونتيجة لذلك تملكنى اعتقاد بأنه ربما كان هناك طريق لإحلال سلام فى أنجولا يتقبله سافيمبى، وكنت أحث إدوارد شيفرنادزة فى

السابق فى الأسلحة التقليدية، وأننا مستعدون تماماً لعمل الشىء ذاته فى شبه الجزيرة الكورية الوفاء بالتزاماتنا الأمنية تجاه كوريا الجنوبية واليابان

وفى صوره سجليم كان هناك سبب جوهرى يدفع التساؤل عما إذا كان الكوريون الشماليون سيستخدمون القلق الخاص بهم فى الاتفاق الحالى، والشق الأسوأ فيه هو أن رسالة خطيرة وجهت إلى الساعين لامتلاك أسلحة نووية فى عواصم مثل طهران وطرابلس وبغداد بأن الجريمة تؤتى ثمارها.

كل اجتماع عقدناه عامى ١٩٨٩، ١٩٩٠ علي الانضمام لنا في تأييد مفاوضات سلام يمكن أن تؤدى إلي إقرار تسوية مقبولة فى أنجولا. ولم يتعهد بأى التزام رسمى. لكن صراحته المعهودة عن تردى أوضاع الاقتصاد السوفيتى أقنعتنى بأن ميخائيل جورباتشوف قد يبحث عن مخرج لهذه الورطة الإقليمية. وعزز اعتقادى تقارير الاستخبارات بأن المساعدة السوفيتية لأنجولا تقلصت إلي النصف تقريباً عام ١٩٨٩ رغم أنها لاتزال مساعدة مؤثرة.

ولسوء الحظ فإن السوفيت وعميلهم الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA باتـوا يعتقدون أن انسحاب قوات جنوب أفريقيا بموجب الاتفاق يهيئ لهم فرصة أخيرة لتحقيق نصر عسكرى. وفى كانون الأول ديسمبر١٩٨٩ شنت الحركة الشعبية لتحرير أنجولا هجوماً شاملاً لسحق حركة يونيتا مرة واحدة وللأبد. وساعدت معونة عسكرية أمريكية عاجلة شملت صواريخ ستينجر الحرارية المحمولة علي الكتف – قوات سافيمبى فى صد هجوم الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA. وفيما بعد اتضح أنه ليس بوسع أى جانب تحقيق نصر عسكرى. وخلال اجتماعاتى فى آذار مارس مع دوس سانتوس فى ناميبيا ومع سافيمبى فى زائير حثثتهما علي الاعتراف باستفحال الأزمة والدخول فى مفاوضات سلام.



وأثناء اجتماعاتى الوزارية فى كانون الأول ديسمبر١٩٩٠ مع شيفرنادزة فى هيوستون كانت أنجولا موضوعاً رئيسياً فى المناقشات. وأوضح التقدم المتشائم الذى أشار إليه هانك كوهين مساعد وزير الخارجية الأمريكي للشؤون الأفريقية أن الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ويونيتا ليستا علي استعداد لتقديم أى تنازلات من أجل السلام. وعندما سألته عما إذا كان لديه أية أفكار حول كيفية المضى قدماً فاجأنتى إجابة شيفرنادزة بقوله: «إن هؤلاء الرجال لا يمكنهم أن يأخذوا الأمر علي عاتقهم فى المفاوضات. إننا فى حاجة لإعطائهم دفعة» واقترح أن يلتقى كوهين ونظيره السوفيتى لبضع ساعات لإعداد الخطوط العريضة لتصور إطار عام لاتفاقية سلام. وأضاف: «حينئذ سنكون فى حاجة إلي جمع كل الأطراف وإقناعهم بها».

وفى البداية كنت أشك فى قدرتنا علي التوسط فى إتفاق تكون فيه الأطراف الرئيسية المتحـاربة أطرافاً ثانوية فى المفاوضـات. ومع هذا وأثناء تحدثنا أقنعني شيفـرنادزة بأن السوفيت مستعدون لممارسة نفوذهم علي الحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA لإجبارهم علي الجلوس إلي مائدة المفاوضات، وكنت أعرف أن بوسعنا أن نفعل الشيء ذاته مع حركة يونيتا. ونصت الوثيقة التى أعدها كروكر والسوفيت بين بنودها علي وقف إطلاق النار، وضمانات بحماية الحقوق السياسية ليونيتا، وجدول زمنى لإجراء انتخابات حرة. ومع ذلك كان أهم ما فى الوثيقة هو ما أصبح يعرف بصيغة الأصفار الثلاثة. ويقضى اتفاق السلام بضرورة توقف الولايات المتحدة عن تقديم المعونة العسكرية لسافيمبى، وأن يوقف السوفيت معونتهم للحركة الشعبية لتحرير أنجولا MPLA. فضلاً عن ذلك سوف نعلن علانية حظراً علي شحنات الأسلحة لكلا الجانبين من أى طرف خارجى، وذلك فى إشارة مستترة إلي جنوب أفريقيا. فبدون المساعدة العسكرية فمن المؤكد أن أيا من الطرفين لن يستطيع تحقيق نصر عسكرى، وسرعان ما سيعترف كلينا بهذا الواقع.

وبعد الاتفاق علي بنود الإطار العام للاتفاق فى ١١ كانون الأول ديسمبر رتبنا علي عجل اجتماعاً فى واشنطن بعد يومين بين مندوبين أمريكيين وسوفيت وبرتغاليين والحركة الشعبية لتحرير أنجولا ويونيتا. ولإظهار تصميمنا علي ممارسة قيادتنا باصطلاحات قاطعة الدلالة اجتمع شيفرنادزة مع سافيمبى، واجتمعت مع وزير خارجية أنجولا بيدرو كاسترو فان دونيم. كانت رسالتانا متطابقتين وفى غاية الوضوح. وهي أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى علي استعداد تام لوقف شحنات الأسلحة لعميليهما منذ أمد بعيد.

وأتى تدخل القوي العظمي بأثره المتوقع. ففى الأول من آيار مايو ١٩٩١ وفى أعقاب عدة أسابيع من المفاوضات فى البرتغال توصلت يونيتا والحركة الشعبية لتحرير أنجولا إلي اتفاق حول معاهدة السلام، وبدأ وقف فعلي لإطلاق النار بعد أسبوعين تبعه انسحاب لآخر جندى كوبى يوم ٢٥ آيار مايو. وبعد ستة أيام سرنى أن أشهد مراسم توقيع سافيمبى ودوس سانتوس علي اتفاقية السلام. وقبيل مراسم التوقيع عقدت اجتماعاً خاصاً مع سافيمبى لطمأنته بالتزام الولايات المتحدة الثابت باستمرار المساعدات غيرالعسكرية ليونيتا، وأنها ستعترف بالحكومة الأنجولية التى تسفر عنها الانتخابات المقرر إجراؤها عام ١٩٩٢.

وأجريت الانتخابات في موعدها المقرر، وأشارت معظم الروايات إلي أنها كانت نزيهة. ومع ذلك ادعى سافيمبي بعد أربعة أيام أنها كانت مزورة. وفي ١١ تشرين الأول أكتوبر استونف القتال في أنجولا مما سبب الكثير من الإحباط. وتفاوضت الأمم المتحدة على وقف لإطلاق نار في تشرين الثاني نوفمبر لم يصمد إلا لأربعة أسابيع. وفي كانون الأول ديسمبر ١٩٩٢ وافقت يونيتا علي احترام وقف إطلاق النار، وخيم سلام غير مستقر على هذا البلد الذي مزقته الحرب. ولم يعمر طويلاً فلم يلبث الألم والمعاناة لسوء الحظ.

ومع هذا فلم يعد الصراع الأنجولي حربا غير مباشرة. علي الأقل فقد انتهت الحرب الباردة في أفريقيا. وعقب التوقيع علي اتفاق آخر لوقف إطلاق النار وقعت اتفاقية جديدة للسلام في تشرين الثاني نوفمبر١٩٩٤ . وبمساعدة عدة آلاف من خبراء الأمم المتحدة صمد وقف إطلاق النار، وتم الاتفاق علي تشكيل حكومة مصالحة وطنية.

هاييتي: خذ ما تمنحه لك الديمقراطية

طالما تحدث جورج بوش عن آمالنا العريضة في إقامة أول ديمقراطية كاملة في الأمريكتين. لكن هاييتي المأساوية الصغيرة كانت استثناءً صارخاً. فعندما توجه الهاييتيون إلي صناديق الاقتراع عام ١٩٨٧ لانتخاب رئيس البلاد لقي أكثر من أربعين شخصاً مصرعهم في صراع أعمال عنف سياسي. وعندما أرغم اللفتنانت جنرال بروسبر أفريل ديكتاتور هاييتي عن التحرك قدماً في إجراء انتخابات جديدة عام ١٩٨٩ انتهزنا فرصة محاولة انقلابية ضده بين صفوف الجيش للضغط عليه للرحيل. وقدمنا دعماً قوياً، ووفرنا الموارد لإجراء العملية الانتخابية، وحثثنا منظمة الدول الأمريكية والأمم المتحدة والرابطة الوطنية للديمقراطية علي إيفاد أكبر عدد ممكن من المراقبين الدوليين. وكانت انتخابات عام ١٩٩٠ أكثر انتخابات يشهدها تاريخ هاييتي حرية وهدوءً. وكان الفائز جان برتراند اريستيد الذي يستمد شهرته من عدائه لأمريكا. ومع هذا كانت الولايات المتحدة أول حكومة في العالم تعترف به وقدمت إدارتنا مزيدا من المعلومات لهاييتي عقب انتخابه أكثر مما حصلت عليه كافة حكومات العالم مجتمعة.

وعندما أطاح انقلاب عسكري بأريستيد في ٣٠ أيلول سبتمبر عام ١٩٩١ قرر الرئيس علي الفور وقف المساعدة الأمريكية. وبعد يومين ألقيت كلمة أمام اجتماع طارئ لمنظمة الدول الأمريكية في واشنطن. وقلت لزملائي وزراء خارجية المنظمة: «إننا لا نعترف ولن نعترف بهذا النظام الخارج علي القانون، وإلي أن تعود حكومة أريستيد فسوف يعامل المجلس العسكري كالمنبوذ في الأمريكتين. وسيعيش بدون معونة وبدون أصدقاء وبدون مستقبل. وبإلحاح من الولايات المتحدة تبنت منظمة الدول الأمريكية بالإجماع قراراً بفرض أول حظر تجاري في هذا الجزء من العالم ضد الانقلابيين.

وكان البعض في إدارتنا يعتقد أنه سيكون من الأوقع تأييد عودة الديمقراطية إلي هايتي علي أن ننأى بسياستنا عن أريستيد نفسه. هذا الزعيم الذي تختلط سمعته وسجله. كانت تنتابنا جميعاً مشاعر قلق حول سلوكه الغريب. وتركت تجربتنا في التعامل معه خلال الأشهر الثماني التي أمضاها في السلطة وبعد الانقلاب لدينا مشاعر بأنه شخصية ضعيفة.

وفي الوقت ذاته لم يدر أي جدل جوهري حول استبعاد أريستيد من السياسة الأمريكية كان موقفي في غاية البساطة: إذا كنت تريد الديمقراطية فعليك بتأييد ما تجلبه لك طالما أن العملية حرة ونزيهة وأن الفائزين لم يطعم في المقام الأول استغلال العملية للوثوب إلي السلطة ثم ما يلبثوا أن يدمروا الديمقراطية بإقامة حكم ديكتاتوري. وبفوزه الساحق بنسبة ٦٧ في المائة فقد جسد أريستيد المفهوم الديمقراطي في الخير وفي الشر، حتي وإن جاز القول أنه هو نفسه أبعد ما يكون عن التجسيد المثالي للمفهوم الديمقراطي.



فضلاً عن هذا كنت أعتقد أن القضية أكبر من ذلك. إنها الأمريكتين التي نعيش فيهما وليست هايتي فحسب بكل بساطة. لقد كانت مسيرة الديمقراطية تتحرك في الأمريكتين رغم أنها عملية هشة قابلة للعدول عنها، فلو سمح لانقلاب هايتي بالنجاح لكانت سلسلة من ردود الأفعال قد اجتاحت المنطقة بكل سهولة. وكان من المتوقع أن تصبح هايتي درساً مستخلصاً

لسياستنا – المثال الاستثنائي الوحيد بأن حكومة الولايات المتحدة غير مستعدة للسماح بنجاح انقلابات أخري. وكان من الضروري صدور رد قاطع بالغ الوضوح. ففي حزيران يونيو ١٩٩١أي قبل ثلاثة أشهر فقط من الانقلاب صوت كافة أعضاء منظمة الدول الأمريكية علي اقتراح قدمته إدارتنا يقضي بالتزامهم بالرد الجماعي من خلال المنظمة علي أي تهديد تتعرض له الديمقراطية في أي بلد عضو. فقد شكل «إعلان سانتيا جو» – كما بات معروفاً – تغييراً سياسياً جذرياً في الأمريكتين. ورفضت دول أمريكا اللاتينية والكاريبي التي استوعبت إخفاق منظمة الدول الأمريكية مبدأ عدم التدخل وألزمت ديمقراطيتنا في الأمريكتين بالدفاع الجماعي عن الحرية.

كانت هايتي أول حالة اختبار لهذا الالتزام. وكان الطامحون لتدبير انقلابات يتابعون ردنا عن كثب. فلو اخفقت الولايات المتحدة ومنظمة الدول الأمريكية في فرض عقوبات صارمة فسوف ينتهي هذا الالتزام إلي مجرد تهديد أجوف لاقيمة له، وسوف يتجرأ آخرون للإطاحة بالحكومة الديمقراطية. وبدلاً من ذلك وبموجب إعلان سانتياجو ضغطت منظمة الدول الأمريكية علي رئيس بيرو البرتو فوجيموري للدعوة لإجراء انتخابات جديدة في بيرو عقب قراره بحل برلمان بيرو في نيسان إبريل ١٩٩١ كما نجحت أيضاً في واقعة مماثلة مع رئيس جواتيمالا جورج إيلياس سيرانو.

وكانت إدارة بوش تعتقد أن هناك مصلحة قومية في إعادة الديمقراطية إلي هايتي لكن ليس هناك أي سبب جوهري يستدعي استخدام القوة العسكرية (عندما لا يكون أمن بلدنا ومواطنينا عرضة للخطر) . وهكذا فلم ندرس بجدية إمكانية استخدام القوة العسكرية لإعادة أريستيد إلي السلطة. فمن وجهة نظرنا لم تكن المصلحة القومية الأمريكية تقتضي بوضوح المغامرة بأرواح الجنود الأمريكيين وإنفاق مليارات الدولارات في غزو عسكري واحتلال شامل علمنا التاريخ أنه لا يمكن حدوثه إلا باحتلال مطول وهو ما يدركه حلفاؤنا.

السلفادور: صنع السلام

بالرغم من أن تركيزنا المبدئي علي سياستنا حيال أمريكا الوسطي يتمثل في تأييد إجراء انتخابات ديمقراطية في نيكاراجوا، فقد كنا نعتقد أن الفرصة تلوح أمامنا لإنهاء

الحرب. وفى الواقع كنا نعتقد أن إقامة الديمقراطية فى نيكاراجوا سيعزز احتمالات إقرار السلام فى السلفادور. ومنذ البداية قمنا فرص توجيه إشارة علي تأييدنا للتوصل إلي تسوية من خلال التفاوض، ولاسيما تسوية تكون مرتبطة بإجراء الانتخابات وإقامة الديمقراطية. وعندما طرح المقاتلون الماركسيون المناوئون للحكومة جبهة فارابوندو مارتى اقتراحاً فى شباط فبراير ١٩٨٩ بتأجيل الانتخابات الرئاسية لمدة ستة أشهر علقت علانية بأن الاقتراح «جدير بدراسة جادة» ورغم عدم إقرار هذا الاقتراح فقد فاجأ الرئيس المنتخب حديثاً ألفريد كريستيانى المراقبين بقوله فى كلمة تنصيبه بأن أولويته القصوي هي إنهاء الحرب بالتوصل إلي تسوية عن طريق التفاوض.

وكان الهجوم الشامل الذى شنته فارابوندو مارتى المناوئة للحكومة علي سان سلفادور فى تشرين الثانى نوفمبر ١٩٨٩ رغم الهزيمة العسكرية للمقاتلين من عدة زوايا محفزاً علي إجراء المفاوضات. فمن ناحية فقد قضي علي أية أوهام بين المقاتلين بأن السكان المدنيين علي استعداد لمتابعة دعوتهم. لكنه بدد أيضاً آمال الجيش بأن المقاتلين قوة مستهلكة، وأن الحرب سرعان ما ستنتهى عن طريق الاستنزاف. وأخيراً فإن القتل الوحشي لقساوسة يسوعيين علي يد عناصر فى القوات المسلحة فى الأيام الأخيرة للهجوم دفع الكونجرس الأمريكى – كما لم يحدث من قبل – لتهديد حكومة السلفادور بقطع المعونة العسكرية.

وكان الإبحار عبر هذه التيارات أمراً غاية فى الصعوبة. فمن ناحية كان علينا توجيه إشارة إلي الجيش بأن عليهم تأييد التوصل إلي تسوية سلمية من خلال التفاوض وتطهير صفوفه من منتهكى حقوق الإنسان أو المقامرة بخسارة تأييد الولايات المتحدة، ومن ناحية أخري كان علينا إقناع الفصائل المتشددة بين المقاتلين بأنه إذا ما استمرت الحرب فلن تتخلي الولايات المتحدة عن السلفادور. ولتوجيه رسائل مختلفة عملنا بتنسيق تام مع المكسيك وفنزويلا وأسبانيا وكولومبيا، وهي الدول التى رشحها بطرس بطرس غالى السكرتير العام للأمم المتحدة لتكون «أصدقاء» فى عملية السلام. وبدأنا أيضاً حواراً مع فصائل فارابوندو مارتى التى اعتقدنا بأنها أكثر التزاماً بالمفاوضات. وكما حدث بشأن نيكاراجوا انضم الاتحاد السوفيتى إلي الولايات المتحدة فى دعم المفاوضات بقوة.

وعملنا سوياً من وراء الكواليس مع كافة الأطراف للترويج لاتفاقيات ملموسة بين الحكومة والجبهة، وشكلت الثقة وحسن النوايا التي هيأها الإجماع العام غير الحزبي حول أمريكا الوسطي والانتخابات الناجحة في نيكاراجوا أمراً هاماً مختلفاً. ففي اللحظات الحاسمة في عملية السلام حثثنا أبرز الرموز الديمقراطية في الكونجرس علي منحنا المساحة اللازمة التي نحتاجها لاستمرار تحريك عملية التفاوض وردوا بإيجابية.

وحدث الكثير من التطورات المفاجئة والانعطافات في العملية. لكن الزخم من أجل السلام تواصل ببطء ولكن بإطراد. وكان أحد أهم اللحظات الباعثة علي الارتياح لي كوزير للخارجية هو المشاركة في كانون الثاني يناير ١٩٩٢ بمكسيكوسيتي في التوقيع علي اتفاقات سلام بين الرئيس كريستاني وزعماء فارابوندو مارتي. كان إقرار السلام في السلفادور نصراً لكافة الأطراف. فقد وافق المقاتلون علي إلقاء أسلحتهم والمشاركة في العملية الديمقراطية، وتم النص أيضاً علي إجراء إصلاحات بعيدة المدي في الجيش والقضاء والنظام السياسي والإصلاح الزراعي. وأهم ما مس مشاعري هو أنني شهدت بداية مصالحة وطنية حقيقية بين السلفادوريين الذين تقاتلوا لأكثر من عقد من الزمان في أكثر الحروب الأهلية دموية وضراوة في أمريكا اللاتينية.

الدبلوماسية الاقتصادية: إرساء أساس جديد

عندما كلفني جورج بوش بتولي وزارة الخارجية كنت متيقناً أن الشؤون الاقتصادية الدولية ستكون جانباً مهماً من مهام منصبي.. جانب أشعر أنني مؤهل له تماماً بكل تأكيد. وكوزير للخزانة أمضيت نحو أربعة أعوام أتناول قضايا متفاوتة مثل العمل لوضع اتفاق تجارة حرة مع كندا، أو العمل مع أبرز الشركاء التجاريين لضبط فوضي عالم أسعار الصرف.

ولي شرف خاص بعرض اقتراح بضرورة توسيع مجموعة الدول الخمس الصناعية المتقدمة لتصبح مجموعة السبع بضم إيطاليا وكندا، ثم تعزيز روح التعاون الفعال بين مجموعة السبع. وفيما يتعلق بالاقتصاد الدولي فإنني أعرف القضايا والأطراف.

وأقنعتني خبرتي في وزارة الخزانة بأن القوة العسكرية والدبلوماسية العسكرية للولايات المتحدة مرتبطة كلية بالميزان الدقيق للحيوية الاقتصادية – بعبارة أخرى فإن قوة بلادنا تنبع من قوتها الاقتصادية. ولم تحظ أهمية هذا المبدأ دائماً باعتراف صناع السياسة الأمريكيين. وطالما تابعت خلال عملي العام السابق المرة تلو الأخرى كيف يُضحى بالقضايا الاقتصادية مقابل كسب في السياسة الخارجية، وفي أول كلمة لي لموظفي الخارجية في نيسان إبريل ١٩٨٩ لفتُ الاهتمام إلي هذه الممارسة، واقترحت ضرورة التخلي عنها. وبعد فترة وجيزة أخطرت مكاتبنا في الخارج بهذا الصدد. وعقدت العزم علي أن الدبلوماسية الاقتصادية لن تلقي هذا الإغفال بعد الآن*.

تطورت حقبة التسعينات لتكون حقبة الفرص والمغامرات الاقتصادية، وكان الاعتماد المتبادل يربط اقتصادنا المحلي حتماً بالعالم الخارجي. وكان التنافس الاقتصادي بين الولايات المتحدة وحلفائها التقليديين في غرب أوروبا واليابان علي أشده. وهو اتجاه تصاعدت قوته مع انقضاء التهديد السوفيتي المشترك. وأصبحت «نمور» شرق آسيا كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وهونج كونج تنمو بسرعة رهيبة. بل إن جمهورية الصين الشعبية تتحول إلي عملاق اقتصادي من زاويتها الخاصة. وحتي أمريكا اللاتينية التي رزحت تحت عبء ديون مرهقة وسياسات تدمير الذات لعشرات السنين تظهر مؤشرات عن الانتعاش الاقتصادي. فأفكار السوق الحرة تجتاح العالم. فوزراء المالية ومحافظو البنوك المركزية في كل مكان يتخلون عن نظريات كارل ماركس، ويزيلون الغبار عن نظريات آدم سميث.



باختصار فإن ثورتي الاستراتيجية خلال تولي لوزارة الخارجية قد رافقتها ثورة اقتصادية. وكانت رهاناتنا شاسعة وعريقة. فكل الرهانات مفتوحة علي ما يبدو لكن أين وكيف سنصنع رهاناتنا الجديدة؟

* وأوضحت في ذلك اللقاء أيضاً أنه في الوقت الذي اعتقد أن لوزارة الخارجية دوراً هاماً في السياسة الاقتصادية الدولية فإن الوكالة الرائدة في هذا المجال يتعين أن تكون هي وزارة الخزانة تماماً كما كانت عندما كنت وزيراً للخزانة

كانت (أين) أكثر وضوحاً عن (كيف) فأوروبا الغربية وشرق آسيا أكثر حيوية: فاقتصادنا واقتصاد المنطقتين ينتج ثلاثة أرباع إنتاج العالم. كما أن أمريكا اللاتينية تشكل أولوية واضحة فهي قريبة من الناحية الجغرافية يسكنها نحو ٤٥٠ مليون نسمة، وهي تمثل بفضل الإصلاحات السياسية والاقتصادية التى تترسخ فى أنحاء القارة سوق جذب متزايد للسلع والخدمات والاستثمارات الأمريكية.

ولكن كيف؟ وبالتأكيد فإن الجهود الثنائية مع شركائنا التجاريين ستكون جزءاً مهماً من استراتيجيتنا. وبالفعل وخلال تولىَّ وزارة الخارجية تفاوضت الولايات المتحدة لإبرام عشرات الاتفاقيات الثنائية لتحرير التجارة الثنائية والاستثمارات. وكان من الحيوى أيضاً أن نستكمل المفاوضات التى بدأت فى فترة ولاية ريجان الثانية للتوصل إلي اتفاقية جديدة للتجارة متعددة الأطراف فى إطار الجات. فمزيد من التحرر الاقتصادى بكل وضوح سيفيد الولايات المتحدة أكبر مصدر فى العالم. لكن كان هناك سبب ملح آخر للضغط للتوصل إلي اتفاق فى الجات. وهو احتمال انشطار العالم إلي تكتلات تجارية إقليمية. مع تصدر المجموعة الأوروبية المقدمة. والجات وحدها هي الكفيلة بضمان أن التجمعات الأقليمية لن تستبعد غير الأعضاء بما فى ذلك الولايات المتحدة.

وكنت علي اقتناع أيضاً بأن بوسعنا تحقيق مصالحنا الاقتصادية من خلال تبنى استراتيجيات إقليمية مبتكرة. وسوف تؤدى الاتفاقيات الإقليمية إلي نتائج باهرة من ناحية فتح الأسواق أمام السلع والخدمات الأمريكية عن المفاوضات الثنائية. فبإمكانها تحقيق المصالح الأمريكية فى منطقة ما عن طريق تواجدنا وتعزيز نفوذنا ويوسعها كذلك المساهمة في وضع الإطار المؤسسي لتعاون اقتصادى مستمر. وتظهر القضايا وتختفى لكن المؤسسات تبقي ملازمة.

كان جيل العظماء من الزعماء الأمريكين الذين حددوا مسار السياسة الأمريكية ما بعد الحرب العالمية الثانية فى أواخر الأربعينات علي قدر كبير من المعرفة والحكمة فزعيمان مثل ترومان وأتشيسون كانا سباقان رغم أننا أحياناً ما ننسي أنهما بناة المؤسسات. فقد أسسا حلف شمال الأطلنطى والمؤسسات الأمنية الأخري التى تمكنت من الفوز فى الحرب الباردة فى نهاية الأمر. وعززوا المؤسسات الاقتصادية مثل الجات نفسها والبنك الدولى وصندوق

النقد الدولى مما هيأ ازدهاراً لدول العالم الحر فى العقود التى تلت الحرب العالمية الثانية. وفى وقت تتهيأ فيه دلت الفرص والمخاطر أعتقد أنه يتعين علينا أن نحذو حذوهم.

❑ ❑ ❑

وطالما راود رونالد ريجان حلم إقامة سوق أمريكية شمالية مشتركة تضم الولايات المتحدة وكندا والمكسيك، وباتفاق للتجارة الحرة الأمريكى الكندى لعام ١٩٨٨ تحول نصف الحلم إلى حقيقة. غير أن الوقت لم يكن مهيأ تماماً لإبرام اتفاق مماثل مع المكسيك، وبدأت المكسيك تحت رئاسة دى لا مدريد عام ١٩٨٦ التحول عن طريق الاقتصاد الموجه إلي الاقتصاد الحر. وطالما عملت مع الكثير من المفكرين الجدد فى المكسيك حول مشكلة ديون المكسيك فى الثمانينات. لكننا كنا ندرك أن هناك حاجة إلي تحرير اقتصاد المكسيك بدرجة أكبر. والأهم أنه فى ضوء الحساسية السياسية للمكسيك تجاه الولايات المتحدة فإننا ندرك أنه يجب أن تصدر مبادرة مهمة للتجارة الحرة عن المكسيكيين. فبوسعنا تمهيد الطريق لكن عليهم أن يتخذوا الخطوة الأولي.

ومنذ الأيام الأولي لإدارة بوش كان تحسين العلاقات مع المكسيك جزءاً من استراتيجية إقليمية أشمل اشتملت علي تحقيق تقدم باتجاه إقرار حل سلمى للصراعات فى أمريكا الوسطي وإحراز تقدم حول قضية ديون أمريكا اللاتينية. بل وإصلاح اقتصاديات أمريكا اللاتينية نفسها.

وسرعان ما تحركت الإدارة الأمريكية علي الجبهة الاقتصادية. وأثناء فترة التحول وأوائل عام ١٩٨٩ عملت أنا وسكوكروفت مع آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطى الفيدرالى ووزير الخزانة نك برادى لوضع خطة لخفض عبء الديون علي دول العالم الثالث، ولاسيما فى أمريكا اللاتينية. واختلفت خطة برادى التى أعلنت في آذار مارس تفصيلاً عن الاستراتيجية التى اتبعناها فى ظل إدارة ريجان – ما يسمي بخطة بيكر – والتى مدت أجل سريان القروض الحالية، وعرضت تقديم قروض جديدة، وأكدت الخطة الجديدة علي إسقاط

الديون. واشتركت الإثنتان فى قاسم مشترك جوهرى هو أن الإعفاء مرتبط بالإصلاح. وبحلول آب أغسطس تفاوضت المكسيك حول إعفاء مهم الديون بموجب خطة برادى، وكان من المقرر أن تحذو دول أمريكية لاتينية أخري حذو المكسيك.



وبحلول عام ١٩٩٠ كان التحرر الاقتصادى - رغم عدم اتساقه - يترسخ من ريو جراندى حتي تيرا ديل فويجو. وقد شكل هذا فرصة مزدوجة للولايات المتحدة. فبتأييد الإصلاحات الاقتصادية يمكننا ترويج أهدافنا السياسية بالاستقرار والديمقراطية فى منطقة تتعطش إليهما. وفى الوقت ذاته يمكننا فتح أسواق جديدة ونامية أمام الصادرات والاستثمارات الأمريكية.

وجاء مشروع مبادرة الأمريكتين الذى أعدته وزارة الخزانة بمبادرة من الخارجية وأعلنه الرئيس بوش فى ٢٧ حزيران يونيو ١٩٩٠ بمثابة استجابة الإدارة للواقع الاقتصادى الجديد فى أمريكا اللاتينية. وتضمنت مزيداً من إسقاط الديون، وتأسيس صندوق استثمار متعدد الأطراف لأمريكا اللاتينية، وعرض رسمي من الإدارة للتفاوض حول إقامة منطقة تجارة حرة، واتفاقيات استثمار مع دول أمريكا اللاتينية، وكانت النقطة الأخيرة هي الأهم. فالرئيس كان يعتقد عن صواب أن «التجارة» لا «المعونة» ستخدم قضية إزدهار الأمريكتين.

وكان قد قُطِعَ شوط هائل تجاه إنجاز هذا الهدف قبل أسبوعين عندما أعلن الرئيس والرئيس المكسيكى كارلوس ساليناس دى جورتارى عن عزمهما التفاوض للتوصل إلي اتفاق تجارة حرة، وهكذا بدأت العملية التي ستؤدى فى نهاية المطاف إلي اتفاقية للتجارة الحرة بأمريكا الشمالية (النافتا).

ومنذ البداية كنا ندرك جميعاً أن النافتا لن تكون رقصة زنجية. وفى الحقيقة كان بعض مستشارى الرئيس أقل تحمساً تجاه المضي قدماً. وستؤدى المفاوضات فى النهاية إلي إعداد نص مؤلف من خمس مجلدات يتناول التجارة والاستثمار والبيئة والتنظيم والمعايير وآليات

تسوية النزاعات، وستعقد المفاوضات بإضافة كندا التي سعت رسمياً للاشتراك بعيد صدور إعلان بوش ساليناس.

وتعين علينا أيضاً ترويج الاتفاقية سياسياً داخل الولايات المتحدة. فاتفاقيات التجارة الحرة دائماً ما يكون لها ضحايا في بعض قطاعات الاقتصاد. لكن إجمالاً فإنها تولد دائماً نشاطاً اقتصادياً عظيماً مما يزيد عدد المستفيدين عن عدد الخاسرين. وسوف تكون النافتا نعمة كبيرة للاقتصاد الأمريكي، وستحقق آلافاً من فرص العمل، وتدر ناتجاً إضافياً يبلغ عدة مليارات، وسوف تكون أيضاً عماد علاقة جديدة مع المكسيك، وتعزز علاقات وثيقة حول مجموعة من القضايا التي تتجاوز الحدود مثل المخدرات والبيئة والهجرة. وسوف تساعد علي إنجاز الأهداف الأمريكية في المكسيك بما في ذلك إضفاء الديمقراطية علي النظام السياسي لكن المعارضة ستظل قوية. فسوف تعارضها عناصر مهمة للعمالة المنظمة وحركة البيئة، وكذلك حلفاؤهم في الكونجرس الذي يسيطر عليه الديمقراطيون.

وستكون المشكلات السياسية التي تواجه الرئيس ساليناس عظيمة. فاتفاقية التجارة الحرة تستدعي التعجيل بخطي الإصلاح الاقتصادي في المكسيك بما ينطوي عليه من آلام. فسوف تستميت المصالح الاقتصادية والزراعية القوية في القتال لعدم فتح أسواقها. وأخيرا سيتعين علي ساليناس تجاوز مشاعر عداء لأمريكا ترجع جذورها إلي مائة وخمسين عاما. وسيتهم دائماً بالتفريط أمام اليانكي.

وأكد التزام ساليناس الشخصي بالتفاوض حول النافتا بأنه حاسم. فبعيد أسابيع فقط من انتخاب جورج بوش رافقته إلي هيوستون للقاء التقليدي بين الرئيس الأمريكي المنتخب ونظيره المكسيكي. وكان الاجتماع هذه المرة مهماً: فساليناس نفسه منتخب لتوه، وفيما بينهما أطلق الرئيسان المنتخبان «روح هيوستون». شراكة جديدة تتطلع لاغتنام الفرصة المشتركة لا تعود بأنظارها إلي الماضي بمشاكله واضطراباته. ولم تَذْرُ قضية منطقة التجارة الحرة، وفي الواقع كان ساليناس لايزال في ذلك الوقت معارضاً للفكرة. لكن روح هيوستون هيأت أساساً شخصياً لحدوث ثورة في العلاقات الثنائية خلال السنوات الأربع التالية.

ومن جانبي أخذت زمام المبادرة في إعادة الحياة ورفع مستوي اللجنة المكسيكية المشتركة التي تضم وزراء كلا الدولتين والتي انعقدت لآخر مرة عام ١٩٨٧. ورافقني نحو نصف أعضاء وزارة بوش في اجتماع اللجنة في آب أغسطس ١٩٨٩. وأقام الجانب

الأمريكى علاقات عمل قوية مع أبرز الشخصيات المكسيكية، وأثبتت هذه العلاقة جدواها عندما صادفت المشاكل الجانبين وقد انضمت إليهما كندا فى مفاوضات النافتا.

❑ ❑ ❑

ومثلما كان الحال فى الجات أمسكت وكالات أخرى بزمام القيادة فى المفاوضات الفعلية فى النافتا. لكننى أبقيت على اهتمام شخصى بمسيرة المباحثات. ولم يكن تركيزى منصباً على التفاصيل الفنية للاتفاقية. بل على السياسة الداخلية التى يمكن أن تؤدى فى النهاية إلى تدعيمها أو إجهاضها، وراودنى قلق خاص حول موعدين. أولهما : هو انقضاء مهلة المسار السريع للكونجرس فى أوائل عام ١٩٩١. فهذه السلطة تقصر على الكونجرس التصويت سلباً أو إيجاباً حول الاتفاقيات التجارية التى يتفاوض عليها الرئيس، وبدونه يستطيع الأعضاء كل على حده أن يدخل تعديلاً على الاتفاق حتى يلفظ أنفاسه. وكان خصوم النافتا يعتبرون تصويت المسار السريع فرصة لإخراج المفاوضات عن مسارها قبل أن تبدأ. وحتى مع تقديم تنازلات حول العمل والبيئة فقد استغرق الأمر ضغطاً شاملاً للفوز بتجديد الكونجرس لسلطة المسار السريع فى آيار مايو ١٩٩١.

وكان الموعد الثانى الذى يقلقنى هو انتخابات عام ١٩٩٢. وكنت أريد كالرئيس إنجاز النافتا خلال فترة رئاسته الأولى. وكلما أمكننا عرض الاتفاق فى وقت مبكر عام ١٩٩٢ كلما كان ذلك أفضل. إن أى تأخير حتى الدخول فى معمعة الحملة الانتخابية سيؤدى إلى تسيس قضية مثار خلاف بالفعل. كان الوقت عاملاً جوهرياً. وفى الخارجية والبيت الأبيض – فيما بعد – طالما أكدت مع سكوكروفت على الحاجة إلى تحقيق تقدم مستدام ليس مع المكسيكيين والكنديين فحسب بل أيضاً مع مسئولى إدارتنا الذين لا يبدو أنهم يمنحون النافتا الأولوية التى تستحقها. وأقام بوب زوليك ساعدى الأيمن فى قضية النافتا قناة اتصال غير رسمية مع جوسيه قرطبة دى مونتويا رئيس موظفى هيئة الرئيس ساليناس. ومن خلال تلك القناة استطاع الجانبان تحديد المشاكل، وأن تستحث البيروقراطية فى كلا الجانبين.

ومضت المفاوضات بسرعة مذهلة فى ضوء التعقيدات القائمة وبدأت المفاوضات الأمريكية المكسيكية صيف عام ١٩٩٠ . وانضمت إليها كندا وسط عام ١٩٩١ . وفى أوائل تموز يوليو ١٩٩٢ كانت اختلافات خطيرة لاتزال تقسمنا . ولكن فى ١٢ آب أغسطس استطاع الرئيس بوش إعلان اكتمال مشروع نص الاتفاقية . وفى ١٧ كانون الأول ديسمبر وقع الرئيس بوش والرئيس ساليناس ورئيس الوزراء الكندى بريان مارونى الاتفاقية فى مكسيكو سيتى .

وفى ذلك الحين وبالطبع انتخب رئيس ديمقراطى وكونجرس جديدين، وتعين أن ينتظر التصديق النهائى على النافتا . لكن شكلها النهائى كان متطابقاً تماماً مع ذلك الذى تفاوض عليه الرئيس بوش . وأعتقد اليوم كما كنت أعتقد دوماً أنها تشكل تراثاً عظيماً دائماً للرئيس بوش . فلم تخلق الاتفاقية منطقة تجارة حرة يقطنها ٣٧٥ مليون نسمة فحسب بل إنها تمثل انفراجاً تاريخياً حقيقياً فى علاقاتنا مع المكسيك وبقية دول أمريكا اللاتينية . ومع انتهاء ولاية بوش طلبت شيلى رسمياً الانضمام إلى النافتا . وكانت بقية دول أمريكا اللاتينية تقف وراءها . لقد التهب خيال القارة جراء رؤية الرئيس بوش بإقامة نظام للتجارة الحرة فى الأمريكيتين، وهى رؤية أكثر شمولاً عن السوق المشتركة لأمريكا الشمالية التى تبناها ريجان .

وفى مستهل هذا القرن أعلن أحد أسلافى - جون هاى - أن المتوسط كان قرن الماضى والأطلنطى هو الحاضر والهادئ هو المستقبل . ومع تولىّ لوزارة الخارجية سرعان ما تحولت نبوءة هاى إلى حقيقة . فسوف يؤذن عام ألفين ببداية «قرن الهادى» . وكانت مهمتى هى التأكد من أن الولايات المتحدة ستكون جزءاً مهماً فيه .



وفى المقام الأول كنت عاقداً العزم على أن أى تحرك باتجاه التكامل الاقتصادى فى شرق آسيا لابد وأن يضم الولايات المتحدة . وفى وزارة الخارجية سأحاول كبح أى تحرك من جانب الآسيويين الشرقيين لاستبعادنا بكل كياسة أستطيعها وليس بالكياسة الواجبة علىّ . لكننى أردت أيضاً استغلال تعاوننا الاقتصادى المكثف بطرق أكثر إيجابية . فسوف تساهم

العلاقات الاقتصادية الوثيقة مع اقتصاديات شرق آسيا فى فتح أسواق ديناميكية أمام الاستثمارات والصادرات الأمريكية. فضلاً عن ذلك فسوف تكمل علاقاتنا السياسية والاستراتيجية مع منطقة نعتبرها حيوية منذ عصر تيودور روزفلت.

وأثناء تولي وزارة الخزانة عرض بوب زوليك وبوب فارفر الموظف المقتدر – فكرة بارعة عن مجموعة استشارية بين الولايات المتحدة وشرق آسيا علي غرار مجموعة السبع بل ولقد اقترحت إمكانية إقامة مثل هذه المنظمة فى أخطر الخطب التى ألقيتها. وحلت حملة عام ١٩٨٨ وظلت الفكرة فكرة جنينية. لكن عندما انضم إليّ الإثنان بوزارة الخارجية أبقينا أعيننا مفتوحة علي الشرق بانتظار أى فرصة تلوح. وهبطت هذه الفكرة فى شهر تنصيب بوش – وجاءت هذه المرة من استراليا.

فقد اقترح بوب هوك رئيس وزراء استراليا علانية فى شهر كانون الثانى يناير فكرة تجمع شرق آسيا للترويج لفكرة التجارة الحرة فى المنطقة. ولم يتضمن إقتراحه الولايات المتحدة لكن لم نصادف أى صعوبة فى إقناع صديق مخلص للولايات المتحدة ولجورج بوش بأن يطرح أمامنا مبادرة فى اجتماع منتدي التعاون الاقتصادى لآسيا والباسفيك (أبيك) فى كانبرا فى تشرين الثانى نوفمبر ١٩٨٩. وأصبحت إثنتا عشرة دولة موقعة علي ميثاق (أبيك) هي استراليا، الولايات المتحدة، اليابان، كندا، كوريا الجنوبية، نيوزيلندا، وأعضاء رابطة جنوب شرق آسيا (الآسيان) أندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة وتايلاند وبروناى. وتنتج دول أبيك مجتمعة نصف إنتاج العالم، وأكثر من ثلث التجارة العالمية. وحتي برغم أن أبيك معنية بالقضايا الاقتصادية الدولية اعتقدت أنه سيكون من المهم أن أبرز قيادتى للوفود الامريكية فى الاجتماعات الوزراية للأبيك.

وعكس أعضاء أبيك مجموعة شديدة التنوع من دول ذات مستويات مختلفة من التنمية الاقتصادية. وبين ثنايا القشرة الدبلوماسية طفي انعدام الثقة وخاصة بين اليابانيين، وربما كانت أبيك تمتلك إمكانيات بعيدة المدي لا حدود لها. لكن علي المدي القصير سيتعين عليها اختيار قضاياها بعناية فائقة. فكل شيء أبعد مدي –علي سبيل المثال– التحرك لتحويلها علي وجه السرعة إلي منطقة تجارة حرة، يمكن أن يثير الانقسام فى صفوفها بل يئدها فى المهد. وفى البداية علي الأقل كان تركيزى أقل علي القضايا منه علي الطابع المؤسسى. ركنا فى

حاجة إلي تنظيم عقد الاجتماعات وتحديد أشكال التشاور وبناء الثقة. وللمساعدة فى هذا الصدد اتفقنا علي أن تستضيف أى دولة من دول الآسيان كل اجتماع سنوى آخر. فقبل أن تنطلق أبيك يجب أن تتعلم المشى.

وأنجزنا هدفين أساسيين فى اجتماع كانبرا. ووافقت سنغافورة وكوريا الجنوبية علي استضافة الاجتماعين الوزاريين السنويين القادمين. وكلفت مجموعات عمل الخبراء بدراسة السبل التى تكفل لأبيك تشجيع التعاون فى مجموعة متنوعة من القضايا الاقتصادية والتعليمية والبيئية. ومع اجتماع ١٩٩٠ الوزارى فى سنغافورة اكتسبت أبيك معني الديمومة رغم عدم تمكنى من المشاركة بسبب إصابتى بنزلة انفلونزا معوية حادة وهي أشد ما عانيته من مرض خلال عملى كوزير خارجية.

أما الاجتماع الثالث الذى عقد فى سول عام ١٩٩١ فقد وجدنى ووجد أبيك فى حالة صحية جيدة. فقد باتت الصين وتايوان وهونج كونج أعضاء كاملى العضوية، وهي خطوة حاسمة للأمام اقتضت إجراء مفاوضات مستفيضة قبل إمكانية التوصل إلي تسوية نهائية. وكانت مجموعات عمل الخبراء تعرض تقارير عن موضوعات شتي كالترويج السياحى إلي قواعد البيانات الخاصة بتنمية التجارة والاستثمارات ومشروعات رئيسية لمكافحة التلوث البحرى، وشكلت لجنة من الأكفاء لتقديم توصيات حول تطوير المنظمة فى المستقبل. وبعد عامين فقط كانت أبيك منظمة واعدة فتية.



ورغم هذا التقدم لم يهدأ التحريض علي إقامة تكتل تجارى قاصر علي شرق آسيا. ولم يكل محاضير بن محمد رئيس وزراء ماليزيا بصفة خاصة فى ترويج فكرته بإقامة المجموعة الاقتصادية لشرق آسيا EAEG علي غرار المجموعة الأوروبية. ولم يكن ينظر إلي محاضير علي أنه موال لأمريكا. بل كان ينظر إليه علي أنه مصدر لذع، ولهذا فقد اتخذت موقفاً عاماً معتدلاً من فكرته. أما فى السر فقد بذلت قصارى جهدى لوأدها. وكان بعض أعضاء أبيك

ميالون إليها لمجرد الاستجابة لإلحاح محاضر، وفي اجتماع أبيك في سول ألمح لي سانج أوك وزير خارجية كوريا الجنوبية إلي احتمال تأييد بلاده لاقتراح محاضر بالتضامن الآسيوي. وذكّرني بأن الأمريكيين وليس الماليزيين هم الذين أراقوا دماءهم دفاعاً عن كوريا قبل أربعين عاماً. كانت رسالتي غاية في البساطة: كل الدول ليست علي قدم المساواة. واستوعب الكوريون الجنوبيون الرسالة ولم يعودوا يلحون علي إقامة المجموعة الاقتصادية لشرق آسيا EAEG.

❑ ❑ ❑

ومن دون مساندة يابانية قوية لكانت EAEG قد شكلت تهديداً لمصالحنا الاقتصادية في شرق آسيا. وكانت الشراكة الأمريكية اليابانية عاملاً رئيسياً هنا كأي شيء آخر في منطقة الهادي. فلو تعززت الشراكة فلن تكون التجارة الحرة والاستثمارات مجرد احتمال بل أكثر رجحاناً. وإذا اهتزت فسوف تصبح المجموعة الاقتصادية لشرق آسيا حقيقة مؤكدة. وستضطرب العلاقات الأمريكية اليابانية. والسبب دائماً هو التجارة. وكنت في غاية السعادة لأن أوكل مهمة المفاوضات التجارية مع اليابان إلي كارلا هيلز المفوض التجاري الأمريكي الخاص الكفء المثابرة. ومع هذا ولأن علاقتنا الأمنية مع اليابان كانت بالغة الأهمية باعتبارها مصدراً للاستقرار في شرق آسيا والهادي لأكثر من أربعين عاماً فقد كنت أراقب تطور العلاقة الاقتصادية الأمريكية اليابانية. ولم أكن مدافعاً عن اليابان. فقد كانت ممارسات التقييد التجارية اليابانية فضيحة دولية. لكنني كنت علي يقين من واقع خبرتي الخاصة في الخزانة أن الصبر والتصميم والمفاوضات الخاصة هي الكفيلة وحدها بأن تؤتي الثمار مع اليابان. وفي الخارجية لم أتردد يوماً في التدخل في العلاقات التجارية الامريكية اليابانية عندما أشعر بأن أخطار حدوث انفجار شامل فاقت الحد.

وكانت القضية المطروحة هو مبادرة العوائق الهيكلية SII التي طرحها الرئيس بوش ورئيس الوزراء الياباني سوزوكي أونو في قمة باريس الاقتصادية عام ١٩٨٩، وشكلت المبادرة مسعي رفيع المستوي لتجنب فرض عقوبات تجارية أمريكية علي اليابان واحتمال نشوب حرب تجارية. وكانت المباحثات الأمريكية اليابانية في إطار المبادرة التي قادها

باقتدار ديك مكورماك وكيل وزارة الخارجية للشؤون الاقتصادية أيسر مباحثات شاملة تجري بين الدولتين، وللمرة الأولي توافق اليابان علي بحث بعض مسائل الاقتصاد الجزئي الأساسية التي تساهم في تعزيز الفائض التجاري الياباني مع الولايات المتحدة، وشمل ذلك سياسات استغلال الأراضي وتنظيم الأعمال والتسعير.

وبرغم هذا انهارت المفاوضات في ٢٣ شباط فبراير ١٩٩٠. واجتمع رئيس الوزراء الياباني توشيكي كايفو مع الرئيس بوش في بالم سبرينغ في أوائل آذار مارس لإعادة تأكيد التزامهما بعملية SII لكن الوقت كان مضغوطاً. وتحت ضغط مكثف من الكونجرس سيكون علي المفوض التجاري الأمريكي علي الأرجح الإعلان عن مجموعة جديدة من العقوبات التجارية قبل ٣٠ نيسان إبريل، وكنت أعرف أن رئيس الوزراء الياباني السابق نوبورو تاكيشيتا سيزور واشنطن في منتصف آذار مارس. وقد عملت عن كثب مع تاكيشيتا وهو رئيس للوزراء وعندما كان وزيراً للمالية في وقت سابق وكان لايزال يشكل قوة ذات وزن داخل الحزب الديمقراطي الليبرالي الحاكم.

واعتقدت بأن الوقت سيكون مواتياً للعب مباراة جولف مع صديق قديم وإجراء مفاوضات مغلقة. ولعبنا مباراة وبحثنا الخيارات وأبدي تاكيشيتا استعداداً ليعرض عدداً من التنازلات نيابة عن الحكومة اليابانية لعل أهمها زيادة شاملة في الإنفاق الاستثماري بهدف تعزيز الطلب الداخلي. ووفرت مباحثاتنا غير الرسمية الإطار العام لتسوية نهائية. واستؤنفت المفاوضات، وكان التقييم الأولي الذي صدر عن الجانبين في نهاية الشهر إيجابية بدرجة كافية لتجنب فرض عقوبات اقتصادية أمريكية (بالكاد). واستمرت العلاقات الأمريكية اليابانية عرضة لتوترات عارضة عالجتها من حين لآخر لكن الأزمة الكبري حلت ثم انقضت.

❑ ❑ ❑

ولازمني اعتقاد لأمد طويل أنه ما من علاقات ثنائية للولايات المتحدة تفوق في أهميتها اليوم علاقاتها مع اليابان. وأنا وزير للخزانة عملت مع عدة حكومات يابانية لتنسيق سياساتنا الاقتصادية الثابتة لصالح العمل علي استقرار أسعار الصرف. وفي عام ١٩٨٩ دعوت إلي إقامة «شراكة كونية» بين الولايات المتحدة واليابان، وأعتقد أن الفكرة وجاهتها

حتي الآن. فاليابان نموذج يحتذي للتنمية الاقتصادية في العالم. والآن ولأسباب تاريخية قوية يتعين أن تمارس لليابان نفوذاً سياسياً يتفق مع ثقلها الاقتصادي. ومع ذلك وعلي مدار العقد الماضي بدأت اليابان، ولكن علي استحياء وباطراد في الاضطلاع بزعامة دولية أعظم.

وهو تطور أرحب به، وقد شجعته لأمد طويل. فارتباط اليابان الاستراتيجي ثقل موازن جوهري يضمن عدم إقدام الصين وكوريا الشمالية علي أي مغامرة إقليمية. فضلاً عن ذلك فإن أي دور ياباني أكبر من خلال الأمم المتحدة - بما في ذلك احتمال منحها وضعاً خاصاً داخل مجلس الأمن الدولي في نهاية المطاف - يمكن أن يساهم في ضمان أن قوة اليابان هي قوة استقرار حول العالم والمحيط الهادي. وبرغم اختلافنا حول التجارة، وعندما تركت إدارة بوش السلطة كانت هذه الشراكة الحاسمة لاتزال قوية.

وفي ٢٣ تشرين الثاني نوفمبر١٩٩٣ وافق الكونجرس علي اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية. وبدأ سريانها في الأول من كانون الثاني يناير١٩٩٤. وفي تشرين الثاني نوفمبر ذلك العام التزم قادة دول أبيك في اجتماعهم في أندونيسيا بإقامة منطقة تجارية حرة تمتد من نيويورك حتي بانكوك بحلول عام ٢٠٢٠. وفي الأول من كانون الأول ديسمبر ١٩٩٤م أقر الكونجرس اتفاقية الجات بصفة نهائية بما يضع نهاية لعملية بدأت قبل ثمانية أعوام في بونتا ديل إيشي بأوروجواي.

وبالطبع وقعت تلك الأحداث بعد رحيل إدارة بوش. لكن أياً منها ما كان متيسراً لولا الجهد الدؤوب لإدارتنا. ومع متابعتي التغطية الصحفية يخامرني إحساس بشيء من الأسف. وفي المقام الأول، ومن منطق عالم المفارقات كان لابد وأن يحتفل رئيس آخر بتلك الانتصارات. لكنني أحسست أيضاً بالفخر بما أنجزه بوش وإدارته. وبشأن النافتا والجات وأبيك فقد وضعنا الأسس لنظام جديد وحر للتجارة الدولية يمتد جذوره بثبات من مبادئ السوق الحرة من شأنه نشر الازدهار في الولايات المتحدة ومختلف أنحاء العالم لعدة عقود قادمة.

الفصل الثاني والثلاثون

دعم الحرية في الدول حديثة الاستقلال

هل لازلنا أصدقاء أم لا؟

بوريس يلتسين

جورج بوش

كامب ديفيد، الأول من شباط فبراير ١٩٩٢

طقس بارد، بل شديد البرودة، هذا هو الوصف الوحيد الذي أمكنني أن أطلقه علي الجو خارج سيارتي في ١٤ شباط فبراير ١٩٩٢ ونحن ننطلق بسرعة نحو طريق سريع في عمق أراضي روسيا. وفي مشهد من مشاهد الدكتور زيفاجو كانت السهوب مطمورة تحت الثلوج والريح تصفر في جنبات البحيرات المتجمدة، وتبدو جيوب أشجار البتولا بل والأشجار الحمراء التي تناثرت هنا وهناك كما لو كانت واحات وسط الصحراء. وفي لحظة ما يقع بصري علي حصان يجر عربة جليد يجتاز حقلاً ليعبر المدي الذي تكسوه الثلوج ويبدو ممتداً بلا نهاية. وكنت أتوجه جنوباً من إيكاتر ينبورج علي بعد عدة مئات الأميال شرق موسكو علي الجانب السيبيري من الأورال لمدة ساعتين قاصداً تشيليا بنسيك٧٠. تلك المدينة التي لم يكن معظم العالم يعلم عنها شيئاً قبيل عدة أشهر.

كانت تشيليا بنسيك ٧٠ إحدي منشأتين نوويتين في الاتحاد السوفيتي أقرب شبهاً بمعملي آلاموس أو لورانس ليفرمور مع فارق واحد: مجرد وجودهما ناهيك عن أن العمل الذي يجري هناك سر من أسرار الدولة ولم تظهر مطلقاً علي الخرائط السوفيتية. بل إن القلة التي تقطن ايكاترينبورج أكبر مدينة مجاورة لم تكن تعرف شيئاً عن تشيليا بنسيك ٧٠ حتي قبيل وصولنا. وفي الاتحاد السوفيتي كانت تشيليا بنسيك ٧٠ تعد ثقباً أسود. لكن في روسيا التي مر شهر علي عودة مولدها من جديد في شباط فبراير ١٩٩٢ أصبحت رمزاً محتملاً للتعاون الروسي الأمريكي. بل وربما من قبيل الصدفة البحتة أن يزورها الأمريكيون للمرة الأولي في يوم عيد القديس فالنتين.

وعقب رحلة طويلة بعيداً عن الطريق السريع الرئيسي واجتياز عدة نقاط تفتيش عبرنا عدة أسوار شائكة للوصول إلي مبني للأبحاث مكون من ثمانية أدوار، وكان بوسعي أن ألمح في كل نافذة العلماء والفنيين والإداريين يقفون خلف كل النوافذ تقريباً يلوحون بحماسة وبهجة. كانت أصواتهم تتناهي بشق الأنفس عبر نوافذ الحماية من العاصفة التي عززت للوقاية من الشتاء الروسي القارس. وشعرت لوهلة كما لو أنني هبطت من المريخ شخص غريب يراه هؤلاء الرجال والنساء بأم أعينهم. ومع الفارق في برودة الطقس وشدة كثافة الحشود لم يكن بوسعي سوي تذكر تيرانا في حزيران يونيو١٩٩١ حيث كان تدفق المشاعر تجاه أمريكا هو القاسم المشترك، واصطحبنا مضيفنا إلي قاعة محاضرات ضيقة للقاء خمسة

وعشرين من أبرز علماء المركز. وذكرتني القاعة بأيام دراستي في برينستون لكنها لا تقارن بالموجود الآن. فهي تحمل طابع الخمسينيات لكني على يقين تام بأنني أجلس أمام نخبة من أكثر العقول تقدماً وتطوراً في العالم. وأثناء جلوسنا راودتني أفكار بأنه يوجد هاهنا الرجال الذين صمموا الأسلحة التي حددت الحرب الباردة. وها نحن نجلس لنبحث السبل التي يمكن أن يساعد بها الغرب في ضمان مستقبلهم. حقاً إنها سخرية التاريخ.



وبدأ اجتماعنا باستعراض مفصل وشامل لبرنامج الأبحاث النووية للاتحاد السوفيتي سابقاً، وطبيعة العمل الذي يقوم به العلماء حالياً بتوجيه من جمهورية روسيا المستقلة حديثاً. وقال أحد العلماء أمامي وأمام زملائي: «ليس هناك نقص في الأفكار والنقص الوحيد هو في الأموال» وفي الحقيقة فقد أثاروا عدداً من الأفكار مبتدئين بدءً من صناعة الماس الصناعي مروراً بتطوير الألياف الضوئية، وانتهاءً بتحسين أسلوب التصوير بالرنين المغناطيسي النووي، وكان هؤلاء العلماء يتوقون لتحويل معارفهم في تصميم الرؤوس الحربية إلى استخدامات سلمية مفيدة.

لكنهم يواجهون مشكلة حادة تتمثل كما قال أحدهم في «أنه في الأعوام الأخيرة بدأ الوضع المالي لمؤسستهم في التردي» وبات من الواضح أنه مالم يتم تدبير طريقة لدفع رواتبهم فسوف يحاول الإيرانيون والكوريون الشماليون والأنظمة الحمراء الأخرى شراء خبرتهم المعرفية النووية بأرخص الأسعار، وهو ما أصبح نطلق عليه مشكلة «استنزاف العقول».

وأجبت أن هذا هو ما نبحثه هنا، وبدلاً من النظر إلى الموضوع على أنه مجرد مشكلة «لاستنزاف العقول علينا أن نبحثه على أنه «كسب العقول» – أي أن يعمل المجتمع الدولي مع روسيا والدول المستقلة الأخرى للمساعدة في تحويل مواهبكم إلى مشروعات مدنية مهمة ومفيدة».

وعرضت اقتراحي بإقامة مركز علمي مشترك يعمل كمركز يعيد تأهيل علماء الأسلحة النووية وتكيفهم مع مشروعات بحثية وفكرية مهمة تثير التحدي. وردوا بحماسة، ثم أوضحوا أن ما يحتاجونه فوراً الآن هو منشآت للتخزين الآمن للأسلحة النووية المفككة، والمساعدة في إيجاد طرق للاستفادة من المواد المفككة.

وعقب اللقاء التقطنا عدة صور حول تمثال إيجور في كورشاتوف الأب الروحي للبرنامج النووي السوفيتي. ونظراً لعدم السماح بدخول كاميرات تصوير أوأجهزة تسجيل إلي المنشأة فقد استغرق الأمر شيئاً من الجهد لإقناع إدارة المركز بالسماح بالتقاط الصور. ولدي بحث الأمر وشد وجذب مع بفيجيني أفروررين كبير العلماء وفيكتور ميخائيل نائب وزير الطاقة الذرية همهم عدة علماء: «دعه يفعل، دعه يفعل». وأخيراً لانت عريكة أفرورين وميخائيلوف. وقلت للعلماء المبتهجين: «هاهو يوم جديد». فقد كان هؤلاء العلماء يريدون أن يري العالم ويسمع الكثير عن إنجازاتهم.

ثم توجهت مع بعض المساعدين إلي معمل لاختبار المواد حيث تجري التجارب علي الليثيوم والبلوتونيوم واليورانيوم. ولأننا في مناطق يحتمل أن تكون محملة بالإشعاعات فقد أُمِرْتُ أنا ومساعدي معاطف وقبعات بيضاء، وأحسست كما لو أنني في مؤتمر لبيكر. وما لبثنا أن وضعنا أغطية بلاستيكية شفافة حول أحذيتنا وسُلِّمَ كل منا عداد جايجر شخصي. وظهرنا كما لو كنا فريقاً من «مفقودي الفضاء». فقد بدت المعامل عتيقة للغاية. وها هو تذكار آخر علي كيفية اضطرار السوفيت للتعامل مع الغرب: فقد حل الكريملين المشكلات العسكرية الاستراتيجية بتخصيص موارد ضخمة لها، وتمكن في النهاية من التوصل إلي حلول بعد بذل جهود جبارة في ضوء القصور التكنولوجي المزمن. ولكن مع استمرار العملية أفلست موسكو وضعها المجتمع والدولة مما أوقع أهم نخب المسؤولين السوفيت في فقر مدقع.



وبانتهاء جولتنا وفحصنا للتأكد من عدم تعرضنا للإشعاع هبط الظلام الدامس، ونقلنا إلي موكبنا للعودة إلي إيكاتريندبورج. واضطررنا للدوران حول المجمع وأثناء دوراننا لمحنا

ورشة مكيانيكا جيدة الإضاءة كان يقف بها رجل وحيد يبدو أنه يعمل علي مخرطة. وأثناء مرورنا توقف عن العمل وتفحص الموكب ثم رفع يده ببطء مشيراً بإبهامه ولسان حاله يقول: حمداً لله أن انتهت الحرب الباردة فلنكن أصدقاء الآن.

وفيما تلي من أسابيع وشهور تحولت في الدول السوفيتية السابقة حديثة العهد بالاستقلال، وعملت مع الرئيس يلتسين والإصلاحيين الروس الآخرين وذهني مشغول مراراً بذلك الرجل الذي كان يعمل في ورشة الميكانيكا وإشارته الإنسانية المؤثرة.

فلن تفارق صورته مخيلتي تذكاراً لي بالفرصة المواتية الفريدة للمساهمة في إقامة الديمقراطية وإشاعة الحرية بل ولتجديد آمالي وإيماني وجهودي.

مؤتمــر التنسيق

وبعد أن أمضيت بضعة أيام في عطلة ميلاد السيد المسيح عدت إلي واشنطن في الخامس من كانون الثاني يناير لما أعرف أنه سيكون يقيناً شهراً محموماً. فإلي جانب السفر إلي مكسيكوسيتي للتوقيع علي معاهدة السلام في السلفادور، ثم إلي ماناجوا عاصمة نيكاراجوا فسوف أستضيف مؤتمر التنسيق ثم أتوجه إلي موسكو لاجتماع متابعة لمؤتمر السلام في الشرق الأوسط، والمشاركة في اجتماعات الأمم المتحدة، ثم الانضمام إلي الرئيس بوش ويلتسين في كامب ديفيد.

وبإلقاء نظرة علي المستقبل كنت أدرك أننا نقترب من مرحلة حرجة في العلاقات مع روسيا والدول حديثة العهد بالاستقلال، وبانهيار الاتحاد السوفيتي في كانون الأول ديسمبر شرعت كل جمهورية في محاولة إقامة علاقات إيجابية مع الغرب، ولاسيما الولايات المتحدة ولن تكون قدرتنا علي التأثير في سلوكها كبيرة مطلقاً.

وفي برينسيتون حددت السياسة والاقتصاد والأمن كمجالات رئيسية ثلاث نأمل في تحريكها قدماً. وعلي جبهة الأمن كنت أدرك أننا في حاجة إلي التصرف بحسم لتأمين

الأسلحة السوفيتية. خاصة أسلحة الدمار الشامل. وفيما أصبحت دول الاتحاد السوفيتي السابق مستقلة رسميا الآن فقد انضم معظمها إلي رابطة كومنولث الدول المستقلة. كما أثيرت تساؤلات حول التحكم والسيطرة النووية وتطبيق المعاهدات القائمة وسياسة منع الانتشار النووي. ولتسوية هذه التساؤلات أوفدت ريج بارثولوميو وفريق حكومي إلي موسكو منتصف كانون الثاني يناير للقاء نظرائهم لبحث كيفية تقديم المعونة الأمريكية للتخزين والإزالة الآمنة للأسلحة النووية السوفيتية. خاصة الرؤوس النووية التكتيكية. وكتبت إلي كوزيريف في ١٤ كانون الثاني يناير أقول: «أود أن تكونوا علي يقين من الأهمية البالغة لقدرتنا علي إظهار تقدم حقيقي حول تحديد سبل زيادة سرعة التفكيك الآمن، ودمج وإزالة الأسلحة النووية السوفيتية».

ومن زاوية الدعم الغربي للإصلاح السياسي والاقتصادي أردت انتهاز فرصة عقد مؤتمر التنسيق يومي ٢٢ و٢٣ كانون الثاني يناير لبدء جهود المساعدة بثلاثة طرق. أولها: أنني أردت إرسال إشارة دعم بالغة الوضوح إلي الروس والأوكرانيين والآخرين أن العالم بأسره يريد أن تقترن تجاربهم بالديمقراطية والسوق الحرة والاستقلال حتي يضمنوا النجاح. وسيتم إنجاز هذا الهدف جزئياً بمجرد عقد المؤتمر نفسه الذي ضم سبع منظمات دولية وسبع وأربعين دولة منها الأرجنتين واستراليا وتايلاند والإمارات العربية المتحدة علي غرار مؤتمر أوروبا الوسطي تقريباً* . وأردت أيضاً إضافة لمسة مثيرة ستسري بسرعة فائقة عبر التغطية الصحفية لمثل هذا الحدث الدبلوماسي. وأردت خلق قضية إخبارية قد تتناقلها شبكة سي إن إن ووسائل الإعلام الدولية الأخري لبث الأمل لدي من يحتاجه في دول الاتحاد السوفيتي السابق وفي الوقت نفسه تحفيز الرأي العام «والمبادرات الخاصة» في الولايات المتحدة. واقترحت مارجريت تاتويلر الوسيلة البارعة : جسر جوي من الغذاء والدواء لكل دولة ديمقراطية جديدة بازغة.

---

* كان عقد مثل هذا المؤتمر الذي يعد أضخم مؤتمر يعقد في وزارة الخارجية بشكل مع ضغط عنصر الوقت - أقل من شهر للإعداد - كابوساً مرعباً لكارين جروميز وإين دوت وبول ديفز مشرفي غرف الدور الثامن التاريخي بوزارة الخارجية. وحلوا المشكلة بجهدهم الخلاق المعهود. بما في ذلك نقل أربعين من وزراء الخارجية ورؤساء المنظمات إلي الغداء في بنور هاوس بسيارتي اتوبيس مدرسيتين وحل أصحاب مسؤولي الأمن بالصباح.

وسيكون إقامة جسر جوى إنسانى إلي الاتحاد السوفيتى السابق باستخدام طائرات سلاح الجو الأمريكى إشارة واضحة - مثلما كان الجسر الجوى لبرلين - لبدء عهد جديد. وبتعليمات منى أعد ريتشارد أرميتاج الذى تولي الإشراف علي مساعداتنا للاتحاد السوفيتى السابق ما أصبح يعرف «بعملية بث الأمل» وهي خطة يمكن بمقتضاها تسيير أربع وخمسين طلعة تحمل الغذاء والدواء فى أسبوع واحد لكل دول الاتحاد السوفيتى السابق المستقلة حديثاً. بما فى ذلك اثنتى عشرة طلعة أولية بطائرات النقل العملاقة سى٥ من قاعدة راين ماين ى فرانكفورت. وإجمالاً فإن عملية «بث الأمل» ستقدم ما جملته ٣٨ مليون رطل من دواء والأغذية*.

وتمثل هدفى الثانى فى زيادة عدد الدول المانحة للمعونة الإنسانية لموسكو وجاراتها بتعزيز التعاون بين الحكومات المانحة. وقدمت برامج المساعدة فى معظمها علي أساس ثنائى، وجاء معظمها من الولايات المتحدة أو أوروبا، وكنا نريد حقيقة جهداً عالمياً حقيقياً منسقاً.



وكان الأوروبيون لايزالون علي استيائهم لعدم اقتراح أن تتولي المجموعة الأوروبية رعاية مؤتمر التنسيق، وظهر هذا الاستياء أوضح ما يكون من مفوضية المجموعة ومن فرنسا. وفى اجتماعاتى علي هامش المؤتمر حاولت أن أشرح للأوروبيين أن جهودنا

* واقتضي الجسر الجوى إقامة تعاون ودعم مكثف من جانب وزارتي الدفاع وهيئة الأركان العامة المشتركة. حيث لم يتبق سوي أيام قلائل لبدء العملية ولم يأل ديك تشيني وكولين باول جهداً، سواءً فى مرحلة التخطيط التى عرج خلالها مخططوا هيئة الأركان العامة المشتركة وأرباء إيحامان كبير خبراء وزارة الدفاع الشئون السوفيتية علي وزارة الخارجية وساهموا فى تحديد أهداف الطلعات الجوية، وكذلك فى التنفيذ الفعلي للجسر الجوى. وقدموا حاكلها لأرميتاج كل ما هو مطلوب للإعداد الجرى فى الاتحاد السوفيتى السابق بواسطة وكالة الاستطلاع علي الطبيعة OSIA . وقبل خمس سنوات كانت هذه الأهداف محددة كمواقع مستهدفة من جانب الصواريخ الباليستية العابرة القارات. كما كان خبراء وكالة الاستطلاع يطاردون الصواريخ وهاهو ذا مؤشر آخر علي انتهاء الحرب الباردة.

تستهدف توسيع مصادر المعونة ونقلها. وكنت مدركا أن محاوري العقلاء دوجلاس هيرد وهانز ديترش جينشر وهانز فان دين بروك على سبيل المثال يفهمونني لكنني لم أكن مدركاً حقيقة موقف الآخرين.

ومع ذلك فقد تأكد رأيي بالنتائج التي أسفر عنها المؤتمر الذي شكل مجموعات عمل لمعالجة أربعة قطاعات استراتيجية هي الطاقة والغذاء والدواء والمأوى. وفي كل قطاع تمكنا من جذب مشاركين لوضع خطة عمل ستوضع موضع التنفيذ ونحن نقترب من الربيع. وعرض مانفريد فيرنر السكرتير العام لحلف الأطلنطي مساهمة الحلف في الدعم اللوجستي والتخطيط. وعرض جان كلود باي السكرتير العام لمنظمة التنمية الصناعية أن تكون المنظمة بمثابة غرفة مقاصة لبرامج المساعدة الفنية. كان جمع خمس وأربعين دولة ومنظمة عابرة للقومية للتنسيق بهذا الشكل مهمة خلاقة مهمة أداها باقتدار كين جوستر وناثان لاري إيجلبيرجر ومساعدي في تنظيم المؤتمر.

وفضلاً عن ذلك قدمت حكومات من خارج أوروبا وأمريكا الشمالية عروضاً ضخمة للمساعدة الثنائية مما يبرز الطبيعة الكونية للمساعدات. وعلى سبيل المثال قدمت الفلبين برامج تدريب في البنوك الزراعية ومستويات الإدارة الوسطى والمشروعات الصغيرة. ووافقت على تقديم ٤٥٠ مليون دولار قروضاً سلعية، وعرضت الأرجنتين استضافة مائة ألف لاجئ، وأعلنت كوريا تقديم قروض استيراد وتصدير وقروض سلعية بأكثر من مليار دولار، وقدمت العربية السعودية مساعدة قدرها ١,٢٥ مليار دولار لمساعدة أذربيجان في تطوير طاقة إنتاج وتصدير البترول.

وكان ثالث أهدافي هو استغلال مؤتمر التنسيق كمهلة لحمل بيروقراطيتنا على التحرك. ففي أوائل كانون الثاني يناير توجهت إلى زميلي ديك دارمان مدير مكتب الإدارة والموازنة طالباً منه أساساً مبلغ الـ ٦٤٥ مليون دولار التي أعلن الرئيس تقديمها في بداية المؤتمر. ومع هذا أردت أيضاً إظهار أنه ليست هناك مصادر غير نقدية للمساعدة على نفس القدر. وفي اندفاع مجنون، تمكن لاري إيجلبيرجر ودينيس روس ومارجريت تاتويلر وبوب زوليك بمساعدة اثنين من الموظفين المتخصصين هما شيلا هيسلين ولوني كيتي (حيث رأيت تاتويلر

علي تسميتهما «بالأولاد» لحماسهما المفرط، من توفير حجم متنوع من المساعدات من البرامج الحكومية عن طريق التوحد والاقتراض بل والاستجداء. وشملت المساعدات أشياء مثل حمولة خمس طائرات س- ٥ من الإمدادات الحيوية من مخلفات عملية عاصفة الصحراء، وتمويل برنامج المزارع - إلي - المزارع وكذلك الأموال اللازمة لتأسيس مؤسسة يورو آسيا وأربعمائة طن من الحليب المجفف لمدينة بطرسبرج و١٠،٦٠٠طن من الزبد والمسلى وقمح بلغاري إلي أرمينيا.

بزوغ نجم الزعيم يلتسين

وبعد أربعة أيام من اختتام مؤتمر التنسيق وصلت إلي موسكو، وبرغم أن المشاركة في رعاية الجلسة الأولي للمباحثات متعددة الأطراف كانت هي السبب الأساسي لزيارتي. كنت أعتقد أن زيارتي لموسكو مناسبة جيدة للتباحث مع يلتسين وكوزيريف وبقية القيادة الروسية.

وبعيد وصولي في ٢٧ كانون الثاني يناير أجتمعت مع كوزيريف في قاعة بوجباتسكي في أوسوبنياك ليكون رابع وزير خارجية ألقاه هناك خلال ثلاث سنوات. وبعد استعراض خاطف لمباحثات اليوم التالي الخاصة بالشرق الأوسط وجه كوزيريف دفة المحادثات إلي الوضع في روسيا. وقال: «إنني أقدر جهودكم خلال المؤتمر الذي عقد الأسبوع الماضي. فالرئيس يلتسين متحمس للغاية للجسر الجوي، وأعطي أوامره للمسؤولين الروس بضمان تسليمهم الإمدادات». وتطرقت أيضاً إلي بحث قضايا نووية. ولأن الرئيسين بوش ويلتسين كانا علي وشك طرح مبادرات جديدة هامة فإننا تركنا الجوهر الحقيقي لتناوله خلال اجتماعي مع يلتسين.

وأوضحت قلقنا تجاه احتمال بيع روسيا أسلحة لدول مثل إيران. وبدأت بالقول: «أعرف أن روسيا في حاجة ماسة إلي النقد الأجنبي من تلك المبيعات. لكن هذه المبيعات سوف تهدد الأمن الإقليمي وتثير مشكلات لدي للرأي العام الأمريكي، وهو عامل مهم إذا كان يتعين علينا تزويد روسيا بمزيد من المعونات. وقال كوزيريف إنه في الوقت الذي يتفهم فيه رأينا

«فإن الأسلحة هي واحدة من السلع القليلة التي يمكن أن تبيعها روسيا، وأن حكومتنا تتعرض لضغوط من الجيش المصنى قدماً فى تلك المبيعات». واتفقنا علي أن يبحث الرئيسان هذه القضية باستفاضة فى كامب ديفيد.

وعقب انتهاء مباحثات الشرق الأوسط، والتي عكر صفوها رفض الفلسطينيين الحضور التقيت مع يلتسين صباح ٢٩ كانون الثاني يناير. وقبل يومين فقط غادر يلتسين موسكو فجأة إلي جهة غير معلومة مما روج شائعات فى الصحافة الغربية بشأن صحته والاستقرار.

وبعد خمس دقائق اتضح مع ذلك كما لو أن يلتسين قد اختفي من دون سبب سوي للإعداد للقاء وليس التعافي. كان جدلياً. وقد شاهدت يلتسين مختلفاً عن الذي رأيته من قبل، وفى الماضي كان غالباً ما يبدو غامضاً بل زلف اللسان، والآن فإنه يتحدث بتفصيل أعمق من دون الاستعانة بمذكرات حول قضايا فنية رفيعة، وانصب تركيزه كلية علي القضايا الأمنية. وعلي خصوص مقترحات خفض الأسلحة النووية الاستراتيجية التي طرحها الرئيس بوش وتلك التي طرحها حول إزالة وتدمير الأسلحة النووية (الاستراتيجية والتكتيكية). ورؤيته للدفاع الاستراتيجي ومشكلة «استنزاف العقول» والحاجة إلي التوصل إلي تفاهم حول تحويل الصناعات الحربية التقليدية.

وأشاد يلتسين «بالتقليد الجديد» فى العلاقات الأمريكية الروسية متجسداً فى حقيقة استعراض واشنطن وموسكو مقترحاتهما النووية بدلاً من إعلانها عبر الصحافة. وأعرب عن اعتقاده بأن مواقفنا (متقاربة تماما).

ورددت «إن هذا أفضل كثيراً من التقليد القديم «تفوق أحد الطرفين». وقد أقنعتني تجربة ثلاث سنوات أنه من دون إرادة كافية علي القمة فلن نحقق الفرص المتاحة أمام بلدينا». وقال يلتسين «لا يسعني الموافقة علي المزيد. فالعسكريون لا يريدون أن يفعلوها بأنفسهم».

ولم يكن يلتسين متلهفاً علي بحث الوضع الاقتصادي. بل كان يحلق عدة أفكار طموحة حول القضايا الأمنية. من بينها بذل جهود أمريكية روسية لإقامة نظام أمني كوني وتمويل مشروعات تشغيل العلماء السوفيت السابقين بهدف القضاء علي مشكلة «استنزاف

المقول، وأبلغني يلتسين بصراحة شديدة أننا كنا نعيش في الماضي بشأن برنامج الأسلحة البيولوجية السوفيتية. ووعد يلتسين «أنه سيزال في غضون شهر، سيتم بعدها السماح لمفتشين دوليين بالوصول إلي الموقع. وعن قضية التحكم والسيطرة في الأسلحة النووية قال إنه يسيطر سيطرة تامة علي كافة الصواريخ الاستراتيجية في الاتحاد السوفيتي السابق، وسيتم إقامة خط هاتفي بين الدول النووية الأربع، وإذا إتفقت الدول الأربع «لاسمح الله فسوف اتحمل مسؤولية الضغط علي الزر، وما لبث أن استدرك قائلاً: «وعلي أية حال وفي غضون أيام قلائل لن تكون موجهة إلي الولايات المتحدة».

وبرغم أن يلتسين ألمح إلي إعادة توجيه الصواريخ الروسية في حديث أدلي به لشبكة تليفزيون إيه بي سي فإن خطورة هذا التعليق أوشكت أن تدفعني للقفز من مقعدي. وتساءلت: «هل لك أن تفسر النقطة الأخيرة عن إعادة توجيه الصواريخ».

ورد بالقول: «إذا أمكنني أنا والرئيس بوش التوصل لاتفاق فلن يتم توجيه أي صواريخ روسية تجاه الولايات المتحدة لأن الدولتين ستكونان حلفاء علي قدر كبير من الفعالية». وقال يلتسين إنه لضمان عدم إعادة توجيه الأسلحة التي لا تخضع لسيطرة مباشرة من روسيا «فإننا ندرس إمكانية إنشاء جهاز صغير لإبطال مفعول الصواريخ أثناء عملية الصيانة الدورية لها في الدول الثلاث».

وبالتطرق إلي جدول أعمال قمة كامب ديفيد القادمة استفسر يلتسين عما إذا كنت أفكر في إصدار بيان مشترك عقب اجتماعي مع الرئيس، وقال: إن مثل هذا البيان سيكون له أهمية دولية. وأومأت بالموافقة وقلت: «علينا أن نتجاوز أربعين عاماً من المشاعر السيئة في بلادنا وسيكون مثل هذا البيان مفيداً»*.

❑ ❑ ❑

* وتدخلت لدي الرئيس وأبرقت له قائلاً: بصراحة أعتقد أن هذا البيان سيكون مهماً لمصالحنا أيضاً. صحيح يحرز يلتسين وسعيه للتقارب معنا، وأعتقد أنه سيدعم أيضاً اقتراحنا بجوهر أنه يلح عليه الآن وتحديداً أننا لم نعد أعداء، إننا لم نعد بلدين متباعدين وبدلاً من هذا علينا أن نكون صديقين بل حليفين. وكذلك فإنه لا يسعي للتعاون بل يسعي للشراكة حقيقية. وكما حدث في البيانين المشتركين في مالطة واشنطن أثناء أزمة الخليج كان لدينا فريق عمل أعد مشروع بيان بليغ.

وكتبت إلي الرئيس في تلك الليلة أن الرئيس يلتسين سيزور أمريكا «كزعيم عازم علي اكتساب الثقة، وعازم أيضاً علي إظهار أنه لاعب فذ علي الساحة الدولية كسلفه. وأظهر أداء يلتسين علي مدي ساعتين في ذلك اليوم وتركيزه علي القضايا الأمنية مدي حرصه ورغبته علي أن يؤخذ علي محمل الجد. كان يلتسين يتحرك بشكل رمزي (وتحديداً مبادرته بإعادة توجيه الأسلح النووية. لأنه يمكن علي أية حال إجراؤها بسرعة وسهولة) لكن أيضاً بأساليب يمكنها حقيقة تغيير طبيعة العلاقات الروسية الأمريكية.* وكنت علي يقين أنه إذا كان لنا أن نواصل هذا النهج فمن المهم أن نمنح يلتسين أقصي ما يمكن أن نقدمه من دعم. وقلت للرئيس من هذه الزاوية: «من المهم للغاية بالنسبة له أن يظهر له في كامب ديفيد أنه حاز علي نفس العلاقة الشخصية الوثيقة التي حازها جورباتشوف».

وقبل مغادرتي موسكو اجتمعت مع وزير الدفاع شابوشنيكوف الذي كان يتولي المهمة الدقيقة بالسيطرة وتنظيم وتفكيك الجيش السوفيتي الكبير باعتباره أرفع مسئول عسكري في كومنولث الدول المستقلة. وبالنسبة لضابط نشأ في المدرسة السوفيتية أظهر شابوشنيكوف احتراماً غير عادي للعملية الديمقراطية لتعزيز العلاقات مع الولايات المتحدة.

وقال في كلمة الترحيب: «علينا أن نتحدث أكثر من مرة. فهذا يساعدنا علي تجنب الأخطاء» وفي سياق وصفه لاجتماع ضم خمسة آلاف ضابط في موسكو أضاف قائلاً: «إن بعض الرؤوس الملتهبة بيننا تقول أنه يتعين علينا توجيه إنذارات نهائية إلي الرؤساء. فهم لا يمكنهم فهم أن الرؤساء منتخبون بواسطة الشعب».

وعن قضية بيع الأسلحة لإيران طمأنني شابوشنيكوف أنه ليس هناك «مشترون في طهران» وانتقد بيعنا الأسلحة إلي حلفاء مثل تركيا. ومثل كوزيريف قال إنه يجب علي الرئيسين بحث هذه القضية في كامب ديفيد. وأشار إلي «أننا بحاجة إلي الاتفاق لا مجرد الحديث».

---

* ومع ذلك فقد أضفت توضيحاً مهماً إلي الرئيس: «علينا أن نتذكر أنه رغم رغبته في تطوير وتعزيز علاقة الصداقة معنا فإن يلتسين قومي روسي حقيقي. فسوف يكون حساساً تجاه أي اتهامات بأنه يقدم تنازلات من جانب واحد وأننا نستغله».

وبرغم استمرار بعض الاختلافات فإنني أعتقد أن شابوشنيكوف شأن يلتسين وكوزيريف كان يؤدي مهمة هامة في وضع بالغ الصعوبة بشكل غير عادي. وقلت له: «قبل أن أغادر أريد أن تدرك أننا نقدر جهودكم، ونتمني لكم التوفيق في مهمتكم الشاقة». وقال: «لا يضايقني أنني أتعامل مع هذه المشكلات، لكن يجب أن أعترف بأنني أحسد بعض أسلافي والأوقات السالفة التي استمتعوا بها، حين كان العدو واضحاً والقضايا تبدو سهلة نسبياً».

ولدي مغادرتي موسكو أثناء واحدة من أعتي العواصف الثلجية التي أشهدها خلال عملي كوزير للخارجية غمرني تفاؤل تجاه ما ينتظرنا من اجتماعات. وفي غضون أقل من شهر علي الاستقلال بدت روسيا مستقرة رغم أنها تعوش مرحلة انتقال. فالقضايا النووية تجري معالجتها. وكان كل الزعماء الذين قابلتهم يلتسين وكوزيريف وشابوشنيكوف علي قدر من الجدية والمسؤولية وكلهم رغبة في التعاون معنا.

روح كامب ديفيد

عقب الاجتماع الأول الذي عقد في الأمم المتحدة لقادة الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن توجهت إلي كامب ديفيد في الأول من شباط فبراير لحضور اجتماع بوش مع يلتسين. ولأن هذه «زيارة عمل» وليست زيارة رسمية لرتأي الرئيس بوش أنه من الأفضل إجراء لقاء غير رسمي في كامب ديفيد. وكما كان الحال في ويوميدج عام ١٩٨٩ مع إدوارد شيفرنادزة وفي عام ١٩٩٠ مع ميخائيل جورباتشوف أمل الرئيس في أن الابتعاد عن واشنطن سيشجع إجراء مباحثات غير رسمية أكثر استرخاء.

وحقاً كان يلتسين مسترخياً. لكنه مثل استرخاء بطل التنس قبل المباراة: ففي ذروة مباراته كان مستعداً وجاهزاً علي الدوام لتصويب الهدف. وفتح الرئيس الروسي الذي تحدث المرة تلو المرة الأخري بدون الاستعانة بمذكرات، موضوع الإصلاح الاقتصادي. وكان هذا الموضوع محل ترحيب. لأنه غاب فعلاً عن مباحثاتنا في موسكو. وقال: «لقد تأخرت في

البدء لخمس سنوات» لأن الإصلاح لم يكن متاحاً بالفعل إلا بعد انهيار الإمبراطورية والأيديولوجية الشيوعية. وقال إن روسيا لديها «برنامج واضح» بدأته بتحرير الأسعار في ٢ كانون الثاني يناير. وأعترف يلتسين بأوجه قصور نهج موسكو مشيراً إلي أنهم لا ينتهجون «خطة تقليدية» لأنه ليس لديهم وقت لتبني إصلاحات في مجال المصارف والضرائب والمجالات الأخري قبل السماح برفع الأسعار.

وفيما حلت «أوقات عصيبة بسبب ارتفاع الأسعار فقد كان أكثر قلقاً حيال أشهر شباط فبراير وآذار مارس ونيسان إبريل التي قال أنها أشهر حاسمة». إننا نأمل في أن يصمد الشعب «فإذا فشلت الإصلاحات فسوف تحل قوي محافظة محل القوي الحالية فتقوم سوف ترفض تلك الإصلاحات. فسوف تقوم لدينا دولة بوليسية، وسوف يحل القمع ويسود سباق التسلح وسوف تهدر مليارات الدولارات علي الولايات المتحدة ويتورط العالم بأسره*».

وأكد أن الغذاء هو شاغله الأول. وقال: «إنني ممتن للجسر الجوي الضخم» لكنه أشار بتأكيد علي أن المرء لا يمكنه إطعام روسيا عن هذا الطريق وحده. وأشار إلي أن الجسر سيتطلب مجهود «عشرات الدول وعمليات نقل ضخمة» من مختلف أنحاء العالم، ووجه الشكر إلي الرئيس لعقد مؤتمر التنسيق منوهاً إلي أنه خطوة بالاتجاه الصحيح.

وعروجاً علي السياسة قال يلتسين: «حتي الآن فإن علاقات التعاون بيننا تسير ببطء. إنني أتحدث الآن عن الأشهر الستة الماضية. إنها تلك الفترة التي كنتم لا تعرفون مع من تتعاملون بين جورباتشوف وروسيا». وأشار إلي أنه يتفهم تأرجحنا لكن «الوضع بات شديد الوضوح الآن عليكم إرسال المعونة إلي روسيا ودول الكومنولث». وأعرب عن اعتقاده بأن التحرك نحو الكومنولث كان «صحيحاً وحتمياً» فعندما انهار الاتحاد كان بوسع الدول أن تتحرك في كافة الاتجاهات لو لم يكن هناك كومنولث. ولكانت هناك أربع دول نووية، ولكان الجيش قد تمزق إلي شظايا.



---

* أشار إلي أن حزبه بقيادة ايجور جيدار من الشباب الموهوب وقال يجب علي الرئيس أن يحمي فريقه من النقد داخل مجلس السوفيت الأعلي وفي أي مكان، وسوف تتهم النقابات جيدار إذا لم يحظ بحماية الرئيس.

وفي الوقت الذي لايزال فيه الكومنولث فتياً فقد كان فعالاً في تقليل الخلافات والنزاعات بين الجمهوريات. وقد أبلغني يلتسين في موسكو بأن الكومنولث «طفل هزيل»، وقال: «إننا لا نريد نشوب صراعات بيننا وبين أوكرانيا. إننا نسعى للتحلي بالمرونة وعدم الالتفاف حول أوكرانيا»*. وأومأ شابوشنيكوف بالموافقة ويلتسين يدلي بأقواله تلك. وخلص إلي القول: «إنه ليس لدي روسيا أي مخططات إمبريالية، وليس لديها أي رغبة في الهيمنة علي الآخرين. إننا نريد أن يكون الجميع علي قدم المساواة في الكومنولث، فالطفل لايزال ابن شهرين، علينا أن نرعاه وألا ندعه يسقط».

وانتقل يلتسين إلي القضية النووية وهو الموضوع الذي أنفق وقتاً طويلاً في الإعداد له وبدأ بالقول: «إن زر الإطلاق معي ثم مع المارشال شابوشنيكوف بعدي. وبوسع رؤساء الجمهوريات الأربع إجراء اتصال فوري. وإذا حدث شيء لاقدر الله فبوسعنا الاتصال علي الفور. ويجب عليّ أن أتحرك وكذلك المارشال شابوشنيكوف. وليس من المتاح فنياً للآخرين السيطرة علي الأسلحة النووية. إنه مستحيل».



وبرغم أنه ما من شيء في مرجعيته يوحي بأن لديه استعداداً خاصاً للاهتمام بالحد من التسلح فقد تطرق يلتسين لكل ما يمكن تصوره من تفاصيل كما لو كان يريد استعراض معرفته فحسب. والأهم من ذلك هو حديثه. وفي لحظة ما بعد أن شرح لنا كيفية تحويل البلوتونيوم ٢٣٩ واليورانيوم ٢٣٥ إلي «قضبان» قابلة للاستخدام في محطات الطاقة النووية المدنية تساءل قائلاً: «ألا أبدو مثل خبير؟».

كان شاغله الأعظم هو انتشار الأسلحة النووية، وأعظم التهديدات خطراً تلك القادمة من الجنوب. وأشار إلي «أن صدام حسين ليس في وضع يمكنه من سرقة رأس حربية من أعلي

* أشار يلتسين فيما بعد إلي وجود ١١ مليون نسمة من أصل روسي في أوكرانيا وقال «لا أعتقد أن أوكرانيا ستقدم علي اتخاذ مواقف حادة في ضوء هذه الحقيقة». وقال أيضاً إن أوكرانيا عامل رئيسي لزعزعة الاستقرار، لكنه أكد علي علاقاته الشخصية الطيبة مع كرافتشوك وإني أتحدث معه باستمرار عبر الهاتف.

صاروخ لكن يمكنه سرقة اليورانيوم والبلوتونيوم من مستودع، ويمكنه بهذا أن يبتز العالم. إن الروس أيضـاً «فى عـجلة من أمرهم لإزالة الأسلحة النووية التكتيكية من الدول المستقلة الأخرى من قازاقستان أولاً لمنع سقوطها فى أياد إسلامية».

وعن ظاهرة «استنزاف العقول» استعرضت فكرة مركز العلوم. وأبدى يلتسين موافقته على أن هذه «قضية جوهرية يتعين معالجتها» وأنه يجب علينا العمل سوياً حول هذه الفكرة وقال: «لدينا ألفا خبير نووى وإذا استطعنا إقامة برنامج مشترك سيكون بوسعنا توظيف الكثير منهم».

وعندما حـان وقت التوقف لتناول الغداء تدخل يلتسين قائلاً: «هناك قضية واحدة أخيـرة، هل لازلنا أعداء أم لا؟». وقـال الرئيس: «لا لسنا أعداء». وقدم ليلتسين المسودة النهائية للبيان المشترك الذى يعقده فى موسكو مع الرئيس الروسى. وجاء فيه: «إن هذا يبعدنا عن الحقبة القديمة». وأذن البيان بحقبة جديدة من «التعاون والصداقة الروسية الأمريكية». وأعلن رسمياً انتهاء أكثر من سبعة وأربعين عاماً من التنافس. كان يلتسين متهلفاً لأن يضيف إلى البيان عبارة: أن العلاقات قد انتقلت إلى مرحلة التحالف. لكن الرئيس عزف عن الوصول إلى هذا الحد. وقال: «إننا نستخدم هذه اللغة الانتقالية لأننا لا نريد أن نتصرف وكأننا حللنا كل المشكلات».

وفى مؤتمر صحفى عقد عقب الغداء أصدر الرئيسان البيان المشترك وأعلنا أنهما سيتبادلان الزيارات الرسمية قبل نهاية العام. وأفاض الزعيمان فى تبادل الإشادة. وقال الرئيس: «إن روسيا والولايات المتحدة تدشنان علاقة جديدة تستند إلى الثقة». وتلاه يلتسين: «من الآن فصاعداً لم نعد نعتبر أنفسنا أعداءً محتملين».

ولدى عودتنا فى تلك الليلة تأملت الاجتماعات الرئاسية التى شاركت فيها خلال عملى فى الحكومة، وأيقنت تماماً من مدى خصوصية وتاريخية هذا الاجتماع المكثف مع يلتسين. فللمرة الأولى لجتمع رئيس روسيا الديمقراطية المنتخب مع رئيس أمريكى. وبدأ الاثنان معاً طريق التعاون. وساورتنى نفسى بالحديث حول «مابعد الاحتواء».

إلي محطة كيشنيف

بعد أكثر من أسبوع من مغادرة يلتسين الولايات المتحدة غادرت واشنطن في جولة تستغرق عشرة أيام تشمل الاتحاد السوفيتي السابق بدءً من مولدوفا علي الحدود مع رومانيا عبر القوقاز وآسيا الوسطي إلي سيبيريا. فانهيار الاتحاد السوفيتي حرر روسيا بل أوجد بجانبها إحدي عشرة دولة مستقلة (أربع عشرة إذا أدخلت في الحساب دول البلطيق) تبحث جميعاً عن هوية دولية ونموذج مناسب للتنمية سياسياً واقتصادياً، وللمرة الأولي خلال عقود بل وقرون تحررت تلك الدول من سيطرة الكريملين. وباعتباري أول مسئول رفيع المستوي يزور معظم تلك الدول كنت أريد تعزيز سيادتها واستقلالها باعتبارها (حاجزاً أمام أي نزعة توسعية روسية، وفي آسيا الوسطي لمواجهة النفوذ الإيراني). والتأثير علي حكوماتها للتحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة. وكانت تساورني بعض أوهام. كنت علي يقين من أن الكثير من تلك الحكومات يتولاها بيروقراطيون سوفيت تحولوا إلي ديمقراطيين، وأن ثقافاتهم السياسية تضرب بجذورها بعمق في التسلطية لا الديمقراطية. ولكن بعد هزيمة الشيوعية السوفيتية كانت مكانتنا في ذروتها، وأملت في التأثير علي الأحداث من بعد.

وربما كانت تلك الجولة أكثر جولاتي سحراً خلال عملي كوزير للخارجية، فمعظم الأماكن التي زرتها منغلقة عن الغرب بعقود. كما أن عدداً من ثقافات المنطقة غير معروف خارجها بالمرة. كانت معظم الوقفات مختلفة تماماً عن روسيا وعن موسكو وعما شعرت به في جولاتي في الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، وكثيراً ما راودتني نفسي بأنه يجب علينا الكف عن أن نسأل أنفسنا عن سبب انهيار الاتحاد السوفيتي. فمع هذا التنوع الشاسع للشعوب التي تقطن تلك المساحة الشاسعة علينا أن نتساءل كيف استطاع أن يعمر طويلاً.

كانت الرحلة في حد ذاتها كابوساً لوجستياً. فبعض الدول المستقلة حديثاً لا يعنيها سوي تكبيد الزوار أقصي قدر من المشقة، وفي الواقع لم يكن من الواضح في البداية أننا سنستطيع القيام بالجولة علي الإطلاق: فمعظم مطارات دول الاتحاد السوفيتي السابق مغلقة لنقص الوقود، واضطر ليون دينت إلي حمل آلاف الدولارات نقداً لندفع ثمن الوقود حتي نستطيع الانتقال من مكان إلي آخر. فلن يقبلوا أي بيع لائتماني حتي من الحكومة الأمريكية في أماكن

مثل دوشنبه وبشكيك، وفي معظم الرحلة اضطررنا لحمل المياه معنا. ثلاثمائة زجاجة مياه حيث تكدست كابينة الطائرة بصناديق المياه المعدنية في كل مكان لدرجة تندر معها العاملون معي بأننا سنموت غرقاً لا حرقاً إذا تحطمت طائرتنا. وحملنا أيضاً الكثير من غذائنا. وكان من الصعب أيضاً التمتع بالفندقة والمياه الساخنة. وفيما اعتبرت هذا شيئاً مثيراً بل ممتعاً فلم أكن متأكداً من أن كافة العاملين معي يستمتعون به نفس استمتاعي به.



وقبل توجهنا إلي دول الكومنولث توقفت صباح العاشر من شباط فبراير في قاعدة راين ماين الجوية الأمريكية في فرانكفورت بألمانيا لتدشين احتفال البدء بعملية بث الأمل، ولمسحه الطيبة أنجز ريتشارد أرميتاج المهمة المنوطة به. وفي الحقيقة فقد حشد مساعدات سخية، وتمكن من جذب مساعدة دول أخري للمشاركة في الجسر الجوي.

وفي ذلك المساء أقلعنا قاصدين وجهتنا الأولي كيشنيف، مولدوفا مجرد شريط محصور بين رومانيا وأوكرانيا، وهناك التقيت الرئيس ميرسيا سنيجور، وأكبر التحديات التي تواجهه هو محاولة احتواء أنشطة الانفصاليين الروس في منطقة الدنيستر (تلك الأنشطة التي تحولت للأسف إلي أعمال عنف صيف ذلك العام). وأبلغته اعتزام الولايات المتحدة دعم اعتراف كامل بمولدوفا في القريب شرط أن تلتزم الحكومة بضمانات معينة*.

وعكست تعليقات سنيجور لي ما اكتشفت أنه موضوع متكرر أثناء الجولة. فقد قال بصراحة: «إن هذا التحول والانتقال أدي إلي تفكك الكثير من الصلات التي ربطت الاتحاد

* في الوقت الذي اعترفت فيه الولايات المتحدة باستقلال كل الجمهوريات السوفيتية السابقة فإن تبادل العلاقات الدبلوماسية اعتمد علي تلقي ضمانات معينة ضغطت بها علي كل رئيس التقيته في الجولة. ومن بين تلك الضمانات الالتزام بمبادئ منظمة الأمن والتعاون في أوروبا، ومواثيقها الخمسة. انتخابات ديمقراطية حرة، احترام حقوق الإنسان، بما في ذلك حقوق الأقليات وحرية الهجرة والانضمام إلي معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، والانضمام إلي المعاهدات الدولية الخاصة بأسلحة الدمار الشامل. ورقابة صارمة علي الصادرات وعلي الاتفاق العسكري، وإقامة اقتصاد السوق الحرة مع اتفاقية لدفع نصيب عادل من الالتزامات المالية للاتحاد السوفيتي.

السوفيتي معاً وخلق مشاكل يتعين حلها. فنحن هنا في مولدوفا ندرك أنه يتعين علينا أن نغير النظام. إننا نريد الانفتاح علي العالم الخارجي وللولايات المتحدة موقع مهم خاص في هذه العملية.

ورددت قائلاً: «ليس من اليسير علي الدول التحرك نحو الديمقراطية والسوق الحرة. خاصة عندما تكونوا أبحرتم في الاتجاه المعاكس لفترة طويلة. لكننا سنواصل تأييدكم طالما أيدتم المبادئ التي أعلناها». وبحثنا أيضاً الإصلاح الاقتصادي في كل محطة توقفنا بها. وطلبت من ليدهيوبت استعراض عدد من الاتفاقيات (النموذجية) (علي سبيل المثال معاهدة ضرائب واتفاقيات استثمار ثنائية) وهي الأسس المعهودة للعلاقات التجارية. (ومع انتهاء جولتنا في آسيا الوسطي بدأنا نطلق علي ليد «الأب الروحي للرأسمالية الآسيوية»).

مرجل في القوقاز

وتوجهنا بعد ظهر ذلك اليوم بإتجاه الجنوب الشرقي لنحلق فوق البحر الأسود وجبال القوقاز التي ناطحت قممها المكسوة بالثلوج السحب لتسطع تحت أشعة الشمس. ومن الطائرة شاهدنا جبل أرارات الذي يعتقد أن سفينة نوح استوت عليه، ولدي هبوطنا في يريفان عاصمة أرمينيا سرعان ما لمسنا الأثر الناجم عن الزلزال القوي الذي ضرب البلاد واستمرار الحرب الوحشية في إقليم ناجورنو كاراباخ. وأسفرت هذه الحرب عن فرض أذربيجان حظراً علي الطاقة علي أرمينيا. ورغم الجمال الذي تتمتع به المنطقة فالقوقاز أشد مناطق الصراعات السياسية في العالم بما ينطوي علي خطورة بالغة لدرجة دفعتنا إلي عدم الذهاب إلي جورجيا بسبب الحرب الأهلية الدائرة هناك.

ولم أر مطلقاً مدينة في الاتحاد السوفيتي السابق تنعم بإضاءة جيدة وفي يريفان كانت الإضاءة ضعيفة إن لم تكن منعدمة علي الإطلاق. وكانت التدفئة ضعيفة أيضاً في المباني، وعلي نقيض البهجة التي تشيع في كيشنيف بدت يريفان مخيفة بل مروعة تخلو شوارعها الهادئة من أي مظهر للحياة تقريباً في الليل. وبعد استراحة في بيت ضيافتنا الشاسع

المترامى الأطراف حيث كان بعض معاونى يبعدون ثلاثمائة متر علي رغم أننا نقيم فى مبني واحد، توجهت للقاء الرئيس ليفون بتروسيان بمقر إقامته علي عشاء عمل. (كان وزير خارجيته رافي هوفانيسيان مواطن أمريكي من لوس انجيلوس وأنيق لدرجة بدا أفراد طاقمى الأمنى فى الإشارة إليه «بأنيق الوادى»).

ودارت معظم مباحثاتى تلك الليلة حول الوضع فى ناجورنو كاراباخ ذلك الجيب الأرمينى فى أذربيجان الذى يقاتل من أجل الاستقلال. وعلي غرار الوضع فى منطقة الدنيستر فى مولدوفا كان الصراع الأرمينى الأذربيجانى حول ناجورنو كاراباخ يجسد القومية العرقية فى حقبة ما بعد الاتحاد السوفيتى.

وبدأت الحديث بالقول: «يسرنا أن نكون فى أرمينيا الحرة الديمقراطية المستقلة. فالولايات المتحدة تربطها علاقة خاصة مع أرمينيا لكن يتعين علاج الوضع فى ناجورنو كاراباخ عبر الوسائل السلمية».

وقال الرئيس بتروسيان: «إننى علي يقين من أن الضمان الوحيد لاستقلال أرمينيا هو العيش فى سلام، إننا نسعي للتوصل إلي حل سلمى لقضية كاراباخ. ونحن نشارك فى المفاوضات الرامية إلي التوصل إلي حل سلمى لهذه القضية». ويتمتع بتروسيان بأسلوب سهل شعبى ينفذ إلي قلب الموضوع مباشرة. واستطرد قائلاً: «إن القضية قضية تقرير مصير فى المقام الأول. فبالأمس تحدثت مع الرئيس الآذرى ووافق علي أن الحل السلمى هو الطريق الوحيد».

وكنت علي ثقة من أنه بينما لا تكفل تلك الضمانات إنهاء الصراع فإنها خطوة مؤكدة فى الاتجاه الصحيح: «وأريد أن تتأكدوا من أنه إذا كان بوسع الولايات المتحدة المساعدة فعليكم أن تطلبوا ذلك علي الفور. وسوف نسارع بقول لا إذا لم يكن باستطاعتنا.. إن أمامكم أنتم وأذربيجان مهمة ضخمة تنتظركم لبناء الاستقلال. فهذا عمل ضخم فى حد ذاته. فمن المهم عدم تبديد الوقت والموارد والاهتمام».

واختتم بتروسيان بالقول: «بقدر ما بذلناه في أرمينيا لتجاوز الماضي المأساوي فإن ناجورنو كاراباخ قد تتسبب في العودة إليه. إن مجرد وجودكم سيكون عامل استقرار في المنطقة».

❑ ❑ ❑

وفي اليوم التالي قمنا برحلة قصيرة لساعات إلي باكو عاصمة أذربيجان حيث شاهدنا الجانب الآخر للصراع. وكان أول شيء تقع عليه أعيننا في باكو هو رافعات البترول المكدسة قبالة بعضها، وخطوط الأنابيب التي كان معظمها فوق الأرض. وكانت رائحة النفط تفوح في كافة أرجاء المدينة، وتذكرت شبابي لبرهة عندما كان يحلو لي كثيراً القيادة عبر منطقة جوزي جريج بايتاون المتاخمة لهيوستون واستنشاقي نفس الروائح ورؤيتي لنفس المشاهد. كان الشيء الثاني الذي شاهدته هو الفوضي الشاملة: فقد اقتحم وزير خارجية أذربيجان سيارة وفدنا. كما تسبب الرئيس عياض مطلبوف في تأخير سفري لمحطتي التالية حيث تحول «مجرد غذاء عابر إلي وليمة ضخمة. لكن الشيء الثالث الذي تأكدت منه هو أن الجميع يتبني وجهة نظر تختلف مائة وثمانين درجة مع ما سمعته الليلة السابقة في أرمينيا. وللحظة ساورتني فكرة أن وسواس خناس أعادني إلي منتصف عملية سلام أخري.

وعندما التقيت بالرئيس مطلبوف ألقي بكل مسؤولية الأزمة كالمتوقع علي النزعة التوسعية الأرمينية ومحاولة الاحتواء لتدمير حكومته. وكانت روايته أكثر مرارة وتشاؤماً عن بتروسيان. وشرح قائلاً: «إن الاتحاد السوفيتي برئاسة جورباتشوف وروسيا برئاسة يلتسين تتخذ موقفاً مدمراً ضد أذربيجان. كما أن الأرمن في الشتات يؤثرون في وسائل الإعلام العالمية».

وقلت له بحزم، في الوقت الذي لست فيه خبيراً بكل أوجه قضية ناجورنو كاراباخ فإن لدي أرمينيا وأذربيجان ما يكفي من المشاكل «ولسنا في حاجة لإضافة عبء جديد إلي الأزمة» وأكدت مجدداً استعداد الولايات المتحدة لبذل كل ما تستطيع لمساعدة الأطراف علي

التوصل إلي حل عبر التفاوض، لكننا نؤيد جهود الوساطة التي تقوم بها روسيا وقازاقستان ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا.

وقبل أن أغادر باكو بعثت برسائل أصف فيها مباحثاتي حول ناجورنو كاراباخ إلي اندريه كوزيريف ونور سلطان نزاربايف اللذين يتولیان جهود الوساطة في الصراع. وفي الوقت الذي أسرني فيه تير بتروسيان ومطاليوف باعتبارهما «زعيمان عمليان يقدران تماماً مدي تعقيدات الصراع بينهما». وأبرقت للرئيس بوجهة نظري بأنه يتعين علينا أن نتفادي المشاركة المباشرة في التوسط في هذه الأزمة المستعصية. وكتبت له «بعد الاستماع لكلا الطرفين فإنني أشد اقتناعاً عن ذي قبل بأنه يتعين أن نساند جهود روسيا ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا للتوسط للتوصل إلي تسوية».

لعبة «جديدة كبيرة» في آسيا الوسطي؟

وبعد مرور خاطف علي الجنود الأمريكيين الذين وصلوا لتوهم إلي باكو برفقة شحنة في عملية بث الأمل، توجهنا عبر القوقاز وآسيا الوسطي إلي عشق أباد، عاصمة تركمانستان*.

أما وقد سبقت لي زيارة قازاقستان وقيرغيزستان كنت متلهفاً لزيارة المزيد من دول آسيا الوسطي والأرض التي دخلت بسببها بريطانيا وقوي أوروبية أخري «لعبة كبري» تنطوي علي مخاطر دبلوماسية جمة في القرن التاسع عشر. وكنا بالطبع نشعر بالقلق حيال إيران، ونؤيد مساعي تركيا لجذب دول آسيا الوسطي لدائرة نفوذها بقدر أكبر.

* كان أوديباج الذي أدرك انطباعاً جيداً للوفد الصحفي المرافق قد ضمن هبوط طائرة أمريكية من طراز سي٥ وسي ١٤١ أو سي١٣٠ محملة بالأغذية أو الأدوية في كل محطة نزل بها.

. وفي الوقت الذي كانت تنفرد فيه مولدوفا وأرمينيا وأذربيجان فإن دول آسيا الوسطي شديدة الغرابة بالفعل. وهي حقيقة اتضحت لي أكثر فأكثر لدي تحليقنا علي ارتفاع منخفض فوق صحراء قره قم للهبوط في عشق أباد حيث كان بوسعنا أن نري إيران التي لا تبعد سوي عشرين ميلاً فحسب. وبمجرد خروجي إلي المدرج استقبلني مجموعة من الرجال في زيهم التقليدي وهم يرتدون قبعات ضخمة مصنوعة من جلد الغنم. وفيما نحن في طريقنا إلي قصر الرئاسة اصطفت الجماهير تلوح لنا. فقد كان اليوم يوم عطلة خصيصاً لهذا الغرض. (وهو تقليد يضرب بجذوره إلي الاتحاد السوفيتي السابق).

واجتمعت مع الرئيس صابر مراد نيازوف في خيمة تركمانية مسقوفة بالخشب منصوبة بساحة الداشا الخاصة به. ولدي دخولنا إلي الخيمة قدم لي نيازوف ثوباً فضفاضاً مصنوعاً من جلد الرنة (من أيائل أمريكا الشمالية) ودسنا علي كل التقاليد الدبلوماسية وافترشنا الأرض.

وبدأت الاجتماع باستعراض الضمانات المطلوبة لإتمام الاعتراف الدبلوماسي الأمريكي مع نيازوف الذي أكد التزامه بها جميعاً. وعندما حل دور ضمانة عدم انتشار الأسلحة النووية أبلغني أن لدي تركمانستان ثلاث مجموعات من الأسلحة النووية التكتيكية من الجيش السوفيتي السابق. ومع ذلك فقد أبدي التزامه بمنع الانتشار النووي (ولأننا نعرف وجود الأسلحة النووية التكتيكية فقد راجعت الوكالة ومسئولي الدفاع، وعلمت أن موسكو فككت وأبطلت مفعول الأسلحة دون علم التركمان).

وعن قضية الإصلاح الاقتصادي قال نيازوف بكل بساطة: أننا نحتاج المساعدة. إننا نؤيد فكرة السوق. لكننا نحتاج رجال أعمال منكم. كان اقتصاد تركمانستان من بين أكثر الاقتصاديات البدائية في الجمهوريات السوفيتية السابقة، ووعدته باستعدادنا واستعداد الآخرين للمساعدة. وعندما طلب منا إيفاد «من أربعين إلي خمسين رجل أعمال يكونون علي استعداد لاستثمار مليون دولار علي الأقل في مشروع جديد». أوضحت له «أنه في الوقت الذي لا يعمل فيه اقتصادنا بهذه الطريقة فيسرنا أن نتفاوض معكم حول إطار قانوني تشعر فيه الشركات الأمريكية بالثقة في الاستثمار هناك».

ثم انتقلنا إلي غرفة مجاورة حيث بدأ مساعدونا في تناول الصنف السادس في وليمة تركمانية يقدم خلالها خمسة عشر صنفاً تشمل الطيور المحشية والضأن اللذيذ من كافة الأشكال والأحجام. وأصر مضيفونا التركمان - إحساساً منهم بأنه من غير اللائق أن نبدأ أنا والرئيس الوليمة من منتصفها علي ضرورة البدء بتقديم أول صنف. ودائماً ما كنت أزهو بشهيتي المفتوحة التي لا ترفض شيئاً، لكن هذه الأصناف كثيرة بل وكثيرة للغاية. وقلت لتوم نيلز وتالبوت: «لم أعد أستطيع تناول أي شيء آخر فلا تتخيلان كم أكلنا في تلك الخيمة».

وإجمالاً فقد كان عشاءً أسطورياً (إن لم يكن خرافياً اكتمل بالموسيقي والرقص والغناء وعقب الأنخاب المطولة وقف الرئيس نيازوف إيذاناً بالانتهاء وأخيراً غادرنا لأخذ قسط من الراحة وهضم تلك الوجبة.



وعقب قضاء يومنا التالي في زيارة متحف ومصنع السجاد غادرنا صحراء تركمانستان باتجاه جبال دوشنبه عاصمة طاجيكستان. وفي الوقت الذي تعد فيه طاجيكستان واحدة من أقل الدول تقدماً من جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق فإنها واحدة من أثراها من ناحية البيئة الطبيعية . ويوجد بطاجيكستان المتاخمة علي ارتفاع شاهق بباكستان وأفغانستان في منتصف سلسلة جبال بامير* (سقف العالم كما قيل لنا)، أعلي قمتين في الاتحاد السوفيتي السابق ويقع أكثر من نصف البلاد علي ارتفاع يتجاوز العشرة آلاف قدم.

* سلسلة جبال شاهقة الارتفاع في آسيا الوسطي يقع معظمها في طاجيكستان ويضم جزء منها حدود سينكيانج الويغور في الصين وجامو وكشمير والهند وأفغانستان. تتجاوز ارتفاعات بعض قممها العشرين ألف قدم، ويبلغ ارتفاع أعلاها في الاتحاد السوفيتي السابق ٢٤٥٩٠ قدماً أما في الصين فيبلغ ارتفاع أعلاها ٢٥٣٢٥ قدماً (المترجم).

وبينما يمتلك الطاجيك موارد معدنية غنية فلديهم القليل من الأرض الصالحة للزراعة. وعلي خلاف دول آسيا الوسطي الأخري فإن معظم الطاجيك يتحدثون لغة أقرب إلي الفارسية، وهكذا تربطهم صلات وروابط أكبر مع طهران، وفي ضوء هذا فإن إيران كانت موضوعاً أساسياً لمباحثاتنا.

كان اجتماعي لمدة ساعتين مع الرئيس الطاجيكي رحمن نبييف مماثلاً لكل اجتماعاتي خلال الأيام القليلة الماضية. وأفرط في الإشادة بالولايات المتحدة ووافق علي العمل علي الوفاء بكل الضمانات التي طلبتها. وأكد رغبته في الانتقال إلي اقتصاد السوق، وأشار إلي أن التعدين قد يكون الطريق المؤدي إلي ازدهار طاجيكستان. وقال: «إن بلدنا ليست بلداً كبيراً. لكنه غني بموارده الطبيعية فعندما وزع الله الأرزاق وهبنا الجبال» وقال أيضاً: «إنه يوجد في بلاده أعلي معدل للمواليد في العالم ونحن لا نريد ذلك».

وأشار نبييف بوضوح إلي أن الإيرانيين يبدون اهتماماً كبيراً بطاجيكستان، وأوضحت أنه في الوقت الذي تتفهم فيه الولايات المتحدة رغبة طاجيكستان في إقامة علاقات جيدة مع جيرانها الأكبر «فإن إيران تثير المشاكل لكثير من الدول وليست للولايات المتحدة وحدها» وحذرت نبييف من أنه في الوقت الذي يسعي فيه النظام الإيراني إلي تصدير الثورة فإن المرء ليس في حاجة إلي بللورة سحرية ليري فيها لماذا تبدي إيران اهتمامها بطاجيكستان وقلت بوضوح: «لو طلبت نصيحتي حول كيفية التعامل مع إيران فسوف أرد. عليكم بتوخي الحذر». وأومأ نبييف بالموافقة.

وعقب اجتماعنا ارتديت بعض الملابس الفضفاضة وزرت قرية راميت بوسط جبال بامير علي مسيرة ساعة بالسيارة من دوشنبه والتقيت هناك بعمدة القرية وأبنائه الثمانية بمنزله. وكان جميع القرويين يرتدون الملابس التقليدية الملونة، وكان الكثير من الرجال ذوي لحي بيضاء مرسلة. وبعد الترحيب القروي «الشاي المثلج» توغلنا في الجبال لتفقد محمية طبيعية بالغة الروعة. وأبلغني المرشدون أن أفغانستان تقع علي الجانب الآخر لقمة الجبل التي تطل علينا وعندما انزلقت طاجيكستان في الحرب الأهلية التي حرضت عليها المقاومة الأفغانية جزئياً بعد أشهر لم أفاجأ مطلقاً.



وفي الصباح التالي غادرت جبال طاجيكستان إلي ايكاتر ينبورج سفير دلوفسك سابقاً مسقط رأس بوريس يلتسين إحدي المدن الصناعية في روسيا. وبينما أمضيت معظم يوم كامل في زيارة شيليا بنسك، أتيحت لي الفرصة لتفقد الموقع الذي أعدم فيه القيصر نيقولاس الثاني ومشاهدة ما يعتقد أنه رفاته ورفات معظم أفراد عائلته. وأتيحت الفرصة بمحض الصدفة. وأثناء عشاء مع حاكم المنطقة أبلغني أن الرفات قريبة، واستفسر عما إذا كنت أريد أن أشاهدها. وأجبت بالطبع، وفي اليوم التالي رتب لي حاكم المنطقة روسيل جولة في الموقع.

ومنذ الثورة البلشفية دأبت الحكومة السوفيتية علي نفي حدوث الإعدام، وأخضعت الموقع لحماية لصيقة. وفي الحقيقة فإن كبير العلماء الذي اكتشف الرفات أبلغني أنه كان يعرف بوجودها قبل عشرة أعوام. لكنه كان خائفاً من إبلاغ أحد. وأطلعني علي صورة بالأبيض والأسود لجندي يقف علي حراسة الرفات المدفونة. وقد توفي الجندي وقدمت عائلته الصورة إلي العالم، وهكذا اكتشف المكان الذي دفن فيه القيصر.

وبدأنا زيارة الموقع الفعلي الذي اغتيل فيه القيصر وأهم معالمه فقط زهر القرنفل الأحمر تغطيه الثلوج وصليب روسي أرثوذكسي.

ثم انتقلنا لمشاهدة الهياكل العظمية، وكانت رائحة الفورمالديهايد النفاذة تشي تماماً بإنك في مشرحة. وأسفل السلم في غرفة صغيرة ضعيفة الإضاءة كانت الهياكل العظمية ممددة فوق طاولات مغطاة بمفارش بيضاء، ورأيت مواقع اختراق الطلقات النارية عظام الضحايا بعد أن حصدت الطلقات الأولي أرواحهم. كانت جمجمة القيصر تحتوي علي فك أسنان ذهبية كما أن جمجمة زوجة القيصر كان بها عدد من الأسنان، وأبلغني كبير العلماء أنهم لم يستطيعوا بعد التعرف علي الهياكل للابن اليكسيس وإحدى البنات.

وكان الروس يريدون التأكد من مصدر مستقل أن هذه العظام حقيقية، وهكذا فقد وافقت علي إعارتهم عدداً من خبراء الطب الشرعي من مكتب التحقيقات الفيدرالي ومن قواتنا المسلحة.



وغادرت روسيا لمحطتنا الأخيرة في آسيا الوسطي أوزبكستان يوم السبت الخامس عشر من شباط فبراير. وتاريخياً فقد هيمن الأوزبك علي المنطقة. يعود ذلك في جانب منه إلي أنهم يشكلون نحو أربعين في المائة من سكان آسيا الوسطي، واتضح لي أن الرئيس إسلام كريموف يعتقد أن لتلك الهيمنة ما يبررها. وقال لي: إننا أفرطنا في التركيز علي قازاقستان بالبدء بزيارتها.

وأمضي كريموف تلك الشخصية المتسلطة أكثر منها ديمقراطية ثلاث ساعات يعدد تفصيلاً التجاوزات التي تعرضت لها أوزبكستان علي أيدي النظام السوفيتي البائد. ومع ذلك فقد أعرب عن تقديره والتزامه بالمبادئ الخمسة التي أعلنتها في أيلول سبتمبر١٩٩١. ولدي إعلانه الموافقة أوضح لي أنه يحتفظ بنسخة من تلك المبادئ في مذكرة يضعها بجيب معطفه، ورغم سروري لسماع التزام كريموف بتلك المبادئ لم يكن سجله في اتباعها يبعث علي الارتياح. وقلت له: «إنني سعيد بتأييدكم لمبادئنا لكننا معنيون أساساً بالتطبيق». وعندما ألححت عليه في قضية رفض الحكومة السماح بتسجيل أحزاب المعارضة السياسية، بادر في البداية بالدفاع عن موقف حكومته بالزعم بأن الأحزاب التي يعترض عليها إما مرتبطة بليبيا أو بالكي جي بي. وعندما ضغطت عليه أكثر وافق أخيراً علي (تخفيف) شروط تسجيل الأحزاب. وفي الحقيقة فإن كريموف الأشبه بالقرصان أخبرني عن لقاء زعيمي المعارضة إيرك وبيرليك اللذين تذكرني شجاعتهما في وجه ممارسات كريموف غير الديمقراطية بجماعات المعارضة التي التقيت بها في بلغاريا ورومانيا عام١٩٨٩.

ولم تكن زيارة أوزبكستان شأن كل زياراتي في آسيا الوسطي لتنتهي إلا بوليمة. وبعد الوليمة التي تتجاوز أصنافها العشرة أصناف جاء دور الترفيه ببعض الأغاني الشعبية تلتها الرقصات.

وفي اليوم التالي رافقنا الرئيس كريموف في طائرته إلي مسقط رأسه مدينة سمرقند التاريخية القديمة. ومدينة سمرقند مدينة بالغة الروعة تعد أحد المعالم البارزة علي طريق الحرير العظيم الذي ربط آسيا بأوروبا ومن مرصد أولوج بك حتي نصب جوري أمير* كان كل مشهد وصوت يذكرنا بصدي ورسوخ ثقافة آسيا الوسطي.

وبينما نحن نطوف حول المدينة التي تشير بعض الاكتشافات الأثرية أن تاريخها يعود إلي ثمانية وثلاثين قرناً خلت كنت متوقفاً أنه تحت الطبقة الخارجية الناعمة الهادئة ترقد حزازات عرقية عميقة الجذور. ففي الماضي لدعي الطاجيك سيادتهم علي مدينة سمرقند وعلي مدينة بخاري الأوزبكية وفي الحقيقة كان الاتحاد السوفيتي السابق مزيجاً من المجموعات العرقية واللغوية المتباينة.

وما يدعو للأسي أن الشيوعية قد أثقلت كاهل كافة الدول الجديدة بالأعباء. فأولاً: أعجز التخطيط المركزي اقتصاديات تلك البلاد وشوهها إلي حد كبير علي الأقل. ثانياً أدي فرض الماركسية اللينينية تلك الأيديولوجية والمبدأ التنظيمي الغريب إلي تجميد الحزازات العرقية عميقة الجذور، والصحيح أن الشيوعيين، وخاصة الستالنيين قاموا عن عمد بتعديل الحدود وتهجير السكان من منطقة لأخري لوضع كل قومية في مواجهة أخري للحفاظ علي قبضة موسكو، وخلق هذا الجمع صراعا شريراً ما بين الأعراق لجميع التنافس القومي، وسرعان ما تجاوز هذا الخطر المخاوف من نشوب حرب نووية باعتباره التحدي الأمني البارز في عالم ما بعد الحرب الباردة ليس في أوراسيا بل في قلب أوروبا ذاتها.

*ضريح يضم تامرلان وأولوغ بك وآخرين من سلالة تيمور، بني في سمرقند في القرن الخامس عشر يوجد بداخله تشكيلات فنية مصنوعة من الفيروز المطعم بالذهب وتعلوه قبة بالغة الزرقة وجري ترميمه عام ١٩٦٧ (المترجم).

الفصل الثالث والثلاثون

الكابوس الإنساني في البوسنة

هناك أناس يموتون بالفعل إننا لا نتحدث بالسياسة بأية حال.

حارس سيلاجيتش

وزير خارجية البوسنة

إلى الوزير بيكر ١٤ نيسان إبريل ١٩٩٢

بمجرد اليوم أين النهاية؟!

جون ميجور

رئيس الوزراء البريطاني للوزير بيكر

٢٢ آيار مايو ١٩٩٢

أثناء وجودي في يوغسلافيا في ٢١ حزيران يونيو ١٩٩١ للتحذير من انزلاقها إلي الصراع والفوضي كانت يانيا لونشار قرينة وزير خارجية يوغسلافيا تقدم سوزان إلي شخصيات المجتمع وترافقها في زيارة معالم بلجراد. تلك المدينة التي تعيش هدوءً رهيباً في بلد ينزلق نحو الحرب. كان محور الجولة مأدبة غداء أقيمت علي شرفها. وحضر المأدبة قرينات الشخصيات السياسية والقانونية والفنية والمهنية التي تشكل النخبة في يوغسلافيا. لكن المأدبة لم تكن مجرد مناسبة اجتماعية عادية. لأن الحديث في المأدبة ككل الأماكن في المدينة في ذلك اليوم كان يدور حول الحرب وحتميتها.

وطالما سمعت سوزان مراراً: «إننا لا نريد الحرب لكننا نتجه نحو خوضها» وقالت لي لاحقاً في ذلك اليوم: إن الأمر برمته محير لأن النسوة يمثلن مختلف القوميات ولا أحد يريد العنف لكن الجميع يتوقعونه. وتساءلت: «ماذا عن الزعماء الذيذين أليس بوسعهم عمل شيء؟ وتلقيت الإجابة بأنهم سجلوا أيام تيتو ولم يعد لهم نفوذ حقيقي. وسألت أكثر من واحدة من الحضور «لكنني لا أفهم لماذا ستخوضون الحرب إذا كانت أي منكن لا تريدها ؟» .

وفي إشارة واضحة إلي الزعيم الصربي سلوبودان ميلوسفيتش ونظيره الكرواتي فرانيو توديمان أبلغتها عدة سيدات «إن الصخرتين الجامدتين ليس أمامها طريق آخر» .

وجاءت هذه الرؤية المتشائمة متسقة مع شواغل برينت سكوكروفت ولاري إيجلبيرجر اللذين أمضي كلاهما سنوات في يوغسلافيا (فقد عمل سكوكروفت ملحقاً عسكرياً وإيجلبيرجر سفيراً» وخرجت بانطباع قاتم من زيارتي لبلجراد ذلك اليوم. وكما كتبت للرئيس لدي عودتي من البلقان في حزيران يونيو» إن زيارتي ليوغسلافيا كانت محبطاً تماماً. وبصراحة شديدة فإنني أعتقد أنه من السهل التعامل مع شامير والأسد عن محاولة التأثير علي ميلوسفيتش وتوديمان.

«إن ما لمسته في يوغسلافيا هو أجندات غير واقعية تسيطر علي اللاعبين السياسيين» والعرف يملؤني من أنه سيكون من الصعوبة البالغة الحيلولة دون وقوع صدام عنيف. إن ما يزيد الطين بلة أن أولئك المتشبثين بمواقعهم لديهم إحساس زائف بالأمن لاعتقادهم الراسخ بأن الأسوأ لا يمكن أن يحدث بل ولن يحدث. (فقد أبلغني توديمان أن المخاوف من نشوب

حرب أهلية مبالغ فيها إلي حد كبير. وقد صدر هذا عن رجل سارع بتسليح للحرس المدني في كرواتيا).

ومع اتساع نطاق الصراع في البلقان في صيف وخريف ذلك العام وانفجار الأوضاع في البوسنة في الربيع التالي استرجعت ما كانت تقوله سوزان. إنه يرمز لي بالمأساة الحقيقية التي آلت إليها يوغسلافيا. إنها حرب شنها القوميون المتعصبون أمثال سلوبودان ميلوسيفتش وفرانيو توديمان، وأنه مع وجود هذين العنيدين فقد تحول إلي صراع يستحيل أن يمنعه الآخرون. صراع لا ينقصه سوي استخدام القوة العسكرية الشاملة بما في ذلك القوات البرية ومن شأنه أن يزهق أرواح الكثيرين والكثيرين جداً من أولئك الذين يسعون لردع الحرب، وبمجرد بدئه فإن صراعاً في يوغسلافيا السابقة يكتسب منطقاً عكسياً بذاته، وحيث إن نهجه المروع يكتسب زخماً فمن المستحيل أن يوقفه العالم الخارجي – علي الأقل من جانب مجتمع دولي منقسم يعيش في معمعة إقامة مؤسسات جديدة ويكيف القديمة لعالم ما بعد الحرب الباردة.

الحرب الصربية الكرواتية

بعد أربعة أيام من زيارتي لبلجراد صوت برلماننا كرواتيا وسلوفينيا لصالح الاستقلال وبدأت يوغسلافيا الحرب في اليوم التالي. حيث يقاتل السلوفينيون الجيش الوطني اليوغسلافي للسيطرة علي نقاط العبور الحدودية السبع والثلاثين. وأصدرنا بيانات تنتقد لوبليانيا وزغرب لإعلانهما الاستقلال من جانب واحد. الأمر الذي قضي علي احتمالات التوصل لأي تسوية سلمية من خلال التفاوض، وكذلك لاستيلائهما بالقوة علي المعابر الحدودية، وهي إجراءات تشكل جميعاً انتهاكاً لاتفاقيات هلسنكي. وانتقدنا أيضاً كافة الأطراف للجوء إلي العنف. لكن السؤال المحرج الذي يواجهنا يكمن في الدور الذي يتعين أن نقوم به في محاولة لطرح مبادرة سلام. ولم تكن هناك أي أفكار في ذلك الوقت باستخدام القوات البرية الأمريكية في يوغسلافيا. فلن يؤيد الشعب الأمريكي هذا الإجراء مطلقاً. وفي المقام الأول فقد خاضت الولايات المتحدة ثلاثة حروب خلال هذا القرن في أوروبا حربان

ساخنتان وثالثة باردة. وتكفى ثلاثة حروب خاصة وأننا خضنا للتو حرباً شاملة. حرب فى الخليج هذه المرة.

ففى أزمة الخليج التى اندلعت فى آب العام السابق تيقن الرئيس علي الفور أن المصالح الحيوية الأمريكية عرضة للخطر، وبادر بالتحرك علي الفور لتأكيد زعامة الولايات المتحدة للمجتمع الدولى. وعقب انتهاء عملية عاصفة الصحراء بنجاح فى شباط فبراير ١٩٩١أوفدنى الرئيس إلي الشرق الأوسط للبدء فى تحريك عملية السلام. وترك هذا التحول فى مسار الأحداث مشاعر لدي الكثير من الزعماء والدبلوماسيين الأوروبيين بمدي الحاجة إلي التأثير والمشاركة فى التطورات التى تؤثر علي المجتمع الدولى. وفى المقام الأول كانت المجموعة الأوروبية١٩٩٢ أمامها نحو عام والاتحاد السوفيتى يعيش مرحلة انحسار والحديث يدور فى بروكسل وباريس وبون وروما والعواصم الأوروبية الأخري حول قوة عظمي بازغة. وفى هذا السياق فإذا ما كان لأوروبا أن تتبوأ مكانها كقوة عظمي حينئذ فإن علي الأوروبيين لا الأمريكيين تولى زمام القيادة فى إدارة الأزمة اليوغسلافية التى نشبت علي أعتاب أوروبا وأراد الأوروبيون تولى القيادة ورحبوا بفرصة التعامل مع الأزمة عبر المجموعة الأوروبية.

وشعرت إدارة بوش بالارتياح لتولى المجموعة الأوروبية مسؤولية معالجة الأزمة فى البلقان. وبدا أن الصراع من النوع الذى تستطيع المجموعة الأوروبية إدارته. والأكثر أهمية هو أن يوغسلافيا تقع فى قلب أوروبا وأن المصالح الأوروبية مهددة بشكل مباشر. فضلاً عن ذلك فإن للأوروبيين تاريخ طويل، حتي وإن كان أقل نجاحاً فى التعامل مع البلقان فى ضوء التاريخ المتعدد والنسيج المتشابك للقوميات فى المنطقة.

والأهم أنه علي خلاف أزمة الخليج فإن مصالحنا القومية الحيوية لم تكن عرضة للخطر. فالصراع فى يوغسلافيا ينطوى علي احتمالات الاستعصاء علي الحل. لكنه مع ذلك صراع إقليمى. فشهية ميلوسفيتش بنفس قوة شهية صدام لكن صربيا لا تملك الإمكانيات أو القدرات التى تستطيع بها التأثير علي المصالح الحيوية لأمريكا مثل حرية تدفق إمدادات الطاقة. وكان التهديد الأخطر علي المصالح الأمريكية فى ذلك الوقت يكمن فى الوضع الهش بشكل متزايد فى موسكو، وأثرنا إبقاء تركيزنا علي ذلك التحديد الذى ينطوى علي تداعيات

كونية بالنسبة لنا خاصة بالنسبة للأسلحة النووية. إضافة إلي هذا ففي صيف عام ١٩٩١ كانت عملية السلام في الشرق الأوسط تستغرقنا تماماً، وكنا علي وشك جمع الأطراف علي مائدة التفاوض.

وكان لدينا سبب آخر للشعور بالارتياح لترك مهمة معالجة الأزمة للمجموعة الأوروبية. فقد خضنا معركة سياسية في بروكسل حول علاقة اتحاد غرب أوروبا (الجناح الدفاعي) للمجموعة الأوروبية وحلف شمال الأطلنطي. وكانت هذه المعركة في جوهرها تدور حول تصورات مختلفة بشأن دور أمريكا وأوروبا. فبعض الأوروبيين وهم علي يقين من حتمية الوحدة السياسية والنقدية التي ستفضي إلي إقامة قوة عظمي أوروبية كانوا متشبثين بتأكيد قوة كيان دفاعي يتقلص فيه دور أمريكا في القارة إلي أدني حد. وناضلنا ضد هذا التصور لفترة من الوقت، وحاولنا حملهم علي الاعتراف بهذا - فحتي مع تلاشي التهديد السوفيتي فإنهم لا يزالون في حاجة إلي مشاركة أمريكا. لكن احتجاجنا ذهب أدراج الرياح في عنفوان الاندفاع العاصف نحو إقامة أوروبا الموحدة. وكانت النتيجة تيار خفي في واشنطن يشعر به لكن لا يدور حوله الحديث إلا نادراً بأن الأوان قد آن لبزوغ الأوروبيين وإظهار أن بوسعهم التصرف كقوة موحدة. وتشكل يوغسلافيا أول اختبار جدي في هذا الصدد.



وترتيباً علي ذلك اضطلعنا خلال الصيف بدور مساند أثناء محاولة المجموعة الأوروبية عبر ممثلها الخاص لورد كارينجتون التوسط لحل الصراع، ولسوء الحظ فلم تحرز مساعي المجموعة الأوروبية سوي نجاح ضئيل في شهر تموز يوليو وآب أغسطس ١٩٩١. فالأطراف اليوغسلافية تشارك في المفاوضات التي ترعاها المجموعة الأوروبية لكنها ستواصل القتال علي الأرض. ومع اقتراب الصيف من نهايته تعثرت مساعي المجموعة مرة أخري.

في الوقت نفسه تعزز قلقنا حيال الاتحاد السوفيتي بعد محاولة الانقلاب الفاشلة ضد جورباتشوف في ١٩آب أغسطس. وبينما لم تستغرق الأزمة سوي ثلاثة أيام كان من الواضح

أن حطي التطورات السياسية فى الاتحاد السوفيتى قد تسارعت بشكل جذرى. ومن الواضح أن تركيزنا المحورى لشهور قادمة سينصب على الإدارة السلمية لتفكيك الاتحاد السوفيتى. وكان الرئيس شخصياً أشد قلقاً حول سلسلة من الحوادث المتعلقة بنظام السيطرة والتحكم أثناء محاولة الانقلاب، وأنفق معظم أيام أيلول فى إعداد المبادرة النووية التى أعلنها فى ٢٧ أيلول سبتمبر.

وخلال الخريف أجريت عدة مناقشات مع هانز فان دنيك بروك حول القتال الدائر بين الصرب والكروات، وفى ١٨ أيلول سبتمبر أبلغته بأننا سنواصل دعم مساعى المجموعة الأوروبية لحل الأزمة. وباعتباره رئيسا للمجموعة الأوروبية فى دورتها حينذاك كان مشغولاً بتجميع ورص صفوف المجموعة فى ضوء الاعتبارات القائمة مثل التوجهات التاريخية طويلة الأمد، والمساعى القومية، والأجانب الذين استقروا فى البلاد الأوروبية المجاورة. فالألمان والإيطاليون يميلون حقيقة للكروات والسلوفينيين. بينما البريطانيون والفرنسيون من أقوي مؤيدى صربيا للعلاقة الوثيقة التى جمعتهم أثناء الحرب العالمية الثانية. وساور القلق بروك لأن الصراع ينحسر من أيدى المجموعة، ولأن المجموعة ستضطر إلي إشراك مجلس الأمن الدولى، وكان قلقاً من الانطباع الذى سيتركه هذا الأمر بشأن قدرة أوروبا على إدارة صراع فى فنائها الخلفى، واحتمال عدم رغبة بعض دول مجلس الأمن الدولى فى معالجة قضية يوغسلافيا كعملية للأمم المتحدة. فقد كان يعتقد أن الصين قد تستخدم الفيتو ضد أى تورط فيما تعتبره يكون «شأناً يوغسلافياً داخلياً».

وكانت أكبر مشاكلنا مع إشراك الأمم المتحدة تتمثل فى أن عدد اللاعبين سوف يزداد، فلدي المجموعة الأوروبية مشاكلها فى الحفاظ على سياسة متماسكة، ولن يساهم دخول الأمم المتحدة على الخط إلا فى تعقيد الأمور. وكنا نشعر أيضاً أن مشاركة الأمم المتحدة قد تعزز الضغوط للاعتراف بالجمهوريات الطامحة للاستقلال قبل تطبيق تسوية سلمية شاملة. ولم تساورنا أية أوهام. وكنا ندرك أن يوغسلافيا ككيان سياسى مشترك قد اختفي للأبد. لكن كنا نواجه عدداً من الرسائل التى نستطيع بها تهذيب سلوك مختلف الأطراف، وكنت شخصياً على اقتناع بمذكرة عرضها علىّ دينيس روس فى ٥ تموز يوليو بأن «مصالح الولايات المتحدة لن يخدمها إعلانات واعترافات خاصة غير منسقة أو رفض وستخدم هذه المصالح

علي أكمل وجه إذا ما استطعنا المساعدة في وضع إطار فكرى وعملى تقرر في إطاره عمليات الاستقلال الحالية والمستقبلية في الشرق بل وفي مختلف أنحاء العالم. فكل جمهورية تلتمس الشرعية في الغرب، ولذا فإن تعليق الاعتراف (أو منحه) يشكل أقوي الأدوات الدبلوماسية المتاحة. «فكسب الاعتراف» أحد مميزاتنا لدي المتحاربين* . وكان الحصول علي الأسلحة أداة أخري، ومع حصار الصرب لبلدة فوكوفار واندلاع القتال علي الساحل الدالماسي في أيلول سبتمبر انضممنا إلي المجموعة الأوروبية في مجلس الأمن الدولي لاستصدار القرار رقم ٧١٣ الذي قرر فرض حظر علي بيع السلاح لكافة الأطراف** .

وبعد ستة أسابيع وفي قمة المجموعة الأوروبية في لاهاي انضممنا إلي المجموعة الأوروبية في فرض عقوبات اقتصادية وفي الجهود الرامية إلي تعزيز حظر التسلح .

وفي تشرين الثاني نوفمبر اتفق الكروات والصرب علي نزع سلاح دوبروفنيك . ووافق الجانبان علي نشر قوات من الأمم المتحدة لحفظ السلام. وفي ٢٧ تشرين الثاني نوفمبر وافق مجلس الأمن الدولي علي إيفاد مبعوث خاص إلي كرواتيا وصربيا وعين سايروس فانس وزير الخارجية الأمريكي السابق لشغل هذا المنصب. وفي الوقت الذي لازال القلق يساورني حول مشاركة الأمم المتحدة فيما كان عملية تفاوض تنفرد المجموعة الأوروبية بالإشراف عليها ربطتني علاقة جيدة مع فانس (الذي كان مقرباً لإيجليبرجر) . ولذا فقد أحسست بأنه سيكون قادراً علي العمل جيداً فيما أصبح عملية تفاوض بازغة تشرف عليها المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة (فضلاً عن ذلك كان خافيير بيريز دي كويار قد تشاور معي قبيل صدور الإعلان لأنه في سبيله لاختيار وزير خارجية أمريكي سابق كمبعوث خاص وشجعته علي إختياره) . ولسوء الحظ فإن أحد المفاتيح الأساسية التي كان يحتفظ بها كارينجتون

---

* بينما اعتبر الأوروبيون أنا في ابلي الموقف المتلبس بالاعتراف أثناء صيف وخريف عام ١٩٩١ كنا نتلقي باستمرار أخبارا مقلقة بأن بعض الحكومات الأوروبية تقيم اتصالات خلفية مع مختلف الجمهوريات اليوغسلافية لحثها علي المضي قدماً . وفي الواقع لقد مارسنا ضغوطاً مكثفة علي الألمان علي هامش قمة حلف شمال الأطلنطي في روما في تشرين الثاني نوفمبر لعدم الخروج علي الإجماع الأوروبي بشأن مسألة الاعتراف.

** بعد عدة أشهر انتقد البعض حظر السلاح، لأنه حال دون قيام الحكومة البوسنية بتسليح نفسها. لكن الحظر كان يستهدف في حينه كرواتيا وصربيا، فلم يكن هناك قتال في البوسنة.

وفانس في المفاوضات – وهي موقف أوروبي موحد حول الاعتراف بكل جمهورية من جمهوريات يوغسلافيا – سرعان ما ولي.

معضلة الاعتراف

انفجر السد عندما أقدم الألمان منفردين تحت وطأة الضغوط الداخلية على الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا في ٢٣ كانون الأول ديسمبر. وقضى هذا على جهود فان دين بروك وكارينجتون لمنع بقية دول المجموعة من اتخاذ هذه الخطوة، وهي الجهود التي حاولنا تأييدها بقيام سفاراتنا لدى دول المجموعة الأوروبية بتنبيه الدول الأعضاء بأن الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا لن يزيد الموقف إلا تدهوراً. لكن تلك الجهود ذهبت أدراج الرياح لأن المجموعة الأوروبية حذت حذو الألمان في الاعتراف بالجمهوريتين في ١٥كانون الثاني يناير ١٩٩٢.

وعقب قرار المجموعة الأوروبية طلبت من إيجلبيرجر التباحث مع فانس. وطلب منا أن نتريث لأسبوعين على الأقل، وحبذا لو تريثنا لمدة شهر قبل الإقدام على الاعتراف. وسوف يتيح هذا فسحة من الوقت لنشر قوة الأمم المتحدة لحفظ السلام. وكان فانس يعتقد أن قرارنا بتعليق الاعتراف كان له أثر مهم في كبح الصرب كما منع ميلوسيفيتش وتوديمان من اقتسام البوسنة. ووضعنا هذا في موقف صعب داخلياً مع اللوبي الأمريكي الكرواتي لكنني قلت للرئيس على الغداء في الرابع والعشرين من كانون الثاني يناير: «يمكننا، بل يجب علينا أن نقاوم حماس الرأي العام والكونجرس. علينا بذل قصارى جهودنا لتأييد مساعي فانس لأن أفضل آمالنا في تسوية الأزمة هو استمرار سريان وقف إطلاق النار، وتمركز قوة الأمم المتحدة». ووافق الرئيس، ومن ثم انتظرنا.

واتصلت القضية بالاستفتاء البوسني المقرر إجراؤه في الأول من آذار مارس فمن ناحية كنا على شبه يقين بأن المسلمين والكروات في البوسنة سيصوتون لصالح الاستقلال. لكن كنا نشعر بالقلق من أن المتطرفين من صرب البوسنة سينتهزون العقوبات كذريعة للتحريض

علي العنف والتماس المساعدة من بني جلدتهم الصرب في بلجراد. وفي ٢٧ شباط فبراير عرض عليّ توم نيلز مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوروبية ورقة تحدد الإطار العام لخمس خيارات حول الاعتراف. وفي ذلك الحين كانت خمس وأربعون دولة فقط قد اعترفت بسلوفينيا وكرواتيا. في حين لم تعترف بمقدونيا والبوسنة سوي بلغاريا وتركيا. واشتملت كافة الخيارات علي الاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا. وأحاطت علامات الاستفهام بالبوسنة ومقدونيا وعما إذا كان يتعين علينا أن نتصرف باستقلالية أو الاتفاق مع المجموعة الأوروبية.

ولخص نيلز معضلتنا باقتدار، وكتب يقول: «إن هناك احتمالاً حقيقياً بأن يندلع العنف الطائفي في أية لحظة في البوسنة والهرسك. فالاعتراف يعد طريقاً لتعزيز الاستقرار، ولاسيما إذا جاءت نتيجة التصويت مؤيدة بوضوح للاستقلال. فضلاً عن ذلك فإن عدم الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا يتركهما عرضة لضغوط سياسية وأنشطة المتطرفين. فقد حذرنا الرئيسان المقدوني جليجوروف والبوسني عزت بيجوفيتش أكثر اللاعبين تعقلاً في الأزمة اليوغسلافية، من أن استقرارهما في خطر لو حظيت الجمهوريات الأخري بالاعتراف ولم تحظ جمهوريتيهما به. وعلي العكس فليس هناك ضمان بأن اعترافنا سيمنع الانهيار في البوسنة».

وعرض هذه الحجج أيضاً وارين زيمرمان في بلجراد. وكان يبدي الأمل الواقعي بأن الاعتراف بالبوسنة والهرسك قد يكون أحد الطرق لتدويل المشكلة، ومنع الصرب من التدخل. واختصاراً فإن الاعتراف الغربي المنسق بالبوسنة قد يردع العنف الصربي والكرواتي. وبعد استعراض التحفظات خلص نيلز إلي تأييد الاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا والبوسنة مع الإشارة إلي عزمنا العمل مع المجموعة الأوروبية حول مسألة مقدونيا (كانت فكرة أن البوسنة أكثر تفجراً، وأن الاعتراف بمقدونيا قد يؤدي إلي سقوط حكومة رئيس الوزراء ميتسوتا كيس في أثينا، قد وردت ضمناً في التوصيات.)*

وفي ملاحظة علي غلاف مذكرة نيلز كتب إيجلبيرجر طرقته كالمعتاد وقال: «إن

---

* لأسباب سياسية وتاريخية عميقة المجذور اعترض اليونانيون شاملاً علي استخدام الجمهورية اليوغسلافية السابقة لاسم مقدونيا. وفي الواقع سار عشرات الآلاف في شوارع أثينا محذرين من أي تهاون في الموقف الحكومي المتشدد.

مبعث قلق هو أن سياسة تردد حول الاعتراف ستثير روح المغامرة الصربية والكرواتية في البوسنة والهرسك ومقدونيا وهذا هو مبعث القلق».

فضلاً عن ذلك المبدأ فإن مقدونيا والبوسنة والهرسك تستوفيان كل معايير الاعتراف. فقد لجأتا إلي عملية ديمقراطية لتهيئة أرضية العمل لإعلان استقلالهما. فقد تحركتا بحذر تجاه الاستقلال مقرتان بأن الوضع في يوغسلافيا لم يترك لهما أي بديل آخر كأيسر وسيلة للحفاظ علي النفس. كما أن حكومتيهما تمثلان وتلتزمان بمبادئ الديمقراطية بمعايير المنطقة علي الأقل. وباختصار كان من رأي إيجلبيرجر كيف يمكن أن نعترف بكرواتيا وسلوفينيا اللتين أعلنتا الاستقلال من جانب واحد بما يتناقض مع اتفاقيات هلسنكي وألا نعترف بالبوسنة ومقدونيا اللتين أعلنتا استقلالها بطريقة سلمية وديمقراطية؟ وأشار إلي أنه فضلاً عن ذلك فإن عدم الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا قد يثير عدم استقرار حقيقي ربما يستغله المغامرون في صربيا واليونان.

واكتشفت أن حجج ايجلبيرجر مقنعة، وفي اجتماع عقدته في الثاني من آذار مارس مع توم نيلز وريجي بارثو لوميو وبوب بيرسون ومارجريت تاتويلر ولاري فوريت المضي قدماً واختبار المياه قبل أن نقطع أي التزام. وفعلت ذلك في رسالة بعثت بها في الخامس من آذار مارس إلي الأوروبيين ولو رد كارينجتون وسايروس فانس. واقترحت عقد اجتماع أمريكي مع المجموعة الأوروبية الأسبوع القادم لبحث مسألة الاعتراف، واقترحت أن تتحرك الولايات المتحدة للاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا علي أن تنضم لنا المجموعة الأوروبية في الاعتراف بالبوسنة ومقدونيا بعد ذلك بفترة. وجاء في الرسالة: «وكلي ثقة في أنه حقيقي بالنسبة لكم. لقد بحثنا قضية ما إذا كان الاعتراف باستقلال جمهورية البوسنة والهرسك سيساهم في جلب الاستقرار لتلك الجمهورية التي تقوم علي توازن دقيق، أو سيشجع الجهود التي تبذلها الأقلية الصربية الكبيرة لزعزعة الأوضاع. ولقد خلصنا إلي أنه بينما لا يوجد بوسوح أي نفوذ خارجي يمكنه أن يضمن الاستقرار وسلامة أراضي البوسنة والهرسك فيسعنا أن نقدم أفضل مساهمة لتحقيق هذا الهدف بالاعتراف الجماعي باستقلال الجمهورية، ونحذر من مغبة الجهود الداخلية أو الخارجية لتقويض سلامة أراضيها. وأشرت إلي أن صربيا تحاول زعزعة استقرار الوضع، وقد وجهنا إنذاراً قوياً إلي ميلوسيفيتش لوقف

تلك الأنشطة وإلا فسوف يقامر بالتعرض لعواقب وخيمة لمستقبل علاقات بلاده مع الولايات المتحدة*.

وأوضحت نفس الشيء بالنسبة لمقدونيا مؤكداً أن عدم الإسراع بالاعتراف سيشجع المقامرين علي التحرك بسرعة لتصعيد الوضع إلي صراع مفتوح. وفي الوقت الذي كان الأوروبيون يدافعون فيه عن الموقف الذي حدده اليونانيون للمجموعة الأوروبية حيال مقدونيا فقد كانوا عازفين عن الضغط علي أثينا التي لم تشعر بالارتياح لاقتراحنا. وقال وزير الخارجية ساماراس: «فلينعقد الاجتماع لكن لا تهزوا القارب» بينما أعرب ميتسوتاكيس عن قلقه العميق. وبشأن البوسنة تلقينا الكثير من التأييد وخاصة من الألمان والبريطانيين – رغم أن كافة أعضاء المجموعة الأوروبية لا يريدون تعقيد المفاوضات البوسنية المنعقدة تحت رعاية المجموعة.

وتردد أن كارينجتون لا يشعر بالارتياح لنهج المجموعة الأوروبية تجاه مقدونيا ويعتقد أن الاعتراف قد يقطع الطريق علي البوسنة – رغم أنه يعتقد أن الاعتراف مفيد في مجمله. وأعرب فانس عن قلقه لإيجلبيرجر بأننا نتحرك بشيء من السرعة، وأن هذا الاعتراف قد يعرقل تمركز قوات الأمم المتحدة. لكنه تفهم أسبابنا وبدا «مرتاحاً» إجمالاً. وبسبب قلق فانس تحدثت مباشرة مع لورد كارينجتون بعد ظهر التاسع من آذار مارس اليوم السابق للاجتماع مع المجموعة الأوروبية. وأبلغني كارينجتون أنه يعتقد هو وفانس أنه سيكون من الخطأ الاعتراف بالبوسنة قبل وصول قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام. المقرر له بعد أسبوعين. وكان كارينجتون يريد مدا التحرك بالتنسيق مع المجموعة الأوروبية وقال إن المجموعة سوف تعترف بالبوسنة في الاجتماع الذي تعقده في ٦ نيسان إبريل.

وأبلغته بأننا سنتحرك بالمشاركة مع المجموعة الأوروبية وسوف نتفق علي جدول زمني سيكون مقبولاً لفانس والأمم المتحدة. وقلت أيضاً من سوء الحظ ألا تجلي البوسنة

---

* في ٢ آذار مارس أصدرت تعليماتي إلي زيمرمان بتسليم رسالة إلي ميلوسيفيتش بأننا نري بوضوح وضماً لأساليب صربية تهدف إلي إلغاء نتائج الاستفتاء. فضلاً عن ذلك فإننا ننظر بعين الخطورة إلي الصراع الصربي في المساعي التي يقوم بها الزعيم الصربي رادوفان كاراديتش لزعزعة الاستقرار.

ومقدونيا سوي القليل من الجوائز رغم أنهما قطعتا الطريق الصحيح للوفاء بشروط الاعتراف وأبدي موافقته.

وفي اليوم التالي في بروكسل توجهت إلي مبني شارلمان للمشاركة في الاجتماع الوزاري مع المجموعة الأوروبية. وبعد أن تحدث بعض المتحدثين بات بما لا يدع مجالاً للشك أن المجموعة ليست موحدة بأي حال من الأحوال. وألمح رولان دوما إلي أننا راجعنا العقوبات المخففة المطبقة حينذاك ضد الصرب قائلاً: «إننا لا نريد عقاب طرف رئيسي» ولأنه بات من الواضح أن اليونانيين سيواصلون استخدام الفيتو علي أي تحرك للمجموعة الأوروبية حول مقدونيا فقد سلمت بالواقع وكرست طاقتي للبوسنة. وجاءت أكثر المداخلات فائدة من جانب دوجلاس هيرد الذي عكس منطق إيجلبيرجر بقوله: «لايمكن أن ندع هذه الجمهوريات في مهب الريح. لأننا نحن الذين خلقنا الوضع الحالي بالاعتراف بسلوفينيا وكرواتيا» واختتمت الاجتماع بتفاهم خاص بأن تعترف المجموعة الأوروبية بالبوسنة في اجتماعها التالي في ٦ نيسان إبريل علي أن تتبعها بالاعتراف بالدول الثلاث بعدها بقليل.

وعلمت أن مقدونيا سوف تستغرق بعض الوقت، وعلانية أصدرنا بياناً معتدلاً بأنه سيتم إيلاء «اعتبار بناء» للاعتراف بالبوسنة والهرسك ومقدونيا (رغم أن الحساسية اليونانية حالت حتي دون ذكر كلمة مقدونيا في البيان).



واستعرضت الاجتماع الأمريكي مع المجموعة الأوروبية في اليوم التالي مع حارس سيلاديتش وزير خارجية البوسنة الذي قال: «إن البوسنة يمكن أن تشكل نموذجاً ناجحاً للدولة التعددية لو كفت القوي الخارجية عن التدخل في شؤونها» وقال: إن الاعتراف الغربي يمكن أن يعزز الاستقرار علي أكمل وجه، واستفسرت منه عن الجيش الوطني اليوغسلافي وقال: إنه «يعمل» وإنه «بعيد عن السياسة» ووجدت في ذلك مفاجأة كبيرة لكن حارس سيلاديتش قال: إن الحكومة البوسنية طمأنت الجيش بأنه إذا ظل بعيداً عن السياسة وخفض أعداده فسوف تدعمه بأقصي طاقاتها.

وبعد ثلاثة أسابيع فى يوم الإثنين السادس من نيسان إبريل اعترفت المجموعة الأوروبية بالبوسنة وحذونا حذوها فى اليوم التالى. بينما وافق مجلس الأمن الدولى على نشر قوات سلام فى البوسنة، واعترفنا أيضاً بسلوفينيا وكرواتيا، وفى الوقت ذاته أعلن صرب البوسنة دولتهم المستقلة، وشنت طائرات الجيش الوطنى اليوغسلافى هجمات صاروخية حول سراييفو.

وفى ذلك اليوم (الجمعة) أصدرت تعليماتى إلى زيمرمان سفيرنا فى بلجراد بتحذير ميلوسفيتش بأننا نشعر بالقلق من القوة والتخويف الصربى، وأنه إذا أرادت بلجراد إقامة أى علاقة معنا عليها أن تحترم استقلال وسلامة أراضى جيرانها، ونفي ميلوسفيتش أى تورط نفياً قاطعاً.

وبينما الأشخاص يتغيرون إلا أن ميلوسفيتش عادة ما كان يرد على مساعينا برفع حاجبيه وسؤال زيمرمان: «لماذا تأتي للقائي؟ إن هذه قضية بوسنية، وليس هناك صرب من صربيا متورطون فيها، وحتي الصرب غير مهددين فى البوسنة» إنه ينطق بسخرية سوداء كان شديد المراوغة ينأي عن المسؤولية، ويحرك الأمور من وراء ستار فى البوسنة.

واتبعنا رسالتنا إلي ميلوسفيتش برسالة إلي شركائنا الأوروبيين أوصيناهم فيها بأن يصدروا تعليماتهم ببذل مساعى فى بلجراد، وحاولنا أيضاً حشد التأييد لطرد صربيا والجبل الأسود باعتبارها يوغسلافيا من المنظمات الدولية. مما سيحرم النظام من الشرعية. وخلال عطلة نهاية الأسبوع وعقب مباحثات لمدة يومين تحت رعاية المجموعة الأوروبية اتفقت الأطراف البوسنية على وقف إطلاق النار. لكن القتال سرعان ما تجدد يوم الإثنين مرة أخري.

وأصبحت هذه هي السمة السائدة خلال الربيع والصيف، فنحن نعرب عن قلقنا لبلجراد وميلوسفيتش يتنصل من أى مسؤولية. لكن القتال ينحسر ثم ما يلبث الصرب بعد أيام قلائل أن يبدأوا فى شن هجوم آخر. ربما كان ميلوسفيتش متشدداً. لكنه متشدد معقد يفهم خبايا السياسة الغربية. فقد كان بارعاً فى تحدى عزيمة المجتمع الدولى بعناده ثم يتخذ خطوات تصالحية عندما يقتضى الأمر.

ويوم الثلاثاء ١٤ نيسان إبريل زارني سيلاديتش في واشنطن وأبلغته بأننا وجهنا رسالة قوية غير عادية إلي ميلوسفيتش، وأننا نشعر بالقلق تجاه ما يحدث في البوسنة. وقلت له: إننا سنعمل عليّ تفعيل المجموعة الأوروبية والمجتمع الدولي رغم أنني لم أشأ تضليله بأن قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام ستتحول إلي قوة لصنع السلام.

وبدأت بالقول: «أرجو أن تعرض عليّ أوضاعكم»

ورد قائلاً: «سيدي، بينما نحن نتحدث هناك أناس يموتون. إنهم يقتلون المدنيين كما لو كانوا حيوانات. هناك أناس يموتون بالفعل، إننا لا نتحدث بالسياسة بأية حال». كان لطريقة حديثه الرقيقة وقع شديد التأثير وكشفت لغته الصريحة حجم الألم الذي تعانيه بلاده بطريقة لا تستطيعها أي مساع دبلوماسية علي الإطلاق. كان هذا الاجتماع بلاشك واحداً من أكثر الاجتماعات المؤثرة التي عقدتها كوزير للخارجية.

ومال لقائي مع الأكراد في الجبال دفعني اجتماعي مع سيلاديتش إلي اتخاذ إجراء. (وعقب الاجتماع طلبت من لاري أن يصطحب سيلاديتش للقاء المدراء السياسيين لترويكا المجموعة الأوروبية – الذين تصادف وجودهم في الخارجية) وطلبت من مارجريت تاتويلر التباحث مع وزير الخارجية البوسني حول أهمية استخدام وسائل الإعلام الغربية لحشد التأييد في أوروبا وأمريكا الشمالية لقضية البوسنة، وطلبت منها أيضاً إجراء اتصالاتها مع شبكات التليفزيون الأربع ومع الواشنطن بوست ونيويورك تايمز لحثهم علي إيلاء مزيد من الاهتمام بالقضية.

وفي الوقت ذاته بدأت في إجراء اتصــالات بالوزراء الأوروبيين. وبدأت بدوجــلاس هيرد. وقلت له: «لقد قطعت البوسنة الشوط نحو الاستقلال بطريق صحيح وأنها تستحق تأييدنا. إننا في حاجة إلي حشد التأييد لعزل ميلوسفيتش وصربيا». وتساءلت حول ما إذا كان يتعين أن تستمر يلجراد عضواً في منظمة الأمن والتعاون في أوروبا. وأبدي هيرد موافقته وأنه سينقل قلقي إلي لورد كارينجتون الذي سيلتقيه الصباح التالي، لكن أعرب عن قلقه من محاولة تمركز قوات الأمم المتحدة في البوسنة حتي تستقر الأوضاع.



وفى الصباح التالى اتصل بى جينشر من اليونان حيث كان يسعي لحل قضية مقدونيا. وقلت له: «إننا فى حاجة إلي تنسيق خطوات التعامل مع هذا الوضع المأساوى، وأكدت علي أن الولايات المتحدة وأوروبا لا يمكن أن تتعاملا مع قضية البوسنة باعتبارها «قضية عادية». وأبلغنى جينشر بأن المجموعة الأوروبية قد اتفقت لتوها علي «خط متساهل للغاية» تجاه البوسنة. لكنه سيسعي إلي تشديد هذا الموقف. وبعد دقائق عاود هورد الاتصال بى. وعقب تحدثه مع كارينجتون وافق هورد علي أن الورقة الفعالة الوحيدة المتاحة عند ميلوسفيتش هي حجب الاعتراف عن دولة يوغسلافيا الحالية، وكان يشعر أيضاً أنه من الضرورى التعامل مع أنشطة الجنود الكرواث غير النظاميين الذين يحركهم توديمان. وأعرب مجدداً عن قلقه تجاه قوات حفظ السلام، وأوضح أن اتحاد غرب أوروبا لا يملك الإرادة أو القدرة علي القيام بمثل تلك العملية.

وبعد الظهر اتصلت بوزير خارجية البرتغال جواو دى دوس بينيرو الذى تولي الرئاسة الدورية للمجموعة الأوروبية خلفاً لفان دين بروك. وبادرت بالقول: «فى الوقت الذى نقف فيه بكل قوة خلف مساعى المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة الحالية فى البوسنة فإننا لا نريد الدخول فى مواجهة معكم. ولا يسعنا أن نقف هكذا ونري الناس وهي تقتل. فالوضع فى البوسنة مختلف عنه فى كرواتيا. فبينما تصرف توديمان من جانب واحد غير مبال بحقوق الأقليات وأظهر نيته فى تقسيم البوسنة. فقد تصرف زعماء البوسنة بوحى من اتفاقيات هلسنكى والمبادئ الديمقراطية. واستطردت قائلاً: «إن ميلوسفيتش قلق بشأن الاحتفاظ بشرعية يوغسلافيا. وإنه فى حاجة لتذكيره بأن الولايات المتحدة وأوروبا ستحملانه المسئولية». وأعرب دوس بينيرو عن قلقه من أن الجيش الوطنى اليوغسلافى لم يعد يعمل تحت قيادة موحدة، وقال إنه يتفق مع رؤيتى لكن باريس ستثير المصاعب.



وذكرتنى مكالماتى الهاتفية بالاتجاهين المتضاربين البارزين في سياسة المجموعة الأوروبية تجاه يوغسلافيا السابقة. وأولهما التزامها الصارم بعدم التحرك إلا بموافقة كافة

الدول الأعضاء فى المجموعة الأوروبية. فهذا النهج الإجماعى تسبب فى التأجيل (حيث يتعين أن يصوت كل الأعضاء على أتفه القرارات) وعلى السياسات التى لا يجمعها سوى أدنى قاسم مشترك. والاتجاه الثانى للمجموعة الأوروبية هو السقوط فى أسر تاريخها الخاص، أى الانضمام إلى التحالفات التى ظهرت على مدار عقود بل وحتى قرون. وعلى سبيل المثال غالباً ما انحازت بريطانيا وفرنسا إلى الصرب. بينما قاز الكروات دائماً بصفع الألمان، وأدى هذا إلى تقويض المفاوضات حيث سرعان ما تعلمت الأطراف كيفية تأليب الأوروبيين ضد بعضهم مما قضى على فعالية المجموعة الأوروبية تماماً.

البوسنة

مع انتهاء شهر نيسان إبريل وحلول شهر أيار مايو تصاعدت وتيرة العنف فى البوسنة، وفرض الصرب حصاراً حول سراييفو. وفى ١٢ أيار مايو شكنا أخيراً من تعليق عضوية يوغسلافيا فى منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا وهى المرة الأولى التى تتخذ فيها منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا قراراً رسمياً من دون إجماع بسبب اعتراض وفد بلجراد. وفى اليوم التالى أعلنا أننا سنستدعى وارين زيمرمان بمجرد انتهائه من استكمال ترتيبات تسهيل وصول المعونة الإنسانية إلى البوسنيين. وفى ١٦ أيار مايو اصدرت توجيهات إلى زيمرمان بالسعى للحصول على تطمينات من بلجراد بفتح الصرب مطار سراييفو، والسماح بمرور المساعدات الإنسانية. ورد الصرب بمهاجمة قافلة إغاثة للصليب الأحمر الدولى، وقتلوا أحد أفراد الصليب الأحمر. واحتجزوا قافلة من النسوة والأطفال الفارين من سراييفو كرهائن. وعلى الفور ألغينا التصريح الممنوح لشركة الطيران اليوغسلافية JAT بتسيير رحلات من وإلى الولايات المتحدة. وطلبت من مسؤولى الوزارة إعداد مزيد من الخطوات السياسية والدبلوماسية الإضافية التى يمكن اتخاذها لعقاب بلجراد.

وفى يوم الجمعة ٢٢ أيار مايو وأنا فى طريقى إلى البرتغال للمشاركة فى مؤتمر لتقديم المعونة للاتحاد السوفيتى السابق اجتمعت مع رئيس الوزراء البريطانى جون ميجور فى ١٠ داونينج ستريت، واستهللت بالقول: «إننا نشهد قلقاً ونقداً عاماً متزايداً حول العجز الغربى أمام

الكابوس الإنساني الحقيقي. إن هناك سابقة مروعة ترمى عن طريق استخدام ميلوسفيتش الناجح حتي الآن القوة لتحقيق أهدافه». وطلبت من ميجور حمل المجموعة الأوروبية علي التحرك بقوة ضد صربيا. وأبلغته قائلاً: «علينا عمل شيء حيال الأعمال الوحشية التى ترتكب هناك. وعلينا العمل علي توصيل المعونة الإنسانية، وهذا يقتضي دعماً قوياً من المجموعة الأوروبية». ووافق ميجور وهيرد علي تقييمي، وأيدا الخطوات التى نعتزم اتخاذها وتساءلت: «هل يمكن أن تنضم المملكة المتحدة علي الفور؟» وأجاب ميجور «نظرياً نعم، عملياً لا». متذرعاً بالحاجة إلي التباحث مع شركاء المجموعة الأوروبية. ومضي الي التحذير من أن الوضع قد يستمر سنوات «كالوضع الذى نعيشه فى إيرلندا الشمالية» وتساءل بمجرد أن يبدأ هذا فأين النهاية؟ وفى عيون الأوروبيون أصبحت سراييفو تتحول إلي سايجون لا تنتظر إجراءً حاسماً أو كما أوجز هيرد فى ختام الاجتماع «إن الدماء سوف تسيل تحت أبواب قمة منظمة الأمن والتعاون فى أوروبا المقرر عقدها فى تموز يوليو».



وفور انتهاء اجتماعى مع ميجور انتهزت فرصة وجود الصحافة لتقوية النبرة الدعائية. وأعلنت علي الملأ للمرة الأولي أن الوضع فى البوسنة يشكل «كابوساً إنسانياً ولا يحتمل» وحددت الإجراءات الدبلوماسية والسياسية التى ستتخذها الولايات المتحدة من جانب واحد؛ وهي رفض الاعتراف ببلجراد باعتبارها وريثاً لدولة يوغسلافيا حتي تنسحب كافة قواتها من الدول المجاورة وتحترم حقوق الأقليات – سحب زمرمان بصفة نهائية من بلجراد، إغلاق القنصليتين اليوغسلافيتين – وقف الاتصالات مع JNA – سحب ملحقينا العسكريين باستثناء الملحق الجوى الذى سيستمر موجوداً لتنسيق جهود الإغاثة الإنسانية، وسحب موظفى سفارتنا فى بلجراد.

وأردت ممارسة ضغوط علي المجموعة الأوروبية حتي تتخذ إجراءً سياسياً ودبلوماسياً علي الأقل، ومع اجتماع وزراء خارجية اثنتى عشرة دولة فى لشبونة بدا التوقيت موائياً

لعمل الأوروبيين علي التحرك، وأتي تصريحي بالثمرة المرجوة منه. فقد استحوذ التصريح علي تغطية الصحف في اليوم التالي في الصحف الأمريكية والأهم الصحف الأوروبية.

ولدي وصولي إلي لشبونة اجتمعت أولاً مع وزير الخارجية الألماني الجديد كلاوس كينكل. واستهللت بالقول: «إننا نريد من كافة الدول الاثنتي عشرة أعضاء المجموعة الأوروبية مسايرة ما أعلنته في لندن» وأضفت قائلاً: «لقد حاولنا تأييد مساعي السلام التي تبذلها المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة ونحن متمسكون بسياستنا برغم عدم موافقتنا علي اعتراقكم، ولكن الآن هناك كابوس إنساني جاثم في وسط أوروبا. إن هذه إهانة ولا يمكننا الوقوف هكذا من دون عمل شيء وسوف نفعل الصواب». ومع استطرادي بدأ الحديث يؤتي مفعوله: «إن ما لديكم في المجموعة هو أدني عملية تنسيق. وإذا لم يستطع بعض من الدول الاثنتي عشرة مسايرتنا فليكن. لكنني آمل أن تستطيع ألمانيا الانضمام لنا. إننا نريد منكم تفحص الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة الخاص بالعقوبات. إننا نريد تأييد الدول الأوروبية الكبري إننا نريد النظر في فرض حظر بترولي علي صربيا».

ورد كينكل: «إننا متفقون. إننا نريد هذا من البداية. لكن الآخرين أوقفونا. إننا نتفق مع ما أعلنتموه الليلة الماضية في لندن». وعارضته قائلاً: «إن هذا مجرد لغو، إنه محض هراء، إن الناس يموتون بينما نحن نتحدث». وكان لكلماتي وقع طيب. لكني كنت علي يقين أنني في حاجة للألمان لتحريك الفرنسيين، ولذا فقد كنت عاطفياً لأقصي درجة مع كينكل. ورد كينكل بدبلوماسية: «كما قلت فإننا نرحب بمقترحاتكم التي طرحتموها في لندن. إنني جديد هنا وسوف أحاول ما يسعني عمله. بل وحتي بحث الخيار العسكري. إننا نعلم إن الكلمات لا تكفي. ولكن علي مأدبة الغداء التي أتيت منها لتوي كان الفرنسيون واليونانيون في غاية الصعوبة». وقلت: «إن الورقة الوحيدة التي نملكها هي عزل ميلوسيفيتش ولا يسعني فهم كيف يمكن لأوروبا أن تقف هكذا ولا تحرك ساكناً وتدع هذا يحدث».



وفور اختتام اجتماعي مع كينكل توجهت إلي مركز بيليم الثقافي للمشاركة في المؤتمر نفسه. وفي كافة اجتماعاتي أثرت أخطار استمرار التصعيد والحاجة إلي تعزيز العزلة

المفروضة علي صربيا بما في ذلك العقوبات المنصوص عليها في الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة كتلك التي استخدمناها في البداية في الأزمة العراقية. وفي الجلسة الموسعة والاجتماعات الفرعية لمؤتمر المعونة للاتحاد السوفيتي السابق كان الجميع تقريباً يبحثون قضية البوسنة أيضاً. وفي الواقع فقد كانت الكثير من الديمقراطيات الوليدة في دول الاتحاد السوفيتي السابق تشعر بقلق عميق في ضوء تشنج القوميات المتضاربة من تكرار نموذج البوسنة فيها، ومن ثم فقد كانوا مهتمين كالجميع بالدعوة لاتخاذ إجراء غربي لمنع حدوث مزيد من التطهير العرقي. وقلت في مداخلتي: «يتعين علي المجتمع الدولي ألا يتسامح بعد الآن مع هذه الوحشية. فهذا يشكل إهانة لضميرنا الجمعي».

وانتهزت فرصة المؤتمر الصحفي الذي عقد في ختام المؤتمر اليوم التالي لتسليط الأضواء علي الاختلافات الأوروبية بل وحتي السلبية الأوروبية. ورسمت صورة للواقع المروع مسلحاً بالبيانات التي جمعتها لي مارجريت تاتويلر: ٣٥ ألف مريض بالسكر بدون أنسولين. ستة آلاف طفل وسيدة بدون حليب أو أدوية أو أغذية أطفال بعد اختطاف اثنتي عشرة شاحنة إغاثة تابعة للأمم المتحدة. وناشدت زملائي الأوروبيين بوضوح تام: لا يجب علي أحد منا أن يلتمس الأعذار لعدم التنديد بقوة وشدة. ولا يجب علي أحد منا أن يحاول اختلاق الأعذار لعدم اتخاذ إجراء لإنهاء الكابوس الإنساني في قلب أوروبا. وفي محاولة لتوجيه إشارة واضحة إلي بلجراد عن الحد الذي يمكن أن نذهب إليه مالم يرفع الحصار عن سراييفو فقد رفضت عدم استبعاد اللجوء إلي القوة (باستثناء استخدامها من جانب واحد من قبل الولايات المتحدة) وأشرت إلي التحالف الذي شارك في حرب الخليج. ومجرد انتهائي عم الارتباك الأوروبيين*.

وأبلغت الرئيس من لشبونة: «إن ما نلمسه مرة أخري هو أن الأوروبيين يريدون أن يتحركوا بفعالية لكنهم في حاجة إلي دفعة منا لعمل ذلك حتي في القضية التي يريدون أن

---

* كان لمصر بعثتي وقتها في بلجراد، وبينما كنت في لشبونة وجه الصرب رسالة بأنهم يريدون إيفاد مبعوث خاص للقاء لورانس إيجلبرجر في بوخارست لكن طلبهم رفض. وكنا نريد إبقاء العزلة علي ميلوسوفيتش حتي يتم فتح مطار سراييفو ومرور قوافل الإغاثة بأمان. وكتبت بلجراد رسالة إلي السكرتير العام للأمم المتحدة في محاولة لمنع فرض العقوبات.

يمسكوا فيها بزمام القيادة بل وحيث يجب أن تكون لهم القيادة. ويمكن أن تكون الأعمال الجماعية والاستجابات متعددة الأطراف لكنها لن تنال زخماً ما لم تكن بمثابة محفز. والواضح أن المجموعة الأوروبية تريد أن تضطلع بدور سياسي رئيسي لكن تناقضاتها الداخلية سوف تعرقله ما لم نحوله إلى ثقل عن طريق دبلوماسيتنا الخاصة والأهم عن طريق دبلوماسيتنا الطليقة.

وأخيراً وبعد مؤتمر لشبونة تجاوز الأوروبيون خلافاتهم وبدأوا في التحرك، وبعد مرور أربعة أيام قررت المجموعة الأوروبية فرض عقوبات اقتصادية إضافية علي الصرب. وفي غضون أسبوع من تصريحاتي في لشبونة أقر مجلس الأمن الدولي بأغلبية ثلاثة عشر صوتاً ضد لا شيء. وامتناع الصين وزيمبابوي عن التصويت القرار رقم ٧٥٧ الذي فرض حظراً اقتصادياً شاملاً علي صربيا. والآن عزلت صربيا بالفعل علي الأقل.

سياسة عدم اللجوء إلى القوة

وبرغم عزلة بلجراد سياسياً واقتصادياً فقد واصلت هجومها العسكري علي البوسنة والهرسك، ومساء يوم الإثنين الثامن من حزيران يونيو اتصلت بالرئيس علي خط مؤمن وأبلغته بتدهور الأوضاع. فقد اجتمعت لتوي مع أندريه كوزيريف الذي كان يشعر بتفاؤل كبير في لشبونة تجاه احتمالات إقرار السلام. وعقب انتهاء المؤتمر توجه إلي البلقان. وكان يعتقد أن الصرب سيصغون إلي نصيحة من نظير سلافي. لكن رحلة كوزيريف غيرت موقفه بزاوية ١٨٠ درجة. وبات التشاؤم يتملكه كالآخرين.

ويوم الأربعاء وافق الرئيس علي استخدام طائرات نقل أمريكية لتوصيل المعونة الإنسانية إلي سراييفو بمجرد سريان وقف اطلاق النار، ومع هذا فقد كان السؤال الذي يصلنا هو هل سيصمد وقف إطلاق النار؟.

ورغم مرور أسبوعين لم يسر وقف لإطلاق النار. ولازالت سراييفو معزولة. ونتيجة لذلك، وفي شهادة أدليت بها أمام مجلس الشيوخ يوم الثلاثاء ٢٣ حزيران يونيو شددت موقفنا

تجاه الصرب بإعلان إغلاق آخر قنصلياتهم في الولايات المتحدة وطرد سفيرهم. والعمل مع الدول الأخري لتعليق عضوية يوغسلافيا الجديدة في المنظمات الدولية. واستنفذ هذا كافة الإجراءات الدبلوماسية والسياسية المحتملة، ولم يكن لدى أدني وهم بأن مثل هذه الخطوات ستكفي لإحداث تغيير جذري في سلوك صرب البوسنة وبلجراد، وهكذا توجهت إلي البيت الأبيض بعد الظهر لأبحث مع سكوكروفت إمكانية استخدام أداة -قوة عسكرية غربية- ربما تغير مجري الحرب. وكان الوضع في سراييفو قد أدمي قلب سكوكروفت مثلي تماما. لكننا كنا علي يقين من أن الرئيس لا يريد ولا يحب أن يتورط في التزام عسكري مفتوح في يوغسلافيا السابقة. وكان كلانا يدرك أيضاً أن البنتاجون يعارض بشدة أي تدخل عسكري في البوسنة لأسباب نقدرها تماما. ومع هذا فقد اتفقنا علي أنه يتعين بذل المزيد، وسأعرض اقتراحاً يتيح استخدام القوة العسكرية لهدف وحيد هو توصيل المساعدات الإنسانية.

وأثناء الليل عكف أندور كارنبدالي وآرني كانتر ودينيس روس ومارجريت تاتويلر علي إعداد مذكرة من صفحتين: خطة اللعب: الخطوة التالية حول البوسنة. وهدف الخطة هو بذل كل ما هو ضروري لتوصيل المعونة الإنسانية إلي سراييفو، وحددت أربعة إجراءات أساسية أولها تحريك حاملة طائرات علي الفور إلي البحر الأدرياتيكي. ثانياً: فرض حصار بحري متعدد الأطراف علي الموانئ لتطبيق الحظر المفروض وخاصة ميناء بار بجمهورية الجبل الأسود. ثالثاً تأكيد تعزيز العقوبات المطبقة بقطع خط أنابيب البترول الممتد إلي صربيا من رومانيا، ورابعاً توضيح الاستعداد لشن غارات جوية متعددة الأطراف (علي سبيل المثال ضد المدفعية المتمركزة علي التلال) كضرورة تهدف لتهيئة الأجواء لتوصيل المعونة الإنسانية.



ولم تقض الخطة باستخدام منفرد للقوة الأمريكية أو اللجوء إلي القوة لتسوية الصراع الدائر. ومع هذا فلم يكن دافعنا مجرد دافع إنساني بل نتيجة إقرارنا أيضاً بأن استخدام القوة العسكرية بأي طريقة أو لأي هدف ستكون له تداعيات سياسية ودبلوماسية جوهرية. فيتعين اتخاذ كافة الإجراءات من قبل أطراف متعددة تحت سلطة الأمم المتحدة وبموافقة صريحة

من الكونجرس، ولن تكون هناك «قوات مقاتلة أمريكية في ساحة القتال» واحتوت الخطة على جدول زمني محكم للشروع في تلك الإجراءات بدءً باتصالات هاتفية فورية أجراها الرئيس، وجولة تنقلني إلى العواصم الأوروبية الرئيسية وموسكو. كان النموذج الماثل في ذهننا هو الجهد الذي بذل في إقامة تحالف حرب الخليج، واعتزمنا استصدار قرار «باستخدام كافة الوسائل اللازمة» في غضون عشرة أيام.

وعقب التشاور حول الاقتراح مع الرئيس وسكوكروفت حدد الرئيس اجتماعا للمسؤولين صباح الجمعة، وكنت أدرك أن باول وتشيني سيعارضان خشية أن تفضي بنا إلى منزلق يقودنا إلى تورط عسكري أكبر يفوق الحد. وكان النموذج المحتذي لديهما في استخدام القوة كالمفهوم هو حرب الخليج حيث إن البوسنة في رأيهما أكثر شبهاً بفيتنام لا العراق. ومن ناحية أخرى، أعتقدت أنه لو اقتصر تفويض استخدام القوة بصراحة وبشكل تام على توصيل المعونة الإنسانية على ألا يشمل حل الصراع السياسي الدائر، فإن «المنزلق» الذي نخشاه سوف يتقلص إن لم يتلاشى تماماً. ولذا فقد اتخذت خطوة لجأت إليها أحياناً من قبل أثناء إدارة بوش، وقصدت الرئيس بوش مباشرة في محاولة لتجاوز العملية المعتادة بين الوكالات الحكومية وإعداد النتيجة سلفاً.

وبعد ظهر الأربعاء توجهت إلى البيت الأبيض لإجراء مشاورات خاصة مع الرئيس. وعرضت عليه اقتراح خطة اللعب، وأشرت إلى أنه أقل ما يمكننا عمله في ضوء الكابوس الجاثم الآن على أعتاب غرب أوروبا، وأبلغني بأنه يعتقد أن ما حددته سوف يؤتي ثماره. وقد تغير عزوفه الأولى بالابتعاد تماماً عن الوضع العسكري الشائك في يوغوسلافيا نتيجة استمرار الفظائع في البوسنة وإحباطه من عجز الأوروبيين على التحرك معاً. وأشار إلى أنه سيوصي البنتاجون على الأرجح يوم الجمعة بوضع الخطة موضع التنفيذ.

كان اجتماع المسؤولين يوم الجمعة واحداً من أكثر الاجتماعات إثارة التي شاركت فيها كوزير للخارجية، واستعرض تشيني وباول الأخطار المرتبطة باستخدام القوة العسكرية، وحتى لتوصيل المعونة الإنسانية. وأكدت أنا وبربنت أننا استنفدنا بالفعل كافة الوسائل الدبلوماسية والسياسية والاقتصادية بكثير. وعقب مباحثات مستفيضة أيد الرئيس بقوة خطة

اللعب التي حددتها رغم أن تشيني وباول أقنعاه بأنه إذا كان يتعين تنفيذ الخطة فعليه تحريك مجموعة الاستعداد البرمائية MARG إلي بحر الأدرياتيك وليس حاملة طائرات.

وعدت إلي الخارجية وأصدرت تعليماتي إلي دينيس روس وآرني كانتر لوضع الشق الخاص بوزارة الخارجية في خطة اللعب موضع التنفيذ واتصل روس ببندر وأبلغه بأننا في سبيلنا للضغط علي بوخارست لقطع خط أنابيب البترول، وسيكون طيباً لو عوض السعوديون جانباً من الأموال التي ستخسرها بوخارست جراء إغلاق الخط. وقال إنه سيحاول تقديم العون. كنا نشعر أن الفرصة ستسنح بقوة للحصول علي الدعم السعودي. لأن الملك فهد كتب للرئيس موضحا قلقه من عدم التحرك الغربي في البوسنة.



وخلال عطلة نهاية الأسبوع بدأت الأحداث تتحرك لصالحنا. فقد منحت الأمم المتحدة مهلة ثمان وأربعين ساعة إلي الصرب، وحذا مجلس أوروبا حذوها بإصدار بيان يوم السبت يدعو إلي اتخاذ كافة التدابير الفعلية لفتح مطار سراييفو. واستعرض الرئيس سياستنا مع الحلفاء الرئيسيين بمن فيهم بوريس يلتسين، وتوصل إلي أنهم جميعاً يؤيدون قراراً باستخدام كافة الوسائل اللازمة علي غرار القرار الذي أصدره مجلس الأمن الدولي مفوضاً بشن حرب الخليج. وكشفت اتصالاتي الهاتفية عن مستوي تأييد غير معهود من وزراء خارجية كندا باربارا مكدوجال وحكمت شيتين وزير الخارجية التركي وكلاوس كينكل. وحصلنا علي التأييد الضخم لدرجة أننا قررنا في عطلة نهاية الأسبوع عدم القيام بجولتي. فلم يعد لها مبرر بعد أن بات من شبه المؤكد أن بوسعنا استصدار قرار من مجلس الأمن الدولي علي أية حـال*. وفي الواقع فقد رفرف علم الأمم المتحدة وانصاع الصرب للخطة. وبعد أربعة أيام بدأت الأمم المتحدة تسيير رحلات إغاثة جوية إلي سراييفو. وفي السابع من تموز يوليو أدان

* ربما كان إلغاء الجولة خطأً، لأنه كان من شأنها أن تشكل حدثاً يحفز علي العمل. وكانت قد سمحت لي بتجاوز العقبات البيروقراطية التي عرقلت مبادرتنا في نهاية الأمر.

اجتماع مجموعة السبع بقوة لجوء الصرب إلي العنف، وأعلنوا تأييدهم لتدابير أخري «لا تستبعد الوسائل العسكرية» لتحقيق أهداف إنسانية.

وعند هذا الحد تقلصت مشاركتي في معالجة أحداث يوغسلافيا السابقة. ففي الأسبوع التالي، وبينما كنت استجم في مزرعتي في بتيدالي في ويوميتج استدعاني الرئيس وطلب مني العودة إلي البيت الأبيض لتولي رئاسة هيئة موظفي البيت الأبيض لتنسيق حملته الانتخابية. وتحول تركيزي إلي السلطة الداخلية بعيداً عن السياسة الخارجية.

ومع كتابة هذه المذكرات بعد مرور ثلاثة أعوام لايزال «الكابوس الإنساني» في قلب أوروبا مستمراً. ولا أعتقد أنه كان بالوسع منعه عن طريق إجراءات سياسية ودبلوماسية واقتصادية، وفي اعتقادي كان السبيل الوحيد لمنعه هو استخدام القوة العسكرية بكثافة في مرحلة مبكرة بما يستدعيه ذلك من خسائر وخاصة في الأرواح، وباعتراف الجميع فإن الخسائر ستكون مذهلة في مثل تلك البيئة، وكان قرار الرئيس بوش بأن المصالح القومية الأمريكية لا تقتضي خوض أبناء وبنات الولايات المتحدة حرباً رابعة في أوروبا في الوقت الحالي بما يستتبعه ذلك من خسائر هو قرار صائب إلي أقصي درجة. فلا يمكن ولا يجب أن يتوقع أحد أن نكون رجل شرطة العالم، وما كان التأييد الضروري من الشعب الأمريكي لدرجة استخدام القوة المفترض استخدامها في البوسنة ليتم أو يمكن الحفاظ عليه.

الفصل الرابع والثلاثون

من الحرب الباردة إلى السلام الديمقراطي

على مـــدار سنوات عـــديدة كـــانت بلدانا قطبين، قـــطبـــان متـــعارضـــان... وقد أثر هذا بشــدة الطرق مأســاوية على مصير العالم، فقد عصــفت عواصف المواجهة بالعالم، وأوشك على الانفجار وأوشك على الهلاك متجاوزاً حدود الانقاذ.

بوريس يلتسين
١٧ حزيران يونيو ١٩٩٢

كان من الصعب وأنا أغادر وزارة الخارجية لأسلك كونستيتيوشين أفينيو قاصداً الكونجرس تحت شمس أحد أيام حزيران يونيو١٩٩٢ ألا تقفز إلي مخيلتي ذكري أول رحلة إلي مجلس النواب للاستماع إلي خطاب يلقي أمام جلسة مشتركة للكونجرس. ففي السادس والعشرين من كانون الثاني يناير١٩٨٢ وبصفتي رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض جلست لاستمع لأول خطاب للرئيس ريجان عن حالة الاتحاد، خطاب مفعم بالقوة والحيوية استعرض فيه آراءه بطريقته المعهودة، خطاب ملؤه العاطفة والبصيرة والاقتناع الناجم عن يقين من يدرك أنه يقف علي الجانب الصواب من التاريخ.

في ذلك اليوم كان ريجان بليغاً في وصف التحدي الذي يفرضه الاتحاد السوفيتي. فقد قال يومذاك: «ينبغي أن تكون سياستنا الخارجية مفرطة في الواقعية لا السذاجة أو خداع الذات، إن الاعتراف بما تشكله الإمبراطورية السوفيتية هو نقطة البداية. فقد رصد وينستون تشرشل في مفاوضاته مع السوفيت أنهم لا يحترمون إلا القوة والحزم في تعاملاتهم مع الدول الأخري. وهذا هو السبب الذي حدانا إلي إعادة بناء دفاعاتنا القومية. إننا نعتزم الحفاظ علي السلام. وسوف نحافظ علي حريتنا أيضاً».

والآن وبعد عقد من الزمان وأنا آخذ مكاني في المجلس كان النجاح المؤزر لسياسة الرئيس ريجان «السلام من خلال القوة» ماثلاً. فهاهم أعضاء مجلسي الكونجرس يجتمعون للاستماع إلي أول رئيس منتخب لروسيا بوريس يلتسين الذي يزور واشنطن لعقد قمة مع الرئيس بوش، وكان موضوع اليوم هو «الشراكة والصداقة، لا العداوة والتنافس. وفي عام ١٩٨٢ ما كان أحد ليتوقع أنه بعد عشرة أعوام أن الاتحاد السوفيتي سيكون في ذمة التاريخ لتحل محله روسيا المستقلة التي تعمل علي إقامة الديمقراطية والسوق الحرة. وإلي جانبها أربع عشرة دولة مستقلة حديثاً.

لكن هاهو يلتسين يقف علي المنصة ويعرض قضيته ببلاغة منقطعة النظير. واستهل بالقول: «لقد بدأ العقل ينتصر علي الجنون. لقد تركنا وراء ظهورنا الحقبة التي نلوح لبعضنا بالأسلحة، وعلي استعدادنا للضغط علي الزناد في أي وقت». وأضاف قائلاً: «يمكن للعالم الآن أن يتنفس بارتياح فقد انهار صنم الشيوعية الذي بث الصراع الاجتماعي والعداء

والوحشية غير المسبوقة فى كل مكان. والذى أشاع الخوف لدي الإنسانية. لقد انهار ولن ينصب مرة ثانية ولن نسمح له بأن ينصب مرة أخري فى بلدنا.

وكان بالغ التأثير عندما بحث الشواغل الأمريكية حيال أسري الحرب فى فيتنام. فعشية مغادرته موسكو صرح يلتسين لشبكة إن بى سى بأن بعض ملفات الأرشيف أشارت إلي أن النظام السوفيتى قام فى الستينيات والسبعينيات بالتنسيق مع الحكومة الشيوعية فى هانوي بنقل أسري الحرب الأمريكيين إلي الاتحاد السوفيتى لاستجوابهم. وقال: «لا يسعنا سوي الاعتقاد بأن بعضهم ربما لا يزال علي قيد الحياة» وبالطبع فقد أثار هذا جدلاً فى مجلس الشيوخ والنواب وهدد بتعكير صفو الزيارة.

وخرج عن النص المكتوب فى الخطاب ليقول: «أعدكم بأنه سيتم فحص كل وثيقة وكل أرشيف لتقرير مصير كل أمريكى مفقود. إننى أطمأنكم بصفتى رئيساً لروسيا أنه إذا ثبت وجود امريكى واحد معتقل فى بلادى ويمكن العثور عليه فسوف أعثر عليه. ولسوف أعيده إلي أسرته». وهب الحضور إلي الوقوف فى ترحيب حماسى، وردد الأعضاء هتاف «بوريس ، بوريس ، بوريس».



كانت ضربة معلم سياسية استحوذت علي أعضاء الكونجرس المترددين ومهدت الطريق أمام إصدار قانون دعم الحرية، وهو التشريع الذى تقوم الإدارة بمقتضاه بمساعدة الاتحاد السوفيتى السابق. فقد كان ذلك بالنسبة للكثيرين مفاجأة مفرطة. لكننى كنت أعرف العكس.

ففى اليوم السابق، وفى اجتماع مكرس أساساً لبحث قضية الحد من الأسلحة النووية مرر الرئيس إلىّ مذكرة مكتوبة جاء فيها: «أن يلتسين فى حاجة ليقول أمام الكونجرس أننى لا أعرف ما إذا كان هناك أسير حرب أو مفقود أمريكى لا يزال علي قيد الحياة فى روسيا أو

أي مكان في الاتحاد السوفيتي السابق. لكنني سأفحص كل سجل وكل أرشيف لإلقاء الضوء علي مصير الأمريكيين المفقودين. ويسعدني أن أطمئنكم بأنه لو أن هناك أمريكيا محتجزاً ويمكن العثور عليه فسوف أعثر عليه وسوف أعيده إلي أسرته. كانت بصيرة بوش نافذة، ونفذنا اقتراح الرئيس ونقلنا تلك الكلمات المحددة إلي الوفد الروسي.

وبالعودة إلي هذا الحادث البسيط أعتقد أنه يوضح الخطوات التي قطعناها في النصف الأول لعام ١٩٩٢ لإقامة التعاون الأمريكي الروسي في مختلف مجالات العلاقة بيننا. وبانهيار الاتحاد السوفيتي دخلنا أرضاً استراتيجية غير مطروقة، وكشفت الأشهر الستة الأولي لعلاقاتنا مع روسيا وجيرانها المزيج المعقد من المثالية والواقعية الذي وجه سياستنا.

فمن ناحية كنا نعتقد أن هزيمة الشيوعية وصعود الديمقراطيين قد هيأ فرصة غير مسبوقة، وراودنا الأمل في أن نقيم علاقاتنا مع روسيا وأوكرانيا والدول الأخري حديثة العهد بالاستقلال علي أساس الديمقراطية والسوق الحرة: أي ما أصبحنا نطلق عليه اسم «السلام الديمقراطي» نوع السلام الذي أقمناه مع ألمانيا واليابان، ويستند هذا السلام إلي قيمة ديمقراطية وليس علي مجرد تشابك المصالح. وبينما كان النبض الديمقراطي في روسيا ومعظم دول الكومنولث نبضاً حقيقياً فلم يكن لهذه الدول ميراث ديمقراطي، ولم نكن علي يقين تام بأن تلك الديمقراطية سوف تتجذر. لكننا لا نريد خلق نبوءة تتحقق ذاتياً بانتهاج سياسة توازن قوي محضة تفترض أن تلك الدول ستعود حتماً إلي نظم الحكم التسلطية.

ومع هذا فقد تضمنت سياستنا جرعة مكثفة من الواقعية السياسية كتطعيم ضد أي تراجع عن الإصلاح. وهكذا وبرغم تعاوننا مع الديمقراطيين في روسيا وأوكرانيا والدول المستقلة الأخري لدعم الديمقراطية والسوق الحرة فقد أمضيت معظم الربيع في إدارة قضايا السياسة الواقعية : وتحديداً ضمان عدم نشر أسلحة نووية علي أراضي الاتحاد السوفيتي السابق، وضمان إزالة كافة الأسلحة النووية التكتيكية. وخفض الترسانة الاستراتيجية لروسيا من خلاله معاهدة ستارت٢ حتي لا تستطيع بعد الآن أن تهدد بتوجيه الضربة الأولي.

العمل على استقرار اقتصاد روسيا – قانون دعم الحرية

في ختام جولة «المذابح» في شباط فبراير ١٩٩٢ التقيت بوريس يلتسين في موسكو. وعلى خلاف زيارتي في كانون الثاني يناير ولاجتماع كامب ديفيد مع الرئيس بوش في الأول من شباط فبراير حيث كان الرئيس الروسي معنى أساساً بمناقشة القضايا الأمنية والسياسية، كانت المساعدات الاقتصادية هي أهم أولويات يلتسين هذه المرة.

وقال يلتسين: إن الحكومة الروسية ملزمة بتشديد السياسة الائتمانية وخفض العجز وخفض كمية وسائل الدفع وخصخصة الشركات العامة، وقال أيضاً إنه يعتقد ببذل جهود لتدعيم الروبل في مواجهة الدولار.

ومع هذا فإن روسيا في حاجة إلى معونة خارجية، وإنه يتطلع إلى الولايات المتحدة لتتصدر المجتمع الدولي في تقديم المعونة. كانت الحبوب تشكل مشكلة خاصة. وحتى رغم تلقي موسكو ائتمانات إضافية من بريطانيا وفرنسا وكندا فلازالت روسيا في حاجة إلى المزيد ـ نحو ستمائة مليون دولار كضمانات قروض من الولايات المتحدة.

ولم تكن احتياجات روسيا قاصرة على الحبوب. وكان يلتسين يعتقد أن إقامة صندوق لدعم الاستقرار سيكون ضرورياً بالنسبة للروبل، فمثل هذا الصندوق الذي استخدم بنجاح في بولندا سيكون بمثابة تأمين لدعم العملة الروسية أثناء تداوي الاقتصاد الروسي «بالصدمات» وخلال نظام جورباتشوف ظللنا أيدنا فكرة إقامة صندوق الاستقرار، ورغم جهودنا لتعليم السوفيت على سبيل المثال عبر مباحثاتنا الثنائية، واقتراح منحهم وضع انتساب خاص في صندوق النقد الدولي في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠، لم يبد جورباتشوف التزاماً مهماً بإقامة اقتصاد حر أو الأخذ بعناصره الأساسية في أي من الخطط التي اتبعها السوفيت لعمل صندوق الاستقرار. ومع هذا كانت حكومة يلتسين مختلفة تماماً. فقد كانت الخطة التي أعدها إيجور جيدار نائب رئيس الوزراء حينذاك جادة وصادقة من زاوية مضمونها المالي والاقتصادي، وألقى يلتسين بثقله الشخصي وراءها مما منحها مصداقية سياسية. سواء داخل روسيا أو خارجها.



وأبلغت يلتسين أنه في حاجة إلي خفض الإنفاق الحكومي، وإجراء خفض حاد في نسبة نمو كمية وسائل الدفع، وأن يتابع موقف الدين الخارجي باستمرار، وفضلاً عن ذلك حثثته علي العمل مع صندوق النقد والبنك الدوليين باعتبارهما أفضل مصدر للقروض. كما أن موافقتي تعد شرطاً مسبقاً لتلقي قروض ضخمة من مجموعة السبع. وطلب الاستعانة بخبراتنا الفنية في مساعدة حكومته في الإجابة علي الأسئلة التي طرحها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي. وأجبت بالموافقة مستشعراً بأن هذا مؤشرآخر عن مدي تطلعه للمساعدة الغربية.

وطمأنت يلتسين «بأنني سأدفع شخصياً من أجل مساندة صندوق الاستقرار، ولم أشأ أن أتركه ألعوبة للأشرار. وهو الوصف الذي أطلقه علي المسؤولين الذين ينظرون إلي القضايا علي أنها مجرد اصطلاحات فنية وحسابية دون اعتبار لمضمونها الاستراتيجي والسياسي الأهم من كل شيء». وقلت ليلتسين سوف نحاول حشد المجتمع الدولي لإقامة صندوق الاستقرار. وبالطبع كان هذا سيستغرق جهداً شاقاً. وشاركت سبع وأربعون دولة وسبع منظمات دولية في مؤتمر التنسيق في كانون الثاني يناير. لكن هذا كان من أجل المساعدة الإنسانية التي ستكون كلفتها أقل من صفقة معونة شاملة. فضلاً عن ذلك، وفي ألمانيا كانت كلفة الوحدة تتصاعد وقد دفع الألمان المليارات بالفعل، وليسوا علي استعداد لدفع المزيد، وفي اليابان كانت الحكومة تعتزم استرداد أراضيها الشمالية وعلقت المساعدة الاقتصادية حتي تتحرك موسكو بشأن القضية.

وفي الوقت نفسه وفي واشنطن لم ترق فكرة صندوق الاستقرار لوزارة الخزانة علي الإطلاق، ومع هذا بدأت الوزارة في تغيير موقفها في شباط فبراير عندما قسّل جوبدار البقاء في واشنطن. وبحث برنامج الإصلاح مع كبار المسؤولين علي التوجه إلي كامب ديفيد ومرافقه يلتسين. ولكن حتي لو أمكننا الحصول علي اتفاق حكومي عام فسوف نظل في حاجة إلي التأييد في الكونجرس. وفي غمرة تباطؤ الاقتصاد فإن قلة قليلة فقط من أعضاء الكونجرس هي التي تهتم بالتصويت علي المعونة الخارجية.

❑ ❑ ❑

ورغم هذا فقد أعتقدت أننا لو انتهجنا استراتيجية ثلاثية فسوف نفوز بالتأييد الضروري في الكونجرس. أولاً: فالروس في حاجة إلي الإبقاء علي الزخم الاقتصادي الذي ولده يلتسين بتحرير الأسعار في مطلع العام ومتابعة خطة إصلاح يعتد بها. وكلما أظهرت الحكومة الروسية التزامها بالإصلاح الحقيقي كلما أصبحت المؤسسات المالية الدولية أكثر ميلاً للموافقة علي خطة استقرار وكلما تعاظم الضغط علي مجموعة السبع للموافقة علي هذا الصندوق.

ثانياً: إننا في حاجة إلي دفع مجموعة السبع من خلال نواب وزراء المالية الذين كانوا يتولون التنسيق حول القضية. وبسبب عزوف وزارة الخزانة أجريت عدة محادثات مع الرئيس وبرينت سكوكروفت والتقيت أنا وسكروكروفت علي الغداء مع نيك برادي لإبداء قلقنا. وبذل بوب زوليك وإيد هيويت من مجلس الأمن القومي جهداً شاقاً لحمل الطرف المالي في الحكومة علي التحرك (وتوفي هيويت متأثراً بالسرطان في أوائل عام ١٩٩٣ وكان واحداً من الأبطال المجهولين في إعداد سياستنا السوفيتية، رجل كان يدع الأنانية ويؤدي عمله علي أكمل وجه، ولن أنسي تبختره في مشيته ولا ابتسامته العريضة ولا تكامه المتقد).

ثالثاً: أردت إيجاد أداة يمكننا بواسطتها حشد التأييد والتصويت في الكونجرس، وفي أواخر الخريف وضع ستيف بيري نائب جانيت مولينز الأساسي لشئون الكونجرس تصور إصدار تشريع واحد ينهي القيود المفروضة منذ الحرب الباردة، وضمنت هذه المبادرة خطابي في برينيسيتون في كانون الأول ديسمبر. والآن مع قيام مولينز وبيري بتنسيق الجهود وقيادة فريق خبراء الخارجية، وضعناه علي المسار السريع، ومع منتصف آذار مارس أصبح لدينا قانون دعم الحرية*.

وفي ٢٥ آذار مارس التقيت الرئيس وأطلعته علي تطورات الأمور. وكان البنك الدولي وصندوق النقد الدولي ونواب وزراء مالية مجموعة السبع يحرزون تقدماً جيداً. وفي الواقع كانوا علي وشك إقرار برنامج لروسيا. لكنني قلت إن ذلك لن يكون كافياً. فالروس يتطلعون لنا لتولي زمام القيادة وبدونها سوف تتعثر الصفقة. وقلت للرئيس: «إن أمامنا فرصة الآن،

---

* من بين هؤلاء الخبراء تود برشفلد من مكتب المستشار القانوني ودان سكهارة من مكتب إيجابيوجير وجاريلار بكهام وسكوت جايلاند من مكتب جانيت مولينز.

لكنها سوف تتلاشي لكسب أكبر أرضية لمساعدة الاتحاد السوفيتي السابق عليك باغتنامها.
إن أفضل طريق للمساعدة وضمان عدم تحميلنا مسؤولية خسارة روسيا هو بذل قصاري جهدنا لإنجاح الإصلاح، وهذا يعني المضي قدماً لإقرار هذا التشريع الجامع الفذ.

وداخلياً شكل مشروع القانون جدول عمل طموح للتعاون الأمريكي الروسي، وأردت أن يستجيب الكونجرس لنا وليس العكس بالعكس. وبيروقراطياً لم أكن أريد أن يتوه في غياهب المتاهة والخلاف بين الوكالات الحكومية. وقلت: «لو تحرن علينا التفاوض داخلياً فلن نحصل عليه وسوف نخسر الفرصة. وسيؤدي هذا ببساطة إلي تصعيد الرأي القائل بأننا لا نفعل شيئاً، وأننا نتردد حول أهم قضية تؤثر علي أمن الأجيال القادمة من الأمريكيين». وكان الرئيس يوافق دائماً علي ما هو عرضة للخطر من الناحية الاستراتيجية. لكن يتعين الآن أن توضع الاعتبارات الانتخابية في الاعتبار. وبرغم هذه الاعتبارات كان الرئيس مستعداً للتحرك مع هذا.

وحددت الإطار العام للتحرك لإقرار التشريع، ولم نكن نريد إقراره قبل ٣١ آذار مارس وهو المهلة المحددة لاستمرار الزخم في الكونجرس فيما يتعلق بالمساعدات الخارجية. وإذا تحركنا قبل هذا الموعد فسوف يقع مشروع القانون رهينة في قبضة قضايا مساعدات أخري: فضلاً عن ذلك فسوف يوصف القانون «بأنه مجرد معونة خارجية» مما سيلقي به في حفرة سياسية. وهكذا فإننا في حاجة إلي التحرك بعد ٣١ آذار مارس، لكن قبل ٦ نيسان إبريل، وهو الموعد المقرر لبدء مؤتمر نواب الشعب. وكان المحافظون يحشدون جهودهم ضد يلتسين، وأنه في حاجة ليكون قادراً علي الإشارة إلي صندوق الاستقرار وقانون دعم الحرية لإظهار أن الغرب يؤيد الديمقراطيين في روسيا بالفعل. وفيما بعد قد لا يبقي أمامنا سوي يومين الأربعاء الأول من نيسان إبريل والخميس الثاني من نيسان إبريل لإعلان المبادرة (وكقاعدة عامة فإننا لا نقدم علي إصدار مثل هذا الإعلان الرئيسي يوم جمعة أو سبت أو أحد، وهي تقع بين الثالث حتي الخامس من نيسان إبريل).

ومع توصل نواب وزراء مالية مجموعة السبع إلي اتفاق متعدد الأطراف في باريس في ٢٧ آذار مارس وموافقة صندوق النقد الدولي رسمياً علي برنامج الإصلاح الروسي في ٣١ آذار مارس فقد تمهد الطريق أمام إعلان مزدوج في الأول من نيسان إبريل بواسطة

الرئيس بوش فى واشنطن وهيلموت كول فى بون. لأن الألمان يستضيفون قمة مجموعة السبع فى ذلك العام. وتضم الصفقة متعددة الأطراف تقديم قروض قيمتها ١٨ مليار دولار من القروض ومتأخرات الديون ومساعدات مالية أخري من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. إضافة إلي ستة مليارات دولار لصندوق الاستقرار لدعم الروبل. وبلغت حصة الولايات المتحدة نحو عشرين فى المائة. فضلاً عن ذلك أعلن الرئيس أن قانون دعم الحرية الذى لم يقر تقديم معظم مساهمتنا فى الجهد متعدد الأطراف فقط بل أصبح يشكل أساساً لحشد التأييد الأمريكى لروسيا والدول السوفيتية السابقة حديثة العهد بالاستقلال. وتضمنت بنوده القاطعة علي وجه التحديد إلغاء تشريع الحرب الباردة الذى أعاق «تشجيع القطاع الخاص الأمريكى علي تطوير علاقاته مع روسيا وتعزيز مساعداتنا الفنية وتبادل البرامج». لكن أهمية كل ذلك لا تقارن بأهمية أن القانون كان بؤرة جهودنا خلال عام الانتخابات الذى انتقد خلاله البعض الرئيس لإفراطه فى الاهتمام بالسياسة الخارجية. وفى ذلك الحين قلت: إن قانون دعم الحرية هو دفاع بوسائل أخري. لأنه بمساعدة إقامة الديمقراطية والسوق الحر فإننا نخلق مؤسسات تعمل علي إقرار سلام دائم، ولازلت أعتقد أنه حتي لو لم يسعنا إعادة تشكيل المجتمعات الأخري وفقاً لتصورنا لديمقراطيات مثالية فكلما ساهمنا فى أن تصبح أكثر ديمقراطية كلما كان ذلك أفضل.

وبالطبع كان إعلان الأول من نيسان إبريل مجرد البداية لحملة طويلة لكسب التأييد للقانون شملت خطابات مهمة ألقاها الرئيس وأنا أيضاً وجهوداً جبارة لحشد التأييد من جانب بوب شتراوس الذى ضمن تدخله لدي الديمقراطيين فى الكونجرس إقرار القانون فى الصيف.

من أربع دول نووية لواحدة: بروتوكول ستارت

وعلي الجانب الأمنى من المعادلة لمضيت معظم أيام ربيع عام ١٩٩٢ فى التعامل مع قضيتين نوويتين مختلفتين شديدتي التشابك، وكانت معاهدة ستارت التى وقعها الرئيس مع ميخائيل جورباتشوف فى تموز يوليو١٩٩١ اتفاقية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى،

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي ورثته روسيا من الناحية القانونية. لكن من الناحية العملية استمر وجود الأسلحة النووية الاستراتيجية علي أراضي ثلاث جمهوريات أخري هي أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروس. ولنا مصلحة حيوية في ضمان ظهور قوة نووية واحدة فقط من بين انقاض الاتحاد السوفيتي المنهار، وقد بدأنا هذه الدورة مع قوة نووية واحدة حول هذا المجال الاستراتيجي، ولا نرغب في رؤية انتشار نووي في ثلاث دول عندما ينقشع غبار انهيار الاتحاد السوفيتي. فضلاً عن ذلك وبرغم وجود الكومنولث كانت هناك خلافات سياسية حقيقية بين روسيا وأوكرانيا وقازاقستان، ولم نكن نريد بالفعل أن ينتهي الحال بدول تثور مثل هذه الخلافات بينها إلي أزمات نووية مستعصية وفيما بينها.

وفضلاً عن ذلك كان الرئيس ملتزماً بالتوصل لما يتجاوز اتفاقية ستارت، والعمل علي إجراء جولة أخري من الخفض المنسق للقوات النووية. واستكمل الرئيس مبادرة السابع والعشرين من أيلول سبتمبر ١٩٩١ حول الأسلحة التكتيكية باقتراح حول الأسلحة النووية كشف عنه في خطاب حالة الاتحاد في ٢٨ كانون الثاني يناير١٩٩٢ وأعلن أن الولايات المتحدة سوف تتخذ عدة خطوات من جانب واحد (مثل وقف انتاج ونشر صاروخ ميدجيتمان، وتحويل جزء مهم من قوة القاذفات إلي أدوار تقليدية) لكن الجانب الأهم في خطابه تعلق بمستويات القوات وبينما تقضي معاهدة ستارت بخفض الرؤوس النووية الأمريكية من ١٣ ألف رأس إلي ٩٣٠٠ رأس نووي. فقد اقترح الرئيس في خطاب حالة الاتحاد إبرام معاهدة ستارت٢ لخفض الرؤوس الحربية إلي نحو ٤٧٠٠ رأس بانخفاض بنسبة خمسين في المائة من مستويات ستارت (أو ما يعادل المستويات التي كانت تمتلكها الولايات قبل التوقيع علي أول اتفاقية للحد من الأسلحة.) وسيتم خفض قوات دول الاتحاد السوفيتي السابق بمستويات متساوية. والأهم هو أن الرئيس أحيا مبادرته بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه. والتي أثرتها مع شيفرنادزة في ويندهوك ناميبيا ربيع عام ١٩٩٠ وإذ حظيت مبادرة الرئيس بالقبول فسوف يتم إزالة تلك الصواريخ مما يؤدي إلي إحداث توازن نووي أكثر استقراراً.

وفي ذات الوقت تقريباً كان الرئيس يلتسين يطرح مبادرته الخاصة للحد من التسلح التي تضمنت سلسلة من خطوات من جانب واحد. (وكبادرة بسيطة عن بدء الحقبة الجديدة

التي دشناها استعرض الرئيسان مقترحاتهما مع بعضهما سلفاً، ولو أننا في الحقبة السوفيتية لكان من شبه المؤكد أن تعلن المبادرتان علناً أولا) وعرض يلتسين إجراء خفض أكبر يصل إلي مستوي يتراوح ما بين ألفين إلي ألفين وخمسمائة رأس. وقال إن الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه هي أسس البلاء من وجهة نظر التهديد الذي تمثله علي الاستقرار، كما أوضح في رسالة للرئيس بوش في ٢٧كانون الثاني يناير ١٩٩٢ . وتمكن من تحديد تلك المستويات باقتراح بإزالة كافة للصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه، سواء العابرة للقارات المنصوبة براً، أو الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر. ولسوء الحظ ولأننا نعتمد علي الصواريخ الأخيرة فمن شأن اقتراح يلتسين التأثير بإحداث تغيير جوهري في هيكل القوة الأمريكية، ويحرمنا من مجموعة الاستقرار وهي القاذفات والصواريخ الباليستية العابرة للقارات والصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر وهي المجموعة التي ظلت تشكل عماد الردع النووي الأمريكي لعقود.

وبينما أناقش سبل التقريب بين الإقتراحين في زيارتيّ لموسكو في كانون الثاني يناير وشباط فبراير غمرني إحساس بأننا لن نحرز أي تقدم مهم حول معاهدة ستارت ٢ حتي نستطيع أولاً تسوية مشكلة الانتشار النووي مع أوكرانيا وقازاقستان وبيلاروس.



وفي الوقت الذي وقع فيه أعضاء الكومنولث اتفاقاً حول القوات الاستراتيجية في ٣٠ كانون الأول ديسمبر١٩٩١ فقد اتضح الآن في شهر آذار مارس أن الخلاف السياسي بين روسيا وأوكرانيا وقازاقستان سرعان ما يجعل الاتفاق بلا قيمة. فالخلاف يثور بين روسيا وأوكرانيا علي اقتسام أسطول البحر الأسود. فقد طلب الرئيس كرافتشوك يمين الولاء من كافة العسكريين المتمركزين في أوكرانيا، وما لبث في ١٢ آذار مارس أن أوقف نقل الأسلحة النووية التكتيكية من أوكرانيا إلي روسيا.

وفي ١٨ آذار مارس قبل يومين من انعقاد قمة الكومنولث عقدت أول اجتماع مع السفير الروسي الجديد فلاديمير لوكين. وأبلغني أن نواب وزراء الخارجية من أربع دول اجتمعوا وتوصلوا إلي اتفاق يسمح لنا بتنفيذ بنود اتفاق ستارت «رغم أنه لا يمكنك أن تعرف ما يدور بخلد أشقائنا الأوكرانيين». وعن معاهدة ستارت ٢ قال لي: «إن هناك حاجة لإيجاد طريقة لتفادي الآثار السلبية هنا في روسيا، ولا يمكن ليفتسين أن يعطي الانطباع بأنه يدمر كل شيء».

لكن ما تم الاتفاق عليه علي مستوى نواب الوزراء لم يجد طريقه بوضوح إلي رؤساء الدول. فقد انفضت قمة الكومنولث في قسوة حتي دون أن يتطرق القادة إلي بحث القضايا النووية. واتضح لي أنه سيتحتم علينا تسوية المشكلة للأربعة أو المغامرة بفقدان معاهدة ستارت، وبدأت المجموعة اللاإسمية وهي أرفع جهاز للحد من التسلح من أهم الوكالات الحكومية أدني من المستوي الرئيسي في إعداد الخيارات* . وكان أكثر الحلول عبقرية هو حمل الدول الأربع علي التوقيع علي بروتوكول معاهدة ستارت الذي ينتج الأثر القانوني باعتبار روسيا وريثاً للاتحاد السوفيتي. في حين تصبح أوكرانيا وكازاخستان وبيلاروس دولاً غير نووية موقعة علي معاهدة منع الانتشار النووي.

وفي ٧ نيسان إبريل اتصلت بكوزيريف وأثرت الفكرة معه. وبدأت بالقول: «من وجهة نظرنا فإن الجوهر أهم بكثير من المظهر، إن الفرصة ضئيلة أمامنا للتصديق علي معاهدة ستارت في الكونجرس، وإذا لم تتوصل الدول الأربع السوفيتية السابقة إلي حل فيما بينها، فيسرني دعوتكم إلي القدوم إلي واشنطن لتسوية تلك القضية».

ورد كوزيريف: «لست واثقاً من أن هذا سيكون ضرورياً. فقد تحدثت مع اناتولي زلنيكو وزير الخارجية الأوكراني. وهو يريد الآن تسوية القضية، وسوف يأتي غداً إلي موسكو.

لكن بعد أسبوع ما لبث كوزيريف أن اتصل بي وقال بجلاء: «ليس لدي أنباء طيبة. فلازلنا متجمدين في المياه حيث لم يسفر اجتماع الحادي عشر من نيسان إبريل بين

* ضمت المجموعة التي سميت بالمجموعة اللاإسمية، لأنه ليس من المفترض أن يعرف أحد شيئاً عن وجودها، ضمت ريجي بارثولوميو وجيم كولينز من وزارة الخارجية، ولزلي كالتر في البداية ثم جين جوردون من مجلس الأمن القومي لاحقاً، ودوج ماسولشين من المخابرات المركزية وفيس فيرسي من وزارة الطاقة، وستيف هادلي من الدفاع، ومن هيئة الأركان العامة المشتركة أولاً مساعد رئيس هيئة الأركان هوارد جريش، ثم جين شاليكاشفيلي، وأخيراً باري ماكافري.

كوزيريف وزلينكو ونظيريهما القازاقستاني والبيلاروسي عن التوصل إلي أي نتائج حول القضية. علاوة علي ذلك فقد تسيست تلك القضية الفنية بقدر أكبر. وفي زيارة مقررة سابقة لإظهار تأييدنا لأوكرانيا لمس دينيس روس وليد هوويت وبول فولفوفيتس وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية قلقاً متزايداً لدى الأوكرانيين تجاه الروس. واستمعوا إلي تصريحات من القيادة الأوكرانية علي شاكلة «إن الروس يرون أنفسهم هم المركز. فلازال الروس يحتفظون بعقلية الأمبراطورية». وكانت كييف متشبثة برموز الاستقلال، ومن ثم فإن أوكرانيا تريد أن تكون طرفاً في معاهدة ستارت.

وبدون تدخل أمريكي كنا في سبيلنا لاستمرار الجمود ولذا فقد أرسلت رسالة إلي كوزيريف، وتحدثنا في ١٦ نيسان إبريل. ووافق كوزيريف علي البروتوكول المقترح الذي تلتزم به الدول الثلاث بمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية كدول غير نووية، كما تلتزم أيضاً بإزالة كافة الأسلحة النووية من أراضيها في غضون سبعة أعوام. (الإطار الزمني المحدد في معاهدة ستارت).



واتصلت في وقت لاحق في ذلك اليوم بالرئيس كرافيتشوك لبحث البروتوكول المقترح الذي سيقوم جون جونديرسون القائم بالأعمال الأمريكي في كييف بتسليم صورة من مشروعه إلي الرئيس الأوكراني حتي يتمكن من دراسته. ووصف كرافيتشوك مبادرتي بأنها «واقعية للغاية، وقال: إنه سيعاود الاتصال بي في اليوم التالي وقد فعل. وقال: «إن مبادرتكم بناءة للغاية إنها تظهر أن الحكومة الأمريكية مستعدة لتضع في اعتبارها مواقف كافة الدول المعنية. إن أوكرانيا تؤيد شكل ومضمون البروتوكول. وليس لدى سوي القليل من التعليقات عليه لكن تلك التعليقات لا تمس المبادئ».

وبضمان موافقة دولة (أو هكذا تصورت) تحولت إلي بيلاروس وقازاقستان، وفي ١٩نيسان إبريل تحدثت هاتفياً إلي ستانيسلاف شوشكيفيتش رئيس بيلاروس الذي لم يبد أي

اعتراض على البروتوكول. ويبدو أن كارثة تشرنوبيل دفعت البيلاروسيين إلي معارضة متشددة لكل ما هو نووي.

وتحدثت في ذلك اليوم أيضاً مع الرئيس نزار باييف. وحاول نزار باييف في رسالة بعث بها قبيل بضعة أيام إلي الرئيس بوش ابتكار «طريق ثالث» فيما يتعلق بمعاهدة منع الانتشار النووي. وكان يريد أن تصبح قازاقستان قوة نووية «مؤقتة» من أجل أهداف معاهدة منع الانتشار النووي وربط الفترة التي سيستغرقها انضمام قازاقستان إلي معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كعضو غير نووي بضمانات أمنية من الدول النووية. لاسيما الولايات المتحدة. وأبلغته بأن الضمانات الأمنية عولجت في المفاوضات الأصلية لمعاهدة منع الانتشار النووي، وأن الولايات المتحدة قد أعلنت رسمياً عزمها عام ١٩٨٩ علي السعي لالتماس المساعدة من مجلس الأمن الدولي إذا تعرضت أي دولة غير نووية للتهديد من جانب دولة نووية. وقلت لنزارباييف إننا متمسكون بهذا الالتزام وسوف نؤكده في حالة قازاقستان.

وكان نزارباييف حذراء وشكرني، وأعرب عن أمله في استمرار «العلاقة الخاصة» لكنه قال بإيجاز إنه يشعر يقيناً بأنني أعترف بدور قازاقستان الجيوبوليتيكي الخاص. واختتم حديثه بحثي علي استخدام الدبلوماسية الأمريكية للتأثير علي القيادة الروسية، وقال: «إذا لم تكبح الشوفينية الروسية فقد تراق الدماء، وقد تندلع حرب أهلية، وقد تذهب كل الإصلاحات أدراج الرياح وقد تتورط قازاقستان».

وخلصت إلي أننا لن نحرز تقدماً يذكر مع القازاقستانيين أو الأوكرانيين مالم تلب احتياجاتهم السياسية، وحالفنا الحظ بسبب الاجتماعات المقررة بين كرافتشوك ثم نزارباييف مع الرئيس في واشنطن في آيار مايو.

وسيزور يلتسين واشنطن في حزيران يونيو لعقد قمة شاملة. وبالتأكيد سوف يساهم الرمز السياسي للإستقبال في البيت الأبيض في تلبية حاجة الأوكرانيين النفسية للإعراب عن استقلالهم، ويحقق أيضاً رغبة نزارباييف في استعراض «العلاقة الخاصة» ولتلبية

الحاجتين، أعددنا مشروع «بيانين مشتركين» لكل من الأوكرانيين والقازاقستانيين للإعراب عن العلاقات الوثيقة التي تربطهما بأمريكا.

❑ ❑ ❑

واعتقدت بأنه إذا أمكننا حمل الأوكرانيين على التوقيع على بروتوكول ستارت فسوف يمنحنا هذا الميزة التي نحتاجها لحمل القازاقستانيين على الموافقة أيضاً. وبالحصول على التزام من أوكرانيا وبيلاروس وقازاقستان بالتحول إلى دول غير نووية نكون قد عالجنا بدورنا واحداً من أخطر التحديات الأمنية في المنطقة، وحققنا أهدافنا بخروج دولة نووية واحدة من بين انقاض الاتحاد السوفيتي المنهار. فضلاً عن هذا فسوف يتعزز موقف يلتسين والديمقراطيين داخلياً في مواجهة القوميين، وستحصل الإصلاحات الروسية على زخم جديد وتتعزز علاقات التعاون الأمريكية الروسية في القمة. ومن الواضح أيضاً أن روسيا لن تعمل على التوصل لمعاهدة ستارت ٢ حتى يتم تسوية هذا الجانب في معاهدة ستارت.

وترتيباً على ذلك قمت خلال الفترة من ٢٨ نيسان إبريل حتى ٤ أيار مايو بالتحدث ثماني مرات مع زلينكو ونحن نتباحث حول البروتوكول والخطابات التي سترفق به. وفي البداية كان لدى الأوكرانيين مجموعتين من المشاكل. الأولى تتعلق بالبرلمان الأوكراني (رادا) ولم يكن كرافتشوك راغباً في قطع التزام قانوني أو الموافقة على موعد محدد لإزالة الأسلحة النووية. لأنه يعتقد أن هذه القرارات من اختصاص الرادا«البرلمان الأوكراني»، والثانية أن أوكرانيا تريد ضمانات أمنية، وترغب في إتمام إزالة الأسلحة النووية في الاتحاد السوفيتي السابق تحت إشراف ورقابة دولية.

وفيما عكفت أنا وزيلينكو على إعداد مشروع بروتوكول والخطاب المرفق غمرني شعور قوى بالغموض حول ما إذا كانت أي قضية يفترض أننا سويناها قد انتهت بالفعل. وكان هناك بالقطع قدر من «اللعب» في الصياغات الأوكرانية، وكنت متخوفاً من أننا قد لا نختتم المفاوضات مطلقاً. فمى الأول من أيار مايو على سبيل المثال أضاف زلينكو عبارة «سلامة

أراضي، إلي خطاب الضمانات في إشارة واضحة إلي النزاع القائم حينذاك حول أسطول البحر الأسود وشبه جزيرة القرم. وقد أزلت هذا. لكننا لم نتوصل إلي اتفاق كامل بعد.

واضمان أنني لم أخسر الروس اتصلت بكوزيريف في الأول من آيار مايو ثم مرة ثانية في الثاني من آيار مايو. وأوضحت له أننا نعمل للتوصل إلي بروتوكول وخطابات مرفقة ملزمة وبسبب الحاجة إلي تصديق البرلمانات علي معاهدة منع الانتشار النووي فإن تمانع بيلاروس وكازاخستان وأوكرانيا في الموافقة علي الانضمام إلي معاهدة منع الانتشار «في أسرع وقت ممكن» بدلاً من النص علي موعد محدد. وكان كوزيريف يشعر بالقلق من الغموض الكامن في بعض صياغاتنا. لكنه يعتقد أن نهجنا سيؤتي ثماره إذا ما تم إقناع الجميع بالتوقيع. وأبلغته أنه برغم أنه من المقرر أن يكون كرافتشوك في واشنطن في غضون ثلاثة أيام فإنني غير واثق تماماً من الحصول علي موافقة أوكرانيا. وأشار كوزيريف إلي: «أن ممارسة ضغط إضافي علي الأوكرانيين قد يؤدي إلي التوقيع علي البروتوكول — رغم أن كييف تمارس لعبة نفسية بالغة الخطورة تطابق اللعبة السوفيتية تماماً». وذلك في إشارة واضحة إلي تاريخ كرافتشوك وزلينكو في الحزب الشيوعي.

وفي الرابع من آيار مايو اتصلت بزلينكو في محاولة للانتهاء من الخطاب المرفق، وتضمن نص مشروعه بنوداً عن الإشراف الدولي علي إزالة الأسلحة النووية، وهذا نهج لا نقبل به لأنه سيجعل المجتمع الدولي لأوكرانيا مسؤولاً عن إزالة أو تدمير الأسلحة النووية علي أراضي أوكرانيا. وعندما حاولت الإشارة إلي أننا قررنا بالفعل أن هذا النهج غير مجد أبلغني زلينكو «أن فكرة الإشراف الدولي من اقتراح الرئيس والرادا. فضلاً عن هذا فقد وقع الخطاب بالفعل. والرئيس غير موجود في مكتبه، ولن يتسني العثور عليه للتوقيع علي خطاب جديد قبل سفره إلي واشنطن. وعلي أية حال فسوف يزعجه إدخال أي تغيير». ورددت: «إن معاهدة ستارت لا تنص علي أي إشراف أو رقابة دولية. كما أن حكومة الولايات المتحدة غير مستعدة لقبول هذا الشرط من جانب أوكرانيا للوفاء بالتزاماتها» وقلت له لو اقتضت الحاجة يمكننا تعديل خطاب كرافتشوك بالفعل. لكن إذا لم يتسن التوصل لاتفاق قبل زيارة الرئيس الأوكراني حينئذ سيضطر الرئيس بوش إلي إثارة القضية معه مباشرة.

وواصلت القول: «أريدك أن تلمس مدي أسفي لعدم تسوية هذه المسألة حتي الآن» ثم قرأت عليه مقتطفات من افتتاحية منشورة في صحيفة نيويورك تايمز في ذلك اليوم بعنوان «ردة نووية في أوكرانيا» وطالبت الافتتاحية بضرورة تعليق المساعدة السياسية والاقتصادية لأوكرانيا حتي تقطع التزاماً بإزالة الأسلحة النووية. وقلت: «هذا ما حداني إلي العمل علي مدار الأسابيع الثلاثة الماضية حتي لا يتعكر صفو زيارة الرئيس كرافتشوك».

وأخيراً تلقي زلينكو الرسالة وقال إنه «شخصياً» لا يجد غضاضة في حذف العبارة موضع الخلاف. لكن عليه أن يحاول الاتصال بكرافتشوك. وبعد ساعة عاد للاتصال بي وهو أشد اهتياجاً بعض الشيء عن ذي قبل، وقال إنه لم يستطع التحدث إلي الرئيس. وقلت له يتعين علينا الآن أن نتحدث عندما يصلوا إلي واشنطن.

ولدي وصول كرافتشوك رافقته إلي بلير هاوس حيث سينزل خلال زيارته. وبدأت بالقول «السيد الرئيس إن هذه الزيارة زيارة مهمة لكلا البلدين. فلأول مرة يقوم رئيس أوكرانيا الديمقراطية المستقلة بزيارة الولايات المتحدة» وأمضيت في شرح إلي أي مدي نريد نجاح الزيارة لكن هذا يقتضي الانتهاء من البروتوكول وخطاب الضمانات. وقلت له «إننا نتفهم السبب الذي يدعوكم إلي التماس شكل ما من أشكال الرقابة علي الاسلحة بمجرد خروجها من أوكرانيا» لكن لا يمكننا قبول ذلك في ستارت، وكان يريد فحسب أن نضيف كلمتي «وضع أوكرانيا» إلي العبارة المزعجة وفعلنا. وانتهت الزيارة بنجاح تام لعلاقة بلدينا.

والأهم أنها عزلت نزارباييف الذي أدلي بحديث لصحيفة واشنطن بوست في الخامس من آيار مايو نفس يوم اجتماع بوش وكرافتشوك قال فيه أنه يسعي إلي الحصول علي ضمانات أمنية من روسيا والصين والولايات المتحدة قبل أن تسلم قازاقستان أسلحتها النووية. لكن مع موافقة الأوكرانيين يجب الآن علي نزارباييف أن يوافق، ولذا فقد غمرتني ثقة تامة وأنا أكتب له في ١٣ آيار مايو أحدد له الإطار العام لاقتراحنا حول ستارت، وتأكيدنا مجدداً لتعهدنا بشأن عدم الانتشار النووي لعام ١٩٨٩. ورد علي في ١٦ آيار مايو قبل يومين من الموعد المقرر لوصوله إلي واشنطن لمقابلة الرئيس بوش.

وأبلغنى أن قازاقستان تلقت ضماناً أمنياً جماعياً من روسيا، وبالإضافة إلي تعهدنا بشأن عدم الانتشار النووى لعام ١٩٨٩ فإنه يعتقد أنه حصل علي ضمان كاف للتوقيع علي بروتوكول ستارت والانضمام إلي معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية كدولة غير نووية. وأشرت إلي أننا فى حاجة إلي خطاب مرفق، وقال إنه سيرسل خطاباً عبر السفير بيل كورتني. وفى موسكو وهو فى طريقه إلي واشنطن «أثار مسألة تقديم أراض قازاقستانية من أجل الدفاع المشترك، وأن نشر الصواريخ سيتقرر إستناداً إلي المزايا المتبادلة، وذلك فى إشارة إلي أنه قد يحاول التوصل إلي اتفاق مع الروس للاحتفاظ بجانب من ترسانته النووية.

وبمجرد وصول الرئيس القازاقستاني إلي واشنطن بعد ظهر ١٨ آيار مايو أمضيت ساعة معه فى بلير هاوس، ثم تناولنا الإفطار لمدة ساعة في اليوم التالي في محاولة للانتهاء من الاتفاق الذى أكملناه في الوقت المناسب ليطلعه الرئيسان بوش ونزاربايف بعد ظهر الثلاثاء. واكتمل بروتوكول ستارت، وسوف يوقع عليه فى عطلة نهاية الأسبوع فى لشبونة حيث تجتمع كافة الدول المعنية للمشاركة فى مؤتمر مساعدة دول الاتحاد السوفيتى السابق، وتنفست الصعداء. فقد انتهت ثلاثة أشهر من المفاوضات أو هكذا ظننت.



ولسوء الحظ كانت المماحكات لاتزال قائمة حتي ونحن فى الطريق إلي لشبونة. وأثناء توقفى فى لندن اكتشفت أن الأوكرانيين يراوغون، ولذا فقد اتصلت بزلينكو من جناحى فى فندق تشرشل. ولم تكد تمضي دقيقة واحدة علي بدء المحادثة حتي اتضح أنه يتراجع فى أبسط القضايا التى تم تسويتها بالفعل. وأثار هذا التصرف حنقى: فليس هناك أسوأ فى المفاوضات من أن تتحاور مع من تبدأ فى الإحساس بفقدان الثقة فيه. وأخيراً كنت قد سمعت ما فيه الكفاية وأغلقت السماعة. وقلت وحديثي غير موجه لشخص بعينه: «هذا رجل كذاب. إنه ليس سوي شيوعى. لقد سئمت تلك القضية». وجاء دينيس روس – الذى كان يستمع إلي المكالمة كمسجل – إلي الغرفة تعلو وجهه ابتسامة عريضة وسألته: «علي ماذا تبتسم؟» وقال: «إن زلينكو لم يدرك أنك لست علي الخط، وظل يتحدث، وعندما لم يتلق أى إجابة تساءل:

السيد وزير الخارجية؟ السيد وزير الخارجية؟ أوه، لا لقد أغلق الخط. وفي لشبونة حدث الأسوأ. ففي الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر السبت ٢٣ آيار مايو – اليوم المقرر للتوقيع علي البروتوكول أحضرت زلينكو وكوزيريف إلي غرفتي ومع عدم وجود أي من العاملين أو أي مسجل طلبت منهما الجلوس وقلت: أيها السيدان، عليكما الانتهاء من هذا ولن أدعكما تغادران حتي تنتهيان منه، ولذا فعليكما إتمامه علي الوجه الأكمل. وبعد أن تبادلا تفرس بعضهما في قلق كما لو كانا ملاكمين مقدمين علي معركة فاصلة بدأ كوزيريف وزلينكو الحديث لتسوية خلافاتهما. وبعد أن غادر زلينكو قال كوزيريف: «إن هذا أسوأ من التعامل مع شيوعي بلغاري»*

وبصراحة لم أعبأ بهذا. فقد كنت أريد الانتهاء من البروتوكول. وأخيراً وفي الساعة الثامنة وعشر دقائق دخلت قاعة وينتر جاردن بفندق ريتس مع ممثلي بيلاروس وقازاقستان وروسيا وأوكرانيا. وفي مراسم متقشفة لم تلق فيها أي كلمة – فلم تكن نريد مباراة صياح. تم التوقيع علي البروتوكل وتبادل الخطابات، وبعد ست دقائق وصلنا إلي غايتنا: فن يكون هناك سوي قوة نووية واحدة وريثة للاتحاد السوفيتي السابق**.

زيارة لصديق

ومن لشبونة غادرت في رحلة لست ساعات إلي الاتحاد السوفيتي السابق ليس للتفاوض علي الأسلحة النووية. لكن لزيارة جورجيا تلك الجمهورية السوفيتية السابقة التي يرأسها الآن صديقي إدوارد شيفرنادزة. وكانت جورجيا هي الجمهورية السوفيتية السابقة الوحيدة التي لم أزرها منذ انقلاب آب أغسطس. وماجت هذه الجمهورية بالاضطراب علي مدار الأشهر

* في برقياتي إلي الرئيس تلك الليلة كتبت: «يمكن القول إن الجدل أعاد لي بعض الذكريات القوية لزياراتي الثماني إلي الشرق الأوسط وما استتبعته لتوجيه الدعوة لمؤتمر مدريد».

** ومع هذا تعين علي إدارة كلينتون التعامل مع بعض التلكؤ والتسويف من جانب أوكرانيا في تنفيذ ما وافقت عليه في البروتوكول.

الماضية بعد الإطاحة عن طريق العنف برئيسها الديمقراطي زفياد جمساخورديا في كانون الثاني يناير بعد عام من الحكم القمعي. ولا تزال العصابات المسلحة تمرح في شوارع تفليس ليلاً، ومع شبح الاضطرابات الماثل قررت الحكومة فرض حظر التجول من الساعة الحادية عشرة ليلاً*.

وعاد شيفرنادزة لتولي رئاسة جورجيا مؤقتا في الربيع، وبادر بأهمية شديدة بوصف مسقط رأسه بأنه «بلد صغير مثقل بمشاكل مهولة». وبرغم قطع (ثلاثة آلاف ميل، لإتمام زيارة لن تستغرق سوي أقل من أربع وعشرين ساعة فقد أردت الذهاب إلي جورجيا لأنني أحسست أن الزيارة ستمنح مجتمع جورجيا الهش دفعة قوية مهمة. كما نأمل أن تعطي شيفرنادزة وحلفاءه دفعة نفسية وهم مقدمون علي انتخابات عامة من المقرر أن تجرى في ١١ تشرين الأول أكتوبر.

ووصلنا إلي المطار ذلك اليوم لنجد شيفرنادزة بشعره الأشيب ينتظرنا علي مدرج المطار وبجانبه سيرجي تاراسينكو وتياموراز ستيبانوف أخلص مساعديه. وفي الوقت الذي كان مهموماً فيه بمحنة جورجيا كان يشعر بارتياح واضح وسرور بزيارتي له في بلده رداً علي زيارته لي في كانون الأول ديسمبر ١٩٩٠. ومن المطار توجهنا إلي بيت الضيافة الحكومي لتناول العشاء وعقد سلسلة اجتماعات. ويقع بيت الضيافة الخشبي الرحب علي قمة تل يطل علي مدينة تفليس، وشغله في السابق لافرينتي بيريا الرئيس الرهيب لمخابرات ستالين ملف الكي جي بي. ولم أصدق أنني سأنزل في بيت كان ينزل فيه بيريا أحد أسوأ أتباع ستالين سمعة وتمرساً علي القتل، وهو الذي اعتدت أن أقرأ عنه في المطبوعات الأمريكية.

واجتمعنا في غرفة جلوس دافئة ومريحة. وبدأت بسؤال شيفرنادزة: «دعنا نرى ما هي احتياجاتكم علي وجه التحديد وسوف نعمل بأقصي طاقتنا لنري ماذا يسعنا عمله. فلدينا عدة برامج وبعضها أيسر من الأخرى». وفي وقت سابق كنت قد طلبت من فريق العاملين معي

---

* كان حظر التجول فعالاً في حماية الأبرياء لا ردع المجرمين. وفي الواقع فقد كان بالإمكان سماع دوي إطلاق الرصاص أثناء الليل خارج مقر الضيافة حيث أقيم.

الاتصال بريتشارد أرميتاج في واشنطن لتحدد ماذا يمكن عمله لتقديم إمدادات غذائية وطبية جديدة علي الفور إلي جورجيا.

❑ ❑ ❑

وشكرني شيفرنادزة-علي عرضي، وقال إنه يشعر بالامتنان لتحركنا للاعتراف بجورجيا. وقال: «لقد كان الأمر بالغ الحرج والصعوبة بالنسبة لك بسبب الإطاحة بالرئيس الشرعي فلم يكن بالأمر السهل عليك، إنني أقر بذلك». وقال إن دولاً كبري أخري مثل روسيا لم تقدم علي اتخاذ مثل هذا الإجراء. وأفاض محدداً إطار التحدي الذي ينتظر إقامة الديمقراطية، ومضي قائلاً: «ليس هناك تقليد للديمقراطية في هذا البلد. فالناس هنا تعتقد أن أسلوب ستالين هو أفضل طريق لإدارة شؤون هذا البلد. ولكم حثني الكثير من الزملاء علي الاستحواذ علي كافة مقاليد السلطة. وبينما أبدو وكأنني أحوز علي ثقة الشعب فإنني أعتقد أنه يجب عليّ أن أتحرك لإجراء الانتخابات. فعلينا انتخاب برلمان طبيعي. وعلينا أن نعمل علي تسوية المشاكل الاقتصادية الهائلة التي نعاني منها. إن شعبنا شعب عظيم وحيوي. شعب يثير الاهتمام ويرغب في الشروع في الثقة بالديمقراطية».

وبينما هو مستمر في حديثه لم يكن يمضي سوي استعادة ذكري الاجتماعات التي عقدناها. وتذكرت شعوري عندما استمعت إلي رواية جورجية ثاقبة من زوجته نانولي علي عشاء في شقته في موسكو في آيار مايو١٩٨٩. ولكنني تذكرت علي وجه الخصوص قولاً لشيفرنادزة خلال اجتماعنا في ناميبيا قبل أكثر من عامين. وفي ذلك الحين كنت أمارس عليه ضغوطاً مكثفة بسبب القمع السوفيتي في البلطيق وأحاول إقناعه بأنه من الأفضل أن يدعها السوفيت تستقل. وجاءت إجابته في غاية البساطة قائلاً: «جيم. لو فعلنا ذلك فإلي أين سينتهي الأمر، كيف سنستطيع الدفاع لعدم ترك الآخرين يفعلون الشيء ذاته؟ فسوف يريد بعض الآخرين الحصول علي الاستقلال». وهذا ما حدث بالضبط، وها هو الآن قد عاد إلي مسقط رأسه محاولاً إقامة الديمقراطية.

وطمأنني شيفرنادزة أنه في أجواء الغرب الوحشية في تفليس فإن أمنه مصان ولا يعدو أن يكون «مسألة هامشية تتضاءل حقيقة بجانب ما تواجهه كبلد. ومع هذا فقد اعترف بأن الأمور «قد تتدهور قبل الانتخابات. فهؤلاء الناس يريدون أن ألوذ بمنطقهم السياسي الآن، وستقل الحاجة كلما اقتربنا من الانتخابات» وعن الانتخابات توقع شيفرنادزة قائلاً «سوف تجري، لكننا في حاجة إلي مزيد من الاستقرار هنا فإننا عشر إلي خمسين في المائة من الشعب لايزالون يريدون جمسا خورديا، وفي الجزء الغربي من البلاد لايزال يوجد الكثير من المتعصبين» .



وصباح اليوم التالي بدأنا اليوم بأن اصطحبني شيفرنادزة إلي ديرياتغ الروضة يعود إلي القرن الحادي عشر يقع وسط سلسلة جبال تحيط بتفليس. وعكس الدير ثراء التراث الديني لهذا البلد الصغير. ويضم الدير قبور حكام جورجيا أثناء الحقبة الملكية، وقلب تفليس واحد من الأماكن النادرة في القوقاز التي يسع المرء أن يجد فيها معالم تمثل كل الديانات الرئيسية تقريباً. فهاهو مسجد وهناك معبد يهودي وهناك كنائس أرثوذكسية أرمينية وجورجية، وداخل الدير أقام الرهبان حفلاً بديعاً، وأعطونا الشموع لإضاءتها.

ثم اجتمعت بمجلس الدولة الجورجي الذي يحكم جورجيا. حيث أكدت تأييدنا لمساعي جورجيا لإقامة نظام ديمقراطي وسوق حر. وكان وفدنا يضم اللفتنانت جنرال جون شاليكاشفيلي الذي تولي قيادة عملية «توفير الراحة» وهو ممثل الجنرال كولين باول في الزيارة، وكان والد شاليكاشفيلي قد فر من جورجيا هرباً من السوفيت عام ١٩٢١ وكان أجداده من علية القوم في جورجيا. وفي الوقت الذي أحيط فيه شاليكاشفيلي بأجواء احتفالية خلال الزيارة فقد تلقفته وسائل الإعلام منذ اللحظة التي وطئت أقدامنا فيه أرض جورجيا.

وخلال توجهنا إلي المطار لنخترق ركبنا مناطق وسط مدينة تفليس التي دمرت خلال الاضطرابات الأهلية في وقت سابق من العام. ويبدو مقر البرلمان كما لو كان يعود إلي أيام

الحرب العالمية الثانية، وفي نهاية الشارع المدمر يقع ميدان ضخم احتشد فيه الناس يحتفلون «باليوم الوطني» وهو يوم للاحتفال بمثل هذا اليوم من عام ١٩١٨ عندما أعلنت جورجيا استقلالها. وكان لهذا اليوم أهمية خاصة هذا العام. فقد شاركت فيه أعداد ضخمة شديدة المرح.

ولدي اقترابنا من الميدان أراد شيفرنادزة الخروج لتحية الجماهير وقد فعلنا، ولم يكن هذا التصرف التلقائي العفوي مصدر ارتياح الفريق الأمني. فقد أبلغنا في وقت سابق بأن بحوزة كل جورجي تقريباً قطعة سلاح ، وأن هذا الميدان يتحول في الليل إلي ساحة قتال. وقد ذهبت السعادة البادية علي الوجوه التي أراها بأي إحساس بالخطر ربما يكون قد انتابني. وخطبت أنا وشيفرنادزة في الحشد من منصة أقيمت بالميدان، وفي الواقع كان حماس وتقدير ألوف الجماهير خير تذكار لزيارتي لألبانيا قبل عام.

انفراج نووي: معاهدة ستارت٢

خلال مفاوضات التوصل لبروتوكول ستارت كنت علي اتصال مستمر مع أندريه كوزيريف واضعاً نصب عيني ليس فقط إنهاء بروتوكول ستارت بل أيضاً إحراز تقدم حول ستارت ٢ . وأحرزنا تقدماً في بعض القضايا البسيطة تاركين كل شيء علي حاله. لكن دون أن نسد فجوة الخلافات الرئيسية في مواقفنا.

وبالتوصل إلي بروتوكول ستارت، وحيث لم يبق علي موعد قمة يلستين والرئيس سوي أقل من شهر بدأ الموقف الروسي في التغير. وفي لشبونة طرح كوزيريف اقتراحا يدعو إلي إزالة الأسلحة علي مراحل. وفي المرحلة الأولي سيقوم الجانبان بخفض الرؤوس النووية من ٤٥٠٠رأس إلي ٤٧٠٠ رأس خلال فترة السنوات السبع المنصوص عليها في ستارت، وفي المرحلة الثانية سيقوم الجانبان بخفض الرؤوس إلي ٢٥٠٠ رأس بحلول عام ٢٠٠٥ وإزالة كافة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المزودة بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه.

وشكل هذا تحولاً مهماً تجاه مبادرة الرئيس التي طرحها في خطاب حالة الاتحاد. فقد كان إجمالي مستويات القوة في المرحلة الأولى هو نفسه الذي اقترحه بوش. كما شمل التزامه إزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات فقط لا الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر. كان الحد الذي اقترحه كوزيريف هو ٢٥٠٠ رأس، وهو يقل بكثير عما ترغب فيه وزارة الدفاع الأمريكية.

وأبلغت كوزيريف بأننا لا يسعنا قبول حد الـ ٢٥٠٠ رأس وإذا تضمن اقتراح الإزالة التدريجية هذا الحد فلن نقبله حينئذ. ومع ذلك فقد أشرت إلى أنه لو أمكن تسجيل التزام كتابي بإجراء مزيد من الخفض في المرحلة الثانية فسوف نوافق على اقتراح الإزالة التدريجية. وقال إنه يعتقد أنهم يمكنهم الموافقة على الإزالة التدريجية على هذا الأساس. وكان هذا حاسماً بالنسبة لنا. لأنه للوصول إلى حد الـ٤٧٠٠ رأس في المرحلة الأولى يتعين على الروس إزالة ثمانين في المائة من صواريخهم العابرة للقارات. وأحسست أننا نسير نحو التوصل لاتفاق. لكننا في حاجة إلى دراسة التفاصيل وضمان عدم وجود عراقيل بيروقراطية في واشنطن، ولذا فقد أبلغت كوزيريف بأنني سأتصل به مرة أخرى.



وفي يوم الثاني والثالث من حزيران يونيو اتصلت بكوزيريف للاستفاضة في استطلاع اقتراحه. لكن كان من الواضح أنه ليس أمامه مساحة للمناورة، واستفسرت عما إذا كانت رسالة من الرئيس بوش إلى الرئيس يلتسين ستكون مفيدة. وقال إن الوقت غير مناسب. ويوم الخميس الرابع من حزيران يونيو اجتمعت مع سكوكروفت وتشيني وباول لبحث الخطوات التالية، وقلت: إن «الإزالة ستكون نصراً سياسياً وموضوعياً معنوياً للرئيس هو في حاجة إليه» ومضيت إلى القول: «إنها قضيته. إنها ليست شكلاً قديماً للحد من التسلح من ناحية الجوهر. فلسنا في جنيف نتفاوض حول نص من أربعمائة صفحة. إننا نتطلع للتوصل إلى اتفاق بين الرئيسين سيحسم كافة القضايا الكبرى».

وحددت رأيي بشكل قاطع إنهم يعرضون علينا ما نريده. وما لم يجرؤ أحد آخر علي الإقدام عليه: أي الإزالة الكاملة للصواريخ الباليستية العابرة للقارات مع عدم إزالة الصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر، فلا يمكن أن ندع هذا يفلت من بين أصابعنا لمجرد أننا نريد رقماً إجمالياً أعلي. فهذا أمرلا يتحمله الرأي العام أو الكونجرس.

واتفقنا علي دعوة كوزيريف لزيارة واشنطن ليقرر ما إذا كانت هناك أي مرونة في موقفه. وأمضيت معظم يوم الثامن من حزيران يونيو وصباح الثلاثاء أقلب مختلف الجوانب التي قد نعدل وفقاً لها مقترحاتنا للتوصل إلي اتفاق. وسرعان ما اتفقنا علي حد ٤٧٠٠رأس، لكن لم يسعنا الاتفاق علي الحدود الفرعية الخاصة بالصواريخ الباليستية العابرة للقارات والصواريخ الباليستية التي تطلق من البحر والقاذفات تحت سقف الـ٤٧٠٠ رأس الإجمالية وكانت إطاراتنا الزمنية لتدمير الأسلحة النووية مختلفة أيضاً.

وأبلغت كوزريف باستعدادي للتوجه إلي موسكو لإزالة أي اختلافات ورد: «لن يجدي هذا. أننا نتلقي معونة قدرها ٢٤مليار دولار ثم يأتي وزير خارجية الولايات المتحدة إلي موسكو ليحصل علي ما يريده وأبلغني كوزيريف أيضاً أن مساحة المناورة محدودة أمام الإصلاحيين» وقال: «إننا في حاجة لإيلاء اهتمام بمجلس الأمن القومي الروسي. وأشار قائلا: «لقد هزمت في التصويت لسبع مرات مقابل اثنين حول العديد من القضايا. إن لدينا بعض المفكرين المتشددين الذين يقولون للغربيين أشياء معتدلة. لكنهم متشددون في دوائرهم الخاصة».



وبعد المزيد من المباحثات بين الوكالات الحكومية وضجة سياسية من يلتسين الذي قال أمام اجتماع لكبار ضباط الجيش إن الولايات المتحدة تسعي للحصول علي امتيازات من جانب واحد، توجهت إلي لندن الخميس الحادي عشر من حزيران يونيو لعقد جولة مباحثات أخري مع وزير الخارجيـة الروسي. وأثناء الرحلة إلي لندن استقللت الطائرة رقم ٢٧٠٠٠

(وهذا هو الرقم المكتوب علي ذيل الطائرة وهو الطريقة التى كنا نتعرف بها علي طائرة سلاح الجو التى نستقلها). وتذكرت المرة الأولي التى استقللت فيها تلك الطائرة – برفقة جيرالد فورد عام ١٩٧٦ عندما كانت الطائرة رقم واحد، ولمست مدي تغير العالم منذ ذلك الحين.

وفي لندن أبلغنى كوزيريف أن يلتسين اتصل به فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليلة الماضية واستفسر متسائلاً: «هل تعتقد أن الأمريكين سوف يقبلون أحدث مبادراتنا؟» وأبلغه كوزيريف أننا قد لا نقبلها علي الأرجح. وما لبث أن أمر كوزيريف بلقائه فى الكريملين فى الساعة التاسعة صباحاً. ولدي وصول كوزيريف كان كافة كبار مستشارى يلتسين للأمن القومى بمن فيهم العسكريون موجودين. وأمره يلتسين «عليك أن تشرح لنا لماذا لن تقبل الولايات المتحدة اقتراحنا، ولماذا لن تنفق أموال لتنفيذ ما ورد في الاقتراح الأمريكى». وأفاض كوزيريف فى الشرح وأضطر الجنرالات إلي الموافقة فذلك لن يتطلب الكثير وقد منح يلتسين وزير خارجيته مساحة أرحب للمناورة في المفاوضات.

وإلي لندن جاء كوزيريف أكثر مرونة، وتمكنا من تضييق هوة الخلافات بقدر أكبر. وبعد تحديد الإطار العام لما وصلت إليه المواقف سألت خبراء «مجموعتنا اللاإسمية صراحة» ما هي الأسئلة التى أنتم فى حاجة للإجابة عليها؟ ولم يكن بوسعهم سوي طرح ثلاثة أسئلة محددة لأطرحها علي كوزيريف ويعطي الإحساس بظهور حل وسط. لكننا لم نتوصل إليه بعد.

ويوم الإثنين الخامس عشر من حزيران يونيو وصل يلتسين وكوزيريف وبقية الوفد الروسى إلي واشنطن وتوجه كوزيريف مباشرة إلي وزارة الخارجية لمواصلة مباحثاتنا، ومن الساعة السابعة مساءً تقريباً حتي الساعة الحادية عشرة والنصف ظللت أتفاوض إما مع الروس أو عناصر فى حكومتنا. ولبرهة بدت وزارة الدفاع الأمريكية وكأنها العقبة الأكبر لا موسكو. ومع هذا فقد تمكنا من تسوية قضيتين فنيتين هما قواعد حصر القاذفات، وحدود خفض حمولة الصواريخ من الرؤوس الحربية (علي سبيل المثال تحويل الصاروخ من صاروخ مزود بمركبة الرجعة المتعددة مستقلة التوجيه إلي صاروخ باليستى عابر للقارات برأس واحدة).

واجتمعت فى اليوم التالى مع مسئولى الحد من التسلح الأمريكيين فى الساعة الثامنة والثلث صباحا، ثم اجتمعت مع كوزيريف لنحو خمس وأربعين دقيقة، وبدأت أفقد صبرى مع جانبنا الأمريكى. فقد ذهب الروس لآخر الشوط بينما منظرو الحد من التسلح فى وزارة الدفاع يفضلون على ما يبدو عدم التوصل لاتفاق سوى اتفاق يمنحنا (فقط) تسعين فى المائة مما نريده. وتوجهت إلي البيت الأبيض للمشاركة فى حفل الاستقبال الرسمى ثم انضممت إلي الرئيس فى أول جولة مباحثات ثنائية مع يلتسين.



ومثلما حدث فى كامب ديفيد كان يلتسين فى أوجه. وقال إن الجانب الروسى يريد التوصل إلي معاهدة ستارت ٢ وعرض اقتراحاً فريداً. وبدلاً من الاتفاق على سقف من «رقم محدد» فلماذا لا نتفق على «نطاق». واقترح أن يقوم كل جانب فى المرحلة الأولي بخفض ما لديه من رؤوس نووية لإجمالى يتراوح بين ٣٨٠٠ إلي ٤٢٥٠ على أن يتحقق النطاق فى المرحلة الثانية لما بين ٣٠٠٠ إلي ٣٥٠٠. كانت مميزات الاقتراح شديدة الوضوح على الفور. فسوف تسمح للروس بالوصول إلي الحدود الأدنى التى يريدونها لأسباب اقتصادية. وسوف تسمح لنا الاحتفاظ بعدد أكبر نسبياً (يتناسب مع هياكل القوة لدينا). وفى المقام الأول فقد إعترف إقتراح يلتسين أنه فى عالم الأسلحة النووية فإن ميزة امتلاك بضع مئات رءوس نووية إضافية عندما يمتلك الجانبان أكثر من ثلاثة آلاف رأس نووية، ليست بالغة الأهمية على الاطلاق. وأبلغ الرئيس بوش نظيره يلتسين «بأننا سوف ندرس اقتراحه».

وعدت إلي وزارة الخارجية وقبيل الصعود لحضور غداء عمل تكريما للرئيس يلتسين اتصلت بالرئيس وقلت: آمل أن تقبلوا اقتراح يلتسين فسوف يكون هذا إنجازاً باهراً لرئاستكم. لكن عليكم إبلاغ منظرى الحد من التسلح أنكم ترغبون فى حدوثه. فقد بذلت كل ما أستطيعه فى هذا الصدد

ورد الرئيس «أنى أسمعك».

وبعد ظهر ذلك اليوم عاودنا الاجتماع في غرفة الوزارة لعقد جولة ثانية. وأبلغ الرئيس بوش يلتسين أننا مستعدون للقبول باقتراحه، وقرر الرئيسان الإدلاء بالإعلان في الساعة الثالثة بعد الظهر. وأعلن الرئيس بوش: «إنه بهذا الاتفاق فإن الكابوس النووي يتلاشي بالنسبة لنا ولأبنائنا وأطفالنا».

وبموجب الاتفاق النهائي سيقوم الجانبان بخفض إجمالي مالديهما من الرؤوس الحربية بما يتراوح بين ٣٨٠٠ إلي ٤٢٥٠ رأس بحلول عام ٢٠٠٠ وبما يتراوح بين ٣٠٠٠ إلي ٣٥٠٠ رأس نووية بحلول عام ٢٠٠٣. ومن شأن المعاهدة خفض عدد الأسلحة الاستراتيجية لدي الجانبين إلي أدني مستوي منذ عام ١٩٦٩ والأهم أنه سيعكس جذرياً اتجاه الحد من التسلح بإزالة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات المنصوبة براً. فتلك الأسلحة التي تتطلب من كل جانب تبني عقيدة «استخدمها أو أفقدها» سوف تختفي تماماً مثلما اختفت الحرب الباردة والإمبراطورية السوفيتية والاتحاد السوفيتي.



وبعد أربعة أسابيع توجهت مع الرئيس إلي مزرعتي في بيندالي لإمضاء يومين في التمتع بالصيد مع نجلينا جيمس بيكر وجورج بوش. ولم تكن حملة إعادة انتخابه تسير علي ما يرام كالمألوف، وهناك طلب مني الرئيس العودة إلي البيت الأبيض رئيسا لهيئة موظفيه وكبيرا لمستشاريه. ولم يسعني عمل شيء سوي التفكير في أوقات وطلبات أخري: في عام ١٩٧٦ عندما طلب مني الرئيس فورد الاستقالة من موقعي كوكيل لوزارة التجارة والمساعدة في حملته الانتخابية، وفي عام١٩٨٤ عندما عينني الرئيس ريجان رئيساً لهيئة موظفي البيت الأبيض لتنسيق حملة إعادة انتخابه، وفي عام ١٩٨٨ عندما طلب مني نائب الرئيس بوش الاستقالة من منصبي كوزير للخزانة لإدارة حملته الانتخابية.

ولم أكن أريد ترك الخارجية فقد أنجزنا الكثير. لكن لا يزال الكثير الذي يجب إنجازه. لكنني لم أقل لا من قبل ولن أقولها هذه المرة.

وهكذا سارت الأحداث. ففي الثالث عشر من آب أغسطس ١٩٩٢ صعدت إلي منصة قاعة دين أتشيسون بوزارة الخارجية لأعلن أنني سأستقيل من الخارجية بعد عشرة أيام. وفيما بدأت إعلاني متطلعاً إلي الوجوه المألوفة لديّ قلت أمام حشد الموظفين وموظفي السلك الدبلوماسي وموظفي الخدمة المدنية المعينين السياسيين: «لقد أردت التحدث إليكم هنا في الخارجية لأننا اجتزنا خلال السنوات الثلاث والنصف الماضية عاصفة تاريخية. لقد ضبطنا الإيقاع ونشأنا نهجنا خلال حقبة تغير ثوري. وسطرنا التاريخ في هذه العملية. إنني أوجه الشكر لكم علي ذلك».

ولختتمت حديثي محاولاً الاحتفاظ برباطة جأشي دون جدوي بالقول: «لي الشرف أني خدمت معكم انني أشكركم وأحبيكم».

وفيما أتأمل فترة عملي كوزير للخارجية استوقفني حسن الحظ لشغلي هذا المنصب خلال فترة ثورة وحرب وسلام. ثورة الحرية التي أطاحت بالشيوعية وحرب تحرير صدت عدوانه، وتقدم باتجاه سلام أرسي منطق العقل في منطقة مشحونة بالعداوة والصراع. ويتجلي حسن الحظ بوضوح عندما أتأمل العالم الذي تعين أن يخوض أسلافي في لججه. فمن عام ١٩٤٥ حتي عام ١٩٨٩ أدار أحد عشر وزيراً الخارجية سياسة أمريكا عبر خريطة سياسية شكلتها الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. وعلي مدي ثلاث سنوات ونصف أعيد رسم تلك الحدود والحواجز بشكل دائم. وفي الواقع فقد تغيرت طبيعة النظام الدولي كما كنا نعرفه.

وفي هذا التحول، يمكن بل ويجب أن يعزي أقل الفضل إلي الدبلوماسيين. فالمسؤولية الحقيقية عن حدوث هذه التحولات في العالم الذي نعيشه تعود إلي الرجال والنساء العاديين الذين بحثوا عن الحرية، وناضلوا ضد ظلام الشمولية، وهبوا لانتزاع الحرية لأنفسهم. وربما كان الأمر قد احتاج وثبة إيمانية. لكن الإيمان كان هو الشيء الوحيد الذي امتلكه هؤلاء الناس بوفرة. فمن ألما آتا حتي فيلنيوس، ومن ألبانيا حتي منغوليا رسمت الجماهير مصيرها بأيديها. وأظهرت إلي الأبد أن الحرية تؤتي ثمارها.

وبالنسبة للبعض فإن تفحص الماضى الآن بعد فترة من الزمان، فهناك حنين مؤكد للحرب الباردة . ففي ضوء إستعصاء بعض الصراعات الإقليمية فى عالم اليوم فإن بعض المتشائلين يريدون جلاء المواجهة بين الشرق والغرب . وفى الوقت الذى أوافق فيه على أن العالم محفوف بالخطر وحقيقة أن القيادة الأمريكية عظيمة كعهدها . فإننى يقيناً لا أنظر إلى الوراء لسبب واحد بسيط: هو أن العالم الآن أكثر حرية وأمناً عما خبرته فى أى فترة من فترات حياتي، وهذا هو ما أشعر بالامتنان له.

المحتويات

الصفحـــة

الموضـــــــــوع

الفصل الأول :

يوم وضعت الحرب الباردة أوزارها ٥

الفصل الثانى :

عقود ثلاثة من المسابقة ٢٩

الفصل الثالث :

العالم عشية الثورة ٥٧

الفصل الرابع :

وضع سياسة غير حزبية جديدة : فتح خُرّاجُ أمريكا الوسطى ... ٧١

الفصل الخامس :

الاتحاد السوفيتى : جورباتشوف ، شيفرنادزة و « التفكير

الجديد » ٩١

الفصل السادس :

أوروبا كاملة وحرة ١٢٣

الفصل السابع :

الصين : خطوة كبيرة إلى الوراء ١٤٣

الفصل الثامن :

الشرق الأوسط الخوض فى المستنقع ١٦٩

الفصل التاسع :

روح جاكسون هول ١٩٥

الموضــــــــــــوع	الصفحة

الفصل العاشر :

سـقـوط السـور ٢٢٣

الفصل الحادى عشر :

بنما : ولت أيام الديكتاتور ٢٥٧

الفصل الثانى عشر :

حسابات الوحدة ٢٨٣

الفصل الثالث عشر :

أفريقيا : نهاية العزل العنصرى ٣١٥

الفصل الرابع عشر :

ربيع القـلاقل ٣٣٣

الفصل الخامس عشر :

إرهاصة الغزو ٣٧٧

الفصل السادس عشر :

بناء التحالف ٤٠١

الفصل السابع عشر :

كل الوسائل اللازمة ٤٣٧

الفصل الثامن عشر :

تحقيق إجماع فى الوطن ٤٨١

الفصل التاسع عشر :

آخر أفضل فرصة للسلام ٥٠٥

الفصل العشرون :

الدرع يصبح سيفاً ٥٣٥

الموضـــــــــــوع | الصفحة

الفصل الحادى والعشرون :

عبـور الحـافـة ٥٥٩

الفصل الثانى والعشرون :

مناورة جورباتشوف ٥٧٩

الفصل الثالث والعشرون :

رؤية للشرق الأوسط ما بعد الحرب ٦٠١

الفصل الرابع والعشرون :

صدام يبقى فى السلطة ٦٢٧

الفصل الخامس والعشرون :

مقدمة لمؤتمر الشرق الأوسط إلقاء التبعة على الآخرين ٦٤٥

الفصل السادس والعشرون :

من برلين إلى البلقان ٦٨٥

الفصل السابع والعشرون :

الفراجة على طريق السلام ٧٠٩

الفصل الثامن والعشرون :

الإمبراطورية تتداعى ٧٤٧

الفصل التاسع والعشرون :

المستوطنات وضمانات القروض وسياسة السلام ٧٨٥

الفصل الثلاثون :

إلى حيث ألقت مشيماً بالدموع بدون الشجار ٨١١

الفصل الحادى والثلاثون :

دخول الحقبة الجديدة ٨٥١

الموضــــــــــوع الصفحة

الفصل الثاني والثلاثون :

دعم الحرية في الدول حديثة الاستقلال ٨٨٩

الفصل الثالث والثلاثون :

الكابوس الإنساني في البوسنة ٩١٩

الفصل الرابع والثلاثون :

من الحرب الباردة إلى السلام الديمقراطي ٩٤٥



7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043


sharif mahmoud